دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطَّبْعَةُ الكَامِلَةُ المُوثَّقَةُ
حُقِّقَتْ عَلَى سَبْعِ نُسَخٍ خَطِّيَّةٍ

التبصرة

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
٥١٠-٥٩٧هـ

تحقيق
أ. د. مُصْطَفَى عَبْد الوَاحِد
الأستاذ بجامعة أم القرى
ومدير مركز إحياء التراث الإسلامي سابقًا
وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الطبعة الكاملة الموثقة
حققت على سبع نسخ خطية

التبصرة

الجزء الأول

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
٥١٠ - ٥٩٧هـ

تحقيق
أ. د. مصطفى عبد الواحد
الأستاذ بجامعة أم القرى
ومدير مركز إحياء التراث الإسلامي سابقًا
وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج ، ١١١٤ - ١٢٠١ .
التبصرة / للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد . - ط ٢ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢م .
١٢٤٠ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٦ ٠٠٤ ٢١٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - قصص القرآن .
٢ - الوعظ والإرشاد .
أ - عبد الواحد ، مصطفى (محقق) .
ب - العنوان .
٢٢٩,٥

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيَة

للّٰه الحمد في الآخرة والأولى، وصلاته وسلامه على نبيّه المجتبى وعلى آله وصحبه، **وبعد:**

فها هي الطبعة الثانية لكتاب التبصرة لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، في الدعوة والرقائق.. تأتي بعد أكثر من أربعين عامًا من الطبعة الأولى التي صدرت في القاهرة عام (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م).

* وقد شغلتني الشواغل المتلاحقة عن إتمام هذا الكتاب.. ولم يصبر الناشر على استكماله، فوقف به بعد عشرين ملزمة من الجزء الثاني، وصدر الجزء الثاني ناقصًا.. بل انتهى في وسط حديث الشفاعة الذي لم يتم.. ومع هذا كتب في آخر هذا الجزء: « وإلى هنا ينتهي كتاب التبصرة لابن الجوزي والحمد للّٰه على نعمته »!

* وبعد حين من الزمان تنبّه سُرَّاق الكتب التراثية إليه، فصوَّره بعضهم.. وتجرأ آخرون على وضع اسم « محقق » أو « لجنة من العلماء » وهو بنصِّه وفَصِّه كتابي لم يضف إليه شيء.. واعترف بعضهم بأنه طبع هذا الكتاب على نسختي التي اعتمدت فيها على أربع نسخ خطية.

وقد بقي هذا الكتاب مخطوطًا عندي وبقي منه مقدار الثلث لم ينشر.. وكنت أمنِّي النفسَ بفراغ يتيح لي إخراجَ هذا الكتاب كاملًا غير منقوص.. حتى أعانني اللّٰه سبحانه على إتمام تحقيقه منذ بضع سنوات مستعينًا بنسخ خطِّية جديدة تيسَّر لي الاطلاع عليها بمركز إحياء التراث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، **وهي:**

١ - نسخة مكتبة « شيستر بيتي » بإيرلاندا رقم (٦١) ونسخة أخرى بذات المكتبة رقم (٦٢) ورمزها « ش ».

٢ - نسخة مكتبة أوقاف بغداد رقم (٥٨) ورمزها « ق ».

٣ - نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق رقم (٦) ورقم (٢٤٤) ورمزها « ظ ».

إضافة إلى النسخ الخطية الأربعة المثْبتة في مقدمة الطبعة الأولى..

هذا.. ولم يزعم أحد ممن قاموا بنشر هذا الكتاب أنهم اطَّلعُوا على نسخ خطية أيًّا كانت.. وبهذا يتضح أنهم عوَّلوا في نشرهم لهذا الكتاب على طبعتي الأولى الصادرة عام (١٣٩٠هـ) فأخذوها بنقصها وخطئها وإن موَّهوا واحتالوا بشرح كلمة لغوية واضحة!

* لقد أخذت على عاتقي منذ دخلت مجال تحقيق التراث عام (١٣٨٠هـ) في شبابي الأول: أن أقدِّم للناس في هذا العصر ما أستطيع إخراجه من كتب ابن الجوزي التي لم يعرفها الناس.. فكنت أول ناشر لها في المطبعة العربية.. فأخرجت من كتبه المخطوطة المتوارية: « ذم الهوى » عام (١٣٨١هـ) ثم « الوفا بأحوال المصطفى » عام (١٣٨٧هـ) ثم « التبصرة » عام (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) لكن المزوِّرين وسرَّاق الكتب لم يتركوا كتابًا من هذه الكتب إلا سلبوه.. وادَّعوا أنهم أول ناشر له!

ولعل هذه الطبعة الكاملة لكتاب التبصرة التي تزيد بمقدار ثلث الكتاب تكون ردًّا عليهم وعلى الذين يحبون أن يُحْمدوا بما لم يفعلوا.. والذين يسطون على حقوق الآخرين ولا يعنيهم إلا الكسب المادي الفاني ولو كذبوا وزوَّروا وسلبوا حقوق الآخرين.

والحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّه وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ.د. مُصْطَفَى عَبْدالوَاحِد

شوال سنة ١٤٣٢هـ

سبتمبر سنة ٢٠١١م

مُقَدِّمَةُ ٱلطَّبعَةِ ٱلأُولَىٰ

الحمد للّٰه والصلاة والسلام على خير أنبيائه ورسله، وما توفيقي إلا باللّٰه عليه توكلت وإليه أنيب.

وبعد؛ فهذا كتاب « التبصرة » للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي أقدمه للأمة الإسلامية، وهو الكتاب الثالث من كتب ابن الجوزي المتوارية التي لم تطبع من قبل، وكان لي شرف إخراجها إلى الناس، وكان أولها « ذم الهوى » الذي طبع منذ عشرة أعوام وثانيها « الوفا بأحوال المصطفى » وكان بعده بأربعة أعوام، وقد رأيت في تراث ابن الجوزي ما يستحق العناية والاهتمام.

ولا بد أن أعرض في هذه المقدمة لأمور ثلاثة: **المؤلف، والكتاب، ومنهجي في التحقيق.**

أولًا: ابن الجوزي مؤلف كتاب (التبصرة):

أما المؤلف فهو (١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن جعفر، الجوزي القرشي التيمي البَكْري البغدادي، الفقيه الحنبلي، الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ.

والجوزي: نسبة إلى فرْضة الجوز - كما يقول ابن خلكان - أو إلى محلة الجوْز بالبصرة كما يقول ابن العماد، ولد سنة عشر أو ثمان وخمسمائة أو قبلها، وكذلك يردد ابن خلكان ميلاده بين سنة ثمان وعشر، ومات سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

* ونشأ يتيمًا؛ إذ مات أبوه وله ثلاث سنين فربته عمته.

قال عن نفسه: « فإن أبي مات وأنا لا أعقل، والأم لم تلتفت إليَّ » (٢).

* ولكنه نشأ شغوفًا بالمعرفة محبًّا للطلب، فسمع الكثير ونظر في جميع الفنون كما قال: « فركز في طبعي حب العلم، وما زال يوقعني على المهم فالمهم، ويحملني إلى مَنْ يحملني على الأصوب، حتى قوّم أمري ».

شيوخه:

لما ترعرع ابن الجوزي حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر، وهو خاله، فاعتنى به وأسمعه الحديث، وحفظ القرآن وقرأه على جماعة من القراء بالروايات.

---

(١) ترجمته في شذرات الذهب: ٣٢٩/٤، ووفيات الأعيان: ٣٢١/٢، وتذكرة الحفاظ: ١٣٥/٤، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي.

(٢) عبارات ابن الجوزي في الحديث عن نفسه منقولة من كتابه « صيد الخاطر » في مواضع متفرقة.

* وقد كان لابن الجوزي شيوخ يبلغون سبعة وثمانين؛ منهم علي بن عبد الواحد الدينوري، وابن الحصين، وأبو عبد الله البارع، وأبو الوقت السجزي، كما كان معظِّمًا لأبي الوفاء ابن عقيل متابعًا لأكثر ما يجده من كلامه.

الواعظ المحدث:

* وقد اتجه ابن الجوزي منذ نشأته إلى الوعظ؛ فوعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونشأت له في ذلك ملكة عجيبة وبديهة حاضرة، وتاب على يديه الآلاف، وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء.

قال : « ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي، لم تكن تسيل ».

* وقد كان مجلسه في بعض الأحيان يقدر بمائة ألف، وحضر مجلسه الخليفة المستضيء عدة مرات من وراء السِّتْر.

وسيتضح هذا الجانب في عرضنا لموضوع الكتاب.

* كذلك اشتهر ابن الجوزي بمعرفة الحديث ولقب فيه: الحافظ وصنف فيه الكثير، وبلغ من وثوقه بنفسه فيه أن قال:

« ولا يكاد يُذكر لي حديث إلا ويمكنني أن أقول: صحيح أو حسن أو محال ».

وليس هذا غرورًا ولا ادعاء، ولكنه قول من يعرف قدر نفسه ويحيط بموهبته، ولقد أخلص ابن الجوزي لعلم الحديث وبذل في سبيل بلوغ المرتبة العالية فيه الكثير.

ومن ذلك ما يذكره عن نفسه: « كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثّر ذلك عندي أني عُرفت بكثرة سماعي لحديث رسول الله ﷺ وأحواله وآدابه وأحوال الصحابة وتابعيهم، فصرت في معرفة طريقه كابنٍ [بل] أجود ».

وقد ذكر ابن خلكان أنه جُمعت بُراية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك، فكفتْ وفضل منها.

عالِم واسع:

* ولم تكن شهرة ابن الجوزي في الوعظ والحديث لتمنعه من التبحر في غيرهما

والمشاركة في ألوان الثقافة الأخرى، فبرع في علوم مختلفة وحاز مكانة في أكثر من ميدان، وطلب من كل فن ما أطاق.

قال: « إني رجل حُبّب إليَّ العلمُ من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إليَّ فن واحد منه، بل فنونه كلها، ثم لا تقتصر همتي في فن على بعضه، بل أَرُوم استقصاءه ».

وقد جنى من تحصيله الكثير ثمرة فائقة جعلت له منزلة عالية في جوانب الثقافة الإسلامية وأحلَّته مكانًا مرموقًا؛ مما جعله يقول في آخر عمره: « وما نِلْته من معرفة العلم لا يقاوَم ».

وهو في ذلك يمثل شمول الثقافة العربية وسعة آفاقها.

* فهو إلى جانب تبحره في علوم القرآن والسنة واشتهاره في ميدان الوعظ - يشارك في علم التاريخ، وكتبه فيه لا تقل درجة عن المصادر الموثوق بها، وأشهرها كتابه « المنتظم في تاريخ الأمم » كما يثبت أصالته في علوم اللغة بكتب متعددة؛ منها: تذكرة الأريب في اللغة، والوجوه والنظائر، وتقويم اللسان، والمقيم المقعد في دقائق العربية، وما كان لواعظ محدِّث أن يتسع اهتمامه باللغة إلى هذا الحد الذي يجعله يؤلف فيها، ولكن ابن الجوزي كان كغيره من الأئمة الأقدمين، يؤمن بوحدة الثقافة الإسلامية ويرى أن بعضها يخدم البعض، وأن الاقتصار منها على جانب ضيقٌ في الأفق وقصور عن المعرفة.

* بل إنه نظر في الطب والفراسة والتجارب وله في ذلك آثار، إلى جانب أنه كانت له حاسة أدبية مرهفة تظهر في أسلوبه الذي يتميز بالقدرة على اختيار الألفاظ في مواطنها، وبالتلوين في الصور والمهارة في الاقتباس، كما يتجلى ذلك في كتابه الذي نعرضه اليوم.

* كما كان ابن الجوزي ينظم الشعر في مناسبات مختلفة، وقد ذكر له ابن خلكان بعض المختارات؛ منها قوله يخاطب أهل بغداد:

عَذِيرِيَ من فتية بالعراق ... قلوبهم بالجفا قُلَّبُ
يرون العجيبَ كلامُ الغريب ... وقولُ القريب فلا يُعجبُ
ميازيبهم إن تندَّت بخير ... إلى غير جيرانهم تقلبُ
وعذرهمُ عند توبيخهم ... مغنِّية الحي لا تُطربُ

وهكذا كان الرجل عالمًا أديبًا، وفقيهًا محدثًا، وواعظًا مفكرًا، وقف موقف النقد من عصره وفكره.

موقفه من عصره ومجتمعه:

* كان لابن الجوزي موقف متميز في صلته بعصره ومجتمعه، فلم يكن من وعاظ

السلاطين أو حاشية الملوك الذي تُستكمل بهم الزينة أو يملأون حيزًا يحدَّد لهم فلا يتجاوزونه.

* بل كان الرجل ذا شخصية فذة، عرف مكانه من بيئته وعصره، فانطلق يجاهد بسلاحه الذي يملك، وهو البيان والتعليم، وتجافى عن ظل السلطان ونجا من المداهنة في قوله أو الرياء بعلمه، فاستطاع أن يستعلن بكلمة الحق وأن يعرف الإصرار في الرأي والقوة في الحجة والإقناع.

* وتلمح خطته في الإصلاح ومنهجه في الثورة على المفاسد والانحرافات في كتابه « تلبيس إبليس » الذي حدد فيه موقفه من الفكر والسلوك في عصره.

وفي هذا الكتاب يخص ابن الجوزي شذوذ أدعياء التصوف ومخالفاتهم للشريعة بجانب كبير، وقد اشتهر بعدائه للبدع، وإنكاره لكل ما يخرج عن الهدي الإسلامي الصحيح.

وهو بهذا سُنِّي سلفي، لا يرتبط بمذهب يحمله التعصب على نصرته، ولا يأوي إلى رأي يذود عنه أو يقنع به، بل هو مجتهد في فهم الكتاب والسنة متقبل لما ساير العقل من الأثر؛ ولهذا لم يبالِ أن يخالف أحدًا ممن سبقوه ما دام ضياء العقل وبهاء النقل في يده.

ولذلك تراه يردُّ على الإمام الغزالي كل ما لا يتسق مع المنهج الفقهي الذي ارتضاه الغزالي نفسه؛ إذ كان الغزالي المتصوف يناقض في بعض الأحيان الغزالي الفقيه، فكان ابن الجوزي يَعْجَب من ذلك ويلفت إليه.

* وقد كان ابن الجوزي حنبليَّ المذهب، إلا أنك لا تحس منه وقوفًا عند رأي، بل إن سناء عقله جعله يقف من التراث الإسلامي كله مُشرفًا يتطلع إلى الحق أينما كان... ولهذا لم يرتض الحنابلة أنفسُهم كثيرًا من آراء ابن الجوزي، بل إنهم نقموا عليه بعضها.

يقول عنه ابن رجب الحنبلي في كتابه « طبقات الحنابلة »: « نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا ميله إلى التأويل في بعض كلامه، واشتد نكيرهم عليه في ذلك، ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف، وهو وإن كان مطلعًا على الأحاديث والآثار، فلم يكن يحلُّ شُبه المتكلمين وبيان فسادها »، ثم علل اضطرابه بأنه: « كان معظِّمًا لأبي الوفاء ابن عقيل متبعًا لأكثر ما يجده من كلامه، وإن كان قد رد عليه في بعض المسائل، وكان ابن عقيل بارعًا في الكلام ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار، فلهذا يضطرب في هذا الباب وتتلون فيه آراؤه، وأبو الفرج تابع له في هذا التلون ».

ويقول عنه الشيخ موفق الدين المقدسي: « كان ابن الجوزي حافظًا للحديث وصنف

فيه، إلا أننا لم نرضَ تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها ».

والحق أن تعظيم ابن الجوزي لأبي الوفاء ابن عقيل ليس تعصبًا ولا جمودًا ولا تعبدًا بفكر؛ إذ إن ابن عقيل - حسب نقوله التي يرويها عنه ابن الجوزي في كتبه المختلفة - رجل طليق الفكر ناضج الرأي مشرق الفهم بصير في اتجاهه، فلعل إعجاب ابن الجوزي به إعجاب المشارب المتفقة والأذواق المتلائمة، خاصة حين نذكر أن ابن الجوزي لم يلتق بابن عقيل ولم يتصل به، فقد توفي ابن عقيل قبل أن يولد ابن الجوزي، وكان ابن عقيل من رجال القرن الخامس الهجري، وكل ما هناك أن ابن الجوزي التقى به بفكره وتلمّح في آثاره سعة الأفق واستنارة البصيرة وحرارة الإخلاص.

* ولم يكن بدٌّ أن يتعرض ابن الجوزي - في صراحته وجهره بالحق - لعداوات كثيرة فكرية وسياسية ومذهبية، جلبت عليه الكثير من الأذى والحرج، وقد كانت **الخصومات المذهبية** تشتد حتى يصيبه لفحها، وحتى تدبّر له المكائد بسبب إعلانه لما يراه حقًّا دون خشية أو مواربة.

يروي الذهبي في « تذكرة الحفاظ »: أنه « قام عليه الركن عبد السلام بن عبد الوهاب الحنبلي تجاه الوزير ابن القصاب، وكان الركن سيِّئ النحلة أُحرقت كتبه بإشارة ابن الجوزي، وأُعطي مدرسة الحنبلي، فحمل الركنُ عليه، وقال لابن القصاب الشيعي: أين أنت من ابن الجوزي؟! فإنه ناصبيٌّ - أي يبغض عليًّا ﷺ - ومن أولاد أبي بكر.

فجاءه من شتمه وأهانه وختم على داره وشتت عياله، ثم أُخذ في سفينة إلى واسط، فحبس بها في بيت وبقي يغسل ثوبه ويطبخ، ودام على ذلك خمس سنين وما دخل فيها حمامًا! ».

وتلك مظالم العصبية والطائفية التي عانت منها الأمة الإسلامية الرزايا العِظام!

* **أما الخصومات العلمية** فقد كان بعضها يصل إلى درجة الطعن عليه، مثل وصف ابن الأثير له في مقدمة كتابه « اللباب » بالتدليس، في صدد دفاعه عن السمعاني، وكان بعضها هينًا من باب النقد الخفيف، من أنه كان يقع السهو في تصانيفه وأنه كان يتم الكتابَ فلا يراجعه، وأن معظم ما كتبه ليس من ممارسة العلماء.

كتبه:

كان ابن الجوزي من المكثرين في الكتابة، الموفقين في التأليف والتصنيف حتى شاعت له شهرة في ذلك وأحاطت المبالغة بعدد كتبه.

فهذا ابن العماد الحنبلي يذكر أن ابن الجوزي سئل عن عدد تصانيفه فقال: « زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفًا، منها ما هو عشرون مجلدًا وأقل ».

ويقول عنه الذهبي: « ما علمت أن أحدًا من العلماء صنَّف ما صنف هذا الرجل ».

ويقول ابن خلكان: « وبالجملة فكتبه أكثر من أن تُعد، وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، والناسُ يغالون في ذلك ».

وقد كان الرجل عميق الثقافة متسع المدارك خاليًا من الشواغل والآفات، فأكثر من الكتابة والتصنيف، ولكن هذا العدد الذي يُذكر لكتبه مَحُوط بالتهويل والمبالغة، ولعلهم كانوا يعدون الأجزاء من الكتاب الواحد كتبًا متعددة.

* والذي يُذكر من كتبه في التراجم التي كتبت له لا يكاد يبلغ المائة، والمؤسف أن القدر الذي بقي من كتبه لا يزال أكثره في طوايا النسيان يحتاج إلى من يُعنى به ويصونه من الضياع، وهو بحاجة إلى جامعة إسلامية أو هيئة علمية تنفض عنه غبار الدهر وتدفع عنه يد البلى، وإن الأزهر الشريف لأولى بذلك وأحق..

إن ابن الجوزي يجد من يهتم بكتبه وآثاره من المستشرقين، وكثير من كتبه المخطوطة في موضع العناية في ُالمكتبات والجامعات الأوربية، وحين أخرجت كتاب « ذمّ الهوى » لم أجد في مكتباتنا العربية نسخة منه يعوَّل عليها، على حين وجدت النسخة الأصلية التي قرئت على ابن الجوزي في مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الغربية وأخرى صحيحة كتبت بعده بقرن في مكتبة باريس الأهلية.

* وإنني لأكرر الدعوة هنا إلى أن تصان آثار ابن الجوزي وتتبع كتبه المفقودة أو النائية عنا وتُسترد، عَن طريق نشرها من أيدي الأوربيين الذين عنوا بتراثنا وحازوا أصوله على حين غفلة منا واستهانة.

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما عرف من كتب ابن الجوزي في الفنون المختلفة ونشير إلى المطبوع منها.

أ - في علوم القرآن وتفسيره:

١ - المغني في علوم القرآن.

٢ - فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن.

٣ - زاد المسير في علم التفسير (طبع).

٤ - المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن.

٥ - التفسير الكبير (في عشرين مجلدًا).

٦ - إخبار أهل الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ (طبع سنة ١٣٢٢هـ).

ب - علوم الحديث:

١ - الكشف في أحاديث الصحيحين.

٢ - تهذيب المسند (في عشرين مجلدًا).

٣ - المختار من أخبار المختار.

٤ - مشكل الصحاح (في أربعة مجلدات).

٥ - جامع المسانيد (في سبع مجلدات).

٦ - الموضوعات (طبع بالهند).

٧ - الواهيات (طبع بالهند).

٨ - الضعفاء.

٩ - تلقيح فهوم أهل الأثر (طبع بالهند).

جـ - الوعظ:

١ - بستان الواعظين.

٢ - نتيجة الإحياء، اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي.

٣ - تبصرة الأخيار.

٤ - روح الأرواح (طبع بالهند).

٥ - الثبات عند الممات.

٦ - المورد العذب.

٧ - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد (طبع).

٨ - القُصَّاص والمذكِّرون.

٩ - منهاج المريدين.

١٠ - **التبصرة** (وهو الذي نقدمه اليوم).

١١ - المدهش (طبع).

١٢ - رؤوس القوارير في الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير (طبع).

١٣ - تنبيه النائم الغمْر على حفظ مواسم العمر.

١٤ - الياقوتة في الوعظ.

د - التاريخ والتراجم:

١ - المنتظم (طبع).

٢ - مختصر المنتظم.

٣ - مناقب عمر بن عبد العزيز (طبع).

٤ - شذور العقود في تاريخ العهود.

٥ - صفة الصفوة.

٦ - مناقب أحمد بن حنبل.

٧ - الذهب المسبوك في سير الملوك.

٨ - فضائل القدس.

٩ - أخبار النساء.

١٠ - مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن.

١١ - مناقب عمر بن الخطاب (طبع).

١٢ - الوفا بأحوال المصطفى (طبع).

هـ - علم الكلام:

١ - التحقيق في مسائل الخلاف.

٢ - الإنصاف في مسائل الخلاف.

٣ - دفع شبهة التشبيه والرد على المجسّمة (طبع).

٤ - تجريد التوحيد المفيد.

و - اللغة والأدب:

١ - تقويم اللسان.

٢ - المقيم المقعد في دقائق العربية.

٣ - تذكرة الأريب.

٤ - الوجوه والنظائر في اللغة.

٥ - الأذكياء (طبع).

٦ - الحمقى والمغفلون (طبع).

٧ - ذم الهوى (طبع).

٨ - المقامات.

٩ - لقط المنافع في الطب والفراسة عند العرب.

ز - النقد الديني والاجتماعي:

١ - صيد الخاطر (طبع).

٢ - تلبيس إبليس (طبع).

وهذا التراث الوفير قليل من كثير مما كتب ابن الجوزي، وكم له من كتب شتى منثورة في المكتبات القاصية، مما يجعل حقًّا علينا أن نصون هذا التراث؛ حتى لا تحرم أمتنا من كنوز علمائها وهداتها، وحتى لا يحتجب عنا هذا الضياء أشدَّ ما نكون حاجة إلى سَناه وهُداه.

ثانيًا: كتاب (التبصرة):

والكتاب الذي نقدمه اليوم لابن الجوزي هو أجمع ما ترك ابن الجوزي في علم الوعظ الذي اشتهر به وغلب عليه؛ فقد كان ابن الجوزي - كما قدمنا - صاحب ملكة في الوعظ جعلته يؤثِّر في الناس ويجمع حوله القلوب، وقد صاحبته هذه النزعة منذ نشأته.

وقد أراد ابن الجوزي أن يسجل ملامح هذه الموهبة في كتاب التبصرة الذي أراد منه أن يكون كتابًا في « علم الوعظ » يغني عن النظر فيما صنعه بعض الأعاجم من كتب في هذا الموضوع، كما يذكر ابن الجوزي في مقدمة كتابه [1].

ومن هنا أراد ابن الجوزي أن يجعل من كتابه مرجعًا في هذا العلم يُغني عن النظر فيما سواه، فتوسع فيه ما شاء وتفنن، وجمع فيه بين مواد من الثقافة الإسلامية ونظمها في سياق لا اضطراب فيه ولا اختلاف.

*** وقد قسم ابن الجوزي كتابه إلى تسع طبقات تجمع أبوابًا كثيرة من جوانب العقيدة والتشريع والأخلاق والقصص والسير، وكلها تحوي مائة مجلس، معظم صدورها تقوم على خبر أو رواية، وأعجازها تقوم على آيات مختارات مما يرقق القلوب ويهذب النفوس والأخلاق.**

ولا يذكر لنا ابن الجوزي في مقدمته شيئًا عن كتب الوعظ التي ألفت من قبل، وأظن أنه ما سبق ابن الجوزي أحدٌ في هذا الباب إلا الإمام أبو حامد الغزالي في كتبه المعروفة، إلا أنه لم يَنْحُ بها منحى الصنعة والتفنن في علم بعينه، ولكنه جعلها كتب حقائق ومعارف.

أما ابن الجوزي فإن كتابه هذا يمثل تطور صناعة الوعظ كفنٍّ مستقلٍّ له خصائصه الأسلوبية وملامحه البديعية التي أثرت فيه وميزته إلى عهد قريب.

---

(١) ص ٢١ من هذا الكتاب.

إلا أن كتاب التبصرة لا يمكن اعتباره كتابًا خالصًا في الوعظ، رغم ما يجمعه من فنونه المتنوعة؛ ففيه - كما أشرت - مواد من الثقافة العربية تجعل له قيمة علمية إلى جانب غايته الخلقية:

أ - **فيه مادة واسعة من التفسير،** تستعرض الأقوال وتحشد الروايات وتفصل الآراء؛ إذ إن ابن الجوزي في آياته المختارة وفي شرحه لما ينبي عليه مجالسه، يعني بإيراد أقوال المفسرين على نحو مفصل، ويذكر لكل قول ما يؤيده من رواية، مما نرى فيه نموذجًا للتفسير بالنقل والأثر.

ب - **وفيه مادة لغوية أصيلة** ينقلها ابن الجوزي عن أئمة اللغة والنحو؛ كسيبويه والزجّاج والفراء وابن الأنباري وأبو عبيدة، كاستشهاده على أن أصل ملك [١] مَلْأك، وكتفسيره اللغوي لقوله تعالى: ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ [٢] وتفسيره للرحيق المختوم [٣]، وكتخريجه لقراءات: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [٤] وغير ذلك مما يشيع في الكتاب من وجوه وقراءات.

جـ - **وفيه مادة أدبية،** هي أوسع ما تضمنه الكتاب، وهي ذلك الشعر الذي جعله ابن الجوزي وسيلته في التأثير والإيحاء.

د - **وهذا الشعر هو أهم مادة قدمها إلينا الكتاب،** من حيث إنه حفظ لنا تراثًا أدبيًا إسلاميًا لم يُعْنَ به أصحاب المجموعات والمختارات الأدبية، هو شعر الزهد والرقائق والتأمل والاعتبار، وبعض هذا الشعر معروف النسبة، وهو قليل، وقد نسبتُه إلى أصحابه كأمية بن أبي الصلت وسابق البربري وأبي العتاهية وابن مناذر، وكثير منه لا يعرف قائله، ولم يرد في المصادر الأدبية المتداولة.

ومما يزيد في قيمة هذا الشعر الوارد في كتاب التبصرة، أنه ليس نظمًا سخيفًا ولا تكلفًا متمحلًا، وإنما هو - في أغلبه - شعر يجمع مقاييس الجودة في شكله ومضمونه ويصدر عن عاطفة صادقة ونظرة حكيمة، مما يبطل الوهم الذي كان يسود بين النقاد الأقدمين من أنَّ أعْذَب الشعر أكذبه! وأن الشعر نكد يضعف في الخير ويقوى في الشر!

* والحق أن ابن الجوزي قد أسْدى إلى الأدب الإسلامي صنيعة لا تنكر حين جمع في كتابه هذا الحشد الضخم من المختارات الشعرية التي تصور كيف تمثّل الأدب العربي معاني الإسلام وكيف عبر عن الحقائق التي آمن بها الوجدان العربي، ولو أن ابن الجوزي عُني بنسبة هذا الشعر إلى قائليه لتمت الفائدة ولاستطعنا أن نصدر حكمنا في مواقف

---

(١) ص ٣٢.

(٢) سورة هود: ٧٧، ص ١٥١.

(٣) ص ٢٢١.

(٤) سورة الواقعة: ٢٢، ص ٢٣٤.

العصور الأدبية من قضية الأدب الإسلامي على نحو دقيق.

* ويقْوى في ظني أن ابن الجوزي قد أورد في هذا الكتاب شيئًا من أشعاره هو؛ إذ كان ابن الجوزي ينظم الشعر، كما ذكر ذلك ابن العماد وابن خلكان، وما كان ليقصر عن النظم في هذا الموضوع الذي ملك عليه اهتمامه وجرى مع طبيعته.

ويمتاز ابن الجوزي في استشهاده بالشعر بحاسةٍ مرهفةٍ تجعله يضع كل شاهد في موضعه الذي يؤثر فيه غاية التأثير، وذلك دليل على القدرة على الرواية والتذوق الأدبي الصحيح.

هـ - ويبقى بعد ذلك مادة الوعظ في الكتاب، وهي تلك المقالات الإنشائية المسجوعة في الغالب، التي ضمَّنها ابن الجوزي معانيه في الحث على الزهادة والتذكير بالآخرة والتحذير من الذنوب، وهي أغلب المعاني التي ترد في هذه المقالات.

واختيار ابن الجوزي للسجع في هذا الجانب دليل على ما كان للسجع من تأثير على الأسماع، وقد أتى ابن الجوزي بسجعه طبيعيًا غير مستكره، مما يدل على تفننه في التعبير وامتلاكه لزمام أُسلوبه، كما عُني ابن الجوزي في هذه المقالات بالصور البيانية من استعارة وتشبيه وكناية؛ قصدًا إلى التأثير أو الإيضاح.

ولئن كان ذوقنا الأدبي في العصر الحديث لا يرضى عن السجع ولا يُؤثره في التعبير، إلا أنه لا يمكن تطبيق هذا المقياس على عصر ابن الجوزي الذي يرى في السجع قدرة أسلوبية، وخاصة في مواطن التأثير والتحذير.

وابن الجوزي قد عرف في أسلوبه كلا اللونين: المرسل والمسجوع، ويمثل أسلوبه المرسل كتابه: صيد الخاطر الذي جعله تأملات طليقة في جوانب الدين والفكر والحياة. فلم يكن يلتزم السجع في كتبه، ولكنه رأى ذلك اللون البديعي مناسبًا لمجال الوعظ الذي يتطلب التفنن في التأثير والإيحاء، ونحن نعلم أن السجع ليس معيبًا لذاته، وإنما يعاب حين يُستكره الأسلوب عليه وتضطرب المعاني من أجل الإتيان به، أما حين يأتي مطاوعًا للفكرة موائمًا للسياق فهو محمود مرغوب.

وهكذا نرى في كتاب التبصرة مجموعة من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية الأصيلة إلى جانب لونه الأدبي الطريف، وذلك ما جعلني أرى في نشره فائدة محققة إلى ما فيه من صونٍ لتراث ابن الجوزي وإحياء آثاره.

وقد التزم فيه ابن الجوزي الصحة فيما يذكره من روايات وأخبار، إلا في جانب قليل؛ كحديث موضوع أشرت إلى وضعه نقلًا عن ابن الجوزي نفسه، وكأخبار وهب بن منبِّه الواهية التي يتحدث فيها عن القدماء بغير حجة ولا أثر، وقد أشرت إلى ذلك في مواطنه.

ثالثًا: منهج التحقيق:

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية:

١ - نسخة مكتبة طلعت، رقم ١٤٤٩ تصوف، وقد كُتبتْ في القرن السابع الهجري إلا أن بها خرومًا في مواضع متفرقة، ورمزت إليها بحرف (أ).

٢ - نسخة مكتبة طلعت، رقم ١٤٤٨ تصوف، وهي كاملة وبها زيادات عن النسخة السابقة، وقد رمزت لها بحرف (ب) ويبدو أنها مكتوبة في نحو القرن التاسع الهجري.

٣ - نسخة دار الكتب، رقم ٢٦٠١ تصوف، وأظنها منقولة عن النسخة السابقة؛ إذ أن أخطاءهما واحدة ورمزت لها بحرف (جـ).

٤ - نسخة مكتبة طلعت، رقم ١٤٩٢ تصوف، ورمزت إليها بحرف (ت). وهي مختصر لكتاب التبصرة اسمه: تذكرة الأيقاظ من تبصرة الوعاظ، اختصره محمد ابن ملا الحنفي في القرن الثامن الهجري.

وهذا المختصر دقيق جدًّا في كتابته وتصحيحه، وقد كنت أعتمد عليه في تصويب أخطاء نسخ (ب، جـ) في المواطن المفقودة من **نسخة** (أ) **التي تعتبر النسخة الأم**، لولا أنها غير كاملة.

* **وقد أثبت أهم الفروق بين هذه النسخ، وضبطت ما يحتاج إلى الضبط، وعرفت بعض الأعلام، وخرَّجت كثيرًا من أحاديث الصحيحين، ونسبت ما أمكنني الاهتداء إليه من الشعر إلى أصحابه، وشرحت الألفاظ اللغوية التي تحتاج إلى الشرح، وراعيت في ذلك كله الاختصار والاقتصار على المهم**؛ إذ إن الكتاب طويل يبلغ أصله ثلاثة أجزاء كبيرة، فلم أرَ أن أزحم هذا الأصل الطويل بما يزيده طولًا أو يخرج به عن مقصوده.

وقد وقعتْ في هذا الجزء أخطاء يسيرة أشرت إلى أهمها، وسوف أثبت ما يظهر لي بعد ذلك منها في الجزء الثاني من الكتاب.

وحسبي في هذا العمل ما فيه من نية صالحة وجهد مبذول، وأن يكون فيه مشاركة في حفظ تراث الإسلام وإبلاغ رسالته، ولله الحمد في الأولى والآخرة ومنه وحده المعونة والتوفيق.

أ.د. مُصْطَفى عَبْدالوَاحِد

القاهرة في: ربيع الثاني سنة ١٣٩٠هـ
يونيو سنة ١٩٧٠م

النص المحقق

مُقَدِّمَةُ ٱلْمُؤَلِّفِ

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله، قال الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي رحمة اللَّه عليه:

الحمد للَّه الذي لا أول لوجوده ولا آخر لجوده، وصلى اللَّه على خير مبعوث بشرائعه وحدوده، وعلى الصحابة وأزواجه وجنوده، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن جماعة من أصحابي أحبوا التشاغل بعلم الوعظ، ولم يجدوا فيه كتابًا يجوز الاعتماد عليه، وإن جماعة من الأعاجم صنعوا كتبًا في ذلك ملأوها بالأحاديث الباطلة والمعاني الفاسدة، ناظرين إلى حسن اللفظ غير باحثين عن الصحة، فهمَّتهم تكثير الجمع، ونَهْمتهم تحريك الطبع، فربما ذكروا أشعار العشق والمحبة التي توجب انبساط المبتدي وتبعده عن الهيبة والخوف، أو تميل قلبه إلى حب الدنيا، وربما ذكروا [من] أحاديث الرُّخص الكذب ما يهوِّن المعاصي، إلى غير ذلك، وقد ذكرت عيوبهم في كتاب « القِصَاص من القُصَّاص ».

فرغب أصحابي في إملاء كتاب يُغني عن النظر في تلك الكتب، فأجبتهم لاجتنابهم عن الباطل واجتلابهم إلى الحق، **فأمليتُ في هذا الكتاب مائةَ مجلس، جعلت مُعظم صدورها على روايات، وجعلت أعجازها على آيات، وفيها ما صدْره مبنيٌّ على أحاديث، إلا أني جعلتُ الصدور في مجالس الصدور على تسع طبقات:**

الطبقة الأولى: تشتمل على قصص الأنبياء والقدماء، وفضائل الصحابة والصحابيات.

الطبقة الثانية: تشتمل على فضائل أيام السنة ولياليها المذكورات.

الطبقة الثالثة: تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات.

الطبقة الرابعة: تشتمل على فضل العلم والمعاملات.

الطبقة الخامسة: تشتمل على ذكر ذم المعاصي والمكروهات.

الطبقة السادسة: تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات.

الطبقة السابعة: تشتمل على وعظ أرباب الولايات.

الطبقة الثامنة: تشتمل على التعازي عن الأموات.

الطبقة التاسعة: تشتمل على مواعظ ومختصرات.

فأما أعجاز المجالس فعلى آيات مُطلقات.

وقد جمع هذا الكتاب من فنون المتخيّرات المنتخَبات ما يغني المبتدي ولا يستغني عنه المنتهي، والله الموفق للخيرات.

* * *

وها أنا أذكر عدد المجالس في كل طبقة من الطبقات، وما تحتوي عليه من الآيات، ليتخير المتكلم ما يتكلم به مما يليق بالأوقات.

الطبقة الأولى: فيها أربعة وثلاثون مجلسًا:

الأول : صدره في ذكر آدم، وعجُزه: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾ (١).

الثاني : صدره قصة هابيل وقابيل، وعجزه: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٢).

الثالث : صدره ذكر إدريس، وعجزه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ (٣).

الرابع : صدره قصة نوح، وعجزه: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ (٤).

الخامس : صدره قصة عاد، وعجزه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (٥).

السادس: صدره قصة ثمود، وعجزه: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾ (٦).

السابع : صدره قصة الخليل صلوات الله عليه، وعجزُهُ: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (٧).

الثامن : صدره قصة بناء الكعبة، وعجزه: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ (٨).

التاسع : صدره قصة الذبيح، وعجزه: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ (٩).

العاشر : صدره قصة لوط، وعجزه: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ (١٠).

الحادي عشر: صدره قصة ذي القرنين، وعجزه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ (١١).

الثاني عشر : صدره قصة يوسف صلى الله على محمد وعليه، وعجزه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (١٢).

الثالث عشر: صدره قصة أيوب ﷺ، وعجزه: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ (١٣).

---

(١) سورة التوبة: ١١٢. (٢) سورة آل عمران: ١٣٣. (٣) سورة يونس: ١٠١.
(٤) سورة آل عمران: ٣٠. (٥) سورة إبراهيم: ٤٢. (٦) سورة ق: ٤١.
(٧) سورة الأنبياء: ٦٩. (٨) سورة النور: ٣٦. (٩) سورة النساء: ١٢٣.
(١٠) سورة النور: ٣٠. (١١) سورة محمد: ١٨. (١٢) سورة الإسراء: ٢٣.
(١٣) سورة المؤمنون: ١١١.

الرابع عشر : صدره قصة شعيب صلى اللّه على محمد وعليه، وعجزه: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾ [(١)].

الخامس عشر: صدره قصة موسى صلى اللّه على محمد وعليه، وعجزه: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [(٢)].

السادس عشر: صدره قصة الخضر، وعجزه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ [(٣)].

السابع عشر : صدره قصة قارون، وعجزه: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [(٤)].

الثامن عشر : صدره قصة بلْعام، وعجزه: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [(٥)].

التاسع عشر : صدره قصة داود، وعجزه: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [(٦)].

العشرون: صدره قصة سليمان، وعجزه: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [(٧)].

الحادي والعشرون : صدره قصة بلقيس، وعجزه: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [(٨)].

الثاني والعشرون : صدره قصة سبأ، وعجزه: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ [(٩)].

الثالث والعشرون : صدره قصة يونس، وعجره: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ [(١٠)].

الرابع والعشرون : صدره قصة زكريا، وعجزه: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [(١١)].

الخامس والعشرون : صدره قصة مريم وعيسى، وعجزه: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [(١٢)].

السادس والعشرون: صدره قصة أهل الكهف، وعجزه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [(١٣)].

السابع والعشرون : صدره فضل نبينا محمد ﷺ، وعجزه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [(١٤)].

الثامن والعشرون : صدره فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعجزه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [(١٥)].

التاسع والعشرون : صدره فضائل عمر رضي الله عنه، وعجزه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [(١٦)].

---

(١) سورة القيامة: ٢٢.
(٢) سورة الانفطار: ١٣.
(٣) سورة الحجر: ٣.
(٤) سورة الواقعة: ١٧.
(٥) سورة الحشر: ٢.
(٦) سورة القيامة: ٣٦.
(٧) سورة القارعة: ١، ٢.
(٨) سورة القيامة: ١.
(٩) سورة غافر: ١٥.
(١٠) سورة الشعراء: ٢٠٥.
(١١) سورة المجادلة: ٦.
(١٢) سورة النور: ٣١.
(١٣) سورة المؤمنون: ١.
(١٤) سورة الأنفال: ٢.
(١٥) سورة المنافقون: ٩.
(١٦) سورة الغاشية: ٨، ٩.

الثلاثون: صدره فضائل عثمان ﷺ، وعجزه: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (١).

الحادي والثلاثون: صدره فضائل علي ﷺ، وعجزه: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ ﴾ (٢).

الثاني والثلاثون : صدره فضائل عائشة رضي الله عنها ، وعجزه: ﴿ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ (٣).

الثالث والثلاثون: صدره فضائل الصحابة ﷺ، وعجزه: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ (٤).

الرابع والثلاثون : صدره فضائل أمة محمد ﷺ، وعجزه: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ (٥).

الطبقة الثانية: فيها أحد عشر مجلسًا:

الأول : صدره في ذكر عاشوراء والمحرم، وعجزه: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ﴾ (٦).

الثاني : صدره في ذكر رجب، وعجزه: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا ﴾ (٧).

الثالث : صدره في ذكر المعراج، وعجزه: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا ﴾ (٨).

الرابع : صدره فضائل شعبان، وعجزه: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (٩).

الخامس : صدره فضائل ليلة النصف من شعبان، وعجزه: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ (١٠).

السادس: صدره فضائل رمضان، وعجزه: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ (١١).

السابع : صدره لانتصاف رمضان، وعجزه: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ (١٢).

الثامن : صدره ذكر العشر وليلة القدر، وعجزه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ (١٣).

التاسع : صدره في ذكر عيد الفطر وعجزه: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (١٤).

العاشر: صدره فضل عشر ذي الحجة، وعجزه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (١٥).

الحادي عشر: صدره ذكر يوم عرفة، وعجزه: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ﴾ (١٦).

---

(١) سورة يونس: ٢٥. (٢) سورة الإنسان: ٥. (٣) سورة النور: ١١.
(٤) سورة الأنعام: ٥٢. (٥) سورة آل عمران: ١١٠. (٦) سورة الأنعام: ١٥١.
(٧) سورة التوبة: ٣٦. (٨) سورة الإسراء: ١. (٩) سورة الجاثية: ٢١.
(١٠) سورة الزخرف: ١، ٢. (١١) سورة البقرة: ١٨٣. (١٢) سورة البقرة: ١٨٥.
(١٣) سورة القدر: ١. (١٤) سورة يونس: ٦٢. (١٥) سورة الفجر: ٦.
(١٦) سورة الحج: ٢٧.

الطبقة الثالثة: فيها ثلاثة مجالس:

الأول : صدره ذكر خلق ابن آدم، وعجزه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (١)

الثاني : صدره في ذكر خلق السموات، وعجزه: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ (٢).

الثالث: صدره في ذكر الأرض وعجائبها، وعجزه: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (٣).

الطبقة الرابعة: فيها سبعة وعشرون مجلسًا:

الأول : صدره في فضل العلم، وعجزه: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ (٤).

الثاني : صدره في ذكر الطهارة، وعجزه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (٥).

الثالث : صدره في ذكر الصلوات، وعجزه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ (٦).

الرابع : صدره في ذكر الزكاة، وعجزه: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ ﴾ (٧).

الخامس: صدره في ذكر الصيام، وعجزه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (٨).

السادس: صدره في ذكر الحج، وعجزه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ (٩).

السابع : صدره في حق الأخوة والصداقة، وعجزه: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ (١٠).

الثامن : صدره في ذكر العزلة، وعجزه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (١١).

التاسع : صدره في الأمر بالمعروف، وعجزه: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ (١٢).

العاشر : صدره في ذكر التوبة، وعجزه: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣).

الحادي عشر : صدره في ذكر الصبر، وعجزه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ (١٤).

الثاني عشر : صدره في ذكر الشكر، وعجزه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (١٥).

الثالث عشر : صدره في ذكر الخوف، وعجزه: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (١٦).

---

(١) سورة المؤمنون: ١٥. (٢) سورة الجاثية: ٢٨. (٣) سورة الرحمن: ٣٧.
(٤) سورة يس: ٥٤. (٥) سورة الحج: ٦٣. (٦) سورة الأنبياء: ١٠١.
(٧) سورة آل عمران: ٩٢. (٨) سورة ق: ١٦. (٩) سورة فاطر: ٢٩.
(١٠) سورة آل عمران: ١٩١. (١١) سورة السجدة: ١٦. (١٢) الحاقة: ١٣.
(١٣) سورة الزخرف: ٦٧. (١٤) سورة محمد: ٣١. (١٥) سورة الأعراف: ٤٠.
(١٦) سورة الإسراء: ١٠٥.

الرابع عشر : صدره في النية والإخلاص، وعجزه: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (١).

الخامس عشر: صدره في اليقين، وعجزه: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ (٢).

السادس عشر: صدره في الزهد، وعجزه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (٣).

السابع عشر : صدره في فضل الفقر والفقراء، وعجزه: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (٤).

الثامن عشر : صدره في محاسبة النفس، وعجزه: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ (٥).

التاسع عشر : صدره في التقوى والمراقبة، وعجزه: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ (٦).

العشرون: صدره في ذكر الورع وعجزه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (٧).

الحادي والعشرون : صدره في ذكر القلب، وعجزه: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ (٨).

الثاني والعشرون : صدره في ذكر التفكر، وعجزه: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ (٩).

الثالث والعشرون: صدره في ذكر التوكل، وعجزه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ (١٠).

الرابع والعشرون : صدره في ذكر المحبة وعجزه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ (١١).

الخامس والعشرون: صدره في الرضا، وعجزه: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ (١٢).

السادس والعشرون: صدره في فعل المعروف، وعجزه: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (١٣).

السابع والعشرون : صدره في الدعاء، وعجزه: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ (١٤).

الطبقة الخامسة: تشتمل على ذم المعاصي والمكروهات، فيها أحد عشر مجلسًا:

الأول: صدره في ذم الغيبة ومعاصي اللسان، وعجزه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ (١٥).

---

(١) سورة فاطر: ٣٧.
(٢) سورة الصافات: ١.
(٣) سورة النساء: ١.
(٤) سورة الأحقاف: ٢٩.
(٥) سورة التوبة: ١١٧.
(٦) سورة مريم: ٨٥.
(٧) سورة المؤمنون: ٥١.
(٨) سورة النازعات: ٢٧.
(٩) سورة عبس: ١١.
(١٠) سورة فصلت: ٣٩.
(١١) سورة المائدة: ٥٤.
(١٢) سورة الطور: ١، ٢.
(١٣) سورة الأنعام: ٩١.
(١٤) سورة الواقعة: ١.
(١٥) سورة مريم: ٦٨.

الثاني : صدره في كسر شهوة النفس، وعجزه: ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا ﴾ (١).

الثالث : صدره في ذكر شهوة الفرج، وعجزه: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ (٢).

الرابع : صدره في ذم الحسد، وعجزه: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (٣).

الخامس: صدره في ذم الغضب، وعجزه: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴾ (٤).

السادس: صدره في ذم الكِبر، وعجزه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ (٥).

السابع : صدره في ذم الدنيا، وعجزه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (٦).

الثامن : صدره في ذم البخل، وعجزه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ (٧).

التاسع : صدره في ذم الأمل، وعجزه: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ (٨).

العاشر : صدره في ذكر مكائد الشيطان، وعجزه: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ (٩).

الحادي عشر: في التحذير من الغرور، وعجزه: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١٠).

الطبقة السادسة: تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات، فيها خمسة مجالس:

الأول: صدره في ذكر الموت، وعجزه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾ (١١).

الثاني: صدره في ذكر القبر، وعجزه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ (١٢).

الثالث : صدره في ذكر القيامة، وعجزه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ (١٣).

الرابع : صدره في ذكر الجنة، وعجزه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١٤).

الخامس: صدره في ذكر جهنم، وعجزه: ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (١٥).

الطبقة السابعة: فيها مجلسان:

الأول: لوعظ السلطان.

الثاني: لتذكير أرباب الولايات.

الطبقة الثامنة: فيها مجلسان:

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٠. (٢) سورة الحاقة: ١٧. (٣) سورة التكوير: ١.
(٤) سورة النبأ: ١٧. (٥) سورة هود: ١٠٢. (٦) سورة الحديد: ٢٠.
(٧) سورة الرعد: ٢٠. (٨) سورة القمر: ١. (٩) سورة الفجر: ١٧.
(١٠) سورة الكهف: ٤٥. (١١) سورة الجمعة: ٨. (١٢) سورة المؤمنون: ٩٩.
(١٣) سورة طه: ١٠٥. (١٤) سورة محمد: ١٥. (١٥) سورة التحريم: ٦.

الأول والثاني: في التعازي.

الطبقة التاسعة:

فيها مواعظ مختصرات وذلك تمام المائة.

واللَّه المشكور والمحمود على كل حال

* * *
* *
*

الطبقة الأولى

تشتمل على قصص الأنبياء والقدماء وفضائل الصحابة والصحابيات (*)

(وفيها أربعة وثلاثون مجلسًا)

(*) زدتُ عنوان « تشتمل على قصص الأنبياء والقدماء وفضائل الصحابة والصحابيات » للإيضاح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

في ذكر آدم عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي سيَّر (١) بقدرته الفُلْك والفَلَك، ودبَّر بصنعته النور والحلك، اختار آدم فحسده الشيطان وغبَطه المَلك، وافتخروا (٢) بالتسبيح والتقديس فأما إبليس فهلك (٣) ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ (٤) تعالى عن وزير، وتنزه عن نظير، قَبِل من خلقه اليسير، وأعطى مِن رزقه الكثير، أنشأ السحاب الغزير يحمل الماء النمير ليعم عباده بالخير ويمير، فكلما قصر القَطْر في الوقع صاح الرعد بصوت الأمير، وكلما أظلمت مسالك الغيث لاح البرق يوضح وينير، فقامت الوُرْق على الوَرق تصدح بالمدح (٥) على جنبات الغدير، فالجماد ينطق بلسان حاله، والنبات يتكلم بحركاته وبأشكاله، والكل إلى التوحيد يُشير ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (٦).

أحمده وهو بالحمد جدير، وأقر بأنه مالك التصوير والتصيير.

وأصلي على محمد رسوله البشير النذير، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق وعلى عمر ذي العدْل العزير (٧)، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة في الزمان العسير، وعلى عليٍّ المخصوص بالموالاة يوم الغدير، وعلى عمه العباس المستسقى به الماء النمير [جد سيدنا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أدام الله أيامه إدامة رَضْوى وثَبير] (٨).

اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد وألهمنا القيامَ بحقك وبارِكْ لنا في الحلال مِن رِزْقك، وَعد علينا في كل حال برفقك، وانفعني بما أقول والحاضرين من خلقك برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ... ﴾ (٩)

(إذ) كلمةٌ جُعلت لما مضى من الأوقات، فكأنه قال: اذكر ذلك الوقت.

---

(١) جـ: تسير.
(٢) أ: فافتخر.
(٣) جـ: فيها هلك.
(٤) سورة البقرة: ٧٥.
(٥) أ: تصدح وتمدح.
(٦) سورة الشورى: ١١.
(٧) العزير: الناصر المؤيد.
(٨) ليست في أ.
(٩) سورة البقرة: ٣٠.

والملائكة واحدهم مَلَك والأصل مَلْأك، وأنشد سيبويه:

فلست بإنسيٍّ ولكن بملأك تنزَّل من جو السماء يصُوب [(١)]

ومعنى (ملأك): صاحبُ رسالة، يقال: مألكة وملأكة [(٢)].

واختلف العلماء: ما المقصود بإعلام الملائكة بخلق آدم عليه السلام على تسعة أقوال:

أحدها: أنه أراد إظهار كِبْر إبليس، وكان ذلك قد خفي على الملائكة لما يرون من تعبده، رواه الضحاك، عن ابن عباس.

والثاني: ليبلوَ طاعةَ الملائكة، قاله الحسن.

والثالث: أنه لما خلق اللّه تعالى النار جزعت الملائكة، فقال: هذه لمن عصاني، فقالوا: أَوَ يأتي علينا زمان نعصيك فيه؟ فأخبرهم بخلق غيرهم. قاله ابن زيد.

والرابع: أنه أراد إظهار عجزهم عما يعمله؛ لأنهم قاسُوا على حال من كان قبل آدم.

والخامس: أن الملائكة التي طردت الجن [(٣)] من الأرض قبلَ آدم أقاموا في الأرض يعبدون، فأخبرهم أني جاعل في الأرض خليفة ليوطنوا [(٤)] أنفسهم على العزل.

والسادس: أنهم ظنوا أن اللّه لا يخلق خلْقًا أكرمَ منهم، فأخبرهم بما يخلق.

والسابع: أنه أعلمهم بما سيكون ليعلموا عِلْمه بالحادثات.

والثامن: أنه أراد تعظيمَ آدم بذكْره قبلَ وجوده.

والتاسع: أنه أعلمهم أنه خلقَه ليُسكنه الأرضَ وإن كان ابتداء خلقه في السماء.

والخليفة: القائم مقام غيره، يقال: خلف الخليفةُ خلافةً وخلِّيفي [(٥)]، وعلى وزن ذلك أحرف منها: خطِّيبي من الخُطبة، وردّيدي من الردّ، ودلِّيلي من الدلالة، وحجِّيزي من حجزتُ، وهزِّيمي من هزمتُ.

قال أبو بكر بن الأنباري: والأصل في الخليفة: خليف فدخلت الهاء للمبالغة في مدحه بهذا الوصف، كما قالوا: عَلَّامة ونَسَّابة وراوية.

- **وفي معنى خلافته قولان:**

أحدهما: خليفة عن اللّه تعالى في إقامة شرعه، روي عن ابن عباس ومجاهد.

---

(١) الكتاب : ٣٧٩/٢، ط الأميرية.

(٢) الكتاب: « وقالوا: مألكة وملأكة وإنما يريد رسالة » : ٣٧٩/٢.

(٣) أ: التي طردت المفسدين. (٤) أ: ليوطئوا.

(٥) أ: يقال: خلف خليفة خلافة وخلفًا.

والثاني: أنه خلف من كان في الأرض قبْله، روي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا... ﴾:

الألف للاستفهام، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه استفهام إنكار، والتقدير: كيف تفعل هذا، وهو لا يليق بالحكمة، وروى يحيى بن كثير عن أبيه قال: كان الذين قالوا هذا عشرة آلاف من الملائكة، فأرسلت عليهم نارٌ فأحرقتهم.

والثاني: أنه استفهام إيجاب، تقديره: ستجعل، كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا (١)

قاله أبو عبيدة

والثالث: أنه استفهام استعلام.

- **ثم في مرادهم أربعة أقوال:**

أحدها: أنهم استعلموا وجهَ الحكمة في جَعْل من يُفسد.

والثاني: أنهم استعظموا معصية المستخلفين، فكأنهم قالوا: كيف يعصونك وقد استخلفتهم؟! وإنما ينبغي أن يسبحوا كما نسبح نحن.

والثالث: أنهم تعجّبوا من استخلاف من يفسد.

والرابع: أنهم استفهموا عن حالَ أنفسهم، فتقدير الكلام: أتجعل فيها من يفسد ونحن نسبح أم لا، ذكره ابن الأنباري.

والمراد بالفساد: العمل بالمعاصي، وسفْك الدم: صبُّه وإراقته، وشدد السين أبو نهيك، وقرأ طلحة بن مُصرف « يسفُك » بضم الفاء.

والتسبيح: التنزيه للّه من كل سُوء. **والتقديس:** التطهير، والمعنى: ننزهك ونعظمك.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾:

أي أنه سيكون من ذريته أنبياء وصالحون.

وأما خلق آدم فأخبرنا هبة اللّه الشيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التميميُّ، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: أخبرنا عبد اللّه بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني محمد بن جعفر، عن عوف الأعرابي، عن قسامة بن زُهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ

(١) عجز البيت: وأندى العالمين بطون راح. شرح ديوان جرير : ص ١١٠، ط دار الكتاب العربي بيروت.

أنه قال: « إن اللَّه تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وَبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزْن وَبْين ذلك » [١].

- **واختلف العلماء فيمن جاء بالطين الذي خُلق منه آدم، على قولين:**

أحدهما: أنه إبليس، قاله ابن عباس وابن مسعود.

والثاني: ملك الموت، قال السُّدِّي عن أشياخه: بعث اللَّه ملك الموت فجاء بالطين فَبُلّ ثم تُرك أربعين سنة حتى أنتن ثم نُفخ فيه الروح.

حدثنا عبد اللَّه بن محمد القاضي ويحيى بن علي المدني، قال: أخبرنا أحمد بن يحيى النقُّور، قال: أخبرنا ابن حبابة، قال: حدثنا البغوي، قال: حدثنا هُدبة، قال: حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت، عن أنس، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « لما نُفخ في آدم الروح مارتْ فطارت فصارت في رأسه فعطس، فقال: الحمد للَّه، فقال له اللَّه تعالى: رحمك اللَّه » [٢].

قال العلماء: خُلق آدم يومَ الجمعة وكان طوله ستين ذراعًا وعرضه سبعة أذرع.

- **وفي تسمية آدم قولان:**

أحدهما؛ لأنه خُلق من أديم الأرض، قاله سعيد بن جبير. وأديم الأرض وجهها.

والثاني: أنه مأخوذ من الأُدمة وهي سُمْرة اللون، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا... ﴿٣١﴾ ﴾:

الصحيح أن هذا على إطلاقه فإن قومًا قالوا: علمه أسماء الملائكة.

- **قوله تعالى:** ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ... ﴿٣١﴾ ﴾:

يعني المسميات فقال للملائكة: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى... ﴿٣١﴾ ﴾ أي: أخبروني بأسماء هؤلاء.

- **وفي قوله:** ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ **ثلاثة أقوال:**

أحدها: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون ويسفكون الدماء، قاله السُّديّ عن أشياخه.

والثاني: إن كنتم صادقين أني لا أخلق أعلم منكم وأفضل، قاله الحسن.

والثالث: أن المراد إبليس؛ لأنه قال: إن فضِّلت عليه لأهلكنه، فالتقدير: إن كنتَ صادقًا أنك تفعل ذلك فأنبئني بأسماء هؤلاء.

---

(١) مسند أحمد: ٤/٤٠٠، ٤٠٦

(٢) روى نحوه الترمذي في سننه من حديث طويل عن أبي هريرة الحديث رقم: ٣٣٦٨ قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ... ﴿٣٣﴾ ﴾ أقرّت الملائكة بالعجز ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ... ﴿٣٢﴾ ﴾ فقال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ... ﴿٣٣﴾ ﴾ فلما أنبأهم، قال اللّه تعالى: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ... ﴿٣٣﴾ ﴾ أي ما غاب فيها ﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ... ﴿٣٣﴾ ﴾ من الطاعة ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ من أن اللّه لا يخلق أفضل منكم، وقيل: ما كتم إبليسُ من الكبْر.

ثم أمر اللّه تعالى الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس.

أنبأنا محمد بن عمر الأرموي، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن علي المهنّدي، قال: أنبأنا ابن شاهين، قال: أنبأنا عبد اللّه بن سليمان، قال: حدثنا هارون بن زيد ابن الزرقاء، قال: حدثنا ضَمرة بن ربيعة، عن قادم بن مِسْوَر، قال: قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: لما أمر اللّه تعالى الملائكة بالسجود لآدم أولُ من سجد له إسرافيل فأثابه اللّه ﷻ أن كتب القرآن في جبهته.

قوله تعالى: ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ... ﴿٣٥﴾ ﴾:

زوْجه حواء خُلقت من ضلعه وهو في الجنة، والرّغد: الرزق الواسع، وفي الشجرة المنهي عنها خمسة أقوال: **الأول**: الحِنطة، **والثاني**: الكَرْم، روي ابن عباس، **والثالث**: التين، قاله عطاء وقتادة، **والرابع**: شجرة الكافور، رُوي عن علي الطَّيْلا (١)، **والخامس**: النخلة، قاله أبو مالك.

- **قوله تعالى:** ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا... ﴿٣٦﴾ ﴾:

أي: حملهما على الزلل، وقرأ الأعمش: ﴿ فأزالهما ﴾ أي عن الجنة، قال السُّدِّي: دخل الشيطان في فم الحية فكلمهما، وقال الحسن: ناداهما من باب الجنة.

فإن قيل: إن كان آدم تعمَّد فمعصيته كبيرة، والكبائر (٢) لا تجوز على الأنبياء، وإن كان نسي فالنسيان معفو عنه.

فالجواب: أن العلماء اختلفوا، فقال بعضهم: فعل ذلك عن نسيان، والأنبياء مطالبون بحقيقة التيقظ وتجويد التحفظ أكثر من غيرهم، والنسيان ينشأ من الذهول عن مراعاة الأمر، فكانت المؤاخذة على سبب النسيان.

وقال بعضهم: تعمّد [الأكل (٣)] لكنه أكل متأولًا، وفي تأويله (٤) قولان: **أحدهما**:

---

(١) أ: رضي اللّه عنه.
(٢) ب: والكبيرة.
(٣) ليست في أ.
(٤) أ: وفي تأوله.

أنه تأول الكراهة (١) دون التحريم. والثاني: أنه نُهي عن شجرة فأكل من جنسها ظنا أن المراد عين تلك الشجرة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ... ﴿٣٨﴾ ﴾:

قال ابن عباس: أُهبط آدم وحواء وإبليس والحية، أما آدم فأهبط على جبل بالهند يقال له: « واسم » وحواء بجدة، والحية بنصيبين، وإبليس بالأبلّة (٢) وكان مكث آدم في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة، وهو خمسمائة سنة، وأُنزل معه الحجر الأسود وعصا موسى، وكانت من آس الجنة، فأمره اللّه تعالى أن يذبح كبشًا من الضأن مما أنزل اللّه تعالى إليه، فذبحه ثم جز صوفه، فغزلته حواء، فنسج لنفسه جُبة ولحواء درعًا وخمارًا، وعُلِّم الزراعة فزرع فنبت في الحال فحصد وأكل ولم يزل في البكاء.

قال وهب بن منبه: سجد آدم على جبل بالهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب فأنبت اللّه تعالى في ذلك الوادي من دموعه الدارصيني والقَرَنْفُل، وجعل طير ذلك الوادي الطواويس ثم جاءه جبريل عليه السلام، فقال: ارفع رأسك فقد غُفر لك، فرفع رأسه، ثم أتى الكعبة فطاف أُسبوعًا، فما أتمه حتى خاض في دموعه (٣).

وأما الكلمات التي تلقاها آدم فهي قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (٤).

قال العلماء: **التقى آدم وحواء بعرفات** فتعارفا ثم رجعا إلى الهند فاتَّخذا مغارة يأويان فيها، وولدت حواء لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، وبعرفات مسح اللّه ظهر آدم فأخرج جميعَ ذريته فنشرهم بين يديه، فرأى فيهم رجلًا فأعجبه (٥) فقال: من هذا؟ قال: داود، قال: كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: فزده من عمري أربعين، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟! قال: ما فعلتُ، فأتم اللّه عز وجل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة.

وهذا الجحْد إنما يُنسب إلى النسيان.

* * *

(١) أ: الكراهية. (٢) أ: بالأيلة.

(٣) ومن أين لوهب بن منبه هذا العلم الذي لا شاهد عليه ولا دليل! لقد كان السلف يتسامحون في رواية مثل هذه الأساطير وليتهم لم يفعلوا.

(٤) سورة الأعراف: ٢٣. (٥) أ: أعجبه.

ومرض آدم أحد عشر يومًا وجاءته الملائكة بالأكفان والحنوط فقبض يوم الجمعة [وصُلِّيَ عليه].

وفي حديث أُبي بن كعب عن النبي ﷺ أن الملائكة لما صلَّت على آدم كبَّرت عليه أربعًا [١].

وقال ابن عباس: مات [آدم] [٢] على نود وهو الجبل الذي أُهبط عليه فصلى عليه شيث وكبّر ثلاثين تكبيرة.

ولما ركب نوح السفينة حمل آدم ودفنه ببيت المقدس، ولم يمتْ حتى بلغ ولدُه وولد ولده أربعين ألفًا.

وقال عروة: لما مات آدم وضع عند باب الكعبة وصلى عليه جبريل، ودفنته الملائكة في مسجد الخيف [والله أعلم [٣]].

* * *

(فصل)

وقد حذَّرت قصةُ آدم من الذنوب وخوّفت عواقبها، وكان بعض السلف يقول: غرقت السفينةُ ونحن نِيام، آدم لم يُسامح بلقمة ولا داود بنظرة، ونحن على ما نحن فيه.

* * *

الكلام على البسملة

يا ناظرًا يرنو بعينيْ راقدٍ ... ومُشاهدًا للأمر غير مشاهدِ
منّيتَ نفسك ضُلةً وأبحْتها ... طرقَ الرجاء وهنَّ غير قواصد
تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجِي ... دَرَج الجنان بها وفوزَ العابد [٤]
ونسيت أن اللّه أخرج آدمًا ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

– روى الضحاك عن ابن عباس قال: بينما آدم يبكي إذ جاءه جبريل عليهما [٥] السلام، فسلم عليه فبكى آدم، فبكى جبريل لبكائه وقال: يا آدم ما هذا البكاء؟ فقال: [٦] يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حوَّلني ربي من السماء إلى الأرض، ومن دار النعمة إلى دار البؤس؟! فانطلق جبريل بمقالته، فقال اللّه تعالى: يا جبريل انطلق إليه وقل له: يا آدم يقول

---

(١) أ: إن الملائكة صلت على آدم وكبرت عليه أربعًا.
(٢) ليست في أ.
(٣) من أ.
(٤) جـ: بها يفوز العابد.
(٥) أ: عليه السلام.
(٦) أ: قال.

لك ربك: ألم أخلقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أُسجد لك ملائكتي؟ ألم أُسكنك جنتي؟ ألم آمرك فعصيتني؟ وعزتي وجلالي لو أن ملء الأرض رجالًا مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، غير أنه يا آدم سبقت رحمتي غضبي، وقد سمعتُ تضرعك ورحمتُ بكاءك وأقلت عَثْرتك.

- طوبى لمن قرَن ذنبه بالاعتذار، وتلافاه باستغفاره آناء الليل [وأطراف [1]] النهار، والويل كل الويل لمن أحكم عقْد الإصرار، أيها العاصي تفكر في حال أبيك، وتذكر ما جرى له ويكفيك، أُبعد بعدَ القُرب من ربه، وأُهبط من الجنة لشُؤم ذنبه، وأسره العدو بخديعته في حزْبه [ويسعى في هلاكك فاعتبر به [2]] فرحم اللَّه امرأ تأهّب لمحاربة عدوه في رواحه وغدوِّه [3]، فإنه مُراصده في القول والعمل، ويحسن له بالمكر والتسويف والأمل [4]، ويذكِّره الهوى وينسيه الأجل، فليلبس أحصنَ الجُنن، فالرامي يطلب الخلل.

اصْبِرْ لمرّ حَوَادِثِ الدِّهر ... فلتحمدنَّ مغبَّة الصبر
واجهد لنفسك قبل ميتَتِها ... واذخر [5] ليوم تفاضل الذخر
فكأنّ أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت مُحَشْرج الصدر
وكأنهم قد قلَّبوك على ... ظهر السرير وأنت لا تدري
وكأنهم قد زودوك بما ... يتزوّد الهلكى من العطر
يا ليت شعري كيف أنت على ... نَبْش الضريح وظُلمة القبر
أو ليت شعري كيف أنت إذا ... غُسِّلت بالكافور والسِّدر
يا ليت شعري ما أقول [6] إذا ... وضع الكتاب صبيحة الحشرِ
ما حُجتي فيما أتيتُ على ... علمٍ ومعرفة وما عذري
يا سوأتا مما اكتسبتُ ويا ... أسفي على ما فات من عمري
ألَّا أكون عقلت شأني فاستقـ ... ـبلت ما استدبرت من أمري

- يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان، يا مُعرضًا عن الأرباح متعرضًا للخسران، متى تنتبه من رقادك أيها الوسْنان، متى تُفيق لنفسك؟ أما حُقَّ أما آن؟!

رجوتَ خلودًا بعد ما مات آدم ... ونوح ومَن بعد النبيين من قرنِ

(١) من ب.
(٢) سقطت من أ.
(٣) أ: عدوه في رواحه وغدوه.
(٤) ب: ويحسن له بالمكر التسويف والأمل.
(٥) أ: وادخل. محرفة.
(٦) أ: فيا ليت شعري كيف أنت إذا. محرفة.

وسوّفتَ بالأعمال حتى تصارَمتْ سِنُوك فلا مالٌ ولا ولد يُغني
فشمّر لدار الخلد فاز مشمِّر إليها ونال الأمن في منزل الأمن
لقد شغلتنا أمُّ دفْرٍ [١] بزخرف شُغلنا به عن طاعة اللَّه ذي المنِّ
عجبتُ لدنيا لا تسرّ وإنما تشُوب على تلك المسرة بالحزن
ونحن عليها عاكفون كأنما بنا نَبَهٌ [٢] من فعلها حلم الجفن

إلامَ ترفض قول الناصح وقد أتاك بأمر واضح؟! أترضى الشَّيْنَ والقبائح؟! كأني بك قد نُقلت إلى بطون الصفائح وبقيت محبوسًا إلى الحشر تحت تلك الضرائح، وختم الكتاب على آفات وقبائح.

إنّا على قلْعة من هذه الدارِ نساق عنها [٣] بإمساء وإبكارِ
نبكي ونندبُ آثارَ الذين مضوا وسوف تَلْحق آثارٌ بآثارِ
طالتْ عمارتنا الدنيا على غَررٍ ونحن نعلم أنّا غير عمَّار
يا من يَحث بِتَرْحالٍ على عجل ليس المحلة غير الفوز من نار [٤]
فاترك مفاخرةَ الدنيا وزينتها يومُ القيامة يومُ الفخر والعارِ

لقد أبانت الدنيا للنواظر عيوبها، وكشفت للبصائر غُيوبها، وعدَّدت على المسامع ذنوبها، وما مرّت حتى أمرَّت مشرُوبها [٥]، فلذتها مثل لمعان برْق، ومُصيبتها واسعة الخرْق، [سوَّت] [٦] عواقبها بين سلطان الغرب والشرق، وبين عبد [قنّ] وحقير ولا فرق، فما نجا منها ذو عدد ولا سلم فيها صاحب عُدد، مزّقت واللَّه الكلَّ بكف البدَد ثم ولّت وما أَلْوت على أحد.

أخبرنا أحمد بن محمد المدادي [٧] قال: أنبأنا الحسن بن أحمد البنا، قال: حدثنا الحسين بن بشران، قال: حدثنا ابن صفوان، قال: حدثنا أبو بكر القرشي، قال: حدثني أبو علي الطائي، قال: حدثني المحاربي، عن ليث، أن عيسى بن مريم عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتْماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ فقالت: لا أحصيهم،

---

(١) أم دفر: الدنيا.
(٢) كذا في « ب ». والقطعة كلها ساقطة من « أ »، والنبه بالتحريك: الضالة توجد عن غفلة.
(٣) ب: نساق منها.
(٤) أ: غير الفوز والنار.
(٥) شروبها. محرفة.
(٦) سقطت من ب.
(٧) أ: بعدها: بإسناده.

قال: أوَكلهم مات عنك أو كلهم طلقك [١]؟ قالت: بل كلهم قتلتُ [٢].

فقال عيسى: بؤسًا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين!

إلامَ تُغر بالأمل الطويل ... وليس إلى الإقامة من سبيل
فدَع عنك التعلل بالأماني ... فما بعْد المشيب سوى الرحيل
أتأمن أن تدوم على الليالي ... وكم أفنين قبلك من خليلِ
وما زالت بناتُ الدهر تُفني [٣] ... بني الأيامِ جيلًا بعدَ جيلِ

- للَّه در أقوام تركوا الدنيا فأصابوا، وسمعوا مناديَ ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ ﴾ [٤] فأجابوا، وحضروا مشاهد التقى فما غابوا، واعتذروا مع التحقيق ثم تابوا، وقصدوا بابَ مولاهم فما رُدُّوا ولا خابوا.

أخبرنا [٥] عبد الوهاب بن المبارك، قال: حدثنا أبو الحسين بن عبد الجبار، قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفتح، قال: أنبأنا محمد بن عبد اللَّه الدقاق، أنبأنا ابن صفوان، حدثنا أبو بكر القرشي، أخبرنا محمد بن الحسين، قال: حدثني عبد اللَّه بن عثمان، قال: حدثني عمار بن عمرو البجلي، قال: سمعت عمر بن ذر [٦] يقول: لما رأى العابدون الليل قد هجَم عليهم ونظروا إلى الغَفَلة قد سكنوا إلى فُرُشهم ورجعوا إلى ملاذّهم، قاموا إلى اللَّه ﷻ فرحين مستبشرين بما قد وهب اللَّه لهم من السهر وطول التهجد، فاستقبلوا الليل بأبدانهم، وباشروا ظُلمته بصفاح وجوههم، فانقضى عنهم الليل وما انقضتْ لذتهم من التلاوة، ولا ملَّت أبدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان وقد ولَّى الليل بربح وغبْن، فاعملوا لأنفسكم في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غُبن خير الدنيا والآخرة [٧]، كم من قائم للَّه تعالى في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حُفرته، وكم من نائم قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة اللَّه تعالى للعابدين غدًا.

أخبرنا عمر بن ظُفر [٨]، قال: أنبأنا جعفر بن أحمد، قال: حدثنا عبد العزيز بن علي، قال: حدثنا علي بن عبد اللَّه الصوفي، قال: حدثني علي بن العباس، قال: حدثني علي ابن سلمان، قال: رأيت علي بن أبي طالب ﷺ في النوم فسمعته يقول:

---

(١) ب: قال: فكلهم طلقك أو كلهم مات عنك. (٢) أ: قالت: بل كلهم مات عني.
(٣) أ: وما زالت خطوب الأرض تفني. (٤) سورة يونس: ٢٥.
(٥) أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بإسناده إلى عمار بن عمرو البجلي.
(٦) أ: عمرو بن دينار. (٧) أ: خير الليل والنهار.
(٨) ب: أخبرنا مظفر. محرفة.

لولا الذين لهم وِرْد يَقُومونا وآخرون لهم سَرْد يصومونا
لدُكْدكت أرضكم من تحتكم سحَرًا لأنكم قومُ سوء ما تطيعونا

- يا من أعماله كلها إذا تُؤملتْ سَقَط (١)، كم أثبت له عمل فلما عدم الإخلاص (٢) سقط، يا حاضر الذهن في الدنيا فإذا جاء الدِّين خلط، يجعل همه في الحساب فإذا صلى اختلط، يا ساكتًا عن الصواب فإذا تكلم لغط، يا قريب الأجل وهو يجري من الزلل على نمط، يا متكاثف الدَّرن لم يُغسل ولم يُمط، يا من لا يعظه وهن العظم ولا كلام الشَّمط، أما خَطُّ الشيب يضحك في مَفْرق الرأس إذا وخَط، أما المُقام للرحيل وعلى هذا شرط، يا من لا يرعوي ولا ينتهي (٣) بل على منهاج الخطيئة فقط، يا مُثبتًا قبيح (٤) المعاصي لو تاب لانكشط، أما تميل إلى الصواب أما تترك الغلط (٥).

يا من إذا قيل له: ويحك أقْسِطْ قَسط (٦)، إلى كم جوْر وظلم إلى كم جهْل وشطط، ويحك بادر هذا الزمان [الخالي] (٧) الملتقط، فالصحة غنيمة والعافية لُقط، فكأنك بالموت قد سلَّ سيفَه عليك واخترط، أين العزيز في الدنيا أين الغني المغتبط؟! خَيَّم بين القبور وضرب فسطاطه في الوسط، وبات في اللحد محبوسًا كالأسير المرتبط، واستُلبت ذخائره فُفرِّغ الصندوق والسّفط (٨)، وتمزق (٩) الجلْد المستحسن وتمعَّط الشعر القطط (١٠)، فكأنه ما رجَّله قط وكأنه ما امتشط، وبعُد [عنه من يحبه - إي واللَّه - وسخط (١١)] ورضي ورَّاثه (١٢) بما أصابوه وجعلوا نصيبه السخط، وفرّقوا (١٣) ما كان يجمعه بكف البخل والقنط، ووقع في قفْر لا ماء فيه ولا حنَط (١٤)، وكم حذّر من وقوعه وكم أُوقف (١٥) على النُّقط! وكم حدِّث أن سعد بن معاذ في القبر انضغط، ويحك اقبل نصحي ولا تتعرض للسخط، واحذر من المعاصي فبلقمة زلَّ آدم وهبط، ويحك اغتنم (١٦) رخص السعر فكأن قد قحط، وبادر للسلامة (١٧) فكأن قبض من بسط، وتفكر كيف كُفَّ بالعقوبة كفُّ من انبسط؟! أتُرى تقبل [قولَ (١٨)] النذير أو لا تصدق الفَرَط؟!

---

(١) ب: يا من أعماله إذا تأملت كلها سقط.
(٢) ب: فلما طولب بالإخلاص سقط.
(٣) ب: ولا يلتوي.
(٤) أ: قبح.
(٥) ب: أما تؤثر إلا الغلط.
(٦) أ: يا من كلما قيل له: أقسط قسط.
(٧) ليست في أ.
(٨) السفط: وعاء من جلد.
(٩) ب: ومزق.
(١٠) تمعط: سقط، والقطط: الشعر القصير الجعد.
(١١) ليست في أ.
(١٢) أ: ورضي وارثه.
(١٣) وفرقوا ما جمعه.
(١٤) ب: ولا خبط.
(١٥) ب: وكم أوقع.
(١٦) أ: واغتنم.
(١٧) أ: وبادروا السلامة.
(١٨) ليست في أ.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ... ﴾ (١).

قد أمر اللّٰه ﷻ بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (٢) ووعد القبولَ فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ (٣) وفتح باب الرجاء فقال: ﴿ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ (٤).

أخبرنا هبة اللّٰه بن محمد بن المذْهَب، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللّٰه بن أحمد، حدثني أبي، أخبرنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، حدثنا عمرو بن مرة، سمعت أبا بردة قال: سمعت الأغرّ يحدث عن ابن عمر (٥) أنه سمع رسول اللّٰه ﷺ يقول: « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة ». (انفرد بإخراجه مسلم).

وبالإسناد حدثنا أحمد، حدثنا حسن بن محمد، حدثنا محمد بن مطر، عن زيد ابن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيلماني (٦) قال: اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ فقال أحدهم: سمعتُ رسول اللّٰه ﷺ يقول: « إن اللّٰه تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم ». فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول اللّٰه ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: « إن اللّٰه تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبلَ أن يموت بنصف يوم ». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول اللّٰه ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: « إن اللّٰه تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضَحْوة » فقال الرابع: أنت سمعتَ هذا من رسول اللّٰه ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعته يقول: « إن اللّٰه تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر بنفسه » (٧).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « للّٰه أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دوية [مهلكة (٨)] معه راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكاني الذي أضللْتُها فيه فأموت فيه، فأتى مكانه فغلبته عيناه، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يُصلحه، فاللّٰه أشد فرحًا

---

(١) سورة التوبة: ١١٢. (٢) سورة النور: ٣١.

(٣) سورة الشورى : ٢٥. (٤) سورة الزمر: ٥٣.

(٥) الذي في صحيح مسلم : ٧٣/٨، ط استنبول، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه: سمعت الأغر، وكان من أصحاب النبي ﷺ، يحدث ابن عمر قال: قال رسول اللّٰه ﷺ إلخ.

(٦) أ: ابن السلماني.

(٧) مسند أحمد حديث رقم : ١٥٠٧٣، وهو ضعيف.

(٨) سقطت من أ.

بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده »[١].

وأوحى اللَّه تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود لو يعلم المدْبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقًا إليَّ وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليَّ؟!

* * *

إخواني: الذنوبُ تغطي على القلوب، فإذا أظلمت مرآةُ القلْب لم يبنْ فيها وجهُ الهدى، ومن علم ضرر الذنب استشعر الندم.

قال أبو علي الرُّوذباري رحمه الله: « من الاغترار أن تُسيء فيحسَن إليك فتترك التوبة توهمًا أنك تُسامح في الهفوات »

فواعجبًا [٢] لمن يأمن وكم قد أُخذ آمِنٌ مِنْ مأمن، ومن تفكر في الذنوب علم أن لذَّات الأوزار زالت، والمعاصي بالعاصي إلى النار آلتْ، ورُبَّ سخط قارن ذنبًا فأوجب بُعدًا وأطال عتبًا، وربما بُغت العاصي بأجله ولم يبلغ بعض [٣] أمله، وكم خيرٍ فاته بآفاته، وكم بلية في طيِّ جناياته.

قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة.

قائدُ الغفلة الأمل ... والهوى رائد الزّللْ

قتلَ الجهلُ أهلَه ... ونجا كل من عقلْ

فاغتنم دولة الشبيـ ... ـبة واستأنفِ العمل

أيها المُبْتَني الحصو ... ن وقد شابَ واكتهلْ

أخبر الشيبُ عنك أنـ ... ـك في آخر الأجلْ

فعلامَ الوقوف في ... عرصة العجز والكسل

منزلٌ لم يزل يضيـ ... ـق وينبو بمن نزل

أنت في منزل إذا ... حلَّه نازل رحل

طوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة، ورجع عن خطاياه قبل فوْت الأوبة، وبادرَ [٤]

---

(١) صحيح البخاري: ٣/١٧٠، كتاب الدعوات، باب التوبة، بحاشية السندي، وصحيح مسلم: ٨/٩١ – ٩٣، من طرق متعددة.

(٢) أ: يا عجبًا ممن.

(٣) أ: ببعض.

(٤) ب: وبادل. محرفة.

الممكن قبل أن لا يمكن، من رأيتَ من آفات دنياه سلِم، ومن شاهدته صحيحًا وما سقم، وأي حياة بالموت لم تنختم [(١)]، وأي عُمر بالساعات لم ينصرم، إن الدنيا لغرور حائل، وسرور إلى الشرور آيل، تُردي مُستزيدها وتُؤذي مستفيدها، بينما طالبها يضحك أبكته ويفرح بسلامته أهلكته، فندم على زلَله إذ [(٢)] قدم على عمله، وبقي رهينَ خوفه ووجله، ووَدَّ أنْ لو زيدَ ساعةً في أجله، فما هو إلا أسيرٌ في حُفرته، وخسير في سفرته، وهذه وإن كانت [(٣)] صفةَ من عنَّا [(٤)] نأى، فكذا نكون [لو أن العاقل ارتأى [(٥)]].

سبيلك في الدنيا سبيلُ مسافرٍ ... ولا بدَّ من زادٍ لكل مسافرِ
ولا بدَّ للإنسان من حَمْل عُدة ... ولا سيَّما إن خاف سَطْوة قاهرِ
وطُرْقُكَ طُرق ليس تُسلك دائمًا ... وفيها عقاب بعد صعب القناطرِ

أخبرنا المبارك بن علي، أنبأنا علي بن محمد بن العلاف، أنبأنا علي بن أحمد الحمامي، حدثنا جعفر بن محمد الخواص، حدثني إبراهيم بن نصر، قال: حدثني إبراهيم بن بشار، قال: كنت يومًا مارًّا مع إبراهيم بن أدهم في صحراء، إذ أتينا على قبرٍ مسنَّم، فترحم عليه وبكى، فقلت: قبر من هذا؟ فقال: هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن، كان غريقًا في بحار هذه الدنيا، ثم أخرجه اللَّه منها، لقد بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيء من ملاهي دنياه ثم قام من مجلسه [ونام] [(٦)] مع من يخصه [(٧)] من أهله، فرأى رجلًا واقفًا على رأسه بيده كتاب، فناوله إياه [(٨)] [فقرأه] [(٩)] فإذا فيه: تُؤثرون فانيًا على باق [(١٠)]، ولا تغتر بملكك وسلطانك وعبيدك وولدك، فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عَديم، وهو مُلك لولا أن بعده هُلك، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور، وهو يومٌ لو كان يوثق فيه بغدٍ، فسارعْ إلى أمر اللَّه فإنه يقول: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [(١١)].

فانتبه فزعًا [مرعوبًا] [(١٢)] وقال: هذا تنبيه من اللَّه ﷻ وموعظة، فخرج من [(١٣)] مُلكه لا يعلم به أحد وقصد هذا الجبل فتعبد فيه، فلما بلغني أمره قصدته فسألته فحدثني ببدء أمره وحدثته ببدء أمري فما زلت أقصده حتى مات، وهذا قبره رحمه اللَّه تعالى [(١٤)].

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق، أنبأنا ابن باكويه، حدثنا عمر

---

(١) أ: لا تنختم.
(٢) ب: إذا قدم.
(٣) أ: إن كانت.
(٤) أ: من هو عنا.
(٥، ٦) سقطت من أ.
(٧) ب: مع من حضره.
(٨) ب: فتناوله.
(٩) سقطت من أ.
(١٠) ب: لا تؤثرن فانيًا على باق.
(١١) سورة آل عمران: ١٣٣.
(١٢) سقطت من ب.
(١٣) ب: عن ملكه.
(١٤) رحمة اللَّه عليه.

ابن محمد الأردبيلي، حدثنا علي بن محمد القرشي، حدثنا علي بن الموفق، قال: حدثنا منصور بن عمار قال: خرجت ليلة وظننت أني قد أصبحت وإذا عليَّ ليل، فقعدت عند باب صغير، وإذا بصوت شاب [١] يبكي ويقول: وعزتك وجلالك ما أردتُ بمعصيتك مخالفتك، وقد عصيتك حين عصيتك وما أنا بنَكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض ولا بنظرك مُستخفٌّ، ولكنْ سوّلتْ لي نفسي وغلبتْ عليّ [٢] شقْوتي، وغرني سِترك المرخى عليَّ، والآن [٣] فمِنْ عذابك مَنْ ينقذني، وبحبل من أتصل إن قطعتَ حبلك عني، واسوأتاه من تصرُّم أيامي في معصية ربي، يا ويلي! كم أتوب وكم أعود، قد حان [لي [٤]] أن أستحي من ربي.

قال منصور: فلما سمعتُ كلامه قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [٥] الآية، فسمعت صوتًا واضطرابًا شديدًا ومضيتُ لحاجتي، فلما أصبحتُ رجعت، وإذا جنازة [٦] موضوعة على ذلك الباب، وعجوز تذهب وتجيء فقلت لها: من هذا الميت [٧] منك؟ فقالت: إليك عني لا تجدد علي أحزاني، قلت: إني رجل غريب، قالت: هذا ولدي، مرَّ بنا [٨] البارحة رجلٌ لا جزاه الله خيرًا قرأ آية فيها ذكر النار، فلم يزل ابني يبكي ويضطرب حتى مات.

قال منصور: هكذا والله صفة الخائفين يا ابن عمار.

* * *

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية، يا أسير المعاصي ابكِ على الذنوب الماضية، يا مبارزًا بالقبائح أتصبرُ على الهاوية؟ يا ناسيًا ذنوبه والصُّحف للمنسيِّ حاوية، أسفًا لك إذا جاءك الموتُ وما أنبت، وا حسرةً لك إذا دُعيت إلى التوبة فما أجبتَ، كيف تصنع إذا نودي بالرحيل وما تأهبت؟! ألست الذي بارزْتَ بالكبائر وما راقبت؟

قد مضى في اللّهو عُمْري ... وتناهى فيه أمري
شمّر الأكياسُ وانا ... واقفٌ قد شيب أمري [٩]

---

(١) بصوت خاف يبكي.
(٢) ب: وغلبتني شقوتي.
(٣) ب: فالآن من عذابك من يستنقذني.
(٤) من ب.
(٥) سورة التحريم: ٦.
(٦) ب: فإذا أنا بجنازة.
(٧) ب: من الميت.
(٨) أ: مر بي.
(٩) ب: شمر الأكياس أمري والتفريط قد شتت فكري. ولعلها محرفة.

بـانَ ربـح الـنـاسِ دونـي ... ولِـحَـيْـنـي بـانَ خُـسـري
لـيـتـنـي أقـبـل وعـظـي ... لـيـتـنـي أسـمـع زجـري
كـلِّ يـومٍ أنـا رهْـنٌ ... بـيـن آثـامـي ووزري
لـيـت شـعـري هـل أرى لـي ... هـمـةً فـي فـك أسـري
أو أرى فـي ثـوب صـدْقٍ (١) ... قـبـل أن أنـزل قـبـري
ويـح قـلـبـي مـن تـنـاسـيـ ... ـه مُـقـامـي يـوم حـشـري
واشـتـغـالـي عـن خـطـايـا ... أثـقـلـتْ واللّـه ظـهـري

كان لبعض العصاة أم تعظه ولا ينثني (٢)، فمرّ بالمقابر فرأى عظمًا نخرًا، فمسه فانفتّ في يده [فأَنِفَتْ نفسُه] (٣) فقال لنفسه: أنا غدًا هكذا! فعزم على التوبة فرفع رأسه إلى السماء وقال: يا إلهي اقبلني وارحمني (٤)، ثم رجع إلى أمه حزينًا فقال: يا أماه ما يُصنع بالآبق (٥) إذا أخذه سيده؟ فقالت: يَغُلّ قدميه ويديه ويخشن ملبسه ومطعمه، قال: يا أماه أريد جبة من صوف وأقراصًا من شعير وافعلي بي ما يُفعل بالعبد الآبق من مولاه، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني. ففعلت به ما طلب،فكان إذا جن عليه الليل أخذ في البكاء والعويل، فقالت له أمه ليلةً: يا بني ارفق بنفسك، فقال: يا أماه إن لي موقفًا طويلًا بين يدي رب جليل، فلا أدري أيؤمر بي إلى ظلٍّ ظليل أو إلى شرٍّ مقيل، إني أخاف عناءً لا راحةَ بعده [أبدًا] (٦)، وتوبيخًا لا عفو معه، قالت: فاسترح قليلًا، فقال: الراحةَ أطلبُ يا أماه، كأنك بالخلائق غدًا يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار.

فمرّت به ليلةً في تهجده هذه الآية: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٧) فتفكر فيها وبكى واضطرب وغُشي عليه فجعلت أمه تناديه ولا يجيبها، فقالت له: قرةَ عيني أين المُلتقى؟ فقال بصوتٍ ضعيف: إن لم تجديني في عرصة القيامة فسلي مالكًا عنّي، ثم شهق شهقة فمات رَحِمَهُ اللَّهُ، فخرجت أمه تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار. فلم يُر أكثرُ جمعًا ولا أغْزر دمعًا من ذلك اليوم.

هذه واللّه علامة (٨) المحبين وأمارات الصادقين وصفات المحزونين.

* * *

(١) ب: أو أرى توبة صدق.
(٢) ب: ولا ينتهي.
(٣) من ب.
(٤) ب: أقلني عثرتي واقبل توبتي.
(٥) ب: ما يفعل بالآبق.
(٦) ليست في ب.
(٧) سورة الحجر: ٩٢، ٩٣.
(٨) هامش أ: علامات.

مـآتـمُ الـمذنـبـيـن ما تـنـقـضـي / آخرَ الـدهـر أو يـحـلّـوا اللُّـحـودا
وحقيق أن [١] ينوحوا ويبكوا / قد عصوا ماجدًا رءوفًا ودودا
كلُّ ثكلى أحزانُها لِنفادٍ / ولنا الحزنُ قد نراه جديدا
كيف تفنى أحزان من عاهد اللّـ / ـه مرارًا وخانَ منه العهودا [٢]
ويح نفسي ما أقول إذا ما / أحضر اللّه رُسله لي شهودا
ثم قال: اقرأ ماذا عملت وجاوز / ت بما كان منك فيه الحدودا
ثم تُخفي لما استترتَ من الخلْـ / ـق وبارزتني وكنتُ شهيدا

أيا كثير الشقاق، يا قليل الوفاق، يا مرير المذاق، [يا قبيح الأخلاق] [٣] يا عظيم التواني قد سار الرِّفاق، يا شديد التمادي قد صعُب اللحاق، إخلاصُك مُعْدم [٤] وما للنفاق نَفاق، معاصيك في إدراك والعمر في إمْحاق [٥]، وساعي الأجل مُجدّ كأنه في سباق، لا الوعظُ يزجرك، ولا الموت ينذرك، ما تُطاق.

سجع على قوله تعالى: ﴿ التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ... ﴿١١٢﴾ ﴾:

سبحان من وفق [للتوبة] [٦] أقوامًا، ثَبّتَ لهم على صراطها أقدامًا، كفُّوا الأكفّ عن المحارم احترامًا، وأتعبوا في استدراك الفارط عظامًا، فكفر عنهم ذنوبًا وآثامًا [٧]، ونشر لهم [بالثناء] [٨] على ما عملوا أعلاما، فهم على رياض المدائح بترك القبائح يتقلبون، ﴿ التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ... ﴿١١٢﴾ ﴾.

كشف لهم سُجف الدنيا فرأوا عيوبها، [وألاح لهم الأخرى فتلمحوا غُيوبها، وبادروا شمس الحياة يخافون غروبها] [٨] وأسبلوا من دموع الأجفان على تلك الأشجان غَروبها، واشتغلوا بالطاعات فحصّلوا مرْغوبها، وحثّهم الإيمانُ على الخوف فما يأمنون، ﴿ التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾.

ندموا على الذنوب فنُدبوا [٩]، وسافروا إلى المطلوب فاغتربوا، وسقوا غرس الخوف دمْعَ [١٠] الأسف وشربوا، فإذا أَقْلقهم الحذرُ طاشُوا وهربوا، وإذا هبَّ عليهم نسيم

---

(١) ب: بأن.
(٢) أ: كيف يفارق الأحزان من عاهد اللّه مرارًا وخان العهود. وفيه تحريف.
(٣) ليست في ب.
(٤) ب: إخلاصك مذموم.
(٥) ب: معاصيك في ازدياد والعمر في إلحاق.
(٦) من: ب.
(٧) ب: ذنوبًا كانت عظامًا.
(٨) سقط من أ.
(٩) ب: فقربوا.
(١٠) ب: دموع.

الرجاء عاشوا وطربوا، فتأمَّل أرباحهم وتلمَّح [١] ما كسبوا، واعلم أن نيل النصيب بالنَّصَب يكون، ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾.

نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار، فعلموا أنها لا تصلح للقرار، وتأملوا أساسها فإذا هو على شفا جُرف هار، فنغصوا [٢] بالصيام لذة الهوى بالنهار، وبالأسحار هم يستغفرون، ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾.

هجروا المنازلَ الأنيقة، وفصموا عُرى الهوى الوثيقة، وباعوا الفاني بالباقي وكتبوا وثيقة، وحمَّلوا نجائب الصبر فوقَ ما هي له مُطيقة، وطلبوا الآخرة والله على الحقيقة، هكذا يكون ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾.

أبدانهم قلقى من الجوع والضرر، وأجفانهم قد حالفت في الليل السهر، ودموعهم تجري كما يجري دائمة المطر، والقومُ قد تأهَّبوا فهم على أقدام السفر، عبروا عليكم ومرُّوا لديكم وما عندكم خبر، وترنمت حُداتهم لو أنكم تسمعون، ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾.

يا ربِّ سر بنا في سرْب النجابة، ووفقنا للتوبة والإنابة، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة، يا من إذا سأله المضطرُّ أجابه، يا من يقول للشيء كن فيكون، ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾.

* * *

* *

*

---

(١) ب: وتأمل ما اكتسبوا.

(٢) فرفضوا.

المجلس الثاني

في قصة قابيل وهابيل

الحمد للَّه الذي نصب من كل كائن على وحدانيته بُرهانًا، وتشرف على خلقه كما شاء عزًّا وسلطانًا [وتصرف في خليقته كما شاء عزًا وسلطانًا (١)] واختار المتقين فوهب لهم [بنعمته... (٢)] أمنًا وإيمانًا، عمَّ المذنبين برحمته عفوًا وغفرانًا، ولم يقطع أرزاق أهل المعصية جُودًا وامتنانًا، وأعاد شؤم الحسد على الحاسد لأنه ارتكب عدوانًا، ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ (٣).

روّح أهل الإخلاص بنسيم قُرْبه، وحذّر يوم القصاص بجسيم كَربه، وحفظ السالك نحو رضاه في سربه، وأكرم المؤمن به إذ كتب الإيمان في قلبه، حكم في ربوبيته فأمر ونهى، وأقام بمعونته ما ضعف ووهى، وأيقظ بموعظته من غفل وسها، ودعا المذنب إلى توبة لغفران ذنبه.

أرسل شَمالًا ودبورًا، فأنشر زرعًا لم يكن منشورًا، وجعل الشمس سراجًا والقمر نورًا، بين شرقه وغربه.

ردَّ (٤) عيون العقول عن صفته وأغْشاها، وأنذر بيوم محاسبته من يخشاها، وخلق لآدم حواء ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ (٥).

ليس بجسم فيشبه الأجسام، ولا بمتجوف فيحتاج إلى الشراب والطعام، ولا تُحدث له صفة فيتطرق (٦) عليها انعدام، نَصِفُه بالنقل من غير كيف والسلام، ولعنَ اللَّه الجهميَّ المشبِّه.

أحمده حمد عبدٍ لربه معتذر إليه من ذنبه، وأقر بتوحيده إقرار مُخلص من قلبه، وأصلي على رسوله محمد وآله وصحبه، أبي بكر الصديق ضجيعه في تربه، وعمر الذي لا يسير الشيطان في سربه، وعثمان الشهيد لا في صفّ حربه، وعلى عليٍّ معينه ومغيثه في كربه، وعمه العباس المقدم على أهله وحِزبه (٧).

(١، ٢) ليست في أ. (٣) سورة المائدة: ٢٧. (٤) أ: وردَّ.

(٥) سورة الأعراف: ١٨٩. (٦) أ: يتطرق.

(٧) في ب زيادة: « جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الواجبة طاعته في شرق العالم وغربه ». وقد التزمت « ب » بهذه الزيادة في كل باب. ونحن نهملها دائمًا، فلعلها مقحمة.

[اللَّهم أصلح كلًّا منا بإصلاح قلبه وأنعم عليه بغفران ذنبه، وانفعني وكل حاضر بجسده ولُبّه [١]].

* * *

قال اللّه تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا... ﴾ [٢]

ولدت حواء لآدم أربعين ولدًا [٣]، وكانت لا تلد إلا توأمًا ذكرًا وأنثى، وأول الأولاد [٤] قابيل وتوأمته قليما، وجاء هابيل وتوأمته لبودا.

وقابيل وهابيل هما المراد بقوله تعالى: ﴿ ابْنَيْ آدَمَ... ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقد حكى ابن إسحاق أنها حملت بقابيل في الجنة. وفيه بُعدٌ.

والنبأ: الخبر، ومعنى قوله: ﴿ بِالْحَقِّ... ﴿٢٧﴾ ﴾ أي كما كان، **والقُربان**: فُعلان من القُرب، قرّباه لسبب [٥].

روى السُّدِّي عن أشياخه أن آدم عليه السلام كان يزوج غلامَ هذا البطن جارية البطن الآخر، وجارية هذا البطن غلام ذلك [٦] البطن، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فطلب هابيل أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه، فقرّبا قُربانًا ليتقبل من أحقهما بالمستحسَنة.

فقرّب هابيلُ جَذَعة سمينة، وقرَّب قابيل حُزمة سُنبل، فنزلت النار فأكلت قربانَ هابيل، وتركت قُربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك.

وقوله: ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ... ﴿٢٨﴾ ﴾ اللام لام القسم، تقديره: أقسم لئن بسطتَ. وجوابه: ﴿ مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ... ﴿٢٨﴾ ﴾ والمعنى: ما أنتصر لنفسي ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ... ﴿٢٨﴾ ﴾ أن أبسط يدي للقتل [٧].

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي منع من قبول قُربانك، والمعنى: إنما أريد هذا إن قتلتني.

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ... ﴿٣٠﴾ ﴾ أي زينت له قتله، **وفي كيفية قتله ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه رماه بالحجارة حتى قتله. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

---

(١) من أ. (٢) سورة المائدة: ٢٧. (٣) هامش ب: بطنًا.
(٤) ب: وأول أولاده. (٥) ب: بسبب. (٦) ب: ذاك.
(٧) أ: إن بسطت يدي لتقتل.

والثاني: جاءه وهو نائم فضرب رأسه بصخرة، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والثالث: رضخ رأسه بين حجرين. قاله ابن جريج.

وفي موضع صرعه ثلاثة أقوال:

أحدها: جبل ثوْر [١]. قاله ابن عباس.

والثاني: عند عقبة حراء. حكاه ابن جرير.

والثالث: بالبصرة. قاله جعفر الصادق.

قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي صار منهم، وخسرانه بمعصيته [٢] ربَّه وبإسخاط والديه، ومصيره إلى النار.

وروى مجاهد عن ابن عباس ﵄ أنه لما قتله حمله على عاتقه مائة سنة فإذا مشى تخط رجلاه الأرض، وإذا قعد وضعه إلى جنبه، إلى أن رأى غرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، ثم بحث الأرض فواراه، فقال حينئذ: ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ... ﴿٣١﴾ ﴾. فأصبح من النادمين على حمله لا على قتله.

وكان عمر هابيل حينئذ عشرين سنة وعُمر قابيل خمسًا وعشرين سنة، فلما قتله هرب إلى اليمن.

وحَزن آدمُ على هابيل فمكث مائة سنة لا يضحك، وقال:

تغيرت البلادُ ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغير كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ وقلَّ بشاشةُ الوجهِ المليح

وأوصى آدم بني هابيل ألا يناكحوا بني قابيل، وشاعت المعاصي في أولاد قابيل، وهم الذين غرقوا في زمن نوح، وانقرض جميع نسل بني آدم سوى نسل شيث، وكان شيث وصيَّ آدم، وأنزل اللّٰه عليه خمسين صحيفة، وأقام بمكة يحج ويعتمر، وبنى الكعبة بالحجارة والطين، فلما احتضر أوصى إلى ابنه أنوش، وأنوش أول من غرس النخل، وعاش تسعمائة سنة وخمس سنين، وولد قينان، فأوصى إليه أنوش، وولد لقينان مهلاييل فأوصى إليه، وولد لمهلاييل يرد [٣] فأوصى إليه، وولد ليرد إدريس ﵇.

وفي زمن (يرد) عُبدت الأصنام.

وسبب ذلك ما أنبأنا به عبد الوهاب بن المبارك، أنبأنا الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة، أنبأنا محمد بن عمران المرزُباني، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد

(١) أ: تود. (٢) ب: بمجيئه بمعصية ربه. (٣) أ: يزد.

الجوهري، حدثنا الحسن بن خليل القتيري، حدثنا أبو الحسن علي بن الصباح، أنبأنا هشام ابن محمد بن السائب، قال: أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﵄ قال: كان بنو شيث يأتون جسد آدم وهو في مغارة فيعظمونه [١]، فقال رجل من بني قابيل: يا بني قابيل إن لبني شيث دوَّارًا يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء، فنحت [٢] لهم صنمًا.

وأخبرني أبي قال: كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قومًا صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: هل لكم يا قوم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ [قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم [٣]] فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن، وجاء قرنٌ آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول، ثم جاء القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أوَّلونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم، فعبدوهم وعظموا أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله ﷿ إليهم إدريس فدعاهم، فلم يزل أمرهم يشتد حتى أرسل الله تعالى نوحًا وجاء الطوفان.

* * *

فأما قابيل فإنه عُذِّب بعد قتله أخاه.

فروى ابن جريج عن مجاهد قال: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه في الشمس حيثما دارت دارت عليه، عليه في الصيف حصيرة من نار وفي الشتاء حصيرة من ثلج.

قال مجاهد: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنحدِّث أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب قسمةً صحيحة، عليه شطر عذابهم.

ويشهد لهذا القول ما أخبرنا به هبة الله بن محمد بسنده عن مسروق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقتل نفسٌ ظُلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سنَّ القتل ». (أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين) [٤].

وروى أهلُ السِّير أن إبليس أتى قابيلَ فقال له: إنما تُقبل قربان أخيك؛ لأنه كان يعبد النار، فبنى بيت نار وعبدها واتخذ أولاده المزامير والطبولَ والمعازفَ.

---

(١) ب: يعظمونه. (٢) أ: فحت. (٣) سقطت من ب.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رقم : ٣٢ وكتاب الاعتصام، باب رقم : ١٥، وصحيح مسلم، حديث رقم : ١٦٧٧.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ... ﴿٣٢﴾ ﴾ قال أبو الفتح النحوي: يقال: فعلت ذلك من أجلك بفتح الهمزة، ومن إجلك بكسرها، ومن إجلالك [١]، ومن جلّك ومن جراك.

ومعنى ﴿ كَتَبْنَا... ﴿٣٢﴾ ﴾: فرضنا ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ... ﴿٣٢﴾ ﴾ أي قتلها ظلمًا ولم تقتل نفسًا، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ... ﴿٣٢﴾ ﴾ أي وبغير فسادٍ تستحق به القتل، ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا... ﴿٣٢﴾ ﴾ لأن الناس كلهم من شخص، فيتصور من المقتول أن يأتي بمثل ما أتى به ابن آدم ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا... ﴿٣٢﴾ ﴾ أي استنقذها من هلكة.

* * *

وقد حذرت [٢] هذه القصة من الحسد، فإنه أحوج [٣] قابيل إلى القتل، كما أخرج إبليسَ إلى الكفر.

والقتلُ أمرٌ عظيم، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » [٤].

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، حدثني أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو النضر، قال: أنبأنا إسحاق بن مسعود، عن أبيه، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « لن يزال المرء في فُسحة من دينه مالم يصب دمًا حرامًا ». (انفرد بإخراجه البخاري) [٥].

وبالإسناد قال أحمد: حدثنا جعفر، حدثنا شعبة، قال سمعت يحيى المحبِّر يحدث عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ثكلته أمُّه رجلٌ قتل رجلًا متعمدًا يجيء يوم القيامة آخذًا قاتله بيمينه أو شماله، أوداجُه تشْخب دمًا في قِبَل العرش يقول: يا رب سل عبدك فيم قتلني » [٦].

أخبرنا علي بن عبد الله، أنبأنا ابن النقور، أنبأنا أبو حفص الكتاني، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عباد المكي، حدثنا حاتم - يعني ابن إسماعيل - عن بشير يعني ابن مهاجر، عن ابن بُريدة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: « لقتلُ المؤمن أعظمُ عند الله تعالى من زوال الدنيا » [٧]. وفي حديث آخر: « من أعان على قتل امرئ مسلم

---

(١) ب: ومن إجلاك. (٢) ب: وقد جرت. (٣) ب: فإنه أخرج.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الديات : ٢٤٦/٣، ومسلم، حديث رقم : ١٦٧٨.

(٥) البخاري : ٢٤٦/٣، « كتاب الديات »، ط الخيرية.

(٦) ب: فيما، والحديث في مسند أحمد، حديث رقم : ٢١٤٣.

(٧) سنن ابن ماجه، حديث رقم : ٢٦١٩، وسنن الترمذي، حديث رقم : ١٣٩٥، وهو صحيح.

ولو بشطر كلمة لقي الله ﷻ مكتوبًا بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله » [١].

فإن قيل: ما معنى شطر [٢] كلمة؟

فالجواب: أن يقول: « أُقْ » كما قال ﷺ: « كفى بالسيف شا » يعني شاهدًا.

* * *

الكلام على البسملة

فالحذر [الحذر] [٣] من الذنوب في الجملة، وأشدُّها ما يتعلق بالخلق، وأعظمها القتل، والخطايا كلها قبيحة، والدين النصيحة.

أستغفر المولى فقد ذهبتْ — شِيَم [٤] الملوكِ وربُّنا الملكُ
لم يحمهمْ مما ألمَّ بهم — ما جمَّعوا قِدْمًا وما ملكوا
لم ينفع المثرين [٥] ما جمعوا — منها ولا الطاغين ما سفكوا
فليفرح الصُّلحاء [٦] إذ صلحوا — وليندم الفُتَّاكُ [٧] إذ فتكوا
مِيزتْ جسومهم حياتهم — وأتاهم المقدار فالتبكُوا
إن الملوك إذا هم احتضروا — ودُّوا هنالك أنهم نسكوا [٨]
[فإذا أسائل عن لداتي فالـ — ـأخبار تُجمع أنهم هلكوا
وعلمتُ أين مضى الخليط فما — أنا بالمنادي أيّةً سلكوا
وعجبتُ من نفسي إذا ضحكتْ — ومن الأنام إذا همُ ضحكوا
رحل الأعزةُ عن ديارهمُ — أَهْونْ بما أخذوا وما تركوا
والمالُ بين الناس مُقتسمٌ — والحقُّ للأرواح مُشترِكُ
وتغرُّنا الدنيا المسيئة والـ — ـآمال والآجالُ تعتركُ [٩]]
ونفوسنا كحمائم وقعتْ — للصائدين ودُونها الشبكُ
متبصِّرات في حبائلها — ووهى [١٠] جناحٌ ضمه الشرَكُ
للَّه سبَّحت الجواهر والـ — ـأعراضُ والأنوار والفلكُ

---

(١) سنن ابن ماجه، حديث رقم : ٢٦٢٠، وهو ضعيف.
(٢) أ: بشطر.
(٣) سقطت من أ.
(٤) ب: شم الملوك.
(٥) أ: المدثرين.
(٦) أ: الصالحون.
(٧) أ: الفاتكون.
(٨) أ: أنهم نسك.
(٩) ما بين القوسين ساقط من أ.
(١٠) أ: وهي جناح.

وتقدّس الظلماتُ خالقَها والشُّهب أفرادٌ ومُشتبكُ
خشعت لباريها البسيطةُ والـ أجبال (١) والقيعان والنبكُ (٢)
وتحدثت عنه الطوالع والـ أبراجُ والسُّكانُ (٣) والحركُ
والحوتُ مجّد في النجوم كما في الزاخرات يمجّد السمكُ
والبيض والصُّفر الفواقعُ والـ مُحْمَرُ والمسْوَدُّ والحلكُ
والطير والوحش الرواتع والـ جنِّيُّ والإنسي والملكُ

* * *

أين آباؤك؟ مرُّوا وسَلَفوا، أين أقرانك؟ أمَا رحلوا وانصرفوا؟ أين أرباب القصور؟ أما أقاموا في القبور وعكفوا، أين الأحباب؟ هجرهم المحبون وصدَفوا، فانتبه لنفسك فالمتيقظون (٤) قد عرفوا، فستحملك الأهل إلى القبور وربما مروا فانحرفوا.

[نادت بوشْك رحيلك الأيامُ أفأنت تسمع أم بك استصمامُ
تأتي الخطوبُ وأنت منتبهٌ لها فإذا مضت فكأنها أحلامُ (٥)]

يا غافلًا ما يفيق، يا حاملًا ما لا يطيق، ألست الذي بارزتَ بالذنوب مولاك؟! ألست الذي عصيته وهو يرعاك، أسفًا لك ما الذي دهاك حتى بِعْت هُداك بهواك؟! يا ليت عينك أبصرتْ ذل الخطايا قد علاك.

أتضحكُ أيها العاصي ومثلكَ بالبُكا أحْرى
وبالحزن الطويل على الّـ ذي قدمته أوْلى
نسيتَ قبيح ما أَسْلَفْـ تَ والرحمنُ لا ينسى
فبادر أيها المسكيـ ن قبلَ حلولِ ما تخشى
بإقلاع وإخلاص لعل اللّه أن يرضى

كان محمد بن السماك يقول: يابن آدم أنت في حبسٍ منذ كنت، أنت محبوس في الصُّلب، ثم في البطن، ثم في القماط، ثم في المكتب، ثم تصير محبوسًا في الكدّ على العيال، فاطلب لنفسك الراحة بعد الموت، لا تكون في حبس أيضًا.

---

(١) ب: والآجام.
(٢) النبك: جمع نبكة، محركة وتسكن وهي أكمة محددة الرأس، أو التل الصغير، أو أرض فيها صعود وهبوط.
(٣) ب: والسكتات. (٤) أ: فالمتفطنون. (٥) سقط من أ.

وكان أبو حازم يقول: اضمنوا لي اثنين، أضمن لكم الجنة: عملًا بما تكرهون إذا أحبه اللَّه، وترْكًا لما تحبون إذا كرهه اللَّه.

وقال: انظر كلَّ عملٍ كرهتَ الموتَ لأجله فاتركه، ولا يضرك متى مِتَّ.

* * *

يا رضيعِ الهوى وقد آن فطامه، يا طالب الدنيا وقد حان حِمامه، أللدنيا خُلقتَ أم بجمعها أمرتَ؟

أخي إنما الدنيا محلة نغْصَةٍ ... ودار غُرور آذنت بفراقِ
تزوّدْ أخي من قبل أن تسكن الثَّرى ... وتلتفَّ ساقٌ للمماتِ بساق

يا من لا يتعظ بأبيه ولا بابنه، يا مُؤثرًا للفاني على جوْدة ذهنه، يا متعوضًا عن فرح ساعة بطول حزنه، يا مُسخطًا للخالق لأجل المخلوق ضلالًا لإفنه (١)، أمالك عبرةٌ فيمن ضُعَضِع مشيد رُكنه، أما رأيتَ راحلًا عن الدنيا يوم ظَعْنه (٢)، أما تصرفَتْ في ماله أكفُّ (٣) غيره من غير إذنه، أما انصرف الأحبابُ عن قبره حين دفنه، أما خلا بمسكنه (٤) في ضيق سجنه، تنبه واللَّهِ من وسَنه لقَرْع سنّه، ولقي في وطنه ما لم يخطر (٥) على ظنه، يا ذلة مقتولِ هواه يا خسران عبد بطنه.

يا ليت شعري ما ادخر ... تَ ليوم بُؤسك وافتقارِكْ
فلتنزلنَّ بمنزلٍ (٦) ... تحتاج فيه إلى ادخارِكْ
أفنيتَ عمْرك باغترارك ... ومُناك فيه بانتظارِكْ
ونسيتَ ما لا بد منه ... وكان أولى بادكارك
ولو اعتبرت بمن مضى (٧) ... لكفاك علمًا باعتبارك
لك ساعةٌ تأتيك منْ ... ساعاتِ ليلك أو نهارك
فتصير محتضرًا بها ... فتهيَّ من قبلِ احتضارك
من قبل أن تُقلى وتُقْـ ... ـصى (٨) ثم تُخرج من ديارك
من قبل أن تتشاغل (٩) الز ... وار عنك وعن مزارك (١٠)

(١) أ: لفتنه. والإفن: الباطل.
(٢) الأصل: ضعنه.
(٣) ب: كف.
(٤) ب: أما تخلى بما اكتسبه.
(٥) أ: ما لم يجر.
(٦) أ: ولتنزلن منزلًا.
(٧) أ: لو اعتبرت بما ترى.
(٨) أ: من قبل أن تقصى وتلقى.
(٩) أ: تتثاقل.
(١٠) هذه القطعة في ديوان أبي العتاهية : ص ١٢٦، ط بيروت، باختلاف يسير.

أخبرنا عمر بن ظفر، أخبرنا جعفر بن أحمد، حدثنا عبد العزيز بن علي، أنبأنا ابن جهضم، حدثنا الخُلْدي، حدثنا ابن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، قال: حدثني ابن عبد الوهاب، قال: قال رجل لداود الطائي: أوصني، فدمعت عيناه، وقال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلةً بعد مرحلة، حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم كل يوم زادًا لما بين يديك فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لنفسك واقض ما أنت قاض، فكأنك بالأمر قد بغتك، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدًا أشد تقصيرًا مني، ثم قام وتركه.

* * *

يا لاهيًا بالمنايا غره الأملُ ... وأنت عمَّا قليلٍ سوف ترتحلُ
تبغي اللحوق بلا زاد تقدمه ... إن المخفِّين لـمَّا شمَّروا وصلوا
لا تركننَّ إلى الدنيا وزُخرفها ... فأنت من عاجلِ الدنيا ستنتقلُ
أصبحت ترجو غدًا يأتي وبعدَ غدٍ ... ورُبَّ ذي أمل قد خانه الأملُ
هذا شبابك قد ولّت بشاشته ... ما بعد شيْبك لا لهوٌ ولا جدلُ
ماذا التعلُّلُ بالدنيا وقد نشرتْ ... لأهلها صحةً في طيها عِللُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ (1)

- لقد دعاكم إلى البدار مولاكم، وفتح باب الإجابة ثم استدعاكم، ودلكم على منافعكم وهداكم، فالتفتوا عن الهوى فقد آذاكم (2)، وحثُّوا حزْم حزْمكم، وصبُّوا ذَنوبَ الحزْن على ذنْبكم، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾.

بابُه مفتوح للطالبين، وجنابُه مبذول للراغبين، وفضله ينادي: يا غافلين، وإحسانُه ينادي الجاهلين، فاخرجوا من دائرة المذنبين، وبادروا مبادرة التائبين، وتعرضوا لنسمات الرحمة تخلُصوا من كرْبكم، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾.

كم شُغلتم (3) بالمعاصي فذهب (4) الفرض، وبارزتم بالخطايا ونسيتم العرْض،

---

(1) سورة آل عمران: ١٣٣.
(2) ب: آذاكم ذاكم.
(3) ب: شغلكم.
(4) ب: وقد ذهب.

وأعرضتم عن النذير وهو الشعر المُبيض، وحضَّكم [١] على اكتساب حظكم فما [٢] نفع الحض، وطالت آمالكم بعد أن [٣] ذهب الشباب الغض، ورأيتم سلْب القُرناء ولقد أُنذر البعضُ بالبعض [٤]، ففروا إلى اللَّه من سجن الهوى فقد ضاق طوله والعرْض، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ... ﴿١٣٣﴾ ﴾.

روى مسلم في أفراده من حديث أنس بن مالك قال: انطلق رسول اللَّه ﷺ وأصحابه إلى بدْر حتى سبقوا المشركين، وجاء المشركون، فقال رسول اللَّه ﷺ: « قوموا إلى جنة عرضُها السمواتُ والأرض ».

قال: يقول [٥] عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول اللَّه، جنةٍ عرضها السمواتُ والأرض؟! قال: « نعم »، قال: بخٍ بخٍ يا رسول اللَّه، فقال: « ما يحملك على قولك: بخٍ بخٍ؟ » قال: لا واللَّه يا رسول اللَّه إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: « فإنك من أهلها ». قال: فأخرج تمرات من قرْنه فجعل يأكلهن ثم قال: إن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة [٦]، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل [٧] حتى قُتل.

وقد روينا أن النبي ﷺ قال أيضًا في يوم أحد: « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض »، فقام عمرو بن الجموح وهو أعرج فقال: واللَّه لأحفزنّ بها [٨] في الجنة، فقاتل حتى قتل.

قال الواقدي: لما أراد عمرو بن الجموح الخروج إلى أُحد، منعه بنوه، وقالوا: قد [٩] عذرك اللَّه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: إن بنيَّ يريدون حبْسي عن الخروج معك، وإني لأرجو أن أطأ بعرجتي [هذه [١٠]] في الجنة، فقال: « أمَّا أنت فقد عذرك اللَّه » ثم قال لبنيه« لا عليكم أن لا تمنعوه لعل اللَّه ﷻ يرزقه الشهادة، فخلُّوا سبيله ».

قالت امرأته هند بنت عمرو بن حُزام: كأني أنظر إليه موليًا [١١]، قد أخذ درقته [١٢] وهو يقول: اللَّهم لا تردني إلى خرْبي [١٣] وهي منازل بني سلمة.

قال أبو طلحة: فنظرتُ إليه حين انكشف المسلمون ثم ثابوا، وهو في الرعيل الأول،

---

(١) ب: وحظكم. (٢) ب: وما. (٣) ب: بعد إذ ذهب.
(٤) أ: وقد أنذر البعض. (٥) ب: قال: فقال. (٦) : وإنما الحياة طويلة.
(٧) ب: ثم قاتلهم. والحديث في صحيح مسلم، باب ثبوت الجنة للشهيد : ١٥٤/٢، ط عيسى الحلبي القاهرة، دون تاريخ.
(٨) ب: بهما. (٩) أ: اقعد عذرك اللَّه. (١٠) من ب.
(١١) أ: مليًا. (١٢) الدرقة: الترس من جلد بلا خشب ولا عقب.
(١٣) أ: إلى حرثى، وفي مغازي الواقدي : ٢٦٤/١ تحقيق المستشرق جونس: لاتردني إلى أهل خزيًا، ولعله تحريف.

لكأني أنظر إلى طَلع في رجله وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة.

ثم أنظر إلى ابنه خلاد [وهو] يعدو [معه] في إثره حتى قتلا جميعًا.

وفي الحديث [١] أنه دفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر وأبو جابر في قبر واحد، فخرّب السيلُ قبرهم، فحفر عنهم بعد ست وأربعين سنة فوجدوا لم يتغيروا كأنهم ماتوا بأمس [٢].

لله در قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين [٣] مشغولة بالدمع عن المحرمات، واللسان محبوسٌ في سجن الصمت عن الهلكات، والكفُّ [٤] قد كُفتْ بالخوف عن الشهوات [٥]، والقدم قد قُيدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم [٦] يجْأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه [٧] بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات، فتيقظْ للحاقهم من هذه الرقدات، ولا تطمعنّ في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تُؤملنّ النجاة وأنت مقيم على الموبقات ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [٨].

عجبًا لأمْنك والحياةُ قصيرةٌ ... وبفقد إلفٍ لا تزال تُروَّع [٩]
أفقد رضيتَ بأن تعلَّل بالمنى ... وإلى المنية كل يومٍ تُدفعُ
لا تخدعنَّك بعد طول تجاربٍ ... دنيا تغُرُّ بوصلها وستُقطع
أحلامُ نومٍ [١٠] أو كَظِلٍّ زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يُخدعُ
وتزودنَّ ليوم فقرك دائبًا [١١] ... ألغير نفسك لا أبا لك تجمعُ

* * *

- لما علم الصالحون قِصر العُمر، وحثهم حادي ﴿ وَسَارِعُوٓاْ... ﴿١٣٣﴾ ﴾ طووا مراحلَ الليل مع النهار انتهابًا للأوقات.

كان في مسجد أبي مُسلم الخولاني سوط يخوف به نفسه، فإذا فتر ضربها بالسوط.

وكان مصلَّى وهب بن منبه فراشه أربعين سنة، وبقي أربعين سنة [١٢] يصلي الفجر بوضوء العشاء.

---

(١) ب: وفي حديث آخر.
(٢) ب: قبرهما عنهما فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس.
(٣) أ: فالعيون.
(٤) أ: والأكف.
(٥) ب: عن الشبهات.
(٦) ب: والليل لذتهم.
(٧) ب: فاقطعوه.
(٨) سورة الجاثية: ٢١.
(٩) أ: لا يزال يروع.
(١٠) ب: أحلام نور.
(١١) ب: لفقد يومك دائبًا.
(١٢) ب: عشرين.

وكان أُويس القرني يقول: لأعبدن اللَّه تعالى عبادة الملائكة، فيقطع ليلةً قائمًا وليلة راكعًا وليلةً ساجدًا.

وكان علي بن عبد اللَّه بن العباس يسجد كل يوم ألف سجدة، فسمي السَّجاد.

وكان كُرز بن وبرة يعْصب رجليه بالخِرَق لكثرة صلاته، فازدحم الناس على جسر، فنزل يصلي لئلا يبطل [1].

ودخلوا على زُجلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أُقعدت، فذاكروها شيئًا من العفو، فشهقت ثم قالت: علمي [2] بنفسي قرح فؤادي وكَلم كبدي، واللَّه لوددتُ أن اللَّه تعالى لم يخلقني، فقيل [لها [3]]: ارفقي بنفسك، فقالت: إنما هي أيامٌ [قلائل [4]] تسرع، مَنْ [5] فاته شيء اليوم لم يدركه غدًا، ثم قالت: يا إخوتاه لأصلين للَّه ما أقلتني جوارحي، ولأصومنَّ له أيامَ حياتي، ولأبكينَّ ما حَمَلَتْ الماء عيناي، أيكم يحب أن يأمر عبدَه بأمر فيقصِّر؟

فهذه [6] واللَّه صفاتُ المجتهدين، وهذه خصال [7] المبادرين، فانتبهوا يا غافلين.

دارِكْ فما عُمرك [8] بالواني ... ولا تثق بالعُمُر [9] الفاني
يأتي لك اليومُ بما تشتهي ... فيه ولا يأتي لك الثاني
ويأمل الباني بقاءَ الذي [10] ... يبني وقد يُختلس الباني
تصبح في شأن بما تقتني الـ ... ـآمال والآيام في شان [11]
فانظر بعين الحق مُسْتبصرا ... إن كنتَ ذا عقلٍ وعرفانِ
هل نال من جَمَّع أمواله ... يومًا سوى قبرٍ وأكفان [12]
أليس كسرى بعدما ناله ... زُحْزح عن قَصر وإيوانِ
[وعاد في حُفرته خاليًا ... بتربة يبلى وديدان [13]]
كم تلْعبُ الدنيا بأبنائها ... تلاعب الخمْر بنشوانِ

---

(١) ب: حتى لا يبطل. (٢) أ: علي بنفسي. (٣،٤) من ب.
(٥) ب: فمن. (٦) أ: هذه. (٧) ب: خصائل.
(٨) ب: فما أمرك. (٩) ب: بالعري النائي.
(١٠) أ: وتأمل الباقي بقاء الذي. محرفة.
(١١) ب: يصبح في شأن بما يقتضي ... الأيام والآمال في شان.
(١٢) أ: سوى قطن وأكفان. (١٣) من ب.

والناس في صُحبتها ضحكة قد رفضوا الباقيَ بالفاني
وهم نيامٌ عن مُلماتها تُبصرها في زي يقظان

سجع على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ... ﴿١٣٤﴾ ﴾:

أي في العسر واليسر.

صدقوا في المحبة والولاء، وصبروا على نزول (١) البلاء، وقاموا في دياجي الظلماء، يشكرون [على] (٢) سوابغ النعماء، فجرت دموع جفونهم جريان الماء، فأربحهم في المعاملة ربُّ السماء، ﴿ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

بذلوا المالَ ومالوا إلى السخاء، وطرقوا بابَ الفضل بأنامل الرجاء، وتلمحوا وعدَ الصادق بجزيل العطاء، وتأهبوا للحضور يوم اللقاء، وقدموا الأموالَ ثقةً بالجزاء، ﴿ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

أناخوا بباب الطبيب طلبًا للشفاء، وصبروا رجاء العافية على شُرب الدواء، فإن ابتلُوا صبروا، وإن أُعطوا شكروا، فالأمر على السواء.

تالله لقد شغلهم حبُّه عن الآباء والأبناء، ولقد عاملوه (٣) بإيثار المساكين والفقراء الذين ﴿ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ... ﴿١٣٤﴾ ﴾:

الكظم: الإمساك على ما في النفس.

أخبرنا ابن الحصين، قال: أنبأنا ابن المذهب، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد يعني ابن أبي أيوب، حدثني أبو مرحوم، عن سهل ابن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: « من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنفذه دعاه الله تعالى [يوم القيامة (٤)] على رءوس الخلائق ثم يخيِّرَ أي الحور العين شاء » (٥).

قال أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن ابن عمر،

---

(١) ب: على نوال البلا. (٢) من ب.

(٣) ب: وعاملوا. (٤) من ب.

(٥) أ: من الحور العين ما شاء. والحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب رقم : ٣، والترمذي في كتاب البر، باب رقم : ٧٤، وأحمد في مسنده : ٣/٤٣٣ - ٤٤٠، وقد وقع إسناد هذا الحديث في طبعتنا السابقة مضطربًا جدًّا، وبهذا الاضطراب أخذه من ادعى تحقيق الكتاب.

قال: قال رسول الله ﷺ: « ما تجرع عبدٌ جُرعةً أفضل عند الله من جُرعة غيظٍ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى » [١].

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ... ﴿١٣٤﴾ ﴾.

روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » [٢].

وقال علي ﷺ: إذا قدرتَ على عدوك فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه.

وشتم رجلٌ عمر بن ذر فقال: لا تفرطنَّ في شتمنا، ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا إلا أن نطيع الله فيه.

وشتم رجلٌ الشَّعبيَّ فجعل يقول: أنت كذا وأنت كذا، فقال الشعبي: إن كنتَ صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك.

وأُتي عمر بن عبد العزيز برجل كان قد نذر إن أمكنه الله منه ليفعلن به وليفعلن، فقال له رجاء بن حيوة: قد فعل الله ما تحب من الظَّفر فافعل ما يحب من العفو.

وأغلظ رجل لعمر بن عبد العزيز، فأطرق طويلًا ثم قال: أردتَ أن يستفزني الشيطان بعز [٣] السلطان فأنال منك اليوم ما تناله [٤] منِّي غدًا.

وقال له رجل وهو على المنبر: أشهد أنك من الفاسقين، فقال: لا أجيز [٥] شهادتك.

وقيل للفضيل بن مروان: إن فلانًا يشتمك فقال: لأغيظن [٦] مَن أمره، يغفر الله لنا وله، قيل له: ومن أمره؟ قال: الشيطان.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ... ﴿١٣٥﴾ ﴾:

الفاحشة: القبيحة، وهي الكبائر، والاستغفار يمحو أثر الذنوب [٧].

أسفًا لعبدٍ [٨] كلما كثرت أوزاره قلَّ استغفاره، وكلما قرُب من القبور قوي عنده الفتور.

يا مُدمنَ الذنب أما تستحي ... اللّٰـهُ في الخُلوة ثانيكا
غرَّك من ربك إمهاله ... وستره طُول مساويكا

إخواني: إنكم مخلوقون اقتدارًا، ومرْبوبون اقتسارًا، ومضمَّنون أجداثًا، وكائنون رُفاتًا ومبعوثون أفرادًا، فاتقوا الله تقية من شمّر تجريدًا وجدَّ تشميرًا، ونظر في المآل [٩] وعاقبة

---

(١) من حديث رواه مسلم والترمذي. الترغيب والترهيب: ١٩٤/٣.
(٢) مسند أحمد: ١٢٨/٢.
(٣) أ: يعزم.
(٤) ب: ما تنال.
(٥) ب: لا نجيز.
(٦) أ: لا أغضب من أمره.
(٧) ب: الذنب.
(٨) ب: للعبد.
(٩) ب: وانظر في كرة المؤمل.

المصير، ومغبة المرجع، وكفى بالجنة نوالًا وبالنار نكالًا.

فرحم اللَّه عبدًا اقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وعمَّر فاعتبر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، وتزود لرحيله وتأهب لسبيله [١].

فهل ينتظر أهلُ غضاضة الشباب إلا الهرم، وأهل بضاعة الصحة إلا السقم، وأهل طول البقاء إلا مفاجأة الفناء واقتراب الفَوْت ونزول الموت، وأزف الانتقال وإشفاء الزوال، وحفز الأنين، وعرق الجبين وامتداد العِرنين، وعظم القلق وقبض الرمق.

جعلنا اللَّه وإياكم ممن أفاق لنفسه وفاق بالتحفظ أبناء جِنسه، وأعدَّ عدةً تصلح لرمسه، واستدرك في يومه ما مضى من [٢] أمسه، قبل ظهور العجائب ومشيب [٣] الذوائب، وقدوم الغائب وزمِّ الركائب، إنه سميع الدعاء.

* * *

(١) أ: وتزود للرحلة وتأهب للنقلة. (٢) أ: في. (٣) ب: وشيب.

المجلس الثالث

في ذكر إدريس عليه السلام

الحمد لله الذي لم يزل عليمًا عظيمًا عليًا، جبارًا قهارًا قادرًا قويًّا، رفع سقفَ السماء بصنعته فاستوى مبنيًّا، وسطح المهاد بقدرته وسقاه كلما عطش ريًّا، وأخرج صنوفَ النبات فكسَا كل نبتٍ زِيًّا، وقسم الخلائق سعيدا وشقيًّا، و [قسم [1]] الرزق بينهم فترى فقيرا وغنيًّا، والعقلَ فجعل [منهم [2]] ذكيًّا وغبيًّا، ألهم إدريس الاحتيال على جنته فهو يتناول من لذاتها ويلبس حليًّا، ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [3].

فهو الذي جادَ على أوليائه بإسعاده، وبين لهم مناهج الهدى بفضله وإرشاده، ورمى المخالفين [له [4]] بطرده وإبعاده، وأجرى البرايا على مشيئته ومراده، واطلع على سر العبد وقلبه وفؤاده، وقدر صلاحه وقضى عليه بفساده، فهو الباطن الظاهر وهو القاهر فوق عباده.

أحمده على إصداره وإيراده، حمدَ معترفٍ [له [5]] بإنشائه وإيجاده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تجلو قلبَ قائلها من رَيْنِ سواده، [وأشهد] [6] أن محمدًا عبده ورسوله [المرسل] إلى [جميع] الناس في جميع [7] بلاده.

صلى الله عليه وعلى أبي بكر حارس الإسلام يومَ الردة عن ارتداده، وعلى عمر الذي نطق القرآن بمراده، وعلى عثمان مشتري سلع السهر بنقد رقاده، وعلى عليّ قامع أعدائه ومهلك أضداده، وعلى عمه العباس آخذ البيعة ليلة العقبة على مراده.

اللّهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا من الخطايا والآثام، وارحمنا بفضلك يا ذا الجلال والإكرام، وانفعني والحاضرين بما يجري على لساني من الكلام برحمتك يا عظيم يا علام.

* * *

قال الله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ... ﴿٥٦﴾ ﴾

إدريس: اسمه أخنوخ بن يرْد بن مِهلاييل ابن قيدار [8] بن أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام.

---

(١) من أ. (٢) من ب. (٣) سورة مريم: ٥٦.

(٤) من أ. (٥، ٦) من ب. (٧) ب: في كل.

(٨) أ: ابن قينان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أولُ نبي بُعث بعد آدم، وكان يصعد له في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في السنة، فحسده إبليس وعصاه قومه، فرفعه الله مكانًا عليًا، وأدخله الجنة.

قال علماء السير: ولد إدريس في حياة آدم، وقد مضى من عمر آدم ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، فدعا قومه ووعظهم ونهاهم ألا يُلابسوا (١) ولد قابيل، فخالفوه فجاهدهم وسبى منهم واسترقَّ (٢).

وهو أول من خط بالقلم وخاط الثياب، ورُفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة. وعاش أبوه [آدم (٣)] بعد ارتفاعه مائة وخمسًا وثلاثين سنة.

وفي المكان الذي رفع إليه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه في السماء الرابعة، وفي الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في حديث المعراج أنه رأى إدريس في السماء الرابعة، وقد روينا أن الجنة في السماء الرابعة.

والقول الثاني: أنه في السماء السادسة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنه في السماء السابعة. حكاه أبو سليمان الدمشقي.

وفي سبب رفعه (٤) إلى السماء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم، فأحبّه ملك الموت، فاستأذن الله تعالى في خُلته، فأذن له، فهبط إليه في صورة آدمي، وكان يصحبه، فلما عرفه قال: إني أسألك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تذيقني الموتَ فلعلي أعلم شدته فأكون أشد له استعدادًا، فأوحى الله تعالى إليه: أن اقبض روحه ساعةً ثم أرسله، ففعل ثم قال: [له (٥)] كيف رأيت الموتَ؟ قال: أشدَّ مما بلغني عنه، وإني أحبُّ أن تريني النار، فحمله فأراه إياها فقال: إني أحب أن تريني الجنة، فأراه إياها فلما دخلها وطاف فيها قال له ملك الموت: اخرج، فقال: والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل يخرجني.

فبعث الله عز وجل ملكًا يحكم (٦) بينهما، فقال: ما تقول يا ملك الموت؟ فقص عليه ما جرى، فقال: ما تقول يا إدريس؟ قال: إن الله تعالى يقول (٧): ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (٨) وقد ذقته، وقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا.... ﴿٧١﴾ ﴾ (٩) وقد وردتُ، وقال

(١) أ: أن لا يسبوا. محرفة.
(٢) أ: واستغرق.
(٣) من ب.
(٤) أ: صعوده.
(٥) من ب.
(٦) ب: فحكم.
(٧) ب: قال.
(٨) سورة الأنبياء: ٣٥.
(٩) سورة مريم: ٧١.

لأهل الجنة: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [(١)] فواللَّه لا أخرج حتى يكون اللَّه يخرجني، فسمع هاتفًا من فوقه يقول: بإذني دخل وبأمري فعلَ، فخلِّ سبيله.

وهذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعًا إلى رسول اللَّه ﷺ [(٢)].

- **فإن قيل:** من أين لإدريس هذه الآيات؟

- **فقد أجاب بعض العلماء فقال:** كان اللَّه تعالى قد أعلم إدريس وجوبَ الورود وامتناع الخروج من الجنة فقال ذلك.

القول الثاني: أن ملكًا من الملائكة استأذن ربه ﷻ أن يهبط إلى إدريس، فأذن له، فلما عرفه إدريس قال: هل بينك وبين ملك الموت معرفة؟ قال: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعني عند ملك الموت؟ قال: [نعم [(٣)]] [سأقول له فيك فيرفق بك اركب بين جناحي، فركب إدريس فصعد به إلى السماء، فلقي ملك الموت] [(٤)] [فعرفه أنه يريد أن يسأله: كم بقي من عمره؟] [(٥)] فقال الملك لملك الموت: إن لي إليك حاجة، قال: أعلم ما حاجتك، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة، ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين، فمات إدريس بين جناحي الملك. (رواه عكرمة عن ابن عباس).

والثالث: أن إدريس مشى يومًا في الشمس فأصابه وهجها [(٦)]، فقال: اللَّهم خفف ثِقلها عمّن يحملها.

فأصبح الملك الموكل بالشمس وقد وجد من خفتها ما لم يعرف، فسأل اللَّه تعالى عن ذلك، فقال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حِملها فأجبته، فقال: يا رب اجمع بيني وبينه واجعل بيننا خُلة، فأذن له فأتاه فكان فيما قال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت أن يؤخر أجلي، قال: إن اللَّه تعالى لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، ولكن أكلمه فيك، فما استطاع أن يفعل فعل، ثم حمله الملك على جناحه فوضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فأخبره، فقال: ليس ذاك إلي، ولكن إن أحببتَ أعلمته متى يموت، فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال: فإنه هناك، قال: انطلق فما تجده إلا ميتًا.

---

(١) سورة الحجر :٤٨.

(٢) لا نستطيع الاطمئنان إلى هذه المرويات التي لا يؤيدها نص صحيح، وحسبنا أن نرى فيها صورة لما كان يعجب الأقدمين من خيال.

(٣) من أ.

(٤) ليست في أ.

(٥) من: أ.

(٦) ب: وجهها.

روي هذا عن ابن عباس وكعب رضي الله عنهما.

* * *

وقال علماء السير: وكان إدريس قد أوصى قبلَ رفعه إلى ولده متوشلخ، وكان ولدًا صالحًا، وولد لمتوشلخ لَمَك، وولد للمك نوح عليه السلام.

وكان من الملوك في زمن إدريس طهْمورت ملَك الأقاليم كلها، ونفَى الأشرار، وهو أول من كتب بالفارسية، واتخذ الخيلَ والبغال والحمير والكلاب لحفظ المواشي، واستمرت أحواله على الصلاح، ثم ملك أخوه « جمْ شِيد [1] » وتفسير جم شيد: سيد الشُّعاع، سمي بذلك لأنه كان وضيئًا جميلًا، فملك الأقاليم كلها وسار السيرةَ الجميلة، وابتدع عمل السيوف [2] والسلاح وصنعة القَزّ، وجعل الناسَ أربعَ طبقات: طبقة مُقاتلة، وطبقة فقهاء، وطبقة كُتَّابًا وصنَّاعًا وحرّاثين، وطبقة خدمًا، وعمل أربع خواتيم: خاتمًا للحرب والشُّرط وكتب عليه: الأناة، وخاتمًا للخراج وجباية الأموال، وكتب عليه: العمارة، وخاتمًا للبريد وكتب عليه: الوحا [3] وخاتمًا للمظالم وكتب عليه: العدل، فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفُرس إلى أن جاء الإسلام.

وألزم من غلبه من أهل الفساد بالأعمال الصعبة من قطْع الصخور من الجبال والبناء وعمل الحمامات، وأخرج من البحار والمعادن ما ينتفع به الناس من الذهب والفضة والجواهر والأدوية، وأحْدث النيروزَ فجعله عيدًا.

ثم إنه بطِر فادعى الربوبية، فسار إليه بيوراسب [4]، وهو الضحاك بن الأهيوب، فظفر به فنشره بمنشار.

وملك الضحاك الفُرسَ ألف سنة، وكان يدين البراهمة [5].

وبين [6] إدريس ونوح [كانت] [7] الجاهلية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [8].

* * *

(١) كذا بالأصل وفي الطبري : ٨٨/١: جم الشيذ، والشيذ معناه عندهم الشعاع..

(٢) ب: حمل السيوف.

(٣) الوحا: الإسراع.

(٤) الأصل: بنوراسب. والتصويب من تاريخ الطبري ٨٨/١ ط الحسينية المصرية.

(٥) أ: الإبراهيمية.

(٦) أ: ودين إدريس ونوح كانت للجاهلية.

(٧) من أ.

(٨) سورة الأحزاب: ٣٣.

فتفكروا إخواني في أهل الفساد وفي أهل الصلاح، وميزوا أهلَ الخسران من أرباب الأرباح، فيا سرعان عمر يفُنيه المساء والصباح، فتأهبوا للرحيل فيا قرب السراح، وتفكروا فيمن غرته أفراحُ الراح، كيف راح عن الدنيا فارغ الراح (١)، فالهوى ليلٌ مُظلم، والفكر مصباح.

* * *

الكلام على البسملة

اسم ما أحلاه لمسمًّى ما أعلاه، قرَّب المحبَّ وأدناه، وبلغ المؤمِّلُ من فضله مُناه، من لاذ بحماه حماه، ومن استعطاه أعطاه، أنست به قلوبُ العارفين، وولهت من محبته أفئدة المشتاقين، وخضعت لمحبته رقابُ المتكبرين، وإنما يحب كل قلب حزين (٢).

ساكنٌ في القلب يَعْمرهُ ... لستُ أنساه فأذكرهُ

وهو مولاي رضيتُ به ... ونصيبي منه أوْفره

غاب عن سمعي وعن بصري ... فسُويدا القلب يُبصره

للّه درّ ألسنة بذكري تجري، ويا فخرهم وهممهم إلى بابي تسْري، ويا راحة أبدانهم تعبت بين نهيي وأمْري، طالما اطَّلعتُ عليهم وهم على باب شُكري، رفضوا شهواتهم فالنفوس في أسرِي، قطعوا جوادَ الجدّ وأنت في الغفلة ما تدري.

[اذكر (٣)] اسم مَنْ إذا أطعتَه أفادك، وإذا أتيته شاكرًا زادك، وإذا خدمته أصلح قلبك وفؤادك.

قال الشبلي: ليس للأعمى من الجوهر إلا لمْسه، وليس للجاهل من ذكر اللّه ﷻ إلا النطقُ باللسان.

ذكرك لي مؤنسٌ يعارضني ... يعدُني عنك منك بالظَّفر

وكيف (٤) أنساك يا مدى هممي ... وأنت مني بموضع النظرِ

يا من يرجو الثوابَ بغير عمل، ويُرجئ التوبة بطول الأمل، أتقول في الدنيا قولَ الزاهدين وتعمل فيها عمل الراغبين، لا بقليل منها تقنع، ولا بكثير منها تشبع، تكره الموت لأجل ذنوبك وتقيم على ما تكره [الموت له] (٥) تغلبك (٦) نفسك على ما تظن

---

(١) أ: وتفكروا فيمن غره إقراح الرواح، كيف راح عن الدنيا فارغ المراح. محرفة.

(٢) ب: وإنما يحب قلب كل قلب حزين. ولعلها محرفة.

(٣) من أ.

(٤) ب: فكيف أنساك.

(٥) سقطت من أ.

(٦) ب: نقلبك.

ولا تغلبها (١) على ما تستيقن، لا تثق من الرزق بما ضُمن لك، ولا تعمل من العمل ما فُرض عليك، تستكثر من معصية غيرك ما تحقره (٢) من نفسك.

أما تعلم أن الدنيا كالحية، لَيِّنٌ لمسُها (٣) والسم الناقع في جوفها، يهوي إليها الصبيُّ الجاهل ويحذرها ذو اللُّب العاقل، كيف تقرُّ بالدنيا عينُ من عرفها، وما أبعد أن يُفطم عنها من ألفها:

حقيقٌ بالتواضع من يموتُ وحسب المرء من دُنياه قوتُ
فما للمرء يُصبح ذا اهتمامٍ وحُزنٍ لا تقوم به النعوتُ
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قومٍ كلامُهم السكوتُ

أخبرنا عمر بن ظُفر بسنده إلى محمد بن أحمد بن زياد قال: سمعت أبا بكر العطار يقول: حضرت جُنيدًا عند موته أنا وجماعة من أصحابنا، وكان قاعدًا يصلي ويثني رجليه إذا أراد أن يركع ويسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه، فثقُل عليه تحريكهما، وكانت رجلاه قد تورَّمتا، فقال له بعض أصحابه: ما هذا يا أبا القاسم؟ قال: هذه نِعَم، اللَّه أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد: يا أبا القاسم لو اضطجعتَ؟ فقال: يا محمد هذا وقتٌ يؤخذ منه، اللَّه أكبر، فلم يزل كذلك حتى خرجت روحه.

طوبى لمن تنبَّه من رقاده، وبكى على ماضي فساده، وخرج من دائرة المعاصي إلى دائرة سداده، عساه يمحو بصحيح اعترافه قبيحَ اقترافه، قبل أن يقول فلا ينفع، ويعتذر فلا يُسمع:

قد قلتُ للنفس وبالغتُ وزدت في العَتْب وأكثرتُ
يا نفسُ قد قصّرتِ ما قد كفى تيقَّظي قد قَرُب الوقتُ
جِدِّي عسى أن تُدركي ما قد سبق الناسُ وخُلِّفتُ
أنا الذي قد قلتُ دهرًا غدا أتوب من ذنبي (٤) فما تبتُ
لو كنتُ ذا عقلٍ لما حلّ بي نُحت على نفسيَ ما عِشتُ
وا حسْرتي يومَ حسابي إذا وقفتُ للعرضِ وحُوسبتُ
وا خجلتي إنْ قيل لي قد مضى وقتك تفريطًا ووبِّختُ
ولي كتابٌ ناطقٌ بالذي قد كنت في دنياي قدمتُ

---

(١) ب: ولا تقلبها.
(٢) ب: ما تحتقره.
(٣) أ: مسها.
(٤) ب: من ذنوبي. محرفة، وما أثبته من أ.

تُميلني الدنيا بأهوائها ... لولا شقاء الحظّ ما مِلْتُ
وقد تحيرتُ ولا عُذر لي ... إنْ قلت إني قد تحيرتُ

قال عيسى ابن مريم عليه السلام: لا ينتظر امرؤ بتوبته غدًا، فإن بينك وبين غدٍ يومًا وليلة، وأمر الله غادٍ ورائح.

بادر أيها الشاب قبل الهرم، واغتنم أيها الشيخ الصحة قبل السقم، قبل أن يتمكن من بدنك الألم، ويقول لسانُ العتاب: ألم [أقل لك ألم؟ (١)] قال نبينا ﷺ: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ » (٢).

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفرَّ ويخضرَّ، وحج ثمانين حجة.

وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها، وكان يبكي طولَ الليل، فقالت له أمه: يا بني لعلك قتلتَ قتيلًا؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعتْ نفسي (٣):

جنحتْ شمسُ حياتي ... وتدلتْ للغروب
وتولَّى ليلُ رأسي ... وبدا فجرُ المشيبِ
ربِّ خلصني فقد لجَّـ ... ـجْتُ (٤) في بحر الذنوب
وأنلني العفوَ يا أقـ ... ـربَ من كلٍّ قريبِ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ... ﴾ (٥)

سبحان من أظهر العجائب في مصنوعاته، ودلَّ على عظمته بمبتدعاته، وحثَّ على تصفح عِبره وآياته، وأظهر قدرته في البناء والنقض، والهشيم والغضّ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ... ﴿١٠١﴾ ﴾.

سعد من تدبَّر، وسلم من تفكَّر، وفاز من نظر واستعبر (٦)، ونجا مِنْ بحر الهوى مَنْ

---

(١) سقطت من ب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق : ٤/١١٥، بحاشية السندي.

(٣) أ: بما صنعت لنفسي.

(٤) وفي اللسان : ٣/١٧٨: لجج القوم إذا وقعوا في اللجة وهي معظم الماء.

(٥) سورة يونس: ١٠١.

(٦) أ: وتعبر.

تصبَّر (١) وهلك كلَّ الهلاك وأدبر من نسي الموتَ مع الشعر المبيض ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ... ﴿١٠١﴾ ﴾.

* * *

إخواني: ليس المراد بالنظر إلى ما في السموات والأرض ملاحظته بالبصر، وإنما هو التفكر في قدرة الصانع.

أخبرنا محمد بن عبد اللَّه، قال: حدثنا عبد اللَّه بن علي الدَّقاق، أنبأنا أبو الحسين ابن بِشران، أنبأنا إسماعيل الصفار، حدثنا سعدان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: « تفكُّرُ لحظةٍ خيرٌ من قيام ليلة ».

وقيل لها: ما كان أفضل عمل أبي الدراء؟ قالت: التفكر.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة.

وقال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتفكر على التذكر، وبالتذكر على التفكر، ويناطقون القلوبَ حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال، فأورثت العلم.

وقال: الفكر مرآة تُريك حسناتك وسيئاتك، وقال: من لم يكن كلامه حكمة (٢) فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ (٣) قال: أمنع قلوبهم من التفكر في أمري.

وكان لقمان يجلس وحده ويقول: طول الوحدة أفهم للتفكر، وطول التفكر دليلٌ على طريق الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرةُ امرئ قط إلا علم، ولا علم إلا عمل.

وبينما أبو شُريح العابد يمشي جلس فتقنَّع بكسائه وجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرتُ في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي.

وبينا داود الطائي في سطح داره في ليلة قمْراء تفكر في ملكوت السموات والأرض

---

(١) ب: ونجا مَنْ عن الهوى تبصر.

(٢) أ: من لم يكن علامة حكمه التفكر فهو لغو. محرفة.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٦.

فوقع إلى سطح جاره، فلما أفاق قال: ما علمت بذلك.

* * *

واعلم أن التفكر ينقسم إلى (١) قسمين: أحدهما يتعلق بالعبد، والثاني بالمعبود ﷻ .

فأما المتعلق بالعبد: فينبغي أن يتفكر: هل هو على معصية أم لا؟ فإن رأى زلة تداركها بالتوبة والاستغفار ثم يتفكر في نقل الأعضاء من المعاصي إلى الطاعات، فيجعل شُغل العين العبرة، وشغل اللسان الذكر، وكذلك سائر الأعضاء.

ثم يتفكر في الطاعات ليقوم بواجبها ويجْبر واهنَها، ثم يتفكر في مبادرة الأوقات بالنوافل طلبًا للأرباح، ويتفكر في قصر العمر فينتبه حذرًا أن يقول غدًا: ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (٢).

ثم يتفكر في خِصال باطنه، فيقمع الخصال المذمومة، كالكبر والعُجب والبخل والحسد، ويتولى (٣) الخصالَ المحمودة، كالصدق والإخلاص والصبر والخوف.

وفي الجملة يتفكر في زوال الدنيا فيرفضها، وفي بقاء الآخرة فيَعْمُرها.

أخبرنا إسماعيل بن أبي بكر المقْبُري (٤)، أنبأنا عاصم بن الحسن، أنبأنا بشران ابن صفوان، أخبرنا أبو بكر بن عبيد، قال: قال محمد بن الحسين: حدثني عمار بن عثمان، حدثني سعيد بن ثعلبة، قال: قال النَّضر بن المنذر (٥) لإخوانه: زوروا الآخرة في كل يوم بقلوبكم، وشاهدوا الموت بتوهمكم، وتوسدوا القبورَ بفكركم، واعلموا أن ذلك كائن لا محالة، فمختار (٦) لنفسه ما أحبّ من المنافع والضرر أيامَ حياته.

وأما المتعلق بالمعبود ﷻ : فقد منع الشرع من التفكر في ذات اللَّه ﷻ وصفاته فقال ﷺ: « تفكروا في خلق اللَّه ولا تتفكروا في اللَّه، فإنكم لن تقدروا قدره » (٧).

فلم يبق إلا النظر في الآثار التي تدل على المؤثر.

وجميع الموجودات من آثار قدرته.

وأعجب آثاره الآدمي، فإنك إذا تفكرت في نفسك كفى، وإذا نظرت في خَلقك شفى، أليس قد فعل في قطرة [من] (٨) ماء ما لو انقطعت الأعمارُ في شرح حكمته ما وفت؟

---

(١) ب: على قسمين.. (٢) سورة الزمر : ٥٦. (٣) ب: ويولي.
(٤) أ: المقرئ. (٥) أ: أبو المنذر. (٦) أ: فيختار.
(٧) تفسير ابن كثير : ٤٤١/٧، والدر المنثور للسيوطي : ١١٠/٢، وهو حديث صحيح.
(٨) من ب.

كانت النقطة مغموسةً في دم الحيض، ومقياس القدرة (١) يشق السمع والبصر، خلق منها ثلاثمائة وستين عظمًا وخمسمائة وتسعًا وعشرين عضلة، كل شيء من ذلك تحته حكمة، فالعين سبع طبقات، وأربعة وعشرون عضلة لتحريك حدقة العين وأجفانها، لو نقصتْ منها واحدة لاختل الأمر، وأظْهر في سواد العين على صغره صورة السماء مع اتساعها، وخالف بين أشكال الحناجر في الأصوات، وسخَّر (٢) المعدة لإنضاج الغذاء، والكبدَ لإحالته إلى الدم، والطحال لجذب (٣) السوداء، والمرارة لتناول الصفراء [كلها] (٤) والعروق كالخدم للكبد تنفذ منها الدماء إلى أطراف البدن.

فيا أيها الغافل ما عندك خبرٌ منك، فما تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتغضب فتخاصم، فبماذا تميزت على البهائم؟!

* * *

ارفع بصر فكرك إلى عجائب السموات، فتلمَّح الشمس في كل يوم في منزل، فإذا انخفضت برد الهواء وجاء الشتاء، وإذا ارتفعت قَوِيَ الحر، وإذا كانت بين المنزلتين اعتدل الزمان، والشمسُ مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، وأصغر الكواكب مثل الأرض ثماني مرات.

ثم اخفض بصرك إلى الأرض ترى فجاجها مذلَّلة للتسخير، فامشوا في مناكبها وتفكروا (٥) في شُربها بعد جدْبها بكأس القطْر، وتلمح خروج النبات يرْفلُ في ألوان الحلل على اختلاف الصُّور والطعوم والأراييح، وانظر كيف نزل القطر إلى عرق الشجر، ثم عاد ينجذب إلى فروعها، ويجري في تجاويفها بعروق لا تفتقر إلى كُلفة.

فلا حظَّ للغافل (٦) في ذلك إلا سماع الرعد بأذنه ورؤية النبات والمطر بعينيه.

كلا لو فتح بصر البصيرة لقرأ على كل قطرة وورقة (٧) خطًّا بالقلم الإلهي، [تعلم] (٨) أنها رزق فلان في وقت كذا.

ثم انظر إلى المعادن لحاجات الفقير إلى المصالح، فمنها مُودَع كالرصاص والحديد، ومنها مصنوع بسبب غيره (٩) كالأرض السبخة يجمع فيها ماء المطر فيصير ملحًا.

وانظر إلى انقسام الحيوانات ما بين طائر وماشٍ وإلهامها ما يُصلحها.

---

(١) أ: ونقاش القدرة شق السمع والبصر. (٢) ب: وسخن. (٣) ب: يجذب.
(٤) من ب. (٥) أ: وتفكر.
(٦) أ: أفلا يلاحظ العاقل في ذلك لاستماع الرعد بأذنه. ولعلها محرفة، وما أثبته من ب.
(٧) ب: على كل قطرة ورقة. (٨) سقطت من أ. (٩) أ: لسبب من غيره.

وانظر إلى بُعد ما بين السماء والأرض كيف ملأ ذلك الفراغ هواءً لتستنشق منه الأرواح وتسبح الطير في تياره إذا طارت.

وانظر بفكرك إلى سعة البحر وتسخير الفُلك فيه، وما فيه من دابة.

قال يحيى بن أبي كثير: خلق اللَّه ألف أمة، فأسكن ستمائة في البحر وأربعمائة في البر.

وا عجبًا لك لو رأيتَ خطًّا مستحسن الرقم لأدركك [1] الدهشُ من حكمة الكاتب، وأنت ترى رُقومَ القدرة ولا تعرف الصانع، فإن لم تعرفه بتلك الصنعة فتعجب كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك؟!

* * *

سجع على قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [2]:

كيف تصحُّ الفكرة لقلبٍ غافل، وكيف تقع اليقظةُ لعقلٍ ذاهل، وكيف يحصل الفهمُ للبٍّ عاطل، عجبًا لمفرط والأيام قلائل، ولمائل إلى ركنٍ مائل، لقد خاب الغافلون وفاز المتقون ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

من كتب عليه الشقاء كيف يَسْلم، ومن عمي قلبه كيف يفهم، ومن أمرضه طبيبه كيف لا يسقم، ومن اعوجّ في أصل وضعه فبعيد أن يتقوَّم، هيهات مَنْ خُلق للشقاء فللشقاء يكون، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

كم عملٍ رُدَّ على عامله، وكم أمل رجع بالخيبة على آمله، وكم عامل بالغ في إتعاب مفاصله فهبت [3] ريحُ الشقاء لتبديد حاصله، لقد نودي على المطرودين ولكنهم ما يسمعون ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

عشتُ دهرًا بالتظنِّي ... هائمًا في كل فنِّ
قانعًا من أم دَفْرٍ [4] ... بأباطيل التمنِّي
أبتغيها وهي تضمينـي [5] مِنْ تحت المجنِّ
فالمنى تُدني إليها ... والمُدَى [6] فوق المِسَنّ

---

(١) أ: لأورثك. (٢) سورة يونس: ١٠١. (٣) ب: وهبت.

(٤) أم دفر: الدنيا.

(٥) تضميني: تظلمني. روى ثعلب عن ابن الأعرابي: ضمي إذا ظلم، قال أبو منصور: كأنه مقلوب من ضام. اللسان: ١٩/٢٢١.

(٦) المدى: جمع مدية، وهي النصل.

ثـــم لا آخـــذُ مـنـهـــا مـثـلَ مـا تـأخـذ مـنِّـي
أيـهـا الـمُـعْـجَـل عـنـهـا وهــو شبـه المـتــأنِّــي
لـيـس لـلـمزعَـج بـالـسَّـيْـر ركـوب الـمـطْـمـئِـنِّ
لـيـت شـعـري والـتـي تُـغْـري بـأنـي ولـو أنـي
أي شـيء صـحَّ مـنـهـا لـلـحريـص الـمـتـعـنِّـي
أنـا إذْ أشـكـو فـلا تَـسْـمع شـكْـوى الـمـتـجـني
كـمـحـبٍّ ظـل يـبـكـي لـلـحـمـام الـمـتـغـنـي

سجع على قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١):

قل للمقيمين على معاصيهم وجهلهم، الناسين من سبقهم، المصرِّين على قبيح فعلهم: كم لعب الردى بمثلهم، لقد بُولغ في اجتثاث أصلهم، فتراهم ما يكفي في توبيخهم، ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

قل للمذنبين: تأمَّلوا العواقب، الآثامُ تبقى وتفنى الأطايب، والذنوب تُحصى وما يَغْفل الكاتب، والسهم مُفوَّق والرامي صائب، واللذات وإنْ نِيلتْ فبعدها المصائب، فليتدبر العاقل وليحضر الغائب، قبل أن يؤخذ الجهال عل جهلهم، ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

إنْ كان غيْرُك قد أجابَ الداعي فكأنـني بـك قد نـعـاكَ الـنـاعي
قد طـال بـاعُـك والـمنيةُ بعدَ ذا ليستْ إذا صالتْ قصيرة باعِ
وملأتَ سمْعك بالمواعظ ظاهرًا حتى اشتهرتَ به ولستَ بواعي
تسعَى بنفسك في المتالفِ جاهدًا (٢) لا تـفـعـلنْ وارفُـقْ بها يا ساعي
ولـقـد جـمـعتَ من القبائح باطنًا مـا لا تـضمَّـنه جسـومُ أفـاعـي
كم قد غُررتَ بظاهر متجمِّل مثلَ الـسَّـراب جـرى ببطن القاعِ
بعتَ الذي يبْقَى بما يفنى غدًا يا من رضِـي بغَبينة المبْتاعِ

أيها العبد انظر بعين فكرك وعقلك، هل تجد سبيلًا لخلاص مثلك مع إقامته على

---

(١) سورة يونس: ١٠٢.

(٢) ب: جاهلًا. وما أثبته من أ.

فعلك؟! أين اعتبارك بانطلاق أسلافك؟! أين فكرك في فراق أُلّافك؟! متى تنتقل عن قبيح خِلافك؟!

قل للمفرِّط يستعدّ ... ما من ورودِ الموت بُدُّ
قد أخلق الدهرُ الشبا ... بَ وما مضى لا يُستردُّ
أو ما يخاف أخو المعا ... صي من له البطشُ الأشدُّ
يومًا يُعاين موقفًا ... فيه خُطوبٌ لا تُحدُّ
فإلامَ يشتغل الفتى ... في لَهْوه والأمر جدُّ
أبدًا مواعيدُ الزما ... نِ لأهلهِ تعبٌ وكَدُّ
يا من يؤمِّل أن يقيـ ... ـم به وحادي الموتِ يَحْدو
وتَروح داعيةُ المنو ... نِ على مؤمِّلها وتغْدو
يختال في ثوب النَّعيـ ... ـم ودونَه قبرٌ ولَحدُ
والعمر يَقْصر كلَّ يَوْ ... مٍ ثم في الآمال مَدُّ

أيقظنا اللَّه وإياكم من هذه الرقدة، وذكرنا الموتَ وما يأتي بعدَه، وألهمنا شُكره على النعم (١) وحمده، إنه كريم لا يَردّ عبده.

[وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه،

وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل (٢)].

* * *
* *
*

(١) ب: وألهمنا على الشكر وحمده.
(٢) ليست في أ.

المجلس الرابع

في ذكر نوح عليه الصلاة والسلام

الحمد للَّه الذي تُسبحه البحار الطوافح، والسُّحب السوافح، والأبصار اللوامح، والأفكار والقرائح، العزيز في سلطانه، الكريم في امتنانه، ساتر المذنب في عصيانه، رازق الصالح والطالح، تقدس عن مِثْل وشبيه، وتنزه عن نقص يعتريه، يعلم خافيةَ الصدر وما فيه من سرٍّ أضْمَرتْه الجوانح، لا يَشْغله شاغل ولا يُبْرمه سائل ولا ينقصه نائل، تعالى عن النِّد المماثل والضد المكادح [1]، يسمع تغريد الورقاء على الغصن، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويتكلم فكلامه مكتوب في اللوح مسموع بالأذن بغير آلات ولا أدوات ولا جوارح.

أنزل القَطْر بقدرته، وصبَغ لونَ النبات بحكمته، وخالف بين الطعوم بمشيئته، وأرسل الرياحَ لواقح، موصوف بالسمع والبصر، يُرى في الجنة كما يُرى القمر، من شبَّهه أو كيَّفه فقد كفر، هذا مذهبُ أهل السنة والأثر، ودليلهم جَلِيٌّ واضح، ينجّي من شاء كما شاء ويهلك، فهو المسلِّم للمسلِّم والمسلِّم للمهلك، لم ينتفع كنعان بالنسب يوم الغَرق؛ لأنه مشرك، ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖ ﴾ [2].

أحمده على تسهيل المصالح، وأشكره على ستر القبائح، وأصلي على رسوله محمد أفضل غادٍ وخير رائح، وعلى صاحبه أبي بكر ذي الفضل الراجح، وعلى عمر العادل فلم يراقِب ولم يسامح، وعلى عثمان الذي بايع عنه الرسولُ فيالها صفقةُ رابح، وعلى عليٍّ البحر الخِضَمّ الطافح، وعلى عمه العباس الذي أخذ البيعة له ليلة العقبة وكلُّ الأهل نازح، اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وهَبْ طالحنا لصالحنا وسامحنا فأنت الحليم المسامح، واغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح، ونبِّهنا من رقَدات الغفلات قبل أن يصيح الصائح، وانفعني بما أقول والحاضرين بمنِّك، فمنك الفضل والمنائح.

* * *

---

(١) المكادح: المكافح. وأصل الكدح السعي والحرص والدُّؤوب في العمل.

(٢) سورة هود: ٤٦.

قال اللّه تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا ... ﴾ (١)

ولِد نوحٌ عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة، وهو نوح بن لَمك (٢) ابن متوشلخ بن إدريس.

ولما تم له خمسون سنة بعثه اللّه عز وجل، وقيل: إنه بعث بعد أربعمائة سنة من عمره، وكان الكفر قد عمَّ، فكان يدعو قومه فيضربونه حتى يغشى عليه، فأمره اللّه تعالى أن يصنع سفينة، فغرس الساجَ فتكامل في أربعين سنة، ثم قطعه فصنعها وأعانه أولاده، وفجر اللّه له عين القار تَغْلي غليانًا حتى طلاها.

وجعل لها ثلاثَ بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي الأوسط الدوابَّ والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعًا، وفي رواية عنه قال: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع (٣).

ثم ابتدأ الماء بجنبات الأرض فدار حولها كالإكليل، فجعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هربًا من الماء، حتى اجتمعت عند السفينة، فحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وقيل له: إذا فار التنور فاركب.

وفي المراد بالتنور أربعة أقوال:

أحدها: أنه اسم لوجه الأرض، قال ابن عباس: قيل له: إذا رأيتَ الماء قد علا على وجه الأرض فاركب.

والثاني: تنور الصبح، قاله علي عليه السلام.

والثالث: طلوع الشمس، روي عن علي أيضًا.

والرابع: تنُّور أهله انبجس منه الماء، قاله مجاهد.

وفي المكان الذي فار منه التنور ثلاثة أقوال:

أحدها: مسجد الكوفة، روي عن علي، وقال زِرّ بن حُبيش: فار التنور من زاوية مسجد الكوفة الأيمن.

والثاني: بالهند، قاله ابن عباس.

---

(١) سورة هود: ٤١.
(٢) أ: ابن لامك.
(٣) راجع الروايات التي ذكرها الطبري في حجم سفينة نوح في تاريخه : ٩١/١، ط المصرية.

والثالث: بالشام من عين وردة [١] وهي منزل نوح، قاله مُقاتل.

وفي الذين حملهم في السفينة ثمانية أقوال:

أحدها: كانوا ثمانين [٢] رجلًا معهم أهلوهم.

والثاني: كانوا ثمانين [٣] وبنيه الثلاثة وثلاثة نسوة لبنيه وامرأة نوح.

والثالث: كلهم كانوا ثمانين، قال مقاتل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأة.

والرابع: ثلاثين رجلًا، والأقوال الأربعة عن ابن عباس.

والخامس: كانوا ثمانية: نوح، وامرأته، وثلاثة بنين له ونِسْوانهم، وهذا قول الحكَم ابن عُتيبة والقُرظي وابن جُريج [٤].

والسادس: كانوا سبعة: نوحٌ وبنوه وثلاثُ كنائن له. قاله الأعمش.

والسابع: كانوا ثلاثة عشر: نوحٌ وبنوه ونساؤهم وستةٌ ممن آمن به، قاله ابن إسحاق.

والثامن: كانوا عشرة سوى نسائهم، روي عن ابن إسحاق أيضًا.

فركبوا لعشرٍ مضَين من رجب، وخرجوا يوم عاشوراء.

* * *

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ... ﴿٤١﴾ ﴾.

قال الزجاج: أمرهم أن يُسمُّوا في وقت جَرْيها ووقت استقرارها.

قوله تعالى ﴿ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ... ﴿٤٢﴾ ﴾ قيل: إن الماء ارتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعًا.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ... ﴿٤٢﴾ ﴾ واسمه كنعان ويقال: يام، ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ... ﴿٤٢﴾ ﴾ أي في مكان منقطع، وقيل: في معزل من دين أبيه، وكان ينافقه بإظهار الإيمان، فدعاه إلى الركوب ظنًّا أنه مؤمن فقال: ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى... ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: يمنعني من الماء.

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ... ﴿٤٣﴾ ﴾ أي لا معصوم كقوله: ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [٥] أي مدفوق ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ... ﴿٤٣﴾ ﴾ اللّهُ فإنه معصوم.

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ... ﴿٤٣﴾ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: بين كنعان والجبل الذي زعم أنه يعصمه، قاله ابن عباس.

---

(١) قال ياقوت: عين الوردة – وهو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة، كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيامهم. معجم البلدان : ٤/١٨٠، ط بيروت.

(٢،٣) الأصل: ثمانون. محرفة. (٤) الأصل: خديج. محرفة. (٥) سورة الطارق: ٦.

والثاني: بين نوح وابنه، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ... ﴿٤٤﴾ ﴾ قال ابن عباس: ابتلعتْ ما ظهر منها وبقي ماءُ السماء بحارًا وأنهارًا.

﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ... ﴿٤٤﴾ ﴾ أي أمسكي عن إنزال الماء، وغيض الماء: نقص ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ... ﴿٤٤﴾ ﴾ بغرق القوم ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ... ﴿٤٤﴾ ﴾ يعني السفينة ﴿ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴿٤٤﴾ ﴾ وهو جبل بالموصل.

وإنما قال نوح: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي... ﴿٤٥﴾ ﴾ لأن اللَّه تعالى وعده نجاةَ أهله، فقيل له: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ... ﴿٤٦﴾ ﴾ أي من أهل دينك وإنما قال تعالى في وعده: ﴿ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ... ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ... ﴿٤٦﴾ ﴾ يعني السؤال فيه، وقرأ الكسائي: « عَمِل » بكسر الميم، يشير إلى أنه مُشرك.

أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قالا: أنبأنا أحمد بن أحمد، حدثنا أبو نعيم أحمد بن عبد اللَّه، حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا وهيب بن الورد، قال: لما عاتبَ اللَّهُ تعالى نوحًا في ابنه وأنزل عليه: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ بكى ثمانمائة عام حتى صار تحت عينيه مثلُ الجدول من البكاء [1].

قال علماء السير: لما خرجوا من السفينة بنوا قريةً سموها « ثمانين » بعددهم ثم ماتوا ولم يبق لهم نسْل.

وإنما الناسُ كلهم من أولاد نوح، وكانوا ثلاثة: سام وحام ويافث.

فمن أولاد سام: فارس وطسم وعمليق، وهو أبو العماليق كلهم، وإرم وأرفخشذ ومن أولاد أرفخشذ: الأنبياء والرسل والعرب كلها، والفراعنة بمصر.

ومن أولاد إرم: عابر وعوص، ومن ولد عابر: ثمود وجديس وكانوا عربًا، وولد عوصٌ عادًا، وكانت طسم وعمليق وجاسم يتكلمون بالعربية، وكانت العرب تقول لهم: العرب العاربة؛ لأنه كان لسانهم الذي جبلوا عليه، وتقول لبني إسماعيل: العرب المتعربة؛ لأنهم تكلموا بلسان الأمم الذين سكنوا بين أظهرهم.

---

(١) هذه مبالغة لا يمكن قبولها؛ إذ لا تتفق مع قوانين الحياة، وقد كانوا يتسامحون في رواية هذه الأخبار ترقيقًا للقلوب ولكنها بعيدة عن منهج الحقيقة.

وولد لعابر فالغ ومعناه بالعربية قاسم؛ لأنه قسم الأرض بين بني نوح، وولد لفالغ أرغو، ولأرغو ساروغ، ولساروغ ناحور، ولناحور تارخ أبو إبراهيم الخليل عليه السلام.

وولد لعابر أيضًا قحطان، وقحطان أول من ملك اليمن، وأول من سلِّم عليه بأبيْتَ اللعن، **ومن أولاد حام:** كوش وولد لكوش نمرود الجبار، ومن أولاد نمرود هذا نمرود الذي ابتلي به الخليل.

ومن أولاد حامٍ: السُّودان والبربر والقبط.

ومن أولاد يافث: الترك ويأجوج ومأجوج والصقالبة.

ولما كثر أولاد نوح اقتسموا الأرض، فنزل بنو سام سُرَّة الأرض، فجعل فيهم النبوة والكتاب والجمال، ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبُور، ونزل بنو يافث مجرى الشمال والصَّبا، فاشتدَّ بردهم.

ولما قُصت قصة نوح على نبينا ﷺ قيل له: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ والمعنى: اصبر كما صبر نوح فإن الظفر والتمكين لمن اتقى، والمراد: ليحصل لك كما حصل لنوح عليه السلام والمؤمنين.

* * *

الكلام على البسملة

عجبًا لعيني كيف يطرقها الكرى ... ولحيلتي وقد انجلى عني المرا

ألهو وأعلمُ أنه قد فوِّقتْ ... نحوي سهامُ الحتْف أمْ حيني كرَى [(١)]

وإذا هممتُ بتوبةٍ وإنابةٍ ... عرضتْ ليَ الدنيا فعُدت القهقريِ

كم قد سمعتُ وقد رأيت مواعظًا ... لو كنت أعقِل حين أسمع أو أرى

أين الذين طغوا وجاروا واعتدوا ... وعتوا وطالوا واستخفُّوا بالورى

أو ليس أعطتهمْ مقاليدُ العلا ... حتى لقد خضعتْ لهم أُسْد الشرى

وتمسَّكوا بحبالها لكنها ... فصمتْ لهم منها وثيقات العرى

ما أخلدتْهم بعد سالف رفعةٍ ... بل أنزلتهم من شماريخ الذُّرى

وإلى البلى قد نُقِّلوا [(٢)] وتشوهت ... تلك المحاسنُ تحت أطباق الثرى

---

(١) الأصل: أم حيو كرى محرفة، ولعل ما أثبته صواب، والحين الهلاك، وكرى: أسرع، قال في اللسان: وكرى الرجل: عدا عدوا شديدًا، قال ابن دريد: وليس باللغة العالية، وتكون « أم » هنا إضرابية بمعنى بل.

(٢) الأصل: فقتلتهم.

لـو أخـبـروك بـحـالـهـم ومـآلـهـم أبكاك دهْرَك ما عليهم قد جرى
أفـنـاهُـمُ مـن لـيـس يـفـنـى مُلْكه ذو البطشة الكبرى إذا أخذ القُرى
فاصرفْ عن الدنيا طِماعك إنما مـيـعادهـا أبـدًا حـديـثٌ يُفترى
وصِلِ السُّرى عنها فما ينجيك منْ آفـاتـهـا إلا مُـواصـلـةُ الـسُّـرى

يا حاملًا من الدنيا أثقالًا ثقالًا، يا مطمئنًا لا بد أن تنتقل انتقالًا، يا مُرسلًا عنان لهوه في ميدان زَهْوه إرسالًا، كأنك بجفنيك حين عُرض الكتابُ عليك قد سالا.

أين المعترف بما جناه؟ أين المعتذر إلى مولاه؟ أين التائب من خطاياه؟ أين الآيب من سفَر هواه؟ نيران الاعتراف تأكل خطايا الاقتراف، مجانيق الزفرات تهدم حصونَ السيئات، مياه الحسرات تغسل أنجاسَ الخطيئات.

يا طالبَ النجاة دُمْ على قرْع الباب، وزاحم أهلَ التقى أولي الألباب، ولا تبرح وإنْ لم يُفتح فرب نجاح بعد الياس، ورُبّ غنيٍّ بعد الإفلاس.

صـبـرًا فـمـا يـظـفـر إلا من صبر إنَّ الليـالـي واعـداتٌ بـالـظـفـرْ
وربـمـا يـنـهـض جَـدٌّ مـنْ عـثـرْ ورُبَّ عظم هيضَ حينًا وانـجبرْ

إذا تبت من ذنوبك فاندم على عيوبك، وامحُ بدموعك قبيحَ مكتوبك، والبس جلباب الفَرَق، وتضرَّع على باب القلق وقل بلسان المحترق:

قـد فـعـلـتُ الـقـبـيـحَ وهو شبيهي خـطـأً فـافـعـل الـجـميلَ بعفوكْ
وفـدتْ رغـبـتـي إلـيـك ومـا زلـ ـتَ تـحـيـي بـالـنُّجح أوجُهَ وفدكْ

قف وقوف المنكسرين، وتبتلْ تبتلَ المعتذرين، واستشعر الخضوع، واستجلب الدموع، واحتلْ واحذر سهم الغضب أن يصيب المقتل.

يـا سـيـدي مـا هـفـوتـي بغريبة مـنـي (١) ولا غـفـرانـك بطريف
فإن تقبل العبدَ الضعيفَ تطوُّلًا فإن رجائي فيك غيرُ ضعيف (٢)

كم أتيتُ ذنبًا فسترتَ، وكم جنيتُ جنايةً فنظرت، فبالحلم والكرم إلا غفرتَ

فـقـدْ طـالـمـا أنـقـذَتْـنـي يـداك وقـد قـلـقـلـتـنـي حـبـالُ الردى

---

(١) الأصل: إليك، وهو تحريف، ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٢) يظهر اختلاف الوزن بين البيتين، فالأول من بحر الكامل والثاني من بحر الطويل، ولعل الصواب: إن تقبل - إني رجائي إلخ فيتحد الوزن.

فواللَّه لا شِمْتُ غيثًا سواكَ فإما نداك وإما الصَّدى

إخواني: إنما مرضُ القلوب من الذنوب، وأصل العافية أن تتوب، دوام التخليط يوقع في صعاب العلل، أسمعتَ يا مريض الشَّره، كم رأيتَ صريعًا للهوى! اقرع بابَ الطبيب يصف لمرضك نسخة، قبل أن تسري سكتةُ التفريط إلى موت الهلاك.

تلاوةُ القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما يعمله العسل في علل الأجساد، مواعظُ القرآن لأمراض القلوب شافية، وأدلة القرآن لطلب الهدى كافية، أين السالكون طريق السلامة والعافية، مالي أرى السُّبل من القوم عافية؟!

إن السعيد لمدرك دركًا وأخو الشقاوة فهو في الدركِ
وإلى الخمول مآل ذي لعبٍ وإلى السكون مصير ذي حركِ
طار الحِمامُ وغاص مُقتدرًا فأماتَ حتى الطير والسمكِ
إن الزمان إذا غدا وعدا قتلَ الملوكَ بكلِّ مُعْترك
والعين تُبصر أين حبتها لكنها تعمَى عن الشَّركِ
أنكرتُ هذا الموتَ فارتبكت نفسي هناكَ أشدَّ مُرْتبكِ
ما ضرَّ ذاكره وناظره أن لا ينامَ على سوى الحسكِ

* * *

سجع على قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا... ﴾ (١)

يا من بين يديه يومٌ لا شك فيه ولا مِرَا، يقع فيه الفراق وتنفصم العُرى، تدبر أمرك قبل أن تحضر فترى، وانظر لنفسك نظرَ من قد فهم ما جرى، قبل أن يغضب الحاكم والحاكم ربُّ الورى، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا... ﴿٣٠﴾ ﴾.

يومٌ تشيب فيه الأطفال، يومٌ تسير فيه الجبال، يوم يظهر فيه الوبال، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال، يوم لا تقال فيه الأعثار، وكم من أعذار تقال فترى من قد افترى، يقدِّم قدمًا ويؤخر أخرى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾.

فيُنْصَب الصراط فناجٍ وواقع، ويوضع الميزان فتكثر الفظائع، وتُنشر الكتب وتسيل المدامع، وتظهر القبائح بين تلك المجامع، ويؤلم العقابُ وتملى المسامع، ويخسر العاصي

---

(١) سورة آل عمران: ٣٠.

ويربح الطائع، فكم غنيٍّ قد عاد من الخير مفتقرًا ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا سليمان بن حيان، حدثنا ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) يقوم أحدهم في رَشْحه إلى أنصاف أذنيه (٢).

قال أحمد: وحدثنا وكيع، قال: حدثنا الأعمش، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ﷻ ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن أيمن منه فلا يرى شيئًا قدامه (٣) وينظر عن أشأم منه فلا يرى شيئًا قدامه، وينظر أمامه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل » (٤).

هذان الحديثان في الصحيحين.

روى عتبة بن عبد (٥) عن النبي ﷺ أنه قال: « لو أن رجلًا يُجرُّ على وجهه من يوم وُلِدَ إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة اللَّه لحقره يوم القيامة ».

يا له من يوم يقتص للمظلوم من الظالم، وتحيط بالظالم المظالم، وتصعد القلوب إلى الغلاصم (٦) وليس لمن لا يرحمه الإله عاصم.

قال ﷺ: « لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يومَ القيامة حتى يُقاد للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء » (٧).

وقال ﷺ: « يحبس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة » (٨).

---

(١) سورة المطففين: ٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب رقم : ٤٧، وصحيح مسلم كتاب الجنة، حديث رقم : ٦، ومسند أحمد : ١٢٥/٢.

(٣) الأصل: إلا شياء قدمه .محرفة والتصويب من صحيح البخاري « كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب » وفي مسند أحمد: إلا شيئًا قدمه.

(٤) مسند أحمد : ٢٥٦/٤.

(٥) الأصل: بن عبيد. والتصويب من مسند أحمد : ١٨٥/٤.

(٦) الغلاصم: جمع غلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق.

(٧) الجماء: التي لا قرن لها. والحديث رواه أحمد في مسنده : ٢٣٥/٢، عن أبي هريرة.

(٨) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب رقم : ١.

كـم مـن وعـيـد يـخْـرق الآذانـا | كـأنـمـا يُـعـنـى بـه سـوانـا
أصـمَّـنـا الإهـمـالُ بـل أعـمـانـا

يا كثير السيئات غدًا ترى عملك، يا هاتك الحرمات، إلى متى تديم زللك؟!

تـيـقـظْ فإنـكَ فـي غـفـلـةٍ | يـمـيـدُ بـك الـسُّـكـرُ فيمن يميدْ
وأيُّ مـنـيـع يـفـوت الـبـلـى | إذا كـان يـبـلـى الصفا والحديدْ
إذا الـمـوتُ دبَّـتْ لـه حـيـلـة | فتلـك التي كـنـتَ منها تـحيدْ
أراك تُـؤمـل والـشـيـبُ قـد | أتـاك بـنـعـيـك مـنـه بـريـدْ
وتـنـقـصُ فـي كـلِّ تـنـفـيـسـةٍ | وعـنـدك أنـك [1] فـيـهـا تـزيـد

أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك؟! أما تخاف أن تُؤخذ على قبيح فعلك؟! وا عجبًا لك من راحلٍ تركت الزاد في غير رحلك!! أين فطنتك ويقظتك وتدبيرُ عقلك؟! أما بارزت بالقبيح فأين الحزن؟! أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن؟! ستعرفُ خبرك يوم ترحل عن الوطن، وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن.

إلى اللَّه تُبْ قبل انقضاءِ من العُمر | أخي ولا تـأمـنْ مُـسـاورة الـدهـر
فـقـد حـدثـتـك الحادثاتُ نزولها | ونـادتـك إلا أن سمعك ذو وَقْرِ
تـنـوح وتـبـكـي للأحبة إن مضوا | ونفسَك لا تبكي وأنت على الإثر

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ... ﴾ [2]

يا مبارزًا بالذنوب خُذ حذرك، وتوقّ عقابه بالتُّقى فقد أنذرك، وخلِّ الهوى فإنه كما ترى صيَّرك، قبل أن يغضب الإلهُ ويضيِّق حبسه، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ... ﴿٢٨﴾ ﴾.

اجتهد في تقوية يقينك قبل خُسر موازينك، وقُمْ بتضرعك وخيفتك قبل نشْر دواوينك، وابذُل قُواك في ضعفك ولينك، قبل أن يدنوَ العذابُ فتجدَ مسَّه، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾.

لـمَّا سمع المتيقظون هذا التحذير فتحوا أبواب القلوب لنزول الخوف، فأحزنَ الأبدان

---

(١) الأصل: أنها. محرفة.

(٢) سورة آل عمران: ٢٨.

وقلقل الأرواح فعاشت اليقظةُ بموت الهوى، وارتفعت الغفلة بحلول الهيبة، وانهزم الكسل بجيش الحذر، فتهذبت الجوارح من الزلل والعزائم من الخلل، فلا سكون للخائف ولا قرار للعارف، كلما ذَكر العارف تقصيره ندم على مصابه، وإذا تصوَّر مصيره حذر مما في كتابه، وإذا خطر العتاب بفنائه فالموت من عتابه، فهو رهين القلق بمجموع أسبابه.

- كان داود عليه السلام إذا خرج يومَ نياحته على ذنبه أقلع مجلسُه عن ألوف قد ماتوا من الخوف عند ذكر ربه.

- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر بالآية في وِرْده فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت مريضًا يُعاد.

- وقرأ الحسن ليلةً عند إفطاره: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ (١) فبقي ثلاثة أيام لا يطعم.

حقيق بمن علم ما بين يديه، وتيقن أن العمل يُحصَى عليه، وأنه لا بد من الرحيل عما لديه، إلى موقف صعبٍ يساق إليه، أنْ يتجافى عن مُضطجع البطالة بجنبيه.

- قال حاتم الأصمُّ: مَنْ خَلا قلبُه من ذِكر أخطار أربعة فهو مُغتر، فلا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يومِ الميثاق، حين قال اللَّه تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أُبالي، وهؤلاء في النار ولا أُبالي، ولا يعلم في أي الفريقين كان.

والثاني: حين خُلق في ظلماتٍ ثلاث، فنودي الملك بالشقاء والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟

والثالث: ذكر هوْل المطلع، ولا يدري أيُبشَّر برضا اللَّه تعالى أو بسخطه؟

والرابع: يوم يصدر الناسُ أشْتاتًا ولا يدري أي الطريقين يُسلك به؟

فمحقوق لصاحب هذه الأخطار أن لا يفارق الحزنُ قلبه!

- بكى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليلةً فأطال، فسئل عن بكائه، فقال: ذكرتُ مصيرَ القوم بين يدي اللَّه عز وجل: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٢).

ثم صرخ وغشي عليه.

كم ذا أغالط أمري ... كأنني لستُ أدري
أغْفلت ذا (٣) الذي كان ... في مُقدّم عُمري

---

(١) سورة المزمل: ١٢، ١٣. (٢) سورة الشورى: ٧. (٣) الأصل: ذي. محرفة.

ولــــم أزلْ أتــمـــــادَى ... حــــتـــى تـصــرَّم دهْــري
مـــن لـــي إذا صــرت رَهْــنـــًا ... بـالـذنـب فـي رَمْس قـبـري
بـــأيِّ عـــذر ألاقــــي ... ربـــي لـــيــقـبــل عـذري
فـلـيـــت شـعـري مـتـى أُد ... رك الـمـنـى لـيــت شـعـري

يا من قد وهى شبابه، وامتلأ بالزلل كتابه، أما بلغك أن الجلود إذا استُشْهِدَتْ نطقت؟! أما علمت أن النار للعصاة خُلقت؟! إنها لتحرق كلَّ ما يُلقى فيها، فيصعب على خزنتها كثرةُ تلاقيها، التوبة تحجب عنها، والدّمعة تُطفيها، قال ﷺ: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرَّت على أهل الدنيا معيشتهم »(١) فكيف بمن هو طعامه لا طعام له غيره!

أسفًا لأهل النار لقد هلكوا وشقوا، لا يقدر الواصفُ أن يصف ما قد لقوا، كلما عطشوا جيء بالحميم فسُقوا، وهذا جزاؤهم إذ خرجوا عن الطاعة وفسقوا، فقطِّعوا واللَّه بالعذاب ومُزقوا، وأُفرد كل منهم عن فريقه وفُرقوا، فلو رأيتهم قد كُلِّبوا في السلاسل وأُوثقوا، واشتد زفيرهم وتضرَّع أسيرهم وقلقوا، وتمنوا أنْ لم يكونوا وتأسفوا كيف خُلقوا، وندموا إذ أعرضوا عن النُّصح وقد صُدقوا، فلا اعتذارهم يُسمع، ولا بكاؤهم ينفع ولا أُعتقوا.

لو أبصرت عيناك أهلَ الشقا ... في النار قد غُلُّوا وقد طوّقوا
تـقـول أولاهـم لأخـراهـمُ ... في لُجج المُهل وقد أغرقوا
قـد كـنـتـمُ حُـذِّرتمُ حَـرَّهـا ... لكن من النيران لم تَفْرقوا
وجـيء بـالـنـيـران مـزمـومـة ... شَرارها من حولها مُحدق
وقـيـل لـلـنـيـران أن أحـرقـي ... وقـيـل لـلـخُـزان أن أطْبقوا
وأولـيـاء الـلَّـه في جـنـةٍ ... قد تُوجوا فيها وقد مُنطقوا
تـدبـروا كـم بـيـنهم إخوتـي ... ثم أجيلوا فكركم وانتقوا

* * *
* *
*

(١) سنن الترمذي، حديث رقم: ٢٥٨٥. وسنن ابن ماجه، حديث رقم: ٤٣٢٥. ومسند أحمد حديث رقم: ٢٧٣٠، وهو حديث ضعيف.

المجلس الخامس

في قصة عاد

الحمد للَّه المنزه عن الأشباه في الأسماء والأوصاف، المقدس عن الجوارح والآلات والأطراف، خضعت لعزته الأكوانُ وأقرت عن اعتراف، وانقادت له القلوب وهي في انقيادها تخاف، أنزل القطْر فمنه الدُّرُّ تحويه الأصداف، ومنه قوت البذور يربِّي الضعاف.

كشف للمتقين فشهدوا، وأقامهم في الليل فسهروا وشهدوا [١]، وأراهم عيب الدنيا فرفضوا وزهدوا، وقالوا: نحن أضياف.

وقضى على المخالفين بالبعاد فأفاتهم التوفيق والإسعاد، فكلهم هَامَ في الضلال وما عاد ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ [٢].

أحمده على ستر الخطايا والاقتراف، وأصلي على رسوله محمد الذي أُنزل عليه قاف، وعلى صاحبه أبي بكر الذي أمن ببيعته الخلاف، وعلى عمرَ صاحبِ العدل والإنصاف، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النظاف [٣]، وعلى علي بن أبي طالب محبوب أهل السنة الظِّراف، وعلى عمه العباس مقدم أهل البيت والأشراف. [جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بلغه اللَّه ما يرجو وأمنه مما يخاف] [٤].

* * *

قال اللَّه:

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ... ﴾ [٥]

الأخ في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: الأخ من الأب والأم أو من أحدهما، ومنه ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ [٦].

والثاني: الأخ من القبيلة، ومنه ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ... ﴿٢١﴾ ﴾.

والثالث: الإخاء في المتابعة، ومنه ﴿ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [٧].

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها: وتهجدوا.

(٢) سورة الأحقاف: ٢١.

(٣) الأصل: النطاف بالطاء المهملة، ولا معنى لها، والنظاف جمع نظيف، ككرام جمع كريم.

(٤) ليست في أ.

(٥) سورة الأحقاف: ٢١.

(٦) سورة المائدة: ٣٠.

(٧) سورة الإسراء: ٢٧.

والرابع: الصاحب، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى ﴾ [(١)].

والإنذار: الإعلامُ مع التخويف، **والأحقاف:** الرمال العظام، واحدها حِقْف.

وفي مكان هذه الأحقاف ثلاثة أقوال:

أحدها: بالشام، قاله ابن عباس.

والثاني: بين عُمان ومهيرة، قاله عطية.

والثالث: أرض يقال لها: الشحْر نحو البحر، قاله قتادة.

وقال ابن إسحاق: كانت منازلهم فيما بين عُمان إلى حَضْرَ مَوْتَ باليمن كله، وكانوا قد أَفْسدوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم، وكانوا أصحاب أوثان فاتبعه ناسٌ يسير، وكتموا إيمانهم، قال مُقاتل: كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعًا. وقال مجاهد: وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة.

﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي: مضت من قبل هودٍ ومن بعده، وقوله: ﴿ لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: لتصرفنا عن آلهتنا بالإفك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: هو يعلم متى يأتيكم العذاب. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ... ﴿٢٤﴾ ﴾ يعني ما يوعدون ﴿ عَارِضًا... ﴿٢٤﴾ ﴾ أي سحابًا يعرض في ناحية السماء.

* * *

وقوم عاد هؤلاء أولاد عوص بن إرم بن سام بن نوح، وهي عاد الأولى بعث اللَّه تعالى إليهم هودَ بن عبد اللَّه بن رباح بن الخلود بن عاد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام.

كانوا يعبدون الأوثان فدعاهم إلى التوحيد، فكلما أنذرهم زاد طغيانهم، فحبس اللَّه تعالى عنهم القطر ثلاث سنين، حتى جهدوا فبعثوا إلى مكة وفدًا يستسقي لهم، وكانوا سبعين رجلًا، منهم قَيْل ونُعَيم وجُلهمة ولقمان بن عاد ومرثد بن سعد، وكان مرثد مؤمنًا يكتم إيمانه، وكان الناس مؤمنُهم وكافرُهم إذا جهدوا سألوا اللَّه تعالى عند الكعبة، فنزلوا على بكر بن معاوية، وكان خارجًا من الحرم فأكرمهم، وكانوا أصهاره وأخواله، وكان سكانُ مكة العماليقَ، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، فجعل بكر يسقيهم الخمر وتغنيهم الجرادتان شهرًا، فلما رأى بكرٌ طولَ مقامهم عنده قال: هلك أخوالي وأصهاري، هؤلاء ضيفي، فما أدري ما أصنع، واستحي أن يأمرهم بالخروج، فشكا ذلك إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعرًا نغنيهم به لا يدرون من قاله، فقال:

---

(١) سورة ص: ٢٣.

ألا يا قَيْلُ ويحك قُم فَهينمْ لعل اللَّه يمنحنا غماما
فتسقي أرضَ عادٍ إنَّ عادا قَدَ امسوا لا يُبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخيرٍ وقد أمستْ نساؤهم عَيامى [(١)]
وإنَّ الوحشَ تأتيهم نهارا ولا تخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركمُ وليلكمُ التماما
فقبِّح وفدُكم من وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما سمعوا هذا قالوا: ويحكم ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرْثد: إنكم واللَّه لا تُسْقَوْنَ بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم سُقيتم، فقال جلهمة: احبسوا عنا هذا ولا يقدمنَّ معنا مكة، فإنه قد اتبع دينَ هود، ثم خرجوا يستسقون، فنشأت ثلاثُ سحائب: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نودي منها: يا قيْل اختر، فقال: أختار السوداء؛ لأنها أكثر ماءً، وقيل للوفد: اختاروا، فقال مرثد: يا رب أعطني صدقًا وبرًّا. فَأُعْطِي، وقال لقمان بن عاد: أعطني عُمرًا، فاختار عُمْر سبعة أنسُر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة ويأخذ الذكر لقوته، حتى إذا مات أخذ غيره إلى أن ماتت السبعة فمات.

وأما السحابة فساقها اللَّه تعالى إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له: مُغيث، فلما رأوها استبشروا بها وقالوا: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ... ﴿٢٤﴾ ﴾ فكان أول من رأى ما فيها امرأة منها فصاحت وصعقت، فقيل لها: ما رأيت؟ فقالت: ريحًا فيها كشُهب النار، أمامها رجالٌ يقودونها.

فسخرها اللَّه عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ ﴾ [(٢)] أي متتابعة ابتدأت غُدْوة الأربعاء آخر أربعاء في الشهر وسكنت في اليوم الثامن.

واعتزل هودٌ ومن معه من المؤمنين في حظيرةٍ، ما يصيبهم منها إلا ما يُلين الجلودَ وتلتذ عليه النفوسُ.

فكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت وترفع الرجالَ والنساء بين السماء والأرض فتدق رقابهم فيبين الرأسُ عن الجسد، فذلك معنى قوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [(٢)]

---

(١) عيامى: جمع عيمى وهي العطشى. (٢) سورة الحاقة: ٧.

ثم تدمغهم بالحجارة، قال عمرو بن ميمون: كانت الريح تحمل الظعينة (١) فترفعها حتى تُرى كأنها جرادة (٢).

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك، أنبأنا عاصم بن الحسن، أنبأنا عليُّ بن محمد بن بشران، حدثنا الحسن بن صفوان، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثنا ابن عبد الوهاب، حدثنا محمد ابن يزيد، عن جُويْبر، حدثني أبو داود، أنه سمع ابن عباس يقول: أولُ ما عرفوا أنه عذابٌ رأوا ما كان خارجًا من رجالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثلَ الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم وهالتْ عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم قُبضت أرواحهم وطرحتهم الريح وألقوا في البحر، ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ... ﴿٢٥﴾ ﴾.

وقال مُقاتل: بعث اللَّه طيرًا أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر.

* * *

فانظروا رحمكم اللَّه كيف أهلك الخلق العظيم بالريح التي هي ألطف الأشياء، ليبين أثر القدرة ﷻ، وكذلك يميت الخلق عند نفخة ويحييهم عند نفخة، فسبحان من بانتْ سطوته للمعاندين فقهرت، وظهرت آثار قدرته للمتقين فبهرت، كم عذَّب مريض بريح في حشاه يختلف إلى أن تلف.

* * *

الكلام على البسملة

سلطانُه في خلقه قاهرُ ... وأمْرهُ في مُلكه باهرُ
سطوته باطشةٌ بالورى ... في ذَرَّة مُعجزها ظاهرُ
إذا تجلى في جلال العلا ... ذلَّ له الأولُ والآخرُ
كن حاذرًا من بطْشه إنه ... في أمْره وقهره قادرُ
ولُطْفُه في عطفه راحمٌ ... وسيفُه في خلقه باترُ

---

(١) الظعينة في الأصل: المرأة في الهودج، ثم قيل للمرأة وهي في بيتها: ظعينة. انظر شرح القصائد السبع الطول لابن الأنباري: ص ٢٤٥ - ٤٢١.

(٢) هذا الخبر مروي عن ابن إسحاق، وقد أورده ابن كثير باختلاف يسير. انظر قسم قصص الأنبياء من البداية والنهاية بتحقيقنا: ١٣٤/١ - ١٣٧.

أيها النائم وهو منتبه، المتحير في أمرٍ لا يشتبه، يا من قد صاح به الموتُ في سلب صاحبه، يا إخوان الغفلة تيقظوا، يا أقران البطالة تحفظوا، يا أهل المخالفة اقبلوا، يا مُعرضين عنا أقبلوا، يا مبارزين بالذنوب لا تفعلوا.

أيـن (١) مـن كان قـبلنا أين أينا ... من أنـاسٍ كانـوا حِـجالًا (٢) وزينا

إنَّ دهـرًا أتـى عـليـهـم فـأفـنـى ... عـددًا مـنـهـمُ (٣) سـيـأتي علينا

خـدعتـنا الآمـالُ حـتـى جـمـعنا ... وطـلـبـنـا لـغـيـرنـا وسـعـيـنـا

وابـتـغـيـنـا مـن الـمـعاش فضولًا ... لـو قـنـعـنـا بـدونـهـا لاكـتفينا

ولـعـمـري لـنـمـضـيـن ولا نـمـ ... ـضي بشـيء مـنها إذا ما مـضينا

كـم رأيـنـا (٤) من ميتٍ كان حيًّا ... ووشـيـكًا يُـرى بـنـا مـا رأيـنـا

مـا لـنـا نـأمـن (٥) الـمـنايا كأنـا ... لا نـراهـن يـهـتـديـن إلـيـنـا

عـجـبًا لامـرئٍ تـيـقـن أن الـمَـوْ ... ـت حقٌّ فـقـرَّ بـالـعـيـش عـينـا

أسفًا لمن ضيع الأوقات وقد عرفها، وسلك بنفسه طريقَ الهوى فأتلفها، أنس بالدنيا فكأنه خُلق لها، وأمله لا ينتهي، وأجله قد انتهى، سلَّمت إليه بضائع العمر فلعب بها، لقد ركن إلى ركنٍ ما لبث أن وَهَى، عجبًا لعين أمست بالليل هاجعة، ونسيت أهوالَ يوم الواقعة، ولأذن تقرعها المواعظُ فتضحى لها سامعة، ثم تعود الزواجر عندها ضائعة، ولنفوسٍ أضْحت في كرم الكريم طامعة، وليست له في حال من الأحوال طائعة، ولأقدام سعتْ بالهوى في طرق شاسعة، بعد أن وضحت لها سُبلٌ فسيحة واسعة، ولهمم أسرعت في شوارع اللَّهو شارعة، لم تكن مواعظ العقول لها نافعة، ولقلوب تضمر التوبةَ عند الزواجر الرائعة، ثم يختلُّ العزمُ بفعل ما لا يحل مرارًا متتابعة، ثالثة بعد ثانية وخامسة بعد رابعة.

كـم يومٍ غابتْ شمسه وقلبك غائب، وكم ظلام أُسبل ستره وأنت في عجائب، وكم أُسبغت عليك نعمه وأنت للمعاصي تُواثب، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب، وكم ينذرك سلبُ رفيقك وأنت لاعب، يا من يأمن الإقامةَ قد زُمت الركائب،

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية انظر ديوانه : ص ٢٥٦.

(٢) كذا بالأصل وفي ديوان أبي العتاهية: كانوا جمالًا، والحجال، موضع يزين بالثياب والستور للعروس ولعل ما في الديوان أصح.

(٣) الديوان: فأفنى منهم الجمع.

(٤) الأصل: كم رأيت، والتصويب من الديوان : ص ٢٥٦.

(٥) الديوان: نأمل.

أفقْ من سكْرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكَّر نزولَ حُفرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيلَ الفضائل قبل فوت المطالب، فالسائق حثيث والحادي مُجدٌّ والموت طالب.

* * *

لأبكينَّ (١) على نفسي وحُقَّ لِيَهْ ... يا عينُ لا تبخلي عنِّي بعبرتيَهْ
لأبكينَّ فقَدْ بان الشبابُ وقد ... جدَّ الرحيلُ عن الدنيا برحْلتيه (٢)
يا نأي منتجعي يا هوْل مُطَّلعي ... يا ضيقَ مُضطجعي يا بُعد شُقَّتيَهْ
المالُ ما كان قدامي لآخرتي ... ما لا أقدِّم (٣) من مالي فليس ليهْ

أسفًا لغافل لا يفيق بالتعريض حتى يرى التصريح، ولاتبين له جلية الحال إلا في الضريح، كأنه وقد ذكَّره الموت فأفاق، فانتبه لنفسه وهو في السِّباق، واشتد به الكرب والْتفّت الساق بالساق، وتحير في أمره وضاق الخناق، وصار أكبرُ شهواته توبةً من شِقاق، هيهات مضى بأوزاره الثقيلة، وخلا بأعماله واستودع مقيله، وغيِّب في الثرى وقيل: لا حيلة، وبات الندم يلزمه وبئس اللاحي (٤) له.

فتفكروا إخواني في ذلك الغريب، وتصوروا أسف النادم وقلق المريب، فلمثل حاله فليحذر اللبيب، وهذا أمر تُبعده الآمالُ وهو واللَّه قريب.

أبْصرته مُلْقًى يجودُ بنفسه ... قد كلّل الرشْحُ الغزير جبينهُ
لا يستطيع إجابتي من ضعفه ... طورًا يكفُّ شماله ويمينهُ
وطبيبهُ قد حار فيه وقد رأى ... أنفاسَه تعلو معًا وأنينه
قد عاف مشروباته وطعامه ... وقلَى لذاك صديقه وخدينه

إخواني: سلوا القبورَ عن سُكانها، واستخبروا اللحودَ عن قُطانها، تخبركم بخشونة المضاجع، وتُعلمكم أن الحسرة قد ملأت المواضع، فإن المسافر يودّ لو أنه راجع، فليتعظ الغافل وليراجع.

يا واقفًا يسأل القبورَ أفِقْ ... فأهلها اليومَ عنك قد شُغلوا

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه: ص ٣٠٣.
(٢) الديوان:
لأبكين لفقدان الشباب وقد ... نادى المشيبُ عن الدنيا برحلتيه
(٣) الديوان: ما لم أقدمه.
(٤) اللاحي: العائب.

قد هالهم مُنْكرٌ وصاحبُه وخوف ما قدَّموا وما عملوا
رهائنٌ للثرى على مَدَرٍ (١) يُسمع للدود بينهم زجلُ (٢)
سرى البلى في جُسومهم فجرتْ دمًا وقيحًا وسالت المُقلُ
سكرى ولم يشربوا الفقار ومن كؤوس المنون ما نهلُوا
ينتظرون النشور إذ يقف الـ ـأملاكُ والأنبياء والرسُّل
يومًا تُرى الصُّحفُ فيه طائرةً وكلٌّ قلْب من أجله وجِلُ
قد دنت الشمسُ من رءوسهمُ والنار قد أُبرزت لها شُغلُ
وأزلفتْ جنةُ النعيم فيَا طُوبى لقومٍ بربعها نزلوا
أكوابُهم عسْجدٌ يُطاف بها والخمر والسلسبيل والعسلُ
والحورُ تلْقاهم وقد هُتكت عن وجهها الأستارُ والكِللُ (٣)

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ... ﴾ (٤)

قال ابن عباس ﷺ: هذا وعيدٌ للظالم وتعزية للمظلوم.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد العزيز بن سلمة، عن عبد اللَّه ابن دينار، عن ابن عمر ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة » (٥).

أخبرنا يحيى بن علي المدير، أنبأنا عبد الصمد بن المأمون، حدثنا الدارقطني، أخبرنا يحيى بن صاعد، حدثنا محمد بن هشام المروزي، حدثنا أبو معاوية، عن بُريد، عن أبي بُردة، عن أبي موسى، قال: قال النبي ﷺ: « إن اللَّه يُملي للظالم فإذا أخذه لم يُفلته » ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٦). (الحديثان في الصحيحين).

---

(١) المدر: الطين اليابس، والحجارة. (٢) الزجل: الجلبة ورفع الصوت والتطريب.
(٣) الكلل: جمع كلة وهي الستر الرقيق. (٤) سورة إبراهيم: ٤٢.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر، حديث رقم : ٥٦، ٥٧.
(٦) سورة هود: ١٠٢، والحديث في صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٦٢.

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد، أخبرنا ابن النقور، أنبأنا المخلِّص، أنبأنا البغوي، حدثنا أبو روْح البلدي، حدثنا ابن شهاب الخياط، عن ابن عون، عن إبراهيم، عن ابن شريح قال: سيعلم الظالمون حظَّ من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقابَ والمظلوم ينتظر النصْر.

أخبرنا محمد بن ناصر، أنبأنا علي بن أيوب، أنبأنا أبو علي بن شاذان، أخبرنا الطوماري، حدثنا ابن البراء، حدثنا عبد المنعم، عن أبيه، عن وهْب قال: بنى جبارٌ قصرًا وشيده فجاءت عجوز مُسلمة فبنت إلى ظهر قصره كوخًا تعبد اللَّه فيه، فركب الجبارُ يومًا فطاف بفناء القصر، فرأى الكوخ، فقال: ما هذا؟ فقيل له: امرأة هاهنا ثاوية، فأمر به فهدم ولم تكن المرأة حاضرة، فجاءت فرأته قد هُدم، فقالت: من فعل هذا؟ فقيل لها: إن الملك ركب فرآه فأمر بهدمه، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: يا رب أنا لم أكن، فأنت أين كنت؟ قال: فأمر اللَّه ﷻ جبريل أن يقلب القصر على من فيه [1].

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلمُ آخره يأتيك بالندم

تنام عيناك والمظلومُ منتصب ... يدعو عليك وعينُ اللَّه لم تنم

السجع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾:

المعنى: تشخص أبصار الخلائق لظهور الأهوال فلا تغمض.

الويلُ لأهل الظلم من ثِقل الأوزار، ذكْرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار، يكفيهم أنهم قد وُسموا بالأشرار، ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار، وداروا إلى دار العقاب وملكَ الغيرُ الدار، وخُلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار، فلا مُغيث ولا أنيس ولا رفيق ولا جار، ولا راحة لهم ولا سكون ولا مزار، سالت دموع أسفهم على مسافلهم كالأنهار، شيدوا بنيانَ الأمل، فإذا به قد انهار، أما علموا أن اللَّه جارُ المظلوم ممن جار، فإذا قاموا في القيامة زاد البلاء على المقدار ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ لا يغرنك صفاء عيشهم كلُّ الأخير أكدار ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ... ﴿٤٣﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الإهطاع النظر من غير أن يطرف الناظر، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الإسراع، قاله الحسن وابن جبير.

---

(١) هذه الرواية عن وهب بن منبه، وهي تسير على نمط ما يرويه من المبالغة والتعجيب، ولم يكن إثبات نصر اللَّه للمظلوم بحاجة إلى هذا التهويل.

قال ابن قتيبة: أهطع البعيرُ في سيره إذا أسرع.

وفيما أسرعوا إليه قولان: أحدهما الداعي، قاله قتادة. والثاني النار، قاله مقاتل.

والثالث: أن المهطع الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ... ﴾ فيه قولان:

أحدهما: رافعي رءوسهم، قاله ابن عباس وابن جبير، وقال ابن قتيبة: المُقنع: الذي رفع رأسه وأقبل طرفه إلى ما بين يديه، وقال الزجاج: رافعي رءوسهم ملتصقة بأعناقهم.

والثاني: ناكسي رءوسهم، قاله المؤرج [1].

قوله تعالى: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ... ﴾ والمعنى: أن نظرهم إلى شيء واحد، قال الحسن: وجوهُ الناس يومَ القيامة إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد.

قوله تعالى: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ في معنى الكلام قولان:

أحدهما: أن القلوب خرجت من مواضعها، فصارت في الحناجر، رواه عطاء عن ابن عباس، وقال قتادة: خرجتْ من صدورهم فنشبت في حلوقهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي ليس فيها شيء.

والثاني: أن أفئدتهم متجوفة لا تغني شيئًا من الخوف، قاله الزجاج.

وقال أبو عبيدة: أفئدتهم جوفٌ لا عقول لها، وقال ابن قتيبة: متجوفة من الخوف.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ... ﴾ أي خوفهم ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ... ﴾ يعني يومَ القيامة ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ... ﴾ أي: أمهلنا مدةً يسيرة.

قال مقاتل: سألوا الرجوعَ إلى الدنيا ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ... ﴾ يعنون التوحيد.

فقال لهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي حلفتم بالدنيا أنكم لا تُبعثون.

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ... ﴾ أي نزلتم في أماكنهم وقُراهم، كالحجْر ومدين وغيرهما من القرى التي عُرفت، ومعنى ظلموا أنفسهم: ضرُّوها بالكفر والمعصية.

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ... ﴾ أي خَربناهم، وكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن الخلاف ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ أي بينا لكم الأشباه.

---

(١) الأصل: المؤرخ محرفة، ولعله المؤرج السدوسي، أبو فيد عالم بالعربية والأنساب، من أصحاب الخليل بن أحمد، توفي سنة: ١٩٥هـ. وفيات الأعيان: ١٣٠/٢.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ... ﴿٤٦﴾ ﴾ في المشار إليه أربعة أقوال:

أحدها: أنه نمرود، قال [١] علي ابن أبي طالب ﷺ: قال نمرود: لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء، فأمر بأربعة من النسور فربيت واستعجلت، ثم أمر بتابوت فنحت، ثم جعل في وسطه خشبة، وجعل [على] [٢] رأس الخشبة لحمًا شديدَ الحمرة، ثم جوَّعها وربط أرجلها بأوتار إلى قوائم التابوت، ودخل هو وصاحبٌ له في التابوت، وأغلق بابه ثم أرسلها، فجعلت تريد اللحم، فصعدت في السماء ما شاء اللّٰه تعالى، ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى [٣] ففتح فقال: أرى الأرض كأنها الدخان، فقال: أغلق، فصعد ما شاء اللّٰه تعالى، ثم قال: افتحْ، فقال: ما أرى إلا السماء وما نزداد منها إلا بُعدًا، فقال: صوِّب خشبتك، فصوبها فانقضَّت النسور تريد اللحم، فسمعت الجبالُ هدتها فكادت تزول عن مواضعها.

والثاني: أنه بختنصّر، وأن هذه القصة له جرتْ، وأن النسور لما ارتفعت نودي: يا أيها الطاغي أين تريد؟ ففرِق فنزل، فلما رأت الجبال ذلك ظنت أنه قيام الساعة، فكادت تزول، وهذا قول مجاهد.

والثالث: أن الإشارة إلى الأمم المتقدمة، ومكرُهم شرْكهم، قاله ابن عباس.

والرابع: [أنهم] [٤] الذين مكروا برسول اللّٰه ﷺ حين همُّوا بقتله وأخرجوه [٥]، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ... ﴿٤٦﴾ ﴾ أي جزاؤه.

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ مَن كسر اللام الأولى فإن المعنى [٦]: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي هو أضعف وأهون [٧] ومن فتح [تلك] [٨] اللام أراد: قد كادت الجبالُ تزول من مكرهم.

- **وفي المراد بالجبال قولان:**

أحدهما: الجبال المعروفة، قاله الجمهور.

والثاني: أنها ضربت مثلًا لأمر النبي ﷺ، وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسية، والمعنى: لو بلغ كيدهم إلى إزالة الجبال لما زال أمر الإسلام، قال الزجاج.

ويدل على هذا قول اللّٰه ﷻ: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ... ﴿٤٧﴾ ﴾ والمعنى

---

(١) ب: قاله. (٢) سقطت من ب. (٣) أ: ما ترى.
(٤) من أ. (٥) ب: وإخراجه.
(٦) أ: من مكر الأمم الأولى قال المعنى، وهو تحريف.
(٧) أ: وأوهن. (٨) من أ.

أنه قد وعدك بالنصر عليهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ من الكافرين.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ... ﴿٤٨﴾ ﴾ **وفي معنى تبديلها قولان:**

أحدهما: [أنه] [١] تبدل بأرضٍ بيضاء كأنها فضة.

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو طالب العُشاري، أخبرنا أبو بكر محمد بن شاذان، أخبرنا محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا العباس الدُّوري، حدثنا أبو العتاب الدلال، حدثنا جرير بن أيوب البجلي، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: « أرضٌ بيضاء كأنها فضة لم يُسفك فيها دمٌ حرام، ولم يُعمل عليها [٢] خطيئة » (وهذا قول ابن عباس).

والثاني: أنها تبدل بأرضٍ من فضة، قاله أنس بن مالك.

والثالث: أنها تبدل بخبزة بيضاء فيأكل المؤمن من تحت قدمه [٣]، قاله أبو هريرة وابن جبير والقرطبي.

والرابع: أنها تبدل نارًا، قاله أبي بن كعب.

والقول الثاني: أن تبديلها: تغيير أحوالها، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « يبسطها ويمدّها مدّ الأديم »، وقال ابن عباس: يزاد فيها وينقص منها، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتُمدّ.

وفي تبديل السموات سبعة أقوال:

أحدها: أن تجعل من ذهب، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والثاني: تصير جِنانًا، قاله أبيٌّ بن كعب.

والثالث: أن تبديلها: تكوير شمسها وتناثر نجومها، قاله ابن عباس.

والرابع: أنها تبدل بسموات كأنها الفضة، قاله مجاهد.

والخامس: [أن تبديلها: تغيير أحوالها، فمرةً تكون كالمهل، ومرة كالدِّهان، قاله ابن الأنباري.

والسادس [٤]:] أن تبديلها: تطوى كطي السِّجل للكتاب.

والسابع: أن تنشق فلا تُظل، ذكرهما الماوردي.

---

(١) ليست في أ.

(٢) أ: فيها.

(٣) أ: قدميه.

(٤) سقط من ب.

قالت عائشة: قلت: يا رسول اللَّه، يوم تبدل الأرض غير الأرض، فأين الناسُ يومئذ؟ قال: « على الجسر [(١)] فمنهم [(٢)]من يمشي مكبًّا على وجهه ومنهم من يمشي سويًّا ».

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ... ﴾ يعني الكفار ﴿ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ **فيه** [(٣)] **ثلاثة أقوال: أحدها:** يُقرنون مع الشياطين، قاله ابن عباس، **والثاني:** تُقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم، قاله ابن زيد، والثالث: يقرن بعضهم إلى بعض، قاله ابن قتيبة. و ﴿ ٱلْأَصْفَادِ ﴾ الأغلال.

قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ... ﴾ وهي القُمُص، واحدها سِرْبال، والقطران: معروف وهو شيء يتحلب من شجر [(٤)] تُهنأ به الإبل.

قال الزجاج: إنما جعل القطران؛ لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود، فحذَّرهم ما يعرفون.

وقرأ ابن عباس والحسن « من قِطْرٍ » بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين « وآن » بقطع الهمزة وفتحها ومدها، والقطر: الصُّفر والنحاس وآنٍ [قد] [(٥)] انتهى حرُّه.

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي تعلوها.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ... ﴾ اللام متعلقة بقوله تعالى ﴿ وَبَرَزُواْ... ﴾.

- **وفي سرعة حسابه قولان:**

أحدهما: عجلة حضوره ومجيئه.

والثاني: سرعة فراغه، قال ابن عباس: يفرغ اللَّه ﷻ من حساب الخلق في قدر نصف يوم من أيام الدنيا.

* * *

أين من لعب ولها، أين من غفل وسها، دهاه أفظع ما دَهى، وحُطَّ رُكنه فوَهى، ذهبتْ لذةُ ذنوبه وحُبس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى.

نادِ [(٦)] القُصورَ التي أقوتْ معالمها ... أين الجسوم التي طابت مطاعمها
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... ألهاه ناضر دنياه وناعمها
أين الأسودُ التي كانت تحاذرها ... أُسْد العرين ومن [(٧)] خوفٍ تسلِّمها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة والنار، باب في البعث والنشور بلفظ: على الصراط، بدلًا من: على الجسر : ٥١٧/٢، ط الحلبي.
(٢) أ: منهم.
(٣) ب: وفيه.
(٤) ب: من شجرة.
(٥) ليست في أ.
(٦) ب: يا ذا القصور.
(٧) أ: وعن خوف.

أين الجيوشُ التي كانت لو اعترضت ... لها العُقاب لخانتها قوادمُها [١]
أين الحجاب ومن كان الحجاب له [٢] ... وأين رُتبته الكبرى وخادمها
أين الذين لهَوْا عما له خُلقوا ... كما لهتْ في مراعيها سوائمها
أين البيوتُ التي من عسجدٍ نُسجتْ [٣] ... هل الدنانير أغنتْ أم [٤] دراهمها
أين الأسِرة [٥] تعلوها ضراغمها ... هل الأسرَّة أغنتْ أم ضراغمها [٦]
هذي المعاقل كانت قبلُ عاصمةً ... ولا يرى عصم المغرور عاصمها
أين العيون التي نامتْ فما انتبهت ... واهًا لها نومةً ما هبَّ نائمها

* * *

سجع على قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ... ۝٥٢﴾ (يعني القرآن):

يا مشغولًا بذنوبه، مغمورًا بعيوبه، غافلًا عن مطلوبه، أما نهاه القرآن عن حُوبه ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

أنسيَ العاصي قبيحَ مكتوبه، لا بُدّ عن سؤاله [٧] عن مطعومه ومشروبه، وحركاته وخطواته [٨] في مرغوبه، ألا يذكر في زمان راحته أحيانَ كُروبه، ألا يحذر من الأسد قبل وقت وثوبه، ألا يتخذ تُقاه تقيةً من شر هُبوبه، ألا يدخر من خِصبه لأيام [٩] جُدوبه، ألا يتفكر [١٠] في فراقه لمحبوبه، ألا يتذكر النعش قبل ركوبه، كيف يغفل من هو في صفّ حروبه، رُبَّ إشراق لم يُدرك زمنَ غروبه، إلى متى في حِرْصه على الفاني ودؤوبه، متى يردُّ يوسفُ قلبه على يعقوبه، لقد وعظه الزمان بفنون ضروبه، وحذره استلابه بأنواع خطوبه، ولقد زجره القرآن بتخويفه مع لذة أسلوبه، ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

أيقظنا اللَّه وإياكم من رقدة الغفلة، ووفقنا اللَّه وإياكم للتزود قبل النقلة، وألهمنا اغتنام الزمان ووقت [١١] المهلة، إنه سميع قريب.

* * *

---

(١) ب: مقادمها.
(٢) ب: لهم.
(٣) ب: سحبت.
(٤) ب: أو.
(٥) أ: أين الأشمة.
(٦) أ: أم عزائمها.
(٧) أ: عن مساءلة.
(٨) أ: وخطراته.
(٩) أ: لإتيان جدوبه.
(١٠) أ: ألا يتذكر.
(١١) أ: في وقت المهلة.

المجلس السادس

في قصة ثمود

الحمد للَّه الذي مهّد لطالبيه سبيلًا واضحًا، وكم ابتعث نبيًّا مرشدًا [١] ناصحًا، فأرسل آدم غاديًا على بنيه بالتعليم ورائحًا، فخلفه [٢] شيث ثم إدريس، وجاء نوحٌ نائحًا، وأمر هودًا بهداية عادٍ فلم يزل مُكادحًا ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [٣].

أحمده ما بدا برْقٌ لائحًا، وأصلي على رسوله محمد ما دام الفلكُ سابحًا، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق، وقُل في الصديق مادحًا، وعلى عمر الفاروق الذي لم يزل بنور الحق لامحًا، وعلى عثمان واعجبْ بمثل دمه طائحًا، وعلى علي وأعلنْ [٤] بفضائله صائحًا، وعلى عمه العباس وما زال عرْف طيبه نافحًا [٥].

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [٦]

ثمود: هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح، أرسل إلى أولاده وهو: صالح بن عبيد ابن أنيف [بن ماشح بن عبيد بن جادر بن ثمود [٧]].

والثمد: الماء القليل الذي لا مادة له، وإنما قال: أخاهم لأنه من قبيلتهم.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ... ﴿٧٣﴾ ﴾ أي « وحدوه » فلم يزدهم دعاؤه إلا طغيانًا، فقالوا: ائتنا بآية فاقترحوا عليه ناقةً، فأخرجهم إلى صخرة ملساء فتمخضت تمخُّض الحامل، ثم انفلقت عن ناقة على الصفة التي طلبوها، ثم انفصل عنها فصيل فقال: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ... ﴿٧٣﴾ ﴾ أي ليس عليكم مُؤنتها ولا علفها، و ﴿ تَأْكُلْ ﴾ مجزومة على جواب الشرط المقدر، والمعنى إن تذروها تأكل، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ... ﴿٧٣﴾ ﴾.

والسوء في القرآن على عشرة أوجه: أحدها: الشدة ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [٨].

---

(١) أ: مرسلًا وناصحًا.
(٢) أ: فخلف.
(٣) سورة الأعراف: ٧٣.
(٤) ب: فأعلن.
(٥) ب: وما زال طيب عرقه فائحًا.
(٦) سورة الأعراف: ٧٣.
(٧) من أ، وفي ب موضعها من أولاد ثمود أيضًا.
(٨) سورة البقرة: ٤٩.

والثاني: الزنا ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ (١). **والثالث**: البرص ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (٢). **والرابع**: العذاب ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ (٣). **والخامس**: الشرك ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ (٤). **والسادس**: السب ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (٥). **والسابع**: الضر ﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (٦). **والثامن**: الذنب ﴿ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ (٧). **والتاسع**: القتل والهزيمة ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ (٨). **والعاشر**: العقر ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ (٩).

فكانت (١٠) تشرب ماء الوادي كله [في يوم] (١١) وتسقيهم الدرَّ (١٢) مكانه.

قوله تعالى: ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ... ﴿٧٤﴾ ﴾ أي أنزلكم ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا... ﴿٧٤﴾ ﴾ السهل: ضد الحزن، والقصر: ما شيدَ وعلا من المنازل.

قال ابن عباس ﵄: اتخذوا القصور في (١٣) سهول الأرض للصيف، ونقبوا في الجبال للشتاء.

قال وهب بن منبه: كان الرجل منهم يبني البنيان فيمر عليه مائة سنة، فيخرب، ثم يجدده فيمر عليه مائة سنة فيخرب، فأضجرهم ذلك، فاتخذوا من الجبال بيوتًا.

قال علماء السير: لم يلتفتوا إلى قول صالح واحتالوا على قتله، فذلك قوله تعالى ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ (١٤) وقعدوا في أصل جبل ينتظرونه، فوقع الجبل عليهم فهلكوا، ثم أقبل قومٌ منهم يريدون قتلَ الناقة فقال لهم صالح: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ (١٥) أي احذروا ناقة اللّه وشِربها من الماء، فكمن لها قاتلها وهو قدَّار بن سالف في [أصل] (١٦) شجرة فرماها بسهم فانتظم به عضلةَ (١٧) ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف فكشف عُرقوبها (١٨)، ثم نحرها (١٩).

وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا من العذاب، فقال لهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

قال المفسرون: لما عقروها صعد فصيلها إلى الجبل فرغا ثلاث مرات، فقال صالح: لكل رَغْوة أجلُ يوم، إلا أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مُصفرة، واليوم الثاني: محمرة،

---

(١) سورة يوسف: ٥١.
(٢) سورة النمل: ١٢.
(٣) سورة الزمر: ٦١.
(٤) سورة النحل: ٢٨.
(٥) سورة الممتحنة: ٢.
(٦) سورة النمل: ٦٢.
(٧) سورة النساء: ١٧.
(٨) سورة آل عمران: ١٧٤.
(٩) سورة الأعراف: ٧٣.
(١٠) أ: وكانت.
(١١) سقطت من أ.
(١٢) أ: اللبن.
(١٣) ب: من.
(١٤) سورة النمل: ٤٩.
(١٥) سورة الشمس: ١٣.
(١٦) من ب.
(١٧) أ: في عضلة.
(١٨) ب: فكسر عروقها.
(١٩) أ: ثم يدها.

واليوم الثالث: مسودة، فلما أصبحوا في اليوم الأول إذا وجوههم مصفرة، فصاحوا وبكوا [١] فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة، كأنما طُليتْ بالقار، فصاحوا بأجمعهم: ألا قد حضركم الموتُ [٢] فتكفنوا وألقوا أنفسهم [٣] بالأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب.

فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحةٌ من السماء فيها صوتُ كل صاعقة فتقطعت قلوبهم في صدورهم.

وقال مقاتل: حفروا لأنفسهم قبورًا، فلما [٤] ارتفعت الشمس من اليوم الرابع [ولم يأتهم العذاب] [٥] ظنوا أن اللَّه قد رحمهم، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضًا، فقام [٦] جبريل عليه السلام فوقَ المدينة فسد ضوءَ الشمس، فرجعوا [٧] إلى قبورهم، فصاح [بهم [٨]] صيحة عظيمة: موتوا عليكم اللعنة. فماتوا وزلزلت بيوتهم فوقعت عليهم [٩] ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾ [١٠] أي: أطبق [١١] عليهم العذاب.

ولما مر النبي ﷺ على ديارهم قال: « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين » [١٢].

* * *

اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين، وانظروا سوء [١٣] تدبير الخاسرين، لا بالناقة اعتبروا، ولا لتعويضهم اللبن شكروا، وعتوا عن النعم [١٤] وبطروا، وعَمُوا عن الكرم فما نظروا، وأُوعدوا بالعذاب فما حذروا، كلما رأوا آية من الآيات كفروا، الطبع الخبيث لا يتغير، والمقدَّر ضلالُه لا يزال يتحير، خرجت إليهم ناقةٌ من أحسن النَّعم، ودرَّ لبنها لهم فتواترت [١٥] النِّعم فكفروا وما شكروا، فأقبلت النقم.

أعاذنا اللَّه وإياكم من الكفران، وحفظنا من مُوجبات [١٦] الخسران، إنه إذا لطف صان.

* * *

(١) أ: فصاحوا ويلكم.
(٢) أ: العذاب.
(٣) أ: أنفسكم.
(٤) ب: لما.
(٥) سقطت من ب.
(٦) ب: ثم قاموا.
(٧) أ: فدخلوا.
(٨) من أ.
(٩) أ: على قبورهم.
(١٠) سورة الشمس: ١٤.
(١١) ب: طبق.
(١٢) أخرجه الشيخان، البخاري رقم : ٤٣٣، ومسلم برقم : ٢٩٨٠، وأحمد في مسنده حديث رقم : ٢٥٠٣.
(١٣) ب: إلى تدبير الخاسرين.
(١٤) ب: عن النعيم.
(١٥) ب: فتوفرت.
(١٦) أ: من حوبات الخسران.

الكلام على البسملة

أيـهـا الـسـكـرانُ بـالآ — مـال قـد حـان الـرحـيـلُ
ومـشـيـب الـرأسِ والـفـوْ — ديْـن لـلـمـوت دلـيـلُ (١)
فـانـتـبـه مـن رقـدة الـغـفـ — ـلـةِ فـالـعـمـر قـلـيـلُ
واطَّـرحْ سـوف وحـتـى — فـهـمـا داءٌ دخـيـلُ

يا من صُبحُ شَيْبِهِ بعد ليل شبابه قد تبلَّج، ونذيره قد حامَ حولَ حِماه وعرَّج، كأنك بالموت قد أتى سريعًا وأزْعج، ونقلك عن دارٍ أمِنْتَ مكْرها وأخرج، وحملك على خشونة النعش بعد لين الهودج، وأفصح بهلاكك وقد طال ما مَجْمَج (٢)، وأفقرك إلى قليل من الزاد وأحوَج، يا لاهيًا في دار البلاء ما أقبح فعلك وما أسْمج، ويا عالـمًا نظرَ الناقد وبضاعته كلُّها بهرج، ويا غافلًا عن رحيله سلْبُ الأقران أُنموذج.

سيقطع ريْبُ (٣) الدهر بين الفريقينِ — لكل اجتماع فُرقةٌ من يد البَيْنْ
وكـلٌّ يُـقَضِّي سـاعـةً بـعـد ساعةٍ — تـخـاتـلـه عن نـفسه ساعةُ الحَيْنْ
وما العيش إلا يومُ موتٍ له غدٌ (٤) — وما الـموتُ إلا رقـدةٌ بيـن يومـين
ومـا الحشرُ إلا كـالـصباح إذا انجلى — يقـومُ لـه الـيـقـظـانُ من رقْـدة العينِ
فيـا عـجبًا (٥) مني ويا طولَ غفلتي — أؤمِّلُ أن أبقـى وأنَّى ومـنْ أيـنِ

* * *

يا من يبارز مؤلاه بما يكره، ويخالفه في أمره آمنًا مَكْره، وينعم عليه وهو ينسى شُكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة، يا من قبائحه تُرفع عَشِيًّا وبكرة، يا قليلَ الزاد ما أطول (٦) السَّفْرة، والنُّقلة (٧) قد دنتْ والمصير الحفرة، متى تعمل في قلبك المواعظ، متى تراقب العواقبَ وتلاحظ، أمَا تحذر مَنْ أوْعد وهدَّد، أما تخاف مَنْ أنذر وشدد، متى تضطرم نارُ الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القُصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلودُ تشهد؟ متى تترك ما يفنى رغبةً فيما لا ينفد؟ متى تهبُّ بك ريحُ الخوف كأنك غصن (٨) يتأود؟ البدار البدار إلى الفضائل، الحذار الحذار من الرذائل، فإنما هي أيامٌ قلائل.

---

(١) أ: ومشيب الرأس للموت دليل.
(٢) مجمج في خبره: لم يبينه. وفي أ: تجمجم.
(٣) أ: رين الدهر. ولعلها محرفة.
(٤) كذا في أ. وفي ب: إلا موت يوم له غد.
(٥) أ: أيا عجبًا.
(٦) ب: وما أطول.
(٧) ب: والنقرة. محرفة.
(٨) متى تهب بك ريح الرجاء كغصن يتأود.

اغتنمْ في الفراغِ فضْلَ ركوعٍ فعسى أن يكون موتُك بغته
كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقمٍ ذهبتْ [١] نفسُه السليمةُ فلته

حج مسروق فما نام إلا ساجدًا، وكان مجير [٢] بن الربيع يصلي حتى ما يأتي فراشَه إلا حبْوًا.

اغتنم ركعتين زُلفى إلى الله إذا كنت فارغًا مستريحًا
وإذا ما هممت [٣] أن تفعل الباطلَ فاجعل مكانه تسبيحًا

يا سكران الهوى وإلى الآن ما صَحَا، يا مُفنيًا زمانه الشريفَ لهوًا ومرحًا، يا مُعرضًا عن لوم من لامَ وعتْب من لحا، متى يعود هذا الفاسد مُصلحًا؟ متى يرجع هذا الهالكُ مُفلحًا؟

لقد أتعبتَ النصحاء الفصحاء، أما وعظْت بما يكفي، أما رأيتَ من العبرة ما يشفي، فانظر لنفسك قبل أن يعمى الناظر، وتفكر في أمرك بالقلب الحاضر، ولا تساكن الفتورَ فإنك إلى [مسكن [٤]] القبور صائر، فالحيُّ للممات، والجمع للشَّتات [والأمر [٥]] ظاهر.

عاصِ [٦] الهوى إنَّ الهوى مرْكبٌ يصْعبُ بعدَ اللين منه الذَّلول [٧]
إنْ يجلب اليومَ الهوى لذةً ففي غدٍ منه البُكا والعويلُ
ما بين ما يُحمد فيه وما يدعو إليه الذمَّ إلا القليلُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ... ﴾ [٨]

والمعنى: استمع حديثَ ذلك اليوم، والمنادي: إسرافيل، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس هلمُّوا إلى الحساب، إن اللَّه تعالى يأمركم أن تجتمعوا لفصْل القضاء، وهذه الصيحة هي الأخيرة.

قوله تعالى: ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾:

المكان القريب هو الصخرة، قال كعب ومقاتل: هي أقربُ الأرض إلى السماء بثمانية

---

(١) ب: فهبت. محرفة. (٢) أ: محين. محرفة. (٣) أ: فإذا هممت.
(٤) سقطت من أ. (٥) من أ.
(٦) الأبيات لصالح بن عبد القدوس. انظر ذم الهوى لابن الجوزي: ص ٣٤، ط ١، تحقيق مصطفى عبد الواحد.
(٧) أ: الذليل وهي رواية ذم الهوى، وما أثبته من ب.
(٨) سورة ق: ٤١.

عشر ميلًا، وقال ابن المسيب [١]: باثني عشر ميلًا، قال الزجاج: ويقال: إن تلك الصخرة في وسط الأرض.

سجع:

يا من يُدعى إلى نجاته فلا يجيب، يا من قد رضي أن يخسر ويخيب، إن أمرك طريفٌ وحالك عجيب، اذكر في زمان راحتك ساعةَ الوجيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

ويحك إن الحق حاضر ما يغيب، تُحصى عليك أعمالُ الطلوع وأفعال المغيب، ضاعت الرياضةُ في غير نجيب [سيماك تدلُّ وما يخفى المريب [٢]] اسمع لا بّد لغربان [٣] الفراق من نعيب، أنُساكن الغفلةَ ولغيرنا نعيب، يا من سِلعه [٤] كلها معيب، اذكر يوم الفزع والتأنيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

لا بد واللَّه من فراق العيش الرطيب، والتحاف البلى مكان الطيب، وا عجبًا للّذات بعدَ هذا كيف تطيب؟! ويحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

تذكر من قد [٥] أصيب كيف نزل بهم يومٌ عصيب، وانتبه لأحظِّ الحظِّ [٦] والنصيب [واحترز] [٧] فعليك شهيدٌ ورقيب، إذا حلَّ الموتُ حُلَّ التركيب، وتُقَلِّب مُقَلُ القلوب في قلب التقليب، فتنزعج الروح انزعاج الصِّرْمة [٨] [إذا] [٧] أحسَّت بذيب، فالتفتْ يا محبَّ الهوى عن هذا الحبيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

ستخرج واللَّه من هذا الوادي الرحيب، ولا ينفعك البكاء والنحيب، لا بدّ من يوم يتحير فيه الشبان والشيب، ويذْهل فيه الطفل للهول ويشيب، يا من عمله كله رديء فليته قد شيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

كيف بك إذا أحضرت في حال كئيب، وعليك ذنوب أكثر من رملٍ كثيب، والمهيمن الطالب والعظيمُ الحسيب، فحينئذ يبعد عنك الأهلُ والنسيب، النَّوْح أولى بك يا مغرور من التشبيب، أتؤمن أم عندك تكذيب؟ أم [تُراك] [٧] تصبر على التعذيب

---

(١) أ: ابن السائب. (٢) سقطت من أ. (٣) أ: لغراب.
(٤) أ: يا من أشغاله. (٥) أ: من قد نزل به يوم عصيب. (٦) أ: لأخذ الحظ.
(٧) ليست في أ.
(٨) الصرمة القطعة من الإبل أو الغنم من العشرين إلى الثلاثين والأربعين.

كأنك بدمع العين ومائها قد أُذيب، اقبل نصحي وأقبل على التهذيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

يا مطالبًا بأعماله، يا مسئولًا عن أفعاله، يا مكتوبًا [عليه] (١) جميع أقواله، يا مناقشًا على كل أحواله، نسيانك لهذا أمرٌ عجيب، أتسكن إلى العافية وتساكن العيشةَ الصافية وتظن أيمانَ الغرور (٢) واقية، لا بد من سهم مصيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

لو أحسنت الخلاص أحسنت، لو آمنت بالعرْض لتجملت وتزينت، يا من قد انعجمت عليه الأمورُ لو سألتَ لتبينت، ويحك أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

إلى متى أنت مع أغراضك، متى ينقضي زمانُ إعراضك، يا زمن البلى متى زمن إنهاضك، تالله لقد كعَّ من (٣) أمراضك الطبيب.

* * *

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ... ﴿٤٢﴾ ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿ بِٱلْحَقِّ... ﴿٤٢﴾ ﴾ أي بالبعث الذي لا شك فيه ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ من القبور، تنشق السماء ذات البروج انشقاق الثوب المنسوج، بأعجب فطور وأظرف فروج، ويُنثر حَبُّ السماء ويسقط الدُّملوج (٤)، وتُقبل الملائكة إقبال الفُيوج (٥) وتميد الأرض فتُفلق وتموج، وتعود جرْداء بعد الرياض والمروج، وتذل العُتاة وتنكسر العلوج، وتستوي أقدامُ العرب والعجم والزنوج، فأخسُّ الخلائق يومئذ يأجوج ومأجوج، وأحقر الناس على طوله عُوج (٦)، ويقرب الحساب ويروج، وينصب الصراط والريح خجوج (٧)، أين حرارة القلوب أُضربت بالثُّلوج؟! ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ... ﴿٤٣﴾ ﴾ أي نميت في الدنيا ونحيي بالبعث ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ بعد البعث.

---

(١) من أ.

(٢) أ: وتظن أن أعمال الغرور.

(٣) أ: في أمراضك. وكع: ضعف.

(٤) الدملوج: الحجر الأملس.

(٥) الفيوج: الجماعات من الناس.

(٦) يريد عوج بن عنق، وهو شخصية أسطورية وردت في بعض الآثار.

(٧) الخجوج: الريح الشديدة المر، أو الملتوية في هبوبها.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا... ﴿٤٤﴾ ﴾ المعنى: فيخرجون منها سراعًا.

يا له من يوم لا تستطيع له دفاعًا، صاح بهم من لم يزل أمره مُطاعًا، فنازلتهم الحسرات فأسَرتْهم فِزَاعًا، واستسلموا للهلاك وما مدَّ بعدُ باعًا، سماعًا لما يجري يومئذ سماعًا ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ مزَّقتهم اللُّحود تمزيقًا مُشاعًا، وصيرت تلك الأبدان رفاتًا شياعًا، ونُفخ في الصور فقاموا عطاشًا جياعًا، وعلموا أن الهوى كان لهم خدَّاعًا، فتداعى بالويل من كان بالسرور تداعى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾.

حضروا من صحراء القيامة قاعًا، فوجدوه أصعب البقاع بقاعًا، وتناولوا بالأيمان والشمائل رقاعًا، حُفظت أعمالهم فما وجدوا شيئًا مضاعًا، وكيلَ الجزاء بكفِّ الوكيلِ كما كالوا صاعًا صاعًا (١)، ذلك يوم لا يراعى فيه إلا من كان راعى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي هين ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ... ﴿٤٥﴾ ﴾ أي في تكذيبك، وهذه تسلية له ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ... ﴿٤٥﴾ ﴾ أي بمسلَّط فتقهرهم على الإسلام، وهذا منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ... ﴿٤٥﴾ ﴾ أي فعظ به، قال بعض السلف: من لم يعظه القرآن ولا الشيب فلو تناطحت بين يديه الجبالُ ما اتعظ.

يا ذا النفس اللاهية، تقرأ القرآن وهي ساهية، أما لك ناهيةٌ في الآية الناهية، كم خوَّفك القرآن من داهية، أما أخبرك أن أركان الحياة واهية، أما أعلمك أن أيام العمر متناهية، أما عرفَّك أسباب الغرور كما هيه؟!!

* * *

قد يرعوى (٢) المرءُ يومًا بعد هَفْوتِه ... ويُحكم الجاهلَ الأيامُ والعبرُ
والعلمُ يُجلي العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجَلِّي سوادَ الظلمة القمرُ

---

(١) الأصل: بصاعًا. محرفة.

(٢) هذه القصيدة بكمالها لسابق البربري وهو سابق بن عبد الله البربري أبو سعيد، شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرقائق، وهو من موالي بني أمية، والبربري لقب له، ولم يكن من البربر، سكن الرقة وكان يفد على عمر ابن عبد العزيز فيستنشده عمر فينشده من مواعظه. ترجمته في تهذيب ابن عساكر : ٣٨/٦. وخزانة البغدادي : ١٦٤/٤. واللباب لابن الأثير : ١٠٧/١.

والذكرُ فيه حياةٌ للقلوب كما ... يُحيي البلادَ إذا ما ماتت المطرُ
لا ينفع الذكر قلبًا قاسيًا أبدًا ... وهل (١) يلين لَقولِ الواعظ الحجرُ
والموتُ جسْرٌ لمن يمشي على قدمٍ ... إلى الأمور التي تُخشى وتُنتظرُ
فهم يجوزون (٢) أفواجًا وتجمعهم ... دارٌ إليها يصيرُ البدوُ والحضرُ
لا يلبثُ الشيء أن يبلى إذا اختلفت ... يومًا على نقصه الرَّوَحاتُ والبكَرُ
وكلُّ بيتٍ خرابٌ بعد جِدَّته ... ومِنْ وراء الشبابِ الموتُ والكِبَرُ
بَيْنا يُرى الغُصن لدْنًا في أرُومته (٣) ... ريَّان صار حُطامًا جوفه نَخِرُ
كم منْ جميعٍ أشتَّ الدهرُ شملهمُ ... وكلُّ شملٍ جميعٍ سوف ينتشرُ
أبعدَ آدم ترجون البقاء وهل ... تبقى فروعٌ لأصلٍ حين ينقعرُ
لكم (٤) بيوتٌ بمستن السُّيول وهل ... يبقى على الماء (٥) بيتٌ أسُّه مدرُ
إلى الفناء وإن طالتْ سلامتهم ... مصيرُ كلِّ بني أمٍّ وإنْ كثروا
والمرء ما عاش في الدنيا له أملٌ ... إذا انقضى سفر منها أتى سفرُ
لها حلاوةُ عيش غيرُ دائمةٍ ... وفي العواقب منها المرُّ والصبرُ
إذا قضتْ زمُرٌ آجالها نزلتْ ... على منازلها من بعدها زمرُ
وليس يزجركم ما توعظون به ... والبهْمُ يزجرها الراعي فتنزجرُ
مالي أرى الناسَ والدنيا مُولية ... وكلُّ جيلٍ عليها سوف ينبتر (٦)
لا يشعرون بما في دينهم نقصُوا ... جهلًا وإن نقصتْ دنياهمُ شعروا

* * *

يا متحيرًا في طريقه قد بان البيان، يا بليد الاعتبار وقد أنذره الأقران، يا من تقْرع قلبه المواعظُ وهو قاسٍ ما لان، لو حضرتَ بالذهن كفاك زجْر القرآن.

---

(١) ب: فهل.
(٢) ب: فهم يمرون.
(٣) أ: في رواقته. والأرومة: الأصل.
(٤) ب: وكم. والمستن: موضع الجري قال جرير:
ظللنا بمستن الحرور كأننا ... لدى فرسٍ مستقبلِ الريح صائمِ
اللسان: ١٧/٩٠.
(٥) ب: على السيل. والمدر: الحجارة.
(٦) أ: سوف ينتشر.

كتب زرُّ بن حُبيش إلى عبد الملك بن مروان: لا يُطمعنك [١] في طول الحياة ما ترى من صحة بدنك [٢] واذكر قول الأول:

إذا الرجال ولدتْ أولادُها ... وبَليتْ من كِبَر أجسادها

وجعلتْ أسقامها تعتادها ... تلك زُروعٌ قد دنا حصادُها

فلما قرأ الكتاب بكى حتى بُلَّ ثوبه.

كان الربيع بن خُثيم يقول: أما بعدُ، فأَعِدَّ زادك وجِدّ في جهازك [٣]، وكنْ وصيّ نفسك.

وكان إذا جنّ عليه الليلُ لا ينام، فتناديه أمه: ألا تنام؟ فيقول: يا أماه من جنَّ عليه الليل وهو يخاف البيات حُقَّ له أن لا ينام.

فلما بلغ ورأت ما يلقى من البكاء والسهر قالت: يا بنيَّ لعلك قتلت قتيلًا، فقال: نعم يا أماه، فقالت: ومن هذا القتيل؟ فلو علم أهلُه ما تلقى من البكاء والسهر لرحموك، فقال: هي نفسي.

وقالت له ابنته: يا أبت ألا تنام؟ فقال: يا بنية إن جهنم لا تدعني أنام.

* * *

أيها الغافل زاحمْ أهل العزم وبادر، فكأنْ قد نزل بك ما تخاف وتحاذر، فيختم الكتاب على الرذائل، ويفوت تحصيل الفضائل [فالدنيا منزل قلعة كأنها يومٌ أو جمعة] [٤].

كلُّ حيٍّ إلى فناء وما الدا ... ر بِدارٍ ولا المقام مُقامُ

يستوي ساعةَ المنية في الرُّتـ ... ـبة وجْدُ الغنيِّ والإعدامُ

والذي زال وانقضى من نعيم ... أو شقاء كأنه أحلامُ

السجع على قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾:

لقد وعظ القرآنُ المجيد، يُبدي التذكار عليكم ويعيد، غير أن الفهم منكم بعيد، ومع هذا فقد سبق العذابَ التهديد ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

إن في القرآن ما يُلين الجلاميد، لو فهمه الصخر كأن الصخر يميد، كم أخبرك بإهلاك الملوك الصِّيد، وأعلمك أن الموت بالباب والوصيد [٥] ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

إن مواعظ القرآن تُذيب الحديد، وللفهوم كلَّ لحظةٍ زجر جديد، وللقلوب النيرة كلَّ

---

(١) أ: لا يعظمنك. محرفة. (٢) أ: ما ترى في بدنك.

(٣) أ: فأعد في زادك وخذ في جهازك. (٤) سقطت من أ. (٥) الوصيد: الفناء والعتبة.

يوم به عيد، غير أن الغافل يتلوه ولا يستفيد ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

أمَا الموت للخلائق مُبيد، أما تراه قد مزَّقهم في البِيد، أما داسهم بالهلاك دوْس الحصيد، لا بالبسيط ينتهون ولا بالتشديد (١)، أين من كان لا ينظر بين يديه؟ أين من أبْصر العِبَر ولم ينتفع بعينَيْه، أين مَنْ بارزَ بالذنوب المطَّلع عليه، ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

أين من كان يتحرك في أغراضه ويميد، ويغرس الجنان لها طلع نضيد، ويعجبه نغمات (٢) الورق على الوَرَق بتغريد؟ كان قريبًا منا فهو اليوم بعيد ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

أحضروا قلوبكم فإلى كم تقليد، يا معشر الشيوخ في عقل الوليد، أما فيكم من يذكر أنه في قبره وحيد! أما فيكم من يتصور تمزيقه والتبديد (٣)! غدًا يباع أثاثُ البيتِ فمن يزيد؟ غدًا يتصرف الوارث كما يريد، غدًا يستوي في بطون اللحود الفقيرُ والسعيد، يا قوم ستقومون (٤) للمبدئ المعيد، يا قوم ستحاسبون على القريب والبعيد، يا قوم المقصود ـ كله وبيت القصيد: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (٥).

ألهمنا اللَّه وإياكم ما ألهم الصالحين، وأيقظنا من رقاد الغافلين، إنه أكرم منعم وأعز معين.

* * *
* *
*

---

(١) أ: ولا بالنشيد.
(٢) أ: هاتف الورق.
(٣) أ: والتشريد.
(٤) أ: ستقدمون.
(٥) سورة هود: ١٠٥.

المجلس السابع

في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله العلي القوي المتين، القاهر الظاهر المبين، لا يعزُب عن سمعه أقلُّ الأنين، ولا يخفى على بصره حركة الجنين، ذل لكبريائه جبابرة السلاطين، وقلَّ عند دفاعه كيدُ الشياطين، قضى قضاءه كما شاء على الخاطئين، وسبق اختياره لمّا اختار الماء والطين، فهؤلاء أهل الشمال وهؤلاء أهل اليمين، جرى القدر بذلك قبلَ عمل العاملين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [(١)].

أحمده حمد الشاكرين، وأسأله معونة الصابرين، وأصلي على رسوله المقدم على النبيين، وعلى صاحبه الصديق أول تابع له على [(٢)] الدّين، وعلى الفاروق عمر القوي الأمين، وعلى عثمان زوج ابنته ونعم القرين، وعلى عليٍّ بحر العلوم الأنزع البطين [(٣)]، وعلى عمه العباس ذي الفخر القويم والنسب الصميم [(٤)].

* * *

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ...﴾ [(٥)]

إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ [(٦)] بن أرغو [(٧)] بن فالغ [ابن عابر] [(٨)] ابن شالخ [(٩)] بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن أهنخ بن يرد ابن مهلاييل بن قاين بن أنوش، وأمه نونا بنت كرينا بن كوثا من بني أرفخشذ، وكرينا هو الذي كرى [(١٠)] نهر كُوثى.

وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون، وقيل: ألف ومائتا سنة وثلاث وستون، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة.

---

(١) سورة الأنبياء: ٥١.

(٢) أ: في الدين.

(٣) الأنزع: الممتلئ والبطين: البعيد العميق.

(٤) أ: الرصيم.

(٥) سورة الأنبياء: ٥١.

(٦) أ: أسرع وب: ساغوغ. وهو تحريف.

(٧) كذا بالأصل، وفي مروج الذهب: رعو.

(٨) سقطت من ب.

(٩) ليست في أ.

(١٠) كرى النهر: استحدث حفره.

ولما أراد الله عز وجل إيجاد إبراهيم عليه السلام قال المنجمون لنمرود: إنا نجد في علمنا أن غلامًا يولد في قريتك هذه يقال له: إبراهيم، يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا، فلما دخلت السنةُ المذكورة بعث نمرود إلى كل امرأة حامل بقريته فحبسها عنده، ولم يعلم بحبل أم إبراهيم، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلا ذبحه، فلما أخذ أمَّ إبراهيم الطلْقُ خرجت ليلًا إلى مغارة فولدت فيها إبراهيمَ وأصلحت من شأنه، ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها، وذلك بمدينة [١] كوثى، وكانت تتردد إليه فتراه يمصُّ إبهامه قد جعل الله رزقه في ذلك، وكان آزر قد سألها عن حَمْلها فقالت: ولدتُ غلامًا فمات، فسكت عنها، وقيل: بل أخبرته فأتاه فحفر له سَرَبًا وسد عليه بصخرة، وكانت أمه تختلف إلى رضاعه، فلما تكلم قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت له: اسكت، فسكت فرجعت إلى زوجها فقالت له: إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغير دينَ [٢] أهل الأرض هو ابنك، فأتاه فقال له مثل ذلك.

فدنا [إبراهيم عليه السلام] [٣] بالليل من باب السَّرَب فرأى كوكبًا، قال ابن عباس: هو الزُّهرة، قال: وكان له حينئذ سبع سنين، وقال مجاهد: هو المُشتري، فقال: هذا ربي [أي على زعمكم] [٤] فلما خرج كان أبوه يصنع الأصنام ويقول له: بعها، فيأخذ الصنم ويخرج فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه.

فشاع بين الناس استهزاؤه بالأصنام.

وجعل يقول لقومه: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ ﴾ أي مقيمون على عبادتها ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ ﴾ أي إنا نقتدي بهم ونقلدهم.

فخرجوا يومًا [٥] إلى عيد لهم فخرج معهم، ثم ألقى نفسه في الطريق وقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [٦] فلما مضوا قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم... ۝٥٧ ﴾ والكيد: احتيال الكائد في ضر المكيد [٧] وأراد لأكسرنَّها، فسمع الكلمةَ رجل منهم فأفشاها عليه.

فدخل بيتَ الأصنام وكانت اثنين وسبعين صنمًا من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب، فكسرها وجعلهم جُذاذًا، أي فُتاتا.

ثم وضع الفأسَ في عنق الصنم الكبير ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ ﴾ في هاء الكناية

---

(١) أ: بقرية.
(٢) أ: أنه بغير دين أهل الأرض ابنك.
(٣) سقطت من ب.
(٤) ليست في أ.
(٥) أ: يوم عيد لهم.
(٦) سورة الصافات: ٨٩.
(٧) ب: المكيدة.

قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الصنم فيظنون أنه فعل، والثاني: إلى إبراهيم، والمراد الرجوع إلى دينه.

فلما رجعوا ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ... ﴿٥٩﴾ ﴾ فنمَّ عليه الذي سمع منه: ﴿ لَأَكِيدَنَّ... ﴿٥٧﴾ ﴾ فقالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ أي يعيبهم، ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ... ﴿٦١﴾ ﴾ أي بمرأى منهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه فعل ذلك،قاله السُّدِّي.

والثالث: يشهدون عقابه، قاله ابن إسحاق.

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ قال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ... ﴿٦٣﴾ ﴾ والمعنى أنه غضب أن تُعبد معه الصغار فكسرها.

وكان الكسائي يقف على قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ ﴾ ويقول: معناه فعله من فعله، ثم يبتدئ ﴿ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا... ﴿٦٣﴾ ﴾ وقال ابن قتيبة: هذا من المعاريض، فتقديره: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ حين عبدتم من لا يتكلم. ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ... ﴿٦٥﴾ ﴾ أي أَدْرَكتهم حيرةٌ.

فلما ألزمهم (١) الحجة حملوه إلى نمرود فقال له: ما إلهك الذي تعبد؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت، آخذ رجلين قد استوجبا القتل، فأقتل أحدهما فأكون قد أمتُّه، وأعفو عن الآخر، فأكون قد أحييته ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ (٢).

فبهت نمرود وحبسه سبع سنين وجوّع له أسدين، وأرسلهما عليه فكانا يلحسانه ويسجدان له. ثم أوقد له نارًا ورماه فيها فسَلِم، فكفّ نمرود عنه.

فخرج مهاجرًا إلى الشام فتزوج سارة وهي بنت ملك حرّان، وكانت قد خالفت دين قومها، ومضى فنزل أرض فِلَسْطين فاتخذ مسجدًا، وبُسط له الرزق، وكان يُضيف كلَّ من نزل به، وأنزل اللّه عليه صُحفًا.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو الحسين ابن المهتّدي، أنبأنا الحسن

---

(١) أ: فلما لزمتهم.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨.

ابن أحمد بن علي الهُماني، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الشمْشاطي، حدثنا جعفر ابن محمد الفريابي، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جدي، عن إدريس الخولاني، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنزل اللَّه تعالى على إبراهيم عليه السلام عشر صحائف » قلت: ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: « كانت أمثالًا كلها: أيها الملك المسلَّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردَّ عني دعوةَ المظلوم، فإني لا أردُّها وإن كانت من كافر، وكان فيها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يتفكر فيها في صنع اللَّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا في ثلاث: تزودٌ لمعاد، ومرمّة لمعاش، ولذة في غير محرَّم، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مُقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه، ومَنْ حسب كلامه من [1] عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه » [2].

* * *

ثم إن اللَّه تعالى اتخذه خليلًا، وفي سبب ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: لإطعامه الطعام، وكان لا يأكل إلا مع ضيف، روى عبد اللَّه بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « يا جبريل لم اتخذ اللَّه إبراهيم خليلًا؟ قال: لإطعامه الطعام ».

والثاني: أن الناس أصابتهم سَنَة [3] فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت له ميرة [4] من صديق له بمصر في كل سنة، فبعث غلمانه بالإبل إلى صديقه فلم يعطه شيئًا، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناسُ أنا قد جئنا بميرة، فملأوا الغرائرَ رملًا، ثم أتوا إلى إبراهيم فأعلموه، فاهتمّ لأجل الخلق، فنام، وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان، ففتحت الغرائر فإذا دقيقٌ حُواري [5] فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس، فاستيقظ [6] إبراهيم فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلك المِصري، فقال: لا بل من عند خليلي اللَّه، فحينئذ اتخذه اللَّه خليلًا. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: اتخذه اللَّه خليلًا لكسْره الأصنام وجداله قومَه، قاله مقاتل.

---

(١) ب: في عمله.
(٢) لم أجد هذا الحديث في شيء من الكتب المعتمدة.
(٣) السنة: الشدة والجدب.
(٤) الميرة: جلب الطعام.
(٥) الحواري: الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق.
(٦) أ: فانتبه.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر (١) البزار، أنبأنا أبو محمد الحريري، أنبأنا أبو عمر بن حيوة، أنبأنا أحمد بن معروف، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا محمد بن سعد، حدثنا هشام بن محمد، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﵄ قال: لما اتخذ اللَّه إبراهيم خليلًا ونبَّأه وله يومئذ ثلاثمائة عبدٍ أعتقهم للَّه وأسلموا، فكانوا يقاتلون معه بالعصي.

وابتلاه اللَّه ﷻ بالكلمات فأتمهن.

روى طاوس عن ابن عباس قال: ابتلاه اللَّه بالطهارة، خمسٌ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرْق (٢) الرأس. وخمسٌ في الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: « اختتن إبراهيمُ بالقدُوم » والقدوم موضع، وكان له يومَ اختتن ثمانون سنة، وقيل: مائة وعشرون سنة، وهو ختن نفسه (٣).

* * *

وسأل ربه ﷻ أن يريه كيف يحيي الموتى، وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: أنه رأى ميتةً تمزقها السباعُ والهوامُ فسأل ذلك، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه لما بشِّر باتخاذه خليلًا سأل ليعلم بإجابته صحة البشارة، قاله السُّدِّي عن أشياخه.

والثالث: أنه أحب أن يزيل عوارضَ الوسواس، قاله عطاء بن أبي رباح.

والرابع: أنه لما قال لنمرود: ربي الذي يحيي ويميت، أحبَّ أن يرى ما أخبر به، قاله ابن إسحاق (٤).

* * *

وأما نمرود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربعمائة عام لا يزداد إلا عتوًّا، ثم حلف ليطلبن إله إبراهيم، قال السُّدِّي عن أشياخه: أخذ أربعة أفراخ من أفراخ النسور، فرباهن باللحم والخمر، حتى إذا كَبِرْنَ واستفحلن قرنهن بتابوت، وقعد في ذلك التابوت، ثم رفع لهن اللحم (٥) فطرن به، حتى إذا ذهب (٦) في السماء أشرف ينظر إلى الأرض فرآها كأنها فُلك (٧) في ماء، ثم صعد فوقع في ظلمة فلم ير ما فوقه ولا ما تحته، ففزع

(١) أ: ابن أبي الظاهر. (٢) أ: وحلق.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٣٥٦. وصحيح مسلم، حديث رقم: ٢٣٧٠.

(٤) ب: قاله ابن عباس. (٥) أ: لحمًا.

(٦) أ: ذهبن. (٧) الأصل: فلكة.

فنكس اللحم فاتبعنه مُنقضَّات، فلما نزل أخذ [١] يبني الصرح فسقط الصرحُ.

قال زيد بن أسلم: بعث اللَّه تعالى إلى نمرود ملكًا فقال له: آمن بي وأتركك على ملكك، فقال: وهل ربٌّ غيري؟! فأتاه ثانيًا وثالثًا، فأبى ففتح عليه بابًا من البعوض فأكلت لحوم قومه وشربت دماءهم، وبعث اللَّه عز وجل عليه بعوضة فدخلت في منْخره [٢] فمكث أربعمائة عام يُضرب رأسه بالمطارق، وأرحمُ الناس به من يجمع [٣] يديه ثم يضرب بهما رأسه، فعذِّب بذلك إلى أن مات، وقال مقاتل: عذب بالبعوضة أربعين يومًا ثم مات.

* * *

الكلام على البسملة

إخواني: السعيد من اعتبر، وتفكر في العواقب ونظر، أضرَّ [٤] الخليلَ ما عليه جرى وهذه مدائحه كما ترى، مَنْ صابر الهوى ربح واستفاد، ومن غفل فاته المراد.

يا فؤادي غلبتني عصيانًا ... فأطعني فقد عصيتَ زمانا
يا فؤادي أما تحن إلى طُو ... بَى إذا الريحُ حركَتْ أغصانا [٥]
مثِّل الأولياء في جنة الخُلـ ... ـد إذا ما تقابلوا إخوانا
قد تعالَوْا على أسرَّة دُرٍّ ... لابسين الحريرَ والأرْجُوَانا
وعليهم تيجانهم والأكالِيـ ... ـل تُباهي بحسنها التيجانا
ثم آووا فاستقبلتهم [٦] حِسانٌ ... من بنات النعيم فُقْنَ الحسانا
بوجوه مثل المصابيح نورًا ... ما عرفن الظِّلال والأكنانا [٧]

---

(١) أ: أمر ببناء الصرح.
(٢) ب: في أنفه.
(٣) ب: من جمع.
(٤) أ: اعتبروا بالخليل.
(٥) ب: إذا الريح جرحت أعصانا، محرفة. وما أثبته من أ.
(٦) ب: ثم أتوا واستقبلتهم.
(٧) ورد البيت محرفًا في الأصول ففي أ:
بوجوهٍ مثلِ المصابيح نورًا ... يعرفن الأطلالَ والأكنانا
وفي ب:
.... ما عرفن الضلالَ والأكنانا
ولعل ما أثبته هو الصواب. والظلال: جمع ظل، أو جمع ظلّة وهي ما يستظل به. والأكنان: البيوت.

فهمُ الدهرَ في سرورٍ عجيب ويزورون ربَّهم أحيانا

* * *

يا غافلين عما نالوا، ملتم عن التقوى وما مالوا، ما أطيبَ ليلهم في المناجاة! وما أقربَهم من طريق النجاة!

كان بشر الحافي طويلَ السهر يقول: أخاف أن يأتيَ أمرُ اللَّه وأنا نائم.

كم منع نفسه من شهوة فما أنالها، حتى سمع: كُلْ يا من لم يأكل لما أنَى لها، كم حمل عليها حمْلًا ومارثئ لها، كم همت بنيل غرض بدا لها لمَّا خافت عُقبى مرضٍ ينالها، أصبح زاهدًا وأمسى عفيفًا، ما أخذ من الدنيا إلا طفيفًا، وما خرج عنها إلا نظيفًا، هذا وكم وجد من الدنيا سعةً وريفًا [١]، تقلب في ثياب الصبر نحيفًا، وتوغل في طريق التقوى لطيفًا، تاللَّه كان رأيه حصيفًا، وما قدر حتى أعانه الرحمنُ ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [٢].

بكتْ عينهُ رحمةً للبدنْ فعفَّى البكاءُ مكانَ الوسَنْ
وألبسه الشوقُ ثوبَ السَّقامِ كأن السُّقام عليه حسنْ
وأُنْس مدامعه بالدموع لم يدع السرَّ حتى علنْ
فيا طولَ عصيانه للغرام [٣] ويا حُسن طاعته للحزن

إخواني: من عرف قدر نفسه عليه هانت الدنيا كلها لديه، إن العقلاء نظروا إلى مشارع الدنيا فرأوها متوشحة [٤] بأقذار الفِرَاط فاقتنعوا بثَغْب الغُدران [٥].

للَّه ساعٍ بلَّغته قدمه حيثُ تعدَّت عالياتُ هممهْ
أو قاعدٍ مع العفاف قانعٍ ببُلغة الزاد حَشَاه وفمهْ
لم ينتقص طلاوةً من وجهه ورِقُّه ذُلَّ سؤالٍ يَصِمهْ
تلونتْ خلائقُ الدهرِ به فحنَّكَتْه صُهْبه ودُهْمُهْ [٦]
واختبرَ الناسَ فلو ساومته قُربَ أخيه علّه يحتشمه [٧]
واللَّه ما عِفتُكِ يا دنيا بلى وإنَّ فيكِ لمتاعًا أعلمُهْ

---

(١) الريف: السعة في المأكل والمشرب. (٢) سورة النساء: ٢٨.
(٣) أ: للعزي. (٤) أ: متوسخة.
(٥) الفراط: الماء الذي يكون لمن سبق إليه من الأحياء. اللسان: ٢٤٢/٩. وثغب الغدران: ما بقي فيها من الماء.
(٦) حنكته: أحكمت تجاربه. والصهب: الحمر. والدهم: السود.
(٧) العجز بالأصل محرف وغير منقوط، ولعل ما أثبته هو الصواب.

لكنّ أبناءك من لا صِبْغتي صِبْغتُه ولا وفائي شِيمهْ
أُخرج من حكمة الصدر وما فيهم بسحْري (١) من يصحُّ سقَمُه
كم بَاسِمٍ لي من وراء سره والليثُ لا يغرُّني تبسُّمه
وحاطبٍ على اتخاذي صُحبتي والبدر مولودٌ بغير توْأمهْ

* * *

سبحان من كشف لأحبابه ما غطى عن الغَيْر، وأعطاهم من جُوده كلَّ خير ومِيْر، فقطعوا مفاوز الدنيا بالصبر ولا ضير، وكابدوا المجاعة حتى استحيا راهبُ الدير، أفي أحوال هذه الدنيا تتمارى، أما ترى زيَّها مستردًّا مُستعارًا، وسَلْبَ القرين يكفي وعْظًا واعتبارًا، أمَّا اللذاتُ فقد فنيت (٢) وأبقت عارًا، وأما العُمر فمنتهبٌ جهارًا، إياك وإيَّا الدنيا فرارًا فرارًا، لقد قرَّت عيونُ الزاهدين وماتوا أحرارًا، قتلتْ أقرانَهم فانتهضوا (٣) يأخذون ثارًا، وباعوها بما يبقى لا كُرْهًا بل اختيارًا، قطعوا بالقيام ليلًا وبالصيام نهارًا، واتخذوا الجدَّ لحافًا والصبر شعارًا، وركبوا من العزم أمضى من العربان المَهَارَى (٤)، واهتدوا إلى نجاتهم والناس في الجهل حيارى.

ربح القومُ وخسرتَ، وساروا إلى المحبوب وما سرْت، وأُجيروا من اللوم وما أُجرت، واستزيدوا إلى القُرب وما استُزدت، ذنوبك طردتك عنهم، وخطاياك أبعدتك منهم، قم في الليل ترى تلك الرُّفقة، واسلك طريقتهم وإن بعدت الشُّقة، وابك على تأخرك واحذر الفُرقة.

شمِّرْ عسى أن ينفع التشميرُ وانظر بفكرك ما إليه تصيرُ
طوَّلت آمالًا تكنَّفها الهوى ونسيتَ أن العمر منكَ قصيرُ
قد أفصحتْ دُنياك عن غدَراتها وأتى مشيبك والمشيب نذيرُ
دارٌ لهوتَ بزهْوها (٥) متمتعًا ترجو المقامَ بها وأنت تسيرُ
واعلم (٦) بأنك راحلٌ عنها ولو عمِّرتَ فيها ما أقام ثَبيرُ
ليس الغنى في العيش إلا بُلغةً ويسيرُ ما يكفيك منه كثيرُ

---

(١) السحر: كل ما لطف مأخذه ورق، ويريد به هنا المهارة في الطب.
(٢) أ: قد فنيت. وب: فأفنت. (٣) أ: فنهضوا.
(٤) المهارى: الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان، حي من العرب. العربان: كذا بالأصل، ولعلها: العراب وهي الخالصة النسب من الخيل والإبل.
(٥) أ: بلهوها. (٦) أ: اعلم.

لا يشغلنَّك عاجلٌ عن آجل [١] أبدًا فمُلتمس الحقير حقيرُ
ولقد تساوى بين أطباق الثَّرى في الأرض مأمورٌ بها وأميرُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [٢]

لما كسر الخليلُ الأصنامَ حملوه إلى نمرود، فعزم على إهلاكه [٣]، فقال رجل: حرِّقوه، قال شعيب الجُبَّائي: خسفت الأرض بالذي قال: حرقوه، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وأُلْقِيَ الخليل في النار وهو ابن ست عشرة سنة، قال علماء السير: حبسه [٤] نمرود، ثم بَنَوْا له حوالي سفح جبل منيف، طول جداره ستون ذراعًا، ونادى منادي نمرود: أيها الناس احتطبوا لإبراهيم، ولا يتخلفن عن ذلك صغير ولا كبير فمن تخلَّف ألقي في تلك النار.

ففعلوا ذلك أربعين ليلة حتى إنْ كانت المرأة لتقول: إن ظفرت بكذا لأحتطبن لنار إبراهيم، حتى إذا كان الحطب يساوي رأس الجدار [٥] قذفوا فيه النار فارتفع لهيبها، حتى كان الطائر يمر بها فيحترق، ثم بَنَوْا بنيانًا شامخًا وبنوا فوقه مِنْجنيقًا.

ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء، فقال: اللَّهم أنت الواحد في السماء [وأنا الواحد في الأرض] [٦] ليس في الأرض أحدٌ يعبدك غيري، حسبي اللَّه ونعم الوكيل.

ثم رُمي به فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، فقال جبريل: سلْ ربك، فقال: حسبي مِنْ سؤالي علمه بحالي.

أخبرنا محمد بن أبي منصور، حدثنا جعفر بن أحمد، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن جعفر، أخبرنا عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي حدثنا شيبان، حدثنا أبو هلال قال: حدثنا بكر قال: لما أُلقي إبراهيم في النار جأرتْ عامةُ الخليقة [٧] إلى ربها ﷻ فقالوا: يا رب خليلك يُلقى في النار، فأْذن لنا أن نطفئ عنه، فقال: هو خليلي، وليس لي في الأرض خليل غيره، وأنا ربُّه ليس له رب غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإلا فدعوه.

---

(١) ب: من آجل. (٢) سورة الأنبياء: ٦٩. (٣) أ: هلاكه.
(٤) ب: حفره. محرفة. (٥) ب: الجبال. (٦) من أ..
(٧) ب: عامة الملائكة.

قال: فجاء مَلك القَطْر فقال: يا رب خليلك يُلقى في النار، فأْذن لي أطفئ عنه بالقطر، فقال: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره، وأنا ربه ليس له رب غيري، فإن استغاث بك فأغثه وإلا فدعه.

فلما ألقي في النار دعا ربه، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب فلم ينضج بها كُراع.

قال ابن عباس: لم يبق في الأرض يومئذ نار إلا طفئت، ظنت أنها هي التي تُعنى، ولو لم يُتبع بَرْدها سلامًا لمات إبراهيم من بردها.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا علي بن صادق، أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي، حدثنا أبو العباس محمد بن الحسن الخشاب، حدثنا أبو القاسم ابن موسى، حدثنا يعقوب ابن إسحاق، قال: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه وقد سئل عن التوكل قال: هو قطْع الاستشراف باليأس من الخلق، قيل له: فما الحجة فيه؟ قال: قصة الخليل، لما وضع في المنجنيق مع جبريل عليه السلام، لما قال (١): أمَّا إليك فلا، فقال له: فسل من لك إليه الحاجة. قال: أحبُّ الأمرين إليَّ أحبهما إليه.

قال علماء السير: لما أُلقي في النار أخذت الملائكة بضَبْعَيْه وأجلسوه على الأرض، فإذا عينٌ من ماء عذب وورد أحمر ولم تحرق النار إلا وثاقه، ونزل جبريل بقميص من الجنة وطِنْفسة من الجنة فألبسه القميصَ وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه، فأقام هناك أربعين يومًا، فجاء آزرُ إلى نمرود فقال: ائذن لي أن أُخرج عظام إبراهيم وأدفنها، فخرج نمرود ومعه الناس، فأمر بالحائط فنقب، فإذا إبراهيم في روضة تهتز ونباتها (٢) يندي وعليه القميص وتحته الطنفسة، والملك إلى جنبه والماء يجري في جبينه فناداه نمرود: يا إبراهيم إن إلهك الذي بلغتْ قدرته هذا (٣) لكبير: هل تستطيع أن تخرج؟ قال: نعم، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج، فقال: من هذا الذي رأيتُ معك؟ قال: ملك أرسله الله تعالى ليؤنسني، فقال نمرود: إني مقرِّب إلى إلهك قربانًا لما رأيتُ من قدرته، فقال: إذًا لا يُقبل منك ما كنتَ على دينك، فقال: يا إبراهيم لا أستطيع أن أترك مُلكي ولكن سوف أذبح له، فذبح أربعة آلاف بقرة وكفَّ عن إبراهيم.

سجع على قوله تعالى: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾:

سبحان من أخرج هذا السيد من آزر، ثم أعانه بالتوفيق فقصَد وآزر، ثم بعث إليه

---

(١) أ: قال له. (٢) ب: وثيابه تندي. (٣) ب: إلى هذا.

البيان (١) فأعان ووازر، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر ولم يتزود إلا التسليم، ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

عبدٌ بذل نفسه لنا فبلغناه منَّا المنى، وعرفناه المناسك عند البيت ومِنًى، ولما رمي في النار لأجلنا قلنا له بلسان التفهيم: ﴿ بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

قدَّم ماله إلى الضيفان (٢)، وسلم ولده إلى القُربان، واستسلم للرَّمْي (٣) في النيران، فلما رأينا مُحبًّا في بيداء الوجد يهيم ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

ابتليناه بكلمات فأتمهن، وأريناه قُدرتنا يوم ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ (٤) وكسر الأصنام غيرةً لنا منهن، فلما أُججت النيران ذهبت بلطفنا (٥) حرارتهن، وغرسنا شجر الجنة في سواء الجحيم ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

بنوا له بنيانًا (٦) إلى سفح جبل، واحتطب من أجْله من شرب وأكل، وألْقَوْه فيها وقالوا: قد اشتعل، فخرج نمرود ينظر ماذا فعل، وقد خرج توقيعُ القِدم من القديم (٧): ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

اعترضه وتعرض لحوائجه الملكُ، حين قطع بيداء الهوى وسلك، فقال له بلسان الحال: معي مَنْ مَلَك، إياك والتعريض بما ليس لك، فلمَّا لم يتعلق بخلقٍ دوني إذْ أُضيم ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

تعرضت له الأملاك فكفَّها كفًّا، فلما رأيناه لا يمد إلى غيرنا كفًّا، مدحناه ويكفي في مدحنا له ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ واجتمع الخلائق صفًّا ينظرون من صفًّى، فلما أتانا في وقت القلب بقلبٍ سليم (٨) ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

تنحَّ يا جبريل فما ذا موضع زحمة، وخلِّني وخليلي فإليه الرحمة، وهل بذلتُ له إلا لحمة تبلى أو شحمة؟ فلما وطَّن نفسه على أن يصير فحمة، وحُوشي من ذاك الكريم ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

كانت الملائكة تدعي الفناء بالطاعة (٩)، فخرج هاروت وماروت فخسرت البضاعة، وشاهدوا يوم الخليل ما ليس لهم به استطاعة، رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه،

---

(١) أ: الثبات. (٢) أ: للضيفان. (٣) أ. إلى الرمي.

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

(٥) ب: بلطفه. (٦) أ: بيتًا. (٧) ب: عن القديم.

(٨) أ: فلما أتانا ورأينا القلب قلب سليم. (٩) أ: تدعي الطاعة.

فلما رأيناه ساكنًا والأملاك في مُقعد مقيم ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

قابل القومُ رسولنا بأقبح تكذيب، وقصدوا خليلنا بأشد تعذيب، ونسُوا يومَ الفزع والتأنيب، والخليل سرُّه صافٍ والحال مستقيم ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

* * *
* *
*

المجلس الثامن

في قصة بناء الكعبة

الحمد للَّه الملك الجليل، المنزه عن النظير والعديل، المنعم بقبول القليل، المتكرم بإعطاء الجزيل، تقدَّس عمَّا يقول أهلُ التعطيل، وتعالى عما يعتقد أهل التمثيل، نصب للعقل على وجوده أوضح دليل، وهدى إلى وجوده أبين سبيل، وجعل للحسَن خطًّا إلى مثله يميل، فأمر ببناء بيتٍ وجلَّ عن السُّكنى الجليل ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [١].

ثم حماه لمَّا قصده أصحاب الفيل، فأرسل عليهم حجارة من سجيل.

أحمده كلما نُطق بحمده وقيل، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له المنزه عمَّا ما عنه قيل، وأصلي على نبيه محمد النبي النبيل، وعلى أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا ثقيل، وعلى عمر وفضلُ عمر فضلٌ طويل، وعلى عثمان وكم لعثمان من فعل جميل، وعلى علي وجَحْد قدر عليٍّ تغفيل، وعلى عمه العباس المستسقى بشيبته فإذا السحب تسيل.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [٢]

اختلف العلماء في المبتدئ ببناء البيت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن اللَّه تعالى وضعه لا ببناء أحد، ثم في زمن وضعه إياه قولان: أحدهما: قبلَ خلق الدنيا، قال أبو هريرة: كانت الكعبة حشَفةً على الماء، عليها ملكان يُسبحان الليل والنهار قبل خلق الأرض بألفي عام. الحشفة: الأكمة الحمراء [٣].

وقال ابن عباس ﵄: لما كان العرش على الماء قبل خلق السموات بعث اللَّه تعالى ريحًا فصفقت الماء فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنه قبة، فدحا الأرض من تحتها.

وقال مجاهد: لقد خلق اللَّه تعالى موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

وقال كعب: كانت الكعبة غُثاء على الماء قبل أن يخلق اللَّه السموات والأرض بأربعين سنة.

(١ ، ٢) سورة البقرة: ١٢٧.

(٣) في القاموس: الحشفة: صخرة تنبت في البحر.

وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنة، وفيه قناديل من الجنة، فلما أهبط اللَّه تعالى آدم أنزل عليه الحجر الأسود فأخذه فضمه إليه استئناسًا به، وحجَّ آدم فقالت له الملائكة: برَّ حجُّك لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. فقال: يا رب اجعل له عُمَّارًا من ذريتي، فأوحى اللَّه تعالى: إني معمره بأبناء نبي من ذريتك اسمه إبراهيم » [(١)].

القول الثاني: أن الملائكة بنته، قال أبو جعفر الباقر: لما قالت الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا... ﴿٣٠﴾ ﴾ غضب عليهم فعاذوا بالعرش يطوفون حوله يسترضون ربهم، فرضي عنهم وقال: ابنوا في الأرض بيتًا يعوذُ به كل من سخطتُ عليه ويطوفون حوله، كما فعلتم بعرشي. فبنوا هذا البيت.

والثالث: أن آدم لما أُهبط أوحى اللَّه إليه: ابن لي بيتًا واصنع حَوْله كما رأيتَ الملائكة تصنع حول عرشي. رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى عنه عطاء أنه بناه آدم من خمسة أجبُل: لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجوديّ وحراء.

قال وهب: فلما مات آدم بناه بنوه بالطين والحجارة، فنسفه الغرقُ، قال مجاهد: وكان موضعه بعد الغرق أكمة حمراء لا تعلوها السيولُ، وكان يأتيها المظلوم ويدعو عندها المكروب.

قال علماء السير: لما سلم الخليل من النار خرج بمن معه من المؤمنين مهاجرًا، فتزوج سارة بحرَّان، وقدِم مصر وبها فرعونٌ من الفراعنة، فوصف له حُسنها فبعث فأخذها، فلما دخلت قام إليها فقامت تصلي وتقول: اللَّهم إني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. فغُطَّ حتى ركض الأرض برجله، فقالت: اللَّهم إن يمت يقال: هي التي قتلته، فأُرسل، ثم قام إليها فدعت فغُطَّ حتى ركض الأرض برجله ثم أرسل فقال: ردوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر.

فوهبتها لإبراهيم وقالت: لعله يأتيك منها ولد، وكانت سارة قد مُنعت الولد، فولدت له إسماعيل فهو بكر أبيه، ولد له وهو ابن تسعين سنة، فلما ولدت غارت سارة وأخرجتها، وحلفت لتقطعن منها بضعة، فخفضَتْها [(٢)] ثم قالت: لا تُساكنني في بلدي.

فأوحى اللَّه تعالى إليه أن يأتي مكة، فذهب بها وبابنها، والبيت يومئذ ربوة حمراء فقال: يا جبريل أهنا أمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم، فأنزلهما موضع الحِجْر وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشًا.

---

(١) هذه المرويات التي ساقها ابن الجوزي في أولية البيت الحرام ليس لها سند صحيح.

(٢) الخفض: الختان.

أخبرنا عبد الأول، قال: أنبأنا أبو الحسن الداودي، قال: أنبأنا ابن أعين السَّرْخْسي، حدثنا أبو عبد الله الفَرَبْري، حدثنا البخاري، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب السَّخْتِياني، وكثير بن كثير، عن المطِّلب بن أبي ودَاعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس ﵄: أولُ ما اتخذ النساء المِنْطَقة من قِبَل أم إسماعيل اتخذت مِنْطقًا لتعفِّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يُضيعنا اللَّه.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: رب ﴿ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ (١) حتى بلغ: ﴿ يَشۡكُرُونَ ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى من العطش، أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « فلذلك سعى الناسُ بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها ثم تسمَّعت أيضًا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غَوَاث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تُحوِّضه (٢) وتقول بيدها وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف » قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « يرحم اللَّه أمَّ إسماعيل لو تركتْ زمزمَ - أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزمُ عينًا معينًا ».

قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن هذا بيتُ اللَّه يبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإن اللَّه لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابية تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وعن شماله،

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٧.
(٢) تحوضه: تجعل له حوضًا، أو تدور حوله.

فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفقة من جُرهم مقبلين من طريق كُدًى (١) فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جرِيًّا (٢) أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء قالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم، وأنْفَسهم (٣) وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوجوه امرأةً منهم وماتت أم إسماعيل.

فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيلُ يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة وشكت إليه، قال: إذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيِّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيلُ كأنه آنسَ شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيِّر عَتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء اللَّه، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، فسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على اللَّه ﷻ، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللَّهم بارك لهم في اللحم والماء، قال رسول اللَّه ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما (٤) لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيلُ قال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخٌ حسن الوجه، وأثنت عليه، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبِّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أُمْسكك.

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبْري نَبْلًا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يفعل الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن اللَّه قد أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتُعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن اللَّه تعالى قد أمرني

---

(١) كدى، ككرى، جبل مسفلة مكة على طريق اليمن، وكدى كسمى، جبل بقرب عرفة.

(٢) الجريُّ: الأجير أو الرسول. (٣) أنفسهم: أعجبهم. (٤) يريد اللحم والماء.

أن أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكمة [١] مرتفعة على ما حولها.

فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجَر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾. (انفرد بإخراجه البخاري) [٢].

قال علماء السير: لما أُمر الخليل عليه السلام ببناء البيت قال: يا رب بيّن لي صفته، فأرسل اللَّه تعالى سحابةً على قدْر الكعبة، فسارت معه حتى قدم مكة، حتى وقفت في موضع البيت ونودي: ابن على ظلِّها لا تزد ولا تنقص.

وكان جبريلُ حينَ الغرق قد استودع أبا قبيس الحجَرَ الأسود، فلما بنى إبراهيمُ البيتَ أخرجه إليه فوضعه.

أخبرنا الكروخي، أنبأنا الغُورجي، أنبأنا الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « نزل الحجر الأسودُ من الجنة وهو أشدُّ بياضًا من اللبن فسَّودَتْه خطايا بني آدم » [٣].

قالوا: وولد لإسماعيل اثنا عشر ولدًا واتخذه اللَّه نبيًّا، وبعثه إلى العماليق وجُرْهم وقبائل اليمن، فنهاهم عن عبادة الأوثان، وتوفيت هاجر وهي بنت تسعين سنة ولإسماعيل عشرون سنة، فدفنها في الحِجْر وعاش مائة وسبعًا وثلاثين سنة، وكان قد شكا إلى ربه حرَّ مكة، فأوحى اللَّه تعالى إليه أنِّي أفتح لك بابًا من الجنة في الحِجْر يجري عليك منه الروْح إلى يوم القيامة وفي الحجر قبره.

ولما توفي دبَّر أهل الحرم بعده ابنه نابت، ويقال: نبت، ثم غلبت جُرْهم على البيت وانهدم، فبنته العمالقة، ثم بنته جرهم.

* * *

وقصده أصحابُ الفيل..

وكان السبب أن أبرهة بنىٰ كنيسة وأراد أن يصرف إليها الحج، فسمع بذلك رجلٌ من العرب فأحدثَ فيها، فغضب أبرهةُ وقصد الكعبة، فلما دنا من مكة أغار أصحابه

---

(١) الأكمة: التل.

(٢) صحيح البخاري : ١٠٨/٢، كتاب بدء الخلق. ط الخيرية.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٨٧٧، وهو حديث صحيح.

على نَعم الناس فأصابوا إبلًا لعبد المطلب، ثم قال لبعض أصحابه: سلْ عن شريف مكة، فأُتي بعبد المطلب، فقال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تردَّ عليَّ إبلي، قال: أولا تسألني عن بيتٍ هو دينك ودين آبائك؟ فقال: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربٌّ يمنعه!

فأمر قريشًا أن يتفرقوا في الشِّعاب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقال:

يا ربِّ لا أرجو لهم سواكا … يا رب فامنعْ منهمُ حماكا
إن عدوَّ البيت من عاداكا … امنعهمُ أنْ يُخربوا قراكا

ثم قال:

لا همَّ إن المرءَ يَمْنع رحْله … وحلاله فامنع رحالك [(١)]
لا يغلبنَّ صليبُهم … ومِحالهم غدْوا محالكْ [(٢)]
جرُّوا جموع بلادهم … والفيلَ كي يسبُوا عيالكْ
عمدوا حماك بكيدهم … جهلًا وما رقبُوا جَلالكْ
إن كنتَ تاركهم وكعبتنا … فأمر ما بدا لك

فبعث اللَّه تعالى عليهم طيورًا رءوسها كرءوس السباع، وقيل: كأمثال الخطاطيف مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره، وكانت كأمثال الحمص، وقيل: كرأس الجمل، فكانت تقع على الرجل فتخرج من دُبره.

والأبابيل: جماعات متفرقة، والسِّجيل: الشديد الصلب، والعصف: تِبْن [(٣)] الزرع وورقه.

ثم بنته قريش ورسول اللَّه ﷺ يومئذ شاب، ثم بناه ابنُ الزبير، ثم نقضه الحجاجُ وبناه.

سبحان من اختص من عباده الأخيار، فجعل منهم الأنبياء والأبرار، وأبعد العصاة والفجار ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [(٤)].

* * *

الكلام على البسملة

تُزيِّن أعمالًا خواتيمها … فانسك وزيِّن عملًا بالختامْ

---

(١) في سيرة ابن هشام: يمنع رحله فامنع رحالك. (٢) غدوا: غدا، استعمل تامًّا في هذا الموضع.

(٣) في القاموس: وكعصف مأكول: أي كزرع أُكِلَ حبه وبقي تبنه، أو كورق أخذ ما كان فيه وبقي هو لا حب فيه، أو كورق أكلته البهائم.

(٤) سورة القصص: ٦٨.

أفضلُ ما زوِّدت زادُ التقى — وشرُّ ما تحمل زادُ الأثامْ

والجسم يُنسيه البِلى في الثَّرى — ما كان عانى من خطوبٍ جسامْ

أُخاصم القلبَ لإعراضه — عن الهدى وهْو ألدُّ الخصامْ

ويحْطِم السنَّ أخا كثرةٍ — وهمُّه مُتصلٌ بالحطام

كأن عمري مرْكب سار بي — حتى إذا بلغ الحين قام

سُهِّد هذا الخلق في شأنهم — تمتْ لأقوام أناموا الأنام

* * *

ليأتينك من الموت ما لا يقبل رِشوة ومالًا، إذا مالَ على القومِ والقُويم مالًا، يا مختار الهوى جهلًا وضلالًا، لقد حمَّلت أزْرك أوزارًا ثقالًا، إياك والمنى فكم وعد المنى مُحالًا، كم قال الطالب: نعم نعم سأُعطَى نوالًا ثم نوالًا، كم سقى من الحسرات كؤوسًا، وفرّغ ربْعًا بَعْد أن كان مأنوسًا، وطمس بهوْله بُدورًا وشموسًا، وأغمض عيونًا ونكّس رءوسًا، وأبْدل الترابَ عن الثياب ملبوسًا:

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلًا — فسيَّان فيه أدرك الحظّ أو أخطا

وليس يفِي يومًا سرورٌ وغبطةٌ — بحزنٍ إذا المعطِي استردّ الذي أعطى

لقد وعظ الزمنُ بالآفات والمحن، لقد حدَّث من لم يظعن بالظّعن، وخوّف المطلق بالمرتهن، تاللَّه لو صفتْ الفِطَنُ لأبصرتْ ما بطن، إخواني: أمر الموت قد علن، كم طحطح الردى وكم طحن، يا بائعًا لليقين مشتريًا للظّنن، يا مؤثرًا الرذائل في اختيار الفتن، إنَّ السرور والشرور في قَرَن.

* * *

أجلُّ هِبَات الدهرِ ترْكُ المواهبِ — تمدُّ لما أعطاك راحةَ ناهبِ

وأفضلُ من عيش الغِنى عيشُ فاقةٍ — ومن زي ملْكٍ رائقٍ زيُّ راهبِ

ولي مذْهب في هجريَ الإنسَ نافعٌ — إذا القومُ خاضوا في اختيار المذاهب

أرانا على الساعات فُرسانَ غارةٍ — وهُنَّ بنا يجرين جرْي السلاهبِ

ومما يزيد العيش إخلاق ملبس — تأسُّف نفسٍ لم تُطق ردَّ ذاهبِ

لقد تكاثفت ذنوبك يركب بعضها بعضًا، وتعاظمت عيوبك فملأت الأرض طولًا وعرضًا، وهذا الموت يركض نحو روحك ركضًا، وعندك من الدنيا فوق ما يكفي

وما ترضى، أأمنت على مبسوط الأمل بسْطًا وقبضًا، كم حصر الردى إذا أتى غُصنًا غضًّا، كم بلبل بالًا وما بالى هدمًا ونقضًا، اسمع مني قولًا نفُوعًا ونصحًا محضًا، كم قد جنيتَ طويلًا فكن من اليوم ذليلًا أرضى.

قال ذو النون المصري رحمة اللَّه عليه: لقيتُ جارية سوداء استلبها الولَه من حُب الرحمن شاخصةً ببصرها نحو السماء فقلت: علميني شيئًا مما علمك اللَّه، فقالت: يا أبا الفيض، ضع على جوارحك نيران القِسْط حتى يذوب كلُّ ما كان لغير اللَّه، فيبقى القلبُ مُصفًّى ليس فيه غير الرب ﷻ، فعند ذلك يقيمك على الباب ويوليك ولايةً جديدة ويأمر الخُزَّانَ لك بالطاعة، فقلت: زيديني رحمك اللَّه، فقالت: خذ من نفسك لنفسك وأطلع اللَّه إذا خلوتَ بحبك إذا دعوت.

ثم ولَّتْ عني وتركتني.

* * *

إخواني: من النفوس نفوس خُلقت طاهرةً، ونفوس خلقت كَدِرة، وإنما تصلح الرياضة في نجيب، الجلودُ الطاهرة إذا وردت عليها النجاسةُ يطهِّرها الدِّباغ؛ لأن الأصل طاهر، بخلاف جلد الخنزير.

للنفوس الخيرة علامات: الجدُّ في الغالب، والحذر من الزلل، والاحتقار للعمل، والقلق من خوف السابقة، والجزع من حذر الخاتمة، فترى أحدهم يستغيث استغاثة الغريق، ويلجأ لُجْأ الأسير، الذلُّ لباسه، وسهر الليل فراشه، وذكر الموت حديثه، والبكاء دأبه.

بات عُتبة الغلام ليلةً على ساحل البحر، فجعل يقول: إن تعذِّبني فإني لك مُحب، وإن ترحمني فإني لك محب، فلم يزل يرددها ويبكي إلى الصباح.

وكان عابد يقول: يا إخوتاه ابكوا على خوف فوات الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة، لمَّا أسرَ النومُ سار القومُ، فقطع نفسك باللوم اليوم:

يا مقلةً راقدة ... لم تدْر بالساهدة
كأنها سهَّرت ... نجومها الراكدة
بدا سُهيلٌ لها ... فانحرفت عائدة
كأنه درهمٌ ... رمتْ به الناقدة
يا نفسُ لا تجزعي ... قد تجدُ الفاقدة
أيُّ الورى خالدٌ ... أنفسهم واحدة

والـمـوتُ حـوضٌ لـهـا	وهْـــي لــــه واردة
حــائــدة جُـهـدهــا	إنْ سـلـمـت حـائـدة
فـي كــل فــجٍّ لـهـا	مـنـيَّـة راصـدة
تـفـرُّ مــن حـتـفـهـا	وهــي لـه قـاصـدة
لا تُـخـدعـنّ بـالـمـنى	قـد تـكـذب الـرائـدة
هــان عــلـى مـيـت	مـا تـجـد الـواجـدة

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ... ﴾ (١)

البيوت هاهنا: المساجد، و ﴿ أَذِنَ... ﴿٣٦﴾ ﴾ بمعنى أمر، و ﴿ تُرْفَعَ... ﴿٣٦﴾ ﴾ بمعنى تُعظم، و ﴿ ٱسْمُهُۥ... ﴿٣٦﴾ ﴾ توحيده وكتابه.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أحبُّ البلاد إلى اللَّه تعالى مساجدها، وأبغض البلاد إلى اللَّه تعالى أسواقها » (٢).

وفي الصحيحين من حديث عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من بنى للَّه عز وجل مسجدًا بنى اللَّه له مثله في الجنة » (٣)، وفيهما من حديث أبي هريرة قال: من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ اللَّه له في الجنة نُزلًا (٤) كلما غدا أو راح ».

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا أبو جعفر بن المُسْلمة، وأنبأنا سعيد بن أحمد، حدثنا علي ابن أحمد بن السَّيدي، قالا: أخبرنا المخلِّص، حدثنا البغوي، حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثني عبيد اللَّه بن عمرو، عن زيد بن أنيسة، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: « من تطهَّر في بيتهِ ثم مشى إلى بيتٍ من بيوت اللَّه ليقضِيَ فريضةً من فرائض اللَّه كانت خُطوتاه إحداهما تحُطُّ خطيئة والأخرى ترفع درجة » (٥).

---

(١) سورة النور: ٣٦. (٢) صحيح مسلم، حديث رقم : ٦٧١.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم : ٤٥٠. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٥٢٣..

(٤) صحيح البخاري: « أعد اللَّه له نزله في الجنة »، والحديث في صحيح البخاري، رقم : ٦٦٢. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٦٦٩.

(٥) صحيح مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم : ٢٨٢.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا هاشم، حدثنا ليث، حدثني سعيد، يعني المَقْبُرِيّ، عن أبي عبيدة، عن سعيد بن يسار، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: « لا يتوضأ أحدٌ فيحسن وضوءه ويُسبغه ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الله فيه إلا تبشبش [1] الله به كما تبشبش أهلُ الغائب بطلعته ».

* * *

قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ ﴾ قال الزجاج: لا خلاف [2] بين أهل اللغة أن التسبيح هو التنزيه لله ﷻ عن كل سُوء، والغدو جمع غُدوة، والآصال جمع أُصُل، وأُصْل جمع أصيل، فالآصال جمع الجمع، والآصال: العشيات.

- **وللمفسرين في المراد بهذا التسبيح قولان:** أحدهما أنه الصلاة.

- **ثم في صلاة الغدو قولان:**

أحدهما: أنها الفجر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: صلاة الضحى، وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن صلاة الضحى لفي كتاب الله وما يغوص عليها غوَّاص، ثم قرأ: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾.

- **وفي صلاة الآصال قولان:**

أحدهما: أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قاله ابن السائب.

والثاني: صلاة العصر، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ... ۝٣٧ ﴾ أي لا تشغلهم. قال ابن السائب: التجار الجلَّابون والباعة المقيمون.

- **وفي المراد بذكر الله ثلاثة أقوال:**

أحدها: الصلاة المكتوبة، قاله ابن عباس.

وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) تبشبش به: آنسه وواصله، وهو من الله تعالى: الرضا والإكرام، والحديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المساجد، باب رقم: ١٩. وأحمد في مسنده: ٣٠٧/٢.

(٢) ب: الاختلاف محرفة.

والثاني: أنه القيام بحق اللَّه تعالى، قاله قتادة.

والثالث: ذكر اللَّه تعالى باللسان، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ... ﴿٣٧﴾ ﴾ أي أداؤها لوقتها وإتمامها.

قال سعيد بن المسيب ﷺ: ما أذَّن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد. وقال سفيان بن عيينة: لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يُدْعى، ايتِ الصلاة قبل النداء.

أخبرنا المبارك بن أحمد الأنصاري، أخبرنا الحسين بن عبد الجبار، أخبرنا محمد بن علي ابن الفتح، أنبأنا علي بن الحسين بن سكينة، أنبأنا محمد بن القاسم، حدثنا أبو بكر ابن عبيد، أنبأنا أبو الحسين بن أبي قيس، أنبأنا سويد بن سعيد، أنبأنا علي بن مُسهر، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا جمع اللَّه الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ ينادي بصوتٍ يُسمع الخلائق: سيعلم الخلائقُ اليومَ من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: فليقم الذين كانوا لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللَّه، فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع [فيقومون] (١) وهم قليلون، ثم يحاسب الناس (٢).

قال بعض الزهاد: رأيت رجلًا قد أقبل من بعض جبال الشام فسلمت عليه فردّ ووقف ينظر كالحيران، فقلت له: من أين أقبلت: فقال: من عند قومٍ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللَّه، فقلت: وأين تريد؟ قال: إلى قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ثم قال: وا أسفًا! قلت: على ماذا؟ قال: على ما هم فيه إذ كانوا بأعمالهم على طريق نجاتهم.

النـاسكـون يـحـاذرو ... ن ومـا بـسـيـئـة ألـمُّـوا
كـانـوا إذا رامـو كـلا ... مـا مُـطـلـقًـا خَـطَـمُـوا وزمُّـوا
إن قِيـلـت الـفـحـشاء أو ... ظـهـرت عـمُـوا عنها وصمُّوا
فـمـضـوا وجـاء مـعـاشـرٌ ... بالمنكرات طمُوا وطمُّوا (٣)
فـفـمٌ لـطُـعْـمٍ فـاغـرٌ ... ويـدٌ عـلى مـالٍ تَـضـمُّ
عـدلـوا عـن الحسـن الجميـ ... ـل ولـلـخـنـا عَـمَـدوا وأمُّـوا
وإذا هـمُ أعـيـتـهـمُ ... شنْعاهُم (٤) كـذبـوا ونـمُّـوا

(١) سقطت من ب.

(٢) رواه البيهقي، الترغيب والترهيب: ٢٠٩/١، ط دار إحياء التراث العربي.

(٣) طموا: امتلأوا، يقال: طمى الماء طميًا: علا. والنبت طال، والبحر امتلأ. وطموا: طغوا، يقال: طم الماء: غمر.

(٤) شنعاهم: شنعاؤهم. والشنعاء: الصفة الشنيعة القبيحة.

فالصدر يغلي بالهوا جس مثلَ ما يغلي المُحُمّ (١)

* * *

قوله تعالى:

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ (٢).

تصعد القلوب إلى الحناجر وتنقلب الأبصار إلى الزُّرْق عن الكَحَل، والعمى بعد النظر.

أخبرنا ابن الحصين، قال: أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، أخبرنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا سليمان بن حيان، أخبرنا ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: « يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه ».

أخبرنا عبد الأول، حدثنا الداودي، حدثنا ابن أعين، حدثنا الفَرَبْري (٣) حدثنا البخاري، حدثنا عبد العزيز بن عبد اللَّه، حدثني سليمان، عن ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة ﷺ قال: « يعرق الناسُ يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ويُلجمهم حتى يبلغ آذانهم ».

الحديثان في الصحيحين (٤)، وفي لفظٍ: « سبعين باعًا » قال مغيث بن سميّ: تركز الشمس فوق رءوسهم على سبعة أذرع وتُفتح أبواب جهنم فيهب عليهم من رياحها وسَمُومها ويخرج عليهم من نُفاحها (٥) حتى تجريَ الأنهار من عرقهم، والصائمون في ظل العرش.

يا من لا يَرْدعه ما يسمعه، يا من لا يُقنعه ما يجمعه، أمَا القبرُ عن قريب موضعه؟! أما اللحدُ عن قريب مضجعه؟! أما يرجع عنه من يشيعه ويأخذ ما جمعه أجمعه؟! كم يخرق خرقًا بالخطأ ثم لا يَرْقعه؟! كم يحطُّه القبيح والنصح يرفعه؟! كم يعلم غرورَ الهوى وهو يتبعه؟!

لا تَعْذلَنْه فإن العذل يولعه قد قلتَ حقًّا ولكن ليس يسمعه (٦)

---

(١) المحم: الساخن. (٢) سورة النور: ٣٧.

(٣) الفربري: أبو عبد اللَّه محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربري، راوية صحيح البخاري عنه، ينسب إلى فربر، وهي بلدة على طرف جيحون مما يلي بخارى، ولد سنة: ٢٣١هـ، ومات سنة: ٣٢٠هـ، اللباب: ٢٠٢/٢.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم: ٤٩٣٨. وصحيح مسلم، حديث رقم: ١٨٦٢.

(٥) نفاحها: ريحها وحرها.

(٦) كذا بالأصل. والبيت لابن زريق البغدادي ونصه:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقًّا ولكن ليس يسمعه

والقصيدة بتمامها وردت في كتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي: ١١٨/١، ط عيسى الحلبي.

أشرف راهبٌ من الرهبان من صومعته فإذا رجل جالس فقال: يا هذا ما جلوسك هاهنا؟ فقال له: اسكت يا فارغ القلب ودع التشاغل بغيره فإنه منك قريب، فصرخ الراهب وخرَّ مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال: سيدي لك العُتبى لا أعود فيما يقطعني عنك، فصمت عن الكلام حتى مات.

كم غرَّ الغرور غِرًّا، أمدَّ له أطْناب الطمع على أوتاد الهوى، وسامره في خيمة المُنى يملي عليه أمالي الآمال، وما أجال فيما جال سهو ذكْر الآجال، ثم وجّه إلى جهة الجهل والغفلة، فسلّما إليه منشور التسويف، فلما ضُرب بُوق الرحلة وقرِّبتْ نوق النَّقْلة سلّ ما سلما إليه، فأُلقي كاللُّقَى على باب الندم.

إلامَ أمني النفس ما لا تناله ... وأذكر عيشًا لم يعُدْ مذ تَصَرَّمَا
وقد قالت السّتون للّهو والصبا ... دعا لي أسيري واذهبا حيث شئتما

أخبرنا محمد بن عبد الملك، أنبأنا أحمد بن الحسين الشاهد، حدثني عبد العزيز ابن علي، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الحافظ، أخبرنا إبراهيم بن نصر، حدثني إبراهيم بن بشار قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول لرجل رآه يضحك: لا تطْمعن في بقائك وأنت تعلم أن مصيرك إلى الموت، فلِمَ يضحك من يموت ولا يدري أين مصيره: إلى الجنة أم إلى النار، ولا يدري أي وقت يكون الموت: صباحًا أو مساء، بليل أو نهار، ثم قال: أوه وسقط مغشيًّا عليه.

سجع على قوله: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٣٧ ﴾:

لو رأيتَ أرباب القلوب والأسرار، وقد أخذوا أُهبة التعبد في الأسحار، وقاموا في مقام الخوف على قدم الاعتذار، ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾.

عقدوا عزم الصيام وما جاء النهار، وسجنوا الألسنة فليس فيهم مِهْذار، وغضوا أبصارهم ولازمٌ غضُّ الأبصار، فانظر مدحهم إلى أين انتهى وصار، أحزانهم أحزان ثكْلى ما لها اصطبار، ودموعهم لولا التحري لقلت كالأنهار، ووجوههم من الخوف قد علاها الصُّفار، والقلق قد أحاط بهم ودار، ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾.

جدُّوا في انطلاقهم إلى خلّاقهم، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم، فإذا بهم قد أذابهم كرْبُ اشتياقهم، أتدري ما الذي حبسك عن لحاقهم: حبُّ الدرهم والدينار.

أيقظنا اللَّه وإياكم من هذه السِّنَة، ورزقنا اتباع النفوس المحسِنة، وآتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقانا عذاب النار.

المجلس التاسع

في ذكر إسحاق وقصة الذبح

الحمد للَّه الذي أنشأ وبرا، وخلق الماء والثّرى، وأبدع كل شيء ذرا، لا يغيب عن بصره دبيبُ النمل في الليل إذا سرى، ولا يَعْزب عن علمه ما عنّ وما طرا، اصطفى آدم ثم عفا عما جرى، وابتعث نوحًا فبنى الفلك وسرى، ونجّى الخليل من النار فصار حرُّها ثرى، ثم ابتلاه بذبح الولد فأدهشَ بصبره الورى ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾[1].

أحمده ما قُطع نهارٌ بسير وليلٌ بِسُرى، وأصلي على رسوله محمد المبعوث في أم القرى، وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار بلا مرا، وعلى عمر المحدِّث عن سره فهو بنور اللَّه يرى، وعلى عثمان زوج ابنته ما كان حديثًا يُفترى، وعلى عليٍّ بحر العلوم وأسد الشّرى، وعلى عمه العباس الرفيع القدْر الشامخ الذُّرى.

* * *

قال اللَّه:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾[2]

المراد بالسعي: مشيه معه وتصرُّفه، وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة، وهذا الزمان أحبُّ ما يكون الولد إلى والده؛ لأنه وقتٌ يستغني فيه عن مشقة الحضانة والتربية، ولم يبلغ به وقت الأذى والعقوق، فكانت البلوى أشد.

وللعلماء في الذبيح قولان:

أحدهما: أنه إسماعيل، قاله ابن عمر وعبد اللَّه بن سلام، والحسن البصري وسعيد ابن المسيب والشعبي ومجاهد ويوسف بن مهران والقُرظي، في آخرين.

والثاني: أنه إسحاق.

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه، وأحمد بن الحسين وعبد الرحمن بن محمد، قالوا: أنبأنا عبد الصمد المأمون، أنبأنا علي بن عمر الحرْبي، حدثنا أحمد بن كعب، حدثنا عبد اللَّه ابن عبد المؤمن، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن،

(١ ، ٢) سورة الصافات: ١٠٢.

عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ قال: « الذبيح إسحاق ».

وهذا قول عمر وعلي والعباس وابن مسعود وأبي موسى وأبي هريرة وأنس وكعب ووهب ومسروق، في خلق كثير، وهو الصحيح (١).

أخبرنا الحسين، أنبأنا أبو طالب بن غيلان، أنبأنا أبو بكر الشافعي، حدثنا الهيثم ابن خلف، حدثنا أبو كريت، حدثنا زيد بن الحُباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد ابن جدعان، عن الحسن (٢)، عن الأحنف بن قيس، عن العباس قال: قال رسول الله ﷺ: « سأل داود عليه السلام ربه فقال: إلهي أسمع الناسَ يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فاجعلني رابعًا، فقال (٣): لستَ هناك، إن إبراهيم لم يعدل بي شيئًا إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب في طول ما كان لم ييأس من يوسف ».

وأما سبب أمره بذبحه: فروى السُّدِّي عن أشياخه، أن جبريل لما بشر سارة بإسحاق قالت: ما آية ذلك؟ قال: فأخذ عودًا يابسًا في يده فلواه بين أصابعه فاهتزّ خضرًا (٤)، فقال إبراهيم: هو (٥) لله إذًا ذبيح، فلما كبر إسحاق أُتي إبراهيمُ في النوم فقيل له: أوْفِ بنذْرك، فقال لإسحاق: انطلق نقرب قربانًا إلى الله، وأخذ سكينًا وحبلًا، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب بين الجبال فقال له الغلام: يا أبت أين قُربانك؟ قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ فقال إسحاق: اشدد رباطي كي لا أضطرب (٦)، واكفف ثيابك لا ينتضح عليها من دمي فتراه سارة فتحزن، وأسْرع مرَّ السكين على حلقي ليكون أهونَ للموت عليَّ، وإذا أتيت سارة فاقرأ عليها السلام مني.

فأقبل عليه إبراهيم يقبله ويبكي، وربطه وجرَّ السكين على حلقه فلم تذبح (٧) السكين، وقال غيره: انقلبتْ فنودي: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ فإذا

---

(١) هذا الذي ذهب إليه ابن الجوزي من أن الصحيح أن الذبيح هو إسحاق: غير صحيح، قال ابن كثير: « الظاهر من القرآن أن الذبيح هو إسماعيل، بل كأنه نص عليه؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ومن جعله حالا فقد تكلف، ومستند أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف ولا سيما هاهنا قطعًا لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة من المعربة: بكره إسحاق، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل، وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله زادوا فيه، وهم قوم بهت، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » وانظر قصص الأنبياء لابن كثير بتحقيقي : ١/٢١٤ - ٢١٧ وتفسير ابن كثير أيضًا.

(٢) أ: ابن الحصين. (٣) أ: قال. (٤) أ: أخضر.

(٥) أ: فهو. (٦) أ: كي لا أضرب: محرفة. (٧) أ: فلم تحك.

بكبش فأخذه وخلى عن ابنه وأكبَّ عليه يقبله [١] ويقول: يا بني اليوم وُهبت لي. ورجع إلى سارة فأخبرها الخبر فقالت: أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني؟!

قال شُعيب الجبائي: لما علمتْ بذلك ماتت في اليوم الثالث.

وإنما قال: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي ما عندك من الرأي، ولم يقل ذلك على وجه المؤامرة في أمر اللَّه سبحانه ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي ما أمرت.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا... ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي استسلما لأمر اللَّه سبحانه ورضيا [٢]، **وفي جواب هذا قولان:**

أحدهما: أن جوابه ﴿ وَنَادَيْنَاهُ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ والواو زائدة، قاله الفراء.

والثاني: أنه محذوف تقديره سَعِد [٣] وأثيب.

قوله تعالى: ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ قال ابن قتيبة: صرعه على جبينه، فصار أحد جبينيه [٤] على الأرض وهما جبينان والجبهة بينها.

﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ قال المفسرون: نودي من الجبل: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ **وفيه قولان:**

أحدهما: قد عملت بما أُمرت به، وذلك أنه قصد الذبح بما أمكنه، فطاوعه الابن بالتمكين [٥] من الذبح، إلا أن اللَّه صرف ذلك كما شاء، فصار كأنه ذبح، وإن لم يقع الذبح.

والثاني: أنه رأى في المنام معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم، فلما فعل في اليقظة ما رأى في المنام قيل له: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا... ﴿١٠٥﴾ ﴾ وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء وأبو عمران والجحدري « قد صدقت الرؤيا » بتخفيف الدال.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ أي كما ذكرنا من العفو عن ذبح ولده، كذلك ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ **وفيه قولان: أحدهما:** النعمة البينة وهو العفو عن الذبح، **والثاني:** الاختبار العظيم، وهو امتحانه بالذبح.

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ وهو بكسر الذال اسم ما ذُبح وبفتحها مصدر ذبحت، والمعنى: خلصناه من الذبح بأن جعلنا الذبح فداءً له، **وفي هذا الذِّبح ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه كان كبشًا أقْرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عامًا، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، و [قال] [٦] في رواية سعيد بن جبير: هو الكبش الذي قرَّبه ابنُ آدم فتقبِّل منه، كان في الجنة حتى فُدي به.

---

(١) أ: بقلبه. محرفة. (٢) أ: ورضينا. محرفة. (٣) ب: أسعد.
(٤) أ: أحد جنبيه. (٥) ب: وطاوعه الابن من التمكين. (٦) ليست في أ.

والثاني: أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعْينين أقْرنَين، رواه الطفيل عن ابن عباس.

والثالث: أنه كان ذكرًا من الأرْوَى [١] أهبط عليه من ثبير [٢] قاله الحسن.

- **وفي قوله:** ﴿ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ **قولان:**

أحدهما: أنه قد رعى في الجنة، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه مُتقبل، قاله مجاهد، قال وهب بن منبه: كان ذلك بإيلياء من أرض الشام.

* * *

سبحان المفاوت بين الخلق! يقال للخليل: اذبح ولدك، فيأخذ المُدية، ويُضجعه للذبح، ويقال لقوم موسى: ﴿ اذبحوا بقرة ﴾ فذبحوها وما كادوا يفعلون!

ويخْرج أبو بكر من جميع ماله، ويبخل ثعلبةُ بالزكاة، ويجود حاتم بقُوته، ويبخل بضوْء ناره الحُباحِب [٣].

وكذلك فاوت بين الفهوم فسحبانُ أنطق متكلم، وباقِل أقبح مِنْ أخْرس، وفاوت بين الأماكن فزرود [٤] تشكو العطش والبطائح [٥] تصيح: الغرق.

* * *

قال علماء السير: لم يمت إبراهيمُ حتى نبِّئ إسحاق وبعث إلى أرض الشام، وكان إبراهيم قد زوج إسحاقَ أروقة بنت بتاويل [٦]، فولدت له الرومَ، فكل بني الأصفر من ولده، وكثر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام وصاروا إلى البحر والسواحل وصار [٧] الملوك من ولده وهم اليونانية.

وأما يعقوب فتزوج ليا فولدت أكثر أولاده، ثم تزوج راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، وعاش إسحاق مائة وستين سنة، وتوفي بفلسطين ودفن عند أبيه إبراهيم.

* * *

إخواني: تأملوا عواقبَ الصبر، وتخايلوا في البلاء نور [٨] الأجر، فمن تصور زوال

---

(١) الأروى: الوعول.
(٢) ثبير: جبل بظاهر مكة.
(٣) أ: وبخل الحاجب بضوء ناره. محرفة. وفي القاموس: كان أبو حباحب من محارب، وكان لا يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا ترى.
(٤) زرود: موضع.
(٥) البطائح: مسايل الماء مفردها بطيحة.
(٦) أ: بنت تناويل.
(٧) أ: فصار.
(٨) في أ، ب: وتخايلوا في البلاء وفور الأجر، وما أثبته من تذكرة الأيقاظ وهو مختصر التبصرة. ورقة: ٣٧ ب.. ونرمز له بالحرف: « ت ».

المِحَنِ وبقاء الثناء هان الابتلاء عليه، ومن تفكر في زوال اللذات وبقاء العار هانَ تركها عنده، وما يلاحظ العواقبَ إلا بصرٌ ثاقب.

* * *

الكلام على البسملة

فرَاك [١] من الأيام نابٌ ومخلب ... وخانك لونُ الرأسِ والرأس أشيبُ
فحتام لا تنفكُّ جامحَ همّةٍ [٢] ... بعيدَ مرامي [٣] النفس والموتُ أقربُ
تُسرُّ بعيشٍ أنت فيه مُنغصٌ ... وتستعذبُ الدنيا وأنتَ مُعذّبُ
تُغذيك والأوقاتُ جِسمك تغتذي [٤] ... وتسقيك والساعاتُ روحَك [٥] تشربُ
وتعجبُ من آفاتها متلفتًا ... إليها، لعمر [٦] اللَّه فعلك أعجبُ
وتحسبها بالبِشر تُبطن [٧] خُلةً ... فيظهر منها غيرُ ما تتحسّبُ
إذا رضيتْ أعمتك عن طرق الهُدى ... فما ظنُّ ذي لُبٍّ بها حين تغضبُ
وفي سلبها ثوبَ الشبابِ دلالة ... على أنها تعطي خداعًا وتسْلبُ
أترضى بأن ينهاك شيبُك والحجا ... وأنتَ مع الأيام تلهو وتلعبُ
أجِدّك [٨] لا تسمع لدنياك موعدًا ... ولا تترجّ الريّ والبرقُ خُلّبُ [٩]
ودونك درْياقُ الترجّي من الورى ... فكلٌّ على التجريبِ صلٌّ وعقربُ [١٠]

* * *

إخواني: الأيام لكم مطايا [١١]، فأين العدة قبلَ المنايا؟ أين الأنفة من دار الأذايا؟ أين [١٢] العزائم أترضون الدنايا؟ إن بلية الهوى لا تُشبه البلايا، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا، وسرية الموت لا تشبه السرايا، وقضية الأيام [١٣] لا كالقضايا، راعي السلامة يقتل [١٤] الرعايا [رامي التلف يُصمي الرمايا] [١٥] ملك الموت لا يقبل الهدايا، يا مستورين

(١) في ت: قراك. (٢) ب: جامع همه. (٣) ب: بعيد مرام.
(٤) أ: والآفات نحوك تغتدي. (٥) أ: جسمك.
(٦) أ: فعمر اللَّه. وفي ت: نعم واللَّه. (٧) أ: تنتظر. (٨) ب: أحدثك.
(٩) الخلب: الذي لا ماء فيه.. (١٠) الصل: الحية. (١١) أ: كالمطايا.
(١٢) أ: أهل العزائم لا يرضون الدنايا. (١٣) ب: وقضية الموت. وفي ت: قضية الزمان.
(١٤) أ، ب: بمقتل، وهو خطأ صوابه من ت. (١٥) سقطت من ب.

ستظهر الخبايا [١].

استغفروا [اللَّه] [٢] خجلًا من العثرات، ثم اسكبوا حزنًا لها العبرات، عجبًا لمؤثر الفانية على الباقية، ولبائع البحر الخضم بساقية، ولمختار دار الكدَر على الصافية، ولمقدِّم حبِّ الأمراض على العافية، أيها المستوطن بيتَ غروره تأهّبْ لإزعاجك، أيها المسرور بقصوره تهيأ لإخراجك، خذ عُدتك وقم في قضاء حاجتك [٣] قبل فراق أولادك وأزواجك، ما الدنيا دار مقامك، بل حلبة إدلاجك [٤]:

أيـهـا الـنـاكـبُ عن نهج الهدى وهـو بـادٍ واضـحٌ لـلـسـالـكـيـنْ
إلْـهَ عـن ذِكـر الـتـصـابـي إنـه سـرَفٌ بـعـد بـلـوغ الأربـعـيـنْ
واجـعـل الـتـقـوى معاذًا تـحتمي بـحِـمَـاه إنـه حـصـن حـصـيـنْ
واسـأل اللَّـه تـعـالـى عـفـوه واسـتـعـنـه إنـه خـيـر مُـعـيـنْ

أتأمن بطشَ ذي البطش، وتُبارزه عالمًا برؤيته ولم تخش، يا من إذا وزن طفف وإذا باع غشّ، أنسيتَ النزول في بيداء الدبيب والوحش؟! أنسيتَ الحلول في لحدٍ خشن الفرْش؟! يا مغترًّا بزخرف الهوى قد ألهاه النقش، إذا جنيت على نفسك فعلى مَن الأرْش [٥]، يا من إذا جاء الفرض التوى وإذا حان اللَّهو هشّ، يا من لا يصبر للقضاء ولو على خدْش، كن مستيقظًا فإنك بعين ذي العرش:

تـعـلّـلُ بـالآمـال والموتُ أسرعُ وتـغـتـر بـالأيـام والـوعـظُ أنـفـعُ
وما المرء إمَّا [٦] لم يمتْ فهو ذائقٌ فراقَ الأخلاء الذي هو أوجعُ
فودِّع خليلَ النفس قبل فراقه فما الناسُ إلا ظاعنٌ أو مودِّع

يا حزينًا على فراق موتاه، كئيبًا لمطلوبٍ ما واتاه، كأنه بالموت قد أتاه، فألحقه ما أباه [٧] أباه، ووافاه ما أطبق [فاه] [٨] فما فاه:

يـا كـثـيـر الـحـرص مـشـغـو لًا بـدُنـيـا لـيـس تـبـقـى
مـا رأيـنـا الـحـرْص أدْنـى مـن حـريـص قـطّ رزقـا
لا ولـكـنْ فـي قـضـاء الـلـ ـه أن نَـغْـنَـى ونـشـقـى
قـد رأيـنـا الـمـوت أفـنـى قـبـلـنـا خـلـقًـا فـخـلـقـا

---

(١) ب: الخطايا. (٢) من: أ. (٣) أ: حاجاتك.
(٤) أ: بل حيلة لإدراجك. (٥) الأرش: الدية. (٦) أ، ت: إما إن يمت.
(٧) أ: فألحقه بأمه وأباه. وفي ت: فألحقه بما أباه أباه. (٨) من: ت.

درجـــوا قـــرنًا فـــقـــرنًا　　　وبقى من ليس يبقى

قدم على محمد بن واسع ابنُ عم له فقال له: من أين أقبلتَ؟ فقال: من طلب الدنيا، فقال: هل أدركتها؟ قال: لا، قال: وا عجبًا! أنت تطلب شيئًا لم تدركه، فكيف تدرك شيئًا لم تطلبه!

يا هذا عليك بالجد والاجتهاد، وخل [هذا] (١) الكسلَ والرقاد، فطريقك لا بد لها من زاد.

انـهـض إلى الـمـعالـي　　　واقـبـل (٢) ولا تُـبـالـي
وخُـذ مـن الـزمـان　　　حـظًّا فـأنـت فـانـي
الـهـمَـمُ الـعـلـيـة　　　والـمـهـجُ الأبـيـة
تـقـرِّبُ الـمـنـيـة　　　مـنـكَ أو الأمـنـيّـة
الـمـجـد بـالـمخـاطـرة　　　والـنـصـرُ بـالـمـصـابـرة
كـم راحـةٍ فـي الـعُـزلـة　　　وعـمـلٍ فـي الـعـطـلـة
لـيـس يـدومُ حـالُ　　　شـحـمُ الـمـنـى هُـزالُ
مـا للورى فـي غـفـلـة　　　قـد خُـدعـوا بـالـمـهـلـة
ألا لـبـيـبٌ يـعـقـلُ　　　ألا جـهـولٌ يـسـألُ
أأنـتـمُ فـي ريـبـة　　　لـحـسـنـهـا (٣) والـطـيـبـة
لـكـنـهـا غـدارة　　　خـدَّاعـة غـرّارة
لـيـس لـهـا حـبـيـبُ　　　زوالـهـا قـريـبُ
كـالـمـومـس الـبـغـيِّ　　　تـلـبـس كـلَّ زي
خـلـوبـة (٤) خـوّانـة　　　لـيـس لـهـا أمـانـة
عـزيـزُهـا ذلـيـلُ　　　كـثـيـرهـا قـلـيـلُ
تـفـرِّق الأحـبـابـا　　　تـشـتـت الأتـرابـا (٥)
حـربٌ لـمَـنْ سـالَـمـهـا　　　تـمـلُّ مـنْ لازمـهـا
لـقـاؤهـا فـراقٌ　　　وعُـرسـهـا طـلاقُ

---

(١) سقطت من: ب.　(٢) أ: واطلب.　(٣) أ: بحسنها.
(٤) أ: ملومة.　(٥) أ: الأصحابا.

وِصَالُهَا صدودُ ووعْدُها وعيدُ
وصالُها عنَا صُدودها بَلا
عقودها منقوضة عهودها مرْفوضة
شرابُها سرابُ نعيمها عذابُ
إنْ أقبلتْ ففتنة أو أدبرتْ فمحنة
أخلاقها مذمومة لذَّاتها مسمومة
يحظى بها الجُهالُ وينعم الأنذالُ
يشقى بها اللبيبُ ويتعب الأريبُ
فخلِّ عنها يا فتى إلى متى إلى متى!

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (١)

في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن أهل الأديان اختصموا، فقال أهلُ التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل: مثل ذلك، وقال المسلمون: كتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم الأنبياء، فنزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: أن العرب قالت: لا نُبعث ولا نحاسب ولا نعذَّب، فنزلت، قاله مجاهد.

والثالث: أن اليهود والنصارى قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: لا نُبعث. فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة.

وقال الزجاج: اسم ليس مضمر، والمعنى: ليس ثوابُ اللّه بأمانيكم. وقد جاء ما يدل على الثواب وهو قوله تعالى: ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ... ﴿١٢٢﴾ ﴾.

والسُّوء: المعاصي، والجزاء واقع بالعاصي.

أخبرنا ابن الحصين قال: أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أبو بكر بن جعفر، حدثنا عبد اللّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا ابن أبي خالد، عن أبي بكر بن زهير الثقفي قال: لما نزلت: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ... ﴿١٢٣﴾ ﴾

---

(١) سورة النساء: ١٢٣.

قال أبو بكر: يا رسول اللَّه إنا لنجازَى بكل سوء نعمله؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « يرحمك اللَّه ألست تَنْصب؟ ألست تحزن؟ أليس تصيبك اللَّأْوَاء [1]؟ فهذا ما تجزون به » [2].

وأخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول اللَّه ﷺ: « قاربوا وسدِّدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة يُنكبها والشوكة يُشاكها » [3]، واعلم أن المؤمن إذا جُوزي بذنب عجِّل له جزاؤه في الدنيا.

أخبرنا محمد بن عبد اللَّه بن نصر، أنبأنا طرَّاد، أخبرنا علي بن عبد اللَّه بن إبراهيم الهاشمي، أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا أحمد بن ملاعب، حدثنا عفان، عن حماد ابن سلمة، حدثنا يونس، عن الحسن، عن عبد اللَّه بن مغفل، أن رجلًا أتى امرأة كانت في الجاهلية بغيًّا فجعل يلاعبها حتى بسط يده إليها، فقالت المرأة: مه إن اللَّه تعالى ذهب بالشرك وجاء بالإسلام، فولى الرجل فأصاب وجهه جدار فأدماه، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: « أنت عبدٌ أراد اللَّه بك خيرًا، إن اللَّه إذا أراد بعبد خيرًا عجل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبدٍ شرًّا أمسك عنه حتى يوافي به يوم القيامة كأنه بعير » [4].

واعلم أن من تفكر في ذنبه وجدَ الزمانَ الذي عصى فيه قد خلا عن طاعة وامتلأ بخطيئة، ثم يحتاج إلى زمان يتشاغل فيه بالتوبة، ثم يتأسف على ما سبق، ويكفي هذا.

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « قال ربكم ﷻ: لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطرَ بالليل وأطلعتُ عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوتَ الرعد » [5].

أنبأنا أحمد بن علي المحلّي، أنبأنا أبو بكر الخطيب، أنبأنا الحسين بن بشران، أنبأنا أبو علي البردعي، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثنا الزبير بن أبي بكر، حدثني أبو ضمرة، عن نافع بن عبد اللَّه، عن فروة بن قيس، عن عطاء، عن ابن عمر ﵄، عن النبي ﷺ قال: « ما ظهرت الفاحشةُ في قومٍ حتى أعلنوها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقصوا المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجوْر السلطان، وما منع قومٌ زكاةَ أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا،

---

(١) أ: الألواء. واللأواء: الشدة والبأس.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ١١/١، وهو حديث حسن.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٥٧٤.

(٤) روى نحوه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب رقم : ٥٧.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده : ٣٥٩/٢. والحاكم : ٢٥٦/٤. وهو ضعيف.

ولا خفر قوم العهدَ إلا سلَّط عليهم عدوهم من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم [١].

قال القرشي: وحدثني إبراهيم بن سعيد، قال: حدثنا إبراهيم بن مهدي، قال: حدثنا أبو حفص الأبَّار، عن أشعث بن سوار، عن كردوس التغلبي، قال: حدثني رجل من أهل المسجد مسجد الكوفة، وكان أبوه ممن شهد بدرًا، قال: مررت على قرية تتزلزل فوقفتُ قريبًا أنظر، فخرج عليّ رجل فقلت: ما وراءك؟ فقال: تركتها تتزلزل وإن الحائطين [٢] ليصطكان ويُرمى بعضهما ببعض [٣]، فقلت: وما كانوا يعملون؟ قال: كانوا يأكلون الربا.

وقال رجل للحسن: أعياني قيامُ الليل؟ قال: قيدتْك خطاياك.

أنبأنا محمد بن أبي منصور، عن عبد القادر بن محمد الجوهري، أنبأنا أبو الفضل الزهري، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن الذهبي، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا أحمد ابن المثنى، حدثنا عبد القدوس الحواري، عن هشام قال: اغتمّ ابن سيرين مرة فقيل له: يا أبا بكر ما هذا الغم؟ قال: هذا بذنب أصبتُه منذ أربعين سنة.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، قال: حدثنا أبو سعيد بن أبي صادق، قال: أنبأنا أبو عبد اللَّه الشيرازي قال: سمعت محمد بن فارس يقول: أنبأنا علي بن قَرين قال: سمعت الجنيد يقول: من همّ بذنب لم يعمله عوقب بذنب لم [٤] يعرفه.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، أنبأنا أبو الغنائم الدجاجي، أنبأنا علي بن معروف، حدثنا محمد بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن سعد الجوهري، حدثنا هاشم بن القاسم، عن صالح المرِّي، عن أبي عمران الجوني قال: مكتوبٌ في الإنجيل: تعملون الخطايا وتُنكرون العقوبة.

* * *

يا من معاصيه جَمَّة مشهورة، ونفسه بما يجني عليها مسرورة، أفي العين كَمهٌ أم عشًى، أإليك الأمر كما تشا، أعلى القلب حجابٌ أم غِشَا، يا كثير المعاصي قعد أو مشى، عظمت ذنوبك فمتى تقضِي، يا مقيمًا وهو في المعنى يمضي، أفنيتَ الزمانَ في الخطايا ضياعًا، وساكنتَ غرورًا من الأمل وأطماعًا، وصرت في تحصيل الدنيا مُحترفًا صَنَاعًا، تصبح جامعًا وتُمسي منّاعًا، فتش على قلبك ولُبّك قد ضاعا، تفكر في عمرك مضى نهبًا مشاعًا، لا في الشباب أصلحت ولا في الكهولة أفلحت، كم حملت أزرك وزْرًا ثقيلًا، واجترحت يا بُعد صلاح ما جرحت، يا سيِّئ السريرة كم عليك جريرة،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب رقم: ٢٢.

(٢) أ: وإن الحيطان. (٣) أ: بعضها على بعض. (٤) ب: لا يعرفه.

ويحك أتنسى الحفيرة، أم هي عندك حقيرة، أيام عمرك قصيرة وتضيعها على بصيرة، لقد قطع الأجلُ مسيره، ولكن على أقبح سيرة، ذنوبك جمة كثيرة، وعينك بها قريرة، ما تُظلم بها مقدار شعيرة.

قال محمد بن كعب القُرظي: إنما الدنيا سوقٌ خرج الناس منها بما يضرهم وبما ينفعهم، وكم اغترَّ ناسٌ فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فيحق لنا أن ننظر إلى ما نغبطهم به من الأعمال فنعملها وإلى ما نتخوف فنجتنبها.

وقال يحيى بن معاذ: المغبون من عطَّل أيامَه بالبطالات، وسلّط جوارحه على الهلكات، ومات قبل إفاقته من الجنايات.

بدَتْ دهْياء تُنذر بالخطوب ... نلاحظها بأبصار القلوبِ

وقد دلَّ المجيء على ذهاب ... كما دلَّ الطلوعُ على الغروب

ولكن القلوبَ محجَّباتٌ ... وسُوء حجابها كسْب الذنوبِ [(١)]

يا هذا: الطالب حثيث فبادر، والفضائل معرّضة فثابر، اترك الهوى محمودًا، قبل أن يتركك مذمومًا، إنْ فاتتك قصباتُ السّبق في الولاية، فلا تفوتنك ساعاتُ الندم في الإنابة، آه للسانٍ نطق بإثم كيف غفل عن قوله تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [(٢)] آه لقدمٍ سعت في الآثام كيف لم تتدبر: ﴿ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ﴾ [(٣)] آه لجسدٍ رَبَا على الرِّبا، أما سمع منادي التحذير على رُبى: ﴿ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [(٤)] آه لذي فمٍ فغره لتفريغ كأسِ الخمر، أما بلغه زجْر: ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ [(٥)].

قد كان عُمرك مِيلًا ... فأصبحَ [(٦)] الميلُ شبرا

وأصبح الشِّبر عقدًا ... فاحفر لنفسك قبرا

يا من راح في المعاصي وغدا، ويقول: سأتوب اليومَ أو غدًا، كيف تَجْمع قلبًا قد صار في الهوى مبدَّدًا؟! كيف تُلينه وقد أمسى بالجهل جلمدًا؟! كيف تحثه وقد راح بالشهوات مقيدًا؟! لقد ضاع قلبك فاطلب له ناشدًا، تفكر بأي وجهٍ تتلقى الردى، تذكر ليلةَ تبيت في القبر منفردًا.

أيها المشغوف بالدنـ ... ـيا صُبوًّا وغراما

أبدًا هي أبدًا تُبْـ ... ـطِن في الشهدِ سِماما [(٧)]

---

(١) أ: وشر حجابها عمل الذنوب. (٢ ، ٣) سورة يس: ٦٥. (٤) سورة الروم: ٣٩.

(٥) سورة المائدة: ٩٠. (٦) أ: قد أصبح الميل شبرًا.

(٧) كذا في ب. وفي أ: هي أم تبطن في الشهد سمامًا، والسمام: جمع سم.

تُخضع الراضعَ [١] بالدّر ... رِ وتُنسيه الفِطاما
فإذا هُزَّ بوعظٍ ... صمَّ عنه وتعامى
فهو كالشاكي الذي يزْ ... داد بالطبِّ سقاما
وكمِثل الطفل في المهد ... إذا حُرّك ناما

سجع على قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾:

يا معرضًا عن الهدى لا يسعى في طلبه، يا مشغولًا بلهوه مفتونًا بلعبه، يا من قد صاح به الموتُ عند أخْذ صاحبه: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

جُزْ على قبر الصديق، وتلمّح آثار الرفيق، يخبرك عن حسنه الأنيق، أنه استُلب بكفِّ التمزيق، هذا لحدُه وأنت غدًا به [٢] ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

كم نُهيَ عن الخطايا وما انتهى، وكم زجرتْه الدنيا وهو يسعى لها، هذا ركنه القويم قد وهَى، وها أنت في سَلبِه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

أين من عتا وظلم، ولقي الناسُ منه الألم، اقتطعه الردَى اقتطاعَ الجلَم [٣]، فما نفعه ما جمعه، لا واللَّه ولم يدفع عنه عزُّ منصبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

بات في لحده أسيرًا، لا يملك من الدنيا نقيرًا، بل عاد بوزْر ذنبه عقيرًا [٤] وأصبح من ماله فقيرًا على عزّ نسبه وكثرة نشبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

اللذات تفنى عن قليل وتمُر، وآخر الهوى [٥] الحلو مُر، وليس في الدنيا شيء يسر إلا يغر ويُضر، ثم يخلو ذو الزلل بمكتسَبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة، والحساب يأتي على الذَّرَّة، وخاتمة كأس اللذات مرة، والأمر جليٌّ للفهوم ما يشتبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

تقوم في حشْرك ذليلًا، وتبكي على الذنوب طويلًا، وتحمل على ظهرك [٦] وزرًا ثقيلًا، والويلُ للعاصي من قبيح مُنقلبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾.

---

(١) ب: تخضع الواضع بالذر. وهو تحريف صوابه من أ.

(٢) أ: وغدًا تبيت به.

(٣) الجلم: المقراض الذي يجز به، قال سالم بن وابصة:

داويتُ صدرًا طويلًا غِمره حقدًا ... منه وقلّمْتُ أظفارًا بلا جَلَم

اللسان مادة (جلم).

(٤) أ: بل عاد بالخيبة عقيرًا.

(٥) أ: وآخر الدنيا.

(٦) ب: على أزرك.

يُجمع الناس كلهم في صعيد، وينقسمون إلى شقي وسعيد، فقومٌ قد حلَّ بهم الوعيد، وقومٌ قيامتهم نزهةٌ وعيد، وكل عامل يغترف من مشْربه (١) ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾.

إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقى غدًا غِبَّ أفعالك وقد قصدنا إصلاح حالك، فإن كنت متيقظًا فاعمل لذلك وإن كنت نائمًا فانتبه ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾.

* * *

* *

*

---

(١) ب: من شربه.

المجلس العاشر

في قصة لوط عليه السلام

الحمد للَّه الذي أحكم الأشياء كلَّها صُنعًا، وتصرّف كما شاء إعطاءً ومنعًا، أنشأ الآدميَّ من قطرة فإذا هو يسعى، وخلق له عينين ليبصر المَسْعَى، ووالى لديه النعم وتْرًا وشفعًا، وضمَّ إليه زوجةً تدبر أمرَ البيت وترعى، وأباحه محلَّ الحرْث وقد فهم مقصود المرعى، فتعدَّى قومٌ إلى الفاحشة الشنْعا، وعدُّوا ستًّا سبعًا، فرُجموا بالحجارة فلو رأيتهم صرعى ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [1].

أحمده ما أرسل سحابًا وأنبت زرعًا، وأصلي على رسوله محمد أفضل نبي علَّم أمته شرعًا، وعلى أبي بكر الذي كانت نفقته للإسلام نفعًا، وعلى عمر ضيف الإسلام بدعوة الرسول المستدعَى، وعلى عثمان الذي ارتكب منه الفُجار بدْعًا، وعلى عليّ الذي يحبه أهل السنة طبعًا، وعلى العباس أبي الخلفاء أئمة المسلمين قطعًا.

* * *

قال اللَّه عز وجل:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [2]

هو [3] لوط بن هاران بن تارخ، فهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد آمن به وهاجر معه إلى الشام بعد نجاته من النار، واختتن لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فنزل إبراهيم فلسطين ونزل لوطٌ الأردُنَّ.

فأرسل اللَّه تعالى لوطًا إلى أهل سَدُوم، وكانوا مع كفرهم باللَّه عز وجل يرتكبون الفاحشة، فدعاهم إلى عبادة اللَّه ونهاهم عن الفاحشة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا، فدعا اللَّه أن ينصره عليهم، فبعث اللَّه عز وجل جبريل وميكائيل وإسرافيل فأقبلوا مشاةً في صورة رجال شباب، فنزلوا على إبراهيم فقام يخدمهم، وقدم إليهم الطعام فلم يأكلوا، فقالوا: لا نأكل طعامًا إلا بثمنه، قال: فإن له ثمنًا، قالوا: ما هو؟ قال: تذكرون اسم اللَّه تعالى على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حُقَّ لهذا أن يتخذه اللَّه خليلًا.

فلما رأى امتناعهم خاف أن يكونوا لصوصًا، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ

(١، ٢) سورة هود: ٧٧.

(٣) أ: كان لوط.

لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ فضحكت سارةُ تعجُّبًا وقالت: نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا! فقال جبريل: أيتها الضاحكة أبشري بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وكانت بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة.

فلما سكن روعُ إبراهيم وعلم أنهم ملائكة أخذ يُناظرهم، فقال: أتهلكون قريةً فيها أربعمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: ثلاثمائة؟ قالوا: لا، قال: مائتان؟ قالوا: لا، قال: أربعون؟ قالوا: لا، قال: أربعة عشر؟ قالوا: لا، وكان يعدهم أربعة عشر مع امرأة لوط، فقال: إن فيها لوطًا، قالوا: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ (١)، فسكت واطمأنت نفسه، ثم خرجوا من عنده فجاءوا إلى لوط وهو في أرضٍ له يعمل، فقالوا: إنا متضيفون الليلة بك (٢) فانطلق بهم والتفت إليهم في بعض الطريق فقال: أما تعلمون ما يعمل أهلُ هذه القرية؟ واللَّه ما أعلم على ظهر (٣) الأرض أخبثَ منهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ... ﴿٧٧﴾ ﴾ أي: ساءه مجيء الرسل؛ لأنه لم يعرفهم وخاف عليهم من قومه، ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا... ﴿٧٧﴾ ﴾ قال الزجاج: يقال: ضاق بفلان أمرُه ذرعًا إذا لم يجد من المكروه مَخْلَصًا، وقال ابن الأنباري: ضاق بهم وُسعه (٤)، فناب الذرْع عن الوسع (٥) ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ يقال: هذا يومٌ عصيب [وعصبصبٌ] (٦) إذا كان شديدًا.

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ... ﴿٧٨﴾ ﴾ قال الكسائي والفراء: لا يكون الإهراع إلا إسراعًا مع رِعدة، قال ابن الأنباري: الإهراع فعل واقع بالقوم، وهو لهم (٧) في المعنى كما قالت العرب: قد أُولع الرجل بالأمر، فجعلوه مفعولًا وهو صاحب الفعل، ومثله: « أُرْعِد زيد » و « سُهِيَ عمرو » من السهو. كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدرًا تقديرَ المفعول، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره.

قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلُ... ﴿٧٨﴾ ﴾ أي: مجيء (٨) الأضياف ﴿ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... ﴿٧٨﴾ ﴾ فقال لوط: ﴿ بَنَاتِى... ﴿٧٨﴾ ﴾ يعني: النساء ولكونهن من أمته صار كالأب لهن ﴿ أَطْهَرُ لَكُمْ... ﴿٧٨﴾ ﴾ أي: أحلُّ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... ﴿٧٨﴾ ﴾ أي احذروا عقوبته

---

(١) سورة العنكبوت: ٣٢.
(٢) أ: إنا مضيفوك الليلة.
(٣) ب: على وجه الأرض.
(٤) كذا في ب. وفي أ: وسعة.
(٥) ب: فناب الذرع والذراع عن الوسع. ولعل فيها إقحامًا.
(٦) سقطت من ب.
(٧) أ: وهو أهم. محرفة.
(٨) أ: أي من مجيء.

﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ... ﴿٧٨﴾ ﴾ أي لا تفعلوا بهم فعلًا يوجب حيائي ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ... ﴿٧٩﴾ ﴾ أي من حاجة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي إنما نريد الرجال لا النساء.

قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً... ﴿٨٠﴾ ﴾ أي جماعة أقوى بهم عليكم ﴿ أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ أي إلى عشيرة منيعة؛إنما قال هذا لأنه كان قد أغلق بابه وهم يعالجون الباب ويرومون تسوّرَ الجدار.

فلما رأت الملائكةُ ما يلقى من الكرب ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ... ﴿٨١﴾ ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب ودخلوا، واستأذن جبريل ربه ﷻ في عقوبتهم فأذن [لهم] (١) فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم فانصرفوا يقولون النجاء النجاء إن في دار لوط أسحرَ قوم في الأرض، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح [يوعدونه] (٢) فقال لهم لوط: متى موعدُ هلاكهم؟ قالوا: الصبح قال: لو أهلكتموهم الآن؟ فقالوا: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

ثم قالت له الملائكة: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ... ﴿٨١﴾ ﴾ فخرج بامرأته وابنتيه وأهله وبقره وغنمه ﴿ مِّنَ ٱلَّيْلِ... ﴿٨١﴾ ﴾ أي ببقية تبقى من آخره.

وأوحى اللَّه تعالى إلى جبريل: تولَّ هلاكهم، فلما طلع الفجر (٣) غدا عليهم جبريل عليه السلام فاحتمل بلادهم على جناحه، وكانت خمس قرى أعظمها سدُوم، في (٤) كل قرية مائة ألف، فلم ينكسر في وقت رفعهم (٥) إناء، ثم صعد بهم (٦) حتى خرج الطير في الهواء لا يدري أين يذهب وسمعت الملائكةُ نباح كلابهم، ثم كفأها عليهم وسمعوا وجبة شديدة، فالتفتت امرأة لوط فرماها جبريل بحجر فقتلها، ثم صعد حتى أشرف على الأرض ثم جعل يتبع مُسافرهم ورُعاتهم ومن تحول عن القرية فرماهم بالحجارة حتى قتلهم، وكانت الحجارة من سجيل، قال أبو عبيدة: هو الشديد الصلب من الحجارة ﴿ مُّسَوَّمَةً... ﴿٨٣﴾ ﴾ أي معلمة، قال ابن عباس: كان الحجر أسود وفيه نقطة بيضاء، وقال الربيع: كان على كل حجر منها اسم صاحبه. وحُكِيَ عن من (٧) رآها قال: كانت مثل رءوس الإبل ومثل قبضة (٨) الرجل.

---

(١) ليست في أ. ولعلها: فأذن له. (٢) سقطت من ب.
(٣) أ: فلما طلع الصبح عدا عليهم. (٤) ب: وفي. (٥) ب: رفقهم.
(٦) ب: بها. (٧) ب: وحكى من رآها. (٨) أ: ومثل بيضة الرجل.

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ تخويف للمخالفين.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ملعونٌ من عَمِل عَمَل قوم لوط »[1].

وروى أنس عن النبي ﷺ قال: « من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله اللَّه إليهم حتى يحشره معهم »[2].

فلتُحذر مغبة الخطايا والذنوب فإنها بصاحبها إلى الغضب تؤوب، الحذرَ الحذرَ من علّام الغيوب.

* * *

الكلام على البسملة

يا عامرًا لخراب الدهر مجتهدًا ... تاللَّه ما لخراب الدهرِ عُمْرانُ
وكلُّ وُجْدان حظٍّ لا ثباتَ له ... فإن معناه في التحقيق فُقدانُ
صُنِ الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدرٌ والوصْلُ هجران[3]

يا هذا، الأيام ثلاثة: أمس قد مضى بما فيه، وغدًا لعلك لا تدركه، وإنما هو يومك هذا فاجتهد فيه، للَّه درّ من تنبه لنفسه وتزود لرَسمه، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه.

فيا جامعَ الدنيا لغير بلاغةٍ ... سَتَتْركها[4]، فانظر لمن أنت جامعُ
لو آن ذوي الأبصار يوعون كلَّ ما ... يرون لما جفَّتْ لعينٍ مدامعُ
ومن كانت الدنيا مُناه وهَمَّه ... سباه المنى واستعبدته المطامعُ

يا نائمًا في لهوه وما نام الحافظ، لاحظْ نور الهدى فلا حظّ إلا للملاحظ، وحافظْ على التقى فقد فاز المحافظ، وخذ حذرك فقد أنذرك العاتبان الغلائظ[5]، ولا تغتر ببرد العيش فزمانُ الحساب قائظ، وتذكَّر وقت الرحلة حمْل الثقيل الباهظ، ولا تلتفت إلى المادح فكم قد ضرَّ مدحٌ قارظ، وتيقظ للخلاص فما ينجو إلا متياقظ، يا مدبِّرًا أمر دنياه

(١) مسند أحمد، حديث رقم : ٢٩٠٩. وسنن الترمذي، حديث رقم : ١٤٥٦.
(٢) حديث ضعيف. ذكره السيوطي في الحاوي : ٢/١١٠.
(٣) الأبيات من قصيدة لأبي الفتح البستي. انظر حياة الحيوان للدميري : ٢١٨/١.
(٤) أ: ستدركها.
(٥) كذا في ب. وفي أ: الغايظ.

ونسي [١] أخراه فخفف النداء اللافظ [٢]، عجائب الدهر تُغني عن وعظ كل واعظ:

أللعُمر في الدنيا تجدُّ وتعمُر ... وأنت غدًا فيها تموتُ وتُقبرُ
تلقِّح آمالًا وترجو نتاجها ... وعمْرك مما قد ترجِّيه أقصرُ
وهذا صباحُ اليوم ينعاك ضوؤه ... وليلته تنعاك إن كنت تشعُرُ
تحوم على إدراك ما قد كُفيته ... وتُقبل بالآمال [٣] فيه وتُدبرُ
ورزقك [٤] لا يعدوك إما مُعجلٌ ... على حاله يومًا وإما مُؤخر
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلتْ ... عليك فما زالت تخُون وتغدرُ [٥]
فما تم فيها الصفو يومًا لأهله ... ولا الرفق [٦] إلا ريثما يتغيرُ
تذكر وفكِّر في الذي أنت صائرٌ ... إليه غدًا إن كنت ممن يفكرُ
فلا بد يومًا أن تصير لحفرة ... بأثنائها [٧] تُطوى إلى يوم تحشر

* * *

إخواني: تدبروا الأمور تدبر ناظر، وأصغُوا إلى ناصحكم والقلب حاضر، واحذروا غضب الحليم وهَتْك الساتر، وتأهّبوا للحِمَام فسيوفه بواتر، وهاجروا إلى دار الإنابة بهجْران الجرائر، وصابروا عدوكم مصابرة صابر، وتهيأوا للرحيل إلى عسكر المقابر، قبل أن يبُلّ وابلُ الدموع ثرى المحاجر، ويندم العاصي ويخسر الفاجر، ويتكاثف العرق وتقوى الهواجر، وتصعد القلوب إلى أعلى الحناجر، ويعز الأمنُ ويُعرض الناصر، ويفرح الكامل ويحزن القاصر، ويفوت اكتساب الفضائل وتحصيل المفاخر، فتأملوا عواقب مصيركم فاللبيب يرى الآخِر.

وقائلةٍ لو كنتَ تلتمسُ الغنى ... رشدْتَ وما أوصتْ بما كان راشدا
أبى الناسُ إلا حبَّ دنيا ذميمة ... تقضَّى ويأبى الموتُ إلا التزودا
فقلت: سلي عن ذي الثراء تُخبَّري ... وذي الملك بعد الملك ماذا توسَّدا
يمرُّون أرسالًا ونُضحي كأننا ... لما نالهم بالأمس لم نكُ شُهَّدا [٨]

---

(١) أ: مسيء أخراه. (٢) أ: باللافظ. (٣) أ: بالأيام.
(٤) ب: ووزرك. محرفة والتصويب من أ، ت.
(٥) أ: فما زالت تجيء وتدبر. (٦) أ، ت: ولا الرزق. وما أثبته من ب.
(٧) أ: بإتيانها. وت: بأنتائها. وما أثبته من ب.
(٨) الأصل: نشهدا. محرفة.

فهل ينفعنَّا ما نرى أو يرُوعنا   وهل نذْكرنَّ اليومَ منزلَنا غدا

* * *

أخبرنا يحيى بن علي، حدثنا القاضي أبو الحسين السِّمناني، حدثنا أبو الحسن ابن الصامت، حدثنا القاضي أبو عبد اللَّه المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا الجنيد بن أبي العلاء، عن محمد بن سعيد، عن إسماعيل بن عبيد اللَّه، عن أم الدرداء، عن علي الدَّقاق، عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « تفرَّغوا من الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى اللَّه ضَيْعته وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع اللَّه له أموره وجعل غناه في قلبه، وما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلى اللَّه عز وجل إلا جعل اللَّه قلوبَ المؤمنين تقبل إليه بالود والرحمة، وكان اللَّه عز وجل إليه بكل خير أسرع » (١).

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، أنبأنا رزق اللَّه، أنبأنا ابن شاذان، أنبأنا أبو جعفر بن يزيد، أنبأنا أبو بكر القرشي، أنبأنا يعقوب بن عبيد اللَّه، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان الثوري، عن زيد الشامي، عن مهاجر العامري، قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباعُ الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلتْ مُقبلةً ألا وإن الدنيا قد ولَّت مُدبرة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل.

يا صِحاح الأجسادِ كيف بَطلتُم   لا لعُذْر عن صالحِ الأعمال
لو علمتم أن البطالة تُجدي   حسرةً في معادكم والمآلِ
لتبادرتُم إلى ما يقيكم   من جحيمٍ في بَعْثكم ونَكالِ
إنما هذه الحياة غُرورٌ   أبدًا تُطمع الورى في المُحالِ
كيف يَهْنيكم القرارُ وأنتم   بعدَ تمهيدكم على الارتحال
الهُدى واضح فلا تعدلوا عنـ   ـه ولا تسلكوا سبيل الضلالِ
وأنيبوا قبلَ الممات وتُوبوا   تَسْلموا في غدٍ من الأهوال

* * *

(١) سنن ابن ماجه، حديث رقم: ٤١٠٥، وهو صحيح.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ... ﴾ (١)

اعلموا أن إطلاق البصر سبب لأعظم الفتن، وهذا القرآن يأمرك باستعمال الحِمْية عن ما هو سبب الضرر، فإذا تعرضت بالتخليط فوقعت (٢) إذًا في أذى، فلم تضجُّ من أليم الألم؟ (٣).

أخبرنا إسماعيل بن أحمد المقري، وعبيد اللَّه بن محمد القاضي، ويحيى بن علي المدبِّر، قالوا: أنبأنا أبو الحسين بن النَّقُور، أنبأنا ابن حبَّابة، حدثنا البغوي، حدثنا هُدبة، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التَّيْمي، عن سلمة ابن أبي الطُّفيل (٤)، عن علي عليه السلام أن رسول اللَّه ﷺ قال: « يا عليّ إن لك في الجنة كنزًا وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » (٥).

في هذا الحديث إشكال من **أربعة وجوه:**

أحدها: من حيث إسناده، فربما خيّل إلى السامع أنه قد سقط منه رجل؛ لأنه إذا سمع سلمة بن أبي الطفيل (٦) عن علي، وقد عرف أن أبا الطفيل (٧) يروي عن عليّ يظن (٨) ذلك بل هو صحيح، وسلمة يروي عن علي أيضًا.

الثاني: الكناية في قوله: « وإنك ذو (٩) قرنيها » وفيه وجهان: أحدهما: أنها كناية عن هذه الأمة، كنى عنها من غير ذِكرٍ تقدم لها كما قال اللَّه ﷻ: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ (١٠) يعني الشمس، ولم يتقدم لها ذكر، والثاني عن الجنة.

والثالث: يعني تسميته بذي القرنين وفيه وجهان: أحدهما: إن قلنا: إن الكناية عن الأمة فإن عليًّا عليه السلام ضُرب على رأسه في اللَّه ﷻ ضربتين، الأولى ضربه عمرو بن وُد (١١) والثانية ابن مُلْجم، كما ضرب ذو القرنين على رأسه ضربةً بعد ضربة، وإن قلنا: الكناية عن الجنة فقرناها: جانباها، ذكره ابن الأنباري.

---

(١) سورة النور: ٣٠.

(٢) كذا في أ، وفي ذم الهوى لابن الجوزي. وفي ب، وت: وقعت.

(٣) العبارة لابن الجوزي في ذم الهوى : ص ٨٣.

(٤) أ: سلمة بن الطفيل.

(٥) أ: الأخرى، والحديث أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب رقم : ٤٣. والترمذي في كتاب الأدب، باب رقم : ٢٨. وأحمد في مسنده : ٣٥١/٥، من طريق آخر.

(٦) أ: سلمة بن الطفيل.

(٧) أ: أن الطفيل.

(٨) أ: ظن.

(٩) أ: لذو قرنيها.

(١٠) سورة ص: ٣٢.

(١١) أ: بن عبد ود.

والرابع: قوله: « فلا تتبع النظرةَ النظرة » ربما تخايل أحدٌ جوازَ القصد للأولى، وليس كذلك وإنما الأولى التي لم تُقصد.

وفي أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن نظر الفجْأة فقال: « اصرف بصرك » (١).

وهذا لأن النظرة الأولى لم يحضرها القلب فلا يتأمل بها (٢) المحاسن ولا يقع الالتذاذ، فمتى استدامها بمقدار حضور الذهن كانت كالثانية في الإثم.

وفي حديث النعمان بن سعد، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « يا علي اتق النظرة بعد النظرة، فإنها سهمٌ مسموم تورث شهوةً في القلب ».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « نظر الرجل إلى محاسن المرأة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، من تركه ابتغاء وجه الله أعطاه الله عز وجل عبادةً يجد طعم لذتها » (٣).

وكان عيسى عليه السلام يقول: النظرةُ تزرع في القلب الشهوةَ وكفى بها خطيئة (٤).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعًا، والإثم خَزّاز (٥) القلوب، وقال: مَنْ أَطْلق طرْفه كان كثيرًا أسفُه.

وقد كان السلف رضي الله عنهم يبالغون في الاحتراز من النظر، وكان في دار مجاهد عُلية قد بُنيت، فبقي ثلاثين سنة ولم يشعر بها (٦).

وخرج حسان بن أبي سِنَان يوم عيد، فلما عاد قالت له امرأته: كم من امرأةٍ حسناء قد رأيتَ؟ فقال: والله ما نظرتُ إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك (٧).

وإنما بالغَ (٨) السلفُ في الغض حذرًا من فتنة النظر وخوفًا من عقوبته.

فأما فتنته فكم من عابد خرج عن صومعته بسبب نظرة، وكم استغاث من وقع في تلك الفتنة.

قال إبراهيم بن صول (٩):

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الأدب، حديث رقم : ٤٥.

(٢) أ: فيها.

(٣) رواه الطبراني عن عبد الله بن مسعود، والحاكم من حديث حذيفة وقال: صحيح الإسناد، الترغيب والترهيب : ١٢٣/٣.

(٤) ذم الهوى : ص ٩١.

(٥) كذا في أ. وفي ب: حزار.

(٦) ذم الهوى : ص ٨٧، والعلية: الحجرة.

(٧) المصدر السابق : ص ٨٨.

(٨) ب: ولما بلغ. محرفة. والتصويب من أ. وفي ت: وإنما بادر السلف في التحصن.

(٩) أ: ابن صوف. وب: بن صور. وكلاهما تحريف. وهو إبراهيم بن العباس بن صول الكاتب.

من كان يُؤتى من عدوٍّ وحاسدٍ   فَإِنّيَ من عيني أُتيتُ ومن قلبي
هما اعتوراني نظرةً بعدَ نظرةٍ [(١)]   فما أبقيا لي من رُقادٍ ولا لُبِّ

وقال آخر:

وأنا الذي اجتلب المنية طرْفه   فَمَنِ المطالبُ والقتيلُ القاتلُ [(٢)]

وقال آخر:

عاتبتُ قلبيَ لمَّا   رأيتُ جسمي نحيلا
أجاب قلبيَ طرفي   وقال كنتَ الرسولا
فألزم القلبُ طرفي   بل كنتَ أنت الدّليلا [(٣)]
فقلت كُفَّا جميعًا   تركتماني قتيلا

وقال آخر:

يا من يرى سُقمي يَزيـ   ـد وعلتي تُعيي طبيبي
لا تَعجبنَّ فهكذا   تجني العيونُ على القلوب [(٤)]

وقال آخر:

لواحظنا تجني ولا علم عندها   وأنفسنا مأخوذة بالجرائرِ
ولم أَرَ أغبى من نفوسٍ عفائفٍ   تصدّق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفانُ حُجاب قلبه   أذنَّ على أحشائه بالفواقرِ [(٥)]

وقال آخر:

إذا أنت لم تزْعَ البروق اللوامحا   ونمْتَ جرى من تحتك الماءُ سائحا [(٦)]
غرسْتَ الهوى باللحظ حتى احتقرته   فأمهلته مستأنسًا متسامحا
ولم تدْر حتى أينعتْ شجراته   وهبّت رياح الهجر فيه لواقحا

---

(١) ذم الهوى : ص ٩٥: نظرة بعد فكرة.

(٢) البيت للمتنبي. انظر شرح ديوانه للعكبري : ٣/٢٥٠.

(٣) ذم الهوى : ص ٩٨:

فقال طرفي لقلبي   بلْ أنتَ كنتَ الوكيلا

(٤) الذم : ص ٩٩، وقد نسبها فيه لأبي عبد الله بن الحجاج.

(٥) ذم الهوى : ص ٩٩، ونسبها فيه لأبي منصور بن الفضل.

(٦) الذم: السيل سائحًا.

وأمسيتَ تستدعي [١] من الصبر عازبًا ... عليك وتستدني من النوم نازحا [٢]

وقال آخر:

والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يقلبُها ... في أعين العين [٣] موقوفٌ على الخطرِ
يسرُّ مُقلته ما ضرَّ مُهجته ... لا مرحبًا بسرورٍ جاء بالضررِ [٤]

وقال آخر:

لأعذبنَّ العين غير مفكِّر ... فيها جرَتْ بالدمع أو فاضتْ دما
ولأهجرنَّ من الرقاد لذيذه ... حتى يصير على الجفون محرَّما
سفكتْ دمي فلأسفكنَّ دموعها ... وهي التي بدأت فكانت أظلما
هي أوقعتني في حبائل فتنة ... لو لم تكن نظرتْ لكنتُ مسلَّما [٥]

وقال آخر:

وسهامُ اللحظ يُشتحـ ... ـلينَ في وقتِ الوقوعِ
ثم يُصْرفن فلا يُقـ ... ـلعن إلا عن صريع [٦]

وقال آخر:

إن كان [٧] طرْفي أصل سُقمي في الهوى ... لا أذاق اللَّه عيني [٨] الوسنا
لو تحرَّى في مرامي لحظه ... يومَ سلْعٍ ما عناني ما عنا [٩]

غيره:

يا عينُ أنتِ قتلتني ... وجعلتِ ذنبك من ذنوبي
وأراك تهوين الدمو ... ع كأنها ريق الحبيبِ
تاللَّه أحلفُ صادقا ... والصدقُ من شِيَمِ الأريبِ

---

(١) الأصل: تستدني. وما أثبته من ذم الهوى : ص ١٠٠.
(٢) الذم: بارحًا. وقد نسب فيه الأبيات لعبد المحسن بن غالب الصوري.
(٣) ت: الغيد.
(٤) الذم : ص ١٠١، وهي العبد المحسن بن غالب أيضًا.
(٥) الذم : ص ١٠٠، وهي للوزير أبي شجاع.
(٦) الذم : ص ١٠٢، ونسبها لشيخه أبي عبد اللَّه البارع.
(٧) كذا بالأصول. وفي ذم الهوى: كان طرفي.
(٨) الذم: طرفي.
(٩) الذم : ص ١٠٢.

لـــو مُـــيّـــزت نُـــوَب الـــزمـــا ... نِ مـــن الـــبـــعـــيـــد إلـــى الـــقـــريـــبِ
مـــا كـــــنَّ إلا دونَ مـــــا ... جـنـتِ الـعـيـونُ على القلوب (١)

وأما عقوبة النظر فقد روى ابن عباس ﵄ أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يتشلشل (٢) دمًا، فقال له: « مالك؟ » فقال: مرت بي امرأة فنظرتُ إليها فلم أزل أُتبعها بصري فاستقبلني جِدار فضربني فصنع بي ما ترى، فقال: « إن اللّه ﷻ إذا أراد بعبدٍ (٣) خيرًا عجل له عقوبته في الدنيا ».

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا أبو سعيد الحيري، أنبأنا ابن باكُوية، أنبأنا أبو عبد اللّه الرازي، عن أبي يعقوب النهرجُوري قال: رأيت في الطواف رجلًا بفرْد عينٍ وهو يقول في طوافه: أعوذ بك منك، فقلت له: ما هذا الدعاء؟ فقال: إني كنت مجاورًا منذ خمسين سنة فنظرتُ إلى شخصٍ يومًا فاستحسنته، فإذا بلطمةٍ وقعتْ على عيني فسالتْ على خدي، فقلت: آه، فوقعت أخرى، وقائل يقول: لو زدتَ لزدناك (٤).

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، أنبأنا أحمد بن علي الحافظ، قال: كتب لي أبو حاتم أحمد بن الحسين الرازي، يذكر أنه سمع محمد بن أحمد بن عبد الوهاب الحافظ يقول: قال أبو سعيد أحمد بن محمد الصوفي: حدثنا عبد الرحمن بن أحمد ابن عيسى، عن أبي الأديان (٥) قال: كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق فمرَّ حدَث فنظرتُ إليه، فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه فقال: يا بني لتجدنّ غِبَّها ولو بعد حين، فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي الغبَّ، فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيتُ القرآن كله (٦).

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد بن أبي صادق، حدثنا أبو عبد اللّه الشيرازي، أنبأنا محمد بن أحمد النجار، أخبرني أبو بكر الكِتَّاني، قال: رأيت بعض أصحابي في المنام فقلت له: ما فعل اللّه بك؟ قال: فقال: عرض عليّ سيئاتي، وقال: فعلتَ كذا وكذا؟ فقلت: نعم، قال: وفعلت كذا؟ فقلت: نعم، قال: وفعلتَ كذا وكذا فاستحييتُ أن أُقر، فقلت له: ما كان ذلك الذنب؟ فقال: مرَّ بيْ غلامٌ حسن الوجه فنظرت إليه (٧).

وقد روي عن أبي عبد اللّه الزرّاد أنه رئي في المنام فقيل له: ما فعل اللّه بك؟ قال: غفر لي كل ذنب أقررتُ به إلا واحدًا استحييت أن أقرّ به، فأوقفني في العَرق حتى

---

(١) ذم الهوى : ص ١٠٢.
(٢) يتشلشل: يقطر متتابعًا.
(٣) ب: بعبده. والحديث في ذم الهوى : ١٢٦. قال الترمذي: وهو حديث حسن. وقد سبق تخريجه قريبًا.
(٤) ذم الهوى : ١٢٨.
(٥) كذا بالأصول وذم الهوى.
(٦) ذم الهوى : ص ١٢٧، ١٢٨.
(٧) ذم الهوى : ص ١٢٩.

سقط لحمُ وجهي، قيل: ما كان الذنب؟ قال: نظرت إلى شخص جميل [(١)].

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: كلُّ عينٍ باكيةٌ يومَ القيامة إلا عينٌ [(٢)] غضَّت عن محارم اللَّه، وعين سهرتْ في سبيل اللَّه، وعين يخرج منها مثلُ رأس الذباب - يعني الدموع - من خشية اللَّه » [(٣)].

إخواني: تذكروا مصير الصُّوَر، وتفكروا في نزول بيت المدر، وتلمحوا بعين الفكر في حال الصفا والكدر، واعلموا أنكم في دار البلاء فالحذر الحذر.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، حدثنا أبو بكر الخطيب، حدثنا عبد الرحمن ابن محمد النيسابوري، أنبأنا محمد بن عبد اللَّه بن شاذان، قال: سمعت أبا عبد اللَّه القُرشي يقول: كان لي جار شابٌ وكان أديبًا، وكان يَهْوَي غلامًا أديبًا، فنظر يومًا إلى طاقات شعرٍ بيض في عارضيه فوقع له شيء من الفكر [(٤)] فهجر الغلام، فكتب إليه الغلام:

مالي جُفيتُ وكنت لا أُجفى ... ودلائلُ الهجرانِ لا تخفى
وأراك تَمْزجني وتشربني ... ولقد عهدتك شاربي صِرْفا

فقلب الرقعة وكتب في ظهرها:

التصابي مع الشَّمَط ... سُمْتني خُطةً شَطَطْ
لا تلمْني على جفا ... يَ فحسبي الذي [(٥)] فَرطْ
أنا رهْنٌ بما جنيـ ... ـتُ فذرني من الغلطْ
قد رأينا أبا الخلا ... ئق في زلة هبطْ [(٦)]

* * *

إخواني: الدنيا سموم قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة، كم من نظرةٍ تحلو في العاجلة، مرارتها لا تطاق في الآجلة، يا بن آدم قلبُك قلبٌ ضعيف، ورأيك في إطلاق الطَّرْف رأيٌ سخيف، يا طفل الهوى متى يُؤنس منك رُشد، عينك مُطلقة في الحرام، ولسانك مهمل في الآثام، وجسدك يتعب في كسب [(٧)] الحُطام، كم نظرة محتقرة [(٨)] زلت بها الأقدام.

---

(١) ذم الهوى : ص ١٢٩.

(٢) كذا في الأصول، وذم الهوى لابن الجوزي والرواية في الحلية « إلا عينًا ».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية : ١٦٣/٣. وهو في ذم الهوى : ص ١٤١.

(٤) ذم الهوى: شيء من الحق. (٥) الذم: فحسبي بما فرط. (٦) ذم الهوى : ص ٢٦٩.

(٧) أ: بكسب. (٨) ب: محترقة. محرفة. والتصويب من أ.

فتبصَّرْ ولا تشِمْ كلَّ بَرْقٍ رُبَّ برْقٍ فيه صواعقُ حَيْنِ
واغضض الطرْف تسترح من غرام تكتسي فيه ثوبَ ذُلٍّ وشَيْنِ
فبلاءُ الهوى (1) موافقة النفس وبدء الهوى طموحُ العيْنِ (2)

سجع على قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ... ﴿٣٠﴾ ﴾:

يا عجبًا للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم، لو تفكروا في حال صفائهم في أكدارهم، لمَا سلكوا طريق اغترارهم، أما يكفي في وعظهم وازدجارهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

الدنيا دار الآفات والفتن، كم غرّت غِرًّا وما فطن، أرتْه ظاهرها والظاهر حسن، فلما فتح عين الفكر من الوسَن قال: رب ارجعون ولن، ويح المقتولين بسيف اغترارهم، والشرْع ينهاهم عن أوزارهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

أين أربابُ الهوى والشهوات، ذهبت والله اللذاتُ دون (3) التبعات، وندموا إذ قدموا على ما فات، وتمنوا بعد يُبس العود العَوْد وهيهات، فتلمح في الآثار سوءَ أذكارهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

نازَلهم الموتُ على الذنوب، فأُسروا في قيود الجهل والعيوب، فرحلتْ لذاتٌ خلَتْ عن الأفواه والقلوب، وحزنوا على الفائت ولا حُزن يعقوب، حين خرجوا من ديارهم في ثياب إدبارهم [وعِصيّ التوبيخ في أدبارهم] (4) ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

قل للناظرين إلى المشتهى في ديارهم: هذا أنموذج من دار قرارهم، فإن استعجل أطفالُ الهوى فدارهم، وعدْهم قُرْبَ الرحيل إلى دارهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

احذروا نظرةً تفسد القلوب، وتجني عليكم الذم (5) والعيوب، تُسخط مولاكم عالم الغيوب، لقد وصف الطبيب حِميةً للمطبوب، فلو استعملوا الحِمية لم تتعرض الحمّى بأبشارهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

وفقنا الله وإياكم للهدى، وعصمنا من أسباب الجهل والردى، وسلَّمنا من شر النفوس فإنها شر العِدَى، وجعلنا من المنتفعين بوعظ أخيارهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

---

(١) أ: فبلاء الفتى اتباع هوى النفس. ورواية ذم الهوى: فبلاءُ الفتى مُوافقة النفس.
(٢) الأبيات نسبها ابن الجوزي في ذم الهوى : ص ١٠٣، لابن الحريري.
(٣) أ: وبقيت التبعات. وما أثبته من ب، ت.
(٤) سقطت من ب.
(٥) ب: الذنب.

المجلس الحادي عشر

في قصة ذي القرنين

الحمد للَّه الذي أسرى لطفه ففكَّ الأسرى، وأجرى بإنعامه للعاملين أجرًا، وأسبل بكرمه على العاصين سترًا، وقسم بني آدم عبدًا وحرًّا، ودبّر أحوالهم غنًى وفقرًا [كما رتب البسيطة عامرًا وقفرًا (١)] وقوى بعض عباده [على السياحة] (٢) فقطعها شبرًا شبرًا ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٣).

أحمده حمدًا يكون لي عنده ذخرًا، وأصلِّي على رسوله مقدم الأنبياء في الدنيا والأخرى، وعلى أبي بكر الذي أنفق المالَ على الإسلام حتى مال الكفُّ صِفْرًا، وعلى عمر الذي كسرت هيبته كسرى، وعلى عثمان المقتول من غير جُرْم صَبْرًا، وعلى عليّ الذي كان الرسول يعزه بالعلم عزًّا (٤)، وعلى عمه العباس أعلاهم في النسب قدرًا.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ... ﴾ (٥)

الذين سألوا رسول اللَّه ﷺ هم اليهود، وفي اسم ذي القرنين أربعة أقوال: **أحدها**: عبد اللَّه، قاله علي عليه السلام، **والثاني**: الإسكندر، قاله وهب، **والثالث**: عباس، قاله محمد ابن علي بن الحسين، **والرابع**: الصعب بن جابر، ذكره ابن أبي خيثمة.

وفي تسميته بذي القرنين عشرة أقوال:

أحدها: أنه دعا قومه إلى اللَّه ﷻ فضربوه على قرنه فهلك فغبر (٦) زمانًا ثم بعثه اللَّه تعالى، فدعاهم إلى اللَّه فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذانك قرناه، قاله علي عليه السلام.

والثاني: أنه سمي بذي القرنين؛ لأنه سار من مغرب الشمس إلى مطلعها، (رواه أبو صالح عن ابن عباس).

والثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس.

---

(١) سقطت من ب. (٢) من أ. (٣) سورة الكهف: ٨٣.
(٤) أ: غرا. (٥) سورة الكهف: ٨٣. (٦) غبر: بقي. وفي أ: زمان.

والرابع: لأنه رأى في النوم كأنه امتد من السماء إلى الأرض فأخذ بقرني الشمس، فقصَّ ذلك على قومه فسمي بذي القرنين.

والخامس: لأنه ملك الروم وفارس.

والسادس: لأنه كان في رأسه شِبْه القرنين، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب ابن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

والسابع: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن. قال ابن الأنباري: والعرب تسمي الضفيرتان من الشعر غديرتين وقرنين (١).

[قال: ومن قال: سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم قال: لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما: قرنان (٢)].

والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذي شرف.

والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس وهو حي.

والعاشر: لأنه ملك الظلمة والنور، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي.

واختلفوا: هل كان نبيًا أم لا على قولين:

أحدهما: أنه كان نبيًّا، قاله عبد اللَّه بن عمرو والضحاك.

والثاني: أنه كان عبدًا صالحًا ولم يكن نبيًّا ولا ملكًا، قاله علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال وهب: كان ملكًا ولم يوح إليه.

وفي زمان كونه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من القرون الأولى من ولد يافث بن نوح، قاله علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والثاني: أنه كان بعد ثمود، قاله الحسن.

والثالث: كان في الفترة بين عيسى ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قاله وهب وفيه بُعْد.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ أي خبرًا يتضمن ذكره.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ... ﴿٨٤﴾ ﴾ أي سهلنا عليه السير فيها، قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه أطاع اللَّه فسخر له السحاب، فحمله عليه ومد له في الأسباب وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء. قال مجاهد: ملك الأرض مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان ابن داود وذو القرنين، والكافران: نمرود وبختنصر.

---

(١) العبارة محرفة في أ، ب. وما أثبته من ت. (٢) سقطت من أ.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ قال ابن عباس: علِّم ما يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العلم بالطرق والمسالك ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي قفا الأثر، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ في المواضع الثلاثة. قال أبو علي: التقدير فأتبع سببًا سببًا، والسبب: الطريق.

قوله تعالى: ﴿ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ... ﴿٨٦﴾ ﴾ أي ذات حمأة، وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿ حَامِيَةٍ ﴾ أي حارة، قال الحسن: وجدها تغرب في ماء يغلي كغليان القدْر ويفيض من الماء تلك العين الحارة حتى يفيض حولها مسيرة ثلاثة أيام فلا يأتي على شيء إلا احترق، ووجد عندها قومًا لباسهم جلود السباع وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدواب إذا غربت نحوها وما لفظت العين من الحيتان.

﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ... ﴿٨٦﴾ ﴾ من قال: هو نبي قال: هذا وحي، ومن قال: ليس بنبي قال: إلهام ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ... ﴿٨٦﴾ ﴾ أي تقتلهم إن أبوا ما تدعوهم إليه، وإما أن تأسرهم فتبصرهم الرشد.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ... ﴿٨٧﴾ ﴾ أي أشرك ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ... ﴿٨٧﴾ ﴾ بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ... ﴿٨٧﴾ ﴾ فيعذبه بالنار.

- **قوله تعالى:** ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ... ﴿٨٨﴾ ﴾ قال الفراء: الحسنى الجنة وأضيف الجزاء إليها، وهي الجزاء كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [1] ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ ﴾ [2] قال أبو علي الفارسي: المعنى: فله جزاء الخلال الحسنى، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ﴾ بالنصب والتنوين، قال الزجاج: وهو مصدر منصوب على الحال، والمعنى: فله الحسنى مجزيًّا بها جزاء ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ أي قولًا جميلًا.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أي طريقًا آخر توصله إلى المشرق، قال قتادة: مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل من لم يؤمن حتى أتى مطلع الشمس، فوجد أقوامًا عراة في أسراب ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت، فإذا توسطت السماءَ خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم مما أحرقته، وبلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان.

قال الحسن: إنهم كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يرعون كما يرعى الوحش.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ... ﴿٩١﴾ ﴾ أي كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ... ﴿٩١﴾ ﴾ أي بما عنده ومعه من الجيوش ﴿ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ أي طريقًا ثالثًا بين المشرق والمغرب.

---

(١) سورة الحاقة: ٥١.
(٢) سورة الأنعام: ٣٢.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ... ﴿٩٣﴾ ﴾ قال وهب بن منبه: هما جبلان مُنيفان في السماء من ورائهما البحر، وقرأ نافع بضم السين. قال ثعلب: هما لغتان، وقال أبو عبيدة: ما هو من فعل اللّٰه تعالى فهو مضموم، وما هو من فعل الآدميين فمفتوح.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ ﴾ أي: لا يفهمونه إلا بعد إبطاء.

* * *

وأما يأجوج ومأجوج فهما رجلان من أولاد يافث بن نوح قال: علي عليه السلام: منهم من طُوله شبر ومنهم من هو مُفرط [١] في الطول، ولهم شعر يواريهم من الحر والبرد، وكان فسادهم قتل الناس، ﴿ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ... ﴿٩٤﴾ ﴾ وقرأ حمزة: خراجًا، قال الليث: هما لغتان، وقال أبو عمرو بن العلاء: الخرْجُ ما تبرعتَ به، والخراج: ما لزمك أداؤه، ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ... ﴿٩٥﴾ ﴾ مما تبذلون ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ... ﴿٩٥﴾ ﴾ قال مجاهد: بالرجال، وقال ابن السائب: بالآلة، والردم: الحاجز [٢]، والزُّبَر: القطع والصَّدفان: جانبا الجبل.

قال علماء السير: لما وصل إلى مدنٍ مطلة قد بقي فيها بقايا سألوه أن يسد ما بينهم وبين يأجوج ومأجوج، فأمر الصنَّاع فضربوا اللبِن من الحديد، طولُ كل لبنة ذراع ونصف وسُمكها شبر.

وروى سلَّام الترجمان قال: بعثني الواثق إلى السَّد وضم إليَّ خمسين رجلًا، وأعطانا مالًا، فما زلنا نتنقّل البلادَ وتبعث الملوكُ معنا الأدلَّاء إلى أن صرنا إلى أرض سوداء منتنة الريح، فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدنٍ خراب فسرنا فيها خمسة وعشرين يومًا، وهي التي كانت يأجوج ومأجوج يطرقونها، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من السد وفيها قومٌ يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرءون القرآن، فسألونا: من أين أقبلتم؟ قلنا: نحن رسل أمير المؤمنين، قالوا: ما سمعنا بهذا قط، ثم صرنا إلى جبل أملس وفيه السد، وهناك باب حديد له مصراعان مُغلقان [٣]، عرض كل مصراع خمسون ذراعًا في ارتفاع خمسين في ثخن خمسة أذرع، وقائمتاهما في دوَّارة، وعلى الباب قفْل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا، وفوق القفل بقَدْر خمسة أذرع غَلَق [٤] طوله أكثر من طول القفل وقفيز [٥]، وعلى الغلق مفتاح معلق في سلسلة طولها ثمان أذرع في استدارة أربعة أشبار، وعتبة الباب عشرة أذرع، ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس، مع كل فارس مِرْزَبّة حديد، فيضرب

---

(١) أ: ومنهم من طوله مفرط. (٢) ب: والحاجز. (٣) أ: معلقان.

(٤) الغلق: ما يغلق به الباب. (٥) القفيز: مائة وأربع وأربعون ذراعًا.

القفل بتلك المرزبات مرات ليسمعوا الصوت فيعلموا أن هناك حَفَظة.

وقد روينا أن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم، أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدَّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم، ارجعوا فستحفرونه غدًا، فيعودون إليه فيرونه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتُهم وأراد اللّه أن يبعثهم على الناس، [حفروا] (١) حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء اللّه، فيعودون إليه وهو على هيئته التي تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناسُ منهم في حصونهم، فيرمون بسهام إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث اللّه عليهم نغفًا (٢) في أقفائهم فيقتلهم بها »، فقال رسول اللّه ﷺ: « والذي نفسي بيده إن دوابَّ الأرض لتسمن [وتشكر (٣)] من لحومهم ودمائهم ».

* * *

ثم إن ذا القرنين لما عاد بلغ بابل، فنزل به الموتُ فكتب إلى أمه يعزِّيها عن نفسه، وكان في كتابه: اصنعي طعامًا واجمعي من قدرت عليه من أبناء المملكة، ولا يأكل من طعامك من أصيب بمصيبة، ففعلت فلم يأكل أحد، فعلمت ما أراد.

فلما وصل تابوته إليها قالت: يا ذا الذي بلغت السماءَ حكمتُه وجازَ أقطارَ الأرض مُلْكُهُ، مالك اليومَ نائمٌ لا تستيقظ، وساكت لا تتكلم، من يُبلغك عني أنك وعظتني فاتعظتُ وعزَّيتني فتعزيت، فعليك السلام حيًّا وميتًا.

* * *

الكلام على البسملة

أتُنكر أمرَ الموتِ أم أنتَ عارفٌ ... بمنزلةٍ تفنى وفيها المتالفُ

كأنك قد غُيبتَ في اللحد والثرى ... كما لقي الموتَ القُرونُ السوالفُ

---

(١) سقطت من ب.

(٢) النغف: كذا بالأصل، والنغف: دود في أنوف الإبل والغنم.

(٣) أ: وتسكر. محرفة. وتشكر: تسمن. والكلمة ساقطة من ت. وفي المسند: وتسمن شكرًا. والحديث أخرجه أحمد في المسند : ٥١١/٢. وابن ماجه في سننه، في كتاب الفتن، باب رقم : ٣٣، وهو حديث صحيح.

أرى الموتَ قد أفنى القرون التي مضت … فلم يبقَ مألوفٌ ولم يبق آلفُ
كأن الفتى لم يصحب الناسَ ليلةً … إذا عُصبت يومًا عليه اللفائفُ
وقامت عليه عُصبةٌ يدفنونه … فمستذكرٌ يبكي حزينًا وهاتفُ (١)
وغيِّب في لحد كريهٍ فناؤه … ونضّدَ من لبْن عليه السقائفُ
وما صاحبُ البحر القطيع مكانه … إذا هاج آذى (٢) من عليه وقاصفُ
أحقَّ بطول الحزن من ضيف غُربة … تصدَّع عنه أهله والمعارفُ

أين من ربح في متاجر الدنيا واكتسب؟! أين من أُعطي وأُولي ثم والَى ووهب؟! أمَا رحل عن قصره الذهبُ فذهب؟! أما حلَّ به في الحرب المُصْطَلِم الحرِب؟! أما نازله التلفُ وأسره العطب؟! أما نابته نائبة لا تُشبه النُّوَب؟! أنفعه بكاءُ من بكى أو ندْب من ندب؟! أما ندم على كل ما جنى وارتكب؟! أما توقنون أن طالبه لكم في الطلب؟! تدبروا قولَ ناصحكم صدق أو كذب.

قال ميمون بن مهران: خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا أيوب هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهلَ الدنيا في لذتهم (٣) وعيشهم، أما تراهم صرْعى قد حلّت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء؟! وأصاب الهوامُّ في أبدانهم مقيلًا، ثم بكى حتى غشي عليه ثم أفاق قال: انطلق بنا فواللَّه ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب اللَّه ﷻ.

صُورٌ طواها الموتُ طيًّا … كانت محبَّبةً إليًّا
تَبْلى ويأكلها الترا … بُ وذكرها غضٌّ إليًّا
صرعَى بأنواع الحتو … فِ كأنهم شربوا الحُميًّا (٤)
لهفي على تلك الوجو … هِ وهلْ يردُّ اللَّهْفُ شيًّا
أبكي عليهم ثم أرْ … جع بعدهم أبكي عليًّا
أنا ميتٌ بعد الحيا … ةِ وميت للحُزن حيًّا
بيتي الثرى ولو أنني … نلت السماء أو الثُّريا

---

(١) أ: فمستدرك يبكي عليه وهاتف. وفي ت: وتالف.

(٢) كذا في ب، ت. وفي أ: أغرق من عليه.

(٣) أ: في لذاتهم.

(٤) الحميا: الخمر.

ولو اعتبرت لعاد لي (١) غيلانُ وهو يذمّ ميًّا (٢)
مَنْ للسماء بأن تدو مَ وأنها تُدعى سُميَّا
هيهات لا ترجو البقا ءَ وابكِ نفسك يا أُخيَّا (٣)

* * *

كأنك بالموت وقد فصَم العُرى التي بها قد تمكنتَ، ونقلك إلى قبرٍ ترى فيه ما أسأت وما أحسنت، ثم تقوم للجزاء على ما أسررت وما أعلنت، فتزين بالتقوى فطوبى لك إن تزيَّنْت، واعمل اليومَ ما ينفعك غدًا وإلا فمن أنت.

كم طوى الموتُ من نعيمٍ وعزٍّ وديارٍ من أهلها أخلاها
وجنودٍ أحالها (٤) وجُدود ووجوهٍ أحالَ منها جِلاها
أين من كان ناعمًا في قصور بعلا المكرماتِ شِيدَتْ عُلاها (٥)
قد جفاها من كان يرتاح حينًا (٦) نحوها بعد إلفه وقَلاها

* * *

يا من في حُلَل جهله يَرْفل ويَميس، يا مؤثرًا الرذائلَ على أنفس نفيس، يا طويل الأمل ماذا صنع الجليس؟! يا كثير الخطايا أشمتَّ إبليس، مَنْ لك إذا فاجأك مُذل الرئيس، واحتوشتك أعوانُ ملك الموت وحَمِيَ الوطيس، ونُقلتَ إلى لحدٍ ما لك فيه إلا العمل أنيس؟! أين أمْسُك يا من أمْسَك عُرى أمله؟! أما ذهب عن كل عبد ببعض أجله؟! أين لذاتُ شهواتك فيما مضى من عمرك، أما تصرَّمتْ والوزر على ظهرك، أما الدنيا تخدع مريدها، أما العِبَر تجاذب (٧) مستفيدها، أما زياداتُ الأيام تُنْقص الأجل، أما كمالُ الأمن قرينُ الوجل؟!

[ومنْ لكسرى لو فدَى نفسه بكل ما أحرزه من بِدَرْ
أنصبتِ العُمارَ ساحاتهم ثم تخلَّى عامرٌ عن عُمر

(١) كذا في ب. وفي أ: لعاذلي.

(٢) غيلان: هو ذو الرمة غيلان بن عقبة. ومي: هي محبوبته مية بنت عاصم المنقري، يريد أن ذا الرمة ذم ميا بعد أن كان يحبها.

(٣) أ: لا يرجى البقا ءُ وابكي لنفسك ....

(٤) أ: أحلها.

(٥) في ب محرفة: بعلا الكرمات شديد علاها. والتصويب من أ، ت.

(٦) أ، ت: حبًّا.

(٧) أ، ب: تحادث.

فاسمُ بذكْر اللَّه لا غيره فإنَّ ذكر اللَّه خير السمر
وشمِّر الذيلَ إلى عفوه فكل مسعودٍ إليه انشمر [١]]

كان الحسن يقول: الثَّواءُ هاهنا قليل، وأنتم آخر أمتكم، وأمتكم آخر الأمم، وقد أُسرع بخياركم [٢]، فماذا تنظرون إلا المعاينة؟ فكأنها واللَّه قد كانت، ما بعدَ نبيكم نبي ولا بعد كتابكم كتابٌ، ولا بعد أمتكم أمة، تسوقون الناسَ والساعة تسوقكم، وما ينتظر أوَّلكم إلا أن يلحق آخرُكم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة.

رضي الفتى بعنائه وشقائه لو أن ظلَّ بقائه ممدودُ
ويخٌ له ما إن يعدُّ لنفسه ويبيده نفسٌ له معدودُ
يُغذى بأسقيةٍ له وألِذَّةٍ لو كان ينفع في الحياة لدودُ [٣]
ملكٌ يشيِّد ما بنى ويشيد أرْ كان البناء وركنه مهدودُ
ويرى طريقَ الحق كلُّ أخي حجا وكأنه عن فعله [٤] مصدودُ
جسدٌ يكدُّ لأن يفوز بقُوته فإن استراح فقلبُه المكدودُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً... ﴾ [٥]

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ... ⑱ ﴾ بمعنى ينتظرون، والساعة: القيامة، سميت ساعةً لأنها تكون في ساعة، والبغتة: الفجأة، والأشراط: العلامات.

أخبرنا أبو نصر الطُّوسي، وأبو القاسم السمرقندي، وأبو عبد اللَّه بن البنَّاء، وأبو الفضل ابن العالمة، وأبو الحسن الخياط، قالوا: أنبأنا أبو الحسين بن النَّقُور، أنبأنا ابن حبَّابة، حدثنا البغوي، حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فضالة بن جبير، عن أبي أمامة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها » [٦].

(١) سقطت من أ.
(٢) ب: وقد أسرع محببًا بكم. وفي أ: بحياتكم. وما أثبته من ت.
(٣) أ: يغذى بأسقية له وأكدة لو كان ينفع في الحياة كدود.
(٤) أ: من فعله.
(٥) سورة محمد: ١٨.
(٦) صحيح مسلم، كتاب الفتن، حديث رقم : ١١٨. وسنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب رقم : ١٢. وسنن ابن ماجه، كتاب الملاحم، باب رقم : ٣٢.

أخبرنا أبو القاسم الكاتب، حدثنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجلُ بقبر الرجل فيقول: يا ليتني كنت مكانك » (١). (أخرجاه في الصحيحين). وفي لفظ: « وما به إلا البلاء ».

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: « إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل وتُشرب الخمرُ ويظهر الزنا، ويقل الرجالُ ويكثر النساء حتى يكون قَيِّم خمسين امرأة رجلٌ واحد » (٢).

وفي أفراد البخاري من حديث أنس أن عبد اللَّه بن سلام (٣) أتى رسولَ اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه ما أولُ أشراط الساعة؟ قال: « أول أشراط الساعة نار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب » (٤).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم وتكثر الزلازلُ وتظهر الفتن ويتطاول الناسُ في البنيان ولتقومن (٥) الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما (٦) فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجلُ بلبن لقْحته (٧) فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها » (٨).

وفي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنسَ ويكلِّم الرجلَ عذبةُ (٩) سوْطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهلُه بعده » (١٠).

---

(١) صحيح البخاري : ٢٣٠/٤، بحاشية السندي. وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل » : ٥٦١/٢، ط عيسى الحلبي.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب رقم : ٢١. وصحيح مسلم، كتاب العلم، حديث رقم : ١٠٠٨.

(٣) أ: من حديث أنس وعبد اللَّه بن سلام أن رجلًا أتى.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار : ٢٣٠/٤ (بحاشية السندي).

(٥) ب: ولتقوم.

(٦) أ: ثوبيهما.

(٧) اللقحة: اللقوح، وهي الناقة الحلوب.

(٨) صحيح البخاري، كتاب الفتن : ٢٣١/٤ (حاشية السندي).

(٩) العذبة: الطرف.

(١٠) مسند أحمد : ٨٤/٣. وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم : ١٩.

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، حدثنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُوَرجي، قالا: أنبأنا الجرّاحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا صالح بن عبيد الله، حدثنا الفرج ابن فضالة، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن عمر، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا فعلتْ أمتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء » قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: « إذا كان المغنم دُولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مَغْرمًا، وأطاع الرجلُ زوجتَه وعقَّ أمَّه، وبرَّ صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرم الرجلُ مخافة شره، وشُربت الخمور، ولُبس الحرير، واتُّخذت القيان والمعازف، ولعن آخرُ هذه الأمة أولَها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا » (١).

* * *

اعلم أنك إن لم تدرك أشراطَ القيامة فقيامتك العاجلة موتك، فإذا حانت ساعةُ الوفاة فات زمنُ الاستدراك وخرج ربيع البِدَار، فسُدَّ باب الإجابة عن دعاء الإنابة، كما قال ﷻ في القيامة: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨ ﴾ (٢) أي فمن أين لهم إذا جاءتهم الساعة أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت، فكذلك عند صرعة الموت لا عثرة تُقال ولا توبة تُنال.

روى مروان بن سالم عن البُرْجمي رفعه قال: احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة، فإن الحليم العليم يتحير عند ذلك المصرع، وإن إبليس أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن عند فراق الدنيا وترك الأحبة.

خُذ لا أبا لك للمنية عُدَّةً ... واحتَلْ لنفسك إن أردْت صَلاحها
لا تغترر فكأنني بعُقاب ريْـ ... ـب الدهر قد نشرتْ عليك جناحها

ويحك (٣) أمن الأخرى عِوَض؟ أنتم في الدنيا عَرَض، يا من كلما بنى نَقَض، يا من كلما رفع انخفض، يا عجيب الداء والمرض، كم شاهدتَ مسلوبًا، كم عاينت مغلوبًا، كم مخفوض بعد الرفع، كم مضرور بعد النفع، كم مدفوع عن أغراضه أقبح الدفع، بينما هو في ثياب أوجاعه ومُنى السلامةِ تخطر في أطماعه، أسرعَ الموتُ ونادى بإسراعه، فعجز عن مقاومته أو عن دفاعه، فحارت من حاله قلوبُ أتباعه، واشتغل بِضَياع أمره عن ضِياعه، وأقبلتْ قبائلهُ على تقبيله ووداعه، وبكى لميله إلى الهوى عند نزْعه (٤) ونزاعه، وهذا مصيرك فانتبه له ووراعه.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم : ٣٨. (٢) سورة محمد: ١٨.
(٣) أ: ويحكم. (٤) أ: ميله.

تـردَّ بـالـنُّسـك وأفـعـالـه يا من إذا حان منك المردّ [1]
وردْتَ دنـيـاك عـلـى غِـرةٍ فـويـح مـغـرورٍ عـلـيـهـا ورَدْ
إن مرَّ ذا الفاتك [2] في جهله فليخش يومًا ما له من مَردّ

[**إخواني** [3]] ما بالُ النفوس تعرف حقائق المصير، ولا تعرف عوائق التقصير؟! وكيف رضيت بالزاد اليسير، وقد علمتْ طولَ المسير؟! أم كيف أقبلت على التبذير وقد حذّرت غاية التحذير؟! أما تخاف زلل التعثير إذا حوسبت على القليل والكثير؟!

كان خُليد البصري يقول: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعدًّا وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملًا، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفًا، فعلام تعرِّجون وماذا عسيتم تنتظرون؟! فهذا الموت أول واردٍ عليكم من الله بخير أو بشر، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا.

سيكفي [4] بـعـض مـا فاتك فـلا تـأسَ لـمـا فـاتَـكْ
ولا تـرْكـنْ إلـى الـدنـيـا أمَـا تـذكـر أمـواتـكْ

دخل بعض العبَّاد على بعض الأمراء فقال له الأميرُ: ما أزْهدك وأصبرك! فقال: إن صبري جزَعٌ من النار وزهدي رغبة في الجنة.

يا غافلًا في بطالته، يا من لا يفيق من سكْرته، أين ندمك على ذنوبك؟! أين حسرتك على عيوبك؟! إلى متى تؤذي بالذنب نفسك وتضيع يومك تضييعك أمسك؟! لا مع الصادقين لك قدم، ولا مع التائبين لك ندم، هلَّا بسطت في الدجى يدًا سائلة، وأجريت في السحر [5] دموعًا سائلة.

خـدعـتنا زخـارفُ الآمـالِ فـلـهـوْنـا بـهـا عـن الآجـالِ
عجبي من مؤمل أمن السِّرْ بَ بها وهي خُطة الأوْجالِ
نـحـن سـفْـرٌ وإنمـا أمـهـلـتنا ريـثـمـا نـسـتـعـدّ لـلـترْحـالِ

أسفًا لمن إذا ربح العاملون خسر، وإذا أُطلق المقيدون أُسر، من له إذا خوصم فلم ينتصر، ونُسي يومَ الرحمة فما ذكر، فالجدّ الجد أيها الغافل فأيام العمر كلها قلائل.

---

(١) ب: الترد. (٢) أ: إن مرد القائل. (٣) من: ت.
(٤) ت: ستلقى. (٥) أ: في السجود.

سجع على قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾:

[لو رأيتَ العصاة والكرب يغشاهم، والندمُ قد أحاط بهم وكفَاهم، والأسف على ما فاتهم قد أضناهم، يتمنون العافية وهيهات مُناهم، ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ (١)].

نزل بهم المرض فألقاهم كالحرَض، فانفكَّ أملُهم وانقبض، وانعكس عليهم الغرض، ورحمهم في صرْعتهم من عاداهم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

يتمنون عند الموت راحة، ويشتهون من الكرب استراحة، ويناقَشون على الخطايا ولا سماحة، فهم كطائر قصَّر الصائد جناحه، في حبس النزع والكرب يغشاهم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

يتأسفون وأسفُهم أشدُّ ما في العلة، ويتحسرون وتحسرهم على ما مضى من زَلَّة، وجبل ندمهم قد شُق كأنه ظُلة، فلو رأيتهم بعد الكِبْر قد صاروا أذلة، وتملَّك أموالهم بعدهم سواهم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

ما نفعهم ما تعبوا لتحصيله وجالوا، ولا ردَّ عنهم ما جمعوا واحتالوا، جاء المرض فأذلهم بعد أن صالوا، فإذا قال العائدُ لأهليهم: كيف باتوا؟ قالوا: إن السقم قد وهَّاهم وها هُم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

نزلوا بطون الفلا فلا يقبل عذرهم، ولا ذو وُدّ ينفعهم، قد أضناهم بلاء البِلى، فلو رأيتهم في بَلاهم وهم في بِلاهم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

فالبدار البدار قبل الفوات، والحذار الحذار من يوم الغَفَلات قبل أن يقولَ المذنبُ: « رب ارجعون » فيقال: فات، ويح الغافلين عن عقباهم ما أعماهم ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

نبهنا اللّٰه وإياكم من هذه الرقدة وذكرنا وإياكم الموت وما بعده إنه قريب مجيب.

* * *
* *
*

(١) سقطت من ب.

المجلس الثاني عشر

في قصة يوسف عليه السلام

الحمد للَّه أحسن الخالقين وأكرم الرازقين، مكرم الموفَّقين ومعظِّم الصادقين، ومُجلّ المتقين، ومذل المنافقين، حفظ يوسف لعلمه بعلم اليقين، فألبسه عند الهمَّ دِرْعَ [(١)] يقين، وملَّكه إذ ملك عنان الهوى ميدان السابقين، فذل له إخوته يوم: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ [(٢)] ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [(٣)].

أحمده حمد الشاكرين وأصلي على رسوله محمد أشرف الذاكرين، وعلى أبي بكر سابق المبكرين، وعلى عمر سيد الآمرين بالمعروف والمنكِرين، وعلى عثمان الشهيد بأيدي الماكرين، وعلى علي إمام العبَّاد المتفكرين، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الراشدين.

* * *

قال اللَّه عز وجل:

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا... ﴾ [(٤)]

كان يعقوب قد ولد في زمن إبراهيم ونبِّئ في زمانه أيضًا، وكان هو والعيص توأمين [(٥)] فاختصما فخرج هاربًا إلى خاله لابان فزوجه ابنته ليا، فولدت له روبيل ثم شمعون ولاوي ويشجب [(٦)] ويهوذا وزبالون، ثم توفيت فتزوج أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، ومعناه ابن الوجع لأنها ماتت في نفاسه، وولد له من غيرها أربعة فكان أولاده اثني عشر، وهم الأسباط.

وكان أحب الخلق إليه يوسف، فحسده إخوته فاحتالوا عليه، فقالوا: يا يوسف أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد؟ فقال: بلى، قالوا: فسَلْ أباك أن يرسلك معنا. فاستأذن فأذن له، فلما أصْحروا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، فجعل كلما التجأ إلى شخص منهم آذاه وضربه، فلما فطن لما عزموا عليه قال: يا أبتاه يا يعقوب لو رأيتَ

---

(١) أ: درعا.

(٢) سورة يوسف: ٧٣.

(٣، ٤) سورة يوسف: ٩١.

(٥) ب: توأما.

(٦) كذا بالأصل، وفي تاريخ ابن كثير: إيساخر.

يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك. فأخذه روبيل فضرب به الأرض وجثم على صدره ليقتله وقال: يا ابن راحيل قل لرؤياك تخلِّصك، وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمسَ والقمر والنجوم ساجدين له، فصاح: يا يهوذا حُلْ بيني وبين من يريد قتلي، فقال يهوذا: ألقوه في غيابة الجب، فنزعوا قميصه لإلقائه، فقال: ردُّوه علي أستر به عورتي ويكون كفنًا لي في مماتي.

فلما ألقوه أخرج الله له حجرًا مرتفعًا من الماء فاستقرت عليه قدماه، وكان يعقوب عليه السلام قد أدرج قميص إبراهيم عليه السلام الذي كُسيه يوم أُلقي في النار في قصبة وجعلها في عنق يوسف، فبعث الله عز وجل ملكًا فاستخرج القميص فألبسه إياه وأضاء له الجب وعذُب ماؤه، وجاءه جبريل يؤنسه، فلما أمسى نهض جبريل ليذهب، فقال له يوسف: إنك إذا خرجتَ عني استوحشتُ، فقال: إذا رهبت شيئًا فقل: يا صريخ المستصرخين ويا غِيَاث [١] المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري، فلما قالها حفت به الملائكة فاستأنس بهم.

وذبح إخوته جدْيًا فلطخوا به القميص، وقالوا: أكله الذئب، ومكث في الجبّ ثلاثة أيام وإخوته يرعون حوله، ويهوذا يأتيه بالقوت.

فلما جاءت السيارة تسقي من الجب تعلق بالحبل فأخرجوه، فجاء إخوة يوسف فقالوا: هذا عبدٌ أبقَ منا، فباعوه منهم بعشرين درهمًا وحُلة ونعلين.

فحملوه إلى مصر فوقفوه للبيع، فتزايد الناس في ثمنه، حتى بلغ وزنه مِسْكًا ووزنه ورِقًا ووزنه حريرًا، واشتراه بذلك قطفير، وكان أمين ملكهم وخازنه، وقال لامرأته زليخا: أكرمي مثواه، فراودته فعُصم منها، فسجنته إذ لم يوافقها، فبقي مسجونًا إلى حين منام الملك، فلما أخرجه من السجن فوض إليه أمر مصر، فجمع الأقواتَ في زمن الرخاء وباع في زمن القحط، فروي أنه باع مكّوك [٢] بُرٍّ بمكوك دُرٍّ، وباع أهل مصر بأموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم، ثم بأولادهم ثم برقابهم، ثم قال: إني قد أعتقتهم ورددت عليهم أموالهم، وكان يوسف عليه السلام لا يشبع في تلك الأيام ويقول: أخاف أن أنسى الجائع، وبلغ القحط إلى كنعان فأرسل يعقوب ولده للميرة، وقال: يا بني قد بلغني أن بمصر ملكًا صالحًا فانطلقوا إليه فأقرئوه مني السلام، فمضوا فدخلوا عليه فعرفهم وأنكروه، فقال: من أين أتيتم؟ فقالوا: من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له: يعقوب، وهو يقرئك السلام، فبكى وعصر عينيه وقال: لعلكم جواسيس،

---

(١) أ: ويا غوث.

(٢) المكوك: مكيال يسع صاعًا ونصفًا.

فقالوا: لا واللَّه، قال: فكم أنتم؟ قالوا: أحد عشر، وكنا اثني عشر، فأكل أحدَنا الذئبُ، فقال: ائتوني بأخيكم الذي من أبيكم، ثم دَرَج بضاعتهم في رحالهم فعادوا إلى أبيهم فقالوا: إنا مُنع منا الكيلُ فأرسلْ معنا أخانا نكتل، فقال يعقوب: هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ ثم حَمَله احتياجه إلى الطعام إلى أن أرسله معهم.

فلما دخلوا على يوسف أجلسَ كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيدًا يبكي، وقال: لو كان أخي حيًّا لأجلسني معه، فضمه يوسف إليه، وقال: أتحب أن أكون أخاك؟ فقال: أيها الملك ومن يجد أخًا مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه فاعتنقه وقال: أنا أخوك، ثم احتال عليه فوضع الصاعَ في رحله، فلما لم يقدروا على خلاصه أقام يهوذا ورجعوا إلى يعقوب يقولون: إن ابنك سرق، فتلقاهم بصبر جميل وانفرد بحزنه.

قال الحسن: ما فارقه الحزنُ ثمانين سنة، وما جفَّت عيناه، وما أحد أكرم على اللَّه منه.

ثم إن ملك الموت لقي يعقوب فسأله: هل قبضتَ روح يوسف؟ قال: لا، فأصبح يقول لبنيه: ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ... ﴿٨٧﴾ ﴾ فلما عادوا إليه ببضاعة مُزجاة وهي القليلة، وقفوا موقف الذل، وقالوا: تصدَّ ق علينا، فقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ... ﴿٨٩﴾ ﴾ وكشف الحجاب عن نفسه، فعرفوه فقالوا: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ... ﴿٩٠﴾ ﴾ فحينئذ قالوا: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا... ﴿٩١﴾ ﴾ قال الزجاج: تاللَّه بمعنى: واللَّه، إلا أن التاء لا يُقسم بها إلا في اللَّه ﷻ، ولا يجوز: تالرحمن ولا تربِّي، والتاء تُبدل من الواو كما قالوا: في وُراث: تراث، وقالوا: يتزن، وأصله يوتزن، من الوزن، ومعنى ﴿ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ... ﴿٩١﴾ ﴾ اختارك وفضلك، وكان قد فُضِّل عليهم بالحُسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ أي لمذنبين آثمين في أمرك.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ... ﴿٩٢﴾ ﴾ أي لا أعيِّركم بما صنعتم، ثم سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاه قميصه وقال: ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا... ﴿٩٣﴾ ﴾ وهو قميص الخليل الذي كان في عنق يوسف، وكان من الجنة، فلما خرجوا من مصر حمل القميصَ يهوذا وقال: أنا حملتُ قميص الدم وها أنا أحمل قميص البشارة، فخرج حافيًا حاسرًا يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها، فقال يعقوب لمن حضر من أهله وولد ولده: ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي تنكرون علي لأخبرتكم أنه حي.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا... ﴿٩٦﴾ ﴾ ثم خرج في نحو من سبعين من أهله، وخرج يوسف لتلقِّيه، فلما التقيا قال يعقوب: السلام عليك يا مُذهب

الأحزان، فقال يوسف: بكيتَ يا أبتي حتى ذهب بصرُك، أما علمت أن القيامة تجمعني وإياك! فقال: يا بني خشيتُ أن يُستلب دينك فلا نجتمع.

وكان يوسف عليه السلام يركب في كل شهر ركبة في ثمانمائة ألف، ومعه ألف لواء وألف سيف، فيدور في عمله فينصف المظلوم من الظالم.

وكانت زليخا تلبس جبة صوف وتشد وسطها بحبل من ليف وتقف على قارعة الطريق فتناديه فلا يسمع، فنادته يومًا: أيها العزيز سبحان من جعل العبيد بالطاعة ملوكًا وجعل الملوك بالمعصية عبيدًا! فسمعها فبكى وقال لفتاه: انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقض لها كل حاجة، فقال لها الغلام: ما حاجاتك يا عجوز؟ فقالت: حاجتي محرمة أن يقضيها غير يوسف، فلما جاء يوسف قال: من أنت يا عجوز؟ فقالت: أنا زليخا، قال: ما فعل حُسنك وجمالك؟ قالت: ذهب به الذي أذهب ذُلَّك ومسْكنتك، فقال: يا زليخا عندي قضاء ثلاث حوائج فسَلِي، فوحق شيبة إبراهيم لأقضينها، فقالت: حاجتي الأولى أن تدعوَ اللَّه لي أن يرد علي بصري وشبابي. فدعا لها، فردّ اللَّه عليها بصرها وشبابها.

ثم قالت: ادع اللَّه أن يرد علي حسني كما كان فدعا لها، فرد عليها حسنها وزيد فيه، فصارت كأنها بنت ثمانية عشرة سنة وكان لها من العمر مائة وعشرون سنة فقالت: وحاجتي الثانية أن تسأل اللَّه تعالى أن يغفر لي ما كان مني، وحاجتي الثالثة أن تتزوج بي، فتزوج بها فأصابها بكرًا وأولدها اثني عشر ولدًا، ذكر هذا أبو الحسين ابن المنادى وغيره عن وهب [1].

وأقام يعقوب عند يوسف أربعًا وعشرين سنة في أهنأ عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل، ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أمره قد تم فقال: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا... ﴿١٠١﴾ ﴾ وأوصى إلى يهوذا.

* * *

فتلمحوا علوّ قدر يعقوب ببلائه وعز يوسف في صبره، وليكن حظكم من هذه القصة: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

وليتفكر العاصي في لذات فنيت وتبعاتٍ بقيت، وليتدبر الصابر لذة مديحه ثبتتْ ومرارة مصابرةٍ خلت [2]، والأمر بآخره وللعواقب يعمل المتيقظ.

---

(١) كان وهب بن منبه يتزيد في أخباره ولا يتحرى الدقة فيما يرويه، وكان عنده أن حكاية الرقائق والعجائب يتسامح فيها، ما دامت لا تحوي أحكامًا أو شرائع، لكن منهج الإسلام يضيق بالأساطير وينفر من حكاية الأخبار غير الموثقة.

(٢) كذا في ت. وفي ب: لذة مربحة ثبتت ومرارة مصابرة نَحلت.

رزقنا اللَّه وإياكم صبرًا يزيننا، وعصمةً من هوًى يشيننا، إنه إن فعل سلمت دنيانا وديننا، إنه قريب مجيب.

* * *

الكلام على البسملة

إلى أي حينٍ أنت في صَبْوة لاهي ... أمالكَ من شيء وعِظتَ به ناهي
ويا مذنبًا يرجو من اللَّه عفوه ... أترضى بسبق المتقين إلى اللَّهِ

يا مبارزًا بالعظائم كيف أمِنْتَ فنِمْت؟! يا مصرًّا على الجرائم عجبًا لك إن سَلِمت، يا مبذِّرًا مُنْذَرًا كأنه ما يسمع، إن فاجأك [1] العذاب فماذا تصنع؟! تدبَّر عقبى أبي الآباء إلى ما آب [2]، وتفكر في حال المذنبين فبئس المآب، بينا هم في أمنٍ قد فرّق بينهم ونعق بينهم للبين غُراب، فتراكم رُكام الهوامّ عليهم في الهواء واللُّعاب، ومرَّ مرير الريق فمشى في المشارع العِذاب، وامتد ساعد البلاء إلى إغلاق باب العتاب، وسئلوا عن جَوْرهم فقوِي قلق الجوَى في الجواب، وذاقوا بعدَ حلاوة الخِلاف من أخلاف الأوصاب الصاب [3]، وانتقى الانتقام نقيّ لذاتهم فخلَتْ مما لذّ أو طاب، ونشبتْ في شِيبهم وشبابهم شبَا سيوف الذم وعتا العتاب، ودخلوا إلى نار تُهاب أوصافها قبل أن يُنتهى إلى الالتهاب، فلما سالت العيون دمًا قرعوا بالأنامل ندمًا لما ناب الناب وحطّ مَنْ رَبا منهم على الرِّبا فاستبدل صوت الأسى عن الرَّباب، فاحذروا أن يصيبكم من نصيبكم مثل حصصهم، فلقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب.

ولقد رأيتُ معاشرًا جمحتْ بهم ... تلك الطبيعةُ نحو كل تَبارِ
تَهْوى نفوسُهم هوى أجسامهم [4] ... شُغلًا بكل دناءةٍ وصغارِ
تبعوا الهوى فهوى بهم وكذا الهوى ... منه الهوانُ بأهله فحذارِ
فانظر بعين الحق لا عين الهوى ... فالحقُّ للعين الجليّة عارِ
قادَ الهوَى الفجّار فانقادوا له ... وأبتْ عليه مقادةُ الأبرار

إخواني: من فعل ما يحب لقي ما يكره، ومن صبر على ما يكره نال ما يحب، لا تقطع مشاورة العقل قبل مشاورة الهوى، فإن المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل،

---

(١) في ب: ناجاه، محرفة.
(٢) كذا في ت. وفي ب: أنا الآن، محرفة.
(٣) الصاب: المر.
(٤) الأصل: جسومهم، محرفة.

لم تزل أكفُّ العقل ضابطةً أعنة النفوس، غير أن العزم ينقلب، ركوب الأخطار يسُوق الأقدار، من قرأ والناس نيام تكلَّم والناس سكوت.

وهبَ بعضُ الملوك جاريةً يحبها، فقال الموهوب له: لا أفرق بينك وبين من تهواه، فقال: خذها وإن كنت أحبها ليعلم هواي أني غير طائع له (١).

وقيل للمرتعش: إن فلانًا يمشي على الماء، فقال: إنَّ مَنْ مَكَّنه اللَّه ﷻ من مخالفة هواه أعظم من المشي على الماء (٢).

فإن المرَّ حين يسُرّ حُلو ... وإن الحلو حين يضُر مُرُّ
فخذ مرًّا تصادف منه نفعًا (٣) ... ولا تعْدل إلى حلوٍ يضرّ

صابرْ ليل البلاء فقد دنا الفجر، واثبت لعمل نهار العمل تستوف الأجر، واحبس نفسك عن هواها فسينفعك الحجْر، وارجزْ لها فإن لم تسر بالرّجز فبالزجْر، ما نال من نال ما نال إلا بالصبر، وبه علا ذِكْر كل عابدٍ وحَبْر، وهو وإن مرَّتْ مذاقته بانت حلاوته في القبر، أيها النائم وهو منتبه، المتحير في أمرٍ لا يشتبه، يا من قد صاح به الموت في سَلْب صاحبه وهو مغرور بجهله مفتون بلعبه، يا واقفًا مع الهوى والطبع، أأمنت شَيْنَ القلب بالختم والطبع؟!

[يا عظيم الشقاق، يا قليل الوفاق، يا مرير المذاق، يا قبيح الأخلاق، يا كثير التواني قد سار الرفاق، يا شديد التمادي قد صَعُب اللحاق، إخلاصك معدوم وما للنفاق نَفاق، ومعاصيك في ازدياد والعمر في انمحاق، وساعي أجلك مجدّ كأنه في سباق، لا الوعظ ينذرك ولا الموت يزجرك ما تطاق (٤)].

اترك الشرَّ ولا تأنس بشرّ ... وتواضعْ إنما أنت بشرْ (٥)
هذه الأجسامُ تُرْب هامدٌ ... فمن الجهل افتخارٌ وأشرْ
جسدٌ من أربعٍ تلحظها ... سبعة من فوقها في اثني عشر
فعجيب فرحُ النفس إذا ... شاع في الأرض ثناها وانتشرْ
مستشارٌ خائن في نصحه ... وأمينٌ ناصح لم يُستشرْ

---

(١) ذم الهوى: ص ٢٦.
(٢) ذم الهوى: ص ٣٠.
(٣) ب: حلوًا.
(٤) ما بين القوسين مكرر، وقد سبق أن ذكره المؤلف.
(٥) العجيب أن ابن الجوزي - يرحمه اللَّه - كان يعمد إلى أشعارٍ لأبي العلاء المعري فينسج على منوالها ويغير ألفاظها، وقد يبقي بعض أبياته، وهذه القطعة ليس فيها شيء لأبي العلاء إلا البيتين السابع والثامن وهما في قطعة لأبي العلاء في اللزوميات: ٦٠٩/١، ط صادر، وأول هذه القطعة عند أبي العلاء:

أمر الخالق فاقبل ما أمر ... واشكر اللَّه إن العذب أمر

فـافـعـل الخيـر وأمِّـل غِـبَّـه   فـهـو الـذُّخر إذا اللّـه حشَـرْ
أضْمِـر الخيـفة واضـمُرْ قـلَّـما   أحرز الطرف المدى حتى ضمر [(١)]
وَهِـيَ الـدنـيـا أذاهـا أبــدًا   زُمَـرٌ واردةٌ إثــر زُمَــرْ [(٢)]
فــي حــياة كــخيالٍ طارقٍ   شـغـل الـفـكر وخلّاك ومـر

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ... ﴾ [(٣)]

أصل القضاء: الحتم، **وهو في القرآن على ثلاثة عشر وجهًا: أحدها**: الفراغ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ [(٤)] **والثاني**: الفعل ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [(٥)] **والثالث**: الإعلام ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... ﴿٤﴾ ﴾ **والرابع**: الموت ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [(٦)] **والخامس**: وجوب العذاب ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [(٧)] **والسادس**: التمام ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ [(٨)] **والسابع**: الفصل ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [(٩)] **والثامن**: الخلق ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ [(١٠)] **والتاسع**: الحتم ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [(١١)] **والعاشر**: ذبح الموت ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [(١٢)] **والحادي عشر**: إغلاق أبواب جهنم ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [(١٣)] **والثاني عشر**: الحكم ﴿ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ [(١٤)] **والثالث عشر**: الأمر ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ... ﴿٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا... ﴿٢٣﴾ ﴾ وهو البر والإكرام ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ... ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) كانت في الأصل:

أضـمـر الـخـيـفـة وأظـهـر نـدمًا   قل ما أحرز الطرف المدى حين ضمر.

وما أثبته من اللزوميات لأبي العلاء المعري: ١/٦٠٩، ط صادر بيروت، ومعنى ضمر: قلَّل مطعمه حتى يضمر وينحف.

(٢) الأصل:

وهـي الـدنـيـا أذاهـا أبـدًا   زمـرًا واردة بـعـد زمـر

وما أثبته من اللزوميات: ١/٦٠٩.

(٣) سورة الإسراء: ٢٣. (٤) سورة الجمعة: ١٠. (٥) سورة طه: ٧٢.
(٦) سورة الزخرف: ٧٧. (٧) سورة هود: ٤٤. (٨) سورة طه: ١١٤.
(٩) سورة الزمر: ٧٥. (١٠) سورة فصلت: ١٢. (١١) سروة مريم: ٢١.
(١٢) سورة مريم: ٣٩. (١٣) سورة إبراهيم: ٢٢. (١٤) سورة النساء: ٦٥.

قال الفراء: جعلت يبلغن فعلًا لأحدهما، وكرر عليه ﴿ كِلَاهُمَا... ﴿٢٣﴾ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ يبلِّغان ﴾ على التثنية؛ لأنهما قد ذُكرا قبل ذلك، ثم قال: ﴿ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا... ﴿٢٣﴾ ﴾ على الاستئناف كقوله ﴿ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ﴾ (١) ثم استأنف فقال: ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (٢).

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: لا تقل لهما كلامًا تتبرَّم فيه بهما إذا كَبِرا، قال أبو منصور اللغوي: أصل أف نفخك الشيء يسقط عليك من تراب أو نحوه، وللمكان تريد إماطة الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقل.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي لا تكلمهما ضجِرًا صائحًا في وجوههما، قال عطاء بن أبي رباح: لا تنفض يدك عليهما، قال العلماء: إنما نهى عن الأذى لهما في حالة الكبر وإنْ كان منهيًّا عنه في كل حال؛ لأن حال الكبر يظهر فيها منهما ما يُضجِر ويؤذي، وتكثر خدمتهما.

﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي لينًا لطيفًا أحسن ما تجد، وقال سعيد بن المسيب: قول العبد المتذلل للسيد الفظّ.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ... ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: ألنْ لهما جانبك متذللًا لهما من رحمتك إياهما، وخفض الجناح عبارة عن السكون وترك التعصب والإيذاء ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي مثل رحمتهما إياي في صغري حين ربياني.

أخبرنا هبة اللّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، أنبأنا عبد اللّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا مِسْعر وسفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي العباس المكي، عن عبد اللّه بن عمر قال: جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فقال رسول اللّه ﷺ: « أحيٌّ والداك »؟ قال: نعم، قال: « ففيهما فجاهد ». (أخرجاه في الصحيحين) (٣).

وبالإسناد حدثنا وكيع، قال: حدثنا سفيان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا يجزي ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه » (٤).

أخبرنا علي بن عبد اللّه بن أحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن محمد، قالوا: حدثنا عبد الصمد بن المأمون، أنبأنا علي بن عمر السكري، حدثنا محمد بن علي بن حرب،

(١ ، ٢) سورة المائدة: ٧١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب رقم : ١٣٨. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب العتق، حديث رقم : ٢٥. وسنن الترمذي، كتاب البر، باب رقم : ٨.

حدثنا سليمان بن عمر، حدثنا عيسى بن يونس، ح، وأنبأنا علي بن عبد اللَّه، ومحمد ابن عبد الباقي، أنبأنا أبو محمد الصريفيني، أنبأنا أبو حفص الكِنَاني، أنبأنا أبو عبد اللَّه ابن مخلد، حدثنا يونس بن يعقوب، حدثنا علي بن عاصم، ح، وأنبأنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو إسحاق البرمكي، حدثنا أبو محمد بن ماسي، أنبأنا أبو مسلم الكَجِّي، حدثنا محمد بن عبد اللَّه الأنصاري، عن بهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة القشيري، عن أبيه عن جده، قال: قلت: يا رسول اللَّه من أبرُّ؟ قال: « أمك »، قلت: ثم من؟ قال: « أمك ». قلت: ثم من؟ قال: « أمك، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب » [١].

أخبرنا عمر بن ظفر، أنبأنا أبو غالب الباقلاوي، أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي، أنبأنا أبو نصر النيازكي، أنبأنا أبو الخير الكرماني، حدثنا البخاري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أنبأنا محمد بن أبي جعفر بن كثير، أخبرني زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبتْ أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبّت أن تنكحه فَغِرْت عليها فقتلتها، فهل من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى اللَّه عز وجل وتقرب إليه ما استطعت، فسألتُ ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ قال: إني لا أعلم عملًا أقرب إلى اللَّه عز وجل من بر الوالدة.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال: السلام عليك يا أماه ورحمة اللَّه وبركاته، فتقول: وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته، فيقول: رحمك اللَّه كما ربيتيني صغيرًا، فتقول: رحمك اللَّه كما برَرْتَني كبيرًا، وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رجلان من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم أبرّ من كان في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان وحارثة بن النعمان رضي الله عنهما.

أما عثمان فإنه قال: ما قدرت أتأمل وجه أمي منذ أسلمتُ، وأما حارثة فكان يطعمها بيده ولم يستفهمها كلامًا قط تأمره به حتى يسأل مَنْ عندها بعد أن يخرج: ماذا قالت أمي؟

وكان حُجر بن عدي [٢] بن الأدبر يلتمس فراش أمه بيده فيتهم غِلظ يده، فيتقلب عليه على ظهره، فإذا أمن أن يكون عليه شيء أضجعها.

وكان ظَبيان بن علي من أبرِّ الناس بأمه، فباتت ليلة وفي صدرها عليه شيء فقام على رجليه قائمًا يكره أن يوقظها ويكره أن يقعد، حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم: ٢.

(٢) ب: ابن علي.

فما زال معتمدًا عليهما حتى استيقظتْ من قبل نفسها.

وكان محمد بن سيرين لا يكلم أمه بلسانه كلمة تخشُّعًا لها.

وكان محمد بن المنكدر يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه: ضعي قدمك عليه.

وقال ابن المنكدر: بِتُّ أغمز رجل أمي وبات أخي عمر يصلي، وما يسرني أن ليلتي بليلته.

وروينا عن ابن عون أن أمه نادته فأجابها، فعلا صوته على صوتها، فأعتق رقبتين.

وقال بشر الحافي: الولدُ يقرب من أمه بحيث يُسمع أمه أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل اللَّه، والنظر إليها أفضل من كل شيء.

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه ذكر في الكبائر عقوق الوالدين (١) وفيهما من حديث جبير بن مطعم عنه ﷺ أنه قال: « لا يدخل الجنة قاطع » (٢) قال سفيان: قاطع رحم.

وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يدخل الجنة عاق » (٣).

وقال محمد بن مُحيريز: من مشى بين يدي أبيه فقد عقَّه إلا أن يمشي فيميط الأذى عن طريقه، ومن دعا أباه باسمه أو بكنيته فقد عقه إلا أن يقول: يا أبت.

وفي حديث أبي أسيد أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه هل بقي من برِّ أبويَّ شيء بعد موتهما؟ قال: « نعم خصال أربع: الدعاء والاستغفار لهما، وإيفاء عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما » (٤).

وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « أبرُّ البر صلة المرء أهلَ ودّ أبيه بعد أن توفي » (٥).

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذْهب، أنبأنا أبو بكر بن مالك، أنبأنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين، عن زيان، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للَّه تعالى عبادًا لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم » قيل له: من أولئك يا رسول اللَّه؟ قال: « متبرئ من والديه راغب عنهما، ومتبرئ من ولده، ورجل أنعم عليه قومٌ فكفر نعمتهم وتبرأ منهم » (٦).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ١١. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٨، ١٩.

(٣) مسند أحمد : ٢/٢٠١ - ٢٠٣.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب رقم : ٢، ومسند أحمد : ٣/٤٩٨.

(٥) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١١، ١٢. ومسند أحمد : ٢/٨٨ - ٩١ - ٩٧ - ١١١.

(٦) مسند أحمد : ٣/٤٤٠.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبُّ الرجلُ أبا الرجل، فيسبُّ أباه ويسب أمه فيسب أمه » [1].

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾:

الويل كل الويل لعاق والديه، والخزي كل الخزي لمن ماتا غِضابًا [2] عليه، أف له هل جزاء المحسن [3] إلا الإحسان إليه؟ أتْبع الآن [4] تَفْريطك في حقهما أنينًا وزفيرًا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

كم آثراك بالشهوات على النفس، ولو غبتَ ساعة صارا في حبْس، حياتهما عندك بقايا شمس، لقد راعياك طويلًا فارْعهما قصيرًا، ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

كم ليلة سهرا معك إلى الفجر، يداريانك مداراة العاشق في الهجر، فإن مرضت أجريا دمعًا لم يجر، تالله لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحِجْر سريرًا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

يعالجان [5] أنجاسك ويحبان [6] بقاءك، ولو لقيتَ منهما أذًى شكوت شقاءك، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك، كم جرَّعاك حُلوًا وجرّعتهما مريرًا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

أتحْسن الإساءة في مقابلة الإحسان، أو ما تأنف [7] الإنسانية للإنسان، كيف تعارض حسن فضلهما بقبح العصيان، ثم ترفع عليهما صوتًا جهيرًا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

تحب أولادك طبعًا، فأحبب والديك شرْعًا، وراع أصلًا أثمر لك فرعًا، واذكر لطفهما بك وطيب المرعى أولًا وأخيرًا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

تصدق عنهما إن كانا ميتين، وصلِّ لهما واقض عنهما الدين، واستغفر لهما واستدم هاتين الكلمتين، وما تُكلف إلا أمرًا يسيرًا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

* * *

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٤.
(٢) ت: غضبانين.
(٣) ب: الإحسان.
(٤) ب: ابتغ الآن. محرفة.
(٥) ب: يعالجون.
(٦) ت: ويختاران.
(٧) ب: أو تأنف.

المجلس الثالث عشر

في قصة أيوب عليه السلام

الحمد لله الذي ابتعث بلطفه السحاب، فروّى الأودية والهضاب، وأنبت الحدائق وأخرج الأعناب، وألبس الأرض نباتًا أحسن من ثياب [١] العُنَّاب، يبتلي ليُدعى وإذا دُعي أجاب، قضى على آدم بالذنب ثم قضى أنْ تاب، ورفع إدريس بلطفه إلى أكرم جناب، وأرسل الطوفان وكانت السفينة من العُجَاب، ونجّى الخليل من نار شديدة الالتهاب، وكانت سلامة يوسف عبرةً لأولي الألباب، وشدد البلاء على أيوب ففارقه الأهل والأصحاب، وعضه البلاءُ إلى أن كلَّ الظفر والناب، فنادى مستغيثًا بالمولى فجاء الجواب: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [٢].

أحمده حمدَ من أخلص وأناب، وأصلي على رسوله أفضل نبي نزل عليه أفضل كتاب، وعلى صاحبه أبي بكر مقدم الأصحاب، وعلى الفاروق عمر بن الخطاب، وعلى عثمان شهيد الدار وقتيل المحراب، وعلى عليٍّ المهيب وما سلّ سيفًا بعدُ من قراب، وعلى عمه العباس المقدم نسبه على الأنساب.

* * *

قال الله عز وجل:

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ... ﴾ [٣]

أيوب: اسم أعجمي، وهو أيوب بن أموص بن رزاح [٤] بن العيص بن إسحاق ابن إبراهيم، وأبوه ممن آمن بالخليل يوم أُحرق، وأمه بنت لوط النبي عليه السلام، وكان أيوب في زمن يعقوب عليه السلام، فتزوج ابنة يعقوب، وكان غزير المال كثير الضيافة، وكان إبليس لا يُحجب يومئذ من السموات، فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فحسده، فقال: يا رب لو صدمتَ أيوبَ بالبلاء لكفر، فسلِّطْني عليه، فقال: قد سلطتك على ماله وولده، فجمع إبليس جنوده فأرسل بعضهم إلى دوابه وبعضهم إلى زرعه وبعضهم إلى أولاده، وكان له ثلاثة عشر ولدًا، وقال إبليس لأصحابه: تابعوه المصائب [٥] بعضها إثر

(١) ب: من نبات الغياب، ولعلها محرفة.
(٢) سورة ص: ٤٢.
(٣) سورة ص: ٤١.
(٤) ت: ابن رازح.
(٥) ت: ابتلوه بالمصائب بعضها على إثر بعض.

بعض، فجاء صاحبُ الزرع فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى زرعك نارًا فأحرقتْه، وقال راعي الإبل: ألم تر إلى ربك أرسل غَدَدًا (١) فذهبت بالإبل، وقال: كذلك صاحب البقر والغنم، فقال: الحمد للَّه الذي رزقني وقَبِله مني، وتفرد إبليس لبنيه فجمع أركانَ البيتِ فهدمه عليهم وجاء فقال: يا أيوب إن البيت وقع على بنيك، فلو رأيت كيف اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم، فقال: لو كان فيك خير لقبضك معهم فانصرفْ خائبًا، فقال: يا رب سلطني على جسده، فسُلط فنفخ تحت قدميه نفخة فقرِح بدنه، قال مجاهد: أول من أصابه الجدري أيوب، وقال وهب: كان يخرج عليه مثل ثدايا النساء ثم يتفقأ، قال العلماء: لم يبق منه إلا اللسان للذكر والقلب للمعرفة، وكان يرى مِعَاه وعروقه وعظامه، ووقعت به حِكّة لا يملكها، فحكَّ بأظفاره فسقطت، ثم بالمسوح ثم بالحجارة وأنتن جسمه وتقطع، وأخرجه أهلُ القرية فجعلوا له عريشًا على كناسة، ورفضه الخلقُ سوى زوجته رحمة بنت أفراييم بن يوسف بن يعقوب، فكانت تختلف إليه بما يصلحه.

وفي مدة لبثه في البلاء أربعة أقوال:

أحدها: ثماني عشرة سنة، رواه أنس عن النبي ﷺ.

والثاني: سبع سنين، قاله ابن عباس وكعب.

والثالث: سبع سنين وأشهر، قاله الحسن.

والرابع: ثلاث سنين، قاله وهب.

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال:

أحدها: أنه اشتهى أدْمًا فلم تصبه امرأته حتى باعت قرنًا من شعرها، فلما علم ذلك قال: مسَّني الضر، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن اللَّه تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره للَّه تعالى، فلما انتهى زمان البلاء ألهمه اللَّه تعالى الدعاء، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن نفرًا من بني إسرائيل مروا به فقال بعضهم: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعندها دعا، قاله نَوْف البِكَالي (٢)، وقال عبد اللَّه بن عبيد بن عمر: كان له أخوان فأتياه يومًا فوجدا ريحًا فقالا: لو كان اللَّه علم منه خيرًا ما بلغ به هذا، فما سمع شيئًا أشد عليه من ذلك، فقال: اللَّهم إن كنت تعلم أني لم أبتْ ليلةً شبعان وأنا أعلم

---

(١) ت: عدوًّا فذهب، والغدد: طاعون الإبل.

(٢) نسبة إلى بني بكال بطن من حمير. اللباب: ١/١٩٠. بتحقيقي.

مكانَ جائع فصدِّقني، فصدِّق وهما يسمعان، ثم قال: اللَّهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصًا وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقني، فصدق، وهما يسمعان، فخر ساجدًا ثم قال: اللَّهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي، فكشف ما به.

والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة [1] فقال: ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ، فجاءت فأخبرته فقال: إن شفاني اللَّه لأجلدنك مائة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير اللَّه؟! ثم طردها عنه فذهبت، فلما رأى أنه لا طعام ولا شراب ولا صَدِيق خر ساجدًا وقال: مسني الضر، قاله الحسن.

والخامس: أن اللَّه أوحى إليه في عنفوان شبابه: إني مبتليك، فقال: يا رب وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، فصبَّ عليه من البلاء حتى إذا بلغ البلاء منتهاه أوحى اللَّه: إني معافيك. قال: يا رب وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال: مسني الضر، قاله إبراهيم بن شيبان.

والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يومًا، فخاف هجران ربه فقال: مسني الضر. ذكره الماوردي.

ومعنى: ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥ... ﴿٤١﴾ ﴾ دعا، وإنما أضاف الأمر إلى الشيطان لأن الشيطان سلط عليه.

قوله تعالى: ﴿ بِنُصْبٍ... ﴿٤١﴾ ﴾ قرأ الحسن: ﴿ بنَصَب ﴾ بفتح النون والصاد، قال الفراء: هما كالرُّشْد والرَّشَد، وقال أبو عبيدة: النُّصب بتسكين الصاد: الشر، وبتحريكها الإعياء، والمرادُ بالعذاب: الألمُ.

قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ... ﴿٤٢﴾ ﴾ قال المفسرون: جاءه جبريل فأخذه بيده، فقال: قم، فقام فقال: اركض برجلك، فركض فنبعت عينٌ، فقال: اغتسل، فاغتسل، ثم نحاه قال: اركض برجلك فركض، فنبعت عين، فقال: اشرب فشرب، قال: ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ... ﴿٤٢﴾ ﴾ قال ابن قتيبة: المغتسل: الماء، وهو المغسول أيضًا، ثم ألبسه جبريل حلة من الجنة وجاءت امرأته فقالت: يا عبد اللَّه أين المبتلى الذي كان هاهنا لعل الذئاب ذهبت به، فقال: ويحك أنا أيوب، فقالت: اتق اللَّه ولا تسخر بي، قال ابن مسعود: ردَّ اللَّه عليه أهله بأعيانهم وآتاه مثلهم معهم في الدنيا، قال ابن عباس: كانت قد ولدت له سبع بنين وسبع بنات، فنُشروا له وولدت له تسع بنين وسبع بنات، وقال مجاهد: آتاه اللَّه أجور أهله في الآخرة وآتاه مثلهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا... ﴿٤٤﴾ ﴾ كان قد حلف ليجلدنَّ زوجته مائة جلدة.

---

(١) السخلة: ولد الشاة.

- **وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال:**

أحدها: حديث السَّخلة الذي سبق.

الثاني: أن إبليس جلس في طريق زوجته كأنه طبيب، فقالت له: عبد اللَّه هاهنا رجل مبتلًى، فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم إني شافيه على أن يقول لي إذا برأ: أنت شفيتني. فجاءت فأخبرته فقال: ذاك الشيطان، للَّه علي إن شفاني اللَّه أن أجلدك مائة، قاله ابن عباس.

والثالث: أن إبليس لقيها فقال: أنا الذي فعلت بزوجك وأنا إله الأرض، وما أخذته منه فهو بيدي فانطلقي فأريك، فمشى غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها واديًا عميقًا فيه أهلها ومالها وولدها، فأتت أيوب عليه السلام فأخبرته، فقال: ذاك الشيطان، ويحك كيف وَعَى سمعُك قولَه، واللَّه لئن شفاني اللَّه لأجلدنك مائة، قاله وهب.

- **وأما الضغْث** فقال ابن قتيبة: هو الحزمة من الخِلال والعيدان، قال المفسرون: جزى اللَّه زوجته بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها، فسهَّل الأمر، فجمع لها مائة عود، وقيل: مائة سنبلة، وقيل: كانت أسَلًا، وقيل: كانت شماريخ، فضربها ضربة واحدة.

- **وهل ذلك خاص له أم عام؟ فيه مذهبان:**

أحدهما: أنه عام، قاله ابن عباس وعطاء.

والثاني: خاص له، قاله مجاهد، وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة، فقال مالك والليث بن سعد: لا يبر، وهو قول أصحابنا، وقال أبو حنيفة والشافعي إذا أصابه في الضربة الواحدة كلُّ واحد منها فقد برَّ، واحتجوا بعموم قصة أيوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ... ﴿٤٤﴾﴾ قال مجاهد: يجاء بالمريض يوم القيامة، فيقال: ما منعك أن تعبدني؟ فيقول: يا رب ابتليتني، فيجاء بأيوب في ضُره فيقول: أنت كنت أشد ضرًّا أم هذا؟ فيقول: بل هذا، فيقول: هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني.

ما ضرَّ أيوبَ ما جرى، كأنه سِنة كَرى، ثم شاعت مدائحه بين الورى، وإنما يصبر من فهم العواقب ودرى.

* * *

الكلام على البسملة

منافسة الفتى (١) فيما يزول على نقصانِ همته دليلُ
ومختارُ القليل أقلُّ منه وكلُّ فوائد الدنيا قليلُ

يا قليل الصبر عن اللَّهو والعبث، يا من كلما عاهد غدر ونكث، يا مغترًّا بساحر الهوى كلما نفث، تاللَّه لقد بولغ في توبيخه وما اكترث، وبُعث إليه النذير ولا يدري من العبث مَنْ بَعث، سيندم من للقبيح حَرَث، سيبكي زمانَ الهوى حين الظمأ عند اللَّهث، سيعرف خبره العاصي إذا حل الجدث، سيرى سيره إذا ناقش المسائل وبحث، سيقرع سِنَّ الندم إذا نادى ولم يُغث، عجبًا لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث.

كان الشِّبلي يقول: لا تغترِرْ بدار لا بد من الرحيل عنها، ولا تخرب دارًا لا بد من الخلود فيها.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، أنبأنا أبو بكر الخطيب، أنبأنا الحسن بن أحمد الدَّوْرقي، حدثنا جعفر بن محمد بن أحمد المؤدب، حدثنا محمد بن يونس، حدثنا شداد بن علي الهرَّابي، حدثنا عبد الواحد بن زيد قال: مررت براهب فناديته: يا راهب من (٢) تعبد؟ قال: الذي خلقني وخلقك، قلت: عظيمٌ هو؟ قال: قد جاوزتْ عظمتُه كلّ شيء، قلت: فمتى يذوق العبد حلاوة الأنس باللَّه؟ قال: إذا صفا الودُّ وخلصت المعاملة، قلت: فمتى يصفو الودّ؟ قال: إذا اجتمع الهمُّ في الطاعة، قلت: فمتى تخلص المعاملة؟ قال: إذا كان الهم همًّا واحدًا، قلت: فكيف تخليت بالوحدة؟ قال: لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، قلت: فما أكثر ما يجد العبد من الوحدة؟ قال: الراحة من مداركة الناس والسلامة من شرهم، قلت: بماذا يستعان على قلة المطعم؟ قال: بالتحرِّي في المكسب، قلت: زدني خِلالًا، قال: كُلْ حلالًا وارقد حيث شئت. قلت: فأين طريق الراحة؟ قال: خلاف الهوى، قلت: لم تعلقت في هذه الصومعة؟ قال: مَنْ مشَى على الأرض عَثَر، فتحصَّنت بمن في السماء من فتنة أهل الأرض؛ لأنهم سُرّاق العقول، وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرض فأحبَّ قرب السماء، قلت: يا راهب من أين تأكل؟ قال: مِنْ زَرْع لم أَبذره، قلت: من يأتيك به؟ قال: الذي نَصَب الرَّحَا يأتيها بالطحين، قلت: كيف ترى حالك؟ قال: كيف يكون حال من أراد سفرًا بلا أهبة، ويسكن قبرًا بلا مؤنس، ويقف بين حَكَم عدل، ثم أرسل عينه وبكى، قلت:

(١) الأصل: الهوى. محرفة.
(٢) ب: لمن تعبد.

ما يبكيك؟ قال: ذكرت أيامًا مضت من أجلي لم أحقق فيها عملي، وفكرت في قلة الزاد وفي عقبة هبوط إلى الجنة أو إلى النار، قلت: يا راهب بم يُستجلب الحزن؟ قال: بطول الغُربة، وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد، ولكن الغريب صالحٌ بين فُسَّاق.

ثم قال: إن سرعة الاستغفار توبةُ الكذابين، لو علم اللسان مما يستغفر لجفَّ في الحنك، إن الدنيا منذ ساكَنها الموتُ ما قرَّت بها عينٌ، كلما تزوجت الدنيا زوجًا طلقه الموت، فمثلها كمثل الحية لينٌ مسُّها (١) والسم في جوفها.

ثم قال: عند تصحيح الضمائر يغفر اللَّه الكبائر، وإذا عزم العبدُ على ترك الآثام أتته من السماء الفتوح، والدعاء المستجاب الذي تحرِّكه الأحزان.

قلت: فأكون معك يا راهب؟ قال: ما أصنع بك ومعي معطي الأرزاق وقابض الأرواح، يسوق إليَّ الرزق في كل وقت، لم يكلفني جمعه ولم يقدر على ذلك أحدٌ غيره.

* * *

اسمع يا خائن الذمم يا مضيع الحُرَم، يا من على التوبة عزم زعم، غير أنه كلما بنى أن يَلُوذ بنا هدم، يسعى إلى الهدى فإذا رأى جيفة الهوى جَثَم، ويحك إطلاقُ البصر في سُور الحذر ثَلَم، عجبًا لأمنك وأنت بين فكَّيْ جَلَم (٢)، كأنك بك تتمنى العدم، وتبكي على تفريطك بندم، إلى كم هذا التواني كم كم وكم، إياك والدنيا فما تشفي مِنْ قَرَم (٣)، لمن تحدث لقد نفخنا من غير ضرم.

كم أسير لشهوة وقتيلٍ   أُفٍّ لمُشترٍ (٤) خلافَ الجميل
شهواتُ الإنسان تُورثه الذلَّ   وتُلقيه في البلاء الطويل (٥)

يا حائرًا لم يؤثر إلا خلافًا، يا واعدًا بالتوبة ولم نرَ إلا إخلافًا، متى ستعمل عدْلًا، وتورث إنصافًا، أتصافي الهوى من اليوم إنْ صافَى، أما ترى الناس بهذه الدار أضيافًا، أتوقن بالحساب وترمي الفعل جُزافًا، أتنسى الموت وكم قد أقام سيَّافًا، أما بقي القليل ثم تلحق أسلافًا، متى تعاملنا باليسير فنضاعفه أضعافًا.

إذا كثُرتْ منك الذنوبُ فداوها   برفْع يدٍ في الليل والليلُ مظلمُ
ولا تقنطنْ من رحمة اللَّه إنما   قُنوطك منها من خطاياك أعظمُ

---

(١) ب: لمسها لين. وما أثبته من ب.
(٢) الجلم: المقص أو المقراض.
(٣) القرم: شدة شهوة اللحم.
(٤) كذا بالأصل. وفي ذم الهوى: أف للمشتهي.
(٥) ذم الهوى: ص ٣٣، عن الحسن بن سلمان الأبلي.

فرحمته للمحسنين كرامةٌ ورحمته للمسرفين تكرُّمُ

قال بنان: دخلت على ابن العرْجي وهو في بيتٍ مملوء كتبًا، فقلت له: اختصر لي من هذه الكتب كلمتين أنتفع بهما، قال: ليكن همُّك مجموعًا فيما يُرضي اللَّه ﷻ، فإن اعترض عليك شيء فتُبْ من وقتك.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ... ﴾ [(١)]

كان كفار قريش كأبي جهل وعتبة والوليد قد اتخذوا فقراءَ الصحابة كعمَّار وبلال وخبَّاب وصُهيب سخريًّا يستهزئون بهم ويضحكون منهم، فإذا كان يوم القيامة قيل لهم: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ... ﴿١١١﴾ ﴾ على أذاكم واستهزائكم.

لمَّا علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة دافعوا زمان البلاء وأدْلجوا في ليل الصبر علمًا منهم بقرب فَجْر الأجْر، فما كانت إلا رقدة حتى صبَّحوا منزلَ السلامة [(٢)]، نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد، فتعلقت يد الآمال بما عاينت بواطن [(٣)] القلوب، وأخمصوا عن الحرام البطون، وغضُّوا عن الآثام الجفون، وسكبوا في ظلام الليل الدموع، وتململوا تململ الملسوع، استقاد قلوبهم زمانُ التلطُّف، ثم حثَّها سائقُ التعسف، فكلما ألاح لهم الرجاء نورَ الوصال طبق ظلامُ الخوف سماء الأعمال، فهم في بيداء التحير يسْرحون، ومن باب التضرع لا يبرحون، وحُزنهم أولى [(٤)] مما يفرحون، فإذا عمهم الغمُّ فبالذكر يتروَّحون، رفضوا الدنيا فَسلِموا وطلبوا الأخرى فما ندموا، يا بشراهم إذا قدِموا وغنموا.

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد الحيريّ، أنبأنا أبو عبد اللَّه الشيرازي، حدثنا أبو زُرعة الطبري، حدثني يحيىٰ بن عبد اللَّه بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الصمد، حدثنا سعيد بن نصر، حدثني محمد بن يحيى بن عبد الكريم، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي قال: حدثني حكيم من الحكماء قال: مررت بعريش مصر وأنا أريد الرِّباط، فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد للَّه حمدًا يوافي شكرك بما أنعمتَ عليَّ وفضلتني على كثير من خلقك تفضيلًا، فقلت:

---

(١) سورة المؤمنون: ١١١.

(٢) ت: حتى أصبحوا بمنزل السلامة.

(٣) ت: نواظر.

(٤) ت: أوفى.

لأنظرن أشيء عُلِّمه أو أُلهمه إلهامًا، فقلت: على أي نعمة تحمده، فواللّه ما أرى شيئًا من البلاء إلا وهو بك! فقال: ألا ترى ما قد صنع بي؟ فواللّه لو أرسل السماء عليّ نارًا فأحرقتني وأمر الجبال فدكتني وأمر البحار فغرّقتني ما ازددتُ له إلا حمدًا وشكرًا، ولكن لي إليك حاجة، بنية لي كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري فانظر هل تحس بها؟ فقلت: واللّه إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قُربة إلى اللّه عز وجل. فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها، فقلت: إنا للّه وإنا إليه راجعون، من أين آتي هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته؟! فأتيته فقلت: أنت أعظمُ عند اللّه منزلةً أمْ أيوب؟ ابتلاه اللّه تعالى في ماله وأهله وولده وبدنه حتى صار غرضًا للناس؟ فقال: لا بل أيوب، فقلت: إن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتُها فإذا السبع قد أكلها، فقال: الحمد للّه الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي شيء، ثم شهق شهقة فمات، فصليتُ عليه أنا وجماعة معي ثم دفنته، ثم بِتُّ ليلتي حتى إذا مضى من الليل قدر ثلثه وإذا به في روضة خضراء وإذا عليه حُلّتان خضراوان وهو قائم يتلو القرآن، فقلت: ألستَ صاحبي بالأمس؟ فقال: بلى، فقلت: ما صيَّرك إلى ما أرى؟ فلقد زدتَ على العابدين درجة لم ينالوها، قال: بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا أبو طالب اليوسفي، أنبأنا يوسف بن محمد المهراني، أنبأنا أحمد بن محمد بن حسنون، حدثنا جعفر الخوّاص، حدثنا ابن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر، حدثني حريث بن طرفة قال: كان حسان بن أبي سِنان يصوم الدهر ويفطر على قُرص ويتسحر بآخر، فنحل وسقم جسمه حتى صار كهيئة الخيال، فلما مات وأُدخل مغتسله ليغسل كشف الثوب عنه فإذا هو كالخيط [1] الأسود قال: وأصحابه يبكون حوله، قال حريث: فحدثني يحيى البكّاء وإبراهيم بن محمد الغُرني [2] قالا: لما نظرنا إلى حسان على مغتسله وما قد أبْلاه الدءوب استدمع أهل البيت وعلت أصواتهم، فسمعنا قائلا يقول من ناحية البيت:

تجــوَّعَ لــلإلــه لــكــي يــراه ... نحيلَ الجسم من طول الصيامِ

فواللّه ما رأينا في البيت إلا باكيًا ونظرنا فلم نر أحدًا، قال حُريث: فكانوا يَرْوون أن بعض الجن قد بكاه.

قال بعض أصحاب بِشْر بن الحارث: جئت إلى بابه فإذا هو في الدهليز وبين يديه بطيخة وهو يقول لنفسه: أكلتيها فكان ماذا [3]؟ فطرقتُ عليه الباب ودخلتُ وقلتُ:

---

(١) ت: كهيئة الخيط. (٢) ت: الغربي. (٣) ت: فكان إيش.

أيُّ شيء هذه تعاتب نفسك فيها؟! فقال:

صبرتُ على الأيام حتى تَوَلَّت ... وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرّت

وما النفسُ إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن أُطمعت تاقتْ وإلا تسلتِ (١)

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا أبو بكر الخياط، أنبأنا الحسن بن الحسين بن حمكان، حدثنا أبو بكر النقاش، عن محمد بن إسحاق السرَّاج، قال: سمعت أحمد بن الفتح يقول: رأيت بشرَ بن الحارث في منامي وهو قاعد في بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها فقلت له: يا أبا نصر ما فعل اللَّه بك؟ قال: رحمني وغفر لي وأباحني الجنة بأسْرها وقال لي: كل من جميع ثمارها واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها، كما كنتَ تحرِّم على نفسك الشهوات في دار الدنيا.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا الحسين بن علي الطَّنَاجيريّ (٢)، أنبأنا عبيد اللَّه بن عثمان، أخبرنا علي بن محمد العنبري، أخبرنا عبد الرحمن بن معاوية القرشي، حدثنا محمد بن الفرج الصَّدفي، حدثنا جعفر بن هارون، عن مَسْلمة بن جعفر، عن الحسن قال: إن للَّه تعالى عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلَّدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أيامًا قِصَارًا تُعقب راحة طويلة، أما الليل فصافةٌ أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم عز جل ربَّنا ربَّنا، وأما النهار فعلماء حُلماء بررة أتقياء ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى أو قد خُولطوا، وما بهم مرض ولكن خالط القومَ أمرٌ عظيم.

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد الحيري، حدثنا أبو عبد اللَّه الشيرازي، حدثنا محمد بن الحسين الزنجاني، حدثنا عيسى بن هارون، حدثنا إبراهيم بن الجنَيد، حدثني محمد بن صالح بن يحيى، عن شعيب بن حرب قال: كان قوم من الحواريين على شاطئ البحر يتحدثون في ملكوت السماء وفي خدعة الدنيا لمن فيها، فسمعوا هاتفًا من البحر يقول: إن للَّه عبادًا أخلصتهم الخشيةُ وأذابهم الحزن، فلم تجف دمعتهم ولم يشغلهم عن ربهم شاغل، تفرغوا له ونصَبوه بين أعينهم، أولئك على كراسي من نور عند قائمة العرش يضحك اللَّه إليهم ويضحكون إليه، فصُعقوا وسقط بعضهم (٣) في البحر ومات باقيهم.

---

(١) البيتان في ذم الهوى: ص ٣٥٣.

(٢) أبو الفرج الحسين بن علي بن عبد اللَّه بن أحمد بن ثابت الطناجيري البغدادي، نسب إلى الطناجير، وهو جمع طنجير ولعل بعض أجداده كان يعملها، كان ثقة صدوقًا. اللباب: ٨٩/٢.

(٣) ب: وسقطوا في البحر. وما أثبته من ت.

أخبرنا ابن ناصر، أنبأنا محمد بن علي القرشي، حدثنا أبو عبد اللَّه محمد بن علي الحسيني، حدثنا أبو حازم محمد بن علي الوشَّاء، حدثنا زيد بن محمد بن جعفر، حدثنا داود بن يحيى الدهْقَان، حدثنا محمد بن حماد بن عمرو، حدثنا حسين بن حسين ابن محمد بن بكر، عن أبي الجارود، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إنه ليبلغ من كرامة العبد على اللَّه ﷻ يوم القيامة أنه ليكون له في الجنة ألف باب، ما منها باب إلا عليه خدم من خدمه، فتقبل الملائكة حتى ينتهوا إلى تلك الأبواب، فيقولون هل على سيدكم من إذن؟ فيقولون: ما ندري، فيأتونه فيقولون: إن ملائكة من ملائكة اللَّه على الأبواب يقولون: هل على سيدكم من إذن؟ فيقولون: نعم فيدخلون عليه بالتحية » [١].

* * *

يا قليل الصبر إنما هي مراحل، فصابر لُـجَّةَ البلاء فالموت ساحل، تأمّل تحت سُجف ليلِ الصبر صُبحَ الأجر، واحبس لسانك عن الشكوى في سجن الصبر، واقطع نهار اللأواء بحديث الفكر، وأوقد في دياجي الآلام مصباح الشكر، وقلِّب قلبك بين ذكر الثواب وتمحيص الوزر، وتعلَّم أن البلاء يمزّق رُكام الذنوب تمزيق الشِّباك [٢]، ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السِّماك، ومن تفكر في سر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [٣] أنس بجليسه، ومن تذكر؟ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٤] فرح بامتلاء كيسه.

إذا أنت لم ترْحل بزادٍ من التُّقى ولاقيتَ بعدَ الموت من قد تزوَّدا
ندمتَ على أنْ لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا [٥]

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ... ﴿١١١﴾ ﴾:

للَّه أقوام امتثلوا ما أُمروا، وزُجروا عن الزلل فانزجروا، فإذا لاحت الدنيا غابوا، وإذا بانت الأخرى حضروا، فلو رأيتهم في القيامة إذا حُشروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

جنَّ عليهم الليل فسهروا، وطالعوا صحفَ الذنوب فانكسروا، وطرقوا باب المحبوب واعتذروا، وبالغوا في المطلوب ثم حذروا، فانظر بماذا وعدوا في الذكر وذُكروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

---

(١) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة، وهناك أحاديث مشابهة عن ألف قصر وألف خادم ونحوها لم ترد في الصحيح.

(٢) ت: تمزيق الشمال والجنوب.

(٣) سورة البقرة: ١٥٣. (٤) سورة الزمر: ١٠.

(٥) من قصيدة الأعشى في مدح الرسول ﷺ انظر سيرة ابن هشام: ٢/٢٧، باختلاف.

ربحوا واللَّه وما خسروا، وعاهدوا على الزهد فما غدروا، واحتالوا على نفوسهم فملَكوا وأسروا، وتفقدوا أنْعم المولى فاعترفوا وشكروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

بيوتهم في خلُوِّها كالصوامع، وعيونهم تنظر بالتُّقى من طرف [خاشع [1]] والأجفان [2] قد سحَّت سحب المدامع تسقي بذْرَ الفكر الذي بذروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

استوحشوا من كل جليس، شُغلًا بالمعنى النفيس، وزمُّوا مطايا الجِد فسارت العيس، وبادروا الفُرصة ففاتوا إبليس، لا وقفوا ولا فتروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

قلوبٌ في الخدمة حضرتْ، أسرارٌ بالصدق عمَرت، كم شهوة في صدورهم انكسرت، أخبارهم تحيي القلوب إذا نشرت، ويقال عن القوم إذا نُشِروا: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

جدُّوا فليس فيهم من يلعب، ورفضوا الدنيا فتركوها تخْرب [3]، وأذابوا قلوبهم بقلة المطعم والمشرب، فغدًا يقال: كُل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب، أذكارهم في الحياة وإن كانوا قُبروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

علموا أن الدنيا لعب ولَهْوٌ وزينة، وأن من وافق مرادها فارق دينه، فحذروا من غُرور يُجْدي غَبِينة، فركبوا من التقى في سفينة أشحنوها [4] بالزاد وعبروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

طوبى لهم والأملاك تتلقاهم، كشف الحجابَ عن عيونهم فأراهم، هذا أقصى آمالهم وقد ظفروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

بلغنا اللَّه ذلك المبْلغ، وأسمعنا زجْر الناصح فقد أبلغ، وسترنا من العقاب فإنه إنْ عفا أسبغ، ولولا عونه ما قدروا ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

* * *
* *
*

(١) سقطت من ت. (٢) ت: والأحزان.

(٣) هذا مذهب بعض الزاهدين، ولكنه ليس منهج الإسلام الذي يأمر بعمارة الدنيا، ولعلهم كانوا يريدون ترك التكالب عليها والتنافس فيها.

(٤) كذا ي ت. وفي ب: أعينوها. محرفة.

المجلس الرابع عشر

في ذكر قصة شعيب عليه السلام

الحمد لله القديم فلا يقال متى كان، العظيم فلا يحويه مكان، أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان، ورفع إدريس إلى أعالي الجنان، ونجّى نوحًا وأهلك كنعان، وسلّم الخليلَ بلُطفه يومَ النيران، ويوسف من الفاحشة حين البرهان، وبعث شعيبًا إلى مدين ينهى عن البَخْس والعدوان، ويناديهم في ناديهم ولكن صُمّت الآذان ﴿ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [1].

أحمده حمدًا يملأ الميزان، وأصلي على رسوله محمد الذي فاق دينُه الأديان، وعلى صاحبه أبي بكر أول من جمع القرآن، وعلى عمر الفاروق الذي كان يفرق منه الشيطان، وعلى زوج الابنتين عثمان بن عفان، وعلى علي بحر العلوم وسيد الشجعان، وعلى عمه المستسقى بشيبته فأقبل السحُّ الهتَّان.

* * *

قال الله عز وجل:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... ﴾ [2]

قال قتادة: مدين ماء كان عليه قوم شعيب، وقال مقاتل: مدْين هذا هو ابن إبراهيم الخليل لصُلبه، وقال أبو سليمان الدمشقي: هو مدين بن مديان بن إبراهيم.

والمعنى: أرسلنا إلى ولد مدين، فعلى هذا هو اسم قبيلة.

وشعيب: هو ابن عيفا بن نُويب بن مدين بن إبراهيم، أرسل إلى مدين وهو ابن عشرين [3] سنة، وكانوا مع كفرهم يبخسون المكاييل والموازين، فدعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن التطفيف، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.

قوله تعالى: ﴿ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ولم يذكر معجزته، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي لا تنقصوا ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى

(١) سورة الأعراف: ٨٥. (٢) سورة هود: ٨٤.

(٣) كذا بالأصول، وهو لا يتفق مع ما عرف في تاريخ النبوات من أنه لم يبعث نبي إلا في سن الأربعين. وانظر الخلاف في نسب شعيب في قصص الأنبياء، لابن كثير: ١/٢٧٥.

﴿ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا...﴾ [٨٥] أي لا تعملوا فيها المعاصي بعد أن أصلحها بالأمر بالعدل ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ وإنما لم يقل بكذا لأن العرب إذا أَخْلت الفعلَ من المفعول لا يدل إلا على شر، يقولون: أوعدتُ فلانًا، وكذلك إذا أفردوا (وعدت) من مفعول فإنه لا يدل إلا على خير، قال الفراء: يقولون: وعدتُه خيرًا ووعدته شرًا، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا: وعدته في الخير، وأوعدته في الشر.

- **وللمفسرين في المراد بهذا الإيعاد ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنهم كانوا يوعدون من آمن بشعيب، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم كانوا عشّارين (١)، قاله السُّدِّي.

والثالث: أنهم كانوا يقطعون الطريق، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [٨٦] أي تصرفون عن دينه ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا...﴾ [٨٦] أي تطلبون للسبيل عوجًا، أي زيغًا ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ...﴾ [٨٦] يحتمل ثلاثة أشياء: أحدها: كنتم فقراء فأغناكم، وقليلًا عددُكم فكثركم، وغير ذي مَقْدرة فأقدركم، وكانوا مع كثرة أموالهم قد أُغروا بالتطفيف.

وكان (٢) من جملة ما ردّوا عليه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾ [٨٧] أي دينك وقراءتك ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا...﴾ [٨٧] المعنى: [أو (٣)] أن نترك أن نفعل.

وقرأ الضحاك بن قيس الفِهْري: ﴿مَا تَشَاءُ﴾ فاستغنى عن الإضمار، وقال سفيان الثوري: أمرهم بالزكاة فامتنعوا، وقالوا: ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [٨٧] استهزاء به.

فخوَّفهم أخذات الأمم وقال: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ...﴾ [٨٩] أي لا تحملنكم عداوتكم إياي أن تعذبوا، وكان أقرب الإهلاكات إليهم قوم لوط فقال (٤): ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [٨٩].

فقالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾ [٩١] أي ما نعرف صحة ذلك ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا...﴾ [٩١].

وكان قد ذهب بصره، كذا يقول سعيد بن جبير، وقال (٥) ابن المنادى: وهذا إن ثبت كان في آخر عمره؛ لأنه لا يبعث نبي أعمى، قال أبو روْق: لم يبعث اللَّه نبيًّا أعمى ولا من به زَمَانة، قال ابن المنادى: وهذا القول أليطُ (٦) بالقلوب من قول سعيد بن جبير.

---

(١) عشارين: يأخذون العشور ممن يمر بهم.

(٢) كذا في ت. وفي ب: فكانوا.

(٣) من ت.

(٤) ت: فلهذا قال.

(٥) ت: قال.

(٦) أليط: أقرب وألصق.

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ... ﴾ يعني: عشيرتك ﴿ لَرَجَمْنَكَ... ﴾ أي لقتلناك بالرجم. فقال لهم: ﴿ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ... ﴾ أي تراعون رهطي فيّ ولا تراعون اللَّه في ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا... ﴾ أي رميتم أمر اللَّه وراء ظهوركم.

ثم كان آخر أمره أن قال: ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ارتقبوا العذاب فإني أرتقب الثواب، قال محمد بن كعب: عذّب أهل مدين بثلاثة أصناف: أخذتهم رجْفة في ديارهم حتى خافوا أن تسقط عليهم، فخرجوا منها فأصابهم حر شديد، فبعث اللَّه تعالى الظُّلة فنادوا: هلموا إلى الظل، فدخلوا فيه فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم.

وهذا القول على أن أهل مدين أصحاب الظُّلة، وإليه ذهب جماعة من العلماء، فعلى هذا إنما حذف ذكر الأخ من سورة الشعراء تخفيفًا.

وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا بُعث شعيب إلى أصحاب الأيكة فأُهلكوا بالظُّلة.

قال أبو الحسين ابن المنادى: وكان أبو جاد وهواز وحطِّي وكَلَمون وسعفص وقريشات بن الأمحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ملوكا، وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تِهامة، وكان هواز وحطي ملكي وَجّ وهو الطائف، وكان سعفص وقريشات ملكي مدين، ثم خلفهم كلمون فكان عذاب يوم الظلة في مُلكه. فقالت حالفة بنت كلمون ترثيه:

كلْمون هدّ ركني ... هُلْكُه وسْط المحله
سيد القوم أتاه الحتْـ ... ـف نارٌ وسط ظُلّه
كوّنت نارًا فأضحت ... دارهم كالمضمحله (١)

قال ابن المنادى: ثم إن شعيبًا مكث في أصحاب الأيكة باقي عمره يدعوهم إلى اللَّه تعالى فما ازدادوا إلا عتوا فسلط عليهم الحر، فجائز أن تكون الأمتان اتفقتا في التعذيب.

وقد قال قتادة: أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة، وأما أصحاب الأيكة فَسُلِّطَ عليهم الحر سبعة أيام، ثم إن اللَّه تعالى أرسل عليهم نارًا فأكلتهم، فذلك عذابُ يوم الظلة.

ثم إن شعيبًا زوَّج موسى ابنته، ثم خرج إلى مكة فمات بها وكان عمره مائة وأربعين سنة، ودفن في المسجد الحرام حيال الحجر الأسود.

* * *

---

(١) هذه أسطورة لا تصدق، ولا يثبت ما فيها من الشعر، وهي من وضع القصاصين.

واعلم أن اللَّه تعالى عظَّم ذكر البخس في قصتهم وشدد فيه وأطنب في ذكره وأشار إلى التوحيد؛ لينبهنا على ما نرتكبه، فإذ [١] قد عرفنا قُبح الشرك لم نحتج إلى الإطناب في ذكره، وكذلك عاب قوم لوط بالفاحشة وبالغ في ذكرها، وكل ذلك لتخويفنا.

قال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [٢].

واعلم أنه خوّف المطففين بذكر الويل لهم ثم قال: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ [٣] والمعنى: لو ظنوا البعث ما بخسوا ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٤] أي لأمر الجزاء.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « يقوم أحدهم في رشْحه إلى أنصاف أذنيه » [٥] وقال كعب: يقفون ثلاثمائة عام.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا سفيان، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ مرَّ برجل يبيع طعامًا فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأوحى اللَّه تعالى إليه: أدخل يدك فيه، فأدخل يده فإذا هو مبلول، فقال رسول اللَّه ﷺ: « ليس منا من غش » [٦].

وقد روينا عن محمد بن واسع أنه رئي يعرض حمارًا له على البيع فقال له الرجل: أترضاه لي؟ فقال: لو رضيتهُ لم أبعه.

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « ليأتين على الناس زمانٌ لا يبالي المرء بما أخذ المالَ من حلال أم حرام » [٧].

وفي الصحيحين من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ عن رفع الأمانة فقال: « ينام الرجلُ النومةَ فتقبض الأمانة من قلبه » [٨].

* * *

---

(١) ت: فإنا قد عرفنا قبح الشرك فلم نحتج.
(٢) سورة المطففين: ١.
(٣) سورة المطففين: ٤.
(٤) سورة المطففين: ٦.
(٥) صحيح البخاري، حديث رقم: ٤٩٣٨. وصحيح مسلم، حديث رقم: ٢٨٦٢.
(٦) رواه مسلم، حديث رقم: ١٠٢. وأحمد في مسنده، حديث رقم: ٧٢٥٠.
(٧) صحيح البخاري، حديث رقم: ٢٠٨٣.
(٨) صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٤٩٧. وصحيح مسلم، حديث رقم: ١٤٣.

الكلام على البسملة

يـا أخـي كُـنْ عـلـى حـذر قـبـلَ أن تـحدُث الغِيَـر
لا تـكـن جـاهـلًا كـ ـأنـك لا تـعـرف الـخـبـر
نـشـر العـيـشُ صـفـوه فـطـوى الـمـوتُ مـا نـشَرْ
فـإذا مـا صـفـا لـك الدهـ ـر فـاعـمـل عـلـى الـحـذر
أيـن مـن طـال عُـمـره أيـن مـن كـان ذا قِـصَـر
لا الـرُّقـى أخّـرتـهـمُ مـن طـبـيـب ولا الـبـشَرْ
رحـم الـلّـه مـن تـفـكـ ـر فـي الـمـوت واعـتـبر
قـبـل أن تـخـرج الـنـفـو سُ ولا تـمـكـن الـفِـكـر
فـكـأنـا بـيـومـنـا قـد أتـانـا بـه الـقـدر
واسـتـوى عـنـده الـمـوا صِـل فـيـه ومـن هـجـر
وعـدمـنـا الـنـهـار والليـ ـلَ والحـرَّ والـمـطـر
وانـقـضـى الـعـدُّ بـالـنجو م وبـالـشـمـس والقمَـر
مـا انـتـظـاري وكـل حـيٍّ لـه الـمـوتُ يُـنـتـظـرْ
رقَّ جـلـدي ودقَّ عـظـ ـمـي وقـلـبـي فـمِنْ حَجَرْ
كـلـمـا تُـبـت مـن ذنـو بٍ تـقـحّـمـتُ فـي أُخـرْ

* * *

يا غريقًا في لُجَج لجَاجه، يا راحلًا عن قليل عن أهله وماله وأزواجه، يا مسئولًا ما له جوابٌ في احتجاجه، متى يأتي الهدى من طُرقه وفِجاجه، متى تنير القلوبُ بإيقاد سراجه، متى يُكْتم هذا الجرح بانتساجه، متى يفتح بابٌ يا طُول ارتياجه، متى يُستدرك عمرٌ قد مرَّ باندماجه؟! متى يرجع سفر الندم بقضاء حاجه؟! إلى متى يقال فلا تقبل؟! أمَا الموت نحوك قد أقبل؟! أما العمر أيام تُنهب؟! أما الساعات أحلامٌ تذهب؟! أما المعاصي تضر الكاسب؟! أما الخطايا شرٌّ المكاسب؟! أبعد احتجاج الشيب ما ترعوي؟! أبعدَ اعوجاج الصُّلب ما تستوي؟!

إلى كم يكون العَتْبُ في كلِّ لحظةٍ ولمَ لا تمَلُّون القَطيعةَ والهجرا
روُيْدك إنَّ الدهر فيه كفاية لتفريق ذاتِ البين فانتظرا الدهرا

لله در أقوام نظروا إلى الأشياء بعيبها، فكشفت لهم العواقبُ عن غيبها، وأخبرتهم الدنيا بكل عيبها، فشمَّروا للجدّ عن سُوق العزائم وأنت في الغفلة نائم.

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا أبو الحسين بن المهتدي، حدثنا محمد بن يوسف العلاف، حدثنا عبد الله بن محمد البغوي، حدثنا عبد الله بن عون، حدثنا يوسف ابن عطية، عن ثابت البُناني [١]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي استقبله رجل من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ: « كيف أصبحتَ يا حارثة؟ » قال: أصبحتُ مؤمنًا بالله حقًّا، قال: « انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ » قال: يا رسول الله عرفتْ نفسي الدنيا فأسهرتُ [٢] ليلي وأظْمأتُ نهاري، وكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوَوْن فيها، قال: « أبصرتَ فالزم » [٣].

عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه، فقال: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، ادعُ الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يومًا في الخيل، فكان أولَ فارس ركب وأول فارس استُشهد، قال: فبلَغ ذلك أمه فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن يكن في الجنة لم أبكِ عليه، ولكن أحزن، وإن يكن في النار بكيتُ عليه ما عشتُ في دار الدنيا، فقال: « يا أم حارثة إنها ليست بجنة ولكن جنات، والحارث في الفردوس الأعلى » فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ يا حارثة [٤].

* * *

يا هذا سبقك أهلُ العزائم وأنت في الغفلة نائم، لقد بعت المعالي بالكسل، وآثرت البطالة على العمل، أزعج ذكرُ القيامة قلوبَ الخائفين، وقلقل خوفُ العتاب أفئدةَ العارفين، فاشتغلوا عن طعام الطَّغام [٥]، ومال بهم حذر الباس عن تَنوُّق [٦] اللباس.

كان أُويس القَرني [٧] يلتقط الرِّقاع من المزابل ويغسلها في الفرات ويضع بعضها على بعض.

---

(١) أبو محمد بن ثابت بن أسلم البناني من تابعي البصرة، صحب أنس بن مالك أربعين سنة، توفي سنة : ١٢٧، اللباب : ١/١٤٥.

(٢) ب: فأسهر.

(٣) حديث ضعيف: رواه العقيلي في الضعفاء : ٤/٤٥٥، وهو في أسد الغابة في معرفة الصحابة : ١/٣٥٥، في ترجمة حارثة بن سراقة.

(٤) كذا ورواية البخاري في الصحيح : ٢/٢٦، ط الخيرية « وإنه في جنة الفردوس ».

(٥) الطغام: أوغاد الناس.

(٦) التنوق: المبالغة والتجويد في الملبس.

(٧) هو أويس بن عامر، ويقال: ابن عمرو، القرني نسبة إلى قَرَن بفتح القاف والراء، بطن من مراد، كان من جلة =

أطْمـاره رثّةٌ فـقـد ضــاعَ لا ضـاعَ، وضـاعَ الثمينُ في بلَدهْ
لـيـس لـه نـاقـد فـيـعـرفـه وآفــةُ التِّبــر ضـعـفُ منْتقدهْ

يا مفرطًا في ساعاته بالليل والنهار، لو علمت ما فات شابهتْ دموعُك الأنهار، يا طويل النوم عدِمْت خيرات الأسحار، لو رأى طرفك ما نال الأبرارُ حار، يا مخدوعًا بالهوى ساكنًا في دار، قد حام حول ساكنها طارقُ الفناء ودار، سار الصالحون فاجتهدْ في اتباع الآثار، واذكر بظلام الليل القبر وخُلوّ الديار، وحاربْ عدوًّا قد قتلك بالهوى واطلب الثار، فقد أريتك طريقًا إن سلكتها أمنت العثار، فإن فزت بالمراد فالصيد لمن أثار.

مَنْ لنفسٍ أبت ناصحًا إذ صَبَتْ كم جديدٍ من صِبا في جديد أبلتِ [١]
وأطاعت مَنْ هوى فهوتْ إذ هفَتْ عدَمت [٢] يقظتها فيه حتى قضتِ
ويكِ [٣] يا نفس ألا حذرٌ من غفلةِ إنما الدنيا أسًى كم دموعٍ أذرَتِ
إن بنتْ ما شيَّدت هدمتْ ما بنتِ أَوْ حَبَتْ [٤] سائلها رجعتْ في الهبة
أو صـفتْ عند فتى كدَّرتْ ما أصْفتِ كـم صريع نقّلت إذ قلتْ في قُلةِ [٥]
كـم غبـيٍّ غافلٍ أسمعتْ إذ نعتِ غادرتـه جثةً لرفاتِ عِلــة [٦]
لـم يكـن ينـفـعـه كلُّ عين بكتِ آه يــومًا حــسـرةً لأمور جرتِ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ... ﴾ [٧]

كلا: ردْع وزجر، والمعنى: ارتدعوا عن ما يؤدي إلى العذاب ﴿ إِذَا بَلَغَتِ... ﴿٢٦﴾ ﴾

=التابعين يلزم المسجد مع جماعة من أصحابه، يقال: إنه مات مع علي بن أبي طالب مقاتلًا بين يديه في صفين. اللباب : ٢/٢٥٦. وميزان الاعتدال : ١/١٢٩.

(١) ورد هذا الشطر في ب محرفًا: كم من صبي في جديد أبلت. وما أثبته من ت.

(٢) ب: علمت.

(٣) ب: ويحك.

(٤) ب: أوهب. محرفة. وما أثبته من ت.

(٥) ب: مقلته وقلت: جفت وكرهت. والقلة - بكسر القاف - ضد الكثرة، وبضمها أعلى الجبل، ولعلها بكسر القاف من القلة.

(٦) ت: غادرته جنة لرقاب علت. ولعله محرف في الأصل.

(٧) سورة القيامة: ٢٦.

يعني النفس، وهذه كناية عن غير مذكور، و ﴿ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ﴾ العظام المكتنفة لثُغرة النحر عن يمين وشمال، وواحد التراقي ترْقُوة، ويُكنى ببلوغ النفس إلى التراقي عن الإشفاء على الموت ﴿ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: أنه قول الملائكة بعضهم لبعض: مَنْ يرقي روحه، ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟

والثاني: أنه من قول أهله: من يرقيه بالرُّقى. والقولان: عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ... ﴿٢٨﴾ ﴾ أي أيقن الذي بلغت روحُه إلى التراقي ﴿ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾ للدنيا.

﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ **فيه خمسة أقوال:**

أحدها: أمر الدنيا بأمر الآخرة، قاله ابن عباس.

والثاني: اجتمع فيه الحياة والموت، قاله الحسن.

والثالث: التفت ساقاه عند الموت، قاله الشَّعبي.

والرابع: التفت ساقاه في الكفن، قاله سعيد بن المسيب.

والخامس: التفت الشدةُ بالشدة، قاله قتادة، قال الزجاج: آخرُ شدة الدنيا بأول شدة الآخرة.

يا لها من ساعة لا تشبهها ساعة، يندم فيها أهلُ التُّقى فكيف أهلُ الإضاعة، يجتمع فيها شدة الموت إلى حسرة الفوْت.

لما احتضر أبو بكر الصديق ﷺ قالت عائشة:

لعمْرك ما يُغني الثراء عن الفتى ... إذا حشْرجتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

فقال: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ (١) ولذلك كان يقولها أبو بكر.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ عند الموت: ويْلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي. ولما دخلوا على عثمان ﷺ جعل يتمثل:

أرى الموتَ لا يُبقي حزينًا ولا يدعْ ... لعـــادٍ مِـلاكًا فـي البلادِ ومُرتقَى

يبيِّت أهل الحِصْن والحصنُ مُغلق ... ويأتي الجبالَ من شماريخها العُلى

ولما جُرح علي بن أبي طالب ﷺ جعل يقول:

شُدَّ حيازيمــــك للمـــوت ... فــإنّ الــمــوتَ لاقيـــكَ

ولا تــجــزع مــن الــموت ... إذا حـــــلَّ بـــواديــــكَ

---

(١) سورة ق: ١٩.

ولما احْتُضِر معاوية جعل يقول:

إنْ تُناقشْ يكن نقاشك يا ربّ عذابًا لا طوْق لي بالعذابِ
أو تـجاوزْ فأنـت ربٌّ عفـوٌّ عن مُسيء ذنوبه (١) كالترابِ

ولما احْتُضِر معاذ جعل يقول: أعوذ باللَّه من ليلة صباحها النار، مرحبًا بالموت مرحبًا زائر مُغبّ حبيب جاء على فاقة، اللَّهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللَّهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرْي (٢) الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلق الذكر.

ولما احتُضِر أبو الدرداء جعل يقول: ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا، ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه، ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا، وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبتَ رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: ومالي لا أبكي ولا أدري علامَ أهجم من ذنوبي؟!

ولما احتُضِر أبو هريرة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: بُعد المفازة وقلة الزاد وعَقَبة كئود، المهبط منها إلى الجنة أو إلى النار.

وقيل لحذيفة في مرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنة، قيل: فما تشتكي؟ قال: الذنوب.

ولما احتُضِر عمرو بن العاص قيل له: كيف تجدك؟ فقال: واللَّه لكأن جنبي في تخْت (٣)، وكأني أتنفس من سَم الخياط، وكأن غصن شوْك يُجرّ به من قدمي إلى هامتي، ثم قال:

ليتني كنتُ قبلَ ما قد بَدَا لي في قِلال الجبال أرْعَى الوعولا (٤)

ليتني كنت حمْضًا (٥) عركتني الإماء بذرير الإذخر. ونظر إلى صناديق فيها مال فقال لبنيه: من يأخذها بما فيها؟ يا ليته كان بَعْرًا.

وكان عبد الملك بن مروان يقول في مرضه: وددت أني عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غُنيمات في جبالها وأني لم ألِ من هذا الأمر شيئًا.

ولما احتُضِر عمر بن عبد العزيز قال: إلهي أمرتني فلم أأتمر وزجرْتني فلم أنزجر، غير أني أقول: لا إله إلا اللَّه.

ولما احتُضِر الرشيد أمر بحفر قبره ثم حُمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رُحم، ثم قال: يا من لا يزول مُلْكه ارحم من قد زال مُلكه.

---

(١) ب: ذنبه.
(٢) كري الأنهار: شقها.
(٣) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.
(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت، ديوانه : ص ٤٥.
(٥) الحمض: ما ملح وأمر من النبات، وهي كفاكهة للإبل، وفي الأصل: حبضًا، ولعلها محرفة.

وكان المعتصم يقول عند موته: ذهبت الحيل فلا حيلة.

وبكى عامر بن عبد قيس لمَّا احتُضِر وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء.

وبكى أبو الشعثاء عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لم أشتف من قيام الليل.

وبكى يزيد الرَّقاشيّ عند موته فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار، ثم جعل يقول: يا يزيد من يصلي لك ومن يصوم عنك، ومن يتقرب إلى اللَّه ﷻ بالأعمال بعدك، ويحكم: يا إخواني، لا تغتروا بشبابكم، فكأنْ قد حلَّ بكم مثلُ ما قد حل بي.

وقال المزني: دخلتُ على الشافعي في علته التي مات فيها فقلت له: أبا عبد اللَّه كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلًا، ولإخواني مفارقًا، وبكأس المنية شاربًا، وعلى اللَّه تعالى واردًا، ولا أدري نفسي تصير إلى الجنة فأهنئها أم إلى النار فأعزيها، ثم بكى وقال:

ولمَّا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ رجائي نحو عَفوكَ سلَّما

تَعَاظمني ذنبي فلما قرَنْتُه ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وما زلتَ ذا عفو عن الذنب سيدي ... تجودُ وتعفو منّةً وتكرُّما

ولولاك لم يُغْوَي [1] بإبليس عابدٌ ... فكيف وقد أغوى صفيَّك آدما

وقال إبراهيم بن أدهم: مرض بعض العُباد فدخلنا نعوده، فجعل يتنفس ويتأسف فقلت له: على ماذا تتأسف؟ قال: على ليلةٍ نمتها ويومٍ أفطرته وساعةٍ غفلت فيها عن ذكر اللَّه ﷻ.

وبكى بعض العُباد عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم الصائمون ولستُ فيهم، ويذكر الذاكرون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم.

وقال أبو محمد العجلي: دخلت على رجل وهو في الموت فقال لي: سخرتْ بي الدنيا حتى ذهبت أيامي.

ولما احتضر عضُد الدولة تمثل:

قتلتُ صناديدَ الرجالِ فلم أدَعْ ... عدوًّا ولم أُمْهل على ظِنّة خَلْقا

وأخْليتُ دورَ الملك من كل نازل ... فشرَّدتُهم غربًا وبدَّدتهم شرْقا

فلما بلغتُ المجدَ عزًّا ورفعةً ... وصارت رِقابُ الخلق أجمع لي رِقّا

---

(١) كذا، لضرورة الشعر.

رماني الردَى سهما فأخمد جمْرتي فها أنا ذا في جفوتي عاطلًا مَلْقا [١]
فأذهبتُ دنيايَ وديني سفاهةً فمن ذا الذي منِّي بمصرعه أشقى

ثم جعل يقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [٢] فرددها إلى أن مات.

* * *

رَكِب الأمانُ من الزمان مطيةً ليستْ كما اعتاد الركائب تَبْرك
والمرء مِثْل الخوف بين سُهاده وكَراه يسْكن تارةً ويُحَرَّكُ

يا مشغولًا قلبه بلُبنى وسُعدى، يا مستلذَّ الرقاد وهذي الركائب تُحدَى، يا عظيم المعاصي يا مُخطئًا جدًّا، يا طالما طال ما عَتا وتعدَّى، كم جاوز حدًّا وكم أتى ذنْبًا عمدًا، يا أسير الهوى قد أصبح له عبدًا يا ناظمًا خرزات الأمل في سِلْك المُنَى عقدًا، يا معرضًا عما قد حل كم حلَّ عقْدًا، كم عاهد مرةً وكم قد نقض عهدًا! من لك إذا سُقيت كأسًا لا تجد من شُربها بُدًّا مُزجت أو صابًا وصابًا [٣] صار المصاب عندها شهدًا، من لك إذا لحقتَ أبًا وأمًّا وأخًا وعمًّا وجدًّا، وتوسدْت بعد اللين حَجَرًا صلبًا صلْدًا، وسافرت سفرًا يا له من سفرٍ بُعدًا، واحْتَوشك عملك هَزْلًا كان أو جدًّا، ولقيت مُنكرًا ونكيرًا فهل لقيت أسدًا؟ فبادر قبل الموت فما تستطيع للفوت ردًّا.

نهاك عن البَطَالة والتَّصابي نُحولُ الجسم والرأسُ الخضيبُ
إذا ما مات بعضك فابك بعضًا فبعضُ الشيء من بعضٍ قريبُ

* * *

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا علي بن الحسين، أنبأنا أبو علي بن شاذان، سمعت أبا صالح كاتب الليث يذكر عن الفضل بن زياد، عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته: أيها الناس تقوَّوا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من النار الموقدة التي تطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دارٍ الثَّواءُ فيها قليل، وأنتم فيها مؤجَّلون وخلائف من بعد القرون، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها [٤] وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمدَّ أجسامًا وأعظم آثارًا، فخدَّدوا [٥] الجبال وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد مؤيدين

---

(١) كذا في ب، والملق ككتف: الضعيف، وسكنت اللام للوزن. والرواية في ت:
.... فها أنا داني حُفرتي عاجلًا مُلقى.

(٢) سورة الحاقة: ٢٨، ٢٩.

(٣) الأوصاب: الأمراض، والصاب: المرّ.

(٤) ت: أنفها.

(٥) خددوا: شقوا.

بطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيامُ والليالي أنْ طوت مدَّتهم، وعفَّت آثارهم، وأخْوَتْ منازلهم، وأنْست ذكرهم، فما تُحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم رِكْزًا، كانوا بلهْو الأمل آمنين كبَيَات قومٍ غافلين، أو كصباح قومٍ نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي قد نزل بساحتهم بَيَاتًا، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبْرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولَّى عفوه وذهب رجاؤه، فلم يبق منه إلا جُمَّة (١) شرّ وصُبابة كدر وأهاويل عِبر [وعقوبات غُبَر (٢)] وأرسال فتن ورُذالة خَلَف، بهم ظهر (٣) الفساد في البر والبحر، فلا تكونوا أشباهًا لمن خدعه الأمل وغرّه طولُ الأجل، نسأل اللَّه ﷻ أن يجعلنا ممن وعى نُذره وعقل سُرَاه فمهَّد لنفسه.

تزوَّج دنياه (٤) الغبيُّ بجهله ... فقد نشزتْ من بعد ما قُبض المهرُ
تطهرْ ببُعدٍ من أذاها وكيدها ... فتلك بغيٌّ لا يصح لها طُهرُ
ونحن كرَكْب الموج ما بين بعضهم ... وبين الردى إلا الذراعُ أو الشِّبرُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ... ﴾ (٥)

يا كثير الخِلاف يا عظيم الشقاق، يا سيِّئ الآداب، يا قبيح الأخلاق، يا قليل الصبر يا عديم الوفاق، يا من سيبكي كثيرًا إذا انتبه وفاق، والتفت الساق بالساق، أين من أنس بالدنيا ونسي الزوال؟! أين من عمر القصور وجمع المال؟! تقلبت بالقوم أحوالُ الأهوال، كم أراك عبرة وقد قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ (٦).

أين صديقك المؤانس، أين رفيقك المجالس، أين الماشي فقيرًا وأين الفارس، امتدت إلى الكل كفُّ المخالس، فنزلوا تحت الأطباق.

وكأنْ قد رحلتَ كما رحلوا، ونزلتَ وشيكًا حيث نزلوا، وحُملت إلى القبر كما حُملوا، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (٧).

---

(١) الجمة: المجتمع من الشيء والصبابة: البقية.
(٢) من ت. والغبر: الشديدة.
(٣) في ب: ورزالة خلوبهم وظهر الفساد. محرفة والتصويب من ت.
(٤) الأصل: دنياك.
(٥) سورة النحل: ٩٦.
(٦) سورة فصلت: ٥٣.
(٧) سورة القيامة: ٣٠.

من لك إذا ألمَّ الألم، وسكت الصوت وتمكّن الندم، ووقع بك الفوت، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت، وجاءت جنوده ﴿ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٍ ﴾ .

ونزلتَ منزلًا ليس بمسكون، وتعوّضْتَ بعدَ الحركات السكون، فيا أسفًا لك كيف تكون، وأهوال القبر لا تطاق، وفُرّق مالُك وسُكنت الدار، ودار البلاء فما دار إذ دار، وشغلك الوزر عمن هجر وزار، ولم ينفعك ندم الرفاق.

أمَا أكثر عمرك قد مضى؟! أما أعظم زمانك قد انقضى؟! أفي أفعالك ما يصلح للرضا؟! إذا التقينا يوم التلاق، يا ساعيًا في هواه تصوّر رمْسك، يا موسعًا إلى خطاه تذكر حبْسك، يا مأسورًا في سجن الشهوات خلّص نفسك قبل أن تعزّ السلامة، وتُعتاق الأعناق، وينصب الصراط ويوضع الميزان، ويُنشر الكتاب يحوي ما قد كان، ويشهد الجلْد والملك والمكان، والنار الحبس والحاكم الخلّاق، فحينئذ يشيب المولود، وتخرس الألسن وتنطق الجلود، وتظهر الوجوه بين بيض وسود، يوم يكشف عن ساق، فبادر قبل أن لا يمكن، وحاذر قبل أن يفوت الممكن، وأحسن قبل أن لا تحسن، فاليوم البرهان وغدًا السِّباق.

فانتهبْ عمرًا يفنى بالمساء والصباح، وعامل مولًى يُجزل العطايا والأرباح، ولا تبخل فقد حث على السماح ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ... ﴿٩٦﴾ ﴾.

* * *
* *
*

المجلس الرابع عشر

في قصة سيدنا موسى عليه السلام

الحمد للَّه الذي لا ندَّ له فيبارَى، ولا ضد له فيجارَى، ولا شريك له فيدارَى، ولا معترض له فيمارَى، بسط الأرض قرارًا وأجرى فيها أنهارًا، وأخرج زرعًا وثمارًا، وأنشأ ليلًا ونهارًا، خلق آدم وأسكنه الجنة دارًا، فغفل عن النهي وما دارَى، أُمر أن يأخذ يمينًا فأخذ يسارًا، وأُهبط فقيرًا قد عدم يسارًا، غير أنه جبرَ منه بقبول توبته انكسارًا، وأقامه خليفةً ويكفيه افتخارًا، ثم ابتعث الأنبياء من ذريته ونصب لهم من أدلته منارًا، وجعل إدريس ونوحًا والخليل رءوسًا ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ [1].

أحمده سرًّا وجِهارًا، وأصلي على رسوله محمد الذي أصبح وادي النبوة برسالته معطارًا، وعلى صاحبه أبي بكر المنفق سرًّا وجهارًا، وعلى عمر الفاروق الذي لاث عن وجهه الإسلامُ خِمارًا، وعلى عثمان الذي صَرف عن جيش العسرة بإنفاقه إعسارًا، وعلى عليٍّ أخيه وابن عمه الذي لا يتمارى، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء ويكفيهم افتخارًا.

* * *

قال اللَّه ﷻ:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ... ﴾ [2]

﴿ وَهَلْ ﴾ بمعنى (قد) كقول رسول اللَّه ﷺ: « اللَّهمَّ هل بلغت » [3]

وموسى: هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، واسم أمه يوخابذ [4]، وبين موسى وإبراهيم ألف سنة، وكانت الكهنة قد قالوا لفرعون: يولد مولود من بني إسرائيل يكون هلاكك على يده، فأمر بذبح سبعين ألف مولود، وولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها، وولد موسى في السنة التي يذبح فيها، فولدته أمه وكتمت أمره فدخل الطلبُ إلى بيتها فرمتْه في التنور، فسَلِم، فخافت عليه فصنعت له تابوتًا وألقته في اليم، فحمله الماء إلى أن ألقاه

---

(١) سورة طه: ٩، ١٠. (٢) سورة طه: ٩.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم : ١٧٣٩. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٢١.

(٤) كذا في الأصل والطبري، وقد قال السهيلي: واسم أم موسى: « أيا رخا » وقيل: أيا ذخت. قصص الأنبياء لابن كثير : ١٧/٢، بتحقيقي.

إلى فرعون، فلما فتح التابوت نظر إليه فقال: عَبْراني من الأعداء كيف أخطأ الذبح؟ فقالت آسية: دعه يكون قُرة عين لي ولك، وكان لا يولد لفرعون إلا البنات، فتركه.

ولما رمته أمه أدركها الجزع فقالت لأخته مريم: ﴿ قُصِّيهِ ﴾ (١)، فدخلت دار فرعون، وقد عُرضت عليه المرضعات فلم يقبل ثديًا، فقالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ (٢) فجاءوا بأمه فشرب منها، فلما تم رضاعه ردته إلى فرعون فأخذه يومًا في حجره فمد يده للحيته فقال: عليَّ بالذَّباح فقالت آسية: إنما هو صبي لا يعقل. وأخرجت له ياقوتًا وجمرًا فأخذ جمرة فطرحها في فيه فأحرقت لسانه فذلك قوله: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ ﴾.

فلما كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابس فرعون، فلما جرى القدر بقتل القبطي وعلموا أنه هو القاتل خرج عنهم فهداه اللَّه إلى مدين، فسقى لبنتي شعيب واسمهما صفورا وليا، فاستدعاه شعيب وزوَّجه صفورا، ثم خرج بزوجته يقصد أرض مصر فولدت له في الطريق فقال لأهله: ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ... ﴿١٠﴾ ﴾ أي أقيموا ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا... ﴿١٠﴾ ﴾ أي أبصرتُ وإنما رأى نورًا، ولكن وقع الإخبار بما كان في ظنه، والقَبس: ما أخذتَه من النار في رأس عود أو فتيلة ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ وكان قد ضل الطريق فعلم أن النار لا تخلو من واقد.

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا جعفر بن أحمد، أنبأنا أبو علي التميمي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنا عبد الصمد بن مغفل، عن وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبًا، فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة لا تزداد النار فيما يرى إلا عِظَمًا وتضرُّمًا، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحُسنًا، فوقف ينظر لا يدري ما يصنع أمرُها، إلا أنه قد ظن أنها شجرة تُحرق أوقد إليها موقد فنالها فاحترقت، وأنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة مائها، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه، فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضِغْث في يده ليقتبس فمالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر ثم عاد، فلم يزل كذلك فما كان بأوشك من خمودها فتعجَّب وقال: إن لهذه النار لشأنًا، فوقف متحيرًا فإذا بخضرتها قد صارت نورًا عمودًا ما بين السماء والأرض، فاشتد خوفه وكاد يخالَط في عقله من شدة الخوف.

فنودي من الشجرة ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ فأجاب سريعًا وما يدري من

(١) سورة القصص: ١١.
(٢) سورة القصص: ١٢.

دعاه فقال: لبيك من أنت، أسمع صوتك ولا أرى مكانك؟ فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك، فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تعالى فآمن به، فقال: كذلك أنت يا إلهي فكلامَك أسمع أم كلام رسولك؟ فقال: بل أنا الذي أكلمك فادنُ مني، فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقلَّ قائمًا فارتعدتْ فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه ولم يبق منه عظْم يحمل الآخر، وهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريبًا من الشجرة فقال له الرب تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ... ﴿١٨﴾﴾ قال: وما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ وكانت لها شُعبتان ومحْجَن [1] تحت الشعبتين ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ فظن أنه يقول له: ارفضها، فألقاها على وجه الرفض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظر يدبّ يلتمس كأنه يبتغي شيئًا يريد أخْذه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفة [2] من الإبل فيقتلعها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجذبها [3]، وعيناه توقدان نارًا وقد عاد المحجن عُرْفًا فيه شعر مثل النيازك، وعادت الشعبتان فمًا مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها [4] صريف، فلما عاين موسى ذلك ولَّى مُدبرًا، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه ﷻ فوقف استحياء منه.

ثم نودي: يا موسى إليَّ فارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وعلى موسى حينئذ مِدْرَعة من صوف قد خلّلها بخِلال من عيدان، فلما أمره بأخذها ثنى طرفَ المدرعة على يده فقال له مَلَك: أرأيت يا موسى لو أذن اللَّه ﷻ لما تُحاذر أكانت المِدْرعة تغني عنك شيئًا؟ قال: لا ولكني ضعيف [5] ومن ضعْفٍ خُلقت فكشف عن يده ثم وضعها في الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عَهِدها وإذا يداه في الموضع الذي كان يضعها فيه إذا توكأ بين الشُّعبتين، فقال اللَّه ﷻ: ادنُ، فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرِّعدَة، ثم جمع يديه في العصا وخشع برأسه وعنقه ثم قال له: إني قد أقمتك اليومَ مُقامًا لا ينبغي لبشرٍ بعدك أن يقوم مقامك، أدْنيتك وقرّبتك حتى سمعت كلامي وكنت بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالتي، فإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري، فأنت جندٌ عظيم من جُندي بعثتك إلى خلْقٍ ضعيف من خلقي،

---

(١) المحجن: العصا المعوجة. (٢) الخلفة: الحامل من النوق. (٣) ت: فيحتها.
(٤) ب: لهم. محرفة. (٥) ت: ولكن أنا ضعيف.

بَطِر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا عني حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي وعُبد دوني وزعم أنه لا يعرفني.

وإني أقسم بعزتي لولا العُذر والحجة اللذان وضعتُ بيني وبين خلقي لبطشت به بطشةَ جبَّار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرتُ السماء حصَبَتْه، وإن أمرتُ الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمَّرته وإن أمرت البحار غرقته، ولكن هان عليَّ وسقط من عيني ووسعه حلمي واستغنيت بما عندي، وحُقَّ لي، إني أنا اللَّه الغني لا غنيَّ غيري، فبلِّغه رسالاتي وادعه إلى عبادتي وتوحيدي والإخلاص باسمي، وذكِّره بأيامي وحذِّره نقمتي وبأسي وأخبره أني أنا الغفور والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يرُعك ما ألبسَه [1] من لباس الدنيا فإن ناصيته بيدي، ليس يطرف ولا ينطق ولا يتكلم ولا يتنفس إلا بإذني، قل له: أجبْ ربك عز وجل فإنه واسع المغفرة، وإنه قد أمهلك أربعمائة سنة وفي كلّها أنت مبارز بمحاربته [2] تشبَّه وتمثَّل به، وتصدُّ عباده عن سبيله، وهو يُمطر عليك، وينبت لك الأرض، لم تسْقم ولم تَهْرم ولم تفتقر ولم تُغْلَب، ولو شاء أن يعجل ذلك أو يسلبكه [3] فعل، ولكنه ذو أناة وحلم، وجاهدْه بنفسك وأخيك وأنتما محتسبان [4] بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنودٍ لا قِبل له بها لفعلتُ، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجُموعه أن الفئة القليلة ولا قليل مني، تغلب الفئة الكثيرة بإذني.

ولا تعْجبكما زينته وما مُتع به ولا تمدَّانّ إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، فإني لو شئت أن أزينكما [5] من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقْدرته تعجز عن مثل ما آتيتكما فعلت، ولكن أرْغَب بكما عن ذلك وأزْويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائي، وقديمًا ما خِرْتُ لهم في ذلك فإني أَذُودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع [6] الهلكة، وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنِّب الراعي الشفيق إبله عن مبارك العُرّة [7]، وما ذلك لهوانهم عليَّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي موفرًا لم تكْلِمْه الدنيا ولم يُطْفِهِ الهوى، واعلم أنه لم يتزين العباد بزينة أبلغَ من الزهد في الدنيا، وإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يُعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقًّا [8]، فإذا لقيتَهم فاخفض لهم جناحك وذلّل لهم قلبك ولسانك، واعلم أن من أهان لي وليًّا أو أخافه فقد

---

(١) ت: ما لبسته. (٢) ت: أنت بارز له لمحاربته. (٣) ت: أو يسلبه.

(٤) ب: فأنتما محسان. والتصويب من ت. (٥) ت: أن آتيكما.

(٦) ب: عن مواقع. (٧) العرة: الجرب. (٨) ب: أولياء حقًّا حقًّا.

بارزني بالمحاربة وبادءني وعرَّض نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن [1] الذي يحاربني أن يقوم بي؟ أو يظن الذي يعاديني أن يُعجزني؟ أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني؟ فكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة لا أَكِلُ نُصرتهم إلى غيري.

قال: فأقبل موسى إلى فرعون في مدينة قد جعل حولها الأسد في غيْضة [2] قد غرسها، والأسد فيها مع ساستها إذا أَسَّدَتْها [3] على أحد أُكِل، وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون، فلما رأته الأسد صاحت صياح الثعالب، فأنكر ذلك الساسة وفَرِقوا من فرعون، فأقبل موسى حتى انتهى إلى الباب فقرعه بعصاه وعليه جبة صوف وسراويل، فلما رآه البواب عجب من جرأته، فتركه ولم يأذن له وقال: هل تدري باب من أنت تضرب؟! إنما تضرب باب سيدك! فقال: أنا وأنت وفرعون عبيد الله [4] ﷻ وأنا ناصره، فأخبر البواب الذي يليه حتى بلغ ذلك أدناهم، ودونهم سبعون حاجبًا كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله ﷻ كأعظم أمير اليومَ إمارة، حتى خلص الخبر إلى فرعون فقال: أدخلوه عليّ، فأدخل فقال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم. قال: ألم نربك فينا وليدًا، فردد موسى عليه السلام الذي ذكره الله ﷻ في القرآن، فقال: خذوه.

فبادرهم موسى فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فحملت على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا، قتل بعضهم بعضًا، وقام فرعون منهزمًا حتى دخل البيت وقال لموسى: اجعل بيني وبينك أجلًا ننظر فيه، فقال موسى: لم أومر بذلك وإنما أمرت بمناجزتك، فإن أنت لم تخرج إليّ دخلت عليك.

فأوحى الله تعالى إلى موسى: أن اجعل بينك وبينه أجلًا، وقل له يجعله هو، فقال فرعون: أجعله إلى أربعين يومًا، ففعل، وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في أربعين يومًا مرة، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة، قال: وخرج موسى فلما مرَّ بالأسد مضغت بأذنابها وسارت مع موسى تشيعه ولا تهيجه [5].

قال علماء السير: قال له فرعون ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ ﴾ [6] فألقى العصا ثم أخرج يده وهي بيضاء لها نور كالشمس، فبعث فرعون السحرة وكانوا سبعين ألفًا، وكان رءوسهم سابور وعازور وحطحط ومصفى، وهم الذين آمنوا، فجمعوا حبالهم وعصيَّهم وتواعدوا يوم الزينة وكان عيدًا لهم فألقوا يومئذ ما معهم، فإذا حيات كأمثال الجبال قد

---

(١) ب: أيظن.
(٢) الغيضة: الأجمة، ومجتمع الشجر في مغيض ماء.
(٣) كذا في ت وفي ب: إذا أسندتها إلى أحد.
(٤) ت: عبيد لربي ﷻ.
(٥) ب: ولا تفتحه.
(٦) سورة الأعراف: ١٠٦.

ملأت الوادي فألقى موسى عصاه فتلقَّفت ما صنعوا، فسجدت السَّحرة فقتلهم فرعون.

ثم جاء الطوفان وهو مطر أغرق كل شيء لهم، ثم الجراد فأكل زرعهم، والقمَّل وهو الدَّبَا (١)، والضفادع فملأت البيوت والأواني، والدم فكان الإسرائيلي يستقي ماء ويستقي القبطي من ذلك الموضع دمًا، فمكث موسى يريهم هذه الآيات عشرين سنة.

ثم أمره اللَّه تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل، فخرج ومعه ستمائة ألف وعشرون ألفًا، ودعا عليهم حين خرج فقال: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٢) فجعلت دراهمهم ودنانيرهم حجارة حتى الحمص والعدس، وألقى الموت عليهم ليلة خروج موسى، فشغلوا بدفن موتاهم، ثم تبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (٣) هذا البحر بين أيدينا وهذا فرعون من خلفنا. قال موسى ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٤) فأوحى اللَّه تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق اثني عشر طريقًا، على عدد الأسباط، فسار موسى وأصحابه على طريقٍ يَبَس والماء قائم بين كل فرقتين، فلما دخل (٥) بنو إسرائيل ولم يبق منهم أحد أقبل فرعون على حصان له حتى وقف على شفير (٦) البحر، فهاب الحصان أن يتقدم فعرض له جبريل عليه السلام على فرس أنثى فتقدم [فدخل] (٧) فرعون وقومه وجبريل أمامهم وميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم، فلما أراد أولهم أن يصعد وتكامل نزول آخرهم انطبق البحر عليهم، فنادى فرعون: آمنت، قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حمأة البحر فأدسُّه في فِي فرعون مخافة أن تدركه الرحمة.

ثم إن بني إسرائيل طلبوا من موسى أن يأتيهم بكتاب من عند اللَّه، فواعَده اللَّه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فعبدوا العجل في غيبته، فلما جاءهم بالتوراة وما فيها من التثقيل أبَوْها فنُتق (٨) عليهم الجبل، فلما سكنوا خرج يعتذر عن من عبد العجل فأمروا بقتل أنفسهم، فبعث عليهم ظلمة فاقتتلوا فيها فانكشفت عن سبعين ألف قتيل، فجعل القتل للمقتول شهادة وللحي توبة، ولم يزل يلقى من أصحابه الشدائد إلى أن توفي بأرض التِّيه وهو ابن مائة وعشرين سنة.

* * *

الكلام على البسملة

يا نفسُ أنَّى تؤفكينا ... حتى متى لا ترعوينا

---

(١) ت: وهو الذباب. والدبا: أصغر الجراد.
(٢) سورة يونس: ٨٨.
(٣) سورة الشعراء: ٦١.
(٤) سورة الشعراء: ٦٢.
(٥) ت: فلما دخلوا.
(٦) الشفير: الشاطئ.
(٧) من ت.
(٨) نتق: رفع وزعزع.

حـتـى مـتـى لا تـعـقـلـيـ ـن وتسمعين وتبصرينا
يـا نـفـس إن لـم تـصْـلـحي [(١)] فـتـشـبَّـهـي بـالـصـالـحـينـا
وتـفـكَّـري فـيـمـا أقـو ل لـعـل رُشْـدك أن يَـجِـينا
فـلـيـأتـيـنَّ عـلـيـك مـا أفـنـى الـقـرون الأولـيـنـا
أيـن الأولـى جـمـعـوا وكـا نـوا للحـوادث آمـنـيـنـا
أفـنـاهـم الـمـوت الـمـط ـلُّ عـلـى الـخـلائـق أجمعينا
فـإذا مـسـاكـنـهـم ومـا جـمـعـوا لـقـوم آخـرينا [(٢)]

يا من يؤمر بما يصلحه فلا يقبل، أما الشيب نذير بالموت قد أقبل؟! أما أنت الذي أفعاله تُسأل؟! أما أنت تخلو في اللحد بما تعمل؟! ستعلم يوم الحساب عند العتاب من يخجل، يا مبادرًا بالخطايا توقَّف لا تعجل، يا مفسدًا ما بيننا وبينه لا تفعل.

[ترى الدنيا وزينتها فتَصْبو وما يخْلو من الشهوات قلبُ [(٣)]]
فضول العيش أكثرها هموم وأكثر ما يضرك ما تحبُّ
فلا يَغْررك زخرف ما تراه وعيشٌ ليِّن الأطراف رَطْبُ
إذا ما بُلْغةٌ جاءتك عَفْوًا فخذها فالغِنَى مَرْعى وشُرْبُ
إذا اتفق القليل وفيه سِلْم فلا تُرِد الكثيرَ وفيه حَرْبُ

إخواني: أيامكم قلائل، وآثامكم غوائل، ومواعظكم قوائل، وأهواؤكم قواتل، فليعتبر الأواخر بالأوائل، يا من يوقن أنه لا شك راحل، وما له زاد ولا رواحل، يا من لجَّ في لُجَّة الهوى متى يرتقي إلى الساحل، هلّا تنبهتَ من رقاد شامل، وحضرتَ المواعظ بقلب قابل، وقمت في الدجى قيام عاقل، وكتبت بالدموع سطور الرسائل، تحفُّ بها زَفَرات الندم كالوسائل، وبعثتها في سفينةِ دمعٍ سائل، لعلها ترسو بساحل « هل من سائل » [(٤)] وا أسفًا لمغرور غفول جاهل، قد أثقل بعد الكهولة بالذنب الكاهل، وضيع في البضاعة وبَذَر الحاصل، وركن إلى ركن لو رآه ماثل، يبني الحصون ويشيد المعاقل، وهو عن

---

(١) ديوان أبي العتاهية: إلا تصلحي.

(٢) هذه الأبيات لأبي العتاهية وفيها تقديم وتأخير الديوان: ص٣٧٩، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) من ت.

(٤) يشير إلى ما جاء في الحديث من أنه إذا كان آخر الليل نادى مناد عن الله ﷻ: هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له.

شهود قبره متثاقل، ثم يدَّعي بعد هذا أنه عاقل، تالله لقد سبقه الأبطال إلى أعلى المنازل، وهو يؤمِّل في بَطَالته فوز العامل، هيهات ما عَلِق بطَّال بطائل.

إذا بكيتُ ما مضى من زمن فحُقَّ لي أبكي ومن لي بالبكا
من أبصر الدنيا بعين عقله أدرك أن الدار ليست للبقا
مطيةٌ واردة إلى الرَّدَى وإن تراخى العُمْر وامتد المَدَى
إن هي أعطت كان همًّا حاضرًا أو منعت كان عذابًا وأذى
والمرء رَهْن أملٍ ما ينتهي حتى يُوَافِي أجلًا قد انتهى (١)

كان بشر الحافي إذا ذُكِر عنده الموتُ يقول: ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة من جمع زاده فوضعه على رحله لم يدع شيئًا مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، أنبأنا أبو بكر الخطيب، أنبأنا محمد بن الحسن الأهوازي، سمعت أبا بكر الدَّنف الصوفي يحدِّث عن جامع بن أحمد قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول: ليكن بيتك الخلوة وطعامك الجوع وحديثك المناجاة، فإما أن تموت بدائك أو تصل إلى دوائك.

أخبرنا عمر بن ظفر، أنبأنا جعفر بن أحمد، حدثنا عبد العزيز بن علي، أنبأنا ابن جهضم، حدثنا محمد بن جعفر الوراق، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله المكي قال: قال رجل للفضيل بن عياض: رأيت البارحة في النوم كذا وكذا، فقال له الفضيل: ألست حامل القرآن؟ قال: بلى، قال فتنام بالليل وأنت حامل القرآن! أما تخاف أن يأخذك وأنت نائم؟!

* * *

يا غافلًا طول دهره عن ممرِّ يومه وشهره، يا موعوظًا في سره وجهره بجفاف النبات وزهره، يا منبَّهًا في أمره بأسره على حبسه وأسره، يا مذكورًا في عسره ويسره، سل حادثات الزمان عن يُسْره، يا عصفورًا لا بد من ذبحه وتخريب وَكْره، ثم لا يَجُول ذلك على فكره، متى يفيق سكران الهوى من سكره فيستبد العُرْف بنُكْره، ألا يتنبه هذا المبذِّر لبَذره، ألا يتيقظ الجاني لإقامة عذره، والله لو سكن قلبه خوفُ حَشْره لخرج في أعمال الجد من قِشْره، بل لو تفكر حق التفكر في نشره لم يبع ثوبًا ولم (٢) يَشْره، مضى الزمان في مدِّ اللَّهو وجَزْره،

(١) هذه الأبيات من مقصورة ابن دريد الشهيرة. وهو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، صاحب الاشتقاق وغيره من كتب اللغة، قالوا عنه: أشعر العلماء وأعلم الشعراء توفى سنة : ٣٢١.

(٢) الأصل: ولا. محرفة.

وما حَظِيَ المفرِّط بغير وزره، تاللَّه لقد اغتبط المحسن في قبره وندم المسيء على قلة صبره، يا حُسْنَ ما أطاع بترتيل القرآن أبو عمرو [١] ويا خسر ما أضاع أبو نواس في خمره.

حياةٌ وموتٌ وانتظارُ قيامةٍ ثلاثٌ أفادتنا ألوفَ معاني
فلا تَمْهَرا الدنيا الدنية [٢] إنها تفارق أهليها فراق لِعَانِ
ولا تطلباها [٣] من سنان وصارم بيوم ضِرَاب أو بيوم طِعَانِ
فإن [٤] شئتما أن تخْلُصا من أذاتها فحُطَّا بها الأثقالَ واتبعاني
عجبت من الصبح المنير وضده على أهلِ هذي الأرض يطَّلَعان [٥]
وقد أخرجاني بالكراهة منهما كأنهما للضيق [٦] ما وسعاني
دعاني إلى هذا التفرد أنني خبير فجِدًّا في السُّرَى ودَعاني [٧]

* * *

سجع على قوله تعالى:
﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ... ﴾ [٨]

ما أشرف من أكرمه المولى العظيم، وما أعلى من مدحه في الكلام القديم، وما أسعد من خصه بالتشريف والتعظيم، وما أقرب من أهَّله للفوز والتقديم، وما أجلَّ من أثنى عليه العزيز الرحيم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

نعموا في الدنيا بالإخلاص في الطاعة، وفازوا يوم القيامة بالربح في البضاعة، وتنزهوا عن التقصير والغفلة والإضاعة، ولبسوا ثياب التقى وارتدَوْا بالقناعة، وداموا في الدنيا على السهر والمجاعة، فيا فخرهم إذا قامت الساعة، وقد قربت إليهم مطايا التكريم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

نعموا في الدنيا بالوحدة والخلْوة، واعتذروا في الأسحار من زلة وهفوة، وحذروا من موجبات الإبعاد والجفوة، فأولئك هم المختارون الصفوة، الصدق قرينهم والصبر نديم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

---

(١) أبو عمرو أحد القراء السبعة. (٢) اللزوميات: المروءة.
(٣) الأصل ولا تطلبوها، وما أثبته من اللزوميات. (٤) اللزوميات: وإن.
(٥) الأصل: على أهل هذا الضد، وما أثبته من اللزوميات.
(٦) الأصل: للضيف، وما أثبته من اللزوميات.
(٧) لم يرد هذا البيت في اللزوميات ولعله من وضع المؤلف. انظر اللزوميات : ٥٤٨/٢، ط صادر.
(٨) سورة المطففين: ٢٣.

حرسهم مولاهم من موجبات الشَّين، وحفظهم من جهلٍ وعيب ومَين، وأراهم محجة الهدى رأي العين، وأزال في وصالهم قاطع الجفاء وعارض البين، وكمَّل لهم جميع المآثر كمال الزين، وكشف عن قلوبهم أغطية الهوى وحُجَب الغَيْن، فقاموا بالأوامر على غاية الوفاء في قضاء [1] الدين، واعتذروا بعد الأذى وقَبِل الغريم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

طال ما تعبت أجسامهم من الجوع والسهر، وكفَّت جوارحهم عن اللَّهو والأشَر، وحبسوا أعراضهم عن الكلام والنظر، وانتهوا عما نهاهم وامتثلوا ما أمر، وتقبَّلوا مفروضاته بالسمع والبصر، وتغنَّوا بكلامه والقلب قد حضر، واستعدُّوا من الزاد ما يصلح للسفر، فالخوف يقلقهم فيمنعهم قضاء الوطر، والعَبْرة تجري والقلب قد اعتبر، فيا حُسْنَهم في جوف الليل ووقت السَّحَر، السرُّ صافٍ والحال مستقيم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

جنَّ الظلام فُزمَّت مطاياهم، وجاء السَّحَر فتوفرت عطاياهم، وكثر الاستغفار فحُطت خطاياهم، وكلما طلبوا من فضل سيدهم أعطاهم، فسبحان من اختارهم من الكل واصطفاهم، وخلَّصهم بالإخلاص من شوائب الكدر وصفَّاهم، فليس المقصود من الخلق بالمحبة سواهم، أزعجتهم عواصف المخافة فتداركهم من الرجاء نسيم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

قصورهم في الجنان عالية، وعيشتهم في القصور صافية، وهم في عفو ممزوج بعافية، وقطوف الأشجار من القوم دانية، وأقدامهم على أرضٍ من المسك ساعية، وأبدانهم من السندس والإستبرق كاسية، والعيش لذيذ والملك عظيم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

رضي عنهم جبارهم، وأشرقت برضاه دارهم، وصفت ببلوغ المنى أسرارهم، فارتفعت من كل وجه أكدارهم، وورَّدت في الجنان أشجارهم، واطردت تحت القصور أنهارهم، وترنمت على الورق أطيارهم، والملائكة تحفهم وتخصهم بالتسليم، والعيون تجري من رحيق وتسنيم، والملك قد وصفهم في الكلام القديم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

قال النبي ﷺ: « يقول اللَّه ﷻ: أنا ربكم الذي صدقْتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محل كرامتي، فاسألوني ما شئتم، فيقولون: نسألك رضوانك، فيقول: رضواني أحلَّكم داري وأدناكم من جواري » [2].

وروينا أن اللَّه تعالى يقول لأوليائه في القيامة: « أوليائي طال ما لمحتكم في الدنيا، وقد غارت أعينكم، وقلصت شفاهكم عن الأشربة، وخفقت بطونكم، فتعاطوا الكأس فيما بينكم، وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية ».

---

(١) ب: على قضاء.

(٢) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

وقوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأرائك: السرر في الحجال (١)، قال ثعلب: لا تكون الأريكة إلا سريرًا في قبة عليه شواره ومتاعه، والشوار: متاع البيت.

وفي قوله: (ينظرون) قولان: أحدهما: ينظرون إلى ما أعطاهم الله ﷻ من الكرامة. والثاني: إلى أعدائهم حين يعذبون.

سجع:

كانوا في الدنيا على المجاهدة يصرُّون، وفي دياجي الليل يسهرون، ويصومون وهم على الطعام يقدرون، ويسارعون إلى ما يرضي مولاهم ويبادرون، فشُكر من راح منهم وغدا، فهم غدًا ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

كانوا يحملون أعباء الجهد والعنَا، ويفرحون بالليل إذا أقبل ودنا، ويرفضون الدنيا لعلمهم أنها تصير إلى الفَنا، ويخلصون الأعمال من شوائب الآفات لنا، ويحاربون الشيطان بسلاح من التقى أقطع من السيف وأصْلَب من القنا، فغدًا يتكئون على الأرائك وقطوفهم دانية المجتنى، وأعظم من هذا النعيم أن أتجلى لهم أنا، كفى فخرًا أنهم عندي غدًا يحضرون ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

كانت جنوبهم تتجافى عن مضاجعها، ولا تسكن لأجلي إلى مواضعها، وتطلب مني نفوسهم جزيل منافعها، وتستجيرني من موانعها، وتستعيذ بجلالي من قواطعها، وتصول بعزتي على مخادعها (٢)، فقد أبدلتهم بتعب تلك المجاهدة لذة السكون، فهم ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

ياحُسْنهم والولدان بهم يحفون، والملائكة لهم يزفُّون، والخدام بين أيديهم يقفون، وقد أمنوا ما كانوا يخافون، وبالحور العين الحسان في خيام اللؤلؤ يتنعمون، وعلى أسرة الذهب والفضة يتزاورون، وبالوجوه النضرة يتقابلون، ويقولون بفضلي عليهم ونعمتي للشيء: كن فيكون ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

سجع على قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾:

قال الفراء: بريق النعيم.

وجوه طال ما غسلتها دموع الأحزان، وجوه طال ما غبرتها حرقات الأشجان، وجوه تخبر عن القلوب إخبار العنوان، حرسوا الوقت باليقظة وحفظوا الزمان، وشغلوا العيون بالبكاء

---

(١) الحجال: جمع حجلة، كالقبة أو موضع يزين بالثياب والستور للعروس.

(٢) كذا في ت. وفي ب: وتقوى بعوني على تخادعها.

والألسن بالقرآن، فإذا رأيتهم يوم الجزاء رأيت الفوز العظيم ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

وجوه ما توجهت لغيري ولا استدارت، وأقدام إلى غير ما يرضيني ما سارت، وعزوم لغير مرضاتي ما ثارت، وقلوب بغيري قط ما استجارت، وأفئدة بغير ذكري ما استنارت، ولو رأت عيونُ الغافلين ما أعددت لهم لحارت من فضل عظيم ومُلْك جسيم ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

أشرقت وجوههم في الدنيا بحسن المجاهدة، وتشرق وجوههم يوم القيامة بالقرب والمشاهدة، أشرقت وجوههم في الدنيا بِجَرَيان الدموع على الخدود، وتشرق غدًا في جنان الخلود، فإذا رأيتهم في سرور ما فيه ما يضيم ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ ﴾ **في الرحيق ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه الخمر، قاله ابن عباس، **وفي صفة الخمر المسماة بالرحيق أربعة أقوال: أحدها:** أنها أجود الخمر، قاله الخليل بن أحمد. **والثاني:** الخالصة من الغش، قاله الأخفش. **والثالث:** الخمر البيضاء، قاله مقاتل. **والرابع:** الخمر العتيقة، قاله ابن قتيبة.

والقول الثاني: أنه عين في الجنة مشوبة بالمسك، قاله الحسن.

والثالث: الشراب الذي لا غش فيه، قاله ابن قتيبة والزجاج.

وفي قوله « مختوم » ثلاثة أقوال:

أحدها: ممزوج، قاله ابن مسعود.

والثاني: مختوم على إنائه وهو مذهَّب، قاله مجاهد.

والثالث: له ختام، أي عاقبته رِيْح.

سجع على قوله تعالى: ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴾:

يا له من كأس مصون تقر به العيون، يقول له الملك: كن فيكون، يوجده بين الكاف والنون، إذا شربوه لا يحزنون، إذا استوعبوه لا يشكرون، نعيمهم لا كدر فيه ولا هموم ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴾.

شراب قد حلا وطاب، كأس يصلح للأحباب، نعيم من فضل الوهاب، لذَّتْ لذة الدار ودار الشراب، كمل الصفا وزال العتاب، طاب الوقت ورفع الحجاب، صفت الحال وفتحت الأبواب، زار المحب وسمع الخطاب، ثم فرح القوم بقرب القيوم ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴾.

زال العنَا عنهم وأقبل الرَّوح والفرح، وارتفعت الهموم عن الصدور فانفسح الصدر

وانشرح، ورضي الرب فأعطى المنى وأَوْلى ومدح، وطاف عليهم الولدان بالأكواب فيا لذة الشراب ويا حُسْن القدح، واستراح من التعب من كان يسهر ويصوم ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ... ﴿٢٦﴾ ﴾ فيه قولان: أحدهما: خَلْطه مسك، قاله ابن مسعود ومجاهد. والثاني: أن الذي يُخْتم به طعم الإناء مسك، قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي فليجدُّوا في طلبه وليحرصوا عليه بطاعة اللَّه تعالى، والتنافس كالتشاحّ على الشيء والتنازع فيه.

سجع:

أيها الغافل ربح القوم وخسرت، وساروا إلى الحبيب وما سرت، وقاموا بالأوامر وضيعتَ ما به أمرت، وسَلِموا من رقِّ الهوى واغتررت فأُسِرْت، فالدنيا تخدمهم والسعادة تَقْدُمهم حين يُحشرون ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾.

لقد شُوِّقْتُم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزُجرتم عن الرذائل وأنتم في سكر الهوى ما أفقتم، فلو حاسبتم أنفسكم وحقَّقتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثَّقتم، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فقد جد الطالبون ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾.

أيقظنا اللَّه وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل في طاعته جميع جوارحنا، ولا جعلنا ممن رَضِيَ بدون، ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾.

* * *
* *
*

المجلس السادس عشر

في قصة موسى والخضر عليهما السلام

الحمد للّه جعل العلم للعلماء نسبًا، وأغناهم به وإن عدموا مالًا ونَشَبًا، ولأجله سجدت الملائكة إلا إبليس أبىٰ، وبحيلة العلم اتكأ إدريس في الجنة واحتبى، ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا، فسارا إلى أن لقيا من سفرهما نصبًا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ (١).

أحمده حمدًا يدوم ما هبَّت جَنُوب وصَبَا، وأصلي على رسوله محمد أشرف الخلائق عجمًا وعربًا، وعلى أبي بكر الذي أنفق المال وما قلَّل حتى تخلَّل بالعبا (٢) وعلى عمر الذي من هيبته ولَّى الشيطان هربًا، وعلى عثمان الذي حيَّته الشهادة فقال مرحبًا، وعلى علي بن أبي طالب الذي ما فُلَّ سيف شجاعته قط [ولا] (٣) نبا، وعلى عمه العباس العالي نسبه على جبال الشرف والرُّبى.

* * *

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ
مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا...﴾ (٤)

معنى الكلام: اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ... ﴿٦٠﴾﴾ وهو موسى بن عمران، ﴿لِفَتَىٰهُ... ﴿٦٠﴾﴾ وهو يوشع بن نون، وإنما سُمِّيَ فتاه لأنه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخدمه ﴿لَآ أَبْرَحُ... ﴿٦٠﴾﴾ أي لا أزال، أي لا أنفك. وليس المراد به لا أزول؛ لأنه إذا لم يزل لم يقطع أرضًا.

قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة ... وتحمل أخرى أفرحتك الودائع (٥)

---

(١) سورة الكهف: ٦٠.

(٢) قال في القاموس: وذو الخلال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لأنه تصدق بجميع ماله وخلَّ كساءه بخلال. والعباء: كساء، كالعباءة.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سورة الكهف: ٦٠.

(٥) من شعر لبيهس العذري، وقد استشهد به ابن هشام في سيرته : ١٤٨/٢.

أي أثقلتك، ومعنى الآية: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أي: ملتقاهما.

وهو الذي وعده اللّٰه تعالى بلقاء الخضر فيه، قال قتادة: بحر فارس وبحر الروم، فبحر الروم نحو المغرب وبحر فارس نحو المشرق.

وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين قولان: **أحدهما**: إفريقية، قاله أبيٌّ بن كعب. **والثاني**: طنجة، قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ.

قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة ﴿ حُقْبًا ﴾ بإسكان القاف وهما لغتان، قال ابن قتيبة: الحقب: الدهر، يقال: حُقُب وحُقْب، كما يقال: قُفُل وقُفْل، وأُكُل وأُكْل، وعُمُر وعُمْر، ومعنى الآية: لا أزال أسير ولو احتجت أن أسير حقبًا.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا... ﴿٦١﴾ ﴾ يعني موسى وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا... ﴿٦١﴾ ﴾ وكانا قد تزودا حوتًا مالحاً في مِكْتَل، فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء، فلما بلغا هناك وضع يوشع المكتل فأصاب الحوتَ بلل البحر فعاش واسْتَرب في البحر، وقد كان قيل لموسى: تزود حوتًا فإذا فقدته وجدت الرَّجل.

وكان موسى حين ذهب الحوت قد مضى لحاجة، فعزم يوشع أن يخبره بما جرى فنسي، وإنما قيل: « نسيا » توسعًا في الكلام، لأنهما جميعًا تزوّداه، ومثله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (١) وإنما يخرج من المالح لا من العذب.

﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ أي مسلكًا، قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، وفي حديث أبي بن كعب أن الماء صار مثل الطاق (٢) على الحوت.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا... ﴿٦٢﴾ ﴾ ذلك المكان أدركهما النصَب فدعا موسى بالطعام فقال يوشع: ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ... ﴿٦٣﴾ ﴾ فيه قولان: **أحدهما**: نسيت أن أخبرك خبر الحوت، **والثاني**: نسيت حمل الحوت.

﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ... ﴿٦٣﴾ ﴾ في هاء الكناية قولان: **أحدهما**: أنها ترجع إلى الحوت. **والثاني**: إلى موسى، اتخذ سبيل الحوت في البحر، أي دخل في مدخله فرأى الخضر. فعلى الأول: المخبر يوشع، وعلى الثاني المخبر اللّٰه ﷻ.

قال موسى: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ... ﴿٦٤﴾ ﴾ أي الذي كنا نطلب من العلامة الدالة على مطلوبنا؛ لأنه كان قد قيل له: حيث تفقد الحوت تجد الرَّجل.

---

(١) سورة الرحمن: ٢٢.

(٢) الطاق: ما عطف من الأبنية.

﴿ فَٱرۡتَدَّا... ﴿٦٤﴾ ﴾ أي رجعا في الطريق التي سلكاها يقصان الأثر، ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ... ﴿٦٥﴾ ﴾ وهو الخضر، قال وهب: اسمه اليسع، وقال ابن المنادى: أرميا.

وفي تسميته بالخضر قولان:

أحدهما: أنه جلس على فروة بيضاء فاهتز ما تحته خضرًا، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، والفروة: الأرض اليابسة.

والثاني: أنه كان إذا جلس اخضر ما حوله، قاله عكرمة، وقال مجاهد: كان إذا صلى اخضر ما حوله.

وهل كان نبيًّا؟ فيه قولان.

قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا... ﴿٦٥﴾ ﴾ أي نعمة ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا... ﴿٦٥﴾ ﴾ أي من عندنا ﴿ عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ قال ابن عباس: أُعْطِيَ من علم الغيب.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ... ﴿٦٦﴾ ﴾ وهذا تحريض على طلب العلم وحث على الأدب والتواضع للمصحوب، وإنما قال الخضر: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ لأنه كان يعمل بعلم الغيب، والخبر: العلم بالشيء، والمعنى: أنت تنكر ظاهر ما ترى ولا تعلم باطنه، فلما ركبا السفينة قلع الخضر منها لوحًا فحشاها موسى بثوبه وأنكر عليه بقوله: ﴿ أَخَرَقۡتَهَا... ﴿٧١﴾ ﴾ والإمر: العجب.

ثم اعتذر بقوله: ﴿ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ... ﴿٧٣﴾ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنه نَسِيَ حقيقة. **والثاني**: أنه من معاريض الكلام، تقديره: لا تؤاخذني بنسياني الذي نسيت في عمري، فأوهمه بنسيان هذا الأمر. **والثالث**: أنه بمعنى الترك، والمعنى: لا تؤاخذني بتركي ما عاهدتك عليه، وترهقني بمعنى تُعْجلني، والمعنى: عاملني باليسر.

فلما لقيا الغلام قتله (١) الخضر، وهل كان بالغًا أم لا؟ فيه قولان، وفي صفة قتله إياه أقوال: **أحدها**: أنه اقتلع رأسه، وهو في حديث أُبيّ عن النبي ﷺ. **والثاني**: كسر عنقه، قاله ابن عباس. **والثالث**: أنه أضجعه وذبحه بسكين، قاله سعيد بن جبير.

﴿ قال أقتلت نفسًا زاكية ﴾ وقرأ ابن عامر: ﴿ زكيّة ﴾، قال الكسائي: فيها وجهان كالقاسية والقسية، وقال أبو عمرو بن العلاء: الزاكية: التي لم تذنب، والزكية: التي أذنبت ثم تابت، وقال أبو عبيدة: الزاكية في البدن والزكية في الدّين.

قوله تعالى: ﴿ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ... ﴿٧٤﴾ ﴾ أي بغير قتل نفس، والنكر: المنكر.

---

(١) ب: فقتله، وما أثبته من ت.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ... ﴿٧٥﴾ ﴾ إن قيل: لم ذكر لفظة ﴿ لَّكَ... ﴿٧٥﴾ ﴾ هاهنا ولم يذكرها في الأولى؟ **فالجواب من وجهين:**

أحدهما: أنه ذكرها للتوكيد، وتركها لوضوح المعنى، والعرب تقول: قد قلت لك: اتق اللَّه، وقد قلت لك: يا فلان اتق اللَّه، يا هذا أطعني وانطلق.

والثاني: أن المواجهة بكاف الخطاب نوع حظٍّ من قدر التعظيم، فلما كانت الأولى منه نسيانًا فخّم خطابه بترك كاف الخطاب [ولما كانت الثانية عمدًا جازاه] (١) بالمواجهة بكاف الخطاب.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ... ﴿٧٦﴾ ﴾ وقرأ أبو المتوكل: ﴿ فلا تصاحبنِّي ﴾ بتشديد النون. وقرأ ابن عبلة: ﴿ تصحبني ﴾ بفتح التاء من غير ألف، وقرأ ابن مسعود كذلك؛ إلا أنه شدد النون، وقرأ النَّخعي والجَحْدري: ﴿ تُصحبني ﴾ بضم التاء وكسر الحاء وسكون الصاد والباء، قال الزجاج: وفيها وجهان: **أحدهما:** لا تتابعني في شيء ألتمسه منك، يقال: أصحب المهر إذا انقاد (٢)، **والثاني:** لا تصحبني علمًا من علمك ﴿ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي... ﴿٧٦﴾ ﴾ قرأ نافع: ﴿ من لدني ﴾ بضم الدال مع تخفيف النون.

فلما انطلقا إلى القرية **وفيها ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنها أنطاكية، قاله ابن عباس.

والثاني: الأبلّة، قاله ابن سيرين.

والثالث: باجروان (٣)، قال مقاتل: ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا... ﴿٧٧﴾ ﴾ أي سألوهما الضيافة ﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا... ﴿٧٧﴾ ﴾ وكانوا بخلاء ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا... ﴿٧٧﴾ ﴾ أي حائطًا ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ... ﴿٧٧﴾ ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿ ينقاضَّ ﴾ بألف ممدودة وضاد معجمة، وقرأ ابن مسعود مثله بالصاد غير معجمة، قال الزجاج: ينقض: يسقط بسرعة، وينقاص غير معجمة: ينشق طولًا، يقال: انقاصَّت سِنُّه إذا انشقت، ونسبة الإرادة إلى الحائط تجوُّز، وأنشد:

ضحكوا والدهر عنهم ساكتٌ ثم أبكاهم دمًا حين نَطَقْ

وفي قوله ﴿ فَأَقَامَهُۥۖ... ﴿٧٧﴾ ﴾ **قولان: أحدهما:** أنه دفعه بيده فقام. **والثاني:** هدمه

---

(١) زيادة عوضًا عما سقط في الأصل.

(٢) في القاموس: والمصحب كمحسن: الذليل المنقاد بعد صعوبة.

(٣) في معجم البلدان : ٣٥٢/٢، ط أوربا: باجروان أيضًا: مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان، عندها عين الحياة التي وجدها الخضر. وقيل: هي القرية التي استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها.

ثم قعد يبنيه، والقولان عن ابن عباس.

فلما أنكر عليه ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ... ﴿٧٨﴾ ﴾ أي إنكارك هو المفارق بيننا.

ثم بيَّن له أن خرقه السفينة لِتَسْلم من الملك الغاصب، وقتله الغلام ليَسْلم دينُ أبويه قال نبينا ﷺ: « إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا » (١)، والزكاة: الدين، وقيل: العمل، قاله ابن عباس. قوله تعالى: ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ... ﴿٨١﴾ ﴾ وأوصل للرحم.

وإقامته للجدار؛ لأنه كان ليتيمين في المدينة.

وفي الكنز الذي كان تحته ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان ذهبًا وفضة، رواه أبو الدرداء عن النبي ﷺ (٢).

والثاني: أنه كان لوحًا من ذهب فيه مكتوب: عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبًا لمن أيقن بالقدر ثم هو يَنْصَب، عجبًا لمن أيقن بالنار ثم يضحك، عجبًا لمن أيقن بالرزق كيف يَتْعب، عجبًا لمن أيقن بالحساب كيف يَغْفل، عجبًا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. أنا اللَّه لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي. وفي الشق الثاني: أنا اللَّه لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه، رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: أنه كنز علم، رواه العَوْفي عن ابن عباس، وقال مجاهد: صحف فيها علم.

ثم أخبره أني مأمور فيما فعلتُ، والسبب في أمر اللَّه ﷻ موسى بهذا السَّفر أنه قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب اللَّه عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى اللَّه تعالى إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا مالحًا فتجعله في مِكْتَل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَم، فانطلق حتى لقيه.

* * *

الكلام على البسملة

مَـنْ عـلـى هـذه الـدار قـامـا ... أو صَـفـا مَـلْـبـسٌ عـلـيـه فداما

عُـجْ بـنـا نـنـدب الـذيـن تولوا ... بـاقـتـيـاد الـمـنـون عامًا فعاما

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٣٨٠. وسنن الترمذي، حديث رقم: ٣١٥٠.

(٢) المستدرك للحاكم: ٢/٤٠١، وهو حديث ضعيف.

فارقوا كهلًا وشيخًا وهِمًّا (١) ... ووليدًا مؤمَّلًا وغلاما
وشحيحًا جَعْدَ اليدين بخيلًا ... وجوادًا مخوَّلًا مِطْعَاما
سكنوا كلَّ ذِرْوةٍ مِنْ أشَمٍّ ... يَحْسر الطرف ثم حَلُّوا الرَّغاما (٢)
يا لَحَا اللَّهُ مُهْملًا حَسِبَ الدهـ ... ـر نؤُوم الجفونِ عنه فناما
عَلِقًا (٣) في يد المنى كلما نال ... هوًى يبتغيه رام منه مَراما (٤)
هل لنا، بالغِين كلَّ مراد ... غيرَ ما يملأ الضلوع طعاما
فإذا أعْوز الحلال فشلَّ اللـ ... ـهُ كفًّا جرَّتْ إليها الحراما
وما لسغاب البطون أحظى لذي المجـ ... ـد من القوم يأكلون الحطاما
دعْ على أرْبُع الرخاء رجالًا ... سكنوا في رُبَى الرخاء خياما
كلما أقحطوا استماروا من العا ... ر وإمَّا صَدُوا تروَّوْا أثاما
وقم الليل ناجيًا خِدَعَ الدهـ ... ـر وإن لم تجد رجالًا قياما
واخش ما قيل فيه قد تمَّ ... فالجَلْد الذي لا يخاف إلا التماما
أيها الموت كم حطَطْت عليًّا ... ساميَ الطرف أو جذَذْتَ سَناما
وإذا ما حُذرت خَلفًا وظنوا ... نجاةً من يديك كنت أماما

إخواني: كأن القلوب ليست منا، وكأن الحديث يُعْنَىٰ به غيرنا.

كم منْ وعيد يَخْرق الآذانا ... كأنما يُعْنَىٰ به سوانا
أصمَّنا الإهمالُ بل أعمانا

إخواني: غاب الهدهد عن سليمان فتوعده بلفظ: « لأعذبنه » فيا من يغيب طول عمره عن طاعتنا، أما تخاف من غضبنا؟! خالف موسى الخضر في طريق الصحبة ثلاث مرات فحلّ عقدة الوصال بكفٍّ: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أمَا تخاف يا من لم يف لمولاه أبدًا أن يقول في بعض خطاياك: هذا فراق بيني وبينك؟!

كان الحسن شديد الخوف والبكاء فعوتب على ذلك فقال: وما يؤمِّنني أن يكون اطلع عليّ في بعض زلّاتي فقال: اذهب فلا غفرتُ (٥) لك.

---

(١) الهم: الشيخ الفاني.
(٢) الرغام: التراب.
(٣) علقًا: متعلقًا. وفي الأصل: علفًا. محرفة.
(٤) الأصل: رام من راما. محرفة.
(٥) ت: لا غفرت.

لعلك غضبانٌ وقلبيَ غافل سلامٌ على الدارين إن كنت راضيا

أخبرنا ابن حبيب، أنبأنا أبو سعد بن أبي صادق، أنبأنا ابن باكويه، حدثنا أبو الفرج الشريحي، سمعت عليَّ بن عبد اللَّه التميمي، عن محمد بن يحيى، حدثنا ابن موسى الزاهد، عن عبد اللَّه بن المبارك قال: بينا أنا ذات ليلة في الجبَّان إذ سمعت حزينًا يناجي مولاه ويشكو إليه ما يلقاه يقول: سيدي، قصدك عبدٌ روحه لديك، وقيادُه بيديك، واشتياقه إليك، وحسراته عليك، ليله أَرَق، ونهاره قَلق، وأحشاؤه تَحْترق، ودموعه تستبق شوقًا إلى رؤيتك، وحنينًا إلى لقائك، ليس له راحة دونك، ولا أمل غيرك.

ثم بكى ورفع طرفه إلى السماء وقال: سيدي، عظم البلاء وقل العزاء، فإن أكُ صادقًا فأمتني، وشهق شهقة فحركتُه فإذا هو ميت، فبينا أنا أراعيه وإذا بجماعة قد قصدوه فغَسَّلُوه وحنَّطوه وكفنوه وصلَّوا عليه ودفنوه، وارتفعوا نحو السماء، فأخذني فكر وغشيتني غَشْية فلم أفِقْ إلا بعد حين.

يا سالكًا طريق الجاهلين، راضيًا بلعب الغافلين، متى نرى هذا القلب القاسي يلين، متى تبيع الدنيا وتشتري الدين، وا عجبًا لمن آثر الفاني على ما يدوم، وتعجَّل الهوى واختار المذموم، ودنت [1] همته فهو حول الوسَخ يحوم، وأقبل على القبيح ناسيًا يوم القدوم، فأصبح شرَّ خاسر وأبعد ملوم!

أتـغـرُّنـي آمـالـيَـه بـعـد الـقـرون الـخـالـيه
أهـل الـمـراتـب والـمـنـا صـبِ والـقـصـور الـعـاليه
عـادت لـهـم دنـيـاهـمُ بـعـد الـمـودّة قـالِـيَـهْ
نـادت مـنـازلـهـم قِـفُـوا وتـأمـلـوا أطـلالـيـه
فـغـمـوض بـاطـن حالهم يـبـديه ظـاهـر حـالـيـه
كـانـوا عـقـودًا عـطِّـلـت مـنـهـا الـنـحـور الـحـاليه
إنـي لأذكـر مـعـشـرًا مـا النفسُ عـنهم سالـيـه
فـأقـول وَا لَـهْـفِـي عـلـى تـلـك الوجـوه الـبـالـيـه

أَفِقْ من سكرتك أيها الغافل، وتحقق أنك عن قريب راحل، فإنما هي أيام قلائل، فخذ نصيبك من ظل زائل، واقض ما أنت قاض وافعل ما أنت فاعل.

أنسيتَ يا مغرور أنك ميتٌ أيقنْ بأنك في المقابر نازلُ

---

(١) ب: ودانت. وما أثبته من ت.

أبمثل هذا العيش يفرح عاقلُ ... تفنى وتبلى والخلائقُ للبِلَى

يا لاحقًا بآبائه وأمهاته، لا بد أن يصير الطلأ إلى مهاته (١)، يا من جُل همته جُل خيَّاطه وطُهَاته، يقلبه الهوى وهو غالب دهاته، إن كان لك في تفريطك عذر فهاته، يا متيَّمًا بالدنيا في ثياب صَبّ، يا من أتى المعاصي ونَسِيَ الربّ، يا مُذْنَفًا بالخطايا وما استطبَّ، يا أسير فخ الأماني وما نال الحَبّ.

إخواني: ذهبت الشبيبة الحبيبة، ونِبالُ المصيبة بها مصيبة، كانت أوقات الشباب كفصل الربيع، وساعاته كأيام التشريق، والعيش فيها كنَوْر الرياض، فأقبل الشيب يعد بالفناء ويوعد بصُفْر الإناء، فحلَّ المرّة وأحل المريرة.

لأمواه (٢) الشبيبة كيف غِضْنَهْ ... وروضاتِ الصِّبا في اليَبْس أُضْنَهُ (٣)

وآمال النفوس معلَّلات ... ولكن الحوادث يعترضنه

فلا الأيام تَرْضَى مِنْ أذاةٍ ... ولا المُهْجات من عيش عرضْنَهْ (٤)

هي الأشباح كالأسماء يجري الـ ... ـقضاء فيرتفعن وينخفضنه (٥)

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ... ﴾ (٦)

الولدان: الغلمان. **وفي المراد بقوله** ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ **قولان: أحدهما**: أنه من الخلد، والمعنى أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون، وهم على سِنٍّ واحد. **والثاني**: أنهم المقرَّطون ويقال المسوَّرون.

* * *

(١) الطلأ: ولد الظبي ساعة يولد، والصغير من كل شيء، والمهاة: البقرة الوحشية.

(٢) يظهر أن اللام متعلقة بمحذوف تقديره: أعجب أو عجبًا.

(٣) غاض الماء: جف. وآض: رجع. والهاء مزيدة في القافية كلها. وفي اللزوميات: كاليبس.

(٤) في اللزوميات: فلا الأيام تغرض، ومعناها: لا تمل.

(٥) الأصل: ويختفضه، وما أثبته من اللزوميات : ٥٢٢/٢، ط صادر.

(٦) سورة الواقعة: ١٧.

سجع:

هذه صفات أقوام كانوا في مراضينا يجتهدون، ولأعدائنا بصدق ولائنا يجاهدون، وفي جادة الجد والاجتهاد يجدُّون، وبين الخوف منا والطمع فينا يترددون، فهم عند شقاء العصاة بالخلاف يسْعدون، وفي جنان الخلود على حياض السعود يرِدُون ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾.

وضحت لهم محجَّة النجاة فساروا، ولاحت لهم أنوار الهدى فاستناروا، وعرفوا دار الكريم فطافوا حولها وداروا، وصانوا مطلوبهم عن الأغيار وغاروا، ولم يرضوا في حال من الأحوال بالدُّون ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾.

أعددنا لهم القصور والأرائك، وأخدمناهم الولدان والملائك، وأبحْناهم الجنَان والممالك، وسلَّم عليهم في قصورهم المالك، وإنما وهبنا لهم جميع ذلك؛ لأنهم كانوا في خدمتنا يجتهدون ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾.

استنارت بالتحقيق طريقهم، وتمَّ إسعادهم وتوفيقهم، وتحقق بالجدِّ والاجتهاد تحقيقهم، وساروا صادقين فوضحت طريقهم، وشرف بهم مصاحبهم ورفيقهم؛ لأنهم أخلصوا في طلب ما يقصدون ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾.

يا من سبقوه إلى الخيرات وتخلَّف، وأذهب عمره في البطالة وتسوَّف، وعرف المصير فما عرف النجاة ولا تعرَّف، وكلِف بالدنيا فإذا طلب الأخرى تكلَّف، يا من مرضه قد تمكن من جملته وتصرف، اطلب الشفاء يا من على شفا هلكة قد أشرف، وابك على ضلالك في الهوى فالقوم مهتدون ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ... ﴿١٨﴾ ﴾ الكوب: إناء لا عروة له ولا خرطوم. والأباريق: آنية لها عُرًى [1] وخراطيم.

سجع:

تركوا لأجلنا لذيذ الطعام، وساروا يطلبون جزيل الإنعام، وقاموا في المجاهدة على الأقدام، وتدرعوا ملابس الأتقياء الكرام، نُشرت لهم بصدقهم الأعلام، وحُلُّوا حلية الرضا وأُحِلّوا محل التوفيق ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾.

طال ما عطشوا في دنياهم وجاعوا، وذلُّوا لسيدهم صادقين وأطاعوا، وخافوا من

---

(١) ب: عروة. والتصويب من ت.

عظمته وارتاعوا، وبأخراهم ما يفنى من دنياهم باعوا، وحرسوا بضائع التقى فما فرَّطوا ولا أضاعوا، وجانَبوا ما يشين وصاحبوا ما يليق، فطاف الولدان على شفاه يبست بالصيام وأتى الريق [1] ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾.

تحمَّلوا أثقال التكليف، ورفضوا التمادي والتسويف، وقطعوا طريق الفوز للتشريف، وجانَبوا موجب العتاب والتعنيف، فتولاهم مولاهم وحماهم في الطريق، وأقاموا الولدان تسقيهم من الرحيق ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ ﴾ الكأس: الإناء بما فيه، والمعين: الماء الطاهر الجاري. قال الزجاج: المعين هاهنا: الخمر يجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون.

سجع:

طال ما ظمئت لأجلنا هَوَاجِرُهم، طال ما يبست بالصيام لنا حناجرهم، طال ما غرقت بالدموع محاجرهم، طال ما أزعجتهم مواعظهم وزواجرهم، طال ما صَدَقَتْ معاملتهم ومتاجرهم، فغدا يطوف عليهم الولدان والحور العين ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

نظر إليهم مولاهم فارتضاهم، وأنعم عليهم فاختارهم واصطفاهم، وأعطاهم من فضله وإحسانه مُناهُمْ، ومنحهم ما لا يحصى من الخير وحبَاهم، فإذا قدموا عليه أطعمهم وسقاهم، وأجلسهم على موائد الفوائد من زوائد التمكين ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

لقد لذَّ نعيمهم وطاب، وصِين حريمهم يوم [2] الثواب، ودام تكريمهم وزال العتاب، وتوفر تعظيمهم بين الأحباب، ونجا غريمهم من ورطات [3] الحساب، فأشرقت ديارهم وفتحت الأبواب، وطاف عليهم الولدان في المقام الأمين ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا... ۝١٩ ﴾ أي لا يلحقهم الصداع الذي يلحق شاربي خمر الدنيا، و ﴿ عَنْهَا ﴾: كناية عن الكأس المذكورة، والمراد بها الخمر ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بفتح الزاي، وقرأ حمزة والكسائي بكسرها. قال الفراء: فمن فتح فالمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها، يقال للسكران: نزيف ومنزوف. ومن كسر ففيه وجهان: **أحدهما:** لا يُنفدون شرابهم أي هو دائم أبدًا. **والثاني:** لا يسكرون. قال الشاعر:

لعمري لئن أُنْزِفْتمُ أو صحَوْتُم ... لبئس الندامىٰ كنتمُ آلَ أبجَرا

---

(١) ت: وأتى الريق بأكواب وأباريق. وفي ب: وأبي الريق.

(٢) العبارة محرفة في ب، والتصويب من ت.

(٣) ب: وطرأت: محرفة والتصويب من ت.

فإن قال قائل: المقصود من الخمر السكر، فالجواب: أن السكر إنما يراد ليزيل الهمَّ، وليس في الجنة هَمّ، فلا فائدة في إزالة العقل، ألا ترى أن النوم لمَّا أريد للراحة ولم يكن في الجنة تعب لم يكن نوم.

سجع:

دار ليس فيها ما يشينها، دار لا يفنى منها ما يزينها، دار لا يزول عزها وتمكينها، دار لا تهرم فيها عِينُها، لذة خمرهم تفوق ما كانوا يعرفون ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾.

دار أشرقت حِلاها، دار عزَّت علاها، دار جلَّ من بناها، دار طاب للأبرار سكناها، دار تبلغ النفوس فيها مُنَاها، أين خاطبوها فقد وصفناها، سكانها قد أمنوا ما كانوا يخافون ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾.

ما أتم نعيمهم، ما أعز [١] تكريمهم! ما أظرف [٢] حديثهم وقديمهم! ما أصون حريمهم! ما أكرم كريمهم! قد مُنحوا الخلود [٣] فما يبرحون ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي يختارون تقول: تخيرت الشيء إذا أخذت خيره.

قوله تعالى: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ قال ابن عباس: يخطر على قلب أحدهم الطير فيصير متمثلًا بين يديه على ما اشتهى، وقال مغيث بن سُمَيّ: يقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْت، فإذا اشتهى الرجل طيرًا ودعاه فيجيء فيقع على خوانه فيأكل من أحد جانبيه قديدًا ومن الآخر [٤] شواء، ثم يعود طيرًا فيطير، فيذهب.

سجع:

ثمارهم في أشجارهم وافرة، وفواكههم من العيوب طاهرة، ووجوههم بأنوار القبول ناضرة، وعيونهم إلى مولاهم ناظرة، وقد حازوا شرف الدنيا وفوز الآخرة [٥]، وأجلُّ النعيم أنهم لا يتغيرون ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾.

كانوا في أوقات الأسحار ينتبهون، وبالأسارَى في الاعتذار يتشبهون، وقد تركوا النفاق فما يموّهون [٦]، والتزموا الصدق فيما به يتفوَّهون، وإذا أمُّوا فضيلة فما ينتهون [٧]

(١) ب: ما أعمر.
(٢) ب: ما أطرف.
(٣) ب: بالخلود. وما أثبته من ت.
(٤) ب: والآخر، وما أثبته من ت.
(٥) ت: شرف الدنيا والآخرة.
(٦) ب: فما يتوهمون.
(٧) ت: فما يتنبهون.

عنها حتى ينتهون [١]، فقد فازوا يوم القيامة بما كانوا يطلبون ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع فيهما، وقرأ حمزة والكسائي بالخفض فيهما، وقرأ أُبيّ بن كعب وعائشة: ﴿وحورًا عينًا﴾ بالنصب فيهما، قال الزجّاج: الذين رفعوا كرهوا الخفض؛ لأنه معطوف على قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ قالوا: والحور ليس مما يطاف به، ولكنه محفوظ على غير ما ذهب إليه هؤلاء؛ لأن المعنى: يطوف عليهم ولدان بأكواب ينعمون بها، وكذلك ينعمون بحور عين، والرفع أحسن، والمعنى: ولهم حور عين، ومَنْ نَصَب حمله على المعنى؛ لأن المعنى: يُعْطَون هذه الأشياء ويعطون حورًا عينًا، ويقال: عين حوراء إذا اشتد بياضها وخَلُص واشتد سوادها، ولا يقال: امرأة حوراء إلا أن تكون مع حَوَر عينها بيضاء، والعِين: كبار العيون حِسَانها، قال: ومعنى كأمثال اللؤلؤ: أي صفاؤهن وتلألؤهن كصفاء اللؤلؤ وتلألئه. والمكنون: الذي يخرج من صدفه فلم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال [٢].

﴿جَزَآءً... ۝٢٤﴾ منصوب مفعول له، والمعنى: يفعل بهم ذلك جزاء بأعمالهم، قال: ويجوز أن يكون منصوبًا على أنه مصدر؛ لأن المعنى: يطوف عليهم ولدان يجازون جزاء بأعمالهم مخلدون.

سجع على قوله تعالى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾:

منحهم من الخير ما ليس بمَمْنون، وأمَّنهم في الجنة حوادث المَنُون، وجعلهم على حفظ سره يؤتمنون؛ إذ كانوا بأسمائه وصفاته يؤمنون، فلهم [من] فضله فوق ما يشاءون ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

خلقهم لخدمته وأرادهم، وأرْبَحهم في معاملته وأفادهم، وجعل الرضا بقضائه زادهم، وأعطاهم من جزيل رِفْده وزادَهم؛ وأثابهم ما لم يخطر على الظنون ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

كانوا يَصْدُقون في الأقوال ويُخْلصون في الأعمال، ولا يرضون بالدنيء من الحال، ولا يأنسون بما ينتهي إلى زوال، فجزاهم على أفعالهم ذو الجلال؛ إذ أسكنهم في جنته في ظلال على الأرائك يتكئون ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾ اللغو [ما] [٣] لا يفيد، والمعنى: أن خمر الجنة لا تذهب بعقولهم فيلْغوا ويأثموا كما يكون في خمر الدنيا.

فإن قال: التأثيم لا يُسمع فكيف ذُكر مع المسموع؟ فالجواب: أن العرب تُتْبع آخر الكلام

---

(١) كذا ولعلها ضرورة السجع. (٢) ب: الأعمال. (٣) سقطت من: ب.

أوله وإن لم يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر، فيقولون أكلت خبزًا ولبنًا، قال الشاعر:

إذا ما الغانياتُ برَزْن يومًا وزجَّجْن الحواجبَ والعيونا

والعين لا تزجَّج، فردَّها على الحاجب. وقال آخر:

ولقد لقيتك في الوغى متقلدًا سيفًا ورمحًا

وقال آخر: عَلَفْتُها تِبْنًا وماء باردًا

سجع على قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ ﴾:

أعرضوا في الدنيا عن اللغو، وتركوا رائق الشهوات واللَّهو، وآثروا الذل على الغنى والزَّهْو، وتيقظوا للأوامر معرضين عن السهو، فأسكنهم في جنته يوم زيارته حريمًا ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾.

أجزلنا لهم الثواب، وسميناهم بالأحباب، وأمَّناهم من العذاب، واصطفيناهم للمخاطبة والجواب، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، ببشارات توجب تقديمًا ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾.

تبدؤهم بالسلام، وتخصُّهم بالتحايا والإعظام، وتأتيهم بأنواع التحف والإكرام، وتبشرهم بالخلود في دار السلام، وقد أمِنوا أن يسمعوا من اللغو كلامًا ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ ﴾: **في أصحاب اليمين سبعة أقوال:**

أحدها: أنهم الذين كانوا على يمين آدم حين خرجت ذريته من صُلبه، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم الذين يُعطَوْن كتبهم بأيمانهم، قاله الضحاك والقُرظيّ.

والثالث: أنهم كانوا ميامين على أنفسهم مباركين، قاله الحسن والربيع.

والرابع: أنهم الذين أُخذوا من شق آدم الأيمن، قاله زيد بن أسلم.

والخامس: أنهم الذين منزلتهم عن اليمين، قاله ميمون بن مهران.

والسادس: أنهم أهل الجنة، قاله السُّدِّيّ.

والسابع: أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة، قاله الزجاج.

وقوله: ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ تعظيم لشأنهم، تقول: زيد ما زيد.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾:

أصحاب فهم ويقين، أصحاب جِدّ [١] وتمكين، أصحاب عز مكين [٢]، أصحاب

---

(١) ب: عذر. وما أثبته من ت.

(٢) ب: ومكين. محرفة.

خوف ودين، يتنزهون عن من يَمِين [1]، ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾.

أصحاب مُلْك لا يزول، أصحاب فخر لا يَحُول، أصحاب تقديم ووصول، أصحاب شرف بالقبول، أصحاب تمكن في مقام أمين ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾.

أصحاب قُرْب وحضور، أصحاب عز ونور، أصحاب جنان وقصور، فيها حسان من الحور، أصحاب مُكْنة ليس فيها قصور، أصحاب مثمَّن ثمين ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ ﴾ السدر: شجر النبق، والمخضود: الذي لا شوك فيه، والطلح: الموز، قاله ابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد.

فإن قيل: غير الطَّلح أحسن منه؟ فالجواب: أن الصحابة ﷺ مروا بِوَجّ وهو واد بالطائف فأعجبهم سِدْره فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا، فنزلت هذه الآية ووعدهم ما يعرفون ويميلون إليه.

والمنضود: قال ابن قتيبة: هو الذي نضِّد بالحِمْل، أو بالورق والحمل من أوله إلى آخره، فليس له ساق بارزة.

سجع:

عباد أطاعوا المعبود، وواصَلُوا الركوع والسجود، وسألوا من يتفضل ويجود، فوفَّر نصيبهم من الرِّفْد المرفود ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾.

وردوا إليه أكرم ورود، وأمنوا في وصالهم عائق الصدود، وأتعبوا الأعضاء في خدمته والجلود، فمنحهم طيب العيش في جنات الخلود ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾.

تصافَوْا فاصطفُّوا في خدمته كالجنود، واستلوا سيوف الجهاد من الغمود، وقمعوا بالصدق العدو الكنود، وأرغموا بسبقهم أنف الحسود، فخَصهم مولاهم بالفضل والسعود ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾.

طلبوا بالصدق الصادقَ الودود، وسعوا إليه يسألون إنجاز الوعود، وطمعوا في كرمه أن يتفضل ويعود، وأسبلوا دموعهم من خشيته على الخدود، فيا لنعيمهم، وأطيبُ منه الخلود ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾.

شكروا مَنْ أخرجهم من العدم إلى الوجود، وتفضل عليهم بكل خير وجُود، وعلموا أن الإخلاص هو المقصود، فاستعدوا وأوعدوا لليوم المشهود ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾.

---

(١) يمين: يكذب.

تمكنوا بالكتاب القديم، وطلبوا من المنعم الكريم أن يعمَّهم بالفضل والتكريم، فمنَّ عليهم بالخير العميم، فهم في الجنان في أحلى نعيم، عند ملك كبير عظيم، ليس بوالد ولا مولود ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ ﴾.

أعد لهم أوْفَى الذخائر، وهذَّب منهم البواطن والظواهر [1]، وجعلهم بين عباده كالنجوم الزواهر، وبنى لهم الغرف باللؤلؤ والجواهر، فهم في مجد كريم وسعدٍ غير محدود ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾.

استزارهم إلى جنته، وخصَّهم بكرامته، وأنعم عليهم برؤيته وجعلهم في حصن حصين من رعايته، في ظل نعيم دائم ممدود ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾.

طال ما حملوا تكليفه واستقلُّوا، وسعوا إلى مراضيه فما ضلوا، وتفيأوا ظلال التوكل عليه واستظلوا، ورضوا بقضائه صابرين فما ملُّوا، وائتمنهم على الإيمان فما خانوا ولا غلُّوا، وكفوا أكفَّهم عن غيره ثقة به وغلُّوا، فعزوا بخدمته إذ لخدمته ذلوا، فأثابهم نعيمًا ليس بمجدود ولا محدود ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾.

مالوا إليه وتركوا المال، وعلَّقوا بالطمع في فضله الآمال، وأعرضوا عن الدنيا شغلًا بالمآل، وألفوا خدمته وهجروا المِلَال، وراضُوا أنفسهم بالفقر ورضوا بالإقلال، وأنسوا بمناجاته ونسوا الآل، فإذا تلقاهم مولاهم قال مرحبًا بالوفود ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾.

اللَّهم فاجعلنا من المتقين الأبرار، وأسكنَّا معهم في دار القرار، ولا تجعلنا من المخالفين الفجار، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، يا من لم يزل يُنعم ويجود. برحمتك يا أرحم الراحمين. والحمد للَّه وحده وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه.

* * *
* *
*

(١) الأصل: والظاهر.

المجلس السابع عشر

في قصة قارون

الحمد للَّه يمحو الزلل ويصفح، ويغفر الخطَل ويمسح، كلُّ من لاذ به أنجح، وكل من عامله يربح، تشبيهه بخلقه قبيح وجحده أقبح، رفع السماء بغير عمد فتأملْ والمحْ، وأنزل القطر فإذا الزرع في الماء يسبح، والمواشي بعد الجدب [1] في الخصب تسرح، وأقام الوُرْق على الوَرَق تشكر وتمدح، وينْدب هديلها ولا نَدْب ابن الملوَّح، أغنى وأفقر، والفقر في الأغلب أصلح، كم من غنيٍّ طرحه البطر والأشر أقبح مطرح، هذا قارون ملك الكثير وبالقليل لم يسمح، يتجشأ شبعًا وينسى الطَّلَنْفح [2]، نُبِّه فلم يزل نومه ولِيمَ فلم ينفع لَوْمُه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ [3].

أحمده ما أمسى المساء وما أصبح، وأصلي على رسوله محمد الذي أنزل عليه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [4]، وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار لم يبرح، وعلى عمر الذي لم يزل في إعزاز الدين يكدح، وعلى عثمان ولا أذكر ما جرى ولا أشرح، وعلى عليٍّ الذي كان يغسل قدميه في الوضوء ولا يمسح، وعلى عمه العباس أقرب الكل نسبًا وأرجح.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ...﴾ [5]

قارون بن يصهر بن قاهث، **وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه كان ابن عمه، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال النَّخعي وابن جريج.

والثاني: ابن خالته، رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: كان عم موسى، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ... ﴿٧٦﴾﴾ وفيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه جعل لِبغيَّة جُعْلًا على أن تقذف موسى بنفسها، ففعلت فاستحلفها موسى على ما قالت فأخبرته بقصتها، فهذا بَغْيه، قاله ابن عباس.

---

(١) الأصل: الجدوب وهي المكان الجدب. (٢) الطلنفح: الجائع.

(٣) سورة القصص: ٧٦. (٤) سورة الشرح: ١. (٥) سورة القصص: ٧٦.

والثاني: أنه بغى بالكفر، قاله الضحاك.

والثالث: بالكبر، قاله قتادة.

والرابع: أنه زاد في طول ثيابه شبرًا، قاله عطاء الخراساني وشَهْر بن حَوْشب.

والخامس: أنه كان يخدم فرعون ويتعدى على بني إسرائيل ويظلمهم، حكاه الماوردي.

وفي المراد بمفاتحه قولان:

أحدهما: أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب، قاله مجاهد وقتادة، قال خيثمة: كانت المفاتيح التي تفتح بها الأبواب وِقْر [١] ستين بغلًا، وكانت من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع.

والثاني: أن المراد بالمفاتيح الخزائن، قاله السُّديّ وأبو صالح والضحاك، قال الزجاج: وهذا الأشبه، وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة، قال أبو صالح: كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلًا.

قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ... ۝٧٦﴾ أي تثقلهم وتُميلهم، والعصبة: الجماعة، **وفي المراد بها هاهنا ستة أقوال:**

أحدها: أربعون رجلًا، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: ما بين الثلاثة إلى العشرة، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: خمسة عشر، قاله مجاهد.

والرابع: فوق العشرة إلى الأربعين، قاله قتادة.

والخامس: سبعون رجلًا، قاله أبو صالح.

والسادس: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ... ۝٧٦﴾ يعني المؤمنين: « لا تفرح » أي لا تبطر.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ... ۝٧٧﴾ يعني الجنة بإنفاقه في طاعته. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ... ۝٧٧﴾ وهو أن تعمل فيها للآخرة ﴿وَأَحۡسِن... ۝٧٧﴾ بإعطاء فضل مالك ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ... ۝٧٧﴾ بأن زادك على قدر حاجتك ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ... ۝٧٧﴾ بأن تعمل بالمعاصي.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ... ۝٧٨﴾ **فيه خمسة أقوال:**

---

(١) الوقر: الحمل الثقيل، أو أعم.

أحدها: على علم عندي بصنعة الذهب، رواه أبو صالح عن ابن عباس، قال الزجاج: وهذا لا أصل له؛ لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له.

والثاني: رضا الله عني، قاله ابن زيد.

والثالث: على خير علمه الله مني، قاله مقاتل.

والرابع: إنما أعطيته بفضل علمي، قاله الفراء.

والخامس: على علم عندي بوجوه المكاسب، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب (١).

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ... ۝٧٩﴾ في ثياب حُمْر وصُفْر، قال عكرمة: في ثياب معصفرة، قال وهب بن منبه: خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلى والزينة، على بغال بِيض، قال الزجاج الأرجوان: صِبغ أحمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ... ۝٨٠﴾ يعني الكلمة التي قالها المؤمنون وهي: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ... ۝٨٠﴾.

قال ابن عباس: لما نزلت الزكاة أتى موسى وهارون قارونَ فصالحه على كل ألف دينار دينارًا، وعلى كل ألف درهم درهمًا، وعلى كل ألف شاة شاة، فوجد ذلك مالًا كثيرًا فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أموالكم، قالوا: فماذا تأمرنا؟ قال: نجعل لفلانة البغيَّة جُعْلًا فتقذفه بنفسها، ففعلوا، ثم أتاه قارون فقال: إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاهم، فخرج فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة فإن كانت له امرأة جلدناه حتى يموت، فقال له قارون: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجَرْتَ بفلانة، قال: ادعوها، فلما جاءت قال موسى: يا فلانة أنا فعلت ما يقول هؤلاء؟ قالت: لا، كذبوا، وإنما جعلوا لي جعلًا على أن أقذفك، فسجد فأوحى الله ﷻ إليه: مر الأرض بما شئت، فقال: يا أرض خذيه، فأخذته حتى غيبت سريره، فلما رأى ذلك ناشده بالرحم، فقال: خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه، فما زال يقول: خذيه حتى غيبته، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى ما أفظك! وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته، قال سمرة

---

(١) هذا خلاف ما جاء في القرآن عن الحساب والميزان للمؤمنين والكافرين.

ابن جندب: يُخْسف به كل يوم قامة، فيبلغ به إلى الأرض السفلى يوم القيامة.

فلما هلك قال بنو إسرائيل: إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره، فخسف الله بداره وبماله بعد ثلاثة أيام.

﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ... ﴿٨١﴾ ﴾ أي يمنعونه من الله.

فأصبح المتمنُّون مكانَه قد ندموا على تمنيهم، فجعلوا يقولون: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ... ﴿٨٢﴾ ﴾ قال ابن الأنباري: إن شئت قلت: (**ويك**) حرف (**وأَنَّهُ**) حرف. والمعنى: ألم تر أنه. قال الشاعر [١]:

تسألاني [٢] الطلاق أنْ ترياني قلَّ مالي قد جئتُما بهُجْر

ويك أن من يكن له نَشَبٌ [٣] يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وإن شئت جعلت « وَيْ » حرفًا ويكون معنى « وي » التعجب كما تقول: وي! لم فعلت كذا؟ ويكون معنى « كأنه » أظنه وأعلمه، كما تقول: كأنك بالفرَج قد أقبل، والمعنى أظنه مقبلًا، وإنما وصلوا الياء بالكاف لأن الكلام بهما كَثُر.

وذكر الزجاج عن الخليل أنه: قال « وي » مفصولة من « كأن » وذلك أن القوم ندموا فقالوا: وي، متندمين على ما سلف منهم.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ... ﴿٨٣﴾ ﴾ يعني الجنة ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ وهو البغي « ولا فسادًا » وهو العمل بالمعاصي « والعاقبة » المحمودة « للمتقين ».

* * *

الكلام على البسملة

أيا والِيَ المِصْر لا تظلمنَّ فكم جاء مثلُك ثم انصرفْ

وقد أبَر النخلَ ملّاكه وقيِّض غيرهمُ فاخترف [٤]

فلا تُرْسلنَّ حِبال المنى [٥] وأمسكْ بكفك منها طَرَف

---

(١) ورد البيت الثاني في اللسان ونسبه لزيد بن عمرو بن نفيل، ويقال: لنبيه بن الحجاج، اللسان : ٢٠/٣٠١.

(٢) الأصل: سألتني. محرفة.

(٣) الرواية في الأصل: ويك أن من لم يكن له نشب، والتصويب من اللسان.

(٤) الأصل: فنقص عزهم واحترف، ومعنى اخترف: جنى ثمره.

(٥) اللزوميات: حبال الرجاء.

تـقـارف مُـسْـتَـكْـثـرات الذنوب وتَـغْـفـل عن ذنبك الـمقترفْ (١)

أين من جمع الأموال وتموَّلها، وطاف البلاد وجوَّلها، وشق أنهار الأرض وجَدْولها؟ رأت واللَّه كل عاملة عملها، ونزلت بعد سفرها منزلها، عنت الوجوه على جسور المنايا الحوابس، وأذلَّ قبر الموت الشوامس، وصيَّر الفصحاء في مقام الهوامس، يا لِلَيالي المُرْض إنها ليال دوامس، يا لساعة اللحد حين تحثو الروامس، كم لقيت وجوه نواعم من أكفٍّ طَوَامس، كم ترحلت من دار السلامة إلى عسكر (٢) البلى فوارس.

ستُـقْـفـر الأمـصـارُ مـن أهـلـهـا بحادثات تَعْمر السَّبْسبَا (٣)

يـؤشِّـب الـحـافـظ أقــفـالــه وتَفْتح الآفات ما أشَّبَا (٤)

لقد هلكت في الزمان جَدِيسه وطُسَمه، ولقد ذهب من كان وكان اسمه، فلا عينه تُرى ولا رَسْمه، ولا جوهره يحس ولا جسمه، تبدد واللَّه بالممات نَظْمُه، ولحق بالرفات عَظْمه.

كم طوَّفوا بالبلاد وجوَّلوا، كم أوعدوا أعداءهم وهوَّلوا، كم جمعوا وكم تخولوا، كم افتنوا وكم تموَّلوا، كم طالوا وما تطولوا، والمحنة أنهم على الأمل عوَّلوا، فما كان إلا القليل وتغوَّلوا، وجملة الأمر أنهم تحولوا، واستطالت على الورى غُصب ما تطوَّلوا، ظهروا في البلاد عصرًا وطافوا وجوَّلوا، خوِّلوا نعمة فلم يشكروا ما تخولوا، فانظر الآن فيهم أيَّ غَول تغولوا، وأقاموا فما قيل (٥) فازوا ولكن تحولوا.

كما ملأُوا سَهْلًا وجبلًا شاءً وإبلًا، فلما سلكوا إلى الموت سبلًا، وعاينوه يوم الرحيل قُبلًا، وتهيأوا للنزول في دار البلى علموا أن ما كانوا (٦) فيه عَيْنُ البَلا.

أطـاعـوا ذا الخداع وصـدَّقـوه وكم نَصح النصيح فكذَّبوه (٧)

ولم يرضوا بما سكنوا مشيدًا إلى أن فَضَّضُوه وذهَّبُوه (٨)

ألظُّوا (٩) بالقبيح فتابعوه ولـو أُمِـروا بـه لـتـجـنَّـبـوه

نهاهم عن طِلاب المال زهدٌ فنادى الحرصُ ويلكمُ اطلبوه

فألقاها إلى أسماع غُثْر (١٠) إذا عـرفـوا الـطـريـق تـنـكَّـبـوه

(١) اللزوميات: يقارف - ويغفل - اللزوميات : ١٧١، ط صادر.

(٢) ت: إلى دار البلى.

(٣) السبسب: المفازة.

(٤) تأشب الشجر: التف. وأشبته تأشيبًا. والمعنى: يغلق ويبالغ.

(٥) الأصل لفيل. محرفة.

(٦) الأصل: مانوا. محرفة.

(٧) اللزوميات : ٦٠١/٢.

(٨) لم يرد هذا البيت في اللزوميات وإنما هو من وضع المؤلف.

(٩) الأصل: طلوا. محرفة، والتصويب من اللزوميات.

(١٠) الغثر: سفلة الناس.

وحبْل العِيس منتكثٌ ضعيف ... ونعم الرأي أن لا يَجْذبوه [١]
حسبتم يا بني حوَّاءَ شيئًا ... فجاءكمُ الذي لم تحسبوه [٢]
أُديل الشرُّ منكمْ فاحذروه ... ومات الخير فيكم فانْدُبوه

كان الحسن يقول: أسمع أصواتًا [٣] ولا أرى أنيسًا، إنما دين أحدهم لعقة على لسانه، ولو سألته: أتعرف يوم الحساب؟ قال: نعم، وكذَب ومالكِ يوم الدين.

يا من كتابه يحوي حتى حبة خردل، وعليه شاهدان كلامهما معدَّل، وسيلتحف التراب ويتوسَّد الجندل، وهو يمشي معجبًا بنفسه مشية الشمردل [٤].

لعمرك [٥] ما الدنيا بدار إقامة ... ولا الحيُّ في دار السلامة آمِنُ
تحاربنا أيامُنا ولنا رضًى ... بذلك لو أن المنايا تُهَادنُ
أرى الحيرةَ البيضاء عادت [٦] قصورها ... خلاءً ولم تَثْبت لكسرى المدائنُ
ركبنا من الآمال في الدهر لُجَّةً ... فما صبرَتْ للموج تلك السفائنُ
تجيء الرزايا بالمنايا كأنما ... نفوس البرايا للحِمام رهائن

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ...﴾ [٧]

إخواني: اعتبروا بمن مضى من الأقران، وتفكروا في من بنَى كيف بان، تقلبتْ والله بهم الأحوال، ولعبت بهم أيدي البَلْبال، ونسيهم أحبابُهم بعد ليال، وعانقوا التراب وفارقوا المال، فلو أُذن لصامتهم لقال:

مَنْ رآنا فليحدِّث نفسَه ... أنَّه مُوفٍ على قُرْب [٨] زوالْ
وصروفُ الدهر لا يَبْقى لها ... ولِمَا تأتي به صُمُّ الجبالْ

---

(١) لم يرد هذا البيت ولا البيتان قبله في اللزوميات.

(٢) الأصل:

حسبتم يا بني حوا شقاء ... نجاؤكم الذي لم تحسبوه

والتصويب من اللزوميات: ٢/٦٠٥.

(٣) ت: صوتًا. (٤) الشمردل: الطويل. (٥) ت: وعيشك.

(٦) ت: جارت. (٧) سورة الحجر: ٣. (٨) ت: على قرن.

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا حَوْلَنا يشربون الخمر بالماء الزُّلال
والأباريقُ عليها قِدَمٌ وعِتَاق الخيل تَرْدَى في الجِلالْ (١)
عمَروا دهرًا بعيشٍ حسنٍ آمني دهرهُم غير عِجَالْ
ثم أضحوا لعب الدهر بهم وكذاك الدهر حالٌ بعد حال (٢)

يا مشغولًا بالأمل والمنى، تأهَّبْ لمصرع قد قارب ودَنَا، وتزوَّدْ للقبر من الصبر كفنًا، وتهيأ لحرب الهوى فإذا عزمت فألْق القنا، فاللَّحود المقيل وبيت الموتى لا يُبْتَنى، وحاكم العدل يجازي كلًّا بما جَنى.

لا بد للإنسان مِنْ ضجعة لا تَقْلب المضجع عن جنبهِ
ينسى بها ما كان مِنْ عُجْبه بما أذاق الموتُ مِنْ كَرْبهِ
نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بدَّ مِنْ شُرْبهِ
يموت راعِي الضَّأنِ في جَهله مَوْتةَ جالينوسَ في طِبِّه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سِرْبهِ
وغاية المفْرط في سِلمه كغاية المُفْرط في حَرْبهِ (٣)

كأنك بك وقد مدَّ كفَّه إليك المخالس، وافترسك أجلٌ كم (٤) قد فَرَى في الفرائس، وحلَلْتَ بِقَاع البِلى فخلَتْ منك المجالس، ونَفر وبَعُدَ عنك الصديق الصدوق والودود المجانس، وتَرك زيارَتك من كان لك في الوحدة يؤانس، وحُبِسْتَ في ضَنْك ضيِّق من المحابس، وأصبح رَبْعك بعدك وهو خالٍ دارس، ونزلت لَحْدك وَحْدك في ظُلَم الحنادس، وبكى الأهل ساعة والرءوس للنوى نَوَاكس، ثم عادوا إلى الحِلَّة وكلٌّ في حِلِّه آيس (٥)، وانطلقوا فأطلقوا أموالك الحبائس، وأنت تتمنى العَوْدَ كلَّا والعُود يابس، ولقيت قِرْنًا من الردَى فيا شدة المتشاوِس، وتعوَّضْت الرَّغَام على الرغم والثَّرى بالثرى بعد الملابس، فيا بؤس هذا الملبوس ويا ذل هذا اللابس، فلو اطَّلع عليك بعد يوم خامس أو سادس لُرئي أَثرٌ بَعْد عينْ قد غيَّرته الطوامس، وجاءك منكر ونكير فخبِّر عن حرب البَسُوس وداحس، وبقيت حديثًا يجري على مرِّ المدى في المدارس، فاغتنمْ حياتك قبل الممات فأنفاس النفوس نفائس، ياذا الأمل الطويل كم آذى حديثُ الوساوس، يا مناغي المنى ودِّعْ هذه

---

(١) ب: عليهم، وتردى: تسرع، والجلال: جمع جل وهو ما تلبسه الدابة لتصان به.
(٢) ب: حالًا بعد حال.
(٣) الأبيات للمتنبي ديوانه : ص ٥٧٢، تحقيق عزام.
(٤) الأصل: أحد. محرفة.
(٥) كذا بالأصل، وآيس: لَانَ وذلَّ.

الهواجس، أين أرباب القصور؟ هذه طولها تَمَنْطَق [١] بالخراب سورها فنطق مُحِيلها، سحَبتْ على جيوبها من جَنوبها ذيولها، قل لها: أين عامرها أم أين نزيلها؟! يا كثير الأسئلة لها كم تطيلها، كانت فيها جيرةٌ ثم أنَى رحيلها، فاليوم تَنْدُب أطلالهم والغربان رسيلها، ما ردَّتْ شواجر الرماح ولا دَفَع صَقيلها، ولا منعت تلك الظُّبا كالرعد صليلها، أمر لا مرد له [٢] مرت به مُرْدُها وكُهولها، وتتابعت به آسادها في بحر الهلاك وشبولها، وعقرت في جواد النوى بسيف الثَّواء خيولها، وتساوى في جرير الآفات صَعْبها وذلُولها، أمَا يكفي القلوب الغافلة وعظًا دليلها، يا لنفوس أمرضها الهوى ما يُشْفي عليلها، أمَا هذ طريقها أما هذه سبيلها؟! يا لها من موعظة كم تسمعها وكم تقولها.

خَلَج واللَّه البَينُ من القوم مَنْ خَلَج، وأمَّ الموتُ آملهم فلا تسأل كيف انزعج، واستنزل عاليَهم من أعلى الدرج فدرج، وساروا في عسكر البِلى فأتلفهم الوهج، وزفرت [٣] أبدانهم بعد طيب الأرَج، ونسج لهم البلى ثوبًا فيا بئس ما نسج، وعامُوا في بحر الأسى فلجَّج بهم في اللُّجَج، ولقيهم من البلايا ما ضُوعف وازدوج، واستغاثوا ولكنْ في غير أوان الفرَج، وطلبوا راحةً ولكنه زمان الحرَج، وسئلوا فعَدِموا تصحيحَ الجواب وتحقيق الحجج، فيا أسفًا لمسئولهم لا فاز ولا فلج

إنَّ قومي صدَّ عنهم توبةً ... شُقَق البُرْد [٤] اليماني يُعطّ

وإلى الأجداث رمَى الدهرُ بهم ... فهُمُ في رُقَع الدهر نُقَطْ

ذاقهم مُسْتحليًا أرواحهم ... ورأى المَضْغ طويلًا فاشترطْ

وتواقٍ غير باقين وكم ... ينْبت القارب من بعد الفرَط [٥]

وإذا كشَّفت ما يُرْمضني [٦] ... من مضيقِ الداء قال الحلم غَطْ

أخبرنا محمد بن عبد اللَّه بن حبيب، أنبأنا علي بن عبد اللَّه بن أبي صادق، أنبأنا أبو عبد اللَّه بن باكُوية، حدثنا عبد الواحد بن بكر الروياني، حدثنا محمد بن أحمد المارستاني، حدثنا الحسن بن إسماعيل الربعي، عن عبد الرحمن بن إبراهيم الفهري، عن أبيه أن فتًى كان على عهد الحسن، وكان مُفرِّطًا في حق اللَّه ﷻ، فبينا هو كذلك في تفريطه أخذه اللَّه بالمرض أخذة شديدة، فلما آلمه الوجع نادى بصوت منكسر محزون:

---

(١) تمنطق: لبس المنطقة، وفي الأصل: تمطق. محرفة.

(٢) الأصل: لما مردها. محرفة.

(٣) زفرت: تغير ريحها.

(٤) ب: البرق. محرفة. والشقق: جمع شقة، وهي ما شق من الثوب مستطيلًا. ويعط: يشق.

(٥) الفرط: السابق.

(٦) في الأصل: يرضمني. محرفة.

إلهي وسيدي أَقِلْ عَثْرتي وأقمني مِنْ صَرْعتي، فإني لا أعود، فأقامه اللَّه من صرعته فرجع إلى أشد مما كان فيه، فأخذه اللَّه أخذة ثانية، فقال: إلهي أَقِلْني عثرتي وأقمني من صرعتي فإني لا أعود أبدًا، فأقامه اللَّه من صرعته فرجع إلى أشد مما كان، فبينا هو مارٌّ في بعض أيامه إذ نظر إليه الحسن يضرب بأردانه وينظر في أعطافه فقال: يا فتى خَفِ اللَّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فقال: إليك عني يا أبا سعيد فإنا أحداث نريد أن نذوق [1] الدنيا، فقال الحسن: كأنكم بالموت قد نزل بساحة هذا الشاب فرضَّه رضًّا.

فبينما الحسن في مجلسه إذ أقبل أخو الفتى إليه فقال: يا أبا سعيد إن الفتى الذي كنت تعظه هو أخي، وقد وقع في سكرات الموت وغُصَصه، فقال الحسن لأصحابه: قوموا ننظر ما فعل اللَّه به، فلما أقبل الحسن قرع الباب فقالت أمه: من بالباب؟ فقال: الحسن، فقالت: يا أبا سعيد مثلك يَأْتي إلى مثل ولدي! أي شيء تعمل على باب ولدي وولدي لم يترك ذنبًا إلا ركبه ولا محرمًا إلا انتهكه، فقال: استأذني لنا عليه فإن ربنا سبحانه يُقِيل العثرات، فقالت: يا بني هذا الحسن بالباب فقال: يا أماه أترى جاءني الحسن عائدًا أو موبِّخًا؟ افتحي له الباب، ففتحت له فدخل، فلما نظر إليه يعالج سكرات الموت قال له: يا فتى اسْتقِل اللَّهَ يُقْلك، فقال: يا أبا سعيد إنه لا يفعل، قال: أوتصف اللَّه بالبخل وهو الجواد الكريم! فقال: يا أبا سعيد إني عصيته فاستقلْته فأقالني، فعصيته فأمرضني، فاستقلته فأقالني، وهذه الخامسة، فلما استقلته نادى مناد من زاوية البيت، أسمع الصوت ولا أرى الشخص: لا لبيك ولا سعديك قد جرَّبْناك مرارًا فوجدناك غَدَّارًا، فقال الحسن لأصحابه: قوموا بنا.

فلما أن خرج الحسن قال لأمه: هذا الحسن قد آيسني من سيدي وسيدي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، يا أماه إذا رأيتيني وقد تحول السواد بياضًا ورَشَح للموت جبيني وغارت العينان واصفرَّ البنان وانقطع اللسان، فخذي المِدْرعة من تحت رأسي وضعي خدي على الثرى واستوهبيني من سيدي، فإن سيدي يقبل التوبة، فلما نظرتْ إليه يعالج سكرات الموت أخذَتْ المدرعة من تحت رأسه ووضعتْ خده على التراب وشدتْ وسطها بحبل من ليف ونشرت شعرها ورفعت رأسها نحو السماء ثم نادت: إلهي وسيدي أسألك بالرحمة التي رحمت بها يعقوب فجمعت بينه وبين ولده، وأسألك بالرحمة التي رحمت بها أيوب فكشفت عنه البلاء إلا ما رحمتَ ولدي ووهبتَ لي ذنبه، وسمع الحسن هاتفًا يقول: إن اللَّه تعالى قد رحم الفتى وهو من أهل الجنة، فحضر الحسن وجميع أصحابه جنازته.

---

(١) ب: ندق. محرفة.

يا أهل الذنوب لا يغرَّنكم الإمهال فإنما هي أيام وليال، رُبَّ مشغول بلذاته عن ذكر تخريب ذاته، يلهو بأمله عن تجويد عمله، يتقلب في أغراضه ناسيًا قرب إمراضه، بَغَته الفاجع بباسه فأخذه عن أهله وجُلَّاسه.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ... ﴿٣﴾ ﴾:

كم مأخوذ على الزلل خُتم له بسوء العمل، نزل به الموت، فيا هول ما نزل، فأسكنه القبر فكأنه لم يزل، وهذا مصير الغافل لو غفل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

كم نائم على فراش التقصير، مغترٍّ بعمر قصير، صاح به فلم يُبال النذير، فاستلبه الخطأ والتبذير، فلما أحس البأس ثارت من نيران الندم شُعَل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

كم مستحلٍّ شراب الهوى، شرب من كأسه حتى ارتوى، بينا هو على جادة إعراضه هوى، فما نفعه عن الموت ما حوى، ولا ما شرب ولا ما أكل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

لا تَغْترر بنعيم القوم، فإن غدًا بعد اليوم، دعهم فما يؤثِّر فيهم اللوم، وهل ينفع التحريك ميتًا وهل؟! ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

يجمعون الحطام بكسب الحرام، ويتفكرون في نَصْب شَرَك الآثام والناس نيام، يرقدون في الليل وفكرهم في الويل طويل لا ينام، والأقدام فيما لا يحلُّ إقدام تسعى في هواها سعيَ الرَّمَل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

ما عندهم خبر من الساعة، والعمر يمضي ساعة فساعة، خسروا في أشرف تجارة وأغلى بضاعة، يتثاقلون تثاقل عُطَارد في الطاعة، فإذا لاح الذنب فزُحَل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

كيف بكفٍّ يعيا ويعيث، كيف نحذِّرها شر الخطايا وكلُّ فعلها خبيث؟!

كيف نخوفها قليل الذنب ولسان الحال يستغيث، أنا الغريق فما خوفي من البَلَل؟! ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

المجلس الثامن عشر

في قصة بلعام

الحمد للَّه الذي إذا لطف أعان، وإذا عطَف صان، أكرم من شاء كما شاء وأهان، أخرج الخليل من آزر ومن نوح كنعان، يميت ويحيى، ويُغْني ويشقي، كلَّ يوم هو في شان، يُزين بموهبة العلم فإذا لم يُعْمل به شان، خلع خلْعة العلم على بلعام فلم يصُنْها ومال بهواه إلى ما عنه يُنْهي ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ (١).

أحمده في السر والإعلان، وأصلي على رسوله محمد الذي انشقَّ ليلة ولادته الإيوان، وعلى أبي بكر أول من جمع القرآن، وعلى الفاروق الموصوف بالعدل وكذلك كان، وعلى التقي الحييّ عثمان، وعلى عليٍّ سيد العلماء والشجعان، وعلى عمه العباس المستسقى به فسال التَّهْتان.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا... ﴾ (٢)

في المشار إليه ستة أقوال:

أحدها: أنه أمية بن أبي الصلت، قاله عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وكان قد قرأ الكتب وعلم أنه سيأتي رسول، ورجا أن يكون هو، فلما بعث رسول اللَّه ﷺ حسده وكفر.

والثاني: أبو عامر الراهب، قال ابن عباس: الأنصار تقول: إنه أبو عامر.

والثالث: أنه كان رجلًا من بني إسرائيل، أُعْطِيَ ثلاث دعوات مستجابات، وكانت له امرأة دميمة، فقالت له: ادع اللَّه أن يجعلني أجمل امرأة فدعا لها فرغبت عن زوجها، فدعا عليها أن يجعلها كلبة نبَّاحة، فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا على تعيير الناس لنا بأمنا، فدعا أن تكون كما كانت، فذهبت الثلاث دعوات، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والرابع: أنه كل من انسلخ من الحق بعد أن أُعْطِيَهُ من اليهود والنصارى والحنفاء، قاله عكرمة.

(١ ، ٢) سورة الأعراف: ١٧٥.

والخامس: أنه المنافق، قال الحسن.

والسادس: أنه بِلْعام، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسُّدِّي وهو المشهور والأثبت.

وفي الآيات التي أوتيها أربعة أقوال:

أحدها: اسم اللَّه الأعظم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن جرير.

والثاني: أنها كتاب من كتب اللَّه، رُوِيَ عن ابن عباس.

والثالث: أنها حجج التوحيد وفهم أدلته.

والرابع: أنها العلم بكتب اللَّه تعالى.

وكان من خبر بلعام: أن موسى عليه السلام غزا البلد الذي هو فيه وكانوا كفارًا، وكان هو مجاب الدعوة، فأتاه قومه فقالوا: هذا موسى قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحلّها بني إسرائيل، ونحن قومك فادع اللَّه عليهم، فقال: ويلكم نبي اللَّه ومعه الملائكة والمؤمنون، فكيف أدعو عليهم؟ فقالوا: ما لنا من مَتْرك، فلم يزالوا يرققونه ويتضرعون إليه حتى افتتن، فركب حمارة له متوجهًا إلى عسكر موسى، فما سار إلا القليل حتى ربضت دابته به فنزل عنها فقرَّبها، فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب؟ ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا، أتذهب إلى نبي اللَّه والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها وضربها، فانطلقت به حتى إذا أشرف على عسكر موسى جعل لا يدعو عليهم بشيء إلا صرف اللَّه به لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: إنما تدعو علينا، فقال: هذا شيء لا أملكه، إلا أنه دعا ألا يدخل موسى المدينة فوقعوا في التِّيه، فقال موسى: اللَّهم كما سمعت دعاءه عليَّ فاسمع دعائي عليه، فدعا اللَّه أن ينزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لقومه: قد ذهبتْ مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والحيلة، جمِّلوا النساء وأعطوهن السِّلع وأرسلوهن في العسكر يبعنها، ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها ممن أرادها، فإنه إن زنى رجل منهم كُفيتموهم، ففعلوا ذلك فوقع رجل منهم على امرأة فأرسل اللَّه تعالى الطاعون على بني إسرائيل حينئذ، فهلك منهم سبعون ألفًا في ساعة واحدة.

وروى السُّدِّي عن أشياخه أن بلعام قال لقومه: لا ترهبوا بني إسرائيل فإنكم إذا خرجتم لقتالهم دعوت عليهم، وكان رغَبه فيما عندهم من الدنيا، وقال غيره: خوَّفه ملكهم فنحت له خشبة ليصلبه عليها، فدعا عليهم.

وقوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا... ﴿١٧٥﴾﴾ أي خرج من العلم بها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ... ﴿١٧٥﴾﴾

أي أدركه ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ يعني الضالين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا... ﴾ في هاء الكناية قولان: **أحدهما:** أنها تعود إلى الإنسان المذكور، قاله الجمهور. **والثاني:** إلى الكفر بالآيات، فيكون المعنى: ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا، روي عن مجاهد ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ... ﴾ أي ركن إلى الدنيا وسكن ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ... ﴾ أي انقاد إلى ما دعاه إليه الهوى.

وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء إذا مالوا عن العلم إلى الهوى.

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث... ﴾ المعنى: أن الكافر إن زجرتَه لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، كالكلب إن طُرد كان لاهثًا وإن ترك كان لاهثًا.

قال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يكون من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال كلاله؛ وفي حال الرّي وحال العطش.

قال المفسرون: زجر في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر، وخاطبه أتانه (١) فلم ينته.

وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضرَّه، قال سفيان بن عيينة: العلم يضرك إذا لم ينفعك. وقال منصور بن زاذان: نُبئت أن بعض من يُلقى في النار يتأذى أهل النار بريحه فيقال له: ويحك ما كنت تعمل؟ أما يكفينا ما نحن فيه من الشر حتى ابتُلينا بك وبنتن ريحك؟! فيقول: كنت عالمًا ولم أنتفع بعلمي.

وكتب حكيم إلى حكيم: يا أخي قد أوتيتَ علمًا فلا تدنِّس علمك بظُلْمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وكان عيسى ابن مريم يقول: يا معاشر العلماء مثلكم مثل الدِّفْلى (٢) يعجب وَرْده من نظر إليه ويقتل طعمه من أكله، كلامكم دواء يبرئ الداء وأعمالكم داء لا يقبل الدواء، والحكمة تخرج من أفواهكم وليس بينها وبين آذانكم إلا أربع أصابع، ثم لا تعيها قلوبكم، معشر العلماء كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليُخْبر به ولا يطلبه ليعمل به؟! العلم فوق رءوسكم والعمل تحت أقدامكم، فلا أحرار كرام ولا عبيد أتقياء.

* * *

(١) الأتان: أنثى الحمار.

(٢) الدفلى: نبت مر قتّال زهره كالورد الأحمر.

الكلام على البسملة

جِـــدُّوا فــإن الأمــر جِــــدٌّ ولـــه أعــــدُّوا واســـتــعـــدُّوا
لا يُـسْـــتـــقـــال الـيــومُ إنْ ولَّـــــىٰ ولا لـــــلأمر ردُّ
لا تَـغْـفَـلُــنّ فــإنــمـــا آجـــالـكــم نَـفَـسٌ يُـعَـــدُّ
وحـــوادث الـــدنـيــا تــرو ح عـــلـيـكـــمُ طـورًا وتَـغْـدو
أيــن الألـــى [1] كـنـا نـــرى مـــاتــوا ونـحــن نـموت بَـعْـدُ
مـــالـــي كـــأن مـنـــاي يُـبـ ـسط لـي وآمـالـي تُـمَـــدُّ [2]
مــا غـفـلـتـي [3] عـن يوم يجْ ـمع شِـرَّتـي كَـفـنٌ ولـحـد
ضـيَّـعـت مـــا لا بــدَّ لـــي مــنــه بـمــا لـي مـنـه بُـــدُّ
مـــا نـحـــن فـيــه مـتـــاع أيَّـ ـــام يُـعَـــار ويُـسْـتــــردُّ
إنْ كــــان لا يُـغْـنـيـــك ما يــكـفـي فـمـا يُغْنيك جَدُّ [4]
هـوِّن عـلـيـك فـليـس كـلّ النا س يُـعْـطَـى مــا يـــودُّ
وتـــوقَّ نـفـســـك فـــي هوا ك فــإنـهـــا لـــك فـيـه ضِدُّ
مَـنْ كـــان مـتـبـعًا هـــــوا ه فـــإنـــه لـهـــواه عَـبْـــدُ

إخواني: متى أصبح الهوى أميرًا أمسى العقل أسيرًا، التقوى دِرْع والدرع مجموع حَلَق، فغض البصر حَلْقة، وحبس اللسان حلقة، وعلى هذا سائر ما يتوقَّى، فإياك أن تترك خللًا في درعك فإن الرامي يقصد الخلل، متى فسَحْتَ لنفسك في تفريط وإن قلَّ انْخَرق حِرْز احترازك.

كان بعض المتعبدين يمشي في وسط الوحل ويتقيه ويشمر عن ساقيه، إلى أن زلقت رجله، فجعل يمشي في وسط الوحل ويبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا مثل العبد لا يزال يتوقَّى الذنوب حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض الذنوب خوضًا.

قيل لعبيدة بنت أبي كلاب: ما تشتهين؟ فقالت: الموت، فقيل: ولِمَ؟ قالت: لأني والله في كل يوم أصبح أخشى أن أجْنِيَ على نفسي جناية يكون فيها عَطَبي أيام الآخرة.

يا مستورًا على الذنب انظر في ستْر من أنت، لو عرفتني أعرضتَ عن غيري، لو أحببتني

(١) في ديوان أبي العتاهية : ص ١٢٥: إن الألى.
(٢) لم يرد هذا البيت في ديوان أبي العتاهية، ولعلها طريقة ابن الجوزي في صنع أبيات على القافية والوزن.
(٣) الديوان: يا غفلتي.
(٤) الديوان: ما لغناك حد.

أبغضت ما سواي، لو لاحظت لطفي لتوكلت ضرورة عليَّ، خاصمتُ عنك قبل وجودك ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (١) واستكثرت قليل عملك ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ (٢) واعتذرت لك في زللك ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ... ﴿٢٢﴾ ﴾ وغطيت قبيح فعلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (٣) ولقَّنتك عذرك عند زللك ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ (٤) وأربحتك معاملتك ﴿ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ ﴾ (٥)، من خاصم عنك وأنت مفقود لا يُسْلمك وأنت موجود، فاعرف عليك حقي ولا تكن من شرار خَلْقي، فكم أرى زلة فأحلم وأُبْقِي.

يا قائمًا في مقام الجهالة قد رسَخ، يا متكبرًا على إخوانه قد علا وشمخ، يا خارجًا عن الحد شغلًا باللَّهو والمطبخ، يا من في بصره كَمَه وفي سمعه صَمَخ، يا طامعًا في السلامة مع ترك الاستقامة، ألقيت البذر في السَّبخ، متى ينقى قلبك من هذا الدرن والوسخ، متى تتصور نفخة إسرافيل في الصور إذا نفخ؟!

يا ذا الأمل الطويل العريض، أمَا أنذرتك الشعرات البيض، أما الموت بَرْق والشيب وميض، عجبًا لتأميل الكسير المهيض! لقد فات الفوز قِدْح المغيض، يا دائم الخطأ وكم علِّم ورِيض، يا معجبًا بالسلامة وهو في الحقيقة مريض، لا اللسان محفوظ ولا الجفن غضيض، لا بالنثر ترجع إلينا ولا بالقريض، لقد نزلت بك المعاصي إلى أسفل حضيض.

ليت شعري بعد الموت إلى أين تذهب، لقد تعمَّى واللَّه عليك المذهب، لا بد مرة من كأس الحِمَام تشرب، ولهذه الأجساد المبنية أن تخرب، ولولا فراخ الحياة ما كانت فخاخ الموت تُنْصب.

ما لي بما بعد الردى مَخْبرَهْ	قد أدمت الآنف هذي البُرَة (٦)
الليل والإصباح والقيظ (٧) وال	إبراد والمنزل والمقبرة
عشنا وجسر الموت قُدَّامنا	فشمِّر الآن لكي تعبره (٨)
عِيسٌ تُبَارِي بالفَلا خُدْلها	فَجُدْ لها يا رب بالمغفره (٩)

---

(١) سورة البقرة: ٣٠. (٢) سورة الأحزاب: ٣٥. (٣) سورة التحريم: ٨.

(٤) سورة الانفطار: ٦. (٥) سورة الأنعام: ١٦٠.

(٦) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير. وفي الأصل: هذه البرة. والتصويب من اللزوميات : ١/ ٥١٣، ط صادر.

(٧) الأصل: واليقظ، والتصويب من اللزوميات.

(٨) الأصل: فشمروا الآن لكي نعبره. وما أثبته من اللزوميات.

(٩) لم يرد هذا البيت ولا البيتان بعده في اللزوميات وهي من صنع ابن الجوزي. والعيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة. والخدل: العظام الممتلئة.

أُفْــقِـرَ بــــالمطعم ركابُهـــا والـقـــوم بـالـدَّوِيَّـة المـقـفـرة
كــــم جـاوزوا مـن حندسٍ مظلم لـيـبـلـغـوا رحـمـتــه المُسْفرة

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (١)

الاعتبار: النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من غير (٢) جنسها، والأبصار: العقول، والمعنى: تدبروا.

إخواني: الدنيا دار عِبْرة، ما وقعت فيها حَبْرة إلا ورَدِفَتْها عَبْرة، أين من عاشرناه كثيرًا وألفنا؟! أين مَنْ مِلْنا إليه [بالوداد] (٣) وانعطَفْنا؟! أين من ذكرناه بالمحاسن ووصَفْنا؟! ما نعرفهم لو عنهم كشفْنا، ما ينطقون لو سألناهم وألحَفْنا، وسنصير كما صاروا فليتنا أنصفنا، كم أغمضنا من أحبابنا على كرههم جَفْنًا، كم ذكرتنا (٤) مصارع مَنْ فَنِي من يَفْنَى، كم عزيز أحببنا دفنَّاه وانصرفنا، كم مؤانس أضجعناه في اللحد وما وقفنا، كم كريم علينا إذا جُزْنا عليه انحرفنا، ما لنا نتحقق الحق فإذا أيقنا صدَفْنَا!! أما ضرّ أهلَه التسويفُ وها نحن قد سوَّفنا! أما التراب مصيرنا فلماذا منه أنِفْنَا؟! إلام تغرنا السلامة وكأن قد تلفنا؟!

أين حبيبنا الذي كان وانتقل؟! أما غمسه التلف في بحره ومَقَل (٥)؟! أين الكثير المال الطويل الأمل؟! أما خلا في لحده وحده بالعمل؟! أين من جرَّ ذيل الخيلاء غافلًا ورفل؟! أما سافر عنا وإلى الآن ما قَفَل؟! أين من تنعم في قصره وفي قبره قد نزل، فكأنه في الدار ما كان وفي اللحد لم يزل؟! أين الجبابرة الأكاسرة العتاة الأُوَل، ملك أموالهم سواهم والدنيا دُوَل؟!

خلا والله منهم النادي الرحيب، ولم ينفعهم طول البكاء والنحيب، وعاينوا من هَوْل المطلع كل عجيب، وسئل عاصيهم فلم يدر كيف يجيب.

مضى والله الكل على منهاج، وساروا بين غوارب وأحداج (٦)، ورحلوا إلى البلى أفواجًا بعد أفواج، ولقوا لَغَب الطريق على تعب الإدلاج، وتوسطوا بحر الجزاء المدلهمّ العَجَّاج، وظنوا سلامتهم فهاجت أمواج بعد أمواج، ونشرت صحائفهم فإذا بها كالليل

(١) سورة الحشر: ٢.
(٢) ت: من جنسها.
(٣) من ت.
(٤) ت: أذكرتنا.
(٥) مقل: ألقى. يقال: مقل القلة: ألقاها في الإناء وصب عليها ما يغمرها من الماء.
(٦) الغوارب: جمع غارب وهو ما بين السنام إلى الكاهل. والأحداج: مراكب النساء مفردها حدج، كالمحفة.

الداج، وباشروا خشن التراب بعد لِين الديباج، وتعوضوا لحدًا غامرًا عن عامر الأبراج، وحُلُّوا إذ خلوا فيه حلية المدَر بعد التاج، فمحا محاسنهم بعد بهاء الإبهاج (١)، وسئلوا عما ثَمَّ فتمتم اللسان اللَّجْلاج، وعادت نساؤهم أيامى بعد الأزواج

إني سألت التراب ما فعلتْ ... بعدُ وجوه فيك منعِفرة
فأجابني صيَّرتُ ريحهمُ ... يؤذيك بعد روائحِ عِطِرة
وأكلت أجسادًا منعَّمة ... كان النعيم يهزها نضِرة
لم يبق غير جماجمٍ عريتْ ... بِيض تلوح وأعْظم نَخِرة

تذكر يا من جنى ركوب الجنازة، وتصور يا من ما (٢) طول المفازة، ودع الدنيا مودِّعًا للحلاوة والمزازة، وارقم من قلبك ذكر الموت على جزازة (٣)، وخلص نفسك من غُلِّ الغِلِّ وحزّ الحزازة، وذكِّرها يوم تمسي في التراب منحازة.

سَلْ بغُمْدان أين ساكنه ... سيفٌ وقل لنعمان أين السَّدِيرُ (٤)
أيها الظاعنون لا زال للعيـ ... ـس رَوَاح عليكم وبُكُورُ
قد رأينا ديارَكمْ وعليها ... أثرٌ من عفائكم مهجورُ
وسألنا أطلالها فأجابت ... ومِن الصمت واعظٌ ونذيرُ
بان ذلُّ الأسى عليها فللغيـ ... ـث بكاء وللنسيم زفير
ذكَّرتنا عهود كم بعد ما طا ... لت ليال من بعدها وشهور
عجبًا كيف لم نمت في معانـ ... ـيها أسًى ما القلوب إلا صخور
يا ديار الأحباب غيَّرك الدهـ ... ـر وكانت بعد الأمورِ أمورُ

أخبرنا سعيد بن أحمد بن البنَّاء، أنبأنا عاصم بن الحسن، أنبأنا علي بن محمد المعدل، أنبأنا أبو علي البرذعي، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني الصلت بن حكيم قال: حدثني محبوب العابد قال: مررت بدار من دور الكوفة فسمعت جارية تغني من داخل الدار:

ألا يا دار لا يَدْخلك حُزْن ... ولا يَغدر بصاحبك الزمانُ

قال: ثم مررت بالدار فإذا الباب مسدود وقد علته وحشة، فقلت ما شأنهم؟ قالوا: مات سيدهم، مات رب الدار، فقلت إني سمعت من هاهنا صوت جارية تقول:

---

(١) الأصل: إبهاء إبهاج. محرفة. (٢) ت: يا من سار. (٣) الجزازة: القطعة.

(٤) غمدان: قبة سيف بن ذي يزن، وقيل: قصر معروف باليمن. والسدير قصر النعمان بن المنذر.

ألا يا دار لا يدخلك حُزْن، فقالت امرأة من الدار وبكت: يا عبد اللَّه إن اللَّه يغيِّر ولا يتغير، والموت غاية كل مخلوق، فرجعت من عندهم (١) باكيًا [حزينًا] (٢).

قال القرشي: وحدثنا أبو سعيد المدائني قال: حدثنا أحمد بن محمد المهدي قال: حدثني رجل من عبد قيس قال: دخلتْ ابنة النعمان بن المنذر على معاوية فقال لها: أخبريني عن حالكم كيف كان؟ قالت: أُطِيل أم أُقْصر؟ قال: لا بل أَقْصِري. قالت: أمسينا مساء وليس في العرب أحد إلا وهو يرغب إلينا ويرهب منا، فأصبحنا صباحًا وليس في العرب أحد إلا ونحن نرغب إليه ونرهب منه، ثم قالت:

بَينا نسوسُ الناسَ والأمر أمرُنا ... إذا نحن فيهم (٣) سُوقة ليس نُنْصَفُ

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلَّب تارات بنا وتصرَّف

قال القرشي: وحدثني محمد بن الحسين قال: حدثني دواد بن المحبَّر قال: حدثنا كثير ابن سعيد السلمي، عن أبيه قال: أعرس رجل من الحي على ابنة عمه فاتخذوا لذلك لهوًا، وكانت منازلهم إلى جانب المقابر، فبينا هم في لهوهم ذلك ليلًا إذ سمعوا صوتًا أفزعهم فأصغوا إليه، فإذا بهاتف يهتف من بين القبور:

يا أهلَ لذةِ دنيا لا تدوم لهم ... إن المنايا تبيد اللَّهو واللعبَا

كم مَنْ رأيناه مسرورًا بلذته ... أمسى فريدًا من الأهلين مغتربا

قال: فو اللَّه ما لبثنا بعد ذلك إلا أيامًا حتى مات الفتى المتزوج.

قال القرشي: وقال علي بن محمد القرشي، عن المنهال بن عبد الملك قال: حبس هشامُ بن عبد الملك عياضَ بن مسلم، وكان كاتبًا للوليد بن يزيد وضربه وألبسه المسوح، فلما ثقل هشام أرسل عياض إلى الخزَّان: احفظوا ما في أيديكم، فمات هشام وخرج عياض، فختم الأبواب والخزائن ومنع أن يكفَّن هشام من الخزائن واستعاروا له قُمْقمًا فأسخنوا فيه الماء، فقال الناس: إن في هذا لعبرة لمن اعتبر.

قال القرشي: وقال الحسن بن عثمان: سمعت الوليد يقول عن عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر قال: كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خِلًّا لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك وتصدع الناس عن قبره وقف عليه فقال له: أنت عبد الملك الذي كنت تَعِدني فأرجوك، وتوعدني فأخافك، وليس معك من مُلْكك غير ثوبيك، وليس لك منه غير أربع أذرع في عرض ذراعين؟!

(١) ت: من عندها. (٢) من ت. (٣) ت: فيها.

ثم انكفأ إلى أهله واجتهد في العبادة حتى صار كأنه شَنٌّ [١]، فدخل عليه بعض أهله فعاتبه في نفسه وإضراره بها، فقال للقائل: أسألك عن شيء تَصْدقني عنه؟ قال: نعم، قال: أخبرني عن حالك التي أنت عليها أترضاها للموت؟ قال: اللّهم لا، قال: فهل عزمتَ على انتقال منها إلى غيرها؟ قال: ما أنْضجت رأيي في ذلك، قال: أفتأمن أن يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها؟ قال: اللَّهم لا، قال: حالٌ ما أقام عليها عاقل، ثم انكفأ إلى مصلاه.

وَرَدَ الهُلْكَ قَبْلنا أممٌ ... فلنتبعنَّ معاشرًا وَرَدوا
حملتهم جُرْدٌ مقربة [٢] ... ثم انطووا بالموت وانجردوا

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا المبارك بن عبد الجبار، أنبأنا أبو الحسين محمد ابن عبد الواحد، أنبأنا محمد بن عبد الرحيم المازني، حدثني أبو القاسم الكوكبي، حدثنا أبو بكر الضرير، حدثني غسان بن عمر، عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي، قال: دخلت على أمي في يوم أضْحى وعندها امرأة بَرْزة في أثواب رثة، فقالت لي: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه عبَّادة أم جعفر بن يحيى بن خالد، فسلمت عليها ورحبت بها، وقلت: يا خالة، حدثيني ببعض أمركم، قالت: أذكر جملة فيها اعتبار وموعظة لمن فكَّر، هجم عليّ مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابني جعفر عاق لي وقد دفع إلي خمسمائة دينار، وقال: أنفقي هذه في عيدكم، وأنا الآن قد أتيتكم والذي يُقْنعني جلد شاتين أجعل أحدهما شعارًا والآخر دثارًا.

أيُّ مطمئن لم يُزْعَج؟! أي قاطن لم يُخرج؟! إخواني قد عُرف المنهج، زال الشك والحق أبلج، إخواني فرس الرحيل مُسْرج، وإلى بوادي القبور المخرج، والنعش المركوب بعد الهودج، والعَرق يكون صِرْفًا لا يمزج، ما هتف الموت بمقيم إلا أدلج، ولا استدعى نطق فصيح إلا لجلج، إخواني: ما جرى على الإخوان [٣] أنموذج.

رَكَنوا إلى الدنيا الدنيَّهْ ... وتبوأوا الرُّتَب السنيَّه
حتى إذا اغتروا بها ... صرعتهمُ أيدي المنيه

سلوا عن الجيران المنازلَ، وقولوا لها: أين النازل؟! لا واللَّه ما تجيب السائل، بَلَى إن البِلَى ينطق بالبلابل، إخواني: الدنيا ظل زائل وحال حائل، وركن مائل ورفيق خاذل، ومسئول باخل، وغُول غائل، وسم قاتل، كم تعد الدنيا وتماطل، كل وعودها غرور باطل، واللَّه ما فرح بها عاقل، مَكْرها لا يمرُّ على لقمان بل على باقل [٤].

---

(١) الشن: القربة البالية. (٢) الجرد: الخيل المسرعة. (٣) ت: على الأقران.

(٤) يريد أن مكر الدنيا لا يخدع حكيمًا مثل لقمان، وإنما يخدع أحمق مثل باقل، وقد ضرب به المثل في العي وعدم الإفصاح.

خليليَّ كم ميّتٍ قد حضَرْتُه ... ولكنني لم أنتفع بحضوري
وكم من خطوب قد طوَتْني كثيرة ... وكم من أمور قد جرَتْ وأمور
ومن لم يزده الدهرُ ما عاش عِبْرةً ... فذاك الذي لا يستنير بنور

سجع على قوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾:

كم من ظالم تَعدَّي وجار، فما راعى الأهل ولا الجار، بينا هو يعقد عقد الإصرار حلَّ به الموت فحلَّ مِنْ حُلَّته الأزرار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

ما صحبه سوى الكفن إلى بيت البلى والعفن، لو رأيته وقد حلَّت به المحن، وشِين ذلك الوجه الحسن، فلا تسأل كيف صار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

سال في اللحد صديده، وبَلِيَ في القبر جديده، وهجره نسيبُه ووديده، وتفرق حشمه وعبيده والأنصار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

أين مجالسه العالية؟! أين عيشته الصافية؟! أين لذاته الحالية؟! كم كم تَسْفِي على قبره سافية، ذهبت العَيْن وأخفيت الآثار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

تقطَّعت به جميع الأسباب، وهجره القرناء والأتراب، وصار فراشه الجندلَ والتراب، وربما فتح له في اللحد باب النار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

خَلا والله بما كان صنع، واحتوشه الندم وما نفع، وتمنى الخلاص وهيهات قد وقع، وخلَّاه الخليل المصافي وانقطع، واشتغل الأهل بما كان جمع، وتملك الضدُّ المال والدار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

نادمٌ بلا شك ولا خفا، باكٍ على ما زلَّ وهفا، يود أن صافي اللذات ما صفا، وعلم أنه كان يبني على شفا جُرُف هار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

قارنه عمله من ساعة الحَيْن، فهو يتمنى الفرار وهيهات أين، ويقول: يا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين، فهو على فراش الوحدة وحده والعمل ثاني اثنين، ولكن لا في الغار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

وهذه وإن كانت حالة من غدًا، فلكل منكم مثلها غدًا، فانتبهوا من رقادكم قبل الردى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (١) إنما هي جنة أو نار ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

والحمد لله وحده.

---

(١) سورة القيامة: ٣٦.

المجلس التاسع عشر

في قصة داود عليه السلام

الحمد لله رب الأرباب ومسبِّب الأسباب ومُنْزل الكتاب، حفظ الأرض بالجبال من الاضطراب [١]، وقهر الجبارين وأذل الصعاب، وسمع خفيَّ النطق ومهموس الخطاب، وأبصر فلم يستر نظره حجاب، أنزل القرآن يحث فيه على اكتساب الثواب، وزجر عن أسباب العقاب ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٢] ابتلى المصطفَيْنَ بالذنوب ليُعْلَم أنه تواب، أمَا سمعت بزلة آدم وما جرى من عتاب ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [٣].

أحمده على رفع الشك والارتياب، وأشكره على ستر الخطايا والعاب، وأقر له بالتوحيد إقرارًا نافعًا يوم الحساب، وأعترف لنبيه محمد أنه لباب اللباب، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر خير الأصحاب، وعلى عمر الذي إذا ذُكر في مجلس طاب، وعلى عثمان المقتول ظلمًا وما تعدى الصواب، وعلى علي البدر يوم بدر والصدر يوم الأحزاب، وعلى عمه العباس الذي نسبه أشرف الأنساب.

اللَّهم يا من ذلت له جميع الرقاب وجرت بأمره عَزَالي السحاب، احفظنا في الحال والمآب، وألهمنا التزود قبل حلول التراب، وارزقنا الاعتبار بسالفي الأتراب، وأرشدنا عند السؤال إلى صحيح الجواب، وهب لشيبنا معاصي الشباب، وارزقني والحاضرين عمارة القلوب الخراب، برحمتك يا كريم يا وهاب.

* * *

قال اللَّه عز وجل:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ...﴾ [٤]

المعنى: قد أتاك فاستمع له نقصصه عليك.

والخصم يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى، و ﴿تَسَوَّرُواْ... ﴿٢١﴾﴾ يدل على علوّ، والمحراب هاهنا كالغرفة [٥]، قال الشاعر:

---

(١) ب: من الإضراب.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣، ٤) سورة ص: ٢١.

(٥) ت: غرفة.

رُبَّت محراب إذا جئتها ... لم ألقها أو أرتقي سُلَّمَا [١]

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ... ﴿٢٢﴾ ﴾ وهو داود بن إيشا بن عويد من نسل يهوذا بن يعقوب.

وكان مبدأ أمره أن اللَّه تعالى لما بعث طالوت ملكًا خرج من بني إسرائيل معه ثمانون ألفًا لقتال جالوت، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فلم يثبت معه غير ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان فيهم أبو داود وثلاثة عشر ابنًا له، وداود أصغرهم، وإنه مرَّ بثلاثة أحجار فكلمْنَه وقلن: يا داود خذنا معك تقتل بنا جالوت، فأخذهن ومشى إلى جالوت فوضعهن في قذَّافته فصارت حجرًا واحدًا ثم أرسله فصكَّ به بين عيني جالوت فقتله، ثم هلك طالوت فملك داود وجعله اللَّه نبيًّا، وأنزل عليه الزبور وعلَّمه صنعة الحديد وألانه له، وأمر الجبال والطير أن يسبِّحن معه، وكان إذا قرأ الزبور خضع له الوحش حتى تؤخذ بأعناقها.

وكان كثير التعبد، فتذاكر بنو إسرائيل يومًا عنده: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا؟ فأضمر أنه يطيق ذلك، فابتُلِيَ يوم عبادته بالنظر، وذلك أنه رأى طائرًا في محرابه فمدَّ يده إليه فتنحى فأتبعه بصره فإذا بامرأة فخطبها، مع علمه أن أوريا قد خطبها، فتزوجها، فاغتم أوريا، فعوتب إذ لم يتركها لخاطبها الأول.

هذا أجود ما قيل في فتنته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فأما ما ينقل أن زوجها بُعث [٢] في الغزوات حتى قتل، فلا يجوز أن يكون صحيحًا.

فجاءه الملكان فتسوَّرا عليه من سور داره ففزع منهم؛ لأنهما أتياه على غير صفة مجيء الخصوم وفي غير وقت الحكومة وتسوروا من غير إذن و ﴿ خَصْمَانِ... ﴿٢٢﴾ ﴾ مرفوع بإضمار نحن.

وهذا مثلٌ ضرباه له والتقدير: ما تقول إن جاءك خصمان؟ وقال ابن الأنباري: نحن كخصمين ومَثَلُ خصمين فسقطت الكاف وقام الخصمان مقامهما، تقول العرب: عبد اللَّه القمر حُسْنًا. أي مثل القمر، قالت هند بنت عتبة:

من حسَّ [٣] لي الأخوين كالـ ... ـغصنين أو من راهما

أسدين في غِيلٍ يحيـ ... ـد القوم عن عُرواهما [٤]

صقرين لا يتذللا ... ن ولا يباح حِمَاهما

رمحين خطيَّين في ... كبد السماء تراهما

---

(١) ورد البيت في اللسان، مادة (حرب). ونسبه إلى وضاح اليمن.

(٢) ت: أنه بعث زوجها. (٣) حس: قتل. (٤) العرواء: الرعدة.

أرادت مثل أسدين ومثل صقرين، ثم صرف الله النون والألف في « بعضنا » إلى نحن المضمر، كما تقول العرب: نحن قوم شرف أبونا، ونحن قوم شرف أبوهم والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُشْطِطْ... ﴿٢٢﴾ ﴾، أي لا تجُرْ يقال: شطَّ وأشط إذا جار ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي إلى قصد الطريق، والمعنى: احملنا إلى الحق.

فقال داود: تكلَّما، فقال أحدهما: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ... ﴿٢٣﴾ ﴾ قال الزجاج: كنى عن المرأة بالنعجة، قال المفسرون: إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي انزل أنت عنها واجعلني أنا أكْفلها ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي غلبني في القول، وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ وابن أبي عبلة: ﴿ وعازَّني ﴾ أي غالبني قال ابن عباس: إن دعا ودعوت كان أكثر مني، وإن بطش وبطشت كان أشدَّ مني.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ... ﴿٢٤﴾ ﴾ فإن قيل: كيف حكم ولم يسمع كلام الآخر؟ فالجواب: أن الآخر اعترف فحكم عليه باعترافه، وحذف ذكر ذلك اكتفاء بفهم السامع، والعرب تقول: أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال، أي فتجرت فكسبت.

و ﴿ ٱلْخُلَطَآءِ... ﴿٢٤﴾ ﴾ الشركاء و ﴿ وَظَنَّ ﴾ أي أيقن وعلم ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ... ﴿٢٤﴾ ﴾ أي ابتليناه بما جرى [١] له في حق المرأة.

وفي سبب تنبهه لذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الملكين أفصحا له بذلك، قال السُّدِّي: قال داود للخصم الآخر: ما تقول؟ قال: نعم أريد أن آخذها منه وأكمل بها نعاجي وهو كاره، قال: إذًا لا ندعك، وإن رُمْت هذا ضرَبْنا منك هذا وهذا، يشير إلى أنفه وجبهته، فقال له: أنت يا داود أحق أن يُضرب هذا منك، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا واحدة، فنظر داود فلم ير أحدًا فعرف ما وقع.

والثاني: أنهما عرَجا وهما يقولان: قَضَى الرجل على نفسه، فعلم أنه عُنِي بذلك [٢]. قاله وهب.

والثالث: أنه لما حكم بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وهو يضحك ثم صعد إلى السماء وهو ينظر، فعلم أن الله ابتلاه بذلك، قاله مقاتل.

---

(١) ب: أي ابتلينا ما جرى له.

(٢) في ب: زيادة: إليه. ولا معنى لها.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا... ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: أي ساجدًا فعبر بالركوع عن السجود؛ لأنه بمعنى الانحناء، قال المفسرون: بقي في سجوده أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بد منها، ولا يأكل ولا يشرب، فأكلت الأرض من جبهته ونبت العشب من دموعه [1]، وهو يقول في سجوده: رب زَلَّ داود زلةً أبْعد ما بين المشرقْ والمغرب.

أخبرنا علي بن عبيد اللّه، أنبأنا ابن النقُور، أنبأنا عمر بن إبراهيم الكناني، حدثنا البغوي، حدثنا داود بن رشيد، حدثنا أبو حفص الأبار، عن ليث، عن مجاهد قال كانت خطيئته في كفه مكتوبة، قال: فسجد حتى نبت من البقل ما وارى أذنيه أو قال: رأسه، ثم نادى: أيْ رب قَرِح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه من ذنبه شيء. قال فنودي: أجائع فتُطْعَم، أم عار فتكسى، أم مظلوم فينتصر لك؟ فلما رأى أنه لم يرجع إليه في ذنبه شيء نَحَب نَحْبة فهاج ما ثَمَّ.

أخبرنا عبد الوهاب، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا أبو بكر الخياط، أنبأنا أبو عبد اللّه أحمد بن يوسف العلاف، حدثنا أبو علي بن صفوان، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثني محمد بن الحسين، حدثنا عمرو بن جرير، حدثنا عامر ابن يساف، عن يحيى بن أبي كثير، قال: بلغنا أنه كان داود مكث قبل ذلك سبعًا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له منبرًا إلى البرِّية وأمر سليمان مناديًا يستقرئ البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والديارات والصوامع والبِيَع فينادي فيها: ألا من أحب أن يسمع نَوْحَ داود فليأت، فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغِيَاض وتأتي الهوامّ من الجبال، وتأتي الطير من الأوكار، وتأتي الرهبان من الصوامع والديارات، وتأتي العذاري من خدورها، ويجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود عليه السلام حتى يَرْقَى على المنبر ويحيط به بنو إسرائيل كل صَفٍّ على حِدَته.

قال: وسليمان قائم على رأسه، قال: فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت طائفة من الناس وطائفة من السباع والهوام والوحوش وطائفة من الرهبان والعذارى المتعبدات، ثم يأخذ في ذكر الموت وأهوال القيامة ثم يأخذ في النياحة فيموت من كل صنف طائفة، فإذا رأى سليمان ما قد كَثُر من الموت ناداه: يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزَّق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الرهبان ومن الوحوش، فيقطع النياحة ويأخذ في الدعاء ويغشى عليه،

(١) هذه مبالغة تجري على مذهب الزهاد والأخباريين.

فيحمل على سرير فإذا أفاق قال: سليمان ما فعل فلان وفلان؟ فيقول: ماتوا، فيقوم فيدخل بيت عبادته ويغلق عليه بابه وينادى: أغضبانٌ أنت على داود إلهَ داود؟ أم كيف قصَّرت به أن يموت خوفًا منك؟

قال علماء السير: كان داود عليه السلام قد اتخذ سبع حشايا من شَعر وحشاهن بالرماد، ثم بكى حتى أنفذها دموعًا، ولم يشرب شرابًا إلا ممزوجًا بدموع عينيه، وكان له جاريتان قد أعدَّهما فكان إذا أتاه الخوف سقط واضطرب فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه، وكان قد نقش خطيئته في كفه لئلا ينساها، وكان إذا رآها اضطربت يداه.

ويقال: لو وزنت دموعه عَدلتْ دموع الخلائق، ولم يرفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء.

إخواني: تأملوا عواقب الذنوب، تفنى اللذة وتبقى العيوب، احذروا المعاصي فبئس المطلوب، ما أقبح آثارها في الوجوه والقلوب.

* * *

الكلام على البسملة

ابْكِ من جُرْمك خوفًا (١) فحقيق بك تَبْكي
كم ركِبْت الذنبَ مغرورًا وكم أسرعت في الفتك
وتبرجت بعصيانك قد غرك إمهالي وتركي (٢)
من إذا ألْبَسْتك الذل يراعيك ويشكي
من ترى يسترك اليوم إذا عمَّك (٣) هتكي
كم تجردت لعصياني (٤) وكم خالفتَ نسكي
أترى تجهل عِزِّي أم ترى تُصْغر مُلْكي

يا بن آدم: فرح الخطيئة اليوم قليل، وحزنها في غد طويل، ما دام المؤمن في نور التقوى فهو يبصر طريق الهدى، فإذا طَبَقَ ظلام الهوى عَدِم النور.

كان داود يسجد ويقول في سجوده: سبحان خالق النور! إلهي خلَّيت بيني وبين عَدوِّي [إبليس] (٥) فلم أقم لفتنته إذ نزلتْ بي، سبحان خالق النور! إلهي يُغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه، والخطيئة لازمة لي لا تذهب عنِّي، سبحان خالق النور! إلهي

---

(١) ت: حزنًا. (٢) ت: قد عزك تركي. (٣) ت: غمك.
(٤) ت: لإغضابي. (٥) من ت.

تبكي الثَّكْلى على ولدها إذا فقدتْه وداود يبكي على خطيئته، سبحان خالق النور! إلهي الويل لداود إذا كُشف عنه الغطاء قيل: هذا داود الخاطئ، سبحان خالق النور! إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طَرْف خَفِي؟! سبحان خالق النور! إلهي بأيِّ قدم أقوم ببابك يوم تزلّ أقدام الخاطئين؟! سبحان خالق النور! إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده؟! سبحان خالق النور! إلهي أنا الذي لا أطيق صوت الرعد فكيف أطيق صوت جهنم؟! سبحان خالق النور! إلهي كيف يستتر الخاطئون بخطاياهم دونك وأنت شاهدهم حيث كانوا؟! سبحان خالق النور! إلهي قَرِح الجبين وجَمَدت العينان مخافة الحريق على جسدي، سبحان خالق النور! إلهي فررت إليك بذنوبي فاعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخْزني يوم الدين، سبحان خالق النور! إلهي إذا ذكرتُ ذنوبي أَيِسْت من كل خَير، وإذا ذكرت رحمتك رجوتها، سبحان خالق النور! إلهي أمْدد عيني بالدموع وقلبي بالخشية وضعفي بالقوة حتى أبلغ رضاك عني، سبحان خالق النور!

يِا سكران الهوى متى تصحو؟! يا كثير الذنوب متى تمحو؟! إلى كم تهفو وتغفو، وتتكدر ونِعمُنا تصفو؟! ابك لما بك، واندب في شيبتك على شبابك، وتأهّب لسيف المنون قد علق الشَّبا (١) بك.

انتبه الحسن ليلة فبكى، فضجَّ أهلُ الدار بالبكاء، فسألوه عن حاله فقال: ذكرتُ ذنبا لي فبكيت!

يا مريض الذنوب مالك دواء كالبكاء.

روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكت في جوف الليل من خشية اللَّه، وعين باتت تحرس في سبيل اللَّه » (٢).

وروى عنه أبو أمامة أنه قال: « ليس شيء أحبَّ إلى اللَّه ﷻ من قطرة دمعٍ من خشية اللَّه وقطرة دم تُهراق في سبيل اللَّه ».

لا تَحْبسَنْ ماء الجفون فإنه ... لك يا لديغ هواهمُ درياقُ (٣)
شنُّوا الإغارة في القلوب بأسْهُمٍ ... لا يُرتجى لأسيرها إطلاقُ

(١) الشبا: طرف السيف.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، رقم: ١٦٦٩، وهو حديث صحيح.

(٣) الدرياق: الدواء.

واستعذبوا ماءَ الجفون فعذبوا الـ أُسراء حتى درّت الآماقُ (١)

قال محمد بن علي بن الحسين: ما اغرورقت عينٌ بمائها إلا حرَّم اللَّه وجهَ صاحبها على النار، فإن سالت على الخدين لم يَرْهق وجهه قترٌ ولا ذلة يوم القيامة.

يا من أفعاله حتى الخُطى خَطا، يا حاملًا على الأزْر الوزْر أتعبت المطا، يا من إذا قدَر ظلم وإذا خاصم سطا، يا مسرعًا في الشر فإذا لاح الخيرُ جاء البَطا.

جُزْتَ الثلاثين خطًّا فاعذُرْ (٢) مشيبًا وخَطا
وابكِ زمانًا لم تزَلْ للَّه فيه مُسخطا
واندب على آثاره مستدركًا ذا الغلطا
واعدد صواب العيش ما فارقه التقوى خَطا

يا كثير الذنوب متى تُفضي، يا مقيمًا وهو في المعنى يمضي، أفنيت الزمان في الهوى ضياعًا، وساكنْتَ غرورًا من الأمل وأطماعًا، وصرت في طلب الدنيا خبيرًا صَناعًا، تصبح جامعًا وتمسي منَّاعًا، فتش على قلبك ولُبِّك فقد ضاعا، تفكر في عُمرك فقد ذهب نهبًا مُشاعًا، اترك الهوى محمودًا قبل أن يتركك مذمومًا، إن فاتتك قصبات السبق في الزهد فلا تفوتنك ساعات الندم في التوبة.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى... ﴾ (٣)

عباد اللَّه، من استحضر قلبه أخبره أنه مسئول عن فعله، وأمره بالتزود ليوم رحيله، ومن وافق الهوى هَوَى إلى محل الإضاعة وأصبح من الخاسرين.

قال بعض المعتبرين: لمَّا خلوتُ بالعقل في بيت الفكر علمت أني مخلوق للتكليف معاقب على التحريف، لست بُمهمل فأسهو، ولا بمتروك فألهو، يُحصى عليَّ قليل العمل وكثيره، ويكرُّ عليَّ الزمان فيبين لي تأثيره، ورأيت الليلَ والنهار يقودانني إلى قبري ويُفنيان في سيرهما عُمري، ويُريانني من العبر ما يصلح به طريق الهدى، فيبين سلْب الكبير والصغير، والرفيق والقرين، فعلمت أن الهلاك آخر السلامة، وأن عاقبة التفريط

---

(١) الأصل الأسرى: ويتعين مد الأسرى للوزن، والآماق: جمع موق، وهو طرف العين.

(٢) ت: فاعدد.

(٣) سورة القيامة: ٣٦.

الندامة، وأن وهن البدن أَبْين دليل على الموت وأقوى علامة، وعرفت بدليل السمع الجزاء يوم القيامة.

فلما تيقنت أني مُكلف محاسَب ومحفوظ عليَّ عملي مراقَب، مثاب على الفعل ومعاقب، مأخوذ بالتفريط ومطالب، هممت أن أنهض نهضة عازم صدوق إلى أداء التكليف وقضاء الحقوق، فقيدتني نفسي بقيود الهوى وأفسدتْ من حالي ما استقام واستوى.

فبقيت أتفكر فيما جرى، وأمسح عيني من سِنَة الكَرى، وأقول: ماذا منعني من مقصودي؟ وأي شغلٍ شغلني عن معبودي؟ وما لي أقصِّر في سيري وكيف سبقني إلى الفضائل غيري؟ فتعجبت مما نابني وحزنت لما أصابني، ولم أزل أنظر في الموانع حتى فهمتُها، وأتدبر طريق الهدى حتى علمتها.

وذلك أن اللَّه تعالى جَبل النفس على حب الشهوة، وجعلها في حبس الغفلة، وخلق لها من رائق مقصودها ما يشغلها وجوده عن وجودها، فهي تميل إلى مشتهاها وإن أدَّى إلى المهالك؛ لِما وضع في طبعها من حب ذلك، وتَنْهمك على تحصيل غرضها وإن أعقبها طول مرضها، فينسيها عاجلُ ما يسُر آجلَ ما يضرّ.

فلما وضعها الحق على هذا وألَّفها، خاطبها بمخالفة هواها وكلَّفها، وبين لها طريق الهدى وعرَّفها، ولطف بها في أحوالها وتألَّفها، وذكّرها من النعم ما سلفها، وأقامها على محجة التعليم ووقّفها، وحذرها من الزلل وخوَّفها، وضمن لها أنها إن جاهدت أسعفها، وإن تركت أغراضها أخلفها، وما وعدها وعدًا قط فأخلفها، وأوضح لها عيوبَ العاجلة وكشفها، ورغَّبها في لذة جنةٍ وصفها، فذكر لها منازلها وغُرفها وأنهارها وطُرفها، وحذَّرها جهنم وأسفها، وغيظها على العصاة ولهفها، وأعلمها أن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولقد أنصفها.

فعَذلْتها وقرَّعْتها وأوعدتها وأسمعتها، فلم ترتدع عن هواها ولم تنزع عما آذاها، ورأت مصارع القرناء وما كفاها، ولم تأنف من ذنوبها وذُلُّ المعاصي قد علاها، وكأن الخطاب الذي أتى ممن سوَّاها إلى سِواها.

فعلمتُ حينئذ أنها تحتاج إلى من يحاسبها وتفتقر إلى من يطالبها، ولا تستغني عن موبِّخ يعاتبها، ولا بد من رائض إن وَنَتْ يعاقبها.

فالعجب ممن عرف نفسه كيف أهملها، واللَّه لقد ضرّها وقتلها.

* * *

أخبرنا محمد بن عبد الملك، أنبأنا أحمد بن الحسين بن خيرون، أنبأنا أحمد بن عبد اللَّه المحاملي، أنبأنا أبو بكر بن عَبْدُويه، حدثنا الحسين بن داود البلخي، حدثنا شفيق ابن إبراهيم، حدثني أبو هاشم الأيلي، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يا بن آدم لا تزول قدماك يوم القيامة من بين يدي اللَّه ﷻ حتى تُسأل عن أربع: عمرك فيما أفنيته؟ وجسدك فيما أبليته؟ ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته؟ » (١).

أخبرنا ابن أبي منصور، أنبأنا علي بن محمد العلاّف، أنبأنا أبو الحسين الحمامي، أنبانا جعفر بن محمد الخوَّاص، حدثني إبراهيم بن نصر، قال: حدثني إبراهيم بن يسار قال: حدثني يوسف بن أسباط قال: كتب إليَّ محمد بن سمرة السائح: يا أخي (٢) إياك وتأْمير التسويف على نفسك وإمكانه من قلبك، فإنه محلُّ الكَلال وموئل التلف وبه تُقطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال، فإنك إن فعلت ذلك أدَلْته من عزْمك فاجتمع وهواك عليك فغلبا واسترجعا من بدنك من السلامة ما قد وُلِّيَ عليك (٣)، فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من بدنك بنافعة، وبادر يا أخي فإنه مبادَر بك، وأسرع فإنه مُسَرع بك، وجدّ فإن الأمر جد، وتيقظ من رقدتك، وانتبه من غفلتك، وتذكر ما أسلفت وقصّرت وفرّطت وجنيت، فإنه مُثبتٌ مُحصًى، وكأنك بالأمر قد بغتك فاغتبطت بما قدمت وندمت على ما فرطت، فعليك بالحياء والمراقبة والعُزلة فإن السلامة في ذلك موجودة. وفقنا اللَّه وإياك لأرشد الأمور، ولا قوة بنا وبك إلا باللَّه.

إنَّ عُمـر الـفـتـى مـرارة دهر ... راشِـفـاهـا الـغـدوُّ والآصـالُ
فـتـذكـر كـم قـد صـحبت عزيزًا ... ثـم أمسَـى وأرضـه صـلْـصـالُ
غـفـل الـنـاسُ والـقـريبُ بعيد ... مِـنْ رَدَى الـمـوت واليقينُ مُحالُ
كـم لـبـيـب يـهـدي سواه لرُشدٍ ... وهـو في عيش نفسه ليس يالو (٤)
يـطـلـب الـمـرءُ أنْ يـنـال رضـاه ... ورضـاه فـي غـايـة لا تُـنـالُ
كـلـمـا زاده الـزمـانُ ثـراءً ... أحْـرَمْـتـه لـذةُ الآمـالِ

إخواني: الأيام سفر ومراحل، وما يحسّ بسيرها الراحل حتى يبلغ البلد أو الساحل، فليبادر المستدرك، وما أظنه يدرك، ما هذه الغفلة والفتور أما المآل إلى اللحود والقبور؟! أما علمتم منتهى السرور؟! أما الأجداث المنازل إلى النشور؟! أيها الشاب ضيعت الشباب في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، رقم: ٢٤١٦. والدارمي في سننه، رقم: ٥٣٨، وهو حديث صحيح.

(٢) ت: أي أخي.

(٣) ت: ما ولي عنك.

(٤) يالو: يألوا: فخففت الهمزة للوزن. ومعناها يقصر.

جهلك، أيها الكهل بعضُ فعلك يُهلك، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك، أيها المغتر بالأمل قد نقضتْ كفُّ الأجل مجدولَ حبْلك، أيها الغافل أما أنذرك من كان من قبلك؟!

مات الأبُ الأعلى وتابَعه ... أبناؤه ففنوا ونحن نسقْ (١)
في الترب من أبنائنا رمٌّ ... كانوا لنا سلفًا ونحن لَحَقْ

لقد نطقت العبر فأين سامعها؟! واستنارت طريق الهدى فأين تابعها؟! وتجلّت الحقائق فأين مُطالعها؟! أما المنية قد دنت واقتربت؟! فما بال النفوس قد غفلت ولعبت؟! أَمِن المفرّط أن يؤخذ بكَظْمه ويجازَى من تفريطه على أعظَمه، ويأتيه الموت فيذهله بعِظَمه، ويفاجئه بغتةً بشَتات مُنتظمه، يا من على ما يضره قد استمر، يا من أعلن المعاصي وأسرّ، يا مؤثرًا ما شانَ وما ضر، يا محبًّا ما قد قتل غيره وغرّ، يا من إذا دُعي إلى نفعه تولّى وفرّ، أما تعتبر بمن رحل من القرناء ومرّ، أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر، أما تعلم أن الموت إذا أتى حمل وكرّ، كأني بك إذا برق البصر تطلب المفر، إلى متى تؤثر الفساد على السداد، وتُسرع في جواد الهوى أسرع من الجواد، متى يتيقظ القلب ويصحو الفؤاد؟! كيف بك إذا حشرت فخسرت يوم المعاد؟!

يسرك أن تكون رفيق قومٍ ... لهم زاد وأنت بغير زادِ

أسمع قولًا بلا عمل، وأرى خِلالًا خِلالها الخلل، إذا دعيت إلى الخير جاء الكسل وقلت: لو شاء أن يوفقني فعل، وإذا لاحت المعاصي كرّ البطل، ويقول: خلق الإنسانُ من عجل، ويحك هذا الشيْب قد نزل يخبرك بقرب الأجل، خلت الديار وناح الطلل، أيحتاج المهم إلى اعتدل؟! يا قبيح الخصال إلى كم زلل، ما لكبير في العذل لا ناقة ولا جمل.

عليك بما يفيدك في المعادِ ... وما تَنْجو به يوم التَّنادِ
فما لك ليس ينفع فيك وعظٌ ... ولا زجْر كأنك من جمادِ
ستندم إنْ رحلت بغير زادٍ ... وتشقى إذ يناديك المنادي
فلا تفرح بمالٍ تقتنيه ... فإنك فيه معكوس المرادِ
وتُبْ مما جنيت وأنت حيٌّ ... وكن متنبهًا من ذا الرقادِ

سجع:

أيها الضال عن طريق الهدى، أما تسمع صوت الحادي وقد حدَا؟! من لك إذا ظهر الجزاء وبدا؟! وربما كان فيه أن تشقى أبدًا ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

---

(١) ب: فناء نسق، ولعلها محرفة، والنسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد.

يا من تُكتب لحظاته، وتُجمع لفظاته، وتُعلم عزماته، وتُحسب عليه حركاته إن راح أو غدا ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

ويحك إن الرقيب حاضر، يرعى عليك اللسان والناظر، وهو إلى جميع أفعالك ناظر، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر، وسينقضي هذا المدى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

ما لي أراك في الذنوب تَعْجل، وإذا زُجرت عنها لا تقبل، ويحك انتبه لقبح ما تفعل؛ لأن الأيام في الآجال تعمل مثل عمل المُدى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

سترحل عن دنياك فقيرا، لا تملك مما جمعت نقيرًا، بلى قد صرت بالذنوب عَقِيرًا بعد أن ردّاك التلف رداء الردى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

كأنك بالموت قد قطع وبتّ، وبدّد الشمل المجتمع وأشتّ، وأثّر فيك الندم حينئذ وفَتّ، انتبهْ لنفسك فقد أشمتَّ والله العِدا ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

كأنك ببساط العمر قد انطوى، وبعُود الصحة قد ذوى، وبسلك الإمهال قد قُطع فهوى، اسمع يا من قتله الهوى وما وَدى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

تالله ما تقال وما تُعذر، فإن كنت عاقلًا فانتبه واحذر، كم وعظك أخْذُ غيرك وكم أعذر، ومن أَنذر قبل مجيئه فما اعتدى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

فبادر نفسك واحذر قبل الفوت، وأصغْ للزواجر فقد رفعت الصوت، وتنبه فطال ما قد سهوت، واعلم قطعًا ويقينًا أن الموت لا يقبل الفِدا ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

انهض إلى التقوى بقريحة، وابك الذنوب بعين قريحة، وأزعج للجدِّ أعضاءك المستريحة، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمنّ غدًا ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

* * *
* *
*

المجلس العشرون

في قصة سليمان عليه السلام

الحمد للَّه المتعالي عن الأنداد، المقدَّس عن الأضداد، المنزه عن الأولاد، الباقي على الآباد، رافع السبع الشداد عالية بغير عماد، مزيَّنة بكل كوكب منير وقَّاد، وواضع الأرض للمهاد مثبتة بالراسيات الأطواد، خالق المائع والجماد، ومبتدع المطلوب المراد، المطلع على سر القلب وضمير الفؤاد، مقدر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد، والصلاح والفساد، والغي والإرشاد [1]، والوفاق والعناد، والبغض والوداد، في بحار لُطفه تجري مراكب العباد، وعلى عتبة بابه مناخ العُبّاد، وفي ميدان حُبه تجول خيولُ الزهاد، وعنده مبتغى الطالبين وآمال القُصَّاد، وبعينه ما يتحملون من ثقل الاجتهاد، رأى حتى دبيب النمل السُّود في السواد، وسمع صوت المدنف المجهود غاية الإجهاد، وعلم ما في سويداء السر وباطن الاعتقاد، وجاد على الآملين فزادهم من الزاد، وأعطى فلم يخَفْ من العَوز والنفاد، وألَّف الأجساد وليس يشبه الأجساد، وخلق من كل شيء زوجين وتوحّد بالانفراد، وعاد بالإتلاف على الموجودات ثم أعاد، يباهي بهاجر الوِساد إذا نام في السجود أو ماد، ابتلى بالغفلة أهلَ اليقظة والاجتهاد لينكسروا بالزلل، وانكسارُ العبد هو المراد، بسط لسليمان باسط النَّيْل فوقع الميلُ إلى الخيل عن بعض الأوراد ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ [2].

أحمده حمدًا يفوت الأعداد، وأشهد أنه الواحد لا كالآحاد، وأصلي على رسوله المبعوث إلى جميع الخلق في كل البلاد، وعلى صاحبه أبي بكر الذي بذل نفسه وماله وجاد، وعلى الفاروق الذي بالغ في نصر الإسلام وأجاد، وعلى عثمان الشهيد فيا فخْره يوم يقوم الأشهاد، وعلى عليٍّ الذي يفنى البحر وما لعلومه الزواخر نفاد، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأمجاد.

* * *

---

(١) ت: والسداد.

(٢) سورة ص: ٣١.

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ... ﴾ (١)

داود: اسم أعجمي وسليمان اسم عِبْرَانيّ، وكان لسليمان من الفطنة ما بان بها الصواب في حكمه دون حكم أبيه في قصة الحرث وغيره، قال اللَّه ﷻ: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ (٢) فلما مات داود ملك سليمان وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فزاده اللَّه تعالى على ملك داود، وسخر له الجن والإنس والطير وكان عسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير فيها ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرِّية، ولا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت به الريح إلى سمعه، وكان إذا جلس على البساط جلس أشرافُ الإنس مما يليه وأشراف الجن وراءهم، ثم يدعو الطير فتُظلهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، والطباخون في أعمالهم لا يتغير عليهم عمل فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، وكان يطعم كل يوم مائة ألف، فإن أقلَّ أطعم ستين ألفًا، وكان يذبح كلَّ يوم مائة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة، ويطعم الناس النقيَّ ويطعم أهله الخشكار (٣) ويأكل هو الشعير.

وروى سيَّار، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار قال: خرج نبي اللَّه سليمان والجن والإنس عن يمينه ويساره، فأمر الريح فحملتهم حتى سمعوا زَجَل (٤) الملائكة في السموات بالتقديس، ثم أمرها فخفضتهم حتى مسَّت أقدامُهم البحر، فسمعوا صوتًا من السماء يقول: لو كان في قلب صاحبكم من الكبر مثقال ذرة لخسفت به أبعد مما رفعت.

قوله تعالى: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ ﴾ هذا نهاية في المدح ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي رجّاع بالتوبة إلى اللَّه مما يقع من سهو وغفلة.

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ... ۝٣١ ﴾ وهو ما بعد الزوال ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ... ۝٣١ ﴾ وهي الخيل **وفيها قولان:**

أحدهما: القائمة على ثلاثة قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل، وهذا قول مجاهد وابن زيد، واختاره الزجاج واحتج بقول الشاعر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا

والثاني: أنها القائمة سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث، قال الفراء: على هذا

---

(١) سورة ص: ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء: ٧٩.
(٣) الخشكار: الخبز غير النقي، فارسية.
(٤) الزجل: الصوت.

رأيت العرب، وأشعارهم تدل على أنها القائم خاصة، واحتج ابن قتيبة لهذا بقول النبي ﷺ: « من سره أن يقوم له الرجال صُفونًا فليتبوأ مقعده من النار » (١).

وأما ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ فهي السّراع في الجري. **وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال:**

أحدها: أنه عرضها لأنه أراد جهاد عدو، قاله علي بن أبي طالب.

والثاني: أنها أُخرجت له من البحر، قال الحسن: خرجت من البحر وكانت لها أجنحة.

والثالث: أنها كانت لأبيه فعرضت عليه، قاله ابن السائب. **وفي عددها أربعة أقوال:** **أحدها:** ثلاثة عشر ألفًا، قاله وهب. **والثاني:** ألف فرس، قاله ابن السائب. **والثالث:** عشرون ألفًا، قاله سعيد بن جبير ومسروق. **والرابع:** عشرون، قاله إبراهيم التيمي.

قال المفسرون: لم تزل تُعرض عليه إلى أن غابت الشمس ففاتته صلاة العصر، ولم يذكِّروه؛ لأنه كان مهيبًا لا يبتدئه أحدٌ بشيء، فلما غابت ذكر فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ... ﴿٣٢﴾ ﴾ يعني الخيل والمعنى آثرت ذلك على ذكر ربي.

قال الزجاج: عن بمعنى على ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ... ﴿٣٢﴾ ﴾ يعني الشمس، قال: وأهل اللغة يقولون لم يجر للشمس ذكر، ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفكر حقَّه؛ لأنه في الآية دليل على الشمس وهو قوله ﴿ بِٱلْعَشِيِّ... ﴿٣١﴾ ﴾ والمعنى: عُرض عليه بعدَ زوال الشمس، ولا يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر أو دليل ذكر.

قوله تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ... ﴿٣٣﴾ ﴾ أي أعيدوا الخيل ﴿ فَطَفِقَ... ﴿٣٣﴾ ﴾ أي أقبل ﴿ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ... ﴿٣٣﴾ ﴾ وهي جمع ساق. **وفي المراد بالمسح قولان:**

أحدهما: أنه ضربها بالسيف، رواه أبيُّ بن كعب عن النبي ﷺ، وقال ابن عباس: مسح أعناقها وسُوقها بالسيف، وهو اختيار الجمهور.

والثاني: أنه كوى سُوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله، حكاه الثعلبي، والعلماء على الأول.

فإن قيل: كيف تختار القول الأول وهو عقوبة لمن لم يذنب على وجه التشفّي، وهذا بفعل الجبارين أشبه منه بفعل الأنبياء؟

فالجواب: أنه نبي معصوم، فلم يكن ليفعل إلا ما قد أُجيز له فعله، وجائزٌ أن يباح له ما يُمنع منه في شرعنا، على أنه إذا ذبحها كانت قُربانًا، وأكْل لحمها جائز، فما وقع تفريط.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح، والترمذي وقال: حديث حسن. الترغيب والترهيب : ٢٦٩/٣.

قال وهب: لما فعل ذلك شكر اللَّه تعالى له فعله، فسخر له الريح مكانها.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ... ﴿٣٤﴾ ﴾ أي ابتليناه بسلب مُلكه ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ... ﴿٣٤﴾ ﴾ أي على سريره ﴿ جَسَدًا... ﴿٣٤﴾ ﴾ وهو شيطان يقال له: صخر، ولم يكن ممن سخِّر له ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي رجع عن ذنبه، وقيل: إلى ملكه.

وفي سبب ابتلائه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كانت له امرأة، وكانت بين بعض أهلها وبين قومٍ خصومة، فقضى بينهم بالحق، إلا أنه ودّ أن لو كان الحقُّ لأهلها، فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحدًا، قاله ابن عباس.

والثاني: أن هذه الزوجة كانت آثرَ النساء عنده، فقالت له يومًا: إن بين أخي وبين فلانة خصومة، وإني أحب أن تقضيَ له، فقال: نعم، ولم يفعل فابتليَ لأجل ما قال [نعم] [(١)] قاله السُّدِّي.

والثالث: أن هذه الزوجة كانت قد سباها فأسلمتْ، وكانت تبكي الليل والنهار وتقول: أذكر أبي وما كنت فيه، فلو أمرت الشياطين أن يصوروا صورته في داري أتسلى بها، ففعل، وكان إذا خرج تسجد له هي وولائدها، فلما علم سليمان كسر تلك الصورة وعاقب المرأة وولائدها واستغفر، فسلِّط الشيطان عليه بذلك، هذا قول وهب.

وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان:

أحدهما: أنه كان جالسًا على شاطئ البحر فوقع منه، قاله علي بن أبي طالب ﵁.

والثاني: أن شيطانًا أخذه.

ثم في كيفية أخذه له أربعة أقوال:

أحدها: أنه وضعه تحت فراشه ودخل الحمام فأخذه الشيطان فألقاه في البحر، قاله سعيد بن المسيب.

والثاني: أن سليمان قال للشيطان [(٢)]: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه إياه فنبذه في البحر، قاله مجاهد.

والثالث: أنه وضعه عند أوثق نسائه في نفسه، فتمثل لها الشيطان في صورته فأخذه منها، قاله سعيد بن جبير.

والرابع: أنه سلمه إلى الشيطان فألقاه في البحر، قاله قتادة.

وأما الشيطان فإنه ألقى عليه شَبَه سليمان فجلس على كرسيه وحكم في سلطانه،

---

(١) من ت. (٢) الأصل: قاله، محرفة.

إلا أنه كان لا يقدر على نسائه، وكان يحكم بما لا يجوز، فأنكره بنو إسرائيل، فأحدقوا به ونشروا [له] (١) التوراة فقرأوا فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر.

وأما سليمان فإنه لما ذهب مُلكه انطلق هاربًا في الأرض، فكان يستطعم فلا يُطعم فيقول: لو عرفتموني أطعمتموني، فيطردونه، حتى إذا أعطته امرأة حوتًا شقه فوجد الخاتم في بطن الحوت بعد أربعين ليلة، في قول الحسن، وقال سعيد بن جبير: بعد خمسين ليلة، فلما لبسه ردّ اللَّه عليه ملكه وبهاءه وأظله الطيرُ، فأقبل لا يستقبله إنسيٌّ ولا جني ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له، حتى انتهى إلى منزله، ثم أرسل إلى الشيطان فجيء به فجعله في صندوق من حديد وأقفل عليه وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر فهو فيه إلى أن تقوم الساعة (٢).

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓۖ... ﴿٣٥﴾ ﴾ إنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له ويعرف منزلته بإجابة دعائه، ولم يكن حينئذ في مُلكه الريح ولا الشياطين، و (الرخاء) اللينة، مأخوذة من الرخاوة و (أصاب) بمعنى قصد.

فإن قيل: قد وصفت في سورة الأنبياء بأنها عاصفة؟

فالجواب: أنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد.

وكانت الشياطين تغوص في البحر فتستخرج له الدُّر وتعمل له الصور.

والجفان: القِصع الكبار، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها، ويأكل من كل قِدْر ألف رجل، وكانت لا تنزل من مكانها.

* * *

فتأملوا إخواني هذا السلطان العظيم كيف تزَلْزل بالزلل، واختلت أموره إذ دخل عليه الخلل، فخطؤه أوجب خروجه من المملكة، ولقمة آدم كادت توقعه في المهلكة (٣)، فعليكم بالتقوى فإنها سبيل السلامة، فمن أخطأها أخطأته الكرامة.

* * *

(١) من ت.

(٢) هذه الروايات لا ترجع إلى أصول صحيحة، وإنما مرجعها الإسرائيليات التي كان يذيعها من أسلم من أهل الكتاب، أو يتكلفها بعض التابعين، وقد أمرنا أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم، وحسبنا ما في كتاب ربنا وسنة نبينا.

(٣) ب: في الهلكة.

الكلام على البسملة

عُمُــر ينـقـضـي وذنْــبٌ يـزيـدُ ورقـيــب يُـحْصِـي عـلـيّ شهيدُ
واقــــترابٌ من الـحِمام وتـأمـيـ ـلٌ لطولِ البقاء عـندي جـديـدُ
أنــا لاهٍ ولــلـمـنـيـة حَـتْـمٌ حيث يـمَّـمْتُ منـهـلٌ مـورودُ
كلَّ يــومٍ يـمـيت منِّـيَ جـزءًا وحـيـاتـي تـنـفُّـس مـعـدودُ
كم أخٍ قد رُزئته فهو وإن أضْـ ـحى قريـبَ الـمحِلِّ مني بعيدُ
خـلـستْـه الـمنونُ مني فما لي خَـلـف مـنـه في الورى موجودُ
هل لنفسـي بـواعظـات الجديـ ـدَيْـن عـن مـنـزلٍ سَـيَـبـيـدُ

ألا متيقظ لما بين يديه؟ ألا متأهّب للقادم عليه؟ ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه؟ يا واقفًا مع هواه وأغراضه، يا معرضًا عن ذكر عوارضه إلى أعراضه، يا غافلًا عن حكم الموت وقد بُتَّ بمقراضه، سيعرف خبره إذا اشتد أشدُّ أمراضه، وأورده حوضًا مريرًا من أصعب حياضه، ونزل به ما يمنعه من اغتماضه، واستبدل بانبساط كَفِّه كفَّه عن انقباضه، وأخذت يدُ التلف بعد إحكامه في انتقاضه، وأُخرج عن خضر الرُّبى وروضه وغياضه، وأُلْقِيَ في لحد وعْر يخلو برَضْراضه (١)، وعلم أنه باع عمره بأردأ أعواضه.

يا مَنْ الهوى كلامُه وحديثُه، يا من في المعاصي قديمه وحديثه، يا مَنْ عمره في المعاصي خفيفه وأَثِيثه (٢)، من له إذا لم يجد في كرْبه من يغيثه، آه من قهرٍ لا يرفُق بطَّاشه، ومن حريق لا يُرحمَ عِطاشه، ومن نزول لحدٍ لا يرفع خَشَاشه (٣)، عملُ المقبول فيه لحافه وفراشه، آه من سحاب عِقابٍ رذاذه يُرْدي ورَشَاشُه (٤)، من يخلِّصه اليومَ من هوى قد أُشربه مُشاشُه (٥).

كأنكم بالسماء قد انشقت، وأذنت لربها وحُقَّت، وبأقدام الصالحين قد ترقَّت، وبأيمانهم للصحائف قد تلقَّتْ، صبر القومُ على حصْر الحبس فرجعوا إلى روْح السعة.

* * *

قال أحمد بن [أبي] الحواري: قلت لزوجتي رابعة: أصائمة أنتِ اليوم؟ فقالت: ومثلي من يفطر في الدنيا؟!

---

(١) الرضراض: الحصى، أو صغارها.
(٢) الأثيث: الكثير العظيم.
(٣) الخشاش: حشرات الأرض.
(٤) الرذاذ: المطر الضعيف، أو الساكن الدائم، والرشاش: جمع رش وهو القليل من المطر.
(٥) المشاش: رءوس العظام.

وكانت إذا طبخت قِدرًا قالت: كُلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح والتقديس.

وكانت تقول: ما سمعت الأذان إلا ذكرتُ منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا تذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت جرادًا إلا ذكرت الحشْر، وربما رأيت الجنّ يذهبون ويجيئون، وربما رأيت الحورَ يستترن مني بأكمامهن.

قال: ودعوتُها مرةً فلم تُجبني، فلما كان بعد ساعة أجابتني وقالت: إن قلبي كان قد امتلأ فرحًا باللَّه فلم أَقْدِرْ أن أجيبك.

قال: وكانت لها أحوال شتى، فمرة يغلب عليها الحب فتقول:

حبيبٌ ليس يَعْدله حبيب ... ولا لسواه في قلبي نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصري وسمعي ... ولكنْ عن فؤادي ما يغيبُ

وتارة يغلب عليها الأنس فتقول:

ولقد جعلتُك في الفؤاد محدِّثي ... وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسمُ مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول:

وزادي قليل ما أراه مُبلِّغي ... أللزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي فيك أين محبتي

* * *

ويح قلبك، ما هذه القسوة، أتغلبك وأنت رجلٌ نسوة؟!

كانت أم هارون من العابدات تقول: إني لأغتمُّ بالنهار حتى يجيء الليل، فإذا جاء الليل قمت، فإذا جاء السحر دخل الرَّوْح قلبي.

وخرجتْ إلى بيت المقدس فعارضها سبع فقالت: تعال إن كان لك رزق فكل. فأقعى السبع ثم عاد.

وكانت ثوبية بنت بهلول تقول: قرة عيني، ما طابت الدنيا والآخرة إلا بك، فلا تجمع عليَّ فقدك والعذاب.

قال خُشَيش الموصلي: جاءني كتاب من حمّادة العابدة فإذا فيه: أبلغْ كلّ محزون بالشام عني السلام.

أخبرنا عمر بن ظُفر، أنبأنا جعفر بن أحمد، أنبأنا عبد العزيز بن علي، أنبأنا علي

ابن عبد الله بن جَهْضم، حدثنا محمد بن داود الدينوري، عن أبي زكريا الشيرازي قال: تُهْت في البادية بالعراق أيامًا كثيرة لم أجد شيئًا أرتفق به، فلما كان بعد أيام رأيت في الفلاة خِباء شعر مضروبًا، فقصدته فإذا فيه بيت وعليه ستر مُسبل، فسلمت فردت عليَّ عجوز من داخل الخباء وقالت: يا إنسان من أين أقبلت؟ قلت: من مكة، قالت: وأين تريد؟ قلت: الشام، قالت: أرى شبحك شبح إنسان بطَّال، هلا لزمت زاويةً تجلس فيها إلى أن يأتيك اليقين، ثم تنظر هذه الكسرة من أين تأكلها.

ثم قالت: تقرأ شيئًا من القرآن؟ قلت: نعم، فقالت: اقرأ عليَّ آخر سورة الفرقان، فقرأتها فشهقت، وأغمي عليها، فلما أفاقت قرأت هي الآيات، فأخذت مني قرءاتها أخذًا شديدًا، ثم قالت: يا إنسان اقرأها ثانية، فقرأتها، فلحقها مثلُ ما لحقها في الأول، فصبرت أكثر من ذلك فلم تفق، فقلت: كيف أستكشف حالها هل ماتت أم لا؟ فتركتُ البيت على حاله ومشيت أقلَّ من نصف ميل، فأشرفت على وادٍ فيه أعراب، فأقبل إلي غلامان معهما جارية، فقال أحد الغلامين: يا إنسان أتيت البيتَ في الفلاة؟ قلت: نعم، قال: وتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: قتلتَ العجوز ورب الكعبة.

فمشيت مع الغلامين والجارية حتى أتينا البيت، فدخلت الجارية فكشفت عن وجهها فإذا هي ميتة، فأعجبني خاطر الغلام، فقلت للجارية: من هذان الغلامان؟ فقالت: هذه أختهم، منذ ثلاثين سنة لم تأنس بكلام الناس، وإذا نزلنا بواد تواري بيتها بالفلاة لئلا تسمع كلام أحد، وكانت تأكل في كل ثلاثة أيام أكلةً وتشرب شربة.

ثَـوْرُها [١] الحادي على فرْط الرجا   تـأْمل مع ضـوْء الصباح الفَـرَجا
تـقـطع في البـيد سبـيلًا حَرِجًا   باسطةً عُـقَّالها جُـنح الـدُّجا [٢]

غيره:

حـث عـليها في الـسُّرى حاديها   فـلا تـقـل فـشَوْقُـها يكـفيها

غيره:

يـا سائـقها على وحَاها [٣] مهلًا   ارتـدْ لِـسَيْرهـا طـريـقًا سـهلا
وانشُدْ قلبي إن جُزتَ باب المعلَّى [٤]   مـا بيـن قـبور العاشقـين القـتلى

(١) الثور: الهيجان والوثب والسطوع.

(٢) العقال: داء في رجل الدابة، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط.

(٣) الوحي: العجلة والإسراع.

(٤) باب المعلى: موضع ببغداد.

غيره:

يا ساكني بطنَ وجْرة [١] من نجد   هل عندكم لسائل ما يُجْدي
مقتولُ هوًى به رسيسُ الوجْدِ   ما حالَ عن العهد لطول العهد

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ... ﴾ [٢]

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾: القيامة، سميت قارعة؛ لأنها تقرع بالأهوال.

وقوله: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما تقول: زيد ما زيد.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ أي لأنك لم تعاينْها، ولم تر ما فيها لشدة الأهوال ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ قال الفراء: الفراش: غوغاء الجراد، وهو صغاره.

وقال ابن قتيبة: ما تهافت في النار من البعوض، شبه الناس بذلك لأنهم إذا بُعثوا ماجَ بعضهم في بعض، والمبثوث: المنتشر المتفرق.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ... ۝٥ ﴾ أي كالصوف، شبَّهها في ضعفها ولينها بالصوف.

وقيل: شبهها في خفتها وسَيْرها، وقال ابن قتيبة: العهن: الصوف المصبوغ. والمنفوش: المندوف، فإذا رأيت الجبل قلت: هذا جبل، فإذا مسسته لم تر شيئًا، وذلك من شدة الهول.

* * *

يا من عمله بالنفاق مغشوش، تتزين للناس كما يزيَّن المنقوش، إنما ينظر إلى الباطن لا إلى النقوش، إذا همَمْت بالمعاصي فاذكر يوم النعوش، وكيف تُحمل إلى قبر بالجندل مفروش، من لك إذا جُمع الإنس والجن والوحوش، وقام العاصي من قبره حيران مدهوش، وجيء بالجبار العظيم وهو مغلول مخشوش [٣]؟! فحينئذ يتضاءل المتكبر وتذل الرءوس، ويومئذ يبصر الأكمه ويسمع الأطروش، ويُنصب الصراط فكم واقع وكم مخدوش، ليس بجادَّةٍ يقطعها قِصْلٌ ولا مرعوش [٤]، ولا تقبل في ذلك اليوم فدْية

---

(١) ت: بطن مكة.
(٢) سورة القارعة: ١، ٢.
(٣) المخشوش: المنقاد الذليل.
(٤) الجادة: معظم الطريق، والقصل: الفسل الضعيف والأحمق لا خير فيه.

ولا تؤخذ الأُروش، والمتعوس حينئذ ليس بمنعوش، وينقلب أهل النار في الأقذار والريح كالحشوش [١]، لحافهم جمر وكذلك الفروش ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾.

* * *

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ ﴾ أي رجحت بالحسنات، قال الفراء: والمراد بموازينه: وزْنه، والعرب تقول: هل لك في درهم بميزان درهمك ووزن درهمك؟ وأراد بالموازين: الوزنات ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ **فيه قولان: أحدهما:** أنه يهوي في النار على أُم رأسه هاوية، والمعنى أنه هاوٍ في النار على رأسه، قاله عكرمة. **والثاني** معناه: فمسكنه النار، فالنار له كالأم؛ لأنه يأوي إليها، قاله ابن زيد والفراء وابن قتيبة.

أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خيرون قال: أنبأنا إسماعيل بن مسعدة قال: أنبأنا عمرو ابن يوسف قال: أنبأنا أبو أحمد بن عدي، حدثنا أحمد بن عمير بن يوسف، حدثنا إسماعيل ابن إسرائيل قال: حدثنا أسد بن موسى قال: حدثنا سلام التميمي، عن ثور بن زيد، عن خالد بن معدان، عن أبي رُهْم، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: « إن المؤمن إذا مات تلقته البشرى من الملائكة ومن عباد الله كما يتلقى البشرى في دار الدنيا، فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض: روّحوه ساعة فقد خرج من كرب عظيم، ثم يقبلون عليه فيسألونه فيقولون: ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ هل تزوجتْ فلانة؟ فإن سألوه عن إنسان قد مات قال: هيهات مات ذاك قبلي، فيقولون: إنا للّه وإنا إليه راجعون، سُلك به إلى أمه الهاوية فبئست الأمة وبئست المربِّية ».

قال: « وتُعرض على الموتى أعمالكم، فإن رأوا خيرًا استبشروا وقالوا: اللّهم إن هذه نعمتك فأتمها على عبدك، وإن رأوا سيئة قالوا: اللّهم راجع بعبدك، فلا تُحزنوا [٢] موتاكم بأعمال السوء فإن أعمالكم تُعرض عليهم » [٣].

وقد روي هذا الحديث موقوفًا على أبي أيوب، وقد روي من كلام عُبيد بن عُمير، والموقوف أصح.

---

(١) الحشوش: جمع حشّ وهو مكان قضاء الحاجة.

(٢) ب: فلا تخزوا.

(٣) حديث ضعيف: في إسناده أنس بن موسى قال الحافظ عنه في تقريب التهذيب: « صدوق يغرب ».

ألكَ عملٌ إذا وضع في الميزان زان؟ عملك قِشر لا لُبّ واللب يُثقل الكفة لا القشر.

سجع:

يا من أغصان إخلاصه ذاوية، وصحيفته من الطاعات خاوية، لكنها لكبار الذنوب حاوية، يا من همته أن يملأ الحاوية، كم بينك وبين البطون الطاوية؟! كم بين طائفة الهدى والغاوية؟! اعلم أن أعضاءك في التراب ثاوية، لعلها تنفرد بالجد في زاوية، قبل أن تعجز عند الموت القوة المقاومة، وترى عنق الميزان لقلة الخير لاوية ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

ذِكْر الحساب أطار عن أعين المتقين النعاس، ولتثقيل الميزان فرغت أكياس الكُيّاس.

قالت مولاة لأبي أمامة: كان أبو أمامة لا يردُّ سائلًا ولو بتمرة، فأتاه سائل ذات يوم وليس عنده إلا ثلاثة دنانير فأعطاه دينارًا، ثم أتاه سائل فأعطاه دينارًا، ثم أتاه سائل فأعطاه دينارًا، قالت: فغضبتُ وقلت: لم تترك لنا شيئًا؟ فوضع رأسه للقائلة فلما نودي للظهر أيقظته فتوضأ ثم راح إلى المسجد، قالت: فرَقَقْتُ عليه وكان صائمًا، فاقترضت ما جعلت له عشاء وأسْرجت له سراجًا، وجئت إلى فراشه لأمهده له، فإذا صُرة ذهبٍ فعددتها فإذا هي ثلاثمائة دينار، فقلت: رحمك اللَّه! ما صنع الذي (١) صنع إلا وقد وثق بما عنده، فأقبل بعد العشاء فلما رأى المائدة والسراج تبسم وقال: هذا خير من غيره. فقمت على رأسه حتى تعشى، فقلت: رحمك اللَّه خلَّفت هذه النفقة في سبيل اللَّه مضيَّعة ولم تخبرني فأدفعها؟ قال: وأي نفقة؟ ما خلفت شيئًا، قال: فرفعت الفراش، فلما رآه فرح واشتد تعجبه، قالت: فقمت فقطعت زُنَّاري (٢) وأسلمت على يده. وكانت تعلِّم النساء القرآن والفرائض والسنن.

انظروا ثمرة المعاملات: هذا نقْد فكيف الوعد.

أخبرنا ابن ناصر وعبد اللَّه بن علي قالا: أنبأنا طرّاد قالا: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا ابن صفوان، حدثنا أبو بكر، عن محمد بن الحسين قال: حدثني أحمد بن سهيل قال: حدثني خالد بن الغور قال: كان حَيْوة بن شُريح من البكائين، وكان ضيق الحال جدًّا، فجلست إليه يومًا وهو وحده فقلت له: لو دعوتَ اللَّه يوسع عليك؟ فالتفت يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا فأخذ حصاةً من الأرض فقال: اللَّهم اجعلها ذهبًا، فإذا هي واللَّه تِبْرة في كفه ما رأيت أحسن منها، فرمى بها إليَّ فقلت: ما أصنع بها؟ قال: استنفقها،

---

(١) ب: ما صنع إليك صنع.

(٢) الزنار: ما يشد على أوساط النصارى والمجوس.

فهبته والله أن أردَّه (١).

أخبرنا ابن ناصر، أنبأنا الحسين بن أحمد، أنبأنا هلال بن محمد، أنبأنا جعفر الخُلدي، حدثنا ابن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان، قال: سمعت دَهْمشا وكان من العابدين يقول: اليومُ الذي لا آتي فيه عبد العزيز كنت مغبونا، فأبطأت عليه يومًا وأتيته فقال: ما الذي أبطأ بك؟ قلت: خير، قال: على أي حال؟ قلت: شغلنا العيال، كنت ألتمس لهم شيئًا، قال: فوجدتَه؟ قلت: لا، قال: فهلم فَلنَدْع، فدعا وأمّنت ودعوت وأمّن، ثم نهضنا لنقوم فإذا والله الدراهم والدنانير تتناثر في حجورنا، فقال: دونكها، ومضى (٢).

ما خسِر معنا مُعامل، ولا قاطعنا مواصل.

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ ﴾ يعني الهاوية ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ أي حارة قد انتهى حرها.

كان عطاء السَّلمي إذا عوتب في كثرة بكائه يقول: إني إذا ذكرتُ أهل النار مثَّلتُ نفسي بينهم، فكيف بنفس تُغلُّ وتسحب أن لا تبكي (٣).

رحم الله أعْظُمًا نَصبت في الطاعة وانتصبت، جنَّ عليها الليل فلما تمكَّن وثَبَتْ، كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت، وكلما تصورت ذنوبها ناحت عليها وندبت.

كان ابن مسعود يبكي حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها، وكان عبد الله بن عمر يبكي حتى نشفت دموعه وقلصت عيناه، وبكى هشام الدَّستوائي حتى فسدت عينه، وكانت مفتوحة لا يبصر بها، وكان الفُضَيْل قد أَلِف البكاء فربما بكى في نومه فيسمعه أهل الدار.

بكى الباكون للرحمن ليلًا ... وباتوا دمعُهم لا يسأمونا
بقاع الأرض من شوق إليهم ... تحنُّ متى عليها يسجدونا

* * *

(١) ت: أن أراده.

(٢) لا تنقض هذه الروايات التي كان الزهاد رضوان الله عليهم يتناقلونها، القاعدة المقررة في الإسلام للكسب وابتغاء الرزق ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة المزمل: ٢٠]. وإنما كانوا يريدون ترقيق القلوب للتوكل على الله والاطمئنان إلى قدره.

(٣) ت: ولا تبكي، فكيف لا أبكي.

إذا لانت القلوب للخوف ورقَّت، رفعت دموعها إلى العين ورقَتْ، فأعتقت رقابًا للخطايا رقَّت، يا قاسي القلب ابك على قسوتك، يا ذاهلَ الفهم بالهوى نُحْ على غفلتك، يا دائم المعاصي خفْ غِبَّ معصيتك، أما علمت أن النار أُعدت لعقوبتك.

ومجْلسنا مأتمٌ للذنوب ... فابكوا فقد حان منا [1] البكا

ويومُ القيامة ميعادنا ... لكشْف السُّتور وهتْك الغطا

جاءت امرأة في ليلة مطيرة إلى راهب وقصدت أن تفتنه، فقالت: هذا المطر ولا مأوى لي فآوني، ففتح لها الباب فدخلت واضطجعت وجعلت تريه محاسنها، فدعته نفسه إليها فقال لنفسه: لا حتى أنظر صَبْرك على النار، فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه فاحترقت، ثم أتى صلاته فعاودته نفسه فلم يزل كذلك حتى احترقت الأصابع الخمس، فلما رأت المرأة فعله بنفسه ذلك صعقت فماتت.

وكان الأحنف بن قيس يقدم إصبعه إلى المصباح فإذا وجد حرارة النار قال لنفسه: ما حَملك على ما صنعت يوم كذا؟!

قال بعض السلف: دخلت على عابد وقد أوقد نارًا بين يديه وهو يعاتب نفسه وينظر إلى النار، فلم يزل كذلك حتى خر ميتًا.

دخل ابن وهْب إلى الحمام فسمع قارئًا يقرأ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [2] فسقط مغشيًّا عليه فحُمل.

سجع:

يا من أركان إخلاصه واهية، أما لك من عقلك ناهية، إلى متى نفسك ساهية، مُعجبة بالدنيا زاهية، مفاخرة للإخوان مضاهية، النارُ بين يديك وتكفي داهية ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

تقوم من قبرك ضعيفَ الجاش، وقد جأر قلبك في بدنك وجاش، ووابل الدمع يسبق الرَّشاش، أتدري ما يلاقي العِطاش الظامئة ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

أين من عتى وتجبَّر، أين من علا وتكبر، أين من للدول بالظلم دبَّر، ماذا أعد للحضرة السامية، ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

لو رأيت العاصي وقد شَقِي، يصيح في الموقف واقَلَقي، اشتد عطشه وما سُقي، وشرر النار إليه يرتقي، فمن يتقي تلك الرامية ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

---

(١) ت: مني.

(٢) سورة غافر: ٤٧.

لو رأيته يقاسي حرها ويعاني ضرها، جحيمها وقَرّها [١]، واللَّه لا يدفع اليوم شرها إلا عينٌ هامية ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

يفر الولد من أبيه، والأخ من أخيه، وكلُّ قريب من ذويه [٢]، أسمعتَ يا من معاصيه نامية ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

لهذا كان المتقون يقْلقون ويخافون ربهم ويشفقون [٣]، وكم جرتْ من عيون القوم عيون [٤]، كانت جفونهم دائمة دامية [من خوفهم من نار حامية.

أجارنا اللَّه بكرمه منها ووفقنا لما ينجي عنها، وجعلنا بفضله ممن قام بما يؤمر واجتنب ما عنه يُنهى، فكم له من نعم سامية ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾] [٥].

* * *
* *
*

---

(١) القر: شدة البرد.

(٢) ب: وكل قرين بين ذويه. وما أثبته من ت.

(٣) ت: ويخافون ويتقون.

(٤) ت: من عيونهم عيون.

(٥) ما بين القوسين ساقط من ب.

المجلس الحادي والعشرون

في قصة بلقيس

الحمد للّه الذي يخضع لقدرته من يعبد، ولعظمته يخشع من يركع ويسجد، ولطيب مناجاته يسهر العابد ولا يرقد، ولطلب ثوابه يقوم المصلي ويقعد، إذا دخل الدخَل [١] في العمل له يفسد، وإذا قُصدت به سوقُ الخلق يكْسد، يجل كلامه عن أن يقال: مخلوق ويبعد، جدَّد التسليم لصفاته مستقيم الجدْجَد [٢] وكرمه سياح [فلا يحتاج] [٣] أن يقال: جُد جُد، من شبه أو عطل لم يرشد، ما جاء في القرآن قَبِلْنا أو في السُّنة لم نرْدد، فأما أن تقول في الخالق برأيك فإنك تبرُد، أليس هذا اعتقادكم يا أهل الخير، وكيف لا أتفقد العقائد خوفًا من الضير، فإن سليمان تفقد الطير ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ [٤].

أحمده حمد من يرشد بالوقوف على بابه ولا يشرد، وأصلي على رسوله محمد الذي قيل لحاسده: ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ [٥] وعلى الصديق الذي في قلوب محبيه فرحات وفي صدور مبغضيه قرحات لا تنفد، وعلى عمر الذي لم يزل يقوِّي الإسلام ويعضد، وعلى عثمان الذي جاءته الشهادة فلم يرْدد، وعلى علي الذي كان ينسف زرع الكفر بسيفه ويحصد، أتحبه وتبغض أبا بكر تبرد، وعلى عمه العباس الذي يعلو نسبه الأنساب ويمجد.

* * *

قال اللّه ﷻ:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ... ﴾ [٦]

كان سليمان عليه السلام إذا أراد سفرًا قعد على سريره ووضعت الكراسي يمينًا وشمالًا، فتجلس الإنس والجن وتظلُّهم الطير، ويأمر الريحَ فتحملهم.

فنزل في بعض أسفاره مفازةً فسأل عن بُعد الماء هناك، فقالوا: لا نعلم، فقالت الشياطين: إن يكُ من يعلم فالهدهد، فقال: عليَّ بالهدهد، فلم يوجد ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ والمعنى: ما لِلْهُدهُد لا أراه ﴿ أَمْ كَانَ... ﴿٢٠﴾ ﴾ أي بل كان ﴿ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا... ﴿٢١﴾ ﴾ قال ابن عباس: [كان] [٧] ينتف

---

(١) ب: الداخل. والدخل: الرياء. (٢) الجدجد: الأرض الصلبة المستوية. (٣) سقطت من ب.
(٤) سورة النمل: ٢٠. (٥) سورة الحج: ١٥. (٦) سورة النمل: ٢٠.
(٧) من ت.

ريشه، وقال الضحاك: يشد رجليه ويشمّسه ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي حجة. وكان الهدهد حين نزل سليمانُ قد ارتفع في السماء يتأمل الأرض فرأى بستانًا لبلقيس فمال إلى الخضرة، فإذا هو بهدهد لها فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الشام مع صاحبي سليمان، فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد وملكتها بلقيس، فانطلق معه فرأى بلقيس ومُلكها، وبلقيس لقب واسمها: بلقمة بنت ذي مسرح، وقيل: بنت الشيصبان ملك سبأ، فلما احتضر استخلفها لِمَا عرف من رأيها وتدبيرها، فملكت وكانت ساكنة في أرض سبأ وهي مأْرب، وكانت تحت يدها الملوك.

فلما رآها الهدهد وجاء قال له سليمان: ما الذي غيبك ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ... ﴿٢٢﴾ ﴾ وسبأ هي القبيلة التي هي من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو اسم رجل.

أخبرنا ابن الحصين قال: أنبأنا ابن المذهب قال: أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو عبد الرحمن بن لهيعة، عن عبد اللّه بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن وعلة، عن ابن عباس قال: سأل رجلٌ رسول اللّه ﷺ عن سبأ أرجل أم امرأة أم أرض؟ فقال: « بل هو رجل ولد له عشرة أولاد فسكن اليمن منهم ستة ومنهم بالشام أربعة، فأما اليمانيون فمَذْحِج وكِندة والأزد والأشعريون وأنمار وحِمير. وأما الشامية فلخْم وجُذام وعاملة وغسان »(١).

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ... ﴿٢٣﴾ ﴾ يعني بلقيس ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ... ﴿٢٣﴾ ﴾ يعطاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهو السرير، وكان من ذهب وقوائمه من جوهر مكلَّل باللؤلؤ.

قوله تعالى: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ... ﴿٢٥﴾ ﴾ والمعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا له ﴿ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ... ﴿٢٥﴾ ﴾ أي المستتر.

فقال سليمان: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ... ﴿٢٧﴾ ﴾ وإنما شك في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان.

ثم كتب كتابًا وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ... ﴿٢٨﴾ ﴾ أي استتر ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ من الجواب، فحمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه فرفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها، فلما رأت الخاتم أُرْعِدت وخضعت وقالت: ﴿ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ لكونه مختومًا.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٨٩٣، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

فاستشارت قومها فقالت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟... ﴿٣٢﴾ ﴾ تعنى الأشراف، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائدًا مع كل قائد منهم عشرة آلاف، وقيل: كان معها مائة ألف ﴿ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى... ﴿٣٢﴾ ﴾ أي بينوا لي ما أفعل وأشيروا على ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي تحضرون وأقطع بمشورتكم.

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ... ﴿٣٣﴾ ﴾ والمعنى نقدر على القتال ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ... ﴿٣٣﴾ ﴾ في القتال وتركه.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً... ﴿٣٤﴾ ﴾ أي عنوة ﴿ أَفْسَدُوهَا... ﴿٣٤﴾ ﴾ أي خربوها وأذلوا أهلها، فصدقها الله تعالى فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ... ﴿٣٥﴾ ﴾وذلك أنها أرادت أن تعلم: هل هو نبي فلا يريد الدنيا، أو ملك فَيُسْتَرْضَى [(١)] بالحمل، فبعثت ثلاث لبنات من ذهب، في كل لبنة مائة رطل وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة، وثلاثين وصيفة وألبستهم لباسًا واحدًا فلا يعرف الذكر من الأنثى، ثم كتبت إليه: قد بعثت كذا وكذا فأدخل في الياقوتة خيطًا واختم على طرفيه بخاتمك، وميز بين الجواري والغلمان، فأخبره أمير الشياطين بما بعثت به قبل القدوم فقال: انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال لَبِنات من ذهب، فبعث الشياطينَ فقطعوا اللَّبن من الجبال وطلَوه بالذهب وفرشوه، ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحمر، فلما جاءت الرسل قال بعضهم لبعض: كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات وعنده ما رأيتم؟ فقالوا: إنما نحن رسل.

فلما دخلوا عليه ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ... ﴿٣٦﴾ ﴾ ثم دعا دودة فربط فيها خيطًا وأدخلها في ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر، ثم جمع طرفي الخيط فختم عليه، ثم ميَّز بين الغلمان والجواري بأن أمرهم بالوضوء، فبدأ الغلامُ من مِرْفقه إلى كفه، وبدأت الجارية من كفها إلى مرفقها، هذا قول سعيد بن جبير، وقال قتادة: بدأ الغلام بغسل ظواهر السواعد قبل بطونها، والجواري على عكس ذلك.

ثم قال للرسول: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا... ﴿٣٧﴾ ﴾ فلما عادت الرسل وأخبرت بلقيس بعثت إليه: إني قادمة إليك لأنظر ما تدعو إليه، ثم أمرت بعرشها فجُعل وراء سبعة أبواب، ووكلت به حرسًا يحفظونه، وشَخَصَتْ إلى سليمان في اثني عشر ألف ملِك، تحت يدي كل ملك ألوف، فجلس سليمان عليه السلام على سرير مُلكه، فرأى رَهجًا [(٢)] فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس قد نزلت بهذا المكان، فقال: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى

---

(١) ت: فسيرضى.

(٢) الرهج: الغبار.

بِعَرْشِهَا... ﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ... ﴿٣٩﴾ وهو القوي الشديد: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ... ﴿٣٩﴾ أي مجلسك، فقال: أريد أسرع من ذلك، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ... ﴿٤٠﴾ وهو واصف بن برخيا، وكان يعرف الاسم الأعظم، وكان يقوم على رأس سليمان بالسيف، قال مجاهد: دعا فقال: يا ذا الجلال والإكرام، فبعث اللَّه تعالى الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض يخدُّون به الأرض خدًّا، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا... ﴿٤١﴾ فغيَّروه وزادوا فيه ونقصوا فلما ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ... ﴿٤٢﴾ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا... ﴿٤٢﴾ أي قالت: قد أوتيتُ العلم بصحة نبوة سليمان بأمر الهدهد والرسل الذين بعثت من قبل هذه الآية ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ... ﴿٤٣﴾ والمعنى: أنها كانت عاقلة وإنما كانت تتبع دين آبائها.

فأمر سليمانُ الشياطين فبنوا لها صَرْحًا على الماء من زجاج، وهو القصر، وكانت الشياطين قد وقعت فيها عنده وقالوا: رِجْلها كرجل الحمار، فأراد أن يرى ذلك، فقيل لها: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ... ﴿٤٤﴾ فحسبته لُجَّةً وهو مُعْظَم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ... ﴿٤٤﴾ لدخول الماء فقال سليمان: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ... ﴿٤٤﴾ أي مملس ﴿مِّن قَوَارِيرَ ۗ... ﴿٤٤﴾ أي من زجاج، فعلمت أن مُلْك سليمان من اللَّه تعالى. فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى... ﴿٤٤﴾ أي بما سبق من الكفر.

ثم تزوجها سليمان عليه السلام وردَّها إلى مُلكها، وكان يزورها في كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وبقي ملكها إلى أن توفي سليمان، فزال ملكها بموته.

* * *

الكلام على البسملة

وضحَ البيانُ وأنت في غَرَر الهوى ... متشاغلٌ ببطالةٍ وتَصابِي

ترتاح في حُلَل المشيب مُنعّمًا (١) ... أأخذتَ ميثاقًا من الأوصابِ

كم ناظرٍ قد راقَ حُسْنًا ناظرًا ... أبْلاه بالآفاتِ شرُّ مصابِ

لم يُغْن عنه جمالُه وكمالُه ... ومُقام مُلْك في أعزِّ نِصابِ

وأتاه من حَرْب المَنُون مُعاجلٌ ... صعبٌ شديد الوَهْنِ غير محابِ

فرأى اكتسابَ يديه ليس بنافعٍ ... ودعا ذَويه فكان غيرَ مُجَابِ

---

(١) ب: تنعمًا.

وحَـواه لـحدٌ ضـيِّـق مـتـهدِّمٌ ... يـعـلـوه كَـرْبُ جـنـادلٍ وترابِ
فأفقِ لنفسك والزمانُ (١) مساعِدٌ ... وأطـع نـصـيحَك ساعيًا لصوابِ
وارجـع إلى مـولاك حَـقًّا تـائبًا ... مـن قـبـل أن تَـعْـيَـى بردِّ جوابِ

* * *

ألا متيقظ لما بَيْنَ يديه؟ ألا متأهِّب للقدوم عليه؟ ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه؟

تسمَّع فإن الموت ينذر بالصوت ... وبادِرْ بساعات التُّقَى ساعةَ الموتِ (٢)
وإن كنت لا تدري متى أنت ميِّت ... فإنك تدري أن لا بُدّ من موتِ

إخواني: إنما العمر مراحل، وكأن قد بلغت سفينةُ الراحل (٣).

دخلوا على أعرابي يعودونه فقالوا: كم أتى عليك؟ فقال: خمسون ومائة سنة، فقالوا: عُمِّر واللَّه، فقال: لا تقولوا ذلك فواللَّه لو استكملتموها لاستقللتموها.

إخواني: من أخطأته سهام المنية قيَّده عِقَال الهرَم، إن لكل سَفرٍ زادًا فتزوّدوا لسفركم التقوى، وكونوا كمن عايَن ما أُعِدَّ له ولا يَطُولَنّ عليكم الأمَدُ فتقسو قلوبكم، واللَّه ما بُسِط أملُ من لا يدري: أيصبح إذا أمْسى أو يُمْسي إذا أصبح.

لا تحسَبنَّ الزمانَ يُنْسئك الـ ... ـقَرْض ولكنه يدًا بـيـدِ (٤)
يُعـطيك يومًا فيقـتضيـك غدًا ... مَـريرةً من مريـرة الـحسدِ (٥)
يَسْـرق الشيءَ مِـنْ قُـواك وإنْ ... كان خـفيًّا عن أعيـن الـرَّمِدِ (٦)
حـالًا فـحـالًا حـتـى يـردّيـك ... بالكِـبْـرة بعدَ الشباب والغَيَدِ (٧)

إخواني: إن العبر قد وضحت، وإن النُّذر قد نصَحت، وإن المواعظ قد أفصحت، ولكن النفوس من سُكرها ما صحَتْ، أين الهَمُّ المجتمع؟ تفرق فما تنتفع، يدعوك الهوى فتتبع، ويحدِّثك المنى فتستمع، كم زجرك ناصح لم تطع، وصَل الصالحون يا منقطع، أمّا الذي عاقَك هو (٨) مُخْتَدِع، شرَوْا بما يفنى ما يبقى ولم تَشْرِ ولم تَبِع، أين تَعبهم؟ نُسِخ بالرَّوْح ولم يضع، تلمَّح العواقب فلتلمّحك (٩) العقلُ وضِع، كأنه ما شَبع من جاع

---

(١) ت: والنجاء مساعد.
(٢) ت: بساعات البقا ساعة الفوت.
(٣) ت: سفينته الساحل.
(٤) ينسئك: يبيعك إلى أجل.
(٥) المريرة: الشدة والقوة، والحسد: يراد به هنا السلب والحرمان.
(٦) الرمد: المصاب برمد في عينه.
(٧) الغيد: أول الشباب.
(٨) ب: لهو مختدع.
(٩) ت: فلتلمحها.

ولا جاع من شبع، أين الهِمم المجدّة، أين النفوس المستعدّة؟ أين المتأهب قبل الشدة؟ أين المتيقظ قبل انقضاء المدة؟ عاتبْ نفسَك على قُبح الشِّيَم، وحذِّرها من مثمرات الحزن والندم، وامنعها تخليطها فقد طال السقم، وذكِّرها لحاقها بمن قد سبق من الأمم، واحضر معها باب الفكر فإنه نعم الحكَم، ونادها في الخلوات إلى كم مع السُّبَات وكم.

رُبَّ حَتْف بَيْن أثناء الأملْ ... وحياةُ المرءِ ظِلٌّ ينتقلْ
لو نجا شيء تحت صاريةٍ [1] ... يُهْجَر السَّهلُ ويُجْبِلُ الجَبَلْ
أين من كان خفيّ شَخْصِهِ ... مثل قدّ السَّيْر إن عَضَّ قَتلْ
أين من يَسْلم من صَرْف الرَّدَى ... حكَم الموتُ علينا فعدَلْ
وكأنّا لا نرى ما قد نَرى ... وخطوبُ الدهر فينا تَنْتَضِلْ
فرويدًا بظلام صبحه [2] ... فهي الأيام والدهر دُوَلْ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ... ﴾ [3]

قال المفسرون: لا زائدة، والمعنى: أقسم، وقال بعضهم: « لا » رَدّ على منكِر البعث، قال ابن قتيبة: زيدت « لا » على نية الرد على المكذبين، كما تقول: لا واللَّه ما ذاك كما تقول.

﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ ﴾ **فيها ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنها التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم، قاله ابن عباس.

والثاني: أنها نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على تقصيره، قاله الحسن، فعلى هذا تكون ممدوحة.

والثالث: أنها جميع النفوس، قال الفراء: ليس من نفس بَرّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسهَا، إن كانت عملت خيرًا قالت: هلّا زِدْتُ، أو شرًّا قالت: ليتني لم أفعل.

وجواب القسم محذوف، تقديره: لَتُبْعَثُن، يدل عليه قوله: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ ﴾ والمراد به الكافر.

---

(١) كذا بالأصل: والصاري: الحافظ، ويقال: أجبل القوم إذا صاروا إلى الجبل، وتجبلوا: دخلوا في الجبل.

(٢) كذا بالأصل. وكأن المعنى أن الصبح يأتي رويدًا بعد الظلام.

(٣) سورة القيامة: ١.

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ... ﴿٤﴾ ﴾، المعنى: بل نجمعها قادرين ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ والبنان: أطراف الأصابع، وفي المعنى قولان: **أحدهما**: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحدًا كحافر الحمار وخف البعير فيُعْدَم الإرفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة والخياطة، هذا قول الجمهور. **والثاني**: نقدر على تسوية بنانه كما كانت وإن صَغُرت عظامها، ومن قدر على جمع صغار العظام كان على جمع كبارها أقدر، وهذا قول ابن قُتَيبة والزَّجاج.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ ﴾ فيه قولان: **أحدهما**: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس. **والثاني**: يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول سوف أتوب، قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا يراد بالإنسان المسلم، وعلى الأول الكافر.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ أي متى هو؟ تكذيبًا به، فهذا هو الكافر.

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿ بَرِق ﴾ بكسر الراء، وقرأ نافع بفتحها، وهما لغتان، تقول العرب: برِق البصر يَبرِق، وبرَق يَبْرَق، إذا رأى هَوْلًا يفزع منه.

ومتى يبرق البصر؟ فيه قولان: **أحدهما**: يوم القيامة يَشْخص بصر الكافر فلا يَطْرف لما يرى من الأمور التي كان يكذب بها في دار الدنيا، قاله الأكثرون. **والثاني**: عند الموت، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾ أي ذْهب ضَوْؤه، قال أبو عبيدة: خسف وكسف بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ قال أبو عبيد: إنما قال: (جُمِع) لتذكير القمر.

- **وفي هذا الجمع قولان:**

أحدهما: جمع بين ذاتيهما، قال ابن عباس [(١)]: جمعا كالبعيرين وكالفرسين [(٢)]. وقال عطاء ابن يَسار: يُجمعان ويقذفان في البحر، وقيل: في النار. وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

والثاني: جُمع بينهما في ذهاب نورهما، قاله الفرّاء والزجّاج.

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ... ﴿١٠﴾ ﴾ يعني المكذِّب بيوم القيامة: ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ أين الفرار؟ ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ﴾ أي لا ملجأ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ أي المنتهى والرجوع.

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: بما قدَّم قبل موته وما سَنَّ من شيء فعمل به بعد موته، قاله ابن مسعود.

---

(١) ت: قال ابن مسعود.

(٢) ب: والقرينين. وما أثبته من ت.

والثاني: بأول عمله وآخره، قاله مجاهد.

والثالث: بما قدَّم من الشر وأخَّر من الخير، قاله عكرمة، وقال: بما قدم من معصيته وأخَّر من طاعته.

* * *

وا أسفًا من الصحيفة إن نشرها، وا حزَنًا على الذنوب إن أظهرها، وا حسرتا على خطايا ما غفرها، من [١] لمن حادَ عن الطريق وقد أبصرها؟! من لمن شاهد نجاته وكأنه لم يرها؟! تاللَّه لقد آذى العاصي نفسه وعَثَّرها، كم سمع من موعظة قد كررها، ثم أعرض عنها بعد أن فهمها وتدبَّرها، ويحك إلى متى تضيع زمنك، وإلى متى إيثار فِتَنك، أما آن التنبُّه من وسَنك، أما حق أن تميل عن سَننك، يا لاهيًا تنسى وقت حَزنك، يا بائعًا نفسه أرضيت الفاني بثمنك، أين فهمك الثاقب وجودة [٢] فطنك؟! كم بقي بين سرِّك وبين عَلنك؟! أين زاد رحيلك وعُدّة كفنك؟! إلى متى مع الدنيا كم مع وثَنك؟! كيف السبيل إلى صلاحك وتلافيك؟! وكل ما ذكَره العائب وتلا فيك، أمَا يزعجك تخويف: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ [٣] أما ينذرك إعلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ [٤] أما يقصم عُرى عزائمك: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ [٥]، أما يقصر من قصورك: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [٦] أما يكفي لمثلك مثل: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ [٧]، أما رأيت شمال العقوبة كيف فرَّقت شَمْلهم، لقد مرت في جوّ التخويف تهتف بالعصاة: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [٨].

يا هذا لا نومَ أَثْقل من الغفلة، ولا رِقَّ أمْلَك من الشهوة، ولا مصيبة كموت القلب، ولا نَذِير أَبْلَغ من الشَّيْب:

ألا تَسْلو فَتُقْصِر عن هواكا ... فقدِّر شَيْبَ رأسك كان ذاكا [٩]

أكلَّ الدهر أنت كما أراكا ... تراك إلى الممات كذا تراكا

أراك تزيد حِذْقًا بالمعاصي ... وتغفل عن نصيحة من دعاكا

يا قوم غرقت السفينة ونحن نِيَام، أبوكم لم يسامَحْ في حَبّة حِنْطة، وداود لم يُسَاهل في نظرة.

---

(١) الأصل: ما لمن.
(٢) ب: وفطنك.
(٣) سورة الكهف: ٥٩.
(٤) سورة هود: ١٠٢.
(٥) سورة الأنبياء: ١١.
(٦) سورة الحج: ٤٥.
(٧) سورة الرعد: ٦
(٨) سورة العنكبوت: ٤٠.
(٩) ت: فقدر مشيب رأسك.

يا مُدْمن الذنوب مذ كان غلامًا، علامَ عَوَّلْتَ قل لي: علامَ، أتأمن ما أتى من أتى حرامًا؟! أمَا ترى ما حلَّ بهم من الذنوب إليك قد ترامى؟! آه لجفن عَلِم ما سيَلْقى كيف يلقى منامًا، أين أرباب الأسمار والنَّدامَى؟! كلُّ القوم في قبورهم ندامَى، قل لي: من اتخذتَ في أمورك إمامًا؟! أمَا ما جرى على العصاة يكفي أما ما؟! إلى كم تضيع حديثًا طويلًا وكلامًا، ما أرى داءك إلا داء عقامًا، أما تؤثر نيران تخويفك؟ صارت بردًا وسلامًا.

فذكّر النفسَ هَوْلًا أنت راكبُه ... وكُربةً سوف تَلْقى بعدها كُرَبَا
إذا أتيتَ المعاصِي فاخش غايتَها ... من يَزْرع الشوكَ لا يَجْني به عنبَا

* * *

إلى متى أعمالك كلها قِبَاح، أين الجِدّ إلى كم مزاح؟! كثر الفساد فأين الصلاح؟! ستفارق الأجسادُ الأرواح، إمّا في غدوّ وإما في رواح، سينقضي هذا المساء والصباح، وسيخلو البِلَى بالوجوه الصِّبَاح، أفي هذا شك أم الأمر مزاح؟! أين سكران الراح راح؟! حلّ للبلى والدود مباح، لهما اغتباق به ثمَّ اصطباح، عليه نطاقٌ من التراب ووشاح، عنوانه لا يزول مفهومه لا بَراح، أتاه منكر ونكير كذا في الأحاديث الصحاح، فمن لمحتج مرعوب ومقاتل بلا سلاح، مشغول عن مَنْ مدحَ أو ذمَّ أو بكى أو ناح، لو قيل له: تمنَّ كان العَوْد الاقتراح، وأنّي وهل يطير مقصوصُ الجناح؟!!

إخواني: لا تقولوا: من مات استراح أما هذا لنا قليل، إنا لَوُقّاح.

أنِس الناسُ بالغِيَرْ ... وتعامَوْا عن العِبَرْ
قُلْ لِلاهٍ بيومِه ... في غدٍ تَعْرف الخبَرْ
يا بني الحرص والتكا ... ثر والبَغْي والبَطْر
ليس باق كفانِ ... فكونوا على حذَرْ
يا ضَجيع البلى على ... فُرش الصخر والمدَرْ
قد تَزَوَّدْتَ مأثمًا ... وإلى ربِّك السَّفرْ

* * *

سجع على قوله تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾:

يا من يخطر في ثياب الغفلة يتبختر ويتجبر، وقبائحه تكتب وهو لا يحسّ ويُزْبر (١)،

(١) يزبر: يمنع.

بين يديك يوم قريب ما يتأخر ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ يا متعرضًا بالذنب والعقاب، يا غافلًا عن يوم السؤال والجواب، يا مبارزًا بالمعاصي ربَّ الأرباب، مَنْ أعظم جرأةً منك على العذاب قل لي ومن أَصْبر؟! نسيت معادك وأطلت أملك، وأعرضت إلى الهوى عن أمر من مَلَك، ولو رفعت واللَّه عملك إلى ملِك أعظَم ذلك وأكْبَر، لقد أناخَ التقصير والتمادي ببابك، وقلَّ [1] أن يَعْبق بريح الثواب شيء من أثوابك، والشيطان يجري منك مجرى الدم من آرابك، فهو متمكن منك إذا قمت في محرابك إلى حين قولك: اللَّه أكبر.

تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل، وتدخل في الصلاة بقلب غافل، وتستعجلِ في الصلاة لأجل العاجل، وإذا نظرت بعد الصلاة إلى الحاصل: فالجسد أَقْبَل والقلبُ أَدْبَر.

يا من ذل المعاصي يعلوه، يا مظلم القلب متى تَجْلوه؟ هذا القرآن يتلى عليك وتتلوه ولكن ما تتدبر.

يا مُغْتَرًّا بالزخارف والتمويه، تُعْجَب بما تجمعه من الدنيا وتَحْويه، هلك واللَّه ذو عُجب أو كِبْر أو تِيه، ونجا واللَّه أشعث أغبر؛ أنت في دار انزعاج فاحذر منها لا تَرْكن إليها ولا تأمنها، إنما أُسْكنتها لتخرج عنها، فتأهب للنُّقْلة فما يُسْتوطن مَعْبَر، أين من كان يتنعم في قصورها؟ قد فسح لنفسه في توانيها وقصورها، خدعَتْه واللَّه بغرير غرورها بعد أن ساس الرعايا ودَبَّر، نقلته واللَّه صريعًا سريعًا، وسلبَتْه واللَّه ما جمعه جميعًا، وبزَّتْه كِبْرًا كبيرًا وعِزًّا منيعًا، أتراه يفتخر في قبره أو يتكبر؟ خلا بعمله في ظلام لحده، لم ينفعه غير اجتهاده وجدّه، لو قُضِي برجوعه إلى الدنيا ورَدّه لحدثنا بهذا أو أخبر.

فتنبه أنت من رقداتك، وكن وصيَّ نفسك في حياتك، فلقد بالغت الزواجرُ في عظاتك، كم تسمع موعظة وكم تجلس تحت مِنْبر، يا لها من نصيحة لو وجدت نفاذًا، هي حُجة عليك إذا لم تكن مَلاذًا، والشيء إذا لم ينفع فربما آذى، وأنت يا هذا بعد هذا بنفسك أَخْبَر.

* * *

* *

*

---

(١) ب: وقل لي: محرفة.

المجلس الثاني والعشرون

في قصة سبأ

الحمد لله المتفرد بالعز والجلال، المتفضل بالعطاء والإفضال، مسخر السحاب الثِّقال، مربِّي الزرع تربية الأطفال، جَلَّ عن مِثْل ومثال، وتعالى عنِ حكم الفكر والخيال، قديم لم يزل ولا يزال، يتفضل بالإنعام فإن شُكِر زاد وإن لم يُشْكَر أزال ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ [1] ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [2].

أحمده على كل حال، وأصلي على رسوله محمد أشرف من نطق وقال، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق باذل النفس والمال، وعلى عمر الفاروق العادل فما جارَ ولا مال، وعلى عثمان الثابت للشهادة ثبوت الجبال، وعلى عليٍّ بحر العلوم وبطل الأبطال، وعلى عمه العباس المقدم في نسَبه على جميع الأهل والآل.

* * *

قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ... ﴾ [3]

سبأ: هي القبيلة الذين هم من أولاد سبأ، وكانت بلقيس لمَّا ملكت قومها تراهم يقتتلون على ماء واديهم فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت مُلكها وانطلقت إلى قصرها فنزلته، فلما كَثُر الشرُّ بينهم أتَوْها فسألوها أن ترجع إلى مُلْكها فأبت، فقالوا: لَتَرْجِعِنَّ أو لنقتلنّك، فقالت إنكم لا تطيعونني، فقالوا: إنا نطيعك، فجاءت إلى واديهم وكانوا إذا مُطروا أتاه السيل من مسيرة خمسة أيام، فأمرت فسُدّ ما بين الجبلين بمُسَنّاة [4] وحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبوابًا بعضُها فوقَ بعض، وبنت من دونه بِرْكة وجعلت فيها اثني عشر مَخْرجًا على عدد أنهارهم، فكان الماء يخرج منها بالسويّة، إلى أن أسلمت مع سليمان.

وقيل: إنما بنَوْا ذلك لئلا يَغْشَى السيلُ أموالهم فتهلك، فكانوا يفتحون من أبواب السد ما يريدون فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه، وكانت لهم جنتان عن يمين واديهم وعن شماله، فأَخْصبَتْ أرضُهم وكثرت فواكهُهم، وإن كانت المرأة لتمرّ بين الجنتين والمِكْتَل على رأسها فترجع وقد امتلأ من الثمر ولا تمس بيدها شيئًا منه، ولم يكن في

---

(١) الأصل « مساكنهم » وهي قراءة. (٢ ، ٣) سورة سبأ: ١٥. (٤) المسناة: السد.

بلدتهم حَيّة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث.

فبعث اللَّه تعالى إليهم ثلاثة عشر نبيًا وقيل لهم: ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ... ﴿١٥﴾ ﴾، أي هذه بلدة طيبة، ولم تكن سبخة ولا فيها ما يؤذي ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ أي واللَّه رب غفور ﴿ فَأَعْرَضُواْ... ﴿١٦﴾ ﴾ عن الحق وكذبوا الأنبياء.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ... ﴿١٦﴾ ﴾ **وفيه أربعة أقوال:**

أحدها: أن العرم: الشديد، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال ابن الأعرابي: إن العرم: السيلُ الذي لا يطاق.

والثاني: أنه اسم الوادي، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال قتادة والضحاك.

والثالث: أنه المسنّاة، قاله مجاهد والفراء وابن قتيبة، وقال أبو عبيدة: العَرِم جمع عَرِمة وهي السَّكْر [1] والمُسنَّاة.

والرابع: أن العرم: الجُرَذ الذي نقَب عليهم السَّكر، حكاه الزجاج.

- وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان:

أحدهما: أن اللَّه تعالى بعث عليهم على سَكْرهم دابة فنقبَتْه، روى عطية العَوْفي عن ابن عباس أنه قال: بعث اللَّه تعالى عليهم دابة من الأرض فنقبت فيه نقبًا فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، وقال قَتادة والضحاك: بعث اللَّه عليهم جُرذًا يسمى الخلْد، والخلد الفأر الأعمى، فنقبه من أسفله فأغرق اللَّه به جناتهم وخرب اللَّه به أرضهم.

والثاني: أنه أرسل عليهم ماءً أحمر فنسف السدَّ وهدَمه وحفر الوادي، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ... ﴿١٦﴾ ﴾ يعني اللتين كانتا تُطْعم الفواكه ﴿ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ... ﴿١٦﴾ ﴾ قرأ ابنُ كثير ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿ أُكُلٍ ﴾ بالتنوين، وقرأ أبو عمرو ﴿ أكلِ ﴾ بالإضافة، والأُكل: الثمر.

- وفي المراد بالخَمْط ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الأراك، قاله الحسن ومجاهد والجمهور، فعلى هذا أُكله: ثمَره، وثمرة الأراك: البَرير.

والثاني: أنه كلُّ شجرة ذات شوك، قاله أبو عبيدة.

والثالث: أنه كل نَبْت قد أَخذ طعمًا من المرارة حتى لا يمكن أكله، قاله المبرِّد والزَّجَّاج، فعلى هذا القول: الخَمْط: اسم للمأكول.

---

(١) السكر: سد النهر، وكذلك المسناة.

والأَثْل: الطَّرْفاء، قاله ابن عباس. وقوله تعالى: ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ... ﴿١٦﴾ ﴾ وهو شجر النَّبْق، والمعنى أنه كان الخمط والأثل في جنتهم أكثر من السِّدْر.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ... ﴿١٧﴾ ﴾ أي ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ قال طاوس: الكافر يجازى ولا يُغفر له، والمؤمن لا يناقَش الحساب.

وقال الفراء: المؤمن يُجْزَى ولا يجازى، فيقال في أفصح اللغة: جزى اللَّه المؤمن ولا يقال: جازاه بمعنى كافأه. والكافر يجازى بسيئة مثلها مكافأة له، والمؤمن يتفضل عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ... ﴿١٨﴾ ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ﴾ والمعنى: مِنْ قصصهم أنّا جعلنا بينهم وبين القُرى التي بارَكْنا فيها وهي قُرى الشام ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً... ﴿١٨﴾ ﴾ أي متواصلة ينظر بعضها إلى بعض ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ... ﴿١٨﴾ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: أنهم كانوا يَغْدون فيَقيلون في قرية ويرجعون فيبيتون في قرية، قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنه جعل ما بين القرية والقرية مقدارًا واحدًا، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿ سِيرُواْ فِيهَا... ﴿١٨﴾ ﴾ المعنى: وقلنا لهم سيروا فيها ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا... ﴿١٨﴾ ﴾ أي ليلًا ونهارًا آمنين من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سبع أو تعب.

فبَطِروا النعمةَ ومَلُّوها، كما مَلَّ بنو إسرائيل المنَّ والسلوى ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا... ﴿١٩﴾ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿ بَعِّدْ بَيْن أَسْفَارِنَا ﴾ وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿ بَٰعِدْ ﴾، روى عطية عن ابن عباس أنه قال: بطروا عيشهم وقالوا: لو كان جَني جناتنا أبعد مما هي كان أجدَر أن نشتهيه.

﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ... ﴿١٩﴾ ﴾ بالكفر وتكذيب الرسل ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ... ﴿١٩﴾ ﴾ لمن بعدهم يتحدثون بما فُعل بهم ﴿ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ... ﴿١٩﴾ ﴾ أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق؛ لأن اللَّه تعالى لما أغرق مكانهم وأذهب جنّتهم تبدّدوا في البلاد وصارت العرب تمثل في الفرقة بقوم سبأ يقولون: تفرّقوا أيدي سَبا.

وقد حذّرَتْ هذه القصة من الخِلاَف وبينت عقاب تاركي الشكر.

* * *

الكلام على البسملة

تـعَــلَّـقْـتَ بـآمــالٍ   طِــوال أيّ آمــالِ
وأقـبـلـتَ عـلى الـدنـيـا   مُـلِـحًّا أَيَّ إِقـبـالِ

فيا هذا تجهَّزْ لـ ... فراقِ الأهلِ والمالِ
فلا بُدَّ من الموتِ ... على حالٍ من الحالِ

متى تفيق من هذا المرض المراض، متى تستدرك هذه الأيام الطوال العِراض، يا غافلًا عن سهام الموت الحِدَاد المَواض، تالله لقد أصابَ السهمُ من قبل الإنباض [١]، ولقد آن لجمع الحياة الشَّتَاتُ والانفضاض، وحانَ لبنيان السلامة الخرابُ والانتقاض، وحُقَّ للمقْرِض أن يطالب المقرَّ بالإقراض، ودنا من مبسوط الآمال الاجتماع والانقباض، أمَا الأعمارَ كلَّ يوم في انقراض؟! لقد نهَتْ قبل شَكَّة السَّهم صَكَّة [٢] المِقراض، أما ترى الراحلِين ماضيًا خلفَ ماض، كم بنيان ما تَمَّ حتى تَمَّ مَأْتَمٌ وهذا قد استفاض، كم حُطَّ ذو خَفْض على رَغْم في رِغَام وانخفاض، انهض بجدّك والعاقل ناهض قبل الإنهاض، إن الموت إليك كما كان لأبويك في ارتكاض، إن لم تقدر على مَشَارع الصالحين رِدْ باقي الحيَاض، إن لم تكن بنت لَبُون فلتكن بنت مَخَاض [٣]، إلى متى وحتى أتعبت الرُّوَّاض؟! أما لك أَنَفةٌ من هذا التوبيخ ولا امتعاض؟! كلما بَنى نصيحُك نقَضْتَ وما يعلو بناءٌ مع نَقّاض، يا من باع نفسه بلذة ساعة بَيعًا عن تَراض، لبئس ما لبستَ أتدري ما تعتاض؟! يا علةً لا كالعِلَل ويا مرضًا لا كالأمراض، إنما تُجْزَى بقدر عملك عند أعدل قاض.

قَصرُك [٤] الشيبُ فاقضِ ما أنت قاض ... بِبِدارٍ من قبل حين البيَاضِ
إنّ شَرْخَ الشبابِ قَرْضُ الليالي ... فتصرَّف فيه قبلَ التقاضي

* * *

العاقلُ من راقبَ العواقب، والجاهلُ مَن مضى قُدُمًا ولم يُراقِب، أين لذّةُ الهوى؟ زالت وكأنها لم تكن إذ حالت، أين الذين بَرَوْا أقلام المُنَى وقَطُّوا، وكَتَبوا صِكاكَ الآمال وخَطُّوا، وتحكَّموا في بلوغ الأغراض واشتطّوا، وانفردُوا بما جَمعوا فخزَنوا ولم يُعطوا؟ علَوْا على عالٍ وما أسرَع ما انحطّوا، وسارت بهم مطايا الرحيل تُخْذِي بهم وتَمْطُو [٥].

فكم مِنْ صحيحٍ باتَ لِلْموتِ آمنًا ... أَتَتْه المنايا بَغْتةً بعد ما هَجعْ [٦]
فلم يستطع إذ جاءه الموتُ فَجأةً ... فِرارًا ولا منه بقوّته امتَنعْ

---

(١) الإنباض: تحريك القوس لينطلق السهم. (٢) الصكة: الضربة.

(٣) بنت لبون: الناقة إذا كانت في العالم الثاني واستكملته أو إذا دخلت في الثالث. وبنت مخاض: الناقة التي دخلت في السنة الثانية.

(٤) قصرك: غايتك. (٥) تمطو: تجد في السير.

(٦) هذه الأبيات من شعر سابق البربري، انظر ديوانه المجموع في رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة أم القرى.

فأصبح تَبْكيه النساءُ مقنَّعًا ... ولا يَسْمع الداعي وإنْ صوتَه رفَعْ
وقُرِّب من لحِدٍ فصار مِقيلَه ... وفارقَ ما قد كان بالأمس قد جَمعْ

يا حريصًا على الدنيا مضى عمرك في غير شيء، انقشع غَيْمُ لاعن هِلال الهُدى، مالَذّتْ الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة، أو لقليل العقل لا ينظر في عاقبة، الدنيا خراب وأخرب منها قلْب مَن يَعْمرها، إلى أي حين مع الصِّبا؟! أما يكفي ما قد مضى؟! إلى كم هذا الكرَى أين التيقظ لحلول الثرى؟! كما قد قتل قبلك المنَى وإنما يفهم أولوا النُّهى، يا أسير رُقاده، يا مريض فساده، يا مُعْرضًا عن رشاده، يا من حُبُّ الدنيا في سواد سواده، ما ينفعه النصح على كثرة تَرْداده، سواءٌ عليه ناداه أم لم يناده، تالله لقد غمزَتْك الحوادث بسَلْب القُرَناء غَمْزًا، ولزَّك المتقاضي بالأجَل لو فهمت لَزّا [١]، أما في كل يوم بمحبوب تُعزَّى؟! أما ترى الأسِنّة تعمل طَعْنًا ووَخْزًا؟! أما تشاهِد مهنَّدات السيوف تُهز هزًّا، أين من أوعد ووعد؟! هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم رِكْزًا؟!

على ذا ما مَضى وعليه نَمْضِي ... طوالُ مُنى وآجالٌ قِصارُ
وأيامٌ تَعرَّفْنا مَداها ... أما أنفاسُنا فيها سُفَارُ [٢]
ودهرٌ [٣] يَنْشُر الأعمار نَشْرًا ... كما للغُصْن بالورقِ انتشارُ
ودُنْيا كلما وضَعت جَنينًا ... غَذاه مِن نوائبها طِوَارُ [٤]
هي العَشواءُ ما خبطَتْ [٥] هَشِيمٌ ... هي العَجْماءُ ما جَرحَتْ جُبَار [٦]
فمن يَوْمٍ بلا أمسٍ ليومٍ ... بغير غَدٍ إليه بنا يُسَارُ

* * *

الكلام في قوله تعالى:

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ... ﴾ [٧]

قال ابن عباس: رافع السموات ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ... ﴿١٥﴾ ﴾ أي هو خالقه ومالكه.

---

(١) لزَّك: شدك وألصقك.

(٢) السفار. بضم السين وتشديد الفاء: المسافرون، وخففت الفاء لضرورة الوزن.

(٣) ب: ودهرًا.

(٤) الطوار: المقدار.

(٥) ب: ما خطبت. محرفة، والتصويب من ت.

(٦) العجماء: الدابة. وجبار: هدر لا دية فيه.

(٧) سورة غافر: ١٥.

سجع:

زين السماء بالنجوم تزيين النَّقْش، وجمع الثُّرَيّا وفرّق بنات نَعْش، ومدَّ الأرض كتمهيد الفَرْش، وأنزل القَطْر بين الوَبْل والطّشّ (١)، وحمل الآدمي على الفرش والنَّعْش، بَيْنما هو يلهو جاء أمرٌ زاد (٢) على الحرْش (٣)، وضجَّ لمرضه وما يصبر على الخدْش، ثم يقيمه للقيامة بالبعثرة والنَّبْش، سبحانه مِن عظيمٍ شديد البطش ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ... ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ... ﴿١٥﴾﴾ وهو الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ... ﴿١٥﴾﴾ أي بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ... ﴿١٥﴾﴾ وهم الأنبياء ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ **وفيه خمسة أقوال:**

أحدها: أنه يلتقي فيه أهلُ السماء والأرض، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس، وبه قال بلال بن سعد.

والثاني: يلتقي الأوّلون والآخِرون، روي عن ابن عباس أيضًا.

والثالث: يلتقي الخالق والمخلوق، قاله قتادة.

والرابع: المظلوم والظالم، قاله ميمون بن مهران.

والخامس: يلتقي المرء بعمله، قاله (٤) الثَّعْلبي.

سجع على قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾:

يومٌ تذِل فيه الأعناق لهَيْبة الخلَّاق، ويخسر (٥) أهلُ الشقاق بالرياء والنفاق، وتشهد الصُحف والأوراق بالأعمال والأخلاق، وتسيل دموعُ الآماق من الأحداق على تفريط الأبّاق (٦)، ويضيَّق على العُصاة الخِنَاق إذا عزَّ الإعتاق، وتُبْرَز الجحيم فيها الحميم والغَسّاق مُعَدّ للفجار والفُساق، لفحتهم فأحالت جَمالَهم وما لهم من اللَّه من واق، اطَّلعت على الأفئدة وبواطن الأعماق، يَحلُّون (٧) بها ولا يُحلّ لهم وثاق، حرها شديد ويزيد بإطباق الأطباق، وا أسفًا كم يُهَدّدون (٨) وكم كم إحْداق، هذا وأهلُ الجنة قد نالوا الرضا بالوفاق، فازوا وحازوا (٩) مراتب السبّاق، فهم في ضياء نورٍ كامل وإشراق،

---

(١) الوبل: المطر الشديد. والطش: المطر الضعيف. (٢) ت: فزاد.

(٣) وزاد على الحرش: أصله المثل: هذا أجل من الحرش، والحرش: صيد الضب، ومن أساطير العرب: أن الضب إذا ولد ولدًا حذره الحرش، فبينا هو وولده في تلعة سمع وقع محفار على فم الجحر فقال: يا أبت الحرش هذا؟ فقال: يا بني هذا أجلّ.

(٤) ت: حكاه الثعلبي. (٥) ت: ويحشر.

(٦) الأباق: جمع آبق. وهو العبد الهارب. (٧) الأصل: يحلوا.

(٨) الأصل: كم يحددون. (٩) ت: فازوا فجازوا.

ونعيم لا يحاط بوصفه مديد الرواق، وكؤوس مملوءة فيا حسن الدِّهَاق، كانوا يشتاقون إلى المحبوب وهو إليهم بالأشواق، حدَا لهم حادِي العزم فجدَّت النِّياق، وقد أُعلمنا بما يجري على الفريقين يومَ الافتراق ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾.

* * *

﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ... ﴿١٦﴾ ﴾ أي ظاهرون من قبورهم ﴿ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌۚ... ﴿١٦﴾ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: **أحدهما**: لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، قاله ابن عباس، والمراد التهديد بالجزاء وإن كان لا يخفى عليه اليوم شيء، **والثاني**: لا يستترون منه بجبل ولا مدَر، قاله قتادة، **والثالث**: أن المعنى: أبرزهم جميعًا، حكاه الماوردي.

* * *

قوله تعالى:
﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ... ﴾ (١)

اتفقوا على أن هذا الكلام يقوله اللَّه تعالى بعد فناء الخَلْق، واختلفوا في وقت قوله على قولين:

أحدهما: أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب، فيردّ هو على نفسه فيقول: للَّه الواحد القهار، قاله الأكثرون.

والثاني: أنه يقول في القيامة، وفيمن يجيبه قولان: **أحدهما**: أنه يجيب نفسه، وقد سكتت (٢) الخلائق لقوله، قاله عطاء. **والثاني**: أن الخلائق يجيبونه فيقولون: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ قاله ابن جُريج.

سجع:

إذا خلت الدِّيار ولم يبق دَيَّار وذهب الليلُ والنهار، والإنس والجن والأطيار، ونَضَبت البحارُ والأنهار، وبُسَّت الجبال فصارت كالغُبَار، قال الملك العظيم الجبار: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾.

* * *

---

(١) سورة غافر: ١٦.

(٢) ت: سكت.

[قوله تعالى] (١):

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ... ﴾ (٢)

سجع:

قامت الأقدام حتى تعبت ونصِبت، وكلما سعَتْ تعثَّرت في الطريق وكبَتْ، وسقطت الجبال ولطالما انتصبت، وظهرت المخبآت التي كانت قد احتجبت، والحوضُ غزير الماء وكم نفسٍ ما شربت، فجيء بالنيران (٣) فزفرت (٤) وغضبت، ونهضت مسرعة إلى أربابها ووثبت فانزعجت (٥) القلوب ورهِبت وهربت، وكيف لا تجزع وهي تدري أنها قد طُلِبت، وموازين الأعمال على العدل قد نُصبت، ونادى المنادي فبكت العيون وانتحبت: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ... ﴾

ميزان العدل تبين فيه الذَّرّة فاحذروا، الظلم ظلماتٌ يوم القيامة فاذكروا، إن اللّه سريع الحساب قد بقي القليل لإتيانه.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ... ﴿١٨﴾ ﴾ يعني يوم القيامة، وسمّيت آزفةً لقربها، يقال: أزِف شُخوصُ فلانٍ، أي قَرب.

﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ... ﴿١٨﴾ ﴾ وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود ﴿ كَٰظِمِينَ... ﴿١٨﴾ ﴾ أي مغمومين ممتلئين خوفًا وحزنًا ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ... ﴿١٨﴾ ﴾ أي قريب ينفعهم ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ فيهم فتقبل شفاعته.

سجع:

لو رأيت الظَّلَمة قد ذَلّوا بعد الارتفاع، وصاروا تحت الأقدام وكانوا على يَفَاع، وبكوا ولا ينفعهم على وفَاق الطِّباع، وكِيل لهم الجزاءُ عدلًا بأوفر صاع، وعلموا أن الأعمار مرَّت بالغرور والخداع، وأن مُلكًا كانوا فيه بئس المتاع، ودّوا لو أن لقاء الدنيا كان لهم

---

(١) من ت. (٢) سورة غافر: ١٧. (٣) ت: وجيء بجهنم.
(٤) ب: فزفت. (٥) ب: فأزعجت.

الوداع، لا يُنظر إليهم يوم القيامة كأنهم رَدِيء المتاع، ظهر ذُلّهم بين الخلائِق كلهم وشاع، ورأوا من الأهوال ما أزعجهم وراع، حُشر الخلائق كلهم يومئذ في قاع، وطارت الصحف والرِّقاع في تلك البقاع، وقُرِّبت الأعمال ونودي: سَماع سماع، ونفعت الشفاعة للمؤمنين [(١)] وما للفجار انتفاع ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ... ﴾ [(٢)]

قال ابن قتيبة: الخائِنة والخيانة واحد، وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال: **أحدها:** أنه الرجل يكون في القوم فتمرّ به المرأة فيريهم أنه يغضّ بَصره فإذا رأى منهم غفلةً لحظ إليها، فإن خاف أن يَفْطنوا له غضَّ بصره، قاله ابن عباس. **والثاني:** أنه نظر العين إلى ما نُهي عنه، قاله مجاهد. **والثالث:** الغمز بالعين، قاله الضحاك، وقال قتادة: هو الغمز بالعين فيما لا يحبه اللَّه تعالى ولا يرضاه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: **أحدها:** ما تضمره من الفعل أنْ لو قدرت على ما نظرت إليه، قاله ابن عباس. **والثاني:** الوسوسة، قاله السُّدِّي. **والثالث:** ما تُسره القلوب من أمانة أو خيانة، حكاه الماوردي.

سجع:

ذنوبك ظاهرة لا تحتاج إلى تفتيش، حيّة لسانك في الملاهي من الحيات المناهيش، كيف تَلْحق الصالحين وهل يطير طائر بلا ريش، تغتاب الرفقاء وتعيب الأصدقاء، مع من تعيش، لا عملك لنا خالص، ولا تُقاك لهواك قانص، لقد رضيتَ المعايب والنقائص أمَا ظِلُّ الحياة ظلٌّ قالِص؟! كم قبضَ الموت كفَّ قانص، كم أَشْخَصَ الردَى من طَرفٍ شاخص، كأنك بك وقد جاءك المُغافص [(٣)] ولقيت كل الأذى من أدنى القوارص، ورأيت هوْلًا ترعد منه الفرائص [(٤)]، وصاحوا ثم قالوا: خلُّوه فهو عائص [(٥)]، وبكى لمصرعك العدو والولي المخالص.

---

(١) الأصل: للمؤمن.

(٢) سورة غافر: ١٩.

(٣) المغافص: المفاجئ الذي يأخذ على غرة.

(٤) الأصل: الفوارس.

(٥) عائص: متحير.

سألتُ بني الأيام عن ذاهل الصِّبا كأنك قلت الآن ما فعل الطَّشمُ (١)
مضى الشخصُ ثم الذِّكر فانقرضا معًا وما مات كلُّ الموت من عاش منه اسمُ
ألا ذلِّلُوا هذِي النفوسَ فإنها ركائب شرٍّ ليس يضبطها الحزمُ

يا من عليه منازل الموت تدور، وهو مستأنس بالمنازل والدُّور، لا بد أن تخرج من القصور على التواني والقصور، لا بدّ من الرحيل إلى بلاد القبور على الغفلات وعلى الفتور، أهلكك والله الغَرور بفنون الخداع (٢) والغُرور، يا مظلم القلب وما للقلب نور، الباطن خراب والظاهر معمور، لو ذكرت القبر المحفور كانت عين العين تفور، ولو تفكرت في الكتاب المسطور دفنت الاستغفار بين السطور، ولو تصورت النفخ في الصُّور والسماء تتغير وتمور، والنجوم تنكدر وتغور، والصراط ممدود ولا بدّ من عبور، وأنت متحير في الأمور تبكي على خلاف المأمور، ستحاسَب على الأيام والشهور، وترى ما فعلْته من فجور في النهار والدَّيجور، ستحزن بعد السرور على تلك الشرور إذا وفِّيت الأجُور، وبان المواصِل من المهجور، ونجا المخلصون دون أهل الزور، تصلِّي ولكن بلا حضور، وتصوم والصوم بالغيبة مغمور، لو أردت الولدان والحور لسألتهم وقت السحور، كم نتلطف بك يا نَفُور، كم نُنْعم عليك يا كفور، كم بارزت بالقبيح والكريم غفور ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *
* *
*

---

(١) الطسم: قبيلة من عاد انقرضوا.
(٢) ت: الخدع.

المجلس الثالث والعشرون

في قصة يونس ﷺ

الحمد لله الواحد الماجد العظيم، الدائم العالم القائم القديم، القدير البصير النصير العليم، القوي العلي الغني الحكيم، قضى فأسقم الصحيح وعافَى السقيم، وقدر فأعان الضعيف وأوهَى القويم، وقسم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين: دار النعيم ودار الجحيم، فمنهم من عصَمه من الخطايا كأنه (١) في حَرِيم، ومنهم من قضى له أن يبقى على الذنوب ويقيم، ومنهم من يتردد (٢) بين الأمرين والعمل بالخواتيم (٣)، خرج موسى راعيًا وهو الكَلِيم، وذهب ذو النون مغاضبًا فالتقمه الحوت وهو مُلِيم، وكان محمد ﷺ يتيمًا فكان الكونُ لذلك اليتيم، وعصى آدم وإبليس فهذا مَرْحوم وهذا رَجِيم، فإذا سمعت بنَيْل الممالك أو رأيت وقوع المهالك فقل: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (٤) أنعمَ علينا بالفضل الوافر العميم، وهدانا بمَنِّه إلى الصراط المستقيم، وحَذَّرنا بلطفه من العذاب الأليم، ومَنَّ علينا بالكتاب العزيز القديم، فهو مستحق الحمد ومستوجب التعظيم، أحمده وكيف لا يُحمد، وأشهد أنه لم يلد ولم يُولد، وأن محمدًا عبده الأمْجد ورسوله الأوْحد، أخذ له الميثاق على أقرب الأنبياء والأبْعَد، وأقام عيسى يقول: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (٥) وتوسل به آدمُ وقد أسْجِد له من أسجد من مَلك كريم، ﷺ ما سُلِك الطريق القويم، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان والتصديق، المحبّ الشفيق والرفيق الرقيق حين يسافر وحيث يقيم، وعلى عُمَر الذي عَمر من الدين ما عَمر ودفع الكُفْر فدبَّر بأحسن تدبير وأكمل تقويم، وعلى عثمان الشريف قَدْره الكثيف سِتْره الذي احتسب عند الله صَبْره على ما ضِيم، وعلى عليٍّ مدار العلماء وقطبهم، ومقدَّم الشجعان في حَرْبهم، والمؤمنون من كربهم في مُقْعد مُقِيم، وعلى العباس عمه وصِنْو أبيه، أقرب الخلق إليه نسبًا يَلِيه.

* * *

---

(١) ت: فكأنه. (٢) ت: تردد. (٣) ب: للخواتيم.

(٤) سورة الأنعام: ٩٦. (٥) سورة الصف: ٦.

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ... ﴾ (١)

يونس: اسم أعجمي، وفيه ست لغات: ضم النون وفتحها وكسرها والهَمْز مع اللغات الثلاث.

وكان يونس من ولد يعقوب، وكان عابدًا من عبّاد بني إسرائيل فرأى ما هم فيه من الكفر، فخاف أن تنزل بهم عقوبة، فخرج هاربًا بنفسه وذريته وكانوا بنِينَوَى قرية من أرض الموصل، فبعثه اللَّه رسولًا إليهم فدعاهم إلى اللَّه تعالى وأمرهم بترك عبادة الأوثان (٢)، وكان رجلًا فيه حِدّة، فلما لم يقبلوا أخبرهم أن العذابَ مُصِيبهم بعدَ ثلاث، فأقبل العذابُ، قال ابن عباس ﵄ : لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل ووجدوا حَرَّه على أكتافهم، وقال سعيد بن جُبير: غشِيهم العذابُ كما يغشى الثوبُ الضَّفْر (٣)، وقال غيره: غامت السماء غيمًا أسود يُظهر دخانًا شديدًا فغَشِيَ مدينتهم فاسودَّت أسطحتهم، فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المُسُوح وحثَوْا على رؤوسهم الرماد، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام وعَجُّوا إلى اللَّه تعالى بالتوبة الصادقة وقالوا: آمنّا بما جاء به يونس، فكشف عنهم العذاب فقيل ليونس: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع إليهم فيجدوني كاذبًا، وكان من يكذب فيهم يُقتل. فركب السفينة مغاضبًا.

فإن قيل: فلمن غاضَب؟

فالجواب: أنه غاضب قومه قبل التوبة واشتهى أن ينزل بهم العذاب لِمَا عانى من تكذيبهم، فعوتب على كراهية العفو عنهم، فلما ركب السفينة وقفت، فقال: ما لسفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكني أدري، فيها عبدٌ أبَق من ربه وإنها واللَّه لا تسير حتى تُلقوه، قالوا: أمّا أنت واللَّه يا نبي اللَّه لا نُلْقيك، قال: فاقترعوا فقُرِع يونس، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ... ﴿١٤١﴾ ﴾ فألقى نفسه في الماء ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ أي مُذْنب ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ أي من المصلّين قبل التقام الحوت، وقيل: بل في بطن الحوت.

- **وفي قدر مُكثه في بطن الحوت خمسة أقوال:**

---

(١) سورة الصافات: ١٣٩.

(٢) ت: عبادة الأصنام.

(٣) في ت: الصفر. وفي ب: القبر. والضفر: الشعر المجتمع.

أحدها: أربعون يومًا، قاله أنس وكعب وابن جُرَيج.

والثاني: سبعة أيام، قاله سعيد بن جُبَير.

والثالث: ثلاثة أيام، قاله مجاهد وقتادة.

والرابع: عشرون يومًا، قاله الضحاك.

والخامس: بعض يوم، قال [١] الشَّعْبي: ما مكَث إلا أقلَّ من يوم، التقمه الحوت ضُحًى فلما كان بعدَ العصر وقاربت الشمسُ الغروب تثاءب الحوتُ فرأى يونسُ ضوءَ الشمس فقال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٢].

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ... ﴿١٤٥﴾ ﴾ [٣] وهي الأرض التي لا يتوارَى فيها بشجرة ولا غُبْرة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ أي مريض، قال ابن مسعود: كهيئة الفَرْخ الممعوط الذي ليس له ريش ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ وهو الدُّبّاء [٤] وإنما أُنبتت عليه دون غيرها ليغطيه ورقها ويمنع الذباب عنه فإنه لا يسقط على ورقه ذبابة، وقيّض اللَّه تعالى أُرْوِيّة [٥] من الوحش تروح عليه بكرة وعشية فيشرب من لبنها، وقال وهب بن منبه: أنبت اللَّه عليه الدُّبّاء فأظلّته، ورأى خضرتها فأعجبته، ثم نام فاستيقظ وقد يبِست فحزن عليها فقيل له: أنت لم تَخْلق ولم تَشق ولم تُنبت تحزن عليها!! وأنا الذي خلقت مائة ألفٍ من الناس أو يزيدون ثم رحِمْتهم فشقَّ عليك [٦].

قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ... ﴿١٤٧﴾ ﴾ المعنى: « وكنا أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » المعنى: بل يزيدون، قاله ابن عباس. والثاني: أنها بمعنى الواو، تقديره: ويزيدون، قاله ابن قتيبة. **وفي زيادتهم أربعة أقوال: أحدها:** عشرون ألفًا، رواه أُبَيّ بن كعب عن رسول اللَّه ﷺ. **والثاني:** ثلاثون ألفًا. **والثالث:** بضعة وثلاثون ألفًا، والقولان عن ابن عباس. **والرابع:** سبعون ألفًا، قاله سعيد بن جُبَير.

فإن قيل: كيف قُبلت توبتهم ولم يقبل إيمان فرعون؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ذلك كان خاصًا [٧] لهم كما في الآية. **والثاني:** أن فرعون باشره

---

(١) الأصل: قاله.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٣) ب: فنبذه. وقوله بالعراء.

(٤) الدباء: القرع.

(٥) الأروية: أنثى الوعل.

(٦) ب: فشق عليه، وما أثبته من ت.

(٧) ت: خالصًا.

العذاب، وهؤلاء لم يباشرهم، ذكره الزجّاج. **والثالث**: أن اللَّه تعالى عَلِم منهم صِدْق النيات بخلاف غيرهم، ذكره ابن الأنْباري.

* * *

فانظروا [إخواني] (١) إلى التوبة [النصوح] (٢) الصادقة كيف أثّرت، وقاومت العذاب فدفعت ونفعت، فَلْيلجأ العاصي إلى حَرم الإنابة، وليطرقْ بالأسحار بابَ الإجابة (٣)، فما صدَق صادق فُردَّ، ولا أتى الباب مُخْلص فصُدّ، وكيف يُرد من قد اسْتُدْعِيَ فقيل لهم: « توبوا » إنما الشأن في صدق التوبة.

وليست التوبة نُطْق اللسان، إنما هي ندَم القلب وعَزْمه أن لا يعود، ومن شرط صحتها: أن تكون قبل معاينة أمور الآخرة، فمن باشره العذاب أو عاينه فقد فات موسم القبول، فاستدركوا قبل المفاجأة بالفوات الذي لا يُؤْمَن، نسأل اللَّه يقظة تحركنا إلى البِدار قبل أن يقع الفَوْت والخَسار.

* * *

الكلام على البسملة

يأتي على الناسِ (٤) إصباحٌ وإمساءُ ... وكلُّنا لِصُروف الدهر نَسَّاءُ
تَتْرَى (٥) الملوكُ ومِصْرٌ في تغيّرهم ... مِصْر على العَهْد والأحْساء أحساءُ
خَسِسْتِ يا دار دُنْيانا (٦) فأفٍّ لمن ... يَرْضى الخسيسة أو ناسٌ (٧) أخِسَّاءُ
لقد نطَقْتِ بأصناف العِظات لنا ... وأنت فيما يظن الناسُ خرساءُ
إذا تعطَّفْتِ يومًا كنت قاسيةً ... وإن نظرتِ بعين فهي شَوْساءُ (٨)
أين الملوكُ وأبناء الملوك ومن ... كانت لهم عِزّة في المُلْك قَعْساء (٩)
نالوا يسيرًا (١٠) من اللذات وارتحلوا ... برغْمهم فإذا النَّعماء بَأْسَاءُ

(١ ، ٢) من ت.

(٣) ت: وليطرق بالاستجابة باب الإجابة.

(٤) اللزوميات : ٤٧/١: يأتي على الخلق.

(٥) الأصل: تثوى والتصويب من اللزوميات.

(٦) اللزوميات: خسئت يا أمنا الدنيا.

(٧) اللزوميات: أوباش أخساء.

(٨) الشوساء: التي تنظر بمؤخر العين تكبرًا وغيظًا.

(٩) القسعاء: تأنيث الأقعس، وهو المرتفع، والبيت في اللزوميات:

فلا تغرنك شمٌّ من جبالهم ... وعزة في زمان الملك قعساء

(١٠) الزوميات: نالوا قليلًا.

الدنيا دار كدَر، بذلك جرى القدَر، فإن صفا عيشُ لحظة ندَر، ثم عاد التخليطُ فبدَر، الورود فيها كَالصَّدَرِ، ودمُ قتيلها هدَر، بلاؤها متتابع متواصل، وسيفها إذا ضربت سيفٌ فاصل، وحِرصها على الحقيقة مُفاصل [١]، وخيرها مظنونٌ وشرّها حاصل.

نوائب إن حَلَّت تخلّت سريعة ... وإمّا تولت في الزمان توالتِ
ودُنْياك إن قَلّت أقلّت وإن قلتْ ... فمن قَلتِ في الدين نَجَّتْ وعَلّتِ [٢]
غلَتْ وأغالت ثم غالَت وأوحشَتْ ... وحشَّتْ وحاشت واستمالت ومَلّتِ [٣]
وصلَّت بِنِيرانٍ وصلَّت سيوفُها ... وسَلّت حُسامًا من أذاة وسَلّتِ [٤]
أزالت وزَلّت بالفتى عن مُقامه ... وحلّت فلما أحكم العَقْدُ حلّتِ

* * *

أين أرباب البيض والسُّمر، والمراكب الصفر والحمر، والقِبَاب والقُبّ الضُّمْر، ما زالوا يفعلون أفعالَ الغُمْر [٥] إلى أن تَقضَّى جميعُ العمر، لو رأيت مرتِفعهم بعد النَّصَب قد جُرّ إلى بيت لا يدري فيه الحرّ والقَرّ، وعليه ثوب لا خِيط ولا زرّ، المحنة أنه ما انتقل بما يَسُرّ، تاللّه لقد حالَ حُلْوهم إلى المُرّ وصار ما كان ينفع يضر، باعوا بمخشاب [٦] الهوى ثمين الدُّرّ، ولا يمكن أن يقال: البائِع غِرّ: لأنه باع وهو يدري أنه حُرّ [٧].

الـمَـشـيـدات الـتـي رُفِـعـت ... أرْبـعٌ مـن أهـلـهـا دُرُسُ
قـام [٨] لـلأيـام فـي أُذنـي ... واعـظٌ من شـأنِـه الـخَـرسُ
مُـهجـتـي ضِـدٌّ يـحـاربـنـي ... أنـا منّـي كـيـف أَحْـتـرسُ
إنـمـا دُنْـيـاك غـانـيـةٌ ... لـم يُـهَـنِّـئ زوجَـهـا العُـرُسُ
فـالـقـهـا بـالـزهـد مُـدَّرعًا ... فـي يـديـك الـسـيفُ والـتُّـرْسُ

---

(١) المفاصل: الفارق.

(٢) قلت: أبغضت. وفي اللزوميات : ٢٢١/١: فمن قلت في الدين، ومعنى القلت: الهلاك.

(٣) غلت: جاوزت الحد. وأغالت: أهلكت وغالت: اغتالت. وحشت: أصلحت وأعطت. وحاش الصيد: جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة. والمعنى: أهلكت.

(٤) صلت: أدفأت. وصلت السيوف: سمع لها صوت عند الضراب.

(٥) الغمر: من لم يجرب الأمور.

(٦) المخشاب: الرديء.

(٧) الأصل: وهو يدري من يدري أنه حر.

(٨) الأصل: أقام، وما أثبته من اللزوميات لأبي العلاء : ١٦/٢.

لـيـس يـبـقـى فـرع نـابـتـة	أصلُها فـي الـموت مُـغْـتَرِس [١]

إخواني: حاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعدّوا للسؤال صحيح الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام، قبل نَدم النفوس في حين سياقها، قبل طَمْس شمس الحياة بعد إشراقها [٢] قبل ذوق كأس مُرّة في مذاقها، قبل أن تدور السلامة في أفلاك مِحَاقها، قبل أن تُجذب النفوس إلى القبور بأطواقها، وتفترش في اللحود أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها، وتشتد شدائد الحسرة حاسرةً عن ساقها،وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندفاقها، وتتقلب القلوب في ضَنك ضيق خناقها، ويطول جوعُ من كان في الدنيا فاكهًا [٣]، وتبكي النفوس في أَسْرها على زمان إطلاقها.

إخواني: الأيام مطايا بيدها أزمّة ركبانها، تنزل بهم حيث شاءت، فبيناهم على غَواربها ألقتهم فوطئتهم بـمَنَاسِمِهَا.

قال الحسن: يُعرض على العبد يوم القيامة ساعاتُ عمره، فكل ساعة لم يُحْدث فيها خيرًا تتقطع نفسُه عليها حسرات.

وكان يونس بن عُبيْد جالسًا مع أصحابه يحدثهم فنظر في وجوههم وقال: لقد ذهب من أجَلي وأجلكم ساعة.

وكتب الأوزاعي إلى أخ له: أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يُسَار بك في كل يوم وليلة [٤] مرحلة، فاحذر اللَّه تعالى والمقام [٥] بين يديه وأن يكون آخر عهدك به والسلام.

خَـلِّ الـذنـوب صـغـيـرَهـا	وكـبـيـرهـا فـهـو الـتُّـقَـى
كـن مِـثْـل مـاشٍ فـوق أر	ضِ الـشـوكِ يَـحْـذر مـا يَـرى
لا تَـحْـقِـرَنَّ صَـغِـيـرَةً	إنّ الـجـبـال مـن الـحَـصـى

قال أعرابي: لا تأمن من جعل في ثلاثة دراهم قطع خير عضو منك أن يكون عقابه غدًا هكذا.

قال رجل لبعض الحكماء: أوصني، فقال: إياك أن تسيء إلى من تحب، قال: وهل يسيء أحد إلى من يحب؟!! قال: نعم تعصي فتعذَّب فتكون مسيئًا إلى نفسك.

---

(١) في الأصل: نائبة، بدلًا من نابتة، ومفترس بدلًا من مغترس، والتصويب من اللزوميات : ١٧/٢، ط صادر.

(٢) ت: قبل طمس شمس الإشراق بعد إشراقها. (٣) الأصل: شاقها، محرفة.

(٤) ب: في كل ليلة وليلة. (٥) ب: والوقوف والمقام.

أَعطَيْتَ سيفًا لك بعضَ العِدَا ... وليس في كفِّك غير القِرَاب
فاهرب من الْغَيّ وأشياعِه ... وحِنّ للنُّسك حنينَ الضِّراب
تَزْجر (١) هذي النفس عن طَبْعها ... والأُسْد لا تترك قَصْد الروابِ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ (٢)

اعلم أن الآدمي ابن وقته؛ لأن ما مضى لا لذة له، لا تغترر بمدِّ المهل ولا تنس قرب الأجل، فالأيام مراحل وستصل الرَّواحل، تأهَّبْ لحوضٍ ستَرده، يا خاسرًا رأس المال وما يفتقده، يا طالبًا طول البقاء وما يجده.

دهرٌ يشيِّع سَبْتَه أحَدُه ... مُتتابعٌ ما ينقضي أمَدُهْ (٣)
يومٌ يبكِّينا وآونةً ... يومٌ يبكّينا عليه غَدُه
نَبْكي على زمنٍ ومِنْ زمن ... فبكاؤنا موصولة مُدَدُه
ونَرى مكارهنا مخلَّدة ... والعُمر يذهب فائتًا عدده
لا خَيْرَ في عيشٍ تخَوَّننا ... أوقاتُه وتَغُولنا مُدَده (٤)
ومن أقرضَ الأيامَ أتلَفها ... وقضى جميعَ قروضها جَسدُه
حتى يُغيَّب في مُطَمْطمة (٥) ... لا أهلُه فيها ولا وَلدُهْ

* * *

تدبروا أمركم تدبّر ناظر، أين السلطان الكبير القاهر؟! كم جمع في مملكته من عساكر، وكم بنى من حصون ودساكر، وكم تمتع بحُلَل وأساور، وكم علا على المنابر، ثم آخر الأمر إلى المقابر، العاقل من ينظر فيما سياتي، ويقهر بَعزْمه شرَّ الهوى العاتي، وإذا قالت النفس: حظي قال: حظي نجاتي.

عجبت لِمَا تَتُوق النفسُ جهلًا ... إليه وقد تصرَّم لانبتاتِ
وعصياني العذولَ وقد دعاني ... إلى رُشْدي وما فيه نجَاتِي

---

(١) الأصل: تذكر. (٢) سورة الشعراء: ٢٠٥. (٣) ب: أجده.
(٤) تغولنا: تغتالنا. (٥) المطمطمة: الحفرة.

أُؤَمِّلُ أن أعيش وكلَّ يومٍ ... بسمعي رَنَّةٌ من مُعْولاتِ
وأيدي الحافرين تَكِلّ مما ... تُسَوِّي من مَساكن مُوحشاتِ
نُرَاع إذا الجنائِزُ قابلَتْنا ... ونَسْكن حين تَخْفي ذاهباتِ
كَرْوعة قُلّة [1] لظهور ذيبٍ ... فلما غاب عادَتْ راتعاتِ
فإن أمَّلتَ أن تَبْقى فسائِلْ ... بما أفنى القرونَ الخالياتِ
فكم من ذِي مَصانعَ قد بَنَاها ... وشيَّدها قَليلُ الخوف عاتِي
قليلُ الهم ذو بالٍ رخيٍّ ... أصمُّ عن النصائِح والعظاتِ
فبات وما تروَّع من زوالٍ ... صحيحًا ثم أصبحَ ذا شِكاتِ
فباكَره الطبيب فرِيع لمّا ... رآه لا يُجيز إلى الدعاةِ
فلو أن المفرِّط وهْو حيٌّ ... توخَّى الباقيات الصالحاتِ
لَفاز بِغْبطةٍ وأصاب حَظًّا ... ولم يَغْشَ الأمورَ الموبقاتِ
فيا لك عندها عِظَة لحيّ ... ويا لك من قلوبٍ قاسياتِ
وكل أخي ثراءٍ سوف يُمْسِي ... عديمًا والجميعُ إلى شَتاتِ
كأن لم يَلْف شيئًا ما تقضَّى ... وليس بفائتٍ ما سوف ياتي

* * *

كأنك بك وقد ملَّ الناعت [2]، وحلَّ بمحلك المُسْتَلب الباغت، وردَّك من مقام ناطق إلى حال صامت، وبقيت متحيرًا كالأسير الباهت، وإنما هي نَفْس تخرج ونفَس هافت [3]، وقد مضى فمن يردّ الفائت، وصرت في حالة يَرْثى لها الشامت، يا عجبًا كيف يفرح هالك فائت؟!

عباد الله: النظرَ النظرَ إلى العواقب، فإن اللبيب لها يراقِب، أين تعبُ من صام الهواجر؟ وأين لذة العاصي الفاجر؟ رحلت اللذة من الأفواه إلى الصحائف، وذهب نصَب الصالحين بجزَع الخائف، فكأن لم يتعب من صابَر اللذات وكأن لم يلتذ من نال الشهوات.

أخبرنا هِبَة الله بن محمد، أنبأنا أبو الحسين بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا

---

(١) القلة: الجماعة من الناس.

(٢) كذا بالأصل، ولعل المراد: ملَّ من ينعت لك أوصاف الدواء.

(٣) كذا بالأصل، وهفت الشيء: انخفض واتضع ودق.

عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « يُؤْتى بِأَنْعَمِ أهلِ الدنيا من أهل النار فيُصبغ في النار صبغة ثم يقال له: يا بن آدم هل رأيت خَيْرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبغ في الجنة صبغةً ثم يقال له: يابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب ما مرَّ بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط ». (انفرد بإخراجه مسلم) [1].

وقيل: حَبس بعض السلاطين رجلًا زمانًا طويلًا ثم أخرجه فقال له: كيف وجدتَ مَحْبسك؟ قال: ما مضَى من نعيمك يومٌ إلا ومضى من بؤسي يوم، حتى يَجْمعنا يوم.

وروينا أن داود عليه السلام رأى راهبًا في قُلّة جبل فصاح به: يا راهب مَن أنيسُك؟ فقال: اصعد تره، فصعد داود فإذا ميت مُسَجًّى قال: من هذا؟ قال: قصته مكتوبة عند رأسه. فدنا داود عليه السلام فإذا عند رأسه لوح عليه مكتوب فقرأه فإذا فيه: أنا فلان ابن فلان مِلِك الأملاك، عشتُ ألفَ عام، وبنيت ألف مدينة، وهزمت ألف عسكر، وأحصنت ألف امرأة، وافتضضت ألف عذراء، فبينما أنا في مُلكي أتاني ملَك الموت فأخرجني مما أنا فيه فها أنذا: التراب فراشي والدود جيراني، قال: فخرّ داود مغشيًّا عليه.

* * *

حَصَلوا بأنواع من الأحداثِ ... مِن كل ما عمَروا على الأَجْداثِ

فإذا الذي جَمعوه طولَ حياتهم ... نَهْبُ العِدَى وقَسِيمَة الوُرّاثِ

حالت منازلُهم على طولِ المدَى ... ووجوهُهم في الأرض بعدَ ثلاثِ

يا من يُسَرّ ببيته وأثاثِه ... لك في الثَّرى بيتٌ بغير أثاثِ

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو بكر الخياط، حدثنا أبو عبيد الله بن رَوْسَب، حدثنا ابن صفوان، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا الحسن بن جمهور، حدثنا الهيثم ابن عدِيّ، عن عبد الله بن عباس وابن حصين بن عبد الرحمن وغيره، عن عمرو ابن ميمون، عن جَرِير بن عبد الله قال: افتتحنا بفارس مدينة فَدُلِلْنا على مغارة ذُكر لنا أنّ فيها أموالًا، فدخلناها ومعنا من يقرأ بالفارسية، فأصبنا في تلك المغارة من السلاح والأموال شيئًا كثيرًا، ثم صرنا إلى بيتٍ يشبه الأزَج [2] عليه صخرة عظيمة فقلبناها، وإذا في الأزج سرير من ذهب عليه رَجُل وعليه حُلل قد تمزقت، وعند رأسه لوح فيه

---

(١) صحيح مسلم : ٢١٦٢، ط عبد الباقي. (٢) الأزج: ضرب من الأبنية.

مكتوب، فقرئ لنا فإذا [فيه]: أيها العبد المملوك لا تتجبَّر على خالقك، ولا تَعْدُ قَدْرك التي جعل اللَّه لك، واعلم أن الموت غايتُك وإن طال عمرك، وأن الحساب أمامك، وأنك إلى مُدة معلومة تُترك ثم تؤخذ بغتةً أحبَّ ما كانت الدنيا إليك، فقدِّم لنفسك خيرًا تجده مُحْضَرًا، وتزوَّد لنفسك من متاع الغرور ليوم فاقتِك. أيها العبد الضعيف اعتبر بي فإن فيَّ معتبرًا، أنا بهرام بن بهرام ملك فارس، كنتُ من أعْلاهم بطشًا وأقساهم قلبًا وأطولهم أملًا، وأرغبهم في اللذة، وأحرصهم على جمع الدنيا، قد جَبيْت [١] البلاد النائية، وقتلت الملوك الساطية، وهزمت الجيوش العظام، وعشت خمسمائة عام، وجمعت من الدنيا ما لم يجمعه أحد قبلي، فلم أستطع أن أفتدي نفسي من الموت إذ نزل بي.

وقال محمد بن سيرين: أخذَتْ معاويةَ قُرّة [أي من البرد] [٢] فاتخذ أغشية خِفَاقًا، فكانت تُلْقى عليه فلا يلبث أن ينادِي: ادفعوها، فإذا أُخذت عنه سأل أن تُردّ عليه، فقال: قبحك اللَّه من دار! مكثتُ فيك عشرين سنة أميرًا وعشرين سنة خليفة، ثم صرتُ إلى ما أرى!

وكان عبد الملك بن مروان يقول عند موته: واللَّه وددت أني عبدٌ لرجل من تِهامة أرعَى غنيماتٍ في جبالها، ولم أكن أَلِي من هذا الأمر شيئًا.

* * *

كـلُّ حَـيٍّ لاقِـي الحِمَام فَمُودِي ... ما لـحيٍّ مـؤمِّلٍ من خلـودِ [٣]

لا تهاب المنونُ شيئًا ولا تُبْـ [٤] ... ـقـي عـلـى والـدٍ ولا مـولـودِ

يَقْدح الدهرُ في شَمارِيخ رَضْوَى ... ويحطّ الصخورَ من هَبُّودِ [٥]

ولـقد تَـتْرك الـحوادث والأيـا ... مُ وَهْيًا في الصخرةِ الصَّيْخودِ [٦]

وأرانـا كـالـزرع يـحصده الدهـ ... ـرُ فمـن بيـن قائـم وحَـصِـيـدِ

وكـأنّا للمـوت رَكْـب مُـخـبُّـو ... نَ سِـرَاعًا لـمـنـهـلٍ مـورودِ

أيـها الـجاهل الـذي أمِن الدهـ ... ـرَ وفي الدهـر عاقـرات الـخدودِ

أيـن عـادٌ وتُـبَّـع وأبـو سـاسا ... ن كسـرى وأيـن صَـحْـب ثمودِ

---

(١) جبيت: حصلت لي جبايتها، أي خراجها. (٢) من ت.

(٣) هذه الأبيات من قصيدة لابن مناذر في رثاء عبد المجيد الثقفي، وقد أورد المبرد في الكامل طائفة منها، وعنده أنها من حلو المرائي وحسن التأبين. الكامل : ٧٣٨، ط أوروبا.

(٤) رواية الكامل للمبرد: ولا ترعى. (٥) هبود: جبل.

(٦) الصيخود: الصماء الصلبة. ورواية البيت في ب: ولقد تنزل الحوادث والأيام وهنًا..

أين رب الحِصْن الحصين بسُورا ... ءَ بَنَاه وشاده بالشِّيدِ [١]
شدَّ أركانه وصاغ له العِقْيا ... ن بابًا وحفَّه بالجنودِ [٢]
كان يُجبَى إليه ما بَيْن صنعا ... ء ومصر إلى قرى بَيْرودِ
وترى حوله [٣] زُرَافات خيلٍ ... حافلاتٍ تَغْدو بمِثل الأسودِ
فرمَى شخصَه فأقصده الدهـ ... ـرُ بسَهْمٍ من المنايا شديدِ
ثم لم يُنْجه من الموت حِصْنٌ ... دونه خَنْدق وبابُ [٤] حديدِ
وملوكٌ من قَبْله عَمَروا الدنـ ... ـيا أعينوا بالنصرِ والتأييدِ
بينما ذاك مرَّت الطير تجري ... لهمُ بالنُّحوس لا بالسُّعودِ
وصروفُ الأيام أسهلْن بالحيـ ... ـن إليه من المحطّ الكؤودِ [٥]
ما وقاهم ما حاولوا لَوْعةَ الدهـ ... ـرِ وما أكّدوا من التأكيدِ
وكذاك العَصْران لا يُلْبثان المر ... ءَ أن يأتياه بالموعودِ
وبعيدٌ ما ليس يأتي وما يُدْنيـ ... ـه منك العَصْران غيرُ بعيدِ

سجع على قوله تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧ ﴾:

أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون، ويتجبّرون على الخَلْق ولا يُغلبون، مُزجت لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

مدوا أيديهم إلى الحرام، وأكثروا من الزلل والآثام، وكم وعظوا بمنثور ومنظوم من الكلام، لو أنهم يسمعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

حُمل كل منهم في كَفن، إلى بيت البِلَى والعفَن، وما صحبهم غيره من الوطن، من كلِّ ما كانوا يَجْمعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

ضمهم واللَّه التراب، وَسُدَّ عليهم في ثَراهم الباب، وتقطعت بهم الأسباب،

---

(١) الشيد: ما طلي به الحائط من جص ونحوه. ورواية البيت في الكامل:

أين رب الحصن الحصين بسورا ... ء ورب القصر المنيف المشيد

(٢) رواية الكامل:

شد أركانه وبوبه با ... بي حديد وحفه بجنود

(٣) الكامل: خلفه.

(٤) الكامل: وبابا حديد.

(٥) أسهلن: أسرعن. والمحط: المنحدر. والكئود: الشديد.

والأحبابُ يرجعون ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

أين أموالهم والذخائر؟! أين أصحابهم والعشائر؟! دارت على القوم الدوائر، ففِيم أنتم تطمعون؟! ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

شُغلوا عن الأهل والأولاد، وافتقروا إلى يسيرٍ من الزاد، وباتوا من الندم على أخسّ مِهَاد، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

أين الجنود والخدم؟! أين الحُرَم والحرَم؟! أين النِّعم والنَّعَم؟! بعد ما كانوا يربعون فيما يرتعون ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

لو رأيتهم في حُلل الندامة، إذا برزوا يوم القيامة، وعليهم للعقاب علامة، يساقون بالذل لا بالكرامة، إلى النار فهم يُوزَعون ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

يا معشر العاصين قد بقي القليل، والأيام تنادي: قد دنا الرحيل، وقد صاح بكم إلى الهدى الدليل إن كنتم تسمعون ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

* * *
* *
*

المجلس الرابع والعشرون

في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

الحمد للَّه الذي لم يزل عظيمًا عليًّا، يخذل عدوًّا وينصر وليًّا، أنشأ الآدمي خلْقًا سويًّا، ثم قسمهم قسمين رشيدًا وغَويًّا، رفع السماء سقفًا مبنيًّا، وسطح المهاد بساطًا مدْحيًا، ورزق الخلائق بحريًّا وبريًّا، كم أجرى [١] لعباده سريًّا [٢] أخرج منه لحمًا طريًّا، كم أعطى ضعيفًا ما لم يعط قويًّا، فبلَّغه على الضعف ضعف المراد ووهب له على الكبر الأولاد ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [٣].

أحمده إذ أفْضَل وأعطى شِبعًا وريًّا، وأصلي على رسوله محمد أفضل من امتطى تَبْريًّا [٤] وعلى أبي بكر الذي أنفق وما قلل حتى تخلَّل [٥] ويكفي زيًّا، وعلى عمر الذي كان مقدمًا في الجِدّ جريًّا، وعلى عثمان الذي لم يزلْ عفيفًا حييًّا، وعلى عليٍّ أشجع من حمل خطيًّا [٦]، وعلى عمه العباس المستسقى بشِيبته، فانتفعت الأرض رِيًّا.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ كٓهيعٓصٓ ... ﴾ [٧]

للعلماء في تفسيرها قولان:

أحدهما: أنه من المتشابه الذي انفرد اللَّه تعالى بعلمه.

والثاني: أنها حروف من أسماء اللَّه عز وجل، فالكاف من الكافي، والهاء من الهادي، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق.

قوله تعالى: ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ... ۝ ﴾ المعنى: هذا الذي نتلو عليك ذكر رحمة ربك ﴿ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ ﴾ وفيه ثلاثة لغات [٨] أهل الحجاز يقولون: هذا زكريا قد جاء مقصورًا، وزكرياء ممدودًا، وأهل نجد يقولون: زكَري فيجرّونه ويلقون الألف.

---

(١) ب: كم أجد. (٢) السري: النهر. (٣) سورة مريم: ١، ٢.

(٤) كذا في ت. وفي ب: سريًّا، والتبراء: الناقة الحسنة اللون.

(٥) تخلّل: جعل الخلال في ثوبه. (٦) الخطي: الرمح. (٧) سورة مريم: ١.

(٨) المذكور في النشر في القراءات العشر : ٢/٢٣١، المد والقصر فقط.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ والمراد بالنداء الدعاء، وإنما أخفاه لئلا يقول الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكِبر.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى... ۝٤ ﴾ أي ضعف، وإنما خص العظم لأنه الأصل في التركيب، وقال مجاهد وقتادة: شكا ذهابَ أضراسه، ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا... ۝٤ ﴾. أي انتشر الشيبُ فيه كما ينتشر شُعاع النار في الحطب، والمراد ﴿ بِدُعَآئِكَ... ۝٤ ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ ﴾ أي لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيّبُ، لأنك قد عوّدتني الإجابة.

﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ... ۝٥ ﴾ يعني الذين يلونه في النسب، وهم بنو العم والعصبة، فخاف أن يتولَّوا ماله وإن لم يكن على جهة الميراث، وأحب أن يتولاه ولدُه، وقرأ عثمان وسعد ابن أبي وقاص وابن جُبير وابن سُريج، عن الكسائي: ﴿ خفَّت الموالي ﴾ بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى: قلَّت، فعلى هذا إنما يكون خاف على علْمه ونبوّته ألا يُورثا فيموت العلم.

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا... ۝٥ ﴾ والعاقر من الرجال والنساء الذي لا يأتيه الولد، وإنما قال: عاقرًا ولم يقل عاقرة؛ لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث، والمذكر كالمستعار، فأُجْرِيَ مجرى طالق وحائض، قال ابن عباس: وكان سنه يومئذ مائة وعشرين سنة وامرأته ثمانٍ وتسعين سنة.

﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ... ۝٥ ﴾ من عندك ﴿ وَلِيًّا ۝٥ ﴾ أي ولدًا صالحًا يتولاني. وسبب سؤاله: أنه لما رأى الفاكهة تأتي مريم لا في حينها طمع في الولد على الكِبر فسأل.

قوله تعالى: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ... ۝٦ ﴾ المراد البنوة من الكل ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ أي مرضيًّا، فصُرف عن مفعول إلى فعيل كما قالوا: مقتول وقتيل.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ... ۝٧ ﴾ أي نسرك ونُفرحك، قال ابن عباس: لم يسمَّ يحيى قبله فشرف بأن سماه اللَّه تعالى ولم يكلْ تسميته إلى أبويه.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا... ۝٨ ﴾ وإنما قال هذا ليعلم أيأتيه الولدُ على هذه الحال أم يُردُّ هو وزوجته إلى حالة الشباب.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾ وهو نحول العظم ويُبسه.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ... ۝٩ ﴾ أي الأمرُ كما قيل لك من هِبة الولد على الكبر ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ... ۝٩ ﴾ أي خَلْق يحيى عليَّ سهل ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ... ۝٩ ﴾ أي أوجدتك ﴿ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً... ۝١٠ ﴾ أي علامة على وجود الحمل، وأراد أن يستعجل السرورَ ويبادر بالشكر ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ ﴾

والمعنى تُمنع من الكلام وأنت سوي سليم من غير خرس.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ... ﴿١١﴾ ﴾ وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته ﴿ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ... ﴿١١﴾ ﴾ أي مُصلاه ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ... ﴿١١﴾ ﴾ **وفيه قولان:**

أحدهما: كتب إليهم في كتاب، قاله ابن عباس.

والثاني: أومأ برأسه ويديه، قاله مجاهد. ﴿ أَن سَبِّحُوا۟... ﴿١١﴾ ﴾ أي صلوا.

قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ... ﴿١٢﴾ ﴾ المعنى: وهبنا له يحيى وقلنا له: يا يحيى ﴿ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ... ﴿١٢﴾ ﴾ وهو التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ... ﴿١٢﴾ ﴾ أي بجد واجتهاد في العمل بما فيها ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ وهو الفهم ﴿ صَبِيًّا ﴾ **وفي سنه يومئذ قولان:**

أحدهما: سبع سنين، رواه ابن عباس عن النبي ﷺ.

والثاني: ثلاث سنين، قاله قتادة ومُقاتل.

قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا... ﴿١٣﴾ ﴾ أي وآتيناه حنانًا أي رحمة ﴿ مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً... ﴿١٣﴾ ﴾ أي عملًا صالحًا ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ فلم يفعل ذنبًا ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ... ﴿١٤﴾ ﴾ أي جعلناه برًّا بوالديه.

قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ... ﴿١٥﴾ ﴾ أي سلامة له ﴿ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ قال سفيان بن عيينة: أوحشُ ما يكون ابن آدم في ثلاث مواطن: يوم ولد فيخرج إلى دار همٍّ، وليلة يموت مع الموتى فيجاور جيرانًا لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهدًا لم ير مثله قط، فسلَّمه في هذه المواطن كلها.

قال علماء السير: لما حملت مريم اتهمت اليهود زكريا وقالوا: هذا منه، فطلبوه ليقتلوه فهرب حتى انتهى إلى شجرة عظيمة فتجوَّفت له فدخل فيها فجاءوا يطوفون بالشجرة فرأوا هُدْبة ثوبه فقطعوا الشجرة حتى خلصوا إليه فقتلوه، ونبئ يحيى وهو صغير في زمن أبيه، وكان كثير البكاء فساح في الأرض يدعو الناسَ إلى اللَّه تعالى، وكان طعامه الجراد وقلوب الشجر.

أخبرنا المحمدان: ابن ناصر وابن عبد الباقي قالا: حدثنا أحمد بن أحمد، أخبرنا أبو نعيم الأصفهاني، حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثني سعيد ابن شُرحبيل، حدثنا سعيد بن عُطارد، عن وهيب بن الورد قال: كان يحيى بن زكريا له خطان في خديه من البكاء فقال له أبوه زكريا: إني إنما سألت اللَّه عز وجل ولدًا تقرُّ به عيني. فقال: يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكّاء.

واختلفوا في سبب قتل يحيى: فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث

عيسى يحيى بن زكريا في جماعة من الحواريين يعلمون الناس، فكان فيما نهاهم عنه نكاح ابنة الأخ، وكان لملكهم ابنة أخ تُعجبه، فأراد أن يتزوجها وكان لها في كل يوم حاجة مقضية، فبلغ ذلك أمَّها فقالت: إذا سألك الملك حاجتك فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى، فقالت له، فقال: سلي غير هذا، قالت: ما أسألك غيره، فدعا يحيى فذبحه، فبدرت قطرة من دمه على الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث اللَّه تعالى بُخت نصر فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا منهم حتى سكن.

وقال الربيع بن أنس: كانت للملك بنت شابة وكانت تأتيه فيسألها حاجتها فيقضيها لها، وإن أمها رأت يحيى وكان جميلًا فأرادته على نفسها فأبى، فقالت لابنتها: إذا أتيت أباك فقولي له: حاجتي رأس يحيى، فجاءت فسألته ذلك فردها فرجعت فقال: سلي حاجتك، فقالت: رأس يحيى، فقال: ذلك لك، فأخبرت أمها فبعثت إلى يحيى: إن لم تأت حاجتي قتلتك، فأبى فذبحته ثم ندمت وجعلت تقول: ويل لها ويل لها. حتى ماتت فهي أول من يدخل جهنم.

وفي حديث آخر [أن] اسمها ربَّهْ، وقيل: أزْميل. وقد قتلت قبله سبعين نبيًّا، وهي مكتوبة في التوراة مُقَتِّلة الأنبياء، وأنها على منبر من النار يسمع صراخها أقصى أهل النار.

* * *

الكلام على البسملة

أيـن مـن كان قبـلنـا أين أيـنا ... من رجـالٍ كـانـوا جـمـالًا وزيـنا
إن دهـرًا أتـى عـليهم فأفـنى ... عـددًا مـنهمُ سيـأتـي عـلـيـنا
خـدعتـنا الآمـالُ حتى جمـعنا ... وطـلـبنا لـغـيـرنـا وسـعـينا
وابـتغينا من الـمعاش فُـضـولًا ... لو قـنعنـا بـدونـها لا كتـفينـا
ولـعـمـري لنرحـلن ولا نـمـ ... ـضـي بـشيء مـنها إذا ما مضينا
اختلفنا في المقدّرات وسوّى اللـ ... ـه بـالـموت بـيـنـنا فاستويـنا
كم رأيـنا من مـيـت كـان حـيًّا ... ووشـيكًا يُـرى بـنـا مـا رأيـنـا
مـا لـنـا نـأمـن الـمـنـون كأنا ... لا نـراهـنّ يـهـتـديـن إلـينا
عـجبًا لامرئٍ تيقن أن الـ ... ـموت حقّ فقرّ بالعيش عينا (١)

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية، وقد سبق للمؤلف أن أوردها في هذا الجزء : ص ٩٢.

إخواني: ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب، كلُّ طُلابها قتلت فبئس المطلوب، إلى متى مع الدنيا؟! أين الذين اشتروا سِلَع الشك (١) بسلع اليقين؟! يا مستور الحال غدًا تبين، إذا حشْرجت في الصدر وجاء الأنين، وبرزت كُماةُ الموت من الكمين، وصرْتَ بعد التجبر أذلّ مسكين، وذُبحت وشيكًا بغير سكين، ونُقلت إلى لحدٍ أنت فيه رهين، انظر لنفسك أيها المتقاعد، تدبر عملك قبل عرضه على الناقد، وتأهبْ فكم بين يديك شدائد، لا ينفعك فيه ولد ولا والد.

سبيلُ الخلق كلهم الفناء ... فما أحدٌ يدوم له البقاء
يقرِّبنا الصباحُ إلى المنايا ... ويُدنينا إليهن المساءُ
فلا تركب هواك وكن معدًّا ... فليس مقدرًا لك ما تشاء
أتأمل أن تعيش وأيُّ غصن ... على الأيام طالَ له النماءُ
تراه أخضرَ العِيدان غضًّا ... فيُصبح وهو مسودٌ غُثاء
وجدنا هذه الدنيا غرورًا ... متى ما تُعط (٢) يُرتجع العطاءُ
فلا تركنْ إليها مطمئنًا ... فليس بدائم منها الصفاء

* * *

عباد الله: على نية النقض وضع البنيان، وعلى شرط الرحيل الأرواح في الأبدان، وإنما الدنيا مَعْبَر إلى دار الحيوان، وليس للإقامة فالعجبُ لاغترار الإنسان، أين العقل والنظر؟! إلام الجهل والبطر؟! كم من منزل دثر، كم ساعٍ عثر وأنت في الأثر، إلام هذا الأشَر، وقد علمت مآل البشر؟! أين العقول والفِكر؟! كم واردٍ ما صدر، البلايا (٣) مثلُ المطر، وإنك لعلى خطر، كم حضرتَ لدى مُحْتضر، ودمْع المآقي قد انهمر لقلة الزاد وطول السفر، ويحك إلى متى تختار الضرر؟! لقد بعت الدُّرَّ بالبعر، إن العاقل ليختار الأجود، وإن الحازم لا يرضى أن يُستعبد، يا من كلما جمعناه تبدد، يا من كلما زجرناه مدَّ اليد، يا من إذا دعوناه لم يسدَّد (٤)، كيف يختار الضلال من يعرف الطريق الأرْشد؟! كيف يؤثر النزولَ من يقال له: اصعد؟! إن اللبيب ليرى بعين الفكر ما في غد، لو سمعت الحجارةُ وعظنا لا نفطر الجلْمد، كم نصَبْنا لك شرَكًا وإلى الآن لم نصطد.

---

(١) ب: الشكر. محرفة، وما أثبته من ت. (٢) ت: تؤت. (٣) ت: البلاء.
(٤) كذا في ت. وفي ب: يا من إذا غرنا له فغيرنا أنجد، ولعلها محرفة.

حتى متى لا تزال مُعتذرًا … من زلَّةٍ منك لا تزال راكبها [(١)]
تُعقبها [(٢)] مثلها وتعقبك الحسْـ … ـرةَ من مثلها عواقبها
لَتركك الذنبَ لا تقاربه … أيسرُ من توبة تُطالبها

* * *

أيها المُعْرض عن شكر الإفضال والنعم، زاحمتَ [(٣)] على حوض الغفلة النَّعَم، تمد يد الجهل بالإنعام إلى أخذه واقتباسه، وتنسى عقوبة ما قد جنيته في وقت باسه، أين الهرب بخطاك؟! عجبًا منك وعيني تراك تُرَاك تستحي [(٤)] من غيري ومني لا تراك، مَنْ الذي سَتر على القبيح فيما مضى؟! مَنْ الذي لطف بك في دَيْن دِينه إذا اقتضى؟! يا هذا إن وجدت من يصلح لك غيرنا فاذهب، وإن رأيت مشْربا يلذّ غير حِلمنا فاشرب، لو أعلمت أباك [(٥)] ما نعلم منك أباك، ولو أريْت أخاك ما أريتنا جفاك، نِعَمُنا عليك قديمة كم نبْعث لك دِيمة [(٦)] لُطف بعدَ ديمة، أتراك تحنُّ إلى ودنا، أو تراعي عهد عهدنا.

يا هذا: جُبلت القلوبُ على حب من أحسن إليها، فوا عجبًا ممن لم ير محسنًا سوى اللَّه ﷻ كيف لا يميل بكليته إليه، يا منعَمًا عليه بالعافية بئس ما أنفقت فيه رأسَ المال، كم ذنبٍ لك فعله غيرك فهُتك ذاك [(٧)] وسُترت.

ويحك! احذر نِفَار النعم فما كل شاردٍ بمردود، إذا وصلتْ إليك أطرافها فلا تنفِّر أقصاها بقلة الشكر.

لك نفسٌ يسرُّها … كلُّ شيء يضرها
هي تفنى على الزما … ن ويزْداد شرُّها

* * *

قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ... ﴾ [(٨)]

البعث: إخراج أهل القبور أحياءً عند النفخة الثانية في الصُّور، وذلك أن اللَّه تعالى

---

(١) ب: من زلة منك لا تجانبها.
(٢) ب: يعقبك.
(٣) ب: لو زاحمت. محرفة.
(٤) ب: وعيني تراك تستحي.
(٥) ب: لو علم.محرفة وما أثبته من ت.
(٦) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق.
(٧) ت: ذلك.
(٨) سورة المجادلة: ٦.

ينزل من السماء ماءً فتنبت الأجساد في القبور، فتعود كما كانت، ثم ينفخ إسرافيل في الصور فتنشق القبور، فيقومون جميعًا إلى العرض والحساب ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ... ﴾ من المعاصي وتضييع الفرائض ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ... ﴾ أي حفظه ﴿ وَنَسُوهُ... ﴾.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهَب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن مُحرز، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله ﷻ يُدْني المؤمن ويضع عليه كَنَفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » [١]. (أخرجاه في الصحيحين).

وبالإسناد حدثنا أحمد قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سُويد، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل يومَ القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتُعرض عليه ويُخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت كذا وكذا وهو مقرٌّ لا يُنكر وهو مُشفق من كبارها فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، قال: فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه. (انفرد بإخراجه مسلم) [٢].

وفي أفراده من حديث الشَّعبي، عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، وقال: هل تدرون ممَّ أضحك؟ قال: فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه ﷻ يقول: يا رب ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: إني لا أُجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا فعنكن كنت أناضل [٣].

إخواني: ما من الموت بد، باب البقاء في الدنيا قد سُد، كم قدٍّ في القبر قد قُدّ، كم خدٍّ في الأخدود قد خُد، يا من ذنوبه لا تُحصى إن شككت عدّ، يا من أتى بابَ الإنابة كذابًا فُردّ، يا شدة الوجل عند حضور الأجل، يا قلة الحيل إذا حل الموتُ ونزل،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب رقم : ٢.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم : ٣١٤، ط عبد الباقي وأوله، « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتى به... إلخ ».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم : ٢٩٦٩، ط فؤاد عبد الباقي.

يا قوة الأسى إذا نوقش من أسا، يا خجل العاصين، يا حسرة المفرطين، يا أسف المقصرين، يا سوء مصير الظالمين، كيف يصنع مَنْ بضائعه القبائح؟! كيف يفعل من شهوده الجوارح؟! عدموا واللَّه الوسيلة، وأظلمت في وجوههم وجوه الحيلة، أصبحوا جِثيًّا على رُكبهم، مأسورين بما في كُتبهم، لا يدرون ما يُراد بهم، قد جُمعوا في صعيد ينتظرون حلولَ الوعيد، والأرض بالخلق كلهم تميد، والعبراتُ على العثرات تزيد، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [(١)]. زفرتْ واللَّه الحُطمة في وجوه الظلمة فذلوا بعد العظمة، وخرسوا عن كلمة.

* * *

إخواني: أيام أعماركم قصيرة، وقد ضاعت على بصيرة، وآخر الأمر حَفيرة فيها أهوال كثيرة، يا مشاهدًا حاله بحال الحَيرة، ألك عُدة أم لك ذخيرة، هذا المَلَك يحصي عملك حرفًا حرفًا، ويُملي فيملأ بالخطايا صُحفًا، يا من جمرات حرصه على الهوى ما تُطْفى، وقد أشفى به مرضٌ ما أراه يُشفى، إلام هذا التعليل، كم نقوِّمك وتميل، متى يبرأ هذا العليل، يا مقابلًا جميلنا بغير الجميل، آن رحيلًا فأعد الزاد، آن معادًا فاذكر المعاد، ألا يهلك العمر وإن تمادى؟!

أيها المعرض عنا تذكَّر عَرْضك، أيها الراقد في غفلته اذكر غَمْضك، أيها الذليل بالمعاصي اذكر عرضك، كم عتاب ما أمْرضك ولا أمضَّك.

ويحك! استصغر أملًا يمنعه الفوْت، استقصرْ أجلًا يقطعه الموت.

أقبل على العقل مستشيرًا فكفى به نصيحا ونذيرًا، إنه ليحل نقاب الشُّبه بأنامل البيان.

أَوَلَا يعلم العاصي أنه قد غرس لنفسه شجرة يتساقط عليه كل حين منها ثمرة ندم من غير هَزّ؟! فإذا قام في القيامة شاهدَ أغصانَ ما غرس، قد تعاظمت حتى أخذت بَرّ البر، فإن غُفر له لم يزل حييًّا مما جنى، وإن عوقب ذاق مُرَّ الجنَى، وهذا الأسى الطويل إنما جرّه جَرْجرة الهوى، ولو قنع بالطاق التي تَسْمح بها عينُ المباح لارتوى، من غير أذى.

المرءُ [(٢)] في تأخير مُدته [(٣)] ... كالثوب يَخْلَق بعد جِدته

ومصيره من بعد معرفةٍ ... للناس ظُلمة بيتِ وحدته [(٤)]

---

(١) سورة البروج: ١٢.

(٢) الأبيات لأبي العتاهية، ديوانه : ص ٥٧.

(٣) الديوان: بيت لذته.

(٤) البيت في الديوان:

ومصيره من بعد مدته ... بليًا وذا من بعد وحدته

وما هنا أصح.

مَنْ مات مالَ ذوو مودته عنه وحالُوا عن مودته
عجبًا لمنتبهٍ يضيِّع ما يحتاج فيه ليوم رقْدته
أزف الرحيلُ ونحن في لعب ما نستعد له بِعُدته

قال عُتبة الغلام: رأيت الحسنَ عند الموت وقد قهقه، وما رأيته قط تبسم، فقلت: يا أبا سعيد من أي شيء تضحك؟ فما كلمني لثقل حاله، فلما مات رأيته في المنام فقلت: يا معلم الخير من أي شيء ضحكت؟ فقال: من أمرِ ملك الموت، إنه نودي وأنا أسمع: شدِّد عليه فإنه بقي عليه خطيئة، فضحكت لذلك، فقلت: ما كانت؟ فلم يجبني.

وا أسفا: هذا حالُ الحسن وما عُرف منه إلا الحسن، فكيف يكون حالنا إذن مع ما لنا من مِحن؟!

* * *

يا من قد لعب الهوى بفهمه، وسوَّدت شهواتُه وجهَ عزمه، يا مبْنيًّا عن عزم الباني على هدْمه، يا محمولاً إلى البِلى لتمزيق لحمه، أما يكفيه مُنذرًا وهنُ عظمه، كم نقرِّبك وأنت متباعد، كم نوقظك وأنت في اللَّهو راقد، يا أعمى البصيرة وما له قائد، يا قتيل الأمل لست بخالد، يا مفرِّق الهموم والمقصود واحد، إن لاحت الدنيا فشيطانٌ مارد، تقاتل عليها فتكرُّ وتطارد، فإذا جاءت الصلاة فقلبٌ غائب وجسم شاهد، وتقول: قد صليت أتبهرج على الناقد، ما تعرفنا إلا في أوقات الشدائد، أمَا ذنوبك كثيرة فما للطرف جامد، ملَكك الهوى ونحن نضرب في حديد بارد.

وربما غُوفص [1] ذو غفلة أصحَّ ما كان ولم يَسْقَمِ
يا واضعَ الميت في قبره خاطبك القبرُ فلم تفهمِ

* * *

كم ليلة سهرتها في الذنوب، كم خطيئة أمليتها في المكتوب، كم صلاة تركتها مهملًا للوجوب، كم أسبلتَ سترًا على عتبة عيوب، يا أعمى القلب بين القلوب، ستدري دمعَ من يجري ويذوب، ستعرف خبرك عند الحساب والمحسوب، أين الفرار وفي كف الطالب المطلوب، تنبه للخلاص أيها المسكين، أعتق نفسك من الرقِّ يا رهين، اقلع أصلَ الهوى فعِرْق الهوى مكين، احذر غرور الدنيا فما للدنيا يمين، يا دائم المعاصي سجن الغفلة سجِّين، تَثِبُ على الخطايا ولا وثبة تنِّين، كأنك بالموت قد برز من كمين،

---

(١) غوفص: فوجئ على غرة.

وآن الأمر فوقعت في الأنين، واستبنت أنك في أحوال عنّين، كيف ترى حالك إذا عبثت الشمال باليمين، ثم نُقلت ولُقبت بالميت الدفين، وا أسفًا لعظم حَيرتك ساعة التلقين، يا مستورًا على الذنوب غدًا تنجلي وتبين، متى هذا القلب القاسي يرعوي ويلين؟! عجبًا لقسوته وهو مخلوق من طين.

وقبل شُخوص المرء يجمع زاده ... وتُملأ من قبل الرِّماء الكنائنُ

حصادك يومًا ما زرعتَ وإنما ... يدان المرء يومًا بما هو دائنُ [(١)]

ساعات السلامة بين يديك مبذولة، سابقْ سيوفَ الآفات فإنها مسلولة، وبادر ما دامت المعاذير مقبولة، واقرأ علومَ النجاة فهي منقوطة مشكولة، وافتح عينيك فإلى كم بالنوم مكحولة، وغيِّر قبائحك المرذولة، يا لها نصيحة غير أن النفس على الخلائق مجبولة.

* * *

سجع:

ويح العصاة لقد عَجِلوا، لو تأملوا العواقب ما فعلوا، أين ما شربوا أين ما أكلوا؟! بماذا يجيبون إذا أُحضروا وسُئلوا؟! ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

آه لهم في أي حَزْن من الحُزن نزلوا؟! لقد جدّ بهم الوعظ غير أنهم هزلوا، ما نفعهم ما اقتنوا من الدنيا وعزلوا، إنما كانت ولايةُ الحياة يسيرًا ثم عُزلوا، وانفردوا في زاوية الأسى واعتزلوا، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذُهلوا ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

ما نفعتهم لذاتهم إذ خرجت ذواتُهم، لقد جُمعت زلاتهم فحوتْها مكتوباتهم، فلما عاينوا أفعالهم خجلوا ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

ذهبت من أفواههم الحلاوة، وبقيت آثار الشقاوة، وحُطّوا إلى الحضيض من أعلى رباوة، وحملوا عِدْلَي الموتِ والفوتِ والحسرةُ علاوة، فأعجزهم والله ما حملوا ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

سجع على قوله تعالى: ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾:

اجتمعت كلمة إلى نظرة، إلى خاطر قبيح وفكرة، في كتاب يحصي حتى الذَّرة، والعصاةُ عن المعاصي في سكْرة، فجَنوْا مِنْ جَنَى ما جنوا ثمار ما غرسوه ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾.

---

(١) البيتان لسابق البربري. ديوانه المخطوط.

كم تنعَّم بمال المظلوم الظالم، وبات لا يبالي بالمظالم، والمسلوبُ يبكي ويُبكي الحمائم، وما كفاهم أخذُ ماله حتى حبسوه ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾.

أين ما كانوا جمعوه؟! كم لِيمُوا وما سمعوه، كم قيل لهم لو قبلوه، ذهب العَرَضُ غير أن العِرْض دنسوه ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾.

كم كاسب للمال من حرامه وحلاله، كان يحاسب شريكه على عُود خِلاله، ولا ينفق منه شيئًا في تقويم خلاله، فلما وقع صريعًا بين أشباله اشتغلوا عنه بانتهاب ماله، ثم في اللحد نكَّسوه ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾.

جعلنا اللَّه وإياكم من الذين عرفوا الحق فاتبعوه، وزجروا الهوى عنهم وردَعوه، إنه قريب مجيب.

* * *
* *
*

المجلس الخامس والعشرون

في قصة مريم وعيسى عليهما السلام

الحمد للَّه الذي لا شأن يشغله، ولا نسيان يُذهله، ولا قاطع لمن يصله، ولا ناصر لمن يخذله، جل عن مِثل يطاوله، أو ندٍّ يشاكله، أو نظير يقابله، أو مُناظر يقاوله، يُثيب بالعمل القليل ويقبله، ويحلم عن العاصي فلا يعاجله، ويدَّعي الكافرُ شريكًا ويمهله، ثم إذا بطش هلك كسرى وصواهله، وذهب قيصرُ ومعاقله، استوى على العرش وما العرش يحمله، وينزل لا كالمنتقل تخلو منازله، هذه جملةُ اعتقادنا وهذا حاصله، من ادعى علينا التشبيه فاللَّه يقابله، مذهبنا مذهب أحمد ومن [1] كان يطاوله؟! وطريقنا طريق الشافعي وقد عُلمت فضائله، ونرفض قول جَهْم وقد عرف باطله، ونؤمل رؤية الحق ومتى خاب آمله؟! لقد حنَّتْ حَنَّة إلى ولد فسألت من لا يُرد سائله، فيا لها من مكفول ما تعنَّى كافله، فلما بلغت حملت بمن شَرُف حامله، فعجبت من ولد لا من والدٍ يشاكله، فقيل: هُزي إليك فهزت جِذْعًا يابسًا تزاوله، فأخرج في الحال رُطبًا رطبًا يلتذ آكله، فاستدلت على تكوين ولد تحمد شمائله، فالنصارى غلتْ واليهود عتت ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [2].

أحمده حمدًا أُديمه وأواصله، وأصلي على رسوله محمد الذي ارتجت ليلة ولادته أعالي الإيوان وأسافله، وعلى أبي بكر ثاني اثنين فاعرفوا مَن قائله، وعلى عمر الذي صفا الإسلام بجِدِّه وعَذُبت مناهله، وعلى عثمان الذي زارته الشهادة وما تعبت رواحله، وعلى عليٍّ بحر العلوم فما يدرك ساحله، وعلى العباس أقرب الخلق نسبًا فمن يساجله.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ...﴾ [3]

الكتاب: القرآن، ومريم اسم أعجمي وكان اسم أمها حَنَّة، فتمنت ولدًا فلما حملت جعلت حملها مُحررًا خادمًا للكنيسة، فلما وضعتها أنثى حملتها إليهم فكفلها زكريا.

فلما بلغت خمس عشرة سنة ﴿ٱنتَبَذَتْ... ١٦﴾ أي تنحت عن أهلها ﴿مَكَانًا

(١) ب: وما كان. (٢) سورة مريم: ٢٧. (٣) سورة مريم: ١٦.

شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ ﴾ مما يلي المشرق ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا... ﴿١٧﴾ ﴾ أي حاجزًا يمنع من النظر، قال ابن عباس: ضربت سترًا لتَطَّهر من الحيض وتمتشط، وقال السُّدِّي: احتجبت بالجدار.

﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا... ﴿١٧﴾ ﴾ وهو جبريل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا... ﴿١٧﴾ ﴾ أي تصوَّر في صورة البشر التام الخلقة، قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب جعْد قطط [1] حين اخضر شاربه.

﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ ﴾ المعنى: إن كنت تتقي الله فستنتهي بتعوّذي.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ... ﴿١٩﴾ ﴾ أي فلا تخافي ﴿ لِأَهَبَ لَكِ... ﴿١٩﴾ ﴾ لك أي أرسلني ليهب ﴿ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ ﴾ أي طاهرًا من الذنوب ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ... ﴿٢٠﴾ ﴾ أي كيف يكون ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ... ﴿٢٠﴾ ﴾ تعني الزوج ﴿ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ والبغي الفاجرة.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي يسير أن أهب لك غلامًا من غير أب ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي دلالة على قُدرتنا ﴿ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي لمن اتبعه وآمن به ﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ﴾ أي محكومًا به مفروغًا منه، قال ابن عباس: فنفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فاستمر بها حملُها.

وفي مقدار حملها سبعة أقوال:

أحدها: أنها حين حملت وضعت، قاله ابن عباس.

والثاني: حملته تسع ساعات، قاله الحسن.

والثالث: تسعة أشهر، قاله سعيد بن جُبير.

والرابع: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصوِّر في ساعة، ووضعته في ساعة، قاله مقاتل.

والخامس: ثمانية أشهر فعاش، ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر، فكان هذا آية، حكاه الزجاج.

والسادس: ستة أشهر، حكاه الماوردي.

والسابع: ساعة واحدة، حكاه الثعلبي.

قال وهب: أصبحت الأصنام ليلة ولادة عيسى منكسة على رءوسها كلما ردوها انقلبت، فحارت الشياطين وطاف إبليس الأرض ثم جاء فقال: رأيت مولودًا فلم أستطع أن أدنو إليه.

---

(١) الجعد: القصير الشعر، والقطط: بمعناه.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ... ﴾ أي بالحمل ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي: بعيدًا، قال ابن إسحاق: مشت ستة أميال فرارًا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ... ﴾ [المعنى: فجاء بها] [١] والمخاض: وجع الولادة ﴿ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ... ﴾ وهو ساق نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا سعف، ﴿ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا... ﴾ اليوم وهذا الأمر، قالته حياءً من الناس ﴿ وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي ليتني لم أكن شيئًا.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ... ﴾ وفيه قولان: **أحدهما**: الملَك، وكانت على نشز. **والثاني**: عيسى لما ولدته، والسريّ: النهر الصغير، وكانت قد حزنت لجدْب مكانها وخلوه عن ماء أو طعام، فقيل لها: قد أجرينا لك نهرًا، وأطلعنا لك رُطبًا، وفي ذلك آية تدل على قدرة الله ﷻ في إيجاد عيسى ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ... ﴾ الباء زائدة ﴿ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ وهو الطري المجتنى ﴿ فَكُلِي... ﴾ من الرطب ﴿ وَٱشۡرَبِي.. ﴾ من النهر ﴿ وَقَرِّي عَيۡنًا... ﴾ بولادة عيسى، والصوم: الصمت. وإنما أمرت بالسكوت؛ لأنها لم يكن لها حُجة عند الناس.

وفي سنها يومئذ ثلاثة أقوال:

أحدها: خمس عشرة سنة، قاله ابن عباس ووهب.

والثاني: اثنتى عشرة سنة، قاله زيد بن أسلم.

والثالث: ثلاث عشرة [سنة] [٢] قاله مقاتل.

قال ابن عباس: فلما مضت عليه أربعون يومًا وطهرت من نفاسها جاءت إلى قومها بعيسى، فبكوا، وكانوا صالحين، وقالوا: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي عظيمًا ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ... ﴾ **وفيه أربعة أقوال:**

أحدها: أنه أخ لها من أمها، كان أمْثَلَ فتًى في بني إسرائيل.

والثاني: أنها كانت من بني هارون أخي موسى.

والثالث: أنه رجل صالح من بني إسرائيل شبهوها به في الصلاح، وهذه الأقوال عن ابن عباس.

والرابع: أنه رجل من فساق بني إسرائيل، قاله وهب.

﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ... ﴾ يعنون عمران ﴿ ٱمۡرَأَ سَوۡءٍ... ﴾ أي زانيًا ﴿ وَمَا كَانَتۡ

(١ ، ٢) من ت.

أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي زانية ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي أومأت إلى عيسى أنْ كلموه، وكان عيسى قد كلمها قبل قومها وقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ورسوله، فلما أشارت أن كلموه تعجبوا وقالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ وكان زائدة، فنزع فمه من ثديها وجلس وقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ... ﴿٣٠﴾ ﴾ قال عكرمة: قضى أن يؤتيني الكتاب، وقال غيره: علم التوراة وهو في بطن أمه.

وأوحى الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث سنين وأنزل عليه الإنجيل، وكان يبرئ الأكمه والأبرص، وكان يجتمع على بابه من المرضى خمسون ألفًا فيداويهم بالدعاء، فاتبعوه وسألوه أن يُحْيِيَ لهم سامَ بن نوح، فأتى قبره فناداه فانشق القبر وقام، فقال: هذا عيسى ابن مريم فاتبعوه، ثم قال: سَلْ ربك أن يردني كما كنت، فسأل [ربه] (١) فعاد.

وكان عيسى عليه السلام يلبس الصوف ويتخذ نعلين من لحاء الشجر شراكهما ليف، وكانت مريم تلتقط (٢) فإذا عُلم بها نُثر لها فتتحول إلى مكان لا تُعرف فيه.

وكان يقول: لباسي الصوف، وشعاري الخوف، وبيتي المسجد (٣)، وطيبي الماء، وأُدْمي الجوع، ودابتي رجلاي، وسراجي بالليل القمر، ومُصْطلاي (٤) في الشتاء مشارق الشمس، وفاكهتي وريحاني بُقول الأرض، وجلسائي المساكين.

وكان يقول لأصحابه: أهينوا الدنيا تكرمْكم (٥) الآخرة، إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون.

أخبرنا الحسن بن أحمد، عن محمد بن سباع النميري، قال: بينا عيسى ابن مريم عليه السلام يسيح في بعض بلاد الشام اشتد به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب شيئًا يلجأ إليه فرفعت له خيمة من بعيد فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا في الكهف أسد، فرفع يده ثم قال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى، ولم تجعل لي مأوى!

فأجابه الجليل: مأواك عندي في مستقر رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء حلَّيتها [بيدي] (٦) ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام، كل عام منها كعمر الدنيا، ولآمرن مناديًا ينادي: أين الزاهدون في الدنيا، زوروا عُرس الزاهد عيسى ابن مريم (٧).

وقال أبو علي الجَلْد (٨): لقي عيسى ابن مريم عليه السلام إبليس فقال: أسألك بالحي القيوم

---

(١) من ت. (٢) ب: تلفظ. (٣) ت: المساجد.
(٤) ب: وصلاتي. (٥) ب: تكرم الآخرة عليكم. وما أثبته من ت.
(٦) من ت. (٧) لا صحة لهذه المرويات التي وضعها الزهاد وبالغوا فيها ما شاءوا.
(٨) ت: وقال أبو الجلد.

الذي جعل عليك اللعنة ما الذي يسل جسمك ويقطع ظهرك؟ فضرب نفسه في الأرض ثم قام فقال: لولا أنك أقسمت عليَّ بالحي القيوم ما أخبرتك، أما الذي يقطع ظهري فصلاة الرجل في بيته نافلة وفي الجماعة، وأما الذي يسلُّ جسمي فصهيل الفرس في سبيل اللّٰه!

وقال ابن عباس: دخل عيسى عليه السلام خوْخةً فدخل وراءه رجل من اليهود فألقي عليه شبه عيسى فقتلوه وصلبوه.

قال علماء النقل: رُفع لثلاث ساعات من النهار وأُلبس النور وكُسي الريش وقطعت عنه لذة المطعم والمشرب فأصبح إنسيًّا ملكيًّا.

وقال بعضهم: رفع ليلة القدر وكان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة وأشهرًا، وماتت أمه بعد رفعه بست سنين، وكان عمرها نيفًا وخمسين سنة.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء بشرقي دمشق، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويقاتل الناس على الإسلام، ويقتل الدجال ويتزوج ويولد له، ويمكث خمسًا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن مع رسول اللّٰه ﷺ (١).

* * *

الكلام على البسملة

حُكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
بَيْنا يرى الإنسان فيها مُخبرًا ... حتى يُرى خبرًا من الأخبارِ
طُبعت على كدَرٍ وأنت تريدها ... صَفْوًا من الأقذار والأكدارِ
ومكلِّف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذْوة نارِ
وإذا رجوتَ المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار
فالعيش نومٌ والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيالٌ ساري
والنفس إنْ رضيتْ بذلك أو أبت ... منقادةٌ بأزمَّة المقدار
فاقضوا مآربكم عَجَالى إنما ... أعماركم سفرٌ من الأسفار
وتراكضوا خيلَ الشباب وبادروا ... أن تُسترد فإنهن عواري
والدهرُ يخدع بالمنى ويُغصُّ إن ... هنَّى ويهدم ما بنى ببوار

---

(١) جاء بعضه في رواية مسلم في صحيحه، حديث رقم: ٢٩٣٧. وابن ماجه، حديث رقم: ٤٠٧٥، والترمذي، حديث رقم: ٢٢٤٠. وأبو داود، حديث رقم: ٤٣٢١.

قد لاح في ليل الشباب كواكبٌ إنْ أُمهلتْ عادت إلى الإسفارِ [١]

* * *

لقد خرقت المواعظ المسامع، وما أراه انتفع [٢] السامع، ولقد بدا نور الهدى في المَطَالع لكنه قد عمي المُطالع، ولقد بانت عِبَرُ مَنْ غَبَر لمن عبر المصارع [٣] فما بالها ما انسكبت المدامع، يا من شبابه قد مضى [٤] هل ما مضى من العمر راجع، تيقَّظْ تيقُّظَ الحذرِ ثم اعتذر وراجع، فالهول شديدٌ والحساب دقيق والطريق شاسع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [٥].

أيها المطمئن إلى الدنيا وهي تطلبه بذَحَل [٦]، قد مرضتْ عينُ بصيرته فيها فما ينفع الكُحل، يتبختر في رياضها وما ثمّ إلا وحَل، اقبل نصحي واشدد الرَّحْل عن محل المحْل، وتأمَّر على نفسك فللنحل فحْل.

أيـا صـاحِ نَـهـى الـصـاحـي بـحـبـلٍ مـنـك مُـدَّاركْ [٧]
إلـى كـم مـع دنـيـاك وتـلـك الـمـومـس الـفـاركْ [٨]
تـخـون الأولَ الـعـهـدَ فـحـلَّ الـعـرس أو شـاركْ
مـتـى يُـلـحـقـني بـالـركـبِ هـذا الـجـمـلُ الـبـاركْ
ألا قـد ذهـب الـنـاسُ ونِـضْـوي رازمٌ بـاركْ [٩]

* * *

آه لنفس انفصلت ساعاتها وما حصلت طاعاتها، تَبِعَتْها تَبِعاتها وما نفعتها دُعاتها، شهورها وجُمعاتها ومجالسها وجماعاتها، ومذكروها ودعاتها وقصائدها ومسجَّعاتها، والدنيا ولسعاتها، والمحن وجزعاتها، والمنونُ ووقعاتها، وما لانت مع هذا مُمتنعاتها، ولا خفّت من رقاد الغفلة هجعاتها، يا من قد شابَ أقبل على شانك، واكشف هذا الحجاب وأسبل دمع شانك [١٠]، خلعتَ خلعة الشباب وكانت عارية، ولبست ثوبًا تخلعه في البرية، فدع الهوى ودع كل بلية، فقد أنار الهدى بمصابيح جلية.

---

(١) من قصيدة لأبي الحسن التهامي يرثي بها ولده، أورد صاحب الكشكول منها إحدى وثلاثين بيتًا وذكر أنها تبلغ المائة. الكشكول : ٢/٢٨٠، ط عيسى الحلبي.
(٢) ت: وما أراه استمع. (٣) ت: عبر من المصارع. (٤) ت: في مضى.
(٥) سورة الطور: ٧. (٦) الذحل: الثأر. (٧) مدارك: متدارك.
(٨) الفارك: المبغضة. (٩) النضو: البعير المهزول. (١٠) شانك: عيبك.

سار الشبابُ فلم نَعْرِفْ له خبرًا ... ولا رأينا خيالًا منه مُنتابا
وحُق للعيسِ لو نالت بنا بلدًا ... فيه الصبا كوْن عود النَّدّ أقتابا
ألقى إليه قميص الشيب [1] رهن بلى ... ثم استجد قميص الشيب مجْتابا
ما زال يَمْطِل دنياه بتوبته ... حتى أتته مناياه وما تابا

* * *

كان الحسن يقول: يا بن آدم بعْ عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعًا، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعًا، الثَّواء هنا قليل، وقد أُسرع بخياركم فماذا تنتظرون؟ المعاينة؟ فكأنها والله قد كانت، وإنما يُنتظر بأولكم أن يلحق بآخركم.

يا بن آدم دِينَك دينَك، فإنْ سَلِم لك دينك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنها نار لا تُطفى ونفس لا تموت، إنك معروض على ربك ومرتَهن بعملك، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتيك الخبر، يا بن آدم ترْك الخطيئة أهون من معالجة التوبة.

يا بن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا فتعلقه بشر مُعلَّق، قطِّع حبالها وأغلق عنك بابها، حسبك ما بلَّغك المحل.

استغفر الله منيبًا خاشعًا ... واهجر لَمِيسَ واجتنب ديارها
من زاره عاتي الصِّبا فإنما ... زار من الأسد الجُثُوم دارها
وأفضل الأُزر إزارُ عفةٍ ... إذا الرجال [2] طرحَتْ آزارها
من أبَّر النخلَ إبار مُحسن ... أحمد في إرطابها آثارها
والعقل خيرٌ لا يُخاف غشه ... إذا الرجال اتهمتْ أخبارها
فأجبِر النفسَ على التقوى ولا ... تقل لم أستطع إجبارها

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ [3]

قرأ الجمهور: ﴿ نَصُوحًا ﴾ بفتح النون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمها، قال الزجاج:

---

(١) الأصل: السرح.
(٢) الأصل: إذا القتال.
(٣) سورة التحريم: ٨.

من فتح فعلى صفة التوبة، والمعنى توبة بالغة في النصح، وفعول من أسماء الفاعلين التي تُستعمل للمبالغة في الوصف، يقال: رجل صبور وشكور، ومن قرأ بالضم فمعناه: يُنصحون بها نصوحًا يقال: نصحتُ له نُصحًا ونصاحة ونُصوحًا.

قال عمر بن الخطاب: التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدث نفسه أن لا يعود.

وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال: ندمٌ بالقلب، واستغفار باللسان، وتركٌ بالجوارح، وإضمار أن لا يعود.

وقال ابن مسعود: التوبة النصوح تكفر كل سيئة، ثم قرأ هذه الآية.

* * *

اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمُه زاد مقْته لنفسه على قُبح زلته، فمنهم من قوي مقته لها ورأى تعريضها [للقتل] [١] مباحًا في بعض الأحوال فعرَّضها له، كما فعل ماعز والغامدية.

أخبرنا ابن عبد الواحد، أنبأنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثني بشير بن المهاجر، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل يقال له: ماعز بن مالك، فقال: يا نبي الله إني قد زنيت وأنا أريد أن تطهرني فطهرني، فقال له النبي ﷺ: « ارجع » فلما كان من الغد أتاه أيضًا فاعترف عنده بالزنا فقال له النبي ﷺ: « ارجع » ثم أرسل النبي ﷺ إلى قومه فسألهم عنه فقال: « ما تعلمون من ماعز بن مالك الأسلمي؟ هل ترون به بأسًا وما تنكرون [٢] من عقله شيئًا؟ » قالوا: يا نبي الله ما نرى به بأسًا ولا ننكر من عقله شيئًا، ثم عاد إلى النبي ﷺ الثالثة فاعترف عنده بالزنا وقال: يا نبي الله طهرني. فأرسل النبي ﷺ إلى قومه أيضًا فسألهم عنه فقالوا له كما قالوا في المرة الأولى: ما نرى به بأسًا وما ننكر من عقله شيئًا، ثم رجع إلى النبي ﷺ الرابعة فاعترف عنده بالزنا، فأمر النبي ﷺ فحفر له حفيرة [٣] فجعل فيها إلى صدره ثم أمر الناس أن يرجموه.

قال بريدة: وكنت جالسًا عند النبي ﷺ فجاءته امرأة من غامد فقالت: يا نبي الله، إني قد زنيت وإني أريد أن تطهرني، فقال لها النبي ﷺ: « ارجعي »، فلما كان من الغد أتته أيضًا فاعترفت عنده بالزنا فقال لها: « ارجعي »، فلما أن كان من الغد أتته فاعترفت

---

(١) سقطت من ت. (٢) ت: أو تنكرون. (٣) ب: حفرة.

عنده بالزنا وقالت: يا نبي الله طهِّرْني فلعلك أن تردَّني كما رددتَ ماعز بن مالك فوالله إني لحُبلى من الزنا، فقال لها النبي ﷺ: « ارجعي حتى تلدي »، فلما ولدت جاءت بالصبي تحمله فقالت: يا نبي الله، هذا قد ولدتُ قال: « فاذهبي حتى تفطميه »، فلما فطمته جاءت بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: يا نبي الله هذا قد فطمته، فأمر النبي ﷺ بالصبي فُدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها حفيرة فجعلت فيها إلى صدرها، ثم أمر الناس أن يرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدمُ على وجه خالد فسبَّها، فسمع النبي ﷺ سبَّه إياها فقال: « مهلًا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مكس [١] لغفر له »، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت. (انفرد بإخراج الحديثين مسلم) [٢].

وقد أخرج في بعض الطرق أن ماعزًا قال لرسول الله ﷺ: طهرني. فقال له: « ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه »، فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني فقال: « ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه »، فرجع ثم جاء فقال: طهرني، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: « مم أطهرك؟ » قال: من الزنا، فلما رجمه قال: « لقد تاب توبةً لو قُسمت بين أمةٍ لَوَسِعَتْهُمْ » [٣].

* * *

فانظر إلى مقت هؤلاء أنفسَهم حتى أسلموها إلى الهلاك غضبًا عليها لما فعلت.

ومن التائبين [٤] من لم يجزْ له التعريض بقتلها، فكان [٥] ينغِّص عيشها.

قال بعض السلف: رأيت ضيغمًا العابد قد أخذ كوزًا من ماء بارد فصبه في الحُب واكتال غيره، فقلت له في ذلك فقال: نظرتُ وأنا شاب فجعلت على نفسي ألا أذيقها الماء البارد، أنغّص عليها أيامَ الحياة [٦].

* * *

يا نادمًا على الذنوب أين أثرُ ندمك؟! أين بكاؤك على زلَّة قدمك؟! أين حَذَرك من

---

(١) المكس: الظلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي الأسواق في الجاهلية.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم : ١٦٩٥، ١٦٩٦. ط عبد الباقي.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم : ١٦٩٦.

(٤) ت: ومن الناس. (٥) ت: وكان.

(٦) لا يجيز الإسلام تحريم طيبات الحياة ولا يرى التطرف في زجر النفس إلى حد الحرمان من المباحات التي جعل الله فيها عونًا على عبادته وطاعته، ولكن مناهج التربية عند الأقدمين كان يسودها بعض ما كان يعرف عند المترهبين.

أليم العقاب [١]؟! أين قلقك من خوف العتاب [٢]؟! أتعتقد أن التوبة قول باللسان؟! إنما التوبة نار تحرق الإنسان، جرِّد قلبك من الأقذار، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حلِّه حُلة الانكسار، ثم أقمْه على باب الدار.

لهج بعضُ العباد بالبكاء، فعوتب على كثرته فقال:

بكيتُ على الذنوب لعِظْم جُرْمي ... وحُقَّ لكل من يعصي البكاءُ
فلو أن البكاء يردُّ همي ... لأسعدتِ الدموعَ معًا دمائي

* * *

اعلم أن التائب المحقِّق يشغله تنظيف ما وسخ، والحزن على ما فرط عن تصوير [٣] زلة ثانية.

[يا هذا] [٤] اكتب قصة الرجوع بقلم النُّزوع بمداد الدموع، واسعَ بها على قدم الخضوع إلى باب الخشوع، وأتْبعها بالعطش والجوع، وسلْ رفعها فرُبَّ سؤال مسموع، كم هُتك ستر من فعل خطيئة قد فعلْتَها وسُترت، فابكِ على كثرة الذنب أو [على] [٥] قلة الشكر.

لئن جلَّ ذنبي وارتكبتُ المآثما ... وأصبحتُ في بحر الخطيئة عائما
أجرِّر ذيلي في مُتابعة الهوى ... لأقضي أَوْطَارَ البطالة هائما
فها أنا ذا ياربِّ أقررتُ بالذي ... جنيتُ على نفسي وأصبحتُ نادما
أجلُّ ذنوبي عند عفوك سيدي ... حقيرٌ وإن كانت ذنوبي عظائما

* * *

تَشَبَّثْ بذيل الحلم، وصِحْ بصاحب العفو لعل شفيع الاعتراف يسأل في أسير الاقتراف.

ذنبي إليك عظيمٌ ... وأنت للعفو أهلُ
فإن عفوتَ ففَضْلٌ ... وإن أخذتَ فعدْلُ

[يا هذا] مناجاتك مَنْجاتك، وصلاتك صِلاتك، نادِ في نادي الأسحار والناس نائمون: يا أكرم من أمّله الآملون.

عليَّ دينٌ ثقيل أنت قاضيه ... يا من يُحملني ذنبي رجائيه
الحالُ مُرْهِقة والنفسُ مُشْفقة ... من دائها المتمادِي أو تداويه

---

(١) ب: العتاب.
(٢) ب: العقاب.
(٣) ب: تصور.
(٤ ، ٥) من ت.

إن طردتني فإلى من أذهب؟ وإن أبعدتني فإليك أنسب، علمتَ ذنبي وخلقتني، ورأيت زللي ورزقتني.

بَرَّني معرُوفكم قبل أبي ... وغذاني برُّكُم قبلَ اللبنْ
وإذا أنتم وأنتم أنتمُ ... لم تَوَلَّوني وتُولوني فمنْ

يا هذا: ماء العين في الأرض حياة الزرع، وماء العين على الخد حياةُ القلب، يا طالب الجنة، بذنب واحد أُخرج أبوك منها، أتطمع في دخولها بذنوب لم تَتُب عنها، إن أمرًا تنقضي بالجهل ساعاته، وتذهب بالمعاصي أوقاته، لخليق أن تجري دائمًا دموعه، وحقيق أن يقلَّ في الدجى هُجوعه.

وا أسفًا لمن ذهب عمره في الخلاف، وصار قلبه بالخطايا في غلاف، لمَّا سُترتْ عن التائبين العواقب فزعوا إلى البكاء واستراحوا إلى الأحزان، كانوا يتزاورون فلا تجري في خلوة الزيارة إلا دموع الحذر.

باحَتْ بِسرِّي في الهوى أدمُعي ... ودلَّت الواشي على موضعي
يا قوم إن كنتم على مذهبي ... في الوَجْد والحزن فنوحوا معي
يحق لي أبكي على زلتي ... فلا تلوموني على أدمُعي

* * *

آه لنفس لا تعقل أمرها قد جهلت قَدْرها، تضيِّع في المعاصي عمرها وتخوض من الذنوب غَمْرها، إلى متى تعصي وكم تتمرد؟! وأقبح من قبيحك أنك تتعمد، يا رديء العزم يا سيئ المقصد، يا نقي الثوب والقلبُ أسود، ما هذا الأمل ولست بمخلَّد؟! أما تخاف من أوعدك وهدد؟! يا مستورًا على القبيح أتقرّ أم تجحد؟! يا من شاب وما تاب هذا الدأبُ مُذْ أنت أَمْرد، يا مشتريًا لذةً تزول بالعذاب السرْمد، يا مرْميًّا في جُبّ الهوى هذا الحبل وما تصعد، باللَّه عليك تأمل نُصحي وتفقَّد، أما الطريق طويلة؟! فاقبل مني وتزوَّد، تخلص من أسْر الهوى، فإلى كم مقيَّد؟! ميز ما يبقى بما يفنى ثم اطلب الأجْود، ما أرى قولي يؤثر فيك ولو دُرس مجلَّد، أظرف من فعلك قلةُ فهمك وأنت تتبغدد، أسفًا لأيام مضت في الذنوب وتولّت، تحكَّمت فيها النفسُ فأفسدتها إذ تولت، وعلى ليالٍ كَست الصحائف لوْنَها فوكستْ وأذلت، وعلى ساعات في طِلاب الهوى هوت واضمحلت، حسرةٌ عن حسير ذهبت وحلَّت، آه لشيب كان الشباب منه أصلح، ولمفرط يخسر كل يوم ولا يربح، ولمتخبط في ظلام الظلم والصباح قد أصبح.

قد تناهت في بلائي حيلتي ... وبلائي كلُّه من قِبلي
كلما قلْت تجلَّت غُمَّتي ... عُدت في ثانيةٍ لا تنجلي
لعبت بي شهواتي وانقضت ... لي حياتي في غرور الأملِ
وأحلَّت بي ذنوبي سَقَمًا ... كيف بالبُرء منه كيف لي
قد رمتني سيئاتي والهوى ... بسهامٍ فأصابت مقْتلي
وأتى شيبي وحالي كالذي ... كنت فيه في الزمانِ الأولِ

لو رأيت التائب لرأيت جفنًا مقروحًا، تبصره في الأسحار على باب الاعتذار مطروحًا، سمع قول الإله يوحى فيما يوحى ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا... ﴿٨﴾ ﴾.

مطعمه يسير، وحُزنه كثير، ومُزعجه مثير، فكأنه [1] أسير قد رمي مجروحًا، أنحلَ بدنه الصيام، وأتعب قدمه القيام، وحلَّق بالعزم على هجر المنام، فبذل جسدًا وروحًا ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾.

الذل قد علاه والحزن قد وهاه، يذم نفسه على هواه، وبهذا صار ممدوحًا.

أين من يبكي جنايات الشباب التي بها اسودَّ الكتاب؟! أين من يأتي إلى الباب يجد الباب مفتوحًا؟! ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾.

والحمد للَّه وحده.

* * *
* *
*

(١) ت: وكأنه.

المجلس السادس والعشرون

في قصة أهل الكهف

الحمد للَّه الذي لا يتأثر بالمدَى ولا يتغير أبدًا، لم يزل واحدًا أحدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، اختار من شاء فنجاه من الردى، أنقذ أهل الكهف وأرشد [1] وهدى، وأخرجهم بقلق راحَ بهم وغدًا، فاجتمعوا في الكهف يقولون: كيف حالُنا غدًا؟ فأراحهم بالنوم من تعب التعبد مُددًا ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [2].

أحمده ما ارتجز حادٍ وحدًا، وأصلي على محمد أشرف متبوع وأفضل مُقتدى، وعلى أبي بكر المتخذ بإنفاقه عند الإسلام يدًا، وعلى عمر العادل الذي ما جار في ولايته ولا اعتدى، وعلى عثمان الصابر في الشهادة على وقع المُدى، وعلى عليٍّ محبوب الأولياء ومُبيد العدى، وعلى عمه العباس أشرف الكل نسبًا ومحتدًا.

* * *

قال اللَّه ﷻ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا...﴾ [3]

سبب نزولها: أن اليهود سألوا [4] عن أصحاب الكهف فنزلت.

ومعنى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾: أحسبت، والكهف: المغارة في الجبل إلا أنه واسع فإذا صَغُر فهو غار.

وفي الرقيم ستة أقوال:

أحدها: أنه لوحٌ من رصاص كان فيه أسماء الفتية مكتوبة؛ ليعلم من اطلع عليهم يومًا من الدهر ما قصتهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب.

والثاني: أنه اسم الوادي الذي فيه الكهف، قاله قتادة والضحاك.

---

(١) ت: فأرشد.

(٢) سورة الكهف: ١٠ - ١٣.

(٣) سورة الكهف ٩.

(٤) ب: سألوه.

والثالث: أنه اسم القرية التي خرجوا منها، قاله كعب.

والرابع: أنه اسم الخيل، قاله الحسن [١].

والخامس: أن الرقيم الدواة بلسان الروم، قاله عكرمة.

والسادس: أنه اسم الكلب، قاله سعيد بن جبير.

ومعنى الكلام: أحسبتَ أن أهل الكهف كانوا أعجب [٢] آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم.

﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ... ۝١٠ ﴾ أي جعلوه مأوًى لهم، والفتية: جمع فتًى، مثل غُلام وغِلمة، والفتى: الكامل من الرجال.

واختلف العلماء في بدء أمرهم ومصيرهم إلى الكهف على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم هربوا ليلًا من مَلكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام، فمروا براعٍ له كلب فتبعهم على دينهم فأووا إلى الكهف يتعبدون، قاله ابن عباس.

وقال عبيد بن عمير: فقدهم قومُهم فطلبوهم، فعمَّى اللَّه عليهم أمرهم، فكتبوا أسماءهم في لوح: فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان، ووضعوا اللوح في خزانة الملك.

والثاني: أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف فلقيه هؤلاء الفتية فآمنوا به، فطُلبوا فهربوا إلى الكهف، قاله وهب بن منبه.

والثالث: أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم، فخرجوا واجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد، فقال كبيرهم: إني لأجد في نفسي شيئًا ما أظن أحدًا يجده، قالوا: ما هو؟ قال: إن ربي ربُّ السموات والأرض، فتوافقوا فدخلوا الكهف فناموا، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ... ۝١١ ﴾ المعنى: أنمناهم ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ... ۝١٢ ﴾ أي ليعلم خلقُنا، وأراد بالحزبين المؤمنين والكافرين، وكان قد وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم، ومعنى قاموا: خلَوْا.

وكانت الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم وإذا غربت تقرضهم أي تعدل عنهم، **وفي سبب ذلك قولان:**

أحدهما: أن كهفهم كان بإزاء بنات نعْش [٣] قاله الجمهور.

والثاني: أن ذلك كان آية، قاله الزجاج، والفجوة: المتسع.

---

(١) ب: قاله حسن.

(٢) ت: كانوا عجبًا.

(٣) بنات نعش: نجوم.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا... ﴿١٨﴾ ﴾ لأن أعينهم كانت مفتحة وهم نيام لئلا تذوب، قال ابن عباس: كانوا يُقلبون في كل عام مرتين، ستة أشهر على هذا الجنب وستة أشهر على هذا الجنب، وقال مجاهد: بقوا على شق واحد ثلاثمائة عام، ثم قلبوا تسع سنين. والوصيد الفناء والباب.

﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا... ﴿١٨﴾ ﴾ لأنهم طالت شعورهم وأظفارهم جدًّا، قال وهب: خرج الملك وأصحابه في طلبهم فوجدوهم نيامًا، فكانوا كلما أراد أحد أن يدخل أخذه الرعب، فقال قائل للملك: أليس أردتَ قتلهم؟ قال: بلى، قال: فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعًا وعطشًا، ففعل.

فأما سبب بعثهم فقال عكرمة: جاءت أمَّة مسلمة، وكان ملكهم مسلمًا، فاختلفوا في الروح والجسد، فقال قائل: تُبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض، وقال قائل: تبعث الروح والجسد، فشق اختلافهم على المِلك فانطلق فلبس المسوح وقعد على الرماد، ودعا اللَّه تعالى أن يبعث لهم آية تبين لهم، فبعث اللَّه أهل الكهف.

وقال وهب: جاء راع قد أدركه المطر إلى الكهف ففتح بابه ليأوي إليه الغنم، فرد اللَّه إليهم أرواحهم.

قال ابن إسحاق: قعدوا فرحين فسلم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم ما ينكرون، وإنما كهيئتهم حين رقدوا، وهم يرون أن ملكهم في طلبهم، فصلَّوا وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم: انطلق فاستمع ما نُذكر به وابتغ لنا طعامًا، فوضع ثيابه وأخذ ثيابًا يتنكر فيها، وخرج مستخفيًا متخوفًا أن يراه أحد، فرأى على باب المدينة علامة تكون لأهل الإيمان، فخيل إليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف، ورأى ناسًا لا يعرفهم، فجعل يتعجب ويقول: لعلِّي نائم، فلما دخلها رأى قومًا يحلفون باسم عيسى فأسند ظهره إلى جدار وقال في نفسه: واللَّه ما أدري ما هذا، عشية أمس لم يكن على الأرض من يذكر عيسى إلا قُتل، واليوم أسمعهم يذكرونه، لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف، واللَّه ما أعرف مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران وأخرج وَرِقًا وأعطاه رجلًا وقال: بعني طعامًا، فنظر الرجل إلى نقشه فجعل يتعجب، ثم ألقاه إلى آخر فجعلوا يتطارحونه بينهم ويتعجبون ويتشاورون، وقالوا: إن هذا قد أصاب كنزًا، ففَرِق منهم وظن أنهم قد عرفوه، فقال: أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه، فقالوا له: من أنت يا فتى؟ واللَّه لقد وجدت كنزًا فشاركْنا فيه وإلا أتينا بك السلطانَ. فلم يدر ما يقولون فطرحوا كساءه في عنقه وهو يبكي ويقول: فُرق بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما لقيت.

فأتوا به إلى رجلين كانا يدبِّران أمر المدينة فقالا: أين الكنز الذي وجدت؟ قال: ما وجدتُ كنزًا، ولكن هذه وَرِق آبائي ونقْش هذه المدينة وضرْبها، ولكن والله ما أدري ما شأني ولا ما أقول لكم، وكان الورِق مثل أخفاف الإبل فقالوا له: من أنت وما اسم أبيك؟ فأخبرهم، فلم يجدوا من يعرفه فقال له أحدهما: أتظن أنك تسخر منا وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهمٌ ولا دينار، فإني [1] سآمر بك فتعذب عذابًا شديدًا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز، فقال يمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقْتكم [2] قالوا: سل، قال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف على وجه الأرض اليوم ملكًا يسمى دقيانوس، وإنما هذا ملك قد كان منذ زمان طويل، وهلكت بعده قرون كثيرة، فقال: والله ما يصدِّقني أحد بما أقول، لقد كنا فتية وأكرَهنا الملكُ على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجتُ أشتري لأصحابي طعامًا فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي.

فانطلق [معه] [3] أهْلُ المدينة، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أُخذ، فبينا هم يتخوفون ذلك إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل، فظنوا أنهم رسل دقيانوس، فقاموا إلى الصلاة وسلَّم بعضهم على بعض، فسبق يمليخا إليهم وهو يبكي فبكوا معه وسألوه عن شأنه فأخبرهم خبره وقص عليهم الخبر، فعرفوا أنهم كانوا نيامًا بأمر الله تعالى، وإنما أُوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقًا للبعث.

وجاء ملكهم فاعتنقهم وبكى، فقالوا له: نستودعك الله ونقرأ عليك السلام حفظك الله وحفظ مُلكك، فبينا الملك قائم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله ﷻ نفوسهم وحجبهم بحجاب الرعب، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدًا يصلى فيه، وصار عندهم عيد في كل سنة.

وقد نبهت قصتهم على أن من فرَّ إلى الله ﷻ حرسه ولطف به وجعله سببًا لهداية الضالين [4].

* * *

الكلام على البسملة

جـدُّوا فـقـد زُمَّـت مـطـايـاكـم ... لِـنـقْـلـكـم عـن دار دُنـيـاكـم

(١) ت: وإني.

(٢) ب: صدقتم، وما أثبته من: ت.

(٣) من ت.

(٤) ت: لهداية الصالحين.

وحصّلوا [(١)] الزاد لمسراكم ... من قبلِ أن تَدْنو منا ياكم

إيمانكم دعْوى فطُوبى لكم ... إن صحَّ في الإيمان دعواكمْ

يا من يعاتبه القرآن وقلبه غافل، وتناجيه الآيات وفهمه ذاهل، اعرف قدر المتكلم وقد عرفت الكلام، وأحضر قلبك الغائب وقد فهمت الملام.

مكتوب في التوراة: يا عبدي أمَا تستحي مني؟! يأتيك كتابٌ من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتَعْدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفًا حرفًا حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتاب أنزلته إليك وأنت مُعْرض عنه، أفكنتُ أهون عليك من بعض إخوانك؟!

يا عبدي: يقعد إليك بعضُ إخوانك فتُقبل عليه بكل وجْهك، وتُصغي إلى حديثه بكل قلبك، وها أنا مُقبل عليك ومحدّث لك وأنت مُعرض بقلبك عني؟!

كان السلف لمعرفتهم بالمتكلم يلهجون بتلاوة القرآن.

قال عثمان بن عفان ﷺ: لو طَهُرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم.

وكان كهمس بن الحسن يختم في الشهر تسعين ختمة، وكان كُرز بن وبرة يختم كل يوم وليلة ثلاث ختمات.

وكان في السلف من يمنعه التفكر من كثرة التلاوة فيقف في الآية يرددها.

قام تميم الداري ليلة إلى الصباح بآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [(٢)] وقام سعيد بن جبير ليلة بآية: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [(٣)].

وقال سليمان الداراني: إني لأتلو الآية وأقيم فيها أربع ليال أو خمسًا، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها.

وقال بعض السلف: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغتُ منها بعد.

وقال أسلم بن عبد الملك: صحب رجل رجلًا شهرين فما رآه نائمًا لا ليلًا ولا نهارًا، فقال: مالي أراك لا تنام؟ فقال: إن عجائب القرآن أطَرْنَ نومي فما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى.

وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليكثر [تلاوة] القرآن.

يا معرضًا عن تلاوة القرآن مشغولًا باللّهو والهذيان، ستدري من يندم يومَ الخسران،

---

(١) ت: وخلصوا. (٢) سورة الجاثية: ٢١. (٣) سورة يس: ٥٩.

استدرك ما قد فات من هذا الزمان، وقم في الأسحار فللسَّحر مع الرحمة شان، وسل العفو عما سلف منك وكان.

* * *

مولاي جئتك والرجا ءُ قد استجار بُحسن ظنِّي
أبغي فواضلك التي تمحو بها ما كان مني
فانظر إليَّ بحق لطْـ ـفك يا إلهي واعفُ عني
لا تُخزني يوم المعا د بما جنيتُ ولا تُهنِّي

قال بعض السلف: كان لنا جارٌ من المتعبدين قد بَرَّز في الاجتهاد، فصلى حتى تورمت قدماه، وبكى حتى مرضت عيناه، فاشترى جارية وكانت تُحسن الغناء وهو لا يعلم، فبينا هو في محرابه رفعت صوتها بالغناء فطار لبه، ورامَ ما كان عليه من التعبد فلم يقدر عليه، فقالت له الجارية: يا مولاي لقد أبليتَ شبابك ورفضت لذات الدنيا في أيام حياتك، فلو تمتعت بي؟ فمال إلى قولها وترك التعبد واشتغل بفنون اللذات، فبلغ ذلك أخًا له كان يوافقه في العبادة فكتب إليه:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من الناصح الشفيق والطبيب الرفيق، إلى من سُلب حلاوة الذكر والتلذذ بالقرآن: بلغني أنك اشتريت قَيْنة بعتَ بها حظّك من الآخرة، فإن كنت بعتَ الجزيلَ بالقليل والقرآن بالقيان فإني محذرك هاذمَ [1] اللذات ومنغص الشهوات، فكأنه قد جاءك على غرة فأبكَم منك اللسان وهدَّ منك الأركان وقرَّب منك الأكفان، واحتوشك من بين الأهل والجيران، وأحذرك من الصيحة إذا جَثَتْ الأممُ لملك جبار.

ثم طوى الكتاب وبعثه إليه، فوافاه وهو على مجلس سروره، فأذهله [2] وأغصَّه بريقه، فنهض من مجلسه وعاد إلى اجتهاده حتى مات.

قال الذي وعظه: فرأيته في المنام بعد ثلاث فقلت: ما فعل اللَّه بك؟ فقال:

اللَّه عوضني ذو العرش جاريةً حوْراء تسقيني طوْرًا وتَهْنيني
تقول لي اشرب بما قد كنتَ تأمُلني وقرَّ عينًا مع الولدان والعينِ
يا من تخلى عن الدنيا وأزعجه عن الخطايا وعيدٌ في الطواسين

* * *

---

(١) هاذم: قاطع، وهي كناية عن الموت.
(٢) ت: فأوهله.

يا ويح عزيمة نُقضت بالهوى عهودها، ترقَّت في درجات العُلا ثم انعكس صُعودها، بينما ثمرها الجِد ييس عودها، لقد سوّدت الصحائف في طلب ما لا تصادف، متى تذكر المتَآلف؟! إلى كم وكم تخالف؟! كم طوى الدهر من طوائف، إنما يَسْلم في الشدة من هو في الرجاء خائف، إلى متى تضيع الوقت الشريف، وتُعرض عن الإنذار والتخويف، وتبيع أفضلَ الأشياء بقدر طفيف، وتؤثر الفاني على الباقي وهذا الرأي السخيف؟! أين لذة فرحك بعد تَرَحك؟! وأين سرور مرحك في مُجترحك؟! إنما العمر أيام معدودة والسلامة عوارٍ مردودة.

وأيُّ هـوًى أو أي لـهـوٍ أصبـتَـه ... عـلـى لـذة إلا وأنـت مُـفـارقُـهْ
وتُرخي على السُّوء الستورَ وإنما ... تقلَّب في علـم الإلـه خـلائـقـهْ
ألا أيها الباكي على الميِّت بعده ... رُويدك لا تَعْجل فإنـك لاحـقُـهْ
وما هذه [1] الساعات إلا على الفتى ... تُغَافصه [2] طوْرًا وطورًا تُسارقه
أرى صاحب الدنيا مقيمًا بجهله ... على ثقةٍ من صاحبٍ لا يواثقه

أين من اعتمد على رضيِّ الأمل والمنى واتخذها مالًا؟ مالًا؟! أين من تنعّم بالعِز والفخر وجعلهما حالًا؟ حالًا؟! أين من جمع الأموال بعضها فوق بعض [3]، وتصرَّف بشهواته في طول المنى والعرْض، ونسي الحساب يوم السؤال والعرْض، ولم يبالِ بعد نيل غرضه بضياع الواجب والفرْض؟! أما حُط عن ظهر قصْره إلى بطن الأرض؟! خَلا واللَّه بقبيحه وحسنه، وانتبه في قبره من وسَنه، فما نفعته الإفاقة في إبان الفاقة، ولا أفاده التيقظ وقد انقضى وقت التحفظ، تبدل بالأتراب التراب، وواجه أليمَ الحساب والعتاب، وندم على ما خلا في خلاف الصواب، وتقطعت به الوُصَل والأسباب [4]، فاعتبروا يا أولي الألباب.

سلِ الأجداث عن صُورٍ بليـنـا ... وعـن خِلق نَعْمن فصِرْن طينـا
وعن ملِك تغرَّر [5] بـالأمـانـي ... وكان يظن أن سيعيش حـيـنـا
لقد أبتِ القبورُ على حزيـن ... أتـاهـا أن تـفُـكَّ لـه رهـيـنـا
هي الدنيا تفرِّق كل جمـع ... وإن ألِف القرين بها القرينـا

* * *

(١) ب: وما تخطب الساعات.
(٢) تغافصه: تفاجئه على غرة.
(٣) ت: إلى بعض.
(٤) ب: والأنساب.
(٥) ت: تنعَّم.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ... ﴾ (١)

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المُذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أملى عليَّ يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القادر قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: « لقد أُنزلت عليَّ عشر آيات مَنْ أقامهن دخل الجنة ». ثم قرأ علينا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر (٢).

وأخبرنا أحمد بن عبد الباقي، أنبأنا أحمد بن أحمد، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد اللَّه، أخبرنا محمد بن علي بن مسلم، حدثنا عثمان بن عمر الضبي، أخبرنا أبو عمر الضرير، أخبرنا عدي بن الفضل، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه تعالى بنى جنات عدن بيده وبناها لبنةً من ذهب ولبنة من فضة، وجعل مِلاطها المسْك وترابها الزعفران وحصاها اللؤلؤ ثم قال: تكلمي، فقالت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

وقال ابن قتيبة: أصل الفلاح: البقاء، فالمفلحون الفائزون ببقاء الأبد، وقرأ أبي بن كعب وعكرمة بضم الألف والمعنى أصيروا إلى الفلاح.

* * *

لقد ربح القومُ وأنت نائم، وخِبت ورجعوا بالغنائم، أنت بالليل راقدٌ وبالنهار هائم، وغاية ما تشتهي مشاركة البهائم، نظروا في عواقب الأمور فقبروا أنفسهم قبل القبور، وخرجوا من ظلام الشبهة إلى أجلى نور، فما استفزهم فانٍ ولا أذلهم غرور، عرضوا على النفوس ذكر العَرْض فاعترضها القلق، وصوروا إحراق الصُّور فأحرقهم الفرَق، وتفكروا في نشْر الصحائف فأزعجهم الأرق، وتذكروا محمدةَ المخاوف فسالت الحِدَق، أطار خوفُ النار نومَهم، وأطال ذكر العطش الأكبر صومَهم، وهوّن فِكرهم في العتاب نصبَهم، ونصبهم على الأقدام ذِكرُ القيام وأنْصَبهم، أما الأجساد فالخوف قد أنْحلها، وأما العقول فالحذر قد أذهلها، وأما القلوب فالفكر قد شغلها (٤)، وأما الدموع فالإشفاق

---

(١) سورة المؤمنون: ١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٢٤، وهو ضعيف.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: ٣١٧٣. وأحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٢٤، وهو ضعيف.
(٤) ب: قد أشغلها.

قد أرسلها، وأما الأكف فقد كفَّت عما ليس لها، وأما الأعمال فقد واللَّهِ قبلها، حوانيتهم الخلوات وبضائعهم الصلوات، وأرباحهم الجنات، وأزواجهم الحسنات.

* * *

قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ... ﴾ (١)

أصل الخشوع: الخضوع والتواضع.

وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ترك الالتفات في الصلاة، قاله عليٌّ عليه السلام.

والثاني: السكون في الصلاة، قاله مجاهد.

والثالث: النظر إلى مواضع السجود، قاله قتادة.

عرفوا طريق النجاة فوقفوا على قدم الأدب في المناجاة، فنال كلٌّ منهم ما رجاه، فلهم عنده أعظم قدر وجاه.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا يزيد بن إبراهيم، عن عمرو بن دينار قال: كان عبد اللَّه ابن الزبير يومًا يصلي في الحجْر مُرخيًا يديه، فوافَى حَجرُ قذَّاف فذهب بطائفة من ثوبه، فما انفتل من صلاته.

قال محمد بن القاسم: وحدثنا عمرو بن بكار الباقلاوي، قال: حدثنا محمد ابن إسحاق، قال: سمعت يحيى بن معين: يقول: كان المعلَّى بن منصور الرازي يومًا يصلي فوقع على رأسه كُورُ (٢) الزنابير فما التفت وما انفتل حتى أتم صلاته فنظروا فإذا رأسه قد صار هكذا من شدة الانتفاخ.

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع (٣) لها أهل السوق فما التفت، وكان إذا دخل منزله سكت أهلُ بيته، فإذا قام يصلي تكلموا أو ضحكوا علمًا منهم (٤) بأن قلبه مشغول عنهم، وكان يقول: إلهي متى ألقاك وأنت عني راضٍ؟

---

(١) سورة المؤمنون: ٢.

(٢) الكور: موضع الزنابير.

(٣) ب: ففزر، وما أثبته من ت.

(٤) ب: منه. محرفة، والتصويب من ت.

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم　　جعلتُ اشتغالي فيك يا مُنيتي شُغلي
فمن لي بأن ألقاك في ساعةِ الرضا　　ومن لي بأن ألقاك والكُلُّ لي مَنْ لي

* * *

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعيد الحيري، أنبأ أبو عبد اللَّه بن باكويه الشيرازي، حدثنا عبد الواحد بن بكر، حدثني نصر بن أبي نصر، عن هبة اللَّه بن أحمد البغدادي، قال: سمعت أحمد بن سعيد الدارمي، يقول: صلى أبو زُرعة الرازي في مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر، فلما كان يومٌ من الأيام قدم عليه قوم من أصحاب الحديث، فنظروا فإذا في محرابه كتابة، فقالوا له: كيف تقول في الكتابة في المحاريب؟ فقال: قد كرهه قومٌ ممن مضى، فقالوا له: هو ذا في محرابك كتابة، أما علمت به؟ فقال: سبحان اللَّه، رجل يَدخل على اللَّه تعالى ويدري ما بين يديه!

أخبرنا المحمدان: ابن ناصر وابن عبد الباقي قالا: أنبأنا أحمد بن أحمد، أخبرنا أبو نعيم الحافظ، أخبرنا عبد اللَّه بن محمد بن جعفر، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، حدثني عفان بن الحسين الربعي، عن رياح بن أحمد الهروي قال: مرَّ عصام بن يوسف بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه فقال: يا حاتم كيف تصلي؟ قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبِّر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأسلمها [(١)] بالإخلاص إلى اللَّه تعالى، وأخاف ألا يُتقبل مني، فقال: تكلم فأنت تُحسن [أن] تصلي.

يا هذا: بين صلاتك وصلاتهم كما بين وقتك وأوقاتهم.

أخبرنا علي بن عبد اللَّه، أنبأنا ابن النَّقور، أنبأنا ابن مدرك، حدثنا محمد بن علي الكاتب، أنبأنا أحمد بن يحيى السوسي، حدثنا داود بن المحبِّر، حدثنا ميسرة، عن الزبيدي، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي أيوب الأنصاري، أن النبي ﷺ قال: « إن الرجلين ليتوجهان إلى المسجد فيصليان، فينصرف أحدهما وصلاته أوْزن من أُحد، وينصرف الآخر وما تعْدل صلاته مثقال ذرة » [(٢)].

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه وأحمد بن ظفر قالا: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون، أنبأنا الدارقطني، حدثنا عمرو بن محمد بن شعيب، حدثنا عبد اللَّه بن شبَيب، حدثني

---

(١) كذا بالأصل: ولعلها: أسلم.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء : ٣٦٢/١، وهو ضعيف بسبب داود بن المحبر فهو متروك.

الوليد بن عطاء، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من مُصلٍّ إلا وملك عن يمينه وملك عن يساره، فإن أتمَّها عرجا بها، وإن لم يتمها ضربا بها وجهه »[١].

* * *

يا غائب القلب في صلاته، يا شَتيت الهم في جهاته، يا مشغولاً بآفاته عن ذكر وفاته، يا قليل الزاد مع قُرب مماته، يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مرْحلة، وكتابه قد حوى حتى مقدار خَرْدَلة، وما ينتفع بنذير والنذرُ متصلة، وما يرعوي لنصيح وكم قد عَذَله، ودروعه متخرِّقة والسهام مُرسلة، ونور الهدى قد يُرى وما رآه ولا تأمله، هو يأمل البقاء وقد رأى مصير من أمَّله، وأجلُه قد دنا ولكنّ أمله قد شغله، وقد انعكف على العيب بعد الشيب بصبابةٍ ووَلَه، ويُحضر بدنه في الصلاة فأما القلب فقد أهمله، كن كيف شئت فبين يديك الحساب والزلزلة، ونعِّم جسدك فلا بد للدود أن يأكله، يا عجبًا من فتور مؤمنٍ بالجزاء[٢] والمسألة، أيقينٌ بالنجاة أم غرور وبَلَه، بادر ما بقي من العمر واستدرك أوله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له.

إخواني: حسن الأدب في الصلاة دليل على معرفة المخدوم، والتفات البدن دليل على إعراض القلب، وقد وصفت لك أحوالَ الخاشعين، فهل أنت منهم أو من الغافلين؟!

سجع على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾:

سبحان من قوَّمهم وأصلحهم، عاملوه باليسير فأربحهم، واعتذروا من التقصير فسامحهم، وقد أثنى عليهم ومدحهم، أفتعُون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

اغتنم القومُ الأيام، واجتنبوا الخطايا والآثام، وصمتوا عن رديء الكلام، وصمُّوا عن استماع الحرام، فكأنهم ما يسمعون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

كفُّوا الأكفَّ عن الفساد، وهجرت الرءوسُ الوساد، وحضر القلب للمناجاة وانقاد، وأنتم في سكر الرقاد وهم يركعون ويسجدون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

ما أوْفى تلك الأحوال! ما أصفى تلك الخصال! ما أزكى تلك الأعمال! جمعوا الهموم فأما الأموال فلا[٣] يجمعون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

نُقُّوا بالرياضة وهُذبوا، وابتلوا بفراق المحبوب وجُرّبوا، وأديروا في فنون التكليف وقُلبوا،

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري: ٣٣٨/١، وقال: رواه الأصبهاني وهو حديث ضعيف.

(٢) ب: عن الجزاء. (٣) ت: فما.

فإذا بُعدتم يوم الحضور وقُربوا فماذا تصنعون؟! ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

ما ضر النفوسَ ما نكَا فيها حين نُكافيها، نعفو عنها يوم اللقاء ونعافيها، وندخلها جنةً يروق [فيها] [١] صافيها ولهم فيها ما يدعون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

نزلوا واللَّه المقام الأمين، وكُتبوا في أصحاب اليمين، ونالوا كلَّ مُثمن ثمين، وأُسكنوا القصور، وأُعطوا الحورَ العين، كلها أبكار ليس فيها عُون [٢]، قد عوضوا عن حريق القلق الرحيق، وأبدلوا عن بريق [٣] السيوف الأباريق، وقوبلت رياضتهم بالرَّوض الأنيق، فهم يرتعون فيما يربعون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

إخواني: توانيتم وسيرُ القوم حثيث، وصفت أعمالهم وفعلكم كدر خبيث، ونصحناكم ولكن قد ضاع الحديث، وما أراكم تسمعون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *
* *
*

(١) ليست في ت.
(٢) العون: الثيب.
(٣) ت: عن بروق.

المجلس السابع والعشرون

في قصة [١] نبينا ﷺ في ابتداء أمره

الحمد للَّه قاهر المتجبر ومُذله، ورافع المتواضع ومُجله، القريب من عبده فهو أقرب من ظله، وهو عند المنكسر لأجله حالَ ذُله، لا يعزب عن سمعه وقع القطر في أضعف طَلِّه، ولا بُغام ظبي البَرِّ وكشِيش صِلِّه [٢]، ولا يغيب عن بصره في الدُّجى دبيبُ نمله، رفع من شاء بإعزازه كما حطّ من شاء بذله، اختار محمدًا، من الخلق فكأن الكل [٣] خُلقوا من أجله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [٤].

أحمده على أجلّ الإنعام وأقلِّه، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدق قولَه بفعله، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله لنقض الكفر وحلِّه، فقام معجزه ينادي ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [٥] صلى اللَّه عليه وعلى أبي بكر الصديق واصل حبْله، وعلى عمر الذي كان يَفْرق الشيطان من ظله، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة وعاقد شمْله، وعلى عليٍّ أخيه وابن عمه ومقدَّم أهله، وعلى عمه العباس صنو أبيه وأصله.

اللَّهم يا من جميعُ الخلائق مفتقرون إلى فضله، يا منعمًا بالجزيل على من ليس من أهله، سامحْ كلًّا منا في جده وهزْله، وارزقنا إقدام شجاع وَلِيَ [٦] العدوَّ وجمْعه ولم يُولِّه، وارحمنا يومَ يذْهل كلُّ خليل عن خِله، وانفعني والحاضرين بما اجتمعنا لأجله.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ... ﴾ [٧]

اعلموا أن نبينا ﷺ المصطفى على الخلق كلهم، صان اللَّه أباه [٨] من زلة الزنا.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أخبرنا أبو عمر بن حيّوية أنبأنا أحمد بن معروف، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة، أنبأنا محمد بن سعد، أنبأنا محمد بن عمر

---

(١) ت: في فضل نبينا.

(٢) البغام: صوت الظبي. والكشيش، صوت الأفعى من جلدها، والصل: الحية.

(٣) ت: فكان الخلق كلهم خلقوا.

(٤) سورة الصف: ٩.

(٥) سورة البقرة: ٢٣.

(٦) ولي العدو: قرب منه عند النزال.

(٧) سورة الصف: ٩.

(٨) ب: فصان أباه.

الأسلمي، أنبأنا أبو بكر بن عبد اللّٰه بن أبي سَبْرة، عن عبد المجيد ابن سهل، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « خرجتُ من لدن آدم من نكاح غير سفاح »[١].

قال علماء السير: لما حملت به آمنة قالت: ما وجدتُ له ثقلًا.

وكانت ولادته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقال بعضهم: لعشْر خلون منه.

فلما ظهر خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب.

وتوفي أبوه وهو حمْل، فخلف له خمسة أجمال وقطعة غنم وأمَّ أيمن كانت تحضنه.

وماتت أمه وهو ابن ست سنين، وكفله جده عبد المطلب، ومات وهو ابن ثمان سنين وأوصى به أبا طالب، وكان يسمى في صغره الأمين.

وكانت آيات النبوة تظهر عليه قبل النبوة، فكان[٢] يرى النورَ والضوء، ولا يمر بحجر ولا شجر[٣] إلا قال: السلام عليك يا رسول اللّٰه، وقال: « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن »[٤]، ثم رُميت الشياطين بالشهب لمبْعثه.

* * *

فأما نسبه ﷺ فهو: محمد بن عبد اللّٰه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قُصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كِنانة بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد ابن الهمَيْسَع بن حمل بن النبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

واسمه ﷺ محمد وأحمد والحاشر والمقفّى والماحي والخاتم والعاقب ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملاحم[٥] والشاهد والبشير والنذير والضحوك والقتَّال[٦] والمتوكل والفاتح والأمين والمصطفى والرسول والأمي والقُثم.

فالحاشر: الذي يحشر الناس وهو يقْدُمهم والمقفّي آخر الأنبياء، وكذلك العاقب، والملاحم: الحروب، والضَّحوك اسمه في التوراة وذلك أنه ﷺ كان طيب النفس فَكِهًا. والقُثم من القثم وهو الإعطاء، وكان أجود الناس.

* * *

(١) دلائل النبوة للبيهقي : ١١/١. والطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٢/١/١، وهو حديث صحيح.

(٢) ت: وكان.
(٣) ت: ولا شجرة إلا قالت.

(٤) الحديث في صحيح مسلم، رقم : ٢٢٧٧.
(٥) أي الذي يجاهد في سبيل اللّٰه.

(٦) أي الذي يقتل الكفار الذين يصدون عن سبيل اللّٰه؛ دفاعًا عن العقيدة والإيمان.

فأما صفته ﷺ فإنه كان رَبْعة ليس بالطويل ولا بالقصير، أزْهر اللون، أشْعر، أدعج العينين، أجرد ذو مَسْرُبة (١).

وكان أجود الناس وأصدقهم لهجةً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرة.

أرضعته ثُويبة مولاة أبي لهب أيامًا ثم قدمت حليمة فأكملت رضاعه.

تزوجته خديجةُ وله خمس وعشرون سنة، فأتت منه بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم والطاهر والطيب، وقيل: ولدت له عبد اللَّه في الإسلام، فلقب بالطاهر والطيب، وولدتْ مارية إبراهيم.

* * *

وبُعث لأربعين سنة فنزل الملَك عليه بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان: وكان إذا نزل عليه كرب [له] (٢) وتربّد وجهه وعرِق جبينه.

ورُميت الشياطين بعد عشرين يومًا من مبعثه.

وبقي ثلاث سنين يستتر بالنبوة ثم نزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ (٣) فأعلن الدعاء (٤).

ولقي الشدائد من قوْمه وهو صابر، وأمر أصحابه أن يخرجوا إلى أرض الحبشة فخرجوا.

وفي الصحيحين أنه كان يصلي وسَلا (٥) جزور قريبٌ منه، فأخذه عُقبة بن أبي مُعيط فألقاه على ظهره، فلم يزل ساجدًا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره، فقال حينئذ: « اللَّهم عليك بالملأ من قريش » (٦).

وفي أفراد البخاري: أن عقبة بن أبي معيط أخذ يومًا بمنكبه ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر فدفعه عنه وقال: « أتقتلون رجلًا أن يقول: ربي اللَّه؟! » (٧).

فلما مات أبو طالب وماتت خديجة بعده خرج إلى الطائف، وعاد إلى مكة، وكان في كل موسم يخرج فيعرض نفسه على القبائل ويقول: من يؤويني؟ من ينصرني؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي.

ثم أُسري به في سنة ثنتي عشرة من النبوة، وبايعه أهلُ العقبة، وتسلَّل أصحابه إلى المدينة، ثم خرج هو وأبو بكر إلى الغار فأقاما فيه ثلاثًا وعَمِي أمرهم على قريش.

---

(١) المسربة: الشعر وسط الصدر إلى البطن. (٢) من ب. (٣) سورة الحجر: ٩٤.
(٤) كذا ولعلها: الدعوة. (٥) السلا: الفرث. والجزور: الناقة.
(٦) صحيح البخاري، حديث رقم : ٢٩٣٤. وصحيح مسلم، حديث رقم : ١٧٩٤.
(٧) صحيح البخاري، حديث رقم : ٣٦٨٩.

ثم دخل المدينة فتلقاه أهلُها بالرُّحبِ والسّعة، فبنى مسجده ومنزله.

وغزا سبعًا وعشرين غزاة، قاتل منها في تسع: بدر وأُحد والمُريسيع والخندق وقريظة وخيبر والفتح وحُنين والطائف، وبَعث ستًّا وخمسين سَرِيَّة.

* * *

وما زال يلْطف بالخلْق ويريهم المعجزات، فانشقّ له القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وحنَّ إليه الجذع، وأخبر بالغائبات فكان كما قال.

وفضِّل على الأنبياء، فصلى بهم في ليلة المعراج، وهو المتقدم عليهم يوم الشفاعة.

أنبأنا عبد الأول، أنبأنا الداودي، حدثنا ابن أعين، حدثنا الفَربْرِي، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا هُشيم، أنبأنا سيار، عن يزيد الفقير، أنبأنا جابر بن عبد اللّه، أن النبي ﷺ قال: « أُعطيت خمسًا لم يُعطهن أحدٌ قبلي: نُصرت بالرُّعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاةُ فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة ». (أخرجاه في الصحيحين) (١).

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « أنا أولُ الناس يشفع يوم القيامة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقْرع باب الجنة » (٢).

وفي أفراده من حديث أبي هريرة رضي اللّه عن النبي ﷺ أنه قال: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشقُّ عنه القبر، وأول شافع وأول مشفَّع » (٣).

أنبأنا الكروخي، أنبأنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورجي، أنبأنا الجرّاحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث بن الربيع، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » (٤).

قال ابن الأنباري: أراد لا أتبجح بهذه الأوصاف، لكن أقولها شكرًا ومنبهًا على إنعام ربي عليَّ.

---

(١) صحيح البخاري : ٦٢/١، ط الخيرية، وصحيح مسلم، حديث : ٥٢١.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم : ١٩٦.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٢٧٨.

(٤) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٣٦١٠، وهو ضعيف.

وفي حديث جابر أن رسول اللَّه ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني » (١).

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المُذهب، أنبأنا القطيعي، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتًا (٢) فأحسنها وأكْملها وأجْملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويُعجبهم البنيانُ فيقولون: ألا وضعتَ هاهنا لبنة فيتم بنياتك؟ فكنت أنا اللبنة ». (أخرجاه في الصحيحين) (٣).

وفيهما من حديث عائشة قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يقوم حتى تنفطر قدماه قالت: وكان ضِجَاعه الذي كان ينام عليه في الليل من أدَم محشوًّا ليفًا (٤).

وفيهما من حديث أبي هريرة قال: ما شبع رسولُ اللَّه ﷺ ثلاثةَ أيامٍ تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا (٥).

وفي أفراد مسلم من حديث عمر ﷺ قال: لقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يظل اليومَ يَلْتوي ما يجد دِقْلًا (٦) يملأ به بطنه (٧).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، أنبأن ابن حيوية، أنبأنا ابن معروف، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا محمد بن سعد، أنبأنا هشام بن عبد الملك حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفران، عن محمد بن عبد اللَّه، أن أنس بن مالك حدثه أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال: ما هذه الكسرة؟ قالت: قرصٌ خبزته فلم تطِبْ نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة، فقال: « أما إنه أولُ طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » (٨).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، عن حميد بن هلال، عن أبي بُردة، قال: أخرجت إلينا عائشة كساءً مُلبَّدًا وإزارًا غليظًا فقالت: قُبض رسول اللَّه ﷺ في هذين. (أخرجاه في الصحيحين) (٩).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم : ١٤٧٣٦، وهو صحيح.

(٢) ب: بنيانًا.

(٣) صحيح البخاري : ٢١٨/٢. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٢٨٦.

(٤) صحيح البخاري : ١٠١/٤. وصحيح مسلم : ص ١٦٥٠.

(٥) صحيح البخاري : ١٠١/٤، باختلاف وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٩٧٠.

(٦) الدقل: الرديء من التمر.

(٧) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٩٧٨، ط عبد الباقي.

(٨) أخرجه أحمد في مسنده. والطبراني ورواته ثقات، الترغيب والترهيب : ٨٦/٤.

(٩) صحيح البخاري : ٢١/٤. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٠٨٠.

ما ضرَّه من الدنيا ما فات، وهو سيد الأحياء والأموات.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من صلى علي واحدةً صلى الله عليه عشرًا » (١).

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « من صلى عليَّ واحدةً صلى الله عليه عشر صلوات، وحطَّ عنه عشر خطيئات » (٢).

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « إن لله عز وجل ملائكةً سيَّاحين يبلغوني من أمتي السلام » (٣).

فالحمد لله الذي جعلنا من أمته وحشرنا الله على كتابه وسنته.

* * *

الكلام على البسملة

عجبتُ لِحرِّ النفسِ كيف يُضامُ ... وحُرٌّ يخاف العَتْبَ وهْو ينامُ

وراضٍ بأوساطِ الأُمور تقاعدًا ... وفيه إلى غاياتهن قيامُ

يُسمُّون عيشًا في الخمولِ سلامةً ... وصحةُ أيامِ الخمولِ سقامُ

ويستبعدون الرزقَ طالت به يدٌ ... إذا أسْمن الأجسام وهو سِمامُ

جزى الله خيرًا عارفًا بزمانه ... تجاربُه قد شِبْن وهو غلامُ

دع الناس فيما أجمعوا بعض واحدِ ... فنَقْصك مما لا يُعدُّ تمامُ

* * *

ألا قرين عزم يبادر، ألا خدين حزْم يحاذر، ألا شريف الهمة يأنف، ألا متجافٍ عن الرذائل يتجانف.

إخواني: الدنيا دار قُلعة لا حصن قَلعة، فرحُها يحول وترحها يطول، لو صحت فكرة عُشاقها في مقابح أخلاقها لرفضوها لعيوبها وهجروها لذنوبها، ولكنهم لم ينظروا عيب عيبها ولم يعلموا خِضَاب شَيْبها.

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم : ٤٠٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم : ١١٥٨٧، وهو ضعيف.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب رقم : ١٢٩. ومسند أحمد : ٣٨٧/١، وهو حديث صحيح.

تُبتُ إلى خالقي أفِرّ من الـ دنيا وإني بها لمغترٌّ
تضحك لي خدعةً لأتبعها وهي عن الموبقات تفترّ

من نزل بساحة القناعة ذاق حلاوة الغنى، مَنْ قَرع بأنامل التفكر باب الحزن فُتح له عن رياض الأنس، مراعاة الأسرار من علامات التيقظ، لكل باب مفتاح ومفتاحُ الحكمة طرْد الهوى.

إخواني: فيكم من يترك ما يهوى لما يأمل؟

* * *

وحتْمٌ قسمة الأرزاق فينا وإنْ ضعُف اليقينُ من القلوب
وكم من طالب رزقًا بعيدًا أتاه الرزق من أمرٍ قريبِ
فأجملْ في الطِّلاب وكن رفيقًا بنفسك في معالجة الخطوبِ
فما الإنسان إلا مثل شِلْو (١) تؤاكله النوائبُ بالنُّيوبِ
فغربان المنية إنْ نَعتها فليس بفائتٍ رجْم المشيبِ

قال أبو ذر: لك في المال شركاء ثلاثة: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخير أو شر من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقه وأنت ذميم، وأنت الثالث، فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن.

قال علي بن عبيدة: لولا لهبٌ من الحرص ينْشأ في القلوب لا يملك الاعتبار إطفاء توقده، ما كان في الدنيا عوض من يوم يضيع فيها يمكن فيه العمل الصالح.

الرأيُ أخذُك بالحزامة في الذي تبغي فقصْرك (٢) ميتةٌ وذهابُ
غلب الفسادُ على العقول فكُذبتْ صُدقُ الأنامِ وصُدِّق الكذابُ
ضربوا الجماجمَ بالسيوف على الذي يَفْنى وطال عن الهُدَى (٣) الإضرابُ
وتغرُّنا آمالنا فنخالها ماءً يموج وكلهن سرابُ

يا ناسيًا مهلًا عن قليل حادث، حادثْ قلبك بما بين يديك حادث، يا راحلًا وهو يظن أنه مقيم لابث، يا نائمًا قد أزعجته المقلقاتُ البواعث، يا لاعبًا والليالي في

---

(١) الشلو: الجسد. (٢) قصرك: غايتك.

(٣) وقعت في طبعتنا السابقة: « الهوى » وهو تحريف تابعنا فيه من ادعوا تحقيق الكتاب!.

سيره حثائث، يا ساهيًا قد عَلِقتْ به براثنُ الموت الضوابث (١)، يا معجبًا بزخارفَ في ضمنها الحوادث، يا مقبلًا على سحّار من الهوى نافث، يا مخمورًا بالمنى الخمرُ أم الخبائث، يا مطلوبًا بالجد وفعلُه فعلُ عابث، يا حريصًا على المال ماله حظ وارث، إياك والدنيا فإن حلفها حلف حانث، لا تسمعن قولها فالعزم عزمُ ناكث.

قد أصبحتْ ونُعاتها نُعّاتها ... وكذلك الدنيا تخيب سُعاتُها
كَرَّارة (٢) أحزانها ضرَّارة ... أشجانها مرارةٌ ساعاتها
فمتى يُنبَّه من رُقادٍ مُهلك ... مَنْ قد أضرَّ بعينه هجعاتُها
منْ يغتبط بمعيشة وأمامه ... نُوَبٌ تطيل عناءه فجعاتها
وإذا رجعت إلى النُّهى فذواهب الـ ... أيام غيرُ مؤمَّلٍ رجعاتها
أوَ ما تفيق من الغرام بفارك (٣) ... مشهورة مع غيرنا وقعاتها

* * *

يا من عُمره كلما زاد نقص، يا من يأمن الموت وكم قد قنص، يا مائلًا إلى الدنيا هل سلمتَ من نَغَص، يا مفرطا في الوقت هلا بادرت الفرص، يا من إذا ارتقى في سلم الهدى فلاحَ له الهوى نكص، من لك يومَ الحشر إذا نُشِرتْ القصص، ذنوبك كثيرة جَمَّة، ونفسُك بغير الصلاح مهتمة، وأنت في المعاصي إمامٌ وأُمة، يا من إذا طُلب في المتقين لم يوجد ثمة، يا من سيلحق في مصرعه - وإنْ أباه - أباه وأمه، متى تنقشع هذه الظلمة والغمة، متى تنشق أكمَّة أكْمه ذي كمه، يا من قد أعماه الهوى ثم أصمَّه، يا من لا يفرق بين المديح والمذمة، يا من باع فرحه ثم اشترى غمه، يا عقلًا خربًا يحتاج إلى مرَمَّة.

يا آدميُّ أتدري ما مُنيت به ... أمْ دونَ ذهنك ستْرٌ ليس ينجابُ
يومٌ ويومٌ ويفنى العُمر منطويًا ... عامٌ جديبٌ وعامٌ فيه إخصابُ

غيره:

فلا تغرنَّك الدنيا بزخرفها ... فأرْيُها (٤) إن بلاها غافلٌ صابُ
والحزْم يجني أمورًا كلها شرفٌ ... والحرص يجني أمورًا كلها عابُ (٥)

---

(١) الضوابث: القوابض.
(٢) الأصل: كدارة، وما أثبته من اللزوميات: ١/٢٠٨، ط صادر.
(٣) الأصل: بعارك، وما أثبته من اللزوميات، والفارك: المبغضة لزوجها.
(٤) الأري: العسل.
(٥) العاب: العيب.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ (١)

قال الزجاج: المعنى إذا ذُكرت عظمته وقُدرته وما خوَّف به من عصاه فزعت قلوبهم. يقال: وَجِل يوْجل وياجل ويَيْجَل ويِيجل.

وقال السُّدِّي: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها.

كان الحسن يقول: إن لله عبادًا كمن رأى أهلَ الجنة في الجنة وأهلَ النار في النار، ينظر إليهم الناظرُ فيحسبهم مرْضى.

وكان شُميْط يقول: أتاهم من الله وعيد وقَذهم (٢) فناموا على خوف وأكلوا على تنغيص.

وقال سَرِيّ (٣): أكلُهم أكلُ المرضى ونومُهم نوم الفرْقى (٤).

قال أبو طارق: شهدتُ ثلاثين رجلًا ماتوا في مجالس الذكر يمشون بأرجلهم صِحَاحًا إلى المجلس وأجوافهم قريحة، فإذا سمعوا الموعظة تصدّعت قلوبهم فماتوا، وقال أحمد بن حنبل ﷺ: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه.

وقيل: صلَّى زُرارة بن أوفى بالناس فقرأ ﴿ ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ (٥) فلما بلغ: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ (٦) خر ميتًا.

وكان إبراهيم التيمي يذكِّر وأبو وائل ينتفض انتفاض الطير.

وقال يوسف بن أسباط (٧): لما أتى ذو القرنين السد قال: دُلوني على أَعْبد رجل فيكم، فقالوا: في هذا الوادي رجل يبكي حتى نبت من دموعه الشجر، فهبط الوادي فأتاه فوجده ساجدًا وهو يقول: إلهي اقبض روحي في الأرواح وادفن جسدي في التراب، واتركْني هَمَلًا لا تبعثني يومَ الحساب.

وقال مالك بن دينار: رأيت جُويرية تطوف بالبيت وتقول: يا رب كم من شهوةٍ ذهبتْ لذتها وبقيت تبِعتها! يا رب ما كان لك عقوبة إلا بالنار؟! فما زالت كذلك إلى الصباح.

---

(١) سورة الأنفال: ٢. (٢) وقذهم: أمرضهم مرضًا شديدًا.

(٣) سري بن المغلس السقطي، كنيته أبو الحسن، يقال: إنه خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفًا الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته. مات سنة : ٢٥١هـ، طبقات الصوفية : ص ٤٨.

(٤) الفرقى: الخائفون. (٥) سورة المدثر: ١. (٦) سورة المدثر: ٨.

(٧) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ، يروي عن سفيان الثوري وغيره، وثقه يحيى بن معين وقال البخاري: « كان قد دفن كتبه فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغي » ميزان الاعتدال : ٣٢٨/٢، ط السعادة.

يا عجبًا تنام عينٌ مع مخافة، أم كيف تلهو نفس مع ذكر المحاسبة؟!

كان داود الطائي [1] يقول في ظلام الليل: همُّك عطَّل عليَّ الهموم، وحالف بيني وبين السُّهاد، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب.

وقيل: كان عُتبة الغلام طويلَ البكاء فقيل له: ارفُقْ بنفسك، فقال: إنما أبكي على تقصيري.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ما نفهم كلامك من بكاء عتبة، فقال: أيبكي عتبة على نفسه وأنهاه أنا؟ لبئس واعظ قومٍ.

وكان يزيد بن مرثد دائم البكاء فكانت زوجته تقول: ويحي ما خُصصتُ به من طول الحزن معك ما تقرُّ لي عين.

* * *

ما كان يقْرأ واشٍ سطْر كتماني ... لو أنَّ دمعيَ لم ينطق بتبيانِ

ماءٌ ولكنه ذَوْبُ الهموم وهلْ ... ماء يولِّدُه نيرانُ أحزاني

ليت النوى إذ سقتني سُمّ أَسْوَدِها ... سدَّت سبيلَ امرئ في الحُب يَلْحاني

قد قلتُ بالجزْع لمَّا أنكروا جزَعي ... ما أبعدَ الصبر ممن شوقُه داني

عُجنا على الرَّبْع نستسقي له مطرًا ... ففاض دمعي فأرواه وأظماني

لمَّا خفيت العواقبُ على المتقين فزعوا إلى القلق واستراحوا إلى البكاء.

قال مالك بن دينار: وودتُ أن اللَّه ﷻ أذن لي يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدةً فأعلم أنه قد رضي عني ثم يقول: يا مالك كن ترابًا.

قد أوْبقتْني ذنوبٌ لست أحْصُرها ... فاجعل تغمُّدها من بعضِ إحسانكْ

وارفق بنفسيَ يا ذا الجودِ إنْ جَهلتْ ... مقدار زلتها مقدارِ غُفرانكْ

أعقلُ الناس مُحْسن خائف، وأحمق الناس مسيء آمن.

كان بشْر الحافي لا ينام الليل ويقول: أخاف أن يأتي أمر اللَّه وأنا نائم.

وكلَّما همَّ بذوْق الكَرى ... صاح به الهجرانُ قم لا تنم

* * *

(١) داود بن نصير، أبو سليمان الطائي، كوفي زاهد، شغل نفسه بالعلم وكان يختلف إلى أبي حنيفة، تزهد وأغرق كتبه في الفرات. مات سنة: ١٦٥هـ، تاريخ بغداد: ٢٢١/١١.

ذكرت نفوسُ القوم العذابَ فأنّت، وتفكرت في شدة العتاب فأرنّت، تذكرت ما جنتْ مما تجنت فجُنّتْ، أزعجها الحذر ولولا الرجاء ما اطمأنّت، آه لنفس ضنّت بما بذلوه، ثم رجتْ ما نالوه، بئس ما ظنت، ما نفسٌ سابَقتْ كنفسٍ تأنّت.

طربتُ ذِكْرَي منك هزّت جوانحي ... كما يُطرب النشوانَ (١) كأس مُدامِ

وما ذكرتُك النفسُ إلا أصابها ... كلَذْع (٢) ضِرامٍ أو كوخز سهام

وإنَّ حديثًا منك أحلى مذاقه ... من الشهد ممزوجًا بماء غمامِ

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلِّب، مَنْ ظن أن عُمَر يُسْلم؟! من ظن أن برصيصا (٣) يكفر؟! رب غرسٍ من المنى أثمر، وكم من مستحصِد تلف، كرةُ القلب بحكم صولجان التقليب، إن وقفت الكرة طردت وإن بعدت طلبت، ليبين سرّ، لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، نادى منادي البعد ألا ﴿ تَقْنَطُوا ﴾ (٤) ويقال للمذنبين: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٥) لما قرِّب جبريل وميكائيل اهتزت الملائكة فخرًا بقرب جنسها من جناب العزة، فقطع من أغصانها شجرة هاروت، وكُسر غُصن ماروت، وأُخذ من لُبّها كُرة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ (٦) فتزودت في سفر العبودية زاد الحذر، وقادت في سبيل معروفها نُجُب التطوع للمنقطعين ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ (٧).

نودي من نادى الإفضال: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (٨) فسارتْ نجائب الأعمال إلى باب الجزاء، فصيح بالدليل: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ (٩) فقال: « ما منكم من يُنْجيه عمله » (١٠).

* * *

رحم اللَّه أعظُمًا طالما نَصبت وانتصبت، جنَّ عليها الليل فلما تمكن وثبتَ وثبتْ، إن ذكرتْ عدله ذهبت وهربت، وإن تصورت فضله فرحت وطربت، اعترفت إذ نبتْ عن طاعته أنها قد أذنبت، ووقفت شاكرةً لمن لحمها على جُوده نبت، هبّت على أرض القلوب عقيمُ الحذر فاقشعرّت وندبت، فبكت عليها سحائب الرجاء فاهتزت وربَتْ.

بحسبك أن قومًا موتى تحيا بذكرهم النفوس، وأن قومًا أحياء تقسو برؤيتهم القلوب،

---

(١) ت: كما يطرب السكران. (٢) ت: كلدغ. (٣) كذا بالأصل.

(٤) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

(٥) سورة آل عمران: ٣٠. (٦) سورة ص: ٧٨. (٧) سورة الشورى: ٥.

(٨) سورة الأنعام: ١٦٠. (٩) سورة الإسراء: ٧٤.

(١٠) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه: « لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة ».

رحل القومُ وبقيت الآثار في الآثار، سألوا طلولَ التعبد عنهم فقالت: خلت الديار [(١)].

إذا دمعي شكا البينَ بَيْنها شكا غيرُ ذي نُطْقٍ إلى غير ذي فَهْمِ

جال الفكرُ في قلوبهم فلاح صوابهم، وذكروا التوفيق فمحا التذكر إعجابهم، ومادوا للمخافة فأصبحت دموعهم شرابهم، وترنموا بالقرآن فأمسى مِزْهرهم ورَبَابهم، وكَلِفوا بطاعة الإله فألِفوا محرابهم، وخدموه مبتذلين في خدمته شبابهم، فيا حُسنهم وريحُ الأسحار قد حرّكت أثوابهم، وحملتْ قصيص القِصص ثم ردّت جوابهم.

نسيمَ الصبا إن زُرت [(٢)] أرضَ أحبتي فخصَّهم عني بكل سلامِ
وبلِّغهمُ أني رهين صبابةٍ وأن غرامي فوقَ كلِّ غرامِ
وإني ليكفيني طروق خيالهم لو انّ جُفوني مُتعت بمنامِ
ولست أُبالي بالجنان وباللظى إذا كان في تلك الديار مُقامي
وقد صُمت عن لذات دهري كلها ويومُ لُقاكم ذاك فِطرُ صيامي

لا يطمعنَّ البطَّال في منازل الأبطال، إن لذة الراحة لا تُنال بالراحة، من زرع حصد، ومن جدَّ وجد.

وكيف يُنال المجدُ والجسمُ وادعٌ وكيف يُجاء الحمد والوفْر [(٣)] وافرُ

أيُّ مطلوب نِيل من غير مشقة؟! وأي مرغوب لم تبْعد على طالبه الشُّقة؟! المال لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يُدرك إلا بالنَّصَب، واسم الجود لا يناله بخيل، ولقب الشجاع [لا يحصل إلا [(٤)]] بعد تعب طويل:

لا يدركُ المجدَ إلا سيدٌ فطنٌ لما يشُقّ على الساداتِ فعّالُ
أمْضَى الفريقين في أقرانه ظُبةً والبيض هادية والسُّمرُ ضُلالُ [(٥)]
يريك مخْبرُه أضعاف منظره بين الرجال ففيها الماء والآلُ [(٦)]
لولا المشقةُ ساد الناسُ كلهمُ الجودُ يُفقر والإقدام قتّالُ
وإنما يبلغ الإنسانُ طاقته ما كل ماشيةٍ بالرَّحْل شِمْلالُ
إنّا لفي زمنٍ ترْكُ القبيح به من أكثر الناسِ إحسانٌ وإجمالُ

---

(١) العبارة محرفة في ب. والتصويب من ت.
(٢) ت: إن جزت.
(٣) الوفر: المال.
(٤) من ت.
(٥) الظبة: حد السيف. والبيض: السيوف. والسمر: الرماح.
(٦) الآل: السراب.

ذِكْر الفتى عُمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفُضولُ العيش أشغالُ [١]

سبحان من أيقظ المتقين وخلع عليهم خِلع اليقين، وألحقهم بتوفيقه بالسابقين، فباتوا في جلباب الجد متسابقين.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [٢]:

كلما أذهب الأعمارَ طلوعُهم وغروبهم، سالت من الأجفان جزعًا غُرُوبهم، وكلما لاحت لهم في مرآة الفكر ذنوبهم تجافت عن المضاجع خوفًا جنوبهم، وكلما نظروا فساءهم مكتوبهم ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

دموعهم على الدوام تجري، وعزتي: لأُربحنهم في معاملي وتَجْري [٣]، عظُمت قدرتي في صدورهم وقدْري، فاستعاذوا بوصلي من هجْري، عاملوا معاملة من يفهم ويدري، فنومُهم على فراش القلق وهبوبهم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

أموات عن الدنيا ما دُفنوا، أغمضوا عنها عيونهم وحزنوا، ولو فتحوا أجفانَ الشَّرَه لفُتنوا، باعوها بما يبقى فلا والله ما غُبنوا، تالله لقد حصل مطْلوبهم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

حبسوا النفوسَ في سجن المحاسبة، وبسطوا عليها ألسُن المعاتبة، ومدُّوا نحوها أكفَّ المعاقبة، وتحق لمن بين يديه المناقشة والمطالبة، فارتفعت بالمعاتبة عيوبهم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

شاهدوا الأخرى باليقين كرأي العين، فباعوا العقار وأخرجوا العين، وعلموا بمقتضى الدين أن التُّقى دَيْن، فدنياهم خراب وأخراهم على الزَّين، قد قَنَعوا بكسرتين وجرعتين، هذا مأكولهم وهذا مشروبهم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

والحمد لله وحده.

* * *

---

(١) الأبيات لأبي الطيب المتنبي، ديوانه : ص ٥٠٤، ٥٠٥، ط الدكتور عزام.

(٢) سورة الحج: ٣٥.

(٣) ب: لأربحن في معاملتي تجري. والتجر: التجارة.

المجلس الثامن والعشرون

في فضل أبي بكر الصديق ﷺ

الحمد للَّه الذي أحكم بحكمته ما فطر وبنى، وقرُب من خلقه برحمته ودنا، ورضي الشكر من بريته لنعمته ثمنًا، وأمرنا بخدمته لا لحاجته بل لنا، يغفر الخطايا لمن أساء وجَنى، ويُجزل العطايا لمن كان محسنًا، بيَّن لقاصديه سبيلًا وسُننًا، ووهب لعابديه جزيلًا يُقتنى، وأثاب حامديه ألذّ ما يُجتنى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [1].

أحمده مُسرًّا للحمد ومُعلنًا، وأصلي على رسوله محمد أشرف من تردد بين جَمْعٍ ومنى، وعلى صاحبه أبي بكر المتخلل بالعَبا راضيًا بالعنا، وهو الذي أراد بقوله تعالى وعنى، ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [2] وعلى عمر المجدِّ في عمارة الإسلام فما ونى، وعلى عثمان الراضي بالقدر وقد دخل [3] بالفناء الفَنا، وعلى عليٍّ الذي إذا بالغنا في مدحه فالفخر لنا، وعلى عمه العباس الذي أسس اللَّه قاعدة الخلافة لبنيه وبنى.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ... ﴾ [4]

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ بالنَّفير معه ﴿ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي أعانه على أعدائه ﴿ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي اضطروه إلى الخروج بقصدهم إهلاكه ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ قال الزجاج: المعنى: فقد نصره اللَّه أحد اثنين، أي نصره منفردًا إلا من أبي بكر، وهذا معنى قول الشعبي: عاتب اللَّه أهلَ الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر.

فأما الغار فهو النَّقب في الجبل، وهذا الغار في جبل ثور بمكة، وكان المشركون يؤذون المسلمين، فتجهز أبو بكر ﷺ ليلحق بالمدينة فقال له رسول اللَّه ﷺ: « على رِسْلك فإني أرجو أن يُؤذن لي » [5].

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.
(٢) سورة التوبة: ٤٠.
(٣) الأصل: وقد خل. محرفة.
(٤) سورة التوبة: ٤٠.
(٥) صحيح البخاري، حديث رقم : ٢٢٩٨.

ثم خرجا إلى الغار فجعل أبو بكر يشق ثوبه ويسد الأثقاب، فبقي ثقب فسدَّه بعقبه، فمكثا ثلاث ليال في الغار، فخرجت قريش تطلب الآثار، فلما مروا بالغار رأوا نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على الباب، وقال أنس ابن مالك ﷺ: أمر اللَّه تعالى شجرةً فنبتت في وجه رسول اللَّه ﷺ فسترتْه، وأمر العنكبوت فنسجت وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا على فم الغار، وقال مقاتل: جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال: هذا قدم ابن أبي قحافة والأخرى لا أعرفها، إلا أنها تشبه القدم التي في المقام.

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ ﴾ يعني بالصاحب أبا بكر بلا خلاف.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا القَطيعي، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا ثابت، عن أنس ﷺ أن أبا بكر ﷺ حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: « يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما ». (أخرجاه في الصحيحين) [1].

أنــا مــولاي إمــامٌ ضــحــكــتْ ... مــن ثــنــايــا فـضْـلـه آي الـزُّمـرْ

صــدّق الــمــرسَــلَ إيــمــانًا بــه ... ولـحَـا فــي اللَّه مــن كــان كَـفـرْ

ثــم بــالــغــار لــه مَــنْــقــبــة ... خــصَّــه اللَّه بــهــا دون الــبــشــرْ

ثاني اثنـيـن وقـول الـمـصـطـفى ... مـعـنـا اللَّه فـلا تُـبـدي الـحـذرْ

قوله: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ والسكينة: السكون والطمأنينة، وفي ﴿ عَلَيۡهِ ﴾ قولان: **أحدهما**: أنها ترجع إلى أبي بكر، قاله علي بن أبي طالب وابن عباس. **والثاني**: أنها في معنى تثنية، فالتقدير عليهما كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ... ﴿٦٢﴾ ﴾ ذكره ابن الأنباري ﴿ وَأَيَّدَهُۥ ﴾ يعني النبي ﷺ، وإنما قالوا ذلك لأن كل حرف يُرد إلى اللاحق به، فلما كان الانزعاج لأبي بكر وحده حَسُن رد هاء السكينة عليه، ولما كان التأييد بالجنود لا يصلح إلا للرسول ردّت هاء ﴿ أيده ﴾ عليه، ومثله قوله ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ [2].

قال العلماء: بعث اللَّه ملائكة صرفت وجوه الكفار عنهما.

* * *

---

(١) صحيح البخاري : ٢/٢٠٥، ط الخيرية. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٣٨١.

(٢) سورة الفتح: ٩.

واعلم أن أبا بكر معروف الفضل في الجاهلية والإسلام:

ولد بمنًى، واسمه عبد اللَّه بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم ابن مُرة بن كعب، وعند مرة يلقى رسولَ اللَّه ﷺ في النسب.

وأمه أم الخير سلمى بنت صخر، أسلمت.

وكانت إليه في الجاهلية الأسباق وهي الديات، والمَغْرم، وكان إذا احتمل شيئًا فسأل فيه قريشًا صدَّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

ولما جاء الإسلامُ كان أولَ من أسلم، ولقَّبه رسول اللَّه ﷺ عتيقًا لحسن وجهه، وقال: يكون بعدي اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلًا.

وكان علي بن أبي طالب ﷺ يحلف باللَّه أن اللَّه ﷻ أنزل اسم أبي بكر من السماء ﴿ الصِّدِّيقُ ﴾ وقال رسول اللَّه ﷺ ليلة أسري به لجبريل: « إن قومي لا يصدقونني »، فقال له جبريل: « يصدّقك أبو بكر وهو الصِّديق ».

وهو أول من خاصم عن رسول ﷺ:

روت أسماء بنت أبي بكر قالت: أتى الصريخ أبا بكر فقيل له: أدركْ صاحبك، فخرج من عندنا وإن له غدائر فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه؟! فلهوا عن رسول اللَّه ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا فجعل لا يمسّ شيئًا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: « إنَّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقى في المسجد بابٌ إلا سُدّ إلا باب أبي بكر » (١).

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه اللَّه بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مال أبي بكر » فبكى أبو بكر وقال: فهل أنا ومالي إلا لك يا رسول اللَّه (٢).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو طالب العُشاري، أنبأنا علي بن عمر الحافظ، حدثنا البغوي، حدثنا وهب بن بقية، حدثنا عبد اللَّه بن سفيان الواسطي، عن ابن جُريج، عن عطاء، عن أبي الدرداء ﷺ قال: رآني النبي ﷺ أمشي أمام أبي بكر

---

(١) صحيح البخاري : ٢٠٦/٢. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٣٨٢.

(٢) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٣٦٦١. وهو حديث صحيح.

فقال: « يا أبا الدرداء أتمشي أمام مَن هو خيرٌ منك في الدنيا والآخرة؟! ما طلعت شمسٌ ولا غربتْ على أحدٍ بعد النبيين والمرسلين أفضلَ من أبي بكر » [١].

أخبرنا عبد الأول، أخبرنا الداودي، أخبرنا ابن أعين، أخبرنا الفَرَبْري، حدثنا البخاري، حدثني هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا زيد بن واقد، عن بشر ابن عبد اللّه، عن عابد اللّه أبي إدريس، عن أبي الدرداء ﷺ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر ﷺ آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبي ﷺ: « أما صاحبكم فقد غامر »، فسلَّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعتُ إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ، فأقبلت إليك، فقال: « يغفر اللّه لك يا أبا بكر ثلاثًا »، ثم إن عمر ﷺ ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ قالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر [٢] حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه: وقال يا رسول اللّه: أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: « إن اللّه بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر: صدَقْت وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي » مرتين فما أوذي بعدها [٣].

* * *

وقد انفرد أبو بكر ﷺ بأن أفتى في حضرة النبي ﷺ وقدَّمه في الصلاة، ونصَّ عليه نصًّا خفيًّا بإقامته مكانه في الصلاة:

أخبرنا عبد الأول، أنبأنا الداودي، أنبأنا ابن أعين، أنبأنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا الحميدي، حدثنا إبراهيم بن سعيد، عن أبيه، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيتَ إن جئتُ ولم أجدك، كأنها تقول: الموت، قال: « فإن لم تجديني فأتي أبا بكر ». (أخرجاه في الصحيحين) [٤].

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال لعائشة ﷺ: « ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابًا، فإني أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمنٍّ، ويأبى اللّه والمؤمنون إلا أبا بكر » [٥].

* * *

---

(١) ذكر ابن الجوزي نفسه هذا الحديث في كتاب « العلل المتناهية » : ١٨٧/١، ط إدارة العلوم الأثرية (فيصل آباد باكستان) وقال عنه: غير ثابت.

(٢) يتمعر: يتغير من الغضب.

(٣) صحيح البخاري : ٢٠٦/٢.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم : ٣٦٥٩. وصحيح مسلم : ٢٣٨٦.

(٥) صحيح البخاري : ٢٠٦/٢. وصحيح مسلم : ٢٣٨٦.

واعلم أن خِلال أبي بكر ﷺ معلومة، من الورع والخوف والزهد والبكاء والتواضع، وأنه لما استخلف أصبح غاديًا إلى السوق، وكان يَحْلب للحي أغنامهم قبلَ الخلافة، فلما بويع قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا، فقال: بلى لأحلبنها لكن، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلتُ فيه.

* * *

وجميع الصحابة ﷺ اعترفوا بفضله.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا أبو طالب ابن غيْلان، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، أنبأنا أبو بكر بن أبي الدنيا، أنبأنا خالد بن خراش، أخبرنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عتيق، عن الحسن بن أبي الحسين، أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: وددت أني في الجنة حيث أرى أبا بكر.

يا أيها الرافضي لا تسمع مدح أبي بكر مِنْ فِيه، اسمع قولَ عليٍّ ﷺ فيه.

أنبأنا عبد الأول، أنبأنا الداودي، أنبأنا ابن أعْين، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن جامع بن أبي راشد، حدثنا أبو يعلى، عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أيُّ الناس خيرٌ بعدَ رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر، قال: وخشيت أن أقول: ثم من؟ فيقول: عثمان، فقلت: ثم أنت، فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. (انفرد بإخراجه البخاري) (١).

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، أنبأنا أبو الحسين بن المهتدي، أنبأنا القاسم بن حبابة، حدثنا أبو علي إسماعيل بن العباس الوراق، عن أحمد بن منصور بن زاج، حدثني أحمد بن مُصعب، حدثني عمر بن إبراهيم بن خالد القرشي، عن عبد الملك ابن عمير، عن أُسيد بن صفوان قال: لما قُبض أبو بكر الصديق ﷺ وسجِّي عليه ارتجَّت المدينة بالبكاء كيوم قُبض رسول الله ﷺ، قال: فجاء علي بن أبي طالب ﷺ مستعجلًا مُسرعًا مسترجعًا وهو يقول: اليومَ انقطعت النبوة، حتى وقف على البيت الذي فيه أبو بكر فقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنتَ إلفَ رسول الله ﷺ وأنيسه ومُستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أولَ القوم إسلامًا وأخلصهم إيمانًا وأشدّهم [لله] (٢) يقينًا، وأخوفهم لله وأعظمهم غَناء في دين الله ﷻ، وأحْوطهم على رسول الله ﷺ وأحْدَبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبةً، وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم

---

(١) صحيح البخاري : ٢/٢٣٥، ط الخيرية.

(٢) ليست في ت.

درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ هديًا وسمْتًا، وأشرفهم منزلة وأرفعهم عنده وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسوله وعن الإسلام أفضل الجزاء.

صدَّقتَ رسول الله حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله في تنزيله صدِّيقا فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ (١) وآسيته حين بَخِلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة، ثاني اثنين صاحبه في الغار، والمنزل عليه السَّكينة، ورفيقه في الهجرة، وخلَفْته في دين الله وأمته أحسنَ الخلافة حين ارتدوا.

فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، نهضت حين وهَن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسوله إذ وهنوا، كنت خليفةً حقًّا لن تنازَع ولن تضارَع، برغم المنافقين وكبت الحاسدين، قمت بالأمر حين فشلوا فاتبعوك فهُدوا، وكنت أخفضهم صوتًا وأعلاهم فوْقًا، وأقلَّهم كلامًا وأصدقهم منطقًا وأطْولهم صمتًا (٢) وأبلغهم قولًا وأكرمهم رأيًا، وأشجعهم نفسًا، وأشرفهم عملًا، كنتَ والله للدين يَعْسُوبًا (٣)، أولًا حين نفر عنه الناس، وآخِرًا حين أقبلوا.

كنت للمؤمنين أبًا رحيمًا، صاروا عليك عيالًا، حملتَ أثقالَ ما عنه ضعفوا، ورعيتَ ما أهملوا وعلمت ما جهلوا، وشمّرت إذ ظلعوا (٤)، وصبرت إذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا برأيك رُشدهم فظفِروا، ونالوا برأيك ما لم يحتسبوا (٥).

كنت على الكافرين عذابًا صبًّا ولهبًا، وللمؤمنين رحمة وأنسًا وحصنًا، طِرْتَ والله بعَنائها وفزت بحبائها، وذهبتَ بفضائلها وأدركت سوابقها لم تُفلل حجتك ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك ولم يَزِغْ قلبك، فلذلك كنت كالجبال لا تحركها العواصف ولا تزيلها القواصف، كنت - كما قال رسول الله ﷺ - أمنَّ الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكنت - كما قال - ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله تعالى، متواضعًا في نفسك عظيمًا عند الله تعالى، جليلًا في أعين الناس كبيرًا في أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز، ولا لقائل فيك مَهْمز، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيفُ الذليل عندك قويٌّ عزيز حتى تأخذ بحقه، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء، وأقربُ الناس عندك أطْوعهم لله ﷻ وأتقاهم، شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حُكم وحتْم، وأمرُك حلم وحزم ورأيك علم وعزْم، اعتدل بك الدينُ وقَوِيَ بك الإيمان وظهر أمرُ الله فسبقتَ والله سبقًا بعيدًا وأتعبتَ من بعدك إتعابًا شديدًا، وفُزت بالخير فوزًا مبينًا.

---

(١) سورة الزمر: ٣٣.
(٢) ب: صوتًا. محرفة، والتصويب من ت.
(٣) اليعسوب: أمير النحل.
(٤) ظلعوا: ضعفوا.
(٥) ت: ما لم يحسنوا.

فجَلَلْتَ عن البكاء وعظمتْ رزيتك في السماء، وهدّت مصيبتك الأنام، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، رضينا عن اللّه ﷻ قضاءه وسلَّمنا له أمره، واللّه لن يصاب المسلمون بعد رسول اللّه ﷺ بمثلك أبدًا، كنت للدين عِزًّا وحرزًا وكهفًا.

فألحقك اللّه ﷻ بنبيك محمد ﷺ ولا حرمنا أجْرك ولا أضلَّنا بعدك.

فسكت الناس حتى قضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا: صدقت يا خَتَن رسول اللّه ﷺ.

* * *

أنْفـقِ الـمالَ قبل إنـفقاقك العُـمْـ ـــر فـفـي الـدهـر ريبُه ومنُـونهْ
قـلـمـا يـنـفـع الـثـراءُ بـخـيـلًا غلقت في الثرى المهيل رُهونُه (١)
لـو نـجا من حِـمامه جاعِلُ (٢) الما ل مَـعـاذًا له نـجـا قـارونُـهْ
خـازنـوا الـمال ساجنـوه وما كا ن يسعى لساجنٍ (٣) مسجونُه

لمَّا طُبع رسول اللّه ﷺ على أشْرف الأخلاق كان منها الكرم، فأعطى غنمًا بين جبلين، فلما سار في فيافي الجود تبعه صديقه فجاء بكل ماله فقال: ما أبقيتَ؟ قال: أبقيتُ اللّهَ ورسوله.

سبق الـنـاسَ إلـيـهـا صـفـقـةً لـم يـغُـدْ رائـدُهـا عـنـهـا بغـبـنْ
هِـزةٌ للـجـود صـارت نـشْـوةً لم يكدِّر عندها العُرْف (٤) بمنّ
طـلـبـوا الـشـاءَ فـوافـى سـابـقًا جَـرَعٌ غـبَّر في وجـه الـمشنْ (٥)

جاز أبو بكر رضي اللّه تعالى عنه على بلال وهو يعذب، فجذب مغناطيسُ صبر بلال حديدَ صدق الصديق، ولم يبرح حتى اشتراه وكسر قفص حبْسه، فكان عمر ﷺ يقول: أبو بكر سيدنا وأعتقَ بلالًا سيدنا.

تعب في المكاسب فنالها حلالًا، ثم أنفقها حتى جعل في الكسِاء خِلالًا، قال له الرسول: أسْلِمْ، فكان الجواب: نعم بلا لا، ولو لم يفعل في الإسلام إلا أنه أعتق بِلالًا.

أبـو بكـر حـبـا (٦) فـي اللّه مـالًا وأعـتـق فـي مـحـبـتـه بِـلالًا

---

(١) غلقت رهونه: استحقها المرتهن. (٢) الأصل: عاجل. محرفة. (٣) الأصل: ساجن.
(٤) العرف: المعروف. (٥) كذا بالأصل: والجرع: الجمع. والمشن: حلب ما في الضرع.
(٦) حبا: أعطى.

وقد واسى النبيَّ بكل فضلٍ   وأسرعَ في إجابته بلا لا
لو أن البحر يقصده ببعضٍ   لما ترك الإله به بِلالا [١]

كانت فضائله الباطنة مستورة بنقاب: « ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره » فهي مجانسة لمنقبة: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [٢].

إن كان حُب عَتِيقٍ عقْد النواصبِ   فإنني ناصبيٌّ من نشل ناصبي [٣]
من كان خير رفيق لخير صاحب   كهفًا له ومعينًا على النوائب
له الأمانة بالنص غير غاصب   أتشبَّه سترًا بنسج العناكب
وللسّكينة فيه أعلى المناقب   مناقب هُنَّ كالأنجم الثواقبِ

جمع يومَ الردَّة شملَ الإسلام بعد أن نعق غراب البين، وجهز عساكر العزم فمرَّت على أحسن زين، وصاح لسان جِدّه فارتاع من بين الصَّفين فقال: أقاتلهم ولو بابنتيَّ هاتين.

عاد به روض العُلى مُنضَّرًا   من بعدِ ما كان العُلى قد اضمحلْ
سائلْ به يوم بني حنيفةٍ   والبيضُ في بيض الرءوس تنتضلْ
وليس إلا السيفُ قاضٍ في الوغى   ولا رسولٌ غيرَ أطراف الأسَلْ [٤]
كم خَلَلٍ رَمَّ ولولا عزْمُه   ما رُمّ في الإسلام هذاك الخللْ
وكم له من نائلٍ يسير ما   بين الأنامِ ذكرُه سيرَ مثلْ
سكينةُ اللَّه عليه أُنزلتْ   وفضله في سورة الفتح نزَلْ
أُقسم باللَّه يمينًا صادقا   لو فاضل الأملاكَ بالصدق فضَلْ

* * *

من نهض كنهضته يوم الردة، ومن عانَى من القوم تلك الشدة، وأيّ إقدام يشبه تلك الحدّة، كانت آراؤه من التوفيق مستمَدَّة.

لم يشمحوا بزمام أمْرهمُ له   حتى رأوه لكل خيرٍ جامعا
لم يرْهبوه ولا اتقوه مخافةً   جيشًا أطلَّ ولا حُسامًا قاطعا
كلا ولا خافوا بوائق بأسه   إنْ خالفوه ولا رأوه مخادعا

(١) البلال: الندوة. (٢) سورة النجم: ١٠.
(٣) النواصب: من يفضلون أبا بكر. وكان الشيعة يرمونهم ببغض علي عليه السلام.
(٤) الأسل: الرماح.

لكنهم علموا شريفَ محلِّه　　عند الرسول تُقًى وقَدْرًا بارعا
ورأوا نظامَ الدين عن آرائه　　مُستحكمًا وسَنَى الشريعة طالعا
أردى حنيفةَ واليمامة إذ طغَتْ　　فأعادَ مأنوسَ الديار بلاقعا

أترى تقدَّم أبو بكر لكسل؟ أو مُدِح بالبخل؟! كلا بل هانت الدنيا لديه إذ عزّت نفسه عليه، لمَّا علم الصديق قُرب الممات فرّق المالَ وتخلل بالعبَا، فخرج من الدنيا قبل أن يُخرج.

يمَّمت هِمَّته قُصوى الورى　　فجرى جرْيَ جوادٍ لجوادِ
يجد المُتلَف من أمواله　　واقعًا منه وقوعَ المستفادِ
فهو لا يَفْتر من سَحِّ الندى　　ببنانٍ سَبِطات لا جِعاد [1]
غير لاهٍ باللُّها [2] بل عالمًا　　أن بذْل العُرف من خير عتادِ [3]
مستزيدًا من فعالٍ جمّة　　ليس فيها لامرئٍ من مُستزادِ
كلُّ ذخرٍ لمعاش عِنْده　　مُقتنًى من فضل زادٍ لمعادِ
سالكًا في كل فجٍّ وحده　　حين لا يوحشه طولُ انفرادِ
وكذاك البدْر يسْري في الدُّجى　　وله من نفسه نورٌ وهادِ

نزع أبو بكر ثوبَ مخيط الهوى فمزَّقه عليٌّ، رمى الصديق جهازَ المطلَّقة فوافقه عليٌّ في نزع الخاتم.

حبَّب الفقرَ إليه أنه　　سُؤددٌ وهو بذاك الفقر يَغْنَى
وشريفُ القوم من يبقي لهم　　شَرَف الذكر وخلَّى المال يَفْنى
ما اطمأنَّ الوفْر في بحبوحةٍ　　فرأيت المجدَ فيها مُطمئنّا
تُهدم الأموال من آساسها　　أبدًا ما دامت العَلْياء تُبنى

توافق أبو بكر وعليٌّ على رفْض الدنيا، فاسلك سبيلهما وجانب الرّفض.

وخير ما يذْخر عبدٌ لغدٍ　　حُبُّ أبي بكر الإمام المرتضى
حبُّ إمامٍ أوضح اللَّه به　　من سبل الإسلام ما كان عَفَا
لم يَعْبد اللات ولكن لم يزل　　معترفًا باللَّه من حين نشا
لأنه كان زميلَ المصطفى　　يجري على منهاجه حين جَرى

---

(١) السبطات: المنبسطة، والجعاد: المنقبضة.　(٢) اللُّها: العطاء.
(٣) الأصل: من غير. محرفة.

وما ارتضاه للصلاة دونهم حتى رآه ذروة لا ترتقى
ثم دعَوْه بعده خليفةً عن ملأ منهم وأعطوه الرّضا
قال أقيلوني فلستُ خيركم فأعظموها وأبَوْا كل الإبَا
واللَّه إني لموالٍ حيدرًا مثل مُوالاتي عتيقًا ذا السَّنا [(١)]
هما إماماي [(٢)] أمني في غدٍ مما أخاف ورجائي واللَّجا [(٣)]
وإن دين الرَّفض كُفرٌ مُوبق فمن صحا من سكْرة الرفضِ نجا

* * *

لقد بان الهدى ولاحت الطريق، فشمِّر أيها البخيل واخرج من المضيق، وإياك والدنيا فكم قتلتْ من صديق! افعل بها فعل عليٍّ أو فِعل الصديق، يا هذا من صفة المؤمن الكرم، والكريم من أعْطى ما لا يجب، وأنت تبخل بالواجب، يا هذا مُؤَدِّى الدَّين لا يُحمد، لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل، يا عجبًا ممن لا يُخرج اليسيرَ المرذول كيف يُطلب منه الكثير المحبوب.

إذا ما شحَّ ذو المال شحَّ الدهرُ بإيهابهْ
إذا لم يُثمر العُودُ فقطع العود أولى بهْ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ... ﴾ [(٤)]

معنى ﴿ تُلۡهِكُمۡ ﴾: أي تشغلكم.

وفي المراد بذكر اللَّه تعالى أربعة أقوال:

أحدها: طاعته في الجهاد، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: الصلاة المكتوبة، قاله عطاء.

والثالث: الفرائض كلها، قاله الضحاك.

والرابع: أنه على إطلاقه فحضَّهم على إدامة الذكر، قاله الزجاج.

قال بعض السلف: كل شيء يشغلك عن اللَّه ﷻ من مال وولد فهو مشئوم عليك.

---

(١) حيدر: يريد عليًا ؑ. وعتيق: أبو بكر الصديق ؓ.

(٢) الأصل: إمامي. (٣) اللجا: الملجأ. (٤) سورة المنافقون: ٩.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم... ۝ ﴾ **في هذه النفقة ثلاثة أقوال:**

أحدها: الزكاة، قاله ابن عباس.

والثاني: النفقة في الحقوق الواجبة بالمال، قاله الضحاك.

والثالث: صدقة التطوع، ذكره الماوردي، فيكون [على] [1] هذا القول ندبًا، وعلى ما قبله واجبًا.

قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ... ۝ ﴾ أي من قبل أن يعاين ما يعلم معه أنه ميت ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ... ۝ ﴾ أي هلّا ﴿ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ... ۝ ﴾ يريد بذلك الاستزادة في أجله ليتصدق.

قوله تعالى: ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿ وأكون من الصالحين ﴾ قال الزجاج: من قرأ ﴿ وأكون ﴾ بالواو فهو على لفظ فأصَّدقَ، ومن جزم ﴿ وَأَكُن ﴾ فهو على موضع فأصدق؛ لأن المعنى: إن أخرتني أصَّدق وأكن، قال ابن عباس: ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أزكِّي مالي، ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾ أي أحجَّ مع المؤمنين، قال: وما من أحد يموت قد كان له مال لم يزكه، وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت.

* * *

واعلم أن أفضل الصدقة في حال الصحة والسلامة:

أخبرنا ابن عبد الواحد، أنبأنا ابن المُذهب، أخبرنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعة، عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول اللَّه ﷺ: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: « أن تصدَّق وأنت شحيح صحيح تأمل البقاء وتخاف الفقر، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقومَ قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان ». (أخرجاه في الصحيحين) [2].

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه، أخبرنا محمد بن علي بن المهتدي، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد بن الصبَّاح، حدثنا محمد بن معْن، حدثنا محمد بن محمد بن حيان، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي حبيبة الطائي، عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الذي يعتق عند الموت كمثل الذي يُهْدِي إذا شبع » [3].

---

(١) سقطت من ب.

(٢) صحيح البخاري: ١/١٨٥. وصحيح مسلم، حديث رقم: ١٠٣٢.

(٣) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم: ٢١٢٣. وأحمد في مسنده، حديث رقم: ٢١٢١١، وهو حديث ضعيف.

وقيل لميمون بن مهران: إن فلانًا أعتق كلَّ مملوك له يعني عند الموت، فقال: يعصون اللَّه مرتين: يبخلون به وهو في أيديهم، حتى إذا صار لغيرهم أسرفوا فيه!

وليعلم البخيل أن ما أخرجه له وما تركه لغيره:

وفي أفراد البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « أيكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ » قالوا: يا رسول اللَّه ما منا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه، قال: « فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر » [١].

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى أو لبس فأبْلى أو أعْطى فأقْنَى، ما سِوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » [٢].

أخبرنا الكَرُوخي، أنبأنا الأزدي والغُورجي قالا: أنبأنا الجرّاحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عائشة ﵂ أنهم ذبحوا شاةً فقال النبي ﷺ: « ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: بقي كلُّها إلا كتفها » [٣].

من علم [٤] فضلَ الإيثار بالصدقة حَمل النفسَ على الإخراج.

بُعث إلى عائشة بمال عظيم ففرقته على الفقراء فقالت جاريتها: لو خبأت درهمًا نشتري به لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكَّرْتيني لفعلت.

بالجد فاز من فاز، وبالعزم جاز من جاز، وما حاز الثناء من للمال حاز.

* * *

وسائل عنهمُ ماذا تقدَّمَهم ... فقلتُ فضلٌ به عن غيرهم بانُوا
كما عرّضَوا للمنايا الحُمْر أنفسهم ... فحانَ قومٌ توقَّوْها وما حانوا
وألهج الحمدَ بالأبطال بينهم ... أنْ ليس بينهم للمال إبطانُ

وا عجبًا لغني يبخل بما يفنى، ولفقير لا يصبر على ما يبقى.

أعاذلُ إن المال غير مُخلَّدِ ... وإن الغِنَى عاريَّة فتزودِ

---

(١) صحيح البخاري: ٩٩/٤.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٩٥٩.

(٣) العبارة محرفة في ب. والتصويب من ت، والحديث رواه الترمذي في سننه، حديث رقم: ٢٤٧٠. وأحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٣٧٢٠، وهو حديث صحيح.

(٤) ت: من علم فضل الصدقة.

فكم من جوادٍ يُفسد اليوم جوده وساوسُ قد خوّفته الفقرَ في غد

كم ناداك مولاك وما تسمع، وكم أعطاك ولكن ما تقنع، لقد استقرضك مالَك فما لك تجمع؟! وضمِن أن تُنبت الحبة سبعمائة وما تزْرع، ليكن همُّك في طلب المال الإفضال به، فإن الشريف الهمة لا يطلب الفضل إلا للفضل.

قال أعرابي لأخيه: إنَّ مالك إن لم يكن لك كنتَ له، فكُله قبل أن يأكلك. كم مُخلِّف لمتخلف، ترك لمن لا يحْمده وقدم على من لا يعذره، ران على القلوب حبُّ الدنيا فجمعتها كفُّ الشرَه، وتمسكت بها أيدي البخل، فلو تلمَّحتَ معنى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ﴾ [1] أو اشتاقت إلى أرباح ﴿ فَيُضَـٰعِفَهُۥ ﴾ [2] لرأيت إنفاق كلِّ محبوب حقيرًا في جنب ما ترجو.

فتدبروا إخواني أحوالكم، وأنفقوا في الخير أموالكم، فإن المال إذا أُخذتم في سيركم لغيركم.

يا مالَ كلِّ جامعٍ وحارث أبشرْ بريبِ حادثٍ ووارثِ

إن الغِنَى والفقرَ غيرُ لابث ولا يهاب الموتُ نفثَ نافثِ

قد يحصد الجنة [3] غير الحارث ويُدْهَق الدلو لغير النابث [4]

جدَّ الزمانُ وهو مثل العابثِ أقْسَم أن يُسيء غير حانث

* * *

أخبرنا محمد بن ناصر، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد ابن جعفر، حدثني أبي، حدثنا المغيرة، حدثنا صفوان، عن يزيد بن ميسرة، قال: كان رجل ممن مضى جمع مالًا فأوعى ثم أقبل على نفسه وهو في أهله فقال: انعمي سنين، فأتاه ملك الموت فقرع الباب فخرجوا إليه وهو متمثل بمسكين فقال لهم: ادعوا لي صاحب الدار، فقال: يَخْرج سيدنا إلى مثلك؟! ثم مكث قليلًا ثم عاد فقرع الباب وصنع مثل ذلك، فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمع سيدهم قعد فزعًا وقال: ليِّنوه بالكلام، فقالوا: ما تريد غير سيدنا بارك اللَّه فيك؟ قال: لا، فدخل عليه فقال له: قم فأوصِ ما كنتَ موصيًا فإني قابضٌ نفسك قبل أن أخرج، قال: فصاح أهله وبكوا ثم قال: افتحوا الصناديق والتوابيت، وافتحوا أوعية الذهب والفضة، ففتحوها جميعًا فأقبل على المال يلعنه ويسبه ويقول: لُعنتَ من مال، أنت الذي أنسيتني ربي تبارك

(١، ٢) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٣) ت: قد يحصد الحبة.

(٤) يدهق: يملأ. والنابث الحافر.

وتعالى، وأغْفلتني عن العمل وأخرتني حتى بلغني أجلي، فتكلم المالُ وقال: لا تسبَّني، ألم تكن وضيعًا في أعين الناس فرفعتك؟ ألم يُر عليك من أثري؟ وكنت تحضر سوقَ الملوك فتدخل ويحضر عبادُ اللّه الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بناتِ الملوك والسادات فتُنكح، ويخطب عبادُ اللّه الصالحون فلا يُنكحون؟ ألم تكن تنفقني في سبيل الخبيث فلا أتعاصَى ولو أنفقتني في سبيل اللّه لم أتعاص عليك؟ فأنت اليوم ألْوم مني، إنما خُلقتُ أنا وأنتم يا بني آدم من تراب، فمنطلِق ببرٍّ ومنطلق بإثم، **فهكذا يقول المال فاحذروا.**

كان ملك الموت يأتي الناس في صورة البشر، فركب بعضُ الجبارين في جُنده يومًا فلقيه ملك الموت فقال: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، فقال: دعني آتي أرضي التي خرجتُ إليها ثم أرجع من موكبي، فقال: لا واللّه لا ترى أرضك أبدًا ولا ترجع من موكبك أبدًا. قال: فدعني أرجع إلى أهلي، فقال: لا واللّه لا ترى أهلك أبدًا فقبض روحه.

وبينا رجل ينظر في أصناف ماله طلع ملك الموت فقال: والذي خوَّلك ما ترى ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك، قال: فالمُهلة حتى أفرّقه، قال: هيهات! انقطعت عنك المهلة.

ولاح ملكُ الموت لرجل فقال لأهله: ايتوني بصحيفة، فقال: ملك الموت: الأمر أعْجل من ذلك، فقبض روحه قبل أن يؤتى بالصحيفة.

إخواني: استدركوا قبل الفوت وانتبِهوا قبل الموت، وأصِيخوا فقد أسمع الصوت.

* * *

سجع على قوله تعالى:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ... ﴾ (١)

وا عجبًا لنفسٍ الموتُ مؤئلها، والقبر منزلها، واللحد مُدخلها ثم يسوء عملها ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

كم قاطعٍ زمانه بالتسويف، بائع دينه بالحبة والرغيف، مشتر للويل بتطفيف الطفيف، يتمنى العَوْد إذا رأت نفسه ما يُذهلها ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

كم مشغولٍ بالقصور يعمرها، لا يفكر في القبور ولا يَذْكرها، يبيت الليالي في فكر الدنيا ويَسْهرها، يجمع الأموال إلى الأموال يثمِّرها، وقع في أشراك المنايا وهو لا يُبصرها،

---

(١) سورة المنافقون: ١١.

أفٍّ لدنيا هذا آخرها، وآه لأخرى (١) هذا أولها ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

إذا ملك شمسَ الحياة المغيب، قام عن المريض الطبيب فأخذ النَّفْسَ من باطنها التوبيخ والتأنيب، فلو رأيتها تُسأل عما بها ولا تجيب من يسألها ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

آه لساعات شديدة الكرُبات، فيها غمرات ليست بنوم ولا سُبات، تتقطع فيها الأفئدة باللوم على الفوات، وتبكي عينُ الأسف لما مضى من هفوات، والمريض ملقًى على فراش الحُرقات، فآه ثم آه من جبال حسرات يحملها ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

لقد صاح بك الصائح بأخذ غادٍ وسلْب رائح، يكفي ما مضى من قبائح، فاقبل اليوم هذه النصائح فإن المسكين من يهملها ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

والحمد لله وحده.

* * *
* *
*

(١) ت: من أخرى.

المجلس التاسع والعشرون

في فضل عمر بن الخطاب

الحمد للَّه خالق كل مخلوق، ورازق كل مرزوق، سابق الأشياء، فما دونه مسبوق، موجد المنظور والملبوس والمذُوق، أنشأ الآدمي بالقدرة من ماء مدفوق، وركَّب فيه العقل يدعو إلى مراعاة الحقوق، والهوى يحثُّ على ما يوجب العقوق، فاحذر وفاق المشتَهى فإنه يرمي لا من فوْق فُوق [١]، فسحَ داودُ لنفسه نظرة فاتسعت الخروق، وغفل ابنه سليمان عن طاعته ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ ﴾ [٢].

أحمده على ما يقضي ويسوق مما يغمّ وما يشُوق، وأُقِرُّ له بالتوحيد هاجرًا يغُوث ويعوق، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله وقد ازدحمت سوقُ الباطل في أرْوج سوق، فدمغ بحقه أهل الزيغ وأربابَ الفسوق، صلى اللَّه عليه وعلى آله ما هبَّ الهواء ولمعت البروق، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق، وعلى عمر الملقب بالفاروق، وعلى عثمان الصابر من الشهادة على مُرّ المذُوق، وعلى عليٍّ مطلِّق الدنيا فما غرّه الزخرف والراووق، وعلى العباس أقرب الكل نسبًا وأخص العروق.

اللَّهم يا مالك المساء والشروق، احفظنا من مساءة الحوادث والطروق، وهبْ لنا من فضلك ما يصفو ويروق، وزد آمالنا من إحسانك فوق ما نرجو ونتوق، وافتح لي وللحاضرين مُوقَ بصر البصيرة لحبيب المُوق.

* * *

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أخبرنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا فزارة بن عمر، حدثنا إبراهيم يعني ابن سعد، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إنه كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناسٌ محدَّثون، وإنه إنْ كان في أُمتي هذه منهم أحد فإنه عمر بن الخطاب ». (أخرجاه في الصحيحين) [٣].

---

(١) رمي فوقًا: رشقًا. (٢) سورة ص: ٣٣.

(٣) صحيح البخاري: ٢٣٨/٢. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٣٩٨، ونص مسلم: « قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » ومعنى محدثون: ملهمون.

واعلم أن عمر ﷺ ممن سبقت له الحسنى، وكان مقدمًا في الجاهلية والإسلام.

أما في الجاهلية فكانت له السِّفارة والمفاخرة، فإن وقع بين قريش وغيرهم بعثوه سفيرًا، وإن فاخرهم حيٌّ بعثوه مفاخرًا ورضوا به.

وأما في الإسلام ففضائله كثيرة.

وهو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزى بن رياح بن عبد اللَّه بن قُرط بن رزاح ابن عدي بن كعب وعند كعب يلقى رسول اللَّه ﷺ في النسب.

* * *

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أنبأنا أبو عمر بن حيُّوية، أنبأنا أبو الحسن بن معروف، أنبأنا الحسين بن الفهم، حدثنا محمد بن سعد، أنبأنا إسحاق ابن يوسف الأزرق، حدثنا القاسم بن عثمان البصري، عن أنس بن مالك ﷺ قال: خرج عمر متقلدًا السيفَ فلقيه رجل من بني زُهرة قال: أين تعمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمدًا، قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صَبأْتَ وتركتَ دينك الذي أنت عليه. قال: أفلا أدلُّك على العجب؟ إن خَتنك وأختك قد صبَوا وتركا دينك الذي أنت عليه. قال: فمشى عمر ذامرًا [١] حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له: خباب، فلما سمع خباب حسَّ عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال: ما هذه الهينمة [٢] التي سمعتها عندكم؟ قال: وكانوا يقرءون: ﴿ طه ﴾ [٣] فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فأعلمكما قد صبأتما، فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحقُّ في غير دينك؟ فوثب عمرُ على خَتنه فوطئه وطئًا شديدًا، فجاءت أخته فدفعتْه عن زوجها فنفحها نفحةً بيده فدمَى وجهها فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك فأنا أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه.

فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، فقالت: إنك رجْس ولا يمسُّه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿ طه ﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [٤] فقال عمر: دلُّوني على محمد، فلما سمع خباب قولَ عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوةُ رسول اللَّه ﷺ لك ليلة الخميس: « اللَّهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام ».

---

(١) ذامرًا: غاضبًا.
(٢) الهينمة: الصوت الخفي.
(٣) سورة طه: ١.
(٤) سورة طه: ١٤.

قال: ورسول اللَّه ﷺ في الدار التي في أصْل الصَّفا، فانطلق عمر حتى أتى الدارَ قال: وعلى باب الدار طلحة وحمزة وأناس من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فلما رأى حمزة وَجَل القوم من عمر قال حمزة: نعم، فهذا عمر فإن يُرد اللَّه بعمر خيرًا يُسلم ويتبع النبي ﷺ وإن يكن غير ذلك يكن قتله علينا هيِّنًا، قال: والنبي ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج رسول اللَّه ﷺ حتى أتى عمرَ فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال: ما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل اللَّه بك ما أنزل بالوليد بن المغيرة! اللَّهم هذا عمر ابن الخطاب، اللَّهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر: أشهد أنك رسول اللَّه فأسلم وقال: اخرج يا رسول اللَّه [١].

وقد روي أنه لما أسلم قال [٢]:

الحمد للَّه الذي وجَبَتْ له ... علينا أيادٍ ما لها غِيَرُ
وقد بدأنا فكذَّبنا وقال لنا ... صدْقَ الحديث نبيٌّ عنده الخبَرُ
وقد ظلمتُ ابنةَ الخطاب ثم هدى ... ربِّي عشيةَ قالوا قد هُدي عمر
وقد ندمْت على ما كان من زلل ... بلطمها حين تُتلى عندها السور
لمَّا دعتْ ربها ذا العرش جاهدةً ... والدمعُ من عينها عجْلان يبتدرُ
أيقنتُ أن الذي تدعوه خالقها ... فكاد يسبقني من عبرة دررُ
فقلت أشهد أن اللَّه خالقنا ... وأن أحمد فينا اليومَ مشتهرُ
نَبِيٌّ صدقٍ أتى بالحق من ثقةٍ ... وافي الأمانةِ ما في عُوده خَوَرُ

* * *

قال ابن عباس: لما أسلم عمر كبَّر أهلُ الدار تكبيرةً سمعها أهلُ المسجد، وقال: يا رسول اللَّه ألسنا على الحق إن مِتْنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، قال: ففيم الاختفاء؟! والذي بعثك بالحق لتخرجنَّ، قال عمر: فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما وأنا في الآخر له كديد [٣] ككديد الطحين، حتى إذا دخلنا المسجدَ نظرتْ قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، قال: فسمَّاني رسول اللَّه ﷺ يومئذ الفاروق، وفرق اللَّه بي بين الحق والباطل.

---

(١) هذه قصة مشهورة عند الأخباريين ولكن سندها ضعيف.

(٢) يظهر وضع هذا الشعر، ولا يعرف عند أحد من أهل العلم بالشعر.

(٣) الكديد: الصوت.

قال ابن مسعود: ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر.

وفي الصحيحين من حديث أنس ﷺ قال: قال عمر: وافقتُ ربي في ثلاثٍ: قلت: يا رسول لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصلى؟ فنزلت ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (١) وقلت: يا رسول اللَّه إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن. فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول اللَّه ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت هذه الآية (٢).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ، عنه ﷺ قال: « بَيْنا أنا نائم رأيتُني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غَيْرتك فولَّيت مدبرًا » فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول اللَّه؟ (٣).

وفيهما من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال لعمر: « والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطانُ قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجّك » (٤).

قال ابن مسعود: لقي رجل من أصحاب النبي ﷺ الشيطان في زقاق من أزقة المدينة فدعاه الجنيُّ إلى الصراع فصرعه الإنسيُّ، فقال: دعني، ففعل، فقال: هل لك في المعاودة ففعل فصرعه فجلس على صدره، فقال: ما الذي يُعيذنا منكم؟ قال: آية الكرسي، فقال رجل لابن مسعود: من ذاك الرجل أعمر هو؟ فعبس وبسَر وقال: ومن عسى أن يكون إلا عمر!

وفي حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « عُمر سراجُ أهل الجنة ».

وفي حديث أبي هريرة عنه عليه السلام قال: « إنَّ اللَّه ﷻ جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وفي حديث أنس عنه عليه السلام أنه قال: « أشدُّ أمتي في أمر اللَّه عمر ».

وفي حديث ابن عباس عنه عليه السلام قال: جاء جبريل عليه السلام فقال: أقرئ عمر السلام وأخبره أن رضاه عِزٌّ وغضبه حِلم.

وفي حديث علي عليه السلام أنه قال: اتقوا غضبَ عمر إذا غضب، فإن اللَّه يغضب إذا غضب (٥).

وفي حديث عقبة بن عامر عنه عليه السلام أنه قال: « لو كان بعدي نبي لكان عمر » (٦).

---

(١) سورة البقرة: ١٢٥.

(٢) صحيح البخاري: ٨٣/٣. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٣٩٩.

(٣) صحيح البخاري: ٢٣٧/٢. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٣٩٤.

(٤) صحيح البخاري: ٢٣٨/٢، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٣٩٦.

(٥) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية: ١٩١/١، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول اللَّه ﷺ.

(٦) رواه الترمذي في سننه، برقم: ٣٦٨٦. وهو حديث صحيح.

كان عمر ﷺ جِدًّا كلُّه وكان يُقدم على صاحب الشريعة وينبسط فيحتمله، لعلمه بصحة قصده.

فمن ذلك: أنه أراد أن يصلي على ابن أُبيٍّ فوقف في صدره وقال: أتصلي عليه؟! وقال رسول اللَّه ﷺ يومًا لأبي هريرة: اذهب بنعليَّ هاتين فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا اللَّه مستيقنًا به قلبه فبشِّره بالجنة، فذهب فلقيه عمر فأخبره الخبر فضرب بين ثدييه حتى خرَّ وقال: ارجع فرجع، فقال: يا رسول اللَّه إني أخشى أن يتَّكل الناس عليها فخلِّهم يعملون، قال: فخلِّهم.

وفي حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «سألت جبريل فقلت: أخبرني عن فضائل عمر؟» فقال: لو كنت معك ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ما نفدت فضائل عمر، وإن عمر حسنة من حسنات أبي بكر» (1) ﵄.

تحدَّث ولا تخرج (2) بكل عجيبة ... عن البحر أو تلك الخلال الزواهرِ
ولا عيب في أخلاقه غير أنها ... فرائد دُرٍّ ما لها من نظائر
يُقرّ لها بالفضل كلُّ مُنازعٍ ... إذا قيل يوم الجَمْع هل من مُفاخرِ

قويتْ شدةُ عمر في الدين فصلُبت عزائمه، فلما حانت الهجرة تسللوا تسلل القطا واختال عمرُ في مشية الأسد، فقال عند خروجه: ها أنا أخرج إلى الهجرة، فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي.

* * *

لما ولي الخلافةَ شمَّر عن ساق جده فكظم (3) على هوى نفسه، وحمل في اللَّه فوق طوْقه.

متيقظ العَزَماتِ مُذ نهضت به ... عزماتُه نحو العُلَى لم يقعدِ
ويكاد من نور البصيرة أن يرى ... في يَوْمه فعلَ العواقب في غدِ

نبذ الدنيا من وراء ظهره فتخفف من الأثقال لأجل السباق، كان يخطب وفي إزاره ثنتا عشرة رقعة، كفَّ كفه عن المال زاهدًا فيه حتى أمْلق أهله.

رأى يومًا صَبِيَّة تمشي في السوق والريح يلقيها لضعفها، فقال: من يعرف هذه؟ فقال

---

(1) هذا الحديث موضوع كما قال الإمام أحمد بن حنبل. انظر اللآلئ المصنوعة: ٣٠٣/١، المكتبة الحسينية القاهرة. وقد ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: ١٩٠/١، وذكر علته.

(2) ت: ولا تجزع.

(3) ت: وكظم.

ابنه عبدُ اللَّه: هذه إحدى بناتك، قال: أي بناتي؟ قال: بنت عبد اللَّه بن عمر، قال: فما بلغ بها ما أرى؟ قال: إمساكك ما عندك، قال: إمساكي ما عندي يمنعك أن تطلب لبناتك ما يطلب الناس؟ أمَا واللَّه ما لك عندي إلا سهمك مع المسلمين وسَعِك أو عجز عنك، بيني وبينكم كتاب اللَّه.

عفَّ عن الدنيا وقد تزخرفتْ ... مُمكنةً وعافها وقد قدرْ
مُحكَّم في الناس يقضي بينهم ... بمحكم الآي ومنصوص السُّورْ
حدَّثت عنه مثلَ ما تحدثت ... عن كرم الأغصان حلْواء الثمرْ

وفي أفراد البخاري أنه قسم مُروطًا بين نساء المدينة فبقي منها مرْط [١] جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا المرْط ابنة رسول اللَّه ﷺ التي عندك، يريدون أمَّ كلثوم بنت علي، قال: أم سليط أحقُّ بها فإنها ممن بايع رسولَ اللَّه ﷺ وكانت تَزْفِر لنا القِرب يوم أُحد [٢].

ورآه طلحة يدخل بيتًا فلما أصبح دخل طلحةُ ذلك البيتَ فرأى عجوزًا عمياء مُقْعدة فقال: ما صنع عندك ذلك الرجل؟ فقالت: إنه يتعاهدني منذ كذا ويأتيني بما يُصلحني ويُخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمُّك يا طلحة! أعثرات عمر تتبع؟!

وروى ثابت عن أنس قال: بينما عمر يعسُّ بالمدينة إذ مر برحبة من رِحابها فإذا هو ببيت من شَعر، فدنا منه، فسمع أنينَ امرأة ورأى رجلًا قاعدًا، فدنا منه فسلم عليه ثم قال: من الرجل؟ فقال: رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله، قال: فما هذا الصوت في هذا البيت؟ قال: امرأة تَمْخض، قال: هل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلق حتى أتى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي: هل لك في أجرٍ ساقه اللَّه إليك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة غريبة تمخض ليس عندها أحد، قالت: نعم إن شئتَ، قال: فخذي ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدُّهن وجيئيني ببُرْمة [٣] وشحم وحبوب، فجاءت به فقال: انطلقي، وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت فقال لها: ادخلي إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له: أوقدْ لي نارًا، ففعل فأوقد تحت البُرمة حتى أنضجها، وولدت المرأة، فقالت امرأته: يا أمير المؤمنين بشِّر صاحبك بغلام، فلما سمع الرجل بأمير المؤمنين هابه فجعل يتنحّى عنه، فقال: مكانك كما أنت،

---

(١) المرط: كساء من صوف أو خز.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ٣٠، ط الخيرية، وتزفر: تحمل.

(٣) البرمة: قِدر من حجارة.

فحمل البرمة عمر ﷺ فوضعها على الباب ثم قال: أشبعيها، ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال: كُلْ ويحك فإنك قد سهرت من الليل، ففعل ثم قال لامرأته: اخرجي، وقال للرجل: إذا كان غد فائتنا نأمر لك بما يصلحك، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه.

وكان يقول: لو مات جَدْي بِطَفّ (١) الفرات لخشيتُ أن يحاسب اللَّه به عمر.

وكان في وجهه خطان أسودان مثل الشِّراك من البكاء، وكان يمر بالآية من ورْده بالليل فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت حتى يُعاد للمرض، وكان يصوم الدهر.

قالت عائشة رضي الله عنها: إذا شئتم أن يطيب المجلس فعليكم بذكر عمر بن الخطاب ﷺ.

كلَّ يومِ مجْد وفخرٌ يشادُ ... وطريفٌ من المنى وتِلادُ (٢)

وكرامٌ من المساعي حِسَانٌ ... عجزتْ عن طِلابها الحُسادُ

هِممٌ دونها الكواكبُ تتلو ... عَزماتٍ للنار فيها اتقادُ

كلما قيل قد دجى ليلُ خَطْب ... فلرأي الفاروق فيه زِنادُ

مُغرم بالمكارم الغُرِّ لمَّا ... ضمَّ أبكارها إليه الولادُ

ساهرُ العين بالعزائم يقظان ... وقد قيَّد العيون الرقادُ

قد كَفتْه المناقبُ المدحَ إلا ... مدْحنا من صفاته يستفادُ

ما زال الإسلام قريرَ العين ما دام مفتوح العين، كان يقول: واللَّه لئن بقيتُ ليأتينَّ الراعي بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو يرعى مكانه.

وقَبض المحْلَ ببسْط راحه ... أغْدَى الجَهامَ جودُها فهتَّنا (٣)

أوصافُه تُملي على مُدَّاحه ... ما سطَّر المجد له ودوَّنا

إذا رواها الدهرُ في أبياته ... طرّبَ إعجابًا بها ولحَّنا

وإنْ بها ورقاءُ ليل غرَّدتْ ... مدَّ إليها كلُّ غُصن فنَنَا

* * *

كان عمر بعد أعماله الجميلة يقول عند موته: الويل لعمر إن لم يغفر اللَّه له!

---

(١) الطف: الشاطئ. (٢) الطريف: الجديد. والتلاد: القديم.

(٣) المحل: الجدب. والجهام: السحاب الذي لا ماء فيه. وهتنا: انصب ماؤه.

وفي الصحيحين أنه لما توفي قال عليٌّ عليه السلام: ما خلَّفت أحدًا أحبَّ إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك يا عمر [١].

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ... ﴾ [٢]

كانت أقدامهم في الدُّجى قائمة، وعيونهم ساهرة لا نائمة، وقلوبهم على الطاعات عازمة [٣]، وهذه أفعال النفوس الحازمة، فوجبت لهم نجاة قطعيَّة جازمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾.

وجوه طال ما غسلتها الدموع، وجوه طال ما أذلها الخشوع، وجوه أظهر عليها الاصفرارَ الجوع، خاطرتْ في المهالك فأصبحت سالمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾.

وجوه أذعنت إذْ عنتْ ولذّت، وجوه أَلِفَت السجودَ فما ملَّت، وجوه توجهت إلينا وعن غيرنا تولَّت، زالت عنها فترة الهجْر وتجلَّت، فحلت غانمة.

سهرهم إلى الصباح قد أثَّر في الوجوه الصِّباح، واقتناعهم بالخبز القفار والماء القَراح، قد عمل في الأجسام والأشباح، وخوْفهم من اجتراح الجناح قد صيَّرهم كمقصوص الجناح، وعلى الحقيقة فكل الأرواح من الخوف هائمة.

تجري دموعهم في الخدود كالمياه في الأخدود، وتعمل نار الحذر في الكُبود فيتمنون عدم الوجود، فهم بين الركوع والسجود، ونَصْب الأقدام القائمة.

يتفكرون في السابقة، ويحذرون من اللاحقة وكأنهم يتقون صاعقة، أو كأن السيوف على أعناقهم بارقة، يا شدة قلقهم من الخاتمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾.

قال المفسرون: معنى قوله تعالى: ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي في نعمة وكرامة ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ المعنى أنها رضيت ثوابَ عملها ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ المنازل ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾ أي كلمة لغو.

* * *

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾:

- طال ما أطالوا البكاء في الليل، تجري دموعهم جرْي السيل، وتستبق في صحراء

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٦٨٥. وصحيح مسلم، حديث رقم: ٢٣٨٩.

(٢) سورة الغاشية: ٨.

(٣) ت: على الطاعة كل ساعة عازمة.

الخدود كالخيل، وإنما يكال للعبد على قدر الكيل، فإذا دخلوا الجنة فلكل [1] عين جارية ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾.

– جنَّ الليلُ وهم قيام، وجاء النهار وهم صيام، وتورَّعوا قبل الكلام، وسلَّموا على الدنيا لدار السلام، فالبطون جائعة والأجساد عارية.

– ائتزروا بمئزر القنوع، وارتدوا برداء الخشوع، واستلذوا بشراب الدموع، ولولا صحو السهر والجوع ما بان عند الجبل هلالُ « يا سارية » [2].

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مُكلَّلة بالزبرجد والياقوت، مرتفعة ما لم يجئ أهلُها، فإذا أراد صاحبها أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم تُرفع.

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [3] قال: « والذي نفسي بيده إنَّ ارتفاعها كما بين السماء والأرض » [4].

قوله تعالى: ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ وهي الأباريق التي لا عُرى لها، موضوعة عندهم؛ وإنما كانت بلا عُرًى لأن العُروة تردُّ الشارب من جهتها وإنما تراد العُروة ليُمسك بها الإناء، وقد قال أبو أمامة: إن الرجل ليشتهي الشراب فيجيء الإناء فيقع في يده فيشرب ثم يعود مكانه، ثم هناك أباريق بعُرى فقد جُمع الشيئان لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ وهي الوسائد واحدها نُمرُقة بضم النون والراء ونِمرقة بكسرهما، ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى جنب بعض ﴿ وَزَرَابِيُّ... ﴿١٦﴾ ﴾ وهي الطنافس لها خمل رقيق ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ كثيرة متفرقة.

يا غافلًا عن هذه الدار، يا راضيًا عن الصَّفا بالأكدار، البِدَار البدار، سابقْ وقوع الموت قبل فوت الاقتدار، ويحك أما ترى سلْب الجار؟! أما يشوقك مدح الأبرار؟! أما تخاف الشَّين أما تحذر العار؟! إلى كم هذا الجهل والنِّفار؟! ما هذا التقاعد والمُحِقُّ قد سار؟! إن طوفان الهلاك قد دار حول الدار، وإن خيرات الأسحار إذا رآها الطرف حار، يا سكران الهوى قد قَتل الخُمار، يا بصيرًا هو أعمى ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [5].

---

(١) ت: فكل.

(٢) يشير إلى قول عمر بن الخطاب لأحد قواده في الفتوح: يا سارية الجبل، أي احذر الجبل أن يأتيك منه الأعداء، فسمعها سارية وهو على بُعْد.

(٣) سورة الواقعة: ٣٦.

(٤) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم: ٢٥٤. وأحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٧٥١. وهو حديث صحيح.

(٥) سورة الحج: ٤٦.

روى ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إنَّ أدنى أهلِ الجنة منزلةً لمن ينظر في ملكه ألفي سنة، وإنّ أفضلهم لمن ينظر في وجه اللَّه ﷻ كلّ يوم مرتين » [١].

قال المفسرون: **لـمَّا نعت اللَّه ﷻ الجنة وما فيها عجب الكفار من ذلك فذكرهم صنعته وقدرته فقال:** ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال قتادة: ذكر اللَّه ﷻ ارتفاع سرر الجنة وفرشها فقالوا: كيف يُصعد إليها؟ فنزلت هذه الآية.

قال العلماء: إنما خصَّ الإبل بالذكر لأن العربَ لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهد الفيل منهم إلا الشاذُّ، ولأنها كانت أَنْفس أموالهم وأكثرها لا تفارقهم، فيلاحظون فيها العبر الدالة على قُدرة الخالق من عجائب خلقها، وهي على عِظمها مُذللة للحمل الثقيل، وتنقاد للصبي الصغير، وليس في ذوات الأربع ما يحمل وِقْره وهو بارِك فيطيق النهوض به سواها.

* * *

يا مقيمًا قد حان سفره، يا من عساكر الموتى تنتظره، سيَعْزل الصحةَ السَّقَم، وسيغلب الوجودَ العدم، الساعات مراحل والموت ساحل، البدار قبل فواته، اجمع الزاد قبل شتاته:

إذا كـنـتُ أعـلـم عـلـمـًا يـقـيـنـا | بـأنَّ جـمـيـع حـيـاتـي كـسـاعهْ
فـلـم لا أكـون ضَـنـيـنًا [٢] بها | وأجـعـلـهـا في صلاحٍ وطـاعـه

كم أخْلى الموت دارًا، كم ترك المعمورَ قفارًا، كم أوقد من الأسف نارًا، كم أذاق الغصص المرة مرارًا، لقد جال يمينًا ويسارًا، فما حابى فقرًا [٣] ولا يسارًا، أين الجيش العرمرم؟! أين الكبير المعظَّم؟! إن الزمان يقدح في يلملم، ألحق أخيرًا بمن تقدم، وبنى يسيرًا ثم هدَّم، بينا يرى بحر الأمل لمن تيمم أتاه فرآه سرابًا فتيمم.

أين الذين على عهد الثرى وطئوا | وحُكِّموا في لذيذ العيش فاحتكموا
ومُلِّكوا الأرضَ من سهلٍ إلى جبل | وخُـوِّلـوا نِـعـمـًا ما مثلـهـا نِعمُ
لم يبق منهمْ على ضنّ القلوب بهم | إلا رسـومُ قُـبـورٍ حَـشْـوهـا رِمـمُ

ساروا إلى دار الجزاء على الأعمال، رحل القوم فاسأل الأطلال، وإنما كانت ففَنِيتْ آجال، لا يجيبون داعيًا، القومُ في اشتغال، غالهم من البِلى أقبح ما غال، آلت أموالهم

(١) الترغيب والترهيب: ٢٥٨/٤، عن الترمذي وأبي يعلى والطبراني.

(٢) الأصل: ظنينًا. (٣) ت: فقيرًا.

إلى أكفَّ الآل، بضَّع الأهل بضائعهم وقفلها إلى الأقفال، وتلذذوا بِكدّ غيرهم فسلْ سالبًا عن شَلْشال [١]، هذا مصيركم عن قريب ما يمر على البال ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [٢].

ومسْنِدون [٣] تعاقروا كأسَ الردى ... ودعا بشُربهم الحِمَامُ فأسرعوا
برَكَ الزمانُ عليهمُ بجِرَانه [٤] ... وهفت بهم ريحُ الخطوب الزّعزعُ
خُرْس إذا ناديتَ إلا أنهم ... وَعظوا بما يزع اللبيبَ فأسمعوا
والدهر يفتك بالنفوس حِمَامه ... فلمن تُعدّ كريمة أو تُجمعُ
عجبًا لمن يُبقي ذخائرَ ماله ... ويظل يحفظهن وهو مضيِّعُ
ولغافلٍ ويرى بكلِّ ثنية ... ملقًى له بطنُ الصفائح مضْجعُ
أتراه يحسب أنهم ما أسْأَروا [٥] ... من كأسه أضعافَ ما يتجرعُ

* * *

كأنكم بالأمور الفظيعة قد حلّت، وبالدنيا التي تولّت قد تولت، وبالنفس العزيزة عند الموت قد ذلَّت، وَيْحًا كَمْ أخطأت وكم قد زلت، متى يقال لهذه الغمرة التي قد جلّت [٦]: قد تجلتْ؟! عجبًا لنفس كلما عقدنا نفعها حلَّت.

أوجز الدهرُ في العظات إلى ... أن جعلَ الصمتَ غاية الإيجازِ
مَنْطقًا ليس بالنثير ولا الشّعـ ... ـر ولا في طرائق الرُّجاز
وعدتنا الأيامُ كلَّ عجيبٍ ... وتلَوْنَ الوعودَ بالإنجاز [٧]
والليالي هوازئٌ راجعاتٌ ... في أبي جادها وفي هوّاز [٨]
أوْعزَ الدهرُ بالفناء إلى النا ... س فواهًا لذلك الإيعاز
أعرِضوا عن مدائح وتهانٍ ... فالمراثي أولى بكم والتعازي [٩]

أحضروا قلوبكم للنصح والتواصي، واحذروا يوم الأخذ بالنواصي، تذكروا جمع

---

(١) الشلشال: التفريق والنثر.
(٢) سورة إبراهيم: ٤٥.
(٣) مسندون: مصعدون في الجبال.
(٤) الجران: الصدر.
(٥) أسأروا: أبقوا.
(٦) جلت: عظمت.
(٧) الأصل: وتكون الوعود. وما أثبته من اللزوميات: ١/٦٣٣.
(٨) لم يرد هذا البيت في اللزوميات وإنما هو من وضع ابن الجوزي.
(٩) اللزوميات لأبي العلاء المعري: ١/٦٣٣، ط صادر.

الداني والقاصي، أسمعتَ يا من يروح في المعاصي ويُبْكر ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وا عجبًا كيف نحدِّث السَّكْرى وقد ملأتهم الغفلة،؟! سكرى ما يعقلون إلا بطارق النُّكْرا، وكم تُلي عليهم الوعظُ ذكرى، هيهات إنما تنفع الذكرى المتذكر.

أيها النصيح أترى المنصوح أصمَّ؟! بين له قُبح ما قد جمع وضمَّ، فإن أفعاله جميعها توجب الذم، ومتى رأيت النسيان للعواقب قد عمَّ، يا من يرى هواه الحاضر وينسى مولاه الناظر، ولا ناصر له إلا الأخير ناصر، علينا أن نقول: تثبَّت وفكر، كأنك بمذلِّ القويِّ ومُفْقر الغنيّ وموقظ الغبيّ وقاصم الفتى الفَتيّ ربَّما يأتي في زيٍّ متنكر.

كم أجرى الموتُ دمعًا وابلًا ورَذاذًا، كم قطع البلاء صحيحًا فجعله جُذاذًا، كم من متجبر أذله فلم يجد منه معاذًا، أتعرف صحة هذا أم تنكر؟!

كم موعوظ زُجر فارعوى، كم فاسدٍ وبِّخ فاستوى، كم مستقيم بالوعظ بعد ما التوى، عادوا إلى الزلل بموافقة الهوى، والمحنةُ أن الهوى يعكّر ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

* * *
* *
*

المجلس الثلاثون

في فضائل عثمان بن عفان

الحمد للَّه الذي لم يزل قديمًا دائمًا، وخبيرًا بالأسرار عالـمًا، قرّب من شاء فجعله صائمًا قائمًا، وطرد من شاء فصار في بيداء الضلال هائمًا، يفعل ما يريد وإن يأْبَ العبد راغمًا، ويقبل توبة التائب إذا أمسى نادمًا، أحمده حمدًا من التقصير سالمًا، وأصلي على رسوله محمد الذي سافر إلى قاب قوسين ثم عاد غانمًا، وعلى صاحبه أبي بكر الذي لم يزل رفيقًا ملائمًا، وعلى عمر الذي يعبد ربه مُسِرًّا كاتمًا، وعلى عثمان الذي قُتل مظلومًا ولم يكن ظالمًا، وفيه أنزل: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ (١) وعلى عليٍّ الذي كان في العلوم بحرًا وفي الحروب صارمًا، وعلى عمه العباس الذي لم يزل حولَ نصرته حائمًا.

اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، واجعل ذكر الآخرة لقلوبنا ملازمًا، ووفقنا للتوبة توفيقًا جازمًا، وذكِّرنا رحيلنا قبل أن نرى الموت هاجمًا، واقبل صالحنا واغفر لمن كان آثمًا.

* * *

أخبرنا هبة اللَّه بن أحمد الحريري، أخبرنا أبو طالب العُشاري، أنبأنا ابن سمعون، حدثنا محمد بن يونس المطرز، حدثنا يعقوب بن إسحاق المكتِّب، حدثنا يحيى بن سليمان المحاربي، حدثنا مِسْعر بن كُدام، عن أبي عطية عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ من أول الليل رافعًا يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول: « اللَّهم عثمان رضيتُ عنه فارض عنه إلى أن طلع الفجر » (٢).

اعلم أن عثمان ﷺ ممن تقدم إسلامه قبل أن يدخل رسول اللَّه ﷺ دار الأرقم، فلما أسلم أخذه عمُّه الحكم بن أبي العاص فأوثقه رباطًا فلما رأى صلابته في دينه تركه، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ومعه فيها رُقيّة بنت رسول اللَّه ﷺ.

حدثنا هبة اللَّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، أخبرنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا الحجاج، حدثنا ليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب، عن يحيى بن سعيد بن العاص، أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدَّثاه أن أبا بكر استأذن على رسول اللَّه ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس

(١) الزمر ٩.

(٢) لم أجده في الكتب الستة ولا في مسند أحمد ولا سنن الدارمي.

مِرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو على حاله، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال: وكذا عمر، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة: « اجمعي عليك ثيابك »، قال: فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت فقالت عائشة: يا رسول اللّه مالي لا أراك فزعت لأبي بكر ولا لعمر كما فزعت لعثمان؟ قال: إن عثمان رجل حييّ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحالة أن لا يبلغ إليّ في حاجته.

قال الليث: وقال جماعة من الناس: إن رسول اللّه ﷺ قال: « ألا نستحي ممن تستحي منه الملائكة؟ » (١).

قال أحمد: وحدثنا أبو قَطن، حدثنا يونس يعني ابن أبي إسحاق، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أشرفَ عثمان من القصر وهو محصور فقال: أنشد باللّه من شهد رسولَ اللّه ﷺ يوم حراء إذ اهتز الجبل فوكزه برجله ثم قال: « اسكن حراء ليس عليك إلا نبيّ أو صدِّيق أو شهيد » وأنا معه؟ فانتشد له رجال، فقال: أنشد باللّه من شهد رسولَ اللّه ﷺ يوم بيعة الرضوان إذ بعثني إلى المشركين أهل مكة قال: هذه يدي وهذه يد عثمان، فبايع لي؟ فانتشد له رجال، ثم قال: أنشد باللّه من شهد رسول اللّه ﷺ يوم قال: « من يوسّع لنا بهذا البيت في المسجد ببيت له في الجنة؟ » فابتعته من مالي فوسعت به المسجد؟ فانتشد له رجال، قال: وأنشد باللّه من شهد رسول اللّه ﷺ يوم جيش العسْرة قال: « من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ » فجهزت نصف الجيش من مالي؟ قال: فانتشد له رجالٌ، قال: وأنشد باللّه من شهد بئر رُومة يباع ماؤها لابن السبيل فابتعتها من مالي وأبحتها ابن السبيل؟ فانتشد له رجال (٢).

وقال عبد الرحمن بن سَمُرة: جاء عثمان بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيشَ العُسرة فصبَّها في حجر النبي ﷺ فجعل يقلِّبها ويقول: « ما ضرَّ عثمانَ ما فعل بعد هذا » (٣).

وقال عبد الرحمن بن خَباب: شهدت رسول اللّه ﷺ حثَّ على جيش العسرة فقام عثمان فقال: يا رسول اللّه عليَّ مائة بعير بأحْلاسها وأقْتابها في سبيل اللّه، ثم حضَّ رسولُ اللّه ﷺ على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول اللّه عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل اللّه، قال عبد الرحمن: فأنا رأيته رسول اللّه ﷺ على المنبر وهو يقول: « ما على عثمان ما عمل بعدَ اليوم » (٤).

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٤٠١.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم : ٤٢٢، وهو صحيح.

(٣) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٣٧٠١. وأحمد في مسنده، برقم : ٢٠١٠٧.

(٤) رواه الترمذي في سننه، برقم : ٣٧٠٠. وابن سعد في الطبقات : ١/٧/٥٥، وهو ضعيف.

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: كنت عند النبي ﷺ فقال: « يا عائشة لو كان عندنا من يحدِّثنا؟ » فقلت: ألا أبعث إلى أبي بكر؟ فسكت، ثم قال: « لو كان عندنا من يحدِّثنا »، فقلت: ألا أبعث إلى عمر؟ فسكت، ثم دعا وصيفًا بين يديه فسارَّه فذهب، قالت: فإذا عثمان يستأذن فأذن له فدخل،فناجاه النبي ﷺ طويلًا، ثم قال: « إن اللَّه عز وجل مُقَمِّصُك بقميص، فإن أرادك المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة ». يقولها له مرتين أو ثلاثًا [(١)].

وقال مطرِّف: لقيت عليًا فقال لي: يا أبا عبد اللَّه ما أبطأ بك عنا؟ أَحُبُّ عثمان؟ أمَا إن قلتَ ذلك لقد كان أَوْصَلنا للرحم وأتقانا للرب تعالى.

وقال الحسن: رأيت عثمان بن عفان يَقِيل في المسجد وهو يومئذ خليفة يقوم وأثر الحصى بجنبه فنقول: هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين.

قال شُرحبيل بن مسلم: كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

وقال ابن سيرين: قالت امرأة عثمان حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يُحْيِي الليل في ركعة يجمع فيها القرآن.

وقال ابن عمر: جاء عليٌّ إلى عثمان يومَ الدار وقد أُغلق الباب ومعه الحسن بن عليّ وعليه سلاحه، فقال للحسن: ادخل إلى أمير المؤمنين وأقرئه السلام وقل له: إنما جئت لنُصرتك فمرني بأمرك، فدخل الحسن ثم خرج فقال لأبيه: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول لك: لا حاجة لي في قتال وإهراق الدماء، قال: فنزع عليٌّ عمامةً سوداء فرمى بها بين يدي الباب، وجعل ينادي: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [(٢)].

وكان علي رضي الله عنه يقول: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال اللَّه عز وجل [فيهم] ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [(٣)].

رأى الرسولَ في منامه ليلة قتله وهو يقول: « أفطرْ عندنا الليلة »، فأصبح صائمًا فلما دخلوا عليه ضربه رجل بالسيف فقطع يده فقال: أمَا واللَّه لأَوّل كَفٍّ خَطَّت المُفَصَّل [(٤)].

* * *

---

(١) رواه الترمذي في سننه، برقم : ٣٧٠٥. وأحمد في مسنده، برقم : ٢٣٩٤٥، وهو صحيح.

(٢) سورة يوسف: ٥٢. (٣) سورة الحجر: ٤٧.

(٤) أي: أنه أول من كتب القرآن لرسول اللَّه ﷺ.

شفَتْ العَبْرة بالنطق شفت وأكفُّ الزَّجْرِ بالوعظِ كَفَتْ
قد رأينا في الدُّنا (١) من عاهدتْ ورأينا غدْرها إذ ما وفتْ
إنْ صفَتْ عادت بتَكْدير الذي قد صفَا يا وَيْحها ما أنصفَتْ
حلفت أن تُخْلف الماضي وما أخلفت إلا بأن قد أَخْلفتْ
وقفتْ لَهْوَ النفوسِ ساعةً ثم غالَتْ وقفَتْ فيما قفَتْ (٢)
ما عَجِبْنا من مِكَرٍّ مَكْرِها بل عجبْنا من نفوسٍ عرَفَتْ

إخواني: قد أعذرتْ إليكم الأيام بمن سُلب من الأنام، وأيقظت الخطوبُ من غفَل ونام، وما على المنذِر قبل الأخذ ملام، أمَا علمتم أن هذه الدنيا غدّارة؟! أمَا بَرْد لذتها ينقلب حرارة؟! أمَا رِبْحها على التحقيق خسارة؟! أمَا يَنْقص الدِّينُ كلما ازدادت عِمَارة؟! لا تغرنكم فكم قد غرت سَيَّارة، أما قتلتْ أحبابها وإليك الإشارة، إذًا قال حبيبها: إنها لي ومعي، قتلتْه وقالت: اسمعي يا جارة، بَيْنا نورها قد لاح وسنَح، ومُحبّها في بحرها قد سبحَ، يسعى في جمعها على أقدام المَرح، كلما جاء بابًا من أبوابها فُتح، وكلما عانَى أمرًا من أمورها صَلح، وكلما لاحتْ له رياض غياضها مَرح، فبَيْنما هو في ذاته يُدير القَدَح، قُدح زناد الغَمّ في حراق الفرح، فمن يستدرك ما فات ومن يداوي ما جَرح، ما نفعه أن نزح الجفنُ دمَعه إذا نزح.

لو رأيته وقتَ التلف شاخصًا، وفي سكرات الأسف غائصًا، وقد عاد ظل الأمل قالصًا، ولونُ السرور حائلًا ناقصًا، ولاح صائد المَنُون لطريدته قانصًا، يتمنى وقد فات الوقت، وينظر إلى نفسه بعين المقت، ويصيح إلى نَصِيحه: قد صدقت، أمَّل فخانه الأمل، وندم على الزاد لمّا رحل، فلو حمَّل حَبْلًا ما حمل.

تمنَّتْ أحاليبَ (٣) الرِّعَاء وخَيْمةً بنَجْدٍ فلم يُقْدَر لها ما تمنَّتِ
إذا ذكرتْ نجدًا وطِيب ترابه وبَرْدَ حصاه آخر الليل حنَّتِ

* * *

(١) الأصل: في الدنيا.

(٢) قفت: أعطت. وغالت: أهلكت.

(٣) الأحاليب: جمع إحلاب وإحلابة، قال في «اللسان»: «والإحلابة: أن تحلب لأهلك وأنت في المرعى لبنًا ثم تبعث به إليهم، وقد أحلبهم، واسم اللبن الإحلابة أيضًا.. يقال: قد جاء بإحلابين وثلاثة أحاليب»، وهذا خاص بالإبل. اللسان: ١/٣٢٠. وفي الأصل: أخاليب. محرفة.

رُبّ يومٍ معدود ليس في العَدد، رحل الإخوان ومرُّوا على جدَد [(١)]، هذه ديارهم سَلُوها ما بقِي أحد، مضت واللَّه الخيل بفرسانها، وتهدمت الحصون على سُكّانها، وخلَتْ ديار القوم من قُطّانها، فجُزْ عليها واعتبر بشأنها.

يا خـليـليَّ أسْعِداني على الوجـ ـد فقد يُسْعد الحميمَ الحمِيمُ
وقِفَا بي على الديار فعندِي مُقْعد من سؤالها ومُقِيمُ

تنبه لنفسك أيها المظلوم، تيقظ من رقداتك فإلى كم نوم، حصِّل شيئًا تُرضي به الخصوم، فتلَك هَمُّ الدنيا فبئس الهموم، أتلعب بالأبتر [(٢)] ولم تشرب دِرْياقَ السُّموم، قد بقي القليل فبادر تحصيل المَروم، هذا هاجم الموت قد تهيَّأ للهجوم.

يا فَتِيَّ الهمِّ مع كِبَره وقليل الحظ من عُمُرهْ
كن مع الدنيا على حذَر فأمانُ المرءِ في حذَرِهْ
واتخذْ زادًا لمنتظَرٍ شأنه إزعاجُ منتظِرهْ

أتجتلي من الهوى كلَّ يوم عروسًا، وتدير في مجالس الغفلة كؤوسًا، وتملأ بالأموال كيسًا كَبيسًا، وتنسى يومًا شديدًا عَبُوسًا؟! كم تَلْقى فيه هولًا وكم ترى بُوسًا تخشع فيه الأبصار وقد كانت شُوسًا [(٣)] وينزعج لزلازله [(٤)] إبراهيم وموسى، والخلائق للفزع قد نكّسوا رءوسًا، وجاءوا عُراةً لا يملكون مَلْبوسًا، وصار كل لسان منطلقٍ محبوسًا، يا من تصير غدًا في التراب مرموسًا، يا من لا يجد في لحده غير عمله أنيسًا، يا من سيعود عُوده بعد التثنّي يَبِيسًا، يا مؤثرًا رَذِيلًا ومُضيعًا نفيسًا، من لك إذا أوقد الموت في الدار وَطِيسًا؟! وأخلَى رَبْعًا قد كان يجمعك مأنوسًا، فالبِدَار البدار لقد رحّل لك عِيسًا، وتب فالتوبة تطرد الشيطان وما يَلْبث الدَّجال مع عيسى.

أفِقْ وابك حانَتْ كَبْرةٌ ومَشِيبُ أمَا للتُّقى والحقِّ فيك نصيبُ
أيا من له في باطن الأرض [(٥)] مَنْزلٌ أتأْنس بالدنيا وأنت غريبُ
وما الدهرُ إلا مَرُّ يومٍ وليلة وما الموتُ إلا نازلٌ وقريب

* * *

(١) الجدد: الطريق السوي. (٢) الأبتر: حية خبيثة.

(٣) الشوس: جمع شوساء، وهي التي تنظر بمؤخر العين كبرًا.

(٤) ت: لهوله. (٥) ب: في باطن الأمر.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ... ﴾ (١)

دار السلام هي الجنة وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها: أن السلام هو الله، وهي داره، قاله ابن عباس والحسن.

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع، قاله الزجّاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ (٢) وحين استقرارهم: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ ﴾ (٣) وكذلك قوله: ﴿ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾ (٤) وعند رؤية ربهم ﷻ: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ ﴾ (٥).

عزَّت الدار وجلَّ المرام، ونال ساكنها فوق المرام، فيا مشغولًا عنها بأضغاث أحلام، وصل كتابُ الملك العلام ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾.

دار الإعزاز والإكرام، بُنيت لقوم كرام، لا غُرم فيها ولا غرام، ما يسكنها من يُضام، ثمنها يا مشتري بيِّن: صلاةٌ وصيام، نعيمها في دوام لذاتها في تمام، والحور في القصور والخيام، شهواتها لم تخطر على الأوهام، انتبهوا لطلبها يا نيام، قد جمعت كلَّ مشتهًى وزادت على كل الغرض المنتهى، عجبًا لمن غفل عنها وسها، انهض لها يا غلام ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾.

أما آن يا صاح أن تستفيقا ... وأن تأتين الحِمَى والعقيقا
وقد ضحك الشيبُ فاحزنْ له ... وصار مساؤك فيه شُروقا
وركبٍ أتاهم وقد عرَّسوا ... على القاع راعي المنايا طُروقا
يُدير عليهم كؤوس المنون ... صَبُوحًا على كرهها أو غَبُوقا (٦)
وما زال فيهم غُراب الحِمام ... يُسمِّعُهم للمنايا نَعيقا
ويَحْجِل في عَرَصات القصور ... حتى أعادَ الفَسيحاءَ ضِيقًا
ألا فازجر النفسَ عن غيِّها ... تَجُوز إليَّ الصراطَ الدقيقا

---

(١) سورة يونس: ٢٥.
(٢) سورة الحجر: ٤٦.
(٣) سورة الرعد: ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة الواقعة: ٢٦.
(٥) سورة الأحزاب: ٤٤.
(٦) الصبوح: الشرب أول النهار. والغبوق: ما يشرب بالعشي.

ودونَ الـصِّـراط لـنـا مـوقـفٌ ... به يتناسى الصديقُ الصديقا
فتُبْصر ماشئت كفًّا يُعضُّ ... وعينًا تسحُّ وقلبًا خفوقا
إذا طبَّقتْ فوقهم لم تكن ... لِتسمع إلا البُكا والشهيقا
شرابُهمُ المُهل في قعْرها ... يقطِّع أوصالَهمْ والعُروقا
أذلك خيرٌ أم القاصراتُ ... تخال مَبَاسِمَهُنَّ البُروقا
قُصرْن على حُبِّ أزواجهنَّ ... مشتاقةٌ تتلقَّى مشُوقا
ويَرْفَأن في سَرقات [1] الحرير ... فتبْصِر عيناك أمرًا أنيقا
وأكوابهم ذهبٌ أحمرٌ ... يطاف بها مُتْرعاتٍ رحيقا
إذا جرت الريح فوق الكثيب ... أثارتْ على القوم مِسْكًا سحيقا
ويومَ زيارتهم يركبون ... إليه من النور نُجُبًا ونُوقا
كلوا واشربوا فلقد طالما ... أقمتم بدار الغرور الحقوقا

* * *

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو النضر، حدثنا زهير، عن سعد [عن] أبي المُدلَّة أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول: قلنا: يا رسول اللَّه حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: « لبنة فضة ولبنة ذهب، مِلَاطها المسك الأذْفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » [2].

وفي حديث آخر أنه ذكر الجنة فقال: « ألا متشمّر لها؟ هي ورب الكعبة ريحانة تهتز ونور يتلألأ، ونهر مطَّرد، وزوجة لا تموت في حبور ونعيم مقام أبدًا » [3].

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ... ﴿٢٥﴾ ﴾:

عمَّ بالدعوة وخصَّ بالهداية إذ الحكم له في خلْقه.

---

(١) السرقات: جمع سرقة وهي شقة الحرير.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم : ٢٩٨٣. والترمذي في سننه، حديث رقم : ٢٥٢٥، وهو حديث صحيح.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم : ٤٣٢٣، وهو حديث ضعيف.

- وفي الصراط المستقيم أربعة أقوال:

أحدها: كتاب اللَّه، رواه عليٌّ عن النبي ﷺ.

والثاني: الإسلام، رواه النوّاس بن سَمْعان، عن النبي ﷺ.

والثالث: الحق، قاله مجاهد.

والرابع: المخرج من الضلال والشبهة، قاله أبو العالية.

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... ﴿٢٦﴾ ﴾:

أحسنوا: عملوا بما أمروا به.

يا من لا يُحسن أن يُحسن اسمع صفة المحسن:

أَقْلَقهم الخوف والفرَق، أحرقهم لذكر الموت الأرق، طعامهم ما حضر من حلال واتفق، يا نورهم في الدجى إذا دَجَى الغسَق، يا حسنهم وجُند الدمع محْدق بسور الحِدَق، انقطع سلك المدامع فسالت على نَسَق، وكتبت على صحائف الخدود العُذرَ لا في ورق، فإن كان المداد سوادًا فذا المدادُ يَقَق (١)، يا لذة تضرعهم ويا طيب الملَق، أذاب الخوفُ أجسامهم فما أبقى إلا الرمق، ربحت تجارتهم، ومتاع الغافل ما نفق.

وما كلُّ من أوْمى إلى العزّ نالـه   ودون العُلَى ضرْبٌ يدمِّي النواصيا

* * *

جرت دموع حُزنهم في سواقي أسفهم، إلى رياض صفائهم فأورقت أشجارُ وصالهم، ودموعهم تجري كالدِّيَم كلما ذكروا زلة قدم، يرعون العهد والذمم، يحذرون نارًا تعيد الجسم كالحِمم، يخافون حرَّها ومن له بتحلّة القسم (٢)، الليلُ قد سجى والدمع قد سَجَم، يراوحون بين الجبهة والقدم، كم بينك وبينهم عند النقد تبين القِيَم، تاللَّه ما جعل من نام مثل من لم ينم، جاءوا من طعام الهوى وآذاك التُّخم، يا قبيح العزائم يا سيئ الهمم، يا مرذول الصفات يا رديء الشِّيم، كأنك بك تتمنى إذا حُشرتَ العدم، نُثرتْ عطايا الأسحار فبسط القوم حجورَ الآمال، كاتبوا بالدموع فجاءهم ألطفُ جواب، اجتمعت أحزان السر على القلب فأوقدَ حوله الأسف، وكان الدمع صاحب الخبر فنمّ.

كان عمر بن عبد العزيز ﷺ كثير البكاء، ما زال يبكي حتى بكى الدمَ، تغريب لونِ المداد يعجب القارئ.

---

(١) اليقق: الشديد البياض.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٧١].

هذا كتابي إليكم فيه معْذرتي ... يُنبيكم اليوم عن سُقمي وعن ألمي
أجللْتُ ذِكْركمُ عن أن يدنِّسه ... لونُ المِداد فقد سطرتُه بدمي
ولو قدرت على جفْني لأجعله ... طِرْسي وأبْري عظامي مؤضع القلم
لكان هذا قليلًا في محبتكمْ ... وما وجدتُ له واللَّه من ألمِ

تاللَّه ما نال الكرامة إلا من قال للكرى: مهْ، إن أردت لحاقهم فطلِّق الهوى طلاق البتات، اخْلُ بنفسك في بيت الفكر وخاطبها بلسان النصح، واعزم على الوفاق من غير تردد، قف على باب الصبر ساعة وقد ركب على قفل العُسر مفتاح النجاح.

* * *

- فأما الحسنى فهي الجنة. والزيادة: النظر إلى اللَّه ﷻ:

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو طالب العُشاري، حدثنا أبو الحسين بن سمعون، حدثنا محمد بن مخْلد، حدثنا حسين بن بحر، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا حماد ابن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صُهيب ؓ أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند اللَّه موْعدًا يريد أن يُنجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يُثقل موازيننا ويُبيض وجوهنا ويُجرنا من النار؟! فيكشف الحجاب فينظرون إلى اللَّه ﷻ فما شيء أُعطوه أحبَّ إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة». (انفرد بإخراجه مسلم)[(١)].

وفي الصحيحين من حديث جرير بن عبد اللَّه أنه قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ [إذ نظر إلى القمر][(٢)] ليلة البدر، فقال: إنكم سترون ربكم ﷻ كما ترون [هذا][(٣)] القمر لا تُضامُون في رؤيته[(٤)].

أخبرنا الكَروخي، أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجرَّاحي، حدثنا المحْبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا سويد بن نصر، أنبأنا ابن المبارك، أخبرنا مالك ابن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدري ؓ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم : ١٨١، ط عبد الباقي.

(٢، ٣) من صحيح البخاري.

(٤) صحيح البخاري : ٢٣١/٤، ط الخيرية. وصحيح مسلم، حديث رقم : ١٨٢، ١٨٣، باختلاف. ومعنى تضامون: تتزاحمون.

وسعْديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: إنِّي لأعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟!! قال: أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا [١].

لـي إلـى وجـهـك شـوقٌ ... وإلـى قُـرْبِـكَ فـاقـهْ

لـيـس لـي والله يـا سُـؤ ... لـي بـهـجْـرانـك طـاقـهْ

لا ولا حَـدَّثْـت عـن ... حـبـك قـلـبـي بـإفـاقـه

سجع على قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾:

سبحان من اختار أقوامًا للإفادة، فصارت نِهْمتهم في تحصيل استفادة، وما زالت بهم الرياضة حتى تركوا العادة، شغلتْهم مخاوفهم عن كل عادة، وأنالهم المقامَ الأسنى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

كلٌّ منهم قد هجر مُراده، وشمّر لتصحيح الإرادة، علت هِمَمهم فطلبوا الزيادة، وعاملوا محبوبهم يرجون وداده، ورفعوا مكتوبَ الحزن وجعلوا الدمع مِداده ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

رفضوا الدنيا شغلًا بالدِّين، وسلكوا منهاج المهتدين، وسابقوا سباق العابدين، فصاروا أئمة للمريدين وقادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

هجروا في محبته كل غرض، وأقبلوا على أداء المفترَض، والتفتوا إلى الجوهر مُعْرضين عن العرض، فأنحلهم الخوفُ فصاروا كالحرَض، يا له من مرض لا يَقبل عيادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

لو رأيتهم والليل قد سجى، وقد أقبلوا إلى باب المرتجَى، فلم يجدوا دون ذلك الباب مُرتجا، حلفوا في ظلام الدجى على هجر الوسادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

سبحان من أنعم عليهم وأفادهم، وأعطاهم مُنَاهم وزادهم، ما ذاك بقوتهم بل هو أرادهم، سبقت إرادتهم تلك الإرادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

لطف بهم وهداهم، وأحسن إليهم وراعاهم، وعطشوا من مياه الهوى فسقاهم، وذلّلوا له النفوس فرقّاهم إلى مقام السادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

أجرى لهم أجرًا لا يوازَى، ووهب لهم في مفازة الخطر مفازًا، وأنجز مؤعدهم يوم اللقاء إنجازًا، وجازى عباده على سابق العبادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۭ ﴾.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، رقم: ٦٥٤٩. ومسلم في صحيحه، رقم: ٢٨٢٩. والترمذي في سننه، رقم: ٢٥٥٥.

المجلس الحادي والثلاثون

في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الحمد للَّه الذي أصبحت له الوجوه ذليلة عانية، وحذَرِته النفوسُ مُجدَّة ومتوانية، وعظ فذمَّ الدنيا الحقيرة الفانية، وشوّق إلى جنة قُطوفها دانية، وخوّف عِطاش الهوى أن يُسقوا من عين آنية، أحمده على تقويم شأنيه، وأستعينه من شر شانئ وشانية. وأحصِّل بتحقيق التوحيد إيمانيه، وأصلي على رسوله محمد صلاةً ممهدة لعزة بانية، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق السابق في الوفاق والاتفاق وفي الدار والغربة في الغار، أربعٌ للفخر بانية، وله فضيلة التخلّل والتقلل والرأفة والخلافة صارت ثمانية، وعلى عمر مقيم السياسة على كل نفس جانية، وعلى عثمان الذي اختاره الرسولُ بعد ابنته للثانية، وعلى عليٍّ المنزل فيه ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (١) وعلى عمه العباس المستسقَى بشيبته فإذا أسباب الغيث والغوث دانية.

* * *

أخبرنا أبو القاسم الكاتب، أنبأنا أبو علي التميمي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مُصعب بن سعد، عن سعد بن أبي وقاص قال: خلّف رسولُ اللَّه ﷺ عليَّ بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول اللَّه تُخلفني في النساء والصبيان؟ قال: « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيَّ بعدي » (٢).

قال أحمد: وحدثنا قُتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، عن سهل ابن سعد أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم خيبر: « لأُعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح اللَّه على يديه يحب اللَّه ورسوله ويحبه اللَّه ورسوله » قال: فبات الناس يدُوكون (٣) أيهم يُعطاها، فلما أصبح الناس غدوْا على رسول اللَّه ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: « أين علي بن أبي طالب؟ » فقيل: هو يا رسول اللَّه يشتكي عينيه قال: « فأرسلوا إليه ». فأُتي به فبصق رسول اللَّه ﷺ في عينيه ودعا له، فبرَأ حتى كأن لم يكن به وجع،

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٤.

(٢) صحيح البخاري : ٧٢/٣، ط الخيرية، وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٤٠٤.

(٣) يدوكون: يخوضون ويتحدثون.

فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول اللَّه أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: « انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه، فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النَّعم » (١).

قال أحمد: وحدثنا ابن نضير، حدثنا الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن زرٍّ بن حُبيش قال: قال علي: واللَّه إنه لـمِمَّا عهد إليَّ رسول اللَّه ﷺ: أنه لا يُبغضني إلا منافق ولا يحبني إلا مؤمن (٢). (انفرد مسلم بإخراج هذا الحديث، واتفقا على الحديثين قبله).

* * *

اعلم أن عليًا ﷺ لا يزاحَم في قُرب نسبه وقد أقرّ الكل بعلمه وفضله.

وبُعث رسول اللَّه ﷺ وهو ابن سبع سنين فتبِعه، ولم يزل معه يكشف الكروب عن وجهه، وصعد على مَنْكِبِ رسول اللَّه ﷺ فرمى صنمًا.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أسباط، حدثنا نعيم بن حكيم، عن أبي مريم، عن علي بن أبي طالب قال: انطلقتُ أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي: « اجلس ». وصعد على منكبي فذهبتُ لأنهض فلم أقْدِر، فرأى مني ضعفًا فنزل وجلس إليَّ نبيُّ اللَّه ﷺ وقال: « اصعد على منكبي »، فصعدت على منكبه، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيَّل إلي أني لو شئت لنلت أُفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صُفْر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنتُ منه قال لي رسول اللَّه ﷺ: « اقذف به »، فقذفت به فكُسر كما تنكسر القوارير ثم نزلت، فانطلقتُ أنا ورسول اللَّه ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشيةَ أن يلقانا أحدٌ من الناس (٣).

* * *

وكان الخلْق يحتاجون إلى علم عليٍّ حتى قال عمر رضي اللَّه عنه: آه من مُعضلة ليس لها أبو الحسن.

فلما وَلِي لم يتغير عن الزهد في الدنيا، وكان أحمد بن حنبل يقول: إن عليًّا ما زانته الخلافة ولكن هو زانها.

---

(١) صحيح البخاري : ٢٤٢/٢، ط الخيرية. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٤٠٦، ومسند أحمد، حديث رقم : ٢٢٣٤.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم : ٧٨. ومسند أحمد، حديث رقم : ٦٤٣.

(٣) مسند أحمد، حديث رقم : ٢٢٣١٤. وهو حديث صحيح.

مـــا زانـــه الـمُـلك إذْ حـــواه بـــل كـــلُّ شـــيء بـــه يُـــزانُ
جَـــرى فـــفـــات الـملوكَ سَبْقًا فـــلـــيـــس قُـــدامـــه عِـــنـــانُ
نـــالـــتْ يـــداه ذُرى مـــعـــالٍ يـــعـــجـــز عـــن مـثـلـهـا الـعـيـانُ

* * *

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أخبرنا جعفر بن أحمد، أخبرنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثني وهيب بن إسماعيل، حدثنا محمد بن قيس، عن علي بن ربيعة، عن علي بن أبي طالب أنه جاءه ابن النبَّاح فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيتُ المال من صفراء وبيضاء، قال: اللَّه أكبر، قال: فقام متوكئًا على ابن النبَّاح حتى قام على بيت المال فقال:

هـــذا جَـنـــايَ وخِـيَـــاري فـيـــه وكـلُّ جـانٍ يـدُه إلـى فـيـه (١)

فأعطى جميعَ ما في بيت المال المسلمين وهو يقول: يا صفراء يا بيضاء غُرِّي غيري. حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، أنبأنا ابن حيوية، حدثنا أحمد ابن معروف، حدثنا الحسين بن الفهم، حدثنا محمد بن سعد، أنبأنا الفضل بن دُكين، حدثنا الحُرُّ بن جُرْموز، عن أبيه قال: رأيت عليًا وعليه قَطَريّتان (٢) إزار إلى نصف الساق ورداء مشمّر، ومعه دَرَّة له يمشي بها في الأسواق يأمرهم بتقوى اللَّه وحسن البيع ويقول: أوفوا الكيل والميزان.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب الصوفي، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق الحيريّ، حدثنا أبو عبد اللَّه بن باكويه الشيرازي، حدثنا عبد اللَّه بن فهد بن إبرهيم الساجي، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا العباس بن بكار، حدثنا عبد الواحد بن أبي عمرو الأسْدِيّ، عن الكلبي، عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضِرار بن حمزة: صفْ لي عليًا، فقال: أو تعفيني، قال: بل تصفه، فقال: أو تعفيني، قال: لا أعفيك، فقال: أما أنْ لا بد فإنه كان بعيد المدى شديد القُوى، يقول فصْلًا ويَحْكم عدلًا، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل

---

(١) الجنى: ما يجنى من الشجر: وهذا المثل لعمرو بن عدي اللخمي ابن أخت جذيمة بن الأبرش، وهو أول من قاله، وأراد علي ﷺ: أنه لم يتلطخ بشيء من فيء المسلمين بل وضعه في مواضعه. اللسان : ١٨/١٦٩.

(٢) القطرية: ثياب خشنة منسوبة إلى قطر: مدينة بالبحرين.

وظُلمته، كان واللَّه غزير الدّمْعة طويل الفكرة، يقلِّب كفّه ويخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما خَشُن ومن الطعام ما جَشُب [١]، كان واللَّه كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن واللَّه مع تقريبه لنا وقُرْبه منا لا نكلمه هيبةً [له [٢]] ولا نبتديه تَعْظِمة، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظِّم أهلَ الدين ويحبُّ المساكين، لا يطْمعُ القويُّ في باطله ولا ييأس الضعيفُ من عَدْله، فأشهد باللَّه لرأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُجوفه وغارت نجومُه، وقد مثُل في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا أَبِي تعرّضت أم بي تشوَّفْتِ [٣]؟ هيهات غُرِّي غيري، قد بَتَتُّك ثلاثًا لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير وعيشك حقير كبير، آه من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق.

قال: فذرفت دموعُ معاوية فما يملكها وهو ينشفها بكُمِّه، وقد اختنق القوم بالبكاء، ثم قال معاوية: رحم اللَّه أبا الحسن، كان واللَّه كذلك، فكيف حُزنك عليه يا ضِرار؟ قال: حزن من ذُبح ولدها في حِجرها فلا ترْقأ عَبرتها ولا يسكن حُزنها [٤].

* * *

الكلام على البسملة

أهْـوى عـلـيًّا وإيـمـانٌ مـحـبـتُـه ... كـم مُشرك دمُه من سيفه وكَفا [٥]

إن كـنـت وَيْحك لم تسمع مناقبه ... فاسمع مناقبه من « هل أتى » وكفى [٦]

كان ﷺ [٧] خليقًا بالسيادة، إن نظرتَ في علمه فقد احتاج إليه السادة، وإن نظرتَ في زهده فلا فراش ولا وِسادة.

وحَنَّ إليه الـمُـلك عـنـد ولاده ... وصافح كفَّاه النّدى وهو في المهدِ

وأحْـكـمـه التجريبُ كهلًا ويافعًا ... يُـنـقِّـله من شأْو مجْد إلى مجدِ

تـنـقّـل مـنـه رتـبـةً بـعـد رتـبـةٍ ... كما ازداد طولُ الرُّمح عَقْدًا على عَقْد

ولـم يَـر إلا الـكـدّ راحـةَ نـفسه ... ونيل المنى يُنسي الفتى تعبَ الكدّ

---

(١) ما جشب: ما غلظ، أو كان بلا أدم. (٢) من ت. (٣) ب: تشوقت.

(٤) ت: ولا تسكن حسرتها. (٥) وكف: سال.

(٦) يشير إلى قوله سبحانه ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الدهر: ٨]. ويروى أنها نزلت في علي وفاطمة ﵉.

(٧) ت: كان علي ﷺ.

إذا لاحظَ الغاياتِ عادتْ فريسةً　　　مقيدة من ناظر الأسد الوَرْدِ (١)

كان يشبه القمر الزاهر والبحر الزاخر والأسد الحادر (٢) والربيع الباكر، أشْبَه من القمر ضوءه وبهاءه، ومن الغراب حذره ومن الديك سخاءه، ومن الأسد شجاعته ومضاءه، ومن الربيع خِصبه وماءه.

لا لاؤه ومـضـاؤه　　　وغـنـاؤه في كـل مـشـهـدْ
فـمـتـى رأى زلَـلًا أقـا　　　لَ وإن رأى خَـللًا تـغـمَّـدْ
ويـخـافـه الـقـومُ الـبـرا　　　ءُ ولا أخـافَ ولا تـهـددْ
لـكـنـه لـبـس الـمـهـا　　　بـةَ فـالـفـرائـص مـنـه تـرْعـدْ
وإذا ارتـأى فـكـمـن رأى　　　وإذا سَـهـا فكمن تـفـقَّـدْ
وإذا تـأمـل أمـره　　　فـهـو الـشـهـاب إذا تـوقَّـدْ
هـذا لـعـمـرك سُـؤدد　　　لـكـنـه أيـضـا مـؤكـدْ

* * *

كان يُظن في الكرم بحرًا، ويُحسب لفظُه للحُسن سِحرًا، إذا أنشأ فصْلًا رأيته يقول فصلًا، وإذا أصَلّ أصْلى (٣)، لم يستطع أحد مثله أصلًا، كان يقول في صفة نفسه:

إذا الـمـشـكـلاتُ تـصـدَّيْـن لـي　　　كشفتُ حقائقـهـا بـالـنَّـظـرْ
وإن رقيتْ (٤) في محل الصواب　　　عـمـياءُ لا يُـجَـلِّـيـهـا الـبـصَـرْ
مُـقـنـعـة بـغـيـوب الأمـور　　　وضعتُ عليها صحيح الفكرْ
لـسـانٌ كـشِـقـشـقـةِ الأرحـبـيّ　　　أو كـلـسـان الـحُـسـام الـذَّكـر (٥)

بادرَ الفضائل فكان في الأوائل، وخاض بحر الشجاعة فلم يرض بساحل، وحاز العلوم فحار لجوابه السائل، ولازم السهر ليسمع: (هل من سائل) وزهد في الدنيا لأنها أيام قلائل.

القـائد الـخيـلَ تُـرْغيـها شـكـائـعها　　　والـمـطـعـم البُزلَ بالديمومة القاعِ (٦)

---

(١) الورد: من أسماء الأسد.　　(٢) الحادر: من أسماء الأسد كالحيدر.

(٣) أصل: كان لضربه صليل في الحرب. وأصلى ضرب ضربًا شديدًا.

(٤) رقيت: صعدت.

(٥) الشقشقة: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج، والأرحبي: فحل، تنسب إليه النجائب الأرحبيات.

(٦) ترغيها: تجعلها ترغي، أي تصوت، وهو في الأصل صوت الإبل. والشكائع: لعلها جمع شكاع وهو جمع =

ما بات إلاّ على همٍّ ولا اغتمضتْ عيناه إلا على عزْمٍ وإزْماعِ
خطيب مَجْمعةٍ تغْلي شقاشقه إذا رموه بأبصار وأسماعِ
يذوق بالعين طعمَ النوم مضمضة إذا الجبان ملا عينًا بتهْجاعِ

سبحان من جمع له المناقب والفضائل، بحر من البراعة ونجم من الشجاعة ثاقب:

مجلِّي الكروب وليث الحروب في الرّهج الأسْطع الأصْهب [١]
وبحر العلوم وغيظ الخصوم متى يصطرع وهمُ يغلبِ
يقلِّب في فمه مِقْولًا [٢] كشقشقةِ الجمل المُصعَبِ
وكان أخًا لنبي الهُدى وخُصَّ بذاك فلا يُكذبِ
وفي ليلة الغار وافى النبيَّ عِشاء إلى الفلق الأشهبِ
وبات دويْنه في الفراش موطِّن نفسٍ على الأصعب
وعمرو بن ودٍّ وأحزابه سقاهمْ حِسا الموت في يثربِ
وسلْ عنه خيبر ذات الحصون تخبرك عنه وعن مَرْحبِ
وسبطاه جدُّهما أحمد فبخ بخْ [٣] بجدهما والأب

كان بعير خوفه إذا جن الليلُ أطّ [٤]، وموسَى ولايته إذا رأى خراج ظُلم بطَّ [٥]، يرمي إلى جوفه لُقم الشعير لا الدجاج ولا البط، تزينت الدنيا لباسها فمزق لباسها وعطّ، كان إذا علا كرب الكرْب علا عليه وحط، ما برى قلم رأس من رؤساء الكفر قط إلا قَط [٦]، رقم الجهاد في وجهه الكريم ضربه في الزمان كله وخط، فيا حُسنه من مكتوب ويا شرفه من خط، كان يفتخر بأخوة الرسول ويحق له ما اشتط.

كريم النّجار عفيفُ الإزار حَوى المكْرُمات وشاد الفَخارا
أعاد وأبْدى وللفضل أسْدى وللقِرْن أرْدَى وللريح بارَى

= شكاعة، وهي شوكة تملأ فم البعير لا ورق لها. والبزل: جمع بازل: وهي الناقة التي طلع نابها. والديمومة: الفلاة الواسعة. والقاع: الأرض السهلة المطمئنة.

(١) الرهج: الغبار، والأسطع: المنتشر، والأصهب: ما فيه صهبة وهي الحمرة.

(٢) المقول: اللسان.

(٣) بخ بخ: كلمة تقال عند الإعجاب والفخر.

(٤) أطت الإبل: أنَّت تعبًا أو حنينًا أو رزمة.

(٥) بط: شق.

(٦) قط: قطع.

كريم الصنيعة ضخم الدسِيعة سهل الشريعة لم يأتِ عارا [١]
غِنّي للفقير ونعم النصير إذا المستجير إليه استجارا
يخوض الغِمار ويحمي الذمار ويبني الفخار ويرعى الجوارا

* * *

طالت عليه أيام الحياة وكان يستبطئ القاتل حبًّا للقاء ربه، فيقول: متى يُبعث أشقاها؟! وجيء إليه فقيل له: خذ حذرك فإن الناس يريدون قتلك، فقال: إن الأجلَ جُنة حصينة، فلما خرج لصلاة الفجر يوم قُتل أُلهم أنْ ترنَّم:

اشددْ حيازيمك [٢] للموت فإنَّ الموتَ لاقيكَ
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديكَ

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المُذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، عن شريك، عن أبي إسحاق، عن هُبيرة قال: خطبنا الحسن ابن علي فقال: لقد فارقكم رجلٌ بالأمس لم يسبقه الأولون بعلْم ولم يدركه الآخرون، كان رسول اللَّه ﷺ يبعثه بالراية جبريلُ عن يمينه وميكائيل عن شماله، فلا ينصرف حتى يفتح له [٣].

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ... ﴾ [٤]

الأبرار واحدهم برٌّ وبارّ، وهو الصادق المطيع ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ أي من إناء فيه شراب كان مزاج الكأس كافورًا، والمطلوب من الكافور بَرْده وريحه.

قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا... ۝ ﴾ قال الأخفش: المعنى: أعني عينًا. وقال الزجّاج: الأجود أن يكون المعنى: من عين.

قوله تعالى: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا... ۝ ﴾ أي منها ﴿ عِبَادُ ٱللَّهِ... ۝ ﴾ أي أولياؤه

---

(١) الدسيعة: العطية الجزيلة. والدسيعة أيضًا: الجفنة والمائدة الكريمة. والشريعة: مورد الشاربة كالمشرعة.
(٢) الحيازيم: جمع حيزوم وهو: ما استدار بالظهر والبطن.
(٣) مسند أحمد، حديث رقم : ١٧٢١، وهو صحيح.
(٤) سورة الإنسان: ٥.

﴿ يُفَجِّرُونَهَا... ۝ ﴾ قال مجاهد: يقودونها إلى حيث شاءوا من الجنة.

قوله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ... ۝ ﴾ فيه إضمار: كانوا يوفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله ﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝ ﴾ أي فاشيًا [1] منتشرًا، فانشقت السموات، وتناثرت الكواكب، وكوِّرت الشمس والقمر، ونُسفت الجبال، وغارت المياه، وتكسَّر كل شيء على وجه الأرض من بناء أو جبل.

قوله تعالى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ... ۝ ﴾ روى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب ﷺ أجَّر نفسه يسقي نخلًا بشيء من شعير ليلةً حتى أصبح، فلما قبض الشعير طحنوا ثُلثه وأصلحوا منه ما يأكلونه، فلما استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه، ثم عملوا الثلث الثاني، فلما تم أتى يتيم فأطعموه، ثم عملوا الباقي، فلما تمَّ أتى أسير من المشركين فأطعموه وطووا فنزلت هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي على حب الطعام، المعنى: وهم يشتهونه، وقال أبو سليمان الداراني: على حب الله ﷻ.

﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا... ۝ ﴾ قال سعيد بن جبير: ما تكلموا بذلك إنما علم الله تعالى من قلوبهم فأثنى عليهم.

و (**اليوم العَبوس**): الذي تعبس فيه الوجوه، فجعل ذلك من صفة اليوم، و (**القَمْطَرير**): الشديد، قال أبو عبيدة: العبوس القَمْطرير والقماطر والعصيب والعصَبْصَب: أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء.

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ... ۝ ﴾ بطاعته في الدنيا ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ... ۝ ﴾ أي حُسنًا وبياضًا في الوجوه ﴿ وَسُرُورٗا ۝ ﴾ في القلوب.

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ... ۝ ﴾ على طاعته ﴿ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝ ﴾ وهو لباس أهل الجنة.

و (**الأرائك**): السُّرر في الحِجال، و (**الزمهرير**): البرد الشديد.

﴿ وَدَانِيَةً... ۝ ﴾ وجزاهم دانية ﴿ عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا... ۝ ﴾ أي قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿ وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا... ۝ ﴾ يتناولون منها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، والأكواب: الأباريق التي لا عُرى لها.

﴿ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ۝ ﴾ أي تلك الأكواب قوارير ولكنها من فضة، قال ابن عباس: لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم يُر الماء من ورائها، وقوارير الجنة

(١) ت: قاسيًا.

من فضة في صفاء القارورة [١].

وقال الفرّاء: هذا على التشبيه، المعنى كأنها من فضة أي لها بياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير.

- **وفي قوله تعالى:** ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ ﴾ **قولان:**

أحدهما: قدروها في أنفسهم فجاءت على ما قدروا، قاله الحسن، قال الزجاج: جعل الإناء على قدر ما يحتاجون إليه.

والثاني: قدَّرها السقاة والخدم على قدر ما يحتاج إليه السادة، فلا يزيد على رِيّهم فيثقل الكف ولا ينقص منه فيطلب الزيادة.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا... ۝١٧ ﴾ أي في الجنة ﴿ كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ ﴾ وهو معروف في الدنيا، وهو عروق تسري في الأرض يؤكل رطْبًا، والعرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر ممزوجين:

وكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسُلافة الخمر

فشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك.

﴿ عَيْنًا فِيهَا... ۝١٨ ﴾ أي يسقون عينًا، و (**سلسبيل**): اسم العين: وهو صفة لماء كان على غاية السلامة، قال مجاهد: سلسبيلًا: حديدة الجرْية، وقال ابن الأنباري: السلسبيل: صفة للماء لسَلَسه [٢] وسهولة مدخله في الحلق، يقال: شراب سلسلٌ وسلسال وسلسبيل.

حكى الماوردي أن عليًا ﷺ قال: معنى الكلام سَلْ سبيلًا إليها.

قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ... ۝١٩ ﴾ من الخُلْد ومنه [٣] الخَلَدة وهي القرْط ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ... ۝١٩ ﴾ منتشرين في الخدم ﴿ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ... ۝٢٠ ﴾ يعني في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا... ۝٢٠ ﴾ لا يوصف ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ ﴾ واسعًا لا يريدون شيئًا إلا قدروا عليه، ولا يدخل عليهم ملك إلا باستئذان.

قوله تعالى: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ... ۝٢١ ﴾ يعني أهل الجنة، والسندس: رقيق الدِّيباج، والإستبرق: غليظه، والخضرة: لون بين البياض والسواد، فهي أصْلَح للعين من غيرها من الألوان وقد ألبس القوم الأساور ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ ﴾ لا يُحْدثون منه ولا يبولون.

﴿ إِنَّ هَٰذَا... ۝٢٢ ﴾ الذي وصف من النعيم ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَآءً... ۝٢٢ ﴾ بأعمالكم ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم... ۝٢٢ ﴾ في الدنيا بطاعة الله ﴿ مَّشْكُورًا ۝٢٢ ﴾ قال عطاء: شكرتكم [٤]

---

(١) ت: القوارير.
(٢) ت: لتسلسه.
(٣) كذا في ت. وفي ب: وفيهم من الخلدة.
(٤) ب: شكرتم.

عليه وأثبْتُكم أفضل الثواب.

وقد ذكرنا أن هذا نزل في حق عليٍّ ﷺ وأهل بيته لإيثارهم بالطعام.

* * *

كان أبو بكر ﷺ قد خطب فاطمة من رسول اللّه ﷺ فقال: « انتظر بها القضاء ». فذكر ذلك لعمر فقال: ردَّك يا أبا بكر، فخطبها عمر، فقال له مثلَ ما قال لأبي بكر. فقال أهلُ عليٍّ لعليٍّ: اخطب فاطمة، فأتى رسولَ اللّه ﷺ فسلَّم عليه فقال: « ما حاجتُك؟ » فقال: ذكرتُ فاطمة. فقال: مرحبًا وأهلًا، فخرج فأخبر الناسَ بما قال، فقالوا: قد أعطاك الأهلَ والمرْحَب، ثم قال له: « ما تُصْدِقها؟ » قال: ما عندي ما أُصْدِقها، قال: « فأين دِرْعك الحُطميّة » [١] قال: عندي، قال: « أصْدقها إياها »، فتزوجها فأُهديت إليه ومعها خَميلة ومرْفقة من أدَم حَشْوها ليف وقربة ومُنخل وقدَح ورحًى وجِراباں، ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبشٍ ينامان عليه بالليل وتَعْلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هي خادمة نفسها، تاللّه ما ضرها ذلك.

وفي الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال لها: « ألا ترضَينْ أن تكوني سيدةَ نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين؟ » [٢].

أخبرنا عبد الأول، أخبرنا الداودي، حدثنا ابن أَعْيَنَ، حدثنا الفَرَبْري، حدثنا البخاري، حدثنا الوليد بن عُيَينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مُليكة عن المِسْوَر ابن مَخْرَمة، أن رسول اللّه ﷺ قال: « فاطمة بَضْعَة مني فمن أغضبها أغضبني ». (أخرجاه في الصحيحين) [٣].

* * *

لما تَبَخْتَرَ جمالُ فاطمة في جلباب كمالها، حين شُروع الشَّرْع في وصف جلالها، أنهض الصديقُ خاطبًا لها في خطابه، فسكت الرسول عن جوابه، فنهض عمر نهوضَ الليث في غابه، فلم يجبه فاشتد الجوى به، فلما نقل عليٌّ أقدامه لخطبتها وجدَ الوحيَ قد سبقه قُدّامه: « إن اللّه أمرني أن أزوّج فاطمة من علي » فتزوجها في صفَر وبنَى بها في ذي الحجة، فولدت له الحسن في نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وولدت الحسين

---

(١) الحطمية: الثقيلة أو التي تكسر السيوف، أو نسبة إلى حطمة بن محارب، رجل كان يعمل الدروع.

(٢) صحيح البخاري : ٢٤٩/٢. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم : ٢٤٤٩.

(٣) صحيح البخاري : ٢٤٧/٢. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم : ٢٤٤٢.

لثلاث خلون من شعبان سنة أربع.

وفي الصحيحين من حديث البرَاء قال: رأيت رسولَ اللَّه ﷺ واضعًا الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: « اللَّهم إني أحبُّه فأحبَّه » [١].

« اللَّهم إني أحبُّه فَأَحِبَّه وأحبَّ من يحبه ».

وفي أفراد البخاري من حديث عمر أن رسولَ اللَّه ﷺ قال في حق الحسن والحسين: « هما رَيحانتاي » [٢].

وقد روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة ».

وكان علي بن أبي طالب يقول: الحسن أشْبه الناسِ برسول اللَّه ﷺ من الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول اللَّه ﷺ ما كان أسفلَ من ذلك.

وفي حديث أم سلمة أن النبي ﷺ جلَّل على الحسن والحسين وعليٍّ وفاطمة كِساء ثم قال: اللَّهم هؤلاء أهلُ بيتي وخاصتي أَذْهِبْ عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، فقالت أم سلمة: وأنا معهم؟ قال: إنك إلى خير [٣].

وكان أحمد بن حنبل إذا سئل عن علي [وأهل بيته] [٤] قال: أهلُ بيت لا يقاس بهم أحد.

* * *

يا بَني بنتِ النبي المصطفى ... حبُّكم يَنْفي عن المرء الظَّنَنْ [٥]
إنَّ للَّهِ علينا مِننًا ... حبُّكم شكرٌ لهاتيك [٦] المِنَنْ
أنتمُ من لم يُردْ مُعْطى الهُدَى ... غير وُدّ الناسِ إياكم ثمَنْ
أنا عبدُ الحق لا عبد الهوى ... لعن اللَّه الهوى فيمن لَعَنْ

لما وقف المسكين ببابهم آثر عليٌّ فوافقت فاطمة:

ملِك حاز العُلا وأذل العِدَى ... واستعبد الزمَنا
طبعه بالجودِ مُمْتزجٌ ... هل رأيتَ الماء واللبنا
كفُّه تهوى السماح ولو ... أنفقتْ من غير ظَهْر غِنَى

---

(١) صحيح البخاري : ٢٤٧/٢، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم : ٢٤٤٢.
(٢) صحيح البخاري : ٢٤٨/٢. (٣) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب رقم : ٢٠.
(٤) من ب. (٥) الظنن: التهم. (٦) الأصل: لهاتين.

خُلِقت للجودِ راحتُه فأرتْك العارضَ الهتِنا (١)
ما يريد الواصفون له حيَّرت أوصافه الفِطَنا
أنطقتْ صُمَّ الصخور فلا عجبٌ أن تُخرس اللَّسنا

لما جاءت المديحة على الإيثار ووصف نعيم الجنة لم يذكر في ذلك الحور حفظًا لقلب فاطمة، وكيف يُذكر الحور وهن مماليك مع الحرة؟!

* * *

سبحان من كسا أهلَ البيت نورًا، وجعل عليهم خندقًا يقي الرجسَ وسُورًا، فإذا تُلقُّوا يوم القيامة تلقوا حُبورًا ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

ادّخرنا لكم نعيمًا مقيمًا، ومنحنا لكم فضلًا جزيلًا عميمًا، وجزينا من كان للفقراء رحيمًا، أوَلسْتم قد أطعمتم مسكينًا ويتيمًا ورحمتم مأسورًا ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

مَنْ مثلُ عليٍّ مَنْ مِثْل فاطمة؟ كم صبرا على أمواج بلايا متلاطمة، وآثرا الفقر ونار الجوع حاطمة، فلهم نضارة الوجوه والأهوال للوجوه خاطمة، يا سرعان ما انقلب حزنهم سرورًا ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

كانت فاطمة بنت النبي ﷺ أحبَّ الناس إليه، وكان عليّ أعز الخلق عليه، وجعل الله ريحانته من الدنيا ولديه، فإذا أحضرهم الحق غدًا عنده ولديه، أكرمهم إكرامًا عظيمًا موفورًا ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

وا عجبًا ذكر في هذه الآيات نعيم الجنات من الملبوس والمشروبات والمطعومات، والأرائك والقصور والعيون الجاريات، ولم يذكر النساء وهن غاية اللذات، احترامًا لفاطمة أشرف البنات، ومن يصف فاطمة الزهراء لا يذكر حُورًا ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

* * *
* *
*

(١) العارض: السحاب. والَهتِن: الشديد المطر.

المجلس الثاني والثلاثون

في فضل عائشة وأزواج النبي ﷺ

الحمد للَّه الواحد القديم، الماجد العظيم، المنَّان الكريم، الرحمن الرحيم، أنعم بالعطايا فإنعامه عميم، وستر الخطايا فهو الغفور الرحيم، ابتلى بما شاء وهو بما يكون عليم، فالواجب في بلائه الرضا والتسليم، سافرت عائشة مع الرسول وكان يخصُّها بالتقديم، فانتزحت لشغلها وانشغل بها عظيم، فحملوا هودجها ظنًّا أن في الكِناس الرِّيم [١]، فصادفها صفوانُ فصدر الرجل سليم، فبلغها قولُ من باتَ يأفك ويهتك الحريم، فما زال السليم يبكي بكاء السَّليم، حتى بدا هلال الهدى في ليل البلاء البهيم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٢].

أحمده كلما عمَّت الغافلين غفلاتهم، وأصلي على رسوله محمد الذي هلكت به عُزَّاهم ولاتُهم، وعلى صاحبه أبي بكر الذي سُلِّمت إليه قبل الموت صلاتهم، وعلى عمر الذي تقومت بعدله حالاتهم، وعلى عثمان مقبول المال إذ مالت بالبُخَلاء آفاتهم، وعلى علي الزاهد في الدنيا إذ منعت أربابها شهواتهم، وعلى أزواج النبي الطاهرات اللاتي نزهت جهاتهم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [٣] وعلى عمه العباس آخذ البيعة له على الأنصار إذ حُمدت مَسْعاتهم.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ [٤]

أجمع المفسِّرون على أن هذه الآية وما يتعلَّق بها بعدها نزلت في قصة عائشة. والإفك: الكذب. والعُصبة: الجماعة.

وفي المخاطب بقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ قولان:

أحدهما: عائشة وصفوان بن المعطَّل.

والثاني: رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وعائشة، والمعنى: أنكم تُؤجرون فيه، والأجر يغطِّي المكروه.

---

(١) الكناس: مأوى الظبي. والريم: الظبي.

(٢) سورة النور: ١١.

(٣) سورة الأحزاب: ٦.

(٤) سورة النور: ١١.

وفي هذا تسلية للإنسان لما يصيبه من المكاره، وليعلم أنه ما سلم أحدٌ من شر الناس.

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم ﴾ يعني من العُصْبة الكاذبة ﴿ مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوْضه فيه.

* * *

واعلم أن رسول الله ﷺ كان يُقدِّم عائشة على جميع أزواجه.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: « رأيتك في المنام ورجل يحملك في سَرَقة من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأقول: إن يكُ من عند الله عز وجل يُمْضه » (١).

وكان رسول الله ﷺ تزوج خديجة أول من تزوَّج فولدت له القاسم وعبدالله، وهو الطيب والطاهر، ولد في الإسلام فلقِّب باللقبَين، ومن الإناث: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولم يتزوَّج على خديجة حتى ماتت فتزوَّج سَوْدة بنت زَمْعة ثم عائشة.

ولـمَّا كبرتْ سَوْدة أراد طلاقها فسألته أن يدَعها في أزواجه وجعلت ليلتها لعائشة.

وتزوَّج عائشةَ وهي بنت ستٍّ سنين.

وتزوَّج حفصة فطلقها تطليقة فقال له جبريل: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوامة، فراجعها.

وتزوَّج أم سَلَمة وأم حَبِيبة وزينب بنت جحش وزينب بنت خُزيمة وجُويرية بنت الحارث، وكان قد أصابها في غزاة بني المُصطلِق، فوقعتْ في سهم ثابت بن قيس فكَاتبهَا، فقضى رسولُ الله ﷺ كِتابتَها وتزوجها، فلمَّا سمع الناسُ بذلك: أرسَلوا ما في أيديهم من سبايا بني الـمُصطلق فأُعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت.

وتزوَّج صفيةَ بنت حُيي وميمونة بنت الحارث وبنى بها بسَرِف وقدر الله موتها في ذلك الموضع.

ولما تَعِبتْ خديجة في تربية الأولاد أتاه جبريل فقال له: « اقرأ عليها السلام من ربِّها ومنِّي وبشِّرها ببيت في الجنة مِن قصَب لا صخب فيه ولا نَصَب » (٢).

ولما خطب زينب بنت جحش قالت: ما أنا صانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن في نكاحها، فجاء الرسول ﷺ فدخل عليها، وكانت صوَّامة قوَّامة تعمل بيدها وتتصدق.

---

(١) صحيح البخاري : ٤/١٧٤. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٤٣٨.

(٢) صحيح مسلم، حديث : ٢٤٣٢.

ولما تزوَّج أم حبيبة قدم أبو سفيان المدينة في الحُديبية فطوت فراشَ رسول اللَّه ﷺ وقالت: إنك نجس.

وكان آثر الكلِّ عنده عائشة؛ لأنها جمعت الجمالَ والكمال في الذكاء والفطنة والعلم والفصاحة، فبنى بها وهي بنت تسع سنين.

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أنها قالت: « يا رسول اللَّه أرأيت لو نزلتَ واديًا فيه شجرة قد أُكل منها ووجدت شجرًا لم يؤكل منها في أيها كنت تُرْتع بعيرك؟ قال: في التي لم يُرتع منها » (١) تعني أنه لم يتزوج بكرًا غيرها.

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا ابن المسْلمة، أخبرنا المخلص، أخبرنا البغوي، أخبرنا وهب ابن بقية، حدثنا خالد بن عبد اللَّه الطحَّان، عن خالد الحذَّاء، عن أبي عثمان النهدي، عن عمرو بن العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال: من أحبُّ الناس إليك يا رسول اللَّه؟ قال: « عائشة »، قال: فمن الرجال؟ قال: « أبوها »، قال: ثم من؟ قال: « عمر ». (أخرجاه في الصحيحين) (٢).

أخبرنا أبو منصور القزاز، أنبأنا عبد العزيز بن علي الجُريجيّ، حدثنا المخلص، حدثنا البغَوي، حدثنا أبو بكر بن خلَّاد، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شُعْبة، عن عمر بن مُرة، عن أبي موسى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ». (أخرجاه في الصحيحين) (٣).

وفيهما من حديث عائشة أن الناس كانوا يتحرَّون بهداياهم يومَ عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول اللَّه ﷺ (٤).

وفيهما من حديثها عن النبيّ ﷺ أنه قال: « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ » (٥).

وفيهما من حديثها أن رسول اللَّه ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟ يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها (٦).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، حديث رقم : ٥٠٧٧.

(٢) صحيح البخاري : ٣٠٦/٢. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم : ٢٣٨٤.

(٣) صحيح البخاري : ٢١٩/٢. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم : ٢٤٤٦.

(٤) صحيح البخاري : ٦٤/٢. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم : ٢٤٤١.

(٥) صحيح البخاري : ١٨٥/٣، وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٤٤٨.

(٦) صحيح البخاري : ٦٨/٣، وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٤٤٣.

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال لأم سلمة: « لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحيُ وأنا في لِحَاف امرأة منكن غيرها » (١).

وقال أبو موسى: ما أشكل علينا أصحابَ رسول الله ﷺ حديثٌ قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا.

وقال عُروة: ما رأيت أحدًا من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضةٍ، ولا بحلال ولا بحرام، ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسَب من عائشة.

وكانت غزيرة الكرم، قسمت يومًا سبعين ألفًا وهي ترْقَع درْعها.

وكانت كثيرة التعبُّد (٢) وكانت لها فصاحة.

أخبرنا محمد بن ناصر الحافظ، أخبرنا ثابت بن بنْدار، أخبرنا محمد بن أحمد ابن غالب البُرقاني قال: قرأت على أحمد بن حباب الخوارزمي، حدثنا أبو يعقوب البغدادي، حدثنا الحسين بن علي العجلي، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، لا أدري ذكره عن أبيه أم لا - الشكُّ من أبي يعقوب - قال: بلغ عائشة أن أقوامًا يتناولون أبا بكر فأرسلت إلى أزْفلة « جماعة » (٣) منهم، فلما حضروا أسدلت أستارها ثم دنت، فحمدت الله تعالى وصلَّتْ على نبيّه محمد ﷺ وعذلتْ وقرَّعتْ ثم قالت: أبي وما أبيه! أبى والله لا يعطوه الأبد (٤)، ذاك طوْد منيف وفرع مديد، هيهات كذبت الظنون، أنْجح إذ أكدَيْتم، وسبق إذ ونيتم، سبق الجواد إذا استولى على الأمد [الغاية] فتى قريش ناشئًا وكهفها كهلًا، يفكُّ عانيها، ويَريش مُملقها [فقيرها] ويرأبُ شَعْبها (٥) حتى حلبته قلوبها، ثم استشرى في الله تعالى فما برحت شكيمته وحِمْيته في ذات الله تعالى حتى اتَّخذ بفنائه مسجدًا يُحيي فيه ما أمات المُبطِلون.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ غزير الدَّمعة وَقِيذَ الجوارح شَجِيَّ النَّشيج، فانقضَّت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٦) فأكبرت ذلك رجالات قريش فحَجنَتْ له قسيّها وفوَّقت له سهامها وانتَثلوه غرضًا، فما فَلُّوا له صفاةً ولا قَصفوا له قناة، ومرَّ على سيسائه.

حتى إذا ضرب الدِّينُ بجِرَانه وألقى بَرْكه ورست أوتادُه ودخل الناس فيه أفواجًا ومن كل

---

(١) صحيح البخاري : ٢/ ٢٢٠.

(٢) بعدها في ب زيادة: ويكفيك في مدحها العظيم الشأن، ما نزل في ذلك من القرآن.

(٣) ما بين القوسين تفسير للغريب، وسيأتي إعادة لهذا التفسير بعد نهاية الحديث ولعل إثباته هنا من تصرف الناسخ.

(٤) ج: الأبدي. (٥) الأصل: وبدأت شعبها. محرفة. (٦) سورة البقرة: ١٥.

فرقة أرسالًا وأشتاتًا، اختار اللَّه لنبيه ما عنده، فلما قبض اللَّه تعالى نبيه ﷺ نصَب الشيطان رُوَاقه ومدَّ طُنبه ونصَب حبائله، وظن رجالٌ أن قد تحقَّقت أطماعهم ولات حين الذي يَرْجون، فأنَّى والصديقُ بين أظهُرهم! فقام حاسرًا مُشمِّرًا، فجمع حاشيته ورفع قُطْرَيْه فردَّ نَشز الإسلام على غَرْب، ولمَّ شعثه بطِبّه، وأقام أوْدَه بثِقافه، فابذَقَرَّ النفاقُ بوطأته، وانتاش الدينَ فنعشه، فلما أزاح الحق إلى أهله وقرَّر الرؤوس على كواهلها وحقن الدماء في أهُبها أتته منيتهُ، فسدَّ ثُلْمته بنظيره في الرحمة وشقيقة في السيرة والمعْدَلة، ذاك ابنُ الخطاب، للَّه دَرّ أمٍّ حملتْ به ودَرَّت عليه، فقد أوْحدَتْ به، ففنخ الكفرة وديَّخها، وشرَّد الشِّرك شذر مذَر، ونفَجَ الأرضَ ونخَعها، فقامت أُكلها ولقطتْ حَبّها، ترْأمه ويَصْدف عنها، وتصدَّى له ويأباها، ثم زرع فيها وودَّعها كما صَحِبها، فأروني ما تَرِيبون، أيّ يوم تَنْقمون؟ أيوم إقامته إذ عدَل فيكم؟ أم يوم ظَعْنه فقد نظر لكم؟ أستغفر اللَّه لي ولكم.

وفي هذا الحديث من الغريب: الأزفلة: الجماعة. ويُغْطَوه: ينالوه. وأكْديتم: خِبْتم. وونيتم: فترْتم. والأمد: الغاية. والمملق: الفقير. ويَرْأب: يجمع. والشَّعْب: المتفرق. واستشرى: احتد وانكمش. فما برحت: أي ما زالت شكيمته، وهي الأنَفة والحمية. والوَقِيذ: العليل. والشجيّ: الحزين. والنشيج: صوت البكاء. وانتثلوه: أي مثّلوه غرضًا للرمي. وفَلّوا: كسروا. والصَّفاة: الصخرة الملساء. وقولها على سيسائه: أي على حَدِّه. والجِرَان: الصدر، وهو البَرْك. ومعنى فرفع حاشيته وجمع قُطريه: تحزَّم وتأهب. والقُطْر: الناحية. فرد نشز الإسلام على غَرْب: كذا وقع في الرواية، والصواب على غِرة أي ظِنة. والطب: الدواء. والأود: العوج. والثقاف: تقويم الرماح. وابذقرّ: تفرق. وانتاش الدينَ: أزال عنه ما يخاف عليه. ونعشه: رفعه. والأُهب: جمع إهاب وهو الجلد. وأوْحدَتْ: أي جاءت به منفردًا لا نظير له. ففنخ الكفرة: أذلها. وديخها: أي دوَّخها. ومعنى شذَر مذر: التفريق. ونخع: شق، ومثله نفَج. والأكل: الخير. وتَرأمه: تعطف عليه.

* * *

الكلام على البسملة

بـادِر الأيـام فـالـحـ ... ـيُّ مـن الـموت قـريـبُ
بـيـنـمـا يـخْـطـر فـي أهـ ... ـل الـحِـمَـى لا يَـسْـتـريـبُ
إذ حَـواه الـلـحـدُ يـومًا ... مُـفـردًا فـهـو غـريـبُ
خُـذْ نـصـيبًا قـبـل أن يُـعْـ ... ـجِزَك الـدهـرُ الـمصيبُ

واحـــذر الأخـــرى لـــهـــو لِ يـــومُـــه يـــومٌ عـــصـــيـــبُ
يـــومَ لا يَـــسْـــلـــم مـــغـــرو رٌ ولا يَـــنْـــجـــو مُـــريـــبُ
أطـــع الـــنـــاصـــحَ إذ نـــا داك فـــالـــمـــوت عـجـيـبُ
كـم تـرى نُـسـمـعـك الـنُّـصـح وكـــم لا تـــســـتـــجـــيـــبُ

يا من لا يتعظ بسلف آبائه، يا من لا يعتبر بتلفِ أوِدَّائه، يا أسير أغراضه وقتيل أهوائه، يا من عجزَت الأطباء عن إصلاح دائه، يا مشغولًا بذكر بقائه عن ذكر فَنائه، يا مُعجَبًا بثوب صحته يمشي في خُيَلائه، يا مُعْرِضًا عن نصيحِه مُشْمتًا لأعدائه، يا من يلهو بأمله، ويا من أجلُه من ورائه، يجمع العيب إلى الشيب وهذا من أقبح رائه، كم رأيتَ مستلبًا من سروره ونَعْمائه، كم شاهدت مأخوذًا عن أحبابه وأبنائه، بينا هو في غروره دبَّ الموتُ في أعضائه، بينا جُرَع اللذة فيه شَرِق بمائه، بَيْنا ناظِر النَّظير يُعجبه صار عِبرة لنُظرائه، ماله ضيَّع ماله وبقي في بلائه.

باتـت هُـمـومي تَـسْري طوارقُـهـا أكـفُّ عَـيْـني والـدمـعُ سابـقُـهـا (١)
هـمـا طـريـقـان فـائـز دخـل الـ ـجَـنّـة حَـفَّـت بـه حـدائـقُـهـا
وفرقـةٌ فـي الـجـحـيـم مـع الـشـيـ ـطـان يَـشْـقـى بـهـا مُـوافِـقُـهـا
اقـترب الـوعـدُ والـقـلـوب إلـى الـلـ ـهو وحُـبُّ الـحـيـاة سـائـقُـهـا
مـا رَغـبـة الـنـفـس فـي الـبـقـاء وإنْ عـاشـت قـلـيـلًا فـالـموتُ لاحِـقُـهـا
أيـامـهـا غـايـة إلـيـه ويـحـدو هـا حـثـيـثًـا إلـيـه سـائـقُـهـا
وكـلُّ مـا جـمـعـتْ وأعـجَـبـهـا مـن عَـيْـشـهـا مـرةً مُـفـارِقُـهـا
يـوشـك مـن فـرَّ مـن مـنـيـتـه فـي بـعـض غَـرّاتـه يـوافـقـهـا
مـن لـم يـمـتْ عَـبْـطةً (٢) يمت هرَمًا لـلـمـوت كـأس والـمـرء ذائـقُـهـا

يا مَن تجبَّر على مولاه وتمرد، واستلَّ سيفَ البغي وجَرّد، كم يُنْعَم عليك فتنسى وتجحد، كم تُشيِّع مِن ميت وترى لحد مُلْحَد، يا قليل الزاد وألوية الرَّحيل تُعقد، يا من بين يديه النار بالأحجار توقد، ينزل اللطف في جمع (٣) شَملك وقبيحُ فعلك يَصْعد، يا قليل الانتفاع بالوعظ إلى كم تتزود.

---

(١) الأبيات لأمية بن أبي الصلت ديوانه : ص ٤٣، مع اختلاف.

(٢) مات عبطة: بغير داء.

(٣) ح: في جم شملك.

يا قبيحُ المتجرِّدْ كم علينا تتمردْ
كم نُراعيك ونولـيـ ـك وللإحسان تَجْحدْ
كم أناديك بوعظي أتُرى قلبُك جَلْمَدْ
كم تُرى أنت على الشـ ـرِّ إليه تتزوّد
أوَما تَجْزع مِن نا رِ على العاصين تُوقدْ
فمتى تحذر في الإسـ ـراف ما مثلك يُوعَدْ

لقد نطقت الغِيَر بالعِبَر، ولقد خبَر الأمرَ من عنده خَبر، وإنما ينفع البصر ذا بَصر، فاعجبوا لمقصِّر عمره في قِصَر، يا من لا يُرى من توبته إلا الوعود، فإذا تاب فهو عن قريب يعود، أرضيتَ بفوت الخير والسعود، أأعددتَ عُدّةً لنزول الأخدود؟! أما علمت أن الجوارح من جُملة الشهود؟! تاللَّه إنّ حوض الموت عن قريب مورود، واللَّه ما الزاد في الطريق بموجود، واللَّه إن القيامة تشيّب المولود، واللَّه إن العمر محسوس (١) محدود، والوجوهُ غدًا بين بِيض وسُود، إلى كم هذا الصِّبا والمراح؟! أأبقى الشيب موضعًا للمزاح؟! لقد أغنى الصباحُ عن المصباح، وقام حَرْب المنون من غير سلاح، اعوجَّت القناة بلا قَنا ولا صِفَاح، فعاد ذو الشَيبة بالضعف ثَخين الجراح، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ الصُّراح، وا أسفًا صمَّت المسَامِع والمواعِظُ فِصَاح، لقد صاح لسانُ التحذير: يا صاح يا صاح، وأنّى بالفهم لسكران غير صاحٍ، أسْكَركَ الهوى سُكرًا لا يُزَاح، أوما تفيق حتى يقول الموت لا براح؟! متى يظهر عليك سِيما المتقين؟! متى تترقى إلى مَقَام السابقين؟! كأنك بك تذكر قولي وقد عَرِق الجبين، وخابت الآمال وعبثت الشمال باليمين، وبرِق البصر وجاء الحقُّ اليقين، ولا ينفع الانتباه حينئذ يا مسكين، يا من يوعظ وكأنه ما يسمع، يا مشغولًا بما يفنى يَحْوي ويجمع، يا مَن شَابَ وما تاب في أي شيء تطمع، يا غافلًا والموت على أخْذه قد أزْمع، ستعرف يوم عَرْض الكتاب وسوء الحساب عين مَن تدمع، أتراك يوم الرحيل إذا ضاق رحب السبيل ما تصنع، أتراك بماذا تتقي هَوْل ذاك المصْرَع، عجبًا لك تُؤْثر ما يفنى وتعلم ما يبقى أنفع! يا من أماراتُ طَرده من وجه صَدِّه تَلْمع، لقد نادانا لسانُ حالك بدوام القبيح من أفعالك غير أنَّا فيك نَطْمع.

كم تَعْذلون وعَذْلكم لا ينفعُ ضاعَ الحديثُ فعلِّموا من يَسمعُ

* * *

---

(١) الأصل: محبوس ولعله تحريف. ومعنى محسوس: مقطوع.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ... ﴾ (١)

قد ذكرنا أن هذا نزل في حقِّ عائشة حين قُذفت، وكِبْره بمعنى مُعْظَمه، وقد قرأ ابن عبَّاس (كُبْره) بضم الكاف وهما لغتان، والذي تولى كبره ذلك ابن أُبيّ.

أخبرنا ابن الحُصْين، أخبرنا أبو علي التميمي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبِي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، أخبرني سعيد ابن المسيّب وعُروة بن الزُّبير وعلقمة بن وقَّاص وعبيد اللَّه [بن عبد اللَّه (٢)] ابن عُتْبة، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهلُ الإفك ما قالوا فبرأها اللَّه ﷻ مما قالوا، كلهم حدثني بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثْبت اقتصاصًا، وقد وعيتُ عن كل واحد منهم الحديث الذي حدَّثني، وبعضُ حديثهم يصدِّق بعضًا.

ذكروا أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول اللَّه ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا (٣) أقرع بين نسائه فأيَّتهن خرج سهمها خرج بها رسول اللَّه ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزاة فخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول اللَّه ﷺ وذلك بعد ما أُنزل الحجاب، فأنا أُحمل في هوْدجي وأنزل فيه، فسِرنا، حتى إذا فرغ رسول اللَّه ﷺ من غَزْوه فقَفل ودنونا من المدينة أُذِّن ليلة بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل فلمستُ صدري فإذا عقد من جزْع أظفار (٤) قد (٥) انقطع، فرجعت فالتمست عِقدي، فحَبَسَني ابتغاؤه، وأقبل الرهطُ الذين كانوا يَرْحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خِفافًا لم يُهبَّلن (٦) ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلقة (٧) من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحّلوه ورفعوه، كنت جاريةً حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا.

ووجدت عِقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مُجيب، فيمَّمت منزلي الذي كنت فيه فظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة

---

(١) سورة النور: ١١. (٢) من ت.

(٣) ت: إذا أراد سفرًا. وهي موافقة لرواية الصحيحين.

(٤) الجزع: الخرز. والأظفار: نبت طيب الرائحة. ورواية مسلم ظفار، وهي بلد باليمن.

(٥) ب، ج: وقد انقطع. (٦) يهبلن: يثقلن، وهو لفظ البخاري.

(٧) العلقة: ما يمسك النفس، أي القليل.

في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوان بن المعطّل السلمي ثم الذَّكْواني قد عرَّس [1] من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضرب عليَّ الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، واللَّه ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في حَرِّ الظهيرة، فهلَك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبْره عبد اللَّه بن أُبَيّ بن سَلُول.

فقدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمتها شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء مِن ذلك، وهو يَرِيبني في وجعي أني لا أعرف من رسول اللَّه ﷺ اللُّطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول اللَّه ﷺ ثم يقول: كيف تِيكم؟ فذاك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعد ما نقهتُ وخرجت مع أم مِسطح قِبل المناصع وهو متبرَّزنا ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمرُنا أمر العرب الأول في التنزّه، وكنا نتأذّى بأكنفاتٍ أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأُم مِسْطح وهي بنت أبي رُهم بن عبد المطلب، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّديق، وابنها مِسْطح بن أُثَاثة، فأقبلتُ أنا وبنت أبي رُهم قِبَل بيتي حين فرغنا مِن شأننا فعثرتْ أم مِسْطح في مِرْطها فقالت: تَعِس مِسْطح، فقلت لها: بئس ما قلت، تسبين رجلًا قد شهد بدرًا؟ قالت: أيْ هَنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضًا إلى مرض، فلما رجعت إلى بيتي فدخل عليَّ رسول اللَّه ﷺ فقال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر مِنْ قِبَلهما، فأذن لي رسول اللَّه ﷺ، فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: أيْ بنية هوّني عليك فواللَّه لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثَرْن عليها، قلت: سبحان اللَّه أوَقد تحدث الناسُ بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسولُ اللَّه ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استَلْبثَ الوحيَ يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول اللَّه ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول اللَّه هُمْ أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق اللَّه عليك والنساءُ سواها كثير وإن تسأل

---

(١) عرس: أقام.

الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسولُ اللَّه ﷺ بريرةَ فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبُك من عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيتُ عليها أمرًا قط أَغْمِصه (١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول اللَّه ﷺ فاستعذر من عبد اللَّه بن أبيّ فقال وهو على المنبر: « يا معشر المسلمين مَنْ يَعْذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فواللَّه ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ».

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول اللَّه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحميّة، فقال لسعد بن معاذ: لعمرك لا تقتله ولا تقدر على قَتْله، ولو كان من رَهْطك ما أحببتَ أن يقتل، فقام أُسيد بن حُضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرو اللَّه لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول اللَّه ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول اللَّه ﷺ يخفِّضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يَرْقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمْع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول اللَّه ﷺ فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يُوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهَّد رسول اللَّه ﷺ حين جلس، ثم قال: « أما بعدُ يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك اللَّه ﷻ، وإن كنت أَلْمَمْت بذنب فاستغفري اللَّه وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب اللَّه عليه »، قالت: فلما قضى رسول اللَّه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عن رسول اللَّه ﷺ، فقال: واللَّه ما أدري ما أقول لرسول اللَّه ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني واللَّه قد عرفتُ أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرَّ في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ واللَّه ﷻ يعلم أني بريئة تُصدقوني، فإني واللَّه ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (٢) قالت: ثم تحوّلتُ فاضّجعتُ على فراشي.

---

(١) أغمصه: أعيبه.

(٢) سورة يوسف: ١٨.

قالت: وأنا واللَّه حينئذ أعلم أني بريئة، وأن اللَّه ﷻ مُبرِّئي ببرائتي، ولكن واللَّه ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يُتْلى، ولَشأني كان أحقر في نفسي مِن أن يتكلَّم اللَّه ﷻ فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّه ﷺ في النوم رؤيا يبرئني اللَّه ﷻ بها.

قالت: فواللَّه ما رام رسولُ اللَّه ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحدٌ حتى أنزل اللَّه ﷻ على نبيِّه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء [1] عند الوحي حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجُمان من العرق في اليوم الشاتي من ثِقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول اللَّه ﷺ وهو يضحك، قالت: فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: « أبشري يا عائشة، أمَّا اللَّه ﷻ فقد برَّأك »، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: واللَّه لا أقوم إليه ولا أَحمدُ إلا اللَّه ﷻ الذي أنزل براءتي.

فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ... ﴿١١﴾ ﴾ العشر الآيات [2]، فأنزل اللَّه هذه الآيات [في] [3] براءتي، قالت: فقال أبو بكر: وكان ينفق على مِسْطح لقرابته منه وفقره: واللَّه لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ... ﴿٢٢﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ... ﴿٢٢﴾ ﴾ فقال أبو بكر: واللَّه إني لأحب أن يغفر اللَّه لي، فرجع إلى مِسْطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول اللَّه ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري: « ما علمتِ وما رأيتِ وما بلغك؟ » قالت: يا رسول اللَّه أَحْمي سمعي وبصري، واللَّه ما علمتُ إلا خيرًا، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها اللَّه بالورع، وطفقت أختها حَمْنة بنت جحش تحارب لها فهلكتْ فيمن هلك.

(هذا حديث متفق على صحته) [4].

ونحن نسأل اللَّه تعالى أن يعصمنا من اعتقاد من لا يسمَّى، فإنهم تعتريهم عند ذكر عائشة حُمَّى.

أخبرنا ابن الحُصين، أنبأنا ابن المذْهب، حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنا عبد اللَّه بن خُثيم، حدثني عبد اللَّه بن أبي مُليكة، أنه حدَّثه ذَكْوان حاجب عائشة أنه جاء عبدُ اللَّه

---

(١) البرحاء: الشدة.

(٢) كذا في ت. وفي ب، ج: عشر آيات.

(٣) من ت.

(٤) صحيح البخاري : ٨٥/٢. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٧٧٠.

ابن عبَّاس يستأذن على عائشة فجئت وعند رأسها ابن أخيها عبد اللَّه بن عبد الرحمن فقلت: هذا ابن عبَّاس يستأذن، فأكبَّ عليها ابنُ أخيها، فقال: هذا عبد اللَّه بن عبَّاس، وهي تموت، فقالت: دعني مِن ابن عبَّاس، فقال: يا أماه إن ابن عبَّاس مِن صالحي بنيك يسلِّم عليك ويودعك، فقالت: إيذن له إن شئت، فأدخلته فلما جلس قال: أبشري، ما بينك وبين أن تلقي محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنتِ أحبَّ نساء رسول اللَّه ﷺ إلى رسول اللَّه ﷺ ولم يكن رسول اللَّه ﷺ يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الأبْواء فأصبح رسول اللَّه ﷺ حتى يصبح في المنزل وأصبح الناسُ ليس معهم ماء فأنزل اللَّه تعالى أن يتيمموا صعِيدًا طيبًا، وكان ذلك في سببك، وأنزل اللَّه براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد اللَّه يُذكر فيه اللَّه تعالى إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار، فقالت: دعني منك يا ابن عبَّاس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيًا منسيًا (١).

إخواني: فضائل عائشة كثيرة بعضها يكفيها، وبحسبها أن اللَّه أنزل آيات تُتلى فيها.

أخبرنا ابن الـحُصين، أنبأنا ابن المذهب، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا سُفيان، عن مُجالد، عن الشعبي، عن أبي سَلمة، عن عائشة قالت: رأيت رسول اللَّه ﷺ واضعًا يده على معْرفة فرسٍ وهو يكلم رجلًا قلت: رأيتك واضعًا يديك على معرفة فرس دحية الكلبي وأنت تكلّمه، قال: ورأيتِ؟ قلت: نعم، قال: « ذاك جبريل وهو يقرئك السلام ». قالت: وعليه السلام (٢).

انظروا إخواني: كيف لم يواجهها بالسلام لأجل زوجها، فَمَنْ هذه حالتها مع جبريل كيف يجوز عليها الزُّور والأباطيل؟ أما أهلُ السنة فقلوبهم بالفرح عند ذكر عائشة طائشة، وأما الرافضة فتأخذهم حمَّى نافضة.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي قال: أنشدني عاصم بن الحسين لنفسه:

وحقِّ مَنْ بَعْلُها النبيُّ ومن ... والدها المرتضَى أبو بكرِ
لا حُلت عن مِدحتي لها أبدًا ... حتى أُوارَى في ظُلمة القبرِ
قد تيقنتُ أن والدها ... يشفع فيَّ صبيحة الحشرِ
طاهرةٌ تنتمي إلى نسب ... شرَّفه اللَّه منه بالفخر

(١) رواه البخاري في صحيحه، برقم: ٢٦٦١، ومسلم في صحيحه، برقم: ٢٧٧٠، وأحمد في مسنده، برقم: ٢٥٠٩٥.

(٢) زاد أحمد في مسنده: ٧٥/٦، ورحمة اللَّه وبركاته جزاه اللَّه خيرًا من صاحب ودخيل، فنعم الصاحب ونعم الدخيل. والدخيل: الضيف.

لـمَّـا رمـوْهـا لا درَّ درُّهـم ... بـالـزور والإفـك عـصـبـة الـشـر
بـرَّأهـا الـلَّـه مـن مَـقـالَـتـهـم ... بغير شكّ في مُحكم الـذِّكـر
فـمـا لـهـا مُـشْـبـه يُـسـاجِـلـهـا ... وحـقِّ طـه ولـيـلـة الـقـدر
وكـم لـهـا من فضيلة نـطـقـتْ ... بهـا وذكرٌ يبقى على الـدهـر
قـالـت تُـوفـي الـنـبـيُّ خـالـفـةً ... ما بين سَحْري ومُلتقى نَحْري (١)
فـلا راعـى الـلَّـه من تـنـقُّـصـهـا ... فـمـا لـه فـي الـمـعـاد من عُـذر
أي عـذر لُـمـبـدع رجـسٍ ... مـذهـبـه شـتْـم زوجـة الـطّـهـرِ

سجع:

هي اختيار العظيم العلي للنبي، ومذ طفولتها تُعرف بالعز الأبيّ، ولها عقل الكِبار في سن الصبيّ، وهل يضرها قول الجهول الغبيّ، أو يقدح في ريح المسك الذكي إلا بهيم ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

ما تزوَّج الرسول ﷺ بِكْرًا سِواها، ولا أحبَّ زوجة كحبه إيَّاها، جاء بها الملك في سَرَقة فجلّاها، وتكلَّم اللَّه ببراءتها سبحان من أعطاها، وما يرمي الأصحاء بالسُّقْم إلا سقيم ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

واعجبًا لمبغضيها من هم، إن فهمتَ قولي قلت: إن هُمْ، ضرهم واللَّه ما صدر عنهم، خفَّت واللَّه عقولهم والآفة تُهيم ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ما خفي على حُسَّادها طهارة ذيلها، غير أن الطباع الرديّة في ميلها، هجمت عليها الأحزان برَجِلها وخيلها، فكانت طولَ نهارها وليلها تبكي بكاء اليتيم.

مدوا أبواعهم إلى عرضها فما نالوا، وأكثروا القولَ ظاهرًا وباطنًا واحتالوا، ونَوَّعوا أسباب القذف وتكلَّموا وأطالوا، وهي على طهارتها مما قالوا في مُقْعد مُقيم.

تكلَّموا فيها بتُرَّهات، وراموا ذمَّ السماء وهيهات، يا عائبها إن عرفت عيبًا فهات، كفانا اللَّه شر عقوق الأمهات فإنه قبيح ذميم ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

حُوشيتْ من ريب أو فجور، إنما زيدتْ بما جرى في الأجور، تنزَّهت أمُّ العُدول أن تجور، إنما وقعت في أغباش ليل ظلام ديجور، ثم بَانَ النورُ في سورة النور، فنزل في الكلام القديم: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

---

(١) السحر: الصدر.

المجلس الثالث والثلاثون

في فضل الصحابة ﷺ

الحمد للَّه القديم الأحديّ، العظيم الصمديّ، الدائم الأبديّ، القائم السرمديّ، رفع بقدرته السماء وأجرى بحكمته الماء، وعلّم آدم الأسماء، وأمْكنه من العيش الهنيّ، فخالف بالأكل الصواب، فكشف الخِلافُ عنه الجلباب، فخرج وما يعرف الباب لشؤم ارتكاب المَنْهيّ، واستدرك سالف الفوات، حتى عطفت على تلك العَبرات رحمةُ الراحم الحَفِيّ، فاحذر من الأفعال الخِيات فإنها سبب الالتياث، وتعلَّق بالمستغاث ينقذك من جهل العماء فإنه سريع الفرَج، إذا اشتد الأمر ضيقًا فرَج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [(1)] رفقًا بالضعيف والقويّ.

من لاذَ بجنابه مريضًا صلح، من عاذَ ببابه سائلًا فتح، سبحانه لقد جاد وسمح وحتى على الفاجر الشقيّ، ذلَّ لجلاله من شمخ، وقلَّ لكماله من بذخ، وخرج الليلُ بقدرته وانسلخ عن النهار النقي، تفرد بالإنعام والجود، وأذلَّ الأعناق له بالسجود، وتنزَّه عن مشابهة كل موجود بالوجود الأزلي، سَعِد من بطاعته يلوذ، ونجا من بحريمه يعوذ، وأمره في خلقه نَفُوذ، فما حيلة المرميّ، يعلم خفي الخافي من السر، ويسمع أنين المضطر في الضُّر، ويرى دبيب الذر في البر تحت أخفاف المطي، لا يعزب عن سمعه خفي الرِّكز [(2)]، ولا يمنع أمرَه حصينُ الحرز، تعالى أن يشابه المخلوق في العجز بالعز الأبدي، يوصف بالحياة والكلام والسمع والنَّفْس، وجلّت صفاته عن توهم الحدْس، إنما هو وحيٌ أنزله روح القُدس على قلب النبي، يرزق النمل في الرمل والفرخ في العشّ، ويبعث المُزن بالوبْل والودق والطشّ [(3)]، خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، لا كاستواء البشريِّ.

يحاسب العباد يوم القِصَاص، ويسأل عن خفي الرياء ودقيق الإخلاص، ويتجلَّى في الجنة لأهل الخلاص فيلحقه الرائي ويا عزة المرئي، بيده مُلك الطول والعرض، وإذا جمع الخلائق ليوم العرض، حَارَ من في السموات ومن في الأرض، وانقضت مَشِيدات المبنيّ. موصوفٌ بالرضا ويُحذر منه السخط، معروف بالكرم فإياك والقنَط، شرط عليكم

---

(١) سورة الحج: ٧٨. (٢) الركز: الصوت الخفي.

(٣) الوبل: المطر الشديد. والودق: المطر. والطش: المطر الضعيف.

التقوى فقم بالذي شرط، فإنه لا يَنْسى أجر التقيّ.

لا يخفى عليه خائفة اللحظ، ولا يحتجب عن سمعه خفي اللفظ، وقد نزجرك عن الخطايا بأبلغ الوعظ، وننهاك بالعقلي والحسّي، تنزه عن العنصر والمزاج والطبع، وتقدَّس عن الجوارح وإن وصف بالبصر والسمع، ولا تُعرف صفاته إلا بالنقل والسمع، لا برأي البِدْعيّ.

قضى بالقضاء قبل خلق الخلْق وفرغ، وأنزل القرآن والزمن النَّزْر قد فرغ، لينذركم به ومن بلغ باللسان العربي، وهو المكتوب المسموع المعروف، المحفوظ المتلوّ المألوف، والمتكلم به بالكلام موصوف، تنزَّه عن الخرس والعي، مسطور في الصحائف والأوراق، مُنزل مِن المليك الخلَّاق، أنزله من فوق السبع الطباق على الرسول الأمِّي، كِتَاب معظَّم مُبارك لا يُدانَى في لفظه، ولا يشارك بكشف نوره، كلما تدارك عن بصر البصيرة عمى العميّ، نزل بأمر الملك الجليل على النبي النبيه النبيل، وسُهِّلت تلاوته أي تسهيل حتى على الصبيّ، به فاقت هذه الأمة على الأمم، وبه نُشر لهذا العالم العلَم، ومن حكمته هطلت على القلوب دِيَم [1] فاهتزت ورَبتْ بالريّ، فركب فيها أغراس الإيمان، وأورقت أغصان الإيقان، وانحلّت مُعْوصات الإشكال بالبيان، حتى وصل إلى فهم الأعجمي.

منع حَافِظيه اللعبَ واللَّهو، ودفع عن متدبِّريه البطالة والسهو، فمن استغنى به عن غيره فهو في العيش الرضي، إنه لأجلُّ ما تحركت به الأفواه، كيف لا والمتكلِّم به هو اللَّه، يكون مخلوقًا وقد اتَّصف به الإله، ويلٌ للمعتزليّ.

لا يَخْلَق عن كثرة التكرار ولا يبلى، لا يقدر الخلق على مِثله حاشا وكلا، تعرف الملائكة كل بيت فيه يتلى كمعرفتهم بالكوكب الدريّ.

فاسلك في اعتقادك طريق السلف المرضيّ، وخذ بملازمة السُّنن بالسَّنن السوي، هذا مذهب المسلم وعَقْد الحنبلي.

أحمده على الفهم القوي، وأستعيذه من الشيطان الرجيم الغَويّ، وأشهد له بالتوحيد شهادةً زاد صفاؤها على الوصف العُرْفي، وأن محمدًا عبده ورسوله استخرجه من العنصر الزكي، فبشَّر بولادته انشقاقُ الإيوان الكِسْروي، وجمَّله بنور الهيئة قبل الزي، ونصَره بالرعب قبْل المَشْرَفي [2]، وأرسله بالدليل الجليّ والحكم الشرعي، وزهّده في مجالسة الغني الغبي، ورغَّبه في صحبة الفقير من الدنيا الخلي، وعاتَبه في صهيب الرومي وبلال الحبشي والفقير الضعيف القصي ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [3]

---

(١) الديم: جمع ديمة وهي السحابة الممطرة. (٢) المشرفي: السيف.

(٣) سورة الأنعام: ٥٢.

وصلى اللَّه على محمد القرشي الهاشمي المكِّي الزّمزمي الأبطحي المدني التِّهَامِي، وعلى صاحبه المخصوص بفضيلة ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ (١) وهو في القبر مُضاجعه كهاتين، كيف لا وقد كانا رفيقين في الزمان الجاهليّ، وعلى الذي كانت الشياطين تَفْرَق مِن ظله وتتفرق هيبةً من أجله، إذا سمعوا خَفْق نعله هربوا من الأَحْوذيّ (٢) وعلى مُصابر البلاء من أيدي الأعداء الذي يستحي منه ملائكة السماء، سلام اللَّه على ذاك الحييّ، وعلى الذي مُلئ علمًا وخوفًا، وعاهد على ترك الدنيا فأوفى، ونحن واللَّه نحبه أوفى من حب الرافضي، وعلى جميع أصحابه وأزواجه وأتباعه على منهاجه ما قام مكلف بالفرض الرسمي، واستقام نبت في الأرض بالوَسْمِيّ (٣) وسلم.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ... ﴾ (٤)

قال ابن عباس: شهد له بالرسالة، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ يعني أصحابه ﴿ أَشِدَّآءُ ﴾ وهو جمع شديد، والرحماء جمع رحيم، والمعنى: أنهم يُغْلظُون على الكفار ويتوادُّون بينهم ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا... ﴿٢٩﴾ ﴾ يصف كثرة صلاتهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ... ﴿٢٩﴾ ﴾ وهو الجنة ﴿ وَرِضْوَٰنًا... ﴿٢٩﴾ ﴾ وهو رضا اللَّه عنهم.

﴿ سِيمَاهُمْ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي علامتهم ﴿ فِى وُجُوهِهِم... ﴿٢٩﴾ ﴾ **وهل هذه العلامة في الدنيا أو في الآخرة؟ فيه قولان:**

أحدهما: في الدنيا، **ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها**: أنها السَّمت الحسن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عبَّاس، وقال مجاهد: هو الخشوع والوقار والتواضع. **والثاني**: أنه ندَى الطهور وثَرى الأرض، قاله سعيد بن جبير، وقال أبو العالية: لأنهم يسجدون على التراب. **والثالث**: أنه السُّهوم وهو اصفرار الوجه من أثر السهر، وهو مذهب الحسن وعكرمة.

القول الثاني: أنها في الآخرة، **ثم فيها قولان: أحدهما**: أن موضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضًا يوم القيامة، قاله عطية العوفي، وروي عن ابن عبَّاس أنه قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة. **والثاني**: أنهم يُبعثون غُرًّا مُحَجَّلين من أثر الوضوء، قاله الزجاج، ويدل عليه ما روى مسلم في صحيحه مِن حديث أبي هريرة ﷺ

---

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) الأحوذي: الخفيف الحاذق، والمشمر للأمور.

(٣) الوسمي: مطر الربيع.

(٤) سورة الفتح ٢٩.

عن النبي ﷺ أنه قال: « أنتم الغرُّ المحجّلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليُطل غُرته وتحجيله » (١).

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي صفتهم، والمعنى: أن صفة محمد وأصحابه في التوراة هكذا.

فأما قوله: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ... ﴿٢٩﴾ ﴾ **ففيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: أن هذا المثل المذكور أنه مثلهم في التوراة هو مثلهم في الإنجيل، قاله مجاهد.

والثاني: أن المتقدِّم مَثلهم في التوراة، فأما مثلهم في الإنجيل فهو كزرع، قاله الضحاك.

والثالث: أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي فراخه، يقال: قد أشطأ الزرع فهو مُشْطئ إذا أفرخ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ساواه وصار مثل الأم ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي غلظ ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ... ﴿٢٩﴾ ﴾ وهو جمع ساق.

وهذا مثلٌ ضربه اللَّه ﷻ للنبي ﷺ إذ خرج وحده فأيّده بأصحابه، كما قوَّى الطاقة من الزرع بما نبت منها، حتى كثرت وغلظت واستحكمت.

- **وفيمن أريد بهذا المثل قولان:**

أحدهما: أن أصل الزرع عبد المطلب.

أخبرنا هبة اللَّه بن أحمد الحريري، أنبأنا محمد بن علي بن الفتح، أخبرنا الحسين ابن شمعون، أنبأنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد، حدثنا أبو العبَّاس عيسى ابن إسحاق الأنصاري، حدثنا الحسين بن الحارث بن طُليب الهاشمي، عن أبيه، عن داود ابن أبي هند، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس في قوله ﷻ: ﴿ شَطْـَٔهُۥ ﴾ قال: أصلُ الزرع عبد المطلب، أخرج شطأه: أخرج محمدًا ﷺ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ بأبي بكر ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ بعمر ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ بعثمان ﴿ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ عليٌّ بن أبي طالب.

والثاني: أن المراد بالزرع محمد.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزاز، أنبأنا أبو عمر الجوهري، أنبأنا الحسين بن محمد ابن عبيد، أنبأنا إبراهيم بن عبد اللَّه المخزومي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا علي ابن إبراهيم، حدثنا الحسين بن علي الهمداني، حدثنا محمد بن عبد العزيز، عن الضحاك، عن ابن عبَّاس: ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ قال: الزرع محمد ﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أبو بكر

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٤٦.

﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ بعمر ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ بعثمان ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ بعلي ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ... ﴿٢٩﴾ ﴾ قال: المؤمنون.

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ... ﴿٢٩﴾ ﴾ قال: يقول عمر لأهل مكة: لا يُعبد الله ﷻ بعد يومنا هذا سرًّا.

قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظٌ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

واعلم أن فضائل الصحابة على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة، وكان لسبقهم سببان:

أحدها: خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ: « ما سبقكم أبو بكر بكثير صومٍ ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره » [١].

والثاني: بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد.

وقد عُلم ما جرى لموسى مع أصحابه وعُلم صبر صحابتنا.

ولما استشار رسول الله ﷺ الناسَ يوم بدر قال المقداد: والله لو ضربت بطونها حتى تبلغ برْك الغماد [٢] لتابعناك، ولا نقول كما قال قومُ موسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [٣].

وكان أبو طلحة يوم أُحد يقول: نَحْري دُون نحْرك، وقُتل يومئذ زوجُ امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت: يا رسول الله لا أبالي إذا سلمْتَ مَنْ عَطِب.

قال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلبَ محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوبَ أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ.

وقال ابن عمر: كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا وأعمقها علْمًا وأقلها تكلُّفًا، قوم اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه ونَقْل دينه، قال أبو زُرعة: شهد مع رسول الله ﷺ حجَّة الوداع أربعون ألفًا من الصحابة، وشهد معه تَبوكَ سبعون ألفًا، وقُبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة، ممن روى عنه وسمع منه.

أخبرنا محمد بن عبد الملك ويحيى بن علي قالا: أخبرنا ابن المُسْلمة، أنبأنا أبو طاهر المخلِّص، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عبَّاد المكِّي، حدثنا محمد بن طلحة المدِيني،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا: ٢/١٩٠، بلفظ وقال: « ذكره في الإحياء وقال مخرجه العراقي: لم أجده مرفوعًا وهو عند الحكيم الترمذي وأبو يعلى عن عائشة وأحمد بن منيع عن أبي بكر كلاهما مرفوعًا. وقال في النوادر: إنه من قول بكر بن عبد الله المزني ».

(٢) براك الغماد: أقصى معمور الأرض، أو موضع. (٣) سورة المائدة: ٢٤.

عن عبد اللَّه بن سالم بن عبد اللَّه بن عُويم بن ساعدة، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن اللَّه اختارني واختار لي أصحابًا، فجعل لي منهم وزراء وأنصارًا، فمن سبَّهم فعليه لعنةُ اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه منه يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدلًا » (١). (تفرد برواية هذا الحديث محمد بن طلحة، وكان ثقة).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه » (٢).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أخبرنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يعقوب،حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني صدقة بن يسار، عن عقيل بن جابر، عن جابر بن عبد اللَّه فيما يذكر من اجتهاد أصحاب رسول اللَّه ﷺ في غزاة: فغشينا دارًا من دور المشركين فأصبنا امرأةَ رجلٍ منهم، ثم انصرف رسول اللَّه ﷺ راجعًا وجاء صاحبها وكان غائبًا فذكر له مصابها فحلف لا يرجع حتى يُهريق في أصحاب رسول اللَّه ﷺ دمًا.

فلما كان رسول اللَّه ﷺ ببعض الطريق فنزل في شِعْب من الشِّعاب، وقال: « من رجلٌ يَكلَؤنا؟ » فانتدب رجل مِن المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا: نحن يا رسول اللَّه، قال: فخرجا إلى فمِّ الشِّعب دون العسكر، ثم قال الأنصاري للمهاجري: أتكفيني آخره وأكفيك أوَّله؟ قال: فقال المهاجري: بل اكفني أوَّله وأكفيك آخره، فنام المهاجري، وقام الأنصاري فافتتح سورةً من القرآن، فبينا هو فيها يقرأها جاء زوجُ المرأة فلما رأى الرجلَ قائمًا عرف أنه ربيئة (٣) القوم، فنزع له السَّهْمَ فيضعه فيه، قال: فينزعه فيضعه وهو قائم يقرأ في السورة التي هو فيها ولم يتحرك كراهية أن يَقْطعها، قال: ثم عاد له زوجُ المرأةِ الثالثة بسهم فوضعه فيه، ثم ركع وسجد ثم قال لصاحبه: اقعد فقد أُثْبتُّ، قال: فجلس المهاجري فلما رآهما صاحب المرأة هرب وعَرف أنه قد نُذر به، وإن الأنصاريَّ يفوح دمًا مِنْ رمَيات صاحب المرأة قال: فقال له أخوه: يغفر اللَّه لك! ألا كنت آذنتني أولَ ما رماك؟ قال: فقال: كنت في سورة من القرآن قد افتتحتها أصلِّي فيها، فكرهتُ أن أقطعها، وايم اللَّه لولا أن أُضيع ثُغْرًا أمرني رسول اللَّه ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها (٤).

فسبحان مَن خصَّهم بهذه الفضائل وحرسهم من القصور والرذائل.

---

(١) أخرجه الحاكم في صحيحه : ٦٣٢/٣. والطبراني في الكبير : ١٤٠/١٧.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٥٤٠. (٣) الربيئة: الطليعة.

(٤) رواه أبو داود في سننه، رقم : ١٩٨. وأحمد في مسنده، برقم : ١٤٢٩٤، وإسناده حسن.

الكلام على البسملة

وعــظَـتْـك أجـداثٌ صُـمُـتْ ونَـعَـتـك أزمـنـةٌ مـضـتْ
وتـكـلـمـتْ عــن أعْـظُـمٍ تَـبْـلـى وعـن صُـوَرٍ سَـبَـتْ
وأرتـك قـبـرك فـي الـقـبـو ر وأنـت حـيٌّ لـم تـمـتْ
ولـربـمـا انـقـلـب الـشَّـمـا تُ فحلَّ بالـقـوم الـشُّـمـتْ [1]

يا مُؤْثرًا على العِرْض العَرَض، يا صحيحًا قد قتله المرض، يا جامعًا للمال والعمر قد انقرض، يا هدفَ البلايا سيصاب الغرض، يا بائعًا الدِّين بنيل الغرض، من لك إذا ضِقْت عند الموت بالأهوال ذرْعًا، وحالت منك الحُلَى وأجْدب المرعى، واجتثَّ البلاء منك أصلًا وفرعًا، سالت الأمَاقِي إذا لم ينفع الراقي دمعًا، ولم يستطع للأذى ردًّا ولا للردى دفعًا، وأخرس الموتُ منك لسانًا وأصمَّ سمعًا، وأضحى خشن التراب بعد لين الثياب لك دِرْعًا، وأصبحت لُقًى بين القوم في الثرى صرعى، يا من [هو] غرض الآفات تَرْشقه سهامها رشْقًا، لا بد مما وصفنا حتمًا وحقًّا، فتأهَّبْ للفناء فقلّ ما تَبْقى، وتهيأ للبِلَى فبعيد أن تتوقَّى، وأصغ لهاتف العِبَر فقد حادثتك نُطْقًا، وبادر السلامة فسيستحيل الصفو رَنْقًا، واحذر على نفسك أن تخسر وأن تشقى [2]، واعمل ليوم ترى فيه مدامع الخلائق لا ترْقا، وهم في أمر عظيم وأكرمُهم عند الله الأتقى، إن أُعطيت بخلت بالمال وبطرْت، ومتى نبت ريشُ رياشك نَبتْ أرضُ الشُّكر فطرْت، كيف بك يوم تُكوى بها جباههم، من لك حين توبيخ ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾ [3]:

تُـرمِّـم الـمـالَ وبـالـعِـرْض تَـلَـمْ
لا سَـلِـم الـمـالُ إذا الـعـرض تُـلِـمْ
قـد كـنـتُ ناديـتُـكَ والأمـرُ أمَـمْ
فـلـم تـطـعـني رُبَّ رأيٍ متـهـمْ
سمـعُـك واعٍ وبـعـقـلـك الـصـمـمْ
مَـوارِدُ الـجـهـل مـصـادرُ الـنـدمْ
ومـن رُمـي بـالـموقـظـات لـم يَـنَـم

---

(١) الشمات: الفرح ببلية العدو. والشمت: الشامتون.

(٢) ب: أو أن تشقى، وما أثبته من ت.

(٣) سورة التوبة: ٣٥.

قال كعب: إذا وضِع العبد الصالح في قبره احتوشَتْه أعماله الصالحة، فتجيء ملائكة العذاب مِنْ قِبَل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال القيام للَّه ﷻ، فيأتونه من قِبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه للَّه ﷻ في دار الدنيا، فيأتونه من قِبل جسده فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنْصب نفسه وأتعب بدنه، ويأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كُفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد اللَّه ﷻ، فيقال له: نَمْ هنيًا طِبْت حيًّا وميتًا، وتأتيه ملائكة الرحمة فتُفرشه فراشًا من الجنة ودثارًا من الجنة، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم القيامة.

وقف بعض الحكماء على المقابر فقال: يا أهل القبور، أصبحتم نادمين على ما خلَّفتم في البيوت، وأصبحنا نقتتل على ما ندمتم عليه، فما أعجبنا وأعجبكم!

يا أيها الواقف بالقبور ... بَيْن أناسٍ غُيَّبٍ حُضورِ
قد أُسكنوا في خَرِب مغمور ... بين الثرى وجندلِ الصخورِ
ينتظرون صيحة النُّشور ... لا تكُ عن حظك في غرور

قال بعض الصالحين: صليت ركعتين في الليل ثم وضعت رأسي على قبر ثم نمت، فإذا صاحب القبر يقول: لقد آذيتني منذ الليلة، إنكم تعلمون ولا تعملون، ونحن نعلم ولا نعمل ولا نقدر على العمل، إن الركعتين اللتين ركعتهما خيرٌ من الدنيا وما فيها، ثم قال: جزى اللَّه أهل الدنيا عنا خيرًا أقرئْهم منا السلام فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال.

كان الربيع بن أبي راشد يخرج إلى الجبَّان فيقيم طول النهار ويرجع مُكتئبًا فيقول له إخوانه وأهله: أين كنت؟ فيقول: كنت في المقابر، نظرت إلى قوم قد مُنعوا ما نحن فيه.

طالما صعَّروا الخدودَ وهزُّوا الْـ ... ـأرض في يوم مَحْفلٍ وركوبِ
ثم أمسوا وفدَ القبور سكَّان أطبا ... ق الثرى تحت جندلٍ منصوب
كم كريمٍ منهم يرى الوعد بخلًا ... مستقلٍ لكثرة الموهوبِ
رُدَّ عني غرْب الملام خليلي ... إن نفسي صارت عليّ حسيبي
وتنحيتُ عن طريق المناهي ... والملاهي وقلت للنفس توبي

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ... ﴾ (١)

روى مسلم في صحيحه (٢) من حديث سعد بن أبي وقَّاص قال: نزلت هذه الآية فيَّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال، قالت قريش لرسول اللَّه ﷺ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعًا لهؤلاء، فاطردهم عنك، فدخل مِنْ ذلك على رسول اللَّه ﷺ ما شاء اللَّه، فنزلت هذه الآية (٣).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أخبرنا أحمد بن أحمد الحداد، أخبرنا أبو نعيم أحمد ابن عبد اللَّه، حدثنا أبو بكر الطلحي، حدثنا عبيد بن غنام، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن المفضل، حدثنا أسباط بن نصر، عن السُّدي، حدثنا سعيد الأزدي، عن أبي الكنود، عن خبَّاب بن الأرتّ، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي هو وعُيينة ابن حصن الفَزاري فوجدا رسولَ اللَّه ﷺ قاعدًا مع عمار وصُهيب وبلال وخبَّاب في أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حَقروهم فخلوا به فقالوا: إن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب قُعودًا مع هذه الأعبد، فإذا جئناك فأقمهم عنا، قال: « نعم » قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا، فدعا بالصحيفة ودعا عليًّا ليكتب ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل ﷺ فقال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا... ﴿٥٤﴾ ﴾ الآية.

فرمى رسول اللَّه ﷺ بالصحيفة ودعانا فأتيناه وهو يقول: سلامٌ عليكم، فدنونا منه حتى وضعنا رُكَبنا على ركبته، وكان رسول اللَّه ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (٤) قال: فكنا بعد ذلك نقعد مع رسول اللَّه ﷺ فإذا بلَغْنا الساعة التي يقوم فيها قُمْنا وتركناه وإلا صَبر إذًا حتى نقوم (٥).

قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾: المراد بهذا الدعاء خمسة أقوال:

أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر وابن عبَّاس.

والثاني: ذكر اللَّه ﷻ، قاله النَّخعي.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٢.
(٢) صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٤١٣، باختلاف.
(٣) ت: فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.
(٤) سورة الكهف: ٢٨.
(٥) رواه ابن ماجه في سننه، برقم: ٤١٢٧، وهو صحيح.

والثالث: عبادة الله ﷻ، قاله الضحاك.

والرابع: تعلم القرآن غدوة وعشية، قاله أبو جعفر.

والخامس: دعاء الله بالتوحيد والإخلاص وعبادته، قاله الزجاج.

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يريدونه بأعمالهم.

كانوا يصبرون على المجاعة، ويُخْلصون الطاعة، ولا يضيعون ساعة، فيا فخرهم إذا قامت الساعة.

أخبرنا السَّجزي، أخبرنا الدَّراوردي، أنبأنا السَّرخسي، حدثنا الفَربْري، حدثنا البخاري، حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: رأيت سبعين رجلًا من أهل الصُّفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساق، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته. (انفرد بإخراجه البخاري) [(١)].

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: إنْ كنا لنفرح بيوم الجمعة، كانت لنا عجوز تأخذ أصول السِّلْق فتجعله في قِدْر لها وتجعل فيه حبَّات من شعير، إذا صلينا زرناها فقربته إلينا [(٢)].

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقَّاص قال: كُنَّا نغزو مع النبي ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة وهذا السَّمُر [(٣)].

ولله دَرُّ أقوام أخلصوا الأعمال وحقَّقوها، وقيَّدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلَّصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها، وقهروا [(٤)] بالرياضة أغراض النفوس الرديّة فمحقوها، فعن إبعاد مثلهم وقع نَهْي النبي ﷺ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾.

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص ضافية، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية، والناس في أخلاط والقوم في عافية، ففاق المَوْلَى منهم على الرئيس القرشي ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾.

دموعهم بالأحداق مُحْدقة، ورؤوسهم في الأسحار مُطرِقة، وأكفُّهم بما تَسكبه في الخير مُنفقة، ونفوسهم بعد الجِدِّ من اللوم مُشفِقة، يَردون من حياض المصافاة على أوفى

---

(١) صحيح البخاري، برقم : ٤٤٢. (٢) صحيح البخاري : ٢٤٥/٣.

(٣) صحيح البخاري : ١٠١/٤. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٩٦٦.

(٤) ب: فهذبوا.

الرَّي ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ ﴾، خلصوا الأعمال من الأكدار نفلًا وفرضًا، واجتهدوا في طاعة مولاهم ليرضى، وحضوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظِّ حَضًّا، وغضوا أبصارهم عن غَضّ (١) الشهوات غَضًّا، فإذا أبصرتهم رأيت أجسادًا مرضى وعيونًا قد ألفت السهر فما تكاد تطعم غمضًا، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تتقضَّى، فأمدَّهم بالعونِ السرمديّ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ ﴾.

ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليهم فاعترفوا (٢) وشكروا، وجاءوا بكل ما يرضي ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو فما انقشعت الحرب حتى ظفروا، فنالوا غاية الإمكان في المكان العليّ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ ﴾.

لـلَّه دَرُّ أناس أخْـلَـصـوا الـعـمـلا (٣) ... عـلـى الـيـقـيـن ودانـوا بـالـذي أُمـروا

أَوْلاهـم نِـعَـمـًا فـازداد شـكـرهـم ... ثـم ابـتـلاهـم فـأرضَـوْه بـمـا صـبـروا

وفَـوْا لـه ثـم وافَـوْه بـمـا عَـمـلـوا ... إذًا سَـيُـوفـيـهـمُ (٤) يـومًا إذا نُـشِـرُوا

قال سعد بن أبي وقاص: لقيت عبدَ اللَّه بن جحش يوم أحد فقال: يا سعد ألا تدعو اللَّه ﷻ؟ فدعا عبد اللَّه فقال: يا رب إذا لقيتُ العدو غدًا فلقِّني رجلًا شديدًا بأسُه أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيَجدَع أنفي وأُذني، فإذا لقيتك غدًا قلتَ: يا عبد اللَّه من جَدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقتَ.

قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط.

وأقبل مصعب بن عُمَيْر يومًا إلى رسول اللَّه ﷺ وعليه قطعة من نَمِرة (٥) قد وصلها بإهاب (٦)، فقال رسول اللَّه ﷺ: « لقد رأيت هذا وما بمكَّةَ أَنْعَم عند أبويه منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في حب اللَّه ورسوله ».

ولما كان يوم أحد كان معه لواء المهاجرين، فضربه ابن قَمِئة فقطع يده، ومُصْعَب يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (٧) فأخذ اللواء بيده اليسرى وحنَى عليه فضرب يدَه اليسرى فقطعها، فحنى على اللواء وهو يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ فقتل ولم يوجد له كفن إلا نَمِرة كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجتْ رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسُه، فجعلوا على رجليه شيئًا من الإذخر (٨).

---

(١) ت: عن غرض. (٢) ب: فرفعوا. (٣) ت: عملًا.

(٤) ت: وأنه سيوفيهم. (٥) النمرة: بردة من صوف غليظ.

(٦) الإهاب: الجلد. (٧) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٨) الإذخر: نبت، والحديث في صحيح البخاري، برقم : ١٢٧٦. وصحيح مسلم، برقم : ٩٤٠.

ولما تهيَّأ الناس للخروج إلى غزوة مُؤتة جعل المسلمون يقولون: صَحبكم اللَّه ودفع عنكم، فقال ابن رَوَاحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فَرْغ [١] تَقْذف الزَّبَدا
أو طعنةً بيديْ حَران مُجْهزة ... بحربةٍ تُنْفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي ... أرشدَك [٢] اللَّه من غازٍ وقد رشداً

أخبرنا محمد بن ناصر وعلي بن أبي عمر قالا: أنبأنا رزق اللَّه وطرَّاد، قالا: حدثنا أبو الحسين بن بشْران، أنبأنا ابن صَفْوان، حدثنا أبو بكر القُرشي، حدثني أبي، حدثنا عبد القدوس بن عبد الواحد الأنصاري، حدثنا الحكَم بن عبد السلام، أن جعفر بن أبي طالب حين قُتل دعا الناسُ: يا عبد اللَّه بن رواحة، وهو في جانب العسكر ومعه ضِلْع جمل يَنْهشه، ولم يكن ذاق طعامًا قبل ذلك بثلاث، فرمى بالضلع ثم قال: وأنتَ مع الدنيا! ثم تقدم فأصيب إصبعه فارتجز:

هل أنت إلا إصْبع دَمِيتِ ... وفي سبيل اللَّه ما لَقِيتِ
يا نفسُ إلا تُقْتلي تموتي ... هذا حِياضُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنيتِ فقد لقيتِ ... إن تفعلي فعلهما هُديتِ
وإنْ تأخرت فقد شَقيتِ

ثم قال يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة؟ فهي طالق ثلاثًا، وإلى فلان وفلان - غلمان له - [فهم أحرار] وإلى معجف [٣] - حائط له - فهو للَّه ولرسوله:

يا نفسُ مالك تكرهين الجنه ... طائعة أو لتُكرهنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه ... هل أنت إلا نُطفة في شِنَّه
قد أجلب الناسُ وشَدُّوا الرنه [٤]

للَّه در أقوام تَعِبوا فأُريحوا، وزهدوا فأُبيحوا، جلِّيت أبصارهم فشاهدوا، وأعطوا سلاح المعونة فجاهدوا، وتأمَّلوا الدنيا وسبَروها، وعرفوا حالها وخَبَرُوها، فصدت نفوسُهم، ما صدها ما كانت تعبد، وأقبلت على قِبْلة الاعتذار في مناجاة: (ظلمتُ نفسي) فضربت بالدنيا وجه عشاقها، وشمَّرت في سُوق الجِد عن ساقها، ونقضت

---

(١) ذات فرغ: واسعة. (٢) ابن هشام: أرشده. (٣) ب: معجن.
(٤) الرنة: الصوت: والرواية هنا مخالفة لرواية ابن هشام في سيرته : ٢١/٤، في الترتيب، وفيها نقص.

لتصحيح عملها مَخْدع الخديعة، ونفَضت يد أملها من سَرابٍ بقيعة، فحدَتْ [١] ركائب سيرها في إدلاج سُرَاها، وزادها نشاطًا حادي الهمة لـمَّا حداها، فسبقت إلى الخلال الكرائم، ووصلت إلى الأفضل وأنت نائم.

قالت الـمَكْرمات لستُ لمختا ... ر ولكنْ لصامد ليَ صَمْدا

ويُكدّ الجثمانَ والروح والجا ... ه طويلًا ولا يرى الكَدَّ كَدًّا

يا هذا لو صحت منك العزيمة أوقعت في جيش الهوى هزيمة، إن في البدن مُضْغة إذا صَلُحت صَلُح البدنُ وإذا فسدت فسد البدن ألا وهي القلب، يا هذا متى حصل الفساد في رأي المَلِك تشتَّت الأعوان، ومتى رُمي القذَر في فوهة النهر أثَّر في المشارع.

وإذا كان في الأنابيب خُلْف ... وقع الطَّيْش في رؤوس الصِّغارِ

يا هذا إن أردت لقاءنا في حضرة القُدس، واشتاق سمعك إلى نغمات الأُنس، فصُمْ عن لذات النفس وشهوات الحِس، واصبر على قطع مفاوز الحزن واستأنس ببثك في بيت الوَجْد، وقضِّ نهار المُنى بمحادثة الفكر، واقطع أمل الهوى بقهر العزم، واقرع فضولَ الكلام بَسوْط الصمت، وأقم على طرفك حاجبَ الغَضّ، وانبذ إلى كلب الشهوات كِسَر الصبر، وفرِّغ دار عُزلتك من شواغل القلب، فإذا سمعت ضجيج محبوس النفس يستغيث من سجن الزهد لشدة الحصر فصح [به] [٢]: يا صاح صبرًا على ضيق الحبس، لعلك تخرج إلى رياض ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ [٣].

وقد صُمْتُ عن لذات دهري كلها ... ويومُ لقاكم ذاك فِطْرُ صيامِي

* * *

* *

*

---

(١) ب: فحدرت.

(٢) من ت.

(٣) سورة يوسف: ٥٥.

المجلس الرابع والثلاثون

في فضل أمة محمد ﷺ

الحمد للَّه خالق الجامد والحسَّاس، ومُبْدِع الأنواع والأجناس، القويّ في سلطانه الشديد الباس، المنزَّه عن السِّنَة والنُّعَاس، المخرج رَطْب الثمار من يابس الأغراس، نفذ قضاؤه فلم يمتنع بأَحْراس، وقهر عزه كلَّ صعب المراس، لا يَعْزُب عن سمعه حركات الأضراس، ولا دبيب ذَرٍّ بالليل في مطاوي قرطاس، نفذت مشيئته فكم مجتهدٍ عاد باليأس، يفعل ما يريد لا بمقتضى تدبير الخَلْق والقياس، قدَّم نبينا محمدًا ﷺ عن كل نبي دبَّر وساس، فسبحان من أجزل له العطا، وجعله خيرَ نبي حاربَ وسطا، وقال لأمته: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (١).

أحمده حمدًا يدوم بدوام اللحظات والأنفاس، وأُصلِّي على رسوله محمد الذي شَرْعه مُستقرٌّ ثابت الأساس، وعلى صاحبه أبي بكر الثابت العزم وقد ارتدَّ الناس، وعلى عمر قاهر الجبابرة الأشواس، وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس، وعلى عليٍّ أهدَى الجماعة إلى نصٍّ أو قياس، وعلى عمِّه وصِنْو أبيه العبَّاس.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... ﴾ (٢)

الكاف في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ... ﴾ كاف التشبيه، فالكلام معطوف على قوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا... ﴾ والتقدير: فكما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناه، كذلك جعلناكم أمة وسطًا أي عُدولًا خِيَارًا، ومثله: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ (٣) أي خيرهم وأَعْدَلهم.

هُـم وسَـطٌ يرضـى الأنامُ بحكمهم ... إذا نـزلـت إحدى الـليـالي بمُعْظَمِ

وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلوّ والتقصير مذمومان.

﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وفيه قولان:

أحدهما: لتكونوا شهداء يوم القيامة للأنبياء على أممهم بأنهم قد بلّغوا.

(١ ، ٢) سورة البقرة: ١٤٣. (٣) سورة القلم: ٢٨.

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أنبأنا ابن المُذْهِب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وَكِيع، حدثنا الأعْمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدْري، قال: قال رسول الله ﷺ: « يُدْعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾. قال: الوسط: العدل، قال: « فتُدْعَون فتشهدون له بالبلاغ ». قال: « ثم أشهد عليكم » (١).

قال أحمد: وحدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « يجيء النبيُّ يوم القيامة ومعه رجل، والنبي معه الرجلان وأكثر من ذلك، فُيَدْعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلّغت قومَك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فُيدْعَى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما عِلْمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيُّنا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا، قال: فذلك قوله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قال: يقول: عَدْلًا ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٢).

القول الثاني: لتكونوا شهداء لمحمد على الأمم اليهود والنصارى والمجوس، ويكون الرسول شهيدًا عليكم بأعمالكم، قاله مجاهد.

واعلم أنه كما فضَّل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء فضِّلت أمتنا على سائر الأمم.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسين بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنبّه، حدثنا أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « نحن الآخِرون السابقون يومَ القيامة، بَيْد أنهم أُوتوا الكتابَ من قَبْلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومُهم الذي فُرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فهم لنا فيه تَبع، فاليوم لنا ولليهود غدًا وللنصارى بعد غد » (٣).

قال أحمد: وحدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قُبَّة حمراء نحوًا من أربعين فقال: « أترضَوْن أن تكونوا رُبْع أهل الجنة » قلنا: نعم، قال: « أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ » قلنا: نعم، قال: « فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة

---

(١) مسند أحمد : ٣٢/٣.   (٢) مسند أحمد : ٥٨/٣.

(٣) مسند أحمد : ٣١٢/٢. وهو في صحيح البخاري، حديث رقم : ٨٧٦. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٨٥٥، ولكن ابن الجوزي ينقل عن مسند أحمد فلهذا بدأنا به.

لا يدخلها إلا نفسٌ مسلمة، وما أنتم في أهل الشِّرك إلا كالشَّعرة البيضاء في جِلْد ثور أسود أو السوداء في جلد ثور أحمر » [١].

قال أحمد: وحدثنا إسماعيل، أنبأنا أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « مَثلكم ومَثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عُمالًا فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضب اليهود والنصارى فقالوا: نحن كنا أكثر عملًا وأقلَّ عطاء، قال: هل ظلمتُكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: إنما هو فَضْلي أوتيه من أشاء » [٢].

واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة وإن كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه إيَّاها، إلا أنه جعل لذلك سببًا، كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم عِلْمه بما جهلوا، فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة سببًا هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس.

واعتبر [٣] حالَهم بمن قبلهم: فإن قوم موسى رأوا قدرةَ الخالق في شَقّ البحر ثم قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا ﴾ [٤]، ثم مال كثيرٌ منهم إلى عبادة العِجْل، وعرضت لهم غَزاة فقالوا: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [٥] ولم يقبلوا التوراة حتى نُتق عليهم الجبل، ولما اختار سبعين منهم فوقع في نفوسهم ما أوجب تزلزل الجبل بهم.

ولهذا لمَّا صعد نبينا ﷺ إلى حِرَاء في جماعة من أصحابه تزلزل الجبلُ فقال: « اسْكُن فما عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيد »، فكأنه أشار إلى أنه ليس عليك من يَشُكّ كقوم موسى.

ومن تأمَّل حالَ بني إسرائيل رآهم قد أُمروا بقول: « حِطَّة » فقالوا: « حِنْطة » وقيل لهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [٦] فدخلوا زحفًا، وقالوا عن نبيهم: هو آدَر [٧]، ومن مذهبهم التشبيه والتجسيم وهذا من أعظم التغفيل؛ لأن الجسم مؤلَّف، ولا بد للمؤلَّف من مؤلِّف.

ومن غفلة النصارى: اعتقادهم أن اللَّه تعالى جوهر والجوهر يتماثل، ولا مِثْل للخالق.

ثم يقولون: عيسى ابنه وقد عُلم أن الابن بعض، والخالق سبحانه لا يتجزَّأ فلا يتبعَّض، ثم قد علموا أن عيسى لا يقوم إلا بالطعام، والإله مَن قَامَتْ به الأشياء لا مَن قَام بَها.

---

(١) مسند أحمد: ٣٨٦/١. وهو في صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٣٤٨. وصحيح مسلم، حديث رقم: ٢٢١. ولكن ابن الجوزي ينقل عن مسند أحمد.

(٢) مسند أحمد: ٦/٢.
(٣) ب: فاعتبر.
(٤) سورة الأعراف: ١٣٨.
(٥) سورة المائدة: ٢٤.
(٦) سورة النساء: ١٥٤.
(٧) الآدر: العظيم الخصيتين.

وقد **عُرف يقين أمتنا** وبَذْلهم أنفسهم في الحروب وطاعة الرسول، وحفظهم للقرآن، وأولئك كانوا لا يحفظون كتابهم، فلهذا فُضِّلوا.

فهم أولُ أمة يدخلون الجنة، وقد قال ﷺ: « أهلُ الجنة مائة وعشرون صفًا، أمتي منهم ثمانون صَفًّا » (١).

أخبرنا ابن الحُصَينْ، أنبأنا ابن المذْهِب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد، حدثنا بَهْز بن حَكيم بن معاوية، عن أبيه عن جدِّه، عن النبي ﷺ أنه قال: « ألا إنكم تُوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللَّه تعالى » (٢).

فالحمد للَّه الذي أعطانا بجوده وفضله ما لَسْنا من أهله (٣).

* * *

الكلام على البسملة

للنقص من أعمارنا ما يَكْمُل ... والدهر يُوئسنا ونحن نؤمِّلُ
تمشي المَنُون رُوَيْدها لتَغرّنا ... أبدًا فتُدْركنا ونحن نُهرولُ
يا مُعجَبًا بالعيش طال بقاؤه ... بطَرًا بقاؤك في المنيّة أطولُ
عن جانِبَيْ دنياك فارغب إنه ... أَوْدَى الحريصُ وما نجا المتوكِّلُ
دنيا تسرُّ بما يضرّ بمثله ... واسمٌ لها شَهْدٌ ومعنًى حنظلُ

يا هذا: الدنيا دار المِحَن ودائرة الفِتن، سكانها بلا وطن واللبيب قد فَطن، أين من مالَ إلى حب المالِ بالآمالِ وصبَا، وأصبح بين غَبُوقه وصَبُوحه لا يَعْرف وصَبًا، وتقلَّب بجهله في روضَتيْ هوًى وصبا، وأضحى عَلم شهواته على قِباب عزه مُنتصبًا، وظلَّ ربيع ربعه بوفور جمعه خصبًا، وكلما دعِي إلى نفعه في عاقبته أبَى؟! أمَا شارك بمصرعه الفاجع له أمًّا وأبًا؟! أما صار إذ رحَل نبَا (٤)؟! أتراه تزوَّد لمذهبه إذ أَذْهب ذهَبًا؟! لقد لقي واللَّه إذ نصب الموت شرَكه نَصَبا، أين من رضي ظلالَ البطالة بضلاله رَبْعًا وفِنَا؟! أما أدركه التلفُ في أسوأ حاله ثيابًا وفنَا؟! لقد غادره جفاؤه لِمَا ينفعه جفَا، لا يجدُ لمرضه إذ تمكن من جملته شِفا.

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم: ٤٣١٦، وهو صحيح.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم: ١٩٥٠٩. ورواه الترمذي في سننه، حديث رقم: ٣٠٠١. وابن ماجه في سننه، حديث رقم: ٤٨٨.

(٣) ت: عطاء لسنا من أهله.

(٤) كذا بالأصل، ولعل نبا: نبأ، أي صار خبرًا من الأخبار.

أين من كان مجلسه بين الناس في الصدور؟! أين من كانت هِمّته نِضَار القصور؟! أما استلبه الموت من المنازل والقصور؟! أين من كانت تقوى بسقائه الظهور (١)؟! أما عَدِم الظهير عند الموت حين الظهور؟! حام الحِمَام حول حِمَاه فلم ينفعه الحِمَى، ورام راميه مَراميه فرماه إذ رمى، وصاحت به هاتفاتُ الفراق بملءْ فِيهَا، ولفظته المنازل كأن لم يكن فيها، كأن لم تعلق راحته براحة الهوى إذ زَلَّ قدمه في التلف وهوى، وكأنه ما عزم على غرض ولا نوى إذ جذبته بأيديها النوى، وكأنه ما تحرك من مراد ولا التوى حين أدركه سكون التلف والتَّوى (٢)، انبتَّ واللَّه حَبْل بقائه بأَقْطع المُدَى، وانتثر منظومُ حياته وانقطع المدَى، فأُخرج عن الإنْس كأنه ليس من الجنس، وكُفَّ كفُّه في الرَّمس بعد تصرف الخَمْس، وأصبحت منازله إذ لم يصبح بها ولم يُمْس كأن لم تَغْنَ بالأمس.

أخي إنما الدنيا محلَّة نَغْصَةٍ ... ودارُ غرورٍ آذنَتْ بفراقِ

تزَوّدْ أخي مِن قبل أن تسكن الثَّرى ... ويلتفَّ ساقٌ للممات بساقِ

ما أقرب ما هو آت، ما أبعد ما قد فات، ما أغفل الأحياء عما حلَّ بالأموات.

يا غافلين عن الفَنا ... ليس الفنا عنكمْ بغافلْ

أخبرنا يحيى بن علي المدير، أخبرنا عبد الصمد بن المأمون، أخبرنا الدارقطني، حدثنا الحسين بن إسماعيل، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو أسامة، عن بُرَيْد، عن (٣) أبي بُرْدة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: « إن مَثلي ومثل ما بعثني اللَّه به كمثل رجلٍ أتى قومَه فقال: يا قوم إني رأيت الجيشَ بعيني وأنا النذير العريان، فالنجاءَ، فأطاعه طائفة من قومه فأَدْلجوا وانطلقوا على مهلهم فنَجَوا، وكذَّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق ». (أخرجاه في الصحيحين) (٤).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه ما من أحد يموت إلا ندِم قالوا: فما ندمُه يا رسول اللَّه؟ قال: « إن كان مُحسِنًا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مُسيئًا ندم أن لا يكون نزَع » (٥).

* * *

يا من لا يسمع قولَ ناصح، أما هذا الشيب دليلٌ واضح، لمن نحدّث والقلب غائب؟!

---

(١) كذا بالأصل. وهي محرفة في ج. (٢) التوى: الهلاك.

(٣) الأصل: عن يزيد بن أبي بردة. محرفة والتصويب من صحيح البخاري : ٤/٢١١.

(٤) صحيح البخاري : ٤/٢١٠. وصحيح مسلم، حديث رقم : ٢٢٨٣.

(٥) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٢٤٠٣.

ليتنا نعلم مُستقرَّه فنكاتِب، قلنا له: بياضُ الشيب قد فَضَحك فضَحِك، يجمع التقصيرَ إلى التفريط ويضم، وينوي فعلَ الذنوب فيعزم ويهمّ، ويحك تأمَّل هلالَ الهُدى فما خَفِي ولا غُمّ، واسمع واعظ العِبَر فقد زعزع الجبال الشُّمّ، وأيقظ قلبك الغافل وهيهات لا نُسمِع الصُّم، وعُمْ في بحر حزنك على ذنوب تَعُمّ، فلقد بالغنا في زجرك يا من بالزجر قد أمّ، فإذا رضيت أن تكون لنفسك مُبيرًا [١] فلحَى اللَّهُ ظِئْرًا أَشفقَ من الأُمّ.

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... ﴾ [٢]

في ﴿ كُنتُمْ ﴾ قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الماضي، **ثم فيه خمسة أقوال:**

أحدها: كان وصْفكم في البشارة بكم قبلَ وجودكم أنكم خير الناس، قاله الحسن.

والثاني: كنتم في سابق علم اللَّه تعالى وحكمه، قاله ابن مقْسم.

والثالث: كنتم في اللوح المحفوظ قد كتبتم خير أمة.

والرابع: كنتم مذ كنتم، والمعنى: ما زِلْتم، قاله ابن الأنباري.

والخامس: وُجِدْتم وخُلقتم خير أمة.

القول الثاني: أن معنى ﴿ كُنتُمْ ﴾: أنتم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [٣]، قاله الزجاج، وقال ابن قتيبة: وقد يأتي الفعل على بِنْية الماضي وهو ذاهب أو مستقبَل كقوله: ﴿ كُنتُمْ ﴾ ومعناه: أنتم، ومثله ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ [٤] أي وإذ يقول، ومثله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [٥]، ومثله: ﴿ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ [٦] ومثله: ﴿ فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [٧] أي فنسوقه.

قال أبو هريرة في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾: يجيئون بهم والأغلال في أعناقهم فيدخلون في الإسلام.

قال عطية: يشهدون للأنبياء بالتبليغ.

اعلم أن الخيرية تشمل أمتنا أولها وآخرها وإن كان للأول فضل السَّبق.

أخبرنا الكَرُوخي، أنبأنا ابن عامر الأَزْدي وأبو بكرِ الغُورَجيّ قالا: أنبأنا الجرَّاحي،

(١) مبيرًا: مهلكًا. وفي ب: مشيرًا. والظئر: الأم من الرضاع.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠. (٣) سورة النساء: ٩٦. (٤) سورة المائدة: ١١٠.

(٥) سورة النحل: ١. (٦) سورة مريم: ٢٩. (٧) سورة فاطر: ٩.

حدثنا المحْبُوبي، حدثنا التِّرمذي، حدثنا قُتيبة، عن حمَّاد، عن ثابت البُنَاني، عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « مثل أمتي مثل المَطر لا يُدْرَى أوله خيرٌ أم آخره » (١).

فإن قيل: هذا يوجب تردّدًا في تفضيل الصحابة؟ **فالجواب:** أنه أراد تقريب آخر الأمة إلى أولها في الفضل، كما تقول: لا أدري: أوَجْه هذا الثوب خير أم مؤخَّره؟ وقد علم أن وجهه أفضل، لكنك تريد تقريب مؤخره من وجهه في الجود، ذكره ابن قتيبة.

فأما فضل الصحابة فلا يُشك فيه؛ إذ لهم صبرٌ على الحق لا يشاركهم فيه أحد.

كان بلال يعذَّب في الرَّمضاء ويقولون له: قل: اللات والعُزَّى، وهو يقول: أحَدٌ أحَدٌ. وكان عمّ الزبير يعلق الزبير ويدخِّن عليه بالنار ويقول: ارجع إلى الكفر، فيقول: لا أرجع.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الخطيب، أنبأنا أحمد بن يوسف، أنبأنا الحسين بن صفوان، أخبرنا أبو بكر القرشي، أخبرنا علي ابن الجعد، أخبرنا عمرو بن الشَّمر، حدثني إسماعيل السُّدي قال: سمعت أبا أراكة قال: صليتُ مع عليّ ﷺ صلاة الفجر فلما سلَّم انفتل (٢) عن يمينه ثم مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رُمْح قلَّب يده فقال: واللَّه لقد رأيت أصحابَ رسول اللَّه ﷺ فما أرى اليوم أحدًا يشبههم، لقد كانوا يُصبحون شُعْثًا غُبْرا بين أعينهم أمثال رُكَبِ المِعْزى، قد باتوا للَّه سُجَّدًا وقيامًا يتلون كتاب اللَّه، يراوحون بين جِبَاههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا اللَّه مادُوا كما يَميد الشجر في يوم الريح وهَملت أعينهم حتى تبلَّ ثيابهم، واللَّه لكأنّ القوم باتوا غافلين، ثُم نهض فما رُئي بعد ذلك مُفْتَرًّا يضحك، حتى ضربه ابن مُلْجم.

* * *

ولقد جاء من بعد الصحابة سادات برزوا في العلم والعمل.

كان أبو مسلم الخولاني قد علَّق في مسجده سَوْطًا يعذِّب به نفسه كلما فترتْ ويقول: أتظن الصحابةُ أن يستأثروا بمحمد دوننا؟ واللَّه لأزاحمنهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلَّفوا رجالًا.

وكان عامر بن عبد قيس يصلِّي كل يوم ألف ركعة.

وكان كَهْمَس (٣) يختم في الشهر تسعين ختمة.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم : ١١٩١٨. والترمذي في سننه، حديث رقم : ٢٨٦٩.

(٢) انفتل: انصرف.

(٣) كهمس بن الحسن التميمي: من تابعي التابعين.

وصلَّى سليمان التيمي الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة.

وكان سُفْيان الثَّوْري غايةً في العلم والعمل فغلبه الخوف فصار يبول الدم، فحمل ماؤه إلى الطبيب فقال: هذا لا يشبه ماء المسلمين هذا ماء الرهبان، هذا رجل فتَّت الحزنُ كبده.

وحُمل ماء سَري السَّقَطي إلى الطبيب فلما نظر إليه قال: هذا بول عاشق، قال حامله: فصعقت وغشي عليّ، ثم رجعت إلى سَرِيّ فأخبرته فقال: قاتله اللّه ما أبصَره.

إذا أنا واجهتُ الصَّبَا عاد بَرْدُها ... مِنْ حَرِّ أنفاسي عليه لهيبُ
وقد أكثرتْ فيَّ الأطباءُ قولَهم ... ومالِيَ إلا أن أراك طبيبُ
يسالم قلبي الهمَّ فهو حَليفُه ... وبين جفوني والرقادِ حُروبُ

كان أبو عبيدة الخوَّاص يقول: وا شوقاه إلى من يراني ولا أراه.

وكان وَلْهان المجنون يقول: عَدِمت قلبًا يحب غيرك، وثكلتُ خواطر أَنِسَتْ بسِوَاك.

وقيل لبعض عقلاء المجانين: لمَ سُميت مجنونًا؟ فقال: لمَّا طال حبسي عنه في الدنيا سُميت مجنونًا لخوف فراقه.

قلبي يحبك ما يُفيـ ... ـق وجَفْن عينيَ ما ينامُ
قد طالَ فيك الليلُ حـ ... ـتى ما يقال له انصرامُ
والنجمُ فيه راكدٌ ... والفجر يمنعه الظلامُ
ليلٌ بغير نهايةٍ ... ولكلِّ مفتاحٍ ختامُ
في وَصْلك العيشُ الهنـ ... ـيّ وهَجْرك الموت الزُّؤامُ

قال الشِّبْلي: جُزْت براهب فقلت: لمن تعبَّد؟ فقال: لعيسى، قلت: ولم؟ قال: لأنه بقي أربعين يومًا لا [1] يأكل، فقلت: فعُدَّها عليّ، فأقمت تحت صومعته أربعين يومًا لم آكل فأسلَم.

أخبرنا أبو معمر الأنصاري، أنبأنا محفوظ بن أحمد الفقيه قال: قال لنا أبو علي الحسن بن غالب الحيري: سمعت أبا سعيد أحمد بن المبارك البزاز يقول: سمعت عمِّي محمد بن أحمد يقول: رأيت في المنام رسولَ اللّه ﷺ في جامع الخليفة وإلى جانبه رجل مكتهل فسألت عنه فقيل: هو عيسى ابن مريم، وهو يقول للنبي ﷺ: أليس من أمتي الرهبان؟ أليس من أمتي الأحبار؟ أليس من أمتي أصحاب الصوامع؟ فدخل أبو الحسين

---

(١) ب: لم يأكل.

ابن سمعون [(١)] فقال له رسول الله ﷺ: في أمتك مثل هذا؟ فسكت، فانتبهتُ.

كانت قلوبهم بالحق متعلقة، وأنوارهم على الظواهر متألقة، كلما هدَلتْ حمائمُ نَوْحهم هطلت غمائم شَجْوهم، دموعهم في الدّجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوبَ الصحائف، خوفهم شديد وما فيهم مخالِف، إذا جنَّ الليلُ فالقدَم واقف، يحنّون إلى الحبيب حنين شارِف [(٢)]، الدمع مساعِد والحزن مساعِف، يفزعون إلى التذكر إذا مسَّهم طائف، أحوالهم عِجَاب وأمورهم طرائف، كم بينهم وبين قوم موسى، انقُدوا يا صيَارف.

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنَا ... وإن عاهدوا أوْفَوا وإن عقَدوا شَدُّوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا
وحدَّثْتني يا سعدُ عنهم فزِدْتَني ... جنونًا فزِدْني من حديثك يا سعدُ

علموا أن الدنيا متاع يَفْنى فعبَروها وما عمروها للسُّكنى، واشتغلوا بدار كلمَّا نُقضت هذه تُبْنى، طرق الوعظ أسماعَهم فتلمَّحوا المعنى، يأخذون أُهْبة الرحيل ولا يأخذون عَرضَ هذا الأدنى، لا كِبْر عندهم تراهم بين المساكين والزَّمْنى، لو تأملتهم رأيت ضلوعًا على المحبة تُحْنى، حلف صادقُهم على هجر الهوى فلا والله ما استثنى، وأقبلوا على قدم الفقر فلما رآهم أَغْنى، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لُبْنى.

قال النبي ﷺ: « اشتاقت الجنةُ إلى عليّ وعَمَّار وسَلْمان » [(٣)].

إلى الزهّاد في الدنيا ... جِنَان الخُلْد تشتاقُ
عبيدٌ مِن خطاياهم ... إلى الرحمنِ أُبَّاقُ
حدَتْهم نحوه الرغـ ... ـبة وُالرهبة فاشتاقُوا
وراقت لهمُ الدنيا ... وعاقَتْهم فما انعاقُوا
عليهم حين تَلْقاهم ... سَكِينَاتٌ وإطراقُ
يضجُّون إلى الله ... ودَمْع العين مُهْراقُ
توهَّمْهمْ وقد مالت ... بسُكْر القومِ أحداقُ
وقد قاموا فلا يَهْجـ ... ـعُ من قد ذاق ما ذاقُوا

---

(١) الأصل: ابن شمعون. محرفة. والتصويب من صفة الصفوة لابن الجوزي: ٢/٢٦٩، وهو أبو الحسين محمد ابن أحمد بن إسماعيل بن عبيس بن سمعون، من عُبّاد بغداد توفي سنة: ٣٨٧هـ.

(٢) الشارف: الناقة المسنة.

(٣) رواه الترمذي في سننه، برقم: ٣٧٩٧.

قال عبد الواحد بن زيد: هجمنا مرةً على نفر من العبَّاد في بعض السواحل فتفرقوا حين رأونا فارتقينا على تلك الجزيرة وبتنا تلك الليلة، فما كنا نسمع عامةَ الليل إلا الصراخ والنفور من النار، فلما أصبحنا طلبناهم وتبعنا آثارهم فلم نر أحدًا.

نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد، تعلَّقت أكفُّ الآمال بما عاينتْ نواظرُ القلوب، فأخمصوا البطون وغضُّوا الجفون، وأهملوا الدموع على تململ مَلْسوع، لو رأيتَهم من خوف البَين على أرجاء [1] الرجَا، الدموع كالسيل والليل قد دجَا، ذكروا ظلم النفوس والظلام قد سجا، فمال القلب إلى اليأس بفتوى الحِجَا، فهبَّ عليهم نسيمُ الظن فرجًا فرَجًا.

وقفنا فمِن باكٍ أجابت دموعُه ... ومعتصم بالصبر لم يملك الصَّبْرَا
ومِن ساترٍ أجفانه بيمينه ... ومُلْق على أحشائه يده اليُسْرَى
ومن طائش لم يُسْعد الدمعُ وَجْده ... وشرُّ البكا ما استنفدَ الأدمع الغُزْرا [2]
وقد مَلَقت [3] خوصُ الرِّكَاب لبَيْننا ... فلم نستطع ضعفًا لشاردها زَجْرَا

قال بعض الصالحين: لقيتُ غلامًا في طريق مكَّةَ يمشي وحده فقلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى، قلت: أين هو؟ قال: أمامي وخَلْفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، قلت: أما معك زاد؟ قال: بلى، قلت: أين هو؟ قال: الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل، قلت: هل لك في مرافقتي؟ فقال: الرفيق يشغل عن الله ﷻ ولا أُحب أن أرافق من يشغلني عنه طرفة عين، قلت: أمَا تستوحش في هذه البرّية؟ قال: إن الأُنْس بالله قطع عني كلَّ وَحْشة، فلو كنت بين السِّبَاع ما خِفْتها، قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم إذا رأيتني فلا تكلمني، فقلت: ادع لي، قال: حجَب الله طَرْفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه، قلت: حبيبي أين ألقاك؟ قال: أمّا في الدنيا فلا تُحدِّث نفسك بلقائي، وأما الآخرة فإنها مَجْمَع المتقين فإن طلبتني هناك فاطلبني في زُمْرة الناظرين إلى الله ﷻ، قلت: وكيف علمتَ؟ قال: بِغَضّ طرفي له عن كل مُحرَّم واجتنابي فيه كل مُنْكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه، ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصري.

* * *

وما تلوَّم جسمي عن لقائكم ... إلا وقلبي إليكم شَيِّق عَجِلُ

---

(١) ت: على رحا الرجا. (٢) ب: الأدمع الغرا.

(٣) ملقت: سارت سيرًا شديدًا، وفي ب: تلفت. والخوص: الغائرة الأعين. والركاب: الإبل.

وكيف يقعد مشتاقٌ يحرِّكه إليكم الحافزان الشوق والأملُ
فإن نهضتُ فما لي غيركم وَطَر وإن قعدتُ فما لي غيركم شغلُ
وكم تعرَّض لي الأقوام بعدَكم يستأذنون على قلبي فما وصلُوا

سجع:

سبحان من قدَّمنا على جميع الناس، وسقانا من معرفته أَرْوَى كاس، وجعل نبينا أفضل نبيّ رَعَى وساس، فلما فضَّله على الأمة وأنعم علينا بعلوّ الهمة قال لنا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

أفي الأمم مثلُ أبي بكر الصديق، أو عمر الذي أغصَّ كسرى بالريق، أو عثمان الصابر على مُرّ المذِيق، أو عليٍّ بحر العلم الغَمْر العميق؛ أو مثل حمزة والعباس؟!

أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين، أو سعد وسعيد وهيهات من أين؟! ألهم صبر خَبَّاب وخُبَيْب ومن مثل الاثنين؟! إن شبّهناهم بهم أبعدنا القياس، هل شجرةُ الرضوان في أشجارهم، هل وقعةُ بدر من أَسْمارهم، إنما عرضتْ لهم غَزاةٌ في جميع أعمارهم، وجهادنا مع الأنفاس ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

أين أصحاب الأنبياء من أصحابنا؟! هيهات ما القومُ من أضرابنا، ولا ثوابهم في الأخرى مثل ثوابنا، نُتق الجبل فقالوا: أَقِلْنا، ونحن قلنا في كتابنا على العينين والراس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

ردُّوا كتابهم وقد سُطّر وصكَّ، وطلبوا صنمًا وقيْد الهجر قد فُكّ، وشكُّوا عند الجبل وما فينا من يشك، إن تشبيه المسك باللك [1] وسواس، غمرهم التغفيل وتناهى فاعتقدوا للخالق أشباهًا، فقالوا يوم اليمّ ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾ [2] وما في عقائدنا نحن التباس.

آثر الصحابةُ [3] الفقرَ والمجاعة، واشتغلوا عن الدنيا بالطاعة، وسألت النصارى مائدة للمجاعة، إنما طلبوا قوت الأضراس.

أعند رهبانهم كزهد أُوَيْس؟! أفي متعبِّديهم كعامر بن قيس؟! أفي خائفيهم كالفضيل؟! هيهات ليس ضوء الشمس كالمقياس.

أفيهم مثل بشْر ومعروف؟! أفي زهادهم مذكور معروف؟! أفي طوائفهم طائفة صلَّت [4] وقد صَلْصلت [5] السيوف ورنَّت الأقواس؟!

---

(١) اللك: نبات يصبغ به. (٢) سورة الأعراف: ١٣٨. (٣) ت: أصحابنا.
(٤) ت: من صلت. (٥) ب: صلتت.

أفيهم مثل أبي حنيفة ومالك، أو كالشافعي الهادي إلى المسَالك [١]؟! كيف لا تمدحه وهو أجلُّ من ذلك؟! ما أحسن بنيانه والأساس.

أفيهم أَعْلَى من الحسن وأَنْبل، أو ابن سيرين الذي بالورع تُقبّل، أو كأحمد الذي بذل نفسه وسبَّل؟! تاللَّه فما فيهم مثل ابن حنبل، ارفع صوتك بهذا ولا باس ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

* * *
* *
*

(١) ب: إلى المالك.

الطبقة الثانية

تشتمل على فضائل أيام السنة
ولياليها المذكورات

(فيها أحد عشر مجلسًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

في ذكر عاشوراء والمحرَّم

الحمد للَّه الذي طهَّر بتأديبه من أهل تَقْريبه نفوسًا، وسقى أرباب مصافاته من شراب مناجاته كؤوسًا، ودفع كَيْد الشيطان عن قلوب أهل الإيمان فأصبح عنها محبوسًا، وصرف عن أهل وداده بلطْفه وإسعاده أذًى وبوسًا، وأذلَّ بقَهْره من شاء من خلقه أعناقًا ورؤوسًا، وأعادَ ذِكْر الأصنام بعزّ التوحيد والإسلام مَطْموسًا، وجعل عدَد السنين بجريان الشمس والقمر للحاسبين محروسًا، وكرَّم عَشْر المحرَّم وكلَّم في عاشوراء منه نبيَّه موسى.

أحمده على نِعم لا تُحصَى عدَدًا وما أقضِي بالحمد حقًّا، وأشكره ولم يزل للشكر مُستحِقًّا، وأشهد أنه المالك للرقاب كلها رِقًّا، كوَّن الأشياء وأحْكَمها خَلْقًا، وفتَق السماءَ والأرض وكانتا رَتْقًا، وقسم العِباد فأسعَد وأشقَى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ (١).

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أشرف الخلائق خَلْقًا وخُلقًا، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي حاز كل الفضائل سَبْقًا ويكْفيه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ (٢) وعلى عمر العادل فما يُحابِي خَلْقًا، وعلى عثمان الذي استسلم للشهادة فما يَتوقَّى، وعلى عليّ بائع ما يَفْنى ومشترِي ما يبقى، وعلى عمِّه العبَّاس صِنْو أبيه حقًّا.

اعلموا رحمكم اللَّه إخواني أن شهر المحرَّم شهر شريف القَدْر، وإنما سمِّي المحرم لأن القتال كان يحرم فيه، وقد روي عن جماعة من المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (٣) أنها العَشْر الأوائل من المحرَّم، وقال قتادة: أراد بالفجر فجر أوّل يومٍ من المحرَّم.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزار، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهريّ، أنبأنا علي بن أحمد بن محمد بن كيسان، أنبأنا يوسف بن يعقوب القاضي، حدثنا محمد ابن أبي بكر، حدثنا أبو عَوانة، عن عبد الملك بن عُمَيْر، عن محمد بن المُنْتَشِر (٤) عن حُمَيْد بن عبد الرحمن الحِمْيري، عن أبي هريرة قال: سمعت رسولَ اللَّه ﷺ يقول: « أفضلُ الصوم بعد رمضان شهر اللَّه الذي تَدْعونه المحرَّم » (٥).

---

(١) سورة غافر: ١٣. (٢) سورة الليل: ١٧. (٣) سورة الفجر: ١، ٢.

(٤) في المشتبه : ٦١٦/٢: منتشر بن الأجدع روى عنه ولده محمد.

(٥) روى نحوه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، حديث رقم : ١١٦٣ . وأخرجه أيضًا أبو داود في سننه، حديث رقم : ٢٤٢٩. والترمذي في سننه : ٤٣٨. وأحمد في مسنده، حديث رقم : ١٠٥٣٢.

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أنبأنا ابن المُذْهِب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبيد اللَّه ابن أحمد، حدثني خيثمة، حدثني أبو معاوية، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن النُّعْمان بن سعد، عن علي قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل فقال: يا رسول اللَّه أخبرني بشهرٍ أصومه بعد رمضان فقال: « إن كنت صائما شهرًا بعدَ رمضان فصم المحرم فإنه شهر اللَّه، وفيه يومٌ تاب فيه على قوم ويُتاب فيه على آخرين » (١).

وقد روى ابن شاهين من حديث ابن عبَّاس عن النبي ﷺ أنه قال: « من صام يومًا من المحرم فله ثلاثون يومًا » (٢).

ومن حديث أنس عن النبي ﷺ قال: « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب اللَّه له عبادة تسع مائة سنة » (٣).

ورويت أحاديث من هذا الجنس لا تَثْبت فلهذا تركناها.

ويُستحَبُّ صيام التاسع والعاشر، أمّا التاسع فمذهب ابن عبَّاس أنه هو عاشوراء، قال الأزهري: كأنه تأوَّل فيه عَشْر الوِرْد والعرب تقول: وردت الإبلُ عَشْرًا إذا وردت يومَ التاسع.

وأما يوم عاشوراء ففي الصحيحين مِن حديث ابنِ عبَّاس أن رسول اللَّه ﷺ قدم المدينة فرأى اليهودَ يصومونه ويقولون: هذا يومٌ عظيم أَنْجَى اللَّه فيه موسى وقومَه وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شُكْرًا فنحن نصومه، فقال رسول اللَّه ﷺ: « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه (٤).

وفيهما مِن حديث سلَمة بن الأكوع أن رسول اللَّه ﷺ أمر رجلًا من أسْلم أن أذِّن في الناس: « من كان أكل فليصم » يعني بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء (٥).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، أنبأنا الحسن بن علي أنبأنا أبو الحسين علي ابن محمد بن كيسان، أنبأنا يوسف بن يعقوب، حدثنا إبراهيم بن بشَّار، حدثنا سُفيان ابن عُيَيْنة، حدثنا عُبَيْد اللَّه بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عبَّاس سئل عن صيام يوم

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم : ١٣٣٧، وهو حديث ضعيف.

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب : ١١٤/٢، وهو ضعيف.

(٣) مجمع الزوائد : ١٩١/٣.

(٤) صحيح البخاري : ٢٧٩/١، ط الخيرية، سنة : ١٢٨٠هـ، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء. وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ١٢٧ - ١٣٠.

(٥) صحيح البخاري : ٢٨٠/١. وصحيح مسلم : ١٥٠/٣، ط استامبول، كتاب الصوم.

عاشوراء فقال: « ما رأيت النبي [١] ﷺ صام يومًا يتحرَّى فضله على الأيام إلا هذا اليوم. يعني يوم عاشوراء، وهذا الشهر، يعني شهر رمضان » [٢].

قال يوسف: وحدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمَةَ عن قَتَادة، عن غَيْلان ابن جرير، عن عبد اللَّه بن مَعْبَد الزِّمّانيّ، عن أبي قَتَادة الأنصاري أن رسول اللَّه ﷺ قال: « صوم عاشوراء يكفِّر العام الذي قَبْله ». (انفرد بإخراجه مسلم) [٣].

وقد روي في فضائل عاشوراء أحاديث موضوعة فلا فائدة في ذكرها، مثل: من اغتسل ومن اكتحل ومن صَافح، وكله ليس بشيء.

وقال معاوية بن قُرَّة: صامه نوح ومن معه في السفينة [٤]، قال ابن شاهين: وممن بلغنا أنه كان يصوم يوم عاشوراء علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وعلي بن الحصين وسعيد بن جُبَير وطاوس، وفي الجملة هو يوم عظيم فينبغي أن يفعل فيه ما يمكن من الخير. [فهو وأمثاله مواسم الخيرات فاغتنموها واحذروا الغفلات [٥]].

* * *

الكلام على البسملة

خُلِقْنا لأحداث الليالي فرائسًا ... تزفّ إلى الأجداث منا عرائسا
تجهِّز منا للقبور عساكرًا ... وتُرْدِف أعوادَ المنايا فوارسا
إذا أمَلٌ أرْخَى لنا من عنانه ... غَدا أجَلٌ عما نحاوِل حابسا
أرى الغُصْن لما اجتُثّ وهو بمائه ... رَطيبًا وما أصبح الغُصْن يابسا
نشِيدُ قصورًا للخلود سفاهةً ... ونصبر ما شئنا فُتورًا دَوَارسا
وقد نَعت الدنيا إلينا نفوسنا ... بمن مات منا لو أصابت أكايِسا
لقد ضَربتْ كسرى الملوك وتُبَّعًا ... وقيصر أمثالًا فلم نر قائسا
نرى ما نرى منها جهارًا وقد غدا ... هواها على نور البصيرة طامِسا
وقد فضح الدنيا لنا الموتُ واعظًا ... وهيهات ما نزداد إلا تقاعُسا

---

(١) ت: ما رأيت رسول اللَّه.

(٢) صحيح مسلم : ١٥٠/٣، ط استامبول، كتاب الصوم.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم : ١١٦٢.

(٤) ذكره في اللآلئ المصنوعة : ١١٦/٢، وهو غريب. (٥) من: ت.

غيره:

أبدًا تفهِّمنا الخطوب كرورها ... ونعود في عَمَهٍ كمن لا يفهمُ
تَلْقَى مَسامعَنا العِظات كأنما ... في الظل يَرْقُم وعظَه من يرقمُ
وصحائف الأيام نحن سطورها ... يقرا الأخير ويدْرج المتقدِّمُ
لَحْد على لحدٍ يُهَال ضريحه ... وبأعظم رمَمٌ عليها أعْظُمُ
من ذا توقَّاه المنون وقَبْلنا ... عادٌ أطاحَهم الحِمَامُ وجُرْهُم
والتُّبَّعان تَلاحقا ومُحَرِّق ... والمنذران ومالك ومتمِّمُ

* * *

كأنك بما يزُعج ويَروع، وقد قلع الأصولَ وقطع الفروع، يا نائمًا إلى كم هذا الهجوع؟! إلى متى بالهوى هذا الولوع؟! أينفعك وقتَ الموت الدموع؟! كم لك إلى التُّقى عند النَّزْع نُزوع، هيهات لا ينفع الذل إذًا والخضوع، يقول: فرِّقوا المال فالعجب لِجُود المَنوع، هذا وملك الموت يسلُّها من بين الضلوع، رشَقك سهمُ المنون فما أغنت الدروع، وأتى حاصدُ الزرع وأين الزروع؟ وخلَت منك المساكن وفرغت الربوع، وناب غرابُ البَيْن عن الوَرْقاء السَّجُوع، وتمنيت أن لو زدت من سجود وركوع، فاحذر مكر العدو ولا تقبل قول الخَدُوع.

ضيَّعت وقتك فانقضى في غفلةٍ ... وطويتَ في طَلب الخوادع أدْهُرَا
أفَهِمت عن هذا الزمان جوابَه ... فلقد أبان لك العظات وكرَّرَا
عاينت ما ملأ الصدور مخافةً ... وكفاك ما عاينتَه من أخْبرَا

يا عجبًا كيف أنِس بالدنيا مُفارِقُها، وأمِن النارَ واردُها، كيف يَغْفل مَن لا يُغْفل عنه، كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومه يهدم شهرَه، وشهره يهدم سنَته وسنته تهَدم عُمره، كيف يلهو من يقوده عمُره إلى أجله وحياته إلى موته.

إخواني: الدنيا في إدبار، وأهلُها في استكثار، والزَّارع فيها غيرَ التُّقَى لا يحصد إلا الندم.

قال لقمان لابنه: يا بني لكل إنسان بيتان: بيتٌ شاهد وبيت غائب، فلا يُلْهينك بيتُك الحاضر الذي فيه عُمرك قليل عن بيتك الغائب الذي عمرك فيه طويل.

إخواني: أنفاس الحي خُطَاه إلى أجله، وربما أوْرد الطمعُ ولم يُصْدر، يا من يَفْنى ببقائه ويَسْقَم بسلامته ويُؤْتى من مَأمنه تيقَّظ، الجدَّ الجدَّ قبل بغتات المنايا ومجاورة أهل البلى، ليَحُلَّن بكم من الموت يوم ذو ظُلَم ينسيكم معاشرة اللذات والنِّعم، ولا يبقى في الأفواه إلا طعم الندم.

سَلْ بالزمانِ خَبيرًا إنه به لَعليمُ
داعِي الإماتةِ ظاعِنٌ بالمرءِ وهو مُقيمُ
ووراءَ ضيق حياته نَفَس وليس يدومُ
يا سادرًا في غيِّه حتَّام أنت مُليمُ
لا تُخدعنَّ بمُنْيَة أمُّ الخلود عَقِيمُ
حتَّام يَجْذبك المشيب بكفّه وتَهيمُ
وإذا المَنيَّة أبْرقت فرجاؤك المهزومُ
عُشِق البقاء وإنما طولُ الحياة همومُ

أين الذين ملكوا الدنيا ونالوا؟! زالوا سبقوك يا هذا إلى ما إليه آلوا، أين المغرورون بالآل؟! آلوا إلى الشَّتات، أين المسرورون بالمال؟! مالوا إلى الكِفَات، غَلِق رَهْن أعمالهم وما علقوا إلا بالوبال، وصارت آصارهم في مصيرهم كالجبال، فندموا إذ لا ندم ينفع، وندبوا على المصاب ولكن بعد المصرَع، وتجرَّعوا كؤوس البأس من كل مَطْمع، وضربوا بسيوفٍ من الحسرات إذ تُهَزُّ تقطع.

ظلٌّ من الدنيا تقلَّص زائلًا ومُنًى يُذاق على جَنَاها العَلْقم
ما هذه الآمال إلا رقْدة فيها بأضغاث الأماني نَحلمُ
والكل في رقِّ الفناء وإنما للنائبات معرَّض من يهرم
أبدًا تفهِّمنا الخطوبُ كرورها ونعود في عَمَهٍ كمن لا يفهمُ
تَلْقى مسامعنا العظات كأنما في الظل يَرْقم وعظه من يَرْقمُ
وصحائف الأيام نحن سطورها يقرا (١) الأخير ويدرج المتقدمُ
لحدٌّ على لحد يهال ضريحه مع (٢) أعظم رمَم عليها أعظم
من ذا توقَّاه المنون وقبلنا عاد أطاحهم الحِمام وجرْهمُ
والتُّبعان تلاحقا ومحرِّق والمنذِران ومالك ومُتمِّمُ
وممالك مُنعت بها أربابها فتجبَّروا ثقةً بها وتعظَّموا
سُلبوا ثياب الخُنزوانَةِ (٣) عَنْوةَ فَهَوَوْا وشامِخُ عِزِّهم متهدِّمُ

* * *

(١) ت: يعني
(٢) ت: أو أعظم.
(٣) الخنزوانة: الكبر.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ... ﴾ (١)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال يومَ النحر بمكة: « دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٢).

أخبرنا هبة اللَّه بن الحصين، أنبأنا الحسن بن علي بن المذْهِب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد اللَّه: قال رسول اللَّه ﷺ : « أول ما يُقْضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » (٣).

قال أحمد: وحدثنا أبو النضر، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: « لن يزال المرء في فُسْحَةٍ من دينه ما لم يصبْ دمًا حرامًا ». (انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري (٤) واتفقا على الذي قبله).

أخبرنا علي بن عُبيد اللَّه ، أخبرنا أبو الحسين بن النَّقُور، أخبرنا أبو حفص الكِنَاني، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عبَّاد المكِّي، حدثنا حاتم يعني ابن إسماعيل، عن بَشير يعني ابن المهاجر، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « لَقتلُ المؤمن أعظمُ عند اللَّه من زوال الدنيا » (٥).

* * *

واعلم أن اللَّه ﷻ اختار هذا اليوم لاستشهاد الحسين.

أخبرنا ابن الحصين، أخبرنا ابن المذْهِب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه ابن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو النَّضر، حدثنا مهدي، عن محمد بن أبي يعقوب، عن ابن أبي نعم، قال: جاء رجل إلى ابن عمر وأنا جالس عنده فسأله عن دم البعوض،

---

(١) سورة الإسراء: ٣٣

(٢) صحيح البخاري : ٢٤٤/١، كتاب الحج. وصحيح مسلم، كتابُ الحج، حديث رقم : ٣١١ - ٣٢٩.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم : ٦٥٣٣. وصحيح مسلم، حديث رقم : ١٦٧٨. ومسند أحمد، حديث رقم : ٣٦٦٥.

(٤) صحيح البخاري : ٢٤٦/٣، كتاب الديَّات.

(٥) صحيح البخاري : ٢٤٦/٣، كتاب الديَّات. وصحيح مسلم، كتاب القسامة، حديث رقم : ٢٨.

فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق، قال: انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابنَ رسول اللَّه ﷺ وقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « هما رَيْحانتاي من الدنيا ». (انفرد بإخراجه البخاري) (١).

أخبرنا الكَرُوخي، أنبأنا أبو عامر الأزْدِي، وأبو بكر الغُورَجِي، أنبأنا الجرَّاحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن يزيد بن أبي زياد، عن ابن أبي نُعم، عن أبي سعيد الخدْري، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الحسن والحسين سيِّدا شبابِ أهل الجنة ». (قال الترمذي: هذا حديث صحيح) (٢).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، حدثنا ابن معروف، حدثنا ابن صاعِد، حدثنا يوسف بن موسى القطَّان، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي ذرٍّ، عن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « هذان ابناي فمن أحبهما فقد أحبَّني » يعني الحسن والحسين عليهما السلام (٣).

أخبرنا علي بن عبد اللَّه، أخبرنا علي بن أحمد بن البسْري، أخبرنا عبيد اللَّه بن محمد ابن ريطة إذنًا، قال: حدثني أبو صالح محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن عبيد اللَّه البصري، حدثنا عبيد اللَّه بن محمد العبسي، حدثنا أبان بن أبي عيَّاش، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم سلمة قالت: كان جبريل عند النبي ﷺ وحسين معي فبكى فتركته فأتى النبيَّ ﷺ فأخذته فبكى فأرسلته فذهب إليه فقال له جبريل: أتحبه يا محمد؟ فقال: « نعم ». فقال: إن أمتك ستقتله فإن شئت أريتك تربة أرضه التي يُقتل بها، فبسط جناحه إلى الأرض التي يُقتل بها يقال لها: كربلاء وأخذ بجناحه فأراه إياه، قال حماد: فأخبرني أبَان أو غيره أن الحسين لما نزل كربلاء شمَّ الأرض وسألهم عن اسمها فقالوا: كربلاء، فقال: كربٌ وبلاء فقتل بها (٤).

وروى عبد اللَّه بن نُجَيّ، عن أبيه أنه سار مع علي عليه السلام وكان صاحب مِطْهَرته فلما حاذَى نينوى وهو منطلق إلى صفِّين نادى علي: اصبر أبا عبد اللَّه، اصبر أبا عبد اللَّه بشط الفرات، قلت: وما ذاك؟ قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي اللَّه أغضبك أحدٌ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: « قام من عندي جبريل قبلُ فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، وقال لي: هل لك أن أُشِمّك من تربته؟

(١) صحيح البخاري : ١٦٩/٢. كتاب المناقب.

(٢) صحيح البخاري: ٣٠٦/٢، كتاب المناقب. وسنن الترمذي، حديث رقم : ١٣٩٥. وسنن ابن ماجه، حديث رقم : ٢٦١٩.

(٣) سنن الترمذي، حديث رقم : ٣٧٦٩. ومسند أحمد، حديث رقم : ١٠٦١٦، وهو ضعيف.

(٤) مجمع الزوائد : ١٨٩/٩.

قلت: نعم، فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عينيّ أن فاضتا » [١].

وروى عمار بن أبي عمار عن ابن عبَّاس قال: رأيت النبي ﷺ في المنام نصف النهار أشعث أغْبَر معه قارورة فيها دم يلتقطه أو يتتبع فيها شيئًا، قلت: يا رسول اللَّه ما هذا؟ قال: « دم الحسين وأصحابه لم أزَلْ أتتبعه منذ اليوم »، قال عمار: فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قُتل ذلك اليوم [٢].

* * *

إنما رحل الحسينُ إلى القوم لأنه رأى الشريعة قد رُفضت، فجدّ في رفع قواعد أصَّلها الجَدّ [ﷺ [٣]] فلما حضَروه حصروه فقال: دعوني أرجع، فقالوا: لا، انزل على حكم ابن زياد، فاختار القتلَ على الذلّ، وهكذا النفوس الأبية.

تأبَى الدناءَة لي نفسٌ نفاستُها ... تسعى لغير الرِّضا بالرِّيِّ والشِّبَع

فلاكتساب العُلا حِلِّي ومُرْتَحلي ... وفي حمِىَ المجْدِ مُصْطَافي ومُرْتَبعي

لي همةٌ ما أظن اللَّحْظ يُدْركها ... إلا وقد جاوزتْ في كل مُمْتَنعِ

لا صاحبتْنيَ نفْسٌ إن هَممت بأن ... أرمِي بها لَهواتِ الموت لم تُطع [٤]

ولقد تَبع طريقَ الحسين عبدُ اللَّه بن الزُّبيْر، فإن الحجاج عرض عليه الأمان فقال: واللَّه لضْربة بسيف في عِزّ أحبّ إليّ من حياة في ذلٍّ، وكان يحاربهم وينشد:

اصبر عصام إنه شِبْرَاقْ [٥] ... قد سَنَّ أصحابك ضَرْب الأعناقْ

وقامت الحربُ بنا على ساقْ

فقيل له: قد لحِق فلانٌ وفلان بالحجاج، فأنشد:

فرَّت سَلامان وفرت النَّمِر ... قد [٦] نتلاقى معهم فلا نفِرّ

وكانوا يرمون بالحجارة فيقال له: ما تأمن أن يصيبك حجر؟ فيقول:

هوِّن عليك فإن الأمور ... بكفِّ الإله مَقَادِيرُها

فليس بآتيك مَنْهيُّهَا ... ولا قاصِرٌ عنك مأمورُها

ولبس درعًا وجاء يودّع أمَّه أسماء، فقالت: ما هذا الدرع؟ فقال: واللَّه ما لبسْته إلا لأقوِّي نفسك.

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/١٨٧. (٢) مجمع الزوائد: ٩/١٩٠. (٣) من: ت.

(٤) الأبيات لعبد الواحد بن نصر الببغاء، وقد أورد بعضها ابن الجوزي في ذم الهوى: ص ٦٤٣.

(٥) الشبراق: من كل شيء شدته. (٦) ب، ج: وقد.

فإني لَيُغْنيني عن السيف عَزْمتي فهل فيه ما يغنيه عن كفٍّ ضاربِ
إذا عرَضُ الدنيا ألان صِلابها شَمَختُ بأنفي عنه وازورَّ جانبي
فلا تَنْتَسِبْ إلا إلى بُعْد هِمَّة ولا تكتسب إلا بِحُرِّ المقَانبِ
فإن دَنِيّات السجايا إذا هَوى بها المرءُ لم يَنْفَعْه عزُّ المناصبِ

للّه در هذه الأنفس فما أعزَّها وهذه الهمم فما أرفعها!

ولما رأوا بعضَ الحياة مَذلةً عليهم وعِزَّ الموت غير محرّم
أبوا أن يذوقوا العيش والذمُّ واقعٌ عليه وماتوا ميتةً لم تُذَمَّمِ
ولا عجب للأسد إن ظفرتْ بها كلابُ الأعادي من فصيح وأعجمِ
فحَرْبة وحْشيٍّ سقت حمزةَ الردى وحَتْف عليّ في حُسامِ ابن مُلجَمِ

أخبرنا علي بن عبيد اللّه، أخبرنا علي بن أحمد السري، أنبأنا عبد اللّه بن بطّة، حدثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضْرمي، حدثنا هلال بن بشر، حدثنا عبد الملك بن موسى، عن هلال بن ذَكْوان، قال: لما قتل الحسين مُطِرْنا مطرًا بقي أثره في ثيابنا مثل الدم.

قلت: لما كان الغضبان يحمرُّ وجهه فيتبين بالحمرة تأثير غضبه، والحق سبحانه ليس بجسم، أظْهَر تأثير غضبه بحمرة الأفق حين قتل الحسين.

وبالإسناد قال ابن بطة: وحدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا سليمان ابن حرب، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن محمد بن سيرين قال: لم تُرَ هذه الحمرة في السماء حتى قُتل الحسين.

قال ابن بطة: وحدثنا أبو ذر الباغَنْدي، حدثنا حماد بن الحسين الوراق، قال سمعت عليَّ بن أخي شعيب بن حرب يقول: ناحت الجنُّ على الحسين بن علي فقالت جِنّية:

جاءت [1] نساء الحي يبكين شَجيّاتِ ويلْطمن خدودًا كالدنانير نقياتِ
ويَلْبَسنَ ثياب السُّود بعد القَصبيّاتِ

وروينا في حديث أنه حفظ من قول الجن:

مسح النبيُّ جبينه فله بَريقٌ في الخدودِ
أبواه مِنْ عَلْيَا قريش وجَدُّه خير الجدود

(١) أورد الهيثمي هذا الخبر في مجمع الزوائد : ١٩٩/٩، وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه وأبو جناب مدلِّس.

وقال جني آخر (١):

أبكِي قتيلا بكربلاء ... مضرَّج الجسم بالدماء

أبكِي قتيلًا بكى عليه ... حزنًا بنو الأرض والسماء

أبكي قتيلَ الطغاة ظلمًا ... بغير جُرْم سوى الوفاء

هتّك أهلوه فاستحلوا ... ما حرَّم اللَّه في الإماء

يا بِأبي جِسْمه المعرَّى ... إلا من الدين والحياءِ

كل الرزايا لها عزاء ... وما لذا الرُّزءِ من عزَاءِ

وروينا أن صخرة وجدت قبل مبعث النبي ﷺ بثلاث مائة سنة وعليها مكتوب باليونانية:

أيرجو معشرٌ قتلوا حسينًا ... شفاعة جدّه يومَ الحسابِ

ويح قاتل الحسين! كيف حاله مع أبويه وجده!

لا بد أن ترد القيامة فاطِمٌ ... وقميصها بدم الحسين ملطَّخُ

ويلٌ لمن شفعاؤه خصماؤه ... والصُّور في يوم القيامة يُنْفخُ

إخواني: بالله عليكم مَنْ قَبُح على يوسف بأي وجهٍ يَلْقى يعقوب؟!

لمّا أُسِر العبَّاس يوم بدر سمع رسول اللَّه ﷺ أنينه فما نام، فكيف لو سمع أنين الحسين؟!

لمَّا أسلم وحشيٌّ قال له: غيِّب وجهك عني، هذا واللَّه والمسلم لا يؤاخذ بما كان في الكفر، فكيف يَقْدر الرسول ﷺ أن يبصر من قتل الحسين؟

* * *

قوله تعالى:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا...﴾ (٢)

لقد جمعوا في ظلم الحسين ما لم يجمعه أحد، ومنعوه أن يرد الماء فيمن ورَد، وأن يرحل عنهم إلى بلد، وسبُّوا أهلَه وقتلوا الولد، وما هذا حدٌّ (٣) دَفْع عن الولاية هذا سُوء مُعْتقَد.

نبع الماء من بين أصابع جدّه فما سقَوه منه قطرة!

كان الرسول ﷺ من حُب الحسين يقبل شفتيه ويحمله كثيرًا على عاتقيه (٤)

---

(١) ب، ج: وقالت.

(٢) سورة الإسراء: ٣٣.

(٣) ب، ج: جد دفع.

(٤) ت: على كتفيه.

ولما مشى طفلًا بين يدي المنبر نزل إليه، فلو رآه مُلقًّى على أحد جانبيه والسيوف تأخذه والأعداء حواليه والخيل قد وطئت صدره ومشت على يديه، ودماؤه تجري بعد دموع عينيه لضجّ الرسول ﷺ مستغيثًا من ذلك ولعزَّ عليه.

كربلاء زِلْت كربا وبَلا ... ما لقِي عندَكِ أهل المصطفى
كم على تُرْبِك لمّا صُرعوا ... من دمٍ سالَ ومن دَمْع جرَى
يا رسول اللَّه لو عَايَنْتَهم ... وهم ما بين قَتْل وسِبَا
من رَمِيض [1] يُمْنَع الظلَّ ومِن ... عاطش يُسْقَى أنابيبَ القَنا
لرأتْ عيناك فيهم مَنْظرًا ... للحشا شَجْوًا وللعينِ قَذى
ليس هذا لرسول اللَّه يا ... أمة الطغيان والمَيْن جَزَا
غارسٌ لم يألُ في الغرس لهم ... فأذاقوا أهلَه مُرَّ الجنَى
جزروا جَزْرَ الأضاحي نسْلَه ... ثم ساقوا أهلَه سَوْق الإما
هاتفات يا رسول اللَّه في ... بَهر [2] السَّعْي وعثرات الخُطا
قتلوه بعد عِلْمٍ منهم ... أنه خامسُ أصحاب الكِسَا [3]
يا جبال المجد عزًّا وعُلا ... وبدور الأرض نورا وسَنا
جعل اللَّه الذي نالكم ... سبب الوجد طويلًا والبُكا
لا أرى حُزنكم يُنْسَى ولا ... رُزْأكم يُسْلى ولو طال المدى

* * *

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانًا، ودَمغ من عاداه فعاد بعد العز مُهانًا، ما ضرَّه حين الشهادة من أوسعه خذلانًا، ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ هلَك [4] أهل الزَّيغ والعناد وكأنهم ما ملكوا البلاد وعاد عليهم اللعنُ كما عاد على عاد، أين يزيد أين زِياد؟! كأنهما ما كانا لا كانا ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾.

---

(١) الرميض: من أصابته الرمضاء، وهي شدة الحر بالهاجرة.

(٢) البهر: انقطاع النفس من الإعياء.

(٣) أي الذين غطاهم رسول اللَّه ﷺ ببردته وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وهم الرسول ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

(٤) ب، ج: هكذا. محرفة

تمتعوا أيامًا يسيرة، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة، وبقيت سيرةُ الحسين أحسنَ سيرة، ومن عزَّت عاقبته والسِّيرة [١] فكأنْ لم يلق هَوانًا ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَنًا ﴾.

مُزِّقوا واللَّه كل مُمَزَّق، وتفرقوا بالشتات أي مُتفرّق، وظنوا أنهم رَفَوْا [٢] ما جَنَوْا فتخرَّق، إن ناصر المظلوم لا يتوانى ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَنًا ﴾.

تعززوا على [مثل] [٣] الحسين وطالوا، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا، وكيلَ لهم من الذم أضعاف ما كالوا، وعجِّل قلعهم من السلطة فزالوا سُلْطانًا سلطانًا ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَنًا ﴾.

ويلهم لو دبروا أمرهم لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم، ملكوا أيامًا ثم بقي الخزي دَهْرهم، اشتغلوا اليوم بتسبيحكم ودعوا ذكرهم أهوانًا ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَنًا ﴾.

وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

* *

*

---

(١) ب، ج: والسريرة. (٢) ت: وظنوا رفوا. (٣) ليست في ت.

المجلس الثاني

في ذكر رجب

الحمد للَّه الذي فلق [(١)] النوى والحب، وخلق [(٢)] الفاكهة والأبّ، وأبْغَض وكرِه وأحَبّ، وأمْرض وداوَى وطَبَّ، أنشأ الحيوان بقدرته فدَبّ، وبناه فأحسن تدبيره حين رَبّ، فالعجب لمربوب يجحد الربَّ، عمَّ إنعامه فلم يَنس في البحر الحوت وفي البر الضبَّ، أحمده على تبليغنا هذا الشهر الشريف الأصبّ، وأشكره على إيمان به في القلوب صب، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له شهادة اجتمع بها مراد التوحيد واستتب، وأن محمدًا عبده ورسوله المسمَّى الأمين صغيرًا وما شبَّ، ثم قهر الأعداء فألبسهم الزُنَّار والقبَّ [(٣)] وأجيب عنه لكل من عابه وسَبَّ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [(٤)] وعلى صاحبه أبي بكر الذي خلق صافيًا في الصحبة ولبَّ، وعلى عمر الذي قمع كلَّ جبَّار على الكفر أكبَّ فكبَّ، وعلى عثمان الـمُناجِي طويلَ ليلته مناجاةَ الصبّ، وعلى عليّ أشجع من حامَى عن الإسلام وذَبَّ، وعلى عمِّه العبَّاس الذي أتته السحاب لما ذكر اسمه وهَبَّ.

اللهم بارك لنا في شهر رجب الأصمَ واحفظنا فيه من مُوجبات السُخط والذم، وحُطْنا حياطةً نَنْسى بها لطف الأب والعمّ، عُمَّنا بأياديك يا خير من أعطى وعَمّ.

* * *

اعلموا إخواني أن شهركم شهر محرَّم [(٥)] وقد أخبرنا أبو علي بن محبوب، أنبأنا طراد بن محمد، أنبأنا الحسين بن عمر بن برهان [(٦)]، حدثني عثمان بن أحمد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحُبْلى، حدثنا الحسن بن علي بن يزيد الصُّدائي، [قال] [(٧)] حدثنا أبي، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول اللَّه ﷺ « إن شهر رجب شهر عظيم من صام منه يومًا جزى [اللَّه [(٨)]] له ألف سنة، ومن صام منه يومين جزى [اللَّه] له ألفي سنة، ومن صام منه ثلاثة أيام جزى [اللَّه] [صوم] [(٩)]

---

(١) ت: فالق النوى.
(٢) ت: وخالق.
(٣) القب: ما يدخل في جيب القميص من الرقاع.
(٤) سورة المسد: ١.
(٥) أ: شهر محترم.
(٦) أ: ابن بهران.
(٧) من أ.
(٨) من ت.
(٩) من ب، ج.

ثلاثة آلاف سنة، ومن صام من رجب سبعة أيام غلقت عنه أبواب جهنم، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية فيدخل من أيها شاء، ومن صام منه خمسة عشر يومًا بدلت سيئاته حسنات ونادى مُنادٍ من السماء قد غفر لك فاستأنف العمل » (١).

وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الجنة نهرًا يقال له: رجب، من صام يومًا من رجب سقاه اللَّه ﷻ من ذلك النهر » (٢) وروي من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « رجب من الشهور الحرم وأيامه مكتوبة على أبواب السماء السادسة، فإذا صام الرجل منه يومًا وجرَّد صومه لتقوى اللَّه نطق الباب ونطق اليوم وقالا: يا رب اغفر له، وإذا لم يتم صومه بتقوى اللَّه لم يستغفرا له وقيل له: خذ حظ نفسك ».

وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائله من هذا الجنس غير أنها لا تثبت ولا تصح، فلذلك تجنبنا ذكرها.

[وما يروى فيه من صلاة الرغائِب فحديث لا أصل له، وإني لأغار لصلاة التراويح من صلاة الرغائب وإنما يتهم بوضعها ابن جَهْضم] (٣).

وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: يعجبني أن يفرِّغ الرجل نفسَه في أربع ليال: ليلة الفطر وليلة الأضحى وليلة النصف من شعبان وأول ليلة من رجب، وروي أن عمر بن عبد العزيز كَتَبَ إلى عدي بن أرطأة: إن عليك بأربع ليال فإن اللَّه يُفْرِغ فيهن الرحمةَ إفراغًا فذكر هذه الليالي الأربع.

وقال قيس بن عَبَّاد: في اليوم العاشر من رجب يمحو اللَّه ما شاء ويثبت.

وقد أغري القُصَّاص والمتزهِّدون بالتحريض على صومه (٤)، وإنما يصومه كله من يصوم السَّنة.

قال حنبل: سألت أبا عبد اللَّه أحمد بن حنبل عن صيام رجب، فقال: من كان يصوم السنة وإلا فلا يصمه متواليًا يكره له ذلك ولا يشبه برمضان.

وقد كان عمر بن الخطاب يضرب أكف الناس في رجب حتى يضعوها في الطعام ويقول: كلوا فإنما هو شهر كانت الجاهلية تعظمه.

ودخل أبو بكرة على أهله فرأى عندهم سلالًا وكيزانًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجب نصومه، فقال: أجعلتم رجبًا كرمضان؟! فألقى السلال والكيزان، قال عمرو الزاهد:

---

(١) ذكره في اللآلئ المصنوعة : ١١٥/٢، وقال: لا يصح، الفرات متروك.

(٢) كنز العمال : ٢٤٢٦٠. والحديث باطل كما في ميزان الاعتدال للذهبي في ترجمة منصور بن يزيد.

(٣) ليست في أ. (٤) أ: على صيامه.

حدثنا ثعلبة، عن سلمة، عن الفرَّاء، عن الأصمعي وعن ابن الأعرابي، عن الفضل قال: كل العرب تقول: رجَبْت فلانًا أرْجُبه رجَبًا ورجُوبًا إذا عظَّمته، قال ثَعْلب: وإنما سمِّي رجبًا [١] لتعظيمه، قال سليمان الشاذكونيّ: إنما سُمّي الأصم لأن العرب كانت لا يُغير بَعضها على بعض فيه ولا تحمل فيه السلاح، وكانوا لا يسمعون قعقعة السلاح فسمي أصَمَّ به، وأما تسميته برجب مضر فلأنها كانت تعظّمه أشد من جميع العرب فأضيف إليها.

وقد خصّه خَلْق كثير من العوامّ بإخراج الزكاة فيه، وهذا جهل منهم فإن الزكاة إنما تجب في المال إذا حالَ الحولُ عليه، فمتى ملك النصاب في المحرَّم مثلًا وجبت الزكاة في المحرَّم فمتى أخَّرها إلى صَفر أثِم؛ لأنها حقوق الفقراء فُرضت لحاجتهم فلا وجه للتأخير، وقد يروي القُصَّاص في رجب من الفضائل وأفعال الطاعات أشياء كثيرة لا نرى ذكر شيء منها؛ لعِلْمنا بعدم صحته، بل نقول: ينبغي للإنسان أن يبادر [إلى] [٢] فعل الخير على الدوام، والله الموفق.

* * *

الكلام على البسملة

ألا يا غافلًا يُحصَى عليه ... من العمل الصغيرةُ والكبيره
يصاح به ويُنْذر كل يوم ... وقد أنْسَته غفلتُه مَصيره
تأهَّبْ للرحيل فقد تدانىَ ... وأنْذرك الرحيل أخ وجيره
وأنت رَخِيّ بالٍ في غرور ... كأن لم تقترفْ فيها صغيرَه
وكم ذَنْبٍ أتيت على بصيرة ... وعينُك بالذي تأتي قريره
تحاذر أن تراك هناك عينٌ ... وإن عليك لَلْعَينُ البصيره
وكم حاولتَ من أمرٍ عظيم ... مُنعت برحمة منه وخيره
وكم من مَدْخل لو مِتَّ فيه ... لكنت به نكالًا في العشيرة
وقِيتَ السوءَ والمكروه فيه ... ورحْتَ بنعمةٍ فيه ستيره
وكم من نعمةٍ لله تُمسي ... وتصبح ليس تعرفها كثيرة

* * *

---

(١) أ: رجب.
(٢) من أ.

يا من بين يديه الموت والحساب، والتوبيخ الشديد والعِتاب، وعليه بأفعاله وأقواله كِتاب، وقد أذنب كثيرًا غير أنه ما تاب، وكلما عُوتِب خرج من باب إلى باب، إلى متى هذا الجهل وإلام هذا العاب، ما أظنك حاضرًا عدوك فيمن غاب.

أيَقْظان أنت اليومَ أم أنت نائمُ ... فكيف يطيق النومَ حيرانُ هائمُ

ألست الذي دُمْت على الخطايا وعصيت، وبارزت بالقبيحِ وما استحييت، وعلمت تحريمَ الذنب ثم أتيت، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت؟! ستُكف [منك] [1] الخمسُ بعدَ الحركة واللّمس، وسيذهب اليوم كما ذهب أمْس، وسيُبدَل النطق بالسكوت والهْمس، وستعدم نورَ القمر وضوء الشمس، وسيقلع البستان وييبس الغرس، وقد قرب وقت الغَمْس في بحر الرمس، وسيَنْسى ذو العلم الدَّرس [بالدرس] [2]:

لا تَلْبس الدهرَ على غرّة ... فما لموت الحي من بدّ

ولا يخادعك طويلُ البقا ... فتحْسب الطولَ من الخُلْد

يَنْفد ما كان له آخرٌ ... ما أقْربَ المهد من اللحد

يا من يُنصح وليس منه إلا الإباء، أين الأجداد أين الآباء؟! أين الإخوان أين الأقرباء؟! أدرك القومَ بعد القهر السِّباء، فبكى لسوء مُنْقَلبهم الغرباء، تالله لقد قامت بالمواعظ الخطباء، ولقد أذّنت برحيلِ الجيش النُّقباء، ولكن قد عمَّت الغفلة والغَباء، وكأن قد كفت عن الدواء الأطباء، وهل مرض القلوب إلا حُب الدنيا، فعلى الدنيا العفاء:

أقلُّ قليلها يكفيك منها ... ولكن لست تقنع بالقليل

ومن هذا الذي يَبْقى وتبْقى ... مضاربه بمَدرجة السُّيول

ويحكَ أنت في القبر محصور إلى أن ينفخ في الصُّور، ثم راكب أو مجرور، حزين أو مسرور، مطلق أو مأسور، فما هذا اللهو والغرور، الحازم من تزود لما به قبل أن يصير لمآبه.

إخواني: إنكم تَغْدون وتروحون في آجالٍ قد غُيِّبت عنكم، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوحا الوحا، فالطالب حثيث، تذكروا تلك الصَّرْعة بين الأهل وهم لا يقدرون على ضرّ ولا نَفْع، والله ما بات عاقلٌ قط إلا على فراش حَذر، إنما هو دبيب من سقْم ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلت القدم لم ينفع ندم، لا توبة تنال ولا عثرة تُقال ولا فداء بمال.

أأغفلُ والدهر لا يَغْفل ... وأنسى الذي شأنه أعْضلُ

ويُطْمعني أنني سالم ... وداء السلامة لي أَقْتَلُ

---

(١) ليست في أ.

(٢) ت: قد غرت.

ويـمـضـي نـهـاري ولـيـلـي معًا بـمـا غـيْـره الأحْـسَـن الأجْـمـلُ
وآمـل [١] أنـي أفـوت الـحِـمـام أمَانِ [٢] لعَمْرك لي ضُلَّل [٣]
وكـيـف يـرى آخِـرٌ [٤] أنـه سـيَـبْـقـى وقـد هـلـك الأولُ
فـحـتـى مـتـى أنـا لا أرعـوي وكـم ذا أقـول ولا أفـعـل
أيـا ذاهِـلاً ونـداءُ الـحـتـوف في الناس توقظ من يَـذهـل [٥]
ألا أيـن أهـل الـنـعـيـم العزيز وأيـن الأجَـالـدُ والـبُـزَّلُ [٦]
تـنـاولـهـم مـن قِـلال الـقُـصـور فأهلكهـم مُـزْعِـجٌ مُـعْـجِـلُ [٧]

* * *

قل للذين أعرضوا عن الهُدى فما تبعوا، وخُوِّفوا يوم الردى فما ارتدعوا، وسمعوا المواعظ فكأنهم ما سمعوا: تقلبوا كيف شئتم وما شئتم فاصنعوا.

غدًا توفَّى النفوسُ ما كسبت ويـحـصـد الـزارِعـون مـا زرعـوا
إن أحـسـنـوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبـئـس مـا صـنـعُـوا

للَّه در أقوام بادروا الأعمالَ واستدركوها، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها، وتأهبوا لسبيل [٨] التوبة ثم سلكوها، وعرفوا عيوب العاجلة فتركوها، استعمالهم الأدب [٩] في جمادى كرجب.

يا هذا إذا هممت بخير فبادر هواك لئلا تُغْلب، وإذا هممت بشر فسوِّف هواك لعلك تَغْلب.

الحكمة نور الفطرة، والصواب فرع الرويَّة، والتدبير قيمة الهمة، والهوى ضد الحزْم، ثقِّف نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك، فإن سياسة الأخلاق مراقى المعالى [١٠].

قال بَزْرجَمْهر: أخذت من كل شيء أحسنَ ما فيه حتى من الكلب والغراب والهرة. قيل: وما أخذتَ من الكلب؟ قال: ذَبُّه عن حريمه وإلفه لأهله، قيل: فمن الهرة؟ قال: رفقها [١١] عند المسألة ولين صياحها، قيل: فمن الغراب؟ قال: شدة حَذَره.

---

(١) أ: أؤمل. (٢) ب، ج: أمانًا.
(٣) أ: ظلل. ب، ج: يضلل، وما أثبته من ت. (٤) أ: أحد
(٥) أ: تذهل من يذهل. (٦) البزل: جمع بازل وهو الرجل الكامل في تجربته.
(٧) ب، ج: يعجل. (٨) أ: لسبل.
(٩) أ، ب، ج: للأدب، وما أثبته من ت. (١٠) ت: من مراقي. (١١) ب، ج: رقتها.

يا هذا صُنْ حياة عقلك عن مخالطة غَوْغاء نفسك، من طلب المعالي استقبل العوالي، من لازم الرُّقاد فاته المراد، من دام كسله خاب أمله.

من صَغُرت نفسُه فهمَّته أبلغ في قصْده من المِحَنِ
وقلَّ ما التذَّ بالسرور فتًى لم يَجْنه من عواقب الحزَنِ

لولا سخط نفس أبي بكر عليه لمفارقة هواها ما نال مرتبة: « أنا عنك راضٍ ».
لولا عُرْي أُوَيْس ما لَبِس حُلّة: « يشفع في مثل ربيعة ومضر » [١].

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ... ﴾ [٢]

قال المفسّرون: نزلت هذه الآية من أجل النَّسِيء الذي كانت العرب تفعله، والنَّسِيء تأخير الشيء، وكانت العرب تحرّم الشهورَ الأربعة، هذا مما تمسكت به مِن مِلَّة إبراهيم، فربما احتاجوا إلى تحليل المحرّم لحرب تكون بينهم فيؤخِّرون تحريمَ المحرّم إلى صفر ثم يحتاجون إلى تأخير صفَر، ثم كذلك حتى تتدافع الشهور فيستدير التحريم على السَّنَة.

فكانوا يستنسئون الشهر الحرام ويَستقرضونه.

قال الفرّاء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصَّدَر من منًى قام رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم فيقول: أنا الذي لا أُعاب ولا أُخاب ولا يردُّ لي قضاء، فيقولون: أَنْسِئْنا شهرًا، يريدون أخِّر عنا حرمة المحرَّم فاجعلها في صفر. فيفعل ذلك، وقال مجاهد: أول من أظهر النسيء جُنادة بن عوف الكِناني فوافقت حجة أبي بكر الصديق ذا القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة فذلك حين قال: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض ».

أخبرنا عبد الأوّل، أنبأنا الداودي، أنبأنا ابن أعين، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سلام، أخبرنا عبد الوهاب، أنبأنا أيوب، عن محمد بن أبي بَكْرة عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق اللّه السموات والأرض،

---

(١) هو أويس بن عامر القرني الزاهد المشهور أدرك النبي ﷺ ولم يره وسكن الكوفة وهو من كبار تابعيها. أسد الغابة : ١/١٥١، ط دار إحياء التراث العربي - لبنان.

(٢) سورة التوبة: ٣٦.

السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حُرم ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحِجّة والمحرَّم ورجب مضر [الذي] [١] بين جمادى وشعبان ». (أخرجاه في الصحيحين) [٢].

قال العلماء: أعلم اللَّه ﷻ بهذه الآية أن عدد شهور المسلمين التي يعدونها [٣] اثنا عشر شهرًا على منازل القمر، وقوله: ﴿ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي في اللوح المحفوظ الذي كتبه اللَّه يوم خلق السموات والأرض ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ... ﴿٣٦﴾ ﴾ وإنما سمَّاها حُرُمًا لمعنيين: أحدهما: تحريم القتل فيها. والثاني: لتعظيم انتهاك الحرمات فيها.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ... ﴿٣٦﴾ ﴾ قال ابن قتيبة: يعني الحساب الصحيح والعدد المستوي.

﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ... ﴿٣٦﴾ ﴾ اختلفوا في هذه الكناية على قولين:

أحدهما: أنها تعود على [٤] الاثني عشر شهرًا، قاله ابن عباس، فيكون المعنى: لا تجعلوا حرامها حَلالًا ولا حلالها حرامًا كفعل أهل النسيء.

والثاني: أنها ترجع إلى الأربعة الحرم، وهو قول قتادة والفراء واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة: لثلاث خلون وأيام خَلوْن، فإذا جازت [٥] العشرة قالوا: خَلت ومضت، ويقولون لما بَين الثلاثة إلى العشرة: هن وهؤلاء، فإذا جُزْت [٦] العشرة قالوا: هي وهذه، إرادة أن يُعرف اسمُ القليل من الكثير.

- وفي المراد بهذا الظلم قولان:

أحدهما: أنه خصَّ النهي عن الظلم بهذه الأشهر؛ لأن شأن المعاصي يُعَظَّم فيها أشد من تعظيمه في غيرها لفضلها على ما سواها، كما عظِّمت طاعة الحَرم ومعصيته وإن كان العبد مأمورًا بذلك في غيرها، هذا قول الأكثرين.

والثاني: أن المراد بالظلم فيهن فعل النسيء، قاله ابن إسحاق.

* * *

واعلم أن تفضيل بعض الشهور على بعض ليكون الكف عن الهوى ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها، تدريجًا للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعًا.

---

(١) من: أ.

(٢) صحيح البخاري : ١٦٩/٢، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب القسامة، حديث رقم : ٢٩.

(٣) ب، ج: التي يسمونها.

(٤) أ: إلى.

(٥) ب، ج: فإذا جزت.

(٦) فإذا حضرت.

فبادروا في هذا الشهر من الخير كل ممكن ما دام الأمر يمكن، واعلموا أن العمر لا قيمة لأوقاته وزمان الصحة لا مِثل لساعاته، فحاسبوا أنفسكم قبل الحِساب وأعِدُّوا للسؤال صحيحَ الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام واغسلوا عن الأجْرام قبيح الإجرام، قبلَ ندم النفوس حين سِيَاقها، قبل طَمْس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأسٍ مُرة في مذاقها، قبل أن تدور بدُور السلامة في أفلاك محَاقها، قبل أن تُجْذب الأبدانُ إلى القبور بأطواقها، وتَفْترش في اللحود أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حُسْن اتِّساقها، وتشتد شدة الحسرات حاسرة عن ساقها، وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندلاقها، وتتقلب القلوبُ في ضنك ضِيق خناقها، ويطول جَزَع من كان في عمره (١) ناقهًا، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها.

ألا يـا لـقـومـي لـحـيٍّ رَدِي ... ولـلـمـرء يَجـهْـل ما في غـدِ

ولـلـمـيْـت جـمَّـع أمـوالـه ... لآخـر في الـحـيِّ لـم يـجْـهـدِ

سيُـلـقـيك أهـلـك والحامـلـون ... وأعـضـاء جـسـمـك لم تـبـردِ

ويـصـبـح مَـالُـك لـلـوارثـين ... وأنـت شَـقِـيـت ولـم تُحْـمـدِ

هذا حادي الممات قد أسرع، هذه سيوف الملمات قد تقطع، هذه قصور الإخوان بلْقع، مال صاحب المال فإذا المال يوزّع، أنفعه حرصُه حين سُلب ما جمع أجمع؟! إنما هذه الدنيا فخذ منها أو دع، إن وصلتْ فعلى نية أن تقطع، وإن بذلت فبعزيمة أن تمنع، انتظر سَلْبها يا مشغولًا (٢) بها، وتوقع أسفًا لكبد على حبها تتقطع، أتراها أنها ما علمت أنها تخدع؟! أفيها حيلة أم في وصْلها مطْمع؟! أين كسرى أين قيصر أين تبّع؟! أين حاتم الجود أين من كان يجمع؟! أين قيس وسَحْبان أين ابن المقَفَّع؟! إنها لتمحو العين ثم للأثر تقلع، إن لك مَقْنعًا في وعظها لو كفاك المقنع، يا مفرقًا في البِلى قل لمن تجمع: إذا خلوتَ وخُلّيت فكيف تصنع، أترى أنت عندنا أوَما تسمع؟! يا أُطروش الشِّقوة أما الحديث معك؟! أما التخويف لك؟! وا عجبًا رجَب الأصم أم أنت (٣)؟!

أدْمـعـي لـفـرقـتـكـم ... في انـهـمـالـهـا سـحُـبُ

مـسـمـعـي إذ عَـذلـوا ... في صـبَـابـتـي رَجَـبُ

* * *

مَنْ مُبْلغٌ قومي عـلـى قُـربـهـم ... وبُعْـد أسـمـاعٍ من الـواعـظـيـنْ

---

(١) أ: طول عمره. (٢) أ: يا مشغوفًا. (٣) ب، ت: أو أنت.

هُبُّوا فقد طالت بكم نومة ... وانتبهوا من رقدة الغافلينْ
حثُّوا مطايا الجد تزفل بكم ... ناجين في الناجين أو مُعْذرين
سلُوا قِبَاب المُلك عن مَعْشرٍ ... كانوا لها من قَبلكم مُبْتنين
تُخْبركم عن زمنٍ لم يَزل ... يَحْدو لقوم مضَوا لاعبينْ
قد شاخ جدُّ الناس في باطل ... وضربوا في غمْرة حائرين
وأطبق الشرُّ على جَمعهم ... ودقَّ شخصُ الحقِّ في العالمين
وركضوا في الجَوْر ركضًا فما ... تحسبهم تقوى حياء ودين
تسرُّهم خضراء دنياهُم ... قد أمنوا الدهر وبئس القرينْ
فإن يكونوا من أناس دروْا ... فإنني كنت من الناصحين
معذرةً مني إلى حاضر ... وأثر في صحف الغابرين
يا عجبًا من ناصح لم يطعْ ... كم حازم قد ضاع في الجاهلين

للَّه دَرُّ قومٍ فهموا من الوجود، وتأملوا المقصود واشتغلوا بطاعة المعبود، وانتبهوا والخلق رقود، يصفُّونَ الأقدام [يناجون الملك العلَّام] [١] ويصفُّون الهمم، ويَصِفون تقصيرهم ويُضْفون الشكر للنعم، تحمَّلوا تعب السهر وكابدوا مشقَّة الظَّما، وأخلصوا العمل فزاد عملهم [٢] ونما، وجرى القدَر فرَضوا ولم يعترضوا بلم ولما، فيا حسن مجتهدهم يَذكر الذنب فيبكي ندمًا.

إخواني: اسلكوا جادة القوم لعل مشاعلهم تلوح لكم، تعلَّقوا بغبارهم لعل الحادي ينوّه بكم، صَوِّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقة لكم، ابكوا على تأخركم لعل عطف الرحمة تَنْعطف نحوكم.

أوْمضَ لي على الغُويْر بارق ... فهاج من وميضه التأسّفُ
لهفي على عيش مضى برامة ... أوردَ مشتاقًا به تلهُّفُ
يا مالكي رِقّ المحب قسمًا ... عليكمُ بحبه تعطّفوا
ويا حُداة الظّعْن قد أسْلَمني ... إلى الضنا فِراقكمْ لي فقفُوا
لعلَّني أن أشتفي بنظرةٍ ... يبلُّ منها المستهامُ المدْنَف
ففي الضلوع جَمْرة ما تنطفي ... وفي الشئون عبرة ما تُنزَفُ

(١) من: ت.

(٢) أ: فزاد عليهم.

إخواني: كأنكم بالحافظ الذي حَرسكم وقد حصدكم بعد أن غرسكم، وبعث الموت فسيَّب فرَسكم وفَرَسكم، فلينوا إلى التقى في هذه الأشهر وخلُّوا شَرسكم ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ... ﴿٣٦﴾ ﴾.

هذه أوقات مُعظَّمة وساعات مُكرّمة وقد صيرتم ضُحاها بالذنوب عَتمة، فبيضوا بالتوبة صحفكم المظلمة، فالملك يكتب خطاكم ونفَسكم ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

لقد ضيعتم معظم السَّنَة فدعوا من الآن هذه السِّنة، واسمعوا المواعظ فقد نطقت بألسنة، ودعوا الخطايا فيكفي ما قد وكَسَكم ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

البدار البدار قبل الفوْت، الحذار الحذار فقد قَرُب الموت، اليقظة اليقظة فقد أسمع الصوت، قبل أن يضيق الحساب مَحْبسكم ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

لا بد أن تنطق الجوارح وتشهد عليكم بالقبائح، فاملأوا الأوقات بالعمل الصالح، فإنكم إذا نزلتم بطون الصفائح آنسكم ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

اعزموا اليوم على ترك الذنوب، واجتهدوا في إزالة العيوب، واحذروا سخط علّام الغيوب، واكتبوا على صفحات القلوب مجلسكم ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

* * *
* *
*

المجلس الثالث

في ذكر المعراج

الحمد للَّه فالق الحَبِّ والنوَى، وخالق العبد وما نَوى، المطَّلِع على باطن الضمير وما حوى، بمشيئته رشَد من رشَد وغوى من غوى، وبإرادته فسد ما فسد واستوى ما استوى، صرف من شاء إلى الهدى وعطف من شاء إلى الهوى، قرَّب موسى نَجيًّا وقد كان مطويًّا من شدة [1] الطوى، فمنحه فلاحًا وكلَّمه كِفاحًا وهو بالوادي المقدس طُوًى، وعرج بمحمد إليه فرآه بعينيه ثم عاد وفراشه ما انطوى، فأخبر بقربه من ربِّه وحدث بما رأى وروى، فأقسم على تصديقه مَنْ حرسه بتوفيقه عن قُوَى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [2].

أحمده على صرف الهمّ والجوى، حمْد من أناب وارعوى، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له فيما نشَر وطوى، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله وعُودُ الهدى قد ذَوى، فسقاه ماءَ المجاهَدة حتى ارتوى، ﷺ وعلى أبي بكر الصديق صاحبه إن رحَل أو ثوَى، وعلى الفاروق الذي وسَمَ بجدّه [3] جبين كل جبّار وكوَى ، وعلى ذي النورين الصابر على الشهادة ساكنًا ما التوى، وعلى علي الذي زهد في الدنيا فباعها وما احتوى [4]، وعلى عمّه العبّاس الذي منع اللَّه به الخلافة عن غير نبيه وزوى.

* * *

قال اللَّه ﷻ:

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ... ﴾ [5]

هذا قسم، **وفي النجم خمسة أقوال:**

أحدها: أنه الثريا، رواه العوفي عن ابن عبّاس، قال ابن قتيبة: والعرب تُسمّي الثريا وهي ستة أنْجم: نجمًا، وقال غيره: هي سبعة أنجم، فستة ظاهرة وواحد خَفيٌ يمتحن الناسُ به أبصارهم.

---

(١) أ: بشدة الطوى.

(٢) سورة النجم ١، ٢.

(٣) أ:وسم بجده وحيز كل جبار.

(٤) كذا في أ، وفي ب، ج: فباعها واجتوى.

(٥) سورة النجم: ١.

والثاني: الرُّجوم من النجوم، وهي ما يُرمى به الشياطين، رواه عكرمة عن ابن عبَّاس.

والثالث: أنه القرآن نزل نجومًا مُتفرقة، رواه عطاء عن ابن عباس، وقال مُقاتِل: كان ينزل نجومًا، ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك.

والرابع: نجوم السماء كلها، وروي عن مُجاهد، فعلى هذا هو اسم جنس.

والخامس: أنها الزهرة، قاله السُّدي.

فعلى قول من قال: النجمُ [هو] [1] هو الثريا يكون « هوى » بمعنى غاب، ومن قال: هي الرجوم يكون هويها في رجم [2] الشياطين، ومن قال: القرآن يكون هوى نزل [3]، ومن قال: نجوم السماء كلها ففيه **قولان: أحدهما**: أن هويها حين تغيب. **والثاني**: أن تنتثر يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾:

هذا جواب القسم، والمعنى: ما ضلَّ عن طريق الهدى، والمراد به رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾.

قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾:

أي: ما يتكلم بالباطل، وقال أبو عُبيدة: عن بمعنى الباء، وذلك أنهم قالوا: إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه.

﴿ إِنْ هُوَ... ۝٤ ﴾ أي ما القرآن إلا ﴿ وَحْيٌ... ۝٤ ﴾ من الله ﴿ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾ أي علم جبريل النبي ﷺ وكان من قوته أنه قلع قَرْيات قوم لوط وحملها على جناحه فقلبها عليهم، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين.

﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ﴾ **فيه قولان**:

أحدهما: فاستوى جبريل، وهو: يعني النبي ﷺ، والمعنى: أنهما استويا بالأفق الأعلى لما أسري برسول الله ﷺ، قاله الفراء.

والثاني: فاستوى جبريلُ، وهو: يعني جبريل، بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية؛ لأنه كان يتمثل لرسول الله ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل، وأحب رسول الله ﷺ أن يراه على حقيقته فاستوى في أفق المَشْرق فملأ الأفق، فيكون المعنى: فاستوى جبريل

---

(١) من أ.

(٢) كذا في ت. وفي أ: يكون هوى بمعنى رمى الشياطين. وفي ب، ج: يكون هويها في رمي الشياطين.

(٣) أ: بمعنى نزول القرآن.

بالأفق الأعلى في صورته، قاله الزجاج.

والأفق الأعلى: مطلع الشمس، وإنما قيل له: الأعلى؛ لأنه فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾:

قال الزجاج: دنا: بمعنى قرب، وتدلى: زاد في القُرب، ومعنى اللفظين واحد.

- **وفي المشار إليه بقوله:** ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ **ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه اللَّه، روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث شريك ابن أبي نمر، عن أنس قال: « ثم دنا [1] الجبار رب العزة » [2] وقد قال الخطابي: هذا من غلط شريك راوي [3] أنس.

قال ابن الجوزي: قلت: وإذا كان الدنو لا على ما يُعْقل في الأجسام كان المراد به القرب المذكور في قوله تعالى: « من تقرَّب مني شِبْرًا تقربتُ منه ذراعًا » فإن قيل: كيف يصح هذا وقد حُصر قَدْر المسافة؟ قلنا: إنه مثل بأقرب الأشياء كما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [4].

والثاني: ثم دنا محمد من ربه، قاله ابن عبَّاس.

والثالث: أن جبريل دنا من محمد، قاله الحسن.

والقابُ: القَدْر، وقال ابن فارس: القاب ما بين المَقْبَض والسِّية، وهي ما عُطف من طَرفي القَوْس، وقال ابن قتيبة: قَدْر قَوسين، وقال الكسائي: أراد بالقوسين قوسًا واحدًا. ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾ بل أدنى.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ... ۝١٠ ﴾ اللَّه ﷻ ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ ﴾ قال ابن عبَّاس: رأى ربه ﷻ والمعنى: ما أوهمه فؤاده أنه رأى ولم ير.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ قال ابن عبَّاس: رأى محمد ربَّه، وبيان هذا: أنه لما تردد لأجل الصلوات رأى ربه مرة أخرى، وقال كعب: قسم اللَّه ﷻ كلامه ورؤيته بين محمد وموسى فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

---

(١) ب، ت، ج: قال دنا. وما أثبته من أ.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٤].

(٣) كذا في ت وهو الصواب. وفي أ: وراء أنس. وفي ب، ج: ورأى أنس.

(٤) سورة ق: ١٦.

قوله تعالى: ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾:

السدرة: شجرة النَّبْق وهي فوق السماء السابعة، وهو في الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود أنها في السماء السادسة، وإنما سميت بسدرة المنتهى؛ لأن إليها ينتهي ما يُصعد به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيقبض منها، وإليها ينتهي عِلم الملائكة.

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ قال ابن عبَّاس: هي عن يمين العرش وهي مَنزِل الشهداء.

﴿ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴾ قال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب.

﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ... ﴾ أي ما عدل بصر رسول الله ﷺ يمينًا ولا شمالاً ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي ما جاوز ما رأى.

وهذا كان في ليلة المعراج، واتَّفق العلماء على أن هذا المعراج كان بمكَّةَ قبل الهجرة، واختلفوا في المدة التي كانت بينهما على **أربعة أقوال: أحدها:** سَنة، قاله ابن عباس. **والثاني:** ستة أشهر، قاله السُّدي. **والثالث:** ثمانية عشر شهرًا، قاله الواقدي، ذكر هذه الأقوال عنهم أبو حفص بن شاهين. **والرابع:** ثمانية أشهر.

فأما الهجرة فإنها كانت في يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، أعني اليوم الذي قدم فيه رسولُ الله ﷺ المدينة، **فعلى القول الأول** يكون المعراج في ربيع الأول، **وعلى الثاني والثالث:** يكون في رمضان، **وعلى الرابع:** يكون في رجب، وقد ذكر محمد بن سعد عن الواقدي عن أشياخ له قالوا: كان المعراج ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خَلتْ من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا [1] إلا أنه لما اشتهر ذكر المعراج برجب ذكرناه فيه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بن الحصين، أنبأنا أبو علي الحسن بن علي التيمي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام ابن يحيى قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة حدَّثه أن النبي ﷺ حدَّثهم عن ليلة أُسري به قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة: في الحِجْر - مُضطجع إذ أتاني آتٍ فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فقدَّ - وسمعت قتادة يقول: فشقَّ - ما بَيْنَ هذه إلى هذه، قال قتادة: فقلت: للجارود وهو إلى جنبي [2]: ما يعني؟ قال: من ثُغْرة نَحْره إلى شِعْرته، وقد سمعته يقول: من قَصِّه إلى شعرته، قال: فاستخرج قلبي، قال: فأتيت [3] بطَست من ذهب مملوءة إيمانًا وحِكْمة

(١) طبقات ابن سعد: ١٤٣/١ (القسم الأول) ط ليدن.

(٢) ج: وهو في جنبي. (٣) أ: ثم أتيت.

فغُسل قلبي ثم حُشِي، ثم أعيد ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود: أهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خَطْوُه عند أقصى طَرْفه.

قال: فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد بُعث إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحبًا به ونعم الـمجِيء جاء، قال: فُفتح له (١) فلما خَلَصْتُ إذا فيها آدم قال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: أَوَقد (٢) أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ونعم الـمجِيء جاء، قال: ففتح [لنا] (٣) فلما خَلَصْتُ إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما، قال: فسلَّمتُ عليهما فردَّا السلام ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا ونعم المجيء جاء، قال: ففتح فلما خَلَصْتُ إذا يوسف فقيل: هذا يوسف فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ونعم (٤) الـمجِيء جاء، قال: ففتح فلما خَلَصْتُ إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء، ففتح له (٥)، فلما خَلَصْتُ إذا أنا بهارون قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء،

---

(١) أ: ففتح لنا. وفي ت: ففتح.

(٢) ب، ت، ج: وقد. وفي صحيح مسلم: فأرسل إليه؟

(٣) من أ. (٤) أ: ولنعم. (٥) أ: ففتح لنا.

ففتح له فلما خَلَصْتُ إذا أنا بموسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلمَّا جاوزتُ بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة مِن أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء، قال: ففتح فلمّا خَلَصْتُ إذا إبراهيم قال: هذا إبراهيم فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

قال: ثم رُفعت إلى سِدْرَة الـمُنتهى فإذا نبْقها مثل قِلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرَة الـمُنتهى، قال: وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

قال: ثم رُفع لي البيت المعمور، قال قَتَادة: وحدَّثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه إلى يوم القيامة.

ثم رجع إلى حديث أنس: ثم أُتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، قال: فأخذت اللبن قال: هذه الفطرة أنت (١) عليها وأمتك.

قال: ثم فُرِضتْ علي الصلاة خمسين كل يوم وليلة، قال: فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أُمرتَ؟ قلت: أُمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين (٢) صلاة، وإني قد خَبرْت (٣) الناسَ قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك ﷻ فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشْرًا، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أُمرتَ؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة [في] (٤) كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك [وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة] (٥) فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشْرًا أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أُمرتَ؟ قلت: أُمرتُ بثلاثين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين (٦) كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشرًا أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أُمرتَ؟ فقلت: بعشرين صلاة كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني

---

(١) أ: التي أنت عليها. (٢) ب، ج: لخمسين. (٣) أ: قد اختبرت.
(٤ ، ٥) من أ. (٦) ب، ج: لثلاثين.

إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأُمرتُ بِعَشْر صلوات كل يوم، قال: فرجعت إلى موسى، قال: بم أُمرتَ؟ قلت: بعشر صلوات كل يوم؟ فقال: إن أمتك لا تستطيع عشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأُمرتُ بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بم أُمرتَ؟ قلت: أُمرتُ بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال: قلتُ: قد استحييتُ من ربي ولكني أرضَى وأُسلِّم فلمَّا جاوزت (١) نادى مُنادٍ: قد أمضيتُ فريضتي وخفَّفتُ عن عبادي. (أخرجاه في الصحيحين (٢) وليس لمالك ابن صعصعة في الصحيح غيره).

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر عن رسول اللَّه ﷺ أنه ذكر أنه مرَّ بآدم وعن يمينه أَسْوِدة (٣) وعن يساره أَسْوِدة فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك وإذا نظر قِبَل يساره بكى، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: آدم وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نَسم بنيه، عن يمينه (٤) أهل الجنة وعن يساره أهل النار.

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: أتيت بالبراق فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي يَرْبط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت ركعتين (٥).

وقد روى حديث المعراج جماعة منهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وحذيفة وأبو ذر وابن عبَّاس وأبو سعيد وأبو هريرة وجابر وأم هانئ في آخرين.

* * *

الكلام على البسملة

يا صاح إن كنت لبيبًا حازِمًا	فكن لأسباب الهوى مُراغِما
وإن أردتَ أن تفوز في غدٍ	فكن تقيًّا واهجر المحارما

---

(١) كذا في أ. وفي بقية النسخ: فلما نفذت.

(٢) صحيح البخاري : ١٨٧/٢، كتاب بدء الخلق باب المعراج. وصحيح مسلم : ٩٩/١، ط استامبول.

(٣) الأسودة: يكنى بها عن الشخص.

(٤) أ: فالذي عن يمينه.

(٥) ب، ج: فصليت الركعتين. والحديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان : ٩٩/١، ط استامبول.

لا تَـهـوَ دنْـيـاك فـإنَّ حـبـهـا ... رأس الـخـطـايا يُكسب الـمآثـما
غَـدارة فـكـلُّ مَـنْ حـلَـتْ لـه ... لا بـدَّ أن تـذيـقـه الـعَـلاقـمـا
وإنـهـا [١] تـخـدم مـن أهـانـهـا ... كـمـا تـهـيـن مـن أتـاهـا خـادمـا
فكـن بـهـا مثـلَ غـريـب مُصْلحٍ ... أزْوادَه عـلـى الـرحـيـل عـازِمـا
فإنـمـا عُـمـر الـفـتـى سـوقٌ لـه ... يـروح عـنـهـا خـاسِرًا وغـانـمـا
يا عـجـبًا لـمـعـشـر أتَـتـهـم الد ... نيا فلم يَبْنـوا بـهـا الـمـكـارما
ولا شَـروْا مـع عِـلـمـهـم زوالـهـا ... بـهـا جِـنـانـا ونـعـيـمًا دائـمًا
إياك والتسويف فـالـعـاقـل مـن ... يُـنـجـز مـا كـان عـلـيـه عـازمـا
وإنـمـا الـمـوت مُـغـيـر هـائـل ... أعظِم بـه على النفوس هـاجِمـا
والـقـبـر إمـا روضـةٌ لـلـمـتـقـي ... أو حـفـرة الـنار تـصـيـب الظالـمـا
يا لَـهْـفـتي من اشـتـقـاق حُـفْـرتي ... ومـحـشـري إلى الحساب راغـما
وموقفي أُسْأل عـمـا قـد جـنـتْ ... يـداي مـن سـوء فـأبْـقـى واجِـمـا
وحين يـأتـيـنـي كـتـابـي فـأرى ... فـيـه الـذي أتـيـتـه مُـكـاتـمـا
فإن يُـنـاقِـشـنـي فـعـبـدٌ هـالـك ... وإن عـفـا نَـجوْتُ [٢] مـنـهـا سالما

* * *

إخواني: هذا شهر رجب قد رحَل أكثره وبان [٣] ونور شعبان قد لاح وبان، وقد سار إلى ديار الفوز رُكْبَان، وأقْدم [٤] الشُّجَاعُ وولَّى الجبان [٥]، هذا الشهر الأصَمّ يُؤذنكم بإقلاعه ويخبركم برحيله ووداعه، فأيكم ودَّعه وقد أوْدعه ما ينفعه غدًا؟ وأيكم داوم المعاصي فلم يُقلع حتى غدا؟ ويلٌ لمن ذهب عنه شهر رجب وانصرم وهو في عِداد مَن هجر الهدى وصرم، كيف يرجو الفضل والكرم من اجترم وما احترم.

أكثر هذا الشهر قد مضى وتولَّى عنكم مُعرضًا، وباقيه قد نادى للتوبة مُعْرضًا، فاحذروا أن يفوتكم الغفران مع الرضا، أين من استدرك باقي ساعاته وقضى، وطالب نفسه بالإنابة واقتضى؟ أين مَن خَافَ لهبَ السعير وحَرَّ لظى؟ فبادر إلى ما يُؤثَر من الخير ويُرتضى، أين من جرَّد سيف التوبة على الخطايا وانتضى، قبل أن يعود بعد التحريض حَرضًا [٦]؟

(١) ت: فإنها.
(٢) ت: وإن عفى عني نجوت سالمًا.
(٣) بان: بعد.
(٤) أ: وتقدم.
(٥) كذا في أ. وفي بقية النسخ: وما تقدم جبان.
(٦) الحرض: الفاسد المريض.

آه لأوقات مضت مِن رجب لا سبيل إلى رجوعها، وأهلاً بنفوس صَبرت فيه على عطشها وجوعها، ويا أسفًا لأعمال ما يُقبل شيء مِن مرفوعها، ولأصوات رُدّت لعدم صِدق مَسْموعها.

إخواني: فارقوا خطاياكم قبل مُفَارقته، وسابقوا بالتوبة رحيله قبل مسابقته، واعلموا أن الأوقات عليكم شَاهِدة بما هي منكم مُشَاهِدة، فالحذار الحذار أن يفوت وقت الاقتدار، فما زالت الدنيا تخدع وتغر ثم ترحل وتمرّ.

غَـنَّـتْـك دنـيـاك الـخـلـوب ... وحُـبُّـهـا فـي الـكـفّ عُـودْ
أمـا إسـاءتـهـا فـقـد ... كـانـت وحُـسْـنـاهـا وُعـودْ

لغربان الموت على ديارنا نَعيب، ونحن نحرص على ما لطالبه [١] نَعيب، الخلق بأسرهم في قبضة التلف أسْرى، وما يعُدونه إرباحًا يعود غدًا خُسْرًا، سيف المنون ما يَنْبو ولا يقنع، وبطن الأرض يأكل الخلائق وما يشبع.

إخواني: لا للموت بالاستعداد تنتظرون، ولا بالقلوب في الذكر تحضرون، وكأنكم للتلف تأمنون أو بالوعيد ما تؤمنون، أما علمتم أنكم ترحلون؟! أما ترون الأقران أين ينقلبون؟! كأننا والله بنا إذ قدمنا وقد ندمنا، ووضِع الحساب وقدِّمنا، وطلبنا ما يرضى من العمل فعدمنا، وربح المتقون بالمتقَى وحُرِمنا، وأُقمنا لقراءة الصحف فلما فَهمنا هِمْنا، فرحم الله عبدًا استدرك بقية هذا الشهر فربما لا يرى مثله في الدهر، قبل أن يؤخذ بشدة القهر ويحاسب على فعل السر والجهر.

* * *

واعلموا أن اليوم السابع والعشرين منه يوم مُعظَّم.

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري، أنبأنا عبد الله بن علي الآبنوسي، أنبأنا عبد الملك بن عمر البزّار، أنبأنا أبو حفص بن شاهين، حدثنا أحمد بن عبد الله البزار، حدثنا علي بن سعيد الرّقي، حدثنا ضمرة، عن أبي شوذب، عن مطر الورّاق، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهرًا » [٢] وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي ﷺ وأول يوم هبط فيه.

* * *

(١) ت: على ما لطالبها. وفي أ: لطالبنا.

(٢) أحاديث فضائل صيام الأيام أكثرها موضوع، وأحسن ما فيها ضعيف.

قوله تعالى:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا... ﴾ (١)

معنى التسبيح: التنزيه عن كل سُوء، واعلم أن اللَّه تعالى سبَّح نفسه عند كل عظيم، لمّا كان اختلاف الليل والنهار من عجائب الأمور ومما لا يقدر عليه غيره، ثم ادَّعى المشركون وجود شريك معه نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (٢) ولما اختار عائشة لنبيه فقُذفت سبح نفسه أن يختار للمختار إلا خِيرة فقال: ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ولما أَسْرى بنبيه ﷺ فكذبه الكفار سبّح نفسه لأن قدرته لا تَعجز، والمنعَم عليه بذلك أهْلٌ فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

و ﴿ أَسْرَىٰ ﴾ بمعنى سيّر (٤) عبده، ويقال: سرَيْت وأسْريت، إذا سرت ليلًا، وقد جاءت اللغتان في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (٥)، والمراد بعبده هنا: محمد ﷺ.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ... ۝١ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه من نفس المسجد، قاله الحسن وقتادة، ويؤيده (٦) ما ذكرنا في حديث مالك بن صعصعة: « بينا أنا في الحطيم أو في الحِجْر ».

الثاني: أنه أُسري به من بيت أم هانئ، ذكره جماعة من المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحَرم والحرم كله مسجد.

وأما المسجد الأقْصى فهو بيت المقدس، وقيل له: الأقصى لبُعد المسافة بين المسجدين.

ومعنى ﴿ بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ... ۝١ ﴾ أن اللَّه تعالى أجرى الأنهار وأنبت الأشجار، وقيل: إنه مقرّ الأنبياء ومَهبِط الملائكة، قال أبو هريرة: دخل بيت المقدس وصلّى فيه بالأنبياء ثم عرج به إلى السماء.

* * *

واعلم أن الإسراء كان إلى بيت المقدس، والمعراج من هنالك إلى السماء، وإنما جعل كذلك لأربعة فوائد:

الفائدة الأولى: أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث لاشتد إنكارهم،

---

(١) سورة الإسراء: ١. (٢) سورة الروم: ١٧. (٣) سورة النور: ١٦.

(٤) أ: بمعنى ستر عبده. (٥) سورة الفجر: ٤.

(٦) كذا في أ. وفي بقية النسخ: ويشيده.

ولو وصفها لهم لم يكن عندهم عِلم بذلك، فلما أخبرهم ببيت المقدس ووصفه لهم دلَّ صدقُه في ذلك على صدقه في حديث المعراج.

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ أنه قال: « لما كذَّبتني قريش قمت في الحجر فجلَّى اللَّه لي بيتَ المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » (١).

وروى عُروة عن عائشة قال: لما أُسري برسول اللَّه ﷺ أصبح يحدِّث الناس بذلك، فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس؟ قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى الشام في ليلة وجاء قبل أن يُصْبح؟ قال: نعم إني لأصدقه في خَبر السماء في غدْوة أو روْحة؛ فلذلك سمِّي أبو بكر الصديقَ.

الفائدة الثانية: أنه سيّره في الأرض يستأنس ثم درج إلى الصعود إلى السماء، فهو نظير قوله: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ (٢) فلما أَنِس بالخطاب حُمِّل الرسالة إلى فرعون.

الفائدة الثالثة: أن الأنبياء جُمعوا هنالك فصلى بهم فبان فَضْله بالتقديم عليهم في دار التكليف، وكان ائتمامهم به مُشيرًا إلى نَسخ شرائعهم بشَرعه.

الفائدة الرابعة: أنه مرَّ بالنواحي التي كُلم عندها موسى، ثم صعد فكلم في السموات ليظهر التفاوتُ بتقديمه.

* * *

ومذهب أهل السنة أنه رأى ربه ليلة المعراج:

وقد ذكرنا ذلك عن ابن عبَّاس وكعب.

أخبرنا ابن المُذهب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « رأيت ربِّي تبارك وتعالى » (٣).

وقد تعلَّق من أنكر ذلك بإنكار عائشة أن يكون رآه، **والجواب من ثلاثة أوجه:**

---

(١) صحيح البخاري : ٢٦٤/٢، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٢٧٦، ط الحلبي.

(٢) سورة طه: ١٧.

(٣) مسند أحمد، حديث رقم: ٢٥٧٥. وسنن الترمذي، حديث رقم: ٣٢٣٤، وتراجع روايات مسلم في صحيحه التي تنفي الرؤية « كتاب الإيمان ».

أحدها: أنه رأيٌ منها لا رواية، فلا يقاوم روايةَ من روى عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « رأيت ربي ».

والثاني: أنها نفت والعمل على الإثبات.

والثالث: أنها كانت في زمن المعراج صغيرة ولم تكن عند رسول اللَّه ﷺ ، وقول الرجال العلماء من الصحابة مقدم.

وقد زعم قومٌ أن المعراج كان منامًا، ويرد قولهم أن المشركين أنكروا عليه ما قال، ولو كان منامًا لم ينكره أحد.

وقد رأى تلك الليلة الجنة والنار.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وَكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مررت ليلة أُسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء؟ قال: خطباء أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون »[1].

* * *

إخواني: قفوا ليلة المعراج على قدم الشكر، تارةً لما أنعم اللَّه على نبيكم من إسرائه، وتارة للإنعام عليكم بالإيمان بمعراجه، والذي ناله المصطفى من الارتفاع والعلو يحثّ أمته على التماس القرب والدنو، فالسعيد من تأهَّب للقاء ربه بتأديب نفسه وتطهير قلبه.

بأي عين تراني يا من بارزني وعصاني، بأي وجهٍ تلقاني، يا من نسي عظمة شاني؟ خاب المحجوبون عني وهلك المبعدون منِّي.

يا من يحدث نفسه ... بدخول جنات النعيمِ
إن كنت مُتّقيًا ... فأنت على الصراط المستقيمِ
لا ترجونَّ سلامة ... من غير ما قَلبٍ سليمِ
فاسلك طريق المتقين ... وظنَّ خيرًا بالكريمِ
واذكر وقوفك خائفًا ... والناس في أمر عظيمِ
إما إلى ذل الشقا ... وة أو إلى العز المقيمِ

---

(١) مسند أحمد : ١١٨٠١، وهو ضعيف.

فاجعل تُقاك وقايةً في الحشر من نار السَّمومِ
واغنم حياتك واجتهد وأنِبْ إلى الربِّ الرحيم.

* * *

سبحان من أسْرى بعبده (١) فأصبح الحُساد أسرى، قصَرت دولته قيصر وكسَرتْ هيبته كِسرى، أقامه بالليل من وطائه ودِثاره، ورفعه فوق السموات بقوّته واقتداره، وأراه ما في جنَّته وما في ناره، وأوحى إليه ما أوحى من أسراره، ثم أعاده في الليل إلى مسكنه وقراره، وجاوز أُفق الشمس والقمر، وعلا على الملائكة والبشر، وفاز بالتقريب والنظر، وما حضر أحد قط حيث حضر، ارتقى إلى مقام القرب بقدميه، والأملاك تحفُّ به من جانبيه، وجبريل يمشي خادمًا بين يديه، والربّ قد أنعم بتقريبه إليه، وكشف له الحجاب حتى رآه بعينيه، فحماه بألطافه مِن الزّيغ في طريقه، وأيّده بإسعافه وإسعاده وتوفيقه، وعضَّده في صدقه بتصديق صِدّيقه، سبحان من رفعه فوق الأفلاك، وقدمه على الأنبياء والأملاك، وإنه والله أهلٌ لذاك؛ لأنه أطول القوم في جهاد أهل الإشراك ذيلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

طيَّبه بأزْكى الخلائق ثم رفعه [على أزكى الخلائق] (٢) فوق السَّبْع الشّداد الطرائق، فيا فَخْر ذاك المقدم السابق رَجْلًا وخيلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

أوقد لهداية الخلق سراجه، وشاد قواعد دينه وأبراجه، وقوَّى دليله وأظهر احتجاجه، فالخزي كل الخزي لمن جَحَدَ معراجه ويلًا له ويلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

كلّمه كِفاحًا، ومَنَحه فلاحًا، وسقاه من شراب المحبة راحًا يميل بأعطافه مَيْلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

أصلح بتدبيره طِباع المرضَى، وجعل طاعته على الخلق فَرْضًا، وضمن أن يعطيه حتى يرضى، كيْلا يحصر ما يُعطَى وزنًا وكيلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

عاش في الدنيا بالقناعة، وصبر على الفقر والمجاعة، ويكفيه فخرًا شرفُ الشفاعة، وشغله ذِكْرُ القيامة والساعة أن يكون ملكًا أو قَيْلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

كان يجوع فيشد الحجر، ويفتقر فيصابر الضرر، راضيًا بالظمأ وقطْرُ المطر من سحاب الدنيا يجري سيْلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

---

(١) ت: سبحان من أسرى بعبد أسرى، وفي ب، ج: سبحان من أسرى بأسرى عبد. وما أثبته من أ.
(٢) من ب، ج.

سبحان من شرفنا بهذا الرسول، ورزقنا موافقة المنقول، فنحن أهل السنة لا أهل الفُضول، لا نزال [(١)] على الصراط ولا نزول، ما نعرف ميلًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

فخر نبينا أجلّ وأعلى، ومناقبه من الشمس أجْلَى، وذكره في قلوبنا والله أحلى عند قيس من ليلى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾.

والحمد لله وحده.

* * *
* *
*

(١) أ: لا نزل.

المجلس الرابع

في ذكر فضائل شعبان

الحمد للَّه أحقّ من شُكر وأوْلى من حُمد، وأكرم من تفضّل وأرحم من قُصد، المعروف بالدليل وبالدليل عُبد، القديم لم يولد ولم يَلد، أحاط علمًا بالمعلومات وحواها، وأنشأ المخلوقات بالقدرة وبناها، وأظهر الحِكَم في الموجودات إذ براها، ومن يتلمَّح حِكَمها لما رآها فلينظر بالفهم وَليفتقد، تعرَّف إلى [١] خَلْقه بالبراهين الظاهرة، وأظهر في مصنوعاته العجائب الباهرة، وتفرّد في ملكه بالقُدرة القاهرة، ووعد المتقين الفوز في الآخرة، فالبشرى للموعود بما وعد، تعالى أن يُشبه ما صنعه [٢] وأن يقاس بما جَمعه، سبحانه لا وزير له ولا شريك معه، نادَى موسى ليلة الطُّور فأسمعه، فاعلم هذا واعتقد وتمسّك بالكِتَاب والسُّنة، ولا تمل عنهما وسلِّم إليهما وتسلّم العِلمَ منهما ولا تنطق برأيك وظنك فيهما، هذا مذهب أهل السُّنة لا تَنقص ولا تَزِد.

أحمده حمدًا إذا قيل صعد، وأصلي على رسوله محمد خير مولود ولد.

* * *

عن أبي سلمة قال: « حدثتني عائشة قالت: ما كان رسول اللَّه ﷺ يصوم من شهرٍ من السنة أكثر من صيامه من شعبان كان يصومه كله ». (أخرجاه في الصحيحين) [٣].

وفيهما من حديث عائشة قالت: « كان رسول اللَّه ﷺ يصوم حتى نقول: لا يُفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيتُ رسول اللَّه ﷺ استكمل صيامَ شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صيامًا في شعبان » [٤]. وفي لفظ انفرد به مسلم: كان يصومه إلا قليلًا [٥].

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يصوم شعبان كله حتى يَصِلَه برمضان، ولم يكن يصوم شهرًا تامًّا إلا شعبان، فإنه كان يصومه كله، فقلت: يا رسول اللَّه إن شعبان لَمِن أحب الشهور إليك أن تصومه، فقال: « نعم

---

(١) ب، ج: في خلقه.
(٢) أ: أن يشبه بما صنعه.
(٣) صحيح البخاري : ٢٧٥/١، ط الخيرية. وصحيح مسلم : ١٦١/٣، بروايات مختلفة، ط استامبول.
(٤) صحيح البخاري : ٢٧٥/١. وصحيح مسلم : ١٦١/٣، ط استامبول.
(٥) صحيح مسلم : ١٦١/٣.

يا عائشة، إنه ليس من نفس تموت في سَنة إلا كُتِب أجلُها في شعبان، فأحبُّ أن يُكتب أجلي وأنا في عبادة ربي وعمل صالح » (١).

وعن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله رأيتك تصوم في شعبان صومًا لا تصومه في شيء من الشهور إلا في شهر رمضان، قال: « ذاك شهرٌ يَغْفُلُ الناسُ عنه بين رجب وشهر رمضان تُرفع فيه أعمالُ الناس، فأحب أن لا يُرفع عملي إلا وأنا صائم » (٢).

* * *

واعلم أن الأوقات التي يغفُل الناس عنها مُعظّمة القَدْر؛ لاشتغال الناس بالعادات والشهوات، فإذا ثابَرَ عليها طالبُ الفضل دلّ على حرصه على الخير، ولهذا فُضِّل شهود الفجر في جماعة لغفلة كثير من الناس عن ذلك الوقت، وفُضِّل ما بين العشاءين وفضل قيام نصف الليل ووقت السحر.

عن عائشة قالت: ذكر لرسول الله ﷺ ناسٌ يصومون رجبًا فقال: « فأين هم عن صيام شعبان؟ ».

قالت لؤلؤة مولاة عمّار: كان عمّار يتهيَّأ لصوم شعبان كما يتهيَّأ لصوم رمضان، وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرّغ لقراءة القرآن في شعبان ورمضان.

وعن الحسن بن شُهَيل (٣) قال: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي؟ قال: جعلت فيك قراءة القرآن.

وقد ذكرنا في حديث أن الآجال تُكتب في شعبان.

وعن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: « تُقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل ينكح ويولَد له ولقد خرج اسمُه في الموتى » (٤).

فهذا الحديث وحديث عائشة لم يعيِّن فيهما متى يكون ذلك من شعبان، وقد رُوي في حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: « ليلة النصف من شعبان تنْسخ فيها الآجال والأرزاق ».

وقال أبو هريرة: إذا كان هلال شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة يقبض من فيها إلى شعبان مِن قابِل، فإن الرجل ليغْرِس الغرسَ ويبني البنيان وينْكح ويولد له ويظْلم

(١) جاء وصله ﷺ شعبان برمضان في الصيام في حديث أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم: ١٦٤٩. وأبو داود في سننه، حديث رقم: ٢٣٣٦.

(٢) أخرجه النسائي وأحمد وأبو داود وصحّحه ابن خزيمة. شرح المواهب: ١٢٦/٨.

(٣) ب، ج: ابن سهيل.

(٤) كنز العمال، رقم: ٤٢٧٨٠. والدر المنثور: ٢٦/٦.

ويفْجُر وما له في السماء اسم وما اسمه إلا في صحيفة الموتى إلى أن يأتي يومه الذي يُقبض فيه أو ليلته.

* * *

فيا أيها الغافل تنبه لرحيلك ومسراك، واحذر أن تُسْتَلَب على موافقة هواك، انتقل إلى الصلاح قبل أن تُنقل، وحاسب نفسك على ما تقول وتفعل، ولا تغفل عن التدارك اللَّهَ اللَّهَ لا تفعل.

* * *

الكلام على البسملة

قد آن بعد ظلام الجهل إبصاري | الشيبُ صُبْحٌ يناجيني بإسفارِ
ليلُ الشباب قصيرٌ فاسْرِ مُبْتدرًا | إنَّ الصباح قُصارى المُدْلِج الساري
كم اغتراريَ بالدنيا وزُخْرفِها | أبني بِناهَا على جُرُفٍ لها هاري
ووعْدِ زُورٍ وعهْدٍ لا وفاء له | تعلَّم الغَدْرَ منها كلُّ غدَّارِ
فليت إذ صَفرتْ مما كسبتُ يدي | لم تعتلقْ من خطاياها بأوزارِ
ليس السعيدُ الذي دنياه تُسْعده | إنَّ السعيد الذي ينجو من النارِ
دارٌ مآثمها تَبْقى ولذتُها | تَفْنى ألا قُبِّحتْ هاتيك من دارِ

* * *

لقد بالغت المواعظ وبلَّغت أيّ إبلاغ، وأي بلوغ وأنت تتلون هكذا وهكذا ثم تَرُوغ، إياك وسؤر [1] الهوى فسُؤر الهوى ما يَسُوغ، وقد رأيت غيرك أفلا يتعظ الملدوغ؟! يا مُمْحلًا قد أجْدَب عامه، يا مُغْرقًا قد أهلك قلبَه سامُه، يا مقتول الهوى قد قطعه حُسامُه، أما علمت أن الرامي لا تطيش سهامه؟! أين الظباء الكنَّس؟! أين الْكَمِيّ الأشْوَس؟! أين مَن تكبَّر وعبس؟! تساوى في القبور اللّين والأحمس [2]، واعتدل في اللُّحود النَّطوق والأخرس، ورمى الكلَّ سهمُ المنون فَقَرْطس [3]، وعروْا في العراء مِن حُللهم فتماثَل المَلْبَس.

ونادَتْنا الرسومُ وهُنَّ صُمٌّ | ومنطقها المعاجم والسَّطار [4]

---

(١) السؤر: البقية والفضلة.

(٢) الأحمس: الصلب.

(٣) قرطس: أصاب.

(٤) كذا في أ، ت. وفي ب، ج: النطار.

وكان اليأسُ أجملَ فانصرفنا ودمعُ العين مَجْراه انحدارُ [(١)]

زار عمرُ بن عبد العزيز قبورَ آبائه ثم رجع وهو يبكي، فقال لأصحابه: ناداني التراب: ألا تسألُني عمَا صنعتُ بأحبابك؟ فقلتُ: ما فعلتَ؟ قال: فصَلْتُ الكفّين مِن الساعدين والقدمين مِن الساقين، وفعلتُ وفعلت، فلمَّا ولّيت ناداني: ألا أدلك على كفَن لا يبلى؟ قلت: بلى، قال: التقوى.

إخواني: سَلُوا المقابر بألسنة الفِكَر تُجِبكم بكلام العِبر:

عُوجوا فحيُّوا لنُعْم دِمنة الدار ماذا تُحَيُّون من نُؤْي وأحجار [(٢)]
أقوى وأقفر من نُعْم وغيَّرها هُوجُ الرياح بهارِي التُّرْب مَوَّار [(٣)]
وقفتُ فيها سَراةَ اليوم أسألها عن آل نُعْم أمُونًا عُبْر أسفار [(٤)]
فاستعجمتْ دارُ نُعْمَى ما تُكلِّمنا والدار لو كلّمتنا ذاتُ أخبارِ
فما وجدتُ بها شيئًا أعيج به [(٥)] إلا الثُّمامَ وإلا مَوْقدَ النارِ

أما يكفي العاقلَ تجاربه؟! أما أيقظ الفَطِنَ نوائبه؟! غلَب الموتُ فمن ذا يغالبه، قهر الخلقَ فمن ذا يحاربه، كأنكم به قد دبَّت عقاربه، قل للمفرط وقد حانت مصائبه: القلب غائب فكيف نعاتبه؟ لقد قتل الهوى آلة بلا آلة فما لكم وما له، خلوا له ما له، كم طالب مرادٍ ما ناله، كم لذة أُفنيت وأبْقَت [(٦)] قاله، إياكم وإيا الدنيا فإنها مُحتَالة.

ومَكَاسبُ الدنيا وإن كَثُرت فما يَبْقى سِوى تبعاتها والمأثم
فعليك بالفعل الجميل فإنه أُنْس [(٧)] المقيم غدًا وزادُ المعْدم.

كان حبيب العجمي إذا أصبح بكى، وإذا أمسى بكى، فسئلت زوجته عن بكائه، فقالت: يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح وإذا أصبح أن لا يمسي، يقول لي: إن مِتُّ فافعلي كذا واصنعي كذا.

---

(١) ب، ج: ألبثه الحدار.

(٢) ب، ج : لنعمى. والدمنة : آثار الديار، وفي أ: دمنة الوادي. والنؤى: الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل.

(٣) هاري الترب: ما انهال منه وتبدد.

(٤) الأمون: الناقة الوثيقة الخلْق، وناقة عُبْر أسفار: مثلثة: قوية تشق ما مرت به، يريد: أنه وقف ناقته أول اليوم على أطلال نعم يسألها.

(٥) أعيج به: أرضى به، وفي رواية: أعوج، أي أرجع، والثمام نبت. والأبيات من معلقة النابغة الذبياني. جمهرة أشعار العرب : ص ١١٢، ط صادر.

(٦) أ: وبقيت قاله.

(٧) ت: فإنه لبس المقيم.

وكان شُمَيْط بن عَجْلان يقول: أيها المغترّ بصحته أما رأيت ميتًا من غير سقم؟! أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذًا من غير عِلّة؟!

كان شيخ متعبد في تَيْم اللَّه يجتمع إليه فتيان الحي فيعظهم فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال: يا إخوتاه قوموا قيام قومٍ قد يئسوا من المعاودة لمجلسهم خوفًا من ورطات الذنوب وخوفًا من خطفات الموكَّل بالنفوس، فَيَبْكي ويُبْكي.

وكان يزيد الرَّقَاشيُّ يقول: إلى متى تقول: غدًا أفعل كذا وبعد غدٍ أفعل كذا، أغفلتَ سَفرك البعيد ونسيت الموتَ، أما علمت أن دون غدٍ ليلة تُخْترم فيها أنْفُس، أما رأيت صريعًا بين أحبابه لا يقدر على ردّ جوابهم؟!

مضى أناسٌ وأصبحنا على ثقة ... أنّا سنُتْبَع بالأشجان تُعْتلجُ
إن أدْلجوا وتخلَّفنا وراءهم ... وما نسير فإنا سوف ندّلجُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾ (١)

قام تميم الداري ليلة إلى الصباح بهذه الآية وكذلك الربيع بن خُثيم قام بها ليلة لم يزد.

قال الحسن: لا يجعل اللَّه عبدًا أَسرعَ إليه كعبدٍ أبطأ عنه.

وقال شُميط بن عجلان: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرّب، ورجل ابتكر عُمْره بالذنوب وطول الغفلة ثم راجع بتوبة فهذا صاحب يمين، ورجل ابتكر الشرَّ في حداثة سنه ثم لم يزل فيه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب شِمال.

إخواني: المعاصي تنكِّس الرأس وما مخلِّط كمن كَاسَ (٢)، ولا بَانٍ على رمل كَمُحْكم الأساس، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس، وعلى وجه الطائع نور طاعته، وعلى وجه العاصي ظلام مخالفته، وعند الموت يُتلقَّى هذا بالبشارة ويقع هذا في الخسارة، وفي القبر يَفْترش هذا مِهَادَ الفَلاح، ويُلْقى ذاك على حسَك (٣) القِباح، وعند الحشر هذا يَرْكب وذاك يُسحب، ثم يقال للعصاة: هلا ذَكرتم؟! وللطائعين: سلامٌ عليكم بما صبرتم، كم بين خَجِل يَذل وبين طائع يُدل، إياكم إياكم والذنوب، احذروا عواقب العيوب، لقد ورَّطتْ الذنوبُ أربابها أيّ إيراط، وأَسْعطتْ (٤) أصحابها أيّ إسعاط، وأبعدتْهم عن

---

(١) سورة الجاثية: ٢١.
(٢) كاس: عقل.
(٣) الحسك: الشوك.
(٤) أسعطه: أدخل الدواء في أنفه.

أغراضهم أشواطًا بعد أشواط، وضربتْ عليهم سرادقًا من الندم بعد فُسطاط، هذا جنَى الجناية فأين التقى المحتاط؟ تنبهوا لهذا يا أصحاب اللِّمَم الشّمَاط (١)، تيقظوا فهذا الموتُ بكم قد أحاط، إياكم والزلل فكم من دم قد أشاط، آذيتم أنفسكم بالذنوب فمهلًا كم إفراط، هذا العدوُّ مُرَاصِد فعليكم بالرباط، هذا الفتور وإنما مَهْر الجِدّ النشاط، سار الصالحون وقد سلكتم غير الصراط، ما الذي شغلكم عن أهل المحَبة؟ جَمْع الحبّة والقيراط، كانوا يصومون وأنتم مفْطِرون، ويقومون وأنتم نائمون، ويبكون خوفًا وأنتم تضحكون.

رُوي عن هشام قال: بلغني أن مناديًا ينادي من أول الليل: أين العابدون؟ فيقوم ناس فيصلون، ثم ينادي في وسط الليل: أين الفائزون؟ فيقوم ناس فيصلون، ثم ينادي في السحَر أين المستغفِرون؟ فيقوم ناس فيصلون، فإذا أصبح قال: أين الغافلون؟!

يا من إذا صلى خفَّف وإذا كال طفَّف، وإذا دعِي تخلَّف، وإذا قيل له: تُبْ سوَّف، ما يؤثِّر عنده قول من حذّر وخوَّف، ثم يطمع في لحاق الصالحين فما أنصف، جدَّ القومُ وأنت قاعد، وقرُبوا وأنت متباعد، كم بين راغب وزاهد، كم بين ساهر وراقد، شغلهم حُبُّ مَوْلاهم عن لذات دنياهم، اسمع حديثهم إن كنت ما تراهم، خَوْفهم الشديد قد أزعج وأقلق، وحذَرهم العظيم قد أتلف وأحرق، وحادِي جِدهم مُجدّ ما يترفّق، كلما رأى طول الطريق نَصَّ (٢) وأعْنَق، وكيف يَحْسن الفُتور وأوقات السلامة تُسرق، دموعهم في أنهار الخدود تجري وتتدفق، يكاد حزينهم لكثرة الذنوب يَشْرق، يشتاقون إلى الحبيب والحبيب إليهم أشوق، يا حُسنَهم في الدجى ونورهم قد أشرق، والحياء فائض (٣) والرأس قد أطرق، والحنين والأنين قد أخرسا الحمام المطوّق، والأسير يبكي ويشكو ويرجو أن يُعْتَق، فإذا جاء النهار دخلوا سُورًا من التُّقى بعد خندق، تَعْرفهم بسيماهم ولِلصدق رَوْنق، اسلك طريقهم وسَلْ مُعينهم (٤) تُوفَّق، احذر من الهوى فالهوى عدّو أزرق، يا من كلما أتْهم ناصحه أنْجد (٥)، وكلما غرَّب شرّق، قد بقي القليل وهذا الرّهْن يغْلق.

* * *

أستغفر اللَّه الذي بقضائه	مطر السحابُ وأخْصب الأبُّ
تبًّا لقومٍ أذهبوا أوقاتهم	لعبا وأشْهد أنهم تَبُّوا

---

(١) اللمم: جمع لمة وهي الشعر المجاوز الأذن. والشماط: جمع شمطاء وهي ما خالط بياض الشعر فيها سواده.

(٢) نص: أسرع.وكذا أعنق. (٣) كذا في أ، وفي ب، ت، ج: والحياء قابض.

(٤) كذا، ويجوز أن تكون: مَعيّتهم.

(٥) أتهم: اتجه إلى تهامة. وأنجد: اتجه إلى نجد. وهذا مثل للمخالفة.

وصَبوا إلى الدنيا فكلهمُ بها كَلِف يُغَرّ بحُبها صَبُّ
شنُّوا الحروبَ على حُطَام زائل وعلى فسادِ غرائزٍ شبُّوا
رقدوا فما فقدت كرًى أجفانُهم حتى إذا حان الردَى هَبُّوا
لبَّوا وقد دعت الدعاة إلى الخنا فجميعهم خَطئوا فما لَبُّوا

يا قليل النظر في أمره، يا غافلًا عن ذكر قبره، أما نَقل الموتُ واحدًا واحدًا؟! وها هو قد أضحى نحوك قاصدًا، كم سلب ولدًا وأخذ والدًا، إلى متى تصبح جاهلًا وتُمسي ماردًا، وتُحَثّ على النهوض وما تبرح قاعدًا؟! متى يذوب دمعٌ ما يزال جامدًا؟! متى ينقص جهل ما يَفْتأ زائدًا؟! يا من إذا قاربه النُّصح أضحى متباعدًا، لقد نظرت لنفسك نظرًا فاسدًا، كم أشمتَّ بك عدوًا وأفرحت حاسدًا، يا نائمًا عن خلاصه راقدًا، يا مريضًا ما نرى له عائدًا، كم نوضح الأمثال ونضرب حديدًا باردًا، أترضى هذا الحال أن يكون زادًا لارتحال، تذكر عبثَ اليمين والشمال إذا خابت جميع الآمال، ورأيت حسرة ما جمعت من مال، وتيقنت فراق الأيتام والأطفال، وحملت هَمًّا خفَّت عنده الجبال، وبان لك أن حديث المنَى مُحَال. يا مؤثر الغَيّ تأمل رشدك، يا راحلًا عن قليل تعرَّف قصْدك، أصْلح بالتقى يومك قبل أن تلقى غدك، إياك والهوى ودَعْ متعوَّدك.

أصبحتَ عاديت للصِّبا رُشدك جهلًا وأسْلمت للهوى قَوْدَكْ
حتى متى لا تُفيق من سِنَة ولا يداوِي مُفَنِّدٌ فَنَدك (١)
تُعمل في صيد كل صائدة ختلك طوْرًا وتارةً طَرَدك (٢)
ترمي التي إن أصاب ظاهرها سهمُك شكَّت بحدِّه كَبِدكْ

كان الحسن يقول: حادِثوا (٣) هذه القلوب فإنها سريعة الدُّثور، واقرعوا هذه الأنفس فإنها طُلَعة، وإنها تنازِع إلى شر غاية، فتبصَّروا وتشدّدوا، فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم رَكْب وقوف يوشك أن يُدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم (٤).

* * *

يا هذا زاحِم باجتهادك المتقين، وسِر في سَرَب (٥) أهل اليقين، هل القومُ إلا رجال طرقوا بابَ التوفيق ففتح لهم، وما نَيأَسُ لك من ذلك.

---

(١) المفند: اللائم. والفند: الضلال والخطأ.
(٢) الختل: الخداع. والطرد: مزاولة الصيد.
(٣) أ: حدثوا.
(٤) ذم الهوى : ص ٣٦.
(٥) السرب: الطريق.

إذا أعجبتك خصالُ امرئٍ … فكنْه يكن منك ما يُعْجبكْ
فليس على الجُود والمكرمات … إذا جئتها حاجبٌ يَحْجبكْ

لقد رضيتَ لنفسك الغَبينة، وبعت الدار الشريفة بالدار المهينة، وأعجبك مع عقلك ما يعجب الأطفال من الزِّينة، أتراك ما علمت أن الدنيا صحبة سفينة؟! إن ذُكر الصالحون فلست فيهم، وإن عُدّ الأبرار فما أنت معهم، وإن قام العُبَّاد لم تُرَ بَينهم، ويحك أتطمع في الحصاد ولا بذر لك؟! أترجو الأرباح ولا تجارة معك؟! تَبْني بلا أساس ولا يثبت البناء، وتحمل على عسكر الهوى بلا عزم فلا تصل إلى مراد، ويحك دُمْ على الحِمْية يَزلْ أثرُ التخليط، واستوثق من عَقْد العَزْم خوفًا أن ينحلّ، فإن عرَض تقصير يوهن فاستدرك تُعَنْ.

إذا ما عقدتَ العقد ثم تركتَه … ولم تثْنه عقْدًا وهَى ذلك العقدُ
وما اليدُ لولا أختها بقويةٍ … ولا الرِّجْل لولا الرِّجل تمشي ولا تَعْدُو
ولا كل محتاج إلى ما يَشُدُّه … فَيَعْسِفُ إلا والوَهَاء له وَكْدُ [1]
ترفَّع عن التَّعذير [2] غير مذمَّم … إلى شرف الإعذار يَخلص لك الحمدُ

ويحك ضاق الوقت فمتى تتزود؟! تعب الرائض وما تترك المتعوِّد.

عجبتُ للطالب الأمرِ البصير بما فيه … من الغيّ إذ يسعى له طلبا
وللمُكبِّ على مالٍ يثمِّره … وسوف يصبح منه المالُ منتهَبَا
وللمداوي ضنَى جسمٍ عرَاه وقد … دعا إلى نفسه الأوجاعَ والوصبَا
فذكِّر النفسَ هوْلًا أنت راكبه … وكُرْبةً سوف تلقى بعدها كُربا
لا تَحْقرن من الآثام محتقرًا … كل امرئ سوف يُجْزى بالذي اكتسبا
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتَها … من يَزْرع الشوكَ لا يَحصد به عِنبا

لتَعْظمن على أهل المخالفات الآفات [3]، ولتقطعن أفئدة المفرّطين بالزفرات، وليشْتهرن الفاجر في الخلوات بالجلوات، ولتَمُورنَّ السُّوق يوم السَّوْق إلى سوق المحاسبات، ولتسيلن الدماء بعد الدموع على الوجنات، وليتحسرن أهل المعاصي إذا لاحت درجاتُ الجنات، ولينادين منادي الجزاء يُخْبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

---

(١) يعسف: يميل ويعدل. والوهاء: الضعف. والوكد: الدأب.

(٢) أ: عن التذكر.

(٣) أ: الأوقات.

المجلس الخامس

في ذكر ليلة النصف من شعبان

الحمد للَّه الذي لا ناقض لما بناه، ولا حافظ لما أفناه، ولا مانع لما أعطاه، ولا رادَّ لما قضاه، ولا مُظهر لما أخفاه، ولا ساتر لما أبداه، ولا مُضِل لمن هداه، ولا هادي لمن أعماه، أنشأ الكون بقدرته وما حواه، ورزق الصَّوْن بمنته ومَنه من والاه ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [١]. خلق آدم بيده وسوَّاه وأسكنه في حرم قُرْبه وحماه، وأمره كما شاء ونهاه، وأجرى القضاء بموافقته هواه، فنزعتْ يدُ التفريط ما كساه، ثم تاب عليه فرحمه واجتباه، وحالُه ينذر من يسعى فيما اشتهاه، وطرد إبليسَ وكانت السموات مأواه، فأصمَّه بمخالفته كما شاء وأعماه، وأبعده عن بابه للعصيان [٢] وأشقاه، وفي قصته نذير لمن خالفه وعصاه، ألان الحديد لداود كما تمناه، يَأْمن لابِسُه مَن يلقاه، ثم صرع صانعَه بسهم قَدَر ألقاه، فلما تسوَّر المحراب خَصْماه أظهر جدال التوبيخ فخصماه ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ [٣] وذهب ذو النون مُغَاضِبًا فالتقمه الحوت وأخفاه، فندم إذ رأت عيناه ما جنت يداه، فلما أقلقه كَرْب ظلام تغشّاه تضرَّع مُستغيثًا ينادي مولاه: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٤] فنجَّيناه.

تعالى ربنا وسبحانه وحاشاه، أن يخيب راجيه وينسى من لا ينساه، أخذ موسى من أمه طفلًا وراعاه، وساقه إلى حِجْر عدوه فربَّاه، وجاد عليه بنعم لا تُحصَى وأعطاه، فمشى في البحر وما ابتلت قدماه، وتبعه العدوُّ فأدركه الغرق وواراه، فقال: آمنت فإذا جبريل يسُدُّ فاه، وكان من غاية شرفه ومنتهاه أنه خرج يطلب نارًا فناداه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [٥] وشرَّف أمته شرفًا بيِّنًا أولاه ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٦] بكنتم [٧] خير أمةٍ أخذناه.

خلق محمدًا واختاره على الكُلِّ واصطفاه، وكشف له الحِجاب، عند قاب قوْسين فرآه، وأوحى إليه من سِرِّه المستور ما أوحاه، ووعده المقام المحمود وسيبلِّغه مُناه.

فالحمد للَّه الذي دَلَّنا بنبيِّه عليه وعرَّفناه، وأجلَّنا بالقرآن العظيم القديم وعلَّمناه، وهدانا

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣. (٢) أ: لعصيانه. (٣) سورة ص: ٢٤.
(٤) سورة الأنبياء: ٨٧. (٥) سورة القصص: ٣٠. (٦) سورة البقرة: ٤٧.
(٧) أ: وكنتم خير أمة اخترناه.

إلى بابه بتوفيق أوْدعناه، حمدًا لا ينقضي أولاه ولا ينفد أخْراه.

وصلى اللَّه على محمد ما تحركتْ الألسن والشِّفاه، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة تدوم بدوام مُلك اللَّه، وسلّم تسليمًا.

* * *

عباد اللَّه: إن ليلتكم هذه النصف، عظيمة القدر وعجيبة الوصف، يطَّلع اللَّه فيها على العباد، فيغفر لكلٍّ ما خلا أهل العناد.

عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: فقدتُ رسول اللَّه ﷺ ذات ليلة فخرجت فإذا هو بالبقيع رافع رأسه إلى السماء فقال: « كنتِ تخافين أن يَحيف اللهُ عليك ورسولُه؟ » قلت: يا رسول اللَّه ظننت أنك أتيت بعض نسائك، فقال: « إن اللَّه ﷻ ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب » (١).

وعنها أيضًا قالت: كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي فبات رسول اللَّه ﷺ عندي، فلما كان في جوف الليل فقدتُه، فأخذني ما يأخذ النساء مِن الغيرة، فتلفّعت بمِرْطي، أمَا واللَّه ما كان مرطي خَزًّا ولا قَزًّا ولا حريرًا ولا ديباجًا ولا قطنًا ولا كتَّانًا، قيل: فممّ كان؟ قالت: كان سَدَاه شَعْرًا ولُحمْته من أوبار الإبل، قالت: فطلبته في حُجَر نسائه فلم أجده فانصرفت إلى حجرتي فإذا به كالثوب الساقط على وجه الأرض ساجدًا وهو يقول في سجوده: « سجد لك سَوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، هذه يداي وما جنيتُ بهما على نفسي، يا عظيمًا يُرْتجى لكل عظيم اغفر الذنب العظيم، أقول كما قال داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، أعَفّر وجهي بالتراب لسيِّدي وحُقّ له أن يسجد وجهي للذي خلقه وشَقَّ سمعه وبصره » ثم رفع رأسه ﷺ فقال: « اللهم ارزقني قلبًا نقيًّا من الشرك لا كافرًا ولا شقيًّا » ثم سجد وقال: « أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من معاقبتك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »، قالت: ثم انصرف ودخل معي في الخميلة ولي نفَسٌ عالٍ فقال: « ما هذا النّفَس يا حُميراء؟ » قالت: فأخبرته فطفق يمسح بيده على ركبتي ويقول: « ويح هاتين الركبتين ماذا لقيتا في هذه الليلة ليلة النصف من شعبان، إن اللَّه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا (٢) فيغفر لعباده إلا لمشرك أو مشاحن » (٣).

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الصوم، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان، قال الترمذي: وسمعت محمدًا يضعف هذا الحديث، ورواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم : ١٣٨٩.

(٢) ت: إلى السماء الدنيا.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم : ١٣٩٠، وهو حسن.

وفي رواية أخرى عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: « يا حميراء أمَا تدرين ما هذه الليلة؟ هذه ليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب » قلت: يا نبي اللَّه وما بال غنم كلب؟ قال: « ليس في العرب قوم أكثر غنمًا منهم، لا أقول فيهم ستة: مدمن خمر ولا عاقّ والديه ولا مصرّ على ربًا أو زنًا ولا مُصَارم ولا [مصوِّر] [١] ولا قَتَّات » [٢].

وروي عن عبد اللَّه بن عمرو، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « يطّلع اللَّه إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا لاثنين: مشاحِن، وقاتل نَفْس » [٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « ليلة النصف من شعبان يغفر اللَّه لعباده إلا لمشرك أو مشاحن » [٤].

قلت: والظاهر مِن [٥] المشاحن أنه الذي بينه وبين أخيه المسلم عداوة، وقد قال الأوْزاعيّ: هو الذي في قلبه شحناء لأصحاب رسول اللَّه ﷺ .

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « يُسِحُّ [٦] اللَّه الخيرَ في أربع ليال سَحًّا: الأضحى والفطر وليلة النصف من شعبان، تُنْسخ فيها الآجال والأرزاق ويكتب فيها الحاجّ، وفي ليلة [٧] عرفة إلى الأذان » [٨].

وفي حديث عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: « خمسُ ليالٍ لا يُردّ فيهن الدعاء » فذكر منهن ليلة النصف من شعبان [٩].

وروى ابن كِرْدَوْس عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحيا ليلتي العيدين وليلة النصف من شعبان لم يمتْ قلبه يومَ تموت القلوب » [١٠].

وعن علي أنه قال: « إذا كان ليلة النصف من شعبان قال اللَّه تعالى: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مسترزق فأرزقه؟ حتى يَنْفجر الفَجر، فأمرنا رسول اللَّه ﷺ بقيام ليلتها وصيام نهارها ».

وقال حكيم بن كَيْسان: يَطّلع اللَّه إلى خلقه في ليلة النصف من شعبان فمن طَهَّره

---

(١) ليست في ت.

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب : ١٨٣/٣، وهو ضعيف.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في مسنده : ١٧٦/٢، وهو صحيح.

(٤) أخرجه ابن حِبَّان في صحيحه، برقم : ١٩٨٠.

(٥) ت: والظاهر أن المشاحن الذي بينه.

(٦) يسح: يفيض.

(٧) ت: وليلة عرفة.

(٨) كنز العمال : ٣٥٢/٥.

(٩) تاريخ ابن عساكر : ٢٩٩/٣.

(١٠) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط بدون: « وليلة النصف من شعبان » مجمع الزوائد : ١٩٨/٢.

في تلك الليلة زكَّاه إلى مثلها مِن قَابِل.

روي عن عِكْرمة في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (١) قال: في النصف من شعبان يدبِّر اللَّه أمر السنة ويُنْسخ الأحياء من الأموات، ويكتب حاجُّ بيت اللَّه الحرام فلا يزيد فيهم أحدًا ولا ينقص منهم أحدًا.

واعلم أن الرواية بهذا عن عِكْرمة مضْطَربة، فتارةً يروى هكذا، وتارة يروى أنها ليلة القدر كباقِي المفسِّرين، وقد سبقت الأحاديث أن الآجال تكتب في شعبان، فجائز أن يختص شعبان بما يتعلق بالآجال ويكون القَدَر العامُّ في ليلة القدر.

وقد رويت لهذه الليلة خمس صلوات ليس في أسانيدها شيء صحيح، ولا فيها ما يَثْبت، فلذلك سكتنا عن ذكرها، فإن الحديث إذا لم يَصحّ كان وجوده كالعدم.

* * *

الكلام على البسملة

سَهْم المنايا (٢) أبدًا صائبٌ ... يدعو إليه الناسَ مُستعرِضا

بَيْنا الفتى في عَيْشه ناعمٌ ... تغرُّه الأيامُ حتى قَضَى

وكلُّ يومٍ مرَّ من عُمره ... يَحْدوه للتَّرحال مُسْتنهضا

والنَّفْس دَيْن الموتِ عند الورَى ... ودَيْنه لا بد أن يقتضى

يا عجَبًا من عالمٍ آمنٍ ... من غَدره أو سيفه المنتضى

أين الذين استَبقُوا للنُّهى ... واغْتبقُوا بالمشْرب المرتضَى

طوَتْهم الأجداثُ في ضِيقها ... وعادَ من يهواهُم مُعْرِضَا

أين الحبيب والخليل؟! ودَّعا، أين الرفيق؟! رحل عنكم ودعا، أأبقى الموتُ لكم في الحياة مَطْمعًا؟! أخذ الصغيرَ والكبير معًا، صاح بالوالد والولد فأسرعا، جُزْ على القبور ترى القومَ خُشَّعًا، أين الفهم والتدبر؟! أين أهل الجهل والتكبر؟! أين من فسح لنفسه في الزَّلل؟! أين من خانها بقبيح العمل؟! بَيْنا هو يَعْمر في رِبَاعها، وقد اشتراها وما باعها، يحفر فيها الأنهار، ويغرس فيها الأشجار، والمماليك تدور حول الدار [والسّراري بحسنها تَسُرّ، ونُحورها قد زانَها الدُّرّ، والتُّخوت تملأ الصناديق، وركن العِزّ في الدنيا وَثِيق، والمال يُجمع فوق المال، والخيل تَرْدِي في الجِلال، والمراكب من الحليّ تُصَاغ، وقد

---

(١) سورة الدخان: ٤.

(٢) ت: سهم المنية.

مُنحت الصحةُ إلى الفراغ، ثم ساعَد ساعِد الشباب كفَّ الهوى على الاستلاب، والعُود قد رثَّ ثم عاد، والبطشُ في الملك بطشُ عاد، وقد أسكرت من قبل شُرْب الخمر لذة النهي والأمر، صاحت بَيْنَ البَيْنَ أغربةُ البين، فمزقت العَيْنَ وأسخنت العين، تالله لقد استُلب صاحب القَصْر بكف القَسْر، فصار بالقَهْر أُحدوثة الدهر، ولقد كان على غاية المنى في أول الشهر، فوا عجبًا لجنة صارت كالصَّريم بعد الزَّهْر (١)].

نُـودِي بـصـوتٍ أيَّـمـا صـوتِ ... مــا أقـربَ الـحـيَّ من الـمـوتِ
كـأنّ أهـلَ الـغَـيّ فـي غـيِّهم ... قـد أخـذوا أمْـنًا مـن الـفَـوْتِ
كـم مُـصْـبـح يَـعْـمـر بيـتًا لـه ... لـم يُـمْـس إلا خَـرِب الـبيـتِ
هــذا وكـم حَـيٍّ بـكـى ميِّـتًا ... فـأصـبـح الـحـيُّ مع الـميْـتِ

* * *

يا مشغولًا بما لديه عما بين يديه، يا غافلًا عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعيًا إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذي له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صَرْفَيْه، كم عاين ميتًا لو اعتبر بعينيه، إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوْديه، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خديه؟! يا من يصير عن قليل إلى حُفرة، تنبَّه لنفسك من هذه السَّكْرة، لو أنك تذكرت لحدك كيف تَبِيت وحدك، ويباشر الترابُ خدَّك وتتقسم الدِّيدَان جلدك، ويضحك المحبُّ بعدك ناسيًا عنه بُعْدك، والأهلُ قد وجدوا المالَ وما وجدوا فَقْدك، إلى متى وحتى متى تترك رُشْدك، أما تُحسِن قَصْدك، الأمر مُجدّ جِدًّا فالزم جِدَّك.

ذَهـب الأحـبـةُ بَـعْـدَ طُـول تَـودُّد ... ونـأَى الـمزارُ فـأسـلـموك وأقشعُوا
خـذَلـوك أفْقَـر ما تـكـون لغُرْبة ... لـم يؤنسوك وكُرْبةً لـم يَـدْفـعـوا
قُضي القضاء وصرت صاحب حُفرة ... عنـك الأحبة أعرضـوا وتـصـدعوا

إخواني: إنكم تَغْدون وتروحون في آجال قد غُيِّبت عنكم، لا تدرون متى تهجم عليكم، فالوحا الوحا، فالطالب حثيث.

يَـجِدُّ بنـا صَـرْف الزمانِ ونَـهْـزِلُ ... ونُـوقَـظ بـالأحـداث فيـه ونَـغْـفـلُ
ومـا الـنـاس إلا ظـاعـنٌ أو مـودِّع ... ومُـسْـتَـلـبٌ ومستـعـجل أو مُؤَجَّلُ
ومــا هـــذه الأيــام إلا مَــنــازلٌ ... إذا ما قـطعنـا منـزلًا بـان مَـنْـزِلُ

---

(١) ما بين القوسين ساقط من أ، ت.

فَناءٌ مُلِحٌّ ما يُغب جميعَنا إذا عاش منا آخِرٌ مات أوَّلُ
وكم صاحبٍ لي كنت أكرهُ فقدَه تسلَّمه منِّي الفَناء المعجّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتأمَّلوا تقلّبَ الأحوال إن كنتم تبصرون.

قال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائقُ صوتَ النياحة على الدنيا من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حُزنًا، ولو رأت العُقول بعين الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوسُ شَوْقًا، ولو أدركت القلوب كُنه المحبة لخالقها لتخلّعت مَفَاصلها ولهًا، فسبحان من أغفل الخليقة عن كُنْه عين هذه الأشياء، وألْهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء.

مَن نالَ مِن جوهر الأشياء بُغْيَته يَأْسَى ويَحْقر قومًا حظُّهم عرَضُ
إني لأعجب مِن قوم يَشفُّهمُ حبُّ الزخارف لا يَدْرون ما الغرضُ
ألا عقولٌ ألا أحلامُ تَزْجرهم بلى عقولٌ وأحلام بها مرضُ

إخواني: من آثر قِناع القناعة حاطه من رداء الردَى، ومتى ساعَد الفقرَ ساعِدُ الصَّبْر قلَع قلعة الحِرْص فاستنارت طريقُ الهُدى بمصباح اليقظة، ومتى تأجَّجت نيرانُ الخوف (١) أحرقت مواطن الهوى وطردت عنه الدنيا.

تزوّد من الدنيا فإنك هالك وتترك للأعداء ما أنت مالكُ
ووسِّع طريقًا أنت سالكه غدًا فلا بد من يوم تَضيق المسالكُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ... ﴾ (٢)

اختلف المفسّرون في « حم » على قولين:

أحدهما: أنها من المتشابه الذي استأثر اللَّه بعلمه، وهذا مذهب جماعة مِن المفسّرين.

والثاني: أنها معروفة المعنى، **ثم لهؤلاء فيها قولان:**

- **أحدهما:** أنها حروف من أسماء، ولهؤلاء فيها **ثلاثة أقوال: أحدها:** أنها من الرحمن، قال ابن عبّاس: الر، وحم، ون، اسم الرحمن على الهجاء. **والثاني:** أن الحاء مفتاح اسمه حَميد، والميم مفتاح اسمه مجيد، قاله أبو العالية. **والثالث:** أن الحاء مفتاح

(١) ت: نيران الحزن.

(٢) سورة الدخان: ١، ٢.

كل اسمِ ابتداؤه حاء مثل حكيم وحليم وحَيّ، والميم مفتاح كل اسم ابتداؤه ميم مثل مَلك ومجيد، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

- **والقول الثاني**: أن معنى (حم): قُضِي ما هو كائن، رواه أبو صالح عن ابن عبَّاس كأنه يصير إلى حُمَّ الأمر.

قال المفسِّرون: (حم) قسم جوابه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ... ﴿٣﴾ ﴾ والهاء كناية عن الكتاب وهو القرآن ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ... ﴿٣﴾ ﴾ وفيها قولان: **أحدهما: أنها ليلة القدر**، قاله الأكثرون.

والثاني: ليلة النصف من شعبان: وقد ذكرناه عن عكرمة ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ أي مخوفين عقابنا ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ... ﴿٤﴾ ﴾ أي يُفْصل ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

* * *

اجتهدوا الليلة في محو ذنوبكم واستغيثوا إلى مولاكم مِن عيوبكم، هذه ليلة الإنابة فيها تُفتح أبواب الإجابة، أين اللائذ بالجناب؟ أين المتعرض [1] بالباب؟ أين الباكي على ما جنَى؟ أين المستغفر لأمرٍ قد دنَا؟ كم منقول في هذه الليلة من ديوان الأحياء مُثْبتٍ في صُحف أهل التلَف والفنا، فهو عن قريب يفجأ بالممات وهو مقيم على السيئات، ألا رُبَّ فَرِح بما يؤتَى قد خرج اسمه مع الموتى، ألا رُبَّ غافل عن تدبير أمره قد انفصمت عُرَى عُمره، ألا رُبَّ مُعرِض عن سبيل رشده قد آن أوانُ شَقّ لَحْده، ألا رُب رَافِل في ثوب شبابه قد أزف فراقه لأحبابه، ألا رُبّ مُقيم على جهله قد قرب رحيله عن أهله، ألا رب مشغول بجمع ماله قد حانت خَيبَةُ آماله، ألا رُبَّ ساعٍ في جمع حُطامه قد دنا تشتيت عِظامه، ألا رُبَّ مُجدّ في تحصيل لذاته قد آن خرابُ ذاته، أين من كان مثلَ هذه الأيام في منَازله يَنْسَأ في طمأنينته إزعاجُ مُنازله، مشغولًا بشهواته مغرورًا بعاجله؟! أمَا أصاب مَقَاتِلَهُ سهمُ مُقَاتِله؟! أمَا ظهر خَساره عند حساب مُعامله؟! أين المعتذِر مما جَناه فقد اطلع عليه مولاه؟! أين الباكي على تقصيره قبل تحسّره في مصيره؟! يا مطرودًا ما درى، تعاتَب ولا تفهم ما جرى، متى تُرَى على الباب ترى؟!

تعالَوْا كلُّ من حضَرا ... لِنَطْرق بابَه سَحَرا
ونبكي كلُّنا أسفًا ... على من بات قد هُجِرا

رُوي عن كعب الأحبار ﷺ قال: إن أهل الجنة ليَفرحون بدخول شهر رمضان من الحور والخزَنة والوِلْدان، كما يفرح أهل النار من ذرية آدم بدخول الجنة إذا سكنوها،

(١) ت: المعترض.

وذلك أن اللَّه ﷻ يبعث جبريل عليه السلام في ليلة النصف من شعبان، فيقول: السلام عليكن أيتها الجِنَان أنا جبريل الأمين رسول رب العالمين تزيَّني وتجددي وازدادي نورًا وتلألئي وافتحي أبواب مقاصيرك المَرْجانية وحجالك العَبْقرية التي بطائنُها من استبرق وحَشْوها أذْفريَّات المِسْك، وأخرجي متضمنات المخلوقات التي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فإن اللَّه ﷻ قد أعتق في ليلتك هذه عدد نجوم السماء وعدد أيام الدنيا ولياليها وعدد ورق الشجر وزنة الجبال وعدد الرمال (١).

* * *

يا مُضيعًا اليومَ تَضْييعه أمس، تيقظ ويحك فقد قتلت النفس، وتنبه للسعود فإلى كم نَحْس؟ واحفظ بقية العمر فقد بِعتَ الماضي بالبخس (٢).

أَطِلْ جَفْوةَ الدنيا وتهوين شأنها ... فما العاقُل المغرور فيها بعاقلِ
يرجِّي خلودًا معشرٌ ضَلّ ضلُّهم ... ودون الذي يرجون غَولُ الغوائل
وليس الأماني للبقاء وإن مضت ... بها عادةٌ إلا تَعاليلُ باطلِ
وما المفلتون أجْمَل الدهرُ فيهمُ ... بأكثر ممن في عِداد الحبائل
يُسَار بنا قَصْد المنُون وإننا ... لَنُشعَف أحيانًا بطيِّ المراحلِ
غفلنا عن الأيام أطولَ غفلة ... وما جُوبها المخشيُّ (٣) منها بغافلِ

إخواني: حِبَال الأمل رِثاث، وساحر الهوى نفَّاث، رحل الأقرانُ إلى ظلام الأجداث، للَّه ما صنعت الأجداثُ في الأحداث، أفسدهم بِلاهُم فإذا هم بلا هم إي واللَّه وعاث، باتوا شِباعًا من الأمل فإذا هم غِرَاث (٤) وبان لهم أن ما كانوا فيه من الهوى أضغاث، واستغاثوا بالخلاص وقد فات الغياث، عجبًا لهم ما لَهم صيّر النَّوَى مالهم في الميراث، فدبِّروا أنتم أحوالكم فغدًا ترون أموالكم للورَّاث، أسفًا لأجسام ذكور وعقول إناث.

أكبَّ بنو الدنيا عليها وإنها ... لتنهاهم الأيام عنها لو انتهَوْا
مضَى قبلنا قِدْمًا قرونٌ كثيرة ... ونحن وَشِيكًا ما سنمضي كما مضَوْا
سيبكون حُزْنًا حول قبرك ساعةً ... ولا يَبْرحون القبرَ إلا وقد سَلَوْا
رأيتُ بني الدنيا إذا ما سمَوْا بها ... هوَتْ بهم الدنيا على قَدْر ما سَمَوْا

---

(١) هذا من المبالغات التي لا ترجع إلى أصل صحيح.
(٢) ت: بوكس.
(٣) ب، ج: وما جوفها المخشيّ. والجوب: الخرق والقطع.
(٤) الغراث: الجوعى.

يا من يجُول في المعاصي قلبه وهمُّه، يا مؤْثِر الهوى على التُّقَى لقد ضاع حزمه، يا مُعتقدًا صِحَّتَه فيما هو سقمه، يا من كلما زاد عُمْره زاد إثمه، يا طويل الأمل وقد رقَّ عظمه، أما وعظك الزمان وزجرك مُلمّه، أين الشباب قل لي؟! قد بان رَسْمه، أين زمان المرح؟! لم يبق إلا اسمه، أين اللذة؟! ذهب المطعوم وطَعْمه، كيف يقاوي المقاوي والموتُ خَصْمه؟! كيف خلاص مَن قد أغْرق [1] فيه سَهمه؟! يا لديغ الأمل قد بالغ فيه سُمّه، يا قليل العِبر وقد رحل أبوه وأمه، يا من سيجمعه اللحدُ عن قليل ويضمُّه، كيف يوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه؟! كيف يوقَظ مَن نام قلبه لا عينه ولا جسمه؟!

إذا لـم تـكـن دنـيـاك دارَ إقـامـةٍ ... فـمـا لـك تَـبـنـيـهـا بـنـاءَ مـقـيـمِ
ومـا صـحَّ وُدّ الـخِـلّ فـيـهـا وإنـمـا ... يُـغـرُّ بـودٍّ فـي الـحـيـاة سـقـيـمِ
وجـدتُ بـنـي الأيام في كل مَوْطِن ... يعدُّون فـيـهـا شِـقـوةً كـنـعـيـمِ
تزيدك فقرًا كـلـمـا ازددتَ ثـروةً ... فَتُلْفَى غَنِيًّا فـي ثـيـابِ عـديـمِ

* * *
* *
*

(١) أ: أعلق.

المجلس السادس

استفتاح شهر رمضان

الحمد لله اللطيف الرؤوف العظيم المنّان، الكبير القدير القديم الديّان، الغني العلي القويّ السلطان، الحليم الكريم الرحيم الرحمن، الأول فالسّبْق لِسَبْقِه، المنعم فما قام مخلوقٌ بحقِّه، المُوالي بفضله على جميع خَلْقه بشرائف المنائح على توالي الزمان، جلَّ عن شريكٍ وولد، وعزَّ عن الاحتياج إلى أحد، وتقدَّس عن نظير وانفرد، وعلم ما يكون وأوجد ما كان، أنشأ المخلوقات بحكمته وصَنعهَا، وفرَّق الأشياء بقدرته وجَمعها، ودَحا الأرضَ على الماء وأوسعها ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ (١).

سالت الجوامدُ لهيبته ولانت، وذلت الصِّعاب لسطوته وهانت، وإذا بطش ﴿ ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ (٢).

يُعزُّ ويُذل، ويفقر ويغني، ويُسْعد ويُشْقِي، ويُبقي ويُفْني، ويَشِينُ ويزين، وَيَنْقُضُ وَيَبْنِي ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ (٣).

قدَّر التقدير فلا رادَّ لحُكمه، وعلم سِرَّ العبد وباطن عَزْمه ﴿ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ﴾ (٤) ولا ينتقل قدمٌ من مكان.

مدَّ الأرض فأوسعها بقدرته، وأجرى فيها أنهارها بصنعته، وصبغ ألوانَ نباتها بحكمته، فمن يقدر على صَبْغ تلك الألوان، ثَبَّتَـها بالجبال الرواسي في نواحيها، وأرسل السحاب بمياه تُحْيِيها، وقضى بالفناء على جميع ساكنيها ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴾ (٥).

من خدَمه طامعًا في فضله نال، ومن لجأ إليه في رَفْع كربه زال، ومن عامله أرْبحه وقد قال: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ (٦).

إلهٌ يُثيب عباده ويعاقِب، ويهب الفضائل ويمنح المناقب، فالفوز للمتقي والعِزُّ للمراقِب ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (٧).

أنعم على الأمة بتمام إحسانه، وعاد عليها بفضله وامتنانه، وجعل شهرها هذا مخصوصًا بعَميم غفرانه ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ (٨).

---

(١) سورة الرحمن: ٧. (٢) سورة الرحمن: ٣٧. (٣) سورة الرحمن: ٢٩.
(٤) سورة فصلت: ٤٧. (٥) سورة الرحمن: ٢٦. (٦) سورة الرحمن: ٦٠.
(٧) سورة الرحمن: ٤٦. (٨) سورة البقرة: ١٨٥.

أحمده على ما خصَّنا به فيه من الصيام والقيام، وأشكره على بلوغ الآمال وسُبوغ الإنعام، وأشهد أنه الذي لا تحيط به العقول والأذهان، وأن محمدًا أفضل خَلْقه وبَرِيَّتِه، المقدّم على الأنبياء ببقاء معجزته، الذي انشق ليلة ولادته الإيوان، ﷺ وعلى أبي بكر الصديق رفيقه في الغار، وعلى عُمر فَتّاح الأمصار، وعلى شهيد الدار عثمان، وعلى عليٍّ كاشف غَمِّه سيد الشجعان (١)، وعلى عمه العباس المطهَّر مِن الأرجاس، الذي دُعي به فسال من السحابَ تهتان.

* * *

قال اللّه ﷻ:

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ... ﴾ (٢)

إنما سمِّي الشهر شهرًا لشُهْرَتِه في دخوله وخروجه، قاله النَّحاس، وأما أسماء الشهور فذكر أبو منصور الأزهري عن المفضَّل قال: كانت العرب في الجاهلية تقول لرمضان ناتق، ولشوَّال: وَعِل، وللمحرَّم: مُؤتمر، ولصفَر: ناجِر، ولربيع الأول: خُوَّان، ولربيع الآخر: بُصَّان، ولجمادى الأولى: رُبيّ (٣)، ولجمادى الآخر: حَنِين، ولرجب: الأصمّ، ولشعبان: عاذل، قال: وكانت عاد تسمي هذه الأشهر بهذا، فلما نقلت العربُ أسماء هذه الأشهر سموها بما وقعت فيه من الزمان (٤).

قال ثعلب:

سمِّي رمضان لأن الإبل تَرْمض فيه من الحرِّ، وسمي شوال لأن الألبان كانت تَشُول فيه أي تذهب وتَقِلْ، وسمي ذو القَعدة لأنهم كانوا يقعدون فيه، وذو الحجة لأنهم كانوا يحجُّون فيه، والمحرَّم لتحريم القتال فيه، وصفَر لأنهم كانوا يطلبون القَطْر فيه، يقال: صَفِر السِّقاء إذا خلا، وربيع لأنهم كانوا يربعون فيهما، وجمادى لأن الماء يَجْمد فيهما، ورجب من التعظيم يقال: رجَّبَه يرجِّبه إذا عظَّمه، وقال شمَّر: ومنه سمي رجب، وشعبان لأنهم يتفرقون ويتشعَّبون فيه، وقال قُطْرب: سمّي صفرًا لأنهم كانوا يخرجون إلى بلاد تسمى الصفريّة يمتارون منها.

وقد أحدثت العرب لأسماء شهور الأعاجم أسماء، فنقلت من خط أبي بكر بن الأنباري

---

(١) ت: وعلى علي سيد الأبرار. (٢) سورة البقرة: ١٨٥.

(٣) الذي في المخصص لابن سيده : ٩/٤٣، والحنين: جمادي الأولى. وربي جمادي الآخرة ويسمى أيضا ملحان.

(٤) وانظر في أسماء الشهور العربية أيضا: مروج الذهب : ١/٢٤٨. ونهاية الأرب: ١/١٥٧. والأزمنة والأمكنة للمرزوقي : ١/٢٧٢.

في كتاب قد صنعه أبو محمد الصُّبحي قال: لقّبتْ العرب شهور العجم بألقاب غير ما سمَّتها به العجم: تشرين الأول أحد وثلاثون يومًا والعرب تسميه: مُطْلَقًا، والثاني ثلاثون يومًا واسمه عند العرب: طَلِيق، وتسمى التَّشرينيْن: القَصَّابين لفشو الموت فيهما وكثرة من يموت، وكانون أحد وثلاثون يومًا واسمه عند العرب: مجدح، وكانون الآخر اسمه عند العرب: حديج وتسميهما أيضًا: شَيْبان ومَلْحان للثلج وبياضه وشدة البرد، قال الكُمَيت:

وأصبحت الآفاق حُمْرًا جُنوبها ... بشيبان أو مَلْحان فاليوم أَشْيَبُ (١)

ويقال لها أيضًا: الهزار لشدة البرد، وشُباط تسعة وعشرون يومًا واسمه عند العرب: فريح، وآذار أحد وثلاثون يومًا واسمه عند العرب: مسهل، ونيسان ثلاثون يومًا واسمه عندهم: صحان، وحُزيْران ثلاثون يومًا واسمه عندهم: واقد، وتُّموز أحد وثلاثون يومًا واسمه عندهم: ضرام، وأيلول ثلاثون يومًا واسمه عندهم: طلق.

* * *

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ **فيه أربعة أقوال:**

أحدها: أنه أنزل القرآن في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جُملة واحدة، وروى عكرمة عن ابن عبَّاس قال: أنزل القرآن في رمضان ليلة القدر إلى بيت العزة من سماء الدنيا جُملةً واحدة ثم أنزل نُجومًا.

والثاني: أنزل القرآن بفرض صيامه، قاله مُجاهد والضحاك.

والثالث: أنزل في فَضْله القرآن، قاله سُفيان بن عُيَيْنَة.

والرابع: ابتدئ فيه بإنزال القرآن، قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ... ﴿١٨٥﴾ ﴾:

أي بيانًا لهم، والبيّنات: الآيات الواضحات، والفرقان: المفرّق في الدين بين الضلالة والشُّبْهة.

أخبرنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن نافع بن أويس أن أباه حدَّثه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين » (٢).

وقد رويناه أيضًا عاليًا عن أبي سهيل نافع بن مالك فذكره، وقال: فتحت أبواب

(١) رواية البيت في اللسان، مادة (ملح):

إذا أمست الآفاقُ حُمْرًا جُنوبها ... لِشَيْبَان أو مَلحان واليوم أشْهبُ

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٢/٢٨١ - ٤٠١، ط الميمنية.

الجنة، أخرجاه في الصحيحين [١] ونافع يُكنى أبا سهيل وهو من تابع التابعين والزُّهري من التابعين، فقد روى الزهْري عمن هو دونه، فهو يخرج في رواية الأكابر عن الأصاغر.

وقد روى جماعة من الصحابة عن التابعين، فروى ابن عُمر وابن عَمرو وابن الزبير وأنس وأبو هريرة كلهم عن كعب، وقد روى جماعة عن أولادهم، فروى أبو بكر الصديق عن عائشة حديثين، وروى العبَّاس عن ابنه الفضل حديثًا وعن عبد اللَّه حديثًا، وروى سليمان التَّيْمي عن ابن المعتمر حديثين، وروى أبو بكر بن عيَّاش عن ابنه إبراهيم حديثًا، وروى أبو داود السجستاني [٢] عن ابنه حديثين، في خَلق يطول ذكرهم.

أخبرنا أبو منصور القزَّار بسنده، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إنَّ اللَّه ليس بتاركٍ أحدًا من المسلمين صبيحةَ أول يوم من رمضان إلا غفر له » [٣].

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين ومردَة الجن، وغُلِّقت أبواب جهنم فلا يفتح منها باب، وفتحت أبواب الـجِنان فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقْبل ويا باغي الشر أقْصر، وللَّه عتقاء من النار وذلك في كل ليلة [٤].

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه ». (أخرجاه في الصحيحين).

وقد أخرجاه مِن حديث يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، ولفظه: « مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا » [٥].

أخبرنا أبو نصر أحمد بن منصور الهنائي بسنده، عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا استهل شهرُ رمضان استقبل القبلة بوجهه ثم قال: « اللَّهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والعافية والـمَحْلَلة [٦] والرزق الحسن ودِفاع الأسقام والعَوْن على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن، اللَّهم سلِّمنا لرمضان وسلِّمه منا حتى ينقضي

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، الباب الخامس. وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ١ - ٥.

(٢) الأصل: السختياني. محرفة.

(٣) أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة : ١٠١/٢. وقال: لا يصح، سلّام متروك، وزياد كذَّاب، والعجيب أن ابن الجوزي نفسه هو الذي حكم على هذا الحديث بالوضع في كتابه الموضوعات؛ إذ إن كتاب السيوطي اختصار له.

(٤) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الصوم، حديث رقم : ١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا. وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، حديث رقم : ١٧٣.

(٦) كذا بالأصل ولعل المراد بها المغفرة. يقال أحله من ذنبه أي عفا عنه ولم يعاقبه.

وقد غفرتَ لنا ورَحمتنا وعفوت عنا »، ثم يُقبل على الناس بوجهه فيقول: « يا أيها الناس إنه إذا استهل شهر رمضان فتّحت أبواب السماء وأبواب الرحمة وأبواب الجِنان، وغُلِّقت أبواب النار، وسُلْسلت الشياطين، وكان للَّه ﷻ عند كل فِطْر عُتَقاء من النار، ونادى منادٍ كلّ ليلة: اللَّهم أعطِ كلَّ مُمْسك تلفًا وأعط كل مُنْفق خَلَفًا، فإذا استهل هلال شوال نُودي المؤمنون أن اغدوا إلى جوائزكم، وأقلُّ ما يجازَى به الرجل أن يُكتب له ألف ألف حسنة ويُمحى عنه ألف ألف سيئة »(١).

أخبرنا محمد بن منصور بسنده، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر اللَّه ﷻ إلى خلْقه وإذا نظر اللَّه إلى عَبْد لم يعذِّبه أبدًا، وللَّه في كل ليلة ألف ألف عتيق من النار »(٢).

قال أبو عمرو: فشككت في شيء من هذا الحديث فكتبته من الحسن بن يزيد، وكنت سمعته أنا والحسن بن عبد اللَّه بن الحكيم، حدثنا القاسم بن الحكم العرَني، عن الضحَّاك، عن ابن عبَّاس أنه سمع النبي ﷺ يقول: « إن الجنة لَتنجَّد وتزيَّن من الحوْل إلى الحَول لدخول شهر رمضان، فإذا كانت أول ليلة من شهر رمضان هبّت ريح من تحت العرش يقال لها: المثيرة، فتصفق ورقَ أشجار الجنات وحلَق المصاريع فيُسْمع لذلك طنين لم يسمع السماعون أحسن منه، فيُشرقن الحورُ العين حتى يقفن على شجر الجنة فينادين: هل مِن خَاطِب إلى اللَّه ﷻ فيزوّجه؟ ثم يقلن: يا رضوان ما هذه الليلة؟ فيجيبهن بالتلبية ثم يقول: يا خَيْرات حِسان هذه أول ليلة من شهر رمضان فتفتح فيها أبواب الجنات للصائمين مِن أُمَّة محمد ﷺ، ويقول اللَّه ﷻ: يا رضوان افتح أبواب الجنة، يا مالك أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة محمد ﷺ، يا جبريل اهبط إلى الأرض فصفِّد مَردة الشياطين وغُلَّهم في الأغلال ثم اقذف بهم في لُجَج البحار حتى لا يفسدوا على أمة حبيبي صيامهم، قال: ثم يقول ﷻ في كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات: هل من سائل فأعطيه سُؤْله، هل مِن تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ من يُقْرض المليء غير المُعدم الوفيِّ غير الظَّلُوم؟

قال: وللَّه ﷻ في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار، فإذا كان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعتق في كل ساعة ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجب العذاب، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق اللَّه ﷻ في ذلك اليوم بعدَد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره، فإذا كانت ليلة القدر يأمر اللَّه ﷻ جبريل فيهبط في

(١) مسند أحمد، حديث رقم: ١٤٠٠، وهو صحيح.

(٢) أورده في اللآلئ المصنوعة : ١٠١/٢، وقال: موضوع فيه مجاهيل.

كُبْكبة من الملائكة معه لواء أخضر فيركز اللواء على ظهر الكعبة، وله ستمائة جناح منها جناحان لا ينشرهما إلا في ليلة القدر فينشرهما تلك الليلة فيجاوزان المشرق والمغرب، قال: ويبث جبريلُ الملائكة في هذه الأمة فيسلّمون على كل قائِم وقاعد مصلٍّ وذاكر، فيصافحونهم ويؤمّنون على دعائهم حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر نادى جبريل: يا معشر الملائكة الرحيل الرحيل، فيقولون: يا جبريل ما صنع اللَّه في حوائج المؤمنين من أمة محمد ﷺ؟ فيقول: إن اللَّه ﷻ نظر إليهم في هذه الليلة فعفا عنهم وغفر لهم إلا أربعة، قال رسول اللَّه ﷺ: وهؤلاء الأربعة مُدمِن خمر، وعاقّ لوالديه، وقاطع رَحِم ومُشاحِن، فقيل: يا رسول اللَّه وما المُشاحن؟ قال: هو المُصارِم، فإذا كانت ليلة الفطر سمِّيت ليلة الجائزة، فإذا كان غداة الفطر يبعث اللَّه تعالى الملائكة في كل بلد فيهبطون إلى الأرض فيقومون على أفواه السِّكَك فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق اللَّه إلا الجن والإنس فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى ربٍّ كريم يغفر الذنب العظيم، فإذا برزوا في مُصَلَّاهم يقول اللَّه تعالى: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عَمله؟ فتقول الملائكة: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجْره، فيقول اللَّه تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أني قد جعلت ثوابهم في صيامهم شهر رمضان وقيامهم رِضَاي ومغفرتي، فيقول اللَّه ﷻ: سَلوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليومَ شيئًا في جمعكم هذا لآخرتكم إلا أعطيتكموه ولا لدنيا إلا نظرت لكم، وعزتي لأسْترنّ عليكم عثراتكم ما راقبتموني، وعزتي لا أُخْزيكم ولا أفضحكم بين أصحاب الحدود أو الجدود - شك أبو عمرو - انصرفوا مغفورًا لكم قد أرضيتموني ورضيت عنكم، قال: فتفرح الملائكة ويستبشرون بما يعطي اللَّه ﷻ هذه الأمة إذا أفطروا » (١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أعطيت أمتي خمسَ خصال في شهر رمضان لم تُعطَهن أمةٌ قبلهم: خُلُوف فم الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسْك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يُفْطروا، ويزيّن اللَّه كل يوم جَنَّته ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون يُلْقوا عنهم المؤنة أو الأذى ويصيروا إليك، وتُصَفَّد مَردةُ الشياطين فلا يَخْلصون إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، ويُغفر لهم في آخر ليلة، قيل: يا رسول اللَّه أهي ليلة القَدْر؟ قال: لا ولكن العامل يوفَّى أجره إذا قضى عمله » (٢).

---

(١) أورد نحوه السيوطي في اللآلئ المصنوعة : ٩٨/٢، عن ابن حبان وقال: لا يصح، وأخرج نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد : ١٤١/٣، ١٤٢، عن أبي يعلى والطبراني، وفيه ضعف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، حديث رقم : ٧٨٥٧. والبزار، وفيه هشام بن زياد أبو المقدام وهو ضعيف.

وعن ابن عباس وعائشة قالا: كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل شهرُ رمضان أطْلق كل أسير وأعطى كل سائل.

وذكر أبو جعفر بن أبي شيبة في كتاب العرش عن كعب قال: قال اللَّه تعالى: يا موسى ابن عمران إني آمر حملةَ العرش أن يُمسكوا عن العبادة إذا دخل شهر رمضان وأن يقولوا كلما دعا صائم رمضان: آمين. فإني آليت على نفسي أن لا أردَّ دعوةَ صائم رمضان.

* * *

الكلام على البسملة

مَـنْ نـالـه داءٌ دَوٍ بـذنـوبـه ... فليأت في رمضان بابَ طبيبهِ
فخُلوف هذا الصوم يا قوم اعلموا ... أَشْهَى من المسك السحيق وَطِيبِهِ
أو ليس هذا القولُ قولَ مَلِيكِكُم ... الصومُ لي وأنا الذي أجْزِي به

أين من كان معكم في رمضان الماضي؟ أما أفنته آفات المنون القواضي، أين من كان يتردد إلى المساجد في الظُّلَم؟ سافر عن داره منذ زمان ولم، أين من صبر على مشقة الجوع والظّما، غاب فما آبَ ومضى فما، أين الذين ارتفعت أصواتهم بالأدعية خرجت تلك الجواهر من تلك الأَوْعية، أين من جمع مالاً وَوَفْرَا، وأعْلق من ظفره بالمراد ظُفرا، ومشى إلى أغراضه [1] جمزًا [2] وطَفرًا، أما أخرج الموت كفَّه صفْراً؟ أما أعاد دياره بالخراب قَفْرًا؟ كانت تلاحظه عيونُ الأجداث خَزْرًا [3] وتلمحه وهو في لذاته شزْرًا، فنقلته وهو أثقل بالوِزْرِ أزْرًا، ثم طال عذابُه وإنما نال نَزْرًا، وأوطأته جَمْرًا لا يُشبه جمرًا فبان في أسره أذلَّ الأَسْرَى [4].

سلِ الأيامَ ما فَعلت بكِسْرى ... وقَيْصَر والقصورَ وساكنيها
أما استدعتهمُ للموت طُرًّا ... فلم تَدَع الحليمَ ولا السَّفِيهَا
دَنَتْ نحو الدَّنيّ بسهم خَطْب ... فأصْمَتْه [5] وواجهتِ الوجِيهَا
أما لو بيعت الدنيا بفلْس ... أنِفْتُ لعاقل أن يشتريها

* * *

(١) ت: على إعراضه.
(٢) الجمز: المشي السريع.
(٣) الخزر: النظر بلحظ العين.
(٤) ت: أذل من كسرى.
(٥) أصمته: قتلته يقال: أصمى الصيد: إذا رماه فقتله مكانه.

إخواني: تفكَّروا لماذا خُلقتم فالتفكر عبادة، وامتثلوا أمرَ الإله فقد أمر عِبَادَه، والتفتوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة، واعلموا أنكم في نقْصٍ من الأعمار لا في زيادة.

آه لنفسٍ أقبلتْ على العدوّ وقَبِلتْ، وبادرت ما يُؤْذيها من الخطايا وعَجِلَتْ، من لها إذا نُوقشت على أفعالها وسُئلت، وقُرِّرَت بقبائحها يوم الحشر فخَجِلَت، وقُيِّدَت بقيود الندم على التفريط وكُبِّلت، وشاهدت يوم الجزاء قُبْح ما كانت عملت، وسُلَّ عليها سيفُ العِتَاب يومَ الحِسَاب فقُتِلت.

* * *

أيها الغافل عن فضيلة هذا الشهر اعرف زمانك، يا كثير الحديث فيما يؤذي احفظ لسانك، يا مسئولًا عن أعماله اعقل شانك، يا متلوِّثًا بالزلل اغسل بالتوبة ما شانَك، يا مكتوبًا عليه كلُّ قبيح تصفح ديوانك.

أقلل كلامك واحترز مِن شرِّه ... إن البلاء ببعضه مقرونُ

وكِّل فؤادَك باللسان وقل له ... إن الكلام عليكما موزونُ

فزِناه فلْيَكُ مُحْكَمًا في قِلَّة ... إنّ البلاغة في القليل تكونُ

يا من أكثرُ عمرِه قد مضى، يا من نَفْسُه مع اللحظات تقتضى، يا مَن قد أنذره سَلْب القرين مُعْرِضًا، كيف يحترس العريان من سيفٍ منْتَضَى، إن كان ما فرَط يوجب السخط فاطلب في هذا الشهر الرضا، يا كثير القبائح غَدًا تَنْطِق الجوارح، أين الدموع السوافح على تلك القبائح؟ يا ذا الداء الشديد الفاضح، ما أعْسَر مرض الجوانح، هذا الشيب دليلٌ واضح، وهو في المعنى عَذولٌ ناصح، جائحته لا تُشبه الجوائح، يُضَعْضع الأركان الصحائح، يَسدُّ أبوابَ اللَّهو والمَمَازح [1]، والموت في خِلالِه مُبين لائح، أين زادُك يا أيها الرائح؟ أين ما حصَّلت هل أنت رابح؟ يا أسفى لهذا النازح، كيف حالُه في الضَّرَائح، من له إذا أوْثقه الذابح؟ من له إذا قام النائح واستوى لديه العائب والمادح، ولم ينفعه في بطون الصفائح إلا عملٌ إن كان له صالح؟ أتراه يعتقد أن النصيح مازِح؟ ضاعت المواعظ إلا أن الموعوظ سَكْرانُ طافح.

* * *

يا من قد سارت بالمعاصي أخباره، يا من قد قَبُح إعلانه وإسراره، يا فقيرًا من الهدى أهلكه إعساره، أتؤثر الخُسْران قل لي: أو تختاره؟ يا كثير الذنوب وقد دنا إحضاره،

---

(١) الممازح: جمع ممزح، مصدر ميمي من مزح.

يا أسيرًا في حَبْس الطَّرْد لا ينفعه إحضاره [(١)]، نَقْدك بَهْرج إذا حُكَّ مِعْياره، كم رُدَّ على مِثْلك درهمه وديناره، يا مُحترقًا بنار الحرص حتى متى تخبو ناره؟! المذكورون بَيْنكم قد أصبحوا كالسُّمار، وأنتم قد جعلتم المواعظ مثل الأسمار، وكأن القرآن عندكم صوتُ مزْمار، وقد ضاعت في هذه الأمور الأعمار، فأين يكون لهذا الغرس إثمار؟!

مضى زماني وتقضَّى المدى	فليتني وفِّقت هذا الزَّمَيْنْ [(٢)]
أَرْزَمت الناب وعارضْتها	فليعجب السامعُ للمُرزمَيْنْ [(٣)]
ليت دموعي بمنًى سُيِّلت [(٤)]	ليشرب الحُجَّاجُ من زَمْزمين

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... ﴾ [(٥)]

﴿ كُتِبَ ﴾ بمعنى فُرِض، أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق، أخبرنا أبو عبد اللَّه بن باكُويه قال: سمعت حسَّان بن أحمد الهاشمي يقول: سأل المأمونُ عليَّ بن موسى الرضا: أي شيء فائدة الصوم في الحكمة؟ فقال: عَلِمَ اللَّه ما ينال الفقيرَ من شدة الجوع فأدخل على الغنيِّ الصوم ليذوق طعم الجوع ضرورةً، حتى لا ينسى الفقير من [شدة [(٦)]] الجوع، فقال المأمون: أُقْسِم باللَّه لا كتبتُ هذا إلا بيدي.

وللصوم آداب يجمعها: حِفْظ الجوارح الظاهرة وحراسة الخواطر الباطنة، فينبغي أن يُتَلَقَّى رمضان بتوبة صادقة وعزيمة موافقة، وينبغي تقديم النية وهي لازمة في كل ليلة، ولا بد مِن مُلازمة الصَّمْت عن الكلام الفاحش والغيبة، فإنه ما صام مَن ظلَّ يأكل لحومَ الناس، وكفُّ البصر عن النظر إلى الحرام، ويلزم الحذر مِن تكرار النظر إلى الحلال.

أخبرنا ابن الحصين بسنده، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من لم يدَعْ قولَ الزور والعمل به والجهل فليس للَّه حاجة أن يدَع طعامه وشرابه ». (انفرد بإخراجه البخاري) [(٧)].

---

(١) الإحضار: جري الفرس. (٢) اللزوميات: ٥٨٨/٢: في ذا الزمين.

(٣) الأصل: أرزمت النار، وما أثبته من اللزوميات لأبي العلاء: ٥٨٨/٢. والناب: الناقة المسنة. وأرزمت: صوتت يقال: أرزم الرعد: اشتد صوته أو صوَّت غير شديد، والناقة: حنت على ولدها.

(٤) الأصل: سبلت، وما أثبته من اللزوميات: ٥٨٨/٢.

(٥) سورة البقرة: ١٨٥. (٦) من ت.

(٧) صحيح البخاري: ٢٤٧/٤، ط الخيرية.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفِطْر » (١).

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول اللَّه ﷻ: « إن أحبَّ عبادي إليَّ أعْجَلُهم فِطْرًا » (٢).

وفي حديث سليمان بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا أفطر أحدكم فليُفْطِر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه له طهُور » (٣) وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا قُرِّب إلى أحدكم طعامه وهو صائم فليقل: بسم اللَّه والحمد للَّه، اللَّهم لك صُمْت وعلى رزقك أفطرت وعليك توكلت، سبحانك اللَّهم وبحمدك إنك أنت السميع العليم » (٤).

ويستحبّ السحور وتأخيره.

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « تسحروا فإن في السحور بركة » (٥).

وينبغي للصائم أن يتشاغَل طول نهاره بالذِّكْر والتلاوة، وكان الشافعي ﷺ يختم في رمضان ستين ختمة.

أخبرنا الكَروخيّ بسنده عن الزهري قال: تسبيحة في رمضان خير من ألف تسبيحة في غيره.

حقُّ شهر الصيام شيئان إن كنـ ... ـت من الموجبين حقّ الصيام
تَقْطع الصومَ في نهارك بالذكر ... وتُفْني ظلامَه بالقيام

أخبرنا أبو القاسم الجريري بسنده، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « ذاكر اللَّه ﷻ في رمضان مغفور له، وسائل اللَّه ﷻ فيه لا يخيب » (٦).

وعن قيس الجُهني قال: إن كل يوم يصومه العبد من رمضان يجيء يوم القيامة في عمامة من نور في تلك العمامة قصر من دُرّ له سبعون ألف باب كل باب ياقوتة حمراء (٧).

---

(١) صحيح البخاري : ٤٥٤/١، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب الصوم، حديث رقم : ٤٨.

(٢) سنن الترمذي، رقم : ٧٠٠، وهو ضعيف.

(٣) مُسند أحمد، حديث رقم : ١٥٧٩٢، وهو ضعيف.

(٤) سنن أبي داود، حديث رقم : ٢٣٥٨.

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم : ١٩٢٣. وصحيح مسلم، حديث رقم : ١٠٩٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه هلال بن عبد الرحمن وهو ضعيف. مجمع الزوائد : ١٤٣/٣.

(٧) هذا مما تزيد فيه الرواة بغير علم، وحسبنا ما ثبت في الصحيح من فضل الصيام.

ويستحب للصائم أن يُفَطِّر الصوَّام إذا أمكنه.

أخبرنا هِبَة اللَّه بن محمد بسنده عن زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ قال: « مَن فَطَّر صائِمًا كان له أو كُتب له مثل أجر الصائم مِن غير أن ينقص مِن أجر الصائم شيئًا، ومَن جَهَّز غازيًا في سبيل اللَّه كان له أو كُتب له مثل أجر الغازي في سبيل اللَّه غير أنه لا ينقص مِن أجر الغازي شيئًا » (١).

* * *

فبادروا إخواني شهركم بأفعال الخير، وأفردوها عن الخطايا لتكون وحدها لا غير، واعلموا أن شهركم هذا شهر إنعام ومَيْر (٢)، تعرف حرمته الملائكةُ والجن والطير، واهًا لأوقاته من زَوَاهر ما أشرفها، ولساعاته التي كالجواهر ما أظرفها، أشرقت لياليها بصلاة التروايح، وأنارت أيامُها بالصلاة والتسبيح، حِلْيتها الإخلاص والصدق، وثمرتها الخَلاص والعِتْق.

تيقَّظْ يا غافل وانهض بِبدارك، فمالُك لأهلك وأنت ضيفٌ بدارك، واستدركْ قديمك وأصْلح بالتُّقى حديثك، وامنع لسانك اللَّغْو واجعل الذكر حديثك، وصحِّح بمجانبة الهوى إيمانَك ويقينَك، وتدَرَّع كلماتي هذه في حرب الغَرُور يَقِينك (٣)، إلى متى في حب البطالة مُنكمِش، وبلذات الكسل جَذْلان دَهِش، وإذا فات الهوى بِتَّ من الحزن ترتعش، أما رأيت ذا مالٍ وأمَل لم يَعِشْ؟! أما شغلك الموتُ عن زخرفٍ قد نُقش؟! أما تعلم أنك للموت في القبر تفترش؟! أما تحذر يومًا لا تجد الماءَ من العطش؟! عجبًا لموقنٍ بالقيامة لم يجعْ ولم يعطش.

كان أصحاب أبي هريرة يعتكفون في رمضان ويقولون: نُطَهِّر صيامنا.

واعتكف أبو محمد الجريريّ في الحرم سَنَةً لم يمد رجله ولم يضطجع، فقيل له: كيف قدرت على هذا؟ فقال: عَلِمَ صِدق باطني فأعانني على ظاهري.

* * *

إخواني: هذا شهر التيقُّظ، هذا أوان التحفُّظ، إخواني بين أيديكم سَفر، والأعمارُ فيها قِصَر، وكلكم واللَّه على خطَر، كونوا على خوف من القدر، واعرفوا قَدْر من قَدر، وتذكَّروا كيف عَصَيْتُم وستَر، وايم اللَّه لو قمتم على البَصَر، وسجدتم شُكْرًا على الإبَر ما وَفَيْتم بشكر نعيمٍ مُحتقَر، أمَا طَوى القبيحَ والجميلَ نشَر؟ أما بعضُ نِعَمه السمعُ والبصر؟

إخواني: آن الرحيل وما عندكم خبَر، إلى كم توعظون ولا تتّعظون، وتوقَظون

---

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الصوم. وأحمد في مُسنده : ١١٤/٤.

(٢) المير: جلب الزاد. (٣) يقينك: يحفظنك.

ولا تتيقّظون، وتُتعبون الناصح ولا تَقْبلون، ويكفي في البيان رؤية الأقران يَرْحلون ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) أكُلِّفتم ما لا تطيقون، أكُلِّمتم بما لا تفهمون، ما لكم عن مآلكم مُعرِضون؟! ما هذا الفتور وأنتم سالمون؟! ما هذا الرقاد وأنتم مُنْتبهون؟!

أقَضِّي الدهرَ من فِطْر وصَوْم ... وآخذُ بُلْغةً (٢) يومًا بيوم
وَأعْلَم أن غايتيَ المنايَا ... فصبرًا تلك غايةُ كلِّ قومِ
فإن تقِف الحوادث دون نفسي ... فما يَتْرُكْن إشْمَامِي وَرَوْمِي (٣)

كم مُؤمِّل إدراك شهر ما أدركه، فاجأه الموتُ بغتةً فأهلكه، كم ناظر إلى يوم صَوْمه بعين الأمل طمَسها بالممات كفُّ الأجَل، كم طامع أن يلقاه بين أترابه ألقاه الموت في عقر ترابه.

استغفر اللَّه بقلبٍ مُنيب ... يعلم أن الموت منه قريبْ
مأخوذُ مالٍ حَرَبًا يشتكي ... وعادِمُ الدِّين الأخيذ الحَرِيبْ (٤)
والإنس جنسٌ كُلُّه ظالمٌ ... والمنصِف العادِل فيهم غريب
والعيشُ محبوبٌ أتاكَ الأذى ... منه فواهًا للبغيض الحبيبْ
اصْبِرْ إذا العام سَطا جَدْبُه ... فطالما جاءك عامٌ خَصِيبْ
خاطبت أقوامًا فلم يسمعوا ... فهل تشبَّهت بهم يا خطيب
تَغْسل كفيك من الزَّهم ألا ... فاغسل فاك مِن لفظك حتى يطيبْ

* * *

أيها المجتهد هذا ربيع جِدِّك، أيها الطالب هذه أوقات رِفْدك، تَيَقَّظْ أيها الغافل من سِنَة البطالة، تحفَّظ أيها الجاهل من شُبَه الضلالة، اغتنم سلامتك في شهرك قبل أن تُرْتهن في قبرك، قبل انقراض مدَّتك وعدم عُدَّتك وإزماع فَوْتك وانقطاع صوتك، وعثور قَدَمك وظهور ندمك، فإن العمر ساعات تذهب وأوقات تُنْهب، وكلها معدود عليك والموت يدنو كلَّ لحظة إليك.

---

(١) سورة الطور: ١٥. (٢) البلغة: ما يتبلغ به من الزاد.

(٣) الأبيات لأبي العلاء المعري، اللزوميات : ٤٦٤/٢. والإشمام في الحروف: إذاقتها الضمة أو الكسرة بحيث لا تسمع ولا يعتد بها ولا تكسر وزنًا. والروم في الحروف: حركة مختلسة مختفاة وهي أكثر من الإشمام؛ لأنها تسمع، وهذا من مظاهر تأثر الشعر العباسي بالمصطلحات العلمية.

(٤) الحرب: السلب حربه حربا كطلبه طلبا: سلب ماله، فهو محروب وحريب.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامري بسنده عن محمد بن علي الحربيّ قال: سمعت أحمد بن المغلس قال: سمعت سَرِيًّا السَّقْطي يقول: السَّنة شجرة، والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها وأنفاس العباد ثمرتها، فشهر رجب أيام تَوْريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قَطْفِها، والمؤمنون قُطَّافها، هذه الأشهر الثلاث المعظمة كالجمرات الثلاث، فرجب كأول جَمْرة تَحْمي بها العزائم، وشعبان كالثانية تَذُوب فيها مياه العيون، ورمضان كالثالثة تُورق فيها أشجارُ المجاهَدات، وأيّ شجرة لم تورق في الربيع قُطعت للحطَب، فيا مَن قد ذهبت عنه هذه الأشهر وما تغير أحسن اللَّه عزاءك.

إخواني: إنما شُرع الصوم ليقع التقلُّل، فأما من أوْثق الرِّزْمة [1] فما له نية في البيع، إذا استوفيت العشاء تكدَّر الليلُ بالنوم، وإذا استوفيت السحور تخبط النهارُ بالكسل، وإنما شُرع السحور ليتقوى المتقلل من العشاء ولينتبه الغافل، وما أرى رمضان إلا زادك شبعًا وغفلة.

وا عجبًا لو عُرض عليك أن تشرب شَرْبة ماء في رمضان لمَا شربتَ ولو ضُربت، وأنت فيه تغشّ في البيع وتطفِّف في الميزان، فإذا خرج شربت الخمر في شوال، أما كان الناهي عن هذا هو الناهي عن ذاك ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴿٨٥﴾﴾.

تاللَّه لو قيل لأهل القبور: تمنَّوا لتمنوا يومًا من رمضان، إلى متى أنت في ثياب البطر؟! أما تعلم مصير الصُّور؟! عجبًا لك تؤْمن وَتَأْمَن الغِيَر! أمَا ينفعك ما ترى من العِبَر، أصَمَّ السمع أم غُشِيَ البصر؟! تاللَّه إنك لعلَى خطر، آن الرحيلُ ودنا السَّفر، وعند الممات يأتيك الخبر، كلما خرجت من ذنوب دخلت في أُخَر، يا قليل الصفا إلى كم هذا الكَدَر؟! أنت في رمضان كما كنت في صفر، إذا خسرت في هذا الشهر فمتى تربح، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبْرح؟! يا من إذا تاب نقض، يا من إذا عاهد غدَر، يا من إذا قال كَذب، كم سترناك على معصية، كم غطَّيناك على مُخْزية.

يا عامرًا ما يَقْطُن ... يا هالكًا ما يَفْطُنُ
يا ساكن الحُجرات ما ... لك غير قَبْرك مَسْكَنُ
أحْدثْ لربك توبةً ... وسبيلُها لك مُمْكنُ
فكأنّ شخصك لم يكنْ ... في الناس ساعة تُدْفنُ
وكأَنَّ أهلك قد بَكَوْا ... سِرًّا عليك وأعلَنُوا

---

(١) الرزمة بالكسر: ما شد في ثوب واحد. قال في شفاء الغليل: ص ١٠٨: والعامة تضمه، وهو من قولهم: رازم بين الطعامين، إذا ضم أحدهما إلى الآخر.

فـــإذا مـضـت بـك لـيـلـةٌ فـكـأنـهـم لـم يَحْـزَنُـوا
الـنـاسُ فـي غَـفـلاتـهـم ورحَـى المـنـيَّـة تـطْـحـنُ
مـا دون دائـرة الـردَى حِـصْـن لـمـن يـتـحصّنُ
مـا لـي رأيـتـك تـطـمـئـن إلـى الـحـيـاة وتـركـنُ
وجـمـعـت مـا لا يـنـبـغي وبـنـيـتَ مـا لا تـسْـكُـنُ
وسـلـكـت فـيـمـا أنـت في الـ ـدنـيـا بـه مـتـيـقـنُ
أظـنـنـت أن حـوادث الـ ـأيـام لا تـتـمـكـن؟!

* * *
* *
*

المجلس السابع

لانتصاف شهر رمضان

الحمد للّه الأحدي الذات، العَلِيّ الصفات، الجليّ الآيات، الوفيّ العِدَات، رافع السموات، وسامع الأصوات، عالم الخفيات ومحيي الأموات، تنزَّه عن الآلات، وتقدَّس عن الكيفيات، وتعظَّم عن مشابهة المخلوقات، جلَّ عن الآباء والأمهات والبنات، ثبَّت الأرض بالأطواد الراسيات، وأحياها بعد موتها بالسُّحب الماطرات، فإذا أَرخت عزاليها [١] ضحك باخضراره النبات، وقالت المبتَدعات بألسن الإشارات: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ [٢].

إذا بسَط بساط العَدْل تزلزلت أقدامُ أهلِ الثبات، وإذا نشر رداءَ الفضل غَمر الذنوب الموبقات، ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [٣].

حي بحياة تنزَّهت عن طارِق الممات، عالم بعلم واحد جميعَ المعلومات، قادر بقدرة واحدة على جميع المقدورات، أراد فلانت لهيبته صعابُ المرادات، وسمع فلم يَعْزب عن سمعه خَفِيُّ الأصوات، وأبصر سوادَ العين في أشد الظُّلمات، استوى على العرش لا كاستواء المخلوقات، وينزل إلى سماء الدنيا مرويٌّ بنقل الثقات، ويراه المؤمنون في الجنة بالعيون الناظرات، نَصِفه بالنقل المباين بصحته سقيمَ الشبهات، من غير تكييف في الأوصاف ولا تشبيه في الذوات، فهل علينا ملام أم هو طريق النجاة؟ أحمده على جميع الحالات حمدًا يدوم بدوام الأوقات، وأقرّ بوحدانيته كافرًا باللات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسُوله أرسله بالأدلة الواضحات، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الناهض يوم الرِّدة على أقدام الثبات، القائمِ بنصر الإسلام وقد قعد أهلُ العَزمات، القائل: أقاتلهم ولوْ لَمْ أجد غير البنات، وعلى عمر العادل في القضيات، كان إذا مشى فَرِق الشيطانُ من تلك الخطوات، وعلى عثمان المتهجد بالقرآن في الظلمات، الصابر على الشهادة بأيدي العداة، وعلى عليٍّ ذي المناقب العاليات، المخصوص بأخوّة الرسول دون ذوي القرابات، وعلى عمه العباس الذي بالسؤال به سالت عَزالي السحب الماطرات.

أيها الناس: إن شهركم هذا قد انتصف، فهل فيكم من قهَر نفسه وانتصف؟ وهل

---

(١) العزالي: جمع عزلاء وهو مصب الماء من الراوية، والمراد: السحب الماطرة.

(٢) سورة الحديد: ١٧. (٣) سورة الشورى: ٢٥.

فيكم من قام فيه بما عَرف؟ وهل تشوَّقت هِمَمُكم إلى نَيْل الشَّرَف؟ أيها المحْسن فيما مضى منه دُمْ، وأيها المسيء وبِّخ نفسك على التفريط ولُمْ، إذا خسرت في هذا الشهر متى تربح؟ وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبْرح؟ كان قَتَادة يقول: كان يقال: من لم يُغْفَر له في رمضان فلن يُغفر له.

أخبرنا أبو بكر بن أبي طاهر البزار بسنده، عن سلمة بن وِرْدان قال: سمعت أنس ابن مالك يقول: ارتقى سيدنا رسول اللَّه ﷺ المنبر فقال: « آمين »، ثم ارتقى ثانية فقال: « آمين »، ثم استوى عليه فقال: « آمين »، فقال أصحابه: علامَ أمَّنْت يا رسول اللَّه؟ فقال: « أتاني جبريل فقال: يا محمد رغِم أنف امرئ ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك والديه أو أحدهما فلم يُدْخلاه الجنة، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك شهرَ رمضان فلم يُغْفَر له. فقلت: آمين » (١).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « هذا رمضان قد جاء تفتح فيه أبواب الجنات وتغلق فيه أبواب النار وتغلُّ فيه الشياطين بعُد امرؤ أدرك رمضان ولم يغفر له، إذا لم يغفر له فمتى؟! » (٢).

وبالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « رغم أنف رجلٍ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغْفَر له » (٣).

إذا الروضُ أمسى مُجْدِبًا في ربيعه ... ففي أيِّ حينٍ يَسْتنير ويُخْصبُ

أخبرنا عبد اللَّه بن علي المقرئ بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن أمتي لن يخزوا أبدًا ما أقاموا شهر رمضان ». فقال رجل من الأنصار: يا رسول اللَّه وما خِزْيُهم؟ قال: « من إضاعتهم شهر رمضان بانتهاك المحارم، فمن عمل سوءًا أو زنى أو سرق فلن يُقبل منه شهر رمضان، ولعنه اللَّه ﷻ والملائكة إلى مثلها من الحَوْل، فإن مات قبل شهر رمضان فَلْيَسْتَبْشِر بالنار، فاتقوا شهر رمضان فإن الحسنات تضاعَف فيه وكذلك السيئات » (٤).

عباد اللَّه إن شهركم هذا لا قيمة له ولا يمكن استدراك ما ضاع (٥) بالتفريط.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٥٤/٢. وهو صحيح.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وهو ضعيف. مجمع الزوائد : ١٤٣/٣.

(٣) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٣٥٤٥. وأحمد في مسنده، حديث رقم : ٧٤٠٢.

(٤) رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عيسى بن سليمان أبو طيبة، ضعفه ابن معين، ولم يكن فيمن يتعمد الكذب، ولكنه نسب إلى الوهم.

(٥) ت: ما فات.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « من أفطر يومًا من رمضان من غير مرض ولا رخصة لم يقض عنه صيامُ الدهر كله وإن صامه »(١).

قال يحيى بن مَعِين: أبو المطوّس اسمه عبد اللَّه بن المطوِّس ثقة.

وذكر أبو بكر الآجريّ في كتاب النصيحة أن مذهب إبراهيم النَّخَعي أن من شرب الخمر في رمضان كان عليه صوم ثلاثة آلاف يوم.

قال: وقال سعيد بن المسيّب: عليه صوم شهر متتابع، وقال الربيع بن أبي ربيعة ابن عبد الرحمن: عليه صيام اثني عشر يومًا؛ لأن اللَّه أوجب صيام شهر من اثني عشر شهرًا.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « كل عمل ابن آدم يضاعف؛ الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلى ما شاء اللَّه ، يقول اللَّه ﷻ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجْزِي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولَخَلوف فيه أطيبُ عند اللَّه من ريح المسك، الصوم جُنَّة ». (أخرجاه في الصحيحين)(٢).

* * *

عباد اللَّه، فرحة الحِسِّ عند الإفطار تناول الطعام، وفرحة الإيمان بالتوفيق لإتمام الصيام.

يا هذا قدِّم دستور الحساب قبل الغروب فإن وجدت خللًا فارْقَعْه برقعة استغفار، فإذا جَاء السحر فاعْقد عَقْد الزُّهد في الدنيا عند نية الصوم، وتجرع جَرْعة دمعة في إناء ركعة لعلك تَطَّلع على خبايا خفايا ما أُعد للصائمين من مستور ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

* * *

الكلام على البسملة

قل للمؤَمِّل إن الموت في أثركْ ... وليس يخفى عليك الأمر من نظركْ

(١) أخرجه البخاري معلَّقًا، ويذكر عن أبي هريرة رفعه، كتاب الصوم، صحيح البخاري : ٢٥١/١، ط الخيرية، وأخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الصوم، ثم قال: حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمدًا يقول: أبو المطوس- أحد رواة الحديث - اسمه يزيد بن المطوس، ولا أعرف له غير هذا الحديث. صحيح الترمذي : ١٣٩/١، ط الأميرية.

(٢) صحيح البخاري : ٢٤٦/١، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب الصوم، حديث رقم : ١٦٣، ١٦٤، ط الحلبي.

(٣) سورة السجدة: ١٧.

فيمن مَضى لك إن فَكَّرْتَ مُعْتَبَر ... ومن يمُتْ كل يوم فهو منْ نُذُرِكْ
دارٌ تسافر عنها من غد سفرًا ... فلا تؤوب إذا سافرت منْ سفركْ
تُضْحِي غدًا سَمرًا للذاكرين كما ... كان الذين مَضَوْا بالأمس منْ سمَركْ

* * *

يا مضيع الزمان فيما يُنقص الإيمان، ما أراك في رمضان إلا كجمادى وشعبان، أما يَشُوقك إلى الخير ما يَشُوق؟ أما يَعوقُك عن الضَّيْر ما يَعُوق؟ متى تصير سابقًا يا مسبوق؟ إلى متى سوق الشَّوْق إلى سُوق الفسوق؟ أول الهوى سَهْل ثم تتخرق الخروق، كلما حصد نباته بمنجل الصبر أخرجت العروق، وإن لذَّ شربه فشربه شَجًى في الحُلوق، وإنما لذات الدنيا كخطف البروق، ميِّز بين ما يفنى وما يبقى تَرَ الفروق، خَلِّ التواني إن شئت أن تفوق، عليك حافظٌ وضابطٌ، ليس بناسٍ ولا غالط، يكتب الكلمات السواقط، وأنت في ليل الحدَث خابِط، تتعرض في الصباح والمساء للمساخط، يا من قد شاب إلى كم تغالط، لا بدّ للّيل من فجر منير كاشط، كيف ينهض للَّعب واللَّهو الأشَامِط [(١)] ماذا بقي وهذا الشيبُ واخط، أما تستحي وأنت في الإثم وارط، يا قاعدًا عند التُّقَى وهو في الهوى ناشِط، كلما رُفِعْت لم تُرِدْ إلا المَهَابط، تيقَّظ لنفسك فقد مضى الفارط، وابك على ذنبك ويكفي الفارط، أصلح ما بقي واقبل من الوسائط، جاهدْ هواك في الدنيا فالفخر للمرابط، انظر لمن تعاشر واعرف لمن تخالط، احذر جزاء القِسْط عليك يا قاسِط، لا تغترر بالسلامة فربما قبض الباسط، فِ لنا بالشروط ونحن نفي بالشرائط، ذكِّر نفسك بالموت ذاك الشديد الضاغط، إذا تحيرت في الأمور وزال الجأش الرابط، لا تنفع الأقارب ولا تدفع الأراهط، ونفَس النفس يخرج من سمِّ إبرة خائط.

* * *

باع قومٌ جاريةً قبيل رمضان، فلما حصلت عند المشتري قال لها: هَيِّئي لنا ما يَصْلح للصوم، فقالت: لقد كنت قبلكم لقوم كل زمانهم رمضان.

للَّه در أقوام تفكروا فأبصروا، ولاحت لهم الغاية فما قصّروا، وجعلوا الليل رَوْح قلوبهم والصيام غذاء أبدانهم، والصِّدق عادة ألسنتهم، والموت نُصْبَ أعينهم.

كتب رجل إلى داود الطائي: عِظْني فكتب إليه: أما بعد، فاجعل الدنيا كيوم صُمْته عن شهوتك، واجعل فطرك الموت فكأنْ قد صرت إليه، فكتب إليه: زدني، فكتب إليه: أمَّا بعد، فارضَ

(١) الأشامط: جمع الأشمط، وهو: الأشيب.

من الدنيا باليسير مع سلامة دينك، كما رضي أقوامٌ بالكثير مع ذَهاب دينهم، والسلام [1].

كان داود الطائي قد ورث من أبيه عشرين دينارًا فأنفقها في عشرين سنة، وكان جالسًا في داره فإذا وقع سقفٌ تقدَّم إلى موضع آخر إلى أن بقي دهليز الدار فمات فيه، وتحت رأسه لَبِنة، فدخل عليه ابن السماك فقال: اليوم ترى ثوابَ ما كنت تعمل.

ورآه بعض أصحابه في المنام فقال له: أوصني، فقال: داوِ قُروحَ باطنك بالجوع، واقطع مَفَاوزَ الدنيا بالأحزان، وآثر حُبَّ اللَّه على هواك ولا تبالِ متى تلقاه.

* * *

طوبى لعبدٍ بالغ في حِذَاره، واحتفَر بكفِّ فكره قَبْره قبل احتفاره، وانتهبَ زمانَه بأيدي بِدَاره، وأعذَر في الأمر قبل شيب عِذاره، ولم يرض في زاده بتقليله واختصاره، ورأى عَيْب الهوى فلم يَصْطَلِ بناره، ودَافع الشهوات وصابر المكاره، إنْ بحثت عنه رأيته صائم نهاره، وإن سألت عن ليله فقائم أسحاره، وإن تلمحته فالزفير في إصعاده والدمع في انحداره، ولا يتناول من الدنيا إلا قَدر اضطراره، باعها فاشترى بها ما يبقى باختياره، هل فيكم متشبِّه بهذا أو على نِجَاره؟

يا حُسْنه ومصابيح النجوم تُزْهر والناس قد ناموا وهو في الخير يَسْهر، غسل وجهه من ماء عينه وعَيْن العَيْن أطهر، فلما قضى وِرْد الدُّجى جلس يتفكَّر، فخطر على قلبه كيف يموت وكيف يُقْبر، وتصوّر صحائفه كيف تُطْوى وكيف تُنْشر، فهام قلبُه في بَوَادِي القلَق وتحيَّر، فطلَّق الدنيا ثلاثًا وهل يُستوطن مَعْبَر؟!

طوَى مُدةً من دهره دار زخرفٍ ... إلى أبَدٍ ذي سُنْدس وحرير
ألا تلكمُ الدارُ التي حلَّ أهلُها ... بناء عن الخَطب المخُوف شَطِيرِ [2]
لهم ما اشتَهوْا فيها مسُوقًا إليهمُ ... مَقُودًا إذا شاءوا بغير جَرِيرِ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ...﴾ [3]

إخواني: استدركوا باقي الشهر فإنه أشرف أوقات الدهر، واحصروا النفوسَ عن

(١) أورده ابن الجوزي أيضًا في ذم الهوى: ص ٦٦٩.

(٢) الشطير: البعيد.

(٣) سورة البقرة: ١٨٥.

هواها بالقَهْر، وقد سمعتم بالحور العين فاهتموا بالمَهْر.

أخبرنا أبو منصور القزاز بسنده، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: « أفضلُ الصدقة صدقةُ رمضان » [١].

عباد اللَّه، اعلموا أن النصف الأخير أفضل من الأول؛ لأن فيه العشر وليلة القدر، والأعمال تُضاعَف بشرف وقتها ومكانها.

قد بَلغَ الشهرُ إلى نِصْفِه ... وليس عنِّي الشهرُ بالراضي
ظلمتُ صوْمَ الشهر في حقه ... يا ويلتا إن عَدَل القاضي

أترى صح لك صوم يوم؟ أترى تسلم في شهرك من لوْم؟ أترى لفيك خَلوق أو أم فيك خَلاق [٢]، من فطَّر صائمًا فله أجر صائم، فاجتهد أن تصوم رمضان ستين يومًا.

أيها الراقدُ عن نُهْزته [٣] ... ما يَرُوع السيفُ حتى يُشْهرَا
وأبي المجدِ لقد فاز به ... سالكٌ فيه الطريقَ الأوْعَرا

* * *

إنما أنت ضيف أصبحت في مَتْرك، وما في يديك وديعة عندك، ويوشك الضيف أن يرتحل والوديعة أن تُرد، ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودّع الدنيا.

قد كشَف الدهرُ عن يقيني ... قناع شكِّي في كل شيٍّ
لا بد من أن يحُلّ موتٌ ... عُقْدة نفسٍ من كل حيٍّ

متى تتبع أوصاف الإنصاف، إلى متى تَرْضع أخلاف [٤] الخلاف، أيقظك الدهر وأرشدك الوعظ فَهِمْت، وحدَّثك الموتُ فما فهمت، ألبَّ [٥] حُبُّ الدنيا بِلُبِّك، وأقْلَب هواها مستقيمَ قلبك، كم نوقظ عقلك سَنَة بعد سنة، وهو لا يزداد إلا رُقادًا وسِنَة، كم نَرْمي هدفَ سمعك برَشْق كلام لم يلذَعْ أصلَ قلبك بحبه ملام.

عَيْن المَنيّة يَقْظَى غير مُطْرِقَة ... وطَرْفُ مَطلوبها مُذْ كان وسْنانُ
جهلًا تمكن منه حين مَوْلده ... والنُّطق صاحٍ ولُبُّ المرء سكرانُ

لقي راهبٌ راهبًا فقال: أترضى حالتك التي أنت عليها للموت؟ قال: لا، قال: فهل

---

(١) أخرجه سليم الرازي في جزئه عن أنس. الجامع الصغير، حديث رقم: ١٢٦٥، ط محيي الدين، وهو ضعيف.

(٢) الخلاق: النصيب الوافر من الخير. (٣) النهزة: الفرصة.

(٤) الأخلاف: جمع خلف، وهو حلمة ضرع الناقة. (٥) ألب: أقام.

عزمت على توبة من غير تسويف؟ قال: لا ، قال: فهل تعلم دارًا تعمل فيها سِوى هذه؟ قال: لا، قال: فهل للإنسان نَفْسان إذا ماتت واحدةٌ عَمل بالأخرى؟ قال: لا، قال: فهل تأمن هجومَ الموت على حالتك هذه؟ قال: لا، قال: فما أقام على ما أنت عليه عاقل.

صعد عمر بن عبد العزيز المنبر فقال: إن كنتم على يقين فأنتم حَمْقى، وإن كنتم في شك فأنتم هَلْكى، ثم نزل.

ودخل عليه رجل متغير اللون ، فقال: ما بك؟ قال: أمراض وأعْلال، قال: لتَصْدُقنِّي قال: ذقُت حلاوة الدنيا مُرًّا.

وهَبْني كتمتُ الحقَّ إذ قلتُ غيره ... أتخْفَى على أهل العقولِ السرائرُ
أيا ذاك إن السرّ في الوجه ناطقٌ ... وإن ضمير القلب في العين ظاهرُ

* * *

قال صالح المُرِّي: كان عطاء السُّلَمي قد اجتهد حتى انقطع، فقلت له يومًا: إني مُكْرِمك بكرامة فلا تردّ كرامتي، فبعثتُ إليه شَرْبة من سَوِيق مع ولدي وقلت له: لا تَبْرح حتى يشربها، فجاء فقال: قد شربها، فبعثت له في اليوم الثاني مثلها فجاء، فقال: ما شَرِبَها، فأتيت إليه فَلُمْته وقلت: ردَدْتَ عليّ كرامتي، وهذا يقوِّيك على العبادة، فقال: يا أبا بِشْر لقد شربتها في أول يوم واجتهدت في اليوم الثاني فلم أقْدر، كلما هَمَمْت بشربها ذكرتُ قوله تعالى: ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ (١) قال: فقلت: أنا في وادٍ وأنت في وادٍ.

أطَلْتَ وعنَّفتني يا عَذُول ... بُليتَ فدعْني حديثي طويلُ
هَواي هوًى باطنٌ ظاهرٌ ... قديمٌ حديث لطيف جليلُ
ألا ما لذا الليل لا ينقضي ... كذا ليلُ كُلِّ مُحبٍّ طويلُ
أبيت أسَاهر نجم الدُّجى ... إلى الصبح وَحْدي ودمعي يسيلُ

* * *

للّه دَرّ تلك القلوب الطاهرة، أنوارها في ظلام الدجى ظاهرة، رفضت حِلْية الدنيا وإن كانت فاخرة، كم تركتْ شهوةً وهي عليها قادرة، باتت عيونها والناس نِيامٌ ساهرة، زفرات الخوف تثير سحائبَ الأجفان الماطرة، يَنْدبون على الذنوب وإن كانت نادرة، كم بينك وبينهم يا بائع الآخرة، شَيْب وعَيْب أمثالٌ سائرة، أملٌ مع هرم هذه نادرة،

---

(١) سورة المزمل: ١٣.

كم أقوام أمَّلوا هذا الشهر فخاب الأمل، أين هم خُلُّوا في الألحاد بالعمل، تاللَّه إن نسيان النَّقْل في العَقْل خلل، أما يكفي زَجْر المقيم بمن رحل؟!

كـلُّ حَـيٍّ فـقُـصَـاراه الأجَـلْ ... ليس لِلْخَلْق بذا الموت قِبَلْ
نُـوَبٌ قُـلْـن لـعـادٍ قـبْـلـنـا ... آن من ذات العماد المرتَحلْ
واستوى من ذلك الشّرْبُ الذي ... صار عَلًّا لسواهم ونَهلْ
ألبَستْ ناسًا سواهم حَلْيَهُم ... ثم بَزَّتْه فراحُوا بالعَطَلْ
فكأن الدهرَ لم يَجمع لهم ... رغَدَ العيش وإعزاز الدُّول
فاسأل الإيوانَ عن أربابه ... كيف حلَّت بهمُ تلك الرحَلْ
نقلتهم عن فضاء واسع ... يسرح الطرفُ به حتى يملّ
نحن أعراضُ خُطوب إن رمتْ ... عادت الأدراعُ لِينًا كالْحُلَلْ
وإذا ما اختلفتْ أسْهُمها ... فأصابت بطَلَ القوم بطَلْ

يا من عمره قد وَهَى في سلك الهَوى فهو مُتَهافت، متى تستدرك في هذه البقية بالتقيّة الفائت؟! متى يشبع النوم فتجتمع الهموم الشتائت؟! أيها المريض البالي وما يُبَالي بوصْف ناعت، إلى متى أنتَ بالعيوب إلى علَّام الغيوب مُتَماقت؟! متعرّض صباحًا للساخط ومساء للماقت، وتعمل بالأغراض في الإعراض عمل العفارت، يا متكلمًا في ضُرِّه فأما في نفعه فساكت، كلما نقص أجلُه زاد أمله وهذا متفاوت، أما رأيت المنايا تحصد المنى في المنابت؟! كم مُقَهْقِه رجع القهقرى إلى حزن باكت، كأنك بالموت إذ ثوى قد فَزّع الثوابت، ونزل بك إذ نزل بك إلى حيرة باهت، يا جاهلًا قد غُرَّ لقد سُرَّ بفعلك الشامت.

كأنك بالمضيِّ إلى سبيلك ... وقد جَدَّ المجهِّز في رحيلكْ
وجيء بِغاسلٍ فاسْتعجَلُوه ... بقولهمُ له افرغْ من غسيلكْ
ولم تَحْمل سوى خِرق وقُطْن ... إليهم من كثيرك أو قليلكْ
وقد مدّ الرجالُ إليك نَعْشًا ... فأنت عليه مُمْتدًّا بطولكْ
وصلَّوا ثم إنهمُ تداعَوْا ... بحَمْلك في بُكُورك أو أصِيلكْ
فلما أسْلكوك نزلتَ قبرًا ... ومن لك بالسلامة في نُزولكْ
أعانك يومَ تدخله رحيمٌ ... رؤوفٌ بالعِبَاد على دخولكْ
فسوف تجاور الموتى طويلًا ... فَدَعْني من قصيرك أو طويلكْ

أخي إنّي نصحتك فاستمعْ لي ... وباللَّه استعَنت على قَبُولِكْ
ألست ترى المنايا كلّ يوم ... تُصيبك في أخيك وفي خليلكْ

* * *

إخواني: هذه أيام تُصَان، هي كالتاج على رأس الزمان، وصل توقيعُ القِدَم من الرحيم الرحمن ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾.

يا له من وقت عظيم الشان تجب حراسته مما إذا حلَّ شان، كأنكم به قد رحَل وبان، ووجْه الصُّلْح ما بان ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾.

من اللازم أن تُحْرس العينان، ومن الواجب أن يحفظ اللسان، ومن المتعيِّن أن تُمنع من الخُطَى في الخَطَا القدمان ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾.

زِنُوا أفعالكم في هذا الشهر بميزان، واشتروا خَلاصكم بما عزّ وهان، فإن عجزتم فَسَلُوا المعين وقد أعان ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾.

قد ذهب نصف البضاعة في التفريط والإضاعة، والتسويف يَمْحق ساعةً بعد ساعة، والشمس والقمر بحسبان ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾.

يا واقفًا في مقام التحيُّر هل أنت على عَزْم التغيّر؟ إلى متى ترضى بالنزول في منزل الهوان؟! هل مضى من يومك يومٌ صالح سَلِمْت فيه من جرائم القبائح؟! تاللَّه لقد سبق المتقي الرابح وأنت راضٍ بالخسران، عينك مُطْلقة في الحرام، ولسانك منبسط في الآثام، ولأقدامك على الذنوب إقدام، والكلُّ مثبت في الديوان، قلبك غائب في صلواتك وفكرك ينقضي في شهواتك، فإن ركن إليك معاملٌ في معاملاتك دخلت به خانَ من خان، أكثر كلامك لغو وهذر، والوقت بالتفريط شَذَر مَذَر، وإن اغتبت مسلمًا لم تُبْق ولم تذَر، الأمان منك الأمان، تاللَّه لو عقلت حالك أو ذكرت ارتحالك أو تصوّرت أعمالك لبنيت بيتَ الأحزان، سيشهد رمضان عليك بنطق لسانك ونظر عينيك، وسيشار يوم الجمع إليك شَقِيَ فلان وسعد فلان، في كل لحظة تُقرب من قبرك، فانظر لنفسك في تدبير أمرك، وما أراك إلا كأول شهرك، الأول والآخر سِيَّان، قد ذهب من الشهر النِّصْف وما أرى من عملك النَّصَف، فإن كان في الماضي قد قَبُح الوَصْفُ فقم الآن.

والحمد للَّه وحده.

* * *

المجلس الثامن

في ذكر العَشْر وليلة القدر

الحمد للَّه عالم السر والجهر، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر، مُحْصي قطرات الماء وهو يجري في النهر، فضَّل بعض المخلوقات على بعض حتى أوقات الدهر ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (١)، فهو المتفرد بإيجاد خلقه المتوحد بإدرار رزقه، القديم فالسَّبْق لسَبْقِه، الكريم فما قام مخلوقٌ بحقه، عالم بسر العبد وسامع نطقه، ومقدر علمه وعمَله وعُمره وفعله وخَلْقه، ومجازيه على عَيبه وذَنبه وكَذبه وصدقه، الملك القهار فالكل في أسْر رِقِّه، الحليم الستار فالخلق في ظل رِفْقه، أرسل السحاب تُخاف صواعقه ويُطمع في وَدْقه، يزعج القلوب رَوَاعده ويكاد سنا بَرْقه، جعل الشمس سراجًا والقمر نورًا بين غربه وشرقه.

أحمده على الهدى وتسهيل طرقه، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له في رتْقه وفتقه، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله والضلال عامٌّ فمحاه بمحقه، صلى اللَّه عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر السابق بِصدْقه، وعلى عمر كاسر كِسْرى بتدبيره وحِذْقه، وعلى عثمان جامع القرآن بعد تبديده في رقِّه، وعلى عليّ واعذرونا في عشقه، وعلى عمه العباس مشاركه في أصله وعرقه.

* * *

قال اللَّه ﷻ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ...﴾ (٢)

الهاء في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ كناية عن القرآن، وذلك أنه أنزل جملة في تلك الليلة إلى بيت العزة وهو بيت في السماء الدنيا.

وفي تسميتها بليلة القدر خمسة أقوال:

أحدها: أنها ليلة العظمة، يقال: لفلان قدْر، قاله الزهري، ويشهد له: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ (٣).

والثاني: أنه الضِّيق، أي هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون، قاله

---

(١) سورة القدر: ٣.
(٢) سورة القدر: ١.
(٣) سورة الزمر: ٦٧.

الخليل بن أحمد ويشهد له: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ (١).

والثالث: أن القدر: الحُكْم كأن الأشياء تقدر فيها، قاله ابن قتيبة.

والرابع: لأن من لم يكن له قَدْر صار بمراعاتها ذا قدر، قاله أبو بكر الورَّاق.

والخامس: لأنه نزل فيها كتاب ذو قَدْر، وينزل فيها رحمة ذات قَدْر، وملائكة ذوو قدر، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ ﴾:

هذا على سبيل التعظيم لها والتشويق إلى خبرها.

وفي قوله تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ ﴾ **قولان:**

أحدهما: أنها من زمان بني إسرائيل **ثم في ذلك قولان:**

– **أحدهما:** ما رواه عطاء، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ذُكِرَ له رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى أن يكون ذلك في أمته، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وقال: هي خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله.

– **والثاني:** أن الرجل كان فيما مضى لا يستحق أن يقال له: عابد حتى يَعبد الله ألف شهر، فجعل الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر التي كانوا يعبدون فيها.

والقول الثاني: أن الألف شهر من هذا الزمان، قال مجاهد: قيامُها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر من هذا الزمان وصيامها ليس فيها ليلة القدر، وهذا قول قتادة واختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ... ۝٤ ﴾:

قال أبو هريرة: الملائكة ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى.

– **وفي الروح ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه جبريل، قاله الأكثرون، وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كَبْكبة من الملائكة يصلون ويسلِّمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله ﷻ ».

---

(١) سورة الطلاق: ٧.

والثاني: أن الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، قاله كعب ومقاتل بن حيان.

والثالث: أنه ملَك عظيم من الملائكة، قاله الواقديّ.

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا... ﴾ أي في ليلة القدر، قوله ﷻ: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم... ﴾ أي بأمر ربهم، والمعنى: ما أمَر به وقضَاه ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال ابن قتيبة: أي بكل أمر، قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاهُ اللَّه تعالى في تلك السنة إلى قابل.

قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ... ﴾ أي ليلة القدر سلام، **وفي معنى السلام قولان**:

أحدهما: أنه لا يَحدث فيها داء ولا يُرسَل فيها شيطان؛ قاله مجاهد.

والثاني: أن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة.

* * *

واعلم أن ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة:

قال أبو ذر ؓ: سألت رسول اللَّه ﷺ فقلت: يا رسول اللَّه أخبرني عن ليلة القدر في رمضان هي أو في غيره؟ قال: « بل هي في رمضان »، قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قُبضُوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: « بل هي إلى يوم القيامة »، قلت: في أي رمضان هي؟ قال: « التمسوها في العشر الأول والعشر الأخر »، قلت: في أي العشرين هي؟ قال: « ابتغوها في العشر الأواخر لا تسألني عن شيء بعد ». ثم حدَّث وحدَّث فقلت: يا رسول اللَّه أقسمت عليك بحقِّي عليك لَمَا أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب عليٍّ غضبًا لم يغضب علي مثله قال: « التمسوها في السبع الأواخر لا تسألني عن شيء بعدها » (١).

وقد ذهب قوم إلى أنها ليلة سبع عشرة من رمضان.

أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده، عن زيد بن أرقم أنه سُئِل عن ليلة القدر فقال: هي ليلة سبع عشرة لا شك فيها، ثم قال: ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان (٢).

واعلم أن الجمهور على أنها في العشر الأواخر وأنها تختص بالأفراد، واختلفوا في الأخص بها، فذهب الشافعي ؒ إلى **ليلة إحدى وعشرين**، ويدل عليه حديث أبي سعيد وهو في الصحيحين قال: أُري رسول اللَّه ﷺ ليلة القدر ثم أُنْسِيها قال:

---

(١) رواه البزار عن مرثد عن أبي ذر بنحوه، قال الهيثمي: ومرثد هذا لم يرو عنه غير أبيه مالك، وبقية رجاله ثقات مجمع الزوائد : ١٧٧/٣. ورواه أحمد في مسنده، حديث رقم : ٢٠٩٨٨.

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن حوط العبدي. قال البخاري: حديثه هذا منكر. مجمع الزوائد : ١٧٨/٣.

« أراني أسجد في ماء وطين ». فوالذي أكرمه لرأيته يصلي بنا صلاة المغرب ليلة إحدى وعشرين وإن جبهته وأرنبة أنفه لفي الماء والطين (١).

والثاني: ليلة ثلاث وعشرين، وروى مسلم في أفراده من حديث عبد الله بن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « أراني صبيحتها أسجد في ماء وطين » فَمُطِرْنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ وإنَّ أثر الماء والطين على جبهته وأنفه.

وأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أُتيت وأنا نائم فقيل لي: إن الليلة ليلة القدر، فقمت وأنا ناعِس فتعلقتُ ببعض أطناب فُسطاط رسول الله ﷺ فإذا هو يصلي، فنظرت في تلك الليلة فإذا هي ليلة ثلاث وعشرين (٢).

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان ينْضَح الماء في وجوه نسائه ليلة ثلاث وعشرين من رمضان، تفرد بإخراجه أبو بحر.

والثالث: ليلة خمس وعشرين وروى هذا المعنى أبو بكرة عن رسول الله ﷺ .

والرابع: ليلة سبع وعشرين أخبرنا ابن الحصين بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « من كان متحرِّيًا فليتحرَّها ليلة سبع وعشرين، أو قال: تحرّوها ليلة سبع وعشرين ». (انفرد بإخراجه مسلم) (٣).

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال: أخبرنا أبيُّ بن كعب عن ليلة القدر فحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بم تقول ذلك يا أبا المنذر؟ فقال: بالآية أو بالعلامة التي قال رسول الله ﷺ : أنها تصْبح من ذلك اليوم تطلع الشمس وليس لها شعاع. أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عاصم عن زر قال: قلت لأبي بن كعب: أبا المنذر أخبرني عن ليلة القدر، قال: صاحبنا يعني ابن مسعود رضي الله عنه كان إذا سئل عنها قال: من يَقُمْ الحَوْل يُصِبْها، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، أمَا والله لقد علم أنها في رمضان ولكن أحب أن لا تَتَّكلوا وأنها ليلة سبع وعشرين لم يستثن، قلت: أبا المنذر أنَّى أعلم ذلك؟ قال: بالآية التي قال لنا رسول الله ﷺ صبيحة ليلة القدر تطلع الشمس لا شعاع لها كأنها طست حتى ترتفع (٤).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل ليلة القدر : ٢٦١/١، ط الخيرية، وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ٢١٥، ٢١٦.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال أحمد رجال الصحيح. مجمع الزوائد : ١٧٥/١.

(٣) الذي في صحيح مسلم، كتاب الصيام، رقم : ٢٠٦، ونصه: « تحروا ليلة القدر في السبع الأواخر »، وحديث رقم : ٢١٠، ونصه: « من كان ملتمسها فليلتمسها في العشر الأواخر »، أما هذه الرواية فهي عند الإمام أحمد وإسناده حسن.

(٤) رواه أبو داود في سننه، حديث رقم : ١٣٧٨، وهو صحيح.

لفظ المقدمي، قال ابن ناصر: عالٍ صحيح.

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رجلًا أتى نبي الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني شيخ كبير يشقّ عليَّ القيام فمرني بليلة لعل الله ﷻ أن يوفقني فيها لليلة القدر، فقال: « عليك بالسابعة » [١].

أخبرنا أبو منصور القزاز بسنده عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « ليلة القدر ليلة سبع وعشرين » [٢].

وهذا مذهب عليّ عليه السلام وابن عباس رضي الله عنهما، وقد روي عن ابن عباس أنه **استدل على ذلك بشيئين:**

أحدهما: أن السبعة تتكرر في المخلوقات، فالأرض سبع.

والثاني: أن قوله: « هي » هي الكلمة السابعة والعشرون، وقال عبدة بن أبي لبابة: ذُقْتُ ماء البحر ليلة سبع وعشرين فوجدته عذْبًا.

واستدل بعضهم بأن ليلة القدر تكررت في هذه السورة ثلاث مرات وهي تسعة أحرف والتسعة إذا كُرِّرت ثلاثًا كانت سبعة وعشرين.

والخامس: مشكوك فيه، أخبرنا ابن الحصين بسنده، عن أنس، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان، فقال رسول الله ﷺ: « خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى رجلان فرفعتْ وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة أو السابعة أو الخامسة ». (انفرد بإخراجه البخاري) [٣].

قال أحمد: وحدثنا حَيْوة، عن ابن شريح، عن بَقِيّة، عن بجير بن مَعْدان، عن عبادة ابن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: « ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وِتْر تِسْع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة » [٤].

وقال رسول الله ﷺ : « إن أمارة ليلة القدر أنها صافية كأن فيها قمرًا ساطعًا، ساكنة صاحية [٥] لا بَرْد فيها ولا حَرّ، ولا يحل لكوكب أن يُرْمى به حتى يُصْبح، وإن أمارتها

(١) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد : ١٧٦/٣.

(٢) روى نحوه الطبراني في الأوسط.

(٣) صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل ليلة القدر.

(٤) مسند أحمد، حديث رقم : ٢٢٢٥٩، وهو ضعيف.

(٥) مجمع الزوائد : ١٧٥/٣: ساجية.

أن صبيحتها تخرج مُسْتوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ ».

قال أحمد: وأخبرنا سليمان بن داود، عن عمران القَطّان، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال في ليلة القدر: « إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين إن الملائكة تلك الليلة أكثر من عدد الحصى » (١).

أخبرنا محمد بن عبد اللَّه القاضي ويحيى بن علي المُدير بسندهما، عن حميد، عن الحسن أن رسول اللَّه ﷺ قال: « اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر التاسعة والسابعة والخامسة وآخر ليلة، وهي ليلة، بَلْجة (٢) لا حارة ولا باردة ولا يُرمى فيها بنجم ولا ينبح فيها كلب » (٣).

أخبرنا الكروخي بسنده عن ابن عُيَيْنة بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال: ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ إلا في العشر الأواخر فإني سمعته يقول: « التمسوها في تسع بَقِين أو سبع بقين أو خمس بقين أو ثلاث بقين أو آخر ليلة » (٤).

قال الترمذي: وأخبرنا عبد بن حميد، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر (٥).

وقد روي عن مجاهد قال: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين، أخذه من حديث واثلة ابن الأسْقَع عن النبي ﷺ قال: « أنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان ».

وقال سعيد بن جُبير: كنا مع ابن عباس في المسجد الحرام فخفق رأسه خَفقة فقال: أيّ ليلة هذه؟ قلنا: ليلة أربع وعشرين، قال: الليلة ليلة القدر؛ لأن الملائكة نزلوا من السماء وعليهم ثياب بيض.

قلت: والحكمة في إخفائها أن يتحقق اجتهاد الطالب، كما أخفيت ساعة الليل وساعة الجمعة، وقد كان النبي ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، كان يسهر

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات. مجمع الزوائد: ١٧٦/٣.

(٢) البلجة: النيرة.

(٣) روى نحوه الطبراني في الكبير، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذي في صحيحه: ١٥٢/١، ط الأميرية.

(٥) سنن الترمذي: ٧٩٢، وهو حديث ضعيف.

ليله وَيَحْمِل كَلّه فيشدّ مئزره ويقوم الليل كله.

وقد أخبرنا أبو عبد اللّه السّلال بسنده، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: « من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (١).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللّه ﷺ في العَشْر الأواخر من رمضان يُحْيي الليل كُله ويوقظ أهله ويشد المِئْزَر. (أخرجاه في الصحيحين) (٢).

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللّه ﷺ يجتهد في العَشْر ما لا يجتهد في غيره (٣).

وفي الصحيحين من حديثها قالت: كان رسول اللّه ﷺ يعتكف العَشْر الأواخر من رمضان حتى توفاه اللّه عز وجل (٤)، وأخرجاه من حديث ابن عمر أيضًا قال: اعتكف رسول اللّه ﷺ العَشْر الأول من رمضان فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الذي تطلب أمامك (٥).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: « من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تَقَدَّم من ذنبه » (٦).

وكذلك في حديث عبادة بن الصامت، عن رسول اللّه ﷺ « غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ».

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول اللّه إذا وافقتُ ليلة القدر فما أدعو؟ فقال: « قولي: اللّهم إنك عَفو تحب العفو فاعف عني » (٧).

وقد كان السلف يتأهبون لها، فكان لتميم الدَاري حُلّة بألف درهم يلبسها في الليلة التي يُرْجى أنها ليلة القدر. وكان ثابت وحُميْد يغتسلان ويتطيّبان ويلبسان أحسن ثيابهما ويطيّبان مساجدهما في الليلة التي تُرجى فيها ليلة القدر.

---

(١) صحيح البخاري : ١/٢٦٠، إلى قوله: « ما تقدم من ذنبه ».

(٢) صحيح البخاري : ١/٢٦٢. وصحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، حديث رقم : ٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، حديث رقم : ٨.

(٤) لم أجده في صحيح البخاري، وهو في صحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ٢١٥ (بمعناه).

(٥) صحيح البخاري : ١/٢٦٠. وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم : ١٧٥.

(٦) صحيح البخاري وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم : ١٧٥.

(٧) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الدعوات، باب رقم : ٨٤.

إخواني: واللَّه ما يَغْلو في طلبها عَشْر، لا واللَّه ولا شهْر، لا واللَّه ولا دَهْر، فاجتهدوا في الطلب فرب مجتهد أصاب.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن قتادة عن أنس ﷺ قال: لما دخل رمضان قال رسول اللَّه ﷺ: « إن هذا الشهر قد دخل عليكم فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرمها فقد حرم الخيرَ كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم »[1].

* * *

الكلام على البسملة

اكدح لنفسك قبلَ الموت في مَهَلٍ	ولا تكنْ جاهلًا في الحق مُرْتابا
إن المنيّة موروثٌ مناهِلُها	لا بد منها ولو عُمِّرتَ أحْقَابا
وفي الليالي وفي الأيام تَجْربة	يزداد فيها أولو الألباب ألبابَا
بعدَ الشباب يصير الصُّلْب مُنحنيا	والشعر بعد سواد كان قد شابا
يُفني النفوس ولا يبقي على أحدٍ	ليلٌ سريع وشمس كرُّها[2] دابا
لمستقر وميقات مقدَّرة	حتى يعود شُهودُ الناس غيّابا
ومن تُعَاقِره الأيام تُبْد له	بالجارِ جارًا وبالأصحاب أصحابًا
خلَّوا بروجًا وأوطانًا مشيَّدة	ومؤنسين وأصهارًا وأنسابًا
فيا له سفرًا بُعدًا ومغتربًا	كُسيتَ منه لطول النأْي أثوابا
بموحش ضيِّق ناء محلّته	وليس من حَلَّه من غيبة آبًا
كم من مهيب عظيم الملك مُتَّخِذ	دون السُّرادق حُرَّاسًا وحُجَّابا
أضحى ذليلًا صغير الشأن منفرِدًا	وما يرى عنده في القبر بَوَّابا[3]
وقَبْلك الناسُ قد عاشوا وقد هلكوا	فأضربَ الحيُّ عن ذي[4] النَّأْي إضرابًا
يا أيها الرجُل الناسي لِمَصْرعه	أصبحتَ مما ستَلْقى النفسُ هَرَّابا
اكدَحْ لنفسك من[5] دار تُزَايلها	ولا تكن للذي يُؤذيك طَلَّابا

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب الصيام، باب رقم : ٥. وابن ماجه، كتاب الصيام، باب رقم : ٣.

(٢) أ، ب: نحوها وما أثبته من ت.

(٣) ت: نوابًا.

(٤) ت: عند النأي.

(٥) ت: في دار.

يا من أمله إلى أجله يقوده، أنت على يقين من نيل ما تريده، كم من غصن غضٍّ كُسر عوده، كم ملك عاتٍ تفرقت جنوده، لقد طرق الموتُ الغِيلَ فهلكت أسوده، كم هدَّ الموتُ من جبل، كم رَحّل إلى القبور ونقل، فرّغ المنازل وأخْلى الحِلَل (١) وأعْرى في العَراء أصحاب الـحُلَل، ونقض بمعْول التلف ركنَ الأمل، ومحا من كتاب اللَّهو سطور الجذَل، وصاح بصوته الهائل: جاء الأجَل، لقد غرك من الأماني لموعها وإن أشقى النفوس طَموعها، إنها الدنيا قد صُرَّت ضروعها، وكم جرّ جَرِيرةَ ما جنَى جَزُوعها (٢) طوبى لنفس طال عنها جوعها، وُصِفَت لها الجنة فاشتد نُزوعها، تفكرت في تقصيرها فسالت دموعها، ما عندك خَبر مما تحوي ضلوعها.

أرأيت مـن داء الـصَّـبَـابـة عـائـدًا	ووجدتَ في شكوَى الغرام مُساعِدا
هـيـهـات مـا تَـرِد الـمـطـالـبَ نـائـمًا	عـنـهـا ولا تَـصِـل الـكـواكب قَاعِدا

إن جواهر الأشياء يظهرها سَبْكها، وإن قلوب الموقنين قد زال شكُّها، يا ذا الكسل هذا زمان النشاط، يا ذا الأنفة إن للتوبيخ ألم السِّياط.

إخواني: راعُوا حقّ هذه الأيام مهما أمكنكم، واشكروا الذي وهب لكم السلامة، ومكَّنكم، فكم مؤمِّل لم يَبْلغ ما أَمَّل، وإن شَكَكْت فتلمَّح جيرانك وتأمَّل، كم من أناس صلوا معكم في أول الشهر التراويح، وأوقدوا في المساجد طلبًا للأجر المصابيح، اقتنصهم قبلَ تمامه الصائدُ فقُهروا، وأسرتهم المصايد فأُسروا، وغمسهم التلف في بحره فمُقلوا (٣)، ولم ينفعهم المال والآمال لـمَّا نُقلوا، أدارت عليهم المنون رحاها، وحكّ وجوههم الثرى فمحاها، فأعدمتهم صومًا وفِطْرًا، وزوَّدتهم من الحَنُوط (٤) عِطْرًا، وأصبح كلٌّ منهم في اللحد سَطْرًا، هذا حالك يا من لا يعقل أمرًا، كم تُـحرَّض وما ينفع التحريض، ونَعْرض لك باللوم وما يُجدي التعريض، يا من لا ينتبه بالتصريح ولا بالتعريض، قد أمهلناك في الزمان الطويل العريض، كم يقال لك ولا تقبل، والحُرّ تكْفيه الملامة، أمارةُ الخير ما تَخْفى، طَرْف الفتى يُخْبر عن ضميره، تاللَّه إن رائضكِ لـمُثَقِّف يَضَع الهِنَاء مواضع النَّقب (٥)، لو ارعويت لاستويت، لو صحَّ منك الهوى أُرشدت للحِيَل، زاحِم التائبين وادخل في حزب البكّائين، وكلٌّ غريب للغريب نَسِيبُ.

---

(١) الحِلل: جمع حِلة بالكسر وهي جماعة بيوت الناس.

(٢) الأصل: جدوعها، ولعل الصواب ما أثبتناه. والجزوع: مبالغة من الجزع.

(٣) مقلوا: غمسوا وغمروا.

(٤) الحنوط: كل طيب يخلط للميت.

(٥) المثقف: المصلح المقوم، الهناء: القطران الذي تطلى به الإبل الجربى. والنقب: الجرب.

قال يحيى بن معاذ: يا بن آدم طلبتَ الدنيا طلب من لا بد له منها، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا قد كُفيتها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها، فاعقل شأنك، يا بن آدم، حُفَّت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحُفَّت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبرتْ نفسُه على مضض الدواء اكتسبت بالصبر عافية الشفاء، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علته.

وفي الشيب ما ينهى الحكيم عن الصِّبا ... إذا استوقدتْ نيرانُه في عِذَارِهِ
وأي امرئ يرجو من العَيْش غِبطةً ... إذا اصفرَّ منه العُودُ بعد اخضراره
ولله في عَرْض السمواتِ جَنَّة ... ولكنها محْفوفةٌ بالمكاره

* * *

أمتْ نفسك حتى تحييها، فعاقبة الصبر حلوة.

كم صبرَ بشْر [1] عن مُشْتَهًى حتى سمع: كُلْ يا من لم يأكل.

ما مُدَّ سِجَاف [2] ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ [3] على قُبَّة ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ [4] حتى جُرب في أمانة ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ [5].

إن الألم ليُحمد إذا كان طريقًا إلى الصحة، وإن الصحة لتُذمّ إذا كانت سبيلًا إلى المرض، أي فائدة في لذة ساعة أوقعت غَمًّا طويلًا، ما فهم مواعظَ الزمان مَنْ أَحسن الظنَّ بالأيام، إياك أن تسمع كلام الأمل فإنه غرور محض.

أما ترى الدهر لا يَبْقى على حال ... طورًا بأمنٍ وطَوْرًا جا بأوْجالِ
متى بان الفتى قالوا دنا أجلٌ ... يا هل أرى في الليالي غير آجال
بذلٌ يؤول إلى منعٍ وعافيةٌ ... تجر داءً ونُكسٌ بعد إبْلالِ
وما سُرِرْت بأيام الكمال فما ... تناقصَ الشيءُ إلا عند إقبال
نلقى المخاوفَ في الدنيا ونأمنها ... ونطلب العِزَّ في الدنيا بإذلال
ونستذمُّ إلينا كلَّ شارقةٍ ... وما لها مُبْغِض فينا ولا قالِي

---

(١) يريد بشرًا الحافي الصوفي الزاهد، وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال الحافي، أصله من مرو سكن بغداد ومات بها، وصحب الفضيل بن عياض، وكان عالمًا ورعًا، توفي سنة: ٢٢٧هـ. ترجمته في طبقات الصوفية: ٣٩. وحلية الأولياء: ٣٣٦/٨. وتاريخ بغداد: ٦٧/٧. والبداية والنهاية: ٢٩٧/١٠.

(٢) السجاف: الستر.

(٣) سورة ص: ٣٠.

(٤) سورة ص: ٤٣.

(٥) سورة ص: ٤٤.

لـذاذة لـم تُـنَـلْ إلا بـمـؤلـمـة وصـحـةٌ لـم تـدمْ إلا بـإعـلالِ

* * *

إذا استوطنتَ السلامة فتذكر العَطَب، وإذا طاب لك الأمن فتفكَّر في المخاوف، وإذا لذَّت لك العافية فلا تنس قُرْب السقم، وإن كنتَ محبًا لنفسك فلا تسئْ إليها بالزلل، إن طالب الدنيا لا ينال منها حظًا إلا بفوت نصيب من الآخرة.

هل العُمْر إلا ثلاثة أيام: يومٌ انقضى بما فيه ذهبت لذَّته وبقيت تَبِعته، ويوم منتَظر ليس منه إلا الأمل، ويومٌ أنت فيه قد صاح بك مُؤْذِنًا بالرحيل، فاصبر فيه عن الهوى فإن الصبر إذا وصل إلى المحبوب سَهل.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ... ﴾ (١)

إخواني: إن شهر رمضان قد قَرُب رحيله وأزِف تحويله، وهو ذاهب عنكم بأفعالكم وقادم عليكم غدًا بأعمالكم، فيا ليت شعري ماذا أودعتموه وبأي الأعمال ودَّعتموه؟!

أتراه يرحل حامدًا صنيعكم أو ذامًا تضييعكم؟! ما كان أعظم بركات ساعاته، وما كان أحْلى جميع طاعاته، كانت لياليَ عتقٍ ومُبَاهاة، وأوقاته أوقات خدم ومناجاة، ونهاره زمان قُرْبة ومصافاة، وساعاته أحيان اجتهاد ومعاناة، فبادروا البقية بالتقية قبل فوات البِرِّ ونزول البرية وتخلى عنك جميعُ البَرِيَّة.

أين المخلص المتعبد؟! أين الراهب المتزهد؟! أين المنقطع المتفرِّد؟! أين العامل المجوّد؟! هيهات بقي عَبْد الدنيا ومات السيد، وهلك مَنْ خطوُه خَطأ وعاش المتعمِّد، وصار مكان الخاشعين كلُّ منافق متمرِّد، رحل عنك شهرُ الصيام، وودَّعك زمان القيام، ولحَّ النصيح وقد لام، أفتشرق شمس الإيقاظ وتنام، فاستدركْ ما قد بقي من الأيام، قد رأيتك تَوانَيْت في الأولى والثانية والثالثة فما بعد أن دنا الصباح؟!

أخبرنا ابن الحصين بسنده، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان آخر يوم من شهر رمضان أعتق فيه مثل جميع ما أعتق » (٢)

---

(١) سورة القدر: ٥.

(٢) الحديث موضوع فيه مجاهيل. اللآلئ المصنوعة : ٢/١٠١.

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ « إن للّه في كل ليلة من شهر رمضان ستمائة ألف عتيق من النار، فإذا كان آخر ليلة أعتق بعدَد من مضى »(١).

وقد روينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « إذا كانت آخر ليلة من رمضان أعتق اللّه عز وجل في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره »(٢).

وقد كان عبد الرحمن بن الأسود يحيي ليلة الفطر ويقول: هي ليلة غَفْلة.

وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحيا ليلتي العيد وليلة النصف من شعبان لم يمت قلبه يومَ تموت القلوب »(٣).

وكان جعفر الصادق يدعو في آخر رمضان فيقول: اللّهم رب رمضان منزِّل القرآن هذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقد تصرَّم، أي رب فأعوذ بوجهك الكريم أن يطلع الفجر من ليلتي هذه أو يخرج رمضان ولك عندي ذنب تريد أن تعذبني يوم ألقاك.

ومن المتعلق بالصيام إخراج زكاة الفطر، حدثنا أبو القاسم بن الحصين بسنده، عن جرير بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إن شهر رمضان معلّق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر »(٤).

وينبغي أن يكون الاجتهاد في أواخر الشهر أكثر من أوله لشيئين: **أحدهما**: لشرف هذا العشر وطلب ليلة القدر، فقد روينا فيما تقدم: « اطلبوها في خمس بقين أو ثلاث أو آخر ليلة »، **والثاني**: لوداع شهر لا يُدرى هل يلقى مثله أم لا؟

* * *

إخواني: ليلة القدر يُفْتح فيها الباب، ويقرَّب فيها الأحباب، ويُسْمع الخطاب، ويُرَدّ الجواب، ويُسْنَى للعاملين عظيم الأجر ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾.

يَسْعد بها المُوَاصِل، ويتوفَّر فيها الحاصل، ويُقْبل فيها المُجَامل، فيا رِبْح المعامِل في البحر ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾.

ليلة تُتلقَّى فيها الوفود، ويحصل لهم المقصود بالقبول والفوز والسعود، أترى ما يؤلمك أيها المطرود هذا الهجر ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان. قال البيهقي: هكذا جاء مرسلًا.

(٢) الحديث موضوع كما سبق بيانه.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط بدون « وليلة النصف من شعبان » مجمع الزوائد : ١٩٨/٢.

(٤) رواه أبو حفص بن شاهين في فضائل رمضان، وقال: حديث غريب جيد الإسناد. الترغيب والترهيب : ٩٠/٢، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أخلَصوا وما أخلصتَ قَصْدك، وبلغوا المراد وما بلغت أشُدّك، وكلما جئت بلا نيَّة ردَّك، أوليس ما يؤثِّر عندك شديدُ هذا الزَّجْر؟ ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

أيقظْ نفسك لما بين يديها، وانتظر ما سيأتي عن قليل إليها، وأسمعها المواعظ فقد حضرت لديها، واقبل نصحي وخذ عليها ضَرْب الحَجْر ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

هذه أوقات يربح فيها من فهم ودرى، ويصل إلى مراده كلُّ من جدَّ وَسَرَى، ويُفَكُّ فيها العاني وتُطْلق الأسْرى، تقدّم القوم وأنت راجع إلى ورا، أوليس كل هذا قد جرَى وكأنه لم يَجْرِ؟ ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *
* *
*

المجلس التاسع

في ذكر عيد الفطر

الحمد للَّه موفِّر الثواب للأحباب ومكمّل الأجر، وباعث ظلام الليل ينْسخه نور الفجر، المحيط علمًا بخائنة الأعين وخافية الصّدْر، ومعلّم الإنسان ما لم يعلم به ولم يَدْر، المتعالي عن دَرْك خواطر النفس وهواجس الفِكْر، الموالي رزقه فلم ينس النمل في الرمل والفرخ في الوكْر، جلَّ أن تناله أيدي الحوادث على مرور الدهر، وتقدس أن يخفى عليه باطن السر وظاهر الجهر، مننه تيجان الرؤوس وقلائد النحر ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [1] أحصى عددَ الرمل في الفيافي والنمل في القفر، وشاء فأجرى كما شاء تقدير الإيمان والكفر، أغنى وأفقر فبإرادته وقوع الغناء والفقر، وأصمَّ وأسمع فبمشيئته أدرك السمع ومنع الوقْر [2]، أبصر فلم يَخْفَ عليه ديب الذرِّ في البر، وسمع فلم يعْزب عن سمعه دعاء المضطر في السرّ، وقدّر فلم يحتج إلى معين يمدُّه بالنصر، وأجرى الأقدار كما شاء في ساعات العصر، فهو الذي هدانا إليه بواضح الدليل وسليم السر، وخصنا من بين الأمم بشهر الصيام والصبر، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر، فله الحمد إذ رزقنا إتمامه وأرانا عيد الفطر.

أحمده حمدًا لا منتهى لعَدَده وأشهد بتوحيده شهادة مُخْلص في معتقَده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي نبع الماء من بين أصابع يده، صلى اللَّه عليه وسلم وعلى صاحبه أبي بكر الصديق رفيقه في شدائده، وعلى عمر كهف الإسلام وعَضده، وعلى عثمان جامع القرآن فسُقْيا لمتبدِّده، وعلى عليٍّ كافي الحروب وشجعانها بمفرده، والمضطجع ليلة خروجه على مَرْقده، وعلى عمه العباس مقدم بيت هاشم وسيِّده.

عباد اللَّه: إن يومكم هذا يوم العيد قد ميَّز فيه الشقي والسعيد، فكم فرح بهذا اليوم مسرور وهو مطرود مهجور.

وقد روينا في حديث ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كانت غداة الفطر بعث اللَّه تعالى ملائكته في كل بلد فيهبطون إلى الأرض فيقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميعُ من خلق اللَّه إلا الجن والإنس، فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم، فإذا برزوا في مصلاهم يقول اللَّه ﷿

---

(١) سورة يونس: ٢٢.

(٢) الوقر: الصَّمم.

يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فيقولون: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجره. فيقول اللَّه تعالى: يا ملائكتي أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم في صيامهم شهر رمضان وقيامهم رضاي ومغفرتي، ويقول اللَّه ﷻ: سَلُوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئًا في جَمْعكم هذا لآخرتكم إلا أعطيتكموه ولا لدنيا إلا نظرت لكم، انصرفوا مغفورًا لكم قد أرضيتموني ورضيت عنكم ». (وقد سبق هذا الحديث بإسناده فيما تقدم) (١).

* * *

وأول وظيفة تختص بالعيد الغُسل، ثم البكور والخروج على أحسن هيئة، إلا أن يكون معتكفًا فيخرج في ثياب اعتكافه ويُخرج معه زكاةَ فطره، فإن كان قد أخرجها قبل ذلك بيوم أو يومين جاز، وإن صلى العيد ولم يخرجها أخرجها بعد ذلك على وجه القضاء، فإذا مشى في الطريق غضَّ بصره.

قال بعض أصحاب سفيان الثوري: خرجت معه يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا غض البصر، ورجع حسان بن أبي سِنان من عيده فقالت امرأته: كم من امرأة حسناء قد رأيت؟ فقال: ما نظرتُ إلا في إبهامي منذ خرجت إلى أن رجعت.

ويستحب أن يأكل قبل الصلاة، بخلاف الأضحى، وفي حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يأكل سبع تمرات يوم الفطر قبل أن يخرج إلى المصلى (٢).

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده، عن سعيد بن المسيب قال: كان المسلمون يأكلون يوم الفطر قبل الصلاة ولا يفعلون ذلك يوم النحر، وإذا صلى العيد رجع في غير الطريق.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده، عن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ كان يأخذ يوم العيد في طريق ويرجع في غيره، وهذا يحتمل أشياء منها: أنا قد روينا أن الملائكة تقف على أفواه السكك يوم العيد فيقولون للناس: اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم، فيكون الاستحباب في تغيير الطريق أن يمر على ملأ منهم لم يمر عليهم ليحصل له البركة بدعائهم، ويحتمل أن يكون ليَلْقَى قومًا من المسلمين ما لقيهم فيدعو لهم ويدعون له. ويحتمل أن يكون للتفاؤل بتغير الحال، كأنه خرج وعليه ذنب ورجع مغفورًا له.

ولا يسن التطوع قبل صلاة العيد ولا بعدها في موضع صلاة العيد، وقد رويت صلاة لليلة وليوم العيد ليس فيها شيء يثبت ولا يصح، فلهذا تنكبنا ذكرها.

---

(١) انظر : ص ٥١١ من هذا الجزء.

(٢) رواه الطبراني في الكبير : ٢٤٧/٢. والحاكم : ٤٣٣/١. وقال: صحيح على شرط مسلم.

وينبغي لمن وسِّع عليه أن يوسع على الفقراء في هذا اليوم ويتطوع بإطعام من قدر.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا يوم الفطر أن نفطر الفقراء من إخواننا، وكان يقول: « من فطر واحدًا يعتق من النار، ومن فطر اثنين كتب له براءة من الشرك وبراءة من النفاق، ومن فطر ثلاثة وجبت له الجنة وزوَّجه اللَّه من الحور العين ». قال: وكان يأمرنا أن نطعم الخبز واللحم والخبز والزيت واللبن، وكان يقول: « آدموا طعامكم يؤْدم لكم عيشكم » يقول: يليّنه.

ويستحب إتباع رمضان بست من شوال.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده، عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال كان كمن صام الدهر ». (انفرد بإخراجه مسلم) [١].

وقد ذكر العلماء أن السر في هذا أن أيام السنة ثلاثمائة وستون يومًا، وهذه الستة مع رمضان ستة وثلاثون، والحسنة بعشر أمثالها فمن دام على هذا فكأنه كمن صام الدهر، وقد روي نحو هذا مرفوعًا.

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بسنده، عن ثوبان أن رسول اللَّه ﷺ قال: « صيام رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام شهرين فذلك صيام سنة » [٢].

أخبرنا حماد بن سلمة بسنده عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند باب معاوية ووضعت الموائد فجعل أبو ذر يأكل وجعلت أنظر إليه، فقال: ما شأنك يا أحمر؟ أتريد أن تشغلني عن طعامي؟ فقلت: ألم تزعم على الباب أنك صائم؟ فقال أبو ذر: بلى، ثم قال: قرأت: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ ﴾ [٣] سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « صوم شهر الصبر وثلاثة من كل شهر صوم الدهر » [٤] وقد صمت ثلاثة أيام من الشهر فأنا صائم الشهر كله.

وبالإسناد حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت بن أبي عثمان النهدي أن أبا هريرة ﷺ كان في سفر فلما نزل ووضعت السُّفرة بعثوا إليه وهو يصلي فقال: إني صائم، فلما كادوا أن يفرغوا جاء فجعل يأكل، فنظر القوم إلى رسولهم فقال: ما تنظرون؟ قد واللَّه أخبرني أنه صائم، فقال أبو هريرة: صدق، إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « صوم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم: ٢٠٤، ط عبد الباقي، وهو في مسند أحمد، برقم: ٢٣٠٢٢.

(٢) أخرجه الدارمي، كتاب الصوم، باب رقم: ٤٤. (٣) سورة الأنعام: ١٦٠.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ٢٦٣/٢.

شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر»، وقد صمت ثلاثة أيام من أول الشهر وأنا مُفطر في تخفيف اللَّه وصائم في تضعيف اللَّه ﷻ.

* * *

الكلام على البسملة

عيدي مقيمٌ وعيد الناس مُنصرفُ والقلبُ مني عن اللذات مُنْحرفُ
ولي قرينان مالي منهما خَلَفٌ طُولُ الحَنين وعينٌ دمعها يَكِفُ (١)

يا من يفرح في العيد بتحسين لباسه، ويوقن بالموت وما استعد لباسه، ويغتر بإخوانه وأقرانه وجُلَّاسه، وكأنه قد أمن سرعة اختلاسه، كيف تقرّ بالعيد عينُ مطرود عن الصلاح، كيف يضحك سنٌّ مردود عن الفلاح، كيف يُسَرُّ من يُصرّ على الأفعال القِباح، كيف لا يبكي من قد فاته جَزيلُ الأرباح، النَّوح أحق بك من السرور يا مغرور، والحزن أجدر بك من جميع الأمور، والجِدُّ أولى بك من التواني والفتور، كيف يُسَرُّ بعيده من تاب ثم عاد، كيف يفرح بالسلامة من آثامه في ازدياد.

أخبرنا محمد بن أبي منصور بسنده عن أبي ثابت الخطاب قال: سمعت إبراهيم ابن موسى يقول: رأيت فَتْحًا الموصلي يوم عيد وقد رأى على الناس الطيالس والعمائم، فقال لي: يا إبراهيم أمَا ترى ثوبًا يبلى وجسدًا يأكله الدود غدًا؟ هؤلاء قوم قد أنفقوا خزائنهم على بُطونهم وظهورهم ويقْدمون على ربهم مَفَاليس. أخبرنا عمر بن ظفر بسنده عن أبي بكر الشّقَّاق (٢) قال: سمعت أحمد بن عيسى يقول: نظر بعض العلماء يوم الفطر إلى الناس وشُغلهم بما هم فيه من الأكل والشراب واللباس فقال: لئن كانوا هؤلاء قد أنبأهم اللَّه ﷻ أنه قد تقبل منهم صيامهم وقيامهم لقد كان ينبغي لهم أن يكونوا أصبحوا مشاغيل بأداء الشكر، ولئن كانوا يخافون أنه لم يقبل منهم فقد كان ينبغي لهم أن يكونوا أشغل وأشغل.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده، عن عبد اللَّه الصوفي سمعت مظفر بن سهل قال: قال أبو بكر المروزي: دخلت على أبي بكر بن مسلم صاحب قنطرة بردان يوم عيد فوجدته وعليه قميص مرقوع مطبق، وقدامه قليل خَرْنوب يَقْرضه، فقلت: يا أبا بكر اليوم يوم عيد الفطر تأكل الخرنوب؟ فقال لي: لا تنظر إلى هذا ولكن انظر إن سألني من أين لك هذا؟ أي شيء أقول.

---

(١) يكف: يسيل.

(٢) الشقاق: الذي يشق الخشب، وهي نسبة إلى الصناعة. اللباب : ١٢٣/١.

أخبرنا أبو بكر الصوفي بسنده، عن أبي الربيع النهدي قال: أخبرني إدريس بن يحيى قال: دخلت على أبي عبَّاد الخوَّاص يوم عيد فاستأذنت عليه، فخرج إليَّ وهو يبكي وينُوح على نفسه قال: فدخلت معه فقال: إني ذكرت اليوم تنعُّم الناس وما هم فيه من اللذات فأحببت أن أتنعم بما ترى.

وكان صالح بن عبد الجليل إذا انصرف يوم العيد جمع عياله وجلس يبكي، فيقول له إخوانه: هذا يوم سرور، فيقول: صدقتم ولكني عبدٌ أمرني سيدي أن أعمل له عملًا فعملته، فلا أدري أقَبِله مني أم لا؟ فالأولى بي طول الحزن.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، عن هنَّاد بن إبراهيم قال: سمعت محمد بن القاسم يقول: كان الشِّبلي يوم العيد ينوح ويصيح ويصرخ وعليه ثياب سود وزرق، فاجتمع الناس إليه فسألوه عن نوْحه وبكائه فقال:

تزيَّن الناسُ يوم العيد للعيد ... وقد لبسْتُ ثياب الزُّرْق والسُّودِ
وأصبح الناس مسرورًا بعيدهمُ ... ورُحتُ فيك إلى نَوْح وتَعْديدِ
فالناس في فرح والقلبُ في تَرَح ... شتان بيني وبين الناس في العيد

وخرج الشِّبلي يوم العيد وهو يقول:

للناس فطْر وعيدُ ... إني فريدٌ وحيدُ
يا غايتي ومُنايَ ... أتِمَّ لي ما أريدُ

واجتمع الناس إليه فسألوه الدعاء فمدَّ القوم أيديهم فجعل يدعو فكان من دعائه: اضربهم بسياط الخوف، أَقْبِل بهم بأزمَّة الشوق، أعِنْهم بملاحظات الفُهوم، كن لهم كما كنت لمن لم تكن له بأن صرت كلًّا له [1].

وقيل له يوم عيد: يا أبا بكر اليوم يوم عيد، فقال:

الناسُ بالعيد قد سُرُّوا وقد فرحوا ... وما فرحتُ به والواحد الأحدِ
لما تيقنْت أني لاِ أعاينكم ... غمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحدِ

ورئي يوم عيد خارجًا وهو يقول:

إذا ما كنت لي عيدًا ... فما أصنع بالعيد
جَرى حبك في قلبي ... كجرْي الماء في العُودِ

* * *

(١) كذا بالأصل ولعل المعنى: أحطته برحمتك.

والله ما عيد يعقوب إلا لقاء يوسف، ولا أيام تشريق الصِّديق إلا الغار، يا من عزم على المعاصي في شوال أللشهر احترمتَ أم لرب الشهر، ويحك، ربُّ الشهرين واحد. تقول: أُصلح رمضان وأفسد غيره، وعزمك في رمضان على الزلل في شوال أفسدتَ رمضان، إذا طالبت نفسك في شوال بشرب الخمر فذكّرها سيلان العين على الخدّ في اللّحد، وعمل البِلى في المفاصل لعل الكفَّ يكُفّ.

هيهات ليس المحب مَنْ غيَّره البُعد والهَجر، ولا المخلص من حركه الثواب والأجر، لكنه من تساوى عنده الوصل والصد، وإلفه على كل حال الجِد والكد.

يا راكبًا تطوى المهامِهَ عِيسُه ... فتريه رَضْراضَ الحصى مُترضْرضا [١]

بلِّغ رعاك الله سكّان الغَضَا ... مني التحية إن عرَضتَ مُعرِّضا

وقل انقضى زمنُ الوصال وودُّنا ... باقٍ على مرِّ الليالي ما انقضَى

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ... ﴾ [٢]

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى قال: مَنْ عادَى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سَمْعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » [٣].

وفي حديث أنس ﷺ، عن النبي ﷺ، عن جبريل ﷺ، عن ربه ﷻ قال: « من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأسْرع شيء إلى نصرة أوليائي وإنِّي لأغضب لهم أشد من غضب الليث الحَرِب » [٤].

أخبرنا محمد بن أبي طاهر، عن حميد، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « إنَّ

---

(١) الرضراض: الحصى أو صغارها. والمترضرض: المتكسر.

(٢) سورة يونس: ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، برقم: ٦٥٠٢.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير: ٢٦٤/٨. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢٧٠/١٠.

من عباد اللَّه مَنْ لو أقسم على اللَّه لأبرَّه » (١).

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: قال موسى عليه السلام: يا رب من أهلُك الذين هم أهلك الذين تُظلُّهم في ظل عرشك؟ قال: هم البريئة أيديهم، الطاهرة قلوبهم، الذين يتحابُّون بجلالي، الذين إذا ذُكرت ذكروا بي، وإذا ذُكروا ذكرت بذكرهم، الذين يسبغون الوضوء في المكاره ويُنيبون إلى ذكري كما تنيب النُّسور إلى وكورها، ويَكْلفون بحبِّي كما يَكْلف الصبيُّ بحب الناس، ويغضبون لمحارمي إذا استُحِلّت كما يغضب النمر إذا حَرِب.

أخبرنا ابن ناصر بسنده، عن وهب بن منبِّه قال: قال الحواريون: يا عيسى مَنْ أولياء اللَّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشُوا أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالًا وذكرهم إياها فواتًا، وفرحهم بما أصابوه منها حزْنًا، فما عارضهم من نائلها رفضوه أو مِنْ رِفْعتها بغير الحق وضعوه، خَلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها، وخربتْ بينهم فليسوا يعمرونها، وماتت في صدورهم فليسوا يحْيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا برفضها فرحين، وباعوها فكانوا ببيعها رابحين، نظروا إلى أهلها صَرْعى قد حلّت بهم المَثُلات، فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون اللَّه ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره، لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِم الكتاب وبه علموا، ليسوا يرون نائلًا ولا أمانًا دون ما يَرْجون ولا خوفًا دون ما يَحذرون.

وقد روي ذكر عدد الأولياء في أحاديث لا تصح.

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده، عن عطاء، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: « الأبدال أربعون رجلًا وأربعون امرأة كلما مات رجل أَبْدل اللَّه مكانه رجلًا، وكلما ماتت امرأة أبدل اللَّه مكانها امرأة » (٢).

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن كعب رضي الله عنه قال: « لم يزل في الأرض بعد نُوح عليه السلام أربعة عشر يُدفع بهم العذاب ».

أخبرنا ابن ناصر بسنده، عن سفيان بن عُيينة قال: قال أبو الزِّناد: لمّا ذهبت النبوة

(١) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم : ٢٧٠٣. ومسلم في صحيحه، حديث رقم : ١٦٧٥.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم : ٨٩٨. وانظر مجمع الزوائد : ٦٢/١٠.

وكانوا أوتاد الأرض، أخلف اللَّه مكانهم أربعين رجلًا من أمة محمد ﷺ يقال لهم: الأبدال، لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ اللَّه مكانه آخر يَخلفه وهم أوتاد الأرض، لم يَفْضُلوا الناسَ بكثرة الصيام ولا بكثرة القيام ولا بُحسن التخشع ولا بحسن الحلية، بل بصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب والنصيحة لجميع المسلمين، وعلامة ذلك أنهم لا يعلنون شيئًا ولا يُؤْذنون أحدًا، ولا يتطاولون على أحد تحتهم، ولا يحسدون أحدًا فوقهم، ليسوا بمتخشعين ولا متماوتين ولا بمعجبين ولا يحبون الدنيا، ليسوا اليوم في خشية وغدًا في غفلة.

* * *

رمضان القوم دائم، وشوَّالهم كذلك صائم، وأعيادهم سرورُ القوم بالمحبوب، وأفراحهم بكمال التقى وترك الذنوب، إذا جنَّ عليهم الليلُ عادت القلوب بالمناجاة جُدُدًا، وإذا جاء النهار سلكوا من الجِدِّ جَددًا [١]، يجمعون هممهم فيما أهمَّهم إذا بات همُّ الغافل بَدَدًا، جَزموا على ما عزموا وما انهزموا أبدًا، أعيادُهم بُقْرب القلوب إلى المحبوب دائمة، وأقدامهم في الدُّجى على باب اللجأ [٢] قائمة، وأرواحهم بالاشتياق إلى الملك الخلاقِ هائمة، قرّبهم مولاهم وأدْنى فالنفوس عن الفاني الأدنى صائمة، تزينت لهم لذَّات الدنيا معًا فما وجدت في قلوبهم لها موضعًا، لما وجدوا كسرةً وخَلقًا [٣] أقنعًا.

* * *

قالوا غدًا العيدُ ماذا أنت لابسُه فقلت خِلْعَةُ [٤] ساق حُبَّه جُرَعا
فقرٌ وصَبْر هما ثوبان تحتهما قلبٌ يرى إلفه الأعيادَ والجُمَعا
أحْرى الملابس أن يُلقى الحبيب بها يومَ التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غِبتَ يا أملي والعيد ما كنت لي مَدًّا ومُستمعا

إخواني: ليس العيد ثوبًا يجرُّ الخيلاء جرَّه، ولا تناول مطعم بكفِّ شَرَه لا يُؤمن شرُّه، إنما العيد لبس توبة عاصٍ تائب يُسرّ بقدوم قلب غائب.

ليس عيد المحب قَصْد المصلَّى وانتظار الخطيب والسلطان
إنما العيد أن تكون لدى الـ ـحِب كريمًا مقرَّبًا في أمانِ

يا من وفَّى رمضانَ على أحسن حال، لا تتغير بعده في شوال، يا من رأى العيد

(١) الجدد: الأرض الغليظة المستوية. وأجدّ: سلكها. (٢) اللجأ: المعقل والملاذ، كالملجأ.
(٣) الخلق: الثوب البالي. (٤) الخلقة: الفطرة.

ووصل إليه، متى تشكر المنعم وتثني عليه، كم من صحيح هيَّأ طيب عيده، صار ذاك الطِّيب في تلحيده، سلبتهم والله أيدي المنون، فأنزلتهم قَفْرًا ليس بمسكون، فهم في القبور بعدَ البيان خَرِسون، ومن نيل آمالهم أو بعضها آيسون، وهكذا أنتم عن قريب تكونون، وقد دلَّكم على صدق قولي ما تعلمون، أما ترون الأتراب كيف يتقلبون؟! أترى ضلّت الأفهام أمْ عميت العيون؟! ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾[1].

إلى متى ترضون من العمل بالفاسد ومن السِّلع بالكاسد، وتنسون الحتْف الرابض المستأسد، لقد أشْمتُّم بكم كلَّ حاسد، يا مظهرون ضد ما به الكتاب وارد، إلى متى تُبَهْرجون والبصيرُ ناقد؟! كيف يكون حالكم وهو عليكم شاهد؟!

عجبتُ من مستيقظٍ والقلبُ منه راقدُ
مضيِّع لدينه وللذنوب زائدُ
كأنه على مَدا هُ مهمَلٌ وخالدُ
فأحسنوا أعمالكم فهي لكم قلائد
ولا تُضيعوا واجبًا واجتهدوا وجاهدوا

* * *

لله در أقوام تلمَّحوا العواقب فعملوا عمل مراقِب، وجاوزوا الفرائض إلى طلب المناقب، علتْ هممهم عن الدنايا وارتفعت، وكفَّت الأكفُّ عن الأذايا وامتنعت، ووسعت خطاها إلى الفضائل وسعت، من يحب العزَّ يدأب إليه، وكذا من طلب الدرَّ غاصَ عليه، كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون، وإذا أعطاهم مُناهم يشكرون، وإذا استراح البطَّالون يدأبون، فلو رأيتهم يوم يقول: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2]، ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

زال الخوف عنهم واندفع، فأفادهم حزنُهم في الدنيا ونفع، وتمَّ السرور لهم واجتمع، وزال الحجاب بينهم وبينه وارتفع، فهم إلى وجه الكريم ينظرون ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[3]: قَطعوا بوحدانيته، واجتمعوا على طاعته، وامتنعوا من مخالفته وارتَبضوا في رياض معرفته، واضطبعوا بأردية خدمته، واطلعوا بالعلوم على هيبته، فيا بُشراهم يوم يحضرون ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

---

(١) سورة الطور: ١٥.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٣.
(٣) سورة يونس: ٦٣

امتثلوا ما أمرهم به مولاهم، واجتنبوا ما عنه نهاهم، فإذا أخرجهم من الدنيا وتوفاهم، استقبلوا الرَّوْحَ والريحان وتلقَّاهم، فإذا حضروا لديه أكرم مثواهم، وكشف الحجاب فأشهدهم وأراهم، وهذا غاية ما كانوا يأملون ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ... ﴾ (١)

روى جابر بن عبد اللَّه ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « هي الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له » (٢).

كانت قلوبهم في خدمته حاضرة، ونفوسهم على طاعته مثابرة، وألسنتهم على الدوام ذاكرة، وهِمَمهم إلى ما يرضيه مُبادرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾.

منازلهم عنده عظيمة، وأنفسهم عليه كريمة، كانت قلوبهم من الشك سليمة، ساروا إلى الجهاد على خيل العزيمة، فإذا وقَعاتهم للعدو كاسرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾.

زَمُّوا مطايا الصدق وساروا، وجالُوا حول دار الكريم وداروا، ونهضوا إلى مراضيه وثاروا، وطلبوا عدوَّهم فأوقعوا به وأغاروا، فيا حسنهم إذا توجهوا إلى الصلاة واستداروا، والدموع في مَحاريبهم ماطرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾.

أقبل القومُ فقُبلوا، وعرفوا لماذا خُلقوا فعملوا، إذا رجع الناس إلى لذاتهم عادوا إلى عباداتهم، وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى حُرقات أشجانهم، وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم، وإذا التذ الغافلون بالمنام على جنوبهم تلذذوا في القيام بكلام محبوبهم، فلو ذقت من كؤوس المناجاة الدائرة في خيمة الدُّجى الدائرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾.

نصبوا الآخرة بين أيديهم وجدُّوا، ومثلوا المنادي يناديهم فاستعدوا، وتضرعوا في طلب الإعانة فأُمدُّوا، وأقبلوا إلى الباب صادقين فما رُدُّوا، ففازوا بالأرباح الجمة الوافرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾.

---

(١) سورة يونس: ٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه عن عبادة بن الصامت، برقم : ٢٢٧٣. وأحمد في مسنده، برقم : ٧٠٠٤. وابن ماجه في سننه، برقم : ٣٨٩٨. وهو صحيح.

أقلقهم ذكر الذنوب فما ناموا، وشوَّقهم رجاء المطلوب فقاموا، وذكَروا العرض يوم تبديل الأرض فاستقاموا، وتفكَّروا في تصرُّم العمر فاجتهدوا وداموا، وتذكروا سالف الذنب فوبَّخوا النفوس ولاموا، وباتت أعينهم ساهرة لذكر أرض الساهرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾.

أَذْبلوا الشفاه يطلبون الشفاء بالصيام، وأنْصبوا لما انتصبوا الأجسادَ يخافون المعاد بالقيام، وحفظوا الألسنة عما لا يعني من فضول الكلام، وأناخوا على باب الرجاء في الدُّجى إذا سجى الظلام، فأنشبوا مخاليب طمعهم في العفو فإذا الأظافير ظافرة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾.

يا هذا سبَقك القوم وتخلَّفت، ومضى أكثر العمر وتسوَّفت، ثم تعصي المنعم بالنِّعم فما أنصفت، وتؤثر الضلال على الهدى وقد عرفت، أما تخاف أن تقول إذا حضرْت ووقفت: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ (١).

يا من بين يديه الحساب والصراط، وهو عظيم الجرأة كثير الانبساط، متكاسل في الطاعات وفي المعاصي ذو نشاط، يُدعى إلى العلوِّ ويأبى إلا الانهباط، أمؤمنة هذه النفس بالوعيد أم كافرة؟!

يا مبارزًا مولاه لم يخَفْ من بطشه، يا مقبلًا على الهوى لا تغترر بنفسه، تفكَّر في من سكَن الثرى بعد لين فرشه، وانتبهْ بالتعريض قبل ظهور التصريح بفحشه، أما أبقاك وأراك سواك محمولًا على نعشه إلى أن ألقي في الحافرة؟!

يا خاسرًا فاته جزيل الأرباح، يا من أبعدته عنا خطاياه القِبَاح، يا من لو انتبه لنفسه لبكى عليها وناح، أتأمن عليها أن تؤخذ على بعض الاجتراح، فيُفْعل بها فاقرة؟!

أيقظنا اللّه وإياكم من هذه الرقدة وحفظ إيماننا ولا أذاقنا فَقْده.

* * *
* *
*

---

(١) سورة النازعات: ١٢.

المجلس العاشر

في عشر ذي الحجة

الحمد للَّه العالم بعدد الرمل والنمل والقطر، ومصرِّف الوقت والزمن والدهر، الخبير بخافي السر وسامع الجهر، القدير على ما يشاء بالعز والقهر، أقرب إلى العبد من العُنق إلى النحر ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (١).

القديم فلا إله سواه، الكريم في منحه وعطاياه، القاهر لمن خالفه وعصاه، خلق آدم بيده وسوَّاه، واستخرج ذريته كالذَّر، أنعم فلا فضل لغيره، وقضى بنفع العبد وضيْره، وأمضى القدَر بشره وخيره، فحثّ على الشكر والصبر، أحاط علمًا بالأشياء وحواها، كيف لا وهو الذي بناها، وقهر المضادَّات فسوَّاها بلا معين يمده بالنصر، لا كيف له ولا شبيه، ولا يجوز عليه التشبيه، عالم السر وما يعرض فيه، متنزه عن تصور الفكر، أقسَم في القرآن بصنعته، والقسمُ على الحقيقة بقدرته، فتأمل ما تحت القسم من فائدته ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ (٢).

أحمده حمدًا ليس له نهاية، وأقر له بالتوحيد فكم دلَّت عليه آية، وأصلي على رسوله محمد الذي ما رُدت له راية، صلاة تصل إليه في القبر، وعلى ضجيعه أبي بكر الصديق، وعمر الشديد في الحق الوثيق، وعثمان المحب الشفيق، وعليٍّ الرفيع القدْر، وعلى عمه أبي الفضل العباس، الشريف الأصل كريم الأغراس، الذي نسبه في الأنساب لا يقاس.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ... ﴾ (٣)

الفجر: ضوء النهار إذا انشقَّ عنه الليل.

وفي المراد بهذا الفجر ستة أقوال:

أحدها: أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار، قاله علي بن أبي طالب وعكرمة وزيد بن أسلم والقرطبي.

والثاني: صلاة الفجر.

---

(١) سورة يونس: ٢٢. (٢) سورة الفجر: ١ - ٣. (٣) سورة الفجر: ١، ٢.

والثالث: النهار كله، فعبَّر بالفجر عنه لأنه أوله.

والأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

والرابع: أنه فجر يوم النحر خاصة، قاله مجاهد.

والخامس: فجر أول يوم من ذي الحجة، قاله الضحاك.

والسادس: أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة، قاله قتادة.

قوله ﷻ: ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ **فيها أربعة أقوال:**

أحدها: أنه عشر ذي الحِجّة. رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال مجاهد ومسروق وقتادة والضحاك والسُّدي ومقاتل.

والثاني: أنها العشر الأواخر من رمضان. قاله أبو ظبيان عن ابن عباس.

والثالث: العشر الأول من رمضان. قاله الضحاك.

والرابع: العشر الأول من المحرم. قاله يمان بن رئاب.

قوله تعالى: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ ﴾:

قرأ حمزة والكسائي: ﴿ **والوِتْر** ﴾ بكسر الواو وفتَحها الأكثرون، وهما لغتان، والكسر لقريش وتميم وأسد، والفتح لأهل الحجاز.

- **وللمفسرين في الشفع والوتر عشرون قولًا:**

أحدها: أن الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر، رواه أبو أيوب الأنصاري ﷺ عن النبي ﷺ.

والثاني: أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، رواه جابر عن النبي ﷺ.

والثالث: أن الشفع والوتر الصلاة، منها شفع ومنها وتر، رواه عمران بن حصين عن النبي ﷺ.

والرابع: أن الشفع الخَلق كله، والوتر اللَّه ﷻ. رواه عطية عن ابن عباس.

والخامس: أن الوتر آدم شُفع بزوجته عليهما السلام، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النَّفْر الأول، والوتر اليوم الثالث وهو النفر الأخير، قاله عبد اللَّه بن الزبير.

والسابع: أن الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب، حكاه عطية العَوْفي.

والثامن: أن الشفع الركعتان من صلاة المغرب والوتر الركعة الثالثة، قاله أبو العالية والربيع بن أنس.

والتاسع: أن الشفع والوتر الخلق كله منه شفع ومنه وتر، قاله ابن زيد.

والعاشر: أن العدد منه شفع ومنه وتر، قاله الحسن.

والحادي عشر: أن الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام مِنًى الثلاثة. قاله الضحاك.

والثاني عشر: أن الشفع هو اللَّه؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ (١)، والوتر هو اللَّه لقول اللَّه تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٢). قاله سفيان ابن عيينة.

والثالث عشر: أن الشفع آدم وحواء، والوتر هو اللَّه تعالى. قاله مقاتل بن سليمان.

والرابع عشر: أن الشفع هو الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة معه، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان.

والخامس عشر: أن الشفع درجات الجنات لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، فكأن اللَّه ﷻ أقسم بالجنة والنار، قاله الحسين بن أبي الفضل.

والسادس عشر: أن الشفع تضادُّ أوصاف المخلوقين: عزٌّ وذل، وقدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وحياة وموت، والوتر انفراد صفة اللَّه سبحانه: عزّ بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الوراق.

والسابع عشر: أن الشفع الصفا والمروة، والوتر البيت.

والثامن عشر: أن الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر بيت المقدس.

والتاسع عشر: أن الشفع القِران في الحج والتمتع، والوتر الإفراد.

والعشرون: الشفع العبادات المتكررة كالصلاة والصيام والزكاة، والوتر العبادة التي لا تتكرر وهي الحج، حكى هذه الأربعة أبو إسحاق الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ ﴾:

قرأ ابن كثير ويعقوب: ﴿ يَسْرِي ﴾ بياء في الوصل والوقف، ووافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿ يَسْرِ ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف.

قال اللغويون منهم الفرّاء والزجاج: والاختيار حذف حرف الياء؛ **لثلاثة أوجه**:

أحدها: لمشاركتها من الآيات.

والثاني: لاتباع المصحف.

والثالث: أن العرب قد تحذف الياء وتكتفي منها بكسر ما قبلها، وأنشدوا:

---

(١) سورة المجادلة: ٧. (٢) سورة الإخلاص: ١.

كفَّاك كفٌّ ما يُليق [١] درهمًا جُودًا وأخرى تُعْط بالسيف الدِّما

وفي قوله تعالى: ﴿ يَسْرِ ﴾ **قولان:** أن الفعل لليل، **ثم في ذلك قولان: أحدهما:** إذا يسري ذاهبًا، رواه عطية عن ابن عباس، وهو قول الجمهور. **والثاني:** إذا يسري مقبلًا، قاله قتادة.

- **والقول الثاني:** الفعل لغيره، والمعنى: إذا يُسرى فيه، كما يقال: ليلٌ نائم أي يُنام فيه، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ... ۝ ﴾:

أي فيما ذكر ﴿ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝ ﴾ أي عقْل، وسمي الحِجْر حِجْرًا، لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلًا لأنه يعقل عما لا يَحْسن، وسمي النُّهى، لأنه ينهى عما لا يَجْمل، ومعنى الكلام: أن من كان ذا لُبّ علم أن ما أقسم اللَّه به من هذه الأشياء فيه دلائل على توحيده وقدرته فهو حقيق أنْ يُقسم به.

وجواب القسم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝ ﴾ فاعترض بين القسم وجوابه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ ﴾.

- **والمشهور أن المراد بالعشر: عشر ذي الحجة.**

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما من أيام العملُ الصالح فيها أحب إلى اللَّه عز وجل من هذه الأيام » يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول اللَّه ولا الجهاد في سبيل اللَّه عز وجل؟ قال: « ولا الجهاد في سبيل اللَّه عز وجل إلا رجلًا خرج بنفسه وماله ثم لم يرْجع من ذلك بشيء ». (انفرد بإخراجه البخاري) [٢].

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده، عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « ما من أيام أعظم عند اللَّه ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثِروا فيهن التهليل والتكبير والتحميد » [٣].

أخبرنا عبد اللَّه بن علي المقري بسنده، عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن أفضل أيام الدنيا العشر » قالوا: يا رسول اللَّه ولا مثلهن في سبيل اللَّه؟ قال: « ولا مثلهن في سبيل اللَّه إلا من عفَّر وجهه في التراب » [٤].

---

(١) ما يليق: ما يمسك، وهي كناية عن الكرم.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب رقم: ١١. وأخرجه أحمد في مسنده: ١/٢٢٤ - ٢٢٨، ٢/٧٥ - ١٣٢، وابن ماجه في كتاب الصيام، باب صيام العشر، حديث رقم: ١٧٢٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/٧٥.

(٤) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب: ٢/١٢٥، وقال: رواه البزار بإسناد حسن، وأبو يعلى بإسناد صحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه.

وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أن كل يوم من أيام العشر يعْدل صيامَ سنة، وليلة جَمْع تعدل ليلة القدر [١].

قال أبو عثمان النهدي: كانوا يعظِّمون ثلاث عَشَرات: العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من المحرم.

* * *

اعلموا رحمكم اللَّه أن عشْركم هذا ليس كعشر، **وهو يحتوي على فضائل عشر:**

الأولى: أن اللَّه عز وجل أقسم به فقال: ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ ﴾.

والثانية: أنه سماه الأيام المعلومات، فقال تعالى: ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [٢]. قال ابن عباس: هي أيام العشر.

والثالثة: أن رسول اللَّه ﷺ شهد له بأنه أفضل أيام الدنيا.

والرابعة: حثَّ على أفعال الخير فيه.

والخامسة: أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل فيه.

والسادسة: أن فيه يومَ التروية، وفي حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: « مَنْ صام العشر فله بكل يوم صوم شهر، وله بصوم يوم التروية سنة » [٣].

قال الزاهدي: وإنما سمي بيوم التروية؛ لأن عرفات لم يكن بها ماء فكانوا يتروَّون من الماء إليها.

والسابعة: أن فيه يوم عرفة وصومه بسنتين.

والثامنة: أن فيه ليلة جمع وهي ليلة المزدلفة، وقد سبق بيان فضلها.

والتاسعة: أن فيه الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام.

والعاشرة: وقوع الأضحية التي هي عَلم للملّة الإبراهيمية والشريعة المحمدية، ومن أراد أن يضحي كُره له إذا دخل عليه عشر ذي الحجة أن يأخذ بَشرته وأن يقلم أظفاره أو يحلق شعره، وليتشبه بالمُحْرِمين، ومن أصحابنا من قال: يحرم ذلك كله.

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بسنده عن سعيد بن المسيب قال: سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول: قال رسول اللَّه ﷺ : « من كان له ذِبح يذبحه فإذا أهلَّ هلال

---

(١) ليلة جمع: ليلة مزدلفة.
(٢) سورة الحج: ٢٨.
(٣) انظر الأحاديث في ذلك في مجمع الزوائد : ١٨٩/٣.

ذي الحجة فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئًا حتى يضحِّي »(١).

* * *

ما لنفسي عن معادي غفلَتْ ... أتُراها نسيتْ ما فعلتْ
أيها المغرور في لهو الهوى ... كلُّ نفس ستَرى ما عملتْ
أفٍّ للدنيا فكم تخدعنا ... كم عزيز في هواها خذلتْ
رُبَّ ريح بأناس عصفَتْ ... ثم ما أنْ لبثت أن سكنَتْ
وكذاك الدهر في تصريفه ... قدمٌ زلّت وأخرى ثبتت
ويدُ الأيام من عاداتها ... أنها مُفسدةٌ ما أصلحتْ
أين من أصبح في غفلته ... في سرور ومُراداتٍ خَلَت
أصبحت آماله قد خَسرت ... وديارُ لهوه قد خربتْ
فغدتْ أمواله قد فرِّقت ... وكأنَّ داره ما سُكنت
جُزْ على الدار بقلب حاضر ... ثم قل: يا دار ماذا فعلتْ
أوجهٌ كانت بُدورًا طُلَّعًا ... وشموسًا طالما قد أشرقتْ
قالت الدار: تفانَوا فمضوا ... وكذا كلُّ مقيم إن ثبتْ
عاينوا أفعالهم في تُربهم ... فاسأل الأجداث عما استُودعَتْ
كلُّ نفس سوف تلقى فِعْلها ... ويح نفسٍ بهواها شُغلتْ
إنما الدنيا كظل زائل ... أو كأحلام منامٍ ذهبتْ

* * *

أين من ملك وقهر، واستعمل في حفر النهر ونَهر، ضَمَّ الموتُ ذلك البشر، وأخمد التلفُ ذلك الشرر، ونقضت الآفاتُ قويّات المِرَر، وعلموا أنه لا يُصْلح الأشَرُ البشر، واستبانوا أن بيعهم بيع الغرر.

كم راعت المنون سِرْبًا سربًا، كم أثارت قَسْطلًا(٢) وحرْبًا، تاللّه لقد جالت بُعدًا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، حديث رقم: ٤٢. والترمذي في كتاب الأضاحي، باب رقم: ٢٢. وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب رقم: ١١.

(٢) القسطل: الغبار.

وقُربًا، فاستلبت البعدي وذوي القربى، كم عمرت بخراب دُورهم تُربًا، فَسَلْ بها حال سَلْبها كيف استلبَتْهم سَلْبًا؟!

أين ملوكها وأمراؤها، ومُدَّاحها وشعراؤها وسُحراؤها وخُدامها، وأحرارها وعبيدها وأسراها وغناؤها بالأموال وثراؤها؟! باكرتهم واللَّه بُكراؤها [١] فأعجز إبطاءهم إبرادُها [٢]، فضمَّتْهم عن قليل صحراؤها.

أمَّا الجديدان من ثوبي ومن جسدي فيبْليان ولا يبلى الجديدان
بُرْد الشباب وبرد الناسج ابتُذلا وهل يدوم على البُردَيْن بُردان
الدهرُ لونان أعيا ثالثٌ لهما وكم أتاك بأشباه وألوانِ
لو كان يعرف دنياه مُصاحبها أرادها لعدوٍّ دون إخوان
وما أبالي وأرداني مبرأة من العيوب إذا ما الحتف أرداني [٣]

يا من قد سارت بالمعاصي أخباره، يا من قد قَبُح إعلانه وإسراره، يا فقيرًا من الهدى أهلكه إعساره، أتؤثر الخسران قل لي أو تختاره؟! يا كثير الذنوب وقد دنا إحضاره، يا مأسورًا في حبس الزلل لا ينفعه إحصاره، نقْدك بَهْرجٌ إذا حُكَّ معياره، كم رُدّ على مثلك درهمه وديناره، يا محترقًا بنار الهوى متى تخبو ناره، ما يلين قلبك لغامز، وما يُرى لما تشتهي متجاوز، ما هذا الفعل فعل فائز، إن مطيع الزمان حالُ عاجز، وإن بين يديك لَمفاوز، فيها أهوال وهزاهز [٤] نقوِّمك ولا تستوي، من يغيِّر الغرائز؟

أيتها النفس اسمعي لِقيلي أنت من الحياة في أصيلِ
وفي غرور أملٍ طويل فلا يغرَّنْك ضحى التأميلِ
فقد دنَتْ شمسك للأفولِ

* * *

عباد اللَّه: هذه الأيام مطايا فأين العُدَّة قبل المنايا؟! أين الأنَفة من دار الأذايا؟! أين العزائم أرضيتم بالدنايا؟! إنّ بلية الهوى لا تشبه البلايا، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا، يا مستورين ستظهر الخبايا، سَريّة الموت لا تشبه السرايا، قضية الزمان ليست كالقضايا، راعي السلامة يقتل الرَّعايا، رامي المنون يُصْمي [٥] الرمايا، ملك الموت لا يقبل الهدايا،

---

(١) كذا، ولعلها جمع بكير. كأمير وأمراء.
(٢) كذا، والإبراد: الدخول في آخر النهار.
(٣) أرداني: أهلكني.
(٤) الهزاهز: الدواهي والشدائد.
(٥) يصمي: يقتل، يقال: رماه فأصماه، إذا أصاب مقتله.

أيها الشاب ستُسأل عن شبابك، أيها الكهل تأهَّبْ لعتابك، أيها الشيخ تدبَّر أمرك قبل سد بابك، كنت في بداية الشباب أصْلح، فيا عجبًا كيف أفسد من أصلح؟! يا مريض القلب قِف بباب الطبيب، يا مَبْخوس الحظ اشْكُ فوات النصيب، لُذْ بالجناب ذليلًا، وقفْ على الباب طويلًا، واتخذ في هذا العشر سبيلًا، واجعل جَناب التوبة مَقيلًا، واجتهد في الخير تجدْ ثوابًا جزيلًا، قُلْ في الأسحار: أنا تائب، نادِ في الدجى: قد قَدِم الغائب.

أنا المسيء المذنب الخاطِي — المفرط البيِّن إفراطي
فإن تعاقِبْ أنا أهل له — وأنت أهل العفو عن خاطِي

ألجأني إلى الذل أنا الجاني، وألقاني الزَّلل على باب الأسف بدمعي القاني، ولقد أُقرح شأني [1] من خوف شانئ شاني.

اعفُ عني وأقِلْني عثرتي — يا عمادي لملمَّات الزمنْ
لا تعاقبني فقد عاقبني — ندمٌ أتلفَ رُوحي والبدن
لا تُطيِّر وسَنًا عن مُقلة — أنت أهديتَ لها طِيب الوسَنْ
إن تؤاخذني فمن ذا أرتجي — وإذا لم تعف عن ذنبي فمنْ؟!

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ... ﴾ [2]

خوَّف المخالفين ما فعل بنظرائهم.

وفي (إرم) أربعة أقوال:

أحدها: أنه اسم أمة من الأمم، ومعناه: القديمة، قاله مجاهد.

والثاني: أنه اسم قبيلة من قوم عاد، قاله قتادة.

والثالث: أنه اسم لجد عاد؛ لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، قاله إسحاق. وقد قرأ ابن مسعود وابن عمر: ﴿ بعادِ إرم ﴾ على الإضافة.

والرابع: أنه اسم بلدة، **ثم فيها ثلاثة أقوال:**

- **أحدها:** أنها دمشق، قاله سعيد بن المسيب وعكرمة.

---

(١) الشأن: مجرى الدمع إلى العين.
(٢) سورة الفجر: ٦.

- **والثاني**: الإسكندرية، قاله محمد بن كعب.
- **والثالث**: أنها مدينة صنعها شدَّاد بن عاد، قاله كعب.

فيخرج على قوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا أهل عُمُد وخيام.

والثاني: أن المراد بالعماد: الطول، قاله الزجاج، يقال: عمد إذا كان طويلًا.

والثالث: ذات الشدة.

والرابع: ذات البناء المحكم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ فيه قولان:

أحدهما: القبيلة في طولها وقوتها.

والثاني: المدينة.

أخبرنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بسنده، عن وهب بن منبه، عن عبد الله ابن قلابة، أنه خرج في طلب إبل له شردتْ، فبينا هو في صحاري عَدن أبْيَنَ [1] في تلك الفلوات إذ هو قد وقع على حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة، فلما دنا منها ظن أن فيها أحدًا يسأله عن إبله فإذا لا خارج ولا داخل، فنزل عن ناقته فعَقلها ثم استلّ سيفه ودخل من باب الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين لم يُر في الدنيا شيء أعظم منهما ولا أطول، وفي البابين نجوم من ياقوت أبيض وياقوت أحمر تضيء البابين ما بين الحصن والمدينة، فلما رأى الرجل أعجبه وتعاظَمه الأمرُ فدخل فإذا هو بمدينة لم ير الراءون مثلها قط، فإذا هو في قصور كل قصر معلق تحته أعمدة من زبرجد وياقوت، ومن فوق كل قصر منه غُرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكل مصاريع تلك القصور وتلك الغرف مثل مصارع باب المدينة بالياقوت الأبيض والأحمر، مفروشة تلك القصور وتلك الغرف باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران، فلما عاين الرجل ذلك ولم ير أحدًا هاله ذلك وأفزعه، ثم نظر في الأزقّة فإذا هو بشجر في كل زقاق منها قد أثمر، وتحت الأشجار أنهار مطَّردة يجري ماؤها في قنوات من فضة، فقال الرجل: إن هذه للجنة التي وصف الله ﷻ، ثم حمل معه من لؤلؤها وزبرجدها ثم عاد إلى بلده فأظهر ما كان معه وأعلم الناسَ أمره.

فبلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان فكتب إلى صنعاء فجيء به فسأله عما رأى فأخبره

---

(١) عدن أبين: مخلاف باليمن، يقال: إنه سمي بأبين بن زهير من سبأ، وانظر معجم البلدان : ١١٠، ط أوربا.

فأنكر ذلك، فأراه ما قد أخذ منها لؤلؤًا قد اصفرَّ وبنادق مِسك لم يجد لها ريحًا ففتَّقها فإذا ريح المسك، فبعث إلى كعب وقال: إني دعوتك إلى شيء رجوت أن يكون علمه عندك، هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة، عُمدها زبرجد وياقوت وحصباؤها لؤلؤ؟ فقال: نعم هي إرم ذات العماد التي بناها شدَّاد بن عاد، قال: حدِّثنا حديثها، فقال: إن عادًا الأول كان له ابنان شديد وشداد فهلك عاد وملك ابناه البلاد ولم يبق أحد إلا في طاعتهما، ثم مات شديد فملك شداد وحده فكانت له الدنيا جميعًا، وكان مُولعًا بقراءة الكتب وكلما مرَّ بذكر الجنة دعته نفسه إلى أن يبني مثلها عتوًّا على اللَّه ﷻ، فأمّر على صنعتها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان، ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة في الأرض وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد وفوق القصور غرف من فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت تلك القصور في أزقتها أصناف الثمار وأجْرُوا تحتها الأنهار، فإني أسمع في الكتب صفة الجنة وأنا أحب أن أجعل مثلها في الدنيا، فقالوا: كيف نقدر على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: ألستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي؟ قالوا: بلى، قال: فانطلقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة وخذوا ما في أيدي الناس من ذلك، وكتب إلى كل ملك في الدنيا يأمره أن يجمع ما في بلاده من جوهرها ويحفر معادنها، فجمعوا ذلك في عشر سنين، وكان عدد الملوك مائتين وستين ملكًا، وخرج الفَعلة فتبدَّدوا في الصحاري، فوقعوا على صحراء عظيمة نقية من الجبال والتلال فإذا هم بعيون مطردة قالوا: صفة التي أُمرنا بها.

فأخذوا قدر الذي أمرهم من الطول والعرض، وأجروا قنوات الأنهار ووضعوا الأساس وأرسلت إليهم الملوك بالزبرجد والياقوت والذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر، وأقاموا في ذلك ثلاثمائة سنة، وكان عمرُ شداد تسعمائة سنة، فلما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا فاجعلوا عليها حصنًا واجعلوا حول الحصن ألف قصر، عند كل قصر ألف علم يكون في كل قصر وزير من وزرائي، ففعلوا ثم أخبروه فأمر ألف وزير من خاصته ومن يثق به أن يتهيئوا للنقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز، فأقاموا في جهازهم عشر سنين، ثم سار بمن أراد فلما بلغ إلى مسيرة يوم وليلة بعث اللَّه عليه وعلى أصحابه وعلى من كان معه صيحةً من السماء فأهلكتهم جميعًا، ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه ولم يُقدر على أحد منهم حتى الساعة (١).

---

(١) مثل هذه الأخبار عن كعب ووهب لا قيمة لها من الناحية التاريخية أو الدينية فهي صنع خيال تستهويه العجائب، وليست نقلًا عن ثقة ولا وصفًا لمشاهد.

وروى الشَّعبي عن دَغْفل الشيباني عن علماء حِمْيَر قالوا: لما هلك شداد بن عاد ومن معه من الصيحة ملك بعده ابنه ابن شداد وقد كان أبوه خلَّفه بحضرموت على ملكه وسلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المغارة إلى حضرموت، وأمر فحفرت له حفيرة في مغارة فاستودعه فيها على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حلة منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحًا عظيمًا من ذهب وكتب عليه.

اعتبر بي أيها المغْـ	ـرور بالعمر المديدِ
أنا شدَّاد عاد	صاحب الحصْن العميد
وأخو القوة والبأ	ساء والملك المشِيد
دان أهلُ الأرض لي	من خوف وعيدي
وملكتُ الشرق والغر	ب بسلطان شديدِ
وبفضل الملك والعُدّ	ةِ فيه والعديد
فأتى هودٌ وكنا	في ضلال قبل هودِ
فدعانا لو قَبلنا	ه في الأمر الشديد
فعصيناه ونادي	ـتُ ألَا هَلْ من مجيد
فأتتنا صيحة تهـ	ـوي من الأفق البعيد
فتوافَيْنا كزرع	وسَفا بَيْدا حصيدِ [١]

* * *

قول اللَّه تعالى:

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ... ﴾ [٢]

قطعوه ونقبوه.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ **فيه ستة أقوال:**

أحدها: أنه كانَ يعذِّب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها، ثم يرفع صخرة فتلقَى على الإنسان فتشْدخه. قاله ابن عباس.

والثاني: أن المعنى: ذو البناء المحكم، قاله الضحاك.

---

(١) السفا: كل شجر له شوك. والبيداء: الصحراء.

(٢) سورة الفجر: ٩.

والثالث: أن المراد بالأوتاد الجنود، كانوا يشدُّون مُلكه، وهذه الأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

والرابع: أنه كان يبني منارًا يذبح عليها الناس.

والخامس: أنه كان له أربع أسطوانات يأخذ الرجل فيمد كل قائمة منه إلى أسطوانة فيعذبه، روي القولان عن سعيد بن جُبير.

والسادس: أنه كانت له أوتاد وأرْسان وملاعب يلعب له عليها، قاله عطاء وقتادة.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ ﴾:

يعني عادًا وثمود وفرعون عملوا بالمعاصي وتجبروا على أنبياء اللَّه تعالى ﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ ﴾ بالقتل والمعاصي.

﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾ قال ابن قتيبة: إنما قال: سوط عذاب لأن التعذيب قد يكون بالسوط، وقال الزجّاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

* * *

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤ ﴾

أي يرصد من كفر به بالعذاب، قال الأزهري: المرصاد المكان الذي يجد فيه الراصد العدو.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾:

أين من أصبح بلذَّاته مغتبطًا؟! أمسى في صِماته معْتَبطًا، أين من كان أمره فُرطًا؟! ندِم إذ ارتكب غلطًا، أين من سلك سبيلًا شططًا؟! نزل لحدًا ما فيه وِطا، وجاءه الملكان فأفزعا وأفرطا، وافتضح بقبيحه وانكشف الغطا.

مــا بيــن يــوم المُـهـينـاتِ وبيـن يــوم الـمـغْـريـاتِ
إذا تــأمــلــتَ بــعــيــدًا إلا كــمــا بيــن هــا وهــاتِ

قل للمشغولين بالفساد الواقفين مع العناد: إلى متى ظُلم العباد؟! كم مُستلَب ما نال المراد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾.

أمَا عاد العذابُ على عاد؟! أما أمْرض وما عاد؟! أين من ادعى الربوبية أو كاد؟! كاده الجبار فيمن كاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾.

بينا هم في ظلم المظالم سُلب على أقبح فعله الظالم، فبات يَقْرع سنَّ نادم ولكن لمَّا عثر الجواد.

أُخِذ واللَّه في مضيقه، وأغصَّه الموت بريقه، وبقي متحيرًا في طريقه، لا ماء ولا زاد، كأنك بك قد بلغت النَّبْوة، وصُرعت صرعة تُعْجزك الأوبة، وقمت تعرض يومئذ سلع التوبة ولكن وقت الكساد، فلا تغتر بمالك وقَصرك، ولا تعجب بنهيك وأمرك، يا طائر الهوى ستؤخذ من وكْرك وما تُعجز الصياد، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾.

من لك إذا سئلت عن خلقك وجُوزيت بأقبح عملك، تاللَّه إن تُبت من ذلك فكل عَشْرك أعياد.

كم أرشدك إلى رَشادك وأنت على فسادك، كم أدعوك إلى إسعادك وأنت مع سُعادك، ضُرب بوقُ رحليك وما اهتممت بزادك، وأنت في وادٍ.

لقد بالغتُ لك في النصائح وقمت مُنْذرًا عُقبى القبائح، والطريقُ واضح والعَلَم لائح، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (١).

والحمد للَّه وحده.

* * *

* *

*

(١) سورة الرعد: ٣٣.

المجلس الحادي عشر

في ذكر يوم عرفة

الحمد للَّه الذي لهَيبة عظمته تحرّك الساكن وارتجّ، ولعظيم قدرته التطمت أمواج البحر وثَجّ [١]، ومن يسير بلائه استغاث الشديدُ الصبر وضجّ، وإلى كثير عطائه قطع قاصدوه العميقَ الفجّ [٢]، الذي أظهر في شَهركم هذا من دماء القرابين السفح والشجّ، وأحبَّ مَن أكثر الدعاء فيه وألح ولجّ، وسمَّاه ذا الحجة وشرع فيه إلى بيته الحج، الذي استدعى من شاء إلى زيارة بيته العتيق، وحرك عزْم القاصد وأعانه بالتوفيق، وسهَّل للسالكين إلى حرمه مُشتوعر الطريق، ووعد الطائعين القبولَ وهو بإنجاز الوعد خليق، وأزعج قاصديه عن مساكنهم وأخرجهم من أماكنهم بالتشويق، فرضُوا من أهلهم وفريقهم بالبعاد والتفريق، وسارت بهم الأيْنق [٣] عن الرَّبع الأنيق، وجدَّت بهم النجائبُ من كل بلدٍ سَحيق، فأقبلوا بين ماشٍ على قدميه استشعاه يقينُ الصِّديق ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [٤].

أحمده حمد موقن آمن به وعرَفه، وأشكره على إدراك ذي الحجة ويوم عرفة، وأشهد له بنَفْي المثل في الذات والصفة، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالرحمة وبالرأفة وصفه، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي حالَفه وما خالفه، وعلى عمر الذي رفض الدنيا أنفَة، وعلى عثمان الذي جهز جيش العسْرة وأسْعفه، وعلى عليٍّ الذي ما أشكل عِلمٌ إلا وكشفه، وعلى عمه العباس الذي عظَّم اللَّه بيته وشرفه.

عباد اللَّه: إن يومكم هذا يومٌ قد عظم اللَّه أمره، ورفع على الأيام قدْره.

وقد روينا أن اللَّه تعالى أقسم به فقال: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ [٥] فذكرنا عن النبي ﷺ أنه قال: « الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة »، وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [٦] قال: « الشاهد والمشهود يوم عرفة » [٧].

ومن فضائله أن اللَّه عز وجل أنزل فيه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٨].

---

(١) ثج: سال. (٢) الفج: الطريق الواسع. (٣) الأينق: جمع ناقة.
(٤) سورة الحج: ٢٧. (٥) سورة الفجر: ٣. (٦) سورة البروج: ٣.
(٧) رواه أحمد في مسنده: ٧٩/٢، وهو حديث ضعيف.
(٨) سورة المائدة: ٣.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده، عن طارق بن شهاب قال: « جاء رجل من اليهود إلى عمر ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأي آية هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ قال عمر ﷺ: واللَّه إني لأعلم اليومَ الذي نزلتْ فيه على رسول اللَّه ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول اللَّه ﷺ، نزلت عشية عرفة يوم جُمعة. (أخرجاه في الصحيحين) [(١)].

ومن فضائله أن اللَّه تعالى يباهي بالحاجِّ فيه ملائكته ويعمُّ بالغفران.

أخبرنا سعد الخير بن محمد، عن يونس بن يوسف، عن ابن المسيب قال: قالت عائشة ﷺ: إن رسول اللَّه ﷺ قال: « ما من يوم أكثر من أن يُعتق اللَّه فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء ». (انفرد بإخراجه مسلم) [(٢)].

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا كان يوم عرفة ينزل اللَّه تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُعثًا غُبرًا من كل فج عميق، أُشهدكم أني قد غفرت لهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: فما من يوم أكثر عتيقًا من يوم عرفة » [(٣)].

أخبرنا عبد اللَّه بن علي المقرئ بسنده، عن أيوب، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إنَّ عشية عرفة ينزل اللَّه ﷻ فيه إلى السماء الدنيا فيقول اللَّه تعالى للملائكة: انظروا إلى عبادي هؤلاء شُعثًا غُبرًا جاءوني من كل فج عميق ضاجِّين يسألوني رحمتي [(٤)] ولم يروني، ويتعوَّذون بي من عذابي ولم يروني، فلم ير يوم أكثر عتيقًا ولا عتيقة منه، ولا يغفر اللَّه فيه لمختال » [(٥)].

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الغنائم بن أبي عثمان بسنده، عن الصبَّاح ابن موسى، عن أبي داود الشعبي، عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ

---

(١) صحيح البخاري: ١٠٣/٣، كتاب التفسير. وصحيح مسلم، كتاب التفسير، حديث رقم: ٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، حديث رقم: ٤٣٦. وأخرجه أيضًا ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الدعاء بعرفة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢٢٤/٢ - ٣٠٥. والطبراني في الصغير والكبير، ورجال أحمد موثقون. مجمع الزوائد: ٢٥٢/٣.

(٤) الرواية في مجمع الزوائد: ولم يروا رحمتي ولم يروا عذابي.

(٥) رواه أبو يعلى بنحوه، وفيه محمد بن مروان العقيلي، وثقه ابن معين وابن حبان وفيه بعض كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: ٢٥٣/٣.

يقول: « لا يبقى أحد يوم عرفة في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا غُفر له »، فقال رجل: لأهل معرّف [(١)] يا رسول اللّه أم للناس عامة؟ قال: « لا بل للناس عامة » [(٢)].

فأما ثواب صائميه فأخبرنا ابن الحصين بسنده، عن عبد اللّه بن معبد، عن أبي قتادة أن رسول اللّه ﷺ سئل عن صوم يوم عرفة فقال: « كفارة سنتين » [(٣)].

وأخبرناه عاليًا عبد الرحمن الأنماطي بسنده، عن عبد اللّه بن معْبد، عن أبي قتادة أن رجلًا قال: يا رسول اللّه أرأيت صيام يوم عرفة؟ قال: « أحتسب على اللّه أن يكفر السنة الماضية والباقية ». (انفرد بإخراجه مسلم) [(٤)]، وفي لفظ: « إني أحتسب على اللّه أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده ».

أخبرنا هبة اللّه بن محمد بسنده عن حماد بن سلمة عن عطاء الخراساني أن عبد الرحمن بن أبي بكر دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يوم عرفة وهي صائمة والماء يُرشُّ عليها، فقال لها عبد الرحمن: أفطري، فقالت: أفطر وقد سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « إن صوم يوم عرفة يكفِّر العام الذي قبله » [(٥)].

واعلم أن صوْمه مستحب لغير الحاج، فأما الحاج فلا يستحب له صوْمه؛ ليتقوَّى على الدعاء ولكونه ضيْفًا للّه تعالى.

فأما ما يختص بالذكر فيه، فمنه التكبير عقيب الصلوات المفروضات فابتداؤه في حق المحلّ: صلاة الفجر يوم عرفة، وفي حق المحْرِم: صلاة الظهر من يوم النحر، ويجتمعان في صلاة العصر آخر أيام التشريق، وصفة التكبير شفع: اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلا اللّه واللّه أكبر، اللّه أكبر وللّه الحمد.

ومن الأذكار ما أخبرنا به أبو الفتح ابن أبي القاسم بسنده، عن حماد بن أبي حميد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: « خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » [(٦)].

---

(١) كذا في ت. وفي ب: لأهل معروف. ومعرف: الموقف بعرفات.

(٢) الترغيب والترهيب: ٢/١٢٨، وقال: « رواه ابن المبارك ».

(٣) مسند أحمد، حديث رقم: ٢٢٠١١. ورجاله ثقات، وهو صحيح.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصوم، حديث رقم: ١٩٦.

(٥) رواه أحمد في مسنده، برقم: ٢٤٤٩. وعطاء لم يسمع من عائشة، بل قال ابن معين: لا أعلمه لقي أحدًا من أصحاب النبي ﷺ. مجمع الزوائد: ٣/١٨٩.

(٦) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة. قال الترمذي: هذا حديث غريب من =

وقد رويت صلاة ليوم عرفة ليس فيها شيء يصح ولا يثبت فلذلك تنكبناها.

وكان ابن عمر ﵄ يُحيي ليلة النّحر، وقد ذكرنا في فضل إحيائها حديثًا فيما تقدم.

واعلموا أن يوم النحر يوم عظيم قال ﷺ: « أفضل الأيام عند اللَّه ﷻ يوم النحر ثم يوم النَّفْر » (١).

وقد سبق ذكر آداب العيد وما يُفعل في يوم النحر: أن لا يأكل حتى يفرغ من الصلاة وأن يضحّي مَن أمْكنه.

وفي حديث عائشة ﵂ عن النبي ﷺ أنه قال في الأضحية: « إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وإن الدم ليقع من اللَّه بمكان قبل أن يقع على الأرض فطِيبوا بها نفْسًا » (٢).

وروي عنه ﷺ أنه قال: بكل شعرة حسنة، وقال ﷺ لفاطمة ﵂ : « قومي إلى أضحيتك فاشهديها، فإن لك بكل قطرة من دمها أن يغفر اللَّه لك ما سلف من ذنوبك ». فقيل له: هذا لآل محمد خاصة؟ قال: « بل هي لآل محمد وللناس عامة » (٣).

أنبأنا أحمد بن علي بن المجلّي بسنده، عن عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، قال: قرئ على أبي القاسم بن زيد وأنا أسمع قيل له: حدثكم عمرو بن النضر الغزال، عن عصمة، عن أبي جعفر أنه قال: « أول قطرة من دم الأضحية كفارة لأربعة آلاف خطيئة ».

ومن شرف يوم النحر أن اللَّه ﷺ ابتلى به الخليل بذبح ولده، وقد ذكرنا القصة في أول الكتاب (٤).

* * *

الكلام على البسملة

لـك في الـمشيب أكْبر الوعظ لو فكّرتَ يا مُعْرِضًا عن الوعظ صَفْحا

= هذا الوجه وحماد بن أبي حميد هو أبو إبراهيم الأنصاري المدني، وليس بالقوي عند أهل الحديث. صحيح الترمذي: ٢٧٨/٢، ط الأميرية.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: ١٧٦٥. وأحمد في مسنده، برقم: ١٨٥٩٦. ويوم النفر هو اليوم الثاني من أيام التشريق.

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه، برقم: ١٤٩٣. وابن ماجه في كتاب الأضاحي، حديث رقم: ٣١٢٦. وأحمد في مسنده، برقم: ٢٢١٣٢، وهو ضعيف.

(٣) رواه البزار وفيه عطية بن قيس وفيه كلام كثير، وقد وثّق. مجمع الزوائد: ١٧/٤.

(٤) انظر ص : ١٣٧ من هذا الجزء.

أهْدت الأربعون منه إلى لَيْـ ـل عِذارَيْك والمفارق صُبحا
عاد فَوْداك والذوائب والعا رض فجْرًا من بعد ما كُنَّ جُنحا (١)
وهَب الشيبُ قوْسه لك واعتا ض على الكرّة من شِطاطك (٢) رمْحا
عملُ المرء كالتجارة عند المو ت يَرى خُسرانها والرِّبحا
فلحى اللَّهُ معشرًا لا يرون الذَّ م ذمًا لهم ولا المدائح مدْحا
كلُّ ذي غفلة تراه بخيلًا بُحطام الدنيا وبالدين سَمْحا
بات من جهله وأضحى يظن الـ ـعيد فِطْرًا يأتي عليه وأضحى
كذَّبته الظنونُ ما العيد إلا لامرئ آمن من النار لَفْحا

* * *

للَّه در أقوام أعيادهم قبولُ الأعمال، ومرادهم أشرف الآمال، وأحوالهم تجري على كمال، وحِلاهم التُّقى ويا له من جَمال.

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن محمد بن يوسف بن عبد اللَّه قال: سمعت أبا ثابت الخطاب يقول: رأيت فَتْحًا المَوْصلي في يوم عيد أضحى وقد شمَّ ريح العِناز (٣)، فدخل إلى زقاق فسمعته يقول: تقرَّب المتقربون بقربانهم وأنا أتقرب بطول حزني، يا محبوبًا كم تتركني في أزقة الدنيا محزونًا، ثم غُشيَ عليه وحُمل فدفناه بعد ثلاث.

أين من ضحَّى بشهوات نفسه فأمات حظها؟! أين من حثَّها على لحاق السلف الصالح وحضّها؟! أين من خوّفها حسابها وحذّرها عَرْضها؟! أين من قطع من طول المجاهدة طُولها وعرضها؟! وأين من أدرك من مقامات المقبولين ولو بعضها؟! أين من أعمل عزائم الوفاء وأهْمل هِمم الجفاء وقصد نَقْضها؟! يا من يُسرّ بعيد وقد تعدّى الحدود، أترضى أن تُحشر فتتحسّر لفوات المقصود، لقد أسمعتك المواعظُ من إرشادها نُصحًا، وأخبرك الشيبُ أنك بالموت تُقصد وتُنْحى، وشرح الزمانُ حالَ من شرح قبلك شرحًا. أين من فرح بعيد الفطر وعيد الأضحى؟ أما تزود الحَنُوطَ من العطر وفي القبر أضحى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ (٤).

* * *

(١) جنحًا: سودًا. والجنح من الليل: الطائفة منه. (٢) الشطاط: الطول وحسن القوام واعتداله.
(٣) في ت: فشم ريح اللحم حين دخل في بعض الأزقة. والعناز: جمع عنز.
(٤) سورة الانشقاق: ٦.

جمعوا لينتفعوا فلما أن دَعَوا أموالهم حينَ الردَى لم تنْفَعِ
واستدفعوا بالمال كلَّ مضَرة حتى أتى الأمرُ العزيزُ المَدفعِ
وكأنهم لم يعلموا أن الذي جمعوا بمرأى للخُطوب ومَسمعِ
هتف الحِمام بكل حيٍّ منهمُ فأجابه مُشتكرهًا كالطيِّعِ
وأراهُم في مضجع وأتاهمُ مِنْ مَطْلع وسقاهُم من مَكْرَعِ

يا من كلما جُذب عن لهوه رَسب، هذا بريد الموت لك في الطلب، بادرْ قبل الفوات فالزمان يُنتهب، وانتظر سَلْب الدهر وما وهب [١]، أين الجامع المانع للذهب؟ ذهب، أين مُخاصم الأقدار قل لي: من غلَب؟ أتاه الفاجع فاقترب وما ارتقب، وأبْرزه من قَصْره ولطالما احتجب، يا مُعْرِضًا عنّا عناك التعب، يا هاجرًا لنا إلى كم ذا الغضب، يا مُضْغةً يا علقة خِدمتنا نسَب، يا مؤثرًا غيرنا بِعْت الدُّر بالخشب، أما يشوقك إلى الخير ما يشُوق؟ أما يعوقك عن الضير ما يعوق؟ متى ترجع حُرًّا يا مَرْقوق، متى تصير سابقًا يا مسبوق، إياك والهوى فكم قتل عاشقًا معشوق، أولُ الهوى سَهْل ثم تتخرَّق الخروق، كلما حُصد نباته بمنجل الصبر أُخرجت العروق، إن لذّ شربه في الفم فشربه شجًا في الحلوق، وإنما لذات الدنيا مثل خطْف البروق، ميِّز بين ما يفنى وما يبقى تَرَ الفروق، خَلِّ خِلَّ التواني إن أردت أن تفوق، تاللَّه ما نَصحك إلا مُحبٌّ أو صدوق.

ستعلم أيها العاصي ما أتيت، وستدري يوم الحساب من عصيْت، وستبكي دمًا لقُبح ما جنَيْت، كأنك بالموت قد جاء فانتهيْت [٢] وارعويْت، وتذكرت تلك الخطايا فتعست وبكيت، وأُخلي منك البيتُ شئت أو أبيْت، وصحت بلسان الأسف: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [٣] وليْت! انهض يا حيًّا قادرًا قبل أن تسمى باسم مَيْت، ويْحَكَ تأملْ أمركَ وافتحْ عينَيْك، ويحك كم تُعيي [٤] من الذنوب عليْك، إن سهام الموت قد فوِّقت إليْك، اقبل نصحي وقم نادمًا على قدميْك، وأحسَّها أرضَ عرفة وقل: لبيك اللَّهم لبيْك.

* * *

(١) الأصل: وهب وهب، ولعل الصواب ما أثبتناه. (٢) ت: فانتبهت.
(٣) سورة المؤمنون: ٩٩. (٤) كذا في ت. وفي ب: كم تعني.

الكلام على قوله تعالى:
﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا... ﴾ (١)

قال المفسرون: لما فرغ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من بناء البيت، أمره اللَّه تعالى أن يؤذن في الناس بالحج فقال إبراهيم: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعليَّ البلاغ. فعلا أبا قُبيس (٢) وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد بنى بيتًا فحجُّوه، فأسمع من أصْلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم اللَّه ﷻ أن يحج فأجابوه: لبيك اللَّهم لبيك.

وقوله: ﴿ رِجَالًا ﴾ أي: مشاة، وقد حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين، وحج الحسن ابن علي عليهما السلام خمسًا وعشرين حجة ماشيًا والنجائب تقاد معه، وحج أحمد بن حنبل رضي الله عنه ماشيًا مرتين.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾:

أمر اللَّه نبيه الخليل بعد بناء بيته الجليل، أن ينادي عبيده إلى الفضل الجزيل، ليحطّ عنهم مولاهم كلَّ وِزْر ثقيل، فقال ﷺ: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾.

يا إبراهيم نادهم ليحصل نفعهم في معادهم، وأزْعجهم بندائك من بلادهم وأخْرجهم عن أهلهم وأولادهم فليقصدوا بابي مُسرعين عِجالًا ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾.

يا غافلًا عنِّي أنا الداعي، يا متخلفًا عن زيارتي أنا أَلْقَى الساعي، يا مشغولًا عن قصدي لو عرفتَ اطلاعي، أنا أقمتُ خليلي يدعو إلى سبيلي، وأقبلت بتنويلي على محبي إقبالًا ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾.

للَّه در أقوام فارقوا ديارهم وعانقوا افتقارهم، وآثروا غبارهم وطهروا أسرارهم، يدعون عند البيت قريبًا سميعًا، ويقفون بين يديه بالذل جميعًا، ويسعون في مراضيه سعيًا سريعًا، وقد ودَّعوا مطلوب شهواتهم توديعًا، فأفادهم مولاهم أن رجعهم كيوم أخرجهم أطفالًا.

هجروا الكَدَر وهاجروا إلى الصفا، وقصدوا المروة بعد أن أمُّوا الصَّفا، وحَذِروا الردَّ وخافوا الجفا، وتعلقت آمالهم بمن هو حسبهم وكفى.

نـــاد زُوَّاري أنـــا أدعـــوهـــمُ ... نــحـو بـيـتـي لـيـنـالـوا شَـرَفـا
فــهــمُ وَفــدي إذا مــا نــزلــوا ... بــحــريــمــي إذ دنَـوْا مُـزدلـفـا

---

(١) سورة الحج: ٢٧.

(٢) أبو قبيس: جبل بمكة.

ولهم عندي مزيدٌ ولهم من نوالي ما أحبُّوا طُرفَا
فارقوا أوطانهم إذ قصدوا نحو بابي يطْلبون الزُّلفى
فلهم منّي مهما أمَّلوا سلفًا ينْمي ويُنْشِي (١) خلفا

قد أحرم القومُ عن الحلال، فأحرِموا أنتم عن الحرام، منعوا أنفسهم من الطِّيب فاحذروا أنتم جيفة الهوى، يا حُسنهم وقد نزعوا المَخيط ونزعوا عن التضييع والتفريط، وملأوا بالتضرع البسيط، فارقوا لأجل مولاهم أولادهم، وأعْرَوْا عن رقيق الثياب له أجسادهم، وتركوا في مراضيه محبوبهم ومُرادهم، فأصبحوا قد أعطاهم مولاهم وأمْسوا وقد أفادهم.

استسعاهم إليه فاجتهدوا وجَدُّوا، وتزودوا التقوى في طريقهم واستعدوا، وأتعبوا الأعضاء في خدمته وكَدُّوا، وطرقوا بأنامل الرجاء بابَ اللجأ فما رُدُّوا، ناداهم وهم في الأصلاب والأرحام، واستصلحهم لزيارة بيته الحرام، وأكرمهم بالغفران فيا نعم الإكرام، ورحِم شَعثَ الرؤوس وغُبار الأقدام، وأنتم إن بَعُدتم عن ذلك المقام فقد شاركتموهم في الإيمان والإسلام، فارغبوا بالتضرع إلى المليك العلام، فإنه معروف بالفضل موصوف بالإنعام.

* * *

ذكر عن مالك بن أنس رحمه اللَّه تعالى قال: صحبت جعفرًا الصادق ﷺ فلما أراد أن يلبِّي تغير وجهه وارتعدت فرائصه، فقلت: مالك يا ابن رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: أردت أن ألبي، قلت: فما يوقفك؟ قال: أخاف أن أسمع غير الجواب.

وقف مطرِّف (٢) وبكر ابنا عبد اللَّه فقال مُطَرف: اللَّهم لا تردهم من أجلي، وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أني فيهم.

وروي عن الفُضيل بن عياض أنه وقف بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، فلما كادت الشمس أن تسقط قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: وا سوأتاه منك وإن عَفوت.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده، عن علي بن هَزارمُرْد الصوفي قال: سمعت ابن محبوب تلميذ أبي الأديان يقول: ما رأيت خائفًا إلا رجلًا واحدًا، كنت بالموقف فرأيت شابًّا مُطرقًا منذ وقف الناس إلى أن سقط القُرص (٣)، فقلت له: يا هذا ابسط يدك للدعاء، فقال لي: ثَمَّ وحْشة، فقلت له: فهذا يوم العفو عن الذنوب، قال: فبسط يده ووقع ميتًا.

---

(١) كذا في ت. وفي ب: ويثني.
(٢) هو مطرف بن عبد اللَّه بن الشخير، تابعي.
(٣) سقط القرص: غابت الشمس.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده، عن أبي بكر محمد بن داود الدِّينوري قال: سمعت أبا عبد اللَّه بن الجلّاء يقول: كنت بذي الحليفة وشاب يريد أن يُحرم فكان يقول: يا رب أريد أن أقول: لبيك اللَّهم لبيك، فأخشى أن تجيبني بلا لبيك ولا سَعْديك، يردد ذلك مرارًا، ثم قال: اللَّهم لبيك، مد بها صوته وخرجت روحه، رحمة اللَّه عليه.

وقال سَرِيّ [١]: لقيت في طريق الحج حبشية فقلت: إلى أين؟ قالت: الحج، قلت: الطريق بعيد، فقالت:

بعيدٌ على كسْلان أو ذي مَلالةٍ ... فأما على المشتاق فهو قريبُ [٢]

ثم قالت: يا سريّ إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا. فلما وصلت البيتَ رأيتها تطوف كالفتى الشاطر، فنظرت إليها فقالت: يا سريّ أنا تلك العبدة لما جئته بضعفي حَملني بقوّته.

لما حج الشِّبْلي وأشرف على جدران مكة قال:

أبُطحان مكة هذا الذي ... أراه عِيانًا وهذا أنا

ثم غشي عليه، فلما أفاق قال:

هذه دارُهمْ وأنت مُحبٌّ ... ما بقاء الدموع في الآماقِ

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، وحدثنا عنه ابن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت بسنده، عن الحسين بن عبد الرحمن قال: حج سعيد بن وهب ماشيًا فبلغ منه وجَهده فقال:

قدَميَّ اعتَورا رَمْل الكثيب ... واطرقا الآجنَ من ماء القليبِ [٣]

رُبَّ يوم رُحْتما فيه على ... زَهْرة الدنيا وفي وادٍ خصيبِ

وسماعٍ حَسنٍ من حَسنٍ ... صَخِب المزْهر كالظبي الرَّبيبِ

فاحسبا ذاك بهذا واصبرا ... وخُذا من كل فنٍّ بنصيبِ

إنما أمشي لأني مُذنب ... فلعل اللَّه يعفو عن ذنوبي [٤]

كأني الآن بالمحامل تئنّ، وبالزَّوامل [٥] تحنّ، وبالمطيِّ تُرْزِم [٦]، وبالجفون تُسْجم [٧]،

---

(١) هو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي، صوفي بغدادي المولد والوفاة، توفي سنة: ٢٥١هـ.

(٢) ت: فأما على المشتاق غير بعيد.

(٣) اعتورا: تداولاه في المشي. والآجن: الآسن. والقليب: البئر.

(٤) روى ابن الجوزي هذه الأبيات في ذم الهوى: ص ٥٢.

(٥) الزوامل: جمع زاملة، وهي التي يحمل عليها من الإبل وغيرها.

(٦) ترزم: تحن. (٧) تسجم: تسيل دموعها.

والشوقُ إلى البيت قد عمل عمله، والمؤمل يلاحظ أمله.

ولي أنَّة الشاكي وإنْ بَعُدَ [١] المدى ما بيننا وتنفُّسُ المكروبِ

* * *

قوله تعالى:

﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ... ﴿٢٧﴾ ﴾

﴿ يَأْتِينَ ﴾: فعل للنوق [٢]، وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة: ﴿ يَأْتُونَ ﴾ على أنه فعل الرجال والفج العميق: المكان البعيد.

صبروا على مشاق الطريق بين هبوط وصعود ومضيق، واحتملوا لأجلي خُلق الرفيق، ورضوا من فريقهم بالبعاد والتفريق، وحُديتْ بهم المطايا من كل بلد سحيق، وجانَبوا ما يشين وصاحبوا ما يليق، وصابروا ظمأ الشفاه وقلة الريق، فلأسقينهم يوم لقائي من السلسبيل والرحيق، فنادهم ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ... ﴿٢٨﴾ ﴾:

وهي ربح التجارة في الدنيا والثواب في الأخرى.

سبحان من إلى بيته حملهم، وبفنائه أنزلهم، وإلى حَرمه أوصلهم، وبإخلاص قصْده جَمَّلهم، فلقد جمع الخيرَ الجمَّ لهم ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾.

حرَّكهم بتوفيقه فثاروا، واستدعاهم إلى بيته فساروا، وأوصلهم إلى حَرمه فزاروا، فيا حُسنهم في الطواف إذا سعَوْا وداروا، واجتمعوا بالآمال حول البيت واستداروا، فضافهم مَنْ أضافهم إلى الأحباب وأنزلهم ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾.

يا كثرة ما أعطاهم من العطايا، يا شرَف ما أنالهم من الهدايا، فلقد تلقاهم بالجود والتَّحايا، وحطّ عنهم من الذنوب والخطايا ما أثقلهم، أتعبهم المشي وأزعجهم المركوب، وكان ذلك هيِّنًا في قُرْب المحبوب، فأنعم عليهم بكل مطلوب، وقابلهم بالعفو عن الذنوب وقَبلهم، تعلقوا بذيل رحمتي ولطفي، وسألوني مودتي وعطفي، واشتغلوا بي دون غيري ويكفي ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ [٣].

إخواني: إن لم نَصل إلى ديارهم فلنصل انكسارنا بانكسارهم، إن لم نقدر على

---

(١) ت: وقد بعد.

(٢) كذا في ت. وفي ب: فعل النوق.

(٣) سورة السجدة: ١٧.

عرفات فلنستدرك ما قد فات، وإن لم نصِل إلى الحِجْر فَلْيَلِنْ كلُّ قلبٍ حَجَر، إن لم نَقْدر على ليلة جَمْع ومنى فلنقم بمأتم الأسف هاهنا، أين المنيب الأَوَّاب أين المجدُّ السابق؟ هذا يومٌ يُرْحم فيه الصادق، هذا أوان يطّلع فيه الخالق، يا مؤمِّلًا مثله قد لا يوافق، من لم يُنبْ في هذا اليوم فمتى ينيب؟! ومن لم يُجب في هذا الوقت فمتى يجيب، ومن لم يتعرَّف بالتوبة فهو غريب، ومن لم يُقْرَ بالعفو فما له من نصيب، أسفًا لعبدٍ لم يُغفر له اليوم ما جنى، كلما همَّ بخير نقض الطرْد ما بنى، حضر مواسم الأرباح فما حصَّل خيرًا ولا اقتنى، ودخل بساتين الفلاح فما مدَّ كفًّا ولا جنى، ليت شعري مَن منَّا خاب ومَن منَّا نال المنى؟!

فيا إخواني: إن فاتنا نزول منًى، فلتُنزل دموع الحسرات هاهنا، وكيف لا نبكي ولا ندري ماذا يراد بنا؟! وكيف بالسكون وما نعلم ما عنده لنا؟!

فلذا الموقفِ أعْدَدنا البكا ولذا اليوم الدموعُ تُقتَنى

اللَّهم إنا نقف لك على الأقدام كقيام القاصدين البيت الحرام، يا غافر الذنوب اغفر ذنوبنا، يا ستار العيوب استر عيوبنا، يا كاشف الكروب اكشف كروبنا، يا منتهى الآمال بلِّغنا مطلوبنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *
* *
*

الطبقة الثالثة

تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات

(وفيها ثلاثة مجالس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

يذكر فيه خلق ابن آدم

الحمد للَّه الخالق بقدرته ما دبَّ ودرَج، الفاتق بصنعته ما التأم وارتتج، الراتق بحكمته ما افترق وانفرج، الدال على وحدانيته بالبراهين والحجج، أنشأ الأبدانَ من النطَف وحفِظ فيها المُهج، ونوَّر العيون فأحسن في تركيبها الدَّعج [١]، وأنطق اللسان فأبان سُبل المراد ونهج، وعلَّم الإنسان البيان فإذا خَاصم فلَج [٢]، بقدرته سكن المتحرك فما زال ولا اختلج، ولهيبته تحرّك الساكن فتغير وانزعج، طَوى اللطفَ في تكاليف الخلائق ودَرج ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [٣]، خلق البحرين هذا عذبٌ فُرات وهذا مِلْح أجاج ومَرج، واستخرج بدائع الودائِع من بواطن اللُّجج، وعلِم ما ظهر في الأرض ورأى ما فيها وَلج، بصير يرى جَريان الدماء في باطن الودَج، سميع يدرك بسمعه صوت الباكي إذا نشَج، لا يخفى على بصره في سواد الليل سوادُ الثَّبج [٤]، ولا يَعزب عن سمعه أنين المدْنف [٥] يرجو الفرج، أنزل كلامًا قديمًا مَن ورَد بحره ارتوى وابتهج، قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج.

أحمده حمد من جمع المحامد في حمده ودرج، وأشهد أنه العظيم القَدْر الرفيع الدَّرج، وأصلي على رسوله محمد الذي إلى قاب قوسين عَرج، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا الرَّعاع الهمج، وعلى عمر الذي يفوح من ذِكره أذْكى الأرج، وعلى عثمان الذي جمع الإنفاق إلى الصّهر فازدوج، وعلى عليٍّ المُجمع على حبه فإن خرج شخصٌ من الإجماع خرج، وعلى عمه العباس الذي افتخر به بيتُ الخلافة وابتهج.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ... ﴾ [٦]

المراد بالإنسان هاهنا آدم عليه السلام، **والسلالة** فُعالة، وهي القليل مما يُسلّ، فاستُل من كل الأرض، وقد روى أبو موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن اللَّه خلق آدم من قبضة

---

(١) الدعج: سواد العين مع سعتها. (٢) فلج: غلب وظفر. (٣) سورة الحج: ٧٨.

(٤) الثبج: صدر القطا، ويضرب به المثل في الخفاء فيقال: أخفى من القطا.

(٥) المدنف: المريض الثقيل المرض. (٦) سورة المؤمنون: ١٢.

قبضها من جميع الأرض » وقد ذكرنا قصة آدم عليه السلام في أول الكتاب [١].

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً... ﴿١٣﴾ ﴾:

يعني: ابن آدم، والمرد بالنطفة: المنيّ، ﴿ فِي قَرَارٍ... ﴿١٣﴾ ﴾ يعني: الرحم، ﴿ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ أي حَريز قد هيئ لاستقراره فيه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً... ﴿١٤﴾ ﴾:

والعلقة دمٌ عَبيط [٢] جامد، وسميت عَلَقة لتعلقها بما تمرُّ به، فإذا جفَّت فليست علقة، والمُضْغة لحمة صغيرة، وسميت بذلك لأنها بقدر ما يُمضغ.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ... ﴿١٤﴾ ﴾ **وفي محل هذا الإنشاء قولان:**

أحدهما: بطن الأم، **ثم صفة الإنشاء فيه قولان:**

- **أحدهما:** نفخ الروح، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية والشعبي.

والقول الثاني: أنه بعد خروجه من بطن أمه، **ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال:**

- **أحدها:** أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل ثم دُلَّ على الثَّدي وتقلَّب من حال إلى حال، رواه عطية عن ابن عباس.
- **والثاني:** أنه استواء الشباب، قاله ابن عمر.
- **والثالث:** خروج الأسنان والشعر، قاله الضحاك.
- **والرابع:** إعطاء العقل والفهم، حكاه الثعلبي.

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ... ﴿١٤﴾ ﴾ أي تعالى ورَفُع، ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي المصورين والمقدِّرين.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد ابن وهب، عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إنَّ أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يرسل اللَّه إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزْقه وأجَله وعمله وشقي أم سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل

---

(١) انظر ص : ٣٧ من هذا الجزء. (٢) العبيط: الطري.

أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها ». (أخرجاه في الصحيحين) (١).

وفي أفراد مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجِلْدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمِر ولا يُنْقص » (٢).

* * *

قال علماء المتطببين:

أول الأحوال الحادثة في المنيّ أن يكون له زبد، ثم يوجد النفخ مندفعًا إلى وسط الرطوبة إعدادًا لمكان القلب، ثم تتميز الأعضاء ويتنحّى بعضها عن مماسَّة بعض، **ويحيط بالجنين ثلاثة أغشية:** غشاء تُنسج فيه العروق، وغشاء ينصبُّ فيه (٣) بول الجنين، وغشاء يجمع الرطوبة التي ترْشح من الجنين.

وللرأس أربعة عظام: [ثلاثة] كالجدران وواحد كالقاعدة، وجعلت هذه الجدران أصْلب من اليافوخ؛ لأن السقطات والصدمات عليها أكثر، ويخفُّ القحْف لمعنيين: **أحدهما:** لئلا يَثْقُل على الدماغ. **والثاني:** لينفذ منه البخار.

ومن العظام ما هو أساسٍ للبدن كفقَار الصُّلب يُبنى عليه كما يبنى السقف على الخشبة الأولى، ومنها كالمِجَنّ كالقحف فإنه جُنَّة للدماغ من الآفات، وخلق جوهر الدماغ باردًا رطبًا لينًا دسمًا، فأما بَرْده **فلأمرين: أحدهما:** تعديل الحرارة التي تنْفذ إليه من القلب. **والثاني:** لئلا يحترق لكثرة ما يتأدى إليه من حركات الروح في التخيل والفكر [والتفكر والذكر] (٤)، وهذه القوى الثلاث مسكنها الدماغ فموضع التخيل البطنان المقدَّمان من بطون الدماغ، وموضع الفكر البطن الأوسط، وموضع الحفظ المؤخر من بطون الدماغ، وأما رطوبته ولينه فلئلا تُجففه الحركات، وأما خَلْقه دسمًا فليكون ما ينبت فيه (٥) من العصب لينا.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب رقم: ٢٨. وأول كتاب القدر. وصحيح مسلم، كتاب القدر، حديث رقم: ١. ومسند أحمد: ١٩٧/٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، حديث رقم: ٣.

(٣) ب: إليه.

(٤) من أ.

(٥) أ: منه.

وقد جُلل الدماغ بغشائين: أحدهما رقيق يليه، **والآخر** صفيق يلي العظم، وإنما خُلقا ليكونا حاجزين بين الدماغ والعظم.

وأما العين فإنما جعلتا اثنتين ليكونا إذا عرضت لإحداهما آفة قامت الأخرى بالبصر. وكل عين مركبة من عشرة أجزاء وهي سبع طبقات وثلاث رطوبات، والطبقات كقشور البصل إنْ أصابتْ بعضها آفةٌ نابت الأخرى، والرطوبات يقع (١) النظر بالوسطى وهي صافية منيرة والرطوبتان (٢) من جانبيها، فواحدة موضوعة خلفها تَقْرب من طبيعتها تتناول الغذاء أو تقلبه إلى طبعها، فتتناول منه الرطوبة المبْصرة، والرطوبة الثانية تُندِّي المبصرة لئلا تجفّ، وخُلق الهُدب ليدفع ما يطير إلى العين وليعدّل الضوء بسواده.

وأما الأذن فجعل لها صدف مُعرَّج (٣) ليجمع الصوت.

وخلق الأنف لينحصر فيه الهواء فيعتدل في حلوله (٤) قبل أن ينفذ إلى الدماغ والرئة، ثم هو سِتْر للفضلات المنحدرة.

واللسان آلة لتقليب الممضوغ، وتقطيع الصوت في إخراج (٥) الحروف، وإليه تمييز الذوق.

والشفتان غطاء للفم والأسنان ومَحْبسًا للُّعاب ومُعينًا على الكلام وجمالًا.

واللَّهاة جوهر لحْمي معلَّق على أعلى الحنجرة، ومنفعته تدريج الهواء لئلا يَقْرع (٦) ببرده الرئة فجأة، وليمنع الدخان والغبار كأنه باب مُوصد على مخرج الصوت بقَدره.

والأسنان اثنان وثلاثون سنًّا، فمنها ثَنيتان من فوق، وثنيتان من تحت، ورَباعيتان من فوق، ورباعيتان من تحت، ونابان من فوق ونابان من تحت، ثم الأضراس وهي عشرون من كل جانب من الفم خمسة، فمنها الضَّواحك وهي أربعة أضراس تلي الأنياب إلى جنب كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك، ثم بعد الضواحك الطواحن، ويقال لها: الأرحاء، وهي اثنا عشر طاحنًا من كل جانب من الفم واحد من فوق وواحد من أسفل، فالأنياب للكسر والرَّباعيّات للقطع والأضراس للطحن.

وخرَز (٧) **العنق** سَبْع، وفَقَار الصَّدر إحدى عشرة فقْرة.

والصدر مؤلَّف من سبعة أعظم.

والساعد مؤلف من عظمين متلاصقين يسميان الزِّندين، والفوقاني الذي يلي الإبهام أدق، والسفلاني أغلظ لأنه حامل.

---

(١) كذا في ب. وفي أ: نفع. (٢) أ: والرطوبات. (٣) ب: معوج.
(٤) أ، ب: في طوله. (٥) أ: في آخر الحروف. (٦) ب : يفزع.
(٧) ب: وجوز العتق.

وعظام الأصابع غير مجوَّفة لتكون أقوى على الثبات في الحركة [١] والقبض، وطال بعضُها لتستوي عند القبض، والظُّفر سند للأنملة وآلة للحك والتنقية.

والصُّلب مَسْلك النخاع.

والمعدة تَهْضم بحرارة في لحمها وبحرارة [٢] أخرى مكتسبة من الأجسام المجاورة.

والطحال مُنْفرش تحتها من اليسار وهو وعاء لبعض فضلاتها.

وللكبد عرقان أحدهما: يجذب إليها الطعام فيطبخه ويوجهه في العِرْق الآخر إلى البدن، ويبعث الماء منه [٣] إلى الكليتين، والرغوة الصفراوية إلى المرارة، والرسوب السوداوي إلى الطحال.

والقلب مخلوق من لحم قوي ليكون أبعد من الآفات، وقد أُميل يسيرًا إلى اليسار ليبعد عن الكبد، وله زائدتان كالأذنين فهما كخِزانتين يقبلان النسيم ويُرسلانه إلى القلب بقدر.

والمرارة كيسٌ معلق من الكبد إلى ناحية المعدة تجذب الخلط الغليظ والمرار الأصفر [٤] فينقّي الكبد عن الفضول ويسخنها، ولولا أن المرارة تجذب المِرة الصفراء لسَرتْ إلى البدن مع الدم فتولّد منها اليَرقان الأصفر، فهي تجذبه وتقذف منه جزءًا إلى المِعَي فيغسل ما فيها من الأثفال بلذعه وتحريكه لها، وجزءًا إلى المعدة ليعينها بحرارته على الهضم.

وجميع عظام البدن بعدد أيام السنة، يظهر منها للحسّ مائتان وخمسة وستون، والباقية صغار تسمى: السِّمسمانيّة.

وقد روى مسلم في أفراده من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ أنه قال: « خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاث مائة مفصل، فمنْ كبَّر اللَّه وحمد اللَّه وهلل اللَّه وسبح اللَّه واستغفر اللَّه وعزل حجرًا عن طريق الناس أو شوكة أو عظمًا، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي حينئذ وقد زَحْزح نفسه عن النار » [٥].

وعضل البدن خمسمائة وتسع وعشرون عضلة.

والمرارة بيت الصفراء، **والرئة** بيت البَلْغم، **والطحال** بيت السوداء، **والمثانة** بيت البرودة، **والكُلى** بيت الشهوة، **والقلب** بيت النفس.

---

(١) أ: في الحركات. (٢) أ: وبحرارات أخر. (٣) ب: ويبعث المائية.
(٤) أ: الأصفري. (٥) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم: ٥٤.

وفي بعض هذا ما يحرك الفكر [١] فيوجب العلم بعظمة الخالق سبحانه فيحث على امتثال أمره واجتناب نواهيه.

وقد كان بعض العلماء في مرْكب فهاج [٢] البحر فأخرج كتابَ التشريح ونشره نحو السماء كالمستشفع به، فأنكر قومٌ ذلك فقال بعض العلماء: كأنه يقول: يا من هذا من آثار حكمته وصنعته اكشف عنا.

* * *

الكلام على البسملة

لا تَرْقُدن لعينك السَّهرُ ... وانظر إلى ما تصْنع الغِيرُ [٣]

انظر إلى عِبَر مصرَّفة ... ما دام يمكن طَرْفك النظرُ

ما زِلْت تسمع أو ترى عِبرًا ... إنْ لم يَخُنْك السمعُ والبَصرُ

فإذا جَهِلتَ ولم تجدْ أحدًا ... فسَلِ الزمانَ فعنده الخبرُ

وإذا نظرت تريد مُعْتبَرًا ... فانظر إليك ففيك مُعْتبرُ

أنت الذي تُمسي وتصبح في الد ... دنيا وكل أموره غَررُ

أنت المصرَّف كان في صِغَر ... ثم استقلَّ بشخصِه الكِبرُ

أنت الذي تنْعاه خِلْقتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْر والبشَرُ

أنت الذي تُعْطي وتُسْلب لا ... يُنْجيه من أن يُسلب الحذَرُ

أنت الذي لا شيء منه له ... وأحقُّ منك بمالكَ القدَرُ

والحادثات صُروفها عَجبٌ ... والعيش فيه الصّفو والكدرُ

يَبْغي بنو الدنيا عمارتها ... وليخْرَبنَّ جميعُ ما عمَروا

عجبًا من الدنيا ومن عبر الد ... نيا وكيف تصرَّف الغِيَر

ما زلت مُذ صُورتَ في سَفَر ... وستنقضي وسينقضي السفرُ

يا من يؤمِّل أنت منتظِر ... أملًا يطول ولست تنتظرُ

ماذا تقول وأنت في غُصصٍ ... ماذا تقول وأنت مُحْتضَرُ

ماذا تقول وقد وضِعْت على ... ظَهْر السرير وأنت تُبتدرُ

---

(١) أ: التفكر.

(٢) أ: فثار.

(٣) أ : العبر.

ماذا تقول وأنت في جَدَثٍ ماذا تقول وفوقك المدَرُ
ماذا تقول وقد لحقت بما (١) يجري عليه الرّيحُ والمطرُ
نَبْغي البقاء ولا بقاء لنا تتعاور الرّوحاتُ والبُكرُ
كم قد عفْت عينٌ لها أثَرٌ درست ويَدْرس بعدها الأثرُ

* * *

الدنيا مَعْبر فاقنع باليسير، وليكن همك في الرحيل والمسير، كم من جامعٍ لها فرَّقته، ومن مُحب لها أهلكته ومزَّقته، من قنع بالبُلغة فيها سلم، ومن أكثر منها أسف وندِم.

عليك بتقوى اللَّه واقْنع برزقه فخيرُ عباد اللَّه من هو قانِعُ
ولا تُلْهك (٢) الدنيا ولا طَمعٌ لها فقد يُهلك المغرورَ فيها المطامعُ
فصبرًا على نوْبات ما ناب واعترفْ فما يستوي حُرٌّ صَبُورٌ وجازعُ (٣)
أعاذلُ ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت بالنفس منه الأضالعُ

مرَّ أبو حازم رحمة اللَّه عليه بجزار فقال: يا أبا حازم خذ من هذا اللحم، فقال: ليس معي درهم، فقال: أنا أُنظرك، فقال: أنا أُنظر نفسي.

وقال بكر بن عبد اللَّه: يكفيك من الدنيا ما قنعتَ به.

كان ابن السماك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

إنـي أرى مـن لـه قُـنـوعٌ يَـعْـدلُ مـن نـالَ مـا تـمـنَّـى
والـرزقُ يـأتـي بـلا عـنـاءٍ وربـمـا فـات مَـنْ تـعـنَّـى

كان وهب بن منبه يعظ عطاء الخراساني ويقول له: ألم أُخبَر أنك تأتي الملوك وتحمل عِلمك إليهم؟ يا عطاء ارضَ بالدُّون من الدنيا مع الحكمة ولا تَرْض بالدون من الحكمة مع الدنيا، ويحك يا عطاء إن كان يغنيك ما يكفيك فإن أدنى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يُغنيك ما يكفيك فليس من الدنيا شيء يكفيك.

نَـصِـف الـقُـنـوعَ وأيُّـنـا يَـقْـنـعْ أو أيُّـنـا يـرضـى بـمـا يـجـمـعْ
لـلَّه دَرّ ذوي الـقـنـاعـة مـا أصْـفَـى مـعـاشَـهـمُ ومـا أوسَـعْ

---

(١) أ: بمن. (٢) الأصل: ولا تهلك. وهو تحريف.
(٣) الأصل: يجازع.

مـن كـان يـبـغـي أن يـلـذّ وأنْ تُـهـدى جـوارُحه فـمـا يـطـمـعْ
فقْر النفـوس بـقـدر حـاجـتـهـا وغِنى النفوس بقدر ما تـقْـنـعْ

عَرِيَ أويْس رحمة اللَّه عليه حتى جلس في قوْصرَة [١]، وقدِم بشر الحافي من عَبادان ليلًا وهو مُتَّزر بحصير، وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخِرق من المزابل ويغسلها ويلفقها فيقال له: إنك تُكسى خيرًا من هذا، فيقول: ما ضَرّهم ما أصابهم في الدنيا جبر اللَّه تعالى لهم بالجنة كلَّ مصيبة [٢].

وأُتي إبراهيم بن أدهم بستين ألفًا فردها وقال: كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء.

* * *

رأت عُدّتي فاستراثَتْ [٣] رحيلي سـبـيـلَـك إنَّ سـواهـا سـبـيـلـي
ترجّي قُفولي لها في الثّوى [٤] لعلّ الـمـنـيـة قَـبْـل الـقُـفـولِ
لقد قذفَتْ بيَ صَعْبَ المرام واستجملت ليَ غيرَ الجميلِ
سأَقْنى [٥] العفافَ وأرضى الكَفافَ وليس غِنى النفس جَوْر الخليلِ
ولا أتـصـدّى لـمـدح الـجـواد ولا أسـتـعـدّ لـمـدح الـبـخـيـل
وأعـلـم أن ثـيـاب الـرجـاء تُحِلُّ العزيزَ محلَّ الذليلِ
وأن ليس مُستغنيًا بالكثير من ليس مُستغنيًا بالقليلِ

كتب حكيم إلى أخ له: أما بعد، فاجعل القُنوع ذُخرًا ولا تعجل على ثمرة لم تُدْرك، فإنك تدركها في أوانها عَذْبة، والمدبِّر لك أعلم بالوقت الذي يصلح لما تؤمِّل، فثقْ بخيرته لك في أمورك كلها.

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه بسنده، عن يحيى بن عروة بن أُذينة قال: لما أتى أبي وجماعة من الشعراء هشامَ بن عبد الملك فأنشدوه، فلما عرف أبي قال: ألست القائل:

لقد علمتُ وما الإسراف من خُلُقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنِّيني تطلُّبه ولو قعدتُ أتاني لا يُعنِّيني

---

(١) القوصرة: وعاء للتمر.

(٢) ينبغي فهم هذه النصوص على وجهها، فهي دعوة إلى الزهد في الحرام، ولا ينبغي أن تتخذ ذريعة إلى تحريم الطيبات.

(٣) استراثت: استبطأت. (٤) الثوى: مكان الثواء، وهو الإقامة.

(٥) أقنى: أحفظ وألزم.

فهلا جلستَ في بيتك حتى يأتيك؟ فسكت أبي ولم يجبه، فلما خرجوا من عنده جلس أبي على راحلته حتى أتى المدينة، وأمر هشام بجوائزهم ففقدَ أبي فسأل عنه، فلما خبِّر بانصرافه قال: لا جرم والله لَيَعلمن أن ذلك سيأتيه، ثم أضْعف له ما أعطى واحدًا من أصحابه وكتب له فريضتين.

إذا ضنَّ من ترجو عليك بنفعه ... فدَعْه فإن الرزق في الأرض واسعُ
ومن كانت الدنيا مُناه وهمَّه ... سباه المنى واستعبدتْه المطامعُ
ومن عَقَل استحيى وأكرم نفسه ... ومن قَنعَ استغنى فهل أنت قانعُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [1]

يا من هو على محبة الدنيا مُتهالك، أمَا علمت أنك عن قليل هالك؟! أما تيقنت أن الدنيا محبوب تارك؟! ثم لست لها بعد العلم بها بتارك، قدّر أنك ملكْت الممالك، أمَا الأخيرُ سَلْبك من أهلك ومالك؟! هذا حسام الموت مَسلول، ليس بكالٍّ ولا مفلول، وكلُّ دم أراقه مطْلول، أذلَّ والله أصعب الحُمس [2]، وفتك قبرًا بالأسود الشُّمس [3] وفلَّ السيفَ ولم يُفلّ بالتُّرس، وساوى في القبر بن الزَّنج والفُرس، وأعاد الفصحاء تحت البلاء كالخُرس، ومحا بالتّرح أثر الفرح بالعرس.

يغدو ابنُ آدم للمعاش فيَلْـ ... ـقاه الحِمام بأضيق الطُّرقِ
لا يَبْهجنَّ بمُلكه مَلك ... فالبدر غايته إلى المحق

أين الوالدون وما ولدوا؟! أين الجبارون، وأين ما قصدوا؟! أين أرباب المعاصي على ماذا وردوا؟! أما جَنوا ثمرات ما جنَوْا وحصدوا؟! أما قدموا على أعمالهم في مآلهم ووفدوا؟! أما خَلَوا في ظلمات القبور؟! بكوا والله وانفردوا، أما ذلوا وقلُّوا بعد أن عَتوْا ومَردُوا؟! أما طلبوا زادًا يكفي في طريقهم ففقدوا؟! أما حلَّ الموتُ فحلَّ عقْد ما عقدوا؟ عاينوا والله كلَّ ما قدموا ووجدوا، فمنهم أقوامٌ شَقوا وأقوامٌ سعدوا.

---

(١) سورة المؤمنون: ١٥.

(٢) الحمس: جمع أحمس، وهو الشديد الصلب في القتال.

(٣) الشمس: جمع أشمس، وهو القوي الشديد.

لا والـــدٌ خـــالـــدٌ ولا ولـــدُ كلُّ جليد يخونه الجلدُ (١)
كأن أهل القبور لم يسكنوا الدُّ ور ولـم يَـحْـي مـنـهـمُ أحـدُ
ولـم يـكـونوا إلا كـهـيئـتـهـم لم يولدوا قبلها ولم يلدوا
[يا من نَعى من مضى كذاك غدًا تُنعى، فبادر فقد أتاك غَدُ] (٢)
يا ناسي الموت وهو يذكره ما لك (٣) بالموت إذ أتاك يدُ
دارُك دارٌ يموت ساكنها دارك يُبلي جديدها الأبَدُ
تبكي على من مضى وأنت غدًا يُوردك الموتُ في الذي وردوا
لو كنت تدري ماذا يريد بك الـ ـموْتُ لأبكى جفونك السُّهد

* * *

أين الذين ملكوا ونالوا؟ زالوا، وستئول إلى ما إليه آلوا، هذا مصيرنا يا معاشر الغافلين، واللُّحود بيوتنا بعد الترف واللِّين، والقيامة تجمعنا وتُنصب الموازين، والأهوال عظيمة فأين المتفكر الحزين؟ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٤).

يا رهين الآفات والمصائب، يا أسير الطارقات النوائب، إياك وإيا الآمال الكواذب، فالدنيا دارٌ ولكنْ ليست بصاحب، أما أرتْك في فعلها العجائب فيمن مضى في المشارق والمغارب، ثم أرتك فيك شيب الذوائب، إن سهام الموت لصوائب، لا يردُّها محارب ولا يفوتها هارب، تدبُّ إلينا دبيبَ العقارب بينما نسمع صوتَ مِزْهر صار صوت نادب، يا أسير حب الدنيا إن قَتَلتك مَنْ تطالب، كأنك بك قد بِتّ فرحًا مسرورًا فأصبحت تَرِحًا مثْبورًا، وتُرك مالك لغيرك موفورًا، وخرج من يدك فصار للكلِّ شورى، وعاينتَ ما فعلت في الكتاب مسطورًا، وعلمت أنك كنت في الهوى مغرورًا، واستحال صبا الصِّبا فعادت دَبُورًا، وأُسكنت لحدًا تصير فيه مأسورًا، ونزلت جَدَثًا خَربًا إذ تركت قصرًا معمورًا، ودخلت في خبر كان ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (٥).

ومـا هـذه الـدنـيـا بـدار إقـامـةٍ فيحزن فيها القاطنُ المترحِّلُ
هـي الـدار إلا أنـهـا كـمـفـازةٍ أناخَ بها ركبٌ وركبٌ تحمَّلوا
وإنا لمن مرِّ الجديدين في الوغَى إذا مرَّ منها جَحْفل كرَّ جَحفلُ

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية انظر ديوانه : ص ٥.
(٢) لم يرد هذا البيت في الديوان.
(٣) الديوان: هل لك بالموت إن أتاك.
(٤) سورة الأنعام: ١٣٤.
(٥) سورة الأحزاب: ٣٨.

تجرِّد نصْلًا والخلائقُ مِفْصَلٌ وتُنبض سهمًا والبرية مَقتْلُ
وما خَلفنا منها مفرٌّ لهاربٍ فكيف لمن رام النجاة التخيُّل
وكلٌّ وإنْ طال الثَّواء مصيره إلى موردٍ ما عنه للخلق معدَل

الموت مُسْرع مجدٌّ غير رائث، والأموال عن قليل تمضي للوارث، وكأنك بوقوع الحادثات وحصاد الحارث، يا طويل الأمل هل قلبك لابث؟ لا تسمعن المُحال فلست بماكث، يا مطالبًا بالجد وهو لاعب عابث، يا معاهِدًا باللسان والعزم ناكث، يا من أعماله إذا فتِّشت خبائث، صرَّح الشيب وطال ما مَجْمَج [1] ووضح فجره وما كان قد تبلَّج، أوضح طريق الحذر وبيَّن المنهج، أين الشباب؟ رحل مُسرعًا وهَمْلج [2]، إن نار الفراق في القلب تتأجج، إن فؤاد المتفكر يكاد أن ينضج، هذه خيول الرحيل قد أقيمت تُسرج، والشكوك قد أزيلت والحقُّ أبلج، هذا وأنت بالمعاصي مُغرى وتلهج، لك كأس من المنون صِرْف لا يُمزج، يا من هو في الكفن عن قليل تُدْرج، يا لابسًا حُلّة من البلاء لم تُنسج، يا من بضاعته إذا نُقدت كلها بَهْرج، يا سالكًا طريقُ الهوى عَوْسج [3]، كيف الطمع في المرتجَى والباب مُرتج، يا من ضيقت الذنوب خِناقه أين المخرج، يا عظيم فقْرك في القبر مَنْ منك أحْوج، ما هذا الغرور أيُّ مطمئن لم يُزعج.

أخْلق الدهرُ الشبَاب الحسَنا ما أظن الوقتَ إلا قد دَنا
قد قَطعْنا في التصابي بُرْهةً وجرَرنا في الذنوب الرَّسنا
وركبنا غيَّنا جهلًا به فوجدناه علينا لا لنا
وشرَبنا الدُّونَ بالدِّين فما عُذر من قد باع بيعًا غُبِنا

لقد بان السبيل ولاح المنهج، فما للقلب عن الهدى قد عرّج، أما يُزعجك الترهيب؟ أما يَشُوقك الترغيب؟ إلام تروغ عن النصح روغان الذِّيب، وتلفَّت إلى أحاديث المنى الأكاذيب، قف على باب: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ [4] لتسمع: ﴿ لَا تَثْرِيبَ ﴾ [5] من التوفيق رَفْض التواني، ومن الخذُلان مسامرة الأماني.

إخواني: نذيركم قد صدق، والمجتهد قد سبق، وقد مضى نهارُ العمر وبقي الشَّفق، وآخر جرْعة اللذة شَرَق، وصاحب الدنيا منها على فرَق، رب غُصن ناضر كُسر إذا

(١) مجمجم في خبره: لم يبينه. (٢) هملج: أسرع في جريه. (٣) العوسج: المعوج.
(٤) سورة يوسف: ٩١. (٥) سورة يوسف: ٩٢.

سبق، ربَّ زرع قامت سوقه رماه الغرق، أين الرفيق؟ ساقه سوَّاق ما رفق، هذا وكلكم يدري أين انطلق، أما رأيتم مضجعه في القبر بالحدق، وا عجبًا لقلب المتفكر كيف ما احترق، أما شاهدتموه، وقد تقطعت منه العُلَق [١]، وتقمص بعد عُريه جلبابَ الخوف والفرَق، وخرس لسانه وقد طال ما نطق:

فما تزَّود مما كان يجمعه   إلا حَنُوطا غداة البيْن في خِرَق
وغير نفخة أعوادٍ [٢] يُشَبُّ له   وقَلَّ ذلك من زادٍ لُمنطلقِ

أيها المتيقظون وهم نائمون، أتبنون ما لا تَسْكنون، وتجمعون ما لا تأكلون؟! كيف شئتم فستُنْقلون؟ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

يا مقيمين سترحلون، يا مستقرين ما تُتْركون، يا غافلين عن الرحيل ستَظْعنون، أراكم متوطِّنين تأمنون المنون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

طول نهاركم تلعبون وطول ليلكم ترقدون، والفرائض ما تؤدُّون، وقد رضيتم عن الغالي بالدُّون، لا تفعلوا ما تفعلون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

أما الأموال فتجمعون والحقَّ فيها ما تُخرجون، وأما الصلاة فتضيعون وإذا صليتم تَنْقرون، أترى هذا إلى كم يكون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

أين العتاة المتجبرون، أين الفراعنة المتسلطون، أين أهل الخيلاء المتكبرون، قدِّروا أنكم صِرْتم كهم أما تسمعون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

ما نفعتهم الحصون ولا رُدَّ المال المصُون، هبَّت زَعْزع الموت فكسرت الغصون، قدِّروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

تقلَّبوا من اللذات في فنون، وأخرجهم البطَر إلى الجنون، فأتاهم ما هم عنه غافلون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

لو حصَل لكم كلُّ ما تحبون ونما جميع ما تؤتون، ونلتم من الأماني ما تشتهون، أينفعكم حين ترحلون؟ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

إلى متى وحتى متى تُنصحون وأنتم تكسبون الخطايا وتجترحون، أآمنتم وأنتم تسرحون ذِئبَ هلاك فلا تبرحون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

لا تفرحوا بما تفرحون، فإنه لغيركم حين تُطرحون، وإياكم أن يراكم مَنْ برَاكُم تمرحون، قد خسرتم إلى الآن فما تربحون، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

---

(١) العلق: جمع علقة وهي ما يتعلق به.   (٢) الأعواد: الخشب.

ويحكم الدنيا دار ابتلاء وفُتون، وقد زجَركم عنها المُفتون، وكم رأيتم من هالك بها مفتون، وكأنكم بكم قِدحٌ [1] مُلْتمٌّ على المُتون، كم أدلكم على النظافة وتختارون الأتُون.

* * *
* *
*

(١) القدح: السهم.

المجلس الثاني

في ذكر السموات وما فيهن

الحمد لله الذي رفع السموات مزينةً بزينة النجوم، ومثبِّت الأرض بجبال في أقاصي التُّخوم، عالم الأشياء بعلم واحد وإن تعدد المعلوم، ومقدِّر المحبوب والمكروه والمحمود والمذموم، لا ينفع مع منعه سعي فكم مجتهد محروم، ولا يضر مع إعطائه عجْز فكم عاجز وافر المقسوم، اطلع على بواطن الأسرار وعلم خفايا المكتوم، وسمع صوت المريض المدْنف المحروم، وأبصر وقع القطر في سحاب مركوم ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١).

جلَّ أن تحيط به الأفكار أو تتخيله الوهوم، وتكلم فكلامه مسموع مقروء مرْقوم، وقضى فقضاؤه إذا شاء إنفاذه محتوم، وبتقديره معصية العاصي وعصمة المعصوم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (٢).

قضى على الأحياء بالممات، فإذا بلغت الحلقوم فات المقصودُ المرام وعزَّ المطلوب المَرُوم، ونقل الآدمي عن جملة الوجود إلى حيز المعدوم، وبقي أسير أرضه إلى يوم عرْضه والقدوم، فإذا حضر حسابه نُشر كتابه المختوم وجوزي على ما حواه المكتوب وجَمعه المرقوم ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ (٣).

أحمده حمدًا يتصل ويدوم، وأشهد أنه خالق الأعيان والرسوم، وأصلي على رسوله محمد صلاة تبلغه على المرُوم، وعلى صاحبه أبي بكر الصِّديق على السائل والمحروم، وعلى عمر المنتصف بين الظالم والمظلوم، وعلى عثمان المتهجد إذا رقد النؤوم، وعلى عليٍّ الذي حاز الشرف والعُلوم، وعلى عمه العباس سيد الأعمام على الخصوص والعموم.

* * *

قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ...﴾ (٤)

خلق الله ﷻ الماء فثار منه دخان فبنى منه السموات، قال أبو القاسم بن أبي برَّة:

---

(١) سورة الحجر: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٣) سورة طه: ١١١.

(٤) سورة ق: ٦.

السماء بيضاء لكن من بُعدها تُرى خضراء، وقال الربيع بن أنس: السموات أولها موْج مكفوف، والثانية من صخرة، والثالثة من حديد، والرابعة من صُفر أو نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوتة حمراء [١].

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القُبة.

وقال أبو الحسين بن المنادى: لا اختلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكُرة، فإنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدور الكرة على قُطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال والآخر في ناحية الجنوب، وكرة الأرض مبنية في وسط كرة السماء كالنقطة من الدائرة.

وفي حديث العباس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: « هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ » قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: « بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة » [٢]، وكنف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض.

قال العلماء: وكذلك الأرضون السبع في كثافتها وبُعْد ما بين الواحدة والأخرى، فذلك مسيرة أربع عشر ألف سنة، سوى ما تحت الأرض من الظُّلمة والنور، وما فوق السموات من الحُجب والظلمة إلى العرش، وهذا على قدر مسير الآدمي الضعيف، فأما الملَك فإنه يخرق ذلك في ساعة واحدة.

وفي حديث حذيفة ﷺ، عن النبي ﷺ: « إن اللّه ﷻ لمّا أبرم خلقه فلم يبق غير آدم خلق شمسين من نور عرشه، ثم أرسل جبريل فأمرّ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فمحا عنه الضوء وبقي فيه النور » [٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « إن الشمس تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها » [٤].

وأصغر النجوم بقدر الدنيا مرات، وفي السماء السابعة البيت المعمور، يدخله كل

---

(١) هذه أساطير لا وجه لها من الحق.

(٢) من حديث أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الرحمن، حديث رقم: ٢٥٤، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه الإمام أحمد في مسنده، برقم: ١١٧٣٧.

(٣) هذا حديث موضوع ذكره في اللآلئ المصنوعة: ٥٦/١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٢٥٠، والمقصود تصوير خضوعها لأمر اللّه وجريانها بقدره.

يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، وبعد السماء السابعة سِدْرة المنتهى، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيُقبض منها.

وبعد هذا الكرسيّ، قال ﷺ: « ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلْقة مُلقاة في أرض فلاة » (١) ثم العرش وهو ياقوتة حمراء.

فأما الملائكة ففي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « خلقت الملائكة من نور » (٢).

ومن أعظم الملائكة خَلقًا حملةُ العرش، وعددهم اليوم أربعة، أحدهم على صورة البشر، قد وكِّل بالدعاء لنَسْل الآدمي، والآخر على صورة النَّسر قد وكل بالدعاء لأجناس الطير، والآخر على صورة الثور قد وكل بالدعاء للنسل البهيمي، والآخر على صورة السبع قد وكل بالدعاء لأجناس السباع، فإذا جاءت القيامة زيد فيهم أربعة (٣).

أخبرنا عبد الأول بن عيسى، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « أُذن لي أن أحدِّث عن ملك من ملائكة اللّه من حملة العرش ما بين شَحْمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة » (٤).

أخبرنا عبد الأول بسنده عن سعيد بن أبي سعيد المقْبُريّ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن اللّه عز وجل أَذِن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مثنية تحت العرش وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، قال: فيرد عليه: ما يعْلم ذلك الذي يحلف بي كاذبًا » (٥).

وقال عبد اللّه بن سلام: لما خلق اللّه عز وجل الملائكة واستووا على أقدامهم رفعوا رؤوسهم إلى السماء فقالوا: ربنا مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، برقم: ٩٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، حديث رقم: ٦٠.

(٣) هذه إسرائيليات تسربت إلى أذهان المسلمين، وقد ذكر أمية بن أبي الصلت في شعره أن مِنْ الملائكة مَنْ هو على صورة ثور، ومنهم من هو على صورة رجل، وتلك أساطير لا قيمة لها.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، رقم: ٤٧٢٧، وهو حديث صحيح. تيسير الوصول: ٢٨/٢.

(٥) الذي أخرجه الطبراني في الأوسط عن محمد بن العباس والحاكم في المستدرك: « إن اللّه عز وجل أذن لي أن أحدث عن ديك... إلخ ». وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وهو في مجمع الزوائد: ١٨٠/٤.

فأما أعمال الملائكة فجمهورهم مشغول بالتعبد كما قال الله ﷻ: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ (١).

أخبرنا ابن الحصين بسنده، عن مؤرق، عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد » (٢).

ومن الملائكة موكّل بعمل، فمنهم حمَلة العرش قد وكلوا بحمله، وجبريل صاحب الوحي والغلظة، فهو ينزل بالوحي ويتولى إهلاك المكذبين، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب اللوح والصُّور، وعزرائيل قابض الأرواح وله أعوان، وهؤلاء الأربعة هم المقسِّمات أمرًا، ومنهم كُتاب على بني آدم وهم المعقبات، ملكان في الليل وملكان في النهار.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمر، عن همام، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: « الملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يَعْرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فقالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلُّون ». (أخرجاه في الصحيحين) (٣).

ومنهم موكل بالشمس، ومنهم موكل بالقَطْر، والرعدُ صوت ملك يزجر السحاب، والبرْق ضَرْبه إياه بمخاريق (٤)، ومنهم موكل بالرياح والأشجار، قال ابن عباس ﷺ: ليس من شجرة تخرج إلا معها ملك موكل بها.

ومنهم ملائكة سيَّاحون في الأرض يتتبعون مجالس الذِّكر، وملائكة يبلِّغون رسول الله ﷺ من أمته السلام، وملائكة موكلون بمكة والمدينة ليمنعوا عنها الدجال إذا خرج.

ومن الملائكة من هو مشغول بغرس شجر الجنة.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١٧٣/٥. والترمذي في صحيحه، كتاب الزهد، باب رقم: ٩. وابن ماجه في الزهد، باب رقم: ١٩.

(٣) صحيح البخاري: ١٧٣/٢، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، ومواضع المساجد، ونصه: « يتعاقبون فيكم ملائكة »، حديث رقم: ٢١٠.

(٤) المخاريق: جمع مِخْراق. وهو المنديل يلفّ ليضرب به.

قال الحسن: إن أحدهم ليَفْتُر فيقال له: ما لك؟ فيقول: فتر صاحبي عن العمل، فكان الحسن يقول: أمدوهم رحمكم اللَّه.

وقال كعب: إن في الجنة ملكًا يصوغ حِلية أهل الجنة منذ يوم خُلق إلى أن تقوم الساعة.

أخبرنا محمد بن ناصر، عن صفوان بن عمرو قال: سمعت خالد بن معدان يقول: إن للَّه ﷻ ملائكة أربعة يسبِّحون تحت العرش يسبح بتسبيحهم أهل السموات، يقول الملك الأول: سبحان ذي الملك والملكوت، ويقول الثاني: سبحان ذي العزة والجبروت، ويقول الثالث: سبحان الحي الذي لا يموت.

وقال هارون بن رئاب: حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخيم، تقول أربعة: سبحانك وبحمدك على حلْمك بعد عِلْمك، وتقول الأربعة الأخر: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قُدْرتك.

وقال سعيد بن جبير: أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: « إن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة ». وقد روينا أن ملكًا نصفه من نار ونصفه من ثلج وهو يقول: يا من ألَّف بين الثلج والنار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، ألِّف بين عبادك المؤمنين (١).

* * *

الكلام على البسملة

بينما المرء غافل إذ أتاه ... من يد الموت سالبٌ لا يُصدُّ
فتأهبْ لما له كلُّ نفسٍ ... عُرْضة الأسْر إنما الأمر جدّ
خاب من كان همه هذه الد ... نيا فأضحى من نِيلها يستمدُّ
فَجَناها إن أسْعدت مُستعار ... ليس من ردِّه لمن نال بدُّ
كم أدالت من أهلها وأزالت ... ذا جلال من نعمةٍ لا تُحَدُّ
بدّلته من طيب مغناه فقرًا ... عادمًا ما حوى ولم يُغن جدُّ
أين من كان ناعم الوجه أضحى ... ما له من نهاية الحسن ضدّ

---

(١) من حديث طويل موضوع ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة : ٦٤/١، قال ابن الجوزي: موضوع، والمتهم به ميسرة كذاب وضاع.

قد محاه ثراه حين حواه ووهى مِعْصم وكفٌّ وزنْدُ
وجفا أُنْسه أخٌ كان بَرًّا وصديقٌ دانٍ وصَحْبٌ وجُندُ
واستوى في البلى رئيس ومرْؤوس وأعْيا بالأسْر حُرٌّ وعَبْدُ

يا غافلًا قد طُلب، يا مخاصمًا قد غُلب، يا واثقًا قد سُلب، يا حازمًا قد خُلب كأنه به قد قُلب، إياك والدنيا فما الدنيا بمأمونة، وتزود للسفر فلا بد من مؤونة، إذا قدرتَ على الكمال فلا ترضَ دونه، واصدق في أمرك تأتك المعونة، أين المغرورون بغرورها؟ أين المسرورون بسرورها؟ صاح بهم الموتُ فأجابوا، واستحضرهم البِلى فغابوا، ظنوا بلوغ الآمال وتوهموا، واعتقدوا دوام السلامة فلم يسلموا، وأُعلموا بالرحيل وكأنهم لم يعلموا، وناولوا أنفسهم أعنَّة الهوى وسلَّموا، كم هتف بهم نذير الفراق فلم يفهموا، فلما بلغوا منتهى الآجال ولم يظلموا، خلوا في ألحادهم بما كانوا قدموا.

ولسنا بأبقى منهمُ غير أننا أقمنا قليلًا بعدهم وتقدَّموا

* * *

أفٍّ لنفسٍ تُؤثر ما يضيرها، ما ترعوي وقد مرَّ نظيرها، ما تُصغي إلى المواعظ وقد قال نذيرها، أما نهاها لما علاها قَتيرها [1]؟! أما لاح لبصر البصيرة مصيرها؟! أما يرجع إلى العقول مستشيرها؟! أتقْدر على نفس إن تلفت تستعيرها؟ قل لهذه النفس الجهولة في فعلها: ويحها إنما تسعى في قتلها، أما لها عِبر ممن كان قَبْلها؟! كأنها بها تبكي على الأيام كلها، إذا حانت المنية وبعثت بعضَ رسلها، وعبثت يدُ القاطع بموصول حبلها، وامتدت كفُّ الأجل إلى عُرى الأمل تحلُّها.

تساوى الناسُ في طُرُق المنايا فما سَلِم الصريحُ ولا الهجينُ
تدَيَّنا البقاء من الليالي ومن أرواحنا تُوفَى الديونُ
كأنا قد شكَكْنا في المنايا وعند جميعنا الخبر اليقينُ

إخواني: تأملوا العواقب تأمُّلٍ من يراقب، وتفكروا في النهاية فعين العقل ترى الغاية، الموت قريبٌ أمَم، كم أهلك من أُمم، لقد ارتهن الذِّمم وتشبَّث باللِّمم، فيا من ستَخْلق منه الرِّمم أسَماع أم صَمم، من ارتحل بغير الطبع حسُن وحزُم، من علم شرف المطلوب جدَّ وعزم، إنما يكون الاجتهاد على قدر الهِمم، إنما ينافَس في المطلوب على حسب القيم.

---

(١) القتير: الشيب، أو أوله.

وحبُّ دنياك طَبع في المقيم بها ... وقد مُنيتَ بقرنٍ منه غَلَّابِ
لما رأيتُ سجايا الدهر تُرحِضني [(١)] ... رددْت قدْري إلى صبري فأغْلى بي
والعقل يسعى لنفسي في مصالحها ... فما لطبعٍ إلى الآفات جذَّاب
احذَرْ من الناس أدناهم وأبعدهم ... وإن لَقوك بتبجيلٍ وتَرْحابِ
كلمتُ باللحْن أهلَ اللحن أُونسهم ... لأن عيبي عند القوم إعرابي
عند الفراقد أسراري مخبَّأة ... إذ لستُ أرضى لآرابي بآرابِ [(٢)]

أيها الشاب تدبر أمرك فإنك في زمن الربح ووقت البَذر وإبان الفضائل، احذر أن يخدعك العدوُّ عن نفيس هذا الجوهر فُتنفقه بكفِّ التبذير، تاللَّه لئن فعلتَ لتغرسنَّ بذلك شجرة الندامة فيتساقط عليك من كل فَنَن [(٣)] منها فنُّ حسرة، واعرف قدر ما تؤمِّن به هذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدوّ له، فصابرْ فكأن قد انقضى الموسم.

واعلم أن الشيطان يراصدك ليفتنك وقوةُ الطبع له عليك، والشباب شُعْبة من الجنون، فاكسر عادية الهوى بوهن أسبابه.

وقال أبو موسى: طوبى لمن وُقي شرَّ شبابه، وقال أبو بكر بن عياش: وددتُّ أنه صُفح لي عما كان في الشباب وأن يدي قُطعت.

واعلم أنه لما كان جهاد الشباب ومخالفة الطبع صعبًا صار الشابُّ التائب حبيب اللَّه ﷻ.

إخواني: من رأى التناهي في المبادي سَلِم، ومن لم ير العواقب شغله ما هو فيه عما بين يديه.

يا هذا: أمَّا ما قد مضى من ذنوبك فليس فيه حيلة إلا التدارك، فربَّ مُدرك لما فات، الأسى بالأسى، وأنا أضرب لك مثلًا لتحذر فيما بعد جنسَ ما كان قبل: إذا راقت الحلواءُ المحمومَ اعترك الهوى والعقل فالهوى ينظر إلى العاجل، والعقل يتلمح العواقب، فإن آثر مَشُورة العقل منع نفسه عما تشتهي نظرًا إلى ما إليه الصبر ينتهي، فإذا زالت

---

(١) ترحضني: تعنيني وتتعبني.

(٢) الفراقد جمع فرقد وهو النجم الذي يهتدى به. وآراب الأولى: جمع إرب وهو الحاجة. وآراب الثانية: جمع إرب أيضًا وهو العقل، وهذا البيت ورد في اللزوميات لأبي العلاء: ١/١٥٨، وكذلك الذي قبله. والأبيات الباقية من صنعة ابن الجوزي.

(٣) الفنن: الغصن.

حُمَّاه تناول من غير أذًى ما اشتهاه، وإن اجتذبه رائق المشتهى فأنساه المنتهى تمتَّع يسيرًا ببلوغ الغرض فزاد به ذلك المرض، وربما ترقَّى إلى الموت ولا تَدارُك بعد الفوْت، فيا عجبًا لمختار العاجل وهو يعلم ندمه في الآجل، لقد ضيَّع موهبة العقل الذي به شَرُف الآدمي، وزاحَم البهائم في مقام النظر إلى الحاضر.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً... ﴾ (١)

الجاثية: الجالسة على الرُّكَب، والمعنى أنها غير مطمئنة، والأقدام يوم القيامة مثل النبْل في الجُعبة، والسعيد من يجد لقدميه موضعا.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا.... ﴿٢٨﴾ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: كتاب حسناتها وسيئاتها. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: كتابها الذي أنزل على رسولها. ذكره الماوردي.

قال ابن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها يرون أكوابها وكواعبها، ويعْرق الرجل حتى يرشح عرقه في الأرض قامةً ثم يرتفع إلى أنفه، وما مسّه الحساب بعد! قالوا: ومما ذاك؟ قال: مما يرى الناسَ يُصنع بهم. قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على كراسي قد ظُلل عليهم بالغمام، ما طولُ ذلك اليوم عليهم إلا كساعة من نهار.

* * *

يا من قد ملأ كتابه بالقبيح وهو عن قليل رهْن الضريح، ألا تمحو قُبح ما سطَّرت، هلا تدبرت ما تُملي ونظرت، لقد سوّدت الكتاب بالزلل، وأكثر ما دخل المنطقَ الدَّخل، وحتام وإلام؟ أبقي شيء بعد وَهَن العظام؟

يا دائمًا على هجره وإعراضه، يا ساعيًا في هواه وأغراضه، يا من قد أخذ بناءُ جسمه في انتقاضه، عليل الخطايا لا يزال في إمراضه، هذا عسكر الممات قد دنا بارتكاضه، هذا برْق العتاب قد لجَّ بإيماضه، كيف قدر جفن العاصي على إغماضه، كيف ينسى ما قد مات قِدْمًا من أبعاضه، لو سمع صخرُ الفلاة لومَك أو ذاق الألم من إمْضاضه، لعادت

---

(١) سورة الجاثية: ٢٨.

جلاميدُ الفَلا كرَضْراضه (١)، يا من يعلم غلط عُذره ووجه إدحاضه، يا ساعيًا إلى ما يؤذي بركاضه، يا هاجرًا نصيحه ليته أبغض قبيحه كإبغاضه، استقرض المالكُ بعض مالك وتقعد عن إقراضه، لقد أنذرك سهمُ الردَى وقوعَه قبل إنْباضه (٢)، فأحدَّ حدَّ حديدته وأسنَّه (٣) بمقراضه:

بادرْ بمعروفك آفاتِه ... فبِنْية الدنيا على القُلْعه (٤)

وازرع زروعًا يُرتضى رِيعها ... يومًا فكلٌّ حاصدٌ زَرْعهْ

* * *

أفّ لعيش آخره الندامة، آهٍ من سفرٍ نهايته بدايةُ القيامة.

إخواني: هذا نذير الموت قد غدا يقول: الرحيلُ غدًا، كأنكم والله والأمر معًا، طوبى لمن سمع فوعَى، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصُّور بالصُّوَر، فخرجت تسعى من تحت المدَر، وقد رُجَّت الأرض وبُسَّت الجبال، وشخصت الأبصار لتلك الأهوال، وطارت الصحائف فقلق الخائف وشاب الصغار، وبان الصَّغار، وزفرت النار وأحاطت الأوزار، ونُصب الصراط وآلمت السِّياط، وحضر الحسابُ وقوِي العذاب، وشهد الكِتاب وتقطعت الأسباب، فكم من شيخ يقول: وا شيبتاه، وكم من كهل ينادي: وا خيبتاه، وكم من شاب يصيح: وا شباباه، برزت النارُ فأحْرقت، وزفرت غضبًا فمزَّقت، وتقطعت الأفئدة وتفرَّقت، وقامت ضوضاء الجدل، وأحاط بصاحبه العمل، والأحداقُ قد سالت والأعناق قد مالت، والألوان قد حالت، والمحن قد توالت، أين عُدَّتك لذلك الزمان؟! أين تصحيح اليقين والإيمان، أترضى يومئذ بالخسران؟! أما تعلم أنك كما تدين تدان؟!

كم في كتابك من زَلل، كم في عملك من خَلل، هذا وقد قَرُب الأجل، إي والله أجل، كم ضيعتَ واجبًا وفرضًا، ونقضت عهدًا مُحْكمًا نقضًا، وأتيت حرامًا صريحًا محضًا، يا أجسادًا صِحَاحًا فيها قلوبٌ مرْضى.

* * *

(١) الإمضاض: مصدر أمضه الأمر إذا أحزنه. والجلاميد: جمع جلمد وهو الصخر. والفلا: الصحراء. والرضراض: الحصى أو صغارها.

(٢) الإنباض: تحريك القوس لينطلق السهم.

(٣) الأصل: وانتبه.

(٤) القلعة: الانقلاع. قال في القاموس: ومنزلنا منزل قلعة: أي ليس بمستوطن. أو معناه لا نملكه أو لا ندري متى نتحول عنه.

عباد الله: أطْول الناس حُزنًا في الدنيا أكثرهم فرحًا في الآخرة، وأشد الناس خوفًا في الدنيا أكثرهم أمنًا في الآخرة، يقول الله ﷻ: « أنا لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمْنين، إذا أمِنني في الدنيا أخفْته في الآخرة، وإذا خافني في الدنيا أمَّنته في الآخرة » (١).

إخواني: المؤمن يتقلب في الدنيا على جمرات الحذر في نيران الخوف، يرهب العاقبة ويحذر المعاقبة، فالنار متمكنة من سويداء قلبه، إن هو هفا توقدت في باطنه نارُ الندم، وإن تذكَّر ذنبًا اضطرمت نار الحزن، وإن تفكر في منقلبه التهبت نار الحذر، وإن صفا قلبه لمحبة خالقه صار القلب جمرةً بنار الفَرَق (٢)، فإذا ورد القيامة عادت ناره نورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا جاز على الصراط لم تقاوم نارُ التعذيب نيرانَ التهذيب، فتنادِي بلسان الاعتراف بالتفضيل: جُز فقد أطفأ نورك لهبي.

فإن هو حضر القيامة على زَلل لم تصدق توبتُه منه، فأوجب ذلك خمود نوره فقد خبت نارُ حذره في باطن قلبه، فإذا لفحته جهنم فأحرقت ظاهره أحست بأثر شُعْلة الخوف في باطنه فكفَّت كفها عنه، فلو قيل لها: أين شدة شِدتك؟ وأين حديدة حدّتك؟ لقالت: لا مقاومة لي بنيران باطنه وإن قلَّت.

يُحرَق بالنار من يحسُّ بها   فمن هو النار كيف يحترقُ

* * *

هذه صفة المؤمن فأين إيمانك هذا لذي الحسنات وقد خسر ميزانك؟! شأنك الخطايا فهلا قرِح شانك (٣) يا مهملًا نفسه سيشهد جِلدك ومكانك، اليقظة اليقظة يا نيام، الحذر الحذر فقد سُلَّ الحُسام، الزهد الزهدَ قبل الفطام، كأنكم بكم في أثواب السَّقام تَرُومون الخلاص وقد عزَّ المرام، فستندمون على ما مضى من الآثام، وتخرس الألسن وينقطع الكلام.

إخواني: أحضروا القلوب لهذا الملام، تالله ما أكرم نفسَه من لا يهينها، ولا يزينها من لا يشينها.

دخل عثمان ﷺ على غلام له يعلف ناقته، فرأى في علفها ما كره فأخذ بأُذن غلامه فعَركها ثم ندم فقال: افعل بي ما فعلتُ بك، فأبى الغلام فلم يَدعه حتى فعل، فجعل عثمان ﷺ يقول له: شُدَّ شدَّ، حتى ظن أنه قد بلغ منه مثل مَا بلغ، ثم قال عثمان: واهًا لقصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة.

---

(١) الترغيب والترهيب: ٤/٤٨٧، وعزاه لابن حبان وإسناده حسن.

(٢) الفرق بفتح الراء: الخوف.

(٣) الشأن: مجرى الدمع في العيون.

كان القوم تحت حَجْر المحاسبة وكأنك مُطْلق.

كان ابن السَّمَّاك يقول: ألا منتبه من رقدته، ألا مستيقظ من غفلته، ألا مُفيق من سكرته، ألا خائف من صَرعته، أقسم باللَّه لو رأيت القيامة تخفق بزلازل أهوالها، وقد علَت النارُ مُشْرفة على أهلها، وجيء بالنبيين والشهداء لسرَّك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة وزلفى.

أبَعْدَ الدنيا دار مُعْتَمل، أم إلى غير الآخرة مُنْتقل؟ كلا واللَّه لقد صمَّت الأسماع عن المواعظ وذهلت القلوب عن المنافع.

وعظ أعرابي ابنه فقال: أيْ بنيَّ إنه من خاف الموتَ بادر الفوْت، ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات أسرعت به التبعات، والجنة والنار أمامك.

فيا ليتني هامدًا لا أقومُ إذا نهضوا يَنْفُضُون اللِّممْ (١)
ونادى المنادي على غفلة فلم يبق في أذنٍ من صَمَم
وَجاءت صحائفُ قد ضُمِّنت كبائر آثامهم واللَّمم (٢)

* * *

سجع:

يا أسفًا للعصاة في مآبها، إذا قلقت لقطع أسبابها، وغابت في الأسى عند حضور عِتابها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾. قامت الأمم على أقدامها فأقامت تبكي على إقدامها، وسالت عيونٌ من عيون غرامها ندمًا على آثامها في أيامها واحتقابها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾.

ظهرت أهوالٌ لا توصف، وبَدَتْ أمور لا تعْرف، وكشفت حالات لم تكن تُكشف، إن لم تنتبه لهذا فأنت أعْرف، ستعلم من يلوم نفسه عند عذابها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾.

أنت تدري ما في كتابك، وستبكي واللَّه عند عتابك، وستعلم حالك يوم حسابك، إذا كلَّت كلُّ الألسن عن جوابها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾.

يا له يومٌ لا كالأيام، تيقَّظ فيه من غفل ونام، ويحزن كل من فرح في الآثام، وتيقن أن أحْلى ما كنت فيه أحلام، وا عجبًا لضحك نفسٍ البكاء أولى بها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾.

---

(١) اللِّمم: جمع لمة بالكسر وهي: الشعر المجاوز شحمة الأذن.

(٢) اللمم بفتح اللام: صغار الذنوب.

كم من نفس ترى بعين الصلاح تفعل الخير في المساء والصباح، عملت أعمالًا ترجو بها الفلاح، فلاح لها ما لم يكن في حسابها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾.

ذكَّر اللَّه نفوسنا مُرّ شرابها، وجعلنا ممن مدّ باع التقوى فباع وشرى بها، وحفظنا إذا حارت النفوس لشدة أوصابها، ورزقنا قبولَ موعظته فقد أوصى بها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾.

* * *

* *

*

المجلس الثالث

في ذكر الأرض وعجائبها

الحمد للَّه القديم في مجده، الكريم في رِفْده، الرحيم فكل خير من عنده، اللطيف في كل حال بعبده، مدّ الأرض بقدرته والعجبُ في مَده، وزيَّنها بنباتها وألوان ورْده، وسقاها كأس القطر بواسطة برْقه ورعده، وجمع في الغصن الواحد بين الشيء وضده، وقوّم الثمار بالماء من حر الشمس وبرْده، إلهٌ خوّف بوعيده وشوّق بوعده، وقدَّر فاهتدى من هَداه وضلَّ من لم يهده، وسمع فلم يعزب عن سمعه صوت المضطر بعد جهْده، وأبصر فرأى جريان دم العبد في عِرْقه وجلده، وعلم ما في باطن سره من بره وحقده، وعَزْمه وحَزْمه، وبُغضه ووِدِّه، وغمِّه وفكره، وعلمه وقصده، وحلمه وحبه وزهده، ولفِّه ونقْضه، وأخذه وردِّه، وإن كان عاصيًا خلِّي بقبيحه وخطئ بُعده، فسبحان من لا يعترض العقل على أفعاله بل يقف على حده ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (١).

أحمده حمدًا لا يقدر الخلائق على عَدّه، وأصلي على رسوله وعبده، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي كان الإسلام مُنحلًّا لولا قوة شدِّه، وعلى عمر وحيد التدبير في السياسة وفرْده، وعلى عثمان قائم الليل والدمع يجري على خده، وعلى عليٍّ المصلِّي مع الرسول قبل بلوغ رشده، وعلى عمه العباس الذي أخذ له البيعة على جنده.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ... ﴾ (٢)

قال ابن عباس: خلق اللَّه ﷻ الماء فكان على متن الريح، وخلق الحوت فوق الماء، ثم كبَس الأرض عليه فاضطرب النون فمادت الأرض، فأُثْبِتَتْ بالجبال.

وقال السُّدي عن أشياخه: أخرج اللَّه ﷻ من الماء دخانًا سمَا عليه فسمَّاه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقه فجعلها سبع أرضين، فالأرض على حوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملَك، والملك على صخرة، والصخرة

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤. (٢) سورة الحجر: ١٩.

والحوت في الريح. قال وهب: واسم الحوت بهموت [١].

وقال قتادة: عُمران الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ في مثلها، فالسند والهند من ذلك اثنا عشر ألف فرسخ في مثلها، وهم ولد حام، والصين ثمانية آلاف فرسخ في مثلها وهم ولد يافث، والروم ثلاثة آلاف فرسخ في مثلها، والعرب ألف فرسخ وهم والروم جميعًا من ولد سام.

عن النبي ﷺ قال: « لمَّا خلق اللَّه الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله » [٢].

قال العلماء: أول جبل وضع على الأرض جبل أبي قُبيس، وكان أول من بنى فيه رجل يقال له: أبو قُبيس، فسمي بذلك، وكان يقال له في الجاهلية: الأمين؛ لأن الركن كان مستودعًا فيه من زمان الطوفان، وهو أحد الأخْشبين، ومن مشاهير الجبال جبل ثور بمكة، والحجُون جبل واحد بالمدينة، وجبل العَرج بين مكة والمدينة يمضي إلى الشام حتى يتصل بلبنان ثم يتصل بجبال أنطاكية والمصيصة، فيسمى هنالك اللُّكام، وفي سرنديب الجبل الذي أهبط عليه آدم، وعليه العُود والفُلفُل وفيه دابة المسك، وجبل الروم الذي سد فيه ذو القرنين على يأجوج ومأجوج طوله سبعمائة فرسخ وينتهي إلى البحر المظلم.

وقد ذكر قدامة أن الذي وجد في الإقليم الأول من الجبال تسعة عشر، وفي الإقليم الثاني سبعة وعشرون جبلًا، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون، وفي الرابع أربعة وعشرون، وفي الخامس تسعة وعشرون، وفي السادس أربعة وعشرون، وفي السابع أربعة وعشرون أيضًا فجميع ما عُرف من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلًا، وقد أحصيت المعادن كالجِصّ والنّورة فوجدوها سبعمائة معدن.

والأقاليم سبعة: فالإقليم الأول: الهند، والثاني: الحجاز، والثالث: مصر، والرابع: بابل، والخامس: الروم، والسادس: الترك، ويأجوج ومأجوج، والسابع: الصين، ومقدار

(١) هذه أساطير لا سند لها ولا تمثل الفكر الإسلامي الصحيح الذي يترك الظن والتخرص فيما لا علم له به، وإذا أبقينا مثل هذه الأقاويل في كتبنا فإنما نبقيها على أنها تراث قديم قد يفيد في تاريخ العلم في تلك العصور.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١٢٤/٢. والترمذي في صحيحه، كتاب التفسير. برقم: ٣٣٦٩، وهو ضعيف.

كل إقليم سبعمائة فرسخ، والبحر الأعظم محيط بذلك كله يحيط به جبل قاف، وأما الأنهار فمنها النيل والفرات ودِجلة وسيْحان وجيحان.

وكان قد أوحى اللَّه تعالى إلى دانيال ﷺ: احفر لي نهرين بالعراق، فقال: إلهي بأيِّ مَسَاحٍ وبأي رجال؟ فأوحى إليه أن أعدَّ سكة حديد وعرِّضها واجعلها في خشبة فألقها خلفَ ظهرك فإني باعث إليك الملائكة يعينونك، فحفر فكان إذا انتهى إلى أرض أرملة أو يتيم حاد عنها حتى حفر دجلة والفرات.

ومن العجائب في الدنيا:

عن عبد اللَّه بن عمر ﵄ قال: من العجائب التي وصفت في الدنيا أربع: منارة الإسكندرية عليها مرآة حديد يقعد القاعد تحتها قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فيرى من بالقسطينية وبينهما عرْض البحر، وسوداني من نحاس على قضيب من نحاس على الباب الشرقي برومية، فإذا كان أوان الزيتون صفَّر ذلك السوداني فلا يبقى سودانية إلا جاءت معها بثلاث زيتونات: زيتونتان في رجليها وزيتونة في منقارها فألقته على ذلك السوداني فتحمل أهل رومية فيَعْصرون ما يكفيهم لِسُرجهم وإدامهم إلى العام المقبل، ورجل من نحاس بأرض اليمن مادّ يده إلى وراء يقول: ليس ورائي مذْهب ولا مسلك، وهي أرض رَجْراجة لا تستقر عليها الأقدام غزاها ذو القرنين في سبعين ألفًا فخرج عليهم نمل كالبَخَاتيّ [1]، فكانت النملة تخطف الفارس عن فرسه، وبطة من نحاس على عمود من نحاس فيما بين الهند والصين، فإذا كان يوم عاشوراء شربت البطة من الماء حاجتها ومدت منقارها فيفيض من فيها من الماء ما يكفيهم لزروعهم ومواشيهم إلى العام المقبل [2].

* * *

قال العلماء: أول من سكن الأرض الجن، وكانوا يعبدون اللَّه ﷻ، ثم تناول بعضهم بعضًا بالقتل، قال ابن عباس: الجن ضعفاء الجان.

قال مجاهد: ملَك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: سليمان ابن داود وذو القرنين ﵉، والكافران: نمرود وبختنصر.

وقال كعب: ساكن الأرض الثانية الريح العقيم، وساكن الأرض الثالثة حجارة

---

(١) البخاتي: جمع بخت وهي الإبل الخراسانية.

(٢) هذه أيضًا أساطير وتصورات قديمة جانبها الحق ولا دليل لها من الواقع، فلننظر إليها على أنها تصوير لفكر خرافي لا علمي.

جهنم، وفي الرابعة كبريت جهنم، وساكن الأرض الخامسة حيَّات جهنم، وساكن الأرض السادسة عقارب جهنم، وفي السابعة إبليس موثق يدٌ أمامه ويد خلفه، ورِجْل أمامه ورجل خَلْفه فتأتيه جنوده بالأخبار في مكانه ذلك.

فأما الجن فهم ثلاثة أنواع:

جان وجن وشياطين، وكلهم خلقوا قبل آدم.

وفي الجان ثلاثة أقوال:

- **أحدها:** أنه أبو الجن، رواه الضحاك عن ابن عباس، وهو مخلوق من مارج من نار، والمارج: لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.
- **والثاني:** أن الجان هو إبليس، قاله الحسن وعطاء.
- **والثالث:** أن الجان مسيخ الجن كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس، رواه عكرمة عن ابن عباس.

فأما الشيطان فهو كل متجبر عاتٍ من الجن، وكذلك المارد والعفريت.

وفي إبليس قولان:

- **أحدهما:** أنه كان من أشراف الملائكة.
- **والثاني:** أنه كان من الجن.

قال مجاهد: لإبليس خمسة أولاد: نبر والأعور ومسوط وداسم وزلنبور، فأما نبر فهو صاحب المصائب يأمر بشق الجيوب ولطم الخدود، وأما الأعور فيأمر بالزنا، ومسوط صاحب الكذب يلقى الرجل فيخبره بالشيء فيتحدث الرجل به، وداسم يوقع بين الرجل وأهله، وزلنبور يركز رايته في السوق ويوقع بينهم (١).

* * *

الكلام على البسملة

أضحكَ سنَّكَ بُعْدُ الأمل ... ولم يُبكِ عينك قُربُ الأجلْ

كأنك لم ترَ حيًّا يُساق ... ولم ترَ ميْتًا على مُغتسلْ

قل للذين غفلوا ولعبوا كأنهم قد تعبوا: ما لهم عبرة في الذين ذهبوا! أمَا الكأس بيد الساقي ومنه شربوا؟!

---

(١) ليس هذا الكلام حجة على شيء، وإنما هو تصور قُصاص يستثيرون الخيال.

سَير الليالي إلى أعمارنا خَببُ فما تَبِين ولا يعْتاقها نَصبُ
كيف النَّجاء وأيديها مصمِّمة بَذبحْنا بمُدًى ليست لها نُصبُ [1]
وهل يؤمِّل نيْلَ الشَّمْل ملتئمًا سَفْرٌ لهم كل يوم رحْلة عجب
وما إقامتنا في منزل هتفتْ فيه بنا مُذ سكنَّا رَبْعه نُوبُ
وآذنتنا وقد تمت عمارته بأنه عن قليلٍ دائرٌ خربُ
أزْرت بنا هذه الدنيا فما أملٌ إلا لريْب المنايا عنده أربُ
ليست سهامُ الموت طائشةً وهل تطيش سهامٌ كله نُصبُ
ونحن أغراض أنواع البلاء بها قبل الممات فمَرْميٌّ ومُرْتقب
أين الذين تناهوا في ابتنائهم صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا

* * *

انتبهوا يا نيام، افهموا هذا الكلام، قد بقيت لكم أيام، هذا عُود الحياة قد يبس، ونُور الشباب بالشيب منطمس، ولسان الفرح بالترّح قد خرس، وسواء في الموت المهْمِل والمحترس، ولا فرق عنده بين الليِّن والشّرس، إخواني: كم رأيتم من قبر مندرس، إخواني: كم تُلي عليكم زَجْر ودُرس، إخواني: كأنكم في كف المختلس، إنما هو نفَس منطلق وكأن قد حُبس، ترى متى ينقَّى هذا القلب الدنس، إلى كم ذا المريض كل يوم ينتكس، إنما أنت بقية الراحلين فاعتبر بهم وقِسْ.

نائباتٌ في كل يوم تنُوبُ وخُطوبٌ تأتي وتمضي خطوبُ
ما عجيبٌ مَكْر الزمان ولكنْ ثقةُ النفس بالزمان عجيبُ
كم دعتني إلى زخارفها الدنـ ـيا فنادت مني الذي لا يجيبُ
ومتى سامحتْ خليلًا بحظٍّ خالفتها فاسترجعته الخطوبُ
كم إلى كم نَذُود عنها ونَنْهى غير أن القلوب ما تستجيبُ
وصلاح الأجسام سهلٌ ولكن في صلاح القلوب يَعْيا الطبيبُ

الدنيا بحر عجّاج، ليس راكبه بناج، الدنيا كظُلمة ليل داج، ليس فيها إلا الزهدُ سراج، هدوءها انزعاج وسكونها اختلاج، ضيِّقة الفجاج كَدِرة المزاج، لا تغرنك ولو ألبستك التاج، وقد خاطر من حمل في الوَحل الزُّجاج، تريك السلامة تغريرًا

(١) النصب: جمع نصاب، وهي جزأة السكين.

وتمويهًا، وتُظهر المحاسنَ والقبائح وتخفيها، تُبين كلَّ كفٍّ كانت تبنيها، ما تعتذر إلى جريحها كبرًا وتيهًا:

هي الدنيا فلا يغررك منها ... زخارف تستغرُّ ذوي العقولِ
أقلُّ قليلها يكفيك منها ... ولكن ليس تَقْنع بالقليل

* * *

محن الدنيا ولذاتها أنموذج ما في الآخرة، فلو أصغى سمْعُ القلب فَهِم.

لما أهديت مُعاذة العدوية إلى صلة بن أشْيم أدخله ابنُ أخيه الحمّام ثم أدخله بيتًا مطيَّبًا فقام يصلي حتى برق الفجر، فقامت فصلت، قال: فأتيته فقلت: يا عم أُهدِيتْ إليك ابنة عمك فقمت تصلي؟ فقال: يا ابن أخي أدخلتني أمس بيتًا أذكرتني به النار، ثم أدخَلْتني الليلة بيتًا أذكرتني به الجنة، فما زال فكري فيهما إلى الصباح.

يا أيها الراحل وما له رَوَاحل، يكفي في الوعظ أربعون كَوَامل، كلهن من فعْل الخير عَواطِل، متى تسمع قول العاذِل؟! متى تؤثِّر المكاتبات بالرسائل؟! أمَا أنت في صف الحرب تُقاتل؟! هذا العدو يَنْصب الحبائل قد فوّق السهم وأمَّ المَقَاتِل، إلى متى ترضى باسم جاهل؟! إلى متى تؤثر لقب غافل؟! كم تَعِد بالتوبة وكم تماطل، أين قلبك؟ قلبك على مراحل.

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونَقض منزلك وهدم مَشيدك، ومزَّق مالك وفرق عبيدك، وأخلى دارك وملأ بِيدك، أما رأيت قَرينك؟ أما أبصرت فقيدك، يا ميتًا عن قليل مهِّد تمهيدك، وانظر لنفسك مجتهدا وحقق تجويدك، لقد أمرضك الهوى وفي عَزْمه أن يزيدك، يا عجبًا للجاهل المغرور كيف يشتغل بعمارة الدُّور، قد بَعث الموتُ للرحيل المنشور، السّقام أقلامه واللحودُ السطور.

خُذْ ما صفا لك فالحياةُ غرورُ ... والموتُ آتٍ واللبيب خبيرُ
لا تعتبنَّ على الزمان فإنه ... فَلَك على قُطب الهلاك يدورُ
تَعْفو السطور إذا تقادم عهدها ... والخلق في رِقّ الحياة سطورُ
كلٌّ يفِرّ من الردَى ليفوته ... وله إلى ما فرَّ منه مَصيرُ
فانظر لنفسك فالسلامة نُهْزة ... وزمانها ضافِي الجناح يطيرُ
مرآة عيشك بالشباب صَقيلة ... وجناح عمرك بالمشيبِ كسيرُ
بادرْ فإن الوقت سيْفٌ قاطعٌ ... والعمر جيشٌ والشبابُ أميرُ

* * *

قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ... ﴾ (١)

قال المفسرون: تنفرج السماء من المجرَّة لنزول من فيها يوم القيامة.

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ **فيها قولان:**

أحدهما: أنها الفرس الوَرْدة (٢) تكون السماء كلونها، قاله أبو صالح والضحاك، قال الفراء: الفرس الوردة تكون في الربيع إلى الصُّفرة، فإذا اشتد الحر كانت حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت إلى الغُبرة، فشبه تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل.

قال الزجاج: الكُميت: الورد يتلوّن، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف، ولونه في الفصل خلاف لونه في الشتاء والصيف، فالسماء تتلون من الفزع.

والثاني: أنها وردة النبات وقد تختلف ألوانها إلا أن الأغلب عليها الحمرة، ذكره الماوردي.

وفي الدِّهان قولان:

أحدهما: أنه واحد الأديم الأحمر، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه جمع دُهن، والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة، حكاه اليزيدي، وإلى نحوه ذهب مجاهد.

وقال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن.

قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: لا يسألون ليعلم حالهم؛ لأن اللّٰه تعالى أعلم منهم بذلك.

والثاني: لا يسأل بعضهم بعضًا عن حاله؛ لاشتغال كل منهم بنفسه، والقولان عن ابن عباس.

والثالث: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأنهم يُعرفون بسيماهم، فالكافر أسود الوجه والمؤمن أغرّ محجَّل من أثر وضوئه، قاله الفراء.

وقال الزجاج: لا يسأل عن ذنبه ليُفْهم، ولكنه يسأل سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ... ﴿٤١﴾ ﴾:

قال الحسن: بسواد الوجوه وزرق الأعين ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ يسحبون، ذكره الثعلبي.

---

(١) سورة الرحمن: ٣٧.

(٢) الورد من الخيل: بين الكميت والأشقر.

وروى مردويه الصائغ قال: صلى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ سورة الرحمن، ومعنا علي بن الفضيل بن عياض فلما قرأ: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ خرّ مغشيًّا عليه حتى فرغنا من الصلاة، فلما كان بعد ذلك قلنا له: أما سمعت الإمام يقرأ: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ فقال: شغلني عنها ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾:

يعني المشركين، قال رسول اللَّه ﷺ: « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها ». (انفرد بإخراجه مسلم) (١).

قوله ﷻ: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾: **الحميم**: الماء الحار. **والآني**: الذي قد انتهت شدة حره، والمعنى أنهم يسعون بين عذاب الجحيم وبين الحميم، إذا استغاثوا من النار جُعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة.

عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الحميم ليُصبّ على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يَخْلص إلى جوفه حتى يمرق من قدميه ثم يعاد كما كان » (٢).

قوله ﷻ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾: **وفيه قولان:**

أحدهما: قيامه بين يدي ربه يوم الجزاء.

والثاني: قيام اللَّه على عبده بإحصاء ما اكتسب.

قال مجاهد: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ وهو الذي إذا همَّ بمعصية ذكر مقام ربه عليه فيها فانتهى، وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين.

قال الحسن البصري: كان في زمن عمر بن الخطاب ﷺ شاب يلازم المسجد والعبادة، فعشقته امرأة فأتته في خلوة فكلمته، فحدث نفسه بذلك فشهق شهقة فغُشي عليه، فجاء عم له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال: يا عم انطلق إلى عمر ﷺ فأقرئه مني السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فانطلق عمه فأخبر عمر ﷺ، فأتاه عمر ﷺ وقد شهق فمات فوقف عليه عمر وقال: لك جنتان (٣).

عن النبي ﷺ قال: « سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة اللَّه ﷻ، ورجل قلبه معلَّق بالمساجد، ورجلان تحابَّا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعْلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم: ٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٣٧٤/٢. والترمذي في صحيحه، كتاب جهنم، باب رقم: ٤.

(٣) ذم الهوى لابن الجوزي بتحقيقي: ص ٢٥٣، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة بالقاهرة: ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.

ذكر اللَّه ﷻ خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذاتُ منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف اللَّه ﷻ ». (أخرجاه في الصحيحين) (١).

وقال يحيى ابن أبي كثير: لا يُحمد ورعُ امرئ حتى يُشفِي على طمع ويَقْدر عليه فيتركه حين تركه للَّه ﷻ.

* * *

آه من نفس ما يَقَرُّ قَرارها، طلعت شمس الشيب وما خبَتْ نارها، ما لاحت لها شهوة إلا قلَّ اصطبارها، ما بانت لها موعظة فبان اعتبارها، كم وعظها ليلُها ونهَرها نهارُها، الذّنبُ لباسها والجهل شِعارها، كم نُكثر النصائح وما تقلُّ أوزارها، كم تقوَّم وما يصلح ازورارها، كم تُلَاءم لُطفًا وما يرْعوي نِفارها، كلما جذبها أملُها زاد اغترارها، إلى كم مع المعاصي أما يلزمها عارها؟! أساء تدبيرها أم قَبُح اختيارها؟! من يأخذ بيدها إذا طال عِثارها؟!

إنَّ النفس إذا أُطمِعت طَمعت، وإذا أُقنعت باليسير قَنعت، فإذا أردت صلاح مرضها فبترك غرضها، احبس لسانها عن فُضول كلماتها، وغُضَّ طَرْفها عن محرَّم نظراتها، وكُفَّ كفها عن مؤذي شهواتها، إن شئت أن تسعى لها في نجاتها.

إخواني: علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، ما ملكها عبدٌ إلا عَزّ، وما ملكت عبدًا إلا ذلّ.

الحرصُ في كل الأفانين يَصمْ أمَا رأيت كلَّ ظهر ينْقصمْ
وعروةً من كل حيٍّ تنفصم أما سمعت الحادثات تخْتصمْ
بل حُبّك الأشياءَ يُعمي ويُصمّ

قال مالك بن دينار: يقول اللَّه ﷻ: وعزتي إني لأهمّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب.

وقال ميمون بن مِهران: الذِّكر ذكران: ذكر باللسان، وأفضل منه ذكر اللَّه عند ما يُشرف عليه من معاصيه.

عن النبي ﷺ قال: « كان الكِفل من بني إسرائيل لا يتورّع من ذنب، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا، فلما قعد منها مقعد الرجل أُرْعدت وبكتْ فقال: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط، فقال: اذهبي والدنانير لك، ثم قال: واللَّه لا يعصي اللَّه

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم: ١٦. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم: ٩١.

الكفلُ أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غَفر اللَّه للكفل »[١].

يا من لا يترك ذنبًا يقدر عليه، يا من أكثر عمله الذي له عليه، كم ضيعت في المعاصي عَصْرًا، كم حملت على الأزر[٢] من الوزْر أزرًا، أترضى أن تملأ الصحائف عيبًا وخسرًا؟! أما يكفي سَلْب القرين وعْظًا وزجرًا؟! لقد ضيعت شطْرًا من الزمان فاحفظ شَطرًا، ما أبقتْ لك الصحةُ حجةً ولا تركت عُذرًا، كم نعمةٍ نزلت بك وما قرَنْتها شكرًا، تقابلها بالمعاصي فتبدَّل العُرْف نُكْرًا، كم سترك على الخطايا وأنت لا تُقلع دهرًا، كم نمت عن صلاة وكم شربت خمرًا، كان الشيبُ هِلالًا وقد صار بدْرًا، تُعاهِد ولا تفي إلى كم غَدرًا، أطال عليك الأمد فصار القلبُ صَخْرًا؟ إنما بقي القليل فصبْرًا يا نفس صبرًا.

صِبا مَنْ شاب مَفْرقه تَصابي ... وإنْ طلب الصِّبا والقلبُ صابي
أعاذلُ راضَني لك شيبُ رأسي ... ولولا ذاك أعياك اقتضابي[٣]
كفى بالشيب من ناهٍ مُطاع ... على كُرْه ومن داع مُجابِ
حططْتُ إلى النُّهى رَحْلي وكلَّتْ ... مطية باطلي بعدَ الهِباب[٤]
وقُلت مسلِّما للشَّيْب أهلًا ... بهادي المخطئين إلى الصواب
يذكرني الشبابَ وميضُ برْق ... وسجع حمامةٍ وحنين نابِ[٥]
أأفجع بالشباب ولا أعزَّى ... لقد غفل المعزِّي عن مُصابي

سجع:

يا دائم الخطايا والعصيان، يا شديد البطر والطغيان، ربح المتقون ولك الخسران، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

يا معتكفًا على زَلله وذنبه، لا يؤثر عنده أليم عتْبه، أمَّا المصرُّ فقد طُمس على قلبه فلا ينفعه وعظ اللسان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

كم خُوفت وما تخاف، يا من إذا أُمر بالعدل حاف، الويل لك يا صاحب الإسراف ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، برقم: ٢٤٩٦. وأحمد في مسنده، برقم: ٤٧٣٣، وهو ضعيف.
(٢) الأزر: الظهر. والوزر: الإثم. والأزر: الضعف.
(٣) الاقتضاب: مصدر اقتضبه، بمعنى قطعه.
(٤) الهباب: النشاط في السير.
(٥) الناب: الناقة المسنة.

لو رأيت أهل الزيغ والعناد وأرباب المعاصي والفساد مُقَرّنين في الأصفاد ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ (١) ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

قد سُدّت في وجوههم الأبواب وغضب عليهم ربُّ الأرباب، والنار شديدة الالتهاب والعذاب فيها ألوان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

أعرض عنهم الرحيم ومَنَعهم خيره الكريم، ويتقلبون في الجحيم ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ سعيرهم قد أحرق، وزمهريرهم قد مزّق، ونورُ المتقين قد أشرق، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

سارت بهم إلى الجدّ المطايا، فأُجزلت لهم جزيل العطايا، ولأرباب الخطايا النيران، منّ عليهم بنعيم ما مُنّ (٢)، لا يخطر لمن يتوهم ويظن، وقد كفانا صفة الحور مَنْ وصفهن ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أيها العاصي قد اجتهدنا في صلاحك، وعرضنا في التجارة لأرباحك، وأنت على المعاصي في مسائك وصباحك، وبعدُ فما نَيْأس من فلاحك ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

* * *
* *
*

---

(١) سورة إبراهيم: ٥٠.

(٢) مُنّ: قطع.

فهرس محتويات الجزء الأول

الطبقة الثالثة

تنشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات

* * *
* *
*

انتهى الجزء الأول من كتاب
التبصرة لابن الجوزي
ويتلوه الجزء الثاني
وأوله: « الطبقة الرابعة »، وتشتمل على
فضائل العلم والمعاملات

الطبعة الكاملة الموثقة
حققت على سبع نسخ خطية

التبصرة

الجزء الثاني

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

٥١٠ - ٥٩٧هـ

تحقيق

أ. د. مصطفى عبد الواحد

الأستاذ بجامعة أم القرى

ومدير مركز إحياء التراث الإسلامي سابقًا

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج ، ١١١٤ - ١٢٠١ .
التبصرة / للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد . - ط ٢ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢ م .
١٢٤٠ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٦ ٠٠٤ ٢١٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - قصص القرآن .
٢ - الوعظ والإرشاد .
أ - عبد الواحد ، مصطفى (محقق) .
ب - العنوان .
٢٢٩,٥

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

الطبقة الرابعة

تشتمل على فضائل العلم والمعاملات

(وفيها ثمانية وعشرون مجلسًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

في فضائل العلم والعمل

الحمد لله الذي بيده الإيجاد والإنشاء، والإماتة والإحياء، والإعادة والإبداء، والإنعام والآلاء، والرخص والغلاء، والحظ والعلاء، والعافية والبلاء، والداء والدواء، خلق آدم وخُلقت لأجله الأشياء، فمن جَرّاه كانت الأرض والسماء، والظلمات والأضواء، والصباح والمساء، والريح والماء، وعلَّمه فانجلتْ عنه الظّلماء، وعرّفه خطّ الخط فجاء الهجاء: الألف والباء، والتاء والثاء، والجيم والحاء والخاء، والدال والذال والراء والزاي، والسين والشين، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين، والفاء والقاف، والكاف واللام، والميم والنون، والهاء والواو، ولام الألف والياء.

وبثَّ من نَسْله الرجالَ والنساء، فمنهم العالم الذاكر ومنهم الجاهل النسَّاء، وأكثرهم الغافلون وأقلُّهم الألبّاء، وليست زَرْقاء اليمامة كالأعشى، ولا النهارُ كالليل إذا يغشى، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [١].

أحمده له بتوفيقي لحمده الآلاء، وأقرُّ بأنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وأصلي على رسوله محمد أشرف راكبٍ حوتْه البيداء، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق مُصاحبه إن وقعت الشدة أو الرّخاء، وعلى عمر الفاروق الذي دوّخ الكفر فذلت له الأعداء، وعلى عثمان الصابر وقد اشتد به البلاء، وعلى عليٍّ الذي حصل له دون الكل الإخاء، وعلى عمه العباس الذي سألت الصحابة به الغيثَ فسالت السماء.

* * *

قال رسول الله ﷺ: « إن مَثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » [٢].

وهذا المثل من أوقع المثال؛ لأن طريق التوحيد والعلم بالآخرة لا يدرَك بالحسّ وإنما يُعرف بالدليل، والعلماء هم الأدلّاء فإذا فُقدوا ضل السالك.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ١٥٧/٣، وفيه رشدين بن سعد واختلف في الاحتجاج به. وأبو حفص صاحب أنس مجهول. مجمع الزوائد : ١٢١/١.

« إن اللَّه ﷻ لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يَبْق عالم اتخذ العِباد رءوسًا جُهالًا، فَسُئِلوا فأفتوا بغير علم فَضَلُّوا وأَضَلُّوا »(١).

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن صفوان بن عسّال أن النبي ﷺ قال: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب »(٢).

وذكر أبو سليمان الخطابي في معنى وضعها أجنحتها **ثلاثة أقوال: أحدها**: بسط الأجنحة. **والثاني**: أن المراد به التواضع لطالب العلم. **والثالث**: النزول عند مجالس العلم وترك الطَّيران، لقوله ﷺ: « ما من قومٍ يذكرون اللَّه تعالى إلا حفّت بهم الملائكة »(٣).

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ: « واللَّه لأن يَهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعم »(٤).

وروى أبو الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سَلك اللَّه به طريقًا من طُرق الجنة، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر »(٥).

وقال معاذ بن جبل ﷺ : تعلموا العلم فإن تعلُّمه للَّه خشية، وطلبه عبادة، ومُدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قُربة، وهو الأنس في الوحدة والصاحب في الخَلْوة.

وقال كعب: أوحى اللَّه تعالى إلى موسى ﷺ: أنْ تعلّم يا موسى الخير وعلمه للناس، فإني منوِّر لمعلم الخير ومتعلمه في قبورهم حتى لا يَسْتوحشوا في مكانهم.

وقال عيسى ﷺ: من تعلّم وعلّم وعمل فذلك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماء.

وقال ابن عباس ﷺ : خُيِّر سليمان بن داود ﷺ بين العلم والمال والملك، فاختار العلم فأُعطي المال والملك معه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب رقم : ٣٤. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، حديث رقم : ١٣، ١٤. والترمذي، كتاب العلم، باب رقم : ٥.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي. تيسير الوصول : ١٧٢/٣.

(٣) أخرجه مسلم والترمذي. تيسير الوصول : ١٠٥/٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم : ٣٤.

(٥) أخرجه أبو داود والترمذي. تيسير الوصول : ١٧٢/٢.

وقال بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العِلمُ؟ وأي شيء فات من أدرك العلم.

ولا يخفى فضل العلم ببديهة العقل؛ لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق وسبب الخلود في النعيم الدائم، ولا يُعرف التقرب إلى المعبود إلا به، فهو سبب لمصالح الدارين.

قال الحسن: لولا العلماء لصار الناسُ مثل البهائم. وقال المعافَى بن عمران: كتابةُ حديثٍ واحد أحبُّ إليَّ من قيام ليلة.

وكيف لا يقول هذا وقد قال النبي ﷺ: « يوزن مدادُ العلماء مع دم الشهداء فيرجح مدادُ العلماء على دم الشهداء » [١].

* * *

ومن آداب العالم: أن يترك فضول الدنيا ليتبعه الناس، فإن الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول، فإن الطبيب إذا أمر بالحِمْية ثم خلَّط لم يُلتفت إلى قوله.

أخبرنا علي بن عبد اللّه بسنده عن أبي همّام الكُلاعي عن الحسن أنه مرَّ ببعض القرَّاء على بعض أبواب السلاطين. فقال: أقْرحتم جباهكم وفرطحتم نِعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهدوا فيكم! أما إنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هُم الذين يُرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم، تفرَّقوا فرَّق اللّه بين أعضائكم!

وقال الحسن: إن الزبانية إلى فسَقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: ربَّنا ما بالنا يتقدمون علينا؟ فيقول اللّه تعالى: ليس من يعلم كمن لا يعلم!

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: من قرأ القرآن عَظُمت قيمته، ومن تفقّه نَبُل قدره، ومن كَتب الحديث قويت حُجته، ومن تعلم اللغة رقَّ طبْعُه، ومن تعلم الحساب جَزُل رأيه، ومن لم يَصُنْ نفسه لم ينفعه علمه.

سمعت إسماعيل بن أحمد يقول: سمعت عبد اللّه بن عطاء يقول: سمعت أبا نصر الحُواري يقول: سمعت أبا حاتم الرازي يقول بسنده عن يونس بن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: كتب حكيمٌ إلى حكيم: يا أخي قد أُوتيتَ علمًا فلا تدنِّس علمك بظُلمة الذنوب فتبقى في الظُّلمة يوم يسعى أهلُ العلم بنور علمهم.

* * *

(١) أخرجه الشيرازي عن أنس والموهبيّ عن عمران بن حصين وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، انظر الجامع الصغير للسيوطي، حديث رقم : ١٠٠٢٦.

والمأخوذ على المتعلم: **أن يطلب العلم للعمل به**، ففي الحديث: « من طلب العلم ليُباهي به العلماء أو يُماري به السفهاء أو ليَصرف وجوهَ الناس إليه لم يَرِحْ رائحة الجنة » (١).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن أول الناس يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة، فذكر منهم رجلًا تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فيقال له: ما عملتَ؟ فيقول: تعلمتُ فيك العلم وعلمتُه وقرأت القرآن. فيقال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ وقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » (٢).

أخبرنا أبو منصور وعبد الرحمن بن محمد بسندهما عن أبي جعفر عبد الله ابن إسماعيل بن توبة يقول: رأيت أبا بكر الأدَمي القارئ في النوم بعد موته يمد يده، فقلت له: تلك الليالي والمواقف والقرآن؟ فقال لي: ما كان شيء أضرَّ عليَّ منها لأنها كانت للدنيا. فقلت له: فإلى أي شيء انتهى أمرك؟ قال: قال لي تعالى: آليتُ على نفسي أن لا أعذب أبناء الثمانين (٣).

* * *

الكلام على البسملة

نبْني ونَجْمع والآثار تنْدرسُ ... ونأمل اللُّبث والأرواح تُختلسُ
ذا اللب فكِّر فما في الخلد من طمعٍ ... لا بدّ ما ينتهي أمرٌ وينعكسُ
أين الملوك وأبناءُ الملوك ومَنْ ... كانوا إذا الناسُ قاموا هيبةً جلسُوا
ومن سيوفهم في كل معركة ... تُخشى ودونهم الحجَّاب والحرسُ
أضْحوا بمَهلكة في وسط معركة ... صرْعى وماشي الورى من فوقهم يطسُ (٤)
وعمّهم حَدث وضمَّهم جَدثٌ ... باتوا وهم جُثث في الرَّمس قد حُبسوا
كأنهمُ قطّ ما كانوا وما خُلقوا ... ومات ذكرهم بين الورى ونُسوا
والله لو أبصرت عيناك ما صنعتْ ... يدُ البِلى بهمُ والدودُ يفترسُ

(١) رواه الطبراني في الأوسط، والبزار وفيه سليمان بن زياد الواسطي. مجمع الزوائد : ١٨٤/١.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة رقم : ١٥٢.
(٣) لا يصح مثل هذا الخبر ولا يتفق مع القواعد التي أعلنها الإسلام في الثواب والعقاب.
(٤) يطس: يطأ بشدة، والوطس: الضرب الشديد بالخف وغيره.

لعاينَتْ منظرًا تشجى النفوسُ به ... وأبصرت نُكرًا من دونه النُّكسُ [١]
من أوجهٍ ناظرات حار ناظِرها ... في رونق الحسْن كيف تنطمسُ
وأعظمٍ باليات ما بها رمَقٌ ... وليس تبقى وهذا وهي تُنتهسُ
وألسنٌ ناطقاتٌ زانها أدب ... ما شأنُها شانها بالآفة الخرَسُ
نكَّسهم ألسنٌ للدهر فاغرةٌ ... فاها فآها لهم إذْ بالردَى وُكِسُوا
عرَوْا عن الوشْي لما أُلْبسوا حُللا ... من الرغام على أجسادهم وكُسوا
وصار لُبس الصَّفايا من خلائلهم ... جُون الثياب وقِدْما زانَه الوَرْسُ [٢]
حتَّام يا ذا النُّهى لا تَرْعوى سَفَهًا ... ودمْع عينيك لا يَهْمي وينْبجسُ [٣]

* * *

يا غافلًا عن نفسه أمرك عجيب، يا قتيل الهوى داؤك غريب، يا طويل الأمل ستُدعى فتجيب، وهذا عن قليل وكلُّ آت قريب، هلَّا تذكرتَ لحدك كيف تبيت وحدك، ويُباشر الثَّرى خدّك، وتقتسم الديدان جِلْدك، ويضحك المحبُّ بعدك ناسيًا عنه بُعدك، والأهل مُذ وجدوا المال ما وجدوا فقْدك، إلى متى حتى متى تترك رشدك، أما تُحسن أن تحسن إلينا قصْدك، الأمر جَدٌّ مُجدٌّ فلازم جدّك.

ذهَب الأحبةُ بعد طُول تودّد ... ونأى المزارُ فأسْلموك وأقشَعوا
خذلوك أفقرَ ما تكون لغربة ... لم يؤنسوك وكُرْبةً لم يدْفعوا
قُضي القضاء وصرتَ صاحبَ حفرة ... عنك الأحبة أعرَضوا وتصدعوا

ووجد على قبر مكتوب:

سيُعرَض عن ذكري وتُنسى مودتي ... ويحدث بَعدي للخليل خليلُ
إذا انقطعت يومًا من العيش مُدتي ... فإن غَناء الباكيات قليلُ

إلى متى هذا التخليط والموت بكم محيط، أين الأخ والخليط بادرهما موتٌ نشيط، كيف يلهو هذا الشَّميط، وله أسدٌ مُستشيط، عليه وسَخ وما يُميط لا بل دمٌ عبيط [٤]،

(١) النكس: عود المرض بعد النقاهة.
(٢) الصفايا: كذا والمعروف في جمع الصفاة، وهي الحجر الصلد: صفا. وصفوات وجمع الجمع: أصفاء وصفى. والجون: السود. والورس: نبات كالسمسم يصبغ به، لونه أصفر.
(٣) ينبجس: ينفجر.
(٤) العبيط: الطري الذي لم يجف.

يا ربما انقبض النشيط، تيقظْ فكم هذا الغطيط، اقبل نصحي واسمع من الوسيط، يا ذا التحرك في الهوى لا بد له من سكون، على هذا كانت الدنيا وعليه تكون، لا يغرنك سَهْلها فبعد السهل حُزون، لا تنظر إلى فرحها فكل فَرِح محزون، تأمّل فعلها بغيرك فبُغض المُقبح يهون، إن رُوحك دَيْن الممات وستُقضى الديون، ما فرحها مُسْتَتَمّ ولا ترَحها مأمون، ما أضحكت السنَّ إلا وأبكت العيون، إياك وإيَّا المومس الخئون، إنها لَدار الغرور ومنزلٌ للمنون، كم نلوم على الغَبْن وما يَعقل المغبون، مهلًا أضعتم المواعظ قلبُ هذا مفتون، يا لائمًا لي في الهوى ماذا هوى هذا جنون.

أيها الغافل عما بين يديه، لا يذكر الموتَ ولا يتلفت إليه، شَغله عن العواقب ما لديه وألهاه ماله عما عليه:

يا لقومي للآمل المغرور ... ولَجاج لا ينقضي في الصدور
ولنفسٍ مخدوعةٍ بالأماني ... ولهمٍّ مُوكّلٍ بسُرور
وانقباض الحياة عما يرجّيه الفتى وامتداد حبْل الغرور
يلْتحيه الزمانُ في كل يوم ... دائبًا كالتحاء غُصْنٍ نضير [(١)]
يتمنى في العيش ما ليس يَلْقاه وينسى حَزْم الزمان الغَيُورِ
ولعينٍ غفت عن الأجل اليقظان أمْسى بها قريبَ المسير
كلُّ يوم يهيض للمرء عظْمًا ... وهو يشطو فيه بعظمٍ كسيرِ
يحمل الموت بين جنبيه إذ يغدُو ويخشاه من وراء الثُّغورِ
كلُّ نفسٍ في مستقرٍّ عليها ... والجٌ من حِمامها المقدورِ

* * *

يا من يجُوب شَرْق الهوى ثم يقطع غرْبه، فكم له من طلعة في طلبه وغُربة، كأنه بسيف الأسف قد سُلَّ من جفنه [(٢)]، فأسال من جفنه غربه.

قال بعض أصحاب الحسن: ليت ابن آدم لم يُخلق. فقال حبيب العجمي: فقد وقعتم فاحتالوا! تاللَّه ما اهتمَّ بالخلاص إلا أهل التُّقى والإخلاص، أيامهم بالصلاح زاهرة، ودولتهم للعدو قاهرة، وأعينهم في الدُّجى ساهرة، يخافون العرْض على أرض الساهرة، والعقولُ للنفوس ناهية آمرة، وأخلاق الثياب على أخلاقٍ طاهرة، والدنيا عليهم والقلوب

(١) يلتحيه: يقشره.

(٢) الأصل من جيفته. محرفة. والجفن الأولى غمد السيف. والثانية جفن العين.

صابرة، وفي الجملة باعوا الدنيا فاشتروا بها الآخرة.

قال أبو يزيد: جمعتُ أسباب الدنيا فربطتها بحبل القُنوع، ووضعْتها في منْجنيق الصدق، ورميت بها في جبل اليأس، فاسترحت:

قرِّب الحِرْص مرْكبًا لشقيٍّ ... إنما الحرصُ مرْكب الأشقياء [(١)]
مرحبًا بالكفاف يأتي هنيئًا [(٢)] ... وعلى المتعبات ذيل العَفاءِ
ضِلَّة لامرئٍ يشمّر في الجمـ ... ـع لعيشٍ مشمّر للفناء
دائبًا يكنز [(٣)] القناطير للوا ... رث والعمر دائبًا لانقضاءِ
حبَّذا كثرة القناطير لو كا ... ن لربِّ الكنوز كنْز بقاءِ
يغتدي يرْحم الأسيرُ أسيرًا ... جاهلًا أنه من الأُسَراءِ
يحسب الحظ كله في يديه ... وهو منه على مدى الجوزاء
ذلك الخائب الشقي وإن كا ... ن يرى أنه من السُّعداء

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا... ﴾ [(٤)]

ميزان العدل يوم القيامة مستقيم اللسان، تبين فيه الذَّرة فيجزي العبد على الكلمة قالها في الخير والنظرة نظرها في الشر، فيا من زادُه من الخير طفيف، احذر ميزان عدْل [(٥)] لا يَحيف.

أخبرنا ابن المذهب بسنده عن أبي عبد الرحمن الحُبلى قال: سمعت عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا كل سجل مدّ البصر؛ ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتْك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى؛ إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم [(٦)] اليوم عليك، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا

---

(١) هذه الأبيات للشاعر العباسي ابن الرومي. ديوانه: ١/٦٩، بتحقيق الدكتور/ حسين نصار، ط دار الكتب المصرية.
(٢) الأصل: يأتي عفيًّا. وما أثبته من الديوان.
(٣) الأصل: يكثر. وما أثبته من الديوان.
(٤) سورة يس: ٥٤.
(٥) الأصل ميزان العبد. محرفة.
(٦) الأصل: لا يظلم.

عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » (١). البطاقة: القطعة.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: بينا عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ بكتْ، فقال رسول الله ﷺ: « ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أتثقل موازينه أمْ تخفّ. وعند الكتاب حين يقال: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ (٢) حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أو في شماله أو من وراء ظهره وعند الصراط حين يوضع بين ظهري جهنم حتى يعلم أينجو أم لا ينجو » (٣).

أخبرنا الكرُوخي بسنده عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألم أجعل لك سَمْعًا وبصرًا ومالاً وولدًا وسخَّرت لك الأنعامَ والحرْث وتركتك ترْأس وترْتع، أكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني » (٤).

أخبرنا ابن الحُصين بسنده عن شعبة عن قتادة عن أبي سعيد الخدري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هُذبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة » (٥).

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٦)

أتراك بأيّ عمل تُجزى، أتراك تُهنَّي أو تعزَّي، قلبك عند الصلاة في غَيْبة، ولسانك في

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه : ١٤/٢. ورواه أحمد في مسنده، حديث رقم : ٦٩٥٥، وهو حديث صحيح.

(٢) سورة الحاقة: ١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، حديث رقم : ٤٧٥٥. ورواه أحمد في مسنده مختصرًا، حديث رقم : ٢٤١٧٥، وهو حديث ضعيف.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ١٤. وسنن الترمذي، كتاب القيامة، ومسند أحمد : ٤٩٢/٢.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المظالم، وكتاب الرقاق، ومسند أحمد : ١٣/٣.

(٦) سورة يس: ٥٤.

الصوم في غِيبة، وما صفتْ لك في العمر ركعة، وقد مرّ أكثر الأجل بسرعة، فانتبه قبل أن يفوت التدارك، وفرّغ قلبك قبل أن تفرَّغ دارُك.

أنبأنا أحمد بن الحسين بن عثمان العطار بسنده عن جعفر بن الحسن، عن أبيه، عن الحسن بن علي عن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها ومن أسفلها خيل من ذهب مُسرجة مُلْجمة بلُجم من درٍّ وياقوت لا تروث ولا تبول، لها أجنحة خطوها مدَّ بصرها، فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا فيقول الذين أسفل منهم درجة: يا رب بِمَ بلغ عبادك هذه الكرامة كلها؟ قال: فيقال لهم: إنهم كانوا يصلُّون الليل وأنتم تنامون، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون، وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون (١).

* * *

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ (٢)

وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿ في شُغْل ﴾ بإسكان الغين وقرأ ابن يعمر ﴿ في شَغْل ﴾ بفتح الشين وإسكان الغين. وقرأ أبو هريرة ﴿ في شَغَل ﴾ بفتحهما.

وللمفسرين في المراد بذلك الشغل قولان:

أحدهما: أنه افتضاض الأبكار. أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس ﵄: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ ﴾ قال: في افتضاض الأبكار.

والثاني: النعمة. قاله مجاهد. وقال الحسن: شغلهم نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَٰكِهُونَ ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: فرحون. قاله ابن عباس.

والثاني: مُعجبون. قاله الحسن.

والثالث: ناعمون. قاله مقاتل.

والرابع: ذوو فاكهة كما يقال لابِن تامر (٣). قاله أبو عبيدة.

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري: ٥٢٣/٤، وهو حديث موضوع كما ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة: ٤٥٤/٢، المكتبة الحسينية المصرية.

(٢) سورة يس: ٥٥.

(٣) لابن تامر: أي ذو لبن وتمر.

قوله تعالى:

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ... ﴾ (١)

الأزواج: الحلائل. **والظّلال:** جمع ظل. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ في ظلل ﴾. قاله الفراء وهي جمع ظل، وقد تكون الظلال جمع ظل، وقد تكون الظلال جمع ظلة أيضًا.

قال المفسرون: المراد بالظلال هنا القصور، والمقصود أن بناء الجنة محكَم عالٍ فلو كان هناك شمس كان في ظلهم ما يردّ.

أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودي، أنبأنا ابن أعين، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « أولُ زمرة تَلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يصقون فيها ولا يَمْتخطون ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجَامرهم الألُوَّة (٢) ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخُّ سُوقهما من وراء اللحم من الحسْن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون اللّه بكرة وعشيًّا » (٣). وقال كعب: لو أن امرأة من نساء أهل الجنة بدا معْصمها لذهب ضوءُ الشمس!

أخبرنا محمد بن منصور، عن عبّاد بن رشد، عن ثابت البُناني، قال: كنت عند أنس ابن مالك فقدم عليه ابنٌ له من غزاة فساءله ثم قال: ألا أخبركَ عن صاحبنا فلان؟ قال: بينما نحن في غزاتنا قافلين إذ ثار وهو يقول: وا أهلاه وا أهلاه. فثُرنا إليه فظننَّا أن عارضًا عرض له فقلنا له: ما شأنك؟ فقال: إني كنت أحدِّث نفسي أن لا أتزوج حتى أستشهد فيزوجني اللّه تعالى الحور العين، فلما طالت عليَّ الشهادة حدثت نفسي في سفري هذا إن أنا رجعت تزوجت، فأتاني آتٍ في منامي فقال: أنت القائل: إن أنا رجعتُ تزوجت؟ قم فقد زوَّجك اللّه العيْناء. فانطلق بي إلى روضة خضراء مُعشبة فيها عَشر جوارٍ في يد كل جارية صنعةٌ تصنعها لم أر مثلهن في الحسن والجمال، قلت لهن: فيكن العيناء؟ قلن: لا نحن من خدمها وهي أمامك، فانطلقت فإذا أنا بروضة أعْشب من الأولى وأحسن، فيها عشرون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العشْر إليهن بشيء من الحسن والجمال. قلت: فيكن العيناء؟ قلن: لا ونحن من خدمها وهي أمامك. فمضيت فإذا أنا بروضة أخرى أعشَبَ من الأولى والثانية وأحسن، فيها أربعون جارية في يد كل

---

(١) سورة يس: ٥٦.	(٢) الألوة: عود يتبخر به.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

جارية صنعة تصنعها ليس العشر والعشرون إليهن بشيء في الحسن والجمال، فقلت: فيكن العيناء؟ قلن: لا نحن من خدمها وهي أمامك. فانطلقت فإذا أنا بياقوتة مجوَّفة فيها سرير عليها امرأة قد فضَلت السرير، فقلت: أنتِ العيناء؟ قالت: نعم مرحبًا. فذهبت أضع يدي عليها. فقالت: مهْ إن فيك شيئًا من الروح بعدُ، ولكن فطْرك عندنا الليلة.

قال: فما فرغ الرجل من حديثه حتى نادى منادٍ: يا خيل اللَّه اركَبي وأبشري بالجنة. قال: فجعلت أنظر إلى الرجل وأنظر إلى الشمس ونحن مُصافُّون العدو، وأذكر حديثه فما أدري أيُّهما رأيته بدَرَ أول؟ هو أو الشمس سقطت أول؟

فقال أنس: رحمه اللَّه تعالى (١).

سجع:

يا هذا لقد بلغ القومُ الآمال، ونالوا مُلكًا عظيمًا لا يزال، فأين ذاك التعب وتلك الأثقال، وبقي المدحُ والتَّرحُ زال، ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ... ﴾.

طالما نَصِبوا في خدمة ذي الجلال، فشغلهم عن اللذات أشغال، وأزعجتهم عن الشهوات أوْجال، وقلقهم الموت إذا خطر بالقلب وجال، فإذا وردوا تُلقوا بالنوال، ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ﴾.

بالغ القوم في التحقيق، وأخذوا بالأمر الوثيق، وأنذرهم الموتُ فما أبْلغهم الرفيق، فجدُّوا حتى خرجوا من المضيق، فأما البطَّال فإنه لما تلمّح الطريق، رآه قد طال.

صام القومُ عن الشهوات، وقاموا للَّه في الخلوات، وحبسوا الألسنَ عن فضولِ الكلمات، وتركوا في الجملة جُملة اللذات، فانقضى رمضانُ صومهم، وجاء شوال ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ﴾.

كم بيْنك وبينهم، أسخَن الشرُّ عينكَ وأقرَّ الخيرُ أعينهم، نالوا الحظّ ونلت الحضيض، أين أنت وأين هم، وإنما يكال للعبد كما كال.

سبحان من أصلحهم وسامحهم، وعاملهم فأربحهم، وأثنى عليهم ومدحهم، وأقال مُجترحَهم وقال: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ﴾.

قطعوا المَهامه ففازوا، وعبروا قناطر الخوف وجازوا، ونالوا غاية المنى وحازوا، فسلم الربحُ ورأسُ المال ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ﴾.

* * *

---

(١) هذه أوصاف صاغها خيال قصَّاص، ولا ترجع إلى أصل صحيح موثوق به.

قوله تعالى:

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ (١)

قال ثعلب: لا تكون الأريكة إلا سريرًا في قبة عليه شُوَاره ومتاعه، والشُّوار متاع البيت.

تعبوا فأُريحوا، وزهدوا فأُبيحوا، زال نصَبهم وارتفع تعبهم، وحصل مقصودهم، ورضي معبودهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ ﴾ أي: ما يتمنَّون. قال ابن قتيبة: العرب تقول: ادَّع ما شئت، أي تمنَّ ما شئت. وقال الزجاج: هو مأخوذ من الدعاء، والمعنى: كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ... ۝٥٨ ﴾ بدل من ما. والمعنى: لهم ما يتمنون سلام أي هذا مُنَى أهل الجنة أن يسلم الله ﷻ عليهم. و ﴿ قَوْلًا... ۝٥٨ ﴾ منصوب على معنى: لهم سلام يقوله الله قولًا. وفي حديث جابر ﷺ عن النبي ﷺ: أن الله ﷻ يقول: « السلام عليكم يا أهل الجنة ». فذلك قوله ﷻ: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨ ﴾ (٢).

فينظر إليهم وينظرون إليه ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم.

سجع:

أين المستعدون لهذا الأمر الجسيم، أين المخاطر في طلب ذا الفضل العظيم، أين المتأهب بِخِلَع الفوز والتقديم ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.

لو رأيتهم في دار الإقامة، على غاية الفوز والسلامة، وعلى القوم حُلل الكرامة، والملك يُسمعهم كلامه العزيز القديم ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.

حلُّوا في جوار الجبَّار، فحُلوا بضائع الأسحار (٣)، فجُوزوا أن قيل لهم: جُوزا بلا عِثار، وأشرفُ من جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، أن أشرف عليهم الكريم بكل تكريم ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.

طالما تملْملوا تملْمُلَ السليم (٤)، وبكوا في الدُّجى بكاء اليتيم، فانقشع الأمر إلى أن سامَح الغريم، فأحلهم برضوانه جنات النعيم، والعيون تجري من رحيق وتسنيم، وواسطة ذلك العِقْد المثمَّن النظيم، ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.

---

(١) سورة يس: ٥٦.

(٢) الترغيب والترهيب: ٢٨٨/٤، عن ابن ماجه.

(٣) أي العبادات التي كانوا يؤدونها في وقت السحر.

(٤) السليم: اللديغ.

المجلس الثاني

في ذكر الطهارة

الحمد للَّه مُحكِم المخلوق ومُتقن الصنعة، ومالك يوم الحشر والجزاء والرجفة، المقدِّر ما شاء، فمن ذا الذي يستطيع دفعه، أراد فلم ينتفع العبد إن بذل جُهده ووسعه، وعلم إخلاص النية من مقصود السُّمعة، وسمع فلم يمنع اختلافُ اللغات سمعه، وأبصر حتى الجَوْف وجريان الدمعة، وشرع فشهدت العقول بصحة الشِّرْعة، ومنع فمن ذا الذي يعطي ما قدَّر منْعه، صفاتُه كذاته وما يُشبه الصانعُ صُنعه، الاستواء معلوم والكيفُ مجهول، والإيمان به واجبٌ والسؤال عنه بدعة.

أحمده حمدًا يدوم ما دامت الأيام السبعة، وأشهد أنه فالق الحب عن الطَّلعة، وأصلي على رسوله محمدٍ المبعوث بأفضل شِرعة، وعلى أبي بكر أول من جمع هذه الرَّبْعة (١)، وعلى عمر فتاح الأمصار فكم قلع قلعة، وعلى عثمان الصابر على مضيض تلك الصَّرعة، وعلى عليٍّ الذي مدائحه أنفقُ من كل سلعة، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء وأكرمْ بهذا البيت رفعة.

* * *

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده عن يحيى أن زيدًا حدَّثه أن أبا سلَّام حدثه، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الطُّهور شطْر الإيمان، والحمد للَّه تملأ الميزان، وسبحان اللَّه والحمد للَّه تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كلٌّ يغدو فبائعٌ نفسه فمُعتقها أو مُوبقُها » (٢). (انفرد بإخراجه مسلم).

اعلم أن الطهارة على أربعة أضرب:

الضرب الأول: تطهير البدن عن نَجَس أو حدَث أو فَضْلة من البدن.

- **فأما طهارة الأنجاس** ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه مرَّ بقبرين فقال: « إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول » (٣).

---

(١) الرَّبْعة: صندوق أجزاء المصحف. قال في القاموس: وهي مولدة كأنها مأخوذة من الربعة بمعنى جُونة العطار.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ١١١.

قال الخطابي: معناه أنهما لم يعذبا في أمرٍ كان بكبير عليهما فعله أو يشقّ.

وروى الدارقطني عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « استنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه » (١).

- **وأما طهارة الأحداث** ففي التفريط فيها وعيد شديد، ففي الصحيحين من حديث عبد اللَّه بن عمرو قال: تخلَّف عنا رسول اللَّه ﷺ في سفْرة سافرناها، فأدركَنا ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا قال: فنادى بأعلى صوته، مرتين أو ثلاثًا: « ويل للأعقاب من النار » (٢).

وفي حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه ﷻ أمر بعبد من عباده أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يَسْأل ويسأل حتى صارت جلدة واحدة، فامتلأ قبره عليه نارًا، فلما أفاق قال: لم جلدتموني؟ قالوا: إنك صليتَ صلاة بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره » (٣).

- وقد مُدح إسباغُ الوضوء. أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن جامع بن شداد قال: سمعت عمران بن أبَان يحدث عن عثمان ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من أتمَّ الوضوء كما أمره اللَّه ﷻ فالصلوات المكتوبات كفارة لما بينهن » (٤).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا توضأ العبدُ المسلم أو المؤمن فغسل وجهه، خرجت من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًّا من الذنوب » (٥). (انفرد بإخراج الحديثين مسلم).

- وأما غسل الجنابة فروى أبو داود من حديث علي ﷺ أنه قال: من ترك موضع شعرة من جنابة لم يغسلها فُعل به كذا كذا من النار، قال ﷺ: فمن ثَمَّ عاديتُ رأسي. وكان يجُز رأسه.

- **وأما الفضلات فنوعان:** أوساخ تعتري البَراجم والأسنان. قال مجاهد: أبطأ المَلَكُ عن رسول اللَّه ﷺ ثم أتاه فقال لعلِّي أبطأت؟ قال: قد فعلتَ قال: وما لي لا أفعل وأنتم لا تتسوَّكون ولا تقصُّون أظفاركم ولا تُنقون براجمكم!

---

(١) سنن الدارقطني : ١٢٨/١.

(٢) البخاري، كتاب الوضوء. وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ٢٥ - ٢٨.

(٣) رواه المنذري في الترغيب والترهيب : ١٢٢/٣، وقال: رواه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب التوبيخ.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، وكتاب الصوم، وكتاب التمني. وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ٤٢.

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٣١. وسنن ابن ماجه، حديث رقم : ٤٥٩.

قال ابن الأنباري: البراجم: الفُصوص التي في فصول ظهور الأصابع تبدو إذا جُمعت، وتغمض إذا بُسطت. والرواجب: ما بين البراجم، بين كل بُرْجمتين راجبة.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس، لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »(١). (أخرجاه في الصحيحين).

وأخرجا من حديث حذيفة قال: « كان رسول الله ﷺ يَشُوصُ فاه بالسواك ».

قال أبو عبيد: الشَّوْص والمَوْص: الغسل. وقال ابن الأعرابي: الشوص: الدلك والمَوْص: الغسل.

أخبرنا علي بن عبد الله وأحمد بن الحسين وعبد الرحمن بن محمد بسنده عن معاوية بن يحيى عن الزهري، عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ أنه قال: « تَفْضل الصلاة التي يُسْتاك لها على الصلاة التي لا يستاك لها سبعين ضعفًا، ويَفْضل الذِّكر الخفيّ على غيره من الذكر بسبعين ضعفًا »(٢).

وأما الإجزاء: فقص الشارب ونتْف الإبط وحلْق العانة وتقليم الأظفار.

* * *

والضرب الثاني: تطهير الجوارح عن الآثام. قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(٣).

واعلم أن الجوارح كالسواقي تُوصل إلى القلب الصافي والكدِر، فمن كَفّها عن الشر جَلَتْ معدة القلب بما فيها من الأخلاط فأذابتها وكفى بذلك حِمْية، فإذا جاء الدواء صادف محلًّا قابلًا.

ومَنْ أطلقها في الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا وظُلَم المعاصي، فلو وضع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب، فلا تكاد الجوارح تسلم من الخطايا إلا بالعزلة، فَمَنْ أمكنه فما أحسنه، ومن لم يمكنه تحفّظ في مخالطته للخلق تحفُّظ المجاهد في الحرب.

* * *

والضرب الثالث: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة من الحرص والحقد والحسد

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، وكتاب التهجد. وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ٤٦، ٤٧.
(٢) مسند أحمد، حديث رقم : ٢٥٨٠٨، وهو ضعيف.
(٣) سورة الإسراء: ٣٦.

والكبر وغير ذلك، ولا يمكن معالجته من أدوائه بدوائه حتى تقع الحِمْية التي وصفناها في كف الجوارح، ثم يعالج كلُّ داء بدوائه، وكم من متعبد يبالغ في كثرة الصلاة والصوم ولا يعاني صلاح القلب، وقد يكون عنده الكبر والرياء والنفاق والجهل بالعلم ولا يحسُّ بذلك، وقد يكون تطلُّعه إلى تقبيل يده وإجابة دعائه، وهذه آفات لا دواء لها إلا الرياضة بالعلم ليقع التهذيبُ بإصلاح دائه، وإنما تنفع العبادةُ وتظهر آثارها وتبينُ لذَّاتها مع إصلاح أمراض القلب.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عبد الرحيم بن يحيى الدِّبلي قال: حدثني عثمان ابن عمارة فقال: وردتُ الحجرة [1] مرةً فإذا أنا بمحمد بن ثوبان وإبراهيم بن أدهم وعبّاد المقرئ وهم يتكلمون بكلام لا أعقله، فقلت لهم: يرحمكم اللَّه؛ إني شابٌّ كما ترون أصوم النهار وأقوم الليل وأحج سنةً وأغزو سنة، ما أرى في نفسي زيادة. فشُغل القوم عني حتى ظننت أنهم لم يفهموا كلامي، ثم حان من واحد منهم التفاتة فقال: يا غلام إنَّ همَّ القوم لم يكن في كثرة الصلاة والصيام، إنما كان همُّ القوم في نفاذ الأبصار حتى أبصروا.

* * *

الضرب الرابع: تطهير السر عما سوى اللَّه ﷻ. وهذه المرتبة العليا ولم تحصل إلا لمن تجلَّت له أوصاف الحبيب فدخل في دائرة المحبة.

أخبرنا عمر بن ظفر بسنده عن سعيد بن عبد العزيز قال: أخبرنا أحمد بن أبي الحُواري قال: سأل محمود أبا سليمان وأنا حاضر: ما أقربُ ما يُتقرب به إلى اللَّه ﷻ؟ فبكى أبو سليمان ثم قال: مِثْلي يُسأل عن هذا! أقرب ما يتقرب إليه أن يطَّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو [2].

قال ابن جَهْضم: وحدثنا عبد الجبار بن بشران قال: سمعت سهلًا يقول: مَنْ نظر إلى اللَّه ﷻ قريبًا منه بَعُد عن قلبه كل شيء سوى اللَّه ﷻ، ومن طلب مرضاته أرضاه اللَّه ﷻ ومن أَسْلم قلبه إليه تولى اللَّه جوارحه [3].

قال ابن جهضم: وحدثني أحمد بن علي قال: حدثني عباس بن عبد اللَّه الهاشمي قال: سمعت سهل بن عبد اللَّه يقول: ما من ساعة إلا واللَّه مطلع على قلوب العباد، فأيُّ قلب رأى فيه غيره سلط عليه إبليس [4].

قال ابن جهضم: وحدثني عمر بن يحيى قال: سئل الشِّبْلي عن قوله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) كذا، وحجرة: بلد باليمن كما في معجم البلدان.

(٢ - ٤) ذم الهوى: ص ٧٧.

يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ (١)، فقال: أبصار الرءوس عما حرم الله، وأبصار القلوب عما سوى الله ﷻ (٢).

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن علي بن عبد العزيز قال: سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: بات أبو سليمان ذات ليلة فلما انتصف الليلُ قام ليتوضأ، فلما أدخل يده في الإناء بقي على حاله حتى انفجر الصبح وكان وقت الإقامة، فخشيت أن تفوت صلاته فقلت: الصلاةَ يرحمك الله. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعارضني عارضٌ مِنْ سِرِّي: هَبْ أنك غسلت بالماء ما ظهر منك، فبماذا تغسل قلبك؟ فبقيت متفكرًا حتى قلت: بالهموم والأحزان فيما يفوتني من الأنس بالله ﷻ.

يا هذا إذا توضأت بغير نية قيل للماء: ابذل له البلل لا الطهارة، فإذا نويت قيل له طهارة الظاهر. فإذا صفا قلبك فقد حصلت طهارتك حقيقة!

* * *

الكلام على البسملة

أرى الناسَ سَفْرًا في طريق المتالف ... فمن بالغٍ أخرى المدَى ومُشارفِ
وما بطْن هذي الأرض إلا قرارةٌ ... وأرواحنا مثلُ السيول الجوارف
وما الدهر إلا جولة ثم أوبة ... ونحن بمرصاد الرقيب المُشارفِ

أيها المتفكر في القبور الدوارس، الباكي على من كان به يستأنس، ابك مُطلَقًا ما يَرْعوي بنقل أهل المحابس، تيقظ للخلاص، فإلى كم أنت ناعس، وقم مبادرًا للفوت فإلى كم أنت جالس، ليت شعري متى تتزود، ومتى تُبيِّض القلبَ الأسود، أين الفرار والرقيب بالمرصد، إلى متى مع الزلل والإسراف، إلى كم مع الخطايا والاقتراف، أين الندم وأين الاعتراف، لقد سمعتَ من الوعظ كل شافٍ كافٍ، أنت فيما ينفعك قاعد، وفيما يضر ناهض، تتوب بلسانك وتضر بجناحك، أتُناقض؟ الشرُّ في باطنك داخل في الغوامض، أسَدُ الشرى في البيع والشرا، فإذا يرى الخديعة خلّى المرابض، يا غافلًا عما قد أُعد له أمكْرٌ هذا أمْ بَله، ما عُذر من تعثر في ظلمات العيب، بعد إضاءة نور الشيب، يا أسفي مَنْ للمحتَضر، إذا علم من قد حضر، وقلّب الطّرف متحيرًا ونظر، ورأى العجائب وقلّب البصر، وندم على إغفاله زاد السفر، وجرى دمع الأسى ثم انهمر، واحتاج إلى قليل من الزاد وافتقر، ولم ينفعه كل مستور مُدّخر، وتقطّع فؤاده أسفًا وانفطر، إن هذا

(١) سورة النور: ٣٠.
(٢) ذم الهوى: ص ٧٧.

لعبرة لمن اعتبر، إن كان قد سبقك الغير فأنت على الأثر، يا هذا الحسابُ شديد والطريق بعيد وقد خاف من لا خوف عليه، فكيف سكن من لا أمن له؟!

كان أبو بكر الصديق ﷺ يقول: وددت أني شعرة في صدر مؤمن.

وكان عمر ﷺ يقول: ودِدْت أني أُفْلت كَفَافًا لا علي ولا لي، لو أن لي طِلاع الأرض ذهبًا وفضة لافتديتُ بها من هول المطلع، لو أن لي الدنيا وما فيها لافتديت بها من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر.

لما طُعن ﷺ قال له ابن عباس ﷺ: لِتَهْنك الجنة يا أمير المؤمنين.

فقال: غُرَّ بهذا غيري يا ابن عباس. قال: ولم لا أقول لك هذا؟ فواللَّه إنْ كان إسلامكَ لعزًّا، وإن كانت هجرتك لفتحًا، وإن كانت ولايتك لعدْلًا، ولقد قُتلت مظلومًا. فقال: تشهد لي بذلك عند اللَّه يوم القيامة؟ فكأنه تلكأ فقال له علي بن أبي طالب من جانبه: نعم يا أمير المؤمنين نشهد لك بذلك عند اللَّه يوم القيامة.

هذا خوف عمر ﷺ وأين مثل عمر! كانت الصوامت تنطق بفضله وهو أسير خوفه وحُزنه ولو رأيته لقلت له:

سَلْ عن فضائلك الزمان فتُخْبَرا ... فنظير مجدكَ لا أراه ولا يُرَى
أوْ لا فدَعْه وادَّعى الشرف الذي ... أعيا الأنام فلستَ تَلْقى مُنكِرا
ما احتاج يومًا أن يقام بشاهد ... حقٌّ أزال الشكّ واجتاح المِرا
فلقد جمعت مناقبًا ما استجمعتْ ... مشهورة ما استعجمت فتفسَّرا
فضل الأنام وأنت أثبتهم قَرًا [(١)] ... في حَمْل نائبة وأعْجلهم قِرى
لو لم تملِّكك الأمورُ قيادها ... صفقَتْ [(٢)] قُرًى مما عرى ووهتْ عُرى
فتقدَّم الأمراء غيرَ منازَع ... فوراء زندك كلُّ زند قد ورَى
ما بين مجدك والمحاول مثلَه ... إلا كما بين الثُّريا والثّرى

وكان عمر ﷺ يقول: لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما أصير، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وكان عليٌّ ﷺ يقول: آهٍ من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق! واعجبًا لخوفهم مع التقوى وأمْنك مع المعاصي!

---

(١) القرا: الظهر.

(٢) صَفَقَتْ: ضَعُفت أو اضطربت.

يا سكران الهوى متى تُفيق، رحَل الأحبابُ وما عرفتَ الطريق، واتسعت الرّحاب وأنت في المضيق، وقد بقى القليل وتغصُّ بالرِّيق، وتعاين زفيرَ الموت وتعالج الشهيق، ويَبْطل القويُّ ويخرس المِنْطيق، وتُغمس في بحر التلف ومَنْ للغريق، ويخلو ببدنك الدود للتقطيع والتمزيق، وخرب الحِصْن وحطِّم الغُصن الوريق، وخلوْت بأعمالك وتجافاك الصديق، فإذا قمت من قبركَ فما تدري في أي فريق، يا مُعْرضًا كلِّ الإعراض عني، كم رسولٍ قد أتاكَ منِّي، ويحك عنِّي أمنيةَ المتمنِّي، أتصرُّ على معصيتي وتقول ظني، أتنقض عزملَ معي ومع العدو تبني، أتترك كلامي وتختار أن تغني، يا للهوى كم صار بشَركه، كم عَقل عقلًا فدار في فلكه، كم غيَّر نورًا من الهدى بحَلَكه، كم بطَّل بطلًا في حربه ومُعتركه، كم أبكى مغرورًا بعد لهوه وضحكه، كيف يفرح مَن الموتُ بين يديه، وكيف يلهو مَنْ مالُه بلاء عليه، وكيف يغفل ورُسل الموت تختلف إليه، كيف يلتذ بوطنه من يرى اللحد بعينيه:

إنـــي أبـثُّـك مـن حـديـثـي ... والـحـديـثُ لـه شـجـونُ
غـيَّـرتُ مـوْضـع مَـرْقـدي ... لـيـلًا فـنـافـرني الـسُّـكـونُ
قـــل لـــي فـــأولُ لـيـلـةٍ ... في الـقـبـر كيف تُرى تكونُ؟!

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً... ﴾ (١)

المراد بالماء هاهنا المطر. وقد جعل اللَّه ﷻ الريح سببًا لإثارته فقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٢)، وكان النبي ﷺ ينزعج إذا رأى الريح أو الغيم.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي النضر، عن سليمان بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف ذلك في وجهه فقلت: يا رسول اللَّه الناسُ إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيتَه عرفتُ في وجهك الكراهية. فقال: « يا عائشة ما يُؤْمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذِّب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ (٣) » (٤). (أخرجاه في الصحيحين).

وقال ابن عباس: الرياح ثمان: أربع رحمة، وأربع عذاب. الرحمة: المبشِّرات،

---

(١) سورة الحج: ٦٣. (٢) سورة الروم: ٤٨. (٣) سورة الأحقاف: ٢٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الأحقاف. وصحيح مسلم، كتاب الاستسقاء، حديث رقم: ١٦.

والمنْشرات، والمرسَلات، والرُّخاء. والعذاب: العاصف، والقاصف وهما في البحر، والعقيم والصَّرْصر، وهما في البر.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصَفت الريح قال: « اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أُرسلت به » (١).

وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: « اللَّهم لا تقتلنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » (٢).

قال ابن عباس: الرعد صوت ملَك يزْجر السحاب كما ينعق الراعي بالغنم. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول: إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض. وقال شَهْر ابن حَوْشَب: الرعد ملكٌ موكل بالسحاب يسوقه كما يسوق الحادي الإبل يسبح كلما خالفت سحابة صاح بها فإذا اشتد غضبه طار النار مِنْ فيه (٣).

وسمع سليمان بن عبد الملك الرعد فانزعج، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا صوت رحمة فكيف لو جاء بسخط؟!

وقال علي كرم اللَّه وجهه: البرق مخاريق بأيدي الملائكة يَسُوقون بها السحاب. وقال أبو الجلد: البرق هو تلألؤ الماء، والصواعق مخاريق يُزجر بها السحاب.

قال عطاء: الصاعقة لا تصيب ذاكرَ اللَّه تعالى.

وقال ابن عباس: ما من عام أكثر مطرًا من عام ولكن اللَّه تعالى يصرِّفه في الأرضين.

قال عطاء بن أبي رباح: قال موسى عليه السلام: يا رب هذا الغيث لا ينزل، وينزل فلا ينفع؟ قال: لكثرة الزنا وظهور الرّبا.

وقال عمر رضي الله عنه : إن الرَّجْف من كثرة الزنا وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجوْر.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده، عن محمد بن واسع، عن سمير بن نهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم : ٨٩٩. والترمذي في سننه، حديث رقم : ٣٤٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، حديث رقم : ٣٤٥٠. وأحمد في مسنده، حديث رقم : ٥٧٢٩، وهو حديث ضعيف.

(٣) هذه الأقوال ليس لها مستند صحيح وقد عرف الأقدمون الأسباب العلمية لظاهرة الرعد، ومنهم الشريف الرضي في كتابه: تلخيص البيان في مجازات القرآن : ص ١٧٦، تحقيق الأستاذ محمد عبد الغني حسن.

المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أُسمعهم صوتَ الرعد »(١).

قال هارون: وحدثنا عفان بن مبارك، عن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: كانوا يقولون - يعني أصحاب النبي ﷺ - الحمد للَّه الذي لو جعل هذا الخلق خلقًا دائمًا لا يتصرف لقال الشاكُّ في اللَّه ﷻ: لو كان لهذا الخلق ربٌّ لحادثَه، وإن اللَّه تعالى قد حادَث بما ترون من الآيات، إنه قد جاء بضوء طبَّق ما بين الخافقين وجعل فيها معاشًا وسراجًا وهاجًا، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظُلمة طبّقت ما بين الخافقين وجعل فيها سكنًا ونجومًا وقمرًا منيرًا، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق، وإذا شاء صرَف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يُقرْقف الناس وإذا شاء جاء بحرٍّ يأخذ بأنفاس الناس، ليعلم الناسُ أن لهذا الخلق ربًّا يحادثه بما يرون من الآيات كلها، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

وكان النبي ﷺ إذا استسقى يقول: « اللَّهم اسْق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، اللَّهم اسقنا غيثًا هنيئًا مَرِيعًا غَدَقًا طَبَقًا عاجلًا غير رائث نافعًا غير ضار، اللَّهم اسقنا سُقيًا وادعة نافعة »(٢).

قال أنس: أصابنا مطر في زمن رسول اللَّه ﷺ، فحسر رسولُ اللَّه ﷺ ثوبه حتى أصابه المطر وقال: « إنه حديثُ عهد بربه »(٣). وفي لفظ: كان رسول اللَّه ﷺ يُلقي ثيابه أولَ مَطْرة تمطر.

وقال عكرمة: كان ابن عباس إذا مُطر يقول: يا عكرمة اخرج الرياح اخرج كذا. حتى يصيبه المطر.

وقال عبيد بن عمير: يبعث اللَّه ريحًا فتقيم الأرض، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث المؤلِّفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر.

وقال عكرمة: ينزل اللَّه ﷻ الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. قال كعب: والسحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد ما يقع عليه.

وقال ابن عباس: المطر مزاجه من الجنة فإذا كثر المزاج كثرت البركة، وإذا جاء القطْر من السماء فُتحت له الأصداف فكان لؤلؤًا.

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي : ص١٨٥، وهو حديث ضعيف. رواه أحمد في مسنده، برقم : ٨٤٩٣.

(٢) سنن أبي داود، برقم : ١١٧٦، والموطأ، برقم : ٤٤٩، ومعنى: مريعًا: خصبًا. ومعنى غدقًا: ماء كثيرًا. ومعنى طبقًا: يغشى الجو. والرائث: المبطئ.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم : ٨٩٨. وسنن أبي داود، حديث رقم : ٥١٠٠. ومسند أحمد، رقم : ١١٩٥٧.

وفي حديث أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « عند نزول الغيث تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء »[(١)].

قال المفسرون: إذا نزل القطر على الأرض اهتزت أي تحركت للنبات، فإذا أراد الخروج ارتفعت عنه فهو معنى قوله ﷻ: ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ أي من كل جنس ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي: أنه يُبهج ويسر.

يا من قد أجدَبتْ أرضُ قلبه، متى تهبُّ ريح المواعظ فتثير سحابًا، فيه رعود تخويف وبروق خشية، فتقع قطرة على صخر القلب فيتروى ويُنبت؟!

يا من أجدبت أرض قلبه، واشتغل عنها ولَها، اخرج إلى صحراء التيقظ واستنشق لها، هيهات أن تخضرَّ أرض القلب حتى يتروَّى الخدُّ من عين العين. لا تيأس من جذْب الجذْب فليس بمستحيلٍ أن يستحيل.

سجع:

سبحان المتفرد بالقدرة، فلا تَقْدر الخلائقُ قَدْره، أنعم فمن يُطيق شكره، كلا إن الغافل في سكرة ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً... ۝ ﴾.

جل صفةً وعزّ اسمًا، وبسط أرضًا ورفع سَما، وأنزل من السماء ماء، فحمي النباتُ فسمَّوه جمْرة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

تعرفه القلوب والألباب، ويسبِّحه الصَّحو والضَّباب، انبعث الغيم فما توقف السحاب، أقْبل الرعدُ في صَرَّة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

تأخر الغيث فتمكن الضر، ثم جاء فالمؤمن بذلك سُرّ، فاستغاث النباتُ مما عرّ، فجاء بعد أن كان قد مرّ، كم كرَّ كرَّةً بعد كرة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

أصبح الثرى عطشان ينادي، واليُبس عليه ظاهرٌ بادي، فصاح الرعد بالسحاب صياح الحادي، فتروَّى الوادي وسالت الجرَّة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

انبعث السحابُ فطبّق الأرجا، وصاح البدويُّ في البدو: النَّجا، والجُرون متلفِّعة بالغثا، دبَّ ثم نعش ثم قطقط ثم أفرط ثم جاء بكرَّة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

انكشفت سماء الأرض عن بدورها، وأذِنت الغائباتُ النباتَ في حضورها، ولم تَخُن الأرضُ مِن بذْر نباتها ذرَّة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

أحضرتْ أمهات الزرع عن بناتها، واجتمعت الأغصان بالقطرِ بعد شتاتها، وتزيَّنت

---

(١) مجمع الزوائد : ١٠/٥٥.

للناظرين بأنواع نباتها، ولقد كانت عزّة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

فشت الزينة في الصحاري والبُرَى [١]، وأظهرت عجائب القدرة فيما يرى، وأشاع الثّرى كما ترى من المكتوم سِرَّه ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

ماتت تحت الأرض كل البذور، فإذا الرعد ينفخ في الصور، فضحك النَّوْر بالنُّور لما سرَّه ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

قام ميت البَذْر من حفْرته، وقدِم بعد طول سَفرته، ومنح النبات لكثرته قانعة ومُعْترة [٢] ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

تكلمت الأطيار والمعنى مفهوم، وارتاحت بنطقها حتى البُوم، وتبدَّلت الأرضُ الفرحَ من الهموم، فانقلبت تلك الغموم كلها مسرَّة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

جِيدت الأرض فروّت التراب، وأُجيدت المواعظ فهل أُحضرت الألباب؟!

وما يؤثر اللومُ والعتاب، إلا عند نفسٍ حُرة ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.

والحمد للَّه وحده

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

* *

*

---

(١) البُرَى: لعلها جمع برِّية - بتشديد الراء - وهي الصحراء.

(٢) القانع: الراضي الذي لا يسأل. والمعتر: الفقير المتعرض للمعروف.

المجلس الثالث

في ذكر الصلاة

الحمد للَّه الذي أوضح سبيل هدايته لأرباب ولايته وأبْهج، وحرّك أهل عبادته إلى معاملته وأزعج، وأبدع بدائع قدرته في محكم صنعه وأخرج، وأوقد نيران محبته في أفئدة أحبته وأجَّج، من عرف لطفه ثنى عِطفه إليه وأدْلج، ومن خاف عتْبه ترك ذنبه وتحرّج، يُحب الإخلاص في الأعمال ولا يَخفى عليه البهرج، حليم فإن غضب مكر بالعبد واستدرج، لا يُغتر بحلمه فكم عِقاب في الحلم أدرج، واعتبر بأبيكَ إذْ فسح لنفسه في شهوة وأمْرج، وحام حَوْلَ المنهى اغترارًا بالصفح وعرَّج، كيف أصبح إكرامه بمرير الهوان يُمزج، وأضحى يَنْسج الصوف إذ عرى عما يُنْسج، وصار مغبَّر القدمين بعد فرس العز المُسرج، ولم تزل تجري دموع عينيه إلى أن تاب عليه وفرّج، لا يخفى عليه ضمير القلب، وإن تلوّى اللسان ومجْمج [١]، ولا يغيب عن بصره في سواد الليل طرْف أدعج، يُبصر جرْي اللبن يَسْري في العروق نحو المخرج، وينزل إلى السماء الدنيا فأين الذي بالمناجاة يَلْهج، فيستعرض الحوائج إلى أن يلوح الفجر ويتبلج، وما انتقل ومن عقل رأى الحقَّ أبلج، هذا مذهبٌ من القرآن القديم والنقل القويم مستخرَج، وهو المنهاج العظيم فلا تعرّج عن المنهج.

أحمده على ما سرَّ وما أزعج، وأشهد بوحدانيته بغير تلجْلج، شهادةَ موقنٍ ما لَجْلَج، وأن محمدًا عبده ورسوله الذي محاسن الشرائع في شريعته تُدْرج، صلى اللَّه عليه وسلم، وعلى أبي بكر أول من أنفق ماله وأخْرج، وعلى عمر الذي اضطر كسرى إلى الهرب وأحْوج، وعلى عثمان المظلوم وقد عُذل وما عدَل ولا عرَّج، وعلى عليٍّ مبيد الطغاة وآخرهم المخدَّج، وعلى عمه العباس الذي قرن اللَّه نسبه بنسب الرسول وأزْوج.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، قال: حدثنا الحسين بن علي التميمي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا الوليد بن مسلم، سمعت الأوزاعي يقول: حدثني الوليد بن هشام المعيطي، حدثنا معدان بسنده إلى ابن أبي طلحة اليَعْمري، قال: لقيت ثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الجنة. أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى اللَّه، فسكت ثم سألته الثانية فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألتُ عن ذلك رسولَ اللَّه ﷺ فقال: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد للَّه

---

(١) مجمج في خبره: لم يُبينه.

سجدة إلا رفعك اللَّه بها درجة وحط عنك بها خطيئة » قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء فسألته فقال لي مثل ما قال لي ثوبان [١]. (انفرد بإخراجه مسلم).

* * *

اعلم أن اللَّه ﷻ عظَّم قَدر الصلاة لأنها أوفى خدمة العبد، والمراد من العبد التعبد، وهي جامعة بين خضوع بدنه ونُطق لسانه وحضور قلبه، وإن اللَّه تعالى جعل عبادة ملائكته بين سجود وركوع وذِكر، وذلك مجموع في الصلاة، وليس لنا فعل يدخل به الكافر في حكم الإسلام ويخرج بتركه المسلم من الإسلام إلا الصلاة، فإن عندنا [٢] أن الكافر إذا صلَّى حُكم بإسلامه سواء صلى مع جماعة أو منفردًا، فيُجبر عندنا على الإسلام. وعن أبي حنيفة روايتان إحداهما كقولنا. والثانية: اشترط أن يكون في جماعة. وقال يوسف: إذا صلَّى الحربيُّ في دار الإسلام حُكم بإسلامه.

وأما تارك الصلاة فلا يختلف مذهبنا عن مذهب أحمد ﷺ أنه يُقتل حدًّا أو كُفْرًا. **فيه روايتان: إحداهما:** يُقتل لكُفره. وهو قول عمر وابن مسعود وابن عباس وجماعة وجابر والشَّعبي والأوزاعي ﷺ. وقد دل على هذا ما أخرجه مسلم في أفراده من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » [٣].

والرواية الثانية: يقتل حدًّا لا أنه يكفر. وهو قول مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: يُحبس ولا يستتاب ولا يُقتل.

واعلم أن الشرع عظَّم أمر الصلاة وضرب الأمثال بفضلها.

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم، أنبأنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورجيّ، قالا: أخبرنا أبو محمد الجراحي، أنبأنا أبو العباس المحبوبي، أنبأنا الترمذي، حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن أبي الهادي عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللَّه بهن الخطايا » [٤]. (أخرجاه في الصحيحين).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « الصلوات

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه : ٢٠٢/١، ط عيسى الحلبي.

(٢) أي عند الحنابلة.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم : ٨٢، ط عبد الباقي.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المواقيت، باب رقم : ٦. ورواه مسلم في صحيحه، حديث رقم : ٦٦٧.

الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفِّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »[(١)].

وفي أفراده من حديث عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: « ما من امرئ مسلم تَحْضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤت كبيرة، وذلك الدهر كله »[(٢)].

أخبرنا سعيد بن أحمد بسنده إلى مجاهد، عن عبد اللّه بن عمر ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن »[(٣)].

* * *

وقد فضَّل الشرعُ تقديم الصلاة في أول الوقت.

ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ قال: سألت رسول اللّه ﷺ: « أي العمل أحبُّ إلى اللّه تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها »[(٤)].

وفضلت الصلاة في الجماعة.

ففي الصحيحين من حديث ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة »[(٥)].

وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: « من صلى أربعين يومًا في جماعة لم تفته ركعة واحدة كتب اللّه له براءتين: براءة من النار، وبراءة من النفاق »[(٦)].

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده قال البغوي: سمعت عبد اللّه بن عمر القواريري يقول: لم تكن تفوتني صلاة العتْمة في جماعة، فنزل بي ضيف فشُغلت به فخرجت أطلب الصلاة في قبائل البصرة، فإذا الناس قد صلوا وخلت القبائل، فقلت في نفسي روي عن النبي ﷺ أنه قال: « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ خمسًا وعشرين درجة » وروي « سبعًا وعشرين » فانقلبت إلى منزلي فصليت العتمة سبعًا وعشرين مرة،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ١٤، ١٥، ١/١١٧، ط عيسى الحلبي.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه : ١/١١٦، ط الحلبي.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة، باب رقم : ٤. ومالك في الموطأ، كتاب الطهارة، حديث رقم : ٣٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها : ١/٧٩، ط الخيرية.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة : ١/٩٣، ط الخيرية.

(٦) مسند أحمد : ٣/١٥٥. وسنن ابن ماجه، كتاب الأذان، باب رقم : ٥.

ثم رقدت فرأيتني مع قومٍ راكبي أفراس وأنا راكب فرسًا كأفراسهم ونحن نتجارى فالتفت إليَّ أحدهم فقال: لا تُجهد فرسك فلست بلاحقنا. فقلت: فلم ذاك؟ قال: إنا صلينا العتمة في جماعة.

وورد الثواب لمنتظر الصلاة.

فروي في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها ».

وفي حديث عبد اللّه بن عمر ﷺ: « لا يزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها » (١).

وفي حديث عبد اللّه بن عمر ﷺ قال: صلينا مع رسول اللّه ﷺ المغرب فعقَّب من عقب ورجع من رجع، فجاء رسول اللّه ﷺ يحسر ثيابه عن ركبتيه فقال: « أبشروا يا معشر المسلمين، فهذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة يقول: « هؤلاء عبادي قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى » (٢).

وقد عظّم الصف الأول. فروي في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « لو يعلم الناس ما في الصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتهموا لاستهموا ».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: « لو يعلم الناس ما في الصف المقدَّم لكانت قُرْعة » (٣).

وقد أُمر المصلي بخفض رأسه استعمالًا لأدب الخدمة. فروى مسلم في أفراده من حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لينتهين أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم » (٤).

وأمر المصلي بالتثبُّت في الركوع والسجود، حدثنا الكروخي بسنده عن عمير عن أبي معمر عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا تُجزئ صلاةٌ لا يقيم فيها الرجل يعني صُلْبه في الركوع والسجود » (٥).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان : ٦٨/١، ط الخيرية بلفظ آخر. وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم : ٢٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب المساجد، باب رقم : ١٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم : ١٣١.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم : ١١٧.

(٥) أخرجه الترمذي في صحيحه : ٥٥/١، ط الأميرية.

وفي حديث ابن شيبان عن النبي ﷺ أنه قال: « لا ينظر اللّٰه تعالى إلى رجل لا يقيم صلبه في الركوع والسجود » (١).

* * *

واعلم أن المقصود بالصلاة إنما هو تعظيم المعبود.

وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب في الخدمة. وقد كان في السلف من يتغير إذا حضرت الصلاة ويقول: أترون بين يَدي مَنْ أريد أن أقف؟!

وأنت تعلم أن من حضر قلبه في تعظيم سلطانه فحضر بين يديه من يعرف من إلى جانبه امتلأ بهيبة المعظَّم، فإذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب ففرّغه من الشواغل مهما استطعت.

وقد كان أرباب التفكر من السلف يشاهدون في كل شيء عبرة، فيذكرون بالأذان نداء العَرْض، وبطهارة البدن تطهير القلب، وبستر العورة طلب ستر القبائح من عيوب الباطن، وباستقبال القبلة صرف القلب إلى المقلِّب، فمن لم تكن صلاته هكذا فقلبه غافل.

* * *

يا هذا إذا صليت والقلب غائبٌ وجوده فالصلاة كالعدم، وهو بالروم مقيم وله بالشام قلب، يا ذاهل القلب في الصلاة حاضر الذهن في الهوى، جسده في المحراب وقلبه في بلاد الغفلة.

جاء مملوك إلى سيِّده فقال: ضاعت مِخْلاة الفرس. فقام السيد يصلي، فلما فرغ من الصلاة قال: هي في موضع كذا وكذا. فقال الغلام: يا سيدي أعِدْ الصلاة فإنك كنت تفتِّش على المخلاة!

قال الحسن: يا ابن آدم إذا هانت عليك صلاتك فما الذي يعز عليك؟

ولما كان المطلوب حضور القلب جاء الوعد بالثواب الجزيل عليه. أخبرنا ابن الحصين بسنده عن زيد بن أسلم عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « من صلى سجدتين لا يسهو فيهما غفر اللّٰه له ما تقدم من ذنبه » (٢).

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قام إلى الصلاة فأتم ركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت: حَفِظك اللّٰه كما

---

(١) قال الترمذي: وفي الباب عن علي بن شيبان وأنس وأبي هريرة ورفاعة الزرقي.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ١١٧/٤، ١٩٤/٥.

حفظتني. ثم يُصعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور فتتفتح لها أبواب السماء حتى تنتهي إلى الله ﷻ فتشفع لصاحبها. فإذا لم يُتم ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها قالت: ضيَّعك الله كما ضيَّعتني ثم أصعدت إلى السماء وعليها ظلمة فأُغلقت دونها أبواب السماء فلفتْ كما يلفّ الثوب الخلَق، فيُضرب بها وجه صاحبها »[١].

* * *

الكلام على البسملة

لا تأسفنَّ لأمرٍ فات مطْلبه ... هيهات ما فائت الدنيا بمردودِ
إذا اقتضتْ أخذتْ نقدًا وإن سُئلت ... فدأبها بالأماني والمواعيدِ
وما السرورُ بها الموروث آخره ... أن يُتبع الحرص إلا قلبُ مَكْدودِ
وللتأسف يَبْقى كلُّ مدّخر ... وللمنيَّة يَغْدو كلُّ مولودِ

يا مخلوقًا مِنْ عَلَق، اكتَفِ من الدنيا بالعُلق[٢]، واحذر في رِيِّ الهوى مِنْ شَرَق، وتذكر يوم الرحيل ذاك القلق، وتفكر في هاجم يسوِّي بين الملوك والسُّوَق، وتأهب له فربما بكَّر وربما طَرَق، يا من شاب وما تاب، استلبْ باقي الرَّمق، أبعد الحلم جهل أم بعد الشيب نزق، كان الشباب غُصنًا فخلِّي عن ورق، وأنت في الشباب كالشَّيب تجري على نَسق، يا غريقًا في الهوى صِحْ من قبل الغرق، كم طالب خلاصًا لِمَا فات ما اتفق.

ليأتينك من الموت ما لا يقبل رشوة ولا مالًا، إذا حال على القويِّ والقويم مالًا، يا مختار الهوى جهلًا وضلالًا، لقد حمَّلت أزرك أوزارًا ثقالًا، إياك والمنى فكم وعد المنى مُحالًا، كم قال لطالب نِعَم: نَعْم سأعطيك نوالًا وقد نوى: لا.

كم سقى الموتُ من الحسرات كؤوسًا، كم فرَّغ ربْعًا عامرًا مأنوسًا، كم طمس بدورًا وشموسًا، واستلب نعيمًا ثم أعطى بُوسًا، وأذل جبابرة كانوا شُوسًا، وأغمض عيونًا ونكَّس رءوسًا وأبدل التراب عن الثياب ملبوسًا.

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلًا ... فسيَّان فيه أدْرك الحظَّ أو أخْطا
وليس يفي يومًا سرورٌ وغِبْطةٌ ... بحُزْنٍ إذا المعطِي استردَّ الذي أعْطَى

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والبزار بنحوه، وفيه الأحوص بن حكيم، وثقه ابن المديني والعجلي وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد : ١٢٢/٢.

(٢) العلق: جمع علقة وهي ما يتبلغ به.

ذهب الشباب الأسود، وانقضى العيش الرغد، وقال الشَّيب: أنا الموتُ وما أبعد، هذا وقلب الغافل كالجلمد.

لا بِدْع إن ضحك القَتِير [١] ... فبكى لضحكته الكبيرْ
عاصَى العزاءُ عن الشبا ... ب وطاوَع الدمعُ الغزيرْ
سُقيًا لأيام مضتْ ... فطويلها عندي قصيرْ
سُقي الشبابُ وإن عَفَى ... آثارَ معهده القتيرْ
ما كان إلا الملك أوْ ... دى بل هوى وهوى السريرْ
هوِّن عليك فإنها ... خِلَع أعارَكها مُعِيرْ
والدهرُ يَقسم مرةً ... نفْلًا [٢] وآونة يُغيرْ

* * *

كلُّ راحات الدنيا هموم وكروب، أمَا دوام العيش بالمشيب مشُوب؟

نظر سليمان بن وهب وزير المهتدي يومًا في المرآة فرأى شيبًا كثيرًا فقال: عيبٌ لا عَدمنا.

أنت كل يوم إلى القبر تتقرب، وسترحل إلى البِلى وتتغرب، وسيأكل المحب بعدك ويشرب، وكأنك إذا ذُكرت أضرب، فخذ العدة فخيلُ الشدة تسرَّب، واسمع نصحي فنصحي مجرب، يا هذا احذر الأمل، وبادر العمل، فكأنك بالأجل على عجل. أمَا الأعمال كل يوم ناقصة، أما الفجائع واردة واقصة [٣]، أما النكبات لأهلها مُعاقصة، أما كفُّ الموت قابضة قانصة، فأنَّى لساكن الدنيا بالسلامة الخالصة، كأنك بالموت قد ثَلب وقدح [٤]، وأورى زناد الرحيل وقدَح، وخلتْ كفُّك يا من تعب وكدح، وتساوى لديك من ذمَّ ومَن مدح، ما هذه العمارة لدار خراب، كلما عمرها قومٌ صاح بينهم للبين غراب، أتبني وأنت تُنْقض، هذا العُجاب:

رُبَّ شريف البناء عالِيه ... بالشِّيد والساج كان بانيه [٥]
كأنما الشمسُ في جوانبه ... بالليل من حُسنه تُباهيهِ
تحار في صَحْنه الرياحُ كما ... يحار ساري الظلام في التِّيه
كانت صحونٌ فيحٌ تضيق به ... فالشِّبْر في القبر صار يكفيه

(١) القتير: الشيب.
(٢) النفل: بفتح النون والفاء - الغنيمة والهبة.
(٣) الواقصة: المهلكة.
(٤) ثلب: لام وعاب، وقدح فيه: طعن.
(٥) الشيد: ما طلي به الحائط من جصٍّ ونحوه. والساج: الشجر.

الجد الجدّ قبل بغتات المنايا، البدار البدارَ قبل حلول الرزايا، ليحلنَّ بكم من الموت يومٌ ذو ظُلَم ينسيكم معاشرة اللذات والنّعم، ولا يُبقي في الأفواه إلا طعم الندم:

سَـلْ بـالـزمـان خـبـيـرًا ... إنـي بـه لـعـلـيـمُ
واهـي الأمـانـة ظـاعـنٌ ... بـالـمـرء وهـو مـقـيـمُ
لا تُـخـدعـن بُـمـنْـيـة ... أمُّ الـخـلـود عـقـيـمُ
وإذا الـمـنـيـة أبـرقـت ... فـرجـاؤك الـمـهـزومُ
عُـشـق الـبـقـاء وإنـمـا ... طـولُ الـحـيـاة هـمـومُ

* * *

ما هذه الخصال المذمومة، أيؤْثر الفَهُوم لذةً مسمومة، إن هذه لعقول مرجومة، متى تيقظ هذه النفوس الملومة، إنها لظالمة وكأنها مظلومة، تعاهدوا والعهود كل يوم مهدومة، لتتمنين أن تكون في غد معدومة، لتعلمن أن اختياراتها كانت مشئومة، من لها إذا بدت لها خصال مكتومة، كيف تصنع إذا نُشرت الصحف مختومة، ما هذا الحرص الشديد والأرزاق مقسومة، تصبح حزينة وتمسي مهمومة، أتقدر على رد ما يُقْدر والأمور مختومة، أسفًا لها الموتُ يطلبها وهي نؤومة، ما حاربت جند هوًى إلا وعادت مهزومة، يا لها موعظة بين المواعظ كالأيام المعلومة أحسن من اللآلئ المنثورة والعقود المنظومة.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١)

سبب نزولها: أنه لما نزل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ... ﴿٩٨﴾ ﴾ شقَّ ذلك على قريش وقالوا: شتم آلهتنا. فجاء ابن الزِّبَعْرى فقال: ما لكم؟ قالوا: شتم آلهتنا. قال: وما قال؟ فأخبروه فقال: ادعوه لي. فلما دعي رسول اللَّه ﷺ قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عُبد من دون اللَّه؟ قال: « بل لكل من عُبد من دون اللَّه ﷻ ». قال ابن الزبعرى: خُصِمْتَ ورب هذه البنيَّة! ألست تزعم أن الملائكة عبادٌ صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عُزَيْرًا عبدٌ صالح؟ فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة،

(١) سورة الأنبياء: ١٠١.

وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا. فضج أهل مكة فنزلت هذه الآية. قاله ابن عباس.

اسم ابن الزبعرى: عبد الله كان يهجو أصحاب رسول الله ﷺ والزبعرى بفتح الباء.

قال المفسرون: وإنما أراد بقوله: ﴿ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴾ الأصنام؛ لأنه لو أراد الملائكة والناس [لقال]: (ومن).

والحسنى عند العرب: كلمة توقّع كل محبوب ومطلوب، قال امرؤ القيس:

فِصرْنا [(١)] إلى الحسنى ورقَّ كلامنا ورُضت فذلت صعبةٌ أي إذلال

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا... ﴾ أي عن جهنم، ﴿ مُبۡعَدُونَ ﴾ والبعد طول المسافة. والحسيس: الصوت تسمعه من الشيء إذا مرَّ قريبًا منك.

وقال ابن عباس: لا يسمع أهلُ الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة ﴿ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى عطاء بن يسار، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يومًا يحدِّث وعنده رجل من أهل البادية فقال: « إن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له: أوَ لست فيما شئت؟ قال: بلى ولكني أحب أن أزرع ».

فأسرع وبذر فبادر الطرفَ نباتهُ واستواؤه واستحصاده، فيقول الله ﷻ: دونك يا ابن آدم لا يشبعك شيء. فقال الأعرابي: يا رسول الله لا نجد هذا إلا قرشيًّا أو أنصاريًّا فإنهم أصحاب زرع فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك رسول الله ﷺ [(٢)]. (انفرد بإخراجه البخاري).

قوله تعالى: ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ **فيه أربعة أقوال:**

أحدها: أنه النفخة الأخيرة. رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني: أنه إطباق النار على أهلها رواه ابن جبير عن ابن عباس.

والثالث: أنه ذبح الموت بين الجنة والنار. قاله ابن جريج.

والرابع: أنه حين يؤمر بالعبد إلى النار. قاله الحسن.

قوله: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ اختلفوا في محل التلقي **على قولين: أحدهما:** أنه إذا قاموا من قبورهم. قاله مقاتل. **والثاني:** على أبواب الجنة. قاله ابن السائب.

---

(١) الأصل: نظرنا. محرفة.

(٢) صحيح البخاري: ٢٤٦/٤، ط الخيرية. كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة.

قوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيه إضمار: يقولون هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيه الجنة.

أين من يعمل لذلك اليوم، أين المتيقظ من سِنَة النوم، أين من يلحق بأولئك القوم، جدُّوا في الصلاة وأخروا في الصوم، وعادوا على النفوس بالتوبيخ واللوم، ليتك إن لم تقدر على الإشمام لطريقتهم حصَّلت الرَّوْم [1].

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ... ﴾:

وذلك بمحو رسومها وتكدير نجومها وتكوير شمسها، ﴿ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ... ﴾.

وفي السجل أربعة أقوال:

أحدها: أنه ملك. قاله علي بن أبي طالب، وابن عمر، والسدي.

والثاني: كاتب كان لرسول الله ﷺ رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس.

والثالث: السجل بمعنى الرجل. روى عن ابن عباس.قال شيخنا أبو منصور اللغوي: وقد قيل: السجل بمعنى لغة الحبشة: الرجل.

والرابع: أنها الصحيفة. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وبه قال مجاهد والفراء وابن قتيبة.

وقرأت على شيخنا أبي المنصور قال: قال أبو بكر بن دُريد: السجل: الكتاب والله أعلم. ولا ألتفت إلى قولهم أنه فارسي معرَّب.

والمعنى: كما يُطوى السجل على ما فيه من الكتاب. واللام بمعنى على. وقال بعض العلماء: المراد بالكتاب المكتوب، فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة جعل السجل كأنه يطوي الكتاب.

ثم استأنف فقال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ... ﴾ **وفي معناه أربعة أقوال:**

أحدها: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غُرْلًا، كذلك نعيدهم يوم القيامة.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « إنكم تُحْشرون حفاة عراة غُرْلًا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين » [2]. (أخرجاه في الصحيحين).

والغرل: القُلْف، يقال هو أقلف وأغرل و... بمعنى واحد.

---

(١) الروْم والإشمام من مصطلحات علم التجويد. وقد سبق بيانهما في الجزء الأول من هذا الكتاب: ص ٥١٨.

(٢) صحيح البخاري: ١٠٩/٤، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٥٦ - ٥٩.

وفي بعض الأحاديث بُهْمًا. ومعناه: سالمين من عاهات الدنيا وآفاتها لا جُذام بهم ولا برص ولا عمى ولا غير ذلك من البلايا، لكنهم يحشرون بأجساد مصححة لخلود الأبد، إما في الجنة وإما في النار، والبُهم من قول العرب: أسود بهيم وكُميت بهيم وأشقر بهيم: إذا كان لا يخالط لونَه لونٌ آخر، فكذلك هؤلاء يبعثون معافين عافية لا يخالطها سقم.

والثاني: أن المعنى: أنا نهلك كل شيء كما كان أول مرة، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن السماء تمطر أربعين يومًا كمنيّ الرجال فينبتون بالمطر في قبورهم كما ينبتون في بطون أمهاتهم. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والقول الرابع: أن المعنى: قُدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء. قاله الزَّجاج.

* * *

يا له من يوم ما أعجب أحواله وما أصعب أهواله وما أكثر أوْحالَه، مريض طرْده لا يُرجى له (١)، ذكر القيامة أزعج المتقين وخوْف العرْض أقلق المذنبين، ويوم الحساب أبكى العابدين، وأرى قلبك عند ذكره لا يلين.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد الرحمن بن محمد المكاري عن موسى الجُهني قال: سمعت عونَ بن عبد اللَّه يقول: وَيحي كيف أغفل ولا يُغفل عني، أم كيف تَهْنيني معيشتي واليوم الثقيل ورائي، أم كيف لا يطول حزني ولا أدري ما فُعل في ذنبي، أم كيف أؤخر عملي ولا أعلم متى أجَلي، أم كيف يشتد عجبي بالدنيا وليست بداري، أم كيف أجمع لها وفي غيرها قراري، أم كيف تَعْظم رغبتي فيها والقليل منها يكفيني، أم كيف آمن فيها ولا يدوم فيها حالي، أم كيف يشتد حرصي عليها ولا ينفعني ما تركتُ منها بعدي، أم كيف أُوثرها وقد ضرّت مَنْ آثرها قبلي، أم كيف لا أفك نفسي من قبل أن يَغْلق رهْني.

قال عبد اللَّه بن الحسن بن عبد العزيز الجَروي، قال حدثنا عبد اللَّه بن يوسف الدمشقي قال حدثنا محمد بن سليمان بن بلال (٢) [بن أبي الدرداء] (٣) أنَّ أمه عثَّامة كُف بصرها فدخل عليها ابنها يومًا وقد صلى فقالت: أصليتم أي بني؟ فقال: نعم فقالت:

عثّام مالك لاهيه حلّت بدارك داهيه
ابكي الصلاة لوقتها إنْ كنت يومًا باكيه

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) في كتاب الزهد للإمام أحمد: ص ١٧٠: عن بلال. ولعله تحريف.

(٣) سقطت من الأصل وأثبتها من كتاب الزهد: ص ١٧٠.

وابـكـي الـقُـرآن إذا تُـلـي ... أنْ كـنـت يـومًا تـالـيـهْ
تـتـلـيـنـه بـتـفـكُّـر ... ودمـوعُ عـيـنـك جـاريـهْ
فـالـيـوم لا تـتـلـيـنـه ... إلا وعـنـدك تـالـيـهْ
لـهـفـي عـلـيـك صـبـابـة ... مـا عـشـتُ طـول حـيـاتـيه [١]

يا غافلًا عن القيامة ستدري بمن تقع الندامة، يا مُعرضًا عن الاستقامة أين وجه السلامة، يا مبنيًّا بالقدرة سينقض بناؤك، ويامستأنسًا بداره ستخلو أوطانك، يا كثير الخطايا سيخف ميزانك، يا مشغولًا بلهوه سيُنشر ديوانك، يا أعجمي الفهم متى تفهم، أتعادي النصيح وتُوالي الأرقم [٢]، وتُؤثر على طاعة اللَّه كسبَ درهم، وتفرح بذنب عقوبته جهنم، ستعلم حالك غدًا ستعلم، سترى من يبكي ومن يندم، إذا جثا الخليلُ وتزلزل ابنُ مريم، يا عاشق الدنيا كم مات متيَّم، يا من إذا خطرت له معصية صمَّم، ما فعلك فعلُ من يريد أن يَسْلم، ما للفلاح علامة واللَّه أعلم، إن كان ثَم عُذر فقل وتكلم.

أيها المثخِن نفسه بجراحات الشباب، حسبك ما قد مضى سوَّدت الكتاب، أبعد الشيب وَعْظ أو زجر أو عتاب، هيهات تفرقت وُصَل الوصْل وتقطعت الأسباب.

حسبك ما قد مضى من اللعبِ ... فُتب إلى اللَّه فعل مرتقبِ
طواك مرُّ السنين فاطو ثياب اللـ ... ـهْو واخلع جلابيب الطرب
وتُبْ فإن الجحيم تنتظر الأشْـ ... ـيَب إن مات وهو لم يتُبِ
تُظْهر منها عليه أغلظ ما ... تظهره للشباب من غضبِ

السجع على قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾:

يا من لا يؤثر عنده وعْدُه ووعيده، ولا يزعجه تخويفه وتهديده، يا مطلَقًا ستعْقله بيدُه، ثم يُفنيه البلى فيُبيده، ثم ينفخ في الصور فيبتدأ تجديده ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

فرَّقنا بالموت ما جمعنا، ومزقنا بالتلف ما صنعنا، فإذا نفخنا في الصور أسمعنا، محكم الميعاد في الميعاد ونجيده ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

كم حسرة في يوم الحسرة، وكم سَكْرة من أجل سكرة، يومًا قد جعل خمسين ألف سنة قدْره، كل ساعة فيه أشد من ساعة العسرة، نبني فيه ما نقضناه ونشيده ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي: ص ٤٨، بتحقيقي.

(٢) الأرقم: أخبث الحيات وأطلبها للناس.

قرَّبنا الصالحين منا، وأبعدنا العاصين عنا، أحببنا في القِدم وأبغضنا، فمن قضينا عليه بالشقاء أهلكنا، فهو أسير البعد وطريده، ومن سبقت لهم منا الحسنى فنحن ننعم عليه ونفيده ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

يومٌ كله أهوال، شُغله لا كالأشغال، يتقلقل فيه القلب والبال، فتذهل عقول النساء والرجال، ومن شدة ذلك الحال لا ينادي وليده.

تجري العيون وابلًا وطلًّا (١)، وترى العاصي يقلق ويتقلّى، ويتمنى العوْد فيقال كلًّا، والويلُ كل الويل لمن لا نريده، تخشع فيه الأملاك، وتطير فيه الصِّحاف، ويعز على المحبوس الفكاك. فأما المؤمن التقي فذاك عيده.

إخواني: ارجعوا بحسن النُّزوع والأوبة، واغسلوا بمياه الدموع ماضي الحَوْبة (٢)، وقد نصبْنا للمذنب شَرك التوبة، أفترى اليوم نصيده.

يا من لا يزال مطالَبًا مطلوبًا، يا من أصبح كل فعله محسوبًا، إن حرَّكك الوعظُ إلى التوبة صرت محبوبًا، وإن كان الشقا عليك مكتوبًا فما ينفع ترديده.

* * *
* *
*

(١) الوابل: المطر الشديد. والطل: المطر الخفيف.

(٢) الحوبة: الإثم.

المجلس الرابع

في ذكر الزكاة

الحمد للَّه الذي لا واضع لِمَا رفع، ولا رافع لما وضع، ولا واصل لما قطع، ولا مفرق لما جمع، سبحانه مِنْ مقدِّر ضُرّ ونفع، وحكَم فالكل حُكْمه كيف وقع، أمرض حتى ألقى على شَفا ثم شفى الوجع، وواصل من شاء ومن شاء قطع، جعل العصاة في خفارة الطائعين وفي كنف القوم وسع، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾ (١).

أحمده على ما أعطى ومنع، وأشكره إذ كشف للبصائر سرّ الخِدع، وأشهد بأنه واحد أحكم ما صنع، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله والكفر قد علا وارتفع، ففرق بمجاهدته من شرّه ما اجتمع، صلى اللَّه عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي نَجَم نجمُ سعادته يوم الردة وطلع، وعلى عمر الذي عزّ الإسلام به وامتنع، وعلى عثمان المقتول ظلمًا وما ابتدع، وعلى عليّ الذي دحض الكفر بجهاده وقمع، وعلى عمه العباس الذي سئل به سيل السحاب فهمع. اللَّهم يا من إلى بابه كلُّ راغب رجع، اجعلنا ممن بالمواعظ انتفع، واحفظنا من موافقة الطبع والطمع، وانفعني بما أقول وكل من استمع.

* * *

قال اللَّه تبارك وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢)

الكنز: ما لم يؤدَّ زكاته. أخبرنا عبد الأول بسنده عن الليث بن سعد عن نافع أن عبد اللَّه بن عمر قال: ما كان من مال تؤدي زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونًا، وما ليس مدفونًا لا تؤدي زكاته، فإنه الكنز الذي ذكره اللَّه ﷻ في كتابه.

وفي قوله: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا ﴾ **قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما**: أن المعنى يرجع إلى الكنوز، **والثاني**: إلى الفضة. وقال أبو عبيدة: العرب إذا أشركوا بين اثنين قصَروا فأخبروا عن أحدهما استغناء بذلك وتخفيفًا بمعرفة السامع أن الآخر قد شاركه ودخل معه في ذلك الخبر:

(١) سورة الحج: ٤٠.

(٢) سورة التوبة: ٣٤.

ومن يَكُ أمْسَى بالمدينة رحْله فإني وقيَّار بها لغريبُ

قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ... ﴿٣٤﴾ ﴾ أي اجعل مكان البشارة هذا.

قوله ﷻ: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ... ﴿٣٥﴾ ﴾ يعني الأموال. قال ابن مسعود: ما من رجل يُكْوى بكنز فيوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسَّع في جلده فيوضع كل دينار على حِدته.

وقال ابن عباس: هي حية تُطوى على جنبيه وجبهته فتقول: أنا مالُك الذي بخلتَ به.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن المعرور بن سُويد عن أبي ذر ﷺ قال: أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو في ظل الكعبة فقال: هم الأخسرون ورب الكعبة. قالها ثلاث مرات. قال: فأخذني غمّ وجعلت أتنفس، قال: قلت: هذا شر حدث فيَّ. قال: قلت: من هم فداك أبي وأمي؟ قال: « الأكثرون أموالًا إلا من قال في عباد اللَّه، هكذا وهكذا، وقليل ما هم، ما من رجل يموت فيترك غنمًا أو إبلًا أو بقرًا لا يؤدي زكاتها إلا جاءته يوم القيامة أعظم ما تكون وأسْمن، حتى تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها حتى يقضي اللَّه بين الناس ثم تعود أولاها على أخراها » (١). (أخرجاه في الصحيحين).

وبالإسناد عن جابر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقَّها إلا جاءته يوم القيامة أكثر ما كانت قط وقعد لها بقاعٍ قرْقر (٢) تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ليس فيها جمَّاء ولا منكَّس قَرْنها، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء يوم القيامة شجاعًا أقرع يَتْبعه فاغرًا فاه، فإذا أتاه مرَّ منه فيناديه ربه: خُذ كنزك الذي خبأته فإني عنه أغنى منك. فإذا رأى أن لا بد منه سلك بيده في فيه فيقضمها قَضْم الفحل » (٣). (انفرد بإخراجه مسلم).

وفي أفراده من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدِّي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جبهته وجنبه وظهره (٤) كلما تردَّت مرَّ عليه أولاها ردَّ عليه أخراها أعيدت إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ».

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عبد اللَّه بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة

---

(١) صحيح البخاري: ١٢٣/٤، ط الخيرية، كتاب الإيمان. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٥٩.

(٢) القرقر: القاع الأملس.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٢٧.

(٤) صحيح مسلم: جنبه وجبينه وظهره والحديث في صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٢٦.

قال: قال رسول الله ﷺ: « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثِّل له ماله شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوِّقه يوم القيامة يأخذ بِلِهْزِمتَيْه يعني شدقيه يقول: أنا مالك أنا كنزك وتلا هذه الآية: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (١) » (٢). (انفرد بإخراجه البخاري).

فإن قيل: لِمَ خَصَّ الجباه والجنوب والظهور من بقية البدن؟

فجوابه من وجهين: أحدهما: أن هذه المواضع مجوَّفة فيصل الحر إلى أجوافها، بخلاف اليد والرجل، وكان أبو ذر يقول: بشر الكنَّازين بكيٍّ في الجباه وكي في الجنوب وكيّ في الظهور حتى يلتقي الحر في أجوافهم. **والثاني:** أن الغنيَّ إذا رأى الفقير انقبض وإذا ضمه وإياه مجلس ازورّ عنه وولَّاه ظهْره، فكُويت تلك المواضع منه. قاله أبو بكر الوراق.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ... ﴿٣٥﴾ ﴾ المعنى: هذا ما ادخرتم لأنفسكم ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: عذاب ذلك اليوم.

* * *

واعلم أن الزكاة أحد أركان الإسلام قال ﷺ: « بني الإسلام على خمس » (٣) فذكر منهن الزكاة.

وينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة، وذلك ثلاثة أشياء:

أحدها: الابتلاء بإخراج المحبوب.

والثاني: التنزُّه عن صفة البخل المهلك.

والثالث: شكر نعمة المال، فليتذكر إنعام الله عليه إذ هو المعطِي لا المعطَى.

وعليه ألا يؤخرها إذا حال الحولُ، ولا يجوز إعطاء العوض باعتبار القيمة (٤). وينبغي أن ينتقي الأجود للفقير، فإن الذي يعطيه هو الذي يلقاه يوم القيامة، فليتخير لنفسه ما يصدَّق به، وأن يقدم فقراء أهله ويتحرى بها أهل الدِّين، ولا يبطل صدقته بالمن والأذى، فليعط الفقير بانشراح ولُطف حتى كأن الفقير هو الذي يُنعم بما يأخذه، وليستر عطاءه أهلَ المروءات فإنهم لا يُؤثرون كشف ستر الحاجة، فإن خطر له أن الزكاة ينبغي أن تشاع لئلا يتهم الإنسان، ففي من لا يستحي إذا أخذها كثرة، فليُشعها عند أولئك وليترك أرباب الأنفة تحت ستر الله ﷻ.

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٠.
(٢) صحيح البخاري : ١/١٨٣، ط الخيرية.
(٣) صحيح البخاري، حديث رقم : ٨. وصحيح مسلم، حديث رقم : ١٦.
(٤) هذا على مذهب أحمد بن حنبل والشافعي ومالك وعند أبي حنيفة يجوز إخراج القيمة.

الكلام على البسملة

غَوالبُ راحةِ الدنيا عنَاءُ ... وما تعطيه مِنْ هبةٍ هَباءُ
وما دامت على عهدٍ بخلْقٍ ... ولا وعدتْ فكان لها وفاءُ
تذيق حلاوةً وتذيق مُرًّا ... وليس لذا ولا هذا بقاء
وتجلو نفسها لك في المعاصي ... وفي ذاك الجِلاء لها الجلاءُ
إذا نشرت لواء الملك فيها ... لوى قلْبَ الغني لها اللواء
فدعْها راغبًا في ظل عيش ... ومُلك ماله أبدًا فناءُ

* * *

عجبًا لمن عرف الدنيا ثم اغتر، أمَا يقيس ما بقي بما مرّ، أيؤثر لبيبٌ على الخير الشرّ، أيختار الفطِن على النفع الضر، كم نعمة عليك قد سُلّفتها وما قمت بفريضة كُلفتها، إذا دعيت إلى التوبة سوّفتها، وإن جاءت الصلاة ضيعتها، وإذا قمت في العبادة خففتها، وإذا لاح لك وجه الدنيا ترشَّفتها، لقد آفتك آفةُ الدنيا وما أفتَّها، إنها لدار قُلعة تضيَّفتها، أو ليس قد شِبْتَ وما عرفتها، كم حيلة في مكاسبها تلطَّفتها، ولو شغلتك عنها آيات تأففْتها، كم بادية في أرباحها تعسَّفتها، كم قِفار في طلبها طُفتها، كم كذبات من أجل الدنيا زخرفتها، لقد استشعرت محبتها إي واللّه والتحفتها، تحضر المسجد وقلبك مع التي ألِفْتها، أو ما يكفيك أموالك وقد ألَّفتها، تاللّه لو علمت ما تجني عِفْتها. أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها، ألست الذي تذكَّرتها ثم خِفتها، آه لمراحل أيام قطعتها وخلَّفتها، آه لبضائع عمر بذّرت فيها وأتلفتها، لو أردت خيرًا وبَّختها وعِفتها، لو قبلتها بالوفاق فهلّا خالفتها؟!

* * *

إخواني: قولوا للمفرط الجاني، قال لك الشيب: أمَا تراني، أنا كتاب المُنون والضعف عنواني، وليس في السطور إلا أنك فاني:

أنكرتْ سلْمى مشيبًا عَرَاني ... ورأتني غيرَ ما قد تراني
أشْرف الشيبُ على لمّتي (١) ... وشباب المرء ظلٌّ للزمان (٢)
إنما أنت لما قد تَرى ... لا يغرنك ضمانٌ للأماني
هل ترى من عائش خالدٍ ... كم ترى من هالك قد صار فاني

(١) اللمة بالكسر: الشعر المجاوز شحمة الأذن.

(٢) الأصل: ظل الزماني. محرفة.

لَوْ أعننت العين إذا أبصرتْ واعظاتي بفؤادي لكفاني [١]
أيُّ شيء أتَّقي والردى بين جنبيَّ بعينيّ يُداني
كل يوم ناقصٌ دولةً من بقائي جاذبٌ منِّي عِنَاني
وألاقيه بلا جُنَّة فإذا شاء أن يَرْمي لحيني رمَاني
تابعٌ يتبع ماضيّ كما يُتْبع العاملُ جرًّا للساني [٢]
لذة الدنيا إذا ما حضروا فإذا غابوا فشُغل للأماني
ما اطمأنَّ الدهرُ حتى نُقصوا فكأن لم أرهُمْ في مكان

أين أهل العزائم رحلوا وماتوا، أين أهل اليقظة ذهبوا وفاتوا، قفْ على قبورهم تجد ريح العزْم، تنفَّس عندها تحب روح الحزم، أقبلوا بالقلوب على مقلبها، وأقاموا النفوس لدى مؤدبها، ومدُّوا الباعَ من باع التسليم إلى صاحبها، وأحضروا الأخرى فنظروا إلى غايتها وسهروا الليالي كأنهم قد وكِّلوا برعي كواكبها، ونادوا نفوسهم صبرًا على نار البلاء لمن كَواك بها، ومقتوا الدنيا فما مال الملأ إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى الحبيب فاستطالوا مدة المقام بها.

أنتم على البُعد همومي إذا غِبتمْ وأشجاني على القُرْب
لا أُتْبع القلب إلى غيركم عيني لكم عينٌ على قلبي

إن لم تكن معهم في السَّحر فتلمّح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى، واقرأ في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار، وجوهٌ ينهاها الحسْن أن تتقنَّعا.

أين أنت من القوم، كم بين اليقظة والنوم، يا بعيد السلامة قد قرِّبت منك النَّعامة [٣] يا عديم الاستقامة، ما أرى لنجاتك علامة، أعمالك لا تصلح للجنة وخصالك الباطنة أوصاف. إلى متى إلى متى جدّ في غير الجد وانكماش، إلى كم في الظلام وقد نُسخت الأغباش، تمكن حبُّ الدنيا من القلب فما يخرجه مِنْقاش، ولاحَ نورُ الفلاح وكيف يبصر خُفَّاش، أمَّا النهار فأسير الهوى في المعاش، وأما الليل فقتيل المنام في الفراش، كيف يَصْحَب الصُّلحاءَ من همته صُحبةُ الأوباش، وهل يبارز في صف الحرب خوّارٌ ضعيف

(١) الأصل: كفاني. (٢) كذا بالأصل. وفيه تأثر بمصطلحات النحو.
(٣) النعامة من معانيها: الصحراء والنفس. ولعله يريد الإشارة إلى البيت الجاهلي:
قرِّبا مَربطَ النعامة مِنِّي وائلٌ أصبحت على بَلبال
وهي إذًا كناية عن التهيؤ للرحيل.

الجاش، دخل حب الدنيا فاستبطن بطْن المُشاش [١].

* * *

مِثْل الشَّبيبة كالربيع إذا ماجيدَ فاخضرَّت له الأرضُ

فالشيب كالمَحْل الجمادِ له لوْنان مُغبّر ومُبيضُّ

سنحتْ له دَهْياء من كَثَبٍ دانت خُطاه وما به أيْضُ [٢]

ترك الجديدُ جديدَه هَملا لا الصَّوْن يُرْجعه ولا الرحضُ [٣]

وتعاقُب التفْتيش يقْدح في صُمٍّ الصفا فيظلُّ يرفضُّ [٤]

* * *

الكلام على قوله ﷻ:
﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [٥]

المعنى: لن تنالوا البر الكامل وبعض المفسرين يقول: المراد بالبر هاهنا الجنة، ولن يُدرك الفضلُ الكامل إلا ببذل محبوب النفس.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن إسحاق بن عبد اللَّه بن طلحة، أنه سمع أنس بن مالك يقول: « كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالًا من نخل وكان أحب أمواله إليه بئر حاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللَّه ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول اللَّه إن اللَّه تعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وإنَّ أحب أموالي إليّ بئر حاء، وإنها صدقة للَّه أرجو بِرَّها وذُخرها عند اللَّه فضعها حيث أراك اللَّه. قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: « بخ ذاك مالٌ رابحٌ أو رائحٌ - شك ابن مسلمة - وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين » قال أبو طلحة: « أفعل ذلك يا رسول اللَّه ». فقسمها أبو طلحة في أقاربه [٦]. (أخرجاه في الصحيحين). ورواه حُميد

---

(١) المشاش: رءوس العظام. (٢) الأيض: الرجوع.

(٣) الرحض: الشنة والمزادة الخلق. ورحضه: غسله. فكأنه ضد الصون.

(٤) يرفض: يتكسر ويتفرق. (٥) سورة آل عمران: ٩٢.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم: ٤٤. وكتاب الوصايا، باب رقم: ١٧، وهو كذلك في كتاب الوكالة، وكتاب التفسير، وكتاب الأشربة. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم: ٤٣. ومسند أحمد: ١٤١/٣.

عن أنس فقال فيه: لو استطعت أن أُسرّها لم أعلنها. فقال: اجعله في فقراء أهلك.

وقال مجاهد: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جارية من سَبْي جلولاء ففعل فدعاها عمر فأعتقها ثم تلا هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

وقال ابن عمر: خطرت هذه الآية ببالي: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ففكرت فيما أعطاني الله ﷻ فما وجدت شيئًا أحب إلي من جاريتي رُمَيْثة فقلت: هي حُرَّة لوجه الله. فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها. فأنكحها نافعًا فهي أم ولده.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد العزيز بن روّاد عن نافع قال: كان ابن عمر إذا اشتد عُجبه بشيء من ماله قرّبه لربه ﷻ. قال نافع: كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمّر أحدهم فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن والله ما بهم إلا أن يخدعوك! فيقول ابن عمر: فمن خدعنا بالله انخدعْنا له!

قال نافع: فلقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نجيب له قد أخذه بمال، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه ثم نزل عنه وقال: يا نافع انزعوا زمامه ورحْله وجلِّلوه وأشْعروه وأدخلوه في البُدن.

وروى بشير بن دعلوف عن الربيع بن خثيم أنه وقف سائل على بابه فقال: أطعموه سكرًا فإن الربيع يحب السكر.

* * *

واعلم أن الإنفاق يقع على الزكاة المفروضة وعلى الصدقة النافلة، وعلى الإيثار والمواساة للإخوان، فمن أخرج لله ﷻ شيئًا فليكن من أطيب ماله وليوقن المضاعفة.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من تصدّق بعِدْل تمرة من كسْب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فُلُوّه حتى يكون مثل الجبل »(١).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة »(٢).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم : ٨. وسنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب رقم : ١٢. وسنن ابن ماجه، كتاب الزكاة، باب رقم : ٢٨. والفلو: المهر الصغير.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ١٣٢.

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتَدْفع ميتة السوء » (١).

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن يزيد الرقاشي عن أنس عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « تصدقوا فإن الصدقة فِكَاك من النار والصدقة تمنع سبعين نوعًا من البلاء أهونها الجذام والبرص » (٢).

وفي حديث بريدة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما يُخرج أحد شيئًا من الصدقة حتى يفك لِحْيَي سبعين شيطانًا » (٣).

وينبغي للمتصدق أن يُصلح نيته فيقصد بالصدقة وجه اللَّه ﷻ، فإن لم يقصد وجه اللَّه لم تقبل منه. وينبغي أن يتخير الحلال. ففي أفراد مسلم من حديث ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يقبل اللَّه صدقة من غلُول » (٤).

وكان الحسن يقول: أيها المتصدق على المسكين برحمة ارحم مَنْ ظَلمتَ.

وأن يتخير الأجود فقد قال اللَّه تعالى: ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ (٥)، وقال عروة بن الزبير: إذا جعل أحدكم للَّه شيئًا فلا يجعل له ما يستحي أن يجعل لكريمه، فإن اللَّه تعالى أكرم الكرماء وأحق من اختير له.

ثم ينبغي أن يكون إخراج المحبوب في زمان صحة المعطي وزمان فاقة المعطَى، وليقدم الأقرباء ويقدم من الأقارب من لا يميل إليه بالطبع. ففي حديث أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: « أفضل الصدقة الصدقةُ على ذي الرحم الكاشح » (٦).

وليخرج المعطى ما سَهُل وإن قلَّ؛ فقد روى جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ أنه سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: جَهْد المقِل » (٧).

وقال الحسن: أدركنا أقوامًا كانوا لا يردون سائلًا إلا بشيء، ولقد كان الرجل منهم

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب رقم : ٢٨.

(٢) ذكر نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد : ١٠٩/٣، عن رافع بن خديج وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف.

(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. مجمع الزوائد : ١٠٩/٣.

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم : ٢٢٤. (٥) سورة البقرة: ٢٦٧.

(٦) مسند أحمد : ٤٠٢/٣، ٤١٦/٥. وسنن الدارمي، كتاب الزكاة، باب رقم : ٣٨.

(٧) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب رقم : ٤٠. وسنن الدارمي. كتاب الصلاة. باب رقم : ١٣٥.

يخرج من بيته فيأمر أهله ألا يردوا سائلًا.

ومن آداب العطاء أن يكون سرًّا؛ فإن صدقة السرِّ تطفئ غضب الرب ﷻ، قال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تُبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملِك، والصدقة تُدخلك عليه.

الكريم حر لأنه يملك ماله، والبخيل عبدٌ لأن ماله يملكه، أمَا علمت أن رسول اللَّه ﷺ طُبع على أشرف الأخلاق وقد وصف نفسَه عليه الصلاة والسلام فقال: « يأبى اللَّهُ لي البخل »[١]، وأعطى غنمًا بين جبلين فتحيَّر الذي أعطاه في صفة جوده فقال: هذا عطاء من لا يخشى الفقر، فلما سار في فيافي الكرم تبعه صِدِّيقه فجاء بكل ماله فقال: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت اللَّه ورسوله:

سبق النـاسَ إليـها صَـفْـقـةً لـم يعُد رائدُهـا عنـهـا بغبَنْ
هِـزّة لـلـجُـود صـالـت نـشْـوة لم يكـدِّر عندها العرْف بمنّ
طـلـبـوا الـشـاء فـوافـى سـابـقًا جَـذعُ غبَّر في وجه المسنّ[٢]

نزع أبو بكر مخيط الهوى فمزقه عليٌّ، رمى الصِّديقُ جهازَ المطلقة فوافقه عليٌّ حتى رمى الخاتم:

حـبّـب الـفـقـرَ إلـيـه أنـه سُؤدد وهو بذاك الفقر يَغْنَى
وشريفُ القوم من بقَّى لـهـم شرفَ الذكر وخلَّى المال يفنى
ما اطمأنَّ الوَفْر في بحبوحة فرأيتَ المجدَ فيها مُطمئنًّا
تُـهـدم الأمـوالُ مـن آسـاسـهـا أبـدًا مـا دامـت العلياء تُبنى

كان السلف يؤثرون عند الحاجة، ويقدمون الأجود المحبوب.

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى أبي حازم عن أبي هريرة ﵁ أن رجلًا أتى رسول اللَّه ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن: ما عندنا إلا الماء! فقال رسول اللَّه ﷺ: « من يَضُم هذا أو يُضيف هذا؟ » فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول اللَّه ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوتُ الصبيان، فقال: هيِّئي طعامك وأصلحي سراجك ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. ففعلت، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: ضحك اللَّه الليلة، أو عَجِب، من فعالكما. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

(١) مسند أحمد : ٣/٤ - ١٦.

(٢) المسن: ما يحد به السكين ويُصْقل.

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

أخبرنا عبد الوهاب بسنده إلى محمد بن عبيد، عن ابن الأعرابي قال: استُشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن أبي جهل وسهيل بن عمرو بن الحارث ابن هشام وجماعة من بني المغيرة، فأُتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه! أُتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا بهذا. فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا بهذا. فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمرَّ بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم!

نَقِه ابن عمر من مِرض فاشتهى سمكة، فلما قدِّمت إليه جاء سائل فناوله إياها. واشتهى الربيع بن خثيم حلواء فلما صُنعت دعا بالفقراء فأكلوا، فقال أهله: أتعبتنا ولم تأكل فقال: وهل أكل غيري!

كم بينك وبين الموصوفين كما بَيْنَ المجهولين والمعروفين، آثرتَ الدنيا وآثروا الدين، فتلمَّح تفاوت الأمر يا مسكين، أمَّا الفقير فما يخطر ببالك، فإذا جاء سائلٌ أغلظت له في مقالك، فإن أعطيته فحقيرًا يسيرًا من رديء مالك. إلى كم تتعب في جمع الحُطام وتشقى، وتُؤثر ما يَفنى على ما يبقى:

يُحْصِي الفتى ما كان من نفقاته ... ويُضيع من أنفاسهِ ما أنفقا
لم يعتصم ملك يشيّد مُلْكه ... حِصْنًا يُغرُّ به ويحفر خَنْدقا
وكأنما دنيا ابن آدم عِرْسه ... أخذت جميع تُراثه إذ طلَّقا

السجع على قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾:

عباد الله: إلى متى تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون والجيد في بيوتكم تدخرون، والرديء إلى الفقير تُخرجون ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

حركوا هِممكم إلى الخير وأزعجوا، وحُثُّوا عزائمكم إلى الجد وأدلجوا، والتفتوا عن الحرص على المال وعرِّجوا، وآثروا الفقير بما تُؤثرون.

ويْحكم! السيرُ حثيث، ولا مُنجد لكم ولا مُغيث، فبادروا بالصدقة المواريث، ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ (٢) كم قطعت الآمالُ بتّا (٣). كم مُصِيف ما أربع ولا شتّى، كم عازم على إخراج المال ما تأتّى، سبقته المنون ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

---

(١) سورة الحشر: ٩. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب رقم: ١٠.
(٢) سورة البقرة: ٢٦٧.
(٣) البت: القطع لكل أمر لا رجعة فيه.

يا حريصًا ما يستقر، يا طالبًا للدنيا ما يقر، إن كنت تُصدِّق بالثواب فتصدق في السر بالمحبوب المصون ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

يا بخيلًا بالفتيل (١) شحيحًا بالنَّقير، يا صريعًا بالهوى إلى متى عَقير، تختار لنفسك الأجود ولربك الحقير، ما لا يصلح لك من الشيء تُعطيه الفقير، فما تختار لنا كذا يكون.

اكتسابك على أغراضك أنفقتَ، أمْرجت نفسك في الشهوات وأطلقت، ونسيت الحسابَ غدًا وما أشفقت، فإذا رحمت الفقير وتصدّقت، أعطيتَ الرديَّ الدُّون.

أمَا المسكينُ أخوك من الوالدين، فكيف كففت عن إعطائه اليدين، كيف تحثُّ على النفل والزكاةُ عليك دَيْن، وأنتم فيها تتأوّلون.

يا وحيدًا عن قليل في رَمْسه، يا مستوحشًا في قبره بعد طول أُنسه، لو قدّم خيرًا نفعه في حبْسه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (٢).

تجمع الدينار على الدينار لغيرك، وينساك من أخذ كلَّ خيرك، ولا تزوّدت منه شيئًا لسيرك، هذا هو الجنون ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

* * *
* *
*

---

(١) أ: بالقليل.

(٢) سورة الحشر: ٩.

المجلس الخامس

في ذكر الصيام

الحمد للَّه خالق الدُّجى والصباح، ومسبّب الهدى والصلاح، ومقدِّر الغُموم والأفراح، الجائد بالفضل الزائد والسَّماح، مالك الملك المُنْجي من الهُلك، ومسيّر الفَلَك والفُلك مَسِير الجناح [١]، عزّ فارتفع، وفرّق وجمع، ووصل وقطع، وحرّم وأباح، ملك وقدر، وطوى ونشر، وخلق البشر، وفَطر الأشباح، رفع السماء، وأنزل الماء، وعلم آدم الأسماء، وذرّى الرياح، أعطى ومنح، وأنعم ومدح، وعفا عمن اجترح، وداوى الجراح، علم ما كان ويكون، وخلق الحركة والسكون، وإليه الرجوع والركون في الغد والرّواح، يتصرّف في الطُّول والعَرْض، وينصب ميزان العدل يوم العَرْض ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ﴾ [٢].

أحمده وأستعينه، وأتوكل عليه وأسأله التوفيق لعمل يقرب إليه، وأشهد بوحدانيته عن أدلة صحاح، وأن محمدًا عبده المقدم ورسوله المعظم، وحبيبه المكرم، تفْديه الأرواح، صلى اللَّه عليه وسلم وعلى أبي بكر رفيقه في الغار، وعلى عمر فتاح الأمصار، وعلى عثمان شهيد الدار، وعلى علي الذي يفتك [٣] رُعبهُ قبل لُبس السلاح، وعلى العباس عمه صنو أبيه أقرب من في نسبه يليه.

* * *

اعلموا أن الصوم من أشرف العبادات وله فضيلة ينفرد بها عن جميع التعبدات وهي إضافته إلى اللَّه ﷻ بقوله ﷻ: « الصوم لي وأنا أجزي به ».

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « كلُّ عمل ابن آدم يضاعَف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء اللَّه، يقول اللَّه ﷻ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان فرحة عند فطْره وفرحة عند لقاء ربه، ولخَلوفُ فِيه [٤] أطيبُ عند اللَّه من ريح المسك، الصومُ جُنّة ».

قال أحمد: وحدثنا أحمد بن عبد الملك، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: إن للجنة بابًا يقال له الريَّان يقال يوم القيامة: أين الصائمون؟ هلمُّوا إلى باب الريان.

---

(١) كذا بالأصول، وفي تلخيص التبصرة: ومسير الرياح. ولعل المقصود أن الفلك يسير كما يسير الطائر بجناحه.
(٢) سورة النور: ٣٥. (٣) أ: يقتل. (٤) أ: فم الصائم.

فإذا دخل آخرهم أُغلق ذلك الباب. وفي لفظ فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم [١]. (هذان الحديثان في الصحيحين).

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن رجاء بن حيوة عن أبي أمامة قال: أنشأ رسول اللَّه ﷺ غزوًا فأتيته فقلت: يا رسول اللَّه ادعُ لي بالشهادة. فقال: « اللَّهم سلِّمهم وغنِّمهم ». قال: فغزونا فسلمنا وغنمنا. قال: ثم أنشأ رسول اللَّه ﷺ غزوًا ثانيًا فأتيته فقلت: يا رسول اللَّه ادع اللَّه لي بالشهادة. فقال: « اللَّهم سلِّمهم وغنِّمهم ». قال: فغزونا فسلمنا وغنمنا، ثم أنشأ رسول اللَّه ﷺ غزوًا ثالثًا فقلت: يا رسول اللَّه قد أتيتك مرتين أسألك أن تدعو اللَّه لي بالشهادة فقلت: « اللَّهم سلمهم وغنِّمهم »، يا رسول اللَّه فادع اللَّه لي بالشهادة. فقال: « اللَّهم سلمهم وغنِّمهم ». قال: فغزونا فسَلِمْنا وغنمنا ثم أتيته بعد ذلك فقلت: يا رسول اللَّه مُرني بعمل آخذه عنك ينفعني اللَّه به. قال: « عليك بالصوم لأنه لا مثل له ».

وكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلقَون إلا صيامًا، فإذا رأوا [عندهم] [٢] نارًا أو دخانًا بالنهار في منزلهم عرفوا أن قد اعتراهم ضيفٌ. قال: ثم أتيته بعد ذلك فقلت: يا رسول اللَّه إنك قد أمرتني بأمر وأرجو أن يكون اللَّه ﷻ قد نفعني به، فمرني بأمر آخر ينفعني اللَّه به، قال: « اعلم أنك لا تسجد للَّه سجدة إلا رفع اللَّه لك بها درجة أو حطَّ أو قال: وحط - شك مهدي - عنك بها خطيئة [٣].

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده عن أبي بُردة عن أبي موسى قال: خرجنا غازِين في البحر، فبينما نحن والريحُ لنا طيبة والشراع لنا مرفوع، فسمعنا مناديًا ينادي: يا أهل السفينة قفوا أخبركم حتى والَى [٤] بين سبعة أصوات. قال أبو موسى: فقمت على صدر السفينة فقلت: من أنت ومن أين أنت؟ أَوَ مَا ترى ما نحن فيه وهل نستطيع وقوفًا؟ فأجابني الصوت: ألا أخبركم بقضاء قضاه اللَّه ﷻ على نفسه؟ قال: قلت: بلى أخبرنا. قال: فإن اللَّه سبحانه قضى على نفسه أنه من عطش نفسه للَّه في يوم حار كان حقًّا على اللَّه أن يُرْويه يوم القيامة. قال: فكان أبو موسى يتوخى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان فيصومه!

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب رقم : ٢. وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ١٦٤، ١٦٥.
(٢) من أ.
(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، حديث رقم : ١٦٩. وابن ماجه في كتاب الإقامة، باب رقم : ٢٠١. وأحمد في مسنده : ١٦٤/٥.
(٤) أ: فنادى سبعة أصوات.

واعلم أن للصوم آدابًا؛ منها: كفُّ النظر واللسان عن الفضول، والإفطار على الحلال وتعجيله، وأن يفطر على تمر. قال وهب بن منبه: إذا صام الإنسان زاغ بصره فإذا أفطر على حلاوة عاد بصره.

ويقول إذا أفطر: اللَّهم لك صُمت وعلى رزقك أفطرت وعليك توكلت. ويستحب السحور وتأخيره.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا كان أحدكم يومًا صائمًا فلا يجهل ولا يرفث فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم » (١).

وقد لا تخلُص النيةُ ولا يحصل الأجر: أخبرنا أبو بكر بن عبد الباقي بسنده عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « رب صائم حظُّه من صيامه الجوعُ والعطش، ورب قائم حظُّه من قيامه السهر » (٢).

* * *

فأما ما يستحب صيامه فقد كان جماعة من السلف يصومون المحرَّم.

وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « أفضل الصيام بعد رمضان شهر اللَّه المحرم » (٣).

وفي أفراده من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال في صوم يوم عاشوراء: « يكفِّر السنة الماضية » (٤).

وفي الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: ما كان رسول اللَّه ﷺ يصوم في شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان كان يصومه كله (٥).

وفي أفراده من حديث أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال: « من صام رمضان ثم أتْبعه ستًّا من شوال فذلك صيام الدهر » (٦).

وفي أفراده من حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: « من صام يوم عرفة إني أحتسب على اللَّه أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده » (٧).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب رقم : ٢. وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ١٥٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ٣٧٣/٢. (٣) صحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ٢٠٢، ٢٠٣.

(٤) سبق تخريج هذا الحديث في الجزء الأول من هذا الكتاب: ص ٤٥٥.

(٥) انظر تخريج هذا الحديث في الجزء الأول من هذا الكتاب: ص ٤٨٩.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الصوم، حديث رقم : ٢٠٣.

(٧) انظر تخريج هذا الحديث في الجزء الأول من هذا الكتاب: ص ٥٦٨.

وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن أبواب الجنة تُفتح في يوم الإثنين والخميس » (١).

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي سعيد المقبري قال: حدثني أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله إنك تصوم لا تكاد تفطر، وتفطر لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صُمتهما. قال: أي يومين؟ قلت: يوم الإثنين والخميس. قال: ذانك يومان تُعرض فيهما الأعمال على رب العالمين فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم » (٢).

ويستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر. ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: « أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أُوتر قبل أن أنام » (٣).

وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ : إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام فصُم ثالث عشر ورابع عشر وخامسَ عشر » (٤).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود ﵇، كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثُلثه، وينام سدسه » (٥)، وقد كان جماعة من السلف يغتنمون العمر فيَسْردون الصوم ولا يفطرون إلا الأيام المحرَّمة، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يسردُ الصومَ، وسرده أبو طلحة أربعين سنة وأبو أمامة، وسردته عائشة وعروة وسعيد بن المسيب.

أخبرنا المحمدان: ابن عبد الملك وابن ناصر قالا: أنبأنا أحمد بن الحسن بن خيرون قال: قرئ على أبي عليّ بن شاذان: أخبركم أبو بكر الأرْمَوي القارئ، حدثنا أحمد ابن عبيد، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عبد العزيز قال: قال نافع: خرجت مع ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له، فوضعوا سُفْرة لهم فمرَّ بهم راعٍ فقال له عبدُ الله: هلمَّ يا راعي فأصب من هذه السفرة. فقال: إني صائم. فقال له عبدُ الله: في مثل هذا اليوم الشديد حره، وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وبين الجبال ترعى

(١) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصوم، باب رقم: ٤٤. والنسائي في كتاب الصيام، باب رقم : ٧٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب رقم : ٦. وكتاب التهجد، باب رقم : ٣٣، وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ٨٥، ٨٦.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الصوم، باب رقم : ٥٣. والنسائي في كتاب الصيام، باب رقم : ٨٤.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم وكتاب التهجد وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم : ١٨٩.

هذه الغنم وأنت صائم؟! فقال الراعي: أُبادر أيامي الخالية. فعجب ابنُ عمر وقال: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك نجتزرها، نُطْعمك من لحمها ما تُفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت: أكلها الذئبُ؟ فمضى الراعي وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين اللّٰه؟!

قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعي: فأين اللّٰه! فما عدا أن قدم المدينة فبعث إلى سيده فاشترى منه الراعي والغنم فأعتق الراعي ووهب له الغنم.

وقد كان بعض السلف يبكي عند الموت فقيل: ما يبكيك! قال: أبكي على يوم ما صُمته وليلة ما قُمتها!

فاغتنموا إخواني زمنكم، وبادروا بالصحة سقمكم، واحفظوا أمانة التكليف لمن أمِنكم، وكأنكم بالحميم وقد دفنكم، وبالعمل في القبر قد ارتهنكم.

* * *

الكلام على البسملة

ألم يَأْنِ تَرْكي ما عليَّ ولا ليا … وعزمي على ما فيه إصلاحُ حاليا
وقد نال مني الدهر وابيضَّ مَفْرقي … بكرّ الليالي والليالي كما هيا
أصوِّت بالدنيا وليست تجيبني … أحاول أن أبقى وكيف بقائيا
وما تبرح الأيام تحذف مُدّتي … بعدٍّ حسابٍ لا كعدّ حسابِيَا
أليس الليالي غاصباتيَ مُهجتي … كما غصبتْ قبلي القرون الخواليا
وتُسكنني لحدًا لذي حُفرة بها … يطول إلى أخرى الليالي ثُوائيا
فيا ليتني من بعد موتي ومبْعثي … أكون ترابًا لا عليَّ ولا لِيَا

* * *

يا من ذنوبه كثيرة لا تُعدّ، ووجه صحيفته بمخالفته قد اسودّ، كم ندعوك إلى الوصال وتأبى إلا الصد، أمَا الموت قد سعى نحوك وجدّ، أما عزم أن يُلحقك بالأب والجد.

أما ترى مُنعَّمًا أتْربَ الثرى منه الخد، كم عاينتَ متجبرًا كفَّ الموتُ كفَّه الممتد، فاحذر أن يأتي على المعاصي فإنه إذا أتي أبَى الردّ (١)، إلى كم ذا الصِّبا والمراح، أأبقى الشيبُ موضعًا للمزاح، لقد أغنى الصباحُ عن المصباح، وقام حرْب المنون من غير سلاح،

(١) في تلخيص التبصرة: أبى إلا الرد.

اعوجت القناةُ بلاقنًا ولا صِفاح، فعاد ذو الشيبة بالضعف ثخين الجراح، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ الصُّراح، وأسفًا صُمَّت المسامع والمواعظ فِصَاح، لقد صاح لسان التحذير يا صاح يا صاح، وأنَّى بالفهم لمخمور غير صاح، لقد أسكرك الهوى سكرًا شديدًا لا يُزاح، وما تفيق حتى يقول الموتُ: لا براح.

ألا تُبْصر [١] الآجال كيف تخرمت [٢] … وكل امرئ للهُلك والموتِ صائرُ
وأنت بكأس القوم لا بد شاربٌ … فهل أنت فيما يُصلح النفسَ ناظرُ

لقد وعظ الزمن بالآفات والمحن، ولقد حدَّث بالظَّعْن كلُّ من قد ظعن، ولقد أنذر المطْلقَ في أغراضه [٣] المرتَهن، تاللَّه لو صفت الفطَنُ أبصرت ما بطن.

إخواني: أمرُ الموت قد علن، كم طَحْطح الردى وكم طحن، يا بائعًا لليقين مشتريًا للظِّنن، يا مؤثرًا للرذائل في اختيار الفتن، إن السُّرور والشُّرور في قَرَن، أنت في المعاصي مُطْلق الرَّسن وفي الطاعة كذي وسَن [٤]، يا رضيع الدنيا وقد آن فطامه، يا طالب الهوى وقد حان حِمامه.

قال وهب بن منبه: إن للَّه مناديًا ينادي كل ليلة: أبناء الخمسين: هلموا للحساب، أبناء الستين ماذا قدمتم وما أخرتم؟ أبناء السبعين عُدُّوا أنفسكم في الموتى:

كَبُرتَ وقاربتَ نصف المائة … وبدِّلت يا شيخ بالتسميةْ
وقد نشر الشيبُ في عسكر الـ … ـشباب على رأسك الألويَةْ
تحوَّلْ إلى توبة لا تَحُور … عساها تكون هي المنُجيةْ
ولا تُطلق اللحظَ في ريبة … ولا تسألنْ فتنةً ماهيَةْ
وهل غيرها قد تذوّقته … فكم تَعْتَد [٥] الإثم والمعصيةْ

إلى كم يا ذا المشيب، أمَا الأمر [٦] منك قريب، كم تعب في وعظك خطيب، كم عالجك طبيب، إنه لمرض عجيب، إنه لداءٌ غريب عَظْمٌ واهن وقَلْبٌ صَليب، يا هذا لا شيء أقل من الدنيا ولا أعزّ من نفسك، وها أنت تُنفق [٧] أنفاس النفس النفيسة على تحصيل الدنيا الخسيسة، متى يقنعك الكفاف، متى يردُّك العفاف، متى يقوّمك الثّقاف،

---

(١) ت: أما تبصر.
(٢) أ: تصرمت.
(٣) في تلخيص التبصرة: في إعراضه.
(٤) أ: وفي الطاعة ما تقدم على الحسن.
(٥) كذا ولعلها من أعتد الشيء بمعنى أعده وأحضره.
(٦) التلخيص: أما الموت.
(٧) في التلخيص: ويحك أتنفق. وفي أ: تنفق أنفاقًا نفيسة.

إنك لتأبى إلا الخلاف، مقاليدك ثقال وركعاتك خِفاف، يا قبيح الخصال يا سيئ الأوصاف، يا مُشتريًا بسني الخِصب السنينَ العجاف، قف متدبرًا لحالك فالمؤمن وقَّاف، وتذكر وعيد العصاة ويحك أما تخاف:

ما من الحزْم أن تقارب أمرًا تطلب البُعدَ عنه بعد قليلِ
وإذا ما هَمْمت بالشيء فانظر كيف منه الخروجُ قبلَ الدخول
لا مفرَّ من المقادير لكن للمعاذير عند أهل العقولِ

ويحك إن الدنيا فتنة، وكم فيها من محنة، غير أنها لا تَخفى على أهل الفطنة، لا يعزّ ذليلها ولا يُودي قتيلها، من سكنها خرج، وساكنها منزعج:

إنما الدنيا بلاءٌ ليس في الدنيا ثُبوتُ
إنما الدنيا كبَيْتٍ نسجتْه العنكبوتُ
كلُّ مَنْ فيها لعمري عن قريب سيموتُ
إنما يكفيك منها أيها الراغِبُ قُوتُ

يا هذا انتقم من حرْصك بالقناعة، فمن مات حرصه عاشت مروءته، خلِّ فضولَ الدنيا وقد سلمْت، إن لم تقبل نصحي ندمت، البُلغة منها ما يقُوت (١)، والزاهد فيها ما يموت، فأعرض عنها جانبًا، وإذا أقلقك هَجير المجاعة فُلذْ بالصبر في ظل القناعة.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ... ﴾ (٢)

الإنسان: ابن آدم، وما توسوس به نفسه: ما تحدثه به ويُكنُّه. وهذا يحث على تطهير القلب من مُساكنة الوساوس الرديئة تعظيمًا لمن يعلم.

قال بعض السلف: إذا نطقتَ فاذكر من يسمع، وإذا نظرت فاذكر من يرى، وإذا عزمتَ فاذكر من يعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ الوريد: عِرْق في باطن العنق وهما وريدان بين الحلقوم والعلياوين، والعلياوان: القصبتان الصفراوان في متن العنق وحبل

---

(١) التلخيص: ما تفوت.

(٢) سورة ق: ١٦.

الوريد هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظي اسمه [١].

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾:

يا مُطلقًا نفسه فيما يشتهي ويريد، اذكر عند خطواتك المبدئ المعيد، وخِف قُبْح ما جرى فالمِلك يرى والمَلَك شهيد ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

هلَّا استحييت ممن يراك إذ ركبت من هواك ما نهاك، ستبكي واللَّه عيناك مما جَنتْ يداك، أما تعلم أنه بالمرصاد فقل لي أين تحيد ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

* * *

قال بعض السلف: مررت برجل منفرد فقلت له: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي. فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء ثم مضى وهو يقول: أكثر خلْقك شاغل عنك.

راود رجلٌ امرأة فقالت: ألا تستحي؟ فقال: ما يرانا إلا الكواكب. فقالت: وأين مُكوْكبها!

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني

فما نظرت عيناي بعدك نظرة ... لغيرك إلا قلت قد رمقاني

ولا بدرَتْ من فيّ بعدك لفظةٌ ... لغيرك إلا قلت قد سمعاني

ولا خطرتْ في غير ذكرك خَطْرة ... على القلب إلا عرّجتْ بعِناني

* * *

قوله تعالى:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ... ﴾ [٢]

وهما المَلَكان يتلقيان القولَ ويكتبانه، عن اليمين كاتب الحسنات وعن الشمال كاتب السيئات.

﴿... قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ أي قاعد. والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: « كاتبُ الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على شماله، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال لصاحب الشمال: أمسِكْ. فيمسك

(١) ب: لفظي المسمى.

(٢) سورة ق: ١٧.

عنه سبع ساعات، فإن استغفر منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر كُتبت عليه سيئة واحدة »[(١)].

وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مقعد ملكيك على ثنيتك، فلسانك قلمها وريقك مدادها »[(٢)].

* * *

سجع على قوله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾:

ما ظنك بمن يحصى جميع كلماتك، ويضبط كل حركاتك، ويشهد عليك بحسناتك، تُرفع الصحائف وهي سُود، وعمل المنافق مَرْدود، يُحضره الملكان لدى المعبود، يا شر العبيد ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾.

يضبطان على العبد ما يجري من حركاته، وما يكون من نظراته وكلماته، واختلاف أموره وحالاته، لا ينقص ولا يزيد ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾.

قال سفيان الثوري يومًا لأصحابه: أخبروني لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان أكنتم تتكلمون بشيء؟ قالوا: لا ، قال: فإن معكم من يرفع الحديث إلى الله عز وجل!

* * *

قوله تعالى:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[(٣)]

أي: ما يتكلم من كلام فيلفظه أي يرميه مِنْ فِيه إلا لديه رقيب عتيد، أي حافظ وهو الملك الموكل به، والعتيد الحاضر معه أينما كان.

السجع على قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾:

يا كثير الكلام حسابك شديد، يا عظيم الإجرام عذابك جديد، يا مُؤثِرًا ما يضره ما رأيك سديد، يا ناطقًا بما لا يُجدي ولا يُفيد ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

كلامك مكتوب وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمسُ الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب، وقد أتاه

(١) ذكره البغوي في كتاب السنة : ٢٣٥/٦. والقرطبي في تفسيره : ١٠/٧.

(٢) كتاب السنة للبغوي : ٢٣٥/٦. وتفسير القرطبي : ١٠/٧.

(٣) سورة ق: ١٨.

ما يصدع الحديد ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

أتظن أنك متروك مهمل، أم تحسب أنه يُنسى ما تعمل، أو تعتقد أن الكاتب يغفل (١) هذا صائح النصائح قد أقبل، يا قاتلًا نفسه بكفه لا تفعل، يا من أجَله ينقص وأمله يزيد ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

* * *

أنا من خوف الوعيد ... في قيام وقعودِ

كيف لا أزداد خوفًا ... وعلى النار ورودي

كيف جَحْدي ما تجرَّمْـ ... ـتُ وأعضائي شُهودي

كيف إنكاري ذنوبي ... أم ترى كيف جُحودي

وعليَّ القولُ يُحْصى ... برقيبٍ وعتيد

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (٢)

وهي غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله.

وفي قوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ **قولان** ذكرهما الفراء: **أحدهما**: بحقيقة الموت. **والثاني**: بالحق من أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ... ﴿١٩﴾ ﴾ أي ذلك الموت، ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ أي تهرب وتفر.

وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ... ﴿٢٠﴾ ﴾ وهي نفخة البعث، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي يوم وقوع الوعيد.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ **وفيه قولان:**

أحدهما: أنه ملك يسوقها إلى محشرها. قاله أبو هريرة.

والثاني: أنه قرينها من الشياطين سمي سائقًا لأنه يتبعها وإن لم يحثَّها.

- **وفي الشهيد ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه ملك يشهد عليها بعملها. قاله عثمان بن عفان والحسن. وقال مجاهد:

---

(١) في أ، والتلخيص: يشغل.

(٢) سورة ق: ١٩.

الملكان سائق وشهيد. وقال ابن السائب السائق: الذي يكتب عليه السيئات. والشهيد: هو الذي كان يكتب له الحسنات.

والثاني: أنه العمل يشهد على الإنسان. قاله أبو هريرة.

والثالث: الأيدي والأرجُل تشهد عليه بعمله. قاله الضحاك.

* * *

إخواني: احذروا من العَرْض على مالك الطُّول والعرْض، وأعدّوا الجواب إذا سُئلتم عن الفرض، أين الحياء من قُبح المضمَرات، أين البكاء على سالف الخطرات، أين الخوف من الجزاء على خُطوات الخطيئات.

كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرْعشي [1]: أما بعد: فإني أوصيك بتقوى اللَّه سبحانه والعمل بما علَّمك اللَّه تعالى، والمراقبة حيث لا يراك إلا اللَّه ﷻ، والاستعداد لما ليس لأحد فيه حيلة ولا يُنتفع بالندم عند نزوله، فاحْسِرْ عن رأسك قِناعَ الغافلين، وانتبه من رَقْدة الموتى وشمِّر للسباق غدًا، فإن الدنيا ميدان المسابقين، ولا تغتر بمن أظهر النُّسك وتشاغل بالوَصْف وترك العمل بالموصوف، واعلم يا أخي أنه لا بد لي ولك من المقام بين يدي اللَّه تعالى، يسألنا عن الدقيق الخفيّ وعن الجليل الخافي، ولست آمن أن يسألني وإياك عن وسواس [2] الصدور ولحظات العيون والإصغاء للاستماع، واعلم أنه لا يُجزي من العمل القولُ ولا من البذْل العِدَة ولا من التوقي التلاوم.

* * *

يا من معاصيه كثيرة مشهورة، يا من نفسه بمن يجني عليها مسرورة، أفي العين كمّهٌ أم عَشَى أم الأمر إليك يجري كما تشا، أعَلى القلب حجاب أم غِشا، أيا من إذا قعد عصى وكذا إذا مشى، كلُّ فعلك غلط، كل عملك سَقط، أترى هذا العقل اختلط، أما قوِّم بهذا الشَّمَط، أما علَّم الشيبُ على حروف الموت ونقَط، لقد عزم الأجل على النهوض، وطال ما أقام والدنيا قروض [3]، قصرٌ يُبنى وجسم منقوض، شيب وعيب يزحلق الفروض:

إلـى مـتـى أنـت فـي ذنـوب ... قلبك [4] من أجلـهـا مـريـضُ
أقْـرضـتَ عُـمْـرا فـمـرَّ خَـلْـسـا ... وآنَ أن تُـطـلـب الـقُـروضُ

---

(١) المرعشي: نسبة إلى بلدة بالشام يقال لها: مرعش. انظر من نسب إليها في اللباب: ٣/١٢٥.

(٢) التلخيص: عن وساوس. (٣) أ: وللدنيا فروض. (٤) أ: أنت من أجلها.

فاحذر مجيء الحمام بغْتا   وأنت في باطلٍ تخُوضُ

* * *

سجع على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا... ﴿٢٢﴾﴾:

كأنك بالعمر قد انقرض، وهجم عليك المرض، وفات كلُّ مرادٍ وغرض، وإذا بالتلف قد عرض أخَّاذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

شخص البصرُ وسكن الصّوت، ولم يمكن التداركُ للفوت، ونزل بك ملك الموت فسامَت الروح وحاذَى ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

عالجت أشد الشدائد، فيا عجبًا مما تُكابد، كأنك قد سُقيت سُمّ الأساود فقطَّع أفلاذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

بلغت الروحُ إلى التراقي، ولم تعرف الراقي من الساقي، ولم تدر عند الرحيل ما تلاقي، عياذًا بالله عياذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

ثم درجوك في الكفن، وحملوك إلى بيت العفن، على العيب القبيح والأَفن [(١)]، وإذا الحبيب من التراب قد حَفَن، وصرت في القبر جُذاذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

وتسرَّبت عنك الأقارب تسري، تقدُّ في مالك وتفْري، وغايةُ أمرهم أن تجري دموعهم رذاذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

قفلوا الأقفال وبضّعوا البضاعة، ونسوا ذكرك يا حبيبهم بعد ساعة، وبقيت هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وزرًا ولا معاذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

ثم قمت من قبرك فقيرًا، لا تملك من المال [(٢)] نقيرًا، وأصبحت بالذنوب عقيرًا، فلو قدمت من الخير حقيرًا صار ملجأ وملاذًا، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

ونُصب الصراط والميزان، وتغيرت الوجوه والألوان، ونودي: شقي فلان بن فلان، وما ترى للعذر نفاذًا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

كم بالَغ عذولك في الملام، وكم قعد في زَجرك وقام، فإذا قلبك ما استقام، قطع الكلام على ذا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

* * *

(١) الأفن: الباطل.

(٢) في أ: من الملك.

المجلس السادس

في ذكر الحج

الحمد لله الملك القديم، الواحد العزيز العظيم، الشاهد سامع ذِكْر الذاكر، وحمد الحامد، وعالم ضمير المريد ونية القاصد، لعظمته خضع الراكعُ وذلّ الساجد، وبهداه اهتدى الطالبُ وأدرك الواجد، رفع السماء فعلَّاها ولم يحتجْ إلى مساعد، وألقى في الأرض رواسي راسخات القواعد، تنزه عن شريك مُشافق أو ندّ معاند، وعزّ عن ولد وجلّ عن والد، وأحاط علمًا بالأسرار والعقائد، وأبصر حتى دبيب النمل في الجلامد، وسَطًا فسالت لهيبته صعاب الجوامد، ويقول في الليل: « هل من سائل » فانتبه يا راقد. بنى بيتًا أمر بقصده وتلقى الوافد، وأقسم على وحْدانيته وما ينكر إلا معاند ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾ (١).

أحمده على الرخاء والشدائد، وأقرّ بتوحيده إقرار عابد، وأصلي على رسوله الذي كان لا يخيِّب السائل القاصد (٢)، وعلى صاحبه أبي بكر التقي النقي الزاهد، وعلى عمر العادل فلا يراقب الولد ولا الوالد، وعلى عثمان المقتول ظُلمًا بكفِّ الحاسد، وعلى علي البحر الخضم والبطل المجاهد، وعلى عمه العباس أقرب الأقارب والأباعد.

* * *

قال الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ... ﴾ (٣)

فرض الله ﷻ حج البيت بهذه الآية.

وقوله: ﴿ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ... ۝٩٧ ﴾: قال النحويون: (من) بدل من الناس، وهذا بدل البعض كما تقول: ضربتُ زيدًا رأسه.

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله النسفي بسنده عن محمد بن عباد بن جعفر، عن عبد الله بن عمر قال: قيل: يا رسول الله ما الاستطاعة إلى الحج؟ قال: « الزاد والراحلة » (٤).

---

(١) سورة الصافات: ١ - ٤.

(٢) في ب والتلخيص: وأصلي على رسوله بيت القصائد.

(٣) سورة آل عمران: ٩٧.

(٤) أخرج نحوه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران. وابن ماجه في كتاب المناسك، باب رقم : ٦، وهو حديث ضعيف.

واعلم أن المجيب قد يجيب عن المشْكل ويترك الظاهر ثقةً بعلم السامع، وإلا فقد يكون له زاد وراحلة، فإذا خرج إلى الحج لم يكن له ما يترك لعياله أو لم يكن له ما يدبره في معاشه.

واعلم أن وجوب الحج موقوف على وجود البلوغ والعقل والحرية والإسلام والزاد والراحلة:

ويشترط في وجود الراحلة أن تكون صالحة لمثله ورحْلها وآلتها؛ لأنه قد يكون كبير السن فلا يمكنه الركوب على القَتَب [١]، وأن يكون وجود الزاد والراحلة فاضلًا عما يحتاج إليه من مسكن وخادم إن احتاج إليه، ونفقة لعياله إلى أن يعود وقضاء دين إن كان عليه، وأن يكون له إذا رجع ما يقوم بكفايته من عقار أو بضاعة أو صناعة. ثم ينبغي أن ينظر في أمْن الطريق وسعة الوقت إلى غير ذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « من قدر على الحج ولم يحج فليمتْ إن شاء يهوديًّا وإن شاء نصرانيًّا » [٢].

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [٣] قال: طريق مكة يمنعهم من الحج.

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب بناء البيت وفضائله وفضل الحجر الأسود [٤].

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: في الركن اليماني: « وكَّل اللَّه ﷻ به سبعين ألف ملك، فمن قال: أسألك العفو والعافية ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قالوا: آمين » [٥].

وعن عبد اللَّه بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين فهو عِدْل مُحرر » [٦].

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « إن للَّه ﷻ في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت: ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين » [٧].

وفي حديث ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت لم يرفع قدمًا

---

(١) القتب: الإكاف الصغير على قدر سنام البعير.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي، حديث رقم: ٨١٢. وهو حديث ضعيف.

(٣) سورة الأعراف: ١٦.

(٤) سبق ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب: ص ١٢٤.

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك، باب رقم : ٣٢. وهو ضعيف.

(٦) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المناسك.

(٧) الحديث ضعيف، فيه سعيد بن سالم القداح وهو ضعيف تذكرة الموضوعات للحافظ المقدسي : ص ٣٣.

ولم يضع أخرى إلا كتب اللَّه ﷻ له بها حسنة وحطَّ عنه بها خطيئة ورفع له بها درجة » (١).

وفي حديث ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٢).

وفي حديث بُريدة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: « النفقةُ في الحج تُضاعف كالنفقة في سبيل اللَّه تعالى: الدرهم بسبعمائة درهم » (٣).

* * *

فأما حج الماشي: فأخبرنا أبو منصور وعبد الرحمن بن محمد، بسندهما عن إسماعيل ابن أبي خالد عن زاذان قال: مرض ابن عباس مرضًا شديدًا فدعا ولده فجمعهم فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « من حج من مكة ماشيًا حتى يرجع إلى مكة كتب اللَّه له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ». فقيل له: وما حسنات الحرم؟ قال: بكل حسنة مائة ألف حسنة » (٤).

وروت عائشة ﵂ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الملائكة لتصافح رُكبان الحج وتعتنق المشاة » (٥).

* * *

وأما فضيلة الحج: فأخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي صالح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والعمرتان - أو العمرة - إلى العمرة تكفر ما بينهما » (٦). (الحديثان في الصحيحين).

أخبرنا محمد بن محمد الورَّاق بسنده عن أبي حازم عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرْفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » (٧).

وروي عن علي - كرم اللَّه وجهه - عن النبي ﷺ أنه قال: « من أراد دنيا وآخرة فليؤم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحج.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحج، حديث رقم : ٨٦٦. وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٥/٣٥٥. وهو حديث حسن.

(٤) رواه ابن خزيمة في صحيحه والحاكم كلاهما من رواية عيسى بن سوادة. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال ابن خزيمة: إن صح الخبر فإن القلب من عيسى بن سوادة. قال الحافظ: قال البخاري هو منكر الحديث. الترغيب والترهيب : ٢/٩٩.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور : ٤/٣٥٥، وهو في كنز العمال : ١١٧٩٠.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث باب رقم : ٤، ٣٤. وصحيح مسلم، كتاب الحج، حديث رقم : ٢٠٤.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب رقم : ٤. وصحيح مسلم، كتاب الحج، رقم : ٤٣٨.

هذا البيت، ما أتاه عبدٌ يسأل الله تعالى دنيا إلا أعطاه منها، ولا آخرة [١] إلا ادخر منها ».

* * *

وينبغي لمن أراد الحج أن يفهم معنى الحج، فإنه يشار به إلى التجرد لله ﷻ ومفارقة المحبوبات.

وليتذكر بأهوال الطريق الأهوال بعد الموت وفي القيامة، وبالإحرام الكفن، وبالتلبية إجابة الداعي، وليُحضر قلبه لتعظيم البيت، وليتذكر بالالتجاء إليه التجاء المذنب، وبالطواف الطواف حول السيد ليرضى، وبالسعي بين الصفا والمروة التردد إلى فناء الدار، وبرَمْي الجمار رمي العدوّ.

* * *

وكما أن للأبدان حجًا فللقلوب حج، فإنها تنهض بأقدام العزائم وتمتطي غوارب الشوق، وتفارق كل محبوب للنفس، وتصابر في الطريق شدة الجهد، وتَرِدُ مناهل الوفاء لا غُدران الغَدْر، فإذا وصلت إلى ميقات الوصل نزعت مخيط الآمال الدنيوية، واغتسلت من عين العين، ونزلت بعرفات العِرفان، ولبت إذ لبَّت من لُباب اللُّب، ثم طافت حول الإجلال، وسعت بين صفا الصفا ومروة المروءة، فرمت جِمَار الهوى بأحجار، فوصلتْ إلى قُرب الحبيب فلو ترنمت بشرح حالها لقالت:

لا والذي قصد الحجيجُ لبَيته ... من بين ناءٍ طارق وقريبِ
والحِجْرِ والحَجَرِ المقبّل تلتقي ... فيه الشِّفاه وركنه المحجوب
لا كان موْضعك الذي ملِّكته ... من قلب عبدك بعد ذا لحبيب
لي أنّة الشاكي إذا بَعُد المدى ... ما بيننا وتنفس المكروبِ

ولما عبَر الخليل هذه الحالة قيل له: قد بقي عيك ذِبْح يجانس هذا الحج ليس له إلا الولد، وما المراد إراقة دمه بل فراغ قلبك عنه، يا خليلي من المسنون استسمان الإبل وألا يكون في المذبوح عيب، فاختبر ذِبحك هل فيه عيب أو هو سليم مُسلَّم؟ فقال له: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ... ﴾ [٢]، فأجابه: ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ... ﴾ [٣]، فعلم حصول الكمال وعدم العيوب ثم قال له: استحدّ مُديتك وأسرع مرّ السكين على حلْقي وإذا عُدت إلى أمي فسلّم عليها عني. هذا قولُ من لم يُلمَّ بقلبه خوف ألم!

---

(١) أ: ولا سأل الآخرة. ولم أجده في شيء من كتب الحديث.

(٢ ، ٣) سورة الصافات: ١٠٢.

مِحنتي فيك أنّني لا أُبالي بمحنتي
يا شفائي من السّقام وإن كنت عِلّتي

وإذا وصل الحاج إلى المدينة المشرفة فليجعل على فكره [١] تعظيم من يقصده، وليتخايلْ في مساجدها وطرقاتها نَقْل أقدام المصطفى هناك وأصحابه، وليتأدب في الوقوف وليستشفع بالحبيب وليأسف إذ لم يحظْ برؤيته ولم يكن في صحابته.

وما رُمتُ من بعد الأحبّة سَلْوةً ولكنني للنائبات حَمُولُ
وما شَرَقي بالماء إلا تذكُّرًا لماء به أهلُ الحبيب نزُولُ

وينبغي لمن عاد من الحج أن يَقْوى رجاؤه للقبول ومَحْو ما سلف، وليحذر من تجديد زَلَل [٢]:

وقد سئل الحسن البصري: ما الحج المبرور؟ فقال: أن تعود زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة.

أخبرنا أبو منصور القزاز بسنده عن عبد الرحمن بن عبد الباقي قال: سمعت بعض مشايخنا يقول: قال علي بن الموفق: لمَّا تم لي ستون حِجة خرجت من الطواف وجلست بحذاء الميزاب وجعلت أفكر لا أدري أي شيء حالي عند اللَّه ﷻ وقد كثر ترددي إلى هذا المكان؟ فغلبتني عيني فكأن قائلًا يقول لي: يا علي أتدعو إلى بيتك إلا من تحبه؟ قال: فانتبهت وقد سرِّي عني ما كنت فيه.

* * *

الكلام على البسملة

غفلتُ وليس الموتُ في غفلةٍ عنِّي وما أحدٌ يجني عليَّ كما أجْني
أشيّد بُنياني وأعلم أنني أزولُ لمن شيدته ولمن أبْني؟
كفانيَ بالموت المنغِّص واعظًا بما أبصرتْ عيني وما سمعت أُذني
وكم للمنايا من فنون كثيرةٍ تميتُ وقد وطَّنتُ نفسي على فنِّ
ولو طرقَتْ ما استأذَنتْ من يحبني كما أفقدتني من أُحبُّ بلا إذن
وقد كنت أفدي ناظريه من القذى فغطيت ما قد كنت أفديه بالعين
ستسجنني يا رب في القبر برهةً فلا تجعل النيران من بعده سِجْني
ولي عند ربي سيئات كثيرة ولكنني عبدٌ به حسن الظنِّ

---

(١) أ: على قلبه.

(٢) في التلخيص: من تجديد ما زال.

مَن للعاصي إذا دُعي فحضر، ونشر كتابه ونظَر، لم يُسمع عذرُه وقد اعتذر، وناقشه المولى فما غفر، آه لراحلٍ لم يتزود للسفر، ولخاسر إذا ربح المتقون افتقر، ولمحروم جنةَ الفردوس حلَّ في سَقَر، ولفاجر فضحه فجوره فاشتهر، ولمتكبر بالذل بين الكل قد ظهر، وإلى محمول إلى جهنم فلا ملجأ له ولا وزر، آه من يوم تكوَّر فيه الشمس والقمر، يا كثير الرياء قل إلى متى تُخْلصُ، يا ناسِي الأنكال إن كال فمتلصِّص، ما يتخلص من معامل ولا هو عند الله مُخلص، الدهر حريصٌ على قتلك يا من يحرص، تفكر فيمن أصبح مسرورًا فأمسى وهو متنغص، ومتى أردتَ لذة فاذكر قبلها المنغِّص، وتعلَّم أن الهوى ظلٌّ والظل متقلص، وخذ على نفسك لا تسامحها ولا ترخص، حائط الباطل خرابٌ فإلى كم تُجصِّص، أين الهمُّ المجتمع تفرق فما ينتفع، يدعوك الهوى فتتبع، وتحدثك المُنى فتستمع، كم زجرك ناصحٌ فلم تُطع، سار الصالحون يا منقطع، ما الذي عاقك لهْوُ مُختدع، شرَوْا ما يبقى بما يَفْنى وأنت لم تشْرِ ولم تبعْ، أين تعبهم؟ نُسخ بالرَّوْح ولم يضع، تلمّحْ العواقبَ فلتلمُّحها العقل وضع، كأنه ما جاع قط من شبع.

جُز على الشونيزية [1] أو على قبر أحمد، وميّز ممَّن أطاع من أضاع فمن أحمَد؟ قبور الصالحين تؤنس الزائر، وقبور الظَّلمة عليها ظلام متوافر، جُزْ على قبور العُباد ونادِ في ذلك النادِ: أيتها الأودية والوِهاد، ما فعلت تلك الأوراد:

تعاهدتْك العِهاد يا طَلَلُ ... خبِّر عن الظاعنين ما فَعلُوا
فقال لم أدْر غير أنهمُ ... صاح غرابُ البيْن فاحتملُوا
لا طابَ ليلي ولا النهار لمن ... يَسْكنني أو يردُّهم قَفَلُ [2]
ولا تحلَّيت بالرياض وبالنّو ... ر ومغْنايَ منهمُ عَطِلُ
خلٍّ هذا فما عليك لهم ... قلت أنينٌ وأدمع هُطُلُ
وأنني مُقفَل الضمائر عن ... حُبِّ سواهم ما حنَّت الإبلُ
فقال هلا اتبعتهم أبدا ... إن نزلوا مَنْزلًا وإن رحلُوا

* * *

سبحان من قسّم الأقسام، فلقومٍ يقظة ولقوم منام.

قال وهب بن منبه: كان في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء،

---

(١) الشونيزية: موضع ببغداد به مقبرة مشهورة بها مشايخ الزهاد: سري السقطي وجنيد بن محمد وغيرهما.

(٢) القفل: اسم الجمع لقافل بمعنى راجع.

فبينما هما يمشيان في البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء فقالا له: يا عبد اللّٰه بأي شيء أدركت هذه المنزلة؟ فقال: بيسير من الدنيا: فطمتُ نفسي عن الشهوات وكففتُ لساني عما لا يَعْنيني، ورغِبت فيما دعاني، ولزمت الصمت، فإن أقسمت على اللّٰه أبرَّ قسمي، وإن سألته أعطاني.

يا بعيدًا عن الصالحين، يا مطرودًا عن المفلحين، لقد نصب الشيطانُ الأشراك وجعل حَبَّ الفخِّ هواك، وكم رأيت مأسورًا وسط ذاك، وليس المراد الآن إلَّاك، احذر فَخَّه فهو بعيد الفكاك، كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب، وكم ظلام أُسبل ستره وأنت في عجائب، كم ليلة بالخطايا قطعتها، وكم من أعمال قبيحة رفعتها، وكم من ذنوب جمعتها والصحف أودعتها، كم نظرة ما تحلُّ ما خِفْت ولا منعتها، كم من موعظة تعيها وكأنك ما سمعتها، وكم من ذنوب تعيب غيرك بها أنت صنعتها، وكم أمرتْك النفس بما يؤذي فأطعتها، يا موافقًا لنفسه آذيتها، خالِفْها وقد نفعتها:

طوى نفسه عنك[1] الشبابُ المزايلُ ... وأُسْلمت للشيب الذي لا يزايلُ
نسير إلى الآجال في كل ساعة ... وأيامنا تُطْوى وهُنَّ مَراحلُ
ولم أرَ مثلَ الموت حقًّا كأنه ... إذا ما تخطَّته الأمانيُّ باطلُ
وما أقبح التفريطَ في زمن الصِّبا ... فكيف به والشيب في الرأس شاملُ[2]
ترحَّل عن الدنيا بزادٍ من التقى ... فعُمرك أيامٌ وهن قلائلُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ... ﴾[3]

كان مطرِّف بن عبد اللّٰه يقول: هذه آية القُرّاء.

ومعنى ﴿ يَتۡلُونَ ﴾: يقرؤون.

وفي أفراد البخاري من حديث عثمان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه »[4].

أخبرنا هبة اللّٰه بن محمد بسنده عن عبد الرحمن بن زيد العقيلي عن أبيه عن أنس، قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : « إن للّٰه ﷻ أهْلين من الناس. فقيل: مَنْ أهلُ اللّٰه منهم؟

---

(١) التلخيص: عني. (٢) التلخيص: شائل. (٣) سورة فاطر: ٢٩.
(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب رقم: ٢١.

قال: أهلُ القرآن هم أهلُ اللَّه وخاصته » [١].

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه وأحمد بن الحسن وعبد الرحمن بن محمد بإسنادهم، عن عُقبة بن عامر قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يعذب اللَّه قَلْبًا وعَى القرآن » [٢].

أخبرنا الكَروخي بسنده عن محمد بن كعب القرشي قال: سمعت عبد اللَّه بن مسعود قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « من قرأ حرفًا من كتاب اللَّه تعالى فله به حسنةٌ والحسنة بعَشْر أمثالها، لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف » [٣].

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: « يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارْقَ ورتّل كما كنت ترتِّل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » [٤].

* * *

واعلم أن لتلاوة القرآن آدابًا؛ منها: أن يقرأ وهو على وضوء متأدِّبًا مُطرقًا مرتلًا بتحزين وبكاء مُسرًّا معظِّمًا للكلام والمتكلم به مُحضرًا لقلبه، متدبرًا لما يتلوه.

وقد كان في السلف من يختم في كل يوم وليلة. وقد كان عثمان ﷺ يختم في الوتر. ومنهم من كان يختم ختمتين.

وقد كان الشافعي ﷺ يختم في رمضان ستين ختمة. ومنهم من يختم ثلاث ختمات [٥]، وهؤلاء الذين غلب عليهم انتهاب العمر، ومنهم من كان يختم في كل أسبوع اشتغالًا بنشر العلم، ومنهم من كان يختم كل شهر إقبالًا على التدبر.

وقد روى أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قام ليلة بآية يرددها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [٦].

وقام تميم الداري بآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [٧]. وكذلك قام بها الربيع بن خُثيم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ١٢٨/٣ - ٢٤٢.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، حديث رقم : ٣٣١٩. وهو ضعيف.

(٣) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم : ٢٩١٠. وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب ثواب القرآن، وأحمد في مسنده : ٤٠/٣. وهو صحيح.

(٥) ب: ومنهم من ختمه ثلاث مرات.

(٦) سورة المائدة: ١١٨، والحديث ذكره ابن الجوزي أيضًا في الوفا : ص ٥٠٤، وهو في سنن ابن ماجه، برقم : ١٣٥٠. وإسناده حسن.

(٧) سورة الجاثية: ٢١.

وقال أبو سليمان الداراني: إني لأقيم في الآية أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ.

وقد بقي بعض السلف سنتين في ختمة.

قال ابن مسعود ﷺ: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة.

وقال عبد الرحمن بن الأسود: من ختم القرآن نهارًا غفر له ذلك اليوم، ومن ختمه ليلًا غُفر له تلك الليلة.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أنبأنا ابن النَّقُور، أنبأنا ابن حبابة، حدثنا البغوي حدثنا هُدْبةُ، حدثنا حماد بن سلمة عن أبي مسكين عن طلحة بن مصرف قال: من ختم القرآن في أي ساعة من النهار كانت صلَّتْ عليه الملائكة حتى يُمسي، أو أي ساعة من الليل كانت صلَّتْ عليه الملائكة حتى يُصبح.

وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الرجل الذي ليس في جوفه من القرآن شيء كالبيت الخرب »(١).

وروى سعد بن عُبادة عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي اللَّه ﷻ يوم القيامة وهو أجْذم »(٢).

وفي حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « اقرؤوا القرآن وابتغوا به اللَّه ﷻ من قبل أن يأتي قومٌ يقيمونه مقامَ القِدح يتعجلونه ولا يتأجلونه »(٣).

قال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفرّطون، وبحُزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون.

أخبرنا ابن ناصر قال حدثنا عبد القادر، أنبأنا يوسف، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثنا علي بن مسلم، حدثنا سيّار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حَملة القرآن ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيعُ المؤمنين، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيثُ من السماء إلى الأرض فيصيب الحُش(٤) فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تخضر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب ثواب القرآن، حديث رقم: ٢٩١٣. وأحمد في مسنده، برقم: ١٩٤٨. وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الوتر. وأحمد في مسنده: ٢١٢/٥، ٢١٣. والدارمي في مسنده، كتاب فضائل القرآن. وهو حديث ضعيف.

(٣) رواه أبو داود في سننه، برقم: ٨٣٠. وأحمد في مسنده، برقم: ١٤٤٤١. وهو حديث صحيح.

(٤) الحش: موضع قضاء الحاجة.

وتهتزّ وتحْسُن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟

قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: حاملُ القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو، ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، [إلى الخلفاء إلى من دونهم] (١)، وينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : رأيت ربّ العزة عَزَّ وَجَلَّ في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: يا رب بفهمٍ أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ... ﴿٢٩﴾ ﴾:

المعني: ويقيمون الصلاة وهو إتمامها بحدودها وفي مواقيتها.

قال بعض السلف: رأيت بجبل اللُّكام (٢) شابًّا مصفرًّا يصلي العشاء الآخرة ثم يصفُّ قدميه فيختم القرآن في ركعتين، ثم يبكي إلى الفجر.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً... ﴿٢٩﴾ ﴾:

كانوا إذا قدروا على السر لم يخرجوا الصدقة علانية؛ لأن صدقة السر تزيد على العلانية سبعين ضعفًا.

وفي الصحيحين أن أبا طلحة قال : أحبُّ أموالي إليَّ بئر حاء وهي صدقة للّه تعالى لو قدرت أن أُسرَّه لم أعلنه.

يا مقصِّرًا في أعماله بخيلًا بماله، لا تسألوا عن حاله يوم تَرْحاله، يا دائم الخسران فما يربح، يا مقيمًا على المعاصي ما يَبْرح، متى رأيت من فعل فعلك أفلح ، تَقْبل من العدو ولا تقبل ممن ينصح، قم على قدم الطلب فاقرع الباب بالأدب يفتح ، صاحبْ أهل الخير تكن منهم ، واستفد خصالهم وخذ عنهم.

قوله تعالى: ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً... ﴿٢٩﴾ ﴾:

أي يرجون بفعلهم تجارة ﴿ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي لن تفسد ولن تكسد ، وهذا جواب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ... ﴿٢٩﴾ ﴾.

لمّا سمعوا مضاعفة الأجر في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) ليست في أ.

(٢) اللكام: جبل يسامت حماة ويمتد إلى أنطاكية.

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ... ﴾ (١)، ثم سمعوا قوله تعالى: ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً... ﴾ (٢)، قال ابن عباس: لا ينقضي عددها.

وقال أبو هريرة: إن اللَّه تعالى يكتب للمؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة. ولما سمعوا لفظ (القرض في ذمة اللَّه) (٣) بادروا بالأموال.

أخبرنا يحيى بن علي المدير بسنده عن عبد اللَّه بن مسعود قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً... ﴾ (٤)، قال أبو الدَّحداح يعني لرسول اللَّه ﷺ: وإن اللَّه تعالى ليريد منا القرض؟ قال: « نعم »، قال: أرني يدك يا رسول اللَّه. قال فناوله يده فقال: إني قد أقرضت ربي حائطي. قال وحائطه فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء أبو الدحداح فنادى: يا أم الدحداح. قالت: لبيك، قال: اخرجي من الحائط فقد أقرضتُه ربي ﷻ، وفي رواية أخرى أنها لما سمعت ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: « كم من عِذْق رَدَاح في الجنة لأبي الدحداح » (٥).

سبحان من خلق تلك النفوس واختارها، وصفَّاها بالتقى ورفع أقدارها، وجعل حِمَى معرفته وجنته دارها، فإذا مرت على النار أطفأ نورها نارها، قوم تيقظوا في أمورهم وعقلوا، وحاسبوا أنفسهم فما أضاعوا ولا غفلوا ، وحاربوا جنود الهوى فأسروا وقتلوا، وتدبروا منازل اليقين مع سادة المتقين ونزلوا، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا.

إخواني: رحل من أصِفه وبقي من لا أعرفه، سل عنهم الشُّعث الغُبور، وزر إذا اشتقتهم القبور.

لِمَن الطُّلول كأنهن ... بجَزْع ذي سَلَم سُطورُ
تطوي معالمها الصَّبا ... طورًا وتنشرها الدَّبور
وكفَتْ بها من أدْمُعي ... في الركب غاديةٌ دَرُور (٦)
ولقلَّ ما تجدي الدمو ... ع وينفع الصبَّ الزفير
أقوَتْ (٧) من الحيِّ الدِّيا ... ر فمالها في العين نور

---

(١) سورة البقرة: ٢٦١.
(٢) سورة البقرة: ٢٤٥.
(٣) في قرة العين: في ذمة الكريم.
(٤) سورة البقرة: ٢٤٥.
(٥) العذق: القنو من النخلة. والرداح: المثقل بالحمل. والحديث في صحيح مسلم، كتاب الجنائز، حديث رقم : ٨٩. ومسند أحمد : ١٤٦/٣.
(٦) الغادية: السحابة تنشأ غدوة. والدرور: الغزيرة المطر يريد أنه يبكي بدموع غزيرة.
(٧) أقوت: خلت.

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ... ﴿٢٩﴾ ﴾:

كانوا يقومون الديجور، ببكاء مطرود مهجور، ورَعْد قلوبهم مُقْلِق زَجُور، فامتلأت بالخيرات الحجور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

رفضوا الدنيا شغلًا عن الزينة، وأذلوا نفوسهم فعادت مسكينة، وعلموا أن الدنيا سفينة فتهيأوا للعبور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

يؤثرون بالطعام، ويؤثرون الصيام، ويأملون فضل الإنعام، فما كانت إلا أيام حتى اخضرَّت البذور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

بعثوا الأموال الحبيبة إلى بلاد البعث الغريبة، فإذا الأرباح عن قريب قريبة، وعلى هذا التجارة تدور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

العليل عليل ، والأنين طويل ، والعيون تسيل، وما مضى إلا القليل حتى فَرِح الصَّبور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

يقفون وقوف مسكين، ويذلون ذل مستكين، فنالوا المقام الأمين، وانشعب قلب الحزين بأكمل الحبور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

سليمهم كالسليم، وحزنهم مقيم، يحذرون الجحيم بأكمل الحبور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

للقلب مع الدنيا نبا [1]، كلما عارضه الهوى نبا، يندبون ندب الأسرى الغُرَبا، والزفرات على ذنوب الصِّبا تزيد على الصَّبا والدبور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

يا من يدفن ماله تحت الأرض ولا يفهم معنى القرض، سيخرج الوارث بالفرض إلى الدرهم والدور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

سبحان من قضى لقوم سرورًا، وعلى آخرين ثبورًا فما لهم من نور ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *
* *
*

(١) نبا: أصلها (نبأ) مهموزًا بمعنى الخبر، وإنما سهَّلها رعاية للسجع.

المجلس السابع

في الأخوة والصداقة

الحمد للَّه الذي لطف بالبرايا إذ بَراهم وبرَّ، وروَّح أرواحَ أهل الصلاح براح الفلاح وسَرّ، واطلع على ضمير من نوى وسرّ من أسر [(١)]، وقدر الأشياء فقضي الخير وقضي الشر، وأمات وأحيا وأفقر وأغنى ونفع وضَرّ، جفَّ القلم بتقديره فمضى الأمرُ واستقر، بقدرته تقطع المراكب البحر والمركوب البرّ، لطفه عظيم، وجوده عميم قد استمر « رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على اللَّه لأبر » سميع يسمع المُذْنف المضطر ، بصير يرى في دجى الليل الذرّ، عليم بانكسار من ندم، وإصرار من أصرّ، حليم فإن سطا رأيت الأمر الأمرّ، ما ألطفه بعبده يدعوه لرفع ما عرَّ [(٢)]، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ... ﴾ [(٣)].

يمدُّ رُوَاق الظلام فإذا لاح الصباح فرّ، وينير النهار فإذا انقضى عاد الليل وكرّ، فالقمر آية الليل والشمس تجري لمستقر.

أحمده على إنعام كلما احتُلب دَرّ، وأُقر بوحدانيته عن دليل قد استقر، وأصلي على رسوله محمد الذي عمَّت رسالته البحر والبرّ، وعلى صاحبه أبي بكر المنفق حتى تخلَّل وزَرّ [(٤)]، وعلى عمر الزاهد فما غره ما غر ، وعلى عثمان الذي ارتفع بالكرم فبرَّ وأبر، وعلى عليٍّ الذي ما أقدم قط ففر، وعلى عمه العباس المقدم نسبًا والفخر قد استقر.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ [(٥)]

﴿ أَيَّدَكَ ﴾ بمعنى قواك بنصره وبالمؤمنين، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ... ﴿٦٣﴾ ﴾: **التأليف**: الجمع على ما يشاكل [(٦)]، والمراد بالآية الأوس والخزرج وهم الأنصار، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية فألف اللَّه ﷻ بينهم، وهذا من أعجب الآيات؛ لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة، فلو أن رجلًا لطم رجلًا لقاتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثأره، فآل بهم الإسلام إلى

---

(١) أ والتلخيص: وعزم. (٢) أ: ما ضر. (٣) سورة يونس: ١٢.

(٤) تخلَّل: شد كساءه بخلال؛ لأنه تصدق بجميع ماله ولم يبق له شيء.

(٥) سورة الأنفال: ٦٢. (٦) أ: على ما يشاء.

أن يقتل الرجل ابنه وأباه في طاعة الله ﷻ.

وقد روى أبو الأحوص، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ... ﴿٦٣﴾ ﴾ قال: هم المتحابُّون في اللَّه تعالى.

* * *

اعلم أن المعنى الجامع بين المسلمين الإسلام، فقد اكتسبوا به أخوة أصلية، ووجب عليهم بذلك حقوق لبعضهم على بعض.

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (١).

وفيهما من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أن قال: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » وشبك بين أصابعه (٢).

وفيهما من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٣).

وفي حديث مسلم: لجاره أو لأخيه.

وفيهما من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « حق المسلم على المسلم خمس: يسلِّم عليه إذا لقيه، ويشمِّته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويجيبه إذا دعاه » (٤).

وإذا ثبتت هذه الحقوق للاشتراك في الإسلام فكلما زادت المخالطة وصفًا زادت الحقوق؛ مثل القرابة والمجاورة والضيافة والصحبة والصداقة والأخوة الخاصة في اللَّه ﷻ.

فأما حق القرابة، فمعلوم وجوب بِرِّ الوالدين وتقديم الأم في البر ووجوب صلة الرحم.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحب أن يوسع اللَّه عليه في رزقه ويُنْسَأ له في أثره فلْيصِلْ رحمه » (٥).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٦٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٦٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٧١، ٧٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز. وصحيح مسلم، كتاب السلام، حديث رقم : ٤ - ٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب البيوع. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٢٠، ٢١.

وأما حق الجار، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر وعائشة عن النبي ﷺ أنه قال: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[١].

وأما حق الضيف، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[٢].

وأما حق الصحبة، فقال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني أكثر.

وأما حق الصداقة، فإنها تُطْلق على ما دون الأخوة، فالأخوة هي المرتبة العليا، وإنما تقع الأخوة الصادقة إذا حصل التشاكل بين الأخوين في أصل الوضع، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: « الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[٣].

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: الإخبار عن مبدأ كون الأرواح وتقدُّمها الأجسادَ، على ما روى أن الله عز وجل خلق الأرواح قبل الأجساد بكذا وكذا، فأعلم النبي ﷺ أنها خلقت على ائتلاف واختلاف، فتأتلف الأجساد في الدنيا وتختلف على حسب ما وقع في مبدأ الخِلقة.

وفي هذا الحديث دليل على أن الأرواح ليست بأعراض وأنها كانت موجودة قبل الأجساد وأنها تبقى بعد الأجساد، ويؤيد هذا معنى قوله ﷺ: « أرواح الشهداء في حواصل طير خُضْر تَعْلُق في ثمرة الجنة »[٤].

وهذه الأخوة الخاصة هي التي عقَدها رسول الله ﷺ بين أصحابه، وقد علم أن الأخوة العامة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٥] واقعة قبل عقده، غير أنه أراد الأمر الخاص.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه آخى بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع[٦] وقد آخى بين خلق كثير ذكرتهم في كتاب التلقيح[٧].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم: ١٤٠. وسنن الترمذي، كتاب البر. وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب. ومسند أحمد: ٨٥/٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، وكتاب الرقاق. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٧٤، ٧٥ - ٧٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم: ١٥٩، ١٦٠.

(٤) الحديث ورد بروايات مختلفة في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم: ١٢١. والترمذي في كتاب التفسير، سورة رقم: ٣ - ١٩. ومسند أحمد: ٣٨٦/٦.

(٥) سورة الحجرات: ١٠.

(٦) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، وكتاب الأدب. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٠٣.

(٧) هو كتاب: « تلقيح فهوم أهل الأثر » لابن الجوزي المطبوع في حيدر آباد.

وهذه الأخوة هي التي توجب المحبة في اللَّه ﷻ، وهي أوثق عُرى الإيمان، كذلك روى البَراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال: « أوثق عُرى الإيمان أن تحب في اللَّه وتُبغض في اللَّه » (١).

ومن جملة ثواب المتحابين ما روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم: « رجلين تحابَّا في اللَّه ﷻ اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه » (٢).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي الحباب عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن اللَّه ﷻ يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » (٣). (انفرد بإخراجه مسلم).

وبالإسناد عن أبي مسلم الخَوْلاني قال: أتيت مسجد أهل دمشق فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ ، وإذا شاب فيهم أكحل العين برّاق الثنايا كلما اختلفوا في شيء ردُّوه إلى الفتى، فقلت لجليس لي: من هذا؟ قال: هذا معاذ بن جبل. فجئت من العشيّ فلم يحضر، فغدوت من الغد فلم يجئ، فخرجت فإذا أنا بالشاب يصلي إلى سارية فركعت ثم تحولت إليه، قال: فسلَّم فدنوت منه فقلت: إني أحبك في اللَّه تعالى، قال: فمدني إليه وقال: كيف قلت؟ قلت: إني أحبك في اللَّه، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « المتحابون في اللَّه على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله » (٤).

قال: فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت فذكرت حديث معاذ بن جبل فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يحكي عن ربه ﷻ يقول: « حقَّت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين في، والمتحابون في اللَّه على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله » (٥).

وفي حديث عمرو بن عَبَسة عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه ﷻ يقول: حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتصافون من أجلي » (٦).

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للَّه ﷻ عبادًا على منابر

(١) في سنن أبي داود، كتاب السنة: « أفضل الأعمال الحب في اللَّه ».

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، وكتاب الحدود. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٩١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٣٨. (٤) مسند أحمد : ٥/٢٣٧.

(٥) أخرج نحوه مالك في الموطأ. ورواه أحمد في مسنده، برقم : ٢١٥٥٩.

(٦) مسند أحمد : ٥/٣٢٨.

من نور في ظل العرش يغبطهم الشهداء، قيل: من هم؟ قال: المتحابون في جلال الله ﷻ » (١).

واعلم أن هذا الثواب في هذه المحبة إنما يكون إذا كانت لله تعالى خالصة لا يشوبها شيء من الكدر، ومتى قويت محبة الله سبحانه وتعالى في القلب قويت محبة أوليائه والصالحين من عباده، فلينظر الإنسان من يؤاخي ومن يحب، ولا ينبغي أن يتخير إلا من قد سَلِم عقله ودينه، وقد قال ﷺ: « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل » (٢).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « المرء مع من أحبَّ » (٣).

فإذا أحبَّ شخصًا فليُعْلمه، وروى المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ: « إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه إياه » (٤).

وقال عمران بن حَطَّان: لقد أحببت في الله ﷻ ألف أخ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته ومكان داره.

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ما تحابَّ رجلان في الله ﷻ إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه.

وكان يقول: اصحب من إذا صحِبْته زانَك، وإن خدمته صانك، وإذا أصابتك خَصاصة مانَك، وإن رأى منك حسنة سُر بها، وإن رأى منك سقطة سترها، ومن إذا قلت صدَّق قولك، ومن هو فوقك في الدين ودونك في الدنيا، وكل أخ وجليس وصاحب لا تستفيد منه في دينك خيرًا فانبذ عنك صحبته.

فإذا صفت المحبة وخلصت وقع الشوق والتزاور، وصار بذل المال أحقر الأشياء، فأما التزاور فقد ذكرنا فضيلته.

وقد كان عمر بن الخطاب يذكر الأخ من إخوانه في بعض الليل فيقول: يا طولها من ليلة! فإذا صلى المكتوبة غدا إليه فاعتنقه.

وقال مجاهد: إذا مشى أحد المتحابين إلى الآخر بيده فضحك إليه تحاتَّت خطاياه كما يتحات ورق الشجر.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، قال أنبأنا أبو بكر الخطيب، أخبرني عبد العزيز الأزَجيّ، حدثنا عبد الله بن محمد بن سليم العلاف [عن معروف الكرخي] (٥) قال:

(١) مسند أحمد : ٥/٢٢٩.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٦٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم : ٦١٦٨. ومسلم في صحيحه حديث رقم : ٢٦٤١.
(٤) سنن الترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم : ٢٣٩٢. وأحمد في مسنده، حديث رقم : ١٦٧١٩. وهو صحيح.
(٥) من قرة العيون المبصرة.

امش ميلًا صِلِّ جماعة، امش ميلين صلِّ جمعة، امش ثلاثة أميال عُدْ مريضًا، امش أربعة أميال شيِّع جنازة، امش خمسة شيع حاجًّا أو معتمرًا، امش ستة أميال شيِّع غازيًا في سبيل اللَّه، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلى رجل، امش ثمانية أميال أصلحْ بين الناس، امش تسعة أميال صِلْ رَحِمًا وقرابة، امش عشرة أميال في حاجة عيالك، امش أحد عشر ميلًا في معاونة أخيك، امش بريدًا - والبريد اثنا عشر ميلًا - زر أخًا في اللَّه ﷻ!

وأما بذل المال فله ثلاث مراتب: أهونها: المساهمة في المال، وأوسطها المواساة، وأعلاها تقديم الأخ في المال على النفس.

وقد رُوِّينا آنفًا: « حقَّت محبتي للمتباذلين فيَّ ».

قال ابن عمر: لقد رأيتنا وما أحدنا بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم.

وقال الحسن: كنا نعد البخيل الذي يُقْرض أخاه!

وقال: ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه.

وقال أبو جعفر الباقر لأصحابه: هل يدخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فلستم بإخوان.

وقد كان بعضهم يتلطف في إيصال البر إلى إخوانه، فيأتي بالصُّرة فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودعها أحدهم ثم يلقاه بعد فيقول: انتفعوا بها فهي لكم.

وعلى هذا لا ينبغي للأخ أن يجحف بأخيه فيما يأخذ منه، وإن علم أنه لا كلفة عليه في ذلك، فإن النبي ﷺ قال له أبو بكر زمن الهجرة: قد عَلفْت ناقتين فخذ إحداهما فقال: بالثمن.

هيهات رحل الإخوان وأقام الخُوَّان، وقل أن ترى في الزمان إلا من إذا دعي مان (١).

* * *

الكلام على البسملة

أجِد الديار كما عهدتُ وإنما	شكواي أني أفقد الجيرانا
يا وحدتي ما أكثر الإخوان لي	نظرًا وأكثر فيهم الخُوَّانا!
في كل مَطْرح نظرةٍ حَوْلي أخٌ	صنو إذا هزّ الغنى الأفنانا
راعٍ معي أبدًا فإن هي أعجفَتْ	إبلي تقلَّب أو يَعُدْن سِمَانا

(١) مان: كذب، فهو مائن.

أشريه من خفض المعيشة غاليًا ويبيعني في ضنكها مجانا
ألقاهم عدد الكواكب كثرة حولي وألقى وحدي الحَدَثانا

إخواني: إن البخل والجهل للقلوب قد خالط، فما يُعْرف من يخالَط.

كان السلف يتعاشرون بنزع الغل على مناصحة النفوس، فصارت عشرة العشيرة على موافقة الهوى بدخَن الضمير، كانوا يميلون على الدنيا بالذم فصار الميل إليها بالقلب، تمالئوا على حبها ومالوا، فإذا فرَّت عن صديقهم أعرضوا ومالوا، فافتح بَصَر البصيرة فعلى هذا تراهم، ثم التفت عنهم وإياك وإياهم:

اسمعي مني أبثُّكِ شاني إنما يبدي ضميري لساني
كم أخ لي كان مني فلمَّا أن رأى الدهر جفاني قد جفاني
لم يَرُعْني غير خلٍّ غادر مُوتِر نَحْري لقوس الزمانِ
مستعدٌّ لي بسهم عندما أن رأى الدهر رماني قد رماني

كان الأخ في اللَّه يَخْلف أخاه في أهله إذا مات أربعين سنة! وكان الرجل إذا أراد شَيْن أخيه طلب حاجته من غيره.

خرج إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ في سفر ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجدًا في بعض المفاوز والبرد شديد وليس للمسجد باب، فلما ناموا قام إبراهيم فوقف على الباب إلى الصباح، فقيل له: لم تنم؟ فقال: خشيت أن يصيبكم البرد فقمت مقام الباب!

وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له فخرج إليه فقال: ما جاء بك؟ قال: عليَّ أربعمائة درهم. فدخل الدار فوزنها ثم خرج فأعطاه، ثم عاد إلى الدار باكيًا فقالت زوجته: هلَّا تعلَّلت عليه إذا كان إعطاؤه يشق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أفتقد حالة فاحتاج (١) أن يقول لي ذلك!

هل تُحسَّان لي رفيقًا رفيقًا أو تصيبان لي صديقًا صدوقًا
قد فشا الغدر والخيانة في النا س فما إن أرى رفيقًا شفيقًا

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن رباح بن الجراح قال: جاء فَتْحٌ الموصلي إلى منزل صديق له يقال له: عيسى التمَّار فلم يجده في المنزل، فقال للخادم: أخرجي لي كيس أخي، فأخرجته ففتحه فأخذ منه درهمين. وجاء عيسى فأخبرته الخادم فقال: إن كنتِ صادقة فأنتِ حرة. فنظر فإذا هي صادقة فعتقت!

---

(١) أ: حتى احتاج.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ في اللَّه ﷻ فقلت له يومًا: أعطني دراهم. فقال: كم تريد؟ فسقط من عيني وخرجت أخوته من قلبي بقوله: كم تريد!

واعلم أنه إذا علت مرتبة الأخوة وقع فداء الأخ بالنفس.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن محمد بن داود قال: سمعت أبا بكر القرطبي وأبا عمرو الأدمي يقولان وكانا يتآخيان في اللَّه تعالى: خرجنا من بغداد نريد الكوفة فلما سرنا في بعض الطريق إذا نحن بَسبعَيْنِ رابضين على الطريق، فقال أبو بكر لأبي عمرو: أنا أكبر منك سنًّا فدعني أتقدمك فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك وجُزْتَ أنت. فقال له أبو عمرو: نفسي ما تسامحني بهذا، ولكن نكون جميعًا في مكان واحد فإن كانت حادثة كنا جميعًا. فجازا جميعًا بين السبعين فلم يتحركا ومرًّا سالمين.

وركب إخوان في اللَّه تعالى في البحر فكُسر بهما المركب فجعلا يسبحان ويتعلق أحدهما بالآخر، فقال أحدهما للآخر: إن تعلَّقت بي هلكنا جميعًا فدعني فربما سلم أحدنا فقال: ظننت أني أنا أنت فإذا وقع الفراق فنعم. فتنحى عنه، فقدرت لهما السلامة فلم يصحبه ذلك باقي عمره.

إخواني: نُسخ في هذا الزمان رسم الأخوة وحكمه، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء، فإن سمعت بإخوان صِدْق فلا تصدق.

ما هذه الألف التي قد زِدْتم ... فدعوتم الخُوَّان بالإخوان
ما صح لي أحدٌ أصيِّره أخا ... في اللَّه حقًّا، لا ولا الشيطان
إما مُولٍّ عن ودادي ماله ... وجه وإما من له وجهان

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ...﴾ (١)

في المراد بهذا الذكر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الذكر في الصلاة، يصلي الإنسان قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب. هذا قول علي وابن مسعود وابن عباس وقتادة.

---

(١) سورة آل عمران: ١٩١.

والثاني: أنه ذكر في الصلاة وغيرها.

والثالث: أنه الخوف. فالمعنى يخافون اللَّه في جميع تصرفاتهم.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي صالح قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: قال اللَّه ﷻ: « أنا عند ظنِّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منه، ومَنْ تقرَّب إليَّ شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن جاءني يمشي جئته هرولة »[1]. (أخرجاه في الصحيحين).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « سبق المفرِّدون » قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: « الذاكرون اللَّه كثيرًا والذاكرات »[2].

وفي أفراده من حديث أبي هريرة أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يقعد قومٌ يذكرون اللَّه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم اللَّه فيمن عنده »[3].

وفي حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما اجتمع قومٌ يذكرون اللَّه لا يريدون بذلك إلا وجه اللَّه، إلا ناداهم منادٍ من السماء: « قوموا مغفورًا لكم، قد بدلتْ سيئاتكم حسنات »[4].

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، بسنده عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن للَّه تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قومًا يَذْكرون اللَّه تعالى تنادَوا: هلمُّوا إلى حاجتكم. فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء. قال: فيسألهم ربهم تبارك وتعالى وهو أعلم بهم ما يقول عبادي؟ قالوا: يذكرونك ويسبحونك ويحمدونك. قال: وهل رأوني؟ فيقولون: لا واللَّه يا رب ما رأوك. قال: فيقول: فكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك لكانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر تسبيحًا. قال: فيقول: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك الجنة. قال: فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا واللَّه يا رب ما رأوها؟ فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد عليها حرصًا وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة. فيقول: فمِمَّ يتعوذون! قال: فيقولون: من النار. قال: فيقول: فهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا واللَّه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد. وصحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٢، ١٨، ١٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر، باب الحث على ذكر اللَّه : ٦٣/٨، ط إستامبول.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٣٨، ٣٩.

(٤) مسند أحمد : ١٤٢/٣.

ما رأوها. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة فيقول: هم الجُلساء لا يشقى بهم جليسهم » (١). (أخرجاه في الصحيحين).

وفي حديث أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ: « إن اللّه ﷻ يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » (٢).

وفي حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول اللّه تعالى: أخرجوا من النار من ذكرني يومًا أو خافني في مقام » (٣).

وفي حديثه عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا: يا رسول اللّه وما رياض الجنة؟ قال: « مجالسُ الذّكر » (٤).

وكان داود - عليه الصلاة والسلام - يقول: إلهي إذا مررتُ على ملأ يذكرونك فجاوزتهم فاكسر الرِّجل التي تليهم.

واعلم أن الذاكرين تختلف أحوالهم.

فمنهم من يؤثر قراءة القرآن ويقدمه على كل ذكر، وقد كان فيهم من يختم كل يوم ومنهم من يختم ختمتين.

ومنهم من أكثر ذكره التهليل والتسبيح والتحميد.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: من قال: « لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عِدْل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرْزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك. ومن قال: في يومه مائة مرة: سبحان اللّه وبحمده. حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » (٥).

وقال سعيد بن عبد العزيز قلت: لعمر بن هانئ: أرى لسانك لا يَفْتر من ذكر اللّه ﷻ فكم تسبِّح كل يوم؟ قال: مائة ألف إلا أن تُخطئ الأصابع.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب رقم : ٦٦. ورواه مسلم في صحيحه، برقم : ٢٦٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد. ومسند أحمد : ٢/٥٤٠.

(٣) الترمذي، كتاب جهنم، باب رقم : ٩، حديث رقم : ٢٥٩٤. وهو ضعيف.

(٤) رواه الترمذي في سننه، برقم : ٣٥١٠، كتاب الدعوات. وأحمد في مسنده، برقم : ١٢١١٤، وهو صحيح.

(٥) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، وكتاب الدعوات. وصحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٢٧.

وقال محمد بن ثابت البُناني: ذهبت أُلقّن أبي وهو في الموت، فقلت: يا أبت قل: لا إله إلا اللَّه. فقال: يا بني خلِّ عني فإني في وردي السادس أو السابع!

ذِكْركَ لي مُؤنسٌ يُعارضني يَعدِني عَنْك منك بالظَّفَرِ
وكيف أنساك يا مدى هِمَمي وأنت مني بموضع النظَر

ومن الذاكرين من غلب على قلبه حُب المذكور فلا يزال في الذكر والتعبد.

أخبرنا ابن حبيب بسنده قال: سمعت فاطمة أخت أبي علي الروذباري تقول: سمعت أخي يقول: سمعت الجنيد يقول: ما رأيت أعْبَد للَّه مِنْ سَرِيّ السَّقطي، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رُئي مضطجعًا إلا في علة الموت.

ومن الذاكرين من صار الذكر له إلفًا لا عن كُلفة، فما له همّ غيره، فهو يذكر أبدًا على جهة الحضور.

وقال مجمِّش الجلاب (١): صحبت أبا حفص النيسابوري اثنتين وعشرين سنة، فما رأيته ذكر اللَّه تعالى على حدِّ الغفلة والانبساط، ما كان يذكر اللَّه إلا على سبيل الحضور والحُرْمة والتعظيم، وكان إذا ذكر اللَّه تعالى تغيَّر عليه حاله حتى كان يرى ذلك جميعُ من حضره.

وقال بعض السلف: صحبت في طريقي رجلًا أسود فكان إذا ذكر اللَّه تعالى ابيضَّ!

وشُغلت عَنْ فهْم الحديث سوى ما كان منك وعندكم شُغلي
وأُديم نحو محدِّثي نظري أنْ قد فهمتُ وعندكم عقْلي

* * *

أين أهل الأذكار، أين قُوام الأسحار، أين صُوّام النهار، خلَتْ واللَّه منهم الديار، وامتلأت بهم القفار، فصِلْ إليهم وصلّ عليهم فهم الأحرار.

سلامٌ على أهل الحِمى عدد الرمل وقلَّ له التسليمُ من تائقٍ مثلي
وقفتُ وقوف الغيْث بين طُلوله بمُنسكبٍ سحٍّ ومُنْهمل وبْل
وما رِمت حتى خالني الرّيمُ ريمة وأذرف أطيارُ الحِمى الدمعَ من أجلي (٢)
خليلي قد عذبتماني (٣) ملامة كأن لم يطُف في دمنة أحدٌ قبلي

---

(١) لم أجد له ترجمة في صفة الصفوة ولا في طبقات الصوفية.

(٢) ما رِمت: ما برحت. والريم: الظبي الخالص البياض. وريمة: كذا بالأصول، والريمة بكسر الراء واد. فلعله أراد أن الظبي خاله ثابتًا لا يتحول.

(٣) أ: قد عنفتموني.

فلا برحتْ عيني تنوبُ عن الحيا بدَمْعٍ على تلك المناهل مُنهلِّ
ليالي لا رَوضُ الكثيب بلا ندى ولا شجراتُ الأبْرقَين بلا طلّ

السجع على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ... ﴿١٩١﴾﴾:

سبحان من قضى على الغافلين كسلًا وقُعودًا، ورفع المتقين عُلوًّا وصعودًا، ومنحهم من إنعامه فوزًا وسُعودًا بمطلوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

أنعم عليهم فأعطاهم، واستخلصهم واصطفاهم، وقليلٌ ما هُم، اشتغل الناسُ بدنياهم واشتغلوا بذكر محبوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

قنعوا بأدون المطعم واللباس، وألقوا نفوسهم في المساجد كالأحلاس (١)، يمشون بالسكينة بين الناس وما دروا بهم في دروبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

اكتفوا من الليل بيسير النوم، واشتغلوا بالصلاة وبالصوم، وكانت والله همم القوم في صلاح قلوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

تناولوا لُقم الترْتيل (٢) وقالوا: هذه للجوع تُزيل، فهم يقْنعون بالقليل في مطعومهم ومشروبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

قاموا قيام المستعد، ووردوا بَحرَ الجُود العِدّ (٣)، وتسلحوا سلاحَ العزم والجِدّ في جميع حروبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

لبسوا ثياب السفر، ورحلوا على أكْوار (٤) السهر، فلو سمعت وقت السحر ترنُّم طَرُوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

تناولوا كئوس الدمع يتجرعون، فلو رأيتهم في طريق الخضوع يتضرعون والقوم يقلقون ويضرعون في ستر عيوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

يستغيثون إلى الحق ويشكون، واليتامى في الذل يحكُون، وجملة الأمر أنهم يبكون على قُبح مكتوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

يعتذرون من زَلَل القدم، ويتمنون بَعْد الوجود العدم، وقد بعثوا رسالة الندم مع مندوبهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) الأحلاس: جمع حلس وهو الكساء الذي يبسط في البيت.

(٢) أ: لقم التنزيل: والمراد تلاوة القرآن.

(٣) العد بكسر العين: الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع.

(٤) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل الذي يوضع فوق ظهر البعير.

قلَّبتهم الأشجان، وغيرتهم الأحزان، ينزعجون لما قد كان من سالف ذنوبهم، ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾.

أما الليلُ فسهَارى، وأما النهار فأسارى، وكأنهم بالمحبة سُكارى في شروقهم وغروبهم، ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾.

لو أصْغيت في الدُّجى واستمعت، وأحضرت قلبك عندهم وجمعت، وهيهات ليتك اطلعت على بعض كُروبهم، ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾.

كانت رقدة ثم بقيت النّياحة [1]، فانتقلوا من حضرة الحَظْر إلى الإباحة، واستبدلوا بالرياضة الراحة، فلم يبق أثرٌ لجدُوبهم، ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾.

* * *
* *
*

(١) كذا بالأصول، ولعله يريد كانت المعصية منهم عن غفلة ثم بقي الندم عليها.

المجلس الثامن

في ذكر العزلة

الحمد للَّه الواحد القديم الجبار، القادر العظيم القهار، والمتعالي عن دَرْك الخواطر والأفكار، المنفرد بالعز والقهر والاقتدار، الذي وسَم كلَّ مخلوق بسمة الافتقار، فأظهر آثار قدرته بتصرف الليل والنهار، سميع يسمع لا كالأسماع، بصير يُبصر لا كالأبصار، قادر مريد حكيم عليم بالأسرار، يُبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على القار، ويسمع أنين المُدنَف [١] يشكو ما به من أضرار، كلم موسى كفاحًا لمَّا قضى الأجل وسار، ورآه نبينا ﷺ دلّ على ذلك القرآن والأخبار، ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القرار، صفاتُه كذاته والمشبِّهة كُفَّار، نَقِّر ونمِّر [٢] وأربابُ البحث في خسار، هذا سيف السنة فتناوله باليمين لا باليسار، واضرب به كفَّ « كيف » ورأس « لم » وعُنق « ثم » وخُذ للتنزيه من التشبيه بالثار ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ [٣].

أحمده في الإعلان والإسرار، وأشهد بوحدانيته بأصح إقرار، وأصلي على رسوله محمد سيد الأنبياء الأطهار، وعلى أبي بكر رفيقه في الدار والغار، وعلى عمر قامع الكفار، وعلى عثمان شهيد الدار، وعلى عليٍّ قسيم النار [٤]، وعلى عمه العباس آخذ البيعة ليلة العقبة في الأنصار.

* * *

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد الخدري قيل: يا رسول اللَّه أي الناس خير؟ قال: « رجلٌ يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شِعْبٍ من الشعاب يعبُد ربَّه ويدَع الناس من شره » [٥]. (أخرجاه في الصحيحين).

---

(١) المدنف: المريض.

(٢) كذا رأينا ضبطه والمراد: ابحث وصعِّد النظر فلن تهتدي إلا إلى عقيدة أهل السنة.

(٣) سورة التوبة: ١٠٩.

(٤) كذا بالأصول، ولعله يريد وصفه بالنور؛ لأن النور قسيم النار، أي المقابل لها، وفي قرة العيون المبصرة: وعلى علي القائم بالأسحار.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، وكتاب الرقاق. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧.

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد البزار، قال: أنبأنا رزق اللّه بن عبد الوهاب، بسنده عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إن من خير معايش الناس لهم: رجلٌ مُمسك بعنان فرسه يطير على متْنه، كلما سمع هيْعة أو فَزْعةً طار على متن فرَسه يلتمس الموتَ والقتلَ مكانه، ورجل في رأس شَعفة من الشِّعاف أو بطن وادٍ من هذه الأودية يقيم الصلاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في سبيل خير » [١].

قال أبو عبيدة: الهَيْعة: الصوت. قال الطِّرمَّاح:

أنا ابن حماة المجد من آل مالكٍ إذا جعلت خُورُ الرجال تَهِيعُ [٢]

والخُور جمع خوّار وهو الضعيف: والشَّعْفة واحدة الشعاف وهي رءوس الجبال، وهي الشماريخ والشناخيب واحدها شُنْخوبة.

وروى عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول اللّه: ما النجاةُ؟ قال: « املك عليك لسانك، وليَسعك بيتُك، وابكِ على خطيئتك » [٣].

* * *

قال الشيخ: وهذه الأحاديث تدل على فضل العزلة.

وقد كان السلف يؤثرونها ويمدحونها، فقال عمر بن الخطاب: خذوا بحظِّكم من العُزلة.

وقال سعد بن أبي وقاص: واللّه لوددت أن بيني وبين الناس بابًا من حديد لا يكلمني أحدٌ ولا أكلمه حتى ألحق باللّه تعالى.

وقال ابن مسعود لأصحابه: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحْلاس البيوت، جُدُدَ القلوب، خُلقان الثياب، تُعرفون في أهل السماء وتخْفون على أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء: نِعْم صومعة الرجل بيته يكفُّ فيه بصره ولسانه، وإياكم والسُّوق فإنها تُلْهي وتُلْغي [٤].

وقال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لَرَحلْت إلى بلادٍ لا أنيس بها، وهل يُفسد الناسَ إلا الناسُ!

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم : ١٨٨٩. وسنن ابن ماجه، حديث رقم : ٣٩٧٧. ومسند أحمد، رقم : ٩٤٣٠.

(٢) البيت من شواهد اللسان، مادة (خور)، اللسان : ٤/٤٦٣، ط بيروت.

(٣) صحيح الترمذي، كتاب الزهد، باب رقم : ٦١. ومسند أحمد : ٤/١٤٨، ١٥٨، ١٥٩. وهو حديث صحيح.

(٤) أي تجعل الرجل ينطق باللغو.

كان أبو جهم الأنصاري بدْريًّا وكان لا يجالس الناسَ وكان يعتزل في بيته، فقالوا له: لو جالست الناس وجالسوك؟ فقال: وجدت مُقاربة الناس شرًّا.

وقال أبو حذيفة: والله لوددت أن لي إنسانًا يكون في مالي ثم أُغلق عليّ بابًا فلا يدخل عليَّ أحد حتى ألحق بالله ﷻ.

وقال الحسن: صوامع المؤمنين بيوتهم.

وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين: العزلة عبادة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمت ويهرب من الناس فاقربوا منه فإنه يلقَّن الحكمة.

وكان عثمان بن أبي دهرش [1] إذا رأى الفجرَ أقبل عليه بثُّه وقال: الآن أصير مع الناس، فلا أدري ما أجني على نفسي!

وقال داود الطائي: فِرَّ من الناس كما تفر من الأسد!

وأوصى سفيان الثوري بعض أصحابه فقال: إن استطعت أن لا تخالط في زمانك هذا أحدًا فافعل، وليكن هَمُّك مرَمَّة جهازك.

وكان يقول: هذا زمان السُّكوت ولزوم البيوت!

وجاء رجل إلى الفضيل فجلس إليه فقال: ما أجلسك إليّ؟ فقال: رأيتك وحدك. فقال: إما أن تقوم عني وإما أن أقوم عنك. فقال: أنا أقوم أَوْصني، فقال: أخْفِ مكانك واحفظ لسانك.

وجاء رجل إلى شُعيب بن حرب فقال: ما جاء بك؟ فقال: جئت أُونسك. فقال: أنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة!

وقال مالك بن أنس: كان الناس الذين مضوا يحبون العزلة والانفراد من الناس.

وقال بشر الحافي: مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

وقد كان أحمد بن حنبل يحب العزلة وإبراهيم بن أدهم وسليمان الخوَّاص ويوسف ابن أسباط وحذيفة المرْعَشيّ في خلق كثير.

* * *

واعلم أن العزلة لا ينبغي أن تقطع عن العلم والجماعات ومجالس الذكر والاحتراف

---

(١) عثمان بن أبي دهرش: المكي، يروي عن رجل من آل الحكم عن النبي ﷺ، وروى عنه ابن عيينة، ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة: ١٢٣/٢.

للعائلة، وإنما ينبغي أن يعتزل الإنسان ما يؤذي [١]، وقد يُخاف من المخالطة المباحة أذى فيجتهد الإنسان في ترك ما يَخاف عواقبه.

ويَبْعد حضورُ القلب مع المخالطة للناس، إلا أن يكون لمعنى.

وقد قال شعيب بن حرب: الناس ثلاثة: رجلٌ تعلِّمه فيقبل منك، ورجل تتعلم منه، واهرب من الثالث.

وقد كان الثوري يقول: أقِلَّ من معرفة الناس.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا تعرف وأنكِر مَنْ تَعرف!

إنـي نـظـرتُ إلـى الـزمـا ... ن وأهـلِـه نـظـرًا كـفـانـي
فـعـرفْـتـهُ وعـرفـتُـهـم ... وعـرفـت عِـزّي مـن هـوانـي
فـحـمَلْـت نـفـسي بـالـقـنا ... عـة عـنـهـمُ وعـن الـزمـانِ
وتـركـتـهـا بـعـفـافـهـا ... والـزهـدِ فـي أعـلـى مـكـانِ
فـلـذاك أجـتـنب الـصَّـديـ ... ـق فـلا أراه ولا يـرانـي
فـتـعـجَّـبوا لِـمُـغـالـتِ [٢] ... وهَــب الأقـاصـى والأدانـي
وانـسـلَّ مـن بـيـن الـزِّحـا ... م فـمـا لـه فـي الـخـلْـق ثـاني

وفصل الخِطاب في هذا: أن الناس على ضربين: عالم وعابد. فالعالم لا ينبغي له أن ينقطع عن نفع الناس فإنه خلَف الأنبياء، وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة.

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: « والله لأنْ يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمُر النَّعم » [٣]، فمتى ما جاء الشيطان فحسَّن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة فذاك خديعة منه، ولقد حسَّن لكثير [٤] من السلف دَفْن كتبهم ومَحْو علمهم وهذا من الخطأ العجيب، بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن شرّ من يؤذي ويبرز لمن يستفيد، فظهوره أفضل من إخفائه.

فأما إن كان عابدًا فالعابدُ لا ينافَس في هذا، فإن من القوم من شغلته العبادة،

---

(١) أ: من يؤذي.

(٢) المغالت: الذي قطع عهده مع الناس - والغلت بسكون اللام: الإقالة في الشراء.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، وكتاب فضائل الصحابة. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم : ٣٥.

(٤) أ: لخَلق من السلف.

كما روي أن الحسن رأى رجلًا متعبدًا فأتاه فقال: يا عبد اللَّه ما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: ما أشغلني عن الناس. قال: فما منعك أن تأتي الحسن؟ قال: ما أشغلني عن الحسن. قال فما الذي شغلك عن الحسن؟ قال: إني أُمسي وأصبح بين ذَنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنب والشكر للَّه تعالى على النعمة. فقال له: أنت عندي أفقه من الحسن!

وقال رجل لعامر بن عبد قيس: قف فكلِّمني. فقال: أمسك الشمس!

ومن القوم من استغرقته محبة اللَّه تعالى والأنس به فاستوحش من الخلق. قيل لغزوان الزاهد: لو جالست إخوانك؟ فقال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي.

تعبي راحتي وأنْسى انفرادي ... وشفائي الضَّنا ونومي سُهادي
لست أشكو بِعادَ من صدّ عني ... أيُّ بُعْد وقد ثوى في فؤادي
هو يختال بين قلبي وعيني ... هو ذاك الذي يُرى في السواد

فهؤلاء عُزلتهم أصلح لهم، بل لا ينبغي أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء، فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان. وإنما نأمر العوام باعتزال الشر فحسب، فإنه الجهادُ في حقهم.

واعلم أن السمع يوصل إلى القلب خبر المسموعات والبصرُ خبر المنظورات، ورب نَظْرة نقَشت في القلب صورة فبَعُد مَحْوها، فإن الإنسان ليمشي في الأسواق فيتغير قلبُه، والعزلة توجب السلامة من ذلك، وقد كان في الصالحين من إذا خرج للسوق فكسب ما يكفيه قام إلى المسجد.

فالبدارَ البدارَ إلى حفظ القلوب بالعزلة عن كل ما يؤذي.

* * *

الكلام على البسملة

ما عُذرُ من جرّ عاصيًا رَسَنه ... ما عُذْره بعدَ أربعين سنه
أكلما طالت الحياةُ به ... أطال عن أخذ حذره وَسَنَه [1]
قل لي إذا متَّ كيف تنقص من ... سيئة أو تزيد في حسنه

يا مريضًا ما يعرف أوجاعه، يا مضيع العمر بالساعة والساعة، يا كثير الغفلة وقد

(١) الوسن هنا: النوم.

دنت الساعة، يا ناسيًا ذِكر النار إنها لنزَّاعة، كأنه وملك الموت قد أزعجه وأراعه، وصاح بالنفس صيحة فقالت: سمعًا وطاعة، ونهضت تعرضُ كاسدَ التوبة، وهيهات غَلق الباعة. يا سيئ النظر لنفسه في وجه شمس فهمك غَيْم، بين دائك ودوائك حجاب، لو أهمّتك نفسك سعيتَ لها في الخلاص، لو رضيت بالبُلغة ما استرهن قلبَك كسبُ الحُطام، لو قنعتْ كلاب الصيد بالمنبوذ ما كانت السواجير [1] في حلوقها.

* * *

طلَبتُك يا دنيا فأغْذَذْت [2] في الطلب فما نِلْتُ إلا الهمَّ والغَمَّ والنصَبْ
فلما بدا لي أنني لست واصلًا إلى لذةٍ إلا بأضعافها تَعَبْ
وأسرعت في ذنبي ولم أقْض شهوتي هربت بديني [3] منك إن نفع الهربْ
تسَربلتْ أخلاقي قُنوعًا وعِفةً فعندي بأخلاقي كنوزٌ من الذهَبْ
ولم أر حظًّا كالقُنوع لأهله وأن يُجمل الإنسانُ ما عاش في الطلبْ

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال، كأنك به إلى غيرك قد مال، واعجبًا بالحرص تجمعونه، وبالأمل تحفظونه، وبالغفلة تأكلونه، وفي الهوى تصرفونه، المال نعمة فمن أنفق بعضه في الخير أقام للباقي حارسًا، إذا سمعت النعمةُ نغْمة الشكر ألبَّت ولبّت بالمزيد، وإذا لم تُشكر وقد وفرتْ نفرتْ وما كلُّ شاردٍ بمردود، واعجباه ممن فرح بلذة يعلم سرعةَ زوالها، وأعجبُ من ذلك الحساب عليها.

أشدُّ الغَمّ عندي في سرور تيقَّن عنه صاحبُه زوالا

* * *

أين مَنْ لبس الحرير والقَزَّ، وحرَّك الجواد تحته وهزّ، وتعاظم على أبناء جنسه وعزّ، وقهر وغلب وسلب وبزّ، ذبحه سيفُ المنون وما قطع ولا حزّ، فتسلّب الحبيبُ بعد فراقه وجزّ [4]، وأكله الدودُ وقد كان يستزري الأوزّ، بينا هو قد ركض في أغراضه وكر خرّ فقيل: كيف بات؟ قيل: مرّ. فألبسه الغاسل ثوبًا لا كفَّه ولا زَرّ [5]، فرحل عن داره التي بها اغتر، واستعمل الحفارُ لتمهيد لَحْدِه المَرَّ [6]، واستلبه جذبًا عنيفًا وجرّ، ورجع أهلُه

(١) السواجير: جمع ساجور وهو خشبة تعلق في عنق الكلب.
(٢) أغذ في الطلب: أسرع. (٣) أ: هربت بذنبي.
(٤) تسلبت المرأة: أحدت على زوجها. وجزت: حلقت رأسها.
(٥) كف الثوب: خاط حاشيته، وهي الخياطة الثانية. وزره: جعل له أزرارًا.
(٦) المَرَّ بفتح الميم: المسحاة.

لا يقدرون له على نفع ولا ضر، وندم حين سكَن البرّ إذ ما اتقى ولا برّ، وطُولب بما أعلن من عمل وأسرّ، ووجد اللَّه وقد أحصى عليه الذّر، وبقي مكانه أسيرًا لا يرى إلا الشر.

هـذي منـازلـهـم وقـد رَحـلـوا　　وعلى الكراهة غيرَها نزلوا
رحـلـوا وأبـقـوْهـا لـغـيـرهـمُ　　إن المنازل والغنى دُوَل (١)
شـادُوا مَبانيها ومـا سكنـوا　　إلا نزولَ الضيف وانتقلوا
وتـفـرَّقـت عـنـهـم أقـاربُـهـم　　وجنودُهم وخلَوا بما عملوا
يا آمل الدنيا وقد عصفتْ　　بالناس قبلك خانك الأملُ
أتـروم جـهـلًا أن تـقـيـم بـهـا　　ووراءك الأيـــام والأجـــلُ

يا هذا إذا أسلمك الأتراب، تسلَّمك التراب، كيف يفرح بحياته من يعلم أنها مطية مماته، يا من هجم الشيطانُ عليه وهو في بادية المخالفة (٢)، فسبَاه فباعه فاشتراه الهوى بثمن بخس، تاللَّه لو كنت في حصن التقى ما قدَر عليك، إلى كم يستخدمك الهوى وأنت حُرّ، طال تشبُّهك في التثبيط بزُحَل فانهض بحركة عطارد في الهرب مما يؤذي.

تعرَّض لجياد المجاهدين لعل بعضهم يستصحبك.

أما بلَغك لُطْف: هل من سائل؟ أما سمعت عفو: هل من تائب؟

وتُذنبون فتأتيكم فنعتذر (٣)

لا تيأس فباب الرجاء مفتوح، لا تُلقِ بيدك فعَلَم القَبُول يلُوح:

عسى وعسى مِنْ بَعْد طول التفرق　　على كلِّ ما نرجو من العيش (٤) نلتقي
ولو ظَفرتْ عيني برؤياك ساعةً　　لكنت على عيْني من العين (٥) أتَّقي

إخواني: ليس كلُّ من قال: أنا تائب كان تائبًا، إنما التائب من صبر على فقْد الأغراض صبْر السَّحرة (٦) على الصَّلب، واعتذر من جناياته اعتذار النابغة إلى النعمان (٧)،

(١) أ: إن المنازل في السكنى لها دول.

(٢) شبه الذنوب بالصحراء التي يضل فيها المسافر. وسباه أسره.

(٣) هذا عجز بيت من أشعار الصوفية وصدره:

....　　إذا مرضنا أتيناكم نعودكم.

(٤) في قرة العيون: الخير.

(٥) العين هنا مجاز عن الحسد.

(٦) أي سحرة فرعون الذين اتبعوا موسى.

(٧) النابغة الذبياني صاحب الاعتذارات الطويلة إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة.

وخضع خضوع الجَرِب للطَّالي (١)، وتضرَّع تضرع الصبي إلى المؤدب.

لا تَنأ وإن طُردتَ، ولا تبرح وإن زُجرت:

إذا هجروا عزًّا وصلنا تذلّلاِ ... وإن بعدوا يأسًا قَرُبْنا تعلُّلا
وإن أغلقوا بالهجر أبواب وصلهم ... وقالوا ابعدوا عنا طلبنا التوصُّلا
وإن منعونا أن نجوز بأرضهم ... ولم يسمعوا الشكوى وردُّوا التوسُّلا
أشرنا بتسليمٍ وإن بَعُد المدى ... إليهم وكلفنا الرياحَ لتَحملا (٢)

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ... ﴾ (٣)

﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ أي ترتفع. والآية في قوّام الليل.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ قال: قيام العبد من الليل (٤).

قال أحمد: وحدثنا علي بن عبد اللَّه بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ثلاثة يضحك اللَّه إليهم: رجل يقوم من الليل، والقوم قد صفُّوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال » (٥).

قال أحمد: وحدثنا روْح وعفان، قالا: أنبأنا حماد بن سلمة، قال: أخبرنا عطاء ابن السائب، عن مُرَّة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « عجب ربنا من رجلين: رجلٌ ثار عن وطائه ولحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته فيقول ربنا: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ولحافه بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل اللَّه ﷻ فانهزم فعلم ما عليه في الفرار وماله في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمُه فيقول اللَّه ﷻ: انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه » (٦).

---

(١) أي خضوع الناقة الجرباء لمن يَطْليها بالهناء لتبرأ.

(٢) أ: التحملا.

(٣) سورة السجدة: ١٦.

(٤) رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم: ٣٩٧٣. وأحمد في مسنده، برقم: ٢١٥١١. وهو حديث صحيح.

(٥) مسند أحمد: ٣/٨٠. وسنن ابن ماجه، حديث رقم: ٢٠٠، وهو ضعيف.

(٦) مسند أحمد: ١/٤١٦، وهو صحيح.

وروى أبو أمامة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قُربة إلى ربكم ومغفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم » (١).

وقال الحسن البصري: لم أجد من العبادة شيئًا أشد من الصلاة في جوف هذا الليل.

وقال أنس بن مالك ﷺ: فينا نزلت معاشر الأنصار: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ.

* * *

واعلم أن السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات:

الطبقة الأولى: كانو يُحيُون كلَّ الليل، وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء. وكان ابن عمر يحيي الليل. ومن القوم سعيد بن المسيِّب وصفوان بن سليم المدَنيان، وفُضيل بن عياض، ووهيب (٢) ابن الورد المكّيان، وطاوس ووهب بن منبه اليمنيان، والربيع بن خُثيم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الدارانيّ وعلي بن بكار الشاميان، وأبو عبيد الله الخوّاص وأبو عاصم البغداديان، ومنصور بن زاذان وهشيم الواسطيّان، وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلْماني الفارسيان، ومالك بن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكّاء البَصْريون.

الطبقة الثانية: كانوا يقومون شطر الليل، منهم عبد اللّه بن عباس. قال ابن أبي مليكة: صحبتُه وكان يقوم شطر الليل يُكثر في ذلك واللّه التسبيح.

الطبقة الثالثة: كانوا يقومون ثلث الليل. وفي الصحيحين من حديث عبد اللّه بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « أحبُّ الصلاة إلى اللّه ﷻ صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه » (٣).

وفي حديث عمرو بن عَبَسة عن النبي ﷺ أنه قال: « أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر اللّه ﷻ في تلك الساعة فكن » (٤).

وروي أن داود ﵇ قال: يا رب أي ساعة أقوم لك؟ فأوحى ﷻ إليه: لا تقم أول الليل

---

(١) قال المنذري في الترغيب والترهيب: ١/٢٢٠: رواه الترمذي في كتاب الدعاء من جامعه وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد وابن خزيمة في صحيحه والحاكم. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٢) في قرة العيون: وهشيم بن الورد.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء. وصحيح مسلم، كتاب الصيام، حديث رقم: ١٨٨، ١٨٩.

(٤) الترغيب والترهيب للمنذري: ١/٢٤٣. وقال: رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ولا آخره، ولكن قم في وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إليَّ حوائجك [١].

وسأل داود عليه السلام جبريل عليه السلام: أي الليل أفضل فقال: ما أدري، إلا أن العرش يهتز في السحر.

الطبقة الرابعة: كانوا يقومون سُدس الليل أو خُمسه.

الطبقة الخامسة: كانوا لا يراعون التقدير، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام، قال سفيان الثوري: إنما هي أول نومة فإذا انتبهت فلا أُقيلها.

الطبقة السادسة: قوم كانوا يصلون من الليل أربع ركعات أو ركعتين. وقد رُوِّينا عن النبي ﷺ أنه قال: « صلوا من الليل ولو أربعًا صلُّوا ولو ركعتين » [٢].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصلَّيا جميعًا ركعتين كُتبا من الذاكرين اللَّه كثيرًا والذاكرات » [٣].

الطبقة السابعة: قوم يُحْيون ما بين العشائين ويصلون في السَّحر فيجمعون بين الطرفين.

وفي أفراد مسلم من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل اللَّه فيها خيرًا إلا آتاه إياه وذلك كل ليلة » [٤].

ومن أراد قيام الليل فلا يكثر من الأكل والشرب ولا يُتعب أعضاءه في النهار بالكدِّ ولا يعمل معصية، وليستعن بالقيلولة.

وأما آداب الباطن: فأن يكون القلبُ سليمًا للمسلمين، ولا بد له من خوفٍ مُقلق أو شوقٍ مُزْعج.

كان شدَّاد بن أَوْس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبَّةٌ على مَقْلَى ثم يقول: اللَّهم إن جهنم لا تدعني أنام. فيقوم إلى مُصلاه.

وكان طاوس يفرش فراشه ثم يضطجع فيتقلَّى كما تتقلى الحبَّة على المقْلَى ثم يثب فيتطهَّر ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طيَّر ذكْر جهنم نومَ العابدين!

وقالت بنت الربيع بن خُثيم له: يا أبت ما لي أرى الناسَ ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: يا بنية إن أباك يخاف البَيَات [٥].

---

(١) ليس لهذه الأخبار طريق يعتد به.

(٢) روى نحوه الطبراني في الكبير والأوسط، الترغيب والترهيب : ٢٢٢/١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب رقم : ١٣. وسنن ابن ماجه، كتاب الإقامة، باب رقم : ١٧٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب المسافرين، حديث رقم : ١٦٦، ١٦٧.

(٥) البَيات: الأخذ على غرة.

وقالت أم عمر بن المنكدر: يا بني أشتهي أن أراك نائمًا. فقال: يا أماه والله إن الليل لَيَرِدُ عليّ فيهُولني فينقضي عني وما قضيتُ أرَبي.

وكان زَمْعة العابد يقوم فيصلي ليلًا طويلًا، فإذا كان السَّحر نادى بأعلى صوته: يا أيها الرّكْب المعرّسون أكلّ هذا الليل تَرْقدون؟ ألا تقومون فترحلون؟!

فيُسمع من هاهنا باكٍ ومن هاهنا داعٍ ومن هاهنا متوضئ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته يقول: عند الصباح يَحْمد القومُ السُّرى.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن أحمد بن أبي الحَواري قال: دخلت على أبي سليمان وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ فقال لي: يا أحمد ولم لا أبكي وإذا جنّ الليلُ ونامت العيون وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، وافترش أهلُ المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وقطَرت في محاريبهم، أشرف الجليل ﷻ فنادى جبريل: بعيني من تلذَّذ بكلامي فلم لا تنادي فيهم: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيبًا يعذِّب أحبابه؟! أم كيف يَجْمُل بي أن أعذِّب قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقوني؟ فبي حلفتُ إذا وردوا عليَّ في القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم.

وقال أحمد بن أبي الحَواري أيضًا: سمعت أبا سليمان يقول: بَيْنا أنا ساجد ذهب بي النوم، فإذا أنا بحوراء قد ركضَتْني برجلها وقالت: حبيبي أترقد والملكُ يقظان ينظر في المتهجدين في تهجدهم! بؤسًا لعينٍ آثرت لذة نومةٍ على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبُّون بعضُهم بعضًا، فما هذا الرقاد حبيبي وقرة عيني؟ أترقد عيناك وأنا أُربِّي لك في الخدور؟ فوثبتُ فزعًا وقد عرقْتُ استحياءً من توبيخها إياي، وإن حلاوة منْطقها لفي سمعي وقلبي!

* * *

وكان أبو بكر ﷺ لقصر أمله يوتر أول الليل، وعمر لتأميل الخدمة يؤخّره إلى آخر الليل، وعثمان يتهجد في آناء الليل، وعليٌّ يستغفر في أواخر الليل.

قام القومُ على أقدام ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ (١) فبان في القوم سرُّ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (٢)، لولا قيام تلك الأقدام ما كان (٣) يؤدِّى حق « هل من سائل » يا غافلين عما نالوا، لقد مِلْتُم عن التقى وما مالوا، قاموا في غفلات الراقدين فقوبلوا بجزاء لم يطَّلع عليه الغيرُ غَيْرة لهم.

---

(١) سورة المزمل: ٢. (٢) سورة الشعراء: ٢١٩.

(٣) قرة العيون: من كان يؤدي.

ما أطيب أملهم في المناجاة، ما أقربهم من طريق النجاة، ما أقلّ ما تعبوا وما أيسر ما نَصبوا، وما كان إلا القليل ثم نالوا ما طلبوا، لو ذاق الغافل شراب أُنسهم في الظلام، أو سمع الجاهل صوت حنينهم في القيام، وقد نَصَبوا لِمَا انتصبوا له الأقدام، وترنّموا بأشرف الذِّكر وأحلى الكلام، وضربوا على شواطئ أنهار الصدق الخيام، وركزوا على باب اليقين بالحق الأعلام، وزمُّوا مطايا الشوق إلى دار السلام، وسارت جنود حُبهم والناس في الغفلة نيام، وشكَوْا في الأسحار ما يلقون من وقْع الغرام، ووجدوا من لذة الليل ما لا يخطر على الأوهام، وإذا أسفر النهارُ تلقَّوه بالصيام وصابروا الهواجر بهَجر الشراب وترك الطعام، وتدرَّعوا دروعَ التقى خوفًا من الزلل والآثام، فنورهم يُخْجل شمسَ الضحى ويُزْري (١) بدْرَ التمام، فلأجلهم تُنبت الأرض ومن جرَّاهم يجري الغمام، وبهم يُسامح الخطّاءون ويُصفح عن أهل الإجرام، فإذا نازَلهم الموتُ طاب لهم كأس الحِمام، وإذا دفنوا في الأرض فخرت بحفظها تلك العظام، فعلى الدنيا إذا ماتوا من بعدهم السلام.

تتجافى جنوبُهمْ ... عَنْ لذيذ المَضَاجعِ
كلُّهم بَيْن خائفٍ ... مُستجيرٍ وطامعِ
تركوا لذة الكَرَى ... للعيون الهواجعِ
ورعوْا أنجُمَ الدّجى ... طالعًا بعد طالعِ
واستهلتْ دموعهم ... بانْصباب المدامع
فأجيبوا إجابة ... لم تقع في المسامع
ليس ما تصنعونه ... أوليائي بضائعِ
تاجِروني بطاعتي ... تربحوا في البضائع
وابذلوا لي نفوسكم ... إنها في ودائعي (٢)

* * *

لو رأيت رياح الأسحار تحرِّك أشجار القلوب فتقع ثمار المحبة!

يا لذة خلْوتهم بالحبيب، يا وفور نصيبهم من ذلك النصيب.

هبَّت رياحُ وصالهم سَحَرا ... لحدائق الأشواق في قلبي
واهتزَّ عُودُ الوَصْل من طربٍ ... وتساقطت ثمرٌ من الحبِّ

(١) الأصل: ويؤذي، وما أثبته عن قرة العيون : ٨٨/٢ .

(٢) القرة: من ودائعي.

ومضت خيولُ الهجْر سادرةً | مطرودةً بعساكر القُرْب
وبدَتْ شموسُ الوصْل خارقةً | بشعاعها لسُرَادق الحجْب
وصفَا لنا وقتٌ أضاء به | وجهُ الرضا عَنْ ظُلمة العَتْبِ
وبقيتُ ما شيء أشاهده | إلا ظننت بأنه حِبِّي

السجع على قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾:

لو رأيتهم بين ساجد وراكع، وذليل مخمول متواضع، ومنكسر الطرف من الخوف خاشع، فإذا جنّ الليل حنَّ الجازع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

نفوسهم بالمحبة عَلِقتْ، وقلوبهم بالأشواق فلقت، وأبدانهم للخدمة خُلقت، يقومون إذا انطبقت أجفان الهاجع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

يبادرون بالعمل الأجل، ويجتهدون في سدِّ الخلل، ويعتذرون من ماضي الزلل، والدمع لهم شافع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

سبق واللَّه القوم، بكثرة الصلاة والصوم، فإذا أقبل الليلُ حاربوا النوم والعَزْم [1] في الطوالع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

ينادي منادي تائبهم: لا أعود، والمنعم ينعم بالقبول ويجود، هم واللَّه من الكون المقصود، فما حيلة المطرود والمعطي مانع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

كن يا هذا رفيقهم، ولِجْ وإن شقَّ مضيقَهم، واسلك ولو يومًا طريقهم فالطريق واسع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

اهجر بالنهار طيب الطعام، ودَعْ في الدُّجى لذيذَ المنام، وقل لأغراض النفس: سلام، واللَّه يدعو إلى دار السلام، فما يُقعد السامع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

يا من يرجو مقام الصالحين، وهو مقيم مع الغافلين، ويأمل منازل المقربين، وهو ينزل مع المذنبين، دعْ هذا الواقع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

الصدقَ الصدقَ فبه تسلم، الجدَّ الجد فبه تغنم، البِدار البِدار قبل أن تندم، هذا هو الدواء النافع ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

واللَّه أعلم.

* * *

(١) قرة العيون: والحزم.

المجلس التاسع

في ذكر الأمر بالمعروف

الحمد للَّه مدبِّر الليالي والأيام، ومصرِّف الشهور والأعوام، المنفرد بالكمال والتمام، الملك القدوس السلام، تنزه جلاله عن درْك الأفهام، وتعالى كماله عن إحاطة الأوهام، ليس بجسم فيشبه الأجسام، ولا بمتجوِّف فيحتاج للشراب والطعام، ارتدى برداء الكبرياء والإعظام، وأبصر ما في بواطن العروق ودواخل العظام، وسمع أخفى القول وألطف الكلام، لا يَعزب عن سمعه صريفُ الأقلام، ولا يخفى على بصره دبيب النمل تحت سُجف الظلام، إلهٌ رحيمٌ عظيم الإنعام، وربٌّ قدير شديدُ الانتقام، قدر الأمور فأحسن إحكام الأحكام، وصرَّف الـحُكم في فنون النقض والإبرام، بقدرته هبوبُ الريح وتسيير الغمام، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ (١).

أحمده حمدًا يبقى على الدوام، وأقر بوحدانيته كافرًا بالأصنام، وأصلي على رسوله محمد شفيع الأنام، وعلى صاحبه أبي بكر أول سابق إلى الإسلام، وعلى عمر الذي كان إذا رآه الشيطان هام، وعلى عثمان الذي أنْهض جيشَ العسرة بنفقته وأقام، وعلى عليّ البحر الغُطامط (٢) والأسد الضرغام، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأعلام.

* * *

اعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلُ الدين، فإنه شغل الأنبياء، وقد خَلَفهم فيه خلفاؤهم، ولولاه شاع الجهل وبطل العلم.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليسلطنَّ اللَّه شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » (٣).

أخبرنا علي بن عبد اللَّه بسنده عن جرير عن رسول اللَّه ﷺ قال: « ما من قوم فيهم رجلٌ يعمل بالمعاصي وهم أعزُّ منه وأمنع لا يغيِّرون إلا أصابهم اللَّه بعقاب » (٤).

---

(١) سورة الشورى: ٣٢.

(٢) الغُطامط: العظيم الأمواج. وفي قرة العيون: الخضم.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب رقم: ١٧. وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم: ٩. وأحمد في مسنده، برقم: ٢٢٨١٦. وهو صحيح.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب رقم: ٢٠، حديث رقم: ٤٠٠٩. وأحمد في مسنده، برقم: ١٨٧١٠.

واعلم أنه قد اضمحلَّ في هذا الزمان الأمر بالمعروف حتى صار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وهذا زمن قوله عليه الصلاة والسلام: « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ » (١).

وقد ضرب رسول اللَّه ﷺ مثلًا للمُنكِر والساكت عن الإنكار:

أخبرنا ابن الحصين بسنده إلى عامر قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب - وأومأ بإصبعه إلى أذنيه - سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن مثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها والمداهن فيها: مَثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضُهم أسفلهَا وأوعرها وشرَّها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرُّوا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خَرقْنا في نصيبنا خرقًا واستقينا منه ولم نُؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وأمرَهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعًا » (٢). (أخرجاه في الصحيحين).

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الخلق.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « من رأى منكم منكرًا فاستطاع أن يغيره بيده فليفعل، فإن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » (٣).

وفي حديث أبي سعيد أيضًا عن النبي ﷺ أنه سئل: ما أفضلُ الجهاد؟ فقال: « كلمةُ عدل عند سلطان جائر » (٤).

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قِلة، والورع في خلْوة، وكلمة حق عند من يُرجى ويُخاف.

وفي حديث عبد اللَّه بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنت ظالم فقد تودِّع منهم » (٥).

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « إنَّ من كان قبلكم كانوا إذا عمل العامل منهم بالخطيئة نهاه الناهي تعذيرًا، فإذا كان الغد جَالَسه وواكَله وشارَبه كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٢٣٢. وابن ماجه، حديث رقم : ٣٩٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب رقم : ٦. وصحيح الترمذي، كتاب الفتن.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٧٨.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب رقم : ١٧. وصحيح الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم : ١٣. ومسند أحمد : ٦١/١٩/٣.

(٥) مسند أحمد : ١٩٠/١٦٣/٢.

بعض ثم لعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد السفيه فلتأطرُنَّه على الحق أطرًا أو ليضربن اللَّه بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم » [١].

وفي حديث أبي بكر الصديق ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم اللَّه ﷻ بعقابه » [٢].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن اللَّه شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » [٣].

قال مالك بن دينار: قرأت في التوراة: من كان له جار يعمل بالمعاصي فلم يَنْهه فهو شريكه.

وقال مِسْعر: أُمر ملك أن يخسف بقرية فقال: يا رب فيها فلان العابد. فأوحى اللَّه تعالى إليه: أن به فابدأ فإنه لم يتمعَّر [٤] وجهه في ساعة قط.

* * *

وينبغي للآمر بالمعروف أن يَلْطف فقد قال اللَّه تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [٥].

ومر أبو الدرداء برجل قد أصاب ذنبًا وكانوا يسبونه فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب [٦] ألم تكونوا مُستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبُّوا أخاكم واحمدوا اللَّه الذي عافاكم. قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي.

ورأى محمد بن المنكدر رجلًا يكلم امرأة في موضع خرب، فقال: إن اللَّه تعالى يراكما سترنا اللَّه وإياكم.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن ثابت البُناني قال: كان صِلَة بن أَشْيَم [٧] يخرج إلى الجبَّان فيتعبد فيها وكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم: أخبروني عن قوم أرادوا سفرًا فحادوا بالنهار عن الطريق وناموا بالليل، متى يقطعون سفرهم؟ فكان كذلك يمر بهم فيعظهم، فمر بهم ذات يوم فقال لهم ذات يوم هذه المقالة، فقال شاب منهم:

---

(١) أخرج نحوه الترمذي في كتاب التفسير، سورة المائدة. وأبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب رقم: ٩٧. وابن ماجه في كتاب الفتن من سننه، باب رقم: ٢٠.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم: ٤٠٠٥. وأحمد في مسنده، حديث رقم: ١. وهو صحيح.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

(٤) لم يتمعر: لم يتغير من الغضب على من يقارفون المنكر.

(٥) سورة طه: ٤٤.

(٦) القليب: البئر.

(٧) صلة بن أشيم العدوي يكنى أبا الصهباء، أخباره في صفة الصفوة لابن الجوزي: ١٣١/٣.

يا قوم إنه والله ما يعني بهذا غيْرنا، نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام. ثم اتبع صِلَةَ فلم يزل يختلف معه إلى الجبَّان ويتعبد معه حتى مات.

ومرَّ بصلة بين أشْيَم فتى يجرّ ثوبَه، فهمَّ أصحابُ صلة أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعُوني أكْفكم أمره. ثم قال له: يا ابن أخي إن لي إليك حاجة قال: وما هي؟ قال: أُحب أن ترفع إزارك. قال: نعم ونُعمَى عين! فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا أمْثل مما أردتم، لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

وقال سليمان التيمي: ما أغضبتَ أحدًا فقبل منك.

وقال فَتْح بن شخْرف [1]: تعلق رجل بامرأة ومعه سكين لا يدنو منه أحد إلا عقَره وكان شديد البدن، فبينا الناسُ كذلك والمرأة تصيح مرّ بشرُ بن الحارث فدنا منه وحكّ كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجلُ إلى الأرض، ومرَّت المرأة ومرَّ بشر، فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري ولكن حاكّني شيخ وقال: إن الله ﷻ ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل. فضعفتُ لقوله وهِبته هيبةً شديدة لا أدري من ذلك الرجل. فقالوا له: ذاك بشر بن الحارث، فقال: واسوْأتاه كيف ينظر إليَّ بعد اليوم! وحُمَّ من يومه ذاك. ومات يوم السابع.

* * *

وينبغي للآمر بالمعروف أن يَحْذر من فعل ما نَهى عنه وترك ما أَمر به.

فقد أخبرنا عبد الأول بسنده عن أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتابُ بطنه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهلُ النار عليه فيقولون: أيْ فلان ما شأنك، أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » [2]. (أخرجاه في الصحيحين).

واعلم أنه إذا هذب الآمر نفسَه أثّر قولُه، إما في زوال المنكر أو في انكسار المذنب، أو إلقاء الهيبة له في القلوب.

خرج إبراهيم الخوَّاص لإنكار منكر، فنبح عليه كلبٌ فما قدر على الوصول إلى مكان المنكر، فرجع إلى مسجده وتفكر ساعة ثم قام فجعل الكلب يتبصبص حوله ولا يؤذيه

---

(١) فتح بن شخرف بن داود بن مزاحم أبو نصر الكشي له ترجمة في صفة الصفوة : ٢٢٧/٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق. وصحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ٥١. ومسند أحمد : ٢٠٥/٥، ٢٠٦.

حتى أزال المنكر، فسئل عما جرى له فقال: إنما نبَح عليَّ لفسادٍ دخل عليَّ في عقْد بيني وبين اللَّه ﷻ فلما رجعت ذكرتُه فاستغفرت.

* * *

الكلام على البسملة

يُسَرُّ بصَفْو عيشته الجهولُ ... وتُعجبه الإقامةُ والحلولُ
ودُون مُقامه حادٍ حثيثٌ ... عنيفُ السَّوق والموتُ السبيلُ
سبيلٌ ما توجَّه فيه سفْرٌ ... فكان لهمْ إلى الدنيا قُفولُ
طريق يستوي للخَلْق فيه ... مسالكهم ويخْتلف المقيل
تغرُّهم رخارفُ دارِ دنيا ... غوائلها بمَعمَعهم تَعول (١)
تطوف عليهمُ بكؤوس لهْوٍ ... ومَزْجُ كؤوسها الداءُ الدخيلُ
وتصْقل وجهَها لهمُ خِداعًا ... وتحت صقالها السيفُ الصَّقيلُ

* * *

يا هذا قد صانك بالحلال فلا تبتذل، وبالقناعة فلا تذلّ، وطهّرك من الأدناس فلا تتوسخ، ودعاك إلى الأرباح فلا تتوقف، ويحك إذا خدَمْت الدنيا رأت نفسَها فتدلَّلت، وإذا أعرضْتَ عنها عرفْت قَدْرها فتذللت، « اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك » يا جامع الدنيا لغيره جَمْعًا يعوقه عن سيره.

ماذا تؤمِّل لا أبا لك في ... مالٍ تموت وأنت تُمسكهُ
أنْفق فإن اللَّه يُخلفه ... لا تمضِ مذمومًا وتتركهُ
ما لم يكن لك فيه قط منفعةٌ ... مما جمعتَ فلستَ تملكهُ

* * *

يا هذا: إنما فضِّل العاقل لنظره في العواقب، فأما من لا يرى إلا الحاضر فطفل:

تَصْفو الحياةُ لجاهل أو غافل ... عما مضى منها وما يُتوقَّعُ
ولمن يغالط في الحقيقة نفسه ... ويسومها طمَع المُحَال فتتبعُ (٢)

---

(١) المعمع: الحرب. وتعول: تغلب، أي أن غوائل الدنيا وآفاتها تزيد على أهوال الحروب.

(٢) البيتان لأبي الطيب المتنبي. ديوانه: ص ٤٢٠، ط صادر.

قد أعد لك كأسًا لا يشبه الكئوس، موتٌ يسلب الأرواح ويختلس النفوس، ورحلة لا تدري بالسُّعود أو بالنحوس، إلى لحد ضيق وعْر ما مهَّدته الفؤوس، تُحطُّ فيه ذليلًا وأنت محبوس منكوس، لا يُشبه المطامير (١) ولا يُجانس الحبُوس، المدَر فيه فراشٌ والتراب فيه لُبوس، أترى يكون لك روضةً أو يُشبه الناموس (٢)، كم مِحْنة يَلْقى ذلك الـمُلْقى المرْموس (٣)، رفقًا إذا وطئت الأحداثُ فالأجداثَ تدوس، ثم يُنفخ في الصور فتطير إلى الأكف الطُّروس، وتُجنى ثمار الجزاء يومئذ من قديم الغُروس، وتشتد الشدائد في قَمْطرير عَبُوس، وتذل العتاةُ الجبابرة المتغطرسون الشُّوس، ويتساوى في الخضوع الأتباعُ والرءوس، وتُقسم بين الخلائق خِلع السُّعود وملابس النُّحوس. واعجبًا لجُمود ذهنك وأنت في الإعراض تنوسُ (٤)، كم بهرج ورمَل (٥) وكم تُجلى عليك عروس، أهذا الذي تسمعه كلامُ الخالق أو صوت الناقوس، يا مُؤثرًا شهوةَ لحظةٍ تجنى له حَرْبَ البَسوسُ، يا من قد غلب الأطباء دواؤه أمريض أنت أم ممْسوس، تُعنى بعلاجك « بقراط » وتحير « جالينوس » سبحان من خلق قلبك من حجارة، تعالى الملكُ القدُّوس، واعجبًا لعقلك! العرْض مبْذول والعرَض محروس، جُلُّ همك مع الدنيا وحظ الأخرى منك مبْخوس، ثوبُك جديد صحيح ولكن القلب منكوس، وبلوغ الخمسين مُنذر وفي الستين تَضرب الكؤوس، هذا قدر النصائح أفآخذك بالدبُّوس.

أنـت فـي دنـيـاك ضـيْـفُ … والـتَّـواني مـنـك حـيْـفُ
مـرّ بـالـقـرِّ شـتـاءٌ … وأتـى بـالـحـرِّ صـيْـفُ
خـاسـرٌ مَـنْ نَـقْـدُه جـيـ … ـن تـقـوم الـسُّـوق زيْـفُ
فـاغـتـنـم أجـرًا وذِكْـرًا … حسنًا فـالـوقـتُ سـيـفُ

صِحْ على فَرس الجِد وقُدْ فرسَ الغاية، مجالس الذكر فصول وتعبئة المواعظ شربات (٦)، فاصبر على مرارة المركب لعل الأخلاق تحسن.

واعجبًا تفيق في المجلس فتنطق بلفظ توبة، كما يفيق المجنون فيتكلم بكلمة حكمة، فإذا عادت السوداء خلَّط!

أيـفـيـق مـن مـرضٍ كـثـيـبٌ … إذا جـنَّ الـظـلام عـلـيـه أنّـا

---

(١) المطامير: الحفائر تحت الأرض.

(٢) الأصل: الناووس. والناموس: الشرك - بفتح الراء - وهو الحفرة تحفر ليقع فيها الصيد، وهو أيضًا: عريسة الأسد.

(٣) المرموس: الذي ألقى في رمسه.

(٤) تنوس: تتردد وتتذبذب.

(٥) والرمل: الهرولة.

(٦) كذا بالأصل ولعل المراد تشبيه المواعظ بالدواء الذي يشرب.

متى كان مرض الجسد عن أخلاط مجتمعة سَهُلت مداواته، ومتى كان مرض الجسد التغير عن فساد في القلب فيا قُرْب التلف، مداواة العشَى ممكن، وأما مداواة الجنون فيتعذر.

جَعَلتْ لعِرّاف اليمامة حُكمه ... وعرّاف نجْد إن هما شفياني

فقالا: شفاك اللَّهُ واللَّهِ ما لنا ... بما ضمِّنت منك الضلوعُ يدانَ (١)

حظُّ قلبك من هذا الكلام حظُّ الصَّدى من سَمْعك، علَّتك علَّةٌ طريفة يتحيَّر في مثلها المداوي، تسرع في طلب الدنيا إسراع جَواد وأنت في طلب الآخرة جبان. إن لاح لك ذنبٌ وثْبتَ وثب فهْد، وإن حُرِّضت على طاعة أخذك فالجُ ابن أبي دؤاد (٢).

خُذ الوقتَ أخْذَ اللص واسرقه واختلس ... فوائده قبل المنايا الدوائب

ولا تتعلَّل بالأماني فإنها ... عطايا أحاديثِ النفوسِ الكواذبِ

ودونك وِردُ العمر ما دام صافيًا ... فخُذ وتزودْ منه قبل الشوائب

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ... ﴾ (٣)

في هذه النفخة قولان: أحدهما: أنها الأولى، **والثاني**: أنها الثانية. والقولان عن ابن عبَّاس.

وأما الصُّور فروى عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أنه سأل النبي ﷺ عن الصور فقال: « هو قرْنٌ ينفخ فيه » (٤).

وقال مجاهد: الصور كهيئة البُوق. وحكى ابن قتيبة أن الصور القرْن في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشدوا:

نحن نَطحناهم غداة الجمْعينِ
بالصائحات في غُبار النَّقْعينِ
نطحًا شديًا لا كنطح الصُّورينِ

---

(١) البيتان لعروة بن حزام، وانظر ذم الهوى لابن الجوزي باب ذكر المشتهرين بالعشق.

(٢) لعله يريد أبا عبد اللَّه أحمد بن أبي دؤاد وزير المأمون والمعتصم.

(٣) سورة المؤمنون: ١٠١.

(٤) رواه الترمذي في سُننه، برقم: ٢٤٣٠. وأبو داود في سُننه، برقم: ٤٧٤٢. وأحمد في مُسْنَده، برقم: ٦٤٧١. وهو صحيح.

أخبرنا أبو منصور بن محمد بن عبد الملك بن خيرون بسنده عن أبي هريرة قال: حدَّثنا رسول اللَّه ﷺ في طائفة من أصحابه فقال: « إن اللَّه تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصٌ ببصره إلى الأرض ينظر متى يُؤمر ». قلتُ: يا رسول اللَّه وما الصُّور؟ قال: « القَرْنُ ». قال: قلتُ: فكيف هو؟ قال: « عظيم والذي بعثني بالحق إن أعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الفزع. والثانية نفخة الصعق. والثالثة نفخة القيام لربِّ العالمين ﷻ، فيأمر اللَّه ﷻ إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخْ نفخةَ الفزع. فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء اللَّه، فيأمره فيمدُّها ويطيلها فلا يَفْتر وهي التي يقول اللَّه ﷻ: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ (١) فيسيِّر اللَّه تعالى الجبال فتمرُّ مرَّ السحاب فتكون سرابًا، فترتجُّ الأرض بأهلها رجًّا فتكون كالسفينة الموقَرة في البحر تضربها الأمواج تُكفأ بأهلها، أو كالقنديل المعلق بالعرش ترجّه الأرياح، وهي التي يقول اللَّه ﷻ: ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾ (٢) فتميد الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضعُ وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولِّي الناسُ مُدْبرين ما لهم من اللَّه من عاصم ينادي بعضهم بعضًا، وهو الذي يقول اللَّه ﷻ: ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ (٣) فبينا هم على ذلك تصدعت الأرضُ فانصدعت من قُطْر إلى قطر، فرأوا أمرًا عظيمًا لم يروا مثله وأخذهم من ذلك الكرب والهول ما اللَّه به عليم، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمُهل، ثم انشقت فانتثرت نجومُها وانخسفت شمسُها وقمرها.

قال رسول اللَّه ﷺ: « والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك ».

قال أبو هريرة: يا رسول اللَّه فمن استثنى اللَّه تعالى حين قال: ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ (٤) قال: « أولئك الشهداء وقاهم اللَّه فزع ذلك اليوم وأمّنهم منه، وهو عذاب يبعثه اللَّه على شرار خلقه يقول اللَّه ﷻ: ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ (٥).

---

(١) سورة ص: ١٥. (٢) سورة النازعات: ٦ - ٨.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ [سورة غافر: ٣٢].

(٤) سورة النمل: ٨٧. (٥) سورة الحج: ١، ٢.

فيمكثون في ذلك البلاء ما شاء اللَّه إلا أنه يطول عليهم، ثم يأمر اللَّه ﷻ إسرافيل فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهلُ السموات والأرض إلا من شاء اللَّه، فإذا اجتمعوا جاء ملك الموت إلى الجبَّار فيقول: قد مات أهل السمواتِ والأرض إلا من شئت. فيقول اللَّه ﷻ وهو أعلم: مَن بقي؟ فيقول: أي ربِّ بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حَمَلَة عرْشِك، وبقي جبريل وميكائيل. فيقول: إني كتبت الموتَ على من تحت عرشي، فيموتون، ثم يأتي ملك الموت فيقول: قد مات جبريل وميكائيل فيقول وهو أعلم: مَن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقيت حَمَلَة العرش وبقيت أنا فيقول اللَّه ﷻ: فليمت حَمَلةُ العرش. فيموتون ويأمر اللَّه تعالى العرش فيقبض القرْن من إسرافيل، ثم يقول: ليمت إسرافيل فيموت. ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك فيقول اللَّه ﷻ وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحيّ الذي لا تموت وبقيت أنا. فيقول اللَّه ﷻ: أنت خَلْق مِن خلقي خلقتك لما رأيت فمِتْ. فيموت.

وفي رواية ابن أبي الدنيا: مت ثم لا تحيا.

فإذا لم يبقَ إلا اللَّه ﷻ طوى السماء والأرض كطيِّ السجل للكتاب ثم دحاها ثم قال: أنا الجبار لـمن المُلك اليوم - ثلاث مرات - فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه فيقول: لنفسه: للَّه الواحد القهار. ثم يبسط الأرض بسطًا يمدُّها مدَّ الأديم لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا، ثم يزجر اللَّه الخلقَ زَجرةً واحدةً فإذا هم بالساهرة على ظهرها، ثم ينزل اللَّه تعالى ماءً من تحت العرش؛ كمني الرجال، ثم يأمر السماء أن تمطر فتمطر أربعين يومًا حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعًا، ثم يأمر اللَّه ﷻ الأجساد أن تنبت كنبات الطراثيث أو كنبات البَقْل، حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال اللَّه ﷻ: ليحيا حَمَلة العرش. فيحيون، فيأمر اللَّه إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يقول اللَّه ﷻ: ليحيا جبريلُ وميكائيل. فيحييان، ثم يدعو اللَّه ﷻ الأرواح فيؤتى بها تتوهَّج أرواح المسلمين نورًا والأخرى ظُلمة، فيقبضها جميعًا ثم يلقيها في الصُّور، ثم يأمر إسرافيل أن ينفخ نفخة البعْث، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول اللَّه ﷻ: وعزتي وجلالي لترجعن كلُّ روح إلى جسدها. فتدخل الأرواح في الخياشيم ثم تمشي في الأجساد مشي السُّم في اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعًا. فأنا أوَّلُ من تنشق عنه الأرض فيخرجون منها سراعًا مُهطعين إلى الداعي حُفَاة عُرَاة غُرلًا، ثم تقفون مقدار سبعين عامًا لا يُنظر إليكم ولا يقضى بينكم، فتبكون حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دمًا، وتعرقون حتى يبلغ ذلك منكم أن يُلجمكم أو يبلغ الأذقان، فتصيحون وتقولون: مَن يشفع لنا إلى ربنا ﷻ فيقضي بيننا. فتقولون: مَن أحقُّ بذلك مِن أبيكم آدم ﵇،

خلقه اللَّه بيده ونفخ فيه من روحه وكلَّمه قُبلا، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه فيأبى ويقول: ما أنا بصاحب ذلك فيَسْتقرون الأنبياء نبيًّا نبيًّا كلما جاءوا نبيًّا أبى عليهم.

قال رسول اللَّه ﷺ: حتى يأتوني فأنطلقُ معهم حتى آتي قُدام العرش فأخرُّ ساجدًا حتى يبعث اللَّه تعالى ملكًا فيأخذ بعضُدي فيرفعني ويقول لي: يا محمد. فأقول: نعم يا رب فيقول: ما شأنك؟ وهو أعلم، فأقول: يا رب وعدتني الشفاعة. فشفِّعني في خلقك واقضِ بينهم. فيقول: قد شفَّعتك. فأرجع فأقف مع الناس، فبينا نحن وقوف إذ سمعنا حسًّا من السماء شديدًا فهالنا، فينزل أهلُ سماء الدنيا فيأخذون مصافَّهم، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلي مَن نزل مِن الملائكة ومثلي مَن فيها مِن الجن والإنس حتى يأخذوا مصافهم، حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظُللٍ مِن الغمام ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية وهم اليوم أربعة، أقدامُهم في تُخوم الأرض السفلى والأرضُ إلى حِجْرهم والعرشُ على مناكبهم لهم زجَل من تسبيحهم، يقولون: سبحان الذي لا يموت سبحان الذي يُميت الخلق ولا يموت، سُبُّوح قُدُّوس، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح. فيضع اللَّه كرسيه حيث شاء مِن أرضه ثم يقول: يا معشر الجنِّ والإنس إني قد أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمعُ قولكم وأنظرُ أعمالكم، فأنصِتوا، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه. ثم يأمر اللَّه جهنَّم فيخرج منها عُنق مظلم ثم يقول اللَّه ﷻ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١) فيميِّز اللَّه الناس وتجثو الأمَم، فيقضي بين خلقه إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضي اللَّه بين الوحش والبهائم، حتى إنه لَيُقِيد الجمَّاء من ذات القرن، فإذا لم تبق تبعة عند واحدة لأخرى، يقال لها: كوني تُرابًا فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٢).

فيقضي اللَّه بين العباد، فيكون أوَّلُ ما يُقضى فيه الدماء، فيأمر اللَّه كل من قُتل فيحمل رأسه تشْخب أوداجُه، فيقول: يا رب سَلْ هذا فيم قتلني؟ فلا تبقى نفسٌ قتلها قاتل إلا قُتل بها ولا مظْلمة ظُلم بها إلا أُخذ بها، وكان في مشيئة اللَّه ﷻ، إن شاء عذَّبه وإن شاء رحمه، ثم يقضي بين مَن بقي من خلقه حتى لا تبقى مَظْلمة لأحد عند أحد إلا أخذها المظلوم مِن الظالم حتى إنه ليكلِّف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلِّص اللبنَ

---

(١) سورة يس: ٥٩ - ٦٣.
(٢) سورة النبأ: ٤٠.

من الماء، فإذا فرغ من ذلك نادى منادٍ يُسمع الخلائق كلهم فيقول: ألا ليلحق كلُّ قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون اللَّه ﷻ، فلا يبقى أحد عَبَدَ شيئًا من دون اللَّه ﷻ إلا مثلت له الآلهة بين يديه، ويجعل اللَّه ﷻ يومئذ ملكًا من الملائكة على صورة عُزير، ويجعل ملكًا من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار، فإذا لم يبقَ إلا المؤمنون وفيهم المنافقون بدأهم اللَّه ﷻ فقال: يا أيها الناسُ ذهب الناسُ فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: ما لنا إله إلا اللَّه وما كنَّا نعبد غيره، فيكشف لهم عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم تعالى فيخرُّون سُجدًا على وجوههم ويخرُّ كلُّ منافقٍ على قفاه، فيجعل اللَّه أصلابهم كصياصي البقر، ويضرب اللَّه الصراط بين ظهراني جهنم كحدِّ السيف عليه كلاليب وخطاطيف وحَسَك كحسك السَّعدان [١]، فيمرُّون كطرف العين أو كلمح البصر أو كمرِّ الريح أو كأجاويد الخيل أو كجياد الرجال، فناجٍ مسلَّم، وناجٍ مخدوش، ومكدوش على وجهه في جنَّهم. قال رسول اللَّه ﷺ: « فآتي باب الجنة فأستفتح فيفتح لي فإذا دخلت فنظرت إلى ربي ﷻ خررتُ ساجدًا، فيأذن اللَّه لي من حمده وتحميده [٢] بشيء ما أذن لأحد مِن خلقه ثم يقول: « ارفعْ رأسَك يا محمد واشفعْ تشفَّع وسل تُعْطَ » فأقول: يا رب وعدتني الشفاعة فشفِّعني في أهل الجنة. فيقول: قد شفعتك وأذنت لهم في دخول الجنة. قال رسول اللَّه ﷺ: « والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم [ومساكنهم] [٣] فيدخل الرجل منهم على اثنين وسبعين زوجة، فيدخل على الأولى منهن في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلَّل باللؤلؤ عليها سبعون حُلَّة من سُندس وإستبرق، فبينا هو عندها لا يملُّها ولا تملُّه ما يأتيها من مَرَّة إلا وجدها عذراء. ثم يأتيهنَّ واحدة واحدة وكلما جاء واحدة قالت: واللَّه ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك وما في الجنة أحب إليَّ منك.

نهاية الطبعة الأولى الناقصة

وإذا وقع أهلُ النارِ في النار فمنهم من تأخذه إلى قدميه ومنهم من تأخذه إلى أنصاف [٤] ساقيه ومنهم إلى ركبتيه ومنهم إلى حَقْويه ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه. فأقول: يا رب في النار من أمتي. فيقول أخرجوا مِن النار مَن عرفني. ثم يأذن اللَّه ﷻ في الشفاعة فلا يبقى نبيٌّ ولا شهيد إلا شَفع، ثم يقول اللَّه ﷻ: أخرجوا من وجدتم في قلبه زِنَة الدينار

---

(١) الحسك: الشوك. والسعدان نبات شائك.

(٢) كذا في « ش ». وفي أ: فيأذن اللَّه بتحميده وتمجيده.

(٣) من « ش ».

(٤) أ: إلى نصف.

إيمانًا فيخرجون. ثم يقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه وزن ثلثي دينار إيمانًا، ونصف دينار إلى أن يقول: حَبة خردل حتى لا يبقى فيها من عَمِلَ للّه خيرًا، حتى إن إبليس ليتطاول مما يرى من رحمة اللّه ﷻ رجاءً أن يُشْفع له: فيأخذ اللّه ﷻ بيده فيُخرج من النار خلقًا لا يحصيه إلا اللّه كأنهم الحِمم (١) فينثرهم على نهر يقال له الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ويكتب في رقابهم: الجهنميون عتقاء اللّه ﷻ. فيمكثون في الجنة ما شاء اللّه كذلك ثم يقولون ربنا امحُ عنا هذا الكتاب فيمحى عنهم » (٢).

* * *

قوله ﷻ: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾:

في الكلام محذوف تقديره: لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها؛ لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ، إنما يُرْفع التواصل والتفاخر بها.

- **قوله: ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فيها ثلاثة أقوال:**

أحدها: لا يتساءلون بالأنساب أن يترك بعضُهم لبعض حقَّه.

والثاني: لا يسأل بعضهم بعضًا: من أي قبيل أنت؟ وقال ابن مسعود: يؤخذ العبد أو الأمَة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان فمن كان له حقّ فليأتِ إلى حقِّه. فتفرح المرأةُ أن يثبت لها حقٌّ إلى أبيها وأمها ثم قرأ ابنُ مسعود: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ قال الفرّاء: أراد بموازينه وزنه والعرب تقول هل لك في درهم بميزان درهمك ووزن درهمك؟ ويقولون (٣) داري بميزان دارك ووزن دارك. يريدون حذاء دارك.

قال الشاعر (٤):

قد كنتُ قبل لقاكمُ ذا مِرّة (٥)   عندي لكل مخاصم ميزانه

(١) ش: كأنهم الحميم. وفي صحيح البخاري كتاب الإيمان: « في جانب السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية » : ٧/١، ط الخيرية، وفي كتاب الرقاق من صحيح البخاري: « في حميل السيل أو قال: حمية السيل » : ١٣٨/٤، بحاشية السندي. وفي صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٣٠٢: « فينبتون نبات الحبة تكونُ في حميل السيل. فقال رجل من القوم: كأن رسول اللّه ﷺ قد كان بالبادية. والحبة بالكسر: بذور البقول والرياحين أو نبت في الحشيش صغير: وبالفتح: واحدة الحب.

(٢) هذا الحديث مكون من روايات مختلفة بعضها في الصحيح والأخرى عند الطبراني وغيره. انظر: الترغيب والترهيب: فصل في الشفاعة وغيرها : ٢١٦/٤ - ٢٢١.

(٣) أ: وتقول.   (٤) من « ش ».   (٥) المرة: القوة.

يعني مثل لفظه وكلامه.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي عبد الرحمن الحُبلي قال: سمعت عبد اللَّه ابن عمرو بن العاص يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينْشر عليه [١] تسعة وتسعين سجلًا، كلُّ سجلٍّ مد البصَر، ثم يقول له: أتنكرُ مِن هذا شيئًا؟ أظَلمك حَفظتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول ألك عذرٌ أو حسنة؟ فيُبهت الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة، ولا ظُلْم عليك اليوم. فتُخْرَج له بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول أحضروه. فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تُظْلم. فتوضع السجلات في كفَّة والبطاقة في كفَّة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» [٢].

وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة يقول له ربُّه تبارك وتعالى: زِنْهم ورُدَّ من بعضهم على بعض. فيُردُّ على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة، فإن لم يكن له حسنة أُخذ من سيئات المظلوم فتُردُّ على سيئات الظالم فيرجع وعليه مثل الجبل.

وروي أن داود ﵇ سأل ربَّه ﷻ أن يريه الميزان، فأراه إياه فقال: يا إلهي مَنْ يقدر أن يملأ كفَّته حسنات؟! فقال: يا داود إذا رضيتُ على عبدي ملأتها بتمرة.

أيُّ عملٍ لك يَصْلح أن يُحَصَّل في الميزان، أي فعلٍ لك إذا ظَهر زان، ستعلم من يفتضح إذا نُشر له الديوان، ستعرف خبرك إذا شهد الجِلْد والمكان بكل قبيح فُعِل وكان.

* * *

قوله تعالى:

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ... ﴿١٠٤﴾﴾

قال الزجاج: تَلْفح وتنْفح بمعنى واحد، إلا أن اللفح أعظم تأثيرًا [٣].

قال عبد اللَّه بن أبي الهذيل: لفحتهم لفحةً ما أبْقَتْ لحمًا على عظم إلا ألقته على أعقابهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

الكالح: الذي قد تشمَّرت شفته عن أسنانه نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وشُمِّرت الشفاه.

---

(١) في قرة العيون: فينشر له.

(٢) مسند أحمد: ٢١٣/٢.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري: ١٦١/٣، ط التجارية، القاهرة.

قال ابن مسعود: ككُلوح الرأس المشيط بالنار، وقد بدت أسنانهم وتقلَّصت شفاههم.

أخبرنا الكَرُوخيّ بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ قال: « تشويه النار فتتقلَّص شفتُه العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ [1] سُرَّته » [2].

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ يعني القرآن.

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا... ﴿١٠٦﴾ ﴾:

قرأ الجمهور بكسر الشين [3] وفتَحها أبو رجاء العُطَاردي في آخرين. وقرأ ابنُ مسعود: « شَقاوتنا » بفتح الشين. وكسَرها الحسنُ وقتادة. فأقرَّ القوم أن ما كتب عليهم من الشقاء منعهم الهدى.

* * *

هاهنا حارت العقول وانقطعت قُوَى القلوب، سبق الشقاء لأبي جهل والسعادة لعمر ﷺ قبل خلق الماء والطين.

يا ابن آدم أنت بين أخطار أربعة:

الخطر الأول: « هؤلاء في الجنة ولا أُبَالي وهؤلاء في النار ولا أبالي » وما تدري من أي الفريقين أنت.

والخطر الثاني: في بطن الأم « اكتب رزقه وأجَله وشقيًّا أو سعيدًا » هذان خطران قد مضَيا.

والخطر الثالث: عند الموت، هل تبشَّر بالجنة أو بالنار.

والخطر الرابع: يوم القيامة: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [4] ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [5] ولا تدري من أي الفريقين أنت.

إخواني: العمل على الاكتساب لا على سابق القَدر، فاعتبروا بمن غلبت عليه الشِّقوة واسألوا الله خاتمة الخير.

ففي الصحيحين من حديث رسول الله ﷺ من حديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ التَقَى هو والمشركون فاقتتلوا، فلمَّا مَالَ رسول الله ﷺ إلى عسكره ومَالَ الآخرون إلى

---

(١) أ: حتى تضرب. وما أثبته من « ش ».

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. الترغيب والترهيب : ٢٤٦/٤.

(٣) كذا في « ش » وفي أ: الجمهور على كسر الشين.

(٤) سورة الكهف: ٤٨. (٥) سورة الشورى: ٧.

عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذَّة [١] ولا فاذَّة إلا اتبعها فضربها بسيفه، فقالوا ما أَجْزأ أحدٌ منا اليوم كما أجْزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: « إنه من أهل النار » فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبه. فخرج معه فكلمَّا وقف وقف معه، وكلما أسرع أسرع معه. فجُرح الرجل جُرحًا شديدًا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه على الأرض وذُبَابه بين ثُدْيَيه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: أشهد أنك رسول الله. وقصَّ عليه القصة. فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » [٢].

أنبأنا محمد بن ناصر الحافظ بسنده عن هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: ذكروا أنه لما أسلم جَبَلة بن الأَيْهم الغَسَّاني وكان من الملوك، وذلك في خلافة عُمر بن الخطاب كَتَبَ إلى عُمر يُعلمه بإسلامه ويستأذنه في القدوم عليه. فسُرَّ عمر ﷺ بذلك وأذن له في القدوم، فخرج في مائتين وخمسين من أهل بيته، حتى إذا قاربَ المدينةَ عَمد إلى أصحابه فحملهم على الخيل وقلَّدها قلائدَ الفضة وألبسهم الديباج وسُرَق [٣] الحرير ولبس تاجه وفيه قُرط مارية جدته، وبلغَ عمرَ ﷺ فبعث إليه النُّزُلَ هنالك، ثم دخل المدينة في هيئته فلم تبقَ بكْرٌ ولا عانس إلا خرجت تنظر، فدخل على عمر فرحَّبَ به ثم أقامه أيامًا، وأراد عمرُ الحجَّ فخرج معه، فكان الناس يتعجبون من هيئته، فبينا هو يطوف بالبيت وطِئ رجل من بني فَزارة إزارَه من خلفه فانحلَّ فرفع يده فهشم أنف الفزاري، فمضى يَسْتعدي عليه عمر، فبعث إليه فأتى فقال: هشَمْت أنفَ الرجل؟ قال: نعم، اعتمد حَلَّ إزاري، ولولا حُرْمة الكعبة لضربته [٤] بالسيف بين عينيه. فقال عمر: أما أنت فقد أقررت فإما أن تُرضي الرجل وإلا أَقَدْتُه منك. قال: أوَ خِطْر هولي [٥]؟ قال: نعم. قال: كيف وأنا مَلِك وهو سُوقة؟! قال عمر ﷺ: الإسلامُ قد جَمعكما. قال: والله لقد ظننتُ أني أكون في الإسلام أعزَّ منِّي في الجاهلية. قال عمر: هو ما ترى. فقال: إذن أتنصَّر. قال: إن فعلت قتلتك. واجتمع من حيِّ الفَزاريّ وحي جَبلة على باب عمر خَلْقٌ كثير، فقال: أنا أنظر في هذا الأمر ليلتي هذه. فانصرف إلى منزله فلما ادلهمَّ الليلُ تحمَّل

---

(١) الشاذة والفاذة: المنفردة.

(٢) صحيح البُخَاري، كتاب الجهاد، باب رقم: ٧٧. وكتاب المغازي، باب رقم: ٣٨. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ١٧٩.

(٣) السرق: جمع سُرقة. وهي القطعة.

(٤) أ: لضربت.

(٥) ش: أو حضري هو مثلي. ولعله تحريف.

بأصحابه إلى الشام في خمسمائة حتى دخل القسطنطينية في زمن هرقل، فتنصَّر هو وقومه، فأقْطَعه هرقلُ ما شاء، وأجرى عليه ما شاء، وجعله من سُمَّاره، فمكث دهرًا ثم إن عمر كتب [١] إلى هرقل كتابًا وبعثه مع رجل من أصحابه فأجاب هرقلُ بما أراد عمر ﷺ ثم قال للرجل: هل لقيتَ ابن عمك جَبلة؟ قال لا. قال: فالْقه. قال: فأتيته فما أخالني رأيت بباب هرقل من البهجة والسرور ما رأيت بباب جَبَلة، فاستأذنت فأذِن لي وقام ورحَّب بي وعانقني وعاتبني على ترك النزول عليه، وإذا هو في بهو عظيم فيه من التماثيل والهول ما لا أُحْسن أصفه، وهو على سرير من ذهب أربعُ قوائمه أُسْدٌ من ذهب، وإذا هو رجل أصْهَب ذو سِبَال [٢]، وإذا هو قد أَمَرَ بالذهب الأحمر فسُحِق [٣] فذُرَّ في لحيته، ثم أجلسني على كرسي من ذهب، فلما تبينْتُه انحدرتُ عنه وقلت: إن رسول اللَّه ﷺ نهى عن هذا. وسألني عن الناس وألحف في السؤال عن عمر، ثم عرفت الحزن عليه، فقلت: ما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام؟ فقال: بَعْد الذي كان؟ قلت: نعم [قد كان] [٤] الأشعث بن قيس ارتدَّ وضرَبهم بالسيف [٥] ومنعهم الزكاة، ثم دخل في الإسلام وزوَّجه أبو بكر الصديق ﷺ. فقال: دَعْ هذا عنك. ثم أومأ إلى وصيف قائم على رأسه، فولَّى يُحْضر [٦] فما شعرنا إلا بالصناديق تحملها الرجال فوضعت أمامنا مائدة من ذهب فاستعفَيْتُ منها، فأمر بمائدة خَلَنج [٧] فوضعت أمامي وسُعِي علينا من كل حارٍّ وبارد في صِحاف من ذهب وفضة، ودارت علينا الخمر فاستعفيتُ منها ثم أتى بطَسْت من ذهب وإبريق من ذهب ثم أومأ إلى وصيف له فما كان إلا هُنَيّة حتى أقبل عَشْرُ جَوار فقعد خمس عن يمينه وخمس عن شماله على كراسي العاج، وإذا عشر جوارٍ أُخَر أحسن من الأُوَلِ، فقعد عن يمينه خمسٌ وعن يساره خمس، ثم أقبلت جارية بطائر أبيض وفي يدها اليمنى جامٌ [٨] من الذهب فيه مِسْك وعنبر سَحِيقان وفي يدها اليسرى جامٌ من فضة فيه ما لم أشَمَّ مثله، فنقَرت الطائر فوقع في الجام فتقلب فيه، ثم في الجام الآخر، ثم سقط على صليب في تاج جَبَلة، ثم حرك جناحيه فنثر ذلك على رأس جبلة ولحيته، ثم شرب جبلة خمرًا ثم استهلَّ فاستبشر ثم قال للجواري: أَطْربنني. فخفقن بعِيدَانِهن واندفعن يغنين:

---

(١) كذا في ش. وفي أ: ثم كتب عمر.

(٢) السبال: جمع سبلة وهي مجتمع الشاربين.

(٣) الأصل: سحك. محرفة. والسحق: الدق.

(٤) من « ش ».

(٥) ش: بالسيوف.

(٦) يحضر: يجري.

(٧) الخلنج: شجر معرب.

(٨) الجام: الكأس.

لِلَّه دَرُّ عِصابةٍ نادمتُهم ... يومًا بِجِلَّق في الزمان الأولِ
أولاد جَفْنة عند قبر أبيهم ... قبرِ ابن مارية الكريم المُفْضِلِ
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهمْ ... شمُّ الأُنوفِ من الطِّراز الأولِ
يُغْشَون حتى ما تهرّ (١) كِلابُهمْ ... لا يَسْألون عن السَّواد المُقْبلِ

فطرب ثم قال: هل تعرف هذا الشعر؟ قلت: لا قال: قاله حسان بن ثابت فينا وفي مُلْكنا، قلت: نعم. أمَا إنه ضرير كبير. ثم قال: أطْرِبْنني فغنَّين فقلن:

لِمَن الدارُ أقْفرتْ بمعان ... بين فرع اليرموك والصَّمَّانِ (٢)
ذاك مَغنًى لآل جَفْنة في الدهـ ... ـر مَحاه تعاقب الأزمانِ

فقال أتعرف قائِل هذه؟ ذاك حسان. ثم سكت طويلًا ثم قال: بَكِّينني فوضعن عيدانهن ونكَّسْن رؤوسهن وقلن:

تنصَّرت الأشرافُ من عار لَطمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَر
تكنَّفني (٣) فيها لجَاجٌ ونَخْوةٌ ... وبعْت لها العَين الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيا ليت أمي لم تلِدْني وليتني ... رجعتُ إلى القول الذي قاله عُمَرْ
ويا ليتني أرْعَى المخاض بقَفْرةٍ (٤) ... وكنت أسيرًا في ربيعة أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشام أدْنى معيشةٍ ... أُجالس قومي ذاهبَ السمع والبصَرْ
أدِينُ بما دانوا به من شريعةٍ ... وقد يصْبر العَوْد (٥) الكبير على الضَّرر

فانصرف الجواري ووضع يده على وجهه يبكي حتى نظرت إلى دموعه تجول كأنها اللؤلؤ وبكيت معه، ثم نشف دموعه بكمِّه ومسح وجهه ثم قال: يا جارية هاتي. فأتته بخمسمائة دينار هرقلية فقال: ادفع هذه لحسان بن ثابت وأقرئه مني السلام. ثم قال: هات فأتته بمثلها. فقال: خذها صلة لك فأبيتُ وقلتُ: لا أقبل صلة رجل ارتدَّ عن الإسلام. فقال: اقرأ على عمر والمسلمين السلام. فجئتُ إلى عمر فأخبرته فقال: ورأيته يشرب الخمر؟ قلتُ: نعم. قال: أبعده اللَّه! تعجل فانيةً بباقٍ.

وروى عبد اللَّه بن مَسْعدة الفزاري قال: وجَّهني معاوية إلى ملك الروم فدخلت عليه فإذا عنده رجل على سرير من ذهب دون مجلس الملك، فكلَّمني فقلت: من أنت يا عبد اللَّه؟

(١) أ: حتى لا تهر.
(٢) في أ: والضمان وفي « ش » والمضمان. وما أثبته من معجم ما استعجم للبكري: ١١٠٩.
(٣) في « ش »: تداخلني. (٤) ش: ببلدة. (٥) العود: المسن من الإبل.

فقال: أنا رجل غلب عليَّ الشقاء أنا جَبلة بن الأيْهم، إذا صرتُ إلى منزلي فالقني. فأتيته فقال: أترى صاحبك يفي إن خرجتُ إليه؟ قلت: قل ما شئتَ أعرضه عليه. قال: يعطيني البَثنِيّة [١] فإنها كانت منازلنا وعشرين قرية من الغُوطة ويَفْرض لجماعتنا ويُحْسن جوائزنا. قلت: أُبْلغه. فلما قدمتُ على معاوية قال: وددتُ أنك أجبته إلى ما سأل فأجيزه له. وكتب إليه معاوية يعطيه ذلك، فوجده قد مات.

أخبرنا المبارك بن علي الصَّيْرفي بسنده عن إسماعيل بن أبي حكيم قال: بعثني عمر ابن عبد العزيز حين وَلِي في القُرَى فبينما أنا أجُول في القسطنطينية إذ سمعت صوتًا يغني ويقول:

أرِقْت وغابَ عنِّي من يلومُ ... ولكن لم أنَمْ أنا والهمومُ
كأنِّي من تذكُّر ما ألاقِي ... إذا ما أظلم الليلُ البهيمُ
سليمٌ مَلَّ منه أقْربُوه ... وودَّعه المداوي والحميمُ
وكم مِنْ بَحْرة بين المنَقَّى ... إلى أُحد إلى ما جاز ريمُ [٢]
إلى الجمَّاء من خدٍّ أسيلٍ ... نقيّ اللون ليس به كلومُ
يضيء ليَ الظلام إذا ابتداه ... كضوء الفجر منزله وَسِيمُ
فلمَّا أنْ دنا منا ارتحالُ ... وقرِّب ناجيات السير كُومُ [٣]
نهضن مودعاتٍ والمطايا ... على أكوارها خُوصٌ هَجُومُ [٤]
فقائلةٍ ومثبتة [٥] علينا ... تقول وما لها فينا حَميمُ
وأخرى لبُّها معنا ولكنْ ... تُسَيَّر وهي واجمة كَظُومُ
تَعُدّ لنا الليالي تحتصيها ... متى هو حائنٌ منّا قُدومُ
متى ترَ غفلةَ الواشين عنا ... يخدُّ بدمعها الغيثُ السَّجوم [٦]

قال الزبير: والشعر لنفيلة الأشجعي. قال إسماعيل بن أبي حكيم: فسألته من أنت؟

---

(١) البثنية: من كور دمشق. معجم ما استعجم للبكري : ص ٢٢٦.

(٢) البحرة: البلدة والمنخفض من الأرض. وريم: واد لمزينة قرب المدينة. والبيت في مجالس ثعلب : ص ٢٥: وكائن بالبلاط إلى المصلي.

(٣) الكوم: جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنام. (٤) الخوص: الإبل الغائرة العيون.

(٥) أ: مفتية. محرفة . ولعلها: ومثنية علينا.

(٦) كذا في « ش ». وفي أ: يخد بدمعها الخد السحوم. محرفة.

فقال: أنا الوابصي الذي أُخذتُ فعذِّبت فجزعْت فدخلت في دينهم. فقلتُ: إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعثني في الفداء وأنت والله أحبُّ من افتديته [١] إليّ إن لم تكن بَطَنْتَ في الكفر. قال: قد والله بطنتُ في الكفر. فقلت له: أنشدك الله أَسْلِمْ. فقال: أَسْلم وهذان ابْناي وقد تزوَّجتُ امرأةً وهذان ابناها، فإذا [٢] دخلت المدينة قال أحدهم: يا نصراني. وقيل لولدي ولأمهم كذلك، لا والله لا أفعل. فقلت: قد كنتَ قارئًا للقرآن فقال: إي والله قد كنت مِنْ أَقْرأ القرَّاء للقرآن فقلت: ما بقي معك من القرآن؟ قال: لا شيء إلا هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [٣].

قال منصور بن خلف المغربي: كان رجلان قد اصطحبا في الإرادة مُدَّة، ثم سافر أحدهما فخرج الآخر في غَزاة ووقف في الصفِّ يُقَاتِل، وإذا برجل قد خرج من الروم فاستدعى البِرَاز فخرج إليه مُسْلمٌ فقتله، فخرج آخر فقتله، فخرج هذا الرجل إليه فتطاردا فحسَر الروميُّ عن وجهه فإذا هو [٤] رفيقه الذي كان يصاحبه فقال له: ما الخبر؟ فقال: إني خالطتُ هؤلاء القوم فدخلت في دينهم، ولي منهم أولاد وقد اجتمع معي مال. فقال له: بعد قراءة القرآن فعلت هذا؟ قال: ما أحفظ منه حرفًا. فقال: ارجعْ ولا تفعلْ. قال: ما أفعل فلي فيهم جاهٌ ومال، فانصرفْ أنت وإلا قتلتك كما قتلتُ أصحابك. فقال له: قد قتلت ثلاثة من المسلمين ولا عار عليك إذا انصرفت فانصرفْ ودعني أنا أقاتل غيرك. فرجع الروميُّ مولِّيًا فتبعه المسلم فطعنه فمات وهو على النصرانية.

* * *

قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا... ﴿١٠٧﴾ ﴾

أي من هذه النار ﴿ فَإِنْ عُدْنَا... ﴿١٠٧﴾ ﴾ إلى المعاصي والكفر ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا... ﴿١٠٨﴾ ﴾:

أي تباعدوا تباعد سُخْط. قال عبد الله بن عمرو: إن أهل جهنم يَدْعون مالكًا أربعين عامًا فلا يجيبهم ثم يقول: ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [٥] ثم ينادون ربهم: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ فيدعهم مثل عمر الدنيا ثم يرد عليهم: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فما يَنْبسُ القوم بعد ذلك بكلمة [إن كان] [٦] إلا الزفير والشهيق.

---

(١) أ: أفديه. (٢) ش: وإذا. (٣) سورة الحجر: ٢.
(٤) أ: فإذا به. (٥) سورة الزخرف: ٧٧. (٦) من « ش ».

أخبرنا عبد الخالق [ابن عبد الصمد] بسنده عن أبي الدرداء ﷺ قال: يُلْقى على أهل النار الجوع فيَعْدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بالضَّريع لا يُسمن ولا يغني من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصَّة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغُصَّة بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم، يُناوَلونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوههم، فإذا دخل في بطونهم قطع أمعاءهم (١)، فيطلبون إلى خَزَنة جهنم أن ادعوا ربَّكم يخفِّف عنَّا يومًا من العذاب فيجيبونهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ (٢) فيقولون: سَلُوا مالكًا فيقولون: يا مالك ليقضِ علينا ربك. فيقول: ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ فيقولون: لا أحد خير لكم من ربِّكم فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ ﴾ فيقول ﷻ: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فعند ذلك ييأسون من كلِّ خير ويأخذون في الشهيق والويل والثبور.

وهذا الحديث قد رواه الترمذي مرفوعًا (٣) والموقوف أصحّ واللّه أعلم.

[سجع على] قوله تعالى: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾:

يبكي أهل النار فلا يُرحمون، ويستغيثون ولا يغاثون، وآخر ما به يجابون ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

قلِّبوا في العذاب في فنون، فالضريع يأكلون والحميم يتجرَّعون، والذي خيب الظنون ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

من لهم بقطرة ماء يشربون، من لهم براحة لحظة (٤) يُتركون، من لهم برقدة ما يرقدون، أسفًا لهم يتمنون المنون ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

يقلَّبون في العذاب فلا يستريحون، ويمرُّ الزمان وما يُرحمون، وأشدُّ ما به يعذبون ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

حركات عذابهم ما لها سكون، غَضِبَ عليهم مَنْ يقول للشيء كن فيكون، فإلى مَنْ بعد الرحيم يشكون ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

ما أقبح ما كانوا يعتذرون، يختارون الضلالَ وهم مهتدون، وكلُّ عذابٍ عذِّبوا به (٥) دون ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

---

(١) في أ: قطع ما في بطونهم.
(٢) سورة غافر: ٥٠.
(٣) سنن الترمذي، كتاب جهنم، باب رقم: ٥.
(٤) « ش »: من لهم بلحظة.
(٥) أ: عذبوه.

غُلَّت الأيدي إلى الأعناق، والنار شِعَار والنار نِطاق، لقد حُمِّلوا ما لا يطاق، وكذا المغضوب عليه يكون ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

لازمهم التعذيب وألحّ، فاستحال الوجهُ الصحيح وامَّحَّ [1]، فلو أن رجاء القوم صحّ كان الأمر يَهُون ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

لو رأيتهم في الأغلال والقيود بعد القصور وتلك المهود، ومستغيثهم يقول لا أعود [2]، وجوابه قد أسْخَن العيون ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

لو كانت أوقات تعذيبهم ممتدةً إلى مقدار معلوم ومُدَّة، لكانت تلك العظائم والشدة لِما يرجونه تهون ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

هيهات لا انقطاع لعذابهم ولا جُبْران لمصابهم، وأَفْظع المسموعُ من جوابهم اليأس مما يأملون ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

تُسَعَّر عليهم جهنَّم وزمانهم كلُّه قد أظْلم، ومُنَاهم في رحمة مَنْ يرحم فاحذروا أنتم إن كنتم تفهمون ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

* * *
* *
*

(١) امحَّ: محي جماله.

(٢) أ: ما أعود.

المجلس العاشر

في ذكر التوبة

الحمد للَّه الذي لم يزل موجودًا قديمًا، عليًّا كبيرًا عظيمًا خبيرًا بالبواطن عليمًا، هدَى إليه صراطًا مستقيمًا، وعافى بالعفو من كان بالذنب سقيمًا، وضَمِن غَفْر الصغائر لمن ترك الكبائر تكريمًا ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [١] أحمده إذ وهب [٢] إنعامًا جسيمًا، وأقرُّ بوحدانيته إجلالًا عن النِّدِّ وتعظيمًا، وأصلِّي على رسوله محمد قدَّمه على الكلِّ تقديمًا، وعلى أبي بكر صاحبه ظاعنًا ومُقيمًا، وعلى عمر الذي قوَّم السياسة بِعدْله تقويمًا، وعلى عثمان الذي أمسى لغرام البلاء غريمًا وعلى عليٍّ الذي قسم بين محبِّيه ومُبْغضيه جنةً وجحيمًا، وعلى عمِّه العباس وأكرمْ بالعباس حميمًا.

– قد أمرنا اللَّه ﷻ بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] وقال: ﴿ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [٤].

وأمر اللَّه نبيه ﷺ بذلك فقال: « يا أيها الناس توبوا إلى ربِّكم فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة » [٥].

والإجماع منعقدٌ على وجوب التوبة على العاصي، والآدمي لا ينفكُّ عن ذَنْب.

والذنب على ضربين، كبائر [٦] **وصغائر واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر** وفيها أحاديث كثيرة، إلا أن الصِّحاح خمسة أحاديث.

روى عبد الأوَّل بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « اجتنبوا السَّبْع الموبقات » فقالوا: يا رسول اللَّه: وما هنَّ؟ قال: « الشِّركُ باللَّه والسِّحرُ وقتلُ النفس التي حرَّم [٧] اللَّه إلا بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مال اليتيم والتولِّي يوم الزَّحْف، وقَذْفُ المحصنات الغافلات المؤمنات » [٨].

---

(١) سورة النساء: ٣١.
(٢) أ: أحمده على ما وهب.
(٣) سورة النور: ٣١.
(٤) سورة التحريم: ٨.
(٥) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الدعوات، باب رقم : ٣.
(٦) أ: فكبائر.
(٧) أ: حرمها.
(٨) صحيح البُخَارِي : ١٨٥/٤. بحاشية السندي.

قال البخاري: وحدثنا عمر بن علي بسنده عن أبي ميْسرة عن عبد اللَّه قال: قلت يا رسول اللَّه، أيُّ الذنب أعظم [عند اللَّه] [١]؟ قال: « أن تَـجْعل للَّه نِدًّا وقد خَلَقك ». قلتُ: ثم أيّ؟ قال: « أن تقتل ولدك من أجل أن يَطْعم معك ». قلتُ: ثم أيّ؟ قال: « أن تزانِي حليلة جارك » [٢].

قال البخاري: حدثنا محمد بن الوليد بسنده عن أنس بن مالك قال: ذكر رسول اللَّه ﷺ الكبائر أو سُئل عنها [٣] فقال: « الشركُ باللَّه، وقتلُ النفس، وعقوقُ الوالدين »، وقال: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قولُ الزُّور [أو قال شهادة الزور] » [٤].

قال البخاري: وحدثنا محمد بن مُقَاتِل بسنده عن عبد اللَّه بن عَمْرو عن النبي ﷺ أنه قال: « الكبائر: الإشراكُ باللَّه وعقوقُ الوالدين واليمينُ الغَموس ».

وقد روى أبو بَكْرة عن النبي ﷺ نحو هذا، إلَّا أنه لم يذكر فيه قتلَ النفس.

وهذه الأحاديث الخمسة في الصحيحين.

وهذه المذكورات لا تدلُّ على حَصْر الكبائر كلِّها، ولعلَّ الشرع قصد الإبهام ليكون الناسُ على وَجَل من الذنوب.

واعلم أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يَمنع معرفة اللَّه تعالى ومعرفة الرسول ﷺ وهو الكفر، ولا حجاب أكْثَفُ من الجهل باللَّه تعالى، ويتلو الجهلَ به الأمْنُ مِنْ مكْره والقنوطُ من رحمته. ويتلو ذلك البدعُ المتعلِّقة بذات اللَّه ﷻ وصفاته.

المرتبة الثانية: قتلُ النفس، ويتلوه قَطْع الأطراف وما يُفضي إلى الهلاك ويقع في هذه المرتبة [الزنا واللواط، فالزنا سبب لاختلاط الأنساب، واللواط سبب لعدم النسل] [٥].

المرتبة الثالثة: الأموال وأخذها بالغَصْب والسرقة وأخذ مال اليتيم والرّبا ويتلوها شهادة الزور وجَحْد الودائع فهذه كلُّها مُحرَّمة وعليها وعيد.

فالمرتبة الأولى وهي الكفر تصدُّ [٦] عن المقصود، والثانية والثالثة تصدُّ [٧] عن وسيلة المقصود. فيدخل في كلِّ رُتبة من المحرمات ما يليق بها:

(١) من « ش ».
(٢) صحيح البخاري : ١٧٦/٤. بحاشية السندي.
(٣) صحيح البخاري : ٤٨/٤. « أو سئل عن الكبائر ».
(٤) صحيح البخاري : ٤٨/٤. بحاشية السندي.
(٥) سقطت من « أ ».
(٦) أ: تصدم.
(٧) الأصل: تصدم.

وقد تَعْظم الصغائر بأسباب:

- **منها:** الإصْرار. وفي حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار » (١).

ومنها: استصغار الذنب. وفي الصحيحين أن ابن مسعود قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنَّه في أصْل جبلٍ (٢) يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذُنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار (٣).

وفي أفراد البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: « إنكم لتَعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم من الموبقات » (٤).

وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة وانظر مَنْ عصَيْتَ؟!

ومنها: الفرح بالصغيرة والتبجُّح بها، وربما قال المغتاب: رأيتموني كيف مزَّقت عِرض فلان؟

ومنها: أن يتهاون بستْر اللَّه وحِلْمه عنه.

ومنها: أن يذكر الذنبَ للناس وفي ذلك جناية على ستر اللَّه تعالى.

ومنها: أن يكون عالـمًا فيُقْتَدَى به في مثل لُبْس الحرير.

واعلم أن التوبة نَدمٌ يورث قَصْدًا وعَزْمًا.

وعلامة الندم: طولُ الحزن على ما فات، وعلامة العزم والقصد لتدارك لما فات وإصلاح ما يأتي، فإن كان الماضي تفريطًا في عبادة قضاها، أو مَظْلمة أدّاها، أو خطيئة لا توجب غرامة حَزِن إذْ تعاطاها.

ومن علامة التائب: أن يَغْضب على نفسه، كما غضب ماعزٌ والغامِديّة فأسْلَماها إلى الهلاك (٥). وهذا ذكرناه مثالًا وإن كنا لا نرى للعاصي إلَّا أن يَسْتر نَفْسه.

ومنها: أن تضيق الأرضُ عليه كما ضاقت على كعب بن مالك وصاحبَيْه، فيستولي عليه الحزن والبكاء، فيشغله عن اللَّهو والضحك، ومتى قصَّر في قضاء دَيْن أورَد مَظْلمة دلَّ على ضعف التوبة.

ومما أُمر به العازم على التوبة الصلاة. أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: حدثنا أبو علي التميمي بسنده عن علي، قال: حدثنا أبو بكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « ما مِن رجل يُذْنبُ ذَنبًا

---

(١) رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس بسند ضعيف، كشف الخفا : ٣٦٤/٢.

(٢) ش: كأنها جبل.

(٣) صحيح البُخَارِي، كتاب الدعوات، باب رقم : ٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٣٢.

(٥) أ: للَّهلاك.

فيتوضأ فيُحْسن الوضوء ثم يُصلِّي ركعتين، ويستغفر اللَّه تعالى إلَّا غفر اللَّه له » (١).

وقال ابن مسعود: إني لأعلم آيتين في كتاب اللَّه ﷻ لا يقرأهما عبدٌ عند ذنب يُصيبه ثم يستغفر اللَّه منه إلَّا غفر له، قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ... ﴾ (٢)، الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ (٣) الآية.

واعلم أن التوبة إذا صحَّت قُبلت بلا شك، إذا وقعت قبل نزول الموت، ولو كانت عن أيِّ ذنب كان.

وفي الصحيحين: « أن رجلًا قَتَل تسعة وتسعين نفسًا ثم سأل: هل له توبة؟ فقيل له: اخرج إلى قرية كذا. فخرج فأدركه الموت فنأَى بصَدْره نحو القرية فوجِد أقربَ إليها بشِبْر فغُفر له » (٤).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « للَّه أفْرح بتوبة أحدكم من رجلٍ خرج بأرض دَوِيَّة مُهْلكةٍ معه راحلته، عليها طعامه وشرابه وزادُه وما يُصْلحه فأضَلَّها فخرج في طلبها، حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها قال: أَرْجع إلى مكاني الذي أضْللتها فيه، فأتى مكانه فغلبته عينُه فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه » (٥). (أخرجاه في الصحيحين).

وأخرجا هذا المعنى من حديث أبي هريرة، ومن حديث أنس بن مالك وأخرجه مسلم من حديث النُّعمان بن بشير (٦).

أنا عَبْدُك الجاني وأنت المالكُ ... إن لم تسامحني فإني هالكُ
يا من تَدارك طولَ جهلي حلمُه ... ذُخري لحَشْري عَفوك المتدارِكُ
مولاي أسررتُ القبيحَ وظاهري ... حَسَنٌ وأنت لحجب سترى هاتكُ
حَسْبي خسارًا أن تراني مُسرفًا ... ويظن هذا الخَلْقُ أنّى ناسِكُ

إخواني: الذنوب تُمْرض القلوب، ويَقوى مرضها على قدر كثرتها، والإصرار مرضٌ يختصُّ بعَين القلب، والذنوب تؤثِّر في ذات القلب ظُلمة وفي باطنه مَرَضًا، فإذا دامت فَترَتْ حركاتُه في الخير فتصير كالسكتة تلحق المغشيّ عليه وربما أخرجت إلى الموت.

---

(١) أخرجه أبو داود في سُننه، كتاب الوتر: ٢٦. (٢) سورة النساء: ١١٠.
(٣) سورة آل عمران: ١٣٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، حديث رقم: ٤٦.
(٥) صحيح البُخَارِي، كتاب الدعوات، باب رقم: ٤.
(٦) صحيح مسلم، كتاب التوبة، حديث رقم: ١ - ٨.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « أَرْبعٌ من الشقاء: جمودُ العينِ وقساوةُ القلبِ والحرصُ على الدنيا وطولُ الأمل »[١].

وقال: « إن القلوبَ لتَصْدأ كما يَصْدأ الحديد ». قيل: يا رسول اللّه ما جِلاؤها؟ قال: « ذكر اللّه وتلاوة القرآن »[٢].

وسُئل الحسن: ما عقوبة العالِم إذا آثر الدنيا؟ قال: موتُ قَلْبه!.

وكان يقول: يا بن آدم جَمْعٌ في وعاء وشدٌّ في وِكَاء وركوب الذَّلول ولبس اللِّين، أمات قلبك واللّه!.

واعلم أن المريض إذا أحسَّ بمرضه فقد بقيت منه[٣] **بقيةٌ تُرجى**، فإن عزمتَ على الدواء فألْق قلبك بين يدي طبيب العِلم، وابْتَدِ بالحِمْية عن الذنب، واجْلُ سواد القلب عند صَيْقل[٤] الذِّكر واصبر على مرارة الدواء وانْطَوِ في فراش الضُّر وإياك والتواني عن هذا السّر وإلا فات[٥] استدراكُ الأمر ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[٦].

فَرضٌ على الناس أن يتوبوا ... لكنَّ ترك الذنوب أوْجَب
والصبر في النائبات[٧] صَعبٌ ... لكنْ قَبُول الثواب أصْعَبْ
والدهر في صَرفه عجيبٌ ... وغفلة الناس عنه أعجَبْ
وكل آتٍ فهو قريبٌ ... والموت من كلِّ ذاك أَقْربْ

قف على الباب وقوف ذلّ، ونكِّس رأس الندم تنكيس غُلّ، واشك ثِقل[٨] الكلِّ إلى من له الكلّ.

شمِّر فقد صِيح بالرحيلِ ... وابكِ على الذنب بالعويل
بادِر مدى عُمرك القليل ... فالموت يأتيك عن قليلِ
كم من عزيزٍ حمى جنودًا ... أصبح في حالة الذليلِ
يا ليت شِعري وأيُّ يومٍ ... في بُكْرةٍ منه أو أصيلِ
يصيح بي فيه غير شكٍّ ... مَن صاح في القوم بالرحيلِ

---

(١) أخرجه البزار. الترغيب والترهيب : ١١٣/٤، ط عمارة.

(٢) ذكر نحوه ابن الجوزي في كتاب العلل المتناهية: ٣٤٧/٢. وفيه ضعف.

(٣) أ: بقيت فيه.

(٤) الصيقل: الحدّاد الذي يصقل السيوف.

(٥) ش: فربما فات.

(٦) سورة الزمر: ٥٦.

(٧) ش: والصبر عنه في الناس.

(٨) أ: وأشد مقل. وهو تحريف.

يا عجبًا لك تسمّى باسم تاجر، وتُخَاصِم على الحبَّة وتُشَاجِر، وتَغْضب على القيراط وتهاجر، وتصابر لِربْح الدينار الهواجر، وتركب الخَنَى وتسلُّ الخناجر، وترضى باسم عاصٍ ولقب فاجر، أمَا لك من عقلك واعظٌ ولا زاجر، أمَا تؤمن أوَّلًا بالمقادر، أما تعلم أن المانع المعطي قادر، أما رازق النملة رازق الخوادر (١)، يا من نومه كثير وانتباهه نادر.

تشتغل عن القرآن المنزَّل، وتسمع مِن مُغَنٍّ يتغزّل، وتمشي إلى نجاتك مَشْيَ أقزل (٢)، وتخرج إلى الحرب وأنت أعزل، أَرمح بيدك أم مِغزل؟! ويحك إن أمير الحياة سيُعْزَل، كأنك بالسماء تمور والأرض تزلزل، وبالميزان يُنْصَب ولا تدري أي الكفّتين أثقل.

دنياك أشْبهت المدامة ظاهرٌ ... حسنٌ وباطن أمرها لا يعلم
وعظ الزمانُ فما فهمتَ عظاته ... فكأنه في صَمْته يتكلمُ
كلٌّ تسير به الحياةُ وما له ... عِلم على أيِّ المنازل يَقْدم
ومن العجائب أننا بجهالة ... نَبني وكلُّ بناء قوم يُهدمُ
وأُضِيع أوقاتي بغير ندامةٍ ... ويفوتني الشيء اليسير فأندم

لقد طال عن الصواب تجافيك، وصعُب على الرائض تلافيك، ما تعرف عدوّك مِن مُصافِيك. ولا مُعَاقبك مِن مُعَافيك، تكدّر بالذنوب ظاهرك وخافيك. فسبحان من جمع هذه الخلال فيك.

سترى واللَّه عملك كما سطَّره الملَك، وتعلم أن الهوى الذي خَتَلك قتلك، ويحك ما الذي حَملك على أن عرَّضت للسَّبع جملك، قيدت وقت السُّرى جَملك وأفسدت بالنفاق عملك. يا هذا رفيقك أين سلك؟ أمَا تعلم أنه هلك؟ يا هذا ما هذه الملامة (٣). لك!

قد تعاطاك مشيب ... وتغشَّاك (٤) مشيبُ
فأتى ما ليس يمضي ... ومضى ما لا يؤوبُ
فتأهَّب لِسَقام ... ليس يشفيه طبيبُ
لا توهَّمه بعيدًا ... إنما الآتي قريبُ

* * *

---

(١) ش: الحوادر. والحادر: الأسد. والخادر: الأسد في عرينه.

(٢) الأقزل: الأعرج.

(٣) أ: الملاومة.

(٤) أ: وتغاشاك.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ... ﴾ (١)

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ ﴾: الأصدقاء في الدنيا ﴿ يَوْمَئِذٍۭ ﴾ أي في يوم القيامة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي الخُلّة إذا كانت في المعصية صارت عداوة يوم القيامة ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم ينتفعون بالخُلّة في الدنيا والآخرة.

أوحى اللَّه تعالى إلى داود ﷺ: كن يقظانَ وارْتَدْ لنفسك أخدانًا وكلُّ خِدْن لا يوافقك (٢) على مسرّتي فلا تصحبه فإنه لك عدو.

وقال بلال بن سعد: أخٌ لك كلَّما لقيك ذكَّرك حظَّك من اللَّه ﷻ، خيرٌ لك من أخ كلما لقيك وضع في كفِّك دينارًا.

ويُروى عن علي ﷺ:

فلا تصحب أخا الجهلِ ... وإيَّاك وإياه
فكم مِن جاهل أردَى ... حليمًا حين آخاه (٣)
يُقاس المرءُ بالمرء ... إذا ما هو ما شاه
وللشيء على الشيء ... مقاييسٌ وأشباه
وللقلب على القلب ... دليلٌ حين يلقاه

قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ... ۝٦٨ ﴾:

إذا اشتدَّ الخوف على جميع الخلائق يوم القيامة نودوا بهذه الآية، فيرفع الناس رؤوسهم فيقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ﴾ فينكِّس الكفار رؤوسهم.

قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾ **فيه أربعة أقوال:**

أحدها: تكرمون. قاله ابن عبَّاس.

والثاني: تُنَعّمون. قاله مُجَاهِد وقَتَادة.

والثالث: تفرحون. قاله السدّي.

والرابع: أنه السماع في الجنة.

أخبرنا أبو القاسم الحريري قال: أنبأنا أبو طالب العُشَاري بسنده عن يحيى بن أبي كثير

---

(١) سورة الزخرف: ٦٧. (٢) أ: لا يوافق. (٣) ش: واخاه.

في قوله تعالى: ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [١]، قال الحَبْر: السماع في الجنة، إذا أخذ أهل الجنة في السماع لم تبقَ شجرة في الجنة إلَّا وردَّت.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده إن اللّه عز وجل ليوحي إلى شجرة في الجنة أنْ أسمعي عبادي هؤلاء الذين شَغَلهم ذكري في الدنيا عن عَزف المزاهر والمزامير بالتسبيح والتقديس » [٢].

قال ابنُ عبَّاسٍ: إن في الجنة شجرة قَدر ما يسير الراكب في ظلِّها مائة عام فيتحدثون في ظلِّها، فيشتهي بعضهم لهو الدنيا، فيرسل اللّه عز وجل ريحًا فتحرك تلك الشجرة بكلِّ لهو كان في الدنيا.

وسُئل يحيى بن معاذ: أيُّ الأصوات أحسن؟ فقال: مزامير أنسٍ [٣] في مقاصير قُدس بألحان تحميد في رياض تمجيد في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ... ﴿٧١﴾ ﴾:

قال الزجَّاج: واحد الصِّحاف صَحفة، وهي القصعة والأكواب جمع كوب وهو إناء مستدير لا عُرْوة له.

وقال ابنُ قتيبةَ: الأكواب الأباريق التي لا عُرَى لها.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن أبي سعيد قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إن في الجنة لطيْرًا له سبعون ألف ريشة فيجيء فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة فينتقض فيخرج من كل ريشة لون أبيض من الثلج وألين من الزُّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه قال ثم يطير فيذهب » [٤].

أخبرنا الحريري بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول اللّه ﷺ عن هذه الآية: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ [٥]، قال: « قصر من لؤلؤة، في ذلك القصر سبعون دارًا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتًا من زَبَرْجدة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريرًا، على كلِّ سرير سبعون فراشًا من كلِّ لون، على كلِّ فراش زوجة من الحور العين، في كلِّ بيت سبعون مائدة، على كلِّ مائدة سبعون لونًا من الطعام، في كلِّ بيت سبعون وصيفة، ويعطي المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كلِّه » [٦].

---

(١) سورة الروم: ١٥.
(٢) لم يرد في شيء من الكُتب المُعْتَمَدة.
(٣) أ: مزامير الناس. محرفة.
(٤) لم يرد في شيء من الكُتب المُعْتَمَدة. وعليه علامات الوضع.
(٥) سورة التوبة: ٧٢.
(٦) رواه الطبراني والبيهقي بنحوه، الترغيب والترهيب: ٢٦٤/٤. وعليه علامات الوضع لما فيه من المبالغة.

وروى ابنُ مسعودٍ عن النبي ﷺ: « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة تشتهيه فيخرُّ بين يديك مشويًا » (١).

وقال بَكر (٢) بن عبد اللَّه المُزَنيّ: « إن العبد ليشتهي اللحم في الجنة فيجيء طائر فيقع بين يديه فيقول: يا وليَّ اللَّه أكلتُ من الزنجبيل وشربتُ من السَّلْسبيل، ورتَعتُ بين العرش والكرسيّ فكُلْني » (٣)!

أخبرنا أحمد بن الحسين بن البنّاء بسنده إلى أحمد بن حنبل، عن مُعتمِر بن سليمانَ، عن شبيب بن عبد الملك، عن متوكل بن حيَّان (٤) قال: إن أهل الجنة إذا دعوا بالطعام قالوا سبحانك اللَّهم، فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل واحد منهم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى فيأكل منهن كلهن (٥).

أخبرنا علي بن عبد اللَّه بسنده عن إدريس بن سِنان، عن وهب بن منبِّه، عن محمد ابن علي بن الحسين [قال إدريس: ثم لقيتُ محمد بن علي بن حسين فحدثني] (٦)، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن في الجنة لشجرةً يقال لها طُوبى لو يسخِّر الراكب الجوادَ أن يسير في ظلِّها لسار فيه مائة عام [من] (٧) قَبْل أن يَقطعها، ورقها وقشورها بُرود خُضر، وزهرها رياضٌ من صُفْر، وأفنانها سندس وإستبرق وثمرها حُلل حُمر، وصَمغها زنجبيل وعسل، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر، وترابها مِسْك وعنبر، وحشيشها زعفران، يتفجر من أصلها أنهار السلسبيل في المعِين والرَّحيق، وظلّها مجلس من مجالس أهل الجنة يألفونه ومتحدَّث يجمعهم، فبينما هم يومًا في ظلِّها يتحدَّثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نُجبًا جُبلت من الياقوت ثم نفخ فيها الروح مَزْمومةٌ بسلاسل من ذهب، كأنّ وجوهها المصابيح نضارة وحُسْنًا ووبرها خَزٌّ أحمر ومِرْعزيّ أبيض (٨) مختلطان، لم ينظر الناظرون إلى مثله حُسنًا وبهاء، ذُلل من غير مهانة، نجبٌ من غير رياضة، عليها رجال من الدُّرِّ والياقوت مفصَّصة باللؤلؤ والمرجان مُلْبَسة بالعبقريّ والأرجوان، وأناخُوا تلك النجائب ثم قالوا لهم: إن ربكم - تبارك وتعالى - يقرئكم السلام ويَسْتزيركم لتنظروا إليه وينظر إليكم وتكلِّموه ويكلِّمكم ويزيدكم من فضله. فيتحوّل (٩) كلُّ رجلٍ

---

(١) وهذا أيضًا لم يرد من طريق صحيح. (٢) في أ: أبو بكر، وهو تحريف.

(٣) في هذا الكلام مجازفات ومبالغات غير مقبولة. (٤) في أ: عن مقاتل بن حبان. وهو تحريف.

(٥) في هذا الكلام مجازفات ومبالغات غير مقبولة. (٦) من ش.

(٧) ليست في « ش ».

(٨) المرعزي: الزغب الذي تحت شعر العنز. قال في القاموس: (وثوب ممرعز).

(٩) أ: فيترجل. محرفة.

منهم على راحلته فانطلقوا بهم صفًا واحدًا لا يفوت أذن ناقة أذن صاحبتها، ولا يمرُّون بشجرة من أشجار الجنة إلا أتحفتهم بثمرها ورحلت عن طريقهم كراهية أن ينثلم صفُّهم أو تفرِّق بين الرجل ورفيقه.

وتجلَّى لهم الجبَّار - جلَّ جلاله - يُحيِّيهم بالسلام، فقال: مرحبًا بعبادي الذين حفظوا وصيتي ورعَوا عهدي وخافوني بالغيب. فقالوا: وعزَّتك ما أدَّينا حقَّك فائذن لنا بالسجود لك. فقال: إني وضعت عنكم مؤنة العبادة وأرحت لكم أبدانكم، فطالما أنصبتم لي الأبدان فالآن أفضيتم إلى رَوْحي ورحمتي وكرامتي، فَسَلْوني ما شئتم وتمنَّوا عليَّ أعطكم أمانيكم، فإني لن أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم ولكن بقدر رحمتي وطَولي وجلالي وعظمة شاني. فما يزالون في الأمانيّ والعطايا والمواهب حتى إن المقصِّر منهم [من أمنيته] (١) ليتمنى مثل جميع الدنيا منذ خلقها اللَّه تعالى إلى يوم أفناها فقال لهم ربُّهم تعالى: (لقد قصَّرتم في أمانيكم ورضيتم بدون ما يحقُّ لكم، فقد أوجبت لكم ما سألتم وتمنيتم وزدتكم ما قصرت عنه أمانيكم، فانظروا إلى ما وهب لكم ربُّكم. فإذا بقباب من الأفق الأعلى (٢) وغرف مبنية من الدُّرِّ والمرجان، أبوابها من ذهب، وسُرُرها من ياقوت وفرشها من سُنْدس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من ترابها وعراصها نور، قلما انصرفوا إلى ما أعطاهم قرِّبت لهم براذين من الياقوت الأبيض تجنِّبها الولدان فلمَّا انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة يهنئونهم بكرامته لهم سبحانه، فلمَّا دخلوا قصورهم وجدوا ما سألوه وتمنَّوْا، فقال لهم ﷻ: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ قالوا: نعم. قال: أرضيتم ثواب ربِّكم تعالى؟ قالوا: نعم رضينا ربَّنا فارْضَ عنَّا، قال: برضاي عنكم حللتم داري ونظرتم إلى وجهي وصافحتكم ملائكتي فهنيئًا لكم عطاء غير مجذوذ. فعند ذلك قالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ » (٣).

يا متقبضًا عن طلب هذه الدار، يا من [علم] (٤) خشونة المنزل فما دار، أين البدار في زمن الاقتدار؟ أحيٌّ أنت قل لي أم جِدار؟ ويحك اغتنم نعمة المهلة وابتدر فرصة المُكْنة وانتهب خَلسة الصِّحة، وانتبه من رقدة الغفلة، لا تَرْضَ أرض الرذائل واسْمُ إلى سماء الفضائل.

---

(١) ليست في « ش ». (٢) ش: في الرفيق الأعلى.

(٣) سورة فاطر: ٣٤، ٣٥، هذا الحديث رفعه إلى النبي ﷺ منكر، كما قال المنذري في الترغيب والترهيب: ٢٨٧/٤، قال: « رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم هكذا مفصلًا » وكم لابن أبي الدنيا من عجائب وغرائب لا دليل له عليها.

(٤) من « ش ».

سجع على قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ... ﴿٧١﴾ ﴾:

سبحان من أنعم على الأحباب، سبحان من سخَّر لهم الأسباب، سبحان من جعل جزاء الصوم عن الطعام والشراب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

وصَل أولو الألباب إلى الباب، وقد زالت تلك الأسقام والأوصاب، وقيل لأيوب البلاء إلى كم مصاب ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (١) ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

يا حُسْنهم وقد قَدِم الغُيَّاب، وأُلْبسوا ثياب العتَّاب وتلقتهم الحور الخَفِرات بلا نِقَاب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

لا نَقْص عندهم ولا عاب، ولا تأخَّر عنهم مطلوبٌ ولا غاب، ولا يَعتري مَشيبٌ ذلك الشباب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

طابت الدار ودار الشراب، وغنّت الغَنّاء فرنَّت القِبَاب، وسمعوا من الغِناء ما أغنى عن عُودٍ ورَباب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

فُتح لهم بابُ الرضا فدخلوا، ومُهِّدت لهم المنازل (٢) فنزلوا، واللَّه ثم واللَّه لقد وصلوا إلى ما لم يكن في الحِسَاب، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

خلودٌ بلا زوال، مُقَام بلا انتقال، ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ (٣) فيا لعيشٍ قد طاب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

يا لذة مَجالسهم ويا عِزَّ مُجَالِسهم، ويا ملاحة أوانسهم، ويا حُسن ملابسهم، الرضا دُملوج والفضل سِخَاب (٤) ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

لا يصف الواصفون ما أعطاهم، ولا يقدِّر الخلائق قَدْر ما أوْلاهم، وأعظم العطايا أن تجلَّى مولاهم وارتفع الحجاب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

قد نصحناك وأطَلنا، وأخبرناك بالعواقب وقلنا، وما نراك إلا كلَّما دخلنا من باب خرجت من باب ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

والحمد للَّه وحده.

* * *

---

(١) سورة ص: ٤٢. (٢) ش: المساكن. (٣) سورة يس: ٥٦.

(٤) الدملوج: المعضد وهو ما يقطع به الشجر. والدملجة: تسوية صنعة الشيء. والسخاب: قلادة.

المجلس الحادي عشر

في ذكر الصبر

الحمد للَّه القديم في الصفات والأسماء، العظيم في العزِّ والقهر والكبرياء، المتطوِّل على عباده بجزيل النعماء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. أظهر الحِكَم في ابتداع الأشياء، وعلم ما يكون قبل الإيجاد والإنشاء، وابتلى خَلْقه بفنون البلاء، وأثاب الصابرين وحَرم الشاكِين في الابتلاء، فكم أجرى أجرًا للراضين بالقضاء. أحْكَم المصنوعات في التقويم والبناء ثم عاد على المحْكمات بالتلف والفناء، ثم يعيدهم يوم الفصل والجزاء، يعلم عدد القَطْر في السحب والرمل في البيداء، لا يَعْزب عن سمعه دبيب النملة السوداء في الليلة الظَّلماء على الصخرة الصَّمَّاء.

أحمدُه على السرَّاء والضرَّاء، وأقرُّ بأنه شيء لا كالأشياء، وأُصلِّي على رسوله محمد مقدَّم الأنبياء، وعلى صاحبه أبي بكر صاحبه في الشِّدَّة والرَّخاء، وعلى عمر الحاكم العادل في القضاء، وعلى عثمان غامر جيش العُسرة بالعطاء، وعلى عليٍّ المخصوص دون الكلِّ بالإخاء، وعلى عمِّه الذي سُئل به سَيْلُ السماء، جَدُّ أمير المؤمنين، أجاب اللَّه في أيام دولته صالح الدعاء.

قال اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [(١)] المعنى أنهم يعطون عطاء كثيرًا واسعًا أوسع من أن يُحْسب أو يُحاط به.

وقد ذكر اللَّه ﷻ الصبر في نحو من تسعين موضعًا من القرآن، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ [(٢)] وقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ ﴾ [(٣)].

وأما الأحاديث ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « ما أُعطى أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر » [(٤)] وقال عليه الصلاة والسلام: « ألا إنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له » [(٥)]، وقال الحسن رحمه الله: « الصبر كنزٌ من كنوز الخير لا يعطيه اللَّه ﷻ إلا لعبد كَرم [(٦)] عليه ».

---

(١) سورة الزمر: ١٠. (٢) سورة السجدة: ٢٤. (٣) سورة النحل: ٩٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم: ٥٠.

(٥) لم أجده في شيء من الكُتُب المُعْتَمَدة. (٦) أ: كريم.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم اللَّه على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه الصبر إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزع منه. وقال ميمون بن مِهْران: ما نال أحد [شيئًا من] (١) جسيم الخير إلا بالصبر. وكان بعض الصالحين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ينظر إليها وكان فيها ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢).

واعلمْ أن باعث الهوى ينافي الصبر، والصبر ينشأ عن باعث الدين. واعلم أن جميع ما يتقلَّب العبد فيه لا يخلو من نوعين: موافق لهواه، ومُخالِف له. وهو يحتاج إلى الصبر فيهما. فأما الموافق للهوى فهو الصِّحَّة والسلامة والمال والجاه وكثرة العَشيرة والأتباع وجميع ملاذِّ الدنيا. والإنسان محتاج إلى الصبر في هذه الأشياء فلا يَبْطر بها ولا تخرجه إلى حال لا يصلح، فإن لم يفعل لم يأمن (٣) الطغيان. قال بعض العلماء: البلاء يَصبر عليه المؤمن ولا يصبر على العافية إلا صدِّيق. وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: ابتُلينا بالضرَّاء فصبَرنا وابتلينا بالسرَّاء فلم نصبر.

ولهذا المعنى قال اللَّه ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٤).

وأمَّا المخالف للهوى فهو على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يتعلَّق باختيار العبد، وهي أفعاله التي توصف بأنها طاعة أو معصية، فهو محتاج إلى الصبر على الطاعة؛ لأن النفس تَنفر بطبعها من العبودية، فتكره الصلاة للكسل والزكاة للبخل، وهو مفتقر إلى الصبر عن المعاصي فإنه يقتضيها باعث الهوى.

القسم الثاني: ما لا يتعلَّق باختيار العبد وله اختيار في دفعه، كما لو أُوذي بفعل أو قول أو جُني عليه في نفسه أو ماله. فالصبر في ذلك بترك المكافأة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزَّة والمرض. والصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر وقد قال النبي ﷺ: « مَن يُرد اللَّه به خيرًا يُصِب منه » (٥).

أخبرنا ابن الحُصَين قال: أنبأنا ابن المُذهِّب بسنده عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر اللَّه ﷻ بها عنه حتى الشَّوكة يُشاكُها » (٦) (أخرجاه في الصحيحين).

(١) ليست في « ش ».
(٢) سورة الطور: ٤٨.
(٣) أ: لا يأمن.
(٤) سورة المنافقون: ٩.
(٥) رواه مالك والبُخَارِي. الترغيب والترهيب : ١٣٥/٤.
(٦) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب رقم : ١. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٥٠، ٥١.

وأخرجا من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « ما يصيب المؤمنَ من نَصَب ولا وَصَب ولا هَم ولا حزن ولا أذًى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر اللَّه بها من خطاياه » (١).

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله حتى يلقى اللَّه وما عليه خطيئة » (٢).

وفي حديث سعد بن أبي وقَّاص ﷺ قال: قلتُ: يا رسول اللَّه أيُّ الناس أشد بلاء؟ قال: « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأَمْثَل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، إن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفِّف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » (٣).

وأما المصائب في البدن: ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: دخلتُ على رسول اللَّه ﷺ وهو يُوعَك فقلت: يا رسول اللَّه إنك لتوعك وعَكًا شديدًا فقال: « أجَلْ إني أوعك كما يُوعَك رجلان منكم » قلتُ: إن لك أجرين، قال: « نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلمٌ يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ اللَّه عنه به خطاياه كما تحطُّ الشجرة اليابسة ورقها » (٤) وفي الصحيحين من حديث عائشة قالتْ: ما رأيت الوجع على أحدٍ أشدَّ منه على رسول اللَّه ﷺ (٥).

- **فأما الحمَّى** ففي أفراد مسلم من حديث جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ أنه قال في الـحُمَّى « إنها تُذْهب خطايا بني آدم كما يُذْهب الكِيرُ خَبَثَ الحديد » (٦).

وقال الحسن: إنه ليكفَّر عن العبد خطاياه كلها بحمَّى ليلة.

- **وأما الصداع** ففي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من مريض يصيبه صُدَاع في رأسه أو شوكة تؤذيه أو ما سوى ذلك من الأذى إلا رفعه اللَّه ﷻ بها درجة يوم القيامة وكفَّر عنه بها خطيئة » (٧).

- **وأما ذِهَاب البصر** ففي أفراد البخاري من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب رقم : ١. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٥٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المنافقين، رقم : ٥٨.

(٣ ، ٤) صحيح البُخَارِي، كتاب المرضى، باب رقم : ٣.

(٥) صحيح البُخَارِي، كتاب المرض، باب شدة المرض : ٢/٤. بحاشية السندي.

(٦) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٥٣.

(٧) قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : ١٤٢/٤: رواه ابن أبي الدنيا ورواته ثقات.

« إن اللَّه - جلَّ ثناؤه - قال: « إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صَبَر عوَّضتُه منهما الجنة » [١] يريد عينيه.

- **وأما الطاعون** ففي الصحيحين من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ: قال: « الطاعون شهادةٌ لكلِّ مسلم » [٢].

- **وأما ذَهاب الولد** ففي أفراد مسلم من حديث أبي حسَّان قال: توفي ابنان لي فقلتُ لأبي هريرة: سمعتَ رسول اللَّه ﷺ حديثًا تُحدثناه تطيب [به] [٣] أنفسنا عن موتانا. فقال: « نعم صغارهم دَعَاميص الجنة يَلْقى أحدُهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بناحية ثوبه أو يديه كما أنا آخذ بِصَنِفة ثَوْبك هذا [٤]، فلا يفارقه حتى يدخله اللَّه ﷻ وإيَّاه الجنة » [٥]. (الدعموص: دُوَيبّة صغيرة تكون في الماء).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حِجَابًا من النار » فقالت امرأة: واثنين فإنه مات لي اثنان. فقال رسول اللَّه ﷺ: « واثنين » [٦].

ومن أدب الصبر استعماله في أوَّلِ صدمة: ففي الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » [٧].

ومن آداب الصبر سكون الجوارح وسكوت اللسان: وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « ليس مِنَّا مَن شقَّ الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية » [٨]. وفي الصحيحين من حديث عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « النائحة إذا لم تَتُبْ قبل موتها تُقَام يوم القيامة وعليها سربال من قَطِران ودِرع من جَرَب » [٩].

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصاب على المصاب: سُئل ربيعة: ما منتهى الصبر؟ فقال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

وإذا كانت المصيبة مما يُكتم فكتمانها من معاملة اللَّه ﷻ. وقال الأحنف: لقد ذهبت

---

(١) صحيح البُخَارِي، كتاب المرضى، باب رقم : ٧.
(٢) صحيح البُخَارِي، كتاب الطب، باب رقم : ٣.
(٣) من صحيح مسلم.
(٤) الصنفة حاشية الثوب أي جانبه.
(٥) صحيح مسلم : ٤٤٨/٢، ط عيسى الحلبي.
(٦) صحيح البُخَارِي، كتاب الجنائز، باب رقم : ٦. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٥٢.
(٧) رواه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجنائز، باب رقم : ٣٢.
(٨) صحيح البُخَارِي، كتاب الجنائز، باب رقم : ٣٥ - ٣٨. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ١٦٥.
(٩) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، حديث رقم : ٢٩. وأحمد في مسنده : ٣٤٢/٥.

عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد! وقال رجل للإمام أحمد رحمة اللَّه عليه: كيف تجدك؟ قال: بخير في عافية. قال: حُمِمْتَ البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية بخير فحسبك لا تُخْرجني إلى ما أكره.

وقال إبراهيم الحربي: ما شكوتُ الحمَّى قط إلى أمي ولا أختي ولا إلى امرأتي، الرجل الذي يُدخل غمّه على نفسه ولا يَغمّ عياله. كان بي شَقيقة [1] خمسًا وأربعين سنة فما أخبرت بها أحدًا.

وقد كان السلف يفرحون بالمصائب نظرًا إلى ثوابها قال أبو الدرداء ﷺ: ثلاث يكرههن الناس وأحبّهن الفقر والمرض والموت.

وكان سويد بن سعيد قد أُضْنِي فكان يقول: دَبِرت الحراقِف [2] وطالت الضَّجعة، واللَّه ما أحب أني نُقِصْتُ منه قُلامة ظفر.

ومن عرف المُبْتلِي هان عليه البلاء. الفضائل في منتهى الصبر. ظاهر البحر الزَّبد والموج، ووسطه الحيتان والدواب، وفي قَعْره الدُّر.

إذا صدَقَت محبَّة المبتلَى أعانه من حَمل لأجله، فحمَل عنه ما أثقله.

بعَيني ما يتحمل المتحمِّلون [3] من أجلي.

وكان في القوم من يتلذَّذ بالبلاء نظرًا إلى ثوابه أو إلى رضا اللَّه تعالى به. فروينا أن بنت فَتح المَوْصليّ عَرِيتْ فقيل له: ألا تطلب من يَكْسوها؟ فقال: لا دَعها حتى يرى اللَّه ﷻ عُرْيها وصبري عليها.

فاعلموا أنه من عَلِم عاقبة الصبر هان الأمر عليه، ومن لم يعلم اشتدَّ جَزَعه، فالعاقل يستعمل الصبر إما لطلب أجره، وإما لأن الجزع لا يرد الفائت ولكن يسرُّ الشامت.

يا من إذا مرض بكى وإذا ابتلى شكا، الثوابُ يُحْبطه شكواك. والشكوى لا تزيل ذاك، إنْ صبرت جرى القدر وأنت مأجور، وإن جَزِعت جَرى وأنت مَأْزور، فصابر لُجَّة البلاء، فالساحل قريب. ذكِّر نفسك قَبل شُرْب الدواء حلاوة العافية تَهُن عليك المرارة!

* * *

---

(١) الشقيقة: وجع يأخذ نصف الرأس والوجه.

(٢) دبرت: تقرحت. والحراقف: جمع حرقفة وهي رأس الورك.

(٣) في أ: ما يتحمل عليه.

الكلام على البسملة

تَأبى الليالي أن تُديما بؤسا لخَلقٍ أو نعيما
والأمر بالإقبال يَبْلغ وا دِعا خطرا عظيما
فإذا انقضى إقباله رجع الشَّفيع له خَصِيما
وهو الزمان إذا نَبَا [1] سلب الذي أعطى قدِيما
كالريح ترجع عاصفا مِنْ بَعد أنْ بدأت نسيما

إخواني: ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب، كلُّ طُلَّابها قتلت فبئس المطلوب، يا مَنْ يأمن الموت المحيط، ابْكِ على عُمرٍ مضى في التفريط، واسمعْ حديث الشَّيب فليس بالأغاليط، فسيقطع النِّياطَ بياضٌ قد نيط، فاستدركْ قَبْل الأسى ما قد مضى من التخليط [2].

يا من كتابه للقبائح قد حوى، وهو لا شكَّ عن قليل قتيل الهوى، يا من عمله لا يَصلح للرضا متى تستدرك ما قد مضى، البدَار البدار يا من فسح له في الأجل، الحذار الحذار يا مغرورًا بالأمل، كم مُسْتَلبٍ لما تمَّ وكمل، في القبور [3] مرتهن بالعمل:

رَكَنوا إلى الدنيا الدنية وتبوأوا الرُّتب السَّنيّة [4]
حتى إذا عزُّوا بها صَرعَتهمُ أَيْدى المنية

أين الذين أحبُّوا الفاني ولهجوا، جهلوا وطلبوا حتى بَطلوا، فسُلبوا ما ألبسوا فأبْسلوا [5] بيْنا دنياهم قد ترنَّمت تنمَّرت فأرغمت وأغرمت.

العقل السليم يدل على النزوع عن الدنيا لا على النزاع عليها؛ لأن الراحل لا ينبغي أن يعلِّق قلبه بالمنزل، والآدمي أكبر ما يكون ساعة يولد، وكلمَّا زاد نُقِص، فانتبه لنفسك يا من قد قطع المراحل وشارف البلد.

غريق الذنوب أسير الخطايا تنبَّه فدنياك دار الدنايا [6]
تَغُرُّ وتُعطي ولكنها مكدِّرةٌ تَستردُّ العطايا
أما وعَظتْك بأحداثها وما فعلت بجميع البرايا؟!
فيا راحلًا وهو ينوي المُقام تزَّوْد فإنَّ الليالي مطايا

(١) كذا في « ش » وفي أ: إذا انثنى.
(٢) أ: الأخاليط.
(٣) في أ: بالفتور في القبور. ولعله تحريف.
(٤) أ: العلية.
(٥) كذا في « ش ». وفي أ: فانْسبلوا. ومعنى أبسلوا: أُسلموا إلى الهلكة.
(٦) كذا في ش. وفي أ: « فدنياك يا صاح ». وليس فيها كلمة « تنبَّه ».

لقد قَرْقس [١] الحِمام في خطبه، فلم يَفرق بين هِنْده وقِبطه ولا ميّز عربه من زُطّه [٢] ولا راعى كاتبًا لحسن خطِّه، ولا ضابطًا بشكله ونقطه ولا حابسًا لإحكام ضبطه، ولا نسيبًا بشرف رهْطه، كم سَرَح سِرْب فإذا هو في وسطه، كم [أعنق] [٣] إلى عنق لاستلاب سَمْطه [٤].

كم بَرَى ساعدًا برى [قلما] [٥] فقطَّه قبل قَطِّه كم مزَّق شَعْرًا أثيثًا عَقِيب [٦] مَشطه فسلَّمه للبِلَى واستلبه [٧] من مُشطه، كم أبْدل جسدًا كفنا بعد حسن مِرْطه، كم صوَّب إلى مرمى فرماه ولم يُخْطه، كم نازَل جبارًا فأذعن من أصل قِرطه [٨]، فعوَّضه بعد قُرْب مُراداته بُعد شَحطه، وسواء عليه رضا الراضي وقُبْح سخطه.

إخواني: شَرط البقاء الفناء ولا بد مِن وفا شَرْطه.

إنَّ لـلـمــوت زائــرا ... قــد أبــادَ الـمـعـاشــرا

كـم سـعـى [٩] الـدهـر باطـنـا ... ورأيــنـــاه ظـــاهـــرا

ومَـحَـا مِـن مـحـاسـن ... قـد طـواهـن سـاتـرا

وأتـى الـخِـدْر حـادرا [١٠] ... سـلـب الـقَـصْـرَ قـاصـرا

كـم جـمـالٌ بـقـهـره ... قـد أُحِـلَّ الـمـقـابـرا

آه لـلـنـاعـم الـنـضـيـ ... ـر طـوى مـنـه نـاضـرا

آه لـلـغـصـن إذْ سـمـا ... حَـلَّـهُ الـمـوتُ كـاسـرا

فـاز مـن كـان خـائـفـا ... مـنـه فـي الأرض [١١] حـاذرا

حـفـظ الـزاد لـلـمـعـا ... د وأغْـنـى الـمـفـاقِـرَا

يا من إصراره على المعاصي أوثق من السَّدّ، وإفساده في [أرض] [١٢] قلبه أشد من يأجوج ومأجوج، ووعده بالتوبة أطول مِنْ عُوج [١٣]، وأمراضه يستغيث منها الطبيب [١٤].

---

(١) قرقس بالكلب: دعاه. وفي أ: في خبطه.
(٢) الزط: جيل من الهند.
(٣) من ش: وأعنق: أسرع.
(٤) السمط: خيط النظم.
(٥) من أ.
(٦) أ: قبل مشطه.
(٧) ش: واستلمه.
(٨) القرط: ما يعلق في الأذن.
(٩) ش: كم نعى.
(١٠) كذا في ش وفي أ: حاذرا والحادر: الأسد.
(١١) أ: في الأمور.
(١٢) ليست في ش.
(١٣) عوج بن عنق: شخصية أسطورية يضرب بها المثل في الطول.
(١٤) أ: يستغيث فيها الطبيب.

وإن شفائي عَبرة مهراقةٌ (١) ....

لك في المعاصي جرأة الأسد، وفي الخيانة وثوب النَّمر، وفي معاملة الناس خَتْل الفَهْد، وفي العهود غَدْر الذئب، وفي الأمانة اختطاف الحِدَأة، تروغ عن الحقِّ رَوَغان الثعلب، وتَشْره إلى الأدناس شَرَه الخنزير، وتنام عن الواجبات نوم الفهد، وتدبّ إلى الشر دبيب العقرب.

ويحك! احذرْ أن تكون من قوم ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (٢).

من أصبح لا همَّ له إلَّا ما يأكل، ثم لا يبالي من حيث (٣) حصل له، فإن كَسِب لم يبال حلالًا كان أو حرامًا، همُّه ما يَجْمع لا فَهْم ما يسمع، فكيف يُخاطَب؟!

ويحك تفكَّر فيما أنت منه وفيما أنت به، وفيما أنت عليه وفيما تصير إليه؟ اعطف إلى ما يَعنيك عِنانك، واعتبر قبل المُحتسِب عليك ميزانك، إنما المتيقظ الذي إن تحرَّك فللَّه، وإن سكن فله، وإنْ نَطَق فعَنْه، وإن اشتاق فإليه.

يا هذا: إنْ كان حظُّك مما أقوله السماع، وحظِّي النطق فقد هلكنا جميعًا.

يا أسيرَ الشهواتِ ... ورهين التَّبِعاتِ
عُدْ إلى القصد فقد فا ... رقت أعلام النجاةِ
وتعسَّفت ضلالًا ... في فلاة الغفلات
ويح نفسي كيف ولَّى ... عُمُري في التُّرُّهات
كيف أرتاحُ إلى اللذا ... تِ من بعد لِداتي

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ... ﴾ (٤)

معنى الآية: ولنعاملنكم معاملة المختبر حتى نعلم العلم الذي هو علم وجود وبه يقع الجزاء ﴿ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾: نظهرها ونكشفها.

وقرأ أيوب السَّخْتيانيّ ومعاذ القارئ ﴿ وَنَبْلُوَا أخْيَاركم ﴾ بالياء جمع خيِّر.

إخواني: الدنيا دار ابتلاء فصابروها، وقنطرة محنة فاعبروها.

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس وعجزه:

.... فهل عند رسمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّل

(٢) سورة الحشر: ٩. (٣) أ: من أين. (٤) سورة محمد: ٣١.

يا من يأتي القتال ولا يصبر على الجهاد، يا من عينه مطلقة في الآثام ولسانه في فضول الكلام، وهو مأمور بكفِّ اللجام، إذا رتعت الناقة فأي فائدة في الزِّمام؟!

هذا فؤادك نهبٌ بين أهواء　　وذاك رأيك شُورى بين آراءِ
هواك بين العيون النُّجل مقتَسم　　داء لَعَمْرك ما أبلاه من داء
ما يستقرُّ بأرضٍ أو يسير إلى　　أخرى كشخص قريب عزْمه ناءِ
يومًا بِحُزْوَى ويومًا بالعقيـ　　ـق ويومًا بالعُذَيْب ويومًا بالخُلَيصاءِ (١)
وتارة ينتحي نجدًا وآونةً　　أرض العراق وطَوْرًا أرضَ تيماء (٢)

إخواني: إنما خُلقنا لنعمل فما هذا الكسل، وإنما أنعم علينا لنشكر فما هذا الفشل، وإنما وُعِظنا لنسمع، فإلى كَمْ صَمَم، وإنما ابتلينا لنصبر وما للصبر عندنا خبر، أقام بسفينة الطبع مائة ألف وأربعة وعشرون ألف مراد، وبَحْر الهوى قد ركبه الرَّمل (٣).

وهَب لأقوام من الذِّهن ما غاصوا به على عِرق الذهب فقصدوه، وعاينوا به نجم السماء ورصدوه، واحتالوا لطير الجوِّ فصادوه، ولحوتِ اليَمِّ فأخرجوه، ثم أعرضوا عن واهب الفهم وجحدوه، ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (٤).

ويحك إذا لاحت نظرة فتصبَّر، وإذا عرضَتْ كلمة فتدبر، إنك في دار ابتلاء لا يصلح فيها غير الصبر:

يا نفسُ ما هو إلا صبر أيام　　كأنّ مدتها أضغاث أحلام
يا نفس حُوري (٥) عن الدنيا مبادرةً　　وخلِّ عنها فإنّ العيش قُدَّامي

من ذكر خيانة عهد خجل، ومن تفكَّر في التفريط وجلَ، أمَا تذكر عهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فتستحي من بلاء عظيم غطَّى « بلى » (٦). وإذا تمكَّنت المعرفة من القلب لم يغيِّر البلاء أوصاف المحبوب عند المحبِّ، هذا أيوب يعاني البلاء سنين وهو يقول: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (٧) فتشبّث في الدعاء بما كان يعلم قبل البلاء من صفة الرحمة.

خذوا القلب إن شئتم وإن شئتم رُدُّوا　　على كلِّ حال ليس لي منكمُ بُدُّ

---

(١) حزوى: موضع في ديار بني تميم.　(٢) أ: قصر تيماء.
(٣) كذا بالأصل وكأنه يريد أن مطامع الإنسان لا تنتهي.
(٤) سورة الجاثية: ٢٣.　(٥) حوري: ارجعي.
(٦) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].
(٧) سورة الأنبياء: ٨٣.

لا بد في الطريق من نَصَب، وما يُنال عزيز إلا بتعب.

ولقد بُليت بما بليت به فحملت ما أُبْلى به لمراده
وعرفته فرفعت فيه عقيرتي أهلًا به وبودِّه

أهلًا بمصابرة الهوى ساعة وقد تعوَّده البدن وألفه القلب، فإذا تلمَّح الجزاء خفَّ الحِمْل، فإذا علم أنه مراد الحبيب لم يبقَ له أثر:

البس الصبر جُنَّة للرزايا إنه جُنَّةٌ لكلِّ كريم
فعظيم الرجال من لقى الخَطْـ ـب بقلب على العظيم عظيم
وإذا ما انقضت لياليك لم تدر ببؤسٍ مضى، أو نعيم
وإذا لم يُصِبْك حَرُّ هجير لم تجدْ لذةً لبرد نسيم

يا صبيان التوبة قد التزمتم فروض النفقة بعقد نكاح الإنابة، فاخرجوا إلى سوق كسب الصبر فكفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت (١)!.

تنبَّه بعض أولاد الملوك لعيوب الدنيا فخرج عن الملك، فاجتهد أبوه أن يردَّه فأبى:

وكم تشفَّع بي أن لا أفارقه وللضرورة حالٌ لا تشفِّعه
وكم تشبث بي يوم الفراق ضحى وأدْمعي مُستهلاتٌ وأدْمُعه (٢)

يا هذا يكفي في الصبر عن الخطايا تأثير ما قد تقدَّم منها، إنك لا تزال تبكي كلَّما ذكرت زلَّة، وتتلهف كلما تصوَّرت (٣) عقوبة، فما وفَى فرحك بالزَّلل بمعشار عشير الأسف، فإذا كنت قد ذقت وبال لذاتك فاصبر ولا ترد فيها (٤) بأخرى:

أترحل عن حبيبك ثم تبكي عليه فما دعاك إلى الفراق؟!
كأنك لم تَذُق للبَيْن طعمًا فتعلم أنه مُرُّ المذاق (٥)؟!

إخواني: البلاء يختصُّ بالأخيار، والمحن تلاصق الأبرار، لئلا يساكنوا هذا الدار. روى

---

(١) أ: من يعول.

(٢) البيتان من قصيدة ابن زريق البغدادي التي مطلعها:

لا تَعْذليه فإن العَذل يُوجعه قد قلتِ حقًا ولكنْ ليس يسمعهُ

وقد وردَا ضمن ثلاثين بيتًا من هذه القصيدة في كتاب الكشكول للعاملي : ١/١١٩.

ورواية البيت الثاني عنده: وكم تشبث بي خوف الفراق.

(٣) ش: صورت. (٤) أ: ولا تزد فيها.

(٥) البيتان أوردهما ابن داود في كتابه « الزهرة » بدون نسبة : ص ١٨١.

محمود بن لبيد عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه ﷻ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع » (١)، وفي حديث أبي سعيد أنه شكا إلى النبي ﷺ حاجة فقال: « اصبرْ يا أبا سعيد، فإن الفقر إلى من يحبُّني منكم أسرع من السيل على أعلى الوادي ومن أعلى الجبل إلى أسفله » (٢).

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: مكث يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ثمانين سنة تجري دموعه على خديه، وما على الأرض أحدٌ أكرم على اللَّه منه. وكان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مُلقى على كناسة وما في الأرض عبد أكرم على اللَّه ﷻ يومئذ منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما طلبت شيئًا من الدنيا قط فوفِّيَ (٣) حتى لقد ركبت يومًا حمارًا فلم يمش، فركبه غيري فعدا، فأريت في منامي قائلًا يقول: لا يَحْزنك ما زُوِي عنك من الدنيا فإنما يفعل ذلك بأوليائه.

يا من إذا ابتُلي شكا، وإذا فقد غَرَضَه بكى، وإذا صحَّ أكل واتَّكا، يا من لا يصبر للبلاء على خدش، أين أنت من أقوام كانوا يتلقفون القضا (٤) بأكفِّ الرضا.

هيهات قاموا وقعدْتَ، ووصلوا وتباعدت، زاحم القوم مهما استطعت، واستغث بساقة الرَّكب فقد انقطعت، واجتهد في خلاصك فقد وقعت، واجمع شتات همِّك فقد مزَّقه ما جمعت، صبر القوم قليلًا واستراحوا طويلًا.

كانت رمال (٥) الحصير تؤثِّر في جنب النبي ﷺ، وكان حَشْو وسادته من ليف، وكان يشدُّ الحجر على بطنه من الجوع.

اشتد جوع عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فاستقى مع يهودي كلَّ دَلْو بتمرة.

قُتل مصعب بن عمير فما وجدوا له كفنًا يكفيه. عُرِّي أُوَيْسٌ حتى جلس في قَوْصَرة (٦) وكان يلتقط الكسَر من المزابل فتزاحمه الكلاب.

قدم بِشْر (٧) من عبادان وليس له ثوب فاتَّشح بحصير.

ما مضى من تنعُّم القوم يومٌ إلا وانقضى مِنْ صَبْر الصابر، إلى أن يجمعهما يوم، ويقع فرق بين القوم، كما بين اليقظة والنوم:

طوبى لعبد بحبل اللَّه معتصَمه ... على صراط سويٍّ ثابت قدمُهْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤٢/٣.

(٢) لم أجده في شيء من الكُتُب المُعْتَمَدة.

(٣) في « ش »: فوتِّي.

(٤) أ: يتلقفون البلايا.

(٥) رمال الحصير: المنسوجة بالخوص.

(٦) القوصرة: بتشديد الراء وتخفف: وعاء للتمر. وأويس: هو التابعي الشهير أويس بن عامر القرني. توفي سنة: ٣٧هـ.

(٧) هو بشر بن الحارث أبو نصر المعروف بالحافي له في الزهد والورع أخبار تُوفِّي سنة: ٢٢٧هـ، الأعلام: ٥٤/٢.

رثُّ اللباس جديدُ القلبِ مُسْتتر في الأرض مشتهر فوق السماء اسمُه
إذا العيونُ اجْتلته في بَذاذته تعلو نواظرها عنه وتقتحمه
ما زال يستحقر الأولى بهمته حتى ترقَّت إلى أخرى به هممه
فذاك أعظم من ذي التاج متكئًا على النمارق محتفًّا به حَشَمه

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾:

يا مستورين على الزَّلل ستظهر أسراركم، يا مغمورين بالحلم عنهم ستكشف أستاركم، لا بد أن نميز خياركم وشراركم ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

كم أقبل إليكم لُطْفنا وزاركم، وما تركتم أوزاركم، كم منحكم الهدى وأناركم، ثم اخترتم في الضلال عاركم، لقد زجرناكم إذ أخذنا جاركم ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

كم أنعم عليكم مولاكم وأولاكم، كم عمر بالنعم داركم، كم كثَّر أولياءكم وأنصاركم، لو شاء لأخذ أسماعكم وأبصاركم ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

إلى متى مع الذنوب، إلى كم في الزلل والعيوب، أما تخافون عالم الغيوب؟ ألا تطلبون جَنة ذات كواعب وكوب، ألا تتقون ناركم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

أما تحذرون مَن خوَّف وشَدَّد، أما وعدكم على الذنوب وهدَّد، أما النُّذر إليكم كلَّ وقت تتردَّد (١)، ولو شاء أبادكم. ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

أين شكركم للنِّعم، إلى كم مزاحمة النَّعَم (٢) متى يُدعى العاصي فيقول نعم، ألم يَصرف عنكم فنون الألم ولا يرى إلا نِفاركم ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

كم صبركم على بلايانا معدوم وعزمكم على طاعاتنا مهزوم (٣)، ومعاملتكم لنا ما تدوم، وقد جمعتم ذنوب مَدْين وسَدُوم (٤).

فابتدروا استغفاركم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

والحمد لله وحده.

* * *

---

(١) أ: أما المنذر إليكم كل يوم يتردد.
(٢) النعم: البهائم.
(٣) أ: مهدوم.
(٤) قرية قوم لوط التي دمَّرها الله سبحانه.

المجلس الثاني عشر

في ذكر الشكر

الحمد للَّه الذي تابَع الإنعام وواصل، وحَلم على الأنام وما عاجَل، وعفا عن الإجرام فما قابل، تقدَّس عن مشابهة [1] الخلق [فما ماثَل] [2] ولا شاكل، لا تَلْجَج [3] في صفاته فالسعيد مَنْ ساحَل [4]، جَلَّ عن قول المبتدعة فالمشبِّه تحامق والمعطِّل تجاهل، بل هو موصوف بمذهب أهل السُّنة ومن شاء باهل [5]، أحمده إذ لَطف وساهل، وأقرُّ له بالتوحيد إقرار مُخلص عامل. وأن محمدًا عبده ورسوله فما وَني ولا تغافل صلى اللَّه عليه وعلى سيد من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا من تحامل، وعلى عُمر الذي عَدله مشهور متداول، وعلى عثمان الذي تقاضته الشهادة دَينها فما ماطَل، وعلى عليٍّ الذي دمغ الكفر واستاصل، وعلى عمِّه العباس الذي حاذاه في النَّسب وقابل.

وصلوات اللَّه على أزواج النبي المبرَّآت من قول كلِّ زنديق تناول. اللَّهم يا من أظهر الجميل وجامَل، وإذا نشر رداء الرحمة غدا يتطاول من تطاول، انفعني والحاضرين بما نَشْرع فيه ونتشاغل.

عباد اللَّه قد توفرت النعم عليكم فاشكروا، وقد أعطيتم ما لم تَسألوا فاذكروا واعرفوا الـمُنعِم [6]، واعلموا أن النعم منه، وتعبَّدوا بشكره [7] وقُصُّوا أجنحة النعم بمقراض الشكر، فقلَّ أن تنفر فتعود [8] [واحذروا لباس البطر في النعم واطلبوا بالشكر المزيد] [9].

قال اللَّه ﷻ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [10]، وقال معاذ ﷺ قال لي رسول اللَّه ﷺ: إني أحبك فقلْ: اللَّهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك [11].

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن أبي الزِّناد عن القاسم بن محمد عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما أنعم اللَّه ﷻ على عبد نعمة فعلم أنها من عند اللَّه إلا كتب

---

(١) أ: عن مماثلة. (٢) من « ش ». (٣) أي لا تجادل.

(٤) ساحل: بقي على الساحل ولم يدخل في لجة البحر.

(٥) المباهلة: التلاعن. أي الدعاء باللعنة على الكاذب من الفريقين.

(٦) « ش » واعرفوا النعم. (٧) ش: ونعبده ونشكره. (٨) أ: وتعود.

(٩) من « ش ». (١٠) سورة إبراهيم: ٧.

(١١) رواه النسائي في سننه، كتاب السهو، حديث رقم: ٦٠.

اللَّه له شكرها. وما علم اللَّه من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفر، وإن العبد (١) ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد اللَّه ﷻ فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر اللَّه له » (٢).

- **واعلم أن النعم كثيرة** أولها توفيق اللَّه تعالى وإرشاده إلى الهدى، ثم يتبعه طهارة الباطن من الأدناس وتزيينه بالعلم وما يوجب فضيلة النفس، ثم يتبعه صِحَّة البدن وقوته وجمال خلقه، وما هو سبب في بقائه من مال وغيره.

وقد رُوِّينا أن المأمون استعرض جيشًا فعرض رجل قبيح الصورة فاستنطقه فإذا هو ألكن (٣)، فأسقط اسمه من الديوان وقال: إذا أشرقت الروح على الظاهر فصَباحة، أو على الباطن ففصَاحة، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن!

ومن تفكَّر في أقلِّ نعمة عَلِم أن شكرها لا يستوعبها، ولو ذكرنا نعمة واحدة لما أحطنا بحواشيها. ولكن انظر إلى أن اللَّه ﷻ جعل سبب بقاء الآدمي القُوت، فمن النعمة تهيئة المتناوَل والمتناوِل. فأما المتناوَل فالحَبُّ مثلًا، فلو أنك تناولت الموجود فَني، ولكن جعله ناشئًا بالزرع، فإذا بذره الحرَّاث افتقر إلى الميرة وتنقية الأرض من الحشيش، وجعل في الزرع قوة يَجتذبُ بها الغذاء إلى نَفسه مِن جهة أصله وعروقه التي في الأرض، ثم يجتذب ذلك في العروق الدقيقة التي تظهر غليظة الأصول في الورقة ثم تستدقُّ إلى عروق شَعْرية تُبسط في جميع الورقة، وكما أنك تتغذى بطعام مخصوص إذ الخشب لا يغذيك، فكذلك النبات يفتقر إلى الماء والهواء والتراب والحرارة، فانظر كيف سخَّر له الغيوم وبعث الرياح في وقت الحاجة، وسخَّر حرارة الشمس، فلمَّا افتقرت الأغذية إلى رطوبة خَلق القمر فهو يُنْضج الفواكه ويصبغها، فإذا تكامل البذر افتقر إلى الحصاد والفرك والتنقية والطحن والعجن والخبز.

ولو تأمَّلت ما يفتقر إليه كل شيء من ذلك طال؛ لأنك إذا نظرت في آلة الحرَّاث رأيتها محتاجة إلى نجَّار وحدَّاد وغير ذلك، فما يستدير رغيف حتى يعمل فيه عالَمٌ كثير، من الملَك الذي يسوق السحاب إلى أن نأكله. ثم جعل (٤) لك ميلًا إليه وشوقًا بالطبع (٥) لأنك لو رأيته ولم يكن لك إليه شوق لم تطلبه، فجعلت شهوتك إليه كالمتقاضي، فإذا أخذت مقدار الحاجة سكنت تلك الشهوة، وكذلك شهوة الوِقاع ليبقى النَّسل.

---

(١) في « ش »: الرجل.

(٢) الحديث: رواه ابن أبي الدنيا والحاكم والبيهقي وقال الحاكم: رواته لا أعلم فيهم مجروحًا. الترغيب والترهيب: ٣/٦٤.

(٣) الألكن: الذي في لسانه لكنة، أي عدم فصاحة.

(٤) ش: ولما تمَّ جعل لك.

(٥) ش: في الطبع.

وقد يكون ما تحتاج إليه في [غَيْر] بلدك، فيلقي الحرصَ في قلوب التجار فينقلونه إليك.

فإذا تناولت الطعام ألقيته في دهليز الفم وبذلك لا يتهيَّأ ابتلاعه، فخلق الأسنان تقطعه والأضراس تطحنه، وجعل الرَّحى الأسفل يدور دون الأعلى لئلا يخاطر بالأعضاء الشريفة. ولستَ ترى رحى قط يدور أسفلها.

ولما كان المطحون يفتقر إلى تقليب ليطحن ما لم يطحن خلق اللسان يقلِّبه، ثم لا سبيل إلى بلعه إلا أن يُزْلق بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق [تحت] [١] اللسان عينًا يفيض اللعاب منها بقدر الحاجة، فيُعجن به الطعام، ألا تراها إذا دنا منك الطعام تنهض للخدمة فتتحلَّب؟!

ثم هيَّأ المريء والحنجرة لبلعه، فينهوي [٢] في دهليز المريء إلى المعدة فينطبخ [٣] هناك ويصير مائعًا ثم تصبغه الكبدُ بلون الدم وتنضجه، فتبعث [٤] إلى الأعضاء في العروق ما تحتاج إليه وتبقى فضلتان أحدهما شبيه بالدُّردى [٥] والعكر وهو الخليط السَّوداوي، والأخرى شبيه بالرغوة وهي الصفراء، فخلق الطحال يجذب العكر والمرارة تجذب الصفراء فيبقى الدم صافيًا.

وإنما يقلُّ الشكر أو تقال لفظة « الحمد للَّه » على سبيل الغفلة من جهة الجهل بالـمُنعِم وقلَّة المعرفة بمقدار النعمة.

ويدلُّك على الجهل أنك لو حُبست في حمَّام فخرجت إلى الهواء البارد وجدت لذة لم تجدها وذلك النَّفس هو الدائم، غير أن الضدَّ عرَّفك قدره.

ولو ذكرنا الظاهر من النِّعم لمضت أيام ولم نُحط بمعشارها.

وإن من أعجب النعم حبس هذه النار التي هي من ضرورات البقاء لإصلاح القوت وغيره، فتمسك بالمادة [٦] وقت الحاجة ثم تذهب ولو بقيت في العالم دائمة لأفسدته.

وهذا الهواء الُمستنشَق [٧] وآلة الاستنشاق تروح القلب بنفس بارد وتخرج فيه حرارة، ولو كانت باجتهادك لنفسك لبطلتْ وقت نومك، وكان القلب يهلك، بل الخدم في الخدمة وأنت نائم، فلا التنفس يفتر، ولا المعدة تبطل.

* * *

---

(١) سقطت من أ. (٢) أ: فيهوى. (٣) أ: فيطبخ.

(٤) أ: فتنبعث. (٥) الدردي: ما يبقى أسفل الزيت.

(٦) أ: بالماء، محرفة. (٧) أ: المستنفس. محرفة.

فيا غافلًا عن النعم زاحمت بالغَفلة النَّعَم ما تعرف من الطعام إلا الأكل، ولا من الماء إلا الشرب، وتتكاسل عن لفظ الحمد، ثم تنفق النِّعم على معاصي المُنعِم.

يا عديم العقل وليس بمجنون، يا راقدًا في غفلته وليس بنائم، يا ميتًا في حياته وليس بمقبور، افتح بَصَر البصيرة ترَ العجائب وإن ترقَّيت بفهمك علمت أن ما بين يديك أعجب، وإنما هذه الدار كالمكتب يخرج منه الصبيان بين حاذق وبين غافل لم يتعلم.

* * *

الكلام على البسملة

الموت في كل حين ينشر الكَفَنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنَا
لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفها ... وإن توشَّحت من أثوابها الحَسنَا
أين الأحبةُ والجيران ما فعلوا ... أين الذين هُم كانوا لنا سكنا
سقاهم الدهر كأسًا غير صافيةٍ ... فصيَّرتهم لأطباق الثَّرى رهْنَا

يا هذا كم أناديك فلا تسمع، كم أحركك فلا تتبع، كم أهدِّدك فلا تخشع:

والعاجزان الغالبان معاقَبٌ ... لا يَرعوي ومُعاتَبٌ لا يسمعُ

يا عبد السوء ما تجيء حتى تُسْحب، ولا تبكي حتى تُضْرب؟!

إذا احتُضر العاصي تشبَّث الروح بالجسد تقول أنت أوقعتني، وإذا احتُضِر المطيع تشبث الجسد بالروح يقول: خلّصني كما تخلَّصت.

مواد الخلق مختلفة، هذا يفكر في جمع الحطام، والهوان يناديه: أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال! وهذا يحمل السلاح في طلب الدنيا والتوبيخ يصيح به:

تفانَى الرجالُ على حبِّها ... وما يَحْصلون على طائلِ

وهذا أسير نَظْرة والحسرة تهتف به شتَّان بين خليٍّ مطُلق وشجٍ، وآخر ليس له همّة إلا آخرته، كأنه عَلَم في رأسه نار، إذا عارضته شهوات العاجلة صاحَ عليها: ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّل.

فإذا رأى مِن طَبعه ميلًا إلى الفاني وضع الهَناء مواضع النَّقَب [١] فهو قائم بالنهار على قدم المراقبة.

كأن رقيبًا منك يَرْعى خواطري

(١) الهناء: القطران الذي تطلى به الإبل الجرباء.

فإذا جنَّ الليل طرب إلى مواطن المناجاة:

لك يا منازل في القلوب منازل (١) ....

فإذا أحسَّ رَكْب: « هل من سائل » رماه سهم الشوق على الجادة.

سهمٌ أصاب وراميه بذي سَلَم

كلما خاف فوت المنى أخذ جَزْر الدموع في المدِّ (٢).

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه (٣) ....

فإذا رقى إلى مقام المحبة ألقاه الحب حَرضًا (٤) على فراش التلف.

يا وَيْح قلبي مِن تقلُّبه ... أبدًا يحنُّ إلى مُعذِّبه

قالوا كتمت هواه من جَلد ... لو أن لي رِيقًا (٥) لبُحْتُ به

قف مع (٦) الأحباب ولو لحظة، صاحب قوَّام الدُّجى ولو ساعةً، امشِ في أعراض رَكبهم ولو خُطْوة، علِّقْ على قطار المقبولين تصل.

تحرَّشْ بأحقابَ اللِّوى غمر ساعة

لو خرجت إلى صحراء الجد رأيت ركائب المجتهدين تُخْدى بهم، مذنبهم ينادي في ظلام الدُّجَى:

وإنّا لنرضى أن تصدُّوا وتَقْربوا ... فردُّوا لنا ذاك الوصال كما كانَا

وحزينهم يهتف:

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيَّهم

وواجدهم يصيح:

أيعلم خالٍ كيف بات المتيَّمُ

---

(١) صدر بيت للمتنبي تمامه:

.... أقفرت أنت وهن منك أواهِل

ديوانه : ص ١٤٨، ط صادر.

(٢) أ: أخذ حد الدمع على الخد.

(٣) صدر بيت لامرئ القيس وعجزه:

.... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

ديوانه : ص ٦٥، تحقيق أبي الفضل، ط ٣.

(٤) الحَرض بفتح الراء وكسرها: المريض. (٥) أ: رمقا. (٦) أ: من.

والعارف يزمزم:

ساكنٌ في القلب يعمره

فلو سكن قلبك بعض ما سكن قلوبَهم تمت عليك نفحة نجدية.

قال سرِي (١) - رحمة اللَّه عليه -: بقيت ثلاثين سنة أدُور وأجُول لعلّي أرى وليًّا من الأولياء:

وأُشْرف بالقَوْز اليَفاع لعلَّني ... أرى نار ليلى أو يراني بصيرها (٢)

ليتني وجدت واحدًا من القوم إنما أسمع نُشْدان الضُّلال وما فيهم من يعطي علامة:

أحقًّا رأيتُ بوادي الغَضَا ... من الحيِّ أو من رآهم خبرْ

أمَا من سبيل إلى نظرةٍ ... تعاد إلينا كلمح البصر

ألفْنا خباهم (٣) إذا ما العيو ... ن عشِقن الكرى ومللن السَّهر

[كان المريد يخرج من دار الحسن فيدخل بيت ابن سيرين، فلما رحلا صار يدخل إلى بيت مالك بن دينار ويخرج إلى منزل ثابت البُناني، فلما رحلا تسلّى بزيارة ضَيْغم وتعلَّل بدار شعوانة، فلما ذهبا صار يقتدي بحزن سفيان ويتلمَّح أطلال رابعة:

أحنُّ إلى وادي العقيق وما يليه ... حنين الحائمات إلى الورود

سقى ذاك الزمان وإن تولَّى ... مدافعُ كل مرتجز الرُّعودِ

كفى حزنًا على الأيام أنِّي ... على الأحباب بالمرمى البعيد] (٤)

كانوا يجتهدون في إخفاء أعمالهم كما يجتهد المرائي في إظهارها، وكلما قال لسان المخلص: لا صاح حاله: بلى (٥).

كان ابن سيرين إذا مشى في السوق هلَّل الناسُ وكبَّروا.

إذا قوِي انزعاجُ الواجد أزعج من لا وَجد عنده: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ (٦). حَنَّ الجِذْع إلى رسول اللَّه ﷺ وبركت ناقته لثقل الوحي.

نبكي وتُسعدنا كومُ المطي فهل ... نحن المشُوقون فيها أمْ مطايانا

---

(١) سري السقطي: هو سري بن المغلس السقطي من كبار المتصوفة بغداديّ المولد والوفاة، توفي سنة : ٢٥٣. الأعلام : ٨٢/٣.

(٢) البيت لمجنون ليلى، انظر ديوانه : ١٤٨. تحقيق عبد الستار فراج: والقوز: الكثيب المشرف: واليفاع: ما ارتفع من الأرض.

(٣) أ: جفاهن.

(٤) سقط من أ.

(٥) في أ: لإصلاح حاله بكى. ولعله تحريف.

(٦) سورة سبأ: ١٠.

ولا ومن فطر الأشياء ما وجَدت توجُدنا العيس بل رقَّت لبلوانا

يا بعيدًا عن الصالحين تسأل عن خِلالهم (١) وتُجانب جميع أفعالهم، تستخبر عن العُذَيْب (٢) وتتوجّه إلى الكوفة:

طَوى الفَلا يسأل عن حاجرٍ وهو إلى رامةٍ مجلوبُ (٣)

ويحك قد عرَّجت عن لَقَم (٤) الهدى فاحذر بئر بوَّان (٥).

تياسَرْت بهنَّ جائرًا عن الحِمَى فاعدل بها يمينا

ويحك ما بباب القرب بوَّاب ولا دون كعبة الوِصال حُجَّاب، ولا على عروس المحبة نِقاب. مَن عاملنا بقلبه ربح، من سمع منا بلُبِّه طَرِب، من تلمَّح عزَّ جلالنا رَهب (٦)، من شرب مِن كأس حبِّنا روى، من أصغى باليقظة إلى حديثنا وعى، من زاحم الحُجَّاب رأى، من عبق بنشر الأنس فاحت ريحه، من أمكنه المشافهة استغنى عن الوسيط.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا... ﴾ (٧)

الآيات: الحُجج والأعلام التي تدلُّ على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى ونبوّة أنبيائه.

﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا ﴾ أي تكبروا عن الإيمان بها.

﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ... ۝٤٠ ﴾ قال ابن عبَّاسٍ: لا تفتَّح لأرواحهم. والأحاديث تشهد به.

أخبرنا ابن الحُصَين بسنده، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميِّت تَحضره الملائكة، فإن كان الرجل صالحًا قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة (٨) كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدةً وأبشري بروح وريحان وربٍّ غير غضبان. قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج. ثم يُعرج بها إلى السماء فيُستفتح لها فيقال من هذا؟! فيقال فلان. فيقولون مرحبًا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدةً وأبشري بروح وريحان وربٍّ غير غضبان.

---

(١) أ: عن حالهم. (٢) العذيب: موضع من أربعة مواضع. أو هو ماء.

(٣) حاجر: موضع في ديار بني تميم. (٤) اللقم: وسط الطريق.

(٥) بوّان كشداد: بفارس، إحدى الجنان الأربع الدنيوية.

(٦) أ: دهش. (٧) سورة الأعراف: ٤٠. (٨) أ: الطيبة.

وإذا كان الرجل السُّوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق وآخر مِن شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج. ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلان فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر » [١].

قال أحمد: وحدَّثنا أبو معاوية قال: حدَّثنا الأعمش بسنده، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يُلحَد، فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله كأنَّ على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: « استعيذوا باللَّه من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثًا. ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة مِن السماء بيض الوجوه كأنَّ وجوههم الشمس معهم كفن مِن أكفان الجنة وحَنُوط مِن حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من اللَّه ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة مِنْ في السِّقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مِسْك على وجه الأرض. قال: فيصعدون بها فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمُّونه بها في الدنيا حتى ينتهوا [٢] بها إلى السماء السابعة فيقول اللَّه تبارك وتعالى: اكتبوا كتاب عبدي في علِّيين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربي اللَّه. فيقولون له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللَّه، فيقولان له: وما عِلمك فيقول: قرأتُ كتاب اللَّه فآمنتُ به وصدّقتُ. فينادي مُنادٍ من السماء: أنْ صدَق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها ويفسح له في قبره مدُّ البصر [٣]. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: ربِّ أقِم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٢/ ٣٦٤ (٢) الأصل: حتى ينتهون. (٣) « ش »: مد بصره.

قال: وإنّ العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل إليه من السماء ملائكة سُود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مدَّ البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من اللَّه وغضب. قال: فتفرَّق في جسده فينزعها كما ينتزع السَّفود [١] من الصوف المبلول قال: فيأخذها وإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنْتَن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له. ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ... ﴿٤٠﴾ ﴾. فيقول اللَّه ﷻ: اكتبوا كتابه في سجِّين وتطرح به الريح في مكان سحيق، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مُنَادٍ من السماء: أنْ كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار. فيأتيها من حَرِّها وسمومها، ويضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب مُنْتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشرِّ؟ فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: ربِّ لا تقُمْ الساعة [٢].

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾:

(**الجمل**): الحيوان المعروف. وروى مُجَاهِد عن ابنِ عبَّاسٍ الجُمّل بضم الجيم وتشديد الميم. وقال: هو حَبْل السفينة وقرأ قَتَادة: الجمل بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها. قال ابن الأنباري: يحتمل أمرين: يجوز أن تكون بمعنى الذي قبلها ويجوز أن تكون بمعنى جملة من الحبال كما يقال: حُجْرة وحُجَر. وقرأ عكرمة: الجُمل بضم الجيم وإسكان الميم. قال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون بمعنى الجمل وبمعنى جملة مثل بُسْرة وبُسَر وقرأ الضحاك: ﴿ الجُمُل ﴾ بضم الجيم والميم والتخفيف وهو على جمع جمال كما يقال: ثمار وثمر. (**والخياط**): الإبرة. **وسَمُّها** ثُقبها. **والمعنى:** لا يدخلون الجنة أبدًا وهذا كما تقول العرب لا أكلمك حتى يشيب الغراب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يعني الكافرين، **والمعنى:** أنهم لا يدخلون الجنة.

---

(١) السَّفُّود: حديدة يشوى بها.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/٢٨٧.

قوله تعالى:

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ... ﴿٤١﴾ ﴾

جهنَّم: مأخوذة من بئرٍ جَهْنام إذا كانت بعيدة القعر « مِهَاد » وهو الفِراش ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ... ﴿٤١﴾ ﴾ وهي اللُّحف والمراد ما يَغشاهم من النار.

يبكون ولا ينفع، ويعتذرون ولا يُسمع. قال أبو موسى: يبكي أهل النار الدموع حتى تنقطع ثم يبكون الدماء حتى لو أُرسلت [١] فيها السفن لجرت.

يا أيها العاصي مثِّل نفسكَ في زاوية من زوايا جهنم وأنت تبكي الليل والنهار، وأبوابها مُغلقة وسُقُوفها مُطْبقة، وهي سوداء مظلمة لا رفيق تأنس به، ولا صديق تشكو إليه ولا موت فيريح ولا نفَسٌ به تستريح.

سجع على قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾:

سبحان من قضى عليهم بهذا المعاش، يبكون ولا ينفع البكاء والإجهاش، أكثر حسراتهم ماء فالكلُّ عِطاش، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

يتلقَّون بوجوههم النار، قد غُلَّت اليمين واليسار، غَضِبَ عليهم ذو القدرة فأنفذ فيهم أمره، فما يقدرون على قطرة ولا على رشاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

وذهبتْ حيلة الجبَّار البطَّاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

عذابهم ملازم مُشَابك، والهمُّ متصلٌ متدارك، الحيُّ من أولئك كأنَّه ما عاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

لا من الأحياء هُم ولا من الأموات، يتقلبون في أنواع البليّات، تخرج عليهم العقارب والحيَّات خروج الطير من الأعشاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

لا تسأل عن صفاتهم ولا تستخبر عن حالاتهم، استخرجَ العذاب جميع لذَّاتهم في الدنيا بمنقاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

يا ضِيق تلك الحبوس، يا حسرة ذاك المحبوس، يتقلَّبون في أقبح بوس منكِّسين الرؤوس بعد طول الهَشاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

قد علم كلٌّ أنه مقيم قاطن، ورجاؤهم للخلاص ميئوس شاطن [٢]. وقد توغَّل التعذيب لهم [٣] في البواطن في دواخل المُشاش: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

---

(١) كذا في « ش »، وفي أ: لو سالت. (٢) الشاطن: البعيد. (٣) أ: لهم العذاب.

يقطِّعون أنفسهم بالملام، ولا يُسمع لهم عُذر ولا كلام، وهم في شديد الظلام لا ضوء للأغباش [١] ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

لا روح لهم ولا نفس، ولا صباح ولا غَلس، ولا يُفتَّر في الخُلَس [٢].

أسفًا لهذا من تَعَس وما له انتعاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

تعبوا من الاستغاثة فكَلُّوا، وضجروا من الاعتذار ومَلُّوا، وسحبوا [٣] في جهنَّم فذلُّوا وكم كان يخدمهم فرَّاش ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

فتهيَّأ أيها العاصي لِلَظى، فما لك من عمل يصلح للرضا، يا مَن عمره كله قد مضى في لاش [٤] ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.

* * *
* *
*

---

(١) أ: إلا غباش.

(٢) الخلس: جمع خلسة وهي الفرصة.

(٣) أ: وسجنوا.

(٤) لا ش: لا شيء.

المجلس الثالث عشر

في ذكر الخوف

الحمد للَّه الذي عن قضائه تصْدر الحوادث، وبتحريكه تُزْعج البواعث [١]، ومن خيفته تسكن العوابث، وبتمكينه يدرك الباحث، وإلى بابه يرجع المخالف الناكث، وما اجتمع اثنان على سرٍّ إلا وعِلْمه الثالث، أحمده على كل حال حادث، وأقرّ بأنه الأوّل وأنه الوارث، وأصلِّي على رسوله محمد الذي جَدَّ في التبليغ غير رائث [٢]، ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [٣] صلَّى اللَّه عليه وعلى أبي بكر المقيم معه في حياته وفي مماته الماكث، وعلى عُمر الذي زعزع كسرى وهو بالمدينة لابث، وعلى عثمان الذي كان طول الليل للقرآن يحادِث، وعلى عليٍّ الذي إذا بارز نُسِي أبو الحارث، وعلى عمِّه العبَّاس المُسْتَسْقَى بشَيْبته، فسكرت البِقَاع الدوامث [٤].

* * *

قال اللَّه ﷻ:

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ... ﴾ [٥]

والخوف واجب على كل مؤمن، **وهو واقع بأسباب:**

فمنها: الخوف بسابق الذنب [٦].

ومنها: حذر التقصير في الواجبات.

ومنها: الخوف من السابقة أن تكون على ما يكْره.

ومنها: خوف الإجلال والتعظيم كما قال ﷻ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [٧].
ومن تفكَّر فيما قُضي عليه من السابق لم يزل مُنْزعِجًا خائفًا خوفًا لا يملك ردَّه.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ وفي يده كتابان فقال: « أتدرون ما هذان الكتابان؟ » قلنا: لا. فقال للذي في يده اليُمْنَى:

---

(١) أ: ومن سطوته تنزعج البواعث.
(٢) الريث: البطء والتأخر.
(٣) سورة الأعراف: ١٧٥.
(٤) سكرت: ملئت. والدوامث: جمع دامث وهي السهلة.
(٥) سورة آل عمران: ١٧٥.
(٦) أ: الذنوب.
(٧) سورة النحل: ٥٠.

« هذا كتاب من ربِّ العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم لا يزاد فيهم ولا يُنْقص منهم أبدًا »، ثم قال للذي في يساره: « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء قبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا » (١).

- واعلم أن الخوف إذا أفْرط قَتَل، والمحمود منه المتوسط وهو الذي يقمع الشهوات ويكدِّر اللذات ويكفّ الجوارحَ عن المعاصي ويُلْزمها الطاعة وقد يُنْحل البدن، ويزيد به البكاء ولذلك قيل: ليس الخائف من بكى وعصَر عينيه، إنما الخائف مَنْ ترك ما يقدر عليه.

وكان أحمد بن حنبل ﷺ يقول: الخوف يمنعني من أكل الطعام، فما أشتهيه.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن العبَّاس (٢) بن عبد المطلب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا اقشعَرَّ جِلْد العبد من مخافة اللَّه تعالى تَحاتَّتْ عنه ذنوبه كما تُحاتُّ عن الشجرة اليابسة أوراقها » (٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها: قلتُ يا رسول اللَّه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (٤) هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: « لا بل هو الرجل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق ويخاف أن لا يُقْبل منه » (٥).

وكيف لا يخاف من لا يدري أقُبلت طاعته أم لا، أغُفِر زَلَله أم لا، ثم لا يدري ما يُخْتَم له به.

ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: « إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار » (٦).

وأما خوف الإجلال فكخوف الملائكة. وقد رُوِّينا عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للَّه ملائكة تُرعَد فرائصهم من مخافة اللَّه تعالى، ما منهم مَلَك تَقْطر دمعةٌ من عينه إلا وقعت تسبح، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك ».

وقال ﷺ: « لما كانت ليلة أُسْري بي رأيت جبريل كالحِلْس البالِي مُلْقًى من خشية اللَّه تعالى » (٧).

---

(١) رواه أحمد في مسنده : ١٦٧/٢. وبقيته: « فقال أصحاب رسول اللَّه ﷺ: فلأي شيء نعمل إن هذا أمرًا قد فُرِغ منه؟ فقال ﷺ: « سدِّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة... ».

(٢) أ: عن أم كلثوم بنت العبَّاس.

(٣) رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب والبيهقي. الترغيب والترهيب : ١٢٥/٤.

(٤) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره : ٣٣/١٨، ٣٤.

(٦) صحيح البُخَارِي، كتاب الجهاد، باب رقم : ٧٧. (٧) لم أجده في شيء من الكُتُب المعتمدة.

وقال أبو عمران الجَوْني: بلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي فقال: ما يبكيك؟ قال: « ما جَفَّت لي عينٌ مذ خلق اللَّه جهنم مخافة أن أعصيه [1] فيلقيني فيها ».

وقال يزيد الرَّقَاشِيّ: إن للَّه ملائكة حول العرش تجري دموعهم [2] مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنما تَنْفضهم الريح من خشية اللَّه تعالى، فيقول لهم الربُّ عز وجل: ما الذي يخيفكم؟ فيقولون: لو أن أهل الأرض اطَّلعوا من عزَّتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ما أساغوا طعامًا ولا شرابًا.

وبكى آدم عليه السلام لمَّا خرج من الجنة ثلاثمائة [سنة]. وكذلك بكى نوحٌ لما عُوتِب في ابنه. وكان الخليل عليه السلام إذا قام في الصلاة يُسْمع لصدره أزيزٌ من شدَّة الخوف، وكذلك كان نبينا ﷺ [3].

وبكاء داود عليه السلام وخوفه معلوم، وكذلك جميع الأنبياء.

وكذلك خَوْف الصحابة، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: ليتني شجرة تُعْضد وكان عمر رضي الله عنه يسمع الآية فيمرض أيامًا. وقال عثمان: ودِدْت أنِّي إذا مِتّ لا أبعث. وقال علي رضي الله عنه يوم الجَمل: ودِدْت أنِّي مِت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وكان أبو عبيدة يقول [4]: وددت أنِّي كنت كبشًا يأكلني أهلي! وقال ابن مسعود: لو وقفتُ بين الجنة والنار فخيِّرت بينهما أو أكون ترابًا لاخترت أن أكون ترابًا.

وقال عِمران بن حُصَين: يا ليتني رماد تَذْرُوه الرياح.

وقال عبد اللَّه بن عمرو: ليتني كنت لَبِنةَ. وقالت عائشة: ليتني كنت نَسْيًا مَنْسيًّا.

وكذلك خَوْف التابعين ومَنْ بعدهم.

قال هَرِم بن حَبّان: وددت أني شجرة أكلتني ناقة ولم أكابد الحساب إني أخاف الداهية الكبرى.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغيَّر لونه ويقول: أتدرون بين يدي من أريد أقُوم؟!

وكان الحسن كأنه أسير قد قُدِّم لتضرب عنُقه، وكان يقول: ما يُؤَمِّنني أن يكون اطَّلع على بعض ذنوبي فقال: اذهب لا غفرتُ لك؟

وكان طاوس يفرش فراشه ثم يضطجع عليه ثم يَثِبُ فيُدْرجه ويقول: طيَّر ذِكْرُ جهنَّم نومَ العابدين.

---

(١) أ: أن أغضبه.

(٢) أ: تجري أعينهم.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة : ١٥٧.

(٤) ش: وقال أبو عبيدة.

وكان مالك بن دينار يقول [١]: ودِدْت أن اللَّه تعالى أذن لي يومَ القيامة أن أسجد سجدة فأعرف أنه قد رضي عني ثم يقول كُن ترابًا.

وصلَّى زُرَارة بن أوفى بأصحابه صلاة الغَداة فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [٢] خرَّ ميتًا.

وقال يزيد بن حَوْشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تُخْلق إلا لهما!

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده عن يزيد بن محمد بن مسلمة بن عبد الملك، قال: حدثني مولى لنا قال: بكتْ فاطمة بنت عبد الملك حتى عَشَي [٣] بصرُها، فدخل عليها أخواها مَسْلمة وهشام فقالا: ما هذا الأمر الذي قد دُمْت عليه أَجَزعك على بعلك؟ فأحقّ من جزع على مثله؟ أم على شيء فاتك من الدنيا فها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا. فقالت: لا من كلٍّ جزعت ولا على واحد منهما أسِفْت، ولكني واللَّه رأيت منه ليلة منظرًا فعلمتُ أن الذي أخرجه إلى الذي رأيت منه هول عظيم قد أُسكن في قلبه معرفته، رأيته ذات ليلة قائمًا يُصلِّي فأتى على هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [٤]. فصاح: واسوء صباحاه، ثم وثب، فسقط فجعل يخور حتى ظننت أن نَفْسه ستخرج، ثم هدأ فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق إفاقة فنادى: واسوء صباحاه! ثم ذهب [٥]، فجعل يجول في الدار ويقول: ويلي من يومٍ يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش. فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط [٦] كأنه ميت، فواللَّه ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتني عيناي فلم أملك ردَّ عَبْرتي.

وقال ابن السَّماك: دخلت على عابد فقال: إن للناس موقفًا لا بد أن يقفوه. فقلت: بين يدي من؟ فشهق ثم مات. وقال داود الطائي: لوددت أني نجوت [٧] من النار فأصير رمادًا.

* * *

فهذا خوف القوم. ونحن أحقّ بالخوف منهم، غير أن الخوف يكون بمقدار صفاء القلوب وقوة المعرفة، وإنما أمِنَّا لغلبان الجهل. **وما يحتاج إلى النظر في أسباب الرجاء**؛ لأنها قوية عندنا، فإنا نقول لمن خفنا عليه من غلبة الخوف عدِّل ما عندك من الرجاء إلَّا أنه ينبغي أن نتوب ونرجو القبول، ونبذر ونرجو الحصاد، فأما الرجاء مع العصيان فحماقة، وإنما موضعه ما ذكرناه.

---

(١) ش: وقال مالك بن دينار. (٢) سورة المدثر: ٨.
(٣) عشى - بفتح الشين وكسرها: ضعف. (٤) سورة القارعة: ٤.
(٥) أ: ثم وثب. (٦) أ: وسقط. (٧) أ: أني أنجو.

وفي الصحيحين أن اللَّه ﷻ يقول: « أنا عند ظنِّ عبدي بي فليظن بي خيرًا » (١).
وفي الصحيحين: « سدِّدوا وقاربوا وأبشروا » (٢) وفي أفراد مسلم: « لا يموتنَّ أحد إلا وهو يحسن باللَّه الظنَّ » ودخل رسول اللَّه ﷺ على رجل وهو في النزع، فقال: « كيف تجدك؟ » فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربِّي. فقال ﷺ: « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في هذا الموطن إلا أعطاه اللَّه ما رجاه وأمَّنه مما يخاف » (٣).

فإذا اشتدَّ خوف المؤمن (٤) لذنب تقدَّم منه فليرجُ العفو وليحذر القنوط وليعلم أن مراد الحقِّ منه التوبة والاستغفار.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب اللَّه ﷻ بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » (٥).

وقال أحمد: وحدثنا أبو سلمة بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن إبليس قال لربِّه ﷻ: وعزَّتِك (٦) وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال اللَّه ﷻ: وعزَّتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني » (٧).

* * *

الكلام على البسملة

يا خَلْقًا استَجْمِعِوا ... لتوعظوا فتسمعوا
إيـاكـمُ أن تبخلوا ... إيَّاكم أن تمنعوا
فكل شيء غير ما ... قدَّمتم لا ينفعُ
وكل مخلوق له ... من المنايا مَصْرعُ
إنكم لن تحصدوا ... إلا الذي قد تَزْرعوا
فهذه الشمس التي ... كان يراها تُبَّعُ
وهي التي كانت على ... جبال عاد تَطْلع

(١) صحيح البُخَارِي، كتاب التوحيد، باب رقم : ١٥.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٨١، ٨٢.
(٣) رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث غريب. قال الحافظ المنذري: إسناده حسن، الترغيب والترهيب : ١٢٧/٤.
(٤) أ: المذنب.
(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، حديث رقم : ١١.
(٦) ش: بعزَّتك.
(٧) مسند أحمد : ٢٩/٣ - ٤١.

ونحن سَفْر خَلْفنا للموت حادٍ مسرع

فبادروا توباتكم من قبل ما لا يدفع

إخواني: حزن التائب طويل المُدد، قلق المذنب متصل المَدَد، كلما هبَّت رياح التذكر للزلل عاش عنده جَمْر القلق، فيصيح الأجل بالمرقد.

خذا من صَبَا نجدْ أمانًا لقلبه [١] ....

ولو لم يأتِ « لو لم تذنبوا » [٢] لعاجله التلف.

قال عطاء السلمي: خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشباب يصلُّون الفجر بوضوء العشاء وقد تورَّمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤوسهم، ولصقت جلودهم على عظامهم وكأنهم خرجوا من القبور، فبينا هم يمشون إذ مر بمكان فخرَّ مغشيًّا عليه فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقًا، فلمَّا أفاق سألوه عن حاله فقال: إني كنت عصيت اللَّه في ذلك المكان!

يا معاشر المذنبين: ألا تستحيون من قلَّة الحياء؟ فالحرُّ تكفيه الملامة. إلى متى تمشون على وجوهكم إلى ما يسقط جاهكم؟!

قِفُوا في الفَلا حيث انتهيتم تذمُّما ولا تقتفوا مَنْ جار لمَّا تحكَّما

ما تفي لذَّة التأمر على الهوى والتولِّي؛ بمرارة الانصراف والتولِّي، كلَّا بين الولاية والصرف صرف!

يا هذا كنت في الشباب على راحلة هي القوة، وأنت في الكهولة ماشٍ، فبادر المجاهدة قبل زحوف الهرم:

من لم يقم للمجد قبل مشيبه وخمود شهوته فليس بقائمِ

قف على الباب باكيًا، وارفع قصة الندم شاكيًا، ونادِ في نادي الأسى بصوت من أسا: أنا المسيء المذنب الخاطى.

ما بقي في يديك إلا البكاء ولا لقلبك إلا التحسُّر، ولا لفؤادك إلا القلق، البدار البدار فقد ضاق الوقت:

---

(١) صدر بيت لابن الخيَّاط وعجزه:

.... فقد كاد ريَّاها يطير بلبه.

وهو من تسعة أبيات أوردها العاملي في الكشكول : ٢٤٧/١. تحقيق الشيخ طاهر الزاوي.

(٢) يشير إلى الحديث الشريف: « لو لم تذنبوا لذهب اللَّه ﷻ بكم... » وقد سبق إيراده.

كفى مؤْذنًا باقتراب الأجلْ ... شبابٌ تولَّي وشيبٌ نَزلْ
وموت اللِّدات [١] وهل بعده ... بقاء يؤمِّله مَنْ عقَلْ
إذا ارتحلت قرناء الفتى ... على حكم ريب المنون ارتحل
هو الموت لا محتمَى للنفوس ... من خطبه بالرُّقي والحِيَلْ
إذا صال كان سواء عليه ... مَنْ عزَّ من كل حيٍّ وذلّ
فيا ويح نفسي أمَا تَرْعوى ... وقد ذهب العمر إلا الأقل

من عرف جزيل ما فات وقليل ما حصَّل بكى على قبح الغبن:

قد جَلا السُّلْوان ما اشتبها ... وصحا السكران وانتبها
ونهى عنه غوايتَه ... وازعٌ من عقله ونُهى
اهتدى بعد الضلال وكم ... حاز مِنْ طغيانه عَمَها [٢]

أمرُّ الفراق ما كان بعد الوصال، كما أن أشدَّ الظلمة ما كان بعد ضوء. لو لم يرَ آدم الجنة هان عليه العيش الخشن، لكنه أذيق حلاوة الرضاع ثم بغته الفطام وكان جبريل إذا رآه يقلق يسأله عن حاله ولسان حاله يقول:

وإني وحقِّك منذ ارتَحلْتُ ... نهاري حنينٌ وليلي أنين
وإني وحبِّك مُذْ بِنْتُ عنك ... فقلبي حزين ودمعي هَتُون
فللَّه أيامنا الخاليات ... لو ردَّ سالفَ دهرٍ حنين
إذا قلت أَسْلوك قال الغرا ... م هيهات ذلك ما لا يكون
وهل لي في سلوةٍ مَطْمع ... وصبري خئون وودي أمين!

كان آدم عليه السلام كلما تذكَّر ما كان فيه ترقَّى القلب بريح الزفرات إلى فِيه، أَلِفَ وطن النعيم فاغترب، ولقي في سفر الغربة العجب، كان يكتب إلى وطنه بمداد الدمع ويبعث المكتوب مع الصُّعداء:

أيا فَنن الأرطاة حُيِّيت من فَنن ... ووقيت صَرْف الحادثات من الزمنْ
تذكرتُ طيب العيش إذ نحن جيرةٌ ... بقربك والذكرى تهيِّج ما سكن
ليالي من طيب الوصال [٣] سهادها ... أحب إلى الوسنان من لذة الوسَنْ
وقائلة لمَّا رأت من تذكُّري ... دليلًا على فرط الصبابة والحزَنْ

---

(١) اللدات: الأقران. (٢) العمه: التردد والتحير. (٣) ش: من طيب الرقاد.

تسلَّ ولا تَبْكِ الديار صبابةً ... فمثلك لا يبكي المواطن والدِّمَنْ
إذا كنت أُدعى بالوفاء ولم أكن ... ودودًا لمن أهوى فلست به إذَنْ

كان جبريل ﷺ يرثي لبكائه ويقول: يا آدم ما هذا القلق؟ ولسان حاله يجيب:

سبيلي أنْ أستنجد الصبر عنهمُ ... وذاك سبيلٌ ما إليه سبيلُ
يقولون لي: هل في فؤادك لوعةٌ ... وهل فيه إلا لوعة وغليل!

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ... ﴾ (١)

الهاء كناية عن القرآن، **والمعنى**: أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والدين المستقيم، فهو حقٌّ ونزوله حقٌّ. وقال أبو سليمان الدمشقي: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ ﴾ أي بالتوحيد ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ يعني (٢): الوعد والوعيد والأمر والنهي.

سجع على قوله: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾:

هذا هو الكلام القديم، هذا كلام السميع العليم، هذا الذي منه تكلَّم به في الأزل، ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

هذا كلام الرحمن، هذا المسموع بالآذان، هذا الدليل والبرهان، هذا الذي إذا سمعه الشيطان ولَّى واعتزل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

هذا كلام ذي العزَّة والعُلا، هذا الذي أعجز جميع الفصحا، هذا الذي من فوق السماء نزل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

وقد وصف نفسه به بأن قال جلَّ المتكلِّم به، فإنه لا يزال كلّا ولم يزل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

هذا الذي حيَّر الألباب، فلمَّا قصد مُسيلِمة الكذَّاب معارضته ومناقضته خاب، أتراه لعب أو هزل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

عارَض (٣): ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ (٤) بالخابزات خبزًا ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ (٥) بالثاردات

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٥. (٢) أ: أي الوعد. (٣) أ: عارضه.
(٤) سورة النازعات: ١. (٥) سورة النازعات: ٢.

ثردًا. ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ (١) بالآكلات أكلًا، أحسن من هذا لو عقل (٢): ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

كلام جبريل يستملُّه، وعلى نبينا يُملُّه، كلام هو جدٌّ كله لا لهو فيه ولا هزل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

يدفع غواة الناس والجِنَّة، ويصل بتاليه إلى الجنَّة، ولقد (٣) ولَّى أهلَ السُّنَّة وأهلَ البدعة عزل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ المراد أنك تُبشِّر المؤمنين بالجنة وتُنذِر المخالفين بالنار.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ... ﴿١٠٦﴾ ﴾

قال ابنُ عبَّاس: بينَّا حلاله وحرامه. وقال الحسن: فرقنا فيه بين الحقِّ والباطل، وقرأ عليٌّ وسعد بن أبي وقَّاص وابن مسعود وأُبيٌّ ﷺ: (**فرَّقناه**) بالتشديد ومعناه: أنزلناه مُتفرِّقًا يعرف نزوله من أول السورة إلى آخرها ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ... ﴿١٠٦﴾ ﴾ وقرأ أبان بن عاصم بفتح الميم وهما لغتان ومعناها على تؤدة وترسُّل ليدَّبَروا معناه.

قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا بِهِۦ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا... ﴿١٠٧﴾ ﴾ هذا تهديد لكفار مكَّةَ (٤) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦ... ﴿١٠٧﴾ ﴾ وهم ناس من أهل الكتاب ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ... ﴿١٠٧﴾ ﴾ يعني: القرآن.

﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ... ﴿١٠٧﴾ ﴾ اللام بمعنى: على. قال الزجاج: الذي يخرُّ وهو قائم إنما لوجهه. والذقن مجتمع اللحيين وهو عضو من أعضاء الوجه، فإذا ابتدأ يخرُّ فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن. وقال ابن الأنباري: أوَّلُ ما يَلْقى الأرض من الذي يخرُّ قبل أن يصوِّب جهته ذقنه فلذلك قال: ﴿ لِلْأَذْقَانِ... ﴿١٠٧﴾ ﴾ قال: ويجوز أن يكون المعنى يخرُّون للوجوه، فاكتفى بالذقن من الوجه، كما يُكتفى بالبعض عن الكلِّ وبالنوع عن الجنس.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ واللام دخلت للتوكيد.

وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله ﷻ باعثٌ نبيًّا من العرب ومُنْزِل عليه كتابًا،

---

(١) سورة النازعات: ٣.

(٢) أ: عزل: وش: غرل. وكلاهما تحريف.

(٣) أ: لقد.

(٤) أ: لكفار قريش.

فلما عاينوا ذلك حمدوا اللّه تعالى على إنجاز الوعد ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ... ﴿١٠٩﴾ ﴾ كرَّر القول ليدلَّ على تكرار الفعل منهم ﴿ وَيَزِيدُهُمْ... ﴿١٠٩﴾ ﴾ القرآن ﴿ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ أي تواضعًا.

قال عبد الأعلى التيمي: إن مَن أُوتي من العلم ما لا يُبكيه لخليق أن لا يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأن [1] اللّه تعالى نعت العلماء وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَبْكُونَ ﴾.

واعلم أن البكاء دليل على الخوف والخشية: وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « سبعة يظلُّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه منهم رجل ذكر اللّه تعالى خاليًا ففاضت عيناه [2].

أخبرنا الكروخي بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا يلج النار رجل بكى من خشية اللّه تعالى حتى يعود اللبن في الضَّرع، ولا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنَّم ».

أخبرنا عمر بن أبي الحسين البسطامي بسنده عن حماد بن سلمة، عن ثابت ابن مطرف، عن أبيه قال: أتيت رسول اللّه ﷺ وهو يُصلِّي ولجوفه أزير كأزير المرجل من البكاء [3].

وكان من دعاء رسول اللّه ﷺ: « اللّهم ارزقني عينين هطَّالتين تبكيان بذوب الدموع ويسقياني من خشيتك من قبل أن تصير الدموع دمًا والأضراس جمرًا [4].

ورُوي عن ابن عبَّاسٍ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « عينان لا تمسُّهما النار؛ عين بكت في جوف الليل من خشية اللّه، وعين باتت تحرس في سبيل اللّه » [5].

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « كلُّ عينٍ باكية يوم القيامة إلا عينٌ غضَّت عن محارم اللّه، وعين سهرت في سبيل اللّه، وعين يخرج منها مثلُ رأس الذباب من خشية اللّه تعالى » [6].

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: ليس شيء أحب إلى اللّه ﷻ مِنْ قطرتين: قطرة دمعٍ من خشية اللّه تعالى، وقطرة دم يهراق في سبيل اللّه [7].

---

(١) أ: إن اللّه. (٢) صحيح البُخَاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٢٤.

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب رقم : ٨.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، حديث رقم : ١٥٧.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه كتاب فضائل الجهاد باب رقم : ١٣.

(٦) سنن الترمذي، كتاب الجهاد، باب رقم : ١٢. (٧) سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد : ٢٦.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « أيها الناس ابْكوا فإن لم تبكوا فتباكَوا، فإن أهل النار يبكون حتى تجري الدموع في وجوههم جداول فتنفذ الدموع فتقرح الجفون حتى لو أن السفن أجريت فيها جرت » [١].

وفي الحديث لو وزنت دموع داود عدلت دموع الخلق، ودمع آدم [٢] يعدل الكلَّ [٣].

وكان مجرى الدموع من خدِّ ابن عباس كالشِّراك البالي. وقال عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص: لأن أدمعَ من خشية اللَّه ﷻ حتى تسيل دموعي على وجنتي، أحبُّ إليَّ من أن أتصدَّق بجبل من ذهب.

وقال الحسن: لو بكى عبدٌ من خشية اللَّه ﷻ لرحم من حوله ولو كانوا عشرين ألفًا.

وقال خالد بن معدان: إن الدمعة لتطفئ البحور من النيران، فإن سالت على خدِّ باكيها لم يَر ذلك الوجهُ النار.

وقال مالك بن دينار: البكاء على الذنوب يحُطُّ الخطيئة كما تحطُّ الريحُ الورق اليابس.

وكان سعيد بن جُبير يبكي بالليل حتى فسدت عيناه.

وبكى عمر بن عبد العزيز حتى بكى الدم. وكذلك فَتْحٌ الموصلي.

وكان عطاء السُّلمي يبكي بالليل والنهار، فعُوتِب على كثرة بكائه فقال: إني إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من العذاب مثَّلْتُ نفسي بينهم، فكيف بنفسٍ تُغلُّ يدها إلى عنقها وتسحب إلى النار ولا تصيح ولا تبكي:

كَثُر فيك اللُّوَّم وأين سمْعي وهمُ [٤]
قلبي واللوم عليك مُنْجدٌ ومُتْهمُ [٥]

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ما يُفهم كلامك من بكاء عُتبة. فقال: يبكي عتبة على ذنبه وأمنعه؟ لبئس واعظ قومٍ أنا!

وقال محمد بن علي بن الحسين: ما اغرورقت عين بمائها إلا حرَّم اللَّه وجه صاحبها على النار، فإن سالت على الخدين لم يَرْهق وجهه قَتَرٌ ولا ذلة، وما من شيء إلا له جزاء إلا الدمعة، فإن اللَّه تعالى يكفِّر بها بُحُور الخطايا.

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، حديث رقم : ١٩. (٢) ش: ودمعة.

(٣) ذكره ابن الجوزي في كتاب العلل المتناهية : ١/٤٦. وفي سنده ضعفاء ومتروكون.

(٤) أ: وأين سمعي منهم. وهذا البيت أورده ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى : ص ٥٩٠. بتحقيقي.

(٥) منجد: نزل نجدًا. ومتهم: نزل تهامة. يضرب مثلًا للتباعد.

وكان عون بن عبد اللَّه إذا بكى يمسح وجهه بدموعه، فإذا سئل عن ذلك قال: بلغني أنه لا تصيب دموعُ الإنسان مكانًا من جسده إلا حرَّم اللَّه ذلك المكان على النار.

وقيل لبعض العبَّاد: كم تبكي؟ فقال: إذا لم أبكِ فماذا أصنع.

وقيل لآخر: ارفقْ بنفسك. فزاد في البكاء. وكان أُميَّة الشامي [1] ينتحب في المسجد فأرسل إليه الأمير: إنك تفسد على المصلين صلاتهم. فبكى وقال: إن حزن القيامة أورثني دموعًا غِزارًا، فأنا أستريح إلى ذَرْفها أحيانًا:

كلما عنَّفوا عليك ولاموا ... عصَف الوجْدُ بي ولجَّ الغرامُ
تتجافى عن الرقاد عيوني [2] ... فكأنَّ الكَرى عليها حرام
وإذا مدة الوصال تقضَّت ... فعلى لذة الحياة السلامُ

قلقهم ليس فيه سكون، وكذا الخائف يكون، وهم الوجْد إلى الحبيب يَشْكون ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾.

فرَّغ القومُ قلوبهم من الشواغل، فضربت فيها سُرادقات المحبوب، فأقاموا العيون تحرس تارة وترشُّ الأرض أخرى، البكاء مُوكَّل بعيون الخائفين، فكلما همَّت بفتح طرف لتنظر إلى طُرف الدنيا طرفته دمعة. أشدُّ ما على المحبّ كلام العذول:

عُجْنا على الرَّبْع نستسقي له مطرًا ... ففاض دمعي فأرْواه وأَظْماني
ليت النوى إذ [3] سقتني سُمَّ أسْودها ... سدَّتْ سبيل امرئ في الحبِّ يَلْحاني [4]

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾:

حملوا بالنهار عطشًا وجوعًا، وسهروا بالليل سجودًا وركوعًا، وأسْبلوا على تقصيرهم وما قصَّروا دموعًا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

قطعوا النهار صائمين، وتراهم بالليل قائمين، أظْلم الدُّجى لا على نائمين قد رفضوا هُجوعًا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

جدُّوا في الطاعة واجتهدوا وقاموا بالأوامر فما قعدوا، وهم يؤثرون بما وجدوا لا ترى منهم منُوعًا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

عبادٌ بالمعبود مشتغلون [5]، وفي طلب مراضيه [6] يُوغلون، وعند ذكر الذنب

---

(١) أ: الشام. (٢) ش: يتجافى الرقاد أجفان عيني. (٣) أ: مذ.
(٤) يلحاني: يلومني. (٥) أ: يشتغلون. (٦) أ: ما يرضيه.

يتقلقون، فهل رأيت ملْسوعًا [1] ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

صبروا عن عاداتهم في طلب سعاداتهم، فلو سمعتهم في خلواتهم يشْكون من صباباتهم ولوعا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

سلُّوا في حرب الهوى نُصولا، ونالوا إلى الهدى وصولا، وصفَتْ نياتهم فطابوا أصولا وطابوا فروعا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

دموعهم تجري كالسيل، وعزائمهم في الجِدِّ كالخيل، وليس لهم إلى غير المحبوب مَيْل، وقد دفع الليل ضيفا قنوعا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

تجري العين كالعين، هذا وقد أدَّوا كلَّ دين، تمكن الخوف والشَّوْق فمرضوا بين ذَيْن، على صبيحة البين ماتوا جميعا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

وقعوا على الحقيقة بالمطلب، ورووا بعد العطش من ألذِّ مشرب، فأخبارهم أشرف ما يذكر ويكتب وأحسن ما يُوعى ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

هجروا الدنيا وقاطعوها، وكفُّوا نفوسَهم عن الشهوات ومانَعُوها، فنادى لطف الإباحة: دعوها ترِد بعد خَمْس شُروعا [2].

والله تعالى أعلم

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

* * *
* *
*

---

(١) أ: فهل رأيت صبورًا ملسوعًا.

(٢) ترد بعد خمس: أي تشرب بعد أن ظمئت أربعة أيام ثم تشرب في الخامس وهذا مِنْ أظماء الإبل عند العرب. والمراد هنا أن تنال النفس حظها في الآخرة بعد أن صبرت في الدنيا.

المجلس الرابع عشر

في النية والإخلاص

الحمد للَّه المطّلع على ظاهر السرِّ ومكنونه، العالم بسرِّ العبد وجهْره وظنونه، والمنفرد بإبداع العالم وإنشاء فنونه، ويقول لشيء كن فيكون بين كَافِهِ ونونه، خلق الأشياء بقدرته وابتدع، وأتقن بحكمته ما صنع، ورأى باطن الضمير واطَّلع على خفايا مضمونه، فطَر الخلائق على إرادته، ودبَّر الكل بمقتضى حكمته، وأجراهم في التصريف على مشيئته، وقدَّر حال كلٍّ منهم في حركته وسكونه، أحسن إنشاء ما خلق، وفتق الأسماع وشقَّ الحدَق، وأحصى عدد ما في الشجر من الورق في أعواده وغصونه، حيرت أفعالُه الحكماء وأدهشت حكمته العلماء، سخر الريح وأجرى الماء متفضلًا بتفجير عيونه، مدَّ الأرضَ ووضعها وأوسع السماء ورفعها وسير النجوم وأطْلعها في حِنْدس الظلام وجُونه (١).

أنزل القَطْر وبلًا ورذاذًا، فأنقذ به البَذر من اليُبس إنقاذًا، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (٢).

أحمده على جوده وإحسانه، وأقرُّ أنه لا شريك له في سلطانه، وأن محمدًا عبده ورسوله المبعوث ببرهانه إلى جاحد الحقِّ وخَئُونه، صلى اللَّه عليه وعلى أبي بكر صاحبه في جميع شانه، وعلى عُمر مُقَلْقل كسرى في سلطانه، وعلى عثمان ساهر ليله بقرآنه، وعلى عليٍّ قالع باب خيبر ومزلزل حصونه، وعلى عمِّه العباس أقربهم في النسب الذي سُئل به السيل فسال العجب.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ... ﴾ (٣)

الإخلاص: قصْد القلب وجه الرب ﷻ، والأعمال إنما تصير مُعْتدًّا بها إذا كانت بنيَّة، والنية لا تدخل تحت الاختيار، فليست أن يقول الإنسان: نويت أن أفعل كذا للَّه تعالى،

---

(١) الجون: جمع جون - بفتح الجيم وسكون الواو - وهو الأسود.

(٢) سورة لقمان: ١١.

(٣) سورة البينة: ٥.

وإنما النية قصْد القلب لا قوْل اللسان.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن علقمة بن وقاص، قال: سمعت عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله فهجرته إلى اللَّه ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن شقيق عن أبي موسى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه أرأيت الرجل يُقاتل شجاعة ويُقاتل حميَّة ويقاتل رياء، فأيُّ ذلك في سبيل اللَّه تعالى؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه ﷻ » (٢).

قال أحمد: وحدثنا كثير يعني ابن هشام بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٣). (انفرد بإخراجه مسلم) واتَّفقا على الذي قبله.

وفي الصحيحين من حديث ابن عبَّاسٍ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة » (٤).

وفيهما: أن النبي ﷺ قال: « لقد خلَّفتم في المدينة رجالًا ما قطَعْتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا شَرَكُوكم في الأجر، حبسهم المرض » (٥).

أخبرنا ابن الحصين، قال: أنبأنا ابن المُذْهب بسنده، عن أبي كبشة الأنصاري (٦) قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه اللَّه مالًا وعلمًا فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقِّه، ورجل آتاه اللَّه علمًا ولم يؤته مالًا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملتُ فيه مثلَ الذي يعمل. قال: قال رسول اللَّه ﷺ: فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه اللَّه مالًا ولم يؤته علمًا فهو يخبِّط فيه يُنفقه في غير حقِّه، ورجل لم يؤته اللَّه مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملتُ فيه مثل الذي يعمل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: فهما في الوزر سواء » (٧).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث رقم : ١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب رقم : ٢٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٣٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٣١. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٢٠٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب رقم : ٣٥. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ١٥٩.

(٦) أ: الأنماري.

(٧) مسند أحمد : ٤/٢٣٠.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن أبي عمران الجوني قال: تصعد الملائكة بالأعمال فيُنادَى الملك: أَلْقِ تلك الصحيفة قال: فتقول الملائكة: ربنا قال: خيرًا وحفظنا عليه (١) فيقول اللَّه تبارك وتعالى: « لم يُرِدْ به وجهي » قال: ويُنادَى الملك: اكتب لفلان كذا وكذا فيقول: يا رب إنه لم يعمله (٢) فيقول اللَّه ﷻ: « إنه نواه ».

قال إسماعيل بن أبي خالد: أصاب بني إسرائيل مجاعة فمرَّ رجل على رمل فقال: وددْت أن هذا الرمل دقيق لي فأطعمه بني إسرائيل. فأُعطي على نيته (٣).

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، وكان بعضهم يقول: دُلُّوني على عملٍ لا أزال به عاملًا للَّه تعالى. فقيل له: انْوِ الخير فإنك لا تزال عاملًا وإن لم تعمل.

فالنية تعمل وإن عُدم العمل، فإنه من نوى قيام الليل فنام كُتب له ثواب ما نوى قال النبي ﷺ: « ما من رجل تكون له ساعة من الليل يقومها فنام عنها إلا كُتب له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة تُصدّق به عليه » (٤).

وكذلك إذا نوى المعاصي عازمًا عليها. سئل ابن المبارك عن المدمن للخمر، فقال: الذي يشربها اليوم ثم لا يشربها ثلاثين سَنة ومنْ نيته: إذا وجدها شربها.

واعلم أن الناس في النيات على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: من ينوي بالعمل وجه اللَّه ﷻ، فهذا هو المُخلص وعلامته أنه لا يحب أن يُعرف؛ لأنه عمل للَّه تعالى فلا فائدة في إظهاره للعمل، إلا أن يكون له في الإظهار نية. قيل لعمر بن الخطاب ﷺ لِم تجْهر؟ فقال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسْنان.

ورُبَّ مُدَّعٍ هذا المقام تُبهرجه النفس، والإنسان أعلم بحاله.

والطبقة الثانية: من ينوي العمل للَّه تعالى ويُشْرب ذلك العملَ قصْدَ الحق تبعًا لا أصلًا، فالطبقة الأولى ناجون قطعًا. وأهل هذه الطبقة في مقام خطر، والنظر إلى قدر قوة البواعث فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفسي تقاوَما فسقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب ضرَّ وأوْجب (٥) العقاب، لكن عقابه أخفُّ من عقاب العمل المجرَّد للرياء. وإن كان قصد التقرُّب أغْلبَ فله ثوابٌ بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني.

---

(١) ش: قالوا خيرًا وحفظنا عليهم. (٢) ش: لم يعمل. (٣) مسند أحمد: ٢٣٠/٤.

(٤) رواه أبو داود في سننه في كتاب التطوع، رقم: ٢٠. والنسائي في سننه، باب قيام الليل، حديث رقم: ٦٣. وأحمد في مسنده عن عائشة: ٦٣/٦.

(٥) ش: وأورث.

وظاهر الأحاديث على فساد العمل المشوب؛ فقد روى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: « أنا خير الشركاء، فمن عمل عملًا أشرك [١] فيه غيري فإني منه بريء وهو للذي أشرك » [٢].

خرج إبراهيم بن أدهم يزور أخًا له فرأى ثوبًا يباع فقال: إنه لمنْ حاجتي، ولكن أكره أن أخلط زيارتي بغيرها.

وكان سهل بن عبد الله يقول: أشدُّ شيء على النفس الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب.

وقال بشر الحافي: سمعتُ خالدًا الطحان يقول: اتَّقوا سرائر الشرك، قلت: ما هي؟ قال: أن يسجد أحدكم فتلحظه العيون، فيطيل السجود.

والطبقة الثالثة: أهل الرياء وهم هالكون قطعًا.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سليمان بن يسار قال: تفرَّق الناس عن أبي هريرة ﷺ فقال له ناتل الشامي [٣]: حدِّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « إن أوَّل الناس يُقضى فيه يوم القيامة: رجل استُشْهد فأُتي به فعرّفه نِعَمه فعرفها فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى قُتلتُ. قال: كذبتَ. ولكنك قاتلتَ ليقال هو جريء. فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ فيك العلم وعلَّمته وقرأتُ القرآن. فقال: كذبتَ ولكنك تعلمتَ ليقال هو عالِم فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأُتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها فقال: ما عملتَ فيها قال: ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن يُنفقِ فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقال هو جوَّاد. فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقى في النار » [٤]. (انفرد بإخراجه مسلم).

– **وقد يُرائي الإنسان بإظهار النُّحول والصّفار**؛ ليريهم بذلك أنه مجتهد في العبادة، ويرائي بتشعث الرأس وإطراقه وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف [وتشميرها] [٥] وتوسيخها ولبس المرقَّع. وفيهم من يلبس الثوب المرقَّع يساوي

---

(١) أ: فأشرك. (٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ٤٦.

(٣) في صحيح مسلم ناتل أهل الشام. وفي رواية أخرى ناتل الشامي. وهو ناتل بن قيس الحزامي الشامي من أهل فلسطين وهو تابعي، وكان أبوه صحابيًا. شرح النووي على صحيح مسلم : ٥٠/١٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ١٥٢. (٥) من ش.

دينارين ولا يلبس ثوبًا جميلًا غير مرقَّع لئلا يَسقط جاهُه.

- **وقد يقع الرياء للعلماء** بإظهار الحفظ لبيان غزارة العلم وللعُبَّاد بتحريك الشفتين بين الجَمْع [١] إظهارًا للذكر، وبخفض الصوت؛ ليدل على الخوف والحزن.

ويقع الرياء بإظهار التعبد والصلاة بين الجَمْع.

ولمَّا علم السلف شرَّ الرياء والعمل المَشُوب اجتهدوا في إسرار العمل ليصْفو.

وقال عيسى عليه السلام: إذا كان صوم يوم أحدكم فَلْيدهُن لحيته وليمسح شفتيه حتى يخرج إلى الناس فيقولون: ليس بصائم.

وقال نافع: كان البرُّ لا يُعرف في عمر ولا في ابن عمر إلا أن يقولا ذلك أو يعملا.

ومرَّ أبو الدرداء [٢] برجل ساجد قد أطال السجود وهو يبكي، فضربه برجله وقال: يا لها سجدة لو كانت في بيتك!

وكان أبو وائل إذا صلى في بيته يَنْشج [٣] نشيجًا ولو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه لم يفعله [٤].

وكان عامر بن عبد اللَّه يكره أن يروه يصلي. وقالت: سُرِّية الربيع بن خُثيم: كان عمل الربيع كلُّه سرًّا، إن كان الرجل ليجيء [٥] وقد نشر المصحفَ فيغطيه بثوبه.

وقال أبو التيَّاح: أدركت أبي ومَشْيخة الحي إذا صام أحدُهم ادَّهن ولبس صالح ثيابه، ولقد كان الرجل منهم يقرأ عشرين سنة ما يَعْلم [٦] به جيرانه.

وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يُصلّي فإذا دخل الداخل قام على فراشه. وكان منصور بن المعتمر إذا صلَّى الغَداة أظهر النشاط فيحدثهم ويَكشِر [٧] إليهم، ولعلَّه إنما بات قائمًا على أطرافه كل ذلك ليُخفي عمله.

وقال محمد بن واسع: لقد أدركت رجالًا كان أحدهم يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلَّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر امرأته. ولقد أدركتُ رجالًا كان يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جنبه، وإنْ كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم. وكان أيوب يقوم الليل كلَّه يُخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

---

(١) ش: بين الجمعين.
(٢) أ: أبو أمامة.
(٣) ينشج: يبكي.
(٤) ش: لم يعقله.
(٥) أ: إن كان يجيء الرجل.
(٦) أ: لم يعلم.
(٧) يكشر: يبتسم.

وقال الفضيل: خير العمل أخفاه، أمنعه من الشيطان وأبعده من الرياء.

وقال الثوري: ما أعتدُّ بما ظهر من عملي.

وقد كان السلف لا يعملون شيئًا إلا أن تتقدمه النية الخالصة، كان طاوس لا يحدِّث إلا بنية. وقيل له: ادعُ لنا، فقال: حتى أجد لذلك نية. وصلَّى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الإزار فعرفه فمدَّ يده ليصلحه ثم قبضها ولم يسوِّه وقال: [لو كان لي نيةٌ فعلتُ [1]] إني لبسته للَّه تعالى فلا أسويه لغير اللَّه تعالى.

وقيل للثوري: ألا تحضر جنازة حمَّاد بن أبي سليمان [2]؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت.

وقال: ما عالجتُ شيئًا أشدَّ من نيتي؛ لأنها تغلب علي.

وقيل لنافع بن مطعم: ألا تشهد الجنازة؟ فقال: كما أنت حتى أنوي. ففكَّر هُنية ثم قال: امض. ومشى رجل مع ميمون بن مهران إلى باب داره ثم انصرف، فقال له: ولده ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: إنه ليس من نيتي.

فخلصوا أعمالكم [إخواني] [3] من الشوائب وصحِّحوا قبل السلوك المقاصد، واحذروا العمل للخلق إنهم لن يُغنوا عنكم من اللَّه شيئًا.

* * *

الكلام على البسملة

أرأيتَ ما صنعتْ يدُ الأحداثِ ... في الشِّيب والشبان والأحداث
أودى [4] المعافَى منهمُ والمبتلَى ... وأخو الصلاح وذو الفساد العاثي
وإذا الذي جمعوه طولَ حياتهم ... نَهْبُ العدا أو قِسمة الوُرَّاثِ
حالت منازلهم على طول المدى ... ووجودهم في الأرض بعْد ثلاث
خلطتْهمُ بعضا ببعضٍ أرضُهم ... ما بين ذُكْران وبين إناث
لكنهم عند الحساب تميَّزوا ... من طيبين وآخرين خباث [5]
يا من يُسرُّ بماله وأثاثه ... لك في الثرى بيتٌ بغير أثاث [6]

---

(١) من ش.

(٢) أ: ابن أبي سلمة وما أثبته من ش. ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال : ٥٩٥/١.

(٣) ليست في ش.

(٤) ش: أردى.

(٥) الخباث: جمع خبيث.

(٦) الأصل: بيت تسكنه بغير إناث.

يا هذا انتبه لنفسك قبل حبْسك، وأقْلع عن ذنبك راجعًا إلى ربك، وتزود لسفرتك قبل نزول حُفرتك.

وما الإنسان في دنياه إلا كبارقةٍ [1] تدقُّ إذا تلوحُ
نفيسة نفْسِه نَفَسٌ توالى ومُدته مَدًى والرُّوح ريحُ

يا هذا اخرج من ديار الغفلة، وسِرْ على أقدام الغربة وصِحْ إلى طغيان الهوى:

ما في هوادجكم من مُهْجتي عِوَض [2] ....

إن واتتك الآخرة فبتَّ طلاق الدنيا وفَّيت المهْر، وإن امتدت يدك إلى طول المحبة، صارت الجنة من حواري القصر، ويحك أنت كُفْؤ من حيث النسب، وليس لنا نظر إلى النَّسب: ربَّ أشْعث أغبر.

ألست في حِجْر إنعامه ربِّيت، أما أُلْطِف بك ورُعيت، وأظهر لك تشوُّف النفس وعلو الهمة، سبقك الواصلون وأنت مع المطرودين وملت إلى الدنيا ومالوا إلى الدِّين، فرِّغ قلبك يصلح لسُكْنى المحبة، صحّح نيتك تهبُّ نسمات القبول.

كان سفيان الثوري يقول لنفسه: يا سفيان، أين تكون إذا قيل يوم القيامة: أين القُراء الفَسَقة؟ ثم يبكي.

دخل رجل على داود الطائي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: زيارتك، فقال: أمّا أنت فقد فعلت خيرًا حين زُرت، ولكن انظر ما نزل بي إذا قيل لي: منْ أنت لِتُزار؟ أنت من الزاهدين؟ لا واللَّه، أنت من العُبّاد؟ لا واللَّه، أَمن الصالحين؟ لا واللَّه، ثم أقبل يوبِّخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقًا فلما شِبتَ صرت مُرائيًا، والمرائي شر من الفاسق!

عجبًا للطرف كيف اغتمض؟ وللمكلَّف ما حقَّق المُفْترض، يا من كلما بنى على أن يلوذ بِنَا نقض، يا من إذا أدَّى حقًّا أو أعطى مستحقًّا فعلى مضض، يا من إذا لاح له صيْدُ الفاني ركض، يا من إذا قدر على جيفة الدنيا ربَض، يا مشغولًا عن الجوهر بما عرض من غرض، أتُؤثر ما يفنى على ما يبقى؟ هذا هو المرض.

تاللَّه ما الدنيا إلا كسوق، سرعةُ انقضائها يَحْكي البروق، إنها لطريق للموت فيها

---

(١) البارقة: من البرق وهو الضوء الذي يخرج من السحاب.

(٢) صدر بيت للمتنبي وعجزه:

.... إن مت شوقًا ولا فيها لها ثمن

ديوانه : ص ٤٠٢، ط صادر.

طُروق، لا تُعْجبنّك فإنها للجاهل تروق، اتّقها فإن سُمَّها قد جاوز الفُوق [1] كم عذبتْ من محب وقتلتْ من مَشُوق، حلاوتها ممزوجة بالمُرّ أما تذوق؟! جيفة مستورة بالطيب والخلوق:

وكم طالب أمْرًا وفيه حِمامُه وسارِيـة تسعى إلى ما يضيرها

أما ينبهك هذا الزجر؟ أما يؤلمك طول الهجر، [أما ثمّ نية في طلب الأجر] [2] إلى متى أنت في ثياب الغدر، أما يَحث العقلُ على الصبر، ألا أراك تلعب بالجمر، يا سكران الهوى لا بالخمر، رحل ليل الشباب وهلَّ الفجر، وفنى الموسم وما ربح التَّجْر يا عجيب الحال يا طريف الأمر، كيف يحصد مَنْ ما له [3] بَذْر؟!

ويحك! النائم يتعب جَنْبُه فيتقلب، أتراك ما ضجرت من الرقدة على جانب البِطالة؟

أمِطْ عنك ذِكْرَ اللَّهو فالعيش بُلغةٌ وكـلُّ بقـاءٍ لا يـدوم فـنَـاءُ

لو يئس الطبيب من مرضك ما وصف لك دواء وإنما الأمر متردد لعلَّ مُمْرضها يومًا يداويها.

إن وقع طائر قلبك في شهرة المواعظ [4] فاقرض جناحه، إذا هبَّت رياحك فاغتنمها.

ويحك من عليه عينٌ تراقب عينه، وحفيظ يحصي أعماله كيف لا يحذر؟!

ويحك لا تيأس من القبول فبابُ العفو واسع، الزَّلل بموافقة الهوى من غير عقد القلب على الخلاف يسهل أمره، إنما العناد المهلك كانت معصية آدم بيده، وكانت مخالفة إبليس بقلبه، وزلة الجوارح لا تشبه زلة القلب، عشّش طائر الكِبر في دماغ إبليس من يوم تصوير آدم، فتغذى المخ إلى أن نفخ في آدم الروح فقيل لفارغ الرأس: اسجدْ. فرفعته خِفّة الحماقة، فقال: لا. يا ابن آدم اعرفْ قَدْر نفسك، وإنما طُرد إبليس لأجلك، فالعجب منك كيف صافيته وتكدّرتَ لنا، ويحك تذكر عهدنا من يوم « بلى » [5] إن خفيت الآثار على العيون فما يخفى على الخياشيم المستنشق، يذكّرني طيب النسيم عهودكم.

قيل لذي النون: أين أنت وقوله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فقال: كأنه الآن في أذني!

مَنْ تَناسى بالبان مَغْنَى هواه فبـنـفـسي غـصـونـه الميَّـالـه

ونـسـيـم مـن تـربـةٍ حملتْـه لفؤادي ريح الصَّبا الحمَّاله

لا وأيـام حـاجـرٍ ولـيـالـيـه تَـقَـضَّى قـصيرةً مُـسْـتـطالـه

---

(١) الفوق: موضع الوتر من السهم.

(٢) سقطت من ش.

(٣) ش: لا له بذر.

(٤) ش: إن وقع طائر المواعظ.

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

وزمـان أعـاده الـلّـه بـالجزع تُـبـاري أسـحـارُه آصـالـه
لا تقول الوشاةُ عنّي محبٌّ غـيَّـر الـنَّـأْيُ ودَّه وأحـالـه

لما أخذ اللَّه ﷻ الميثاق من بني آدم أودعه الحجر الأسود، فالمقبّل له يقول: إيمانًا بك ووفاءً بعهدك. فالعجب من بقاء روح المتيقظ عند التقبيل كيف لا تخرج، إما لتذكر التفريط، وإما للشوق إلى ذلك اليوم. فإذا لم يكونا فليقع التوسط على البكاء:

صـاح هـاتـيـك نـجـدٌ وهـاتـيـ ـك آثار حبيبي ولا تَعْدُ نـجْدا
ما أرى لي من سَفْح دمعي في آثـار حـبـي وعيشك اليوم نِدّا
يا لـهـا مِنْ معـالم وطـلـول ما تـبـدت لـلـعـيـون رُمْدا [1]
زعموا أنني على الخطب جَلْد صدَقوا بل على الهوى لستُ جَلْدَا
يا عذُولي كُفَّ الملام فلي قلـ ـب يرى الصابَ في المحبة شُهْدا
يا زماني الماضي سقى عهدك اللـ ـه وأيـامـك الخوالـي الـعَـهْـدا
آهِ من شدة التأسف لو أستطيـ ـع يومًا لـفـائـتٍ مـنـك ردَّا

* * *

الكلام على قوله ﷻ:

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [2]

قال أبو عبيدة: معناه التقرير وليس باستفهام. والمعنى أَوَ لم نعمِّركم عُمُرًا يتذكَّر فيه من تذكَّر.

وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال:

أحدها: سبعون سنة. قال ابن عمر: هذه الآية تعيير لأبناء السبعين.

والثاني: ستون سنة. أخبرنا عبد الأول [3] بسنده عن سعيد المقْبري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « أعْذر اللَّه إلى امرئ أخرَّ أجله حتى بلّغه ستين سنة » [4] (انفرد بإخراجه البخاري).

أخبرنا سعد بن أحمد بن الحسين بسنده عن ابن عبّاسٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) كذا ولعلّه يريد أن العيون التي بها رمد لا ترى تلك المعالم والطلول.
(٢) سورة فاطر: ٣٧.
(٣) أ: عبد الأعلى.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٥.

« إذا كان يوم القيامة نُودي: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال اللّٰه ﷻ: « أَوَ لم نعمِّركم ما يتذكَّر فيه من تذكَّر فيه وجاءكم النذير » [(١)]:

لهْفي على خمسين عامًا مضت كانت أمامي ثم خَلَّفْتها
لو كان عمري مائةً هدّني تذكُّري أني تنصَّفتها

والثالث: أربعون سنة. أنبأنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال له: إن اللّٰه ﷻ أمر الحافظين فقال لهما: ارفقا بعبدي في حداثته حتى إذا بلغ الأربعين فاحفظا وحقِّقا [(٢)].

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن مسروق قال: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حِذْره من اللّٰه ﷻ. وقال عمر بن عبد العزيز: لقد تمتْ حُجّة اللّٰه على ابن الأربعين فمات لها.

ومن يطَّلع شَرف الأربعين يحيى [(٣)] من الشيب زَوْرا

وقال وهب بن منبه: قرأتُ في بعض الكُتُب أن مناديًا ينادي من السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين زرعٌ قدْ دَنا حصاده. أبناء الخمسين ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الستين: لا عذر لكم. ليت الخلائق [(٤)] لم يُخلقوا وإذ خلقوا عملوا لِمَا [(٥)] خُلِقوا.

القول الرابع: ثماني عشرة سنة. قاله عطاء ووهب بن منبه وأبو العالية وقتادة.

وفي النذير أربعة أقوال:

أحدها: أنه الشيب. قاله ابن عمرو وعكرمة وقتادة وسفيان بن عيينة.

والثاني: أنه النبي ﷺ: قاله ابن زيد.

والثالث: موت الأهل والأقارب.

والرابع: الحمّى. ذكرهما مُقَاتِل.

يا ذا الشيب تأهَّب للمِنْجل الحاصد وكيف بالسكون والموتُ إلى المسْكن قاصد، أأبقى الشيب [(٦)] بعده منزلًا للنزول، أما ضعفُ القوى دليل على مدلول، أفي نُصح الشيب فِرية؟ أفي قرب الرحيل مِرْية، أبقي لنهر ماء الحياة جِرْية، أبْعد عبادان [(٧)] الضَّعْف قرْية؟!

---

(١) لم أجده في شيء من المراجع المعتمدة. ولعل ما جاء في صحيح البخاري كتاب الرقاق باب في الأمل وطوله من قول البخاري: باب من بلغ ستين سنة لقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [سورة فاطر: ٣٧] يغني عنه.

(٢) لم أجده في شيء من الكُتُب المعتمدة.

(٣) أ: يجني.

(٤) ش: الخلق.

(٥) أ: علموا لماذا خلقوا.

(٦) أ: أأبقى الموت.

(٧) عبادان: موضع بقرب البصرة. قال الخليل: هو حصن منسوب إلى عباد الحبطي. معجم ما استعجم : ٩١٦/٢.

أرى شعرات الشيب سيفا من الرّدى | لها في سويداء [(١)] القلوب دبيبُ
وأول منْعيٍّ من المرء شَعْره | ولا شكَّ أن الكلّ منه قريبُ
وفي موت بعض المرء لو كان عاقلًا | نذيرٌ ولكن الرجاء حبيبُ
ومن تكن الأيام أكبر دائه | فليس له مما جنته طبيبُ

أين الشباب؟ كأنه ما كان، فرغ المنزل ورحَل السكان، لما رأى السوادُ البياضَ قد بان بان، لقد أعطاك قوسًا وأخذ غصن بان.

إني لأعلم قَبْل فضِّي خَتْمه | ما في كتابٍ بالمشيبِ مصونِ

إخواني: طاقات الشيب سدى الكفن. من لعب بعمره ضيَّع أيام حرثه، فلا بد أن يندم يومَ حصاده.

يا هذا انتظر صيحة الإزعاج فما أسرع ما تأتي، تاللَّه ما للعمر ثمن وأنت تُفرِّط فيه:

لَهْفي على عُمرٍ ضيعتُ أوَّلَه | وغالَ آخِره الأسقام والهرمُ
كم أقْرَع السنَّ بعد الفوت من ندم | وأين يبلغ قرْع السن والندمُ

قال الحسن لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما يُنظر بالزرع [(٢)] إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد. قال: يا معشر الشباب فإن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يبلغ:

أعينايَ هلَّا تبكيان على عُمري | تناثرَ عُمري من يديَّ ولا أدري
إذا كنتُ قد جاوزتُ ستين حِجّة | ولم أتأهبْ للمعاد فما عُذري

قال يونس النحوي: ما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب وما بلغوا منه مقدار ما يستحق.

أليس عجيبًا بأن الفتى | يصاب ببعض الذي في يَديْه
فمِنْ بين باكٍ له مُوجَعٍ | ومنْ بين غادٍ مُعَزٍّ عليهِ
ويَسلبه الشيبُ شرْخ الشبا | ب فليس يُعزِّيه خلْقٌ عليهِ

كان سمرة بن جندب يقول: اتَّقوا شِرَّة الشباب [(٣)] فإنما الشباب جنون. وقال أبو بكر بن عيَّاش: وددت أنه صُفح لي عما كان مني في الشباب وأنّ يديّ قُطعتا، ولما رأى إبراهيم الخليلُ الشيب قال: الحمد للَّه الذي أخرجني من الشباب سالمًا:

---

(١) أ: لها من سويداء.
(٢) ش: الزرع.
(٣) شرة الشباب: نشاطه وحدته.

قد شاب رأسك وانقضَتْ [١] نُوب الصبا وأراك غرًّا في البطالة تَلْعبُ
قال الشباب لعلَّنا في شيبنا ندع الذنوب فما يقول الأشيَبُ

قال الحسن: أدركت أقوامًا كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على درهمه وديناره.

يا ماشيًا في ظلام الشباب احذر العِثار، كأنك بصبح الشيب قد خلَفه إذا زار، تلمَّح حالَ من أنت في طريقه أين صار، هيهات فَنِيت المراحل ولاحت الديار.

الشيب عنوان المنيّـ ـة وهو تاريخ الكِبَرْ
وبياض شعرك موت شَعْـ ـرك ثم أنت على الأثر
وإذا رأيت الشيبَ حلَّ الر أس فالحذر الحذر
أخْلِقْ بغائب رشْده أن يقْدما وبواصلٍ من غيِّه أن يصْرما
وبما تساقط من زنادٍ مشيبه في حالك الفودين أن يتصرما
كان الهوى صُبحًا بليل شبابه فدُجى بإصباح المشيب وأظْلما
والمرء ما وجد الشبيبة واجدٌ مُثْر فإن عدِم الشبيبة أعْدما

أيها الشيخ: مثِّل صَرْعة الموت قبل نزولها، وتخايل ساعات الفراق قبل حلولها، فبادر لها بما يصلح قبل أن يَلقاك بما يقبح.

ما لمياه العيون قد جمدت؟! ما لرياح العزائم قد ركدتْ؟ ما لنيران الهمم قد خمدت:

هبِ الحِمَى صمَّ عن الداعينا فكم عصى الدمعُ على الباكينا
لا تعْذلوه واعذلوا الجفونا لو أنصفتْ فاضتْ دمًا هَتُونا
يا لِلْحمى إذ نحن قاطعونا يشفي سُقامًا في الحشا [٢] كَمينا
فحبذا [٣] عهد الحمى قرينا دعا فلبيناه طائعينا

احتُضر أبو العتاهية فأنشد يقول:

يا نفسُ قد مثَّلتُ حالي هذه لكِ مُنْذ حينِ
فتأمَّلي ضَعْف الحِرا ك وكلَّه بعْد السكونِ
وشككتِ أني ناصح لك فاشتملتِ على الظنونِ
وتيقَّني أن الذي بكِ منْ علامات المَنُونِ

---

(١) أ: وانقضى. (٢) أ: في الحواشي. (٣) أ: يا حبذا.

يا من يفرح بمرّ الأيام عليه، والذي يمضي له عليه، إن الساعات تَقْرض العمر قرضًا، وتقبض مبسوط الآمال قبضًا، فيجفُّ كلُّ عُود قد كان غَضًّا، وإنما هي حوادٍ يحْدو بعضها بعضًا:

أَفْرح بالبَرْد إذا ما انقضَى وفي زمان الحرِّ بالحرِّ
وفي انقضاء الحر والبرْد لو عقَلْت أمري يَنْقضي عُمْرِي
وأيُّ جهل فوق جهل الذي يفرح بالموت وما يدري

إخواني: كل راحات الدنيا هموم وكروب، أمَا دوام العيش بالشيب مشُوب؟ ما العيش إلا الشباب، فإذا زال أغلق الباب.

ألا إنما الدنيا الشبابُ وإنما سرور الفتى هاتيكم السَّكراتُ
نُرَاع إذا لاحت نجوم مَشِيبنا كأن نجوم الليل مُنكدرات
وتنفطر الأكباد عند شموله كأنَّ الطِّباق السبع مُنفرطاتِ

يا مَنْ بقيتْ فيه بقيةٌ أدرِكْها، يا من قد ملكتْ نفسه: امْلِكْها يا من قد أهلكته خطاياه: اتركها.

ألا بَعُدْتَ عن المُدَام وتركتَ أخلاق الطّغَام
أوَ بَعْد مسِّ الأربعيـ ـن وما اكتسبت من الأثام
وجَدتْ بنفسك همةٌ تصبو إلى نيْل الحرام
ما للكبير وللْهوى الجهلُ منْ شيم الغلام

فرِّق همَّك جَمْعُ الأموال فلا تجمعها، تركتْك شهوات الدنيا مع المقصِّرين فدعْها، ناطقَتك العِبَر بسَلْب مَن عَبَر فاسمعها.

جمع الحريص وماله ميراث غَررا بدارٍ حَبْلها أنكاثُ
وصغَى إلى ما حدَّثته وإنما يأتي بُعيد حديثها الأحداثُ
انظر ترى لخرابها وعَمَارها هذي القبورُ وهذه الأجداث
رؤيا المنام ورأى عينك مثله فإذا انتبهت كلاهما أضغاث

تيقظ لنفسك واذكر زوالك، ودع الأمل وإن طوى الدنيا وزوى لك (١)، فكأنك بالموت قد حيَّرك وأبدى كَلالَك، ونسيك الحبيب؛ لأنه أراد كلالك (٢)، وخلوْت أسير

---

(١) زوى: جمع.
(٢) الكلال: الميراث.

ندمك تبكي خِلالك، في زمن خلا لك (١)، وشاهدت أمرًا أفظعك (٢) تود لو تفديه بالدنيا لو أنها لك، فتيقظْ لنفسك وجانبْ آمالك، واحذر أن تكون أعمالك أعمى لك، وأن تصير أفعالك في القيامة أفعى لك، واقنع بحلالك وإن قلَّ [واترك الحرام] وإن حَلا لك، واجعل الندم شعارك والتدارك سِرْبالك، واطرقْ في الدُّجى باب الرجاء وقد أصلح المرتجي بالك:

لا تأمن الدهر الخؤون وخِفْ مبادرة المُدى (٣)
فالموت سهمٌ مُرْسَل والعمر مقدار المدَى (٤)

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ... ۝٣٧ ﴾:

واعجبًا تعرفون المصير وما تصرفون التقصير، وتُبهرجون على ناقد بصير وقد حُذِّرتم غاية التحذير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

أوَ ما فيكم من يتفكر فيرى أن الدهر قد عكَر، كلكم قد راح في الخطايا وبكّر على التفريط والتبذير ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

كان الشباب أميرًا والصحة غَناء ووزيرًا، استقى الجسد ماء فصار الضعف سميرًا، وعُزل الأمير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

كانت نخلات البصر والسمع تُطلع من اللذات هضِيم (٥) الطَّلع، فحلَّ الشيب بالرَّبع فيبِس كلُّ الزرع ونضَب الغدير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

أقبلت الآفات وسَرتْ، فقيَّدت الحركات وأسرَت، وقالت البلايا لما عرَت، بهذا جرت المقادير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

عمَّ الشيب وعلا، وذهب الشباب وانجلى، وتغيَّرت الأوصاف والحُلى، وحَكم بالتلاشي قاضي البِلَى، وادَّعى المدير ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

كأنك بعين العين تجري، وبسهام المنون تَفْري، وأنت تقول ضيعت عُمري والطامة أنك ما تدري إلى أين تسير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

فتنزلزل أقدام الثبات، وينادي منادي الشَّتات، وتسكن جميع الحركات وتقرأ سورة

---

(١) بعد ه في أ: وأسفت على زمان ضياع خلا لك، ولعلها زيادة غير صحيحة.

(٢) ش: فضحك. (٣) أ: وخف بوادر آفته. (٤) أ: والعمر قدر مسافته.

(٥) الهضيم: منهضم منضم في جوف الجفّ وهو وعاء الطلع.

الحياة سورة التكوير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

ألم يقل لكم هذا قبل هذا أَلَمْ تحذَّروا من هذا الألم، ألم تخوَّفوا من أسباب الندم، ألم تعرفوا كيفيات التدبير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

ستعلمون من يقرع غدًا سِنّه، إذا وخزه من اللوم أسنَّة، وظهرت الأهوال فشابت الأجِنَّة، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾.

والله أعلم.

* * *
* *
*

المجلس الخامس عشر

في ذكر اليقين

الحمد لله الذي ظهر لأبصار البصائر عِيانا، فاهتبلَتْ قلوب عارفيه به إيمانًا، وَوَلِهَتْ أفئدة مُحبِّيه بحبه هَيَمانًا، فعادت تطلب في وَصْله منْ هجره أمانًا، الحي الباقي فلا يزول ولا يتفانى، السميع البصير فهو يسمعنا ويرانا. أحمده على ما منحنا وأوْلانا، وأشكره وكيف لا نشكر مولانا، ونشهد له بالوحدانية سرًّا وإعلانًا، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله وشجرة الكفر قد فرّعت أغصانًا، فقطعها بمنجل مجاهدته وزرع من الحقائق بستانًا. صلى اللّه عليه وسلم وعلى أصحابه الذين كانوا أنصارًا له على الحق وأعوانًا ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ (١) ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ (٢) رزقنا اللّه محبتهم على الوصف الذي أوصانا، فمنهم أبو بكر الذي يوقِد ذكْره في قلوب مُبْغضيه نيرانا، وعمر الذي جعل لعِطاء المسلمين ديوانا، وعثمان وقد كان يقطع الليل صلاة وقرآنا، وعلى عليٍّ الذي نَهْوَاه معاشرَ أهل السنة ويَهْوَانا، وعلى العباس الذي بركته أسبلت السماء سَحًّا وتَهْتانا (٣) اللّهم يا من عمَّ البرايا جودًا وإحسانًا، لا تَنْسنا من الغفران فإنك في الرزق لا تنسانا، وارزُقْنا هِممًا تجدّ في الجد ولا تتوانى، وهَبْ لنا رحمة منك تلقانا بها يوم تَلْقانا وارزقنا عزَّ التقى فقد أكْسَبنا هوانا هوانا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أخبرنا علي بن أبي عمر بسنده عن يزيد بن حِمير، قال: سمعت سالم بن عامر يحدِّث عن واسط بن إسماعيل، أنه سمع أبا بكر الصديق يقول: قام فينا رسول اللّه ﷺ فقال: « إنه لم يُؤْتَ أحدٌ شيئًا بعد اليقين خيرًا من المعافاة » (٤).

قال القرشي: وحدَّثنا سلمة بن شبيب قال: حدَّثنا مروان بن محمد بن لهيعة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « نجا أولُ هذه الأُمَّة باليقين والزهد، ويهلك آخرُ هذه الأمة بالبخل والأمل » (٥).

قال القرشي: وحدَّثنا محمد بن عثمان العجلي، قال: حدَّثنا أبو أسامة عن جرير ابن حازم قال: حدَّثنا الحسن، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إن الناس، لم يؤتوا في

---

(١) سورة الحجر: ٤٧. (٢) سورة الفتح: ٢٩. (٣) أ: رشحا وهتانا. ولعل تحريف.

(٤) مسند أحمد : ٥/١. وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب رقم : ٥.

(٥) روى نحوه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : ٧١/٤. وقال: رواه الطبراني وإسناده محتمل للتحسين.

الدنيا خيرًا من اليقين والعافية، فسلوهما اللَّه تعالى »[١].

قال الحسن: صدق اللَّه ورسوله، باليقين طُلبت الجنة، وباليقين هُرب من النار، وباليقين أُدِّيت الفرائض، وباليقين صُبر على الحق، وفي معافاة اللَّه خير كثير، قد واللَّه رأيناهم يتقاربون في العافية، فإذا نزل البلاء تفاوتوا.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن علي بن الحسين بن شفيق، قال: حدثنا إبراهيم ابن الأشعث عن فضيل بن عياض قال: قيل لعيسى ابن مريم عليه السلام بأي شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا: فإنا آمنا كما آمنت، وأيقنَّا كما أيقنت قال: فامشوا إذًا. فمشوا معه فجاء الموج، ففرِقوا، فقال لهم عيسى: ما لكم؟ قالوا: خِفْنا الموج، قال: ألا خفتم رب الموج؟! قال: فأخرجهم ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها فإذا في إحدى يديه مَدَرٌ أو حصًى وفي الأخرى ذهب، فقال: أيهما أحلى في قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب. قال: فإنها عندي سواء.

قال القرشي: وحدَّثنا هارون بن عبد اللَّه، قال: حدَّثنا حجاج بن محمد، قال: حدَّثنا أبو هلال محمد بن سليم، عن بكر بن عبد اللَّه المُزني قال: فَقَدَ الحواريون نبيَّهم فقيل لهم: توجه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء يرفعه الموج مدة ويضعه أخرى، وعليه كساء مرتدٍ بنصفه ومُتَّزر بنصفه، حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم: أجيء إليك يا نبي اللَّه؟ قال: بلى، فوضع إحدى رجليه في البحر ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: غَرقْتُ يا نبي اللَّه!

فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شُعيرة مشى على الماء.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذَرّة بِرٍّ من صاحب تقوى ويقين أفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترين.

وقال عمَّار بن ياسر: كفى باليقين غنًى.

وقال الحسن: قال لقمان لابنه: يا بُني، العملُ لا يستطاع إلا باليقين ومن يضعف يقينه يضعف قلبه.

وقال الحسن: يا ابن آدم إن مِن ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوْثَق منك بما في يد اللَّه عز وجل.

وقال: من علامات المسلم إيمانٌ في يقين. وكان يقول: ما رأيت يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه مِنْ أمْرنا هذا.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعاء، باب رقم: ١٠٥. وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب رقم: ٥.

وما أحسن ما قال، فإنا نُوقِن بالموت والحساب والجزاء ولا نعمل عمل موقن، فكأننا في شك!

وقال بلال بن سعد في موعظته: عبادَ اللَّه اعلموا أنكم تعملون في أيام قصار لأيامٍ طوال، في دار زوال لدار مقام، ودار حُزْن ونَصَب لدار نعيم وخُلْد ومن لم يعمل في اليقين فلا يتعنَّ (١).

وكان شُميط بن عجْلان إذا وصف الموقنين يقول: أتاهم من اللَّه تعالى أمرٌ وَقَذهم (٢) عن الباطل فأسهروا العيون وأجاعوا البطون وأظمأوا الأكباد وأنْصبوا الأبدان واهتضموا الطارف والتالد (٣).

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقال لي: يا عبد الواحد إن أحببت أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد.

* * *

وإذ قد بان فضل اليقين فاليقين في باب العلوم ما لا يحتمل الشك. وقد يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع علمنا أنه لا يشكّ فيه، ولكن يُراد بذلك العمل بمقتضى ما أيقن به. والصالحون أيقنوا بالآخرة من حيث الدليل، فلم يتداخلهم ريب واستعملوا الجوارح بمقتضى ما أيقنوا به.

على أن علوم الموقنين تزيد وتنقص على قدر قوة الدليل عندهم وضعفه، فالدليل عندنا على وجود مكة أقوى من الدليل على وجود دمشق، وإن كنا لا نشك في وجود البلدين؛ إذ مُستند وجودهما التواتر، إلا أن كثرة المخبِرين عن مكة قوَّى اليقين فرفعه على وجود دمشق. وليس وضوح ما ثبت بدليل كوضوح ما ثبت بأدلة.

واعلم أن جميع المؤمنين يوقنون بأن اللَّه يراهم في جميع أحوالهم، غير أن قوة اليقين والعمل بمقتضاه أظهرَ على الأولياء المراقبةَ والتأدُّب في القول والفعل، كما يتأدَّب مُحاضر الملك، فاليقين شجرة وخصال الخير فروعها، فالعجب لموقن لا يعمل، بمقتضى يقينه. وما أحسن ما قال عُمر بن عبد العزيز في خطبته: إن كنتم توقنون فأنتم حمقى، وإن كنتم لا توقنون فأنتم هَلْكى.

وهذا لأن من أيقن بقصد السَّبُع إيَّاه، وعلِم أنه لا نجاة له إلا بأن يفرّ فلم يبرح من مكانه، فهذا في غاية الحمق. فكذلك من أيقن بندمه على تفريطه ثم دام عليه ميلًا إلى

---

(١) أ: فلا يتيقن. ولعله تحريف.

(٢) وقذهم: أبطأ بهم.

(٣) الطارف والتالد: المال الجديد المستحدث.

التسويف الذي هو منه [١] على خطر فإنه المغتر، فإن استدرك أمره بالصلاح [٢] وإلا نازله الندم في حال الفوت [٣] ولات حين مناص.

أخبرنا أبو البركات الأنماطي، بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ منْ ضَعْف اليقين أن تُرْضِي الناسَ بسَخط اللّه، وأن تحمدهم على رزق اللّه ﷻ، وأن تذُمَّهم على ما لم يؤتك اللّه، إن رزق اللّه لا يجرُّه حِرْصُ حريص ولا يردُّه كُرْه كاره، إن اللّه بحكمته وجلاله جعل الرَّوْح والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن [٤] في الشك والسخط » [٥].

وكان من دعاء رسول اللّه ﷺ: « اللّهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي ويقينًا ».

* * *

الكلام على البسملة

قصِّر بدنياك الأملْ ... من قبل إدراك الأجل
فلترحلنَّ كمِثل مَنْ ... قد كان قبلك وارتحلْ
فاحذر وقوفك في غدٍ ... عند الحساب من الخَجَلْ
وقد اعترفت بما اقترفـ ... ـت من الخطايا والزّلل
فإلى متى هذا الفُتُو ... رُ وذا التواني والكسل

كأنك بك يا ذا الفعل المَقِيت، وقد أخذك المهيمن المُقيت، فرماك في مرض، لا تدري أطعمْتَ أم [٦] سقيت، ثم أنْزلك قبرًا لا تعلم أنلت أمْ رقِيت، وقضى عليك بالبلاء فلا حُرستَ ولا وُقيت، وتمحَّجك [٧] الثرى فأمسيت قد انتقيت، ثم لا يقدر أحد أن يصف ما لقيت، والطامة أنك لا تدري أسَعِدْتَ أم شَقِيت. يا درِن القلب لو غسلت الذنب بالدمع نقِيت، ما أراك تخرج من الجِوَى [٨] إلى الجَوى وكم قد وُقيت.

يا مخلِّطًا على نفسه لو حَميتها، يا راميًا نَبْل الهوى إنما رميتها، أصْمتك مراميك وما أصميتها [٩].

إنما أنت سارٍ في خَسار ما أبعد أملك وما أقرب أجلك، لقد عاينت من سبق

---

(١) ش: عنه.
(٢) أ: بالعلاج.
(٣) أ: على تفريط الفوت.
(٤) أ: والخوف.
(٥) لم أجده في شيء من الكُتُب المعتمدة.
(٦) أ: أو.
(٧) تمحجك: من قولهم محج: قشره، والحبل: دلكه.
(٨) كذا بالأصل، والجوى: الماء المنتن.
(٩) أصمى الصيد: رماه فقتله مكانه.

وتأمَّلت، فالعجب بعده كيف أمَّلت، ويحك إن الباقي الذي تنتظر له الفَنا، كالماضي الذي أتى عليه القضا:

أيا مَلِكًا نافذًا حُكمُه | لِحُكْم الليالي توقَّع نفاذا
فكم من جماهير صِيد الملوك | طاروا قصاصا [1] وصاروا جُذاذا
وهَبك استويت على الخافقيـ | ـن وأحرزت هذا وهذا فماذا؟!

إنما يعْظم قدر الدنيا عند من لا قدر له، فأما من سمَتْ همَّته فإنه لا يرضى بدون.

أمّا شرُّ الدنيا فقد اتَّصل، وأما خيرها فما وصل، انظر طالبها علام حصل، كل مِفْصل له [2] في القبر انفصل، وحساب كسبه لها ما انفصل.

الشهوات صيْد مبثوث في صحراء الوجود، إذا طلبته بالهوى صاداك فصادك [3].

أين أنت منْ أقوامٍ أحبُّوا الخالقَ وحده، فآثروا على الجمع الوحدة، همَّتهم في تحصيل الزاد وتيقظهم كلما جاء زاد.

قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه فإنه يلقَّى الحكمة.

وقيل لمحمد بن النضر: كأنك تكره أن تُزَار؟ فقال: نعم. قيل: أَما تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذَكَرني؟!

قيل لمالك بن مِغْول: أَما تستوحش وحدك؟ فقال: ما كنت أرى أحدًا يستوحش مع اللَّه ﷻ. وقال سلمة العابد: ما وجد المطيعون لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم ولا أحْسب لهم في الآخرة من الثواب أكبر في صدورهم وألذّ في قلوبهم من النظر إليه، ولولا الجماعة ما خرجت من بيتي حتى أموت:

أوحشتْني خلْوتي [4] | بك من كل أنيس
وتفردت فعاينْـ | ـتك بالغيب جليسي
ودعاني الوجد والحُـ | ـبّ إلى المعنى النفيس
فبدَا لي أن مهر الحِبّ | أنفاسُ النفوس [5]
فكتبتُ العهد للحب | على طِرْس الرسيس [6]

(١) أ: قطاطا.
(٢) أ: كم منفصل منه. ولعله تحريف.
(٣) صاداك: حاول صيدك.
(٤) خلواتي.
(٥) الحب بكسر الباء: المحبوب.
(٦) الطرس: الصحيفة. والرسيس: الشيء الثابت أو ابتداء الحب.

يا بعيدًا عن الأخيار، يا مصاحبًا للأشرار، يا سيئ الاختيار، لعلك خُلِقت للنار، ويحك اذكر حبسك، ويحك اذكر نفسك، ذنوبك تحملك [١] إلى جهنم والعقاب فيها ما تعلم، أفتنْتبه قبل أن تَقْدم وتبكي على الفوت [٢] وتندم.

قال رجاء بن ميسور المجاشعي: كُنَّا في مجلس صالح المُرِّي فقال: إنك لو رأيت أهل المعاصي يساقون إلى الجحيم حُفَاة عُرَاة ينادون: يا ويلنا أين يُذهب بنا؟! ثم صاح: يا سوء منظراه، يا سوء منقلباه. فقام فتى من الأزد فقال: أكلُّ هذا في القيامة؟! فقال صالح: إي واللَّه يا ابن أخي وما هو أكثر من ذلك، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين، فصاح الفتى: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، ويا أسفاه على تفريطي في طاعتك يا سيداه. ثم بكى واستقبل القِبلة، وقال: اللَّهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لا يخالطها رياء فاقبلني على ما كان مني واغفر لي ما تقدَّم من ذنبي وأقِلْني عَثْرتي. ثم سقط مغشيًا عليه فحُمل صريعًا فمكث صالح وإخوانه يعودونه أيامًا ثم مات فرآه رجل في منامه فقال: ما صنعتَ؟ فقال: عمَّتني بركة مجلس صالح فدخلت في سَعة رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء.

إخواني: منْ صَبر على الرياضة استوى، ومَن أمضَّه العتاب ارعوى، وبعد هذا فمتى لم يساعد التوفيق كانت الحركة خُذلانا:

أثْقلني في زمن سالفٍ ... إثْمٌ على رأسي مَنشورُ
أخاف عند الموت من فَزْعةٍ ... فكيف إذا صيح بنا ثُوروا
بُشِّر بالكوثر أهلُ التقى ... وأنت بالغِسْلين مبشور
خُوِّفت من حشرك فيما مضَى ... فلم تخَلْ أنك محشورُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا... ﴾ [٣]

في الصافات قولان:

أحدهما: أنهم الملائكة. قاله ابن مسعود والجمهور. قال ابن عباس: هم الملائكة صفوف في السماء لا يعرف كل ملك منهم مَنْ إلى جانبه لم يلتفت منذ خلقه اللَّه ﷻ.

---

(١) أ: تحمل.
(٢) أ: الفوات.
(٣) سورة الصافات: ١.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا » (١).

وقال قوم: هي الملائكة تصفُّ أجنحتها في الهواء واقفة، إلى أن يأمرها الله بما يشاء.

والثاني: أنها الطير صافات. حكاه الثعلبي.

قوله: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: أنها الملائكة التي تزجر السحاب. قاله ابن عباس.

والثاني: أنها زواجر القرآن وكل ما ينهى عن القبيح. قاله قتادة.

وفي التاليات ذكرًا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الملائكة تقرأ كُتُب الله. قاله ابن مسعود.

والثاني: الرُّسُل. قاله ابن عباس.

والثالث: ما يُتلى في القرآن من أخبار الأمم. قاله قتادة.

وهذه أقسام جوابها: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ ﴾.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾:

سبحانه من عليٍّ ماجد، وجلَّ من غنيٍّ واجد، مُنزَّه عن ولد وعن والد، فوحقِّه على المقرِّ والجاحد ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾.

رفع السماء ما لها [من] (٢) عامد، ومَن شكَّ في هذا فليشاهد، وأمسك الأرض بأطوادٍ راسخة القواعد، فوحقِّ الحقِّ المقيم في أعناق الخلق الخالد ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾.

أطلع النجوم كأنها جنود تطارد، والقمر كالعريف والشمس كالقائد، فَوَعِزَّة من جعلها نجومًا تضيء في المقاصد ورجومًا للعدو المعاند، وحفظًا من كلِّ شيطان مارد ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾.

ألَّف بقهره وقسره بين الضدين، وجمع بين العذب والمالح في ملتقى البحرين، وقضى سبع سماوات في يومين ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ (٣).

أنشأ وابتدع، وفرَّق وجمع، وأتقن ما صنع وله ركع وخضع وخشع الساجد ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾.

هدى من شاء وأضلّ، وعقد كما شاء وحلَّ، واستوى على العرش وما حلَّ، فَوَقُدْرَة

---

(١) مسند أحمد: ١٧٣/٥. (٢) ليست في ش. (٣) سورة النحل: ٥١.

من له ذلّ وقلّ واضمحل العابد ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾.

أنعم بإنزال [١] كتابه بين جليٍّ ومتشابه، واستدعى جميع أحبابه وإلى [٢] بابه يسعى كلُّ قاصد [٣] ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾.

جلَّ صفة واسمًا، وأنشأ أرضًا وسمًا، وخلق الشهوات ابتلا، وأحبَّ الزاهد ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾.

يعلم الباطن والخافي، والحقير والجافي، ويحصي عدد النمل في الفيافي والرمل في الفدافد [٤] ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾:

المشارق: ثلاثمائة وستون مشرقًا، تطلع الشمس كل يوم في مشرق لا تعود إليه إلى سنة، وتغرب في مثله، فلما كانت المشارق تدل على المغارب اكتفى بذكرها عنها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا... ۝٦ ﴾ يعني التي تلي الأرض ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾ أي: بحسنها وضوئها. وقرأ حمزة ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ منونة وخفض الكواكب، فجعل الكواكب بدلًا من الزينة؛ لأنها هي.

وروى أبو بكر عن عاصم بزينةٍ بالتنوين ونصب الكواكب والمعنى: زينَّا السماء الدنيا بأن زينَّا الكواكب فيها حين ألَّفناها في منازلها وجعلنا لها نورًا. وقرأ أُبي بن كعب ﴿ بزينةٍ ﴾ بالتنوين ﴿ الكواكبُ ﴾ برفع الباء. قال الزجاج: والمعنى زينَّا السماء الدنيا بأن زيَّنتها الكواكب، وبأن زينت الكواكب.

﴿ وَحِفْظًا... ۝٧ ﴾ أي وحفظناها حفظًا ﴿ مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾ أي: عاتٍ ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ... ۝٨ ﴾ وهم الملائكة والملأ: الأشراف، قال الفراء: والعرب تقول: سمعتُ من فلان وإلى فلان ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ ﴾ بالشهب ﴿ دُحُورًا... ۝٩ ﴾ أي: طرْدًا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ ﴾ أي دائم. ومتى يكون هذا العذاب؟ فيه قولان: أحدهما في الآخرة. والثاني في الدنيا، يُحرقون [٥] بالشهب ويختلون ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ... ۝١٠ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ خِطفة ﴾ بسكون الطاء. وقرأ ابن السَّمَيذع [٦] بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها. وقرأ الجحدري بكسر الخاء والطاء وتخفيفها. والاختطاف: استلاب الشيء بسرعة. والمعنى: إلَّا من اختلس الكلمة من كلام الملائكة

---

(١) أ: بإنزاله. (٢) أ: فإلى. (٣) أ: فإلى.
(٤) الفدافد: جمع فدفد وهي الصحراء. (٥) ش: يجرحون. (٦) السميذع: السيد الكريم.

[مشارقة] [١] ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ... ⑩ ﴾ أي: لَحقه ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ ﴾ أي كوكب مضيء.

أخبرنا هبة اللّه بن محمد بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول اللّه ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه فرُميَ بنجم فاستنار، فقال: « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ » قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قلت للزهري: كان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم. ولكن غُلظت حين بُعث النبي ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « فإنها لا يُرْمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تعالى إذا قضى أمرًا سبح حملةُ العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين [٢] يَلُون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء سماء [٣] حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء فتخطف الجنُّ السمع فَيُرمون فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْذفون [٤] فيه ويزيدون » [٥] (انفرد بإخراجه مسلم).

وقال وهب بن منبه: كان إبليس يصعد إلى السموات كلهن ويتقلَّب فيهن ويقف منهم حيث شاء ولا يُمنع ولا يُحصب، وإنه لم يزل على ذلك منذ أخرج آدم من الجنة إلى أن رفع اللّه تعالى عيسى ﷺ، فحينئذ حُجب من أربع سموات وصار يتردد في ثلاث سموات، حتى ابتعث اللّه محمدًا ﷺ فحجب إبليس لعنه اللّه من الثلاث الباقي، فصار مسترِقًا محجوبًا هو وجنوده إلى يوم القيامة يقذفون بالكواكب [٦].

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عروة قال: قالت عائشة: سأل أناسٌ رسول اللّه ﷺ عن الكهَّان، فقال لهم رسول اللّه ﷺ: « ليسوا بشيء » فقالوا: يا رسول اللّه يحدّثون أحيانًا بالشيء يكون حقًّا فقال رسول اللّه ﷺ: « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرُّها في أذن وليِّه قرَّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » [٧]. (هذا حديث متفق على صحته).

وقد أخرج البخاري من حديث عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الملائكة تنزل في العَنَان وهو السحاب، فتذكر الأمر قُضي في السماء فتسترقُ الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم » [٨].

---

(١) من « ق ».

(٢) صحيح مسلم: ثم قال الذين. وفي أ: فيقول الذين. وما أثبته من « ش ».

(٣) صحيح مسلم: فيستخبر بعض أهل السموات بعضًا.

(٤) صحيح مسلم: يقرفون: أي يخلطون.

(٥) صحيح مسلم، كتاب السلام، حديث رقم : ١٢٤.

(٦) ومن أين لوهب بن منبه هذا العلم الذي لا يؤيده دليل؟!

(٧) صحيح مسلم، كتاب السلام، حديث رقم : ١٢٢.

(٨) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ٦.

فقد بين النبي ﷺ من أي وجه تقع إصابتهم لبعض الشيء ومما جرّب عليهم فوقع في بعضه الصدق ما أخبرنا به عبد الوهاب الحافظ بسنده عن أبي سلمة أظنه السراج، عن يحيى بن أبي كثير أن رجلين خرجا في سفر ففقد أحدهما صاحبه، فلما رجع اجتمع أهلُ بيت هذا وأهل بيت هذا حتى كاد يكون بينهما شيء، فقال ذوو النُّهى فيهم: هل لكم أن نبعث إلى سطيح رجلًا منا يسأله عن شأن صاحبنا؟ فقال بعضهم لبعض: أرأيتم إن أخبرنا سطيح أنه قتل صاحبنا فكنا نقتله بقوله، وإن قال: لم يقتله فكنا ندعه بقوله، فتعالوا حتى نَعْتلم علامة ثم نسأله عن علامتنا فإن أخرجها سألناه عن شأن صاحبنا، فأخذوا بدنةً فنحروها ووضعوا من لحمها فاصطادوا عليه نسْرا وأخذوا من ريشه عشر ريشات، وقالوا: هذه علامتنا فأتوه فلما رأوا سطيحًا قال: إن شئتم أخبرتكم بالذي جئتموني تسألوني عنه، وإن شئتم سألتم [(١)] فقالوا: أخبرنا فيم جئناك؟ فقال: إنكم سرتم إليَّ شهرًا ونحرتم على رأس شهر بَكْرًا واصطدتم على لحمه [(٢)] نسرًا وأخذتم من ريشه عشرًا وقلتم قتل عامرٌ عَمْرًا وما قتله إلا ذو أنيابٍ قسرًا.

قال: فرجع القوم يطلبون صاحبهم فإذا به قد قتله الأسد.

واعلم أن تصديقهم مع مثل هذه الإصابة حرام في شرعنا فقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « من أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد برئ مِمَّا أُنزل على محمد ﷺ » [(٣)].

وفي أفراد مسلم من حديث بعض أزواج رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة » [(٤)].

* * *

قوله تعالى:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ... ﴿١١﴾ ﴾

فاسألهم سؤال تقرير ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا... ﴿١١﴾ ﴾ أي أحكم صنعةً ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ... ﴿١١﴾ ﴾ قبلهم من الأمم السالفة. والمعنى أنهم ليسوا بأقوى من أولئك، وقد أهلكناهم بالتكذيب، فما الذي يؤمن هؤلاء فإنه من قَدَر على إهلاك الأقوياء قدر على إهلاك الضعفاء. ثم بيَّن

---

(١) أ: فاسألوا. (٢) أ: على نحره.

(٣) سُنَن أبي داود، كتاب الطب، باب رقم : ٢١.

(٤) صحيح مسلم، كتاب السلام، حديث رقم : ١٢٦.

الأصل فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ أي لازم والباء تبدل [١] من الميم لقرب مخرجها. قال ابن عباس: هو الطين الحرّ الجيد اللزق.

سجع على قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾:

سبحان من لا وزير له ولا صاحب، سبحان من قهر الخلائق فهو الغالب، سبحان من يسمع صريف [٢] القلم بيد الكاتب، ويل للجاحدين فما أعماهم عن المطالب ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

سبحان من جمع بين تراب جامد وماء ذائب، فصوَّر منه صورةً سليمة من المعايب، أظهر فيها ما لا يُحصى من العجائب، وقد حدَّثناهم بذلك وفهَّمناهم ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

أنشأ الآدمي في قرار مكين غائب، وأخرجه إلى الضوء من تلك الغياهب، وسهَّل له مسارب المشارب، ودفع عن مشروبه سوائب الشوائب ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

أحكم بصنعته القطرة، وعلِم عدد قطرات المطر، وخلق الإنسان من قطرة تخرج من بين الصلب والترائب.

أحسنَ بالقدرة بناءه ورتَّب بالحكمة أجزاءه وقدّر على التساوي أعضاءه، فلم يفضِّل جانبًا على جانب ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

عرَّفه طريق الوسائل ثم أجابه في المسائل، ويناديه في الليل هل من سائل، هل من تائب.

واعجبًا للمتكبرين، واأسفاه للمتجبرين لو تأملوا أصلهم تأمل الناظرين من طين لازب وماء ذايب.

يا مقيمين تأهَّبوا للنُّقلة، يا غافلين تذكروا قرب الرِّحلة، تاللّه إن مصيبة الغفلة لا تُشبه المصائب.

أفيكم من نوى الخيرَ قبل النَّوى، أفيكم من إذا ذكر الثرى التوى، إلى متى مع من ضلَّ وغوى وحبل الهوى على الغارب.

الأمان من الأقدار الأمان، مضت واللّه بالعطايا والحرمان، سبق القضاء فقُبل [٣] سَلْمان وردَّ أبو طالب ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

* * *

---

(١) أ: بدل. (٢) أ: صرير. (٣) أ: بقبول.

المجلس السادس عشر

في الزهد

الحمد للَّه ذي النعم الظاهرة والحكم الباهرة والدلالات الزاهرة والعقوبات القاهرة، خلق الخلائق من أصول متنافرة، وعمَّ خلقَه بالأيادي المتكاثرة، ثم عاد بالفناء على المستحكَمات الناظرة، فإذا هي بالبِلَى متناثرة، ثم يجمعهم بنفخة الصور في الدار الآخرة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [١].

أحمده على النعم الغامرة حمدًا يعيد قِفار القلوب عامرة، وأقرُّ له بالتوحيد عن عقيدة ظاهرة. وأُصلِّي على رسوله محمد صلاة تجلب لنا صلاة إلى صلاة إلى العاشرة، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الناهض يوم الرِّدة نهضة ظافرة، وعلى عُمر الذي قلقل الأكاسرة، وعلى عثمان ذي المقْلة الساهرة، وعلى عليٍّ قامع النفوس الكافرة، وعلى عمِّه العبَّاس سيد الأقارب وقطب الدائرة.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن مجاهد عن عبد اللَّه بن عمر قال: أخذ رسول اللَّه ﷺ بمنكبي فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذْ من صِحَّتك لمرضك ومن حياتك لموتك [٢]. (انفرد بإخراجه البخاري).

أخبرنا هبة اللَّه بن أحمد الحريري بسنده عن سهل بن سعد قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه مُرْني بعمل إذا أنا عملتُه أحبَّني اللَّه وأحبَّني الناس. فقال النبي ﷺ « ازهد في الدنيا يحبك اللَّه وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » [٣].

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد اللَّه، يعني ابن مسعود قال: أنتم أَطْول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم. قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم.

قال عبد اللَّه [٤]: وحدثني أبي قال: حدثنا سيَّار قال: حدثنا جعفر، حدثنا حوشب، عن الحسن أن عُمر ﷺ أتي بشَرْبة من عسل فذاقها فإذا ماء وعسل فقال:

---

(١) سورة النازعات: ١٣، ١٤.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٣.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب رقم : ١.
(٤) هو عبد اللَّه ابن الإمام أحمد.

اعزلوا عنِّي حسابها اعزلوا عني مُؤنتها [١].

قال عبد اللَّه: وحدَّثني أبي قال: حدَّثنا عبد الصمد قال: حدَّثنا عبد ربه قال: سمعت الحسن يقول: إن المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع منْ ذلِّها ولا يُنافس في عزِّها، الناس منه في راحة ونفسه منه في شُغل.

قال عبد اللَّه: وحدَّثنا علي بن مسلم قال: حدَّثنا سيَّار قال: حدثنا جعفر قال: سمعت فرقدًا السَّبخي [٢] يقول: اتَّخذوا الدنيا ظِئرًا واتَّخذوا الآخرة أُمًّا، ألم تروا إلى الصبي يُلقي نفسه على الظئر [٣]، فإذا ترعرع وعرف والدته ترك ظئره وألقى نفسه على والدته؟! فإن الآخرة أمّكم يوشك أن تجترَّكم.

وقال أبو واقد الليثي: تابعنا الأعمال فلم نجد عملًا أبْلغ في طلب الآخرة من الزهادة في الدنيا.

واعلم أن معنى الزهد: انصراف الرغبة عن الشيء.

وأحوال الزهَّاد تختلف: فمنهم من ترك الدنيا لذمِّ الشرع لها. ومنهم مَنْ خاف طول الحساب عليها. ومنهم من رآها قاطعة له عن الآخرة. ومنهم من رأى الالتفات إليها يوجب الاشتغال عن الحبيب فلم يُعِرْها الطَّرف.

قيل لعيسى ابن مريم عليه السلام: لو اتَّخذت بيتًا؟ فقال: يكفينا خُلْقان [٤] من كان قبلنا.

وبَعَثَ حبيبُ بن مسلمة إلى أبي ذرٍّ بمال فردَّه وقال: لنا ظلٌّ نتوارى به، وثُلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم إني أتخوَّف الفضل.

وقال الحسن: إن أقوامًا أكرموا الدنيا فصلبتْهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها، ولقد أدركت أقوامًا كانوا لا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولَهِيَ كانت أهون من التراب في أعينهم، كان أحدهم يعيش خمسين سنة وستين سنة لم يُطْو له ثوب، ولم يأمر أهله بصنعة طعام.

وقال: يُحشر الناس عُراة ما خلا أهل الزهد.

وقال الفضيل: جُعل الشر كله في بيت وجُعل مفتاحه حب الدنيا. وجُعل الخير في بيت وجعل مفتاحه الزهد.

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل: ص ١١٨.

(٢) هو أحد عُباد البصرة. ميزان الاعتدال: ٣/٣٤٥.

(٣) الظئر: المرضعة.

(٤) الخلقان: جمع خلق - بفتح الخاء واللام وهو البالي.

وقال بعض السلف: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن.

واعلم أن الزهاد على ثلاث طبقات:

الأولى: قوم تركوا الدنيا والقلوبُ إليها مائلة، فهؤلاء يجاهدون النفوس [1] في تركها.

والثانية: قوم تركوها من غير التفات القلب طمعًا في الآخرة فكانوا كمن يخرج درهمًا ليأخذوا درهمين.

والثالثة: قوم زهدوا طوعًا وزهدوا في زهدهم، فلا يرون أنهم تركوا شيئًا لاحتقار الدنيا عندهم. فمثلهم كمثل من أتى باب الملك فوجد على الباب كلبًا يمنع الدخول فألقى إليه لقمة يشغله بها، ثم دخل إلى الملك، فهل ترى قدر تلك اللقمة؟!

واعلم أن الزهد الممدوح: ترك الفضول التي لا تدعو إليها الحاجة. **والمهمات الضرورية سبعة:**

أحدها: المطعم، فهمَّة الزاهد ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه ويعينه [2] على الطاعة ولا يقصد الالتذاذ، فإنْ قصد الالتذاذ بشيء من المتناولات ليعطي النفس حظًّا مُباحًا يتقوَّى به لم يخرج من الزهد. وقد كان سفيان الثوري حسن المطعم، وربما سافر وفي سَفْرته يتناول المشويَّ والفالوذج. وقد يدَّخر الزاهد شيئًا يتقوَّته فلا يخرجه من الزهد، فقد كان لسفيان [3] بضاعة وورث داود الطائيّ عشرين دينارًا فأنفقها في عشرين سنة.

واعلم أنه قد كان في السلف من يأكل خبز الشعير ويجشُّ [4] ما يتناوله، وهذا إذا كانت عادته ولا يؤذيه فحسن، وليس كل الأبدان تتحمَّل.

والثاني: الملبس. والزاهد يقتصر على ما يدفع الحرّ والبرد ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمّل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة. وقد كان أكثر لباس السلف خشنًا فصار الخشن اليوم شهرة. وفي الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها أخرجت كساءً ملبَّدًا وإزارًا غليظًا، فقالت: قُبض رسول الله ﷺ في هذين. وخطب عمر رضي الله عنه الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشر رقعة [5] وكان علي رضي الله عنه يلبس ثوبًا قد اشتراه بثلاثة دراهم وعُوتب في لباسه فقال: هو أدنى إلى التواضع وأجدر أن يقتدي بي المسلم.

وقيل لسلمان الفارسي: ما لك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: ما للعبد والثوب الحسن، فإذا أعتق فله والله ثياب لا تَبْلى أبدًا.

---

(١) ش: النفس.

(٢) أ: ويقويه.

(٣) هو سفيان الثوري التابعي الشهير.

(٤) يجش: يدق ويكسر.

(٥) الزهد للإمام أحمد : ص ١٢٤.

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز ﷺ قوّموا له ثيابه كلها وخُفَّيْه ورداءه باثني عشر درهمًا، وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخِرَق من المزابل ويلفقها ويقول: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا، جبر اللَّه لهم بالجنة (١) كل مصيبة.

والثالث: المسكن. فقد كان بعضهم يقنع بزوايا المسجد كأهل الصُّفة، وبعضهم يبني كُوخًا. ومتى قصد ما يُخرجه عن حدِّ الضرورة خرج عن الزهد. وقد توفي رسول اللَّه ﷺ ولم يضَعْ لَبِنة.

الرابع: أثاث البيت. وينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخِرق ففي الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: كان ضِجَاع رسولِ اللَّه ﷺ الذي ينام عليه بالليل من أدم محشوًّا ليفًا (٢).

وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ اضطجع على حصير فأثَّر في جنبه (٣). وقال علي ﷺ: تزوجتُ فاطمةَ وما لي ولها فراش غير جلد كبش، كُنَّا ننام عليه بالليل ونعلق عليه الناضح (٤) بالنهار، وما لي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن وإن قُصتها لتضرب الجفنة من الجهد الذي بها.

وقال الحسن: أدركت أقوامًا ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع بينه وبين الأرض شيئًا (٥) قطّ.

والخامس: المَنْكَح. وليس من الزهد تركه فإن التشاغل به للعفاف لازم، ولطلب النسل فضيلة، ومن لا يجتمع همُّه إلا بطلب المُستحسَن، أو يكون سببًا لنشاطه في طلب الولد فذاك في حقِّه فضيلة، فأما إذا خاف عدم النفقة وشتات القلب وأمكن الاقتصار على الدُّون فحسن.

والسادس: المال. والزاهد يقتصر منه على ما يدفع الموت (٦) ويقطع عنه مِنَن الخلق.

والسابع: الجاه. ومعناه مِلْك القلوب (٧) ليتوصَّل بها إلى الاستعانة على ما يريده من الأغراض ودفع ما يؤذيه، والزهد يمهد له الجاه فليحذر من شرّ ذلك.

وقد يتزهَّد الإنسان في المطعم ويلبس الخشن ويقصد المدح بالزهد فذاك الخاسر، فلا بد من عدم هذا القصد الرديء ودفعه بسَتْر الحال وأن لا يتلفت إليه. والعمل كله على النيَّات والبواطن. فنسأل اللَّه ﷻ سلامةً تُعمِّر (٨) بواطننا وظواهرنا بمنِّه وكرمه.

* * *

(١) أ: في الجنة.

(٢) الأدم: الجلد. والحديث في صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ١٥.

(٣) مسند أحمد ١/٣٩١.

(٤) الناضح: البعير الذي يستقى عليه.

(٥) أ: ثوبا.

(٦) أ: الوقت.

(٧) ش: المطلوب.

(٨) أ، ش: تعم. وما أثبته من ق.

الكلام على البسملة

يا منْ يصاح بغيره فيروعه ذلَّ المُصَاح به وعَزُّ الصائح
ذي الدار ما خُلقت ليبقى أهلها فعلام يشمتُ قاطنٌ بالنازحِ
كلُّ يصير إلى مصير واحد ويبيت بين جنادل وصفائح
عجبي لقومٍ أيقنوا تعيينه نُصحوا فلم يَعْبَوا بنصح الناصح
عَلِقوا من الدنيا بِشرٍّ علاقةٍ فهوت بهم في لُجّ بحْرٍ طافح
ورأوا مصارع أهلها فكأنهم لم يسمعوا فيها نياحة نائح

يا من زادُه قليل وطريقه بعيد، يا مقبلًا على ما يضر تاركًا ما يفيد، أنسيت هجوم الموت العظيم الشديد، أغفلت عن نزول اللحد المهلك المبيد، أما تخاف الحساب إذا نُشر كتاب رقيب عتيد، من لك إذا تلهّف القادم وتأسَّف النادم وأقلقت المظالم، وتعلّق المظلوم بالظالم، كم مُتجبر هان بالامتهان، وودَّ عند شهادة الأركان أنه ما كان، يا له من يوم يخرس فيه لسان الإنسان، ويقلق عند بروز النيران الجيران فابْكِ على ذنوبك وتأسَّف للعصيان، فما يوضع في الميزان مثل الأحزان.

يا من هو في لُجَّة بحر الهوى، الهوى يَسْبح، جهلك بما أنت فيه مما أنت فيه أقبح، ستبكي على خسرانك إذا رأيت من يربح، أيستوي ليلٌ وفجر قد أصبح، أتقاوم الأسد ثعالبٌ تَضبح [(١)]:

أتلتمس الرضا منَّا وقَلْبك معرضٌ عنَّا
فلو عُدت كما كنتَ لنا عُدنا كما [(٢)] كُنَّا

يا من كان له قلبٌ فانقلب، يا مغلوبًا بالهوى طال ما غَلب، يا مُزَمَّلًا بعُرى الطّرد وقد سُلب السَّلب [(٣)]، ابعث رسالة حزنٍ مع صُعداء الأسف لعلَّه يأتي الجواب بكشف الجوى [(٤)].

وقفنا وقد شطَّتْ بأحبابنا النَّوَى على الدار نبكيها سَقى رَبعها المُزْنُ
وزادت دموع الواقفين برَسْمها فلو أرسلت سُفن بها جرت السُّفْنُ
ولم يبقَ صبر يُستعان على النَّوَى به بَعْد توديع الخليط ولا جَفْنُ
سألنا الصَّبا لما رأينا غرامنا يزيد بسكان الحمى والهوى يَدْنُو
أفيك لِحَمْل الشوق يا ريحُ موضعٌ فقد ضعُفتْ عن حَمْل أشواقنا البُدْنُ

---

(١) الضبح: صوت الثعلب.
(٢) ش: بما.
(٣) الطرد: مزاولة الصيد. والسلب: ما يسلب.
(٤) الجوى: الحزن. وفي أ: الهوى.

أيها التائبُ سكّن جزعك فإن الذي عليك معك.

جَنَيتم علينا واعتذرنا إليكم، يا هذا اعطف نفسك بزمام الإنابة، ورُدَّها بلجام اليقظة عن هُوة الهوى، سلِّمها إلى رائض الأمر وألقها لدى طبيب الشرع، فالطبيب يحبسها في فناء ويمزج لمزاجها المنحرف برودة الرجاء بحرارة الخوف ويجدح [١] لها من دواء أدوائها مرارة الأمر من ماء نهْي النُّهى، فإذا خالفت أهواءها وحالفت دواءها، ارتفعت صمامة الصمم عن سمع سمع الهوى، وخرَّ ركام الزكام عن مَنْخَر الهوى، فاستنشقت ريح يُوسفها من قميص أسفها على مَسْلفها، فرمتْ أغراض أغراضها بسهام العزائم على هجرانها، ورأت عيب الدنيا فانطلقت في طلاقها، وألقتها كاللَّقىٰ [٢] بين يدي عشاقها، فكلما دبَّت مياه العافية في أغصان سرها انتشرت أوراق الصدق في برِّ برِّها، وأنشأت وُرق [٣] طربها لوجدان أرَبها تَصْدح على أفنانها بفنون ألحانها، فلو سمعت مضمون قيانها: « عزفتْ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها ومَدرها »

فحينئذ بيني صومعة المعبد على ساحل الزهد، فيضع لها أساس العزائم ويرفعها على قواعد الإخلاص ويُحْكمها بشِيد [٤] الفكر.

ويشرع إليها مشارع دمع الأسى، فتحوم حولها طير الأُنس فتسمعها نغمات القُدْس فتخبر الألسنة لطهارة الأسرار عن الغيب: يا سارية الجبلَ [٥].

فيا أيها الأعزل احذر إصابة نَبْل المتَّقي فإنه يرى عورة عملك من وراء جلباب سترك « اتَّقوا فراسة المؤمن » « مَن لم يكن له مِن نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ ».

اشترى [رجل] جارية مطربة بعشرين ألف درهم، فبينما هي يومًا تغني وتقول:

وحقِّك لانقَضْت الدهرَ عهدا ولا كدّرت بعد الصَّفو وُدَّا
ملأتَ جوانحي والقلب وجْدًا فكيف أقَرُّ يا سكنى وأهْدا
فيا من ليس لي مولًى سواه تراك رضيتني في الناس عَبْدا

فصاح بها الذهن من باطن القلب: مَن تَغْنين وبمَن تغنين؟ فانتبهتْ فعلمتْ أنه لا مولى

---

(١) يجدح: يخلط.
(٢) اللقى: بفتح اللام: ما طُرح.
(٣) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.
(٤) الشيد: ما يطلى به الحائط من جص وغيره.
(٥) يشير إلى قصة عمر بن الخطاب ﷺ حين نادى أحد قواده في الفتوحات الإسلامية في عهده: يا سارية الجبل أي احذر العدو الآتي من جهة الجبل فسمعها سارية.

سوى الحق، ولا يحسن بعد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (١) نقض عهد، فتغيَّرت واختلطت فقيل لها: ما لكِ؟ فقالتْ:

خاطبني الحقُّ من جَناني ... وكان وعظي على لساني
قرّبني منه بعْد بُعدٍ ... وخصَّني منه واصطفاني
أجبتُ لما دُعيت طوعا ... مُلبِّيًا للذي دعاني
وخفت مما جنيتُ قدْما ... فوقّع الحِبُّ بالأماني

ثم رمى بها الفكر في بحر الوجد واشتغلت عن الخلق بالذكر (٢) وجعلت تقول:

يا من رأى وحشتي فآنسني ... بالقرب من فضله وأنْعشني
يا سَكني لا خلوتُ منْ سكني ... دهري ويا عُدتي على الزمِن
أوحشني ما فقدتُ منه وقد ... عاد بإحسانه فقرّبني
وعُدْتُ أيضًا فعاد منعطفًا ... كذاك إذ كنت منه عوَّدني
حسبي من الكلِّ من شُغلتُ (٣) به ... أصْحبه مؤنسًا ويصْحبني
هربت من مسكني إلى سَكني ... حقًّا ومن مَوْطن (٤) إلى وطني
وكنت في غفلةٍ فنبَّهني ... وكنت في رقدةٍ فأيقظني
وكنت أخشى ما كان (٥) من زَللي ... وجئت مستأمنًا فأمّنني
يا قوم قولوا كُلًّا بأجمعكم ... يا ليت ما قد كان قطُّ لم يكن

ثم اشتدَّ بها القلق وأزعجها الفَرَق فكانت تصيح:

هربتُ منه إليه ... بكيت منه عليه
وحقِّه وهو سُؤلي ... لا زلتُ بين يديه
حتى أنال وأحظى ... بما (٦) أرجِّي لديه

ثم لبست خمارًا من صوف ومِدْرعة (٧) من شعْر وصاحت تقول:

يا سرور السُّرور أنت سروري ... وحبوري وأنت نور النورِ
كم ترى يصبر المحبُّ على البُعـ ... ـد وكم يلبث الهوى في الصدور

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.
(٢) أ: بالفكر.
(٣) أ: اشغفتُ.
(٤) ش: ومن وطن.
(٥) ش: ما فات.
(٦) ش: مما.
(٧) المدرعة: ثوب من صوف.

ثم رحلت إلى مكة فطافت حول البيت وصاحت: إلهي إلى كم تخلّفني في دار لا أرى فيها أنيسًا [١] قد طال شوقي إليك.

فوقعت ميِّتة رحمة اللّه عليها.

* * *

سجع على قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾ [٢]

سبحان من شرّفكم بخطابه وذكَّركم في كتابه، ودعاكم بطاعته [٣] إلى بابه، وشوَّقكم إلى جزيل ثوابه، وحذَّركم من أليم عقابه، وناداكم نداء مَنْ لطف بكم، وأحبَّكم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾.

يا أيها الناس أطيعوا مولاكم، واسمعوا خطابه فقد ناداكم، واشكروه فقد لطف بكم وهداكم، واحمدوه فبالمسلمين سمَّاكم، واجتنبوا ما يسخطه فقد نهاكم، فإنه إنْ غضب عليكم ألقاكم في النار وكبَّكم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾.

تمسكوا بالتقوى فهي العروة الوثقى، وارفضوا ما يفنى واطلبوا ما يبقى، واحذروا المعاصي فإن العاصي سيشقى، وتزودوا لسفركم يقينًا وصدقًا، فاغسلوا قلوبكم بمياه الأحزان لعلَّها من آثار العصيان تَنْقى، وأكثروا على ذنوبكم السالفة نَدْبكم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾.

كم عصيتموه فستركم وأمهلكم، كم بارزتموه بالخطايا فما عاجلكم، كم خالفتموه فحلم وما قابلكم، كم دفع عنكم من بلاء شديد نازلكم، كم من مرض عظيم عافاكم منه وطبَّكم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾.

يا أيها الناس اتقوا من يسمع ويرى، يا أيها الناس احذروا من خلق وبَرَى، يا أيها الناس أطيعوا ربَّ الورى، يا أيها الناس التقوى أوثق العُرى يا أيها الناس اقبلوا على من ربَّاكم وربَّكم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾.

إخواني: التقوى اعتماد المُتَّقي ما تحصل به الحيلولة بينه وبين ما اتَّقاه. ولكلِّ جارحةٍ حظٌّ في التقوى فتقوى البصر: غضُّه، وتقوى اللسان صَمْتُه. قال عُمر ﷺ لكَعْب: حدِّثني عن التقوى. فقال: هل أخذتَ طريقًا ذا شوكٍ؟ قال: نعم. قال: فما عملتَ فيها؟

---

(١) ش: أنسا. (٢) سورة الحج: ١. (٣) أ: لطاعته.

قال: حَذِرْت وشمَّرت [١]. قال: ذلك التقوى.

يا قليل الإخلاص والتُّقى، ستندم على التفريط يوم اللِّقا. يا مُطمئنًا إلى دارٍ قليلة البقا، إيثار ما يفنى على ما يبقى من الشَّقا، كم معصية فعلتَها وما اتقيت، كم خطيئة بادرت بها [٢] وما استحييت، كم موعظة سمعتها وما ارْعويت، كم دُعيت إلى ما ينفعك فأبيْت، كم أقبل عليك مولاك بعظةٍ فولّيت، يا مَن زمانه ينقضي بعسى وسوف وأرجو وليت، يا جسدًا حيًّا فيه قلبٌ ميت، متى تتقي من يراك؟ متى تعرف شكر من أوْلاك؟ متى تخجل منْ ذُل زَلَلٍ قد عَلاك؟

يا بعيد الأمل أجلك قريب، يا أيها الغافل سُتدعى فتجيب، يا مغترًّا بالسلامة سَهْمُ التلف مصيب، يا راحلًا عن قليل ساكن القبر غريب، يا ناسيًا ما بين يديه الأمر عجيب:

كم تناديك الخطايا رائدُ الموت المشيبُ
سوف تَدْعوك المنايا وعلى رغمٍ تُجيبُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾

في هذه الزلزلة قولان:

أحدهما: أنها يوم القيامة يوم النشور.

أخبرنا ابن الحُصين، قال: أخبرنا ابن المُذهب، بسنده عن عمران بن حُصين أن رسول الله ﷺ في بعض أسفاره رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾. فلما سمع أصحابه ذلك حثوا المطيَّ وعرفوا أنه عنْدَ قولٍ يقوله، فلما تأشَّبوا [٣] حوله قال: « أتدرون أي يوم ذاك؟ يوم يُنَادَى آدم عليه السلام فيناديه ربه تبارك وتعالى فيقول: يا آدم ابعث بعثًا إلى النار. فيقول: يا رب وما بعْث النار؟ قال: مِن كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار. وواحدًا في الجنة ». قال: فأبلس [٤] أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: « اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد

---

(١) أ: وتشمرت.

(٢) بارزت فيها.

(٣) تأشبوا: اجتمعوا.

(٤) أبلسوا: يئسوا وتحيَّروا.

بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثّرتاه: يأجوج ومأجوج ومنْ هلك من بني آدم وبني إبليس »[١] قال: فسُرِّي عنهم ثم قال: « اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جَنْب البعير أو الرَّقمة في ذراع الدابة »[٢].

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يقول اللَّه ﷻ يوم القيامة لآدم: قُمْ فابعَثْ بَعْثَ النار. فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك وما بعث النار؟ قال: من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ يشيب المولود ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ قالوا: وأينا ذلك الواحد؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد. فقال الناس: اللَّه أكبر، فقال رسول اللَّه ﷺ: « واللَّه إني لأرجو أن تكونوا رُبْع أهل الجنة، واللَّه إني لأرجو أن تكونوا ثُلث أهل الجنة، فقال الناس: اللَّه أكبر، فقال رسول اللَّه ﷺ: « واللَّه إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » قال: فكبَّر الناس فقال رسول اللَّه ﷺ: « ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود أو الشعرة السوداء في الثور الأبيض »[٣].

والقول الثاني: أنها تكون في الدنيا قبل القيامة وهي من أشراط الساعة قاله علقمة والشعبي وابن جُريج. وروى أبو العالية عن أُبي بن كعب قال: ستُّ آيات قبل القيامة: بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت، ففزع الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدوابُّ والوحش والطير فماج بعضهم في بعض، فقالت: الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحور فإذا هي نارٌ تأجَّج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة والسماء إلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فماتوا.

وقال مقاتل بن سليمان: هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى، وذلك أن مناديًا ينادي من السماء: يا أيها الناس أتى أمرُ اللَّه. فيفزعون فزعًا شديدًا فيشيب الصغير وتضع الحوامل.

وقوله: ﴿ عَظِيمٌ ﴾ أي لا يوصف لعظمته.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾:

زلزلة توجل لها القلوب، زلزلة تظهر عندها العيوب، زلزلة تشتدُّ[٤] فيها الكروب، زلزلة

(١) أ: وبني إسرائيل وهو تحريف.
(٢) مسند أحمد : ٤/٤٣٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٣٢.
(٤) أ: تشهد.

فيها أفئدة العُصاة تذوب، فالعذاب شديد والعقاب أليم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

زلزلة يشيب فيها المولود، زلزلة تشهد فيها الجلود، زلزلة تخُدُّ فيها الدموعُ الخدود، زلزلة يتمنى العدمَ عندها الموجود، زلزلة يظهر فيها التقاطع والصدود، يفرُّ الولدُ عن الوالد والحميمُ عن الحميم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

انظر لنفسك قبل أن لا يمكن النظر، وتفكَّر في أمرك قبل أن لا ينفع الفكر، ومثِّل يوم الحشر إذا بدا الهول (١) وظهر، وتزوَّدْ للرحيل وتأهَّبْ للسفر، وخُذْ عدَّتك لنقلتك فلست بمقيم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

وروى جابر بن عبد اللّه ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر الساعة احمرَّ وجهه واشتدَّ صوته.

وقال ابن مسعود ﷺ: الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها يرون أكوابها وكواعبها. قال: ويعرق الرجلُ حتى يرْشح عرقه في الأرض قامةً، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسَّه الحساب قالوا: ومم ذلك؟ قال: مما يرى الناسَ يُصنع بهم.

وقال سلمان الفارسي ﷺ: تدنو الشمس من رؤوس الناس قاب قوسين وتُعطى حرَّ سنتين، وليس أحد من الناس يومئذ عليه طَحرية (٢) ولا تُرى عورة مؤمن ولا مؤمنة، فأما الكفار والآخرون فتطبخهم طبخًا حتى يُسمع لأجوافهم عَقْ عَقْ (٣).

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾: يعني الزلزلة ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أي: تشتغل عن ولدها وتتركه.

قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فِطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام. هذا يدلُّ على أن الزلزلة تكون في الدنيا؛ لأن بعد البعث لا تكون حُبْلى، وعلى القول الأول يكون المعنى أنه لو كان ثمّ رضاعٌ وحمْل لجرى هذا.

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾:

أمَّا الأرض فتصدَّعت، وأما الجبال فتزعزعت، وأما السماء فتضعضعت، وأما الأفئدة فتقطعت، علمًا بما في الصُّحُف أودعت ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

---

(١) أ: المهلول.

(٢) الطحرية: القطعة من الثوب. وقيل: هو خاص بالجحد يقال: ما عليه طحرية. أي لا يستره شي. وفي « ق » سترة بدلًا من طحرية.

(٣) كذا في ق وفي ش. وفي أ: غوهق وهو تحريف.

تكسَّرت النخل وقد أطْلعت، ووقعت الثمار وقد أينعت، ويبست الرياض وقد أمْرعتْ، وعُطِّلت [١] العشار وقد أطمعت ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

خسف القمر وأظلمت الشمس، وخلتْ الديار وامتلأ الرمْس، وأضحت [٢] المغاني كأن لم تَغْنَ بالأمس، وجاءت القيامة فأسرعت ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

بينا الناس في أسواقهم في غُدوهم وإشراقهم، صيِّح بهم من آفاقهم، يا لها صيحة جَعْجعت ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

زلزل الأرض وطوى السماء، وأظهر الهول وحيَّر الألبَّاء وأخرج جهنم فأزعج الأولياء، حتى إن الأنبياء بكت واسترجعت ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

يوم يكشف فيه الغِطا، وتثقل الحمول [٣] على المطا [٤]، وتندم نفسٌ أوْسعت في الخَطَا الخُطَا أو سعَتْ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

تظهر [٥] حينئذ الأهوال وتسير من الهيبة الجبال، وتُنشر صحائف الأعمال، وتَبين قبائح الخصال، وتحصد النفوس ما كانت زرعت، وأي حيلة لها وقد وقعت ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.

يا مشغولاً عن العمل، مُفرِّطًا في التفاصيل والجُمل، تضيف إلى « صِفّين » التفريط « الجمل » [٦]، كلمَّا سُقيتْ شجرة الأمل فرَّعت.

يا ناسيًا حلول الردى، يا غافلًا عما سيجري غدًا، يا أعمى البصيرة عن الهدى وأنواره قد تشعشعت [٧].

انتبهوا يا قوم لهذا اليوم، وتيقظوا من رَقدات النوم، فما أكثر سياط اللوم، وما أوجعت.
كم بالَغ الواعظ وتناهى، وأعاد الموعظة وثنَّاها، وكرَّر التذكرة وما أراها أنْجعت.
قد قلنا إن نَفع، ونَصبنا شَرَكا لمن يقع، فلو أن قلبًا حضر واستمع كانت قد أقنعت.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾:

إذا عمَّت الزلزلة حَزْن الأرض وسهلها، ندبت النفوسُ خطاياها [٨] وجهلها، وندمت

---

(١) أ: وهلكت. (٢) أ: وأصبحت. (٣) ش: ويثقل المحمول.
(٤) المطا: الظهر. (٥) أ: فتظهر.
(٦) يشير إلى موقعة صفين وموقعة الجمل بين علي بن أبي طالب ﷺ والخارجين عليه.
(٧) أ: شعشعت. (٨) ش: خطاها.

إذْ لم تسمع عَذلها فتردَّد: ويلها يا ويلها مَن لها؟ ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾.

جاء الفَرَق (١) فبدَّد شملها، ووقع الفراق فبتَّ وصْلها، وأتى أمر اللَّه فزلزل الأرض كلها، واخترط الغضبُ سيوفَ العقاب واستلَّها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾.

ويح العصاة ما أذّلها، ويل (٢) العتاة ما أقلَّها، أمْرضها الإزعاجُ وأعلَّها، وأنهلها كأسُ الخوف وأعَلَّها. فيقوى القلقُ عليها يقصد قتلها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾.

تَلفتْ بحب الدنيا وحب ظلِّها، فأغواها هواها للدنيا وأضلَّها، ونزلتَ ديار جهالة ما سَلم مَن حلَّها، وعقد القلبُ عقدة الإصرار وما حلّها، فحينئذ تندم إذ لم تسمع عَذْلها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾.

غرَّها الشيطان واستزلَّها، فتركتْ أفعال الخير كلَّها، مَنْ ينقذها من حِزْب منْ لَهَا، ومَنْ لها؟ لقد ضجر الواعظ منها وقد ملَّها، خلِّها فقد زادت (٣) في خَلها، يا حسرة النفوس العاصية إنها لبعيدة عن النجاة قاصية لو رأيتها تُسحب بالناصية يا تَغْثيرها يا ذُلها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾.

واللَّه تعالى أعلم (٤).

* * *

---

(١) الفرق: الخوف. (٢) أ: ويح. (٣) ش: فقد دارت.

(٤) ش: والحمد للَّه وحده وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله.

المجلس السابع عشر

في فضل الفقر والفقراء

الحمد للَّه الذي أنشأ الخلائق بقدرته، وأظهر فيهم عجائب حكمته، ودلَّ بإرشاده على وحدانيته، قضى على العاصي بمخالفته، ثم منَّ عليه بقبول توبته، واختصَّ المخلصَ له بصدق معاملته، ثم شغله عن الدارين بمحبته، فاقبلوا من نصيحكم وأقبلوا على خدمته يؤتكم كفلين من رحمته.

أحمده على سبوغ نعمته، وأشكره على توفيقه وهدايته، وأشهد أنه لا شريك له في صنعته، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله إلى جميع بَرِيَّته بشيرًا بجنته ونذيرًا بنقمته، صلى اللَّه عليه وسلم وعلى الخليفة بعده في أُمَّته، أبي بكر السابق بمرافقته [١] ونفقته، وعلى عمر العادل في أقضيته، وعلى عثمان المزوَّج بابنة الرسول بعد ابنته، وعلى عليٍّ المخصوص دونهم بأخوته، وعلى عمِّه العباس أقرب قرابته.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: « قُمت [٢] على باب الجنة فإذا عامَّة من دخلها الفقراء [٣] وإذا أصحاب الجدِّ محبوسون إلا أهل النار [٤] قد أُمِر بهم إلى النار. ووقفت على باب النار فإذا عامَّة من دخلها النساء » [٥]. (أخرجاه في الصحيحين).

وفيهما من حديث ابن عبَّاس [٦] رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « اطَّلعت في الجنة [٧] فرأيت أكثر أهلها الفقراء » [٨].

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « اللَّهم اجعل رزق آل محمد قوتًا » [٩].

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: « ما شبع آلُ محمد منذ قدِم المدينة من طعام البُرّ ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قُبض » [١٠].

---

(١) ش: بموافقته. (٢) أ: وقفت. (٣) أ: المساكين.

(٤) أ: إلا أن أصحاب النار. (٥) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٥١.

(٦) أ: وروى أيضًا عن أبي هريرة. (٧) أ: أريت الجنة.

(٨) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ١٦.

(٩) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ١٧. وصحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ١٨.

(١٠) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ١٧. وصحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ٢٠.

وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يظلُّ اليوم يلتوي ما يجدد دَقْلًا (١) يملأ به بطنه (٢).

وفي أفراده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا » (٣).

وفي أفراده من حديث ثوبان قال: جاء حَبْر من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تُبدل الأرض غير الأرض؟ قال: « هم في الظُّلمة دون الجِسْر ».

قال: فمَن أولُ الناسِ إجازةً؟ قال: « فقراء المهاجرين » قال: صدقت (٤).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » (٥).

وقال ﷺ: « الفقر أزين بالمؤمن من العِذار الحسَن على خد الفَرَس » (٦).

وقال لعائشة: « إيَّاك ومجالسة الأغنياء » (٧).

وقال ﷺ: « ما مِن ذي غنى إلا سيودُّ يوم القيامة لو كان إنما أُوتي قوتًا » (٨).

وقال: « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله ﷻ إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول: وعزتي وجلالي ما زَويْت الدنيا عنك لهوانك عليّ ولكنْ لما أعددتُ لك من الكرامة، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك » (٩).

وقال لموسى ﷺ: إذا رأيت الفقر مقبلًا فقل: مرحبًا بشعار الصالحين.

وقال أبو الدرداء ﷺ: ذو الدرهمين أشدُّ حسابًا من ذي الدرهم.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم (١٠) فلم يقبله وقال: أتريد أن

---

(١) الدَّقل: الرديء من التمر.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ٣٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ٣٧.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحيض، حديث رقم : ٣٤.

(٥) رواه الترمذي وابن حبان وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. الترغيب والترهيب : ٦١/٤.

(٦) ذكره العجلوني في كشف الخفا : ٨٧/٢. وقال: قال ابن تيمية: كذب وسنده ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم.

(٧) ذكره في اللآلئ المصنوعة : ٢٣٢/٢. وله طريق ضعيف عند الترمذي.

(٨) ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة : ٣١٣/٢. وقد يروى موقوفًا.

(٩) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(١٠) أ: بعشرين ألف درهم.

أمحو اسمي من ديوان الفقراء [١] يا هذا لا أفعل! واعلم أن الفقر إنما يختاره من يريد القناعة، وقد أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « طوبى لمن هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كَفافًا وقَنع بما آتاه اللَّه ﷻ » [٢].

واعلم أن أحوال الفقراء تختلف: فمنهم من يهرب من المال ويكره وجوده. ومنهم من يزهد فيه ولا تشتد كراهيته لوجوده. ومنهم من يكون وجوده أحب إليه لكنه لا ينهض لطلبه. ومنهم راغبٌ عاجز عن طلبه. ومنهم من يستوي عنده وجود المال وفَقْده فإن وجده فرَّقه وإن لم يجده لم يطلبه.

وقد قُدم على عائشة رضي الله عنها بمال عظيم ففرقته فقالت: جاريتها: لو تركتِ درهمًا تشتري به لحمًا تُفطرين عليه؟ فقالتْ: لو ذكرتني لفعلت [٣].

وقد اختلف الناس أيُّما أفضل: الفقر أو الغنى؟

واعلم أن الغنيَّ إذا لم يشتغل بالغنى عن اللَّه ﷻ وكان ماله وقْفًا على مساعدة الفقراء وأعمال الخير كان أفضل من الفقر. فإن غاية الفقير أن يكون متقيًا للَّه ﷻ، فله ثواب صبره عن أغراضه ولا يتعدى فعله إلى النفع للغير، ولكن لمَّا كان الغالب في الغنيِّ أن يشتغل بماله عن اللَّه ﷻ ويمسكه عن الإنفاق وربما لم يتورع في كسبه، وربما أطلق نفسه في شهواتها القاطعة عن اللَّه تعالى فبهذا فضِّل الفقير المُمحق [٤] عليه فإنه همَّه أجمع.

وقد كان نبينا ﷺ بعيد الشِّبع كثير الجوع، يشدُّ الحجر على بطنه، وتوفِّي ودرعه مرهونة. وفي الصحيحين أن عبد الرحمن بن عوف قال: « أُعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا. ثم جعل يبكي حتى برد الطعام » [٥].

وقال حذيفة: أسرُّ يومٍ لعيني يومَ آتى أهلي فلا أجد عندهم طعامًا، لأني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن اللَّه تعالى أشد حِمية للمؤمن من الدنيا من المريض أهله للطعام » [٦].

وقد أُريح الفقراء من طول الحساب. أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « التقى مؤمنان على الجنة، مؤمن غني ومؤمن فقير،

---

(١) أ: من ديوان الفقر. (٢) مسند أحمد : ١٩/٦.

(٣) ذكره في الترغيب والترهيب : ٧٤/٤، وهو صحيح الإسناد.

(٤) الممحق: الذي ليس عنده شيء. وفي الأصل المحق.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب رقم : ١٧.

(٦) روى نحوه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. الترغيب والترهيب : ٥٨/٤.

كانا صديقين في الدنيا، فأُدخل الفقير الجنة وحُبس الغنى ما شاء اللَّه أن يُحبس ثم أُدخل الجنة، فلقيه الفقير فقال: أي أخي ماذا حبسك؟ واللَّه لقد احتُبسْت حتى خِفتُ عليك فقال: أي أخي إني حبسني بعدك مَحْبسًا فظيعًا كريهًا، ما وصلت إليك حتى سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلُّها أكلة حُمض لصدرت عنه رِوَاء » [١].

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: « يجيء فقراء المهاجرين يوم القيامة على أكْوارهم التي هاجروا عليها، فيقال لهم: انطلقوا فادخلوا الجنة. فيذهبون ليدخلوا الجنة فتقول لهم الملائكة: انظروا حتى تحاسبوا فيقولون: وهل أعطيتمونا شيئًا فتحاسبونا عليه؟! فيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » [٢].

واعلم أن الفقير الصادق له آداب باطنة وظاهرة:

فأما الباطنة فإنه لا يكره [٣] ما ابتلاه اللَّه به من الفقر وهذا واجب عليه، وأرفع من هذا أن يكون راضيًا بالفقر، وأرفع منه أن يكون طالبًا له وفرحًا به.

وأما الآداب الظاهرة فإظهار التعفف. وأما في أعماله فلا يتواضع لغني ويحذر مجالسته.

ومتى جاء الفقيرَ مال [٤] فينبغي أن يلاحظ ثلاثةَ أشياء:

أحدها: حِلُّ ذلك المال وسلامته من الشبهات.

والثاني: غرض المُعطي، فإن كان سليمًا لا يقصد به الرياء ولا المنة.

والثالث: حال نفسه هل هو مستحق للزكاة والصدقة أم لا؟ وفي الصحيحين من حديث عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تُتْبعه نَفْسَك » [٥].

وأما السؤال فلا يجوز إلا لضرورة. ومتى قدر على الكسب لم يجُز له، فنعوذ باللَّه من أقوام استحلُّوا الطَّلب وأحبوا الدعة.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٣٠٤/١. بسند جيد قوي.

(٢) لم أجده وهناك أحاديث في معناه رواها أحمد وابن ماجه نحوه في الترغيب والترهيب : ٦١/٤. وقال: رواه الطبراني وأبو الشيخ وابن حبان.

(٣) أ: فلا يكره.

(٤) وفي ش: أعطي الفقير مالًا فحينئذ ينبغي أن يلاحظ.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب رقم : ١٧. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ١١٠، ١١١.

الكلام على البسملة

أين الفرار وكفُّ الموت قابضة [١] وسهمه واصلٌ والبُغية الناسُ
يزول بالمرء عن إخوان صحبته قد أفردَتْه عن الأُلّاف أدراسُ [٢]
وكل حيٍّ سرى في دهره نظرا فغاية الأمر [٣] أجداثٌ وأرماسُ
فكم محى حَسنا من صورة زَهرتْ تصُونها نِعمٌ غُرٌّ وأحراس
هيهات أظهرت الدنيا مواعظها وزال عن سامع التذكار إلباسُ

يا من عمله محفوظ وهو بعين الرقيب ملحوظ، اعمل ما شئت فالجزاء واقع، وكن كيف شئت، فالحقُّ ناظرٌ وسامع، يا أعمى البصيرة افتقد، يا ضالًّا عن الهدى اطلب تجدْ، ويحك ما لك على نفسك شفقة، ويحك خرج من كيس غيرك [٤] النفقة، قولوا لمن غفل [٥] ولها ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [٦].

مرَّ ذو القرنين على ملَكٍ آخذ بأصل جبل فقال له ذو القرنين: ما هذا؟ قال: كل الجبال مُحدقة بهذا الجبل وأنا مُمْسكه فمن أنت؟ قال: ذو القرنين. قال: ألكم خلقت الجنة والنار؟ قال: نعم، قال: لقد خُلقتم لأمر عظيم.

بعث سليمان بن داود إلى مارد فأُتي به، فلما وصل إلى باب داره أخذ عودًا فذرعه بذراعه ثم رمى به، فقال سليمان: أتدرون ما أراد؟ قالوا: لا. قال: فإنه يقول: اصنع ما شئت فإنما تصير إلى مثل هذا.

أين عادٌ وإرم، أين من مضى من الأمم:

وهل يمنعنِّي ارتياد البلاد مِنْ حذَر الموت أن يأتينْ
وما إن أرى الموت فيما خلا يغادر من شارخ أو يَفَنْ [٧]
أزال أُذينةَ عن مُلكه وأخرج من حِصنه ذا يزَنْ [٨]
أباد الملوك وأفناهُم ونحن بإثر الذي قد ظعنْ

أين من لم يكن له في مُلكه مُشابه، أُخْرج عن الفضا كأنه ما مشى به، نُقل إلى لحْد وعرٍ فثوى به، وجوزي فيه بعقابه أو ثوابه، ولم يجد لنفسه أنيسًا غير اكتسابه [٩] وعُرِّي

---

(١) ش: قانصة.
(٢) الأدراس: الثياب الخلق، أي البالية.
(٣) أ: فغاية المرء.
(٤) أ: من كيس حظك.
(٥) ش: وإن غفل.
(٦) سورة الإسراء: ٧.
(٧) الشارخ: الشاب. واليفن: الشيخ الكبير.
(٨) ذو يزن: ملك لحمير.
(٩) أ: إلا اكتسابه.

في ترابه عن كفنه فاكتسى به، وتلهف على موجبات إثمه وأسباب عقابه، وتأسَّف على قلة زاده وطول عقابه، وجاءه مُنكر ونكير فاشتد الجوَى به، فناقشاه في سؤاله وحاقَقاه [١] في جوابه، لقد أفات نفسَه بإطالة البطالة أجرًا؛ إذ ساربها في سرْب [٢] هواها وأجْرى، ورضي من شأنها ما شانَها وأزري؛ إذ حمل على أزره بالخطايا وزرًا، هيهات صرفت أولئك فواجعُ الآفات صرْفًا، ولم تقبل من راشيهم عدْلًا ولا صرفًا، وأدارت بين ديارهم للبين كأسًا مُرّة، فأصبحوا كأنهم ما كانوا فيها مرَّة، وخدَّت خدودًا أسيلة [٣] بدموع سائلة، وكفَّت أكفًّا طال ما وكَفْت جودًا فأصبحت سائلة.

أين من شاد وابتنى فوق ما يكفي، وأعلاه فوقَ ما يحتاجُ، أين سُكانه ومن رفع التاج على رأسه وأين التاج، طحنتهم طحن الرّحى [٤] حادثاتٌ وخطوب أفرادها [٥] أزواج، من رأيت من آفات دنياه سَلِم، ومن شاهدته صحيحًا وما سقم، وأيُّ حياة بالموت لم تَنْختم، وأي عمر بالساعات لم ينصرم، إن الدنيا لَغرور حائلٍ، وسرور إلى الشُّرور آيل [٦] تُرْدي مستزيدها، وتُؤذي مستفيدها، بينما طالبها يضحك أبْكته، ويكدح [٧] لسلامته أهلكته، فندم على زلله إذ قدِم على عمله، وبقي رهين خوفه ووجَله، وودَّ أن لو زِيد ساعة في أجله، فيا من سيصير [عن قليل] [٨] إلى المقابر، إلى متى تحرص على الدنيا وتثابر؟!

كأنك بالنفسِ قد أُزعجَت وأخرجتَ من قصرك العامره
فدبِّر لنفسك قبل المما ت فإن اللبيب يرى الآخره

يا مفرِّطًا في حق الواجب والفرض، يا ناسيًا يوم الحساب والعرض أفتَّ نفسك الأرباح بإمساكك عن القرْض، وآثرت ضيق العيش على جنة عرضها السموات والأرض:

إن شئت أن تُرْزق الأخرى وبهجتها [٩] فخل دنياك تظفر بالذي شِيتَا
إن شئت تطلب منها غير مُسعفةٍ وما لها أيها الإنسان أُنْشيتَا

أيها الغافل عما بين يديه، لا يذكر الموت ولا يلتفت إليه، يشغله عن العواقب ما يحضر لديه، ويُلْهيه ما له عمّا عليه، بادر أيام شبابك قبل فِراق أحبابك، واحفظ أوقات عمرك قبل حلول قبرك، واغتنم أحيانَ حياتك قبل موافاة وفاتك، فإنما العمر بالليالي يذهب والأجل بمرور الساعات يُنهب.

يا لَقومِ لآملٍ مَغرور ولَجاجٍ ما ينقضي في الصدور

---

(١) أ: وحاقناه. (٢) السرب بسكون الراء: الطريق. (٣) أسيلة: ناعمة.
(٤) ش: الردى. (٥) ش: أفراطها. (٦) أ: زايل.
(٧) ش: ويفرح. (٨) ليست في أ (٩) أ: ونعماها. وهو تحريف.

وانـقـبـاض الـحـيـاة عـمـا يـرجّـيـ ـه الفتى وامتداد حبْل الغرور
يـلـتـحـيه الزمانُ في كل يـومٍ دائبًا كالتحاء غُصنٍ نضير (١)
يتمنى في العيش ما ليس يلْقا ه وينسى جُرْم الزمان العثور
ولعينٍ غفتْ عن الأجل اليقـ ـظـان منـهـا قـريب الـمـسـيـر
كلَّ يومٍ يهيض (٢) للمرء عَظْما وهو يسطو فيه بعظمٍ كسيرِ
يحمل الموت بين جنبيه إذ يغدو ويخشاه من وراء الثُّغورِ
كلُّ نفسٍ في مستقرٍّ عليها والجٌ من حِمامه المقدور

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا... ﴾ (٣)

النازعات: الملائكة، تنزع أرواح بني آدم ومعنى (**غرْقا**): إغراقًا كما يغرق النازع في القوس أي أنه يبلغ بها غاية المد. ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ... ﴿٢﴾ ﴾ الملائكة تنْشط أرواح الكفار حتى تخرجها بالغمِّ والكرب، وتنشط أرواح المؤمنين بسرعة كما يُنْشط العِقَال من يد البعير. ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ... ﴿٣﴾ ﴾: الملائكة يسلُّون أرواح المؤمنين سلًّا رفيقًا ثم يتركونها تستريح كالذي يسبح في الماء ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ... ﴿٤﴾ ﴾ الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ... ﴿٥﴾ ﴾ الملائكة أيضًا قال عبد الرحمن بن سابط: يدبِّر أمر الدنيا أربعة: جبريل وهو موكَّل بالرياح والجنود، وميكاييل وهو موكَّل بالقَطر والنبات. وملك الموت وهو موكَّل بقبض الأنفس. وإسرافيل وهو ينزل بالأمر عليهم.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ﴾ بمعنى تحرك. والراجفة: صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب، كالرعد إذا رجف، وهي النفخة الأولى التي يموت منها جميع الخلائق ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ وهي النفخة الثانية ردفت الأولى أي جاءت بعدها، وكل شيء جاء بعد شيء فهو يردفه.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ أي شديدة الاضطراب لِمَا عاينت من أهوال القيامة ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ أي ذليلة لمعاينة النار. قال عطاء: وهذه أبصار من لم يمت على الإسلام، يدل على هذا أنه ذكر منكري البعث فقال: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) التحاء الغصن: تقشيره. (٢) يهيض: يكسر. (٣) سورة النازعات: ١.

المعنى، أنرجع أحياء بعد موتنا. قال الفراء: يعنون أنردُّ إلى الحياة. والعرب تقول: أتيت فلانًا ثم رجعت على حافرتي، أي رجعت من حيث جئت.

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ قال الزجاج: فارغة يُحْثى [1] فيها من هبوب الريح كالنخير ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أي إن رُددنا بعد الموت لنخسرنَّ بما يصيبنا مما يعدنا به محمد ﷺ فأعلمهم الله ﷻ سهولة البعث عليه فقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ أي صيحة في الصور يسمعونها وهم في بطون الأرض فيخرجون ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ وهي وجه الأرض. وقال الفراء: كأنها سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم.

ما أغفلكم عن ذلك اليوم، أسُكْرٌ بكم أم نوم؟ انتبهوا لأنفسكم يا قوم، اسمعوا ما يجري من عتاب ولوم.

مرَّ كعب الأحبار ﷺ على وادٍ بعيد الفطر ببيت المقدس فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا وادٍ يمتلئ يوم القيامة من دموع بني آدم، ولو أرسلت فيه السفن لجرتْ، فإنهم ليبكون الدم بعد الدموع.

لـمَّا قويت معارف القوم اشتدت مخاوفهم، فضجّ لسان الكرب يتمنى العدم.

جاز أبو بكر ﷺ على طائر فقال: طوبى لك يا طائر، تقع على الشجر وتأكل من الثمر ولا حساب عليك ولا عذاب، ليتني كنت مثلك!

وقرأ عمر ﷺ يومًا ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [2] فرفع بها صوته وقال: يا ليتها تمَّت. ثم أخذ تِبْنة! من الأرض وقال: يا ليتني هذه التبنة. وقال أبو عبيدة بن الجراح: يا ليتني كنت كبشًا فذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحسَوا مَرَقي. وقال ابن مسعود: وددت أني إذا متُّ لا أُبعث.

وقال عمران بن حصين: ليتني كنت رمادًا تذروه الرياح.

لنار المخافة في قلوب القوم وهج، ولجيوش مجاهدتهم للنفوس رَهَج [3] ولألسنتهم بذكر تقصيرهم لَهَج، هذا وقد بذلوا القلوب وباعوا المُهج.

يَحقُّ للعيون أن تجري دمًا، وتبكي حتى تبلغ العمى، بين يديها يومٌ شديد الظَّمَا، تُنْثر فيه النجوم وتُطْوى السمَا، أمَا تذكر ذلك اليوم أما، أفما تفتح بالتوبة فمًا، لا ملجأ يومئذ ولا حِمَى.

---

(١) كذا بالأصل. ولعلها تنخر. قال الزمخشري في أساس البلاغة: ومن المجاز: للريح نخرة شديدة وهي عصفتها. ومنه العظم والعود الناخر لنخير الريح فيه.

(٢) سورة الإنسان: ٢.

(٣) الرهج: الغبار.

مثّل نفسك وقد قمتَ كئيبًا، وعُرض عملك فرأوه معيبًا، ونظرت إلى الأطفال وقد صاروا شِيبًا، وإلى النار وقد أُبرزت لهيبًا، من لك إن حُرمت من الجنة نصيبًا؟!

يومٌ ما أشدَّه وأصْعبه، يوم ما أهْوله وأتعبه، نراه بعيدًا وما أقربه يقوى فيه القلق ويتضاعف الفَرَق [(١)] ويجري من الأبدان [(٢)] العرق وتسيل من الحسرات الحدَق [(٣)] ويخرس اللسان وطالما نطق، ويتقلقل الفؤاد وتكثر الحُرَق وتعلم حينئذ أن النصيح قد صدق.

ويحك خذ عُدة لذلك، وهيِّئ طريقًا قبل ضِيق المسالك، واجْلُ حَالَك الحالِك، واشتر نفسك اليوم بمالك، لعلك تفكها من يد مَالِك [(٤)].

بكى الحسن البصري - رحمة اللَّه عليه - يومًا حتى رَعَد مَنْكباه ثم قال: لو أن بالقلوب حياةً لو أن بالقلوب صلاحًا لأبكيتكم [(٥)] من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تَمْخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورة بادية وعينٌ باكية من يوم القيامة.

وقال الحسن: تتعلق الأمُّ بولدها فتقول: يا بني ألم يكن ثديي لك سِقاء ألم يكن حِجْري لك وطاء، فاحمل عني بعض ذنوبي. فيقول: يا أمَّه لي في نفسي شُغل.

البدار البدار قبل يوم القيامة، الحِذار الحِذار قبل الندامة، قد دهاكم إصْراركم وسَبَاكم، ما أرى للنجاة فيكم علامة.

يا من إذا حُرِّض سوَّف، يا من أُنذر وما يتخوَّف، ما هذا الفتور والحُسام مُرْهف، سار المتيقظون فإلَام [(٦)] تتخلف، نجا من أسرع وهلك من توقَّف، بين يديك هول لا يستطاع يوصف، إن شككت في قولنا اقرأ ما في المصحف، يا مريض الهوى لا بَلْ يا مُدْنف [(٧)]، إن كنت لا تعرف الطريق فانهض وتعرَّف، هذا قدر النصائح ثم أنت بنفسك أعرف.

تجنّب بُجهدك ما كان عارًا ... وما في معادك يُصْليك نارا
ولا تحقرنّ صغار الذنو ... ب فيوم الحساب تراها كِبَارا
وخَفْ يوم يَطْلب كلُّ امرئ ... لما يرى من أخيه الفِرارا
فذلك يومٌ يرى الناسُ فيه ... حيارى سكارى، وما بسكارى
فما لي أرى الناس في غفلة ... إذا ذكِّروا أغفلوا الأذكارا
أطاعوا أوامر دنياهمُ ... فزادتهم بالحياة اغترارا

---

(١) الفرق: الخوف.
(٢) أ: على الأبدان.
(٣) الحدق: جمع حدقة وهي العين.
(٤) مالك هو خازن النار.
(٥) أ: لأبكيتهم.
(٦) ش: فعلام.
(٧) المدنف: المريض الذي دنا من الموت.

أناسٌ تناسوا منایاهمُ ... فحين أتت أخذتهم أُسارى
فدونَك فانظر إلى مَنْ مضى ... وفارقَ جِيرتَه [1] والديارا
ففيهم لغيرهم عبْرةٌ ... وموعظةٌ إن أردت اعتبارا

سجع على قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾:

يا أهل القصور العامرة، عن قليل تعود غامرة، يا معجبين بالنظارة [2] الظاهرة، عن قريب ترجع العظام ناخرة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

أترى هذه القلوب المستأخرة مؤمنةً بالبعث أم ساخرة؟! أتراها ما توقن بالآخرة، سيقوم الخلائق بسطوةٍ قاهرةٍ ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

أكل التراب تلك العظام وصيَّرها كالرفات والرِّمام [3]، فلما نُفخ في الصور يوم القيامة نهضت الأقدام إلى يوم القيامة مبادرة ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

سالت في القبور الحدَق، وجالَ البِلَى فيهم واخترق، فلما أمر بالإعادة من خلق عادت الأبدان ناضرة.

ضمَّت أجسادَهم اللحود، وخلا بهم الدودُ فمزَّق الجلودَ، وتفرَّقوا كما يتفرَّق الوَدُود، فإذا أراد إعادتهم المعبود صاح إسرافيل صيحة نافرة ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

تمكن فيهم بَلاهم وصاروا في القبور بِلاهم، فإذا أعادهم وأحياهم أقاموا بالنفخة الخاسرة ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

حُفرت قبورهم لغيرهم مرَّات، ونقل تراب أبدانهم تارات، فإذا جاء الفصل والميقات جُمع المتفرق بعد الشتات، المؤمنة والكافرة ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

عَظُم عندهم القلق، واشتدَّ عليهم الفَرَق وسال منهم كالسيل العَرَق لقوة الهاجرة ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

يذهبون ولا يدرون إلى أين، ويهربون وهيهات عليهم الدَّين، ولا ينجو إلا قائل الكلمتين، ثم طوبى وطوبى للعين التي كانت ساهرة.

تبرز النار باللَّهب والجمر، فيبكي آكل الربا وشارب الخمر، ويشتغل زيدٌ بنفسه عن عمرو، وقد عرَّفتك أول الأمر وآخره ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

* * *

---

(١) ش: جيرانه. (٢) كذا ولعلها: بالنضارة. (٣) الرمام: البالية.

المجلس الثامن عشر

في رياضة النفس

الحمد للَّه الذي لا مثل له يوجد، ولا إله سواه يُعبد، ولا كريم غيره يُقصد، قدرته تجمع ما انتشر وتبدَّد، ومشيئته تُظهر ما يكون وتُجدد، وإرادته نافذة فيمن ألْحَد ووحَّد، وحِلمه يسع من عتا وتمرَّد، لا يعزب عن سمعه صوت الحمام إذا غرَّد، ولا أنين المذنب إذا قام يتهجَّد، ولا يغيب عن بصره سواد النمل في الليل الأسود، ذاب لهيبته الصخر والجَلْمد، وأحاط علمه بحال الفكر كلما تردد ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (١).

أحمده وهو أحقُّ من يُحمد، وأقرُّ بوحدانيته إقرارًا يُقبَل ويَصْعد، وأُصلِّي على رسوله محمد وأحمد ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر أول من أنفق ماله وأسعد، وعلى عُمر المحدَّث الموفَّق الأرشد، وعلى عثمان الكريم الأمجد، وعلى عليٍّ بحر العلوم فما ينفد، وعلى عمِّه العبَّاس المخصوص بقرابة المفرد.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (٢) المراد بهذا الهوى ما مُنع منه وحرِّم. واعلم أن الهوى المباح قد يفتقر إلى تركه في أوقات لئلا يحمل إلى ما يؤذي، والكلُّ لا بد له من رياضة، والآدمي كالفرس إذا نتج فلا بد له من رائض، فإن كان عربيًّا حركت الرياضة أصله الجيِّد، فظهر جوهره، كما أن المسنَّ يؤثر في الفولاذ. فإن كان مؤدبًا مُنعت بعض أخلاقه الردية كما أن الحديد قد يُقطع، وكذلك بنو آدم فمنهم من خُلق على صفة حسنة تؤدبه نفسه ويقوِّمه عَقله، فتأتي الرياضة بكمال التقويم، ومنهم من يقل ذلك في جوهره فيفتقر إلى زيادة رياضة ويترك المحبوبات على كُره. ولا بد من رياضة هذا الفارق المؤذي كيف اتَّفق والرياضة ينبغي أن تعمل في جميع الأشياء فتؤثر في حق الشَّرِه بتقليل المطعَم إلى أن يعود إلى حالة الاعتدال وأخْذ ما يُصلح. ولا بد من إعطاء النفْس ما يوافقها في مصالحها فقد قال عليه الصلاة والسلام: « إن لنفسك عليك حقًّا » (٣) وكان ﷺ يختار الماء البائت ويحب الحلواء والعسل.

ومِثل هذا أنَّا لا نأمر بالحج مُترفًا قد أَلِفَ الوِطَاء فنقول: حُجّ على قتب (٤).

---

(١) سورة الإخلاص: ١ - ٤. (٢) سورة النازعات: ٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب رقم : ٥١.

(٤) القتب: الإكاف الذي يوضع على ظهر البعير.

والمقصود مصلحة النفس التي هي سبب [١] في قوامها وكذلك الشَّره في النكاح وجمع المال وغير ذلك، تردُّه الرياضةُ عن ما يؤذي، وتأمر المتكبِّر بالتواضع، وتأمر السيئ الأخلاق بالاحتمال والصفح وإن شقَّ عليه. وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» [٢] وفي الصحيحين من حديث أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول اللَّه ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول اللَّه ﷺ وقد أثَّرت به حاشية البُرد من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال اللَّه الذي عندك. فالتفت إليه رسول اللَّه ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء [٣] وكان عليه الصلاة والسلام إذا آذاه قومه يقول: «اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: مِن قيس بن عاصم، بينا هو جالس في داره جاءت خادم له بسفُّود [٤] عليه شواء، فسقط من يدها فوقع على ابن له فمات، فدهشت الجارية فقال: لا روْع عليك أنت حرةٌ لوجه اللَّه تعالى!

وكان أُوَيسٌ [٥] إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: يا إخوتاه إن كان ولا بُدَّ فارموني بالصغار لئلا تُدموني فتمنعوني من الصلاة.

وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مُرَائي. فقال: وجدتِ اسمي الذي أضلّه أهل البصرة.

ودعا رجل أبا عثمان الحيري إلى منزله فلما بلغ باب المنزل قال له: ليس لهذا وجه فرجع فدعاه فجاءه فقال: ارجع فرجع. ثم عاد فدعاه فجاء فقال: إنما أردت اختبارك.

فقال أبو عثمان: الذي رأيتَ منِّي خُلق كلب إذا دُعي أجاب وإذا زُجر انزجر.

واجتاز بسكة فطُرح عليه رمادٌ من سطح فجعل أصحابه يتكلمون فقال: مَن يستحق النار فصُولِح على الرماد لا ينبغي أن يغضب!

فهذه نفوس ذُلِّلت بالرياضة، فنقِّي باطنها من الغشِّ فصفت أخلاقها فأثمرت الرضا بالقضاء وهذا منتهى حسن الخلق.

وقد كان رسول اللَّه ﷺ يُؤذَى فيصبر.

وكان الصالحون يَحْلمون على من يؤذيهم. ولسنا نأمر الحليم أن لا يغضب أصلًا،

---

(١) ش: مصلحة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب رقم : ١٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب رقم : ١٩.

(٤) السفود: حديدة يشوى بها.

(٥) هو أُوَيس القرني التابعي الشهير سبقت ترجمته.

فإنه إذا غضب في حقٍّ (١) لا يخرج من الحلم، وإنما نأمره بتعوُّد الحلم، وحسن الخلق.

وفي الجملة فينبغي علاج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالكرم، ومرض الكِبر بالتواضع، ومرض الشَّره بالكفِّ عن المُشْتَهى.

ويبالغ المبتدئ في هذه الأشياء وإن شقت عليه ليألف الخير، ومتى ترقّى إلى معرفة شرف ما انتقلَ إليه وفهم قُبح ما انتقل عنه هانَ عليه الأمر وقوي عليه ما يحصل له بالرياضة من الإلف.

وينبغي أن لا يقع في العزم على الرياضة تردُّد ولا يصعب الدخول فيها، فرُبَّ متكلِّف (٢) رأى بعض الطريق فعاد.

واعلم أن الرياضة إنما تراد لإصلاح العيوب ولا تُعرف العيوب إلا أن يكون للإنسان علمٌ يعرف به العيب، فحينئذ يتفكَّر في حاله فيعلم عيوبه ويسهل عليه العلاج، فإن لم يكن له علم بالعَيْب لأن الجاهل قد يظن في العيب أنه ليس بعيب، **فينبغي حينئذ أن يسلك أحد أربعة طرق:**

الطريق الأول: أن يُسْلم نفسه إلى رجل عالم عامل يؤدِّبه يقتدي بأخلاقه.

والثاني: أن يتَّخذ صديقًا نصيحًا، ولا بد له من علم يعرف به العيوب، فيسأله عن عيوبه ويظهر له الفرح كلما دلَّه على عيب. فقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: رَحِمَ اللَّهُ امرأً أهدى إلينا عيوبنا. ولما قِدَم عليه سلْمان سأله عن عيوبه فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين وأن لك حُلتين. فقال: هل بلغك غير هذين قال: لا. قال: أمَّا هذان فقد كُفيتهما.

والطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه، فإنهم يفتشون على العيب فيجتنب ما يرمونه به.

والطريق الرابع: أن يخالط الناس فيجتنب ما يراه مذمومًا بين الخَلْق ولكنه يفتقر إلى ما قدمناه من علم يعرف به ما يكون عيبًا.

وقد استعمل أَقوامٌ الرياضة بجهل فقلَّلوا مَطَاعمهم وتخفَّفوا فضعفت أبدانهم عن العبادة وعن الكسب للعائلة وعن إيفاء الحقوق. ومنهم من رفض كل ما تشتهيه النفس واقتنع بخبز الشعير ولبس الصوف. وهذا إذا لم يحمل بدنه فهو إلى ظلم النفس أقرب. وقد بيَّنا أن للنفس حقًّا، وأن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك.

وإن أقوامًا ظنُّوا أن الرياضة لبْس المرقَّع فحسب، وأطلقوا النفس في بقية الشهوات، لا بل شهواتهم في الترقيع أعظم من شهوة صاحب الحرير في لُبسه، وقصدهم إظهار الزهد

---

(١) أ: في حق له.

(٢) ش: مكلف.

بذلك الملبس يخرجهم عن الزهد بمرة، ويوقعهم في الإثم بسوء القصد. لا بل اتخاذ ثوب جميل يخلطك بالناس ولا يرون زهدك وتستر حالك أفضل من أن لا تلبسه.

وقد كان السلف يسترون أحوالهم.

وقد يقع في النفس كِبْر إذا شرعت في التزهد والرياضة، فيحتاج إلى رياضة أخرى تزيل بها ما وقع من رؤية الفعل.

وفي الجملة فالعلم هو الهادي، وطريق السلف هي النافعة والنظر في سِيرهم هو الدواء. ونعوذُ باللَّه من حوادث في هذا الزمان سببها الأصل الجهل، ثم يتبعه حبُّ الدنيا والاحتيال في تحصيلها. واللَّه ﷻ العاصم وبه التوفيق.

* * *

الكلام على البسملة

يا من يبيت على اللذات منعكفا ... الموت يأتيك والآفاتُ تنتظرُ
لا تَحْقرن يسيرَ الخير تفعله ... فرُبّ نفع لشيء وهو يُحتقر
وجانب الشرَّ لا تسلك مسالكه ... ولا يكن لك في أصحابه أثرُ
وكلُّ نفسٍ ستجزى بالذي عملت ... وليس للخلق من ديَّانهم وَزَر [(١)]
تأتي الجلود وأيدينا وأرجلنا ... فيشهدون معا والسمع والبصر
فليت شعري من كانت جوارحه ... هي الشهود عليه كيف يعتذرُ
أم أين يهرب أم ماذا يقول وهل ... يُطيق دفعًا لها أم كيف ينتصر؟!

* * *

أيها المشغول طول النهار بالحُطَام، وطول الليل بالمنام أترضى بمشاركة الأنعام، هذِّب النفس فهي المقصود لا الأجسام:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسرانُ
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ [(٢)]

---

(١) الوزر: الملجأ.

(٢) هذان البيتان من قصيدة لأبي الفتح البستي مطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

وقد أورد العاملي في الكشكول: ٣١٥/١. أربعة وثلاثين بيتًا منها.

كأنك بالموت قد أزعجك وهَالَك، وقد بقي القليل فاعقلْ حَالَك، واصْحُ من سكرتك وأَطع عُذالك، واسمع نصح شفيق يرى لك.

طال ما قد عشت في غُشِّ عيش، ينقض عجبًا به أكمام طيش، والشباب أسود الطُّرة والصحة بيضاء الغرّة، تعثَّرُ في ذيل صباك على هواك وتأخذ ما شئت من هناك بيُمْنَاك.

تنتقل على جمر الهوى بفواكه اللَّهو، وتنتقل من دار العُجب إلى بيت الزَّهو، فبينا أنت تخطر في بُرْدك القشيب راعك وما راعاك المشيب، حلَّ بك ما حلَّ ما عقدت، ونزل بك ما نزل بك لو افتقدت، ويحك انتبه لنفسك واحذر على يومك ضياع أمسك.

وما الليل والأيام إلا منازلٌ يسير بها سرًّا إلى الموت قاصدُ
ألا إنها فاعجب فتلك عجيبة منازل تغدو والمسافر قاعدُ

تجلس وراء معاشك تزعم بيع قماشك، فتنتصب حتى تنصب كبدك، وتطلب بكل ما تجلب صيدك، من بياض النهار إلى سواد الليل، تجمع ويلًا من الحرام إلى ويل، وتنقض بالكذب فضول رأسك وإنما تكدح لأضراسك. لقد نظم الفراغ عمرك دائرة إذا دارت بك الدوائر، أفلا طرقك مستقيمة كلُّ طُرقك جائر، تبخل على الفقير وإنما تبخل عليك، ويأخذك الكرب إذا توجَّه إليك، تنظره نظر البخيل إلى الضيف، وتبصره إبصار الأسير إلى السيف. ويحك نفِّس عن مخنوق الكِيس، وخالف في وزارته إبليس، ويحك تفرغ كيسك في الكأس ثم تقول للنفس لا بأس، تصلي والثوب حرام وتصدَّق من الظلم على الأيتام، تغوص في الماء غوص النون، وتقوم في الصلاة قيام ذي النون، وتشابه في الركوع الدال والنون، ثم تظلم المسلمين وتَجُون، أينفعك هذا مع هذا؟! هذا جنون.

ويحك تُبْ من ذنوك وابْكِ [1] على عيوبك، البَسْ جلباب الفَرَق وتضرَّع على باب القلق قل: كم فعلت ذنبًا فسترت، كم حَلِمت عني وقد نظرت فبذلك الحلم إلا غفرت:

يا مددي حين خانني مَدَدي وعُدتي إن تعذَّرت عُددي
إن أنت أعززتني عززْت وإن أسلمتني للعدا وهَتْ عضدي

قد كبَبْتُّ انتظارك لي بَدْءًا فلا تُشْمتنَّ ذا حسد، يا هذا ما عندك من التوبة خبر ولا لها فيك أثر:

صمِّم وجرِّد وسدِّد واستقم وأنب، واعزم وجِدَّ وصِلْ واغضب وتُب، لا بد أن تَرِدَ مَنْهلك في جملة من هلك، وقد رأيت رفيقك أين سلك وكأنه ليس لك.

---

(١) واندب.

وما العيش إلا صادرٌ إثر واردٍ ... وما الناسُ إلا ذاهبٌ إثر ذاهب
وقلَّ وفاء الموت يومًا بمهجتي ... إذا خانني في صاحبٍ بعد صاحب
أطاح بسطوٍ آل غمْدان عُنوةً ... وضعضع أركان القرون بمأرب [١]
وأنْشب في ربِّ الخَوْرنق نابه ... وفي رافع الإيوان عُقْب المخالب [٢]
وحطَّ بيوت الزبرقان وسدَّدت ... خباياه سهمًا في عُمير بن حاجب [٣]
وألوى بأعناق العماليق وانثنى ... بحمير يَرْمي شارفًا بعد غارب [٤]
وجرَّ على أملاك فارس بَرْكَه ... فغادرهم نَصْب الصبا والجنائب [٥]

يا من تبع الجهلَ والهوى فوكَساه، ألبسه كلٌّ منهما ثوب البطالة وكساه، فقد غطيا على نور الهدى وستراه، وسيبين بعد الفوت يوم الموت وستراه، قلْ للأغمار الحِراص: ذهبت الأعمار الرِّخاص، أين المفرُّ أين المَناصُ يوم القصاص، كم أخلى الردى من عِرَاص [٦]، كم ذبح لا يجدي من قِلاص [٧]، كم خرق سهْم المنون الدلاص [٨]، أحديدٌ هذه القلوب أم رصاص.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [٩]

وبَّخ اللَّه تعالى بهذه الآية كفار قريش بكفرهم بما آمنت به الجن. **وفي سبب صرفهم ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنهم صرفوا بسبب ما حدث من رجمهم بالشهب.

أخبرنا عبد الأول قال: أنبأنا الداودي بسنده عن ابن عباس قال: انطلق رسول اللَّه ﷺ

---

(١) غمدان: قصر باليمن بناه « يشرخ » بأربعة وجوه. انظر صفته في القاموس المحيط مادة « غمد » ومأرب مدينة باليمن كان بها السد المعروف.
(٢) الخورنق: قصر للنعمان الأكبر.
(٣) الزبرقان: القمر، والخفيف اللحية ولقب الحصين بن بدر الصحابي لجماله أو لصفرة عمامته.
(٤) الشارف: الناقة الهرمة والغارب: الكاهل أو ما بين السنام والعنق.
(٥) الصبا والجنائب نوعان من الرياح لكل منها مهبّ.
(٦) العراص: جمع عرصة وهي الساحة.
(٧) القلاص: جمع قلوص وهي الناقة.
(٨) الدلاص: الناعم اللين.
(٩) سورة الأحقاف: ٢٩.

في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشُّهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: قد حِيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: مَا حَالَ بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث. فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حَالَ بينهم وبين خبر السماء، فانطلق الذين توجهوا نحو تِهامة إلى رسول اللَّه ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له فقالوا: هذا الذي حَالَ بينكم وبين خبر السماء. فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ (١)، (٢). (هذا حديث متفق على صحته).

والقول الثاني: أنهم صُرفوا إليه ليُنْذِرَهم وأُمر أن يقرأ القرآن عليهم. هذا مذهب جماعة منهم قتادة وكان يقول: ذُكر لنا أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجن فأيكم يتبعني؟ » فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فاتبعه عبد اللَّه بن مسعود، فدخل نبي اللَّه ﷺ شِعبًا يقال له: شعب الحجُون وخَطّ على عبد اللَّه خطًّا ليثبته فيه (٣). قال: فسمعت لغطًا شديدًا حتى خفت على رسول اللَّه ﷺ فلما رجع قلت: يا نبيّ اللَّه ما اللغطُ الذي سمعت؟ قال: « اجتمعوا إليّ في قتيلٍ كان بينهم فقضيت بينهم بالحق ».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ قال: فقَدْنا رسولَ اللَّه ﷺ ليلةً ونحن بمكة، فقلنا: اغتيل أو استطير. فانطلقنا نطلبه في الشِّعاب فلقيناه مُقبلًا من نحو حراء، فقلنا: يا رسول اللَّه لقد أشفقنا عليك. وقلنا له: بِتْنا بشرٍّ ليلة بات بها قوم حين فَقَدناك. فقال: « إنه أتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن » فذهب فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم (٤).

والقول الثالث: أنه لما يئس من أهل مكة أنْ يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام بعد موت أبي طالب، فصلَّى على طريقه صلاة الفجر، فمرَّ به نفر من أشراف جن نَصِيبين فاستمعوا لقراءته ذكره بعض أهل التفسير (٥).

فعلى هذا القول والقول الأول لم يعلم بحضورهم حتى أخبره اللَّه تعالى. وعلى القول الثاني علم بهم حين جاءوا.

---

(١) سورة الجن: ١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الجن، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم : ١٤٩.

(٣) ش: به.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم : ١٥٠.

(٥) تفسير الطبري : ١٠٢/٢٩.

وفي المكان الذي سمعوا فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: بطن نخلة. وقد ذكرناه عن ابن عباس.

والثاني: الحجون، وقد ذكرناه عن ابن مسعود.

فأما النفر فهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وللمفسرين في عدد هؤلاء النفر **قولان:**

- **أحدهما:** أنهم كانوا سبعة. قاله ابن مسعود وزُرَيْن بن حُبَيش ومجاهد ورواه عكرمة عن ابن عباس.

- **والثاني:** تسعة. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: حضروا استماعه ﴿ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ... ﴿٢٩﴾ ﴾ وهذا دليل حسن الأدب. وقضي بمعنى فُرغ مِن تلاوته ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي محذرين من عذاب اللَّه (١) لمن لم يؤمن.

وهل أنذروا قومهم مِنْ قِبَل أنفسهم، أم بعثهم رسول اللَّه ﷺ فيه قولان: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾، قال عطاء: كان دينهم دين اليهود فلذلك قالوا: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مِن الكُتُب ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾.

سبحان من فتح أبصار بصائر أولئك الجن فعظَّموا القرآن فقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (٢) وطمسها في حق خَلْقٍ من قريش فقالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ (٣).

سبحان مَن مَنَّ علينا بالإيمان، وشرَّفنا بحفظ القرآن، وما كانت الأمم تحفظ كُتُبها في سالف الأزمان، والحمد للَّه حمدًا دائمًا على الإحسان.

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بسنده عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لا يعذِّب اللَّه قلبًا وعى القرآن » (٤). أخبرنا علي بن عبد الواحد بسنده عن أبي أمامة الباهلي أن رسول اللَّه ﷺ قال: « من قرأ ثلث القرآن أُعطي ثلثي النبوة، ومن قرأ ثلثيه أعطي ثلث النبوة، ومن قرأ القرآن فكأنما أعطي النبوة كلها، ويقال له يوم القيامة: اقرأ وارقَ (٥) بكل آية درجة، حتى ينجز ما معه من القرآن ويقال له: اقبضْ فيقبض بيده فيقال له: أتدري ما في يدك؟ فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعيم » (٦).

---

(١) أ: من عذاب أليم. (٢) سورة الجن: ١. (٣) سورة المدثر: ٢٥.

(٤) رواه الديلمي عن عقبة. كشف الخفا : ٣٧٣/٢. (٥) ش: وارقه.

(٦) هذا حديث لا يصح. انظر اللآلئ المصنوعة : ٢٤٣/١.

إخواني: بكلِّ حرفٍ عشرُ حسنات، وبكل آية درجة من الدرجات، وقد وقع الإجماع على أن القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية، ثم اختلفوا في الكسر الزائد على ذلك. فقال ابن مسعود: وسبع عشر آية. وهذا مبلغه في المدني الأول. وبه قال نافع: وأما في المدني الأخير فأربع عشر آية عن شيبة، وعشر آيات عن أبي حفص. وفي المكِّي عشرون آية عن شيبة، وعشر آيات وفي الكوفي ستّ وثلاثون وهو مروي عن حمزة الزيات، وفي البصْري خمس آيات وهو مروي عن عاصم الجحدري. وفي رواية عن البصريين: وتسع عشرة آية. وفي الشامي ستّ وعشرون آية. فأما عدد كلماته فقال ابن مسعود: سبع وسبعون ألف كلمة وتسعمائة كلمة وأربع وثلاثون كلمة وأجمعوا في عدد حروفه على ثلاثمائة ألف حرف، وأربعة آلاف حرف وسبعمائة وأربعون. وروي عن حمزة: وثلاثة وستون ألفًا وثلاثمائة ونيف. فأما النقط فألف ألف وخمس وعشرون ألفًا وثلاثون نقطة.

وقال معاذ بن جبل: مَن قرأ في ليلة ثلاثمائة آية لم يُكتب من الغافلين.

فمن أراد أن يقرأ سورتين تجمع فيهما ثلاثمائة آية: فالبقرة والصف؛ لأن البقرة مائتان وست وثمانون، والصف أربع عشرة وكذلك الأنعام وطه فالأنعام مائة وخمسة وستون، وطه مائة وخمس وثلاثون، وكذلك المؤمنون والصافات، فالمؤمنون مائة وثماني عشرة، والصافات مائة واثنان وثمانون. وكذلك الشعراء والأحزاب، فالشعراء مائتان وسبع وعشرون، والأحزاب ثلاث وسبعون.

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بسنده عن عُبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا قام أحدُكم من الليل فليجهر بقراءته فإنه يطرد بقراءته مَرَدة الشياطين وفُسَّاق الجن، وإن الملائكة الذين في الهواء وسكان الدار يصلون بصلاته ويستمعون لقراءته فإذا مضت هذه الليلة أوصت الليلةَ المستأنفة وقالت: تحفَّظي لساعاته وكوني عليه خفيفة، فإذا حضرته الوفاة جاء والقرآن فوقف عند رأسه وهم يغسِّلونه، فإذا غسلوه وكفَّنوه جاء القرآن فدخل حتى صار بين صدره وكفنه، فإذا دُفن وجاءه منكر ونكير خرج حتى صار فيما بينه وبينهما، فيقولان: إليك عنا فإنا نريد أن نسأله. فيقول: واللَّه ما أنا بمفارقه أبدًا حتى أُدخله الجنة، فإن كنتما أُمرتما فيه بشيء فشأنكما. قال: ثم ينظر إليه فيقول هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا القرآن الذي كنت أُسِهر ليلك وأُظْمِئ نهارك وأمنعك شهواتك وسمعك وبصرك، فأبشر فما عليك [خوف] بعد مساءلة منكر ونكير ولا حزن.

قال: ثم يَعْرج القرآن إلى اللَّه ﷻ، فيسأل له فِراشًا ودثارًا فيأُمر له بفراش ودِثار،

ومنديل من نُور الجنة وياسمين من ياسمين الجنة، فيحمله ألف ملك من مقرَّبي ملائكة سماء الدنيا. قال: فيسبقهم إليه القرآن فيقول: هل استوحشت بعدي فإني لم أزل حتى أمر اللَّه تعالى لك بفراش ودثار من الجنة. وقنديل من الجنة وياسمين من الجنة فيحملونه ثم يُفرشونه ذلك الفراش ويضعون الدِّثار عند رجليه والياسمين عند صدره [١]، ثم يضجعونه على شقِّه الأيمن ثم يخرجون عنه فلا يزال ينظر إليهم حتى يلجُوا في السماء. ثم يدفع له القرآن في قِبْلة القبر فيوسع له مسيرة خمسمائة عام أو ما شاء اللَّه تعالى، ثم يُحمل الياسمين فيضعه عند منخريه، ثم يأتي أهله كل يوم مرة أو مرتين فيأتيه بخبرهم ويدعو لهم بالخير، فإن تعلم أحدٌ من ولده القرآن أخبره بذلك، وإن كان عقبه عقب سوء أتاهم القرآن كل يوم مرة أو مرتينٍ فيبكي عليهم حتى ينفخ في الصور » [٢].

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾:

سبحان مَنْ منَّ علينا بكلامه القديم، وأعطانا بتلاوته الأجر العظيم، ودلَّنا به على السبيل القويم ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. هو الشفاء للأوجاع، هو المكتوب في الرِّقاع، هو المتلو في جميع البقاع، وهو المسموع بالأسماع يا أهل الابتداع ما ضاع منه « ألم ».

هذا القرآن عمدة الإسلام، هذا الدليل إلى [٣] دار السلام وقد ادَّعى أنه غير مسموع أقوام، ولولا سماع الكلام ما سُمِّي موسى الكليم.

إن جُرح المبتدع لا يُؤسَى، فما يُعوزه إلا أن يضْرب ناقوسًا، كم أضلَّ ببدعته نفوسًا، يا أيها البهيم ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٤] مَنْ نادَى موسى في الليل البهيم.

آمنا بما أنزل إلينا واعتقدنا أن القرآن لدينا يتلو علينا الرحيم.

أيها القائل المتلو عبارة والتلاوة عنه عبارة، فُقد القرآن بهذه الإشارة، ما أرى لك عن هذا بشارة إلا سواء الجحيم.

يا مُبتدِعون تُهلكون وتَهلكون، أنتم على [٥] الضلال أينما تَسْلكون، أتدعون أن القرآن ما أنزل وتُتركون، سبحان الحليم ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

افترقت المبتدعة وأهل المروق، وإلى الجحود تنتمي [٦] تلك العروق، فقوم قالوا: ما نزل وقوم قالوا: مخلوق، في السّواد أنتم أو في الحريم؟!

---

(١) أ: قبل.

(٢) قال في اللآلئ المصنوعة : ٢٤١/١: لا يصح والمتهم به داود الكرماني.

(٣) ق: على.

(٤) أ: هذا المتلو.

(٥) أ: أنتم في.

(٦) أ: تنتهي.

وضعوا قواعد على الكفر تُبْنى، ثم قالوا: عند الموت تُبنا، ورجعنا إليكم يا أهل السنة وأُبنا، ولكن بعد أن شق (١) الأديم.

واللَّه ما خلق اللَّه الجنَة إلا لمن يتخذ القرآن جُنَّة، وما يَسْلم غدًا غيرُ أهل السنة، لا تخلطوا البريء بالسقيم.

نحن بالنجاة أحق وأولى، أَوَ ما الأمرُ هكذا أَوْلا، لنصولن غدًا على أهل البدع صولا ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (٢). هذا كلام الملك الديان، هذا قول العظيم السلطان، تكلَّم به لا بشفة ولا لسان، جلَّ المولى عن التجسيم.

أقولنا أم قولهم أنْبل، أَزرعنا أم زرعهم سنبل، أما إمامنا أحمد بن حنبل فأتى اللَّه بقلب سليم.

لقد أطفأ نار البدعة وأخمد، وسلَّ سيف الجهاد فما أغمد، وأحرق أكباد الحُسَّاد وأكمد، هيهات من مثل أحمد، كل أنثى عقيم.

أَمَا تسمعون أذكاره، أَمَا ترون زوَّاره، أَمَا تعرفون آثاره، بلى للمسْك نَميم.

يا نظرة الحق لنا جودي، يا سفينة نجاتنا على الجُودي، يا أهل السنة أهل البدعة من وجودي في مُقْعد مقيم ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

[اللَّهم يا جوَّاد يا كريم، انفعنا بالقرآن العظيم، وأجرنا من العذاب الأليم، واجعلنا ممن أتاك بقلب سليم، إنك ذو العطاء الجسيم، والفضل العميم] (٣).

* * *
* *
*

(١) ش: سن. والأديم: الجلد.
(٢) سورة يس: ٥٨.
(٣) من نسخة أوقاف بغداد.

المجلس التاسع عشر

في محاسبة النفس

الحمد للَّه ذي العز والجلال، والتمام والكمال والإنعام والإفضال، معطي النوال قبل السؤال، مدبر الأحوال في الشهور والأحوال، أنْشَر [١] رِمَم النبات بإنشاء السحب الثقال، فجلا عروس الغُروس في فنون الأشكال على أبصار البصائر لنفهم مقصود الحال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

أَحمدُه عدد الرمال على بلوغ الآمال، وأُقِرُّ بأنه لا نِدَّ له ولا مثال، وأُصلِّي على رسوله محمد الهادي من الضلال، وعلى صاحبه أبي بكر الذي وافق وأنفق المال، وعلى عُمر مراعي الأيتام والأطفال، وعلى عثمان الذي مالوا عليه وما مال، وعلى عليٍّ مفيد العلماء ومُبيد الأبطال، وعلى عمّه العباس أقرب الأهل إليه والآل إن فعل وإن قال.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [٢]

لمَّا علم المتقون أنهم محاسبون على أعمالهم فيجازون على أفعالهم، حاسبوا أنفسهم قبل الحساب، فالنفس مع العقل كشريك لا بد من مشارطته عند المعاملة، ثم يراقب ما يفعل ثم إن فرَّط عُوتِب وعُوقِب، فالعقل يوظّف على النفس الوظائف ويشترط عليها الشرائط، ويرشدها إلى طريق الصلاح ويراقبها في أفعالها ويحاسبها عند تمام الأفعال، فإذا أصبح قال لها: يا نفس هذا يوم جديد وهو لك أو عليك شهيد، وقد أنعم اللَّه عليَّ بتأخير الأجل، فقدِّر أن الموت اختطفك قبله، فاغتنمي الخيرات فيه، فكل ساعة منه خِزانة، فالسعادة إن مُلِئت بالخير، والشقاوة إن مُلِئت بالشر، والخسران إن كانت فارغة، فيأمرها بحفظ الجوارح من الشر واستعمالها في الخير.

أخبرنا أبو بكر بن طاهر بسنده عن شدَّاد بن أوس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الكيِّس من دان نفسه وعَمِل لما بعْدَ الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على اللَّه » [٣].

---

(١) ش: أنشأ.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب القيامة، باب رقم : ٢٥.

وقال عُمر ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزِنوها قبل أن توزنوا، وتهيَّأوا للعرْض الأكبر.

وكَتَبَ إلى أبي موسى: حاسبْ نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة.

وقال الحسن ﵀: المؤمن قوّام على نفسه يُحاسب نفسه للَّه تعالى، وإنما ثقُل الحسابُ يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير مُحاسبة، وإن المؤمن يفاجئه الشيء يُعجبه فيقول: واللَّه إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن واللَّه ما من صلة إليك هيْهات حِيَل بيني وبينك. ويَفْرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردْت إلى هذا؟! ما لي ولهذا؟ واللَّه لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء اللَّه.

إن المؤمنين قومٌ أوْثقهم القرآن وحَالَ بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فِكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى اللَّه ﷻ، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله، وإن العبد لا يزال بخير ما دام [1] له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبةُ من همته.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجلُ تقيًّا حتى يكون أشدَّ محاسبةً لنفسه من الشريك لشريكه.

وقال مالك بن دينار: رَحِمَ اللَّهُ عبدًا قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم زمَّها ثم خَطمها ثم ألزمها كتاب اللَّه ﷻ وكان لها قائدًا.

وقال إبراهيم التيمي: مثَّلتُ نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشْربُ من أنهارها، ثم مثَّلتُ نفسي في النار آكل من زقومها وأشْربُ من صديدها، ثم قلتُ لنفسي: ما تريدين؟ فقالت: أردُّ إلى الدنيا فأعمل صالحًا. فقلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

وقال وهب بن منبه: في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يشتغل عن أربع ساعات؛ ساعةٍ يناجي فيها ربه ﷻ، وساعةٍ يحاسبُ فيها نفسه، وساعةٍ يُفْضي إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصْدقونه عن نفسه، وساعةٍ يُخلي بين نفسه ولذّاته فيما يحلُّ ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمامٌ للقوة، وحقٌّ على العاقل أن يكون عارفًا بزمانه حافظًا للسانه مُقْبلًا على شأنه، وحقٌّ على العاقل ألا يَظْعن إلَّا في إحدى ثلاثٍ: زادٌ لمعادٍ، أو مرمَّةٌ لمعاشٍ، أو لذة في غير مُحرَّم، وينبغي للإنسان أن يأخذ على نفسه أن لا يضيع لحظةً حتى إنه يأخذها بالذكر والشكر في زمان الأكل، ومتى رأى خللًا رفعه بالاستغفار وعاتبها على فعله ونهاها عن مثله، فإن لم تنته عاقبها بترك مباحاتٍ تؤثرها.

---

(١) ش، ق: ما كان.

روى نافع عن ابن عمر ﵄ أنه خرج إلى حائط له فرجع وقد صلَّى الناسُ العصرَ، فقال: حائطي على المساكين صدقة. وشغله أمرٌ عن المغرب حتى طلع نجمان فأعتق رقبتين.

ونام تميمٌ الداريُّ ليلة لم يقُم فيها، فقام سَنَةً لم ينم فيها عقوبة لما صنع.

وكان الأحنف بن قيس يجيء بالليل إلى المصباح فيضع إصبعيه فيه ثم يقول: حُسَّ يا حُنيفُ ما حملك على ما صنعت [(١)] يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

ومر حسَّان بن أبي سنان بغرفة فقال: متى بُنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعْنيكِ؟! لأعاقبنك بصوم سنة! فصامها.

ومثل هذه الأشياء لا بأس بها، إلا أنه قد فعل جماعة من جُهّال المتزهدين فيها ما لا يصلح، فإن بعضهم وجد نفسه توقُّفًا عن الغسل [في البرد] [(٢)] فغاص بمرقَّعته وحلف لا يعصرها، ومثل هذا ممنوع منه.

وقد كان الصالحون إذا رأوا تقصير النفس عاتبوها ومقتوها فقال أبو بكر الصديق ﵁: من مقت نفسه في ذات اللَّه تعالى أمّنه اللَّه من مقته.

وكان عمر بن الخطاب ﵁ يقول لنفسه: أمير المؤمنين! بَخٍ واللَّه لتتقينّ اللَّه بنيَّ الخطاب أو ليُعذبنك!

أخبرنا محمد بن ناصر وعلي بن أبي عمر بسندهما عن عبد اللَّه بن قيس الغفاري قال: كُنَّا في غَزاة لنا فحضر عدوُّهم فَصِيحَ في الناس وهُم يثوبون [(٣)] إلى مصافِّهم، إذا رجل أمام رأس فرسي عند عجز فرسه، وهو يُخاطب نفسه ويقول: أيْ نفس: ألم أشهد مشْهد كذا وكذا فقلتِ: أهلك وعيالك فأطعتُكِ فرجعتُ، واللَّه لأعرضنك اليوم على اللَّه أخَذك أو تركك. فقلت: لأرمقنَّه اليوم. فرمقته فحمل الناسُ على عدوِّهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في جُملتهم، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم ثم حمل العدوُّ فانكشف الناسُ فكان في جُملتهم قال: فواللَّه ما زال ذلك دأبه حتى رأيته صريعًا فعددتُ به وبدابته ستِّين أو أكثر من ستين طعنة.

قال القرشي: وحدَّثني رجل من قريش ذكر أنه من ولد طلحة بين عبيد اللَّه قال: كان توبة بن الصمّة بالرقة وكان مُحاسبًا لنفسه، فحسب فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا وَيْلتاه ألقى المليك بأحدٍ وعشرين ألف ذنب، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرَّ مغشيًّا

---

(١) ش، ق: ما فعلت. (٢) من ق. (٣) يثوبون: يرجعون.

عليه فإذا هو ميِّت فسمعوا قائلًا يقول: يا لكِ رَكْضةً إلى الفردوس الأعلى!

وقد كان كثير من السلف يستوفي على النفس الأعمال ويُكرهُها عليها اغتنامًا للعمر.

قال ابن المبارك: إن الصالحين كانت أنفسهم تُواتيهم على الخير طوعًا [١] وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كُرْه، فينبغي لنا أن نُكرهها.

وكان عامر بن عبد قيس [٢] يصلي كلَّ يوم ألف ركعةٍ وقال له رجلٌ: قفْ أكلمك. فقال: أمسك الشمس!

اسمع يا مُضيِّع الزمان:

الدهر ساوَمني عُمري فقلت له: لا بعْتُ عُمْري بالدنيا وما فيها

ثم اشتراها تفاريقًا بلا ثمن تبَّتْ يدًا قد خاب شاريها

وقيل لرجل: صف لنا الأحنف. فقال: ما رأيتُ أحدًا أعظمَ سلطانًا على نفسه منه.

ووهب رجلٌ لرجل جارية يُحبُّها فقال: كيف أقبلها وأنت تحبُّها؟ قال: خُذها ليعلم هواي أنني له غالب!

ومما ينبغي أن يقال للنفس: ويحك من لا يدري متى يُختطف؟ كيف يغفل؟ ومن لا يعلم إلى أيِّ الدارين يَصِل كيف يَسْكن. ويحك إن جميع العُمر بالإضافة إلى عمر الدنيا كلحظة، والكل بالإضافة إلى البقاء الأبدي كطرفة [٣]، ويحك من الجهالة اعتمادك على العَفْو ونسيان العقوبة، أتُعَمِّرين قصرك والقبرُ إلى جانبك، وتُقبلين على الدنيا وهي مُعرضة عنك.

وهذه أحوال المؤمن مع النفس، فتارة يَحثُّها، وتارة يُراقب عملها، وتارة يحملها على مكارهها، وتارة يجاهد، وتارة يُعاقبها.

قال وهب بن منبه: الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس بينهما حَرُون، فإذا قاد القائد ولم يَسقْ السائق لم يُغن ذلك شيئًا، وإذا قاد القائد وساق السائق اتبعته النفسُ طوْعًا وكَرْهًا وطاب العملُ.

* * *

الكلام على البسملة

تـجهّزي بـجهازٍ تَبْلغيـن بـه يا نفس قبل الرَّدى لم تُخلقي عبثا

---

(١) ش، ق: عفوا. (٢) أ: عامر بن قيس. (٣) أ: لا يكون كطرفة.

وسابقي بَغْتة الآجال وانكمشي قبل اللِّزام فلا مَنجى ولا غوْثا
ولا تكدِّي لمن يبقى وتفتقري إن الردى وارثُ الباقي وما ورثا
واخْشي عَوَادي صرف الدهر في مهلٍ واستيقظي لا تكوني كالذي بحثا
عن مُدْيةٍ كان فيها قَطْع مُدَّته فوافت الحرثَ مؤفورًا [1] كما حُرثا
لا تأْمني فَجْعَ دهرٍ مُترفٍ خَبِل قد استوى عنده من طاب أو خبثا
يا رُبَّ ذي أمل فيه على وَجلٍ أضحى به آمنا أمسى وقد جُدثا [2]
من كان حيث تُصيب الشمسُ جبهتَه أو الغبارُ يخاف الشَّين والشعثا
ويأْلف الظلَّ كي تبقى بشاشتُه فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثا
في قعرِ موحشة غبراء مقفرةٍ يُطيل تحت الثرى في غمِّها اللُّبثا

كم ضيعت في المعاصي عصرًا عصرًا، وكم حَملْت على الأَزْر من الوزر وزرا، كم ستَرْناك على الخطايا دهرًا، تعاهد ولا تفي إلى كم غدرا، كان المشيبُ هلالا فقد عاد بَدْرًا، أطال عليك الأمرُ فصار القلبُ صخرا، وقد بقي القليل فصبرا صبرا.

قال الحسن: يا ابن آدم عن نفسك فكايسْ [3] فإنك إن دخلت النار لم تنجبر بعدها أبدًا.

أثَامِنُ النفسَ [4] النفيسة ربَّها وليس لها في الخَلْق كلهم ثمنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيا أصبتُها لقد ذهبتْ نفسي وقد ذهب الثمنْ
بها تُملك الدنيا فإن أنا بِعتها بشيء من الدنيا فذلكم الغَبَنْ

كان رَبَاح القيسي دائم البكاء فإذا عُوتِب في بكائه قال: يحقُّ لأهل الذنوب أن يكونوا هكذا.

أخبرنا ابن ناصر وابن أبي عمرو بسندهما عن عامر بن يَسَاف [5] قال: سمعتُ المعلَّى بن زياد يقول: كان عامر بن عبد اللَّه قد فرض على نفسه كلَّ يوم ألف ركعة، وكان إذا صلى العصر جلس وقد انتفخت ساقاه من طول القيام، فيقول: يا نفس بهذا أُمرتِ ولهذا خُلقتِ، يوشك أن يذهب العناء.

---

(١) أ: محروثًا. (٢) جُدث: وضع في الجدث وهو القبر.

(٣) كايس: من الكيس وهو الفطنة وحسن التصرف.

(٤) ق: بالنفس. ومعنى أثامن: أبتغي الثمن.

(٥) الأصول: ابن سياف محرفة وما أثبته من ميزان الاعتدال للذهبي: ٣٦١/٢. تحقيق البجاوي. وهو عامر ابن عبد اللَّه بن يساف اليمامي يروي عن يحيى بن أبي كثير.

وكان يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل سوء، فَوَعزَّة ربك لأزحفنّ بكِ زحوف [١] البعير، وإن استطعت أن لا يمس الأرض من زُهْمك [٢] شيء لأفعلن. ثم يتلوَّى كما يتلوَّى الحبُّ على المقلاة، ثم يقوم فينادي: اللَّهم إن النار قد منعتني من النوم فاغفر لي.

قال القرشي: وحدَّثني أبو عبد اللَّه التميمي عن أبيه قال: رأيت حمَّاد بن سلمة في النوم فقلت: ما فعل بك ربُّك؟ قال: خيرًا قلت: ماذا قال لك؟ قال: قيل لي: طال ما كَدَدْت نفسك فاليوم أطيل راحتك وراحة المَتْعوبين في الدنيا بخٍ بخٍ ماذا أعدَدْتُ لهم.

قال القرشي: وحدَّثنا علي بن محمد قال: حدَّثنا عبد اللَّه بن صالح، حدَّثني يعقوب ابن عبد الرحمن القارئ، قال: قال محمد بن المنكدر: إني خلَّفت زياد بن أبي زياد مولى ابن عباس وهو يُخاصم نفسه في المسجد يقول: اجلسي أين تريدين؟ أين تذهبين؟ أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد؟!

انظري إلى ما فيه، تريدين أن تُبصري دار فلان ودار فلان؟

قال: وكان يقول لنفسه: ما لكِ من الطعام يا نفسُ إلا هذا الخبزُ والزيت، وما لكِ من الثياب إلا هذين الثوبين، وما لكِ من النساء إلا هذه العجوز، أفتحبين أن تموتي؟ فقالت: أنا أصبر على هذا.

قال القرشي: وحدَّثني محمد بن خلف قال: حدثني أبي، قال: حدثني سهل بن عليط [٣] قال: مضيتُ مع عامر بن الصباح إلى بكر العابد، وكان في دارٍ وحده فسمعناه يتكلم فلما أذن لنا قال له عامرٌ: مَن كنتَ تُكلِّم؟ قال نفسي، نازعتني الطعام فإذا مِطهرة [٤] فيها كِسرٌ قد بلَّها فسألتني ملْحًا طيبًا، فقلت: ليس إلا ملح العجين الجريش، فإن كُنتِ تشتهين هذا وإلا فليس عندي غيره. قال: فمكث بعد ذلك ثلاثًا لم يطعم شيئًا.

هواك أعمى فلا تجْعله مُتَّبعا لا يعستفْ بك عن بيضاء مسْلوكهْ
ومَنْ يقُدْه هواهُ في جرائمه فذاك بين ذوي الألباب أضْحوكهْ

كيف يسوغ لك المطعمَ وقد فعلت ما تعلم، يا مُعْوجًا بالثقاف [٥] لا يتقوَّم، يا مشغولًا بالهوى لك يومٌ أيْوم، يا مُرْتضعًا ثَدي الأمل عن قليل تُفطم، أمَا يؤثِّر فيك عَذْل اللُّوّم، إن كان لك عُذر فقل وتكلَّم، سيظهر قبيحك غدًا فإلى كم تتكتّم، أين غضُّك طرْفك عن كل مُحرَّم، أين إمساكك لسانك فالتقيّ مُلْجم، تأخُذ أعْراض الناس [٦]

---

(١) في أ: زحف.
(٢) الزهم: الريح المنتنة أو الشحم.
(٣) سهل بن عليط كذا ولم أجد له ترجمة.
(٤) المطهرة: الإناء الذي يوضع فيه ماء الطهارة.
(٥) الثقاف: ما يقوم به الحور. وفي أ: بالنفاق محرفة.
(٦) أ: النفس محرفة.

فتلدغها لدْغ الأرقم [١]، لسانك مَغسولٌ بالخداع وقلبُك علْقم، كم من غريم إذا حُشرت يشكو ويتظلّم، اللذةُ تفنى والعقاب يبقى هل تفهم؟! يا مُصرًّا على الذنوب مثلك لا يسْلم، إن كُنت قد انتبهت فاعزم على هجر النوم، إن كنت رجلًا فزاحم أُوَيْسًا [٢] أو ابن أدهم، القلب غائبٌ والسرُّ ذاهلٌ فمن ذا يُكلّم، على أنا لا نيأس من عُود يابس رُطَب مرْيَم، يا لها موْعظةٌ يفتح لحسنها الدُّرُّ المنظم.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ... ﴾ [٣]

قال أهل المعاني: لما كان ﷺ سبب توبة التائبين ذُكِرَ معهم كقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [٤].

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ... ﴿١١٧﴾ ﴾:

المرادُ بقوله ساعة العسرة وقتُ العسرة؛ لأن الساعة تقع على كلِّ الزمان، وهذا كان في غزاة تبوك وكان القوم في ضيق شديد، كان الجمل بين جماعة يَعْتقبونه، وربما اقتسم التمرة [الواحدة] [٥] اثنان، وربما مصَّ التمرة جماعةٌ ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحَرّ.

قال جابر بن عبد اللَّه: كانت عُسرة الظهر وعُسرة الزاد وعُسرة الماء.

وقيل لعمر بن الخطاب ﷺ: حدِّثنا عن ساعة العُسرةِ فقال: خرجنا إلى تبوكٍ في قيظٍ شديدٍ، فنزلنا منْزلًا أصابنا فيه عطشٌ حتى ظننَّا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن الرجل ليذهَبُ يلتمسُ الماء فلا يرجع حتى نظنَّ أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه، إن اللَّه تعالى قد عوّدك في الدعاء خيرًا فادْعُ لنا قال: تُحبُّ ذلك. قال: نعم. فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فملأوا ما معهُم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزَتْ العسْكر [٦].

---

(١) الأرقم: الثعبان.

(٢) يشير إلى أويس القرني التابعي الزاهد وإبراهيم بن أدهم من تابعي التابعين.

(٣) سورة التوبة: ١١٧. (٤) سورة الأنفال: ٤١.

(٥) ليس في ش.

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة : ٢٣١/٥. وهو في مجمع الزوائد : ١٩٤/٦، ١٩٥.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾:

سبحان من خلق الصحابة جدًّا بلا فترة، يقْنعُون في القوتِ في اليوم بتمرة، همُّهم طاعةُ الحقِّ يمتثلون أمره، ويكفيهم من المدائح قبل النُّصرة، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

اكتفوا بكسرةٍ من الطعام حضرت، فما امتدت أعينهم إلى غيرها ونظرت، بل تناولتها أيديهم وشكرت، وما جالت الدنيا ولا خطرت لهم قطُّ على فِكْرة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

يقفون في الخدمة إلى الصَّباح، يغسلون بالدموع الوجُوه الصِّبَاح، قُوتهم لقمةٌ وماءٌ قُرَاح، وقد تركوا أكثر المباح، فما ظنُّكم بما يُكره.

بسطوا في الدُّجى بساط الأحزان، يندمون على تقصير كان، فاجتمعت في الأسحار الأشجان، وسالتْ العَبرة، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

ذكروا قُرب الرحيل والنَّوى فعزم كلٌّ على الزُّهد ونوى، فما قاربوا خَمْر الهوى، فسلموا من السَّكرة. ذكَّر القومُ فتذكروا، وسُكت عنهم فتفكروا، وتفهَّموا الأمور وتبصَّروا، ومهَّدوا وما قصَّروا تلك الحفرة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

يَحْتالون بكل حِيلة في طلب القُرب والوسيلة، فما حجُّوا إلى فضيلة إلا وَرِدفَتْها عُمرة.

عدُّوا الدنيا أقلَّ من بَعرة، فاشتروا بها على الحقيقة درَّة، وحاسبوا أنفسهُم حتى على ذَرة، منهم مصعبُ بن عُمير ترك الدنيا عن قُدرة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

يا مُؤْثِر الدنيا الدنية فعزمُه عليها والنية، أما ملأتْ بمُحبِّيها البرِّية، أما لك في القوم عِبرة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

تغفل والموتُ قد طلبك، وتجعل الدنيا مُناك وأرَبك، أما علمت أن من مشى فوق السُّبُل لم يأمن عَثْرة.

واعجبًا أتغرُّك الزخارف وأنت بالغرور عارف، أما هي دارُ المَتالف، أتخدعك حُمرةُ جمرة، أما تفيق حتى تفوت، أما تنتهي حتى تموت، كمْ حَملت على نعشٍ وتابوتٍ، ما أبْعدها من سفْرة.

تصف الصالحين وأين هم، رفعوا من شأنهم شَيْنهُم [وقضى القوم دَيْنهم] (١) كَمْ بيننا وبينهم أين مِصْر والبصْرة؟

* * *

---

(١) ليست في ش.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ... ﴿١١٧﴾﴾:

﴿كَادَ﴾ بمعنى قارب، وهي كلمة إذا أُثبتت انتفى الفعل، وإذا نُفيت ثبتَ الفعل، ويشهد للإثبات عند النفي ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[(١)] ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[(٢)] ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[(٣)] ويشهد بالنفي عند الإثبات ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾[(٤)] ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ... ﴿١١٧﴾﴾ ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾[(٥)] و ﴿يَزِيغُ﴾ بمعنى يميل.

- **وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال:**

أحدها: تميلُ إلى التخلف وهم ناس من المسلمين همُّوا بذلك ثم لحقُوه. رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: أن القلوب مالتْ إلى الرُّجوع للشدّة التي لقُوها، ولم تزغْ عن الإيمان، قاله الزجاج.

والثالث: أن القلوب كادت تزيغ تلفًا بالجُهد والشدة، قاله[(٦)] الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ... ﴿١١٧﴾﴾ كرَّر ذكر التوبة لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدَّم ذكر التوبة فضلًا منه، ثم ذكر ذنبهم، ثم أعاد التوبة.

* * *

قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ... ﴿١١٨﴾﴾

قرأ الجمهور بضمّ الخاء وتشديد اللام المكسورة.

وفي معناها قولان:

أحدهما: خلِّفوا عن التوبة، قاله ابن عباس ومجاهد. فيكون المعنى خُلفوا عن توبة اللَّه عز وجل على أبي لُبابة وأصحابه إذْ لم يخضعوا كما خضع أولئك.

والثاني: خلِّفوا عن غزاة تبوك، قاله قتادة. وقرأ زرُّ بن حُبيش وحميد: «خَلَفوا» بفتح الخاء واللام من غير تشديد ولها وجهان: **أحدهما:** خلفوا القوم بالمدينة وتأخروا عنهم وتخلفوا. **والثاني:** أقاموا فلم يبرحوا من قول العرب قومٌ خُلُوفٌ إذا تخلفوا عن من خرج من قومهم.

---

(١) سورة النساء: ٧٨. (٢) سورة النور: ٤٠. (٣) سورة الزخرف: ٥٢.

(٤) سورة النور: ٤٣. (٥) سورة النور: ٣٥. (٦) ش: ذكره.

وقرأ أبو الجوزاء وأبو العالية بفتح الخاء وفتح اللام المشدَّدة، وذلك يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه، كأنهم خلَّفوا هؤلاء بالمدينة.

وقرأ علي بن أبي طالب ﷺ وأبو عبد الرحمن السُّلمي والشَّعبي وابن يعمر: «خالفوا» بألف. قال ابن جنِّي: معناه، أقاموا؛ لأنهم خالفوهم فأقاموا.

وهؤلاء الثلاثة كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، تخلفوا عن غزوة [1] تبوك من غير عذر، ولم يبالغوا في الاعتذار، فوقف رسول الله ﷺ أمْرهم ونهى الناسَ عن كلامهم حتى نزلت هذه الآية، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ... ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ... ﴿١١٨﴾﴾:

أي: ضاقت مع سعتها؛ لأن رسول الله ﷺ أعرض عنهم ومنع المسلمين من كلامهم ومعاملتهم، وضاقت عليهم أنفسهم، بالهم والغم ﴿وَظَنُّوٓاْ... ﴿١١٨﴾﴾ أي: أيقنوا أن لا ملجأ من الله أي لا معتصم منه ومن عذابه إلا إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ... ﴿١١٨﴾﴾ إنما أعاد ذكر التوبة تأكيدًا ﴿لِيَتُوبُوٓاْ... ﴿١١٨﴾﴾ قال ابن عباس: ليستقيموا. وقال غيره: وفقهم للتوبة ليدوموا عليها، ولا يرجعوا إلى ما يبطلها.

وسُئل أبو بكر الورَّاق رحمه الله عن التوبة النَّصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض وتضيق عليه نفسُه، كتوبة كعبٍ وصاحبيه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بيته حين عَمِي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدِّث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة تبوك. قال كعب: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزاة تبوك، غير أني كنت تخلَّفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عيرَ قريشٍ حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشْهد بدر، وإن كانت بدر أشهد في الناس منها وأَذْكَر.

وكان من خبري حين تخلَّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة [2] تبوك أني لم أكُن قط أقوى ولا أيسر مِنِّي حين تخلَّفت عن رسول الله ﷺ في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلَّ ما يريد غزاة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزاة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًّا كثيرًا فجلَّى للمسلمين أمرهم [3] ليتأهَّبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع

(١ ، ٢) ش: غزاة.

(٣) ش: أمره.

رسول اللَّه ﷺ كثيرٌ لا يجمعهم كتابُ حافظٍ، يريد الدّيوان.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيّب إلا ظنّ أن ذلك سيخفى ما لم يُنزل فيه وحْي من اللَّه تعالى، وغزا رسول اللَّه ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أَصْعَر [(١)].

فتجهّز رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم [(٢)] فأرجعُ ولم أقضِ شيئًا، فأقولُ في نفسي أنا قادرٌ على ذلك إذا أردت، فلم يزل يتمادي بي الأمر حتى اشتد [(٣)] بالناس الجِدُّ فأصبح رسول اللَّه ﷺ غاديًا والمسلمون، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعدَ يوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوت بعدما فَصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ شيئًا، فلم يزل يتمادى بي الأمر حتى أسْرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم وليت أني فعلت، فلم يقدَّر لي ذلك، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول اللَّه ﷺ [فطفقت فيهم] [(٤)] يُحزنني أن لا أرى إلا رجلًا مغموصًا [(٥)] عليه في النفاق أو رجلًا ممَّن عذر اللَّه [من الضعفاء] [(٦)] ولم يذكرني رسول اللَّه ﷺ حتى بلغ تبوك فقال: وهو جالسٌ في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك؟ » فقال رجل من بني سلمة: يا رسول اللَّه حبسه بُرداه، ونظره [(٧)] في عِطْفيْه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ، واللَّه يا رسول اللَّه ما عَلِمَنا عليه إلا خيرًا. فسكتَ رسول اللَّه ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول اللَّه ﷺ توجّه [من تبوك] [(٨)] قافلًا حضرني همّي، فطفقت أتذكرُ الكذبَ وأقول: بماذا أخرجُ من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول اللَّه ﷺ قد أظلَّ قادمًا. زاح عني الباطلُ وعرفتُ أني لا أنجو منه بشيء أبدًا فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقه وأصبح [(٩)] رسول اللَّه ﷺ قادمًا وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم يجلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول اللَّه ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى اللَّه ﷻ، فجئته [(١٠)] فلما سلمتُ عليه تبسَّم تبسُّم المغضَب ثم قال: « تعال ». فجئت أمشي حتى جلسْتُ بين يديه فقال لي: « ما خلَّفك؟ » ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلتُ: بلى واللَّه يا رسول اللَّه، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت

---

(١) أصعر: أميل وفي الأصل: أضعف: ولم تردْ هذه الجملة في صحيح البخاري وإنما وردت في صحيح مسلم.
(٢) ش: معه. (٣) ش: استمر. (٤) ليست في ش.
(٥) مغموصًا: مطعونًا عليه في دينه. (٦) سقطت من ش. (٧) ش: والنظر.
(٨) سقطت من أ وهي ليست في رواية البخاري. (٩) ش: وصبح.
(١٠) كذا في أ موافقًا لصحيح البخاري : ٢٧٥/٢. وفي ش: حتى جئت.

أن أخرج من سخطه بعُذْر، فلقد أُعطيتُ جدلًا، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يُسخطك عليّ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجدُ عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله تعالى، والله ما كان لي من عذرٍ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: « أما هذا فقد صدَق، فقُمْ حتى يقضي الله فيك » فقمت وثار إليّ رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كُنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزتَ ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون؟ قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال: فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلتُ: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلالُ بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا. فقلت: لي أسوةٌ فيهما، ومضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه، فاجتنبنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجْلَدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوفُ في الأسواق ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أُصلِّي قريبًا منه فأُسَارِقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل عليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجْر المسلمين مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ فسلمتُ عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة: أنشدك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكتَ فعُدتُ فنشدته فسكتَ، فعدتُ له فنشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضتْ عيناي وتوليتُ حتى تسورتُ الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدلّني على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناسُ يشيرون له إليَّ حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا فإذا فيه: أما بعدُ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضْيعة، فالْحَقْ بنا نُوَاسِك، قال: فقلتُ: هذا أيضًا من البلاء، فتيمَّمت بها التنور فسجرته [1] بها حتى إذا مضت أربعون

---

(١) سجرته: أوقدته.

ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلتُ: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربها. وأرسل إلى صَاحِبيَّ مثل ذلك. فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن هلال ابن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: « لا ولكن لا يقربنك ».

قالت: والله إنه ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كمُلَتْ لنا خمسون ليلة [(١)] من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صلَّيتُ الفجر صبح [(٢)] خمسين ليلة وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللهُ قد ضاقتْ عليَّ نفسي وضاقت علي الأرضُ بما رَحُبت، سمعتُ صوتَ صارخ [(٣)] على جبل سَلْع يقول: بأعلى صوته: يا كعبُ بن مالكٍ: أبشر. فخررتُ ساجدًا للّه تعالى، وعرفتُ أنْ قد جاء فرَج، وآذنَ رسول الله ﷺ [الناس] [(٤)] بتوبة الله ﷻ علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناسُ يبشروننا [(٥)] وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشرون، وركض إلي رجلٌ فرسًا وسعى [إليَّ] [(٦)] ساعٍ من أَسْلم فأوفى على الجبل فكان الصوتُ أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني نزعتُ له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوْجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة يقولون: لِيَهْنك توبةُ الله عليك. قال كعبٌ: حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس [في المسجد] [(٧)] وحوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره ولا أنساها له [(٨)] قال كعب: فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهُه من

---

(١) ش: فكمل لنا خمسون ليلة.

(٢) ش: قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح.

(٣) ش: سمعت صارخًا.

(٤) من ش.

(٥) كذا في أ موافقًا لما في صحيح البخاري وفي ش: فذهبوا يبشروننا.

(٦) من أ.

(٧) من ش.

(٨) صحيح البخاري: ولا أنساها لطلحة. وفي ش: قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

السرور: « أبشر بخير يوم مرَّ عليك مُنذُ ولدتك أمك ».

قال: قلتُ: من عندك يا رسول اللّه أم من عند اللّه؟ قال: « لا، بل من عند اللّه » وكان رسول اللّه إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول اللّه إن مِنْ توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللّه ﷻ وإلى رسول اللّه ﷺ. فقال رسول اللّه ﷺ: « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قلتُ: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت [1]: يا رسول اللّه إن اللّه إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صِدقًا، ما بقيت. فواللّه ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه اللّه في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول اللّه ﷺ أحسن مما أبلاني اللّه، واللّه ما تعمدتُ كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللّه ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني اللّه فيما بقيت [2].

وأنزل اللّه تعالى على رسول اللّه ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ... ﴿١١٧﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾..

فواللّه ما أنعم اللّه عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول اللّه ﷺ ألا أكون كَذَبْته فأهْلِك كما هلك الذين كذبوا، فإن اللّه تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد فقال اللّه تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ... ﴿٩٥﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ قال كعب: وكُنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول اللّه ﷺ حين حَلَفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول اللّه ﷺ أمرنا حتى قضى اللّه فيه، **فبذلك قال اللّه تعالى:** ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ... ﴿١١٨﴾ ﴾ وليس الذي ذكر اللّه ﷻ مما خلّفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر فقبل منه [3] [4]. (وهذا حديث مُتّفق على صحته).

وقد حذَّر من مُساكنة الكسل وخوَّف من عاقبة الفشل، فإن راحة البطالة تُعقب تعب الندم.

ولما نفع كعبَ بن مالك صدْقُه قال اللّه ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

---

(١) كذا في أ موافقا لما في صحيح البخاري. وفي ش: قال: وقلت.

(٢) كذا في أ موافقا لما في صحيح البخاري وفي ش: فيما بقي.

(٣) كذا في أ موافقا لما في صحيح البخاري. وفي ش: فقبل منهم.

(٤) صحيح البخاري : ٢٧٤/٢، ط الخيرية. وصحيح مسلم، كتاب التوبة : ٥٠٠/٢، ط عيسى الحلبي.

ثم نهى عن التخلُّف عن رسول الله ﷺ فقال: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ مثل مُزينة وجُهينة وغِفار وأشْجع وأسْلم ﴿ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ ﷺ في غزاة غزاها ﴿ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ أي: لا يرضوا لأنفسهم بالدَّعة ورسولُ الله ﷺ في الحرّ والمشقَّة، وذلك النهي عن التخلُّف ﴿ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ وهو العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ وهو التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ وهي المجاعة ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا... ﴿١٢٠﴾ ﴾ أسْرًا وقتْلًا وهزيمة ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ أي: أنهم يجازون على جميع ذلك.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾:

سبحان من منح الصحابة أحسن [1] المنائح، ومدحهم بأحسن المدائح، وأثابهم على ناقص العمل والراجح، ورزقهم عزائم أثْبت من الصُّم الطوافح [2]، فقد هال عليهم النِّعم هيلًا، ولا ينالون من عدو نيلًا ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾.

ما كان أصبر القوم على الفوادح [3]، ما كان أمْتَن رضاهم على القوادح [4] ما كان أثبتهم على الضدّ المكادِح [5]، لما لزموا باب الخدمة لزوم من ليس يُبارح ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾.

كانوا يُضمرون التقوى بين الجوانح، ويتكلمون بالصدق عن أصفى القرائح، والجِدُّ عندهم غادٍ ورائح، فإلى الآن تهبُّ من أذكارهم روائح، تعبت أبدانهم والجوارح في تحصيل الأجور والمصالح، فأعمالهم كلها أعمال رابح، فما سكت ساكتٌ منهم في الحرب ولا صاح الصائح ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾.

هبَّت زفرات قلوبهم كالرياح اللواقح، فأنشأت من دُموعهم السُّحب السوافح، أرْخت على شواهق الجفون، جرت من الخدود على الأباطح، فما ينقضي الدُّجى عن المجتهد الكادح ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾.

لا يلتفتون إلى النقائص والقبائح، يتبلّغون بالقليل إذا ضاقت المسارح، ويقومون في حرب الهوى قيام مجتهد مناصح ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾.

---

(١) أ: فأحسن. (٢) الصم الطوافح: الصخور اليابسة.

(٣) الفوادح: المصائب الفادحة.

(٤) القوادح: جمع قادحة وهي من القدح بمعنى الطعن والعيب، أي أنهم لا يبالون بقدح القادحين لهم.

(٥) المكادح من: كدح وجهه أي خدشه أو عمل به ما يشينه والمراد: الضد الذي ينازلهم.

نورهم على الوجوه ظاهرٌ لائح، ونَوْرُ رياض قلوبهم عرْفٌ (١) فائح، وكلُّهم للإسلام معين ناصح، ودليل تقديمهم على الخلْق جليٌّ واضح، وكم نازلوا من عفريت وكم صابروا من جحاجح (٢) فما طاعنوا بالقنا ولا ضاربوا بالصفائح ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ ﴾.

هذه واللَّه عين فصاحتي لا يُنفدُها المَوائح (٣) وما يحظى بغير الويل حسُودي الكاشح، يسمع مني كلَّ كلام حسن صالح، ويبغضني كأنني عقرتُ ناقة صالح.

واللَّه تعالى أعلم بالصواب.

* * *
* *
*

(١) النور: الزهر أو الأبيض منه، والعرف الريح.

(٢) الجحاجح: جمع جحجح. وهو البطل.

(٣) الموائح: جمع مائح وهو المستقى بالدلو.

المجلس العشرون

في التقوى والمراقبة

الحمد للَّه الذي أوضح الدلائل على وحدانيته وكشفها، وبيَّن مناهج الهدى بمنَّته ووصفها، وأوجد الأشياء على ما شاء وصرفها، وجمَع المتفرقات بصنعته وألَّفها، وأنعم بِنِعَم جمَّة أعطاها وسلَّفها، وكلَّف النفوس ثم لطَفها فيما كلَّفها، ووصف لها الجنة وطُرَفها والنار وأسَفَها، وذكَّرها عَرَضها وموقفها، ونصب موازين العدل تحذيرًا لمن لهَا ونهى ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (١) أحمده على نِعَم أعطاها وسلَّفها، وأشهد بوحدانيته شهادة من أيقن بأنه إليه المنتهى، وأُصلِّي على رسوله محمد الذي رُفع فوق سِدرة المنتهى، وعلى صاحبه أبي بكر الذي ما فشل يوم الردة ولا وهَى، وعلى عُمر الذي ما توانى في رعاياه ولا سَهَا، وعلى عثمان الذي جاءته الشهادة فرحَّب بها، وعلى علي بن أبي طالب الذي إليه أَمْرُ الخلافة والعِلم انتهى، وعلى عمِّه العباس الذي عقد البيعة ليلة العقبة على الأنصار واستحلفها.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢)

قد أمر اللَّه ﷻ بالتقوى في غير موضع.

وقد أخبرنا ابن الحصين بسنده عن قتادة عن أنس ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يقول: « الإسلام علانية والإيمان في القلب »، قال: ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول: « التقوى هاهنا » (٣).

قال أحمد: وحدَّثنا أبو المغيرة قال: حدَّثنا صفوان بسنده عن معاذ بن جبل ﷺ، قال: لما بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول اللَّه ﷺ يوصيه ومعاذٌ راكبٌ ورسول اللَّه ﷺ يمشي تحتَ راحلته فلما فرغ قال: « يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعْد عامي هذا، ولعلك أن تمرّ على مسجدي هذا وقبري » فبكى معاذ جشعًا (٤) لفراق

---

(١) سورة الإسراء: ٧.

(٢) سورة البقرة: ١٩٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٣/١٣٥.

(٤) الجشع: شدة الحرص. والمراد به هنا: الجزع.

رسول اللَّه ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه الكريم نحو المدينة فقال: « إن أَوْلى الناس بي المتقون مَنْ كانوا وحيثُ كانوا » (١).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « مَن سرَّه أن يكون أكرمَ الناس فليتق اللَّه » (٢).

وروى بعض الصحابة أن رسول اللَّه ﷺ أخذ بيده فقال: « لا تدعْ شيئًا اتِّقاء للَّه إلا أعطاك اللَّه خيرًا منه » (٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: المتقون سادة. وكان أبو الدرداء يقول:

يريدُ المرء أن يُعطى مُناه ... ويأبى اللَّهُ إلا ما أرادَا

يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى اللَّه أفضل ما استفادا

قال خالد بن شوْذب: شهدتُ الحسن وأتاه فرقد السَّبْخي (٤) وعليه جُبَّة صوف، فأخذ الحسن بتلبيبه ثم قال: يا ابن أمِّ فرقد مرتين أو ثلاثًا، إن التقوى ليس في هذا الكِسَاء إنما التقوى في الصدر وصدَّقه العمل.

وقال وهب بن منبه: الإيمان عُرْيان ولباسُه التقوى، وزينته الحياء وماله الفقه.

قال قتادة: لما خلق اللَّه تعالى الجنة قال لها: تكلَّمي فقالت: طوبى للمتقين.

وكان بعض الحكماء يقول: مَن سرَّه أن تدوم له العافيةُ فليتقِ اللَّه عز وجل.

وقال لقمان لابنه: أي بُنيّ اتَّخذ التقوى للَّه تجارة يأتِك الرِّبح من غير بضاعة.

وبكى عامر بن عبد قيس عند الموت فقيل له: ما يُبكيك؟ قال آية في كتاب اللَّه. فقيل: أيّة آية؟ قال: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥).

وكذلك رُوِّينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تصدَّق بصدقة فقال له ابنه: تقبل اللَّهُ منك. فقال: لو علمتُ أن اللَّه تقبل مني درهمًا واحدًا لم يكن غائبٌ أحبّ إليّ من الموت ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

قال: وكان ابن عمر قد أعتق ألف عبدٍ. وقال رجل لسفيان الثوري: أرى الناسَ يقولون: سفيان الثوري وأنت تنام الليل؟ فقال: اسكت ملاك هذا الأمر التقوى.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٥/٢٣٥.

(٢) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة بهذا اللفظ وإن كان المعنى ثابتًا في القرآن وصحاح الأحاديث.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا : ٢/٢٣٨. وقال: رواه أحمد عن بعض أصحابه.

(٤) فرقد بن يعقوب نسب إلى السبخة موضع بالبصرة.

(٥) سورة المائدة: ٢٧.

وكان سفيان يقول: إنما سمي المتقون؛ لأنهم اتقوا ما لا يُتَّقى.

واعلم أن التقوى تكون في الظاهر والباطن:

أما الظاهر فتقوى العين غضُّها عن الحرام وحِفظها مما لا يُؤمن عاقبته، فربَّ ناظرٍ إلى مباح الدنيا دعته نفسه إلى تحصيل مثله فانحرف الأمرُ عليه، وتقوى اللسان حبسه عن فُضول الكلام قبل النطق، وترْك ما لا حاجة به إليه.

وقال ابن سيرين: المتَّقِي عن ذكر الغافلين مشغول. والمُتَّقِي يُحاسبُ نفسه على كلماته وحركاته وسكناته ولُقماته، وإذا أُوذي لا ينتصر مخافة أن يأخذ فوق حقه.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: من اتَّقى اللَّه لم يَشْف غيظه.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام.

واعلم أن أقوامًا يتعبَّدون ويصومون ويشهرون، ولكنهم يخلطون فعلهم بما يُنافي التقوى، من مَطْعم شُبهة وغِيبة، فهؤلاء عن التقوى بمعزل وإنما التقوى اجتناب جميع المحارم.

قال ابن المبارك: لو أن رجلًا اتَّقى مائة شيء ولم يتقِ شيئًا واحدًا لم يكن من المتقين.

واعلم أن التقوى الظاهرة تخرج بصاحبها إلى التقوى الباطنة، وهي مراقبة اللَّه ﷻ، وقد سئل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: « أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١).

وقال مالك بن دينار يقول اللَّه ﷻ: « إنما يسكن جنات عدن الذين إذا همُّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ».

وقال رجل للجنيد: بم أستعينُ على غضِّ البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور.

وسُئل المحاسبيُّ عن المراقبة فقال: عِلْم القلب بقرب الرب ﷻ.

وقال محمد بن علي الترمذي: اجعَلْ مُراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعَلْ شكرك لمن لا تنقطع نِعَمه عنك.

أخبرنا عمر بن ظفر بسنده عن أبي بكر الدقَّاق قال: سمعت أحمد بن عيسى الخرَّاز يقول: كنت أمشي في الصحراء فإذا قريبٌ من عشرة كلاب من كلاب الرعاة شدُّوا عليّ، فلما قربوا مني جعلتُ أستعمل المراقبة، فإذا كلبٌ أبيض قد خرج من بينهم وحمل على الكلاب فطردهم عني، ولم يفارقني حتى تباعدت الكلاب ثم التفتُّ فلم أره، وكان لي معلم يعلمني خوفًا، فقال لي: إني معلمك خوْفًا يجمعُ لك

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإحسان : ١٢/١، ط الخيرية.

كل شيء. قلت: ما هو؟ قال: مراقبة الله ﷻ.

واعلم أن المراقبة هي مراقبة ملاحظة الرقيب، ومن علم أن الله تعالى مطَّلع على الضمائر عالمٌ بالسرائر علمًا يقينيًّا خرج إلى المراقبة ضرورة، وتكون مراقبته على مقدار قوة يقينه.

وقد كان جماعةٌ غلبتهم المراقبة، فكانوا لا يستندون ولا يمدُّ أحدهم رجله.

وقد كان أحمد بن حنبل ﷺ يجلس في بيته مُتربعًا مستقبل القبلة، وقد يقْوى يقين المراقب فلا يرى الخلْق شغلًا بالمراقبة.

وقد رُوِّينا عن يحيى بن زكريا ﵉ أنه مرَّ بامرأة فدفعها وقال: ما ظننتها إلا جدارًا.

ودخل عُتبة الغلامُ على عبد الواحد بن زيد فقال له: مَن لقيتَ في الطريق؟ فقال: ما لقيتُ أحدًا!

وربما سمع هذا من لا ذوق له فأنكره، ونبيِّن له صدق ذلك بأنا نجد الحاضر عند الملك المستغرق بهيبته الناظِر إلى إشارته مشغولًا به عن كل شيء، فلو قيل له بعد ساعة من كان إلى جنب الملك قال: لا أرى، ولو قيل له أي شيء كان عليه؟ قال: لا أعلم، فكيف بمن تستغرقه عظمة الخالق فكأنه يراه؟

فبداية التقوى تكلف المبتدئ كفَّ الجوارح، فإذا قويت معْرفته ويقينه خرج إلى هذه الأحوال التي وصفناها.

قال بعض السلف: رأيتُ رجلًا جالسًا وحده فأردت أن أكلِّمه فقال: ذكرُ الله أشْهى. فقلت: أنت وحدك. فقال: إن معي ربي ومَلكاي. فقلت: أين الطريق؟ فأشار إلى السماء وقام يمشي ويقول: أكثر خلقك شاغلٌ عنك.

فهذه حالة مستغرقة بمشاهدة الحق ﷻ، ومثلُ هذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه، فإنها لا تتحرَّك إلا بما هو فيه، وهذا معنى قوله: « فبي يسمع وبي يبصر »

منتحب السر غائبٌ حاضرُ ... منعجمُ الأمر صامتٌ ذاكرُ

* * *

الكلام على البسملة

يا صاحب الدار المُعدَّ لها ... ماذا ادخرت لدارك الأخرى

وممهد الفُرش الوطِيَّة لا ... تُغفلْ فراش الرَّقْدة الكُبرى

ولقد مررتُ على القبور فما ... ميَّزت بين العبد والمولى

ولقد نظرت فلم أجدْ شرفًا ... أعلى لصاحبه من التقوى

جاء في الحديث يقول اللّٰه تعالى يوم القيامة: « وضعتُ نسبًا ووضعتم نسبًا أين المتقون » [١] كان القومُ إذا تكلّموا فبذكره وإذا سكتوا فَعَنْ أمْره.

قيل للعصفور: لِمَ تعرضت للبازيِّ حتى صادك؟ قال: أليس يطير بي فأصير مضافًا إليه.

فبي يسمع وبي يبصر:

فهيهات نحن على محجَّتهم نستنُّ فيها مثل ما استنُّوا
إنْ أسهلوا فالسّهل منزلنا أو أحزنوا فمحلُّنا الحَزْنُ

للقوم في مقام العزائم قرار وثبات، ولك في فخِّ اصطيادنا قرار وثبات، كم حملوا من أجلنا ثقلًا وكلًّا، أشبهتهم في حال من الأحوال؟ كلا، استغنوا بحب القلوب لهم عن مدْح خطيبهم، وطارت في خياشيم النفوس نفحات طيبهم، ما نالوا إلا بالجُهد والجَهد وما لك أنت عهد بحفظ العهد:

أسُكَّان نُعْمان العراقِ تيقنوا بأنكم في رَبْع قلبي سُكانُ
وذُوموا على حِفظِ الودادِ فإنني بُليتُ بأقوامٍ إذا حَفظوا خانوا
سلوا الليل عني مُذْ تناءت دياركم [٢] هل اكتحلت بالغمض لي فيه أجْفانُ

نهار العارف ليل لِنغْصة عيشه، وليله نهارٌ لطول سهره، كَرْبُ المحبِّ يشتدُّ بالنهار لمخالطة رقبائه، فإذا جنَّ الليلُ خرج المكروب إلى صحراء خلواته، فإذا هوام الهموم قد اجتمعت إلى نار زفراته فلا ينفعه الفرارُ والجَذْوة بيد فؤاده فيجلس مُسْتسلمًا للقدر وقضائه، فإذا جنود الزلل تطالبه بجامكية [٣] استغفاره، وجموع المعرفة توبِّخه على غفلاته، ودعاوى المحبة تتقاضاه بتسليم حياته، فيصبح المُدنفُ [٤] وهو لما به:

دعُوا لي قلبًا بالغرام أُذيبه عليكم وعَيْنًا في الطُلول أُجِيلها

ثم تنهض قدمه في الخدمة منتصبة، وتمتد يده إلى الكرم مستجدية، وتعينه عينه على التقصير هاطلة، وتنكسر نفسه من حذر الردى خائفة، فتوزع مال طاعاته [٥] على غُرمائه، ثم تسجل المعرفة إفلاسه، فيصير بُستان ليله صحراء شوك. فيستغيث المبتلى مصوتًا بالفجر:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعًا وموقوفًا وقال: الموقوف المحفوظ. الترغيب والترهيب: ٣/٣٤٨.

(٢) ش: لحاظكم.

(٣) الجامكية: كلمة فارسية تعني الضريبة.

(٤) المدنف: الشديد المرض.

(٥) أ: طاعته.

يا ليلُ الصبُّ متى غده!

أين من أصفه

أفيكم من يعرفه

تشمخ عزائم القوم على الملك وتكاد تسبق في سيرها الفَلك، ترافق القوم في السُّرى والسير، كما ترافقت رعالُ (١) الطير.

إذا ذكرتُهم أسْبلتُ واكِفةً ... من العيون فأسقى تُربهم سُحبا

جهد المقل الذي عزَّتْ مطالبه ... وهل يَرُدُّ بكاءُ العين ما ذهبا

قال رجل للمرتعش: قد طال الليل وطاب الهوى [فقال:]:

لست أدري أطال ليلي أم لا ... كيف يدري بذاك من يتقلَّى

لو تفرغتُ لاستطالة ليلى ... ولِرَعْي النجوم كنتُ مخلًّا

رحل المتقون وبقي المخلّطون (٢)، فنسي حديث القلوب وشاع شُغل البطون.

قال المروزي: دخلت على أبي بكر بن مسلم يوم عيد وهو يقرض شيئًا من خَرُّوب فقلت له: اليوم يوم العيد وأنت تأكل الخروب؟! فقال: لا تنظر إلى هذا ولكن انظر إن سألني: من أين هذا؟ أي شيء أقول؟!

وقال بشر الحافي: إني لأشتهي شواء منذ أربعين سنة ما صفا لي درهمه.

وقال ابن أخته: سمعتُ خالي بِشْرًا يقول لأمي: جوفي وجعٌ وخواصري تَضْرب. فقالت له: ائذن لي حتى أُصلح لك قليل حساء بكفّ دقيق نتحسَّاه. فقال: ويحك أخاف أن يقول لي: من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري أي شيء أقول له: فبكى وبكتْ أمي وبكيتُ معهما.

ورأت أمي ليلة ما به من شدة الجوع، وجعل يتنفس نفسًا ضعيفًا فقالتْ له أمي: يا أخي ليت أمك لم تلدْني، فقد واللَّه تقطَّع كبدي مما أرى بك. فقال: وأنا فليت أمي لم تلدني، وإذْ قدْ ولدتني لم يَدُرَّ لها ثدْيٌ علي.

وكان بشر الحافي ينشد:

قَطْع الليالي مع الأيام في خَلَقِ ... والنوم تحت رِواق الهمِّ والقلقِ

أحرى وأجْدر (٣) بي من أن يقال غدًا ... إني التمستُ الغنى من كفِّ مُمْتلقِ

---

(١) الرعال: الجماعة القليلة. (٢) أ: المخلفون. (٣) أ: وأعذر.

قالوا رضيتَ بذا قُلْتُ القُنوع غنًى ... ليس الغنى كثرة الأموال والورِق
رضيتُ باللَّه في عُسري وفي يُسري ... فلستُ أسْلكُ إلا واضح الطرق

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ (١)

قال ابن عباس وعكرمة والفراء: الوفد: الرُّكبان.

وقال ابن الأنباري: الرُّكبان عند العرب رُكبانُ الإبل.

وفي زمان هذا الحشر قولان: أحدهما: أنه من قبورهم.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن النعمان بن سعد قال: كنا جلوسًا عند علي ﷺ فقرأ هذه الآية ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ فقال: لا واللَّه ما على أرْجلهم يُحشرون، ولا يُحشر الوفدُ على أرجلهم، ولكن يُؤتون بنُوق لم يرَ الخلائقُ مِثلها عليها رِحَال (٢) من ذهب فيركبون عليها حتى يصيروا إلى باب الجنة (٣).

أخبرنا المبارك بن علي قال: حدَّثنا محمد بن علي بسنده عن عطية عن أبي سعيد: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال علي: النجائب (٤) ورواحلها زُمرُّد وياقُوت أي لون شاءوا.

والقول الثاني: أن هذا الحشر بعد الحساب قاله أبو سليمان الدمشقي.

سجع على قوله ﷻ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾:

يا غافلين والركائب بهم تُحْدى، يا موغلين في المعاصي قَصْدا قصْدا، تذكروا حشركم، وأكثروا التذْكار وَجْدا ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾.

لمَّا رأوا هواهم قد صار للعقل ضدا، أقاموا للمحاربة من العزائم جُندا، وألبسوهم سلاحًا وحملوهم جُردا (٥)، وبالغوا في القتال وجَدُّوا جدًّا، وبذلوا نفوسهم كُهولًا ومُردًا، فلو رأيتهم وقد وردوا من الكرم بحرًا عدًّا ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾.

تجافوا عن أفعال الظَّلمة، وعملوا أعمال الحَزمة، وعلموا أن الأيام مُغْتنمة، فالتقطوا ورْدًا.

---

(١) سورة مريم: ٨٥.

(٢) أ: على رحال.

(٣) ش: حتى ضربوا باب الجنة.

(٤) النجائب: الكرام الأصل.

(٥) جردا: بلا سرج فوق الفرس.

طول النهار في السؤال واللَّجا [١] يقفون بأقدام الطمع على أرجاء الرَّجا، فإذا جَنَّ الليلُ وأظلم الدُّجى، مدُّوا صلاتهم مدًّا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

أهل إيمان وأرباب تحقيق، قد أُمِدُّوا بالعون والتوفيق، طالت [٢] على القوم الطريق، فقطعوا شدًّا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

يندُبون ما سلفَ وكان، ويخافون شهادة المكان، فحزينهم قد التحف الأشجان، أي والله وتردَّى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

قنعوا من الدنيا بالطفيف النّزر، وحطُّو باستغفارهم الوزْر عن الأزْر، فإذا أخذت دموعكم في الجزَر، مدَّت دموعهم مدًّا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

ينتهبون الأيام، ويحْذرون الآثام، وينصبون الأقدام، فينصبون الأجْسام، ويسْردون الصيام فَدَيْتهم ترْدا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

أعينهم إلى ما تُؤمر وتُنهى، رفَضوا الدنيا وقنعُوا بالبُلَغ [٣] منها، ولم يعيروها الطرْفَ إعْراضًا عنها، إي والله وزُهدا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

قاطعوا القواطع والعلائق، وعافُوا ما عاقهم من العوائق، ففاحتْ أذكارهم بين الخلائق، هل شمَمْت لهم ندًّا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

قال أبو هريرة والحسن: عطاشًا، قال ابن قتيبة: الورْد جماعة يردُون الماء، يعني أنهم عطاش؛ لأنه لا يرد الماء إلا العطشان. انظروا يا إخواني مصيبة هؤلاء، وقفوا خمسين ألف سنة حتى نصبت أقدامُهُم من التعب، وتقطعت أعْناقهم من العطش، ثم قيل لهم: سيروا فقالوا: إلى أين؟ فقيل: إلى النار!

سجع على قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾:

سبحان من قرَّب عَبْدًا وطرد عبدًا، وأخْفى قضاءه فما أظْهره ولا أبْدى، أسْعد وأشْقى، وأعاش وأرْدى هذا مقدر في السابق والمبْدا ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

---

(١) اللجا: اللجوء. (٢) أ: طال.

(٣) البلغ: جمع بلغة بضم الباء وهي ما يتبلغ به من الطعام القليل.

ما فهموا من الثمار إلا الأكل، بادروا شهواتهم بدار العُجْل، فلما وردوا الحساب وعاينوا الشُّغل، أظلمت في وجوههم جميع السُّبل فما فيهم من يتهدَّى ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾.

كم فرَّطوا أيام الدنيا في زمن، وجعلوا أوقات الصحة كالزمن [١]، باعوا أعمارهم للتواني بلا ثمن، وأخذوا يسألون لها ردّا ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾.

كانت أفعالهم كالأفعى لهم، وصارتْ أعمالهم أعْمى لهم، حَبسوا عن الحقوق أموالهم، اسمع يا من لا يتندَّى ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾.

فاوضْ من ينصحك فاوض، عارض الرياضة عارض [٢]، هيهات قد أتعبت ألف رائض، والفرائض ما تؤدَّى.

ويلٌ للعصاة من جهنم إذا قِيدتْ إليهم، وهي تكلم، لو سمعت مَنْ فيها يتألَّم، لا يذوقون فيها بَرْدًا.

طعامهم الضريعُ على الجوع، واعتذارهم ليس بمسموع، وأكثر آمالهم الرجوع، بُعْدًا للعصاة بُعدًا.

لا تلتفت الرحمة إليهم، ولا يجدون راحةً لديهم، سُدَّت النار بشدتها عليهم، فحصدتهم حصْدا.

لو رأيتهم لم تدْر من هم، لو كلموك ما فهمت عنهم، تالله إن المعذب منهم لا يَفْتر ولا يَهدا.

قد غُلّت الأيدي والأقدام، وللعقاب [٣] عليهم ازدحام، فلو رأيتَ الوجه الذي كان يحكي بدْر التمام قبيحًا مُسْودًّا.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾:

فإنه يملك الشفاعة. والعهد هاهنا الإيمان والتوحيد.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إن الرجل من أمتي ليشفع للفئام [٤] من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته وإن الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته » [٥].

---

(١) الزمن: المرض.

(٢) ش: عار عن عارض الرياض عارض.

(٣) أ: وللعقارب.

(٤) الفئام: الجماعات.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القيامة، باب رقم : ١٢. وأحمد في مسنده : ٢٠/٣.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ ﴾:

يعني اليهود والنصارى ومن زعم من المشركين عليهم اللعنة أن الملائكة بناتُ اللَّه ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ ﴾ أي شيئًا عظيمًا من الكفر.

قال أبو عبيدة: الإدُّ والنُّكر والإمْر: الشيء المتناهي في العِظَم.

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ... ۝٩٠ ﴾ أي: تنشق ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ ﴾ سُقوطًا ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ ﴾ لهذا الفعل، ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ ﴾ أي ما يصلح ولا يليق؛ لأن الولد يقتضي مجانسة، والحق ﷻ مُنزَّه عن المجانسة والمُماثلة، فمحال اتِّخاذُ الولد ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ۝٩٣ ﴾ أيْ ما كلهم ﴿ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ ﴾ ذليلًا خاضعًا ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ... ۝٩٤ ﴾ أي علم عددهم، ولا يخفى عليه مبْلغ جميعهم [١] مع كَثْرتهم ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥ ﴾ بلا مالٍ ولا ناصر.

قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ ﴾:

قال ابن عباس: يحبهم ويحبونه. وقال قتادة: يجعل لهم ودًّا في قلوب المؤمنين. وقال هرم بن حيَّان: ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى اللَّه ﷻ إلا أقبل اللَّه ﷻ بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا أحبَّ اللَّهُ عبدًا قال: يا جبريل: إني أحبُّ فلانًا فأحبوه. فينادي جبريلُ في السموات: إن اللَّه يحب فلانًا فأحبوه. فيُلقى حبُّه على أهل الأرض فيُحبُّ. وإذا أبغض عبدًا قال: يا جبريل، إني أُبغض فلانًا فأبغضوه. فينادي جبريل في السموات: إن اللَّه تعالى يُبغض فلانًا فأبغضوه. فيوضع له البُغضُ في الأرض فيبغض » [٢].

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ... ۝٩٧ ﴾ يعني القرآن. وقال ابن قتيبة: أي سهَّلناه وأنزلناه بلغتك. واللُّد: جمع ألدّ وهو الخصم الجدِل.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ... ۝٩٨ ﴾ هذا تخويف لكفار مكة ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨ ﴾ قال الزجاج: الركز الصوت الخفي. وقال ابن قتيبة: الصوت الذي لا يفهم.

---

(١) أ: جمعهم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رقم : ٤١، وكتاب بدء الخلق، باب رقم : ٦.

سجع على قوله تعالى: ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾:

أين من كان يَثِب في أغراضه جَمْزًا (١)، ويُطاعن الأعادي فيقتلهم وَخْزًا، ويُصبح ويُمسي بكثرة الجنود مُعتزًّا، وتهتزُّ مواكبه كلما ركب هزًّا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

أين الذين كانت أمور الدنيا إليهم تُعزى، غرَّهم عزُّهم وكأنْ قد أقبلت حوادث الآفات تؤزُّهم أزًّا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

أين من ساد الخلائق مُلكًا وعزًّا، أين من كان الولد يُهنَّأ به صار يعزَّى، غمزهم التلف في بحار الأسف غمزًا، وكم كان ينذرهم وحيًا ورمزًا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

كم لبسوا من حرير وكم مزَّقوا قزًّا، واستخشنوا من مرعزيٍّ (٢) فاكْتَسوا حُلل البلى وما كانوا يرضون خزا، صار التراب في أكفانهم لو رأيت حِرْزًا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

كم أكلوا دجاجًا وكم تناولوا وزًّا (٣)، واستسمنوها وما التفتوا قط إلى المعزى، تالله لقد لزُّوا (٤) في بطون اللحود لزًّا، ووجدوا ما ذاقوا من الشهوات مُزًّا أو مَزًّا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

كم هَتَك البلاء لهم حِرْزا، ووكزهم ببأسه فقلقلهم وكزا، فبئس الغُصن الذي كان مُهتزًّا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

حَصَدَهم التلفُ بمنْجل الهلاك جزًّا، وقطعهم بعد أن أقطعهم وجَزا، وحزّ في قلوبهم على التفريط ندمهم حزًّا، وبزَّهم بزَّهم فاستُلب البزُّبزّا (٥) ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

كم أمَّلوا وطمعوا وحصَّلوا من الدنيا وما قنعوا، كم حُدِّثوا وما سمعوا، ما نفعهم والله ما جمعوا كنزًا.

شغلتهم تلك السَّكرة فتزخرفت حضرة الحسرة، فنوولوا الكأس المُرَّة، كان آخر القدرة عجزًا.

---

(١) الجمز: الجري.

(٢) قال في القاموس: المرعزي الزغب الذي تحت شعر المعز وثوب ممرعز. والمراد: نعومة الثياب.

(٣) الوز بفتح الواو هو الأوز الطائر المعروف. (٤) لزوا: شدوا وألصقوا.

(٥) بزهم: سلبهم. وبزهم الثانية ثيابهم الحسنة. والبز: أخذ الشيء بجفاء وقهر.

ما منعتهم حصونهم، ولا ردَّ عنهم مدفونهم ولا أنهارهم ولا عيونهم، بلْ جرت والله عيونهم وَبْلا لا نزّا! [١].

فيا غافلًا عن الثواب والعقاب، ناسيًا مُرَّ ألم العتاب والعذاب، أما تعتبر بالأتراب؟ كم تصاب بمصاب بعد مُصاب، كم إلى كم تُرزا [٢].

أما عذاب النار شديد؟ أما مقامعها من حديد ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [٣] أتؤمن ويحك بالوعيد، أم ترى تتهزَّا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

والله تعالى أعلم.

* * *

* *

*

(١) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر. والنز: الخفيف.

(٢) ترزا: ترزأ أي تصاب بالرزايا.

(٣) سورة البروج: ١٢، ١٣.

المجلس الحادي والعشرون

في الورع

الحمد للَّه الذي لا مانع لما وهب، ولا واهب لما سَلب، طاعته أفضل مُكتسَب، وتقواه للمُتَّقِي أعلى نسب، والمعاصي من خَوْفه تُجْتنب، وهو الموجود لكشف الكرب، هيَّأ قلوب أحبابه للإيمان وكتب، فتقربوا إليه بالتقوى والورع والأدب، وحَلَالهم في طاعته النَّصَب [١]، ولم يجدوا لحبِّه مَسَّ التعب، وقاموا بأعباء التكليف على أكمل أدب، وقدّر الشقاء للأشقياء فغلَب، وأعرض عنهم فوقع كلٌّ منهم [٢] في العطب، لا يعرفون المسبِّب فهم أبدًا مع السَّبب، ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ ﴾ [٣].

أَحمدُه إذ وهب خيرًا من الذهب، وأُشهدُ بوحدانيته شهادة تقضي ما وجب، وأن محمدًا عبده ورسوله اختاره وانتخب، صلى اللَّه عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق العالي النَّسب، كان ليلة الغار بين يديه خوف الرَّصد، وخَلْفه خوف الطلب، وعلى عُمر الفاروق الذي لم يَعلق منه الشيطان بسبب، كان يَفْرق من حسِّه فيطلب لنفسه طريق الهرب، وعلى عثمان ذي النورين الزَّكيّ العِرض التّقي الحسب، الصابر في الشهادة على لقاء العطَب، وعلى علي ابن أبي طالب الوافي وحده لجميع أبطال العرب، الراغب في الأخرى فما له في الدنيا من أرَب، وعلى عمِّه العباس أقرب الخلق في النسب، ثم اكتسب بالدين شرفًا فنعم المكتسب.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن زكريا، قال: حدَّثنا عامر، قال: سمعت النعمان ابن بشير يخطب يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّن وبينهما مُشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرْضه، ومَنْ واقَعها واقَع الحرام كالراعي يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكلِّ مَلِك حِمَى، ألا وإن حِمَى اللَّه تعالى ما حرّم » [٤] (أخرجاه في الصحيحين).

اعلم أن الورع تجنب الشبهات، وإنما يصدر عن قلب عارف خائف.

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه مرَّ بتمرةٍ في الطريق، فقال: « لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها » [٥].

---

(١) النصب: التعب. (٢) ش: فوقعوا في العطب. (٣) سورة الحج: ١١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب رقم : ٣٩. وصحيح مسلم، كتاب المُساقاة، حديث رقم : ١٠٧.

(٥) صحيح البخاري، كتاب اللقطة، باب رقم : ٦. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ١٦٤، ١٦٥.

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال له: « كُن وَرِعًا تَكُن أعْبَد الناس » (١).

وفيما أوحى اللَّه ﷻ إلى موسى ﷺ: يا موسى إنه ليس من عبد يلقاني يوم القيامة إلا ناقشته الحساب وفتَّشته عمَّا كان في يديه، إلا الورِعين فإني أستحييهم وأجِلُّهم وأكرمُهم وأدخلهم الجنة بغير حساب.

وأوحى اللَّه ﷻ إلى داود ﷺ في الزبور: قل لبني إسرائيل إني لا أنظر إلى صلاتكم وصيامكم، ولكني أنظر إلى من شكَّ في شيء وتركه لأجلي، ذلك الذي أُؤيِّده بنصري وأُبَاهِي به الملائكة.

وقال عيسى ابن مريم ﷺ: لو صمتم حتى تصيروا مثل الحنايا (٢)، وصلَّيتم حتى تكونوا مثل الأوتار، وجرى من أعينكم مثل الأنهار من الدموع ما أدركتم ما عند اللَّه تعالى إلا بوَرَع صادق.

وقال معاوية بن قُرَّة: دخلت على الحسن فقلتُ: أيُّ الأعمال أحب إلى اللَّه ﷻ؟ قال: الصلاة في جوف الليل والناس نيام. قلتُ: فأي الصوم أفضل؟ قال: في يوم صائف. قلتُ: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أنْفَسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا. قلتُ: فما تقول في الورع؟ قال: ذلك رأس الأمر كلِّه.

وقال الضحَّاك: أدركت الناس وهم يتعلَّمون الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام.

وجاء رجل إلى العُمري: فقال: عِظْني، فأخذ حصاة من الأرض فقال: زِنَة هذه من الورع يدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض.

وقال النَّضر بن محمد: نُبْل الرجل على قَدْرِ ورعه.

وقال ضمرة بن حبيب: لا تعجبنكم كثرة صلاة امرئ ولا صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه.

وقال ابن المبارك: لأن أردَّ درهمًا من شبهة أحب إليّ من أن أتصدَّق بمائة ألف درهم ومائة ألف درهم ومائة ألف درهم حتى بلغ ستمائة ألف.

واعلم أن الورع في جميع الجوارح. فأما الورع في السمع: فأخبرنا المبارك بن علي بسنده عن النضر بن يزيد، عن محمد بن فضيل، عن عبيد اللَّه الأحلافيّ (٣)، قال: كان القاضي إذا مات في بني إسرائيل جُعل في الرَّجِّ (٤) أربعين سنة، فإن تغيَّر منه شيء علموا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٣١/٢. والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب رقم : ٢.

(٢) الحنايا: القِسيّ واحدتها حنيَّة.

(٣) الأحلافي: نسبة إلى الأحلاف وهي أحلاف عدة، راجع اللباب لابن الأثير : ٣١/١. بتحقيقي.

(٤) الرج: الحبس.

أنه قد جار في حكمه، فمات بعض قُضاتهم فُجعل في الرَّج [١] فبينما القيِّم يقُمّ [٢] إذ أصابت المكنسة طرف أذنه، فانفجرت صديدًا، فشق ذلك على بني إسرائيل، فأوحى اللَّه ﷻ إلى نبيٍّ من أنبيائهم: أنَّ عبدي هذا لم يكن به بأس، ولكنه استمع يومًا بإحدى أذنيه من الخصم أكثر مما استمع من الآخر فمن ثمَّ فعلت به هذا.

وقال محمد بن المنكدر: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كانوا ينزِّهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللَّهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياض المسك [٣]. ثم يقول للملائكة: أسمعوهم [٤] تحميدي وتمجيدي.

وأما الورع في النَّظر: فقال داود الطائي: كانوا يَكْرهون فضول النظر.

وقيل لحسان بن أبي سِنان وقد رجع من صلاة العيد: ما رأينا أكثر نساءً منه. فقال: ما تلقتني امرأة حتى رجعْت!.

وقال يحيى بن يمان: كنت مع سفيان الثوري فرأى دارًا ابْتُنَى فرفعْت رأسي أنظر إليها. فقال لي: لا تنظر إليها، إنما بُنيت لكي لا ينظر إليها مثلك.

وأما الورع في الشم: فأخبرنا ابن نصار بسنده عن إسماعيل بن محمد بن سعد ابن أبي وقاص قال: قدم على عمر ﷺ مسكٌ وعنبرٌ من البحرين، فقال عمر: واللَّه لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تَزِن لي هذا الطِّيب حتى أقسمه بين المسلمين. فقالت له عاتكة بنت زيد: أنا جيدةُ الوزن فهلُمَّ أزن لك. قال: لا. قالتْ: لِمَ؟ قال: إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا، وأدخل أصابعه في صُدغَيه، وتمسحين به عنقك فأصيب به فضلًا [٥] على المسلمين.

وروى [٦] نعيم بن أبي هند أن عمر بن الخطاب كان يدفع إلى امرأته طِيبًا للمسلمين فتبيعه فتزنُ وتُرْجح وينقُص فَتَكْسر بأسنانها، فعلِق بإصبعها منه شيء فمسحت به خمارها، فجاء عمر فقال: ما هذه الريح؟ فأخبرته فقال: تطَيَّبين بطيب المسلمين؟ وانتزع خمارها من رأسها وأخذ جَرًّا من ماء فصبَّه على خمارها وجعل يقول بخمارها في التراب، ثم يشمه، ثم يصبُّ عليه الماء ثم يقول به في التراب حتى ظنَّ أن ريحه قد ذهب [٧]. قال: ثم جاءته العطَّارة مرة أخرى فباعها فوزنت بها، فعلِق بإصبعها منه شيء فقالت بإصبعها في فيها ثم قالت: بإصبعها في التراب، فقالت: العطَّارة: ما هكذا صنعت أول مرَّة. فقالت: أمَا علمت ما لقيت منه كذا ولقيت منه كذا.

---

(١) الرج: الحبس. (٢) يقم: يكنس.
(٣) أ: اسكنوا رياض الجنة المسك. (٤) أ: اسمعوا. (٥) ش: فأصيب فضلًا.
(٦) أ: وأخبرنا. (٧) أ: ذهبت.

وقُدم على عمر بن عبد العزيز بمسكٍ من الغنائم فأخذ بأنفه وقال: إنما ينتفع من هذا بريحه فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

وأما الورع في اللسان: فقد رُوِّينا أن عمر دخل على أبي بكر وهو يمدُّ لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد [١]، إن رسول اللَّه ﷺ قال: « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى اللَّه تعالى اللسان على حِدَّته » وقال يونس بن عبيد: إنك لتعرف ورع الرجل في كلامه.

وقال الفضل: أشد الورع في اللسان. قال: وقد كان بعض أصحابنا يحفظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

وقال الحسن بن حي: إني لأعرف رجلًا يعدُّ كلامه.

وقال عمر بن عبد العزيز: إني وجدت مُتَّقي اللَّه مُلْجَمًا.

وأما الورع في المطعَم: فقد روى البخاري في أفراده من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يُخْرج الخَراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه، جاءه يومًا بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهَّنت لإنسان في الجاهلية وما أُحْسِن الكهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك، وهذا الذي أكلت منه! فأدخل أبو بكر رضي الله عنه يده فقاءَ كلَّ شيء في بطنه.

وكان ابن سيرين إذا دُعي إلى وليمة يدخل منزله فيشرب شَرْبة سَوِيق ويقول: أكره أن أجعل حدَّ جوعي على طعام الناس!.

وكان للفضَيل شاة فأكلت شيئًا من علفٍ لبعض الأمراء، فلم يُشرِب ابنه من لبنها بعد ذلك.

وقال بِشْر الحافي: إني لأشتهي الشِّواء منذ أربعين سنة ما صفا لي درهمه [٢]!.

أخبرنا أبو منصور الفراء بسنده عن أبي بكر الأحنف يقول: سمعت عبد اللَّه بن أحمد ابن حنبل يقول: جاءت مُخة [٣] أخت بشر بن الحارث إلى أبي فقالت: إني امرأةٌ رأس مالي دانِقان [٤] أشتري القطن فأرْدِنه [٥] فأبيعه بنصف درهم فأتقوَّت بدانَق من الجمعة إلى الجمعة، فمرَّ أبو طاهر الطائف ومعه مِشْعل فوقف يكلم أصحاب المسالح [٦] فاغتَنمت ضوء المشعل فغزلْت طاقات ثم غاب عنِّي المشعل، فعلمت أن للَّه في ذلك

---

(١) إلى هنا أورده المنذري في الترغيب والترهيب : ٣١٧/٣، وقال: رواه مالك وابن أبي الدنيا والبيهقي.

(٢) سبق للمؤلف إيراد هذا الخبر في : ص ٨٧٥ من هذا الجزء.

(٣) كذا بالأصل ولم أجد لها ترجمة. (٤) الدانق: سدس الدرهم. (٥) أردنه: أغزله.

(٦) المسالح: جمع مسلحة، وهم القوم ذوو السِّلاح. وفي حلية الأولياء: وربما يمرُّ بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد.

مطالبة [١]، فخلِّصني خلَّصك اللَّه تعالى. فقال: تخرجين الدانقين ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوِّضك اللَّه خيرًا منه. قال عبد اللَّه: فقلت له: يا أبت لو قلت لها لو أخرجت المِغْزل الذي أدرجت فيه الطاقات؟ فقال: يا بني: سؤالها لا يحتمل التأويل، ثم قال: من هذه: فقلت: مخة أخت بشر بن الحارث فقال: من هاهنا أُتيت [٢].

وأما الورع في البطش: فقال خالد بن معدان: إيَّاكم والخُطُوات فإن الرجل قد تنافق يده من سائر جسده.

وأما الورع في البيع والشراء: فكان زادان يبيع الثياب، فيعرض شرَّ الطرفين.

وأقام محمد بن واسع حمارًا يبيعه فقال له رجل: أترضاه لي فقال: لو رضيته لم أبعه.

وقال هشام بن حسان: ترك ابن سيرين أربعين ألفًا فيما لا ترون به اليوم بأسًا.

ورُوِّينا أن امرأة أتاها نعي زوجها وهي تَعْجن، فرفعت يدها من العجين وقالت: هذا طعام قد صار لنا فيه شركاء. وأن أخرى جاءها نعي زوجها والسراج يَقِد فأطفأت السراج وقالت: هذا زيت [٣] وقد صار لنا فيه شركاء.

إخواني: بينكم وبين القوم كما بين اليقظة والنوم؛ رحل أهل الورع وبقى أهل الطمع، أين مَن كان زَيْن المكان؟ خلت الديار من السُّكان.

* * *

الكلام على البسملة

خليليَّ إن طال الوقوف عليكما ... فحثًّا المطايا واتركاني بها وحدي

ألا إنـهـا الآثـار مـمـن أحـبـه ... ومثل حبيب النفس آثاره عندي

أخبرنا أحمد بن الحسين الفقيه بسنده عن يزيد بن هارون عن المسعودي عن عَون ابن [٤] عبد اللَّه قال: كان أخوان في بني إسرائيل فقال أحدهما لصاحبه: ما أخْوَف عمل عملته؟ قال: ما عملت عملًا أخوف عندي من أني مررت بين فراخَيْ سنبل فأخذت من أحدهما سنبلة، ثم ندمت فأردت أن أردها إلى الفرخ الذي أخذتها منه فلم أدر أيَّ الفراخين هو، فطرحتها في أحدهما وأخاف أن أكون طرحتها في غير الذي

---

(١) الأصل: فعلمت اللَّه في مطالبة. ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٢) ذكر أبو نعيم في حلية الأولياء: ٣٥٣/٨. قصة هذا السؤال والجواب ولم يذكر اسم أخت بشر. وفيه أن أحمد بن حنبل قال: آه يا آل بشر لا عدمتكم لا أزال أسمع الورع الصافي من قِبَلكم.

(٣) ش: هذا الزيت قد صار.

(٤) أ: عن عبد اللَّه. وهو تحريف.

أخذتها منه. فما أخوف عملٍ عملته أنت؟ فقال: إن أخوفه عندي أني إذا قمت في الصلاة أخاف أن أكون أحملَ على إحدى رجليَّ فوق ما أحمل على الأخرى!

وأبوهما يسمع، فقال: اللَّهم إن كانا صادقين فاقبضهما قبل أن يُفتتنا. فماتا.

وقال كعب: اجتمع ثلاثة من عُبَّاد بني إسرائيل فقالوا: تعالوا يذكر كلُّ إنسان منا أعظمَ ذنب عمله. فقال أحدهم: أمَّا أنا فلا أذكر من ذنب أعظم من أني كنت مع صاحب لي فعرضت لنا [(1)] صخرة فخرجت إليه ففزع مني فقال: اللَّه بيني وبينك!.

وقال الآخر: «إنا إذا أصاب أحدَنا بولٌ قطعه، فقطعته ولم أبالغ في قطعه». وقال الآخر: كانت لي والدة فدعتني فأجبتها فلم تسمع فجاءتني مُغضبة فجعلت ترميني بالحجارة، وأخذتُ عصا وجئت لأقعد بين يديها لتضربني، ففزعت فأصابت وجهها شجرةٌ فشجَّتها.

وبينا عمر بن الخطاب ﷺ يمشي في السوق إذا صبيّة يطرحها الريح من ضعفها فقال: من يعرف هذه؟ فقال له ابنه: هذه إحدى بناتك. قال أيُّ بناتي؟ قال: بنت عبد اللَّه ابن عمر. قال: فما بلغ بها ما أرى؟ قال: إمساكك ما عندك. فقال: إمساكي ما عندي يمنعك أن تطلب لبناتك ما يطلب الأقوام؟! أمَا واللَّه ما لك عندي إلا سهمك مع المسلمين وسَعِك أو عَجَز عنك، بيني وبينك كتاب اللَّه ﷻ!.

وروى ابن المبارك قال: كتب غلام لحسان بن أبي سِنان إليه من الأهواز: أنَّ قصب السكَّر أصابته آفة فاشترِ السكَّر. فاشترى من رجل فلم يأتِ عليه إلا قليل، فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفًا، قال: فأتى صاحب السكر فقال: يا هذا إن غلامي كان يكتب إليَّ ولم أعلمك، فأقِلْني فيما اشتريت. فقال: قد أعلمتني الآن وطيَّبته لك. قال: فرجع فلم يحتمل قلبه، فأتاه فقال: يا هذا إني لم آتِ هذا الأمر مِنْ قِبَل وجهه، فأحبُّ أن تستردَّ هذا البيع. فما زال به حتى ردَّ عليه.

وقال كهمس [(2)]: أذنبت ذنبًا فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة!

وقال: زارني أخٌ لي فاشتريت له سمكًا، فلما أكل قمت إلى حائط لجار لي من لَبِن فأخذت منه قطعة فغسل بها يده فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة.

وسقط في يد كَهمس دينار فغربلوا التراب فوجدوا دينارًا، فأبى أن يأخذه وقال: لعله ليس ديناري.

---

(١) أ: لي.

(٢) الكهمس في الأصل: الأسد، والقبيح الوجه. والمراد هنا: كهمس بن الحسن التميمي من تابعي التابعين.

وأتى رجل إلى أبي جميل فقال: احمل هذا الكتاب معك. فقال: حتى أستأذن الجمَّال!.

وقال الحسن: ما ضربت ببصري ولا نطقت بلساني ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدمي حتى أنظر، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت.

وقيل لابن سيرين: ما منعك أن تقبل من ابن هُبيْرة؟ قال: إنما أعطاني على خير يظنه فيَّ، فإن كنت كما يظن فما ينبغي لي أن أقبل، وإن لم أكن فأولى أن لا يجوز أن أقبل.

قسم عمر بن عبد العزيز ﷺ تفاحًا بين الناس، فجاء ابن له فأخذ تفاحة فوثب إليه ففكَّ يده ثم أخذها منه فطرحها في التفاح. فذهب الصبي إلى أمه يبكي، فقالت: ما لك؟ فأخبرها فاشترت له تفاحًا.

واشتهى عمر [1] عسلًا فبعثت زوجته رجلًا على دابة من دواب البريد، فأتى بعسل فشرب منه ثم قال: من أين لكم هذا؟ فقالت: وجَّهنا رجلًا على دابة من دواب البريد إلى بعلبك فاشترى لنا. فأرسل إلى الرجل فأتاه، فقال: انطلق بهذا العسل فبعه واردْدْ علينا رأس مالنا وانظر الفضل فاجعله في علف دواب البريد، ولو كان ينفع المسلمين قيْء لتَقيَّأت.

أخبرنا المبارك بن علي بسنده عن عبد اللَّه بن المبارك عن بكار بن عبد اللَّه، عن وهب ابن منبه قال: كان جبار في بني إسرائيل يقتل الناس على أكل لحوم الخنازير، فلم يزل الأمر يتراقى حتى بلغ عابدًا من عُبَّادهم، فقال له صاحب الشرطة: إني أذبح لك جَدْيًا فإذا دعاك الجبَّار فَكُلْ، فلما دعاه ليأكل أبى، فقال: اقتلوه. فقال له صاحب الشرطة: ما منعك أن تأكل وقد أخبرتك أنه جَدي؟ فقال: إني رجلٌ منظورٌ إليَّ وإني كرهت أن يُتأسَّى بي في معاصي اللَّه ﷻ فقتله.

قال القرشي: وحدَّثني عبد الرحيم بن يحيى قال: حدثنا عثمان بن عمارة عن شيخ قال: خرجت من البصرة أريد عَسقلان، فصحبتُ قومًا حتى وردنا بيت المقدس، فلما أردت فراقهم قالوا: لولا أن الغالب عليك حبُّ الدنيا لضممناك إلينا، ولكنا نوصيك بتقوى اللَّه ولزوم درجة الورع، فإن الورع يبلغ بك إلى الزهد في الدنيا، وإن الزهد يبلغ بك حبَّ اللَّه ﷻ. قلت لهم: فما الورع؟ فبكوا ثم قالوا: يا هذا، الورع: محاسبة النفس مع كل طرفة وكلِّ صباح ومساء، ومن دخل في درجة الورع احتمل المشقة وتجرَّع الغيظ فأعقبه اللَّه تعالى ورَعًا وصبرًا.

* * *

---

(١) يظهر أنه عمر بن عبد العزيز لا عمر بن الخطاب بدليل أن العسل جاء من بعلبك في الشام.

سبحان من أعطاهم ومنَّ عليهم ووالاهم، أعرضوا عن دنياهم ورفضوا هواهم، فبلغوا مِن سيدهم مُناهم، استقاد قلوبَهم بزمام اللُّطف، ثم حثَّها سائق العُنف، فكلما ألاح لهم الرجاء نور القبول، طبّق ظلام الخوف سماء الحذر.

إذا توانى المفرِّط حقَّقوا، وإذا أمِن المضيِّع أشفقوا، شغلهم ذكره عن الأذكار، وألهاهم حبّه عن الجنة والنار:

والمرء [1] إن كان عاقلًا وَرِعًا ... أعماه عن عيوبهم ورَعُهْ
كما المريض السقيم يَشغلُه ... عن وجع الناس كلِّهم وجعُه

كان عبدُ اللَّه بن أبي زكريا إذا خاض جلساؤه في غير ذكر اللَّه تعالى فكأنه ساهٍ، وإذا خاضوا في ذكر اللَّه تعالى كان أحسن الناس استماعًا.

إخواني: جُوزوا على قبور الأولياء واستمعوا ما جُوزوا به من الثناء.

يا مشغولًا عن طريقهم بالمال الذي جمع، يا من ناطَقَته العِبَر وحادَثْته الفِكَر وما انتفع، يا زارع التفريط سيحصد الزارع ما زرع، يا طويل الأمل رفيقك ماذا صنع، اغتنم حياتك فإن الحياة كبرقٍ لَمع:

إنما الدنيا متاعٌ زائل ... فاقتصد فيه وخُذْ منه وَدَعْ
شهد الجامع أن لو قد أتى ... يومُه لم يُغْنِ عنه ما جمع
أيها الآمن في دار الأذى ... أيُّ يوم مرَّ فيه لم تُرَع؟!
عجبًا من مطمئنٍّ آمن ... إنما يُغْذى بألوان [2] الفزع
أسفًا للخلق ما أغْفلهم ... عن وقوع الموت عمَّا سيقع
ولقومٍ لو توهَّمتهم ... قلت فَيءٌ زال أو برقٌ لمعْ
وكذاك الدهر في تصريفه ... طال ما أودى وأرْدَى ووجَعْ
يا أخا الميْت الذي شيَّعه ... فحثى التُّرب عليه ورجع
ليت شعري ما تزودت له ... فادخر زادًا لهوْلِ المطّلَع
يومَ يهديك محبُّوك إلى ... ظُلمة القبر وضِيق المُضطجع!

* * *

(١) أ: والقلب.

(٢) ش: بأنواع.

الكلام على قوله تعالى:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ [١]

الطيبات: الحلال. أخبرنا ابن عبد الواحد بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أيها الناس إن الله ﷻ طيّب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله ﷻ أمر المؤمنين بما أمر به المرسَلين فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا... ﴿٥١﴾ ﴾ وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدُّ [٣] يده إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك » [٤].

كان الأنبياء والصالحون يجتهدون في كسب الحلال، فكان آدم حرَّاثًا وإدريس خيَّاطًا ونوح وزكريا نـجَّارَين، وداود زرَّادًا وإبراهيم ونوح زَرَّاعَين وصالح تاجرًا وموسى وشعيب ومحمد رُعاة، وكان عيسى عليه وعليهم السلام يأكل من غَزْل أمه. وكان يحيى بن زكريا لا يأكل شيئًا مما في أيدي الناس مخافة أن يدخله ظلم، إنما كان يأكل من نبات الأرض ويلبس من مُسُوك [٥] الطِّير، فلما حضرتْه الوفاة قال الله ﷻ لملك الموت: اذهب إلى تلك الروح التي في ذلك الجسد الذي لم يعمل خطيئة ولم يهمَّ بها فاقبضه.

وفي أفراد البخاري من حديث المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ أنه قال: « ما أكل أحدٌ منكم طعامًا في الدنيا خيرًا له من أن يأكل من عمل يديه » [٦].

وفي الصحيحين من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ أتاه رَعلٌ وذكوان وعُصيَّة وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا واستمدّوه على قومهم، فأمدهم نبي الله ﷺ يومئذ بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم في زمانهم القرَّاء كانوا يحتطبون بالنهار ويصلُّون بالليل، فانطلقوا بهم حتى إذا أتوا بئر معونة غدروا بهم فقتلوهم، فقنَت رسول الله ﷺ شهرًا في صلاة الصبح يدعو على هذه الأحياء [٧]. قال قتادة: وحدَّثنا أنس أنهم قرأوا فيهم قرآنًا: بلغوا عنا قومنا: أنْ قد لقينا ربَّنا فرضي عنَّا وأرضانا ثم رُفع ذلك بعد.

وقد ذكرنا أن أبا بكر الصديق ﷺ قاء من طعام فيه شبهة. وكان عليّ ﷺ يختم على

---

(١) سورة المؤمنون: ٥١. (٢) سورة البقرة: ١٧٢. (٣) أ: ثم يمد.

(٤) أ: له ذلك. والحديث أخرجه أحمد في مسنده: ٣٢٨/٢. ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، حديث رقم: ٦٥.

(٥) المسوك: الجلود. والمراد: الريش. (٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب رقم: ١٥.

(٧) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب رقم: ٢٨. وصحيح مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم: ٢٩٩.

طعامه مخافة أن يختلط به غيره ويقول: لا أختم عليه بخلًا ولكني أكره أن أُدخِل بطني إلا طيِّبًا.

وقال بشر الحافي: كان عشرة ينظرون في الحلال النظر الشديد: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وسليمان الخوَّاص، وفضيل وعلي بن الفضيل [١] ووهيب وأبو معاوية ويوسف بن أسباط، وداود الطائي والعُمري.

أخبرنا شمر بن ظفر بسنده عن شعيب بن حرب قال: خرجت مع سفيان الثوري من الكوفة نريد زيارة إبراهيم بن أدهم بالمصِّيصة فدخلناها ولم نطعم قبل ذلك ثلاثة أيام، فسألنا عن إبراهيم فدلُّونا عليه وهو نائم في الشمس وسط جامع المصِّيصة رأسه في زُرمانِقة [٢]. فجئت إليه فحركته وقلت له: صديقك سفيان الثوري. فوثب إليه وعانقه وجلسا يتحدَّثان يتذاكران، فقال سفيان: يا أبا إسحق أيُّ شيء نعمل؟ فقال: نخرج إلى الحصاد، فخرجنا فأكرّينا أنفسنا بدرهمين وحصدْنا، فلما فرغنا فرح بنا صاحب الزرع وقال: تعالوا كلَّ يوم. قال شعيب: فقال لي سفيان: امضِ واشتر لنا ما يصلح. وقعدوا في مسجد فاشتريت لهم طعامًا وجئت به فوضعته بين أيديهم، فقال سفيان لإبراهيم: كُلْ. فقال إبراهيم لسفيان: أنت أكبر وأعلم كُلْ أنت. فما زالا يتماريان حتى قال سفيان لإبراهيم: دعني من هذا، أتضمن لي أنا نصحناه في العمل وأن هذا الطعام لا يشوبه شيء حتى آكل؟ فقال: لا. فقال سفيان: فليس لي إليه حاجة. قال إبراهيم: ولا لي رغبة فيما زهدت فيه. فانصرفا وتركا الطعام بحاله.

وقال إبراهيم: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يُدخله جوفه! وقال أصحاب سليمان الخواص له: ألا تغزو معنا؟ فقال: إني لفي جمع ثلاثة دراهم مِنْ حِلِّها منذ كذا وكذا فما أقدر على ذلك. فقالوا له: لو كان المسلمون هكذا ما غزا الرومَ أحد. فقال: لو كان المسلمون هكذا لكبروا تكبيرة واحدة ينهدم لها سور القسطنطينية!.

وقال الفضيل: لم يتقرب العباد إلى الله ﷻ بشيء أفضل من طلب الحلال. وقال الحسن بن حُيَيّ: طلب الحلال أشد من لقاء الزحف. وقال بشر: ما دخل الحلال بطنَ أحد قط إلا أصبته محزونًا.

وسجن ذو النون المصري رحمه الله فبعثت إليه امرأة من المتعبدات طعامًا وقالت: هذا من مِغزلي. فلم يأكل، فسألته عن سبب امتناعه فقال: الطعام حلال إلا أنه جاءني في ظرف حرام، وهو في يد السَّجَّان والسَّجَّان ظالم فلم آكل.

---

(١) ش: بن فضيل.

(٢) الزرمانقة: جبة من صوف. فارسي معرب.

وورث يزيد بن زريع عن أبيه خمسمائة ألف فتنزَّه عنها وكان أبوه واليًا.

وقال حمدان بن سهل: مات أبو علي البَجْواري [١]. فخرجنا مع ولده، فلما رجعنا من دفن أبيه نزع ثيابه ودخل في نهر وقال: اشهدوا أني لا أملك اليوم شيئًا مما ورثت عن أبي؛ لأنه يتخالج في صدري، فإن واسيتموني بقميص حتى أخرج من الماء فعلت. فألقوا إليه قميصًا فخرج من الماء وكان أبوه ترك ما لا يحصَى.

وكان يونس بن عبيد يقول: لو أعلم موضع درهم حلال من تجارة لاشتريت به دقيقًا ثم عجنته ثم خبزته ثم دققته أداوي به المرض.

وقال بكر بن عبد اللَّه: لو وضع الحلال على جُرح لَبَرِئ.

وقال شعيب بن حرب: البِرُّ عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال.

وخرج قوم إلى شعيب بن حرب بالمدائن وكان قد بنى كوخًا على شاطئ دجلة فكانوا يستقون الماء هنالك، وكان شعيب يقول للذي يستقي الماء: لو رآك سفيان لقرَّت عينه.

وقال الحسن: مَطعمان طيِّبان: رجل يعمل بيده ورجل يحمل على ظهره.

وكان الإمام أحمد ﷺ إذا ذكر أخلاق الورعين يقول: أسأل اللَّه تعالى أن لا يمقتنا أين نحن من هؤلاء؟!

ما دُمتَ في صحة بالأمن تَلْبسها فارفِقْ بنفسٍ قليل الزاد يكفيها
فصحة الجسم لا حالٌ يعادلها وراحة القلب لا شيء يدانيها
كم من حريص على الدنيا لفقدهما في ساعة نَسِي الدنيا وما فيها

عباد اللَّه: إن القناعة كنز لا ينفد، وعزٌّ كلَّ يوم يتجدد، وإن وجه الحريص بالحرص أسود، أما يستحي الحريص إلى كم يتردد.

أين المغرور بالدنيا هلك، أين محبُّها أين سَلك، رحَلَ بالأوزار وما تركه ما ترك، كم قتل حبُّها حبيبًا وفَتَك، كم مستور بغفلة مالتْ به فانهتك، كم غرَّت من عبدٍ وخدعت مَنْ نَسَك، دَرْكها وقوعٌ في الدَّرَك، طريقها كلُّه حَسَك، وبعدُ فقد تجلَّى غرورها وانجلى الحلَك.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن الصباح بن محمد، عن مُرَّة الهمداني عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يكسب عبدٌ مالًا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه،

---

(١) نسبة إلى بجوار بمرو بأسفل البلد، وإنما سميت بذلك؛ لأن على رأس السكتة بجوارًا للماء أي مقسمًا للماء. اللباب: ١/١٣٦. بتحقيقي.

ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهر إلا كان زاده إلى النار، إن الله ﷻ لا يمحو السيئ بالسيئ وإنما يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » [١].

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾:

عباد الله: اطلبوا الحلال واحذروا الشبهات، واقنعوا باليسير فما يحتمل الصافي الشهوات، وليس الطيِّب ما طاب طعمه بل ما صفا من آفات، وبذلك أمر الأنبياء لا باتباع اللذات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

الدنيا دار تكليف لا منزل راحات، ادفعوا زمانكم فيها وزَجُّوا [٢] الأوقات، واحذروا لذيذ مطاعمها فعمومها مَسْمومات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

كانوا يقنعون من الدنيا بلقمات، ويتناولون بين الليل والنهار تمرات، غرسوا أشجار الصبر يرجون الثمرات، فما مضت إلا أيام وسَنْبَل النبات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

ما ضرَّهم ما مضى من الملمات، ولقد عاشوا بالذِّكر بعد الممات، وصَلُوا بعد الرحيل إلى الجنات، فتلقتهم براحات الراحات حُور في الخيام مقصورات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

كان أُوَيس يلتقط من المزابل خُرَيْقات، وربما أعد لإفطاره حُشيفات [٣]، فيأكلها ثم يَرِد الفرات، ما أطيبها إذا سلمت من الزلات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

ويحك إن اللذات سبب هلاك الذات، ويحك لا تحتقر الذَّرَّات إن لجند الحساب كَرَّات، ويحك إن الحِمْية لا تحتمل التخليطات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

كم تعزم على أفعال الطاعات ثم تتغير في سُوَيْعات لا في ساعات، كم لك إلى التوبة وثبات ولكن كلها بلا ثبات، تجمع عسكر العزم فإذا اجتمعوا وقع الشَّتات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

أين المجتهد في كَسْبه، أين الخائف من ربه، إن آكل الربا قد أُذِن بحربه، إلا أنه من أدخل الحرام بقلبه مات.

يا مغترًّا بالـمُهْلة، يا ناسيًا كُرَب النُّقلة [٤]، يا راقدًا في الغفلة، إلى كم سبات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٣٨٧/١.

(٢) زجوا: ادفعوا وسُوقوا.

(٣) الحشيفات: التمر الرديء.

(٤) أ: يا ناسيًا طول النقلة.

طول نهارك في كسب الحُطَام، وطول ليلك على الجهل تنام، وتريد أن تلحق الأبرار الكرام وأنت تأكل الحرام، هيهات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

لا مَطعمك يطيب ولا مَطمعك يُنيب، وقد فعلت من الخطايا كلَّ عجيب، لقد حيَّر مرضك كلَّ طبيب، يا مغترًّا من كل الجهات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

تأتي بقلب قد أظلم، فتحدَّث بالنصح ولا تفهم، وتقول دلُّوني على طريق ابن أدهم [١]، ألا إن العمى مانع والظلم ظلمات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

* * *
* *
*

---

(١) يريد إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد المشهور.

المجلس الثاني والعشرون

في ذكر القلب

الحمد للَّه الصادق المجيد، الواصل ومِنْ عِنْده المزيد، الفاعل في عبده ما يريد، يسبحه الحَبُّ والنَّضيد والأبُّ (١)، والحصيد والرِّمال في البيد، والدماء في الوريد، والقريب والبعيد والرقيب والعتيد.

اقتضت نعمه الخلق شكرًا فوجدت النفوسُ بالجهل سُكْرًا، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢)، أحمده على ما ينعم ويفيد، وأقرُّ بوحدانيته عن برهان لا عن تقليد، وأصلي على رسوله وعبده مُقدَّم الرسل والعبيد، وعلى صاحبه أبي بكر الثابت عن رويّة يوم الردَّة ثبات الحديد، وعلى عُمر القوي في دين اللَّه الشديد، وعلى عثمان التقي النقي الرشيد، وعلى عليٍّ مقدَّم الأهل (٣)، وبيت القصيد، وعلى عمِّه العباس ذي الرأي الحصيف السديد. قال اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

اعلم أن القلب إذا أُطلق أريد به الجسماني الذي في الصدر، وليس المراد به هذا هنا؛ لأن الحيوان البهيميّ يشارك الآدمي في ذلك، وإنما اللطيفة التي هي للآدميّ (٤) حقيقة، تارة تسمى بالقلب وتارة بالروح، وتارة بالنفس وتارة بالعقل. قال الزجاج: معنى الآية: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب صرفه إلى التفُّهم (٥) وقوله: أو ألقى السَّمع، أي استمع ولم يُشغل قلبه بغير ما استمع، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: وقلبه حاضر غير غائب.

واعلم أن القلب أميرٌ والجوارح خدَمه، وقد رُكِّب في الآدمي ما ركب في الـملَك من العلم والعمل بمقتضاه، ورُكِّب فيه ما رُكِّب في البهيم من الحرص والحسد والشَّره والشهوات. فالعلوم تحرِّكه إلى الأخلاق الرفيعة، والشيطان يدعوه إلى الأخلاق البهيمية، فإن مال إلى التقوى فرَّ الشيطانُ من ظله، وإنْ جاز بمدينته مرَّ اختلاسًا، فإذا تلمَّحه تعوَّذ منه، ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (٦) وإن مال إلى شهوات البهائم تمكَّن الشيطان من مدينته وحاصَره فيها وربما قبض عليه فقتله.

---

(١) الأب من العشب للحيوان كالفاكهة للإنسان.
(٢) سورة ق: ٣٧.
(٣) ش: مقدم الكل.
(٤) أ: الآدمي.
(٥) أ: لمن صرف قلبه إلى التفهم.
(٦) سورة الأعراف ٢٠١.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن زكرياء، قال: حدَّثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: « ألا إنَّ في الإنسان مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » (١). (أخرجاه في الصحيحين).

واعلم أنه لـمَّا اكتنف القلبَ صفات الخير وصفات الشر، كان كلما نَشَبتْ به صفة أثرت فيه وهذا معنى تقلُّب القلوب.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تُقلِّبها الرياح » (٢).

وفي أفراد البخاري من حديث ابن عمر قال: كانت يمين النبي ﷺ : « لا ومُقَلِّب القلوب » (٣).

وفي أفراد مُسلم من حديث عبد اللَّه بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن تبارك وتعالى كقلب واحد يصرِّفه كيف شاء ». ثم قال رسول اللَّه ﷺ: « اللَّهم مصرِّف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك » (٤).

أخبرنا أبو القاسم بن عبد الواحد بسنده عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يُكثر أن يقول: « يا مُثبِّت القلوب ثبِّت قلبي على دينك » قال: فقلنا : يا رسول اللَّه آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: « نعم إنّ القلوب بين إصبعين من أصابع اللَّه عز وجل يقلِّبها تبارك وتعالى » (٥).

قال أحمد: وحدَّثنا ابن أبي عدي، عن حُميد (٦)، عن أنس قال: « كان الرجل يأتي النبيَّ ﷺ فيُسلم لشيء يُعطاه في الدنيا، فلا يُمْسي حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه وأعزَّ عليه من الدنيا وما فيها » (٧).

أخبرنا عبد اللَّه بن علي المقرئ بسنده عن يحيى بن جابر، عن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « لقلب ابن آدم أسرع انقلابًا من القِدْر إذا استجمعت غليانًا » (٨).

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن ابن الأجلح عن أبيه عن مجاهد قال: طلبنا هذا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب رقم : ٣٩. وصحيح مسلم، باب أخذ الحلال وترك الشبهات : ٥/٥٠، ط إستامبول.

(٢) مسند أحمد : ٤١٩/٤. عن أبي موسى الأشعري بلفظ: « إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض يقيمها الريح ظهرًا لبطن ».

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأيمان، باب رقم : ٣.

(٤) مسند أحمد : ١٦٨/٢.

(٥) مسند أحمد : ١١٢/٣.

(٦) أ: قال حدثنا الحميدي.

(٧) مسند أحمد : ١٠٧/٣.

(٨) مسند أحمد: ٤/٦.

العلم وما لنا فيه كبير [١] نية، ثم رزق اللَّه تعالى النية بعد.

واعلم أن القلب يَمْرض من الخطايا كما يمرض البدن عن التخليط:

فالمتقون يستعملون الحِمْية بالتقوى قبل الوقوع في المرض، كما جاء [٢] في الحديث أن وفد عبد القيس [٣] دخلوا على النبي ﷺ وفيهم شابٌّ وضيء الوجه فأجلسه من وراء ظهره وقال: « وهل كانت فتنة أخي داود إلا من النظر » [٤].

ومنهم من تزلُّ قدمه في زَلَّة فينتبه لها فيرفع الخلل بالاستغفار. ومنهم من يتوانى في الإصلاح فيعظم فساد القلب فيَقْسو ويُظلم ويصدأ.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عمرو بن مُرَّة عن أبي عبيدة عن عبد اللَّه ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: « إنَّ اللَّه عز وجل ليشدِّد القلب حتى يكون أشدَّ من الحجارة وإنه ليُلِين القلب حتى يكون ألين من اللبن » [٥].

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن إسحاق بن راهويه، قال: حدثنا بقية، قال: حدثنا محمد بن زياد، عن أبي عتبة الخولاني عن النبي ﷺ قال: « إن للَّه عز وجل آنيةً من أرضه، وآنية ربكم جل اسمه قلوب عباده الصالحين وأحبُّها إلى اللَّه ألينها وأرقُّها » [٦]، أخبرنا المبارك بن علي الصَّيْرَفي بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: يا رسول اللَّه وما جلاؤها: قال: تلاوة القرآن » [٧].

وبه قال محمد بن جعفر: وحدثنا حماد بن الحسن، قال: حدثنا سيّار، عن جعفر، عن المعلَّى بن زياد، قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أَدْنه من الذكر. أي ممن يذكر [٨].

وقال الحسن: ما على الأرض قلبٌ أرقُّ من قلب بعيد عهد بالذَّنب، وما على الأرض أقسى من قلب قريب عهد بالذنب.

---

(١) أ: كثير. (٢) ش: مثل ما جاء. (٣) أ: وفد بني عبد قيس.

(٤) روى ابن الجوزي هذا الحديث في كتابه « ذم الهوى » : ص ١٠٦. بتحقيقي وهو حديث موضوع كما ذكر الشوكاني في كتاب الفوائد المجموعة.

(٥) مسند أحمد : ٣٨٣/١. (٦) لم يرد في شيء من الكتب المعتمدة.

(٧) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة، لكن ذكره ابن الجوزي في كتابه العلل المتناهية في الأحاديث الواهية : ٣٤٧/٢. حديثًا عن ابن غمر: وفيه: قيل وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر اللَّه. ثم تكلم عن بعض رواته وهو حديث لا يصح.

(٨) الأصل: أدبه من الذكر بالذكر. وهو تحريف وما أثبته من كتاب الزهد للإمام أحمد : ص ٢٦٦، ط مصورة بدار الكتب العلمية بيروت.

وقال مكحول: أرقُّ الناس قلبًا أقلُّهم ذنبًا.

وكان إبراهيم بن الخواص يقول: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السَّحر، ومُجَالَسَة الصالحين.

أخبرنا ابن حبيب بسنده عن أبي بكر بن دانيال وقد سئل عن القلب إذا عمى ما يُبَصِّره؟ فقال: بتَرْك ما لأجله عَمي.

واعلم أن من تدارك قلبه عند ابتداء مرضه بموافقة الهوى سهل العلاج عليه، فأما إذا أهمله فتمكَّن العدو منه عزَّت معالجته فكان كما قيل:

ومَنْ مِن الحب منقذٌ رجلًا باع لذيذ الرقادِ بالسُّهد
ذاك بعيد الخلاص قد نَشَبَتْ في الروح منه مخالب الأسدِ

قرأت على أبي القاسم الحريريّ من أبي طالب العُشاري قال: أخبرنا ابن أخي ميمي. وقال: حدَّثنا ابن صفوان بسنده عن سفيان قال: سمعت مالك بن دينار يقول: إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة، وكذلك القلب إذا عَلِق فيه [١] حبُّ الدنيا لم تنجع فيه المواعظ.

أخبرنا عمر بن ظفر بسنده عن محمد بن الحسين الحامدي، قال: حدثنا أبي، قال: سمعت الحارث بن أسد يقول: بلية العبد تعطيل [٢] القلب من فِكْر الآخرة، فحينئذ تحدث الغفلة في القلب.

قال ابن جهضم: وسمعتُ ابن شمعون يقول: ما سمعتَ قول رسول الله ﷺ: « إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال! » [٣] فإذا كان المـلَك لا يدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال، فكيف تدخل شواهد الحق قلبًا فيه أوصاف غيره؟!

وقد كان السلف يجتهدون في قطع العوائق ودفع الشواغل للقلوب، ومتى تفرَّغ القلب من عوائقه سما بفطرته إلى محبة خالقه.

وقد رُوِّينا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه باع جملًا له، فقيل له: لو أمسَكته؟ فقال: لقد كان موافقًا ولكنه أذهب شُعبة من قلبي فكرهت أن أشغل قلبي بشيء!

أخبرنا المبارك بن علي، بسنده عن إبراهيم بن الجنيد، قال: حدَّثنا محمد بن الحسين، قال: حدَّثني إسحاق بن محمد قال: قالتْ رَابِعة: شغلوا قلوبهم بحبِّ الدنيا عن الله

---

(١) أ: إذا علقه حب الدنيا. (٢) أ: تعليل. محرف.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم: ٧.

جلَّ ثناؤه [١]، ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد.

قال الخرائطي: وحدَّثنا ابن الجنيد قال: حدَّثنا محمد بن الحسين، قال: حدَّثنا الصَّلت ابن حكيم قال: حدَّثني ابن السماك عن امرأة كانت تسكن البادية، قال: سمعتُها تقول: لو تطلَّعت قلوب المؤمنين بفكرها إلى ما ذُخر [٢] لها في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفُ لهم [٣] في الدنيا عيش، ولم تَقرَّ لهم [٤] في الدنيا عين.

قال الخرائطي: وحدَّثنا عبَّاس التُّرقفي، قال: حدَّثنا الفريابي، عن الثوري، عن ثور ابن يزيد، عن خالد بن معدان قال: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد اللَّه بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعد اللَّه بالغيب، وإذا أراد اللَّه به غير ذلك تركه على ما هو فيه ثم قرأ ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [٥].

وقال أحمد بن خضرويه: القلوب أوعية، فإذا امتلأت من الحق أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل، أظهرت زيادة ظُلَمها على الجوارح.

وقال أبو تراب: ليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح خواطر القلوب. وقال أبو الخير التيناتي [٦]: حرام على قلب مأسور بحب الدنيا أن يسبح في روح الغيب.

وقال المرتعش: ما نفعني شيء من العبادات ما نفعني جمع الهِمَّة.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: ما يجوز همِّي كسائي هذا!.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، قال: أنبأنا أبو بكر الخطيب بسنده عن ابن أبي جمرة قال: سمعتُ سهل بن عبد اللَّه يقول: حرام على قلبٍ أن يشم رائحة الجنة [٧]، وفيه سكون إلى غير اللَّه ﷻ، وحرام على قلب يدخله النور وفيه شيء مما يكره اللَّه تعالى.

أخبرنا أبو بكر بن أبي حبيب بسنده عن يوسف بن الحسين، قال: سمعت ذا النون المصري يقول: صلاح القلب ساعة أفضل من عبادة الثَّقلين.

* * *

---

(١) أ: عز وجل.

(٢) أ: ما ادخر.

(٣ ، ٤) أ: لها.

(٥) سورة محمد: ٢٤.

(٦) الأصل: البناني وهو تحريف وهو أبو الخير التيناتي المعروف بالأقطع، سكن جبل لبنان وأصله من المغرب، اللباب : ٢٦١/١. بتحقيقي.

(٧) أ: أن يدخله النور.

الكلام على البسملة

بَـدَتْ دَهْـياءُ تُـنـذر بـالـخـطـوب   نُلاحظـهـا بـأبـصـار الـقـلـوبِ
وقـد دلَّ الـمـجـيء عـلى ذهـاب   كـمـا دلَّ الطـلـوع على الـغـروب
ولـكـنَّ الـقـلـوب مـحـجَّـبـات   وشرُّ حجابها كسب الـذنـوب

يا من قد أصبح بحب الدنيا متيَّمًا، متى [١] تكون لنقصك متمِّمًا، متى تُرى بعد الزيغ مُتَقوِّمًا، إلى متى تصبح عاصيًا وتمسي مجرمًا، أما تخشى عارًا ولا تحذر مأثمًا، متى تسمع من عاذليك، متى تعرف مُعاديك من مُواليك، إلى متى تبارز العظيم المليك، إن هذا لهو الرأي الرَّكيك. أما النُّذر تراوحك وتغاديك.

يا من شَابَ ولا تَابَ، اعتبر بذويك، ستفعل الدنيا بك ما فعلت بأبيك، وسترحل عنها كما رحلت [٢] عن أخيك، وكأنك بك والتراب أدنى ما يليك، وقام على قبرك الحبيب القريب يبكيك، وأنت مشغول عمن يمدحك ويَرْثيك، أما في سلب الرُّفقاء ما يكفيك، لقد جمعت خصال الأشقياء لولا الرجاء فيك.

هَـبِ الـدنـيـا تُـوَاتـيـكـا   ألـيـس الـمـوت يـأتـيـكـا
فـمـا تـصـنـع بـالـدنـيـا   وظـل الـمـوت [٣] يـكـفـيـكـا

يا من قد حلَّ التَّلَف بفنائه، وناصَبه الحتف بإزائه، وأحاط به الهلاك من بين يديه ومن ورائه، وجدَّ به الرحيلُ عن الدنيا وحبُّها في سويدائه، يا أسير مرضه وقد رضي بدائه، يا جائرًا حائرًا بَعْد رشده واهتدائه، يا من نفسه على الحقيقة من أكبر أعدائه، يا طامعًا في البقاء وقد رأى مصير آبائه، يا مبارزًا بالذنوب مهلًا أيها التائه:

أتـغـرُّنـي آمـالـيـهْ   بـعـد الـقـرون الـخـالـيـهْ
أهـل الـمـراتـب والـمـنـا   صـب والـقـصـور الـعـالـيـهْ
نـادت مـنـازلـهـم قـفـوا   وتـأمَّـلـوا أطـلالـيـهْ

أين الذين قبلك في ديارك مكثوا، وأوغلوا في طلب الدنيا وبحثوا، ومالوا إلى الهوى فلعبوا وعبثوا، نقضوا والله بعد قُوَاهم [٤] ونكثوا، وأقاموا في القبور بعد القصور ومكثوا، وعن قليل فكأن قد بُعثوا، لقد أسكت الرَّدى ألسنتهم الفصيحة، وهشَّم البلى أجسادهم الصحيحة، وشَانَ البلى وجوههم الصَّبيحة، وأحلَّ العصيان بهم كلَّ فضيحة.

---

(١) أ: فمتى.
(٢) أ: ترحلت.
(٣) أ: الميل.
(٤) أ: بعد قولهم. محرفة.

[كأن الليالي أعربتْ حادثاتها بحبٍّ الذي يأتي وكره الذي يَهْوَى
ومَن يعرف الأيام لا يرَ خَفْضها نعيمًا ولم يَعْدُدْ تصرفها بلوَي
إذا نشرت قدام رائدها أتت مواصلة الإسراع مِن خَلْفه تُطْوَى] (١)

ألا متيقظ من سِنة غفلته، ألا مستعد زادًا يصلح لنقلته، ألا متأهب لطول سفرته، ألا مقدم عملًا لحفرته؟

أيها المفرِّط في أمره وقد مضى أكثر عمره، ماذا بقي لمن شاب من لذات دهره، كيف يحمل بعد الضَّعف وزرًا على ظهره، وقد أشرقت لـمَّته بشيبته، وإشراق النهار بفجره.

رؤًى عروقًا له في الماء سارِيةً عذبٌ زلالٌ فلا ملح ولا رَنِقُ (٢)
حتى إذا تمَّ واستوفى نضارته ولازم الريّ لا فَوْت ولا شَرَق
غار السواقي فظلَّ الغصن منحنيًا كأنه ذابلُ العيدان محترقُ

يا غافلًا عُدِم توفيقه، يا مسافرًا خانه رفيقه، يا جاهلًا ضاقت طريقه، يا حاملًا وزرًا لا يطيقه، أما هواتفُ الرَّحيل بك قد نادت، أما قواصم الآفات لأقرانك أبادت؟!

[بان الشباب ولاح الواضحُ اللَّهق (٣) كيف الشباب وكيف الشيب يتفقُ
وبدَّل الدهر والأيام بهجته كما تَبدَّل بعد الجدَّة الخَلَق (٤)
بان الشباب وأمسى الشيب مشتعلًا كالغصن بادر في عيدانه الوَرَقُ
غصن الذي طابت أرومته له عروق سقاها جدول غدق] (٥)
[هذى القصورُ لحقت بسكانها كأنها بالعالمين لم تُشدْ
ومُسْتغَرٍّ بالبقاء وادعٍ كواضع الراحة في فكِّ الأسدْ] (٦)

كان سرِي السَّقطي يقول: الدهر ثلاثة أيام؛ يوم مضى بؤسه وشدَّته وغمُّه، لم يبقَ منه شيء، واليوم الذي أنت فيه صديق مُودِّع لك سريع الرحلة عنك طويل الغيبة، وغدًا في يدك تأميله ولعلَّك من غير أهله، ولقد عجبت لمن غَدَا وراح في طلب الأرباح وهو لا يربح نفسه، ولو أشفقت الأنفس على أديانها شفقتها على أولادها للاقت السرور في معادها.

أين أنت من المتقين وقد عملوا على اليقين وحاربوا الدنيا فلبسوا دروعًا يَقين، فيا بُشرى تلك النفوس ويا شرف ما لقين.

---

(١) سقط من أ. (٢) الرنق: الكدِر. (٣) اللَّهق: الشديد البياض.
(٤) الخلق: البالي. (٥ ، ٦) سقط من أ.

تردد حسن الفلَّاس إلى بِشر الحافي مرارًا يسأله مسألة، وبشر لا يلتفت إليه، فتبعه يومًا فخرج إلى المقابر، فلما صار في المقابر وقف بِشر فقال له: يا حسن أيودُّ هؤلاء أن يردُّوا فيصلحوا ما أفسدوا؟! يا حسن مَن جعل شهوات الدنيا تحت قدميه [١] فَرِقَ الشيطان مِن ظله، ومَن غلب هواه فهو الغالب، واعلم أن البلاء كلَّه في هواك والشفاء كلَّه في مخالفتك إيَّاه، فإذا لقيته فقل: قال لي. فرجع الحسن وعزم على الزهد فكان يلبس من المزابل، فلما احتُضر قال: لقد أعطاني ما يتنافس فيه المتنافسون.

* * *

قوله تعالى:

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ [٢]

هذا خطاب لمنكري البعث، **والمعنى**: أأنتم أشد خلقًا أم السماء أشد خلقًا. ثم بيَّن كيف خلقها فقال: ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ **والمعنى**: أخلقُكم بعد الموت أشدُّ في تقديركم مِنْ خلق السماء وهما في قدرة اللَّه تعالى واحد، ومعنى ﴿ بَنَىٰهَا ﴾: رفعها وكل شيء ارتفع فهو بناء.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾:

عجبًا لنفس تنكر البعث ما أعماها، أمَا أظهر الأدلة لها وجلَّاها، من الذي مدَّ الأرض ودحاها، وابتعث الغمام فسقاها، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا ﴾ [٣] أما في هذا دليل لها فما أشقاها ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

إله عظيم لم يزل إلهًا، ومُلك كبير لا يتناهى، يعلم صريف [٤] الأقلام ومجراها، تسارق العيون من تراها فيراها، لا يخفى عليه خافية ممن أخفاها، يقسِّم الأرزاق فما يترك ذرَّة ولا ينساها ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

أحكم الأمور كلَّها وقضاها، وعلى ما سبق علمه بها أمضاها، سواء أسْخَط النفوس أو أرضاها، وكما قدَّر مبدأها قدَّر منتهاها ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

حاط الأجسام بمصالحها ورعاها، ولَطَفَ بالنفوس في التكليف ورَعاها، وفتح باب الكرم ثم استدعاها، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [٥].

طبَّق غرق الضلال أدنى الأرض وأقصاها، فوضع نوح الفضل سفينة النجاة وبناها، وحمل

---

(١) ش: رجليه.
(٢) سورة النازعات: ٢٧.
(٣) سورة يس: ٣٣.
(٤) أ: صرير. والصريف: صوت القلم.
(٥) سورة الطلاق: ٧.

زُمَر المؤمنين فأما زُمَرُ المشركين فأقصاها، ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ (١).

من جاء بالشمس وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، من أهلك ثمود بطغواها، إذ انبعث أشقاها، فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم فسواها ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

من صوَّر الصور وأحسن معناها، وسطَّرها بيد القدرة ثم محاها، أدار الأفلاك بها ثم أدار عليها رحاها، فامَّحت بالبلى وامَّحت كما محت دَبُورها صَباها (٢)، هو الذي يعيدها كما أفناها ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

مَنْ ربت الطلع في الجُفِّ (٣)، مَنْ الذي تعلَّقت بفضله الأكفّ، مَن صفَّ حبَّ الرُّمان إذا صُف، من أنشأ ذوات الظِّلْف (٤) والخف، من الذي تعلَّقت بفضله الأكفُّ فكفَّها بالغرض وكفاها.

من أخرج الأصول من أصول، مَنْ قدرته تبطش بالأشياء وتَصُول، ويقول للشيء كن فيكون كما يقول، لا يمتنع عن الإرادة ولا يأباها، يقول للأشياء عودي فتعود، ويرجع مخضرًّا بعد يُبْسه العُود، ويقضي لأقوام بالشقاء ولأقوام بالسعود، واهًا لذلك اليوم واهًا ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

خلق آدم من طين جامد، وحوَّاء من ضلع واحد، وعيسى من أمٍّ بلا والد، ذلك القادر على إعادة البائد، فما أجهل النفوس المنكرة وما أخفاها.

تخلو الأرواح عن الأبدان وتنزع، ثم تطلع شمس الحياة وتبلغ نفوس المؤمنين مُنَاها.

ظنوا أسباب البعث صعابًا، ونسوا مبدأً وذكروا مآبًا، فقالوا إنا كُنَّا ترابًا، وهيهات يجيب من قضى أن يابى (٥). ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ (٦).

لعب بعقولهم إبليس، ولبَّس عليهم أقبح تلبيس، وما ذلك التدليس إلا على عقل خسيس في الخسة قد تناهى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾.

لقد مكر بهم الشيطان فباعهم في سوق الهوان، ولعب بعقولهم كلعب الصبيان ومن قِبل الحسنات أتاها.

---

(١) سورة هود: ٤١.

(٢) الدبور: ريح تقابل الصَّبا. والصبا: ريح مهبُّها من الثريا إلى بنات نعش.

(٣) ربت: ربى، والطلع: شيء يخرج من النخل، والجف: وعاء الطلع.

(٤) الظلف: للبقرة والشاة والظبي ونحوها بمنزلة القدم للإنسان.

(٥) أصلها: يأبى.

(٦) سورة السجدة: ١٣.

رأوا عظامًا نخرة فجحدوا بعث الآخرة، واستعجلوا الوعود المستأخرة، ونسوا القدرة القاهرة التي ابتدعت أُولاها ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾.

أنَسُوا العلَقة والنطفة، أما رأوا في تنقلها لُطْفة، أما علموا أن للقدرة عَطْفة يعيدها كما أنْشاها.

مَنْ نَقل المنيَّ إلى عَلَقة، مَنْ خطَّ الأنف وشدَّ الحلقة، من أخرج من يابس الغصن الورقة وقد كان عريانًا فاكتساها.

أما تصير البَيْضة مَذِرة [1] ولو كُسِرت كانت قذرة، ثم تكتسي ألوانًا نضرة، أما تَعْفن الحبة ثم ترجع خضرة، لقد خاطبكم بالبعث شِفاها.

يوم الحشر يوم عظيم، كم فيه من عذاب أليم، إلا من أتى اللَّه بقلب سليم، يجثو فيه الخليل والكليم، ويشفع صاحب طه.

* * *

قوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾:

أي: رفع علوَّها في الهواء وارتفاعها فسوَّاها بلا سقوف ولا فطور ولا تفاوت يرتفع فيه بعضها عن بعض.

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا... ﴿٢٩﴾ ﴾ أي أظلمه فجعله ظلمة. قال الزجاج: يقال غطش الليل وأغطش، وغبش وأغبش، وغَبس وأغبس وغسق وأغسَق وعشى وأعشى؛ كلٌّ بمعنى أظلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ أي أبرز نهارها، والمعنى أظهر نورها بالشمس، وإنما أضاف النور والظلمة إلى السماء؛ لأنهما عنها يصدران، ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ... ﴿٣٠﴾ ﴾ أي بعد خلق السماء ﴿ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي بسَطها، ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا... ﴿٣١﴾ ﴾ أي فجَّر العيون منها ﴿ وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ وهو ما يأكله الناس والأنعام، ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ أي أثبتها، ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ... ﴿٣٣﴾ ﴾ أي لتنتفعوا بذلك وتتمتعوا به.

* * *

[قوله تعالى]:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهي الحادثة التي تطمُّ على ما سواها، أي تعلو فوقه. **وفي المراد بها ثلاثة أقوال:**

أحدها: النفخة الثانية التي فيها البعث.

---

(١) مذرت البيضة: فسدت. والمذرة: القذرة.

والثاني: أنها حين يقال لأهل النار: قوموا إلى النار.

والثالث: حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

قوله: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي ما عمل من خير وشر، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي لكل مُبصر. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق. وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زِمَام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها » [١].

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾:

قام الناس من بطون الثرى ينفضون عن رؤوسهم الثَّرى إلى حُكم من أنشأ وبَرا ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾.

إذا ذكرت النفوس ذنوبها وَجِلَت، وإذا عوتبت على زَللها خجلت، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [٢].

أهوال لا تُوصف، وشدائد لا تُعرف، يتحيَّر فيها من أسرف، ويحمل من الأوزار ويكلَّف أثقل من جبل حِرَا.

حضروا خاشعين من الذل، ونكَّسوا الرؤوس كأن عليهم غُلٌّ [٣]، ولقد قام في ذلك الوقت الكل قيام الأسرى.

تُزَلزل قدم الواقف، ويزول عن مكانه قلب الخائف، ويُنصب الميزان فلا يجازف، وتبرز إلى الخلق الصحائف فيقرأ من لا قَرَا.

تسير الجبال الصُّلد وتندكُّ، ويشهد الجلد والصكّ، آهٍ لأسير الغضب ما يُفكُّ، لا شكَّ ولا مِرَا.

تقوم من القبور الرِّمم، وتجثوا من الهول الأمم، ويبكي من أساء وظلم، آهٍ آهٍ من ندمٍ قد عنَّ واعترى.

يشتد السؤال والجواب ويَقْرع العاصي الناب لِمَا ناب، ولا ينفع القرب بالأنساب، ثم تنقطع الأسباب وتُفْصَم العُرى.

فحينئذ يتنبه النائم، وينكس رأسه كلُّ نادم، وينتصف المظلوم من الظالم والحاكم ربُّ الورى.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها: ٥٣٥/٢، ط عيسى الحلبي.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

(٣) كذا بالأصل والقياس: كأن عليهم غلًّا، ولعل ذلك رعاية للسجع.

جَفت النار على الـجُفاة، وعتَتْ لشدتها على العُتاة، ووثبت بعذابها على العصاة وثوب أُسْد الشَّرَى.

لاحت لهم فأذهلتهم، ومدت يدها إليهم فاستلبتهم، وتمكنت منهم فعذبتهم، ولا تسأل عما جرى.

مقامعها حديد، وعذابها شديد، وألمها مديد كلما انقضى طَرا.

أَبَعْدَ الشيب ما ترعوي، أَبَعْدَ الضعف ما تستوي، أما يزعجك الوعيد فتلتوي [١]، ما أظنك تنتهي حتى ترى.

إخواني: دَعُوا الذنوبَ القِبَاح، واجتهدوا اليوم في الصلاح، واحْمِلُوا الصَّبر [٢] وإن شقَّ على الأرواح، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى.

* * *
* *
*

---

(١) أ: فما تلتوي. محرفة.

(٢) أ: الصعب.

المجلس الثالث والعشرون

في التفكر

الحمد للَّه الذي أوجد ما شاء كما شاء وأعدم، وأمات وأحيا وعافى وأسْقم، وأغنى وأفقر، وأهان وأكرم، وأسعد وأخَّر وقدَّم، ودبَّر وقدَّر وقسَّم وأقسم، وأمر ونهى وأحلَّ وحرَّم، واطلع على ما يُسَرُّ وعلِم ما يُتكلم، وخاطب أولي الألباب ومن يعقل ويفهم، ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١).

أحمده على ما أعطى وأنعم، وأُقرُّ بوحدانيته إقرارًا لا يعارض بالشك ولا يُصْدم، وأُصلِّي على رسوله محمد المرفوع على الأنبياء المقدَّم، وعلى صاحبه أبي بكر أول من أسلم، وعلى عُمر المحدَّث المكلَّم، وعلى عثمان المجتهد في الليل إذا أظلم، وعلى عليٍّ الأشجع الأعلم، وعلى عمِّه العباس الذي حبُّه وحب بنيه يَلْزم.

قد مدح اللَّه ﷻ المتفكِّرين فقال تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢).

اعلم أن معنى التفكر أن يُحضر الإنسان معرفتين في قلبه يستمد منهما معرفة ثالثة، وإذا تفكَّر الإنسان في السموات والأرض علم أنها مخلوقة وعلم أنه لا بد من خالق، فأثمرت المعرفتان معرفة ثالثة وهي طاعته ولزوم أمره. وكذلك إذا علم أن الأبقى أولى بالإيثار من الفاني، ثم علم أن الآخرة أبقى حصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل إلى المعرفة الثالثة، وتسمَّى تفكُّرًا (٣) واعتبارًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأملًا.

وثمرة الفكر العلوم والأحوال، ومتى حصل العلم في القلب تغيِّر حال القلب فتغيَّرت أعمال الجوارح؛ فالفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، فإنه إذا تفكَّرنا وعلمنا أن الآخرة خير من الدنيا، تغيَّرت القلوب من الرغبة في الدنيا فرغبت في الآخرة، فذلك فضل الفكر (٤).

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عاصم بن الحسين بسنده عن عطاء عن عائشة، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « أُنزلت عليَّ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ (٥) - ثم قال -: ويل لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها » (٦).

---

(١) سورة العلق: ٤، ٥. (٢) سورة آل عمران: ١٩١. (٣) أ: تذكرًا.

(٤) ش: الذكر. (٥) سورة البقرة: ١٦٤.

(٦) رواه ابن حبَّان في صحيحه. الترغيب والترهيب: ٢/٢٢٤.

وقال أبو الدرداء، تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة. وقال الحسن: الفكرة مرآة تُريك حسناتك وسيئاتك، وأفضل العبادات التفكُّر والورع، ومن لم يكن كلامه حكمة، فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكّرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لَهو، وما زال أهل العلم يعودون بالتفكُّر على التذكُّر وبالتذكُّر على التفكُّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال وأورثت العلم.

وقال سعيد بن المسيِّب: العبادة التفكُّر في أمر اللَّه ﷻ والكفُّ عن محارم اللَّه. وقال وهب بن منبِّه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، ولا فهم إلا علم، ولا علم إلا عَمِل.

وقال عامر بن عبد القيس لرجل: عليك بالصمت والحزن والفكر فإنك إن نِلْت ذلك لم تدع للعابدين مقامًا.

وقال سفيان بن عُيينة: الفكر نور تدخله [١] قلبك ثم أنشد:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة [٢]

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك لتطيل الفكرة.

فقال: الفكرة مخُّ العمل. وقال بِشر الحافي: لو تفكَّر الناس في عظمة اللَّه تعالى لما عصَوْه.

وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [٣]. قال: أمنع قلوبهم من التفكُّر في أمري.

وكان عمر بن عبد العزيز ساكتًا وأصحابه يتحدَّثون، فقالوا: ما لك لا تتكلم؟ قال: كنت مُفكِّرًا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يُطْرحون فيها!

وجمع الناس يومًا فخطبهم وقال: « إني فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون فعلمت أن المصدِّق به أحمق والمكذب به هالك ».

وكان داود الطائي على سطح في ليلة قَمْراء، فتفكَّر في ملكوت السموات والأرض، فوقع إلى دار جار له، فوثب الرجل إليه فقال: ما ألقاك؟ قال: ما شعرت بذلك!.

وكان سفيان مِنْ تفكُّره يبول الدم.

وقال ابن المبارك لسهل بن علي وقد رآه مُتفكِّرًا: أين بلَغْتَ؟ فقال: الصراط.

وكانت امرأة تسكن البادية تقول: لو اطَّلعت قلوب المتفكِّرين بفكرها [٤]، على ما قد

---

(١) أ: يدخل.

(٢) البيت لأبي العتاهية من عدة أبيات وردت في ديوانه : ص ١٧٧، ط دار الكتاب العربي.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٤) أ: من تفكرها.

ادُّخر لها في حُجب الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفُ لهم في الدنيا عيش، ولم تقرَّ لهم في الدنيا عين (١).

وَبَيْنا أبو شريح العابد يمشي جلس فتقنَّع بكسائه فجعل يبكي، فقيل: ما يبكيك؟ قال: تفكَّرتُ في ذهاب عمري واقتراب أجلي.

واعلم أن الفكر في مثل هذه الأشياء ينفع، وكذلك في مخلوقات الله ﷻ، فأما الفكر في ذات الله تعالى فقد مُنع منه. قال رسول الله ﷺ: « تفكَّروا في آلاء الله تعالى ولا تفكَّروا في الله ﷻ » (٢). وإنما مُنع من هذا؛ لأن العقل يتحيَّر فيه والحسُّ يزاحم العقل عند التفكُّر، فينبغي التشاغل بالتفكُّر في المخلوقات، ومن تفكر في خلق نفسه دَهِشَ أو في إمساك الأرض بالجبال كالغمامة على رؤوس العيون، وإبداع العقاقير والمنافع كل شيء بشيء وإبداع المعادن. وانظر إلى أقل الأشياء وهي العنكبوت كيف تبني بيتها في موضعين متقاربين حتى يمكنها أن تصل الخيط بين طرفيها، فإذا أحكمت المعاقد اشتغلت باللُّحمة، وتجعل ذلك شبكة للذباب، فإن عجزت عن الصيد علَّقت نَفْسها بخيط وتنكست، فإذا قاربها ذباب رمَتْ نفسها إليه ولفَّت خيطها على رجليه. أَفَتَراها تعلمت هذه الصناعة من نفسها أو قرأتها على أبناء جنسها؟!

وكذلك كل الأشياء. وإنما يسقط التعجب من الأشياء لكثرة المشاهدة.

ومن تفكَّر في السموات عَلِم أنها كقطرة في بحر، وعلم عظمة شمسها وقمرها وكواكبها، ورآها تجري بحساب لا يزيد ولا ينقص.

وانظر إلى الشمس كيف تنخفض في الشتاء فيبرد الهواء فإذا استوت وسط السماء كان الحر، وما من شيء إلا وللفكرة فيها مجال، ولكن أين القلوب المتفكِّرة؟! فإن أقل القليل أدلّ دليل على عظمة الجليل، ومتى عرفت عجائب المخلوقات دلَّتك على عزة الخالق وعظمة الصانع، وأنت لا تعرف من الطعام إلا الأكل، ومن الماء إلا الشرب، ومن الألوان إلا النظر إليها بعين رأسك، فالبهائم تشاركك في جميع ذلك..

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن هارون بن سفيان، قال: حدَّثنا عبد الله بن صالح قال: سمعت محمد بن النَّضر الحارثي قال: بلغني أن عابدًا تعبَّد في بني إسرائيل ثلاثين سنة وكان الرجل منهم إذا تعبَّد ثلاثين سنة أظلَّته غمامة فتعبَّد الرجل ثلاثين سنة، فلم يرَ شيئًا يظلُّه، فشكا ذلك إلى أُمِّه فقالتْ: فكِّر هل عملت ذنبًا منذ أخذت في

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي: ص ٢١٦. بتحقيقي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس ﵄، ورواه ابن أبي شيبة في كتاب العرس. كشف الخفا: ٣١١/١.

عبادتك؟ قال: لا أعلمه. فقالتْ: يا بني هل هَمَمْت بذنب؟ قال: ففكَّر ثم قال: ولا هممتُ به. فقالتُ: يا بني بقيتْ خصلة إن نجوت منها رجوتُ أن تُظلَّك، قال: وما هي؟ قالت: هل رفعت طرفك إلى السماء ثم رددته بغير فكرة؟ قال: كثيرًا.

* * *

الكلام على البسملة

ما مرَّ يومٌ على حيٍّ ولا ابتكرا ... إلا رأى عِبَـرًا فيـه إن اعـتـبـرا
ولا مضت ساعة في الدهر فانصرفت ... حـتـى تؤثر في قـوم لـهـا أثـرا
إن الـلـيـالـي والأيـام أنـفُـسـهـا ... عن عيب أنفسِها لم تترك الخبرا

يا هذا: تفكَّر في أمرك وانقضاء عمرك، وإخراجك من قصرك والوزر الذي على ظهرك، ومحاسبتك على سرِّك وجهرك، تفكَّر في إثبات أعمالك وخيبة آمالك ووقوفك وسؤالك وربما كنت [١] الهالك:

نُـزهـة الـمـؤمـن الـفِـكَـرْ ... لـذة الـمـؤمـن الـعِـبَـرْ
ربَّ لاهٍ وعـــمـــره ... قـد تـقـضَّـى ومـا شـعـرْ
صـاحـبَ الـمـنـزل الـذي ... أنـت فـيـه عـلـى سَـفَـرْ
ربّ عـيـش قـد كـان فـو ... ق الـمـنـى مـونـق الـزَّهَـرْ
فـي خـريـر مـن الـعـيـو ... ن وظـلٍّ مـن الـشَّـجـرْ [٢]
غـيَّـرتْـه وغـيَّـرت ... أهـلـه سـرعـةُ الـغِـيَـرْ
إن فـي ذا جـمـيـعِـه ... لـلـبـيـب إن اعـتـبـرْ [٣]

أين أهل الوداد الصادق الصافي، وأين ذَوُو الفصاحة والقول الشافي، وأين القاطعون البيد في الأغراض والفيافي، حلَّ واللَّه بهم الصعب [٤] الشديد المُنَافي، وهجم عليهم ما أعجزهم عن التَّلافي، فاستُلبوا بالقهر من بين الخلائق، ونقلُوا عن القصور الشُّمِّ الشواهق، وطُرقوا بأفظع النوائب والطوارق، وسيقوا إلى البلاء على نُجُب سوابق، وانفصمت عُرى الآمال وانقطعت العلائق، وضرب الفناء عليهم أشنع سرادق، ولقوا في حُفَرهم ما شيَّب المفارق، وندموا إذ آثروا الزخارف على الحقائق [٥]، فانتبه لنفسك فالرحيل حقٌّ والنذير صادق:

---

(١) ش: ركبت. (٢) أ: على الشجر. (٣) أ: للبيب لمعتبر.
(٤) أ: الضعف. (٥) أ: الزخارف والحدائق.

مــررت بــأجــداث جَـبَّـانـةٍ ... وقد سَفَت الـريح عنهـا الصَّعيدا
ولـلـدُّود مـا بـينـهـا صَـوْلـة ... تـقـطِّـع أوصـالـهـم والـجـلـودا
وسار الـبِـلـى في سواد العيـو ... ن فأجرت على الوجَنات الصديدا
فـناديتهـم ودمـوع الـجـفـون ... تنكئ من فيضـهـن الـخـدودا
مَـنِ الناعم البـال من بينكم ... وقد أصبحوا عن جوابي خمودا
فـلـمَّـا أطـلْـت وقوفي بـهـا ... أسـائـل أرمـاسَـهـا والـلُّـحـودا
أجـاب الـثَّرى عِـبْـرة والبلـي ... إلـيـك فـقـد رُمْـتَ شيـئًا بـعيـدًا

قال صالح المُري رَحِمَهُ اللَّهُ: البكاء داعي الفكرة في الذنوب فإن أجابت على ذلك القلوب وإلا انقلها إلى الموقف [١]، وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت على ذلك وإلا فاعرض عليها التقلب في أطباق النيران.

بات هَرِم بن حيَّان عند حَمْنة [٢] فباتت حمنة تبكي إلى الصباح، فقال هَرِم: ما أبكاك؟ قالت: ذكرت ليلة صبيحتها تُبعثر القبور وتتناثر نجوم السماء.

خرج الربيع بن خُثَيْم يمشي مع ابن مسعود، فمرَّا على حدَّاد فوقف الربيع إلى الحدَّاد ينظره والحديد في النار [٣]، فتمايل ليسقط، ثم مرَّا على أتون، فلما رأى ابن مسعود النار تلتهب فيه قرأ: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [٤]، فصعق الربيع، فحُمل إلى أهله فلم يفق إلى الليل!

وكان عمر بن عتبة يخرج على فرسه ليلًا فيقف على القبور فيقول: يا أهل القبور قد طُويت الصُّحُف وقد رُفعت الأعمال. ثم يبكي. ثم يصفُّ قدميه حتى يصبح.

وكان طاوس إذا مرَّ بالرؤوس المشوية في السوق لم يتعشَّ تلك الليلة.

وقام زبيد [٥] يتهجَّد فأدخل يده في مطهرة فوجد برد الماء فلم يزل كذلك حتى أصبح. فقالت له الجارية: لم تصلِّ الليلة؟ فقال: إني ذكرت ببرده الزَّمهرير، فما شعرت ببرده.

ووقف مالك بن دينار ليلة في صحن داره إلى الفجر وقال: ما زال أهل النار يُعرضون عليَّ بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح.

وكان بعض السلف يقول: زوروا القبور كلَّ يوم بفكركم، وشاهدوا المواقف كلَّ يوم

---

(١) أ: في الموقف.
(٢) ش: جمعة.
(٣) ش: فوقف الربيع ينظر إلى الحديدة في النار.
(٤) سورة الفرقان: ١٢.
(٥) أ: زيد محرف وهو زبيد بن الحارث أحد رواة الصحيح.

بقلوبكم، وانظروا إلى منصرف الفريقين بتوهمكم، وأشعروا أبدانكم ذِكر النار ومقامعها، فمختارٌ لنفسه ما أحبَّ أيام إمكانها.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تُخْلق لتنظر إليها، بل لتنظر إلى الآخرة.

وقال أبو بكر الكِناني: رَوْعةٌ عند انتباهٍ من غفلة، وارتعاد من خوف قطيعة (١) أفضل من عبادة الثَّقلين.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عبد الله بن سهل قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول: لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حزنًا، ولو رأت العقول بعين الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوس شوقًا، ولو أدركت القلوب كُنه المحبة لخالقها لتخلَّعت مفاصلها وَلَهًا، ولطارت الأرواح إليه من أبدانها دَهَشًا.

سبحان من أغفل الخليقة عن كُنه هذه الأشياء وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء.

استغفرا لي ربَّ العرش إنْ غَفَرا (٢) — وجهِّزاني فإني راكبٌ سفرا
ألا ترى الإنس والأنعام قاطبةً — والوحش والطير من كأس الرَّدَى نَفَرا
والحوت في اليمِّ من قَنَّاصه وجِلٌ — والموت يغشاه في الماء الذي غمَرا
فخذ لنفسٍ وخذ منها لتُصْلحها — فإنَّ من شأنها التقصير والضَّجرا
إنْ ساعفتك الليالي بالمراد فلا — تنفك تذكر أضدادًا لها أُخَرا
إن الذين عَهِدْتم يَخْلُفُون لكم — ظلَّ الغمائم صاروا في الثرى مدَرا
إذا زرعت جميلًا نِلت مَنْقبةً — والمرء يحصد من جنس الذي بذرا
نظرتَ بالطَّرف نظرات سُرِرْت بها — لكنَّ قلبك لم تُرزق به نظرا
فأكثر الفكر في أمرٍ خُلقت له — فليس يَعْدِم إرشادا من افتكرا

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبي صفوان عن أبي بكر القرشي قال: كان رجل من أهل النعمة واليسار له جارية كان مشغوفًا بها وكان يتمنى الولد منها، فمكثت عنده سنين ثم إنها اشتملت على حمل فاشتدَّ سروره بذلك وطالت عليه الأيام لشوقه إلى ولدها، حتى إذا استكملت شهورها وضربها الطَّلق عرضت له عِلَّة فمرض أيامًا يسيرة وهي في طَلْقها، ثم إن الموت نزل به، وولدت الجارية غلامًا في الليلة التي مات فيها، فقال رجل من قريش يعتبر بذلك:

---

(١) أ: من خوف من قطيعة.
(٢) أ: رب الناس قد غفرا.

فيمن مضى لك إن فكَّرت [١] مُعْتبرٌ … وفي الليالي وفي الأيام مُزْدَجرُ
بيْنا الفتى بلذيذ العيش مُغتبط … إذ صار في القبر لا عين ولا أثَرُ
لو لم يرَ المرء إلا ما يعاينه … لكان فيه له وعظٌ ومُدّكرُ
أمَا رأيت ابن حفص يرتجي ذَكرًا … من مُنْية زانها مع دلِّها الخفَرُ
لما دنا ذاك منها وامتلا فرحًا … ومدَّ عينيه للمولود ينتظرُ
إذا المنية قد وافته من كَثَبٍ … والصَّفو لا بد مقرونٌ به الكدرُ
فهو يعالج كَرب الموت مشتغلًا … وتلك في الطَّلق قد حلَّت بها الغِيَرُ
لم يلبث المرءُ حتى مَجَّ مُهْجته … وأتبع الموتَ مولودٌ له ذكرُ
يا يتمه قبْل أخْذ القابلات له … أضحى يتيمًا ولم تُقطع له السُّرَرُ
من ذا يهنًّا به؟ من ذا يُسرُّ به … لا يعرف الأبَ إن أُلفي له عُمرُ
والَهْفَتا للذي ولَّى بحسرته … وارَحْمتا للذي لم يُنْجه الصِّغَرُ
هذا قضاءُ إله الناس فاصطبِري … فالصبر أفضل شيء ناله بشرُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [٢]

﴿ كَلَّآ ﴾ في القرآن على وجهين:

أحدهما: بمعنى لا. ومنه في مريم: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّاۚ ﴾ [٣] ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ ﴾ [٤] وفي الشعراء: ؟﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّاۖ ﴾ [٥]، وفي الشعراء أيضًا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ ﴾ [٦]. وفي سبأ: ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ ﴾ [٧] وفي سأل سائل: ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآۖ ﴾ [٨] ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآۖ ﴾ [٩].

وفي المدثر: ﴿ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ ﴾ [١٠] ﴿ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّاۖ ﴾ [١١]، وفي

---

(١) أ: لو فكَّرت.
(٢) سورة عبس: ١١.
(٣) سورة مريم: ٧٨، ٧٩.
(٤) سورة مريم: ٨١، ٨٢.
(٥) سورة الشعراء: ١٤، ١٥.
(٦) سورة الشعراء ٦١، ٦٢.
(٧) سورة سبأ: ٢٧.
(٨) سورة المعارج: ١٤، ١٥.
(٩) سورة المعارج: ٣٨، ٣٩.
(١٠) سورة المدثر: ١٥، ١٦.
(١١) سورة المدثر: ٥٢، ٥٣.

القيامة: ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا ﴾ [(١)]، وفي المطففين: ﴿ قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ﴾ [(٢)]، وفي الفجر: ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ﴾ [(٣)] وفي الهُمزة: ﴿ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ﴾ [(٤)].

فهذه أربعة عشر موضعًا يحسن الوقف عليها.

والثاني: بمعنى حقًّا. ومنه في المدثر: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴾ [(٥)] ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ [(٦)]. وفي القيامة: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ [(٧)]، ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾ [(٨)]، وفي النبأ: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [(٩)]، وفي عبس: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [(١٠)]، ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [(١١)]، وفي الانفطار: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ [(١٢)]، وفي المطففين: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ ﴾ [(١٣)]، ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ ﴾ [(١٤)]، ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [(١٥)]، وفي الفجر: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [(١٦)]، وفي العلق: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [(١٧)]، ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ [(١٨)]، ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ [(١٩)]، وفي التكاثر: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ [(٢٠)].

فهذه تسعة عشر موضعًا لا يحسن الوقف عليها.

وجملة ما في القرآن ثلاثة وثلاثون حرفًا، وهي هذه، وليس في النصف الأول منها.

وقال ثعلب: « كلا » لا يوقف عليها في جميع القرآن.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ... ﴾:

في المكنى عنها قولان: **أحدهما**: آيات القرآن. قاله مقاتل. **والثاني**: هذه السورة. قاله الفرّاء. والتذكرة بمعنى التذكير، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ ﴾ أي فمن شاء أن يذكر القرآن ويتَّعظ به ويفهمه ذكره.

ثم أخبر جلَّ جلاله بجلالة القرآن عنده فقال: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ ﴾ أي هو في صُحُف، أي في كُتُب، ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ... ۝١٤ ﴾ أي عالية القدر، ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ ﴾ من الشرك والكفر، ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ ﴾ وهم الملائكة. وقال مجاهد: القُرَّاء. وقال ابن عباس:

---

(١) سورة القيامة: ١٠، ١١.
(٢) سورة المطففين: ١٤، ١٥.
(٣) سورة الفجر: ١٦، ١٧.
(٤) سورة الهمزة: ٣، ٤.
(٥) سورة المدثر: ٣٢.
(٦) سورة المدثر: ٥٤.
(٧) سورة القيامة: ٢٠.
(٨) سورة القيامة: ٢٦.
(٩) سورة النبأ: ٤.
(١٠) سورة عبس: ١١.
(١١) سورة عبس: ٢٣.
(١٢) سورة الانفطار: ٩.
(١٣) سورة المطففين: ٧.
(١٤) سورة المطففين: ١٥.
(١٥) سورة المطففين: ١٨.
(١٦) سورة الفجر: ٢١.
(١٧) سورة العلق: ٦.
(١٨) سورة العلق: ١٥.
(١٩) سورة العلق: ١٩.
(٢٠) سورة التكاثر: ٣ – ٥.

﴿ السَّفَرَة ﴾ الكتبة، ﴿ كِرَامٍ... ﴿١٦﴾ ﴾ على ربهم، ﴿ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ أي مطيعين.

* * *

قوله:

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾

أي لُعن. وهو الكافر. وقوله: ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ أي ما أشدَّ كفره.

سجع على قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾:

أَمَا صوَّره وصيَّره، أَمَا وهب له العقل وبصَّره، أَمَا لَطف به إذ نهاه وأمره، أَمَا بارزه بالقبائح فستره، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾.

كم نسي من بالنِّعم [1] ذكره، وغفل عن من أوْلاه فما شكره، واعجبًا يرتكب ما قد حَظَره والمولى قد حضره، هذا ولو اعتذر عَذَره، ولو تاب من الزلل غَفره، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾.

علم ما يُسرُّ العبد وما يُخْفي، وقدَّر حالة من يتيقظ ويُغْفي، وأحلَّ له من المباح فوق ما يكفي، ولكن يؤذي الشَّرَه.

إلهٌ ما أعظمه وما أقدره، يسمع صريف القلم في الخط إذا سطَّره، ولا يَحجب شيء من الحواجب بصره، يرى اللَّبن يسري في الثدي والماء يجري في الشجرة، أفيحسُن أن تخالف صاحب هذه القدرة؟!

أَمَا فسح في الآجال والأعمار، أَمَا حلُم عن الجهَّال الأغمار [2]، أَمَا مَنَّ بإجراء الأنهار وخلق القمر لترطيب الثِّمار [3]، وجعل آية النهار مُبْصِرة.

كم أعطى مِنْ نائل، وكم أقام مِن مائل، ووقت السَّحر يبعث رسائل: هل مِن سائل؟ وقد بثَّ الدُّجى عسكره.

يغفر الزلل والحُوب، ويستر على العاصي العيوب، ويمحو كبائر الذنوب العظائم المنكرة.

حطَّ الأوزار والأثقال، وأقال من الخطايا من استقال، ونصب ميزان العدل وقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [4].

---

(١) أ: بالنعيم.

(٢) أ: أما حكم على الجهال الأغمار. والأغمار: جمع غمر وهو من لم يجرب الأمور.

(٣) أ: الأثمار. (٤) سورة الزلزلة: ٧.

قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾:

ثم فسَّر فقال: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾، **وفيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: قدر أعضاءه رأسه وعينيه ويديه ورجليه. قاله ابن السائب.

والثاني: قدَّره أطوارًا: نطفة، ثم علقة، إلى آخر خلقه. قاله مقاتل.

والثالث: قدَّره على الاستواء. قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: يسَّر له خروجه من بطن أمه. قاله ابن عباس.

والثاني: سهَّل له العلم بطريق الحق والباطل. قاله الحسن.

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾:

أي جعله مقبورًا ولم يجعله ممن يُلقى كالسِّباع. قال الفراء لم يقل « قبَره » لأن القابر هو الدافن بيده والمقْبر الله ﷻ؛ لأنه صيَّر مقبورًا. كما تقول: طردت فلانًا، والله أطْرده أي صيَّره طريدًا. وقال أبو عبيدة. أقبره: أي أمر أن يقبر وجعل له قبرًا. ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي بعثه.

﴿ كَلَّا... ﴿٢٣﴾ ﴾أي حقًّا ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾ به ربه ولم يؤد ما فرض عليه.

ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر وليستدلَّ بالنبات على البعث فقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾:

والمعنى: لينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سببًا لحياته. ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ أراد به المطر، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ... ﴿٢٦﴾ ﴾ بالنبات ﴿ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ وهو جميع الحبوب التي يتغذَّى بها ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾ وهو الرطبة، سُمِّي بذلك لأنه يُقْضَب مرة بعد مرة أي يقطع، ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ قال الفرَّاء: كل بستان عليه حائط فهو حديقة، وما لم يكن عليه حائط لم يُقَلْ له حديقة. والغُلب: ما غَلُظ من النخل، ﴿ وَفَـٰكِهَةً... ﴿٣١﴾ ﴾ يعني ألوان الفاكهة، ﴿ وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ هو ما ترعاه البهائم، ﴿ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي منفعة.

* * *

[قوله تعالى]:

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾

وهي الصيحة الثانية، سُمِّيت الصاخة؛ لأنها تصخُّ الأسماع أي تُصِمُّها فلا تسمع إلا الدعاء لإحيائها.

ثم ذكر في أي وقت تجيء فقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ ﴾ **والمعنى**: أنه لا يلتفت الإنسان إلى أحد من أقاربه لِعِظَم ما هو فيه. قال المفسرون: يفرُّ هابيل من قابيل، ويفر الخليل عليه السلام من أُمِّه وأبيه، ويفرُّ نوح عليه السلام من ابنه وزوجته، ويفرُّ لوط عليه السلام من صاحبته، ويفرُّ نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام من أمِّه [(١)]، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي يشغله عن قرابته.

وروى أنس قال: « قالت عائشة للنبي ﷺ: « أنحشر عُراة؟ قال: « نعم »، قالت: واسوأتاه! فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [(٢)].

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن ابن أبي مُليكة، أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: « إنكم تحشرون يوم القيامة عُراة غُرْلًا » قالتْ عائشة رضي الله عنها: يا رسول اللَّه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: يا عائشة « إن الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذاك » [(٣)] (أخرجاه في الصحيحين).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « يعرق الناسُ يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ويُلْجمهم حتى يبلغ آذانهم » [(٤)].

وفي أفراد مسلم من حديث المقداد عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا كان يوم القيامة أُدْنيت الشمس من العباد حتى يكون قَيْد ميل أو ميلين، فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من تأخذه إلى حَقْويْه [(٥)]، ومنهم من تُلجمه إلجامًا ».

أخبرنا محمد بن البزار [(٦)] بسنده عن أبي مريم الأنصاري، عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: بينا عائشة عند رسول اللَّه ﷺ إذ بكت، فقال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) كان الأولى ترك المعنى على عمومه دون ذكر لحال الأنبياء مع بعض أهليهم.

(٢) روى نحوه الإمام أحمد في مسنده : ٦/٩٠. عن عائشة.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٥٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٤٧.

(٥) الحقو: معقد الإزار والحديث في صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٦٢.

(٦) الأصل: أخبرنا محمد بن أبي هريرة البزار. وهو تحريف.

« ما يبكيكِ »؟ قالتْ: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: « أمَّا في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أتثقل موازينه أم تخف، وعند الكتاب حين يقال: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [1] حتى يعلم أين يقع كتابه، أفي يمينه أم في شماله أم وراء ظهره، وعند الصراط حين يوضع بين ظهري جهنم حتى يعلم أينجو أم لا ينجو » [2].

سجع على قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾:

يلتفت الولد عن أبيه والأخ عن أخيه، ويتحيَّر الإنسان كأنه في التِّيه، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

يقلق العاصي يوم حشره، ويبكي على ضياع عمره، ويعتذر ولا قبول لعذره، فكم يميته الخوف ويحييه، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

هولٌ [3] إذا ظهر يغمّ، يشغل الابنَ عن الأم، وكلٌّ مقبل على ما يُهمّ عن أهله وذويه، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

تُقْبل الوالدة على كمدها وتخاف النار على جسدها، ولا تجد من يأخذ بيدها فتشتغل عن ولدها ولا تراعيه، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

ويل للعاصي إذا أسخط معبوده، حسرةٌ إذا فاته مقصوده، من له إذا شهدت عليه جلوده وخُتم على فيه، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

يبكي العصاة ما قد مضى، ويضيق بهم للغضب الفَضا، عدموا العفو وفقدوا الرضا، ومرضوا حينئذ مرضًا ما له من يداويه، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

أحضرهم يومًا مشهودًا، وأحضر أنكالًا وقيودًا، أما علمتم أنكم ما أتيتم مقصودًا إلا كنا عليكم شهودًا إذ تُفِيضون فيه.

يتمنون بَعد الوجود العدم، ولا يقدرون على إصلاح ما انهدم، فلو رأيت العاصي قد زلَّت به القدم ونار الندم تكويه.

وقعوا في الخسران وعدموا ربحًا، ونُشرت صحائفهم وقد حوت قُبحًا، فيا أيها المنصوح اسمع من النصيح نصحًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[4].

والله أعلم.

---

(١) سورة الحاقة: ١٩. (٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده: ٦/١٠١.

(٣) أ: الهول: المخافة من الأمر لا يدري ما هجم عليه منه. (٤) سورة الانشقاق: ٦.

المجلس الرابع والعشرون

في ذكر التوكل

الحمد للَّه القديم، السابق العظيم، الخالق الكريم، الصادق الرحيم الرازق، رافع السبع الطرائق بغير عَمد ولا علائق، ومثبت الأرض بالشُّم الشواهق، مزينة بالأشجار والحدائق، المتعرِّف إلى خلقه بالبراهين والحقائق، المتكفِّل بأرزاق جميع الخلائق خالق الحيوان الناطق من ماء دافق، ربُّ السموات والأرض وما بينهما ورب المغارب والمشارق.

أحمده ما سكت ساكت ونطق ناطق، وأقرُّ بوحدانيته إقرار مخلص لا منافق، وأصلي على رسوله محمد الذي عمَّت دعوته الحضِيض والشاهق، وعلى صاحبه أبي بكر القائم يوم الردة بالحزم اللائق، وعلى عمر مدوِّخ الكفار وفاتح المغالق، وعلى عثمان الذي ما استحلَّ حُرَمه إلا مارق، وعلى عليٍّ الذي كان يدخل بالشجاعة في المضايق، وعلى عمِّه العبَّاس الذي أحكم بيعة العقبة والليل غاسق.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٣).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس عن النبي ﷺ أنه قال: « عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم فقلت: هذه أمتي؟ فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فإذا سواد عظيم فقيل: انظر إلى هذا الجانب الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ». ثم نهض النبي ﷺ فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم: لعلَّهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا باللَّه شيئًا. فخرج إليهم النبي ﷺ، فقال: « ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟ » فأخبروه، فقال: « هُم الذين لا يَكْتوون ولا يَسْتَرْقُون وعلى ربهم يتوكلون » (٤). (أخرجاه في الصحيحين).

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن عبد اللَّه بن هبيرة، عن أبي تميم الجَيْشاني، عن

---

(١) سورة المائدة: ٢٣. (٢) سورة الطلاق: ٣. (٣) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٥٠. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٣٧١، ٣٧٢.

عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « لو أنكم توكَّلتم على اللَّه حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدو خِماصًا وتروح بِطانًا »[(١)].

قال القرشي: وحدَّثنا محمد بن الربيع قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن زيد العمِّي[(٢)] عن أبيه، عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « اللَّهم إني أسالك صِدق التوكل عليك، اللَّهم اجعلني ممن توكَّل عليك فكفيته »[(٣)].

وقال وهب بن منبه لرجل: خَصْلة إن أصبتها بلغت بها الغاية القصوى وهي التوكُّل.

وقال سعيد بن جُبير: التوكُّل جُمَّاع الإيمان[(٤)].

واعلم أن التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل وحده، ومَن وكَّل وكيلًا لم يطمئن إليه حتى يعلم فيه غاية الهداية والقوة والنصاحة والشفقة، فحينئذ يطمئن إليه. فإذا علم المؤمن أن لا أعلم من اللَّه ولا أرحم منه وكَل أمره إليه.

واعلم أن توكُّل العامة ليس بتوكل؛ لأنهم يعتمدون بالقلوب على الأسباب، ولو علموا أنه لا ينبغي الاعتماد عليها ما اعتمدوا، فإن الملك إذا وقَّع بجائزة لم يُشكر القلم، ومن ترقَّى عن هذا المقام فرأى الأشياء[(٥)] صادرة عن الخالق ﷻ صحَّ له التوكل، فإن ترقَّى عن هذه الحالة لم يرَ إلا الخالق؛ إذ لا فاعل سواه فلم يشاهد السبب، فهذه الغاية في التوكل، وصاحب هذه الحالة يكون كالميت بين يدي الغاسل.

قال أبو موسى الدَّبيلي: قلت لأبي يزيد ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ فقلت: إن أصحابنا يقولون لو أن الأفاعي والسباع عن يمينك وشمالك ما تحرَّك لذلك سرُّك. فقال أبو يزيد: هذا قريب، ولكن لو أنَّ أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع لك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل!

وهذا أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل، وهو العلم بالحكمة، فإن ما فعله اللَّه تعالى فعله بالحكمة، ولا تمييز بين أهل الجنة وأهل النار بالإضافة إلى الحكمة والعدل.

وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سرُّ القدر!

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب رقم : ١٤.

(٢) نسبة إلى العمِّ؛ لأن أباه كان كلما سئل عن شيء قال: حتى أسأل عمي. اللباب : ١٥٤/٢.

(٣) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٤) الجماع بضم الجيم وتشديد الميم: مجتمع أصل الشيء.

(٥) أ: ومن ترقى هذه الأشياء علم أن الأشياء. ولعله تحريف. وما أثبته من « ش ».

واعلم أن التوكل فِعْل القلب، ولا ينافي الكسْب بالبدن والادِّخار وجلب المنافع ودفع المضار والتداوي.

فإن قيل: فما معنى قوله: « لا يكتوون » **قلنا:** كانوا يكتوون قبل المرض ليدفع عنهم، فأما التداوي فلا يمنع منه؛ لأن الأدوية مسخَّرة؛ فالأسباب (١) لا تنافي التوكل، قال عمر ابن الخطاب: إنما المتوكل الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكل على الله ﷻ.

وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يحبس لأهله قوت سنتهم (٢) ورُوِّينا عن سلمان ﷺ: أنه اشترى وسَقًا من طعام وقال: إن النفس إذا أحرزت قُوتَها اطمأنت وتفرَّغت للعبادة ويأمن منها الوسواس (٣).

وقد خلَّف الزبير وعبد الرحمن وابن مسعود وأكابر الصحابة أموالًا كثيرة، وخلَّف ابن المسيِّب والثَّوري. وقد رُوِّينا عن داود الطائي أنه ادَّخر ميراثًا فأنفقه في عشرين سنة.

ولا يلتفت إلى قول من قال: إن المتوكل لا يدخر ولا يتعرض بالسَّبب، فإن أولئك قوم جهلوا معنى التوكل وآثروا البطالة والراحة، وقد قال الله ﷻ: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (٤) وقال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٥)، وقال لموسى الكليلا: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ (٦). وقد اختفى رسول الله ﷺ في الغار. وقد أخبرنا إسماعيل بن أحمد، قال: أخبرنا نصر بن أحمد بسنده عن المغيرة بن أبي قُرة السدوسي قال: سمعت أنس ابن مالك يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكَّل أو أُطلقها وأتوكَّل؟ قال: « اعقلها وتوكَّل » (٧).

فإن قال قائل: إذا أخذ المتوكِّل سلاحه وأغلق بابه فبأيِّ معنى يكون متوكلًا؟

فالجواب: يكون متوكِّلًا بالعلم والحال، أما العلم فهو أن يعلم أن العدوَّ إن اندفع فَبِدَفْع الله ﷻ لا بأخْذ السلاح، وإن سَلِم من اللص فَبِمَنْع الله تعالى لا بغَلْق الباب، فيتوكَّل على المسبِّب لا على السبب. وأما الحال فيكون راضيًا بما يقضي الله ﷻ عليه، ومتى عرض له أنه لو احترز لم يُسرق متاعه فهو بعيد عن التوكل. وإذا علم أن الخيرة فيما يقضي الله تعالى لمْ يحزن لما جرى، فليعلم أن القدر كالطبيب، فإن قدَّم إليه الطعام

---

(١) أ: والأسباب لا ينافي.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب رقم : ٣. وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، حديث رقم : ٥٠.

(٣) أ: ويأمن من الوساوس.

(٤) سورة النساء: ٧١.

(٥) سورة الأنفال: ٦٠.

(٦) سورة الدخان: ٢٣.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القيامة، باب رقم : ٦٠.

فرح وقال: لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدَّمه، وإن منعه فرح وقال: لَوْلا أنه علم أن الغذاء يؤذيني ما منعني.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن الحسن بن محبوب، قال: حدَّثنا الفيض بن إسحاق قال: قلت للفُضيل: تَحُدُّ لي (١) التوكل؟ فقال: آه كيف تتوكل عليه وهو يختار (٢) لك، وتسخط قضاءه؟ أرأيت لو دخلت بيتك فوجدت امرأتك قد عَمِيتْ وبنتك قد أقْعدت، وأنت قد أصابك الفالج، كيف كان رضاك بقضائه؟ قلت: أخاف ألَّا أصبر. قال: لا حتى يكون عندك واحدًا ترضى بكل ما صنع في العافية والبلاء.

ووقع اللصوص على رجل فأخذوا ماله، فشكا إلى بعض العلماء فقال: إن لم يكن غمّك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمّك بمالك فما نصحت للمسلمين (٣).

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد اللَّه بن أحمد قال: حدَّثنا أبي قال: حدَّثنا أبو جعفر قال: حدَّثنا صالح بن عبد الكريم قال: أتى رجل من إخوان فُضَيْل من أهل خراسان فجلس إلى الفضيل في المسجد الحرام فحدَّثه ثم قام يطوف، فسُرقت منه دنانير قال: ستين أو سبعين، فخرج الخُراساني يبكي فقال له الفضيل: ما لك؟ قال: سُرقت الدنانير! قال: عليها تبكي؟ قال: لا مثَّلْتُني وإيَّاه بين يدي اللَّه ﷻ فأشرف عقلي على إدحاض حُجَّته فبكيتُ رحمة له!

فبان من جملة ما ذكرنا: أن التوكَّل عمل القلب واعتماده على الخالق ورؤيته: أن لا نفع ولا ضر إلا منه، ورضاه بما يدبِّره؛ لأنه حكيم. واللَّه أعلم.

* * *

الكلام على البسملة

تمنَّيتَ الإقامة يا خليلي ... وما دُنْياك دار للإقامهْ
وغرَّتك السلامة في حِمَاها ... وأقوى الداء للحيِّ السلامهْ
سعيت لدار طَبْعك أيَّ سعي ... وقد أعرضتَ عن دار الإقامهْ
شُغلت لزاد يومك شُغل من لَمْ ... يُردْ زادًا إلى يوم القيامهْ

لقد أبانت لك الدنيا عِبرَها، وأوضحت عندك أمرها وخبرها، والسعيد مَنْ خَبَرَها فعبَرها، والشقيّ من آثرها وقد سبَرَها، كم قتلت شديدًا، وكم أدالت سَديدًا (٤)،

---

(١) تحدُّه: تبين حدّه.
(٢) أ: وأنت تختار.
(٣) أ: المسلمين.
(٤) أ: وكم أذلت شديدًا.

وكم فرَّقت عديدًا، وكم أبْلَتْ جديدًا، وكم بتَّتْ عُمرًا مديدًا، كم أسمعت حين قالت، وكم سُئلت [١] فما أقالت، وكم غيَّرت وكم أحالت، وكم حجبت عن مقصود [٢] وحالت، وكم وعظت وعلى مصارع الأقران [٣] أحالت، وكم أزالت إذ زالت من خيرات توالت.

كم أخربَت رَبْعًا، وكم أسالت دمعًا، وكم أعرضت عن مُحبِّها [٤] قطعًا، أين من كان فيها بالملك يدعى، أين من أضحى في تحصيلها يسعى، هيهات صاروا في بطون الألحاد صرعى، وسلكوا من الممات شرعًا، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ [٥] جمعناهم جمعًا.

للَّه درُّ أقوام رفضوا الدنيا لعلمهم أنها لا تبقى، ومالوا بالنفوس عنها حذرًا أن تَشقى، وبادروا الفَوْت فأحرزوا بالجِدِّ سَبْقا، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [٦].

منعوا أنفسهم فيها ما اشتهتْ، وزجروا هممهم عنها فانتهتْ، وساروا بعزائمهم إلى مقام الفوز فانتهت، وأيقظوا قلوبهم من رقاد الغفلة فانتبهتْ، وذلَّلوا أنفسهم بالرياضة فما تكبَّرت ولا زهَتْ، وثَنَوا عِنانها عمَّا شَانَها إلى ما يصلح شأنها فتوجَّهتْ.

بأبي واللَّه ظمؤهم في الهواجر، ونصَبهم في الدَّياجر، ودموعهم في المحاجر، وأرباحهم في المتاجر، وخوفهم من يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر.

طاب واللَّه موردهم، ولكن ما وردت موضع سبيلهم إلا أنك ما قصدت، ودعاك الهدى إلى الفوز بالمنى فتقاعدْت، واستُزِرْتَ للتقريب فأعرضت وتباعدت، أُخْلُ بنفسك في بيت العزلة، واشتغل بالعمل فإلى كم عُطلة، وحصِّل زادًا يكفى للنُّقلة، فكأن قد ضرب بُوق الرِّحلة:

فيا نفسُ إن تطلبي عافيه ... فلا بد أن تلزمي زاويةْ
فقد صار إخوة هذا الزمان ... ذئابًا إذا فُتِّشوا ضاريةْ
أكفٌّ عن الخير مكفوفة ... وألسنةٌ بالخطا جاريةْ
فطوبى لمُستحلس بيته [٧] ... قَنُوعٍ له بُلْغةٌ كافيةْ
نداماه دون الورى كُتْبُه ... فلا إثم فيها ولا لاغيةْ
فمن شرِّه الناس في نجوة ... ومن شرِّهم نفسه ناجيةْ [٨]

---

(١) أ: ولو سئلت.
(٢) أ: عن مقصودها.
(٣) أ: أقران.
(٤) أ: حبها.
(٥) سورة المؤمنون: ١٠١.
(٦) سورة الأنفال: ٤.
(٧) صار حلس بيته: أي ملازمًا له.
(٨) ورد مثله في حلية الأولياء لأبي نعيم.

إلى متى هذه الحَيْرة والمقصود معروف، وعَلَام تعتمد في عملك يوم الوقوف، وكيف تصنع إن أعرض الكريم العطوف، وبم احْتِجَاجك وكِتابك منضود بالسيئات محفوف، وكيف حالك إن شَهرك بين الصفوف، ومن لك إن فاز الصادقون وأنت بالكذب موصوف.

يا مُقبلًا على عدوه ومعرضًا عنّا، هل رأيت خيرًا قطُّ إلا مِنّا؟ أنا الذي لاطَفْتُ وعاطفت (١)، وجمعت بين (٢) المتضادات فألَّفت، وأنعمتُ بَدِيًّا (٣) وسلَّفت، وعرَّفتك نفسي فقدَّمتك (٤) وشرَّفت، متى تشكر إنعامي ورفقي؟ أرضيت أن تكون من شرار خلقي؟! من لك إن رميتك بهجري، من لك إن حرمتك أَجْري، من لك لو حبستُ عنك ما أُجري، من لك إن منعتك الهدى بحجري، يا غافلًا وهذا العتاب (٥) يجري.

يا مصنوع قدرتي، يا موضوع حكمتي، يا من علَّمته اسمي وعرّفته صفتي، احذر عصياني وخَفْ مخالفتي.

يا مُقبلًا إلى بابي مرحبًا وأهلًا، يا مبارزًا لي بالذُّنوب رويدًا مهلًا، يا قليل الشكر مَنْ كَفَلك طفلًا، يا مُتحيِّرًا في أمره والقرآن عليه يُتلى، يا مغترًّا بالحلم كم تحت الحلم جرحي وقتلي، يا مسرورًا بعيشه عيش محبتي أحْلَى:

مدامع المشتاقُ ما تَفْتُرُ وطرْفه من جزع يَسْهرُ
وقلبه من خوف معبوده مكتئبٌ منزعج مفكِّرُ
فلو تراه في دُجى ليله والدمع من أجفانه يقطُرُ
رأيت عبدًا خائفًا واقفًا على عتاب الخوف ما يَعْبُرُ

لما حضرت الوفاة إبراهيم بن هانئ قال لابنه: أنا عطشان. فجاءه بماء فقال له: أغابت الشمس؟ قال: لا. قال فردَّه ثم قال: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ (٦) ومات.

يا من كان له قلب فمات، ووقتٌ ففات، ابْكِ على حلول الآفات لعلك تستدرك ما فات:

كان لي قلبٌ أعيش به ضاع مني في تقلُّبه
ربِّ فارْدُدْه عليّ فقد ضاق صدري في تطلُّبه (٧)
وأغثْ ما دام بي رمَق يا غياث المستغيث به

كان سمنون يدخل رأسه في مُرقَّعته ثم يرفعه، ويزفر الزَّفرة بعد الزَّفرة ويقول:

---

(١) ش: وعطفت. (٢) أ: وعرفتك بين. محرفة. (٣) بديًّا: في البداية.
(٤) أ: وقدمتك. (٥) ش: هذا العتاب. (٦) سورة الصافات: ٦١.
(٧) أ: ضاقت الدنيا به. تحريف.

تـركـتَ الـفـؤاد عـلـيـلًا يُـعـاد ... وشـرَّدت نـومـي فـمـا لـي رقـاد

يا هذا ما الذي أبعدك من هؤلاء السادة، حبُّ الأكل والوسادة، طاعتك في نقصان ومعاصيك في زيادة.

أمـسـتـوحـشٌ أنـت مـمـا جـنـيْـ ... ـت فأحسنْ إذا شئت واستأنسِ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً... ﴾ (١)

قال قتادة: غبراء متهشِّمة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ... ﴿٣٩﴾ ﴾ يعني المطر ﴿ ٱهْتَزَّتْ... ﴿٣٩﴾ ﴾ أي تحرَّكت بالنبات (٢)؛ لأنها ترتفع عنه إذا ظهر ؟﴿ وَرَبَتْ... ﴿٣٩﴾ ﴾ أي ارتفعت وزادت. وقال المبرِّد: اهتزَّ نباتها وربا، فحذف المضاف. وقرأ أبو جعفر ﴿ وربأت ﴾ بهمزة مفتوحة بعد الباء كأنه يذهب إلى الرَّبيئة الذي يحرس القوم وهو يرتفع على مكانٍ عالٍ.

يا هذا لو خشعتْ أرضُ قلبك بانكسارها، لعطف عليها غيث اللُّطْف فاهتزت بنبات الهدى، يا من أرضه سَبَخ وعمله وَسَخ، والجهل في قلبه قد رسخ كلما عَقَدَ عَقْد التوبة فسخ.

يا من يُسرع إلى ما يضره ويبادره، ويعرض عما ينفعه ويحاذره، ويبارز الخالق بالخطأ ويجاهره، أَمَا رأيت قصرًا خلَت بالموت مقاصره، أَمَا عاينت مَلِكًا تفرَّقت عشائره، أَمَا أبصرت ذُخرًا لم ينتفع به ذاخره، أَمَا الموت جسرٌ وكلُّ حيٍّ عابره، أَمَا هذا القول (٣) تسمعه كلَّ يوم وتبصره.

يا ساكن القبر قلِّب حين تَسْكنه ... عينيك وانظر إلى ما يصنع الجاني

يا داخل القبر اسمع حين تدخله ... ماذا يريبك فيه بُعدك الداني

يا عين لا تَكِلي دمعًا ولا ترحًا ... إلا إلـى أعـيـن يَرْقُبْـن مـيـزانـي

نزل القطر على الأرض فدهشت وعجبت، وتحرَّكت بعد نقصها برقصها وطربت، وخلعت على الربيع جُلَّنارها (٤) لما شربت، فما أبقت في خزائنها شيئًا إلا وهبت ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾.

وقفت السحائب وقد ملئت وانتصبت، فاستعجلتها الرُّعود ثم زمجرتْ وغضبتْ،

---

(١) سورة فصلت: ٣٩. (٢) أ: للنبات. (٣) أ: المقول.

(٤) الجلنار: زهر الرمان. ويجوز أن يريد: جل نارها أي معظم نارها.

فضاحكتْها البروق كأنها قد لعبت، فبكت السُّحب على جدب الأرض وندبت، فإذا رهبت الجدوب من صوت الرعود فهربت، وأجابت داعيها شاءت أم أبتْ، فظهرت أنوار النَّوْر فأدهشت وأعجبت، وقامت الوُرْق تغني فأطربت، وطردت غربان الجدب وطال ما نعبتْ، أفرغت السحب عَزاليها [1] ثم ذهبت، وخطَّت أكفُّ الخُضرة في الحضرة فيا حُسن ما كتبت، ثم كان القطر يسقيها فالتهبت، فإذا خُطبت لخطبها زوَّجها النَّبت ورغبت، فانعقد بعقد الحب عقد النكاح وثبت، فراعتْه الشمس كلما طلعت ورغبت، وأثَّرت فيه النجوم إلى أن احتجبت، فإذا لانت عيدان البُرِّ بعد أن صَلُبت، وعَمِرت ديار الرَّوض وطال ما خربت، وكانت الأغصان كالقاعد فوثبَتْ، وجلبت الخيرات قبل أن طُلبت، فإذا بلغت الرياض الأماني، وعمر البُرُّ قاصيها والداني، واستراحت من نَصَبها السَّواني وطال ما تعبت، فواعجبًا لمن غفل عن هذا أولها، ويا أسفًا لمن لم يُفده الدهر ولَّها، ومقصود كل هذا ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [2].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ... ﴿٣٩﴾ ﴾:

دلَّ بإخراج النبات بعد عفنه على إخراج الميت حيًّا من مَدْفَنه.

لو رأيت البذر تحت الأرض قد ثوى، فلما نُفخت فيه روح القُوى انطلق الحب وانشقّ النَّوى، فارتفعت عنه الأرض كأنها تدري ما نوى، نَفَخ في الصور الرعد ينادي أشكال ترتيبه وأنواع عجيبه ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [3].

متى يعيش قلبك الميت، لَيْتك رأيت وجه الصلاح، ليت جسدك عندنا وقلبك في البيت.

ألا معترف نعاتبه، ألا مُقرٌّ نطالبه، ألا مُذنب يلين بالوعظ جانبه، إلى متى يهمل العاصي ونراقبه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا... ﴿٤٠﴾ ﴾:

قال الفرَّاء: يلحدون: يعترضون. وقال ابن قتيبة: أصل الإلحاد الميل. قال مجاهد هو المُكاء [4] والصَّفير عند سماع القرآن.

﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ... ﴿٤٠﴾ ﴾ هذا وعيد لهم بالعقوبة.

﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ... ﴿٤٠﴾ ﴾:

أين من نصب خيامه في نجدٍ وتهامة، أين الكَعبان: ابن لؤى وابن مامة [5] ما نفعتهم

---

(١) العزالي: جمع عزلاء وهي مصب الماء من الراوية ونحوها.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) سورة يسٓ: ٣٦.

(٤) المكاء: هو الصفير بالفم.

(٥) قال في القاموس: وكعب بن مامة جواد.

الشجاعة ولا ردّت الشهامة ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

اجتمعوا على الهوى واتفقوا، فلما حلُّوا اللحود افترقوا، بينا الشَّرب [١] على شُرب اللذات شرقوا، أين العاشقون وما عشقوا.

كم نقضوا إبرامه، نجا المتقون وفازوا بالكرامة، كانوا إذا جنَّ الدجى قالوا لِلْكرى: مَه [٢].

عزموا على ما التزموا فما التدموا [٣] وما انهزموا للصرامة، كم بينهم وبين أهل العزم والعَرامة [٤] ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

انجلت قلوبهم من الصَّدا، فعملوا اليوم ما ينفعهم غدا، وآثروا بالموجود وبذلوا النَّدى وما اعترتْهم ندامة.

سلموا يوم الحساب والميزان، ووقِّع لهم بدخول الجِنان، فقالت لهم الحور الحسان: تَهْنيكم السلامة.

سبحان من أعطاهم، وأنعم عليهم وأولاهم، تعرفهم بسيماهم، وقد دلت العلامة ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

كأنك بك وقد نازلك الموت المثير، وأنزلك اللحد بين منكر ونكير تحت بسطة قامة ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

أمَّا أركان الحياة فقد تداعت، وأما ذنوبك فقد كثرت وشاعت، وما قبلت النفس النُّصح ولا أطاعت، وآسفًا ضاعت الملامة.

ويحك! أتركب في هواك لَجَاجا، ويذهب العمر وما قضيتَ حاجَا، أترضى بحال من نافق وداجَى [٥]، يا عقلًا [٦] يحتاج إلى دِعامة.

ويحك انظر بين يديك، وتأمل العِبَر فهي لديك، ويحك قد جاء النذير لديك وكم عليك ظُلامة.

من لك إذا خُتم على فيك، ونطقت الجوارح بما فيك، وزفرت النار فهل فيك، ويكفيك النفس اللوامة.

مَنْ لك عند نَشْر الكتاب، من لك عند قوة العتاب، من لك إن حكم بالعذاب، تاللّه ما يُنْسى في الحساب ولا قُلامة.

---

(١) الشرب: الجماعة يشربون.

(٢) الكرى: النوم، ومه: اسم فعل بمعنى كُفّ.

(٣) التدموا: اضطربوا.

(٤) العرامة: الحدة والشدة.

(٥) أ: بحال منافق قد داجى.

(٦) أ: يا عاقلًا.

يا من يحدَّث ولا يسمع، ويضيع الحديث معه وما ينفع، أمَا القيامة للخلق تجمع، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ (١).

كم نُنْعِم عليك ونغذِّيك، كم نعطيك، كم نريدك ولا يلتوي إلينا جِيدك، أفنقودك بخِزَامة (٢) ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ... ﴿٤٠﴾ ﴾:

قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر ومعناه الوعيد والتهدد.

إلى متى غفلة شاملة، وكم آثرتم المحن القاتلة، ومن أي وجه أمنتم البلايا العاجلة، أَوَ مَا علمتم غرور العاجلة.

أسفي لنفس تسعى في هلاكها وتظنها سالمة، وتتناول السموم وهي بشرِّها عاملة، وتنسى ما هي عليه عن قليل قادمة، ستنتبه من رقداتها فإنها الآن نائمة.

ويحك معصيتك لا تضرُّنا، وإنما تعرض بك للمهالك وضياع أوقاتك، تحسِّن (٣) دارًا لهالك، وطاعتك للشيطان تُعْقبك سُخْطَ السلطان المالك، إلى متى تغرك الدنيا وقد غرَّت بأمثالك، وختامًا تُعرض عن قول الصادق إلى غرور الآفك، وكيف تغفل عن جنة ذات سرر وأرائك، وكيف ارتكبت الخطايا وتركت الصواب من ورائك، يا ليت شعري بمن تقتدي أم أنت برأيك، أمَا الموتُ ناقلك فتزوَّدْ لارتحالك، أما اللَّه مُسائلك فانظر في حالك، أمَا الملَك يكتب جميع أقوالك وأفعالك، أما القبر منزلك فاعمره قبل انتقالك، أما العتاب شديد فاحذر قبيح خصالك، أما ثمَّ ميزان عدل فاجتهد في أعمالك، أما الصراط دقيق وكم عنده من هالك، أما الجنة خيرَ مَقِيلٍ فاشترها بمالك، أمَا النار بئس المصير فاحذر صوْلة مالِك (٤) أما التجارات مربحة فلا ترضَ (٥) بإقلالك، أتوقن بما تلوته عليك أم أنت مرتاب بذلك؟!:

اللَّه أدرانا بأمر وما نغسل بالتوبة (٦) أدْرانا
أجْرأنا الجهلُ على إثمنا (٧) وهو على الإحسان أجْرانا
إني حيٌّ ران ذنبي على قلبي فما أنفكُّ حيرانا (٨)

---

(١) سورة القيامة: ٣.
(٢) الخزامة: برة تجعل في منخر البعير.
(٣) كذا بالأصل.
(٤) مالك: خازن النار.
(٥) أ: فلا تعرض.
(٦) أ: لتغسل التوبة.
(٧) الأصل: على المنى. وما أثبته من اللزوميات: ٢/٥٣٣.
(٨) كذا في ش موافقًا للزوميات، وفي أ: إني بذنبي متحير والقلب ما زال حيرانًا. ولعله تحريف.

فرحمة اللَّه على أمة عهدتها في الأرض جيرانا
أقرأنا منها السلامَ الكَرى وكم أباد الحتف أقرانا
نُهمل أسرانا بأيدي الرَّدى ونُدلج الليل بأسرانا (١)

إخواني: كم أنعم عليكم وحُيِّيتم، كم أُرشدتم إلى الصواب وهُديتم، كم وقعت لكم حاجة فكفيتم، يا مبارزينا بالذنوب ما خفيتم، اعملوا ما شيتم.

أُخذ غيركم وبقِيتم، كم دُفع عنكم أذى ووقِيتم، كم أنعم عليكم وأعطيتم، وكأن قد عُزلتم عمَّا وَليتم، اعملوا ما شيتم.

واعجبًا قد نُهيتم ولا تتركون ما قد هَوِيتم، كم عِبرة قد أُريتم، تيقظوا قد أُتيتم، اعملوا ما شيتم.

كأنكم بكم بالألحاد قد بَليتم، ولهَا عنكم أُهَيْلكم وخفيتم، ونسيت أذكاركم وطُويتم، ولا تسألوا عما لقيتم.

يا من في الذنوب يتناهى، ويُعجَب بالخطايا ويتباهى، كم من ذنوب سترناها لو أظهرناها خَزِيتم.

متى تنتبهون من هذا النوم، إلى كم يضيع العمر باليوم بعد اليوم، أمَا يؤثِّر فيكم هذا اللوم، ترحَّلوا يا قوم فقد حُديتم.

ليبرزنَّ الميزان والصراط، وليندمنَّ أصحاب التفريط والإفراط، فيا أهل المعاصي والانبساط كيف بكم إذا شقيتم.

لقد حدَّثناكم لو فهمتم، وأخبرناكم بالعواقب لو علمتم، غير أنكم في أودية الهوى قد هممتم (٢)، فإن كنتم بالغفلة قد حُشيتم (٣) وما جنيتم وحُوشيتم، فاعملوا ما شيتم.

واللَّه أعلم.

* * *

(١) كذا بالأصل وفي اللزوميات: ويدلج الليلة أسرانا، وهذه الأبيات من قصيدة لأبي العلاء المعري في اللزوميات: ٥٣٣/٢، ط صادر.

(٢) كذا ولعلها: قد هِمْتم. كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٥].

(٣) أ: قد حشيتم وما خشيتم.

المجلس الخامس والعشرون

في المحبة للَّه ﷻ

الحمد للَّه الداعي إلى بابه، الهادي لأحبابه، المنعم بإنزال كتابه، يشتمل على مُحْكم ومتشابه، وليس للمتكلم به مُشابه، شُغل به محبُّه عن مِزماره وربابه، فكلما تلاه (١) زاد الحبُّ وربَا به (٢)، وكساه العرفان ألوان ثيابه (٣)، فألهاه عن الكون لذةُ شرابه، وسرى به عن سرابه، فهو دون المالكين (٤) كلهم أولى به.

أَحمدُه على الهدى وتسهيل أسبابه، وأشكرُه على البيان وكشف نقابه، وأقرُّ بوحدانيته إقرار مؤمن لا يأمن من عقابه، وأن محمدًا عبده ورسوله قدَّمه على أضرابه، ورآه عيانًا ليلة أسرى به، صلى اللَّه عليه وسلم وعلى صاحبه أبي بكر الصديق المقدَّم على أصحابه، وعلى عُمر الذي عَزَّ به (٥) الدين واستقامت الدنيا به، وعلى عثمان شهيد داره وقتيل مِحْرَابه، وعلى عليٍّ الذي كان إذا بارز قِرْنًا حُكم له بأسلابه، وعلى عمِّه العباس المقدَّم على ذوي أنسابه.

* * *

قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ (٦)

محبة اللَّه تعالى خالصة للمؤمنين، قال اللَّه ﷻ: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (٧)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (٨)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (٩).

وفي الصحيحين من حديث أنس أن رجلًا سأل رسول اللَّه ﷺ عن الساعة فقال: « ما أعددتَ لها؟ » قال: لا شيء إلا أني أحب اللَّه ورسوله. فقال: « أنت مع من أحببت » (١٠). وفيهما من حديث أنس أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: « ثلاث من كنَّ

---

(١) أ: فكلما آتاه. (٢) ربا: زاد. (٣) أ: أثواب ثوابه.
(٤) أ: دون التالين. (٥) أ: أعزَّ. (٦) سورة آل عمران: ٣١.
(٧) سورة المائدة: ٥٤. (٨) سورة البقرة: ١٦٥. (٩) سورة التوبة: ٢٤.
(١٠) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب رقم : ٦.

فيه وجد (١) حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يوقد له نار فيقذف فيها » (٢).

أخبرنا محمد بن أبي القاسم بسنده (٣) عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبي ﷺ إلى مُصعب بن عمير مُقبلًا وعليه إهاب كبش قد تَمنْطَق به، فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوَّر اللَّه قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغْذوانه (٤) بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبُّ اللَّه ورسوله إلى ما ترون » (٥).

ومرّ عيسى ابن مريم بثلاثة نفر قد نَحَلَتْ أبدانهم وتغيَّرت ألوانهم، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الخوفَ من النار. قال: حقٌّ على اللَّه أن يؤمِّن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين (٦)، فإذا هم أشدُّ نحولًا وتغيرًا فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حبُّ اللَّه تعالى. فقال: أنتم المقرَّبون أنتم المقربون.

واعلم أنه لا يتصوَّر حبٌّ (٧) إلا بعد معرفة وإدراك، وكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب؛ لأن في الطبع ميلًا إليه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: « حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: « الطِّيب والنساء وجُعلت قرة عيني في الصلاة » (٨)، فجعل الصلاة أبلغ المحبوبات. ومعلوم أنه ليس تَحْظَى بها الحواس الخمس؛ بل حسٌّ سادس مظنته (٩) القلب، وهذه الحاسة تدرك ما لا يدرك بالحس، وبها يتميز الآدمي عن البهيمة، فجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة التي تجلُّ عن أن تدركها الحواسُّ أتم وأبلغ، فيكون ميل العقل الصحيح أقوى، فلا ينكر حبَّ اللَّه تعالى إلا من لم يجاوز إدراك الحواس.

ومن المعلوم أن الإنسان يحب نفسه ودوامَ وجودها، ويحب المال لأنه سبب بقائه، ويحب ولده لأنه جزء منه، ويحب أهلَه لأنه يتقوى بهم، ويحب من أحسن إليه لأنه يعينه على بقائه، وقد يحب الشيء لا لحظ نفسه كحب الجمال والحسْن، وليس كل

---

(١) أ: وَجَد بهن.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب رقم : ٩. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٦٦.

(٣) أ: بإسناده. (٤) أ: يغذيانه.

(٥) روى نحوه ابن الأثير في أسد الغابة : ٣٧١/٤.

(٦) أ: إلى ثلاث نفر آخرين. (٧) أ: محبة.

(٨) أخرجه أحمد في مسنده : ١٢٨/٣ - ٢٨٥. والنسائي في سننه، باب عشرة النساء، حديث رقم : ١.

(٩) أ: مطيته.

جمال يدركه الحسُّ فإن القلب أشد إدراكًا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور المدركة بالأبصار، فإن من أحب أبا بكر وعليًّا شاهد جمالهما وكمالهما في معاينة بعين علمه لا ببصره، ومن أبغض إبليس وأبا جهل فبمشاهدة البصائر مقابحهما لا صورهما، وكذلك من سمع عن شخصٍ شجاعةً أو كرمًا أو رأي نفعًا مستحسنًا فإنه ينكشف لبصيرته صورة الفاعل لذلك فيحبه.

وهذه البصيرة هي نور العقل التام، فإن الصبي يستلذ اللعب، فإذا ترعرع رأي لذة الزينة وركوب الخيل، فاحتقر ما كان فيه من اللعب، فإذا بلغ طلب النكاح فاحتقر فيه ما كان يختاره [1]، فإذا أحب الرياسة والعلوّ وكثرة المال قدَّمه على ذلك، فإن كان عقله [2] نيِّرًا قدَّم حبَّ العلوم على الكل؛ لأن لذة العلم تُدرك بالقلب والعقل فتزيد على اللذات الحسية.

فعلى هذ القاعدة: لا محبوب على الحقيقة للقلوب [3] النيِّرة، والنفوس الطاهرة والألباب الزكية المشرقة إلا اللَّه ﷻ؛ لأن الحب ميل النفس إلى الشيء الموافق، والكمال والجمال والإحسان موافق.

واللَّه ﷻ منفرد بذلك، فإنه تامُّ القدرة كامل الصنعة ظاهر الحكمة، خالق النفس وبه قوامها وتكميلها، فمن أحب نفسه وجب عليه حبُّ من أفاده الوجود وأدانه له، وهيَّأ له أسبابه وأحسن إليه، وحبُّ المحسن يقع اضطرارًا. قال عليه الصلاة والسلام: « أحبوا اللَّه لما يَغْذوكم به من نعمة » [4].

فمن لاحظَ جمال العزة وكمال العظمة وجزيل الفضل أحبَّه ضرورة.

وهذه المحبة لا تحصل إلا بعد المعرفة:

قال الحسن: « مَن عَرَفَ ربَّه أَحَبَّه ». وإذا تمكَّنت المعرفة أوجبت المحبة وأخرجت كلَّ محبوب سواه من القلب، ومتى تـمَّت المحبة نمت فظهرت على الأبدان آثارها، كما يظهر على الأرض أزهارها.

وللمحبّ علامات:

منها: حب لقائه: فمنهم من استعجل الموت، **ومنهم** من أحبَّ أن يبقى ليتزيَّن بأفعال جميلة تصلح لِلِّقاء. **ومنهم** من أحب أن يؤثر ما يحبه الحبيب وأن يحبّ [5] الذكر فيصير مشتهرًا، وأن يأنس بالخلوة ويستوحش من الخلق.

---

(١) ش: مختاره. (٢) ش: قلبه. (٣) : للعقول.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب رقم : ٣١.

(٥) ش: وأن لا يحب. ولعله تحريف.

وفي الحديث أنه أُوحي إلى موسى أن « برخًا » العابد نعم العبد إلا أنه فيه عيبٌ يحب نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء.

واستأنس بعض العبّاد بصوت طائر على شجرة، فأوحى اللّه تعالى إلى نبيهم: قل له: استأنست بمخلوق؟! لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدًا (١).

ومنها: أن يتنعم بالطاعة ويلتذ بها، كما قال ثابت البُنَاني: كابَدْتُ الصلاة عشرين سنة، ثم تنعَّمت بها عشرين سنة.

ومنها: أن يكتم المحبة: ودرجات المحبين تتفاوت على قدر قوة المعرفة ونقصانها، وكثرة العوائق وقلَّتها. وليس من رأى محبوبه من وراء سِتر أو ظُلمة أو من بُعْد كمن رآه قريبًا في ضوء. ولا التذاذ الخائف المذعور كالتذاذ الآمن، وليس محبة الفقيه لأحمد (٢) كمحبة العامي له؛ لأن العامي يعرف علمه جملة والفقيه يعرفه بالتفصيل، فإن رأى العاميُّ مصنَّفًا له لم يدر ما فيه، وإذا رآه الفقيه عرف ما يحويه.

والعالم كلُّه تصنيف الحقِّ ﷻ، فالعارف (٣) يرى في البعوض من الحِكم مثل ما يرى من الحِكم في الفيل والحق سبحانه وتعالى ظاهر للخلق كلهم بأفعاله الدالة عليه؛ فهو أَظْهر الموجوداتِ كما قيل:

لقد ظهرتَ فما تخفى على أحدٍ ... إلا على أَكْمه لا يبصر القمَرا

ولما تكاثف ظهور الحق سبحانه وتعالى بأفعاله صارت كثرة الظهور سبب الخفاء.

أما محبة اللّه ﷻ للعبد فقد قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٥)، ﴿ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ (٦).

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن اللّه تعالى قال: « ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه » (٧).

---

(١) ينبغي تدقيق النظر في هذه المرويات؛ فالاستئناس بالمخلوقات لا ينافي العبادة قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الروم: ٢١].

(٢) كذا في أ: وفي ش: لأحد. ولعل المراد هو الإمام أحمد بن حنبل.

(٣) ش: والعارف.

(٤) سورة المائدة: ٥٤.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٦) سورة الصف: ٤.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٣٨.

وقال زيد بن أسلم: إن اللَّه ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك [١].

فإن قال قائل: فقد ذكرت أن المحبة الميل إلى المُلائم الموافق، وقد بان ذلك في محبة العبد لربه تعالى، فهل يتهيأ ذلك في محبة الحق لعبده؟ فالجواب: كلا؛ لأن العبد إذا أحبَّ موافقًا ملائمًا فليتمَّ به نقصه وليحصِّل به كماله، والحق ﷻ منزَّه عن ذلك. وإنما معنى محبته لعبده أنه إذا أحب نفسَه أحب ما يصدر عنها من الأفعال الرفيعة القدر.

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بسنده عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « عجب ربنا من شاب ليست له صَبْوة » [٢]. فتأثير محبة الحق للعبد أن يقطع عنه القواطع ويرفع عن قلبه الحجاب حتى يراه بقلبه.

واعلم أنه [٣] لا يُحِبُّ حتى يحَبَّ ولا يريد حتى يراد. فإذا رأيت قصورك عن مقامات الواصلين فاعلم أنك مطرود، فليكن فرضُك البكاء على إبعادك فربما نفع. أخبرنا محمد ابن عبد اللَّه بن حبيب عن الحسين بن أحمد الفارسي قال: سمعتُ أبا علي الرُّوذباري يقول: هيهات أن تريد حتى تُراد، وقد تُراد وإن لم تُرِدْ فتتخطى بك طرق المهالك وتختصر بك قرب المسالك، وأعظم البلاء أني أريد ولا أُراد وأَقْرب فأُردُّ إلى الإبعاد!.

* * *

الكلام على البسملة

لا تُخدعنَّ فللمحبِّ دلائل ... ولديه مِنْ تُحَف الحبيب رسائل
منها تنعُّمه بمرِّ بلائه ... وسروره في كلِّ ما هو فاعلُ
فالمنع منه عطيةٌ مقبولة ... والفقر إكرامٌ وبرٌّ عاجلُ
ومن الدلائل أن يُرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابلُ
ومن الدلائل أن تراه مشمِّرا ... في خِرْقتَيْن على شطوط الساحل
ومن الدلائل ضِحْكه بين الورى ... والقلب محزونٌ كقلب الثاكل

كان يحيى بن معاذ يقول: إلهي أنا مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، أخذتني إليك صغيرًا فكيف أنصرف عنك كبيرًا:

(١) ينبغي الحذر من مثل هذه الأقوال التي تفتح الباب أمام أدعياء الولاية، فإن اللَّه تعالى لا يحب إلا الطائعين الواقفين عند حدود أمره ونهيه.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده : ١٥١/٤. (٣) ش: أن العبد.

كلُّ محبوب سِوَى اللَّه سَرفْ وهمومٌ وغمومٌ وأسَفْ
كل محبوب له منه خلَفْ (١) ما خلا الرحمن ما منه خلف
إنَّ للحب دلالات إذا ظهرت من صاحب الحب عُرِف
صاحب الحب حزين قلبه دائم الغُصَّة مهمومٌ دنف (٢)
همُّه في اللَّه لا في غيره ذاهب العقل وباللَّه كَلِف (٣)
أشعث الرأس خميصٌ بطنه (٤) أصفر الوجنة والطَّرفُ ذَرِف
دائم التَّذكار من حبِّ الذي حبه غاية غايات الشَّرف
باشر المحرابَ يشكو بثَّه (٥) وأمام اللَّه مولاه وقف
راكعًا طورًا وطورًا ساجدًا باكيًا والدمع منه قد وكَفْ (٦)

يا بعيدًا عن المحبين، يا مطرودًا عن المتقين، أين أنت وأهلُ اليقين، قومٌ هجروا الدنيا وتركوها، وطلبوا الأخرى بالجدِّ فأدركوها، ولاحت لهم محجَّة الهدى فسلكوها، وتعلَّقوا بالعروة الوُثقى فأمسكوها، وراضوا أنفسهم بالصبر حتى ملكوها.

أزعجهم حبُّ مولاهم فاشتاقوا، وحملوا في مرضاته فوق ما أطاقوا، وسكِروا من شراب أنسه فما أفاقوا، وعلَوْا بأعمالهم على أمثالهم وفاقوا، وزمُّوا مطايا الشوق فاستقلوا وساقوا:

أستَنْجدُ الصبر عن شوقي فيَخْذُلُني وأمتضي العزم في أمري فيَقْعدُ بي
وأستريح إلى الأطلال أسألها فهل تجيب رسومُ المنزل الخرِب
أأكتم الحبَّ والأنفاسُ تفضحه وأجحد الشَّوق والعينان تُؤْذنُ بِي

إذا جنَّ الليل وانسدل الظلام، قاموا بأقدام العزائم على الأقدام وترنَّموا بأحسن الذكر وأشرف الكلام، وسرت أسرارهم مسطورة بدمعٍ سِجام (٧)، على صحائف خدود إلى الملِك العلَّام، كم بينك وبينهم يا من رقد ونام:

الليل لي ولأحبابي أحادثهم قد اصطفيتهمُ كي يسمعوا ويَعُوا
لهم قلوبٌ بأسرار (٨) لها مُلئتْ على ودادي وإرشادي لهم طُبِعوا

---

(١) أ: كل محبوب فمنه خلف. ولا يصح بها الوزن. (٢) الدنف: المريض.
(٣) كلف: مشغول. (٤) الخميص: الخالي من الطعام. (٥) البث: الحزن.
(٦) في ش: والدمع في الأرض يكف. ومعنى وكف: سال بغزارة.
(٧) سجام: غزير. (٨) أ: بأسراري.

قد أثمرت شجرات الفهم عندهم فما جنوا إذ جنوا مما به انتفعوا [١]

سروا فما وهِنوا عجزًا ولا ضَعُفوا وواصلوا حبل تقريبي فما انقطعوا

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن محمد الدينوري، قال: سمعتُ أبا محمد الجريري [٢] يقول [٣] وعنده جماعة: هل فيكم من إذا أراد اللَّه أن يحدث في مملكته [٤] حدثًا أبدًا أعلمه إليه قبل كونه؟ قالوا: لا. قال: مرُّوا وابكوا على قلوب لم تجد من اللَّه شيئًا من هذا [٥].

وقال الجريري: من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات محصورًا في سجن الهوى، فحَرَمَ اللَّه قلبه [٦] الفوائد، فلا يستلذُّ بكلامه ولا يستحليه وإن كثر ترداده على لسانه.

وقال بنان الحمَّال: دخلت البرِّية على طريق تبوك وحدي فاستوحشت، فإذا هاتف يهتف بي: يا بنان نقضت العهد لِمَ تستوحش أليس حبيبك معك؟!

وكان بنان [٧] قد أمر ابن طولون بالمعروف، فأمر أن يُلقى بين يدي السبع، فجعل السبع يشمُّه ولا يضره، فلما خرج قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمَّك السبع؟ قال: كنت أتفكر في سؤر السِّباع ولُعابها!

وكان الشِّبلي يقول: ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا مسُّها، وليس للجاهل من اللَّه إلا ذكره باللسان. وكان يقول: أحبَّك الناس لنعمائك وأنا أحبك لبلائك. وقيل له: ما الزهد؟ قال: نسيت الزهد [٨]. وكان يقول: يا من باع [٩] كل شيء بلا شيء، واشترى لا شيء بكل شيء. وكان يقلق في أوقاتٍ ويقول: أفلا شجًى بحنين، أفلا رنَّة بأنين من قلب قريح حزين، أفلا شاربٌ بكأس العارفين، أفلا مستيقظ من رقدة الغافلين، يا مسكين ستقدم فتعلم، ويُكشف الغطاء فتندم، وليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور. وينشد:

علـى بُـعـدك لا يَـصْـبـر مَـنْ عـادتُـه الـقُـربُ

---

(١) أ: فما جنوا مما به ارتفعوا.

(٢) له ترجمة في حلية الأولياء تضمنت بعض كلماته : ١٠/٣٤٧، ط السعادة.

(٣) قال يومًا.

(٤) ش: في المملكة.

(٥) كيف هذا وفي الكتاب الكريم: « وما كان اللَّه ليطلعكم على الغيب »؟!.

(٦) أ: فحرم اللَّه على قلبه.

(٧) أ: ابن بنان.

(٨) ش: فكان نسيان الزهد.

(٩) ش: من باع.

ولا يَـقْـوَى عـلـى حَـجْـبـك مَـنْ تـيـمَّـه الـحبُّ
فـإن لـم تـرَك الـعـيـن فـقـد أبـصـرك الـقـلـبُ (١)

أين أنت وأين هم، ليتك وقعت بينهم. كان عثمان الباقلاوي يقول: إذا غربت الشمس أحسست بروحي كأنها تخرج! لاشتغاله في تلك الساعة بالإفطار (٢) عن الذكر وقال: أحبُّ الناس إليّ من ترك السَّلام عليّ؛ لأنه يشغلني عن الذكر.

وكان منصور بن زاذان يختم القرآن ما بين الظهر والعصر، ويختمه ما بين المغرب والعشاء، وكان يقوم إلى عمود فيصلي فيختم القرآن (٣)، وكان يبكي ويمسح بعمامته عينيه، فلا يزال حتى يبلها كلها بدموعه ثم يلفُّها ويضعها بين يديه، وبقي يصلي الفجر بوضوء العشاء عشرين سنة. ولو قيل له: إنك ميتٌ اليوم أو غدًا ما كان عنده مزيد.

حـبَّـذا مـن دعـا الـنـفـوس إلـيـه فـأَعْـطَـشـا
وتـجـلَّـى عـلـى الـقـلـوب جِـلَاهـا فـأدهـشـا
غـاب عـن مـقـلـتـي ومـا غـاب عـن بـاطـن الـحَـشـا

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ... ﴾ (٤)

قال علي ﷺ والحسن وقتادة: المراد بهؤلاء القوم: أبو بكر الصديق ﷺ وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة.

نظر القوم بأعين البصائر، فعلموا أن الأعمار قصائر، وأن كلًّا منهم إلى القبر صائر، فهجروا الطعام في الهواجر، وغسلوا بالدموع المحاجر فأزعجتهم تلاوة الزواجر.

نهارهُم درْسُ القُران وحفظه وشُغلهم في محكمات البصائر
وإنْ جنَّ ليل أسهروا فيه أعينًا فسَقيًا ورعيًا للعيون السواهرِ

وفي التوراة يقول الله ﷻ: ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشدُّ شوقًا.

---

(١) أ: فإن لم تبصرك العين فقد يبصرك القلب. ولعله تحريف.

(٢) أ: بالفطر.

(٣) هذا من المبالغة ولا يعقل أن يختم أحد القرآن ثلاث مرات في يومه وليلته!.

(٤) سورة المائدة: ٥٤.

وأوحى اللَّه تعالى إلى عيسى ابن مريم إذا اطّلعتُ على سرِّ عبدي فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتولَّيته بحفظي.

وقال بعض إخوان معروف: أخبرني يا أبا محفوظ أيُّ شيء أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت ثم قال: ذِكْر الموت. فقال: وأي شيء ذكر الموت؟ قال: ذكر القبر والبرزخ. قال: وأي شيء القبر؟ قال: خوف النار ورجاء الجنة. قال: وأي شيء هذا إن مَلِكا هذا كله بيده، إن أحبَّ أنساك جميع ذلك، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

أخبرنا أبو السعادات المتوكلي بسنده عن محمد بن أحمد المفيد، قال: سمعت الجنيد قال: كنت نائمًا عند سري [١]، فأنبهني فقال: يا جنيد رأيتُ كأني قد وقفت بين يدي اللَّه تعالى فقال لي: يا سَرِي، خلقت الخلق [الجن والإنس] [٢] فكلهم ادَّعوا محبتي، وخلقت الدنيا فهرب منِّي تسعة أعشارهم وبقي معي العُشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العُشر وبقي معي عشر العشر، فسلطت عليهم ذَرّة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عُشر العشر، فقلت للباقين معي: لا للدنيا أردتم ولا للجنة أخذتم ولا من البلاء هربتم فماذا تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد. فقلت لهم: إني مسلِّط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي، أتصبرون؟ قالوا: إذا كنت أنت المبتلِي لنا فافعل ما شئت. فهؤلاء عبادي حقًّا.

أخبرنا ابن حبيب بسنده عن محمد بن علي التمَّار قال: سمعت الجنيد بن محمد يقول: الناس في محبة اللَّه خاصٌّ وعامٌّ، وكل فرقة تنال ذلك على قدر معرفتها، فأما العوامّ من المحبين فإنهم نالوا ذلك لمعرفتهم. بأيادي اللَّه عندهم وبدوام إحسانه إليهم وكثرة نِعَمه عليهم، فلزم القلبَ بهذه المعرفة المحبةُ، وذلك أنهم عقلوا أن مَنْ أحسن إليهم لم تمتنع قلوبهم أن يحبوه من الخلق فكيف بالخالق؟ فلما أدمنوا الفكر في المنعم عظُمت المعرفة منهم بربهم أنه المحسن المتفضل، فلم يتمالكوا أن أحبُّوه. فهذا حبُّ العوام، لكن تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم.

وأما الخاصَّة فأحبُّوه، لما هو له أهل فقالوا: المحبة لعظم القدر والصفات الكاملة ولو أزال عنهم جميع النعم، قالت رَابِعة العدوية: ما عبدته خوفًا من ناره ولا حُبًّا لجنته، فأكون كأجير السُّوء، بل عبدته حبًّا له وشوقًا إليه.

---

(١) هو سري السقطي العابد الزاهد نسب إلى بيع السقط.

(٢) ليست في ش.

أخبرنا ابن حبيب بإسناده عن الجنيد قال: قالت النار: يا رب لو لم أطعك هل كنت تعذبني بشيء هو أشد مني؟ قال: نعم كنت أسلط عليك ناري الكبرى، فقالت: يا رب وما نارك الكبرى، وهل نار أعظم مني وأشد؟ قال: نعم، نار محبتي أسْكنها في قلوب أوليائي المؤمنين (١).

كانت لقلبي أهواءٌ مفرَّقة ... فاستجمعت مُذ رأتك العينُ أهواه
فصار يحْسدني من كنت أحْسده ... وصرتُ مولى الورى مُذ صِرْتُ مولاه
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شُغلًا بذكرك يا ديني ودنياه (٢)

أخبرنا ابن حبيب بإسناده عن يوسف بن الحسين قال: كنت قاعدًا بين يدي ذا النون (٣)، وحوله ناس وهو يتكلم عليهم والناس يبكون وشاب يضحك، فقال له ذا النون (٤): ما لك أيها الشاب؟ الناس يبكون وأنت تضحك؟ فأنشد يقول:

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ... ويرَوْن النجاة حظًّا جزيلا
أو بأنْ يسكنوا الجنان فيحظَوا ... في رياضٍ عيونُها سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار رأيٌ ... أنا لا أبتغي بحبي بديلا

فقيل له: فإن طردك فماذا تقول: فأنشد يقول:

فإذا لم أجد من الحِبِّ وَصْلا ... رُمْتُ في النار منزلًا ومقيلا
ثم أزعجتُ أهلها ببكائي ... بكرةً في عِرَاضها وأصيلا
مَعْشر المشركين نُوحوا عليّ ... أنا عبدٌ أحببت مولًى جليلا
لم أكن بالذي ادعيت مُحقًّا ... فجزاني به العذاب الطويلا

أخبرنا ابن حبيب بإسناده عن منصور بن وائل قال: رأيتُ دَيْرًا بعُمان ورأيتُ فيه راهبًا فكلمني وقال: الشغل موكَّلٌ بقلوب المحبين حتى يصلوا إلى الحبيب، والخوف والحزن موكلان بهم وهم مشفقون من أعمالهم المرضية أن لا تُقبل منهم، ولا تفتر دموعهم ولا يَهْدأ خوفهم، تجرَّعوا مرارة كأس الحزن، فبهم يُستقى المطر وقلوبهم تتصاعد في الملكوت ينظرون إلى ربهم بقلوبهم يقولون: يا مولانا اقطع قلوبنا من الدنيا

---

(١) هذا من التكلف والقول على الله بغير علم، فكيف عرفوا أن النار قالت ما زعموه؟!.

(٢) أ: ودنياي.

(٣) كذا، والقياس ذي النون، ولعل ذلك على الحكاية.

(٤) كذا، والقياس ذو النون.

إليك، وعجِّل سراحنا فقد طال اشتياقنا إلى لقائك.

أخبرنا أحمد بن أحمد المتوكل بسنده عن عنْبسة الخوَّاص قال: كان عُتبة الغلام يزورني فبات عندي ليلة فقربت له عشاء فلم يأكل، فسمعته يقول: سيدي إن تعذبني فإني لك محبٌّ، وإن ترحمني فإني لك محبٌّ، فلما كان آخر الليل شهق شهقة وجعل يحشرج كحشرجة الموت، فلما أفاق قلت له: يا أبا عبد اللَّه ما كان من حالك منذ الليلة؟ فصرخ ثم قال: يا عنبسة ذِكر العَرْض على اللَّه قطَّع أوصال المحبين ثم غشي عليه ثم أفاق، فسمعته يقول: سيدي أراك تعذب عبدك؟!

أخبرنا المتوكلي بسنده عن أحمد بن محمد الرازي قال: سمعت يوسفَ بن الحسين يقول: كان شابٌّ يحضر مجلس ذي النون مدة ثم انقطع عنه ثم حضر وقد اصفرَّ لونه ونحل جسمه وظهرت آثار العبادة عليه، فقال له ذو النون: يا فتى ما أكسبتك خدمةُ مولاك من المواهب؟ فقال: يا أستاذ وهل رأيت عبدًا اصطنعه مولاه وأعطاه مفاتيح الخزائن ثم أسرَّ إليه سرًّا أيَحْسُن أن يُفشي ذلك السر [1]؟! ثم أنشد:

مَنْ سارَرُوه فأبدى السرَّ مجتهدًا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشَا

وأبعدوه [2] فلم يسعد بقربهم ... وأبدلوه من الإيناس إيحاشا

لا يصْطفون مُذيعًا بعض سِرِّهمُ ... حاشا ودادُهمُ منْ ذلكم حاشا

* * *

أوحى اللَّه ﷻ إلى بعض من أوحى إليه: إن لي عبادًا يحبونني ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، فإن حَذوتَ طريقهم أحببتك، وإن عدلتَ عنهم مقتُّكَ. قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظِّلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنَمه، ويحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنُّ الطير إلى أوكارها، فإذا جنَّ عليهم الليل واختلط الظلام، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم وافترشوا لي وجوههم، وناجوْني بكلامي وتملَّقوني بإنعامي، فبين صارخٍ وباكٍ ومتأوهٍ وشاكٍ، وبين قائم وقاعد وراكع وساجد، بعيني ما يتحمَّلون من أجْلي، وبسمعي ما يشْكون من حبي، أول ما أعطيهم: أقذف في قلوبهم من نوري فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات السبع والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلَلْتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم فترى

---

(١) الأمر أهون من الألغاز والأسرار، وفي القرآن ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [سورة الطلاق: ٢].

(٢) أ: وباعدوه.

من أُقبل عليه بوجهي يعلم أحدٌ ما أريد أن أعطيه [١].

أخبرنا يحيى بن علي المدير، بسنده عن محمد بن إسحاق السراج قال: سمعت أحمد بن أبي الفتح يقول: رأيت بشر بن الحارث في منامي فقلت له: ما فعل معروف الكَرخي؟ فحرك رأسه فقال: هيهات بيننا وبينه الحُجب، إن معروفًا لم يعبد اللَّه شوقًا إلى جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما عبده شوقًا إليه، فرفعه اللَّه تبارك وتعالى الرفيق الأعلى.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴿٥٤﴾﴾ أي لينٌ جانبهم على المؤمنين، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ... ﴿٥٤﴾﴾ أي: أهل غلظة على من خالف دينهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ... ﴿٥٤﴾﴾ لأن المنافقين يراقبون الكفار ويظاهرونهم ويخافون لومهم، فأعلم اللَّه ﷻ أن الصحيح الإيمان لا يخاف [٢] لومة لائم.

سجع على قوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾:

منذ عُقدتْ على القوم التمائم [٣]، أقبلوا على خدمة الحق إقبال عالم، ما سلكوا قط إلا الطريق السالم، مشغولون بالبكاء عن أم سالم [٤]، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

بذلوا للَّه الأموال الكرائم، ما أحسن تلك الفُهُوم وما أحسن [٥] العزائم، بلغوا من الجهاد فوق ما يرومُ الرائم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

تذكروا ذنوبهم القدائم، فحُزنهم عليها دائم، الحزين مُطْرق والخائف واجم، والمحبُّ قلق والفؤاد هائم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

حذر القوم فعلٌ لازم، عزمهم على التُّقى جازم، عملهم كله عمل حازم، لو رأيتهم في صفِّ الحرب قد شدُّوا الحيازم [٦]، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

يندبون خطاياهم وتلك المآثم، فلو رأيتهم قلت في مأتم، عندهم شُغْلٌ عن المادح والشاتم، يسترون أحوالهم والدمع يُبْدي الكاتم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

أسكتوا بشَجْوهم الحمائم، وأخجلوا بدموعهم الغمائم، فإذا قاموا في الحروب مقام مخاصم، لا يخافون لومة لائم.

---

(١) هذا من كلام بعض العباد، ولا يصح أن ينسب إلى الوحي؛ لأنه لم يجئ من طريق صحيح.

(٢) أ: لا يخافون.

(٣) أي: من بداية حياتهم.

(٤) أم سالم: كناية عن الدنيا.

(٥) ش: وما أوفى.

(٦) الحيازم: جمع حيزوم. وهو الصدر أو الوسط. وهي كناية عن الاستعداد للحرب.

أرباب اجتهاد وجهاد، وعزائم، أهل إقدام قد أمنوا الهزائم، الشوق حاديهم والصدق خادم، يجالدون الأجلاد جِلاد من يصادم، ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾.

يعدُّون التقصير من العظائم، ويبذلون المهج الكرائم، فإذا جنَّ الليل فساجدٌ وقائم، وإذا حاربوا قمعوا كلَّ ظالم ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾.

جاعوا عن الطعام ينتظرون الولائم، وخطبوا الراحة الكبرى بإتعاب القوائم، وصرموا أيام الحياة سُلُوًّا مُذْ سلُّوا الصارم، فرجعوا بالمراد وما فيهم غارم، الوجهُ من السهر متغير ساهم، ينكسون الرؤوس ويَعضُّون الأباهم بالجروح قلوبهم ما تقْبل المراهم، أنفقوا في الجهاد الأرواح بعد الدراهم ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾.

أين أنت وهم، ما ساهرٌ كنائم، لا واللَّه ولا قاعد كقائم، كلا واللَّه ولا مفطر كصائم، حاشا اللَّه ولا متكاسل كدائم، أنت وقت الغنائم نائم وقلبك في شهوات البهائم هائم، يا من قد أصبح وهو حول الجيفة حائم:

أيقظانُ أنت اليوم أمْ أنت نائمُ ... وكيف يطيق النومَ حَيْرانُ هائم
فلو كنت يقظانَ الغداة لحرَّقتْ ... محاجر عينيك الدموعُ السَّواجمُ
نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة ... وليلك نومٌ والرَّدى لك لازمُ
يغرُّك ما يَفنى وتُشغل بالمنى ... كما غُرَّ باللذات في النوم حالم
وتُشْغل فيما سوف تَكْره غِبَّه (١) ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

* * *
* *
*

(١) غبه: عاقبته.

المجلس السادس والعشرون

في الرضا

الحمد للَّه القديم في الذات والصفات، الأول المنزَّه عن الحركات، فلا يتغيَّر ولا يتحوَّل، المنعم على العباد فكم أعطى وخوَّل، ومنَّ فزاد وأكثر ونوَّل، وأسْدى وأغْنى وأقْنى وموَّل، ثم عاد وعاد وجادَ وتطوَّل، وأطمع ورجَّى وخوَّف وهوَّل، وأعان على العدوِّ كلما زخرف وسوَّل، فهو المرجوُّ في الشدائد وعلى فضله المعوَّل، يحكم ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل.

أحمده على لطفه فإنه حليم لا يعْجل، وأقرُّ بوحدانيته إقرار مُوقِن لا يجهل، وأصلي على رسوله المقدَّم على الأنبياء المفضَّل، وعلى صاحبه أبي بكر الذي عليه في صُحبة الغار عوّل، وعلى عُمر المتورِّع فما ترخَّص ولا تأوَّل، وعلى عثمان المعطي جزيلًا فما قلَّل، وعلى علي بن أبي طالب الأقرب الأعلم الأفضل، وعلى عمِّه العبَّاس الذي ابتعث اللَّه الغيث ببركته وأنزل.

* * *

قال اللَّه ﷻ:

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ... ﴾ (١)

اعلم أن رضا اللَّه ﷻ عن العبد هو إنعامه عليه بإصلاح أحواله وتقريبه إلى حضرته، وأما رضا العبد عن اللَّه تعالى فإنَّ أدْونَ المقامات في ذلك أن يقع رضا العبد بجهله بالمصالح، ورُبَّ صلاحٍ في ضمن البلاء وما قضى اللَّه لمؤمنٍ قضاءً إلا كان خيرًا له. وأعلى المقامات أن يكون العبد مُحبًّا للَّه تعالى، فيرضى بما يقضي، ومن أحب محبوبًا رضي بأفعاله. **ويقع ذلك في حالين:**

أحدهما: أن يحسّ بألم فعْله لكنه يرضى بذلك، وإن كان الطبع يكره فهو كمن يختار الحجامة وإن كانت تؤلمه.

وينقسم هؤلاء إلى:

- ناظرٍ نحو الثواب، كما رُوِينا: أن امرأة فتح الموصلي عثَرتْ فانقطع ظُفر إبهامها

---

(١) سورة البينة: ٨.

فضحكتْ، فقيل لها: ما وجدت ألمه؟ فقالت: أنساني لذة ثوابه مرارة وجعه.

- وناظرٍ إلى رضا المحبوب بما يفعل.

والحال الثانية: أن يستغرق المحبُّ في المحبة، ولا يحسُّ بألم المؤذي، فيكون كالمجروح في الحرب يشغله ما هو فيه عن الإحساس بالجراحة حتى يرى الدم فيعلم أنه قد جُرح. ويدل على هذه قصة النسوة ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [1] وقال سَمْنون: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها فاعتلَّت، فجلس يُصلح لها حِساءً، فبينا هو يحرك القِدْر قالت امرأته: آه. فدُهش وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرّك القِدْر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم!.

قال بعض السلف: رأيت رجلًا ضُرب ألف سوط وهو صابر، ثم حُمل إلى السجن فتبعته فقلتُ: لم ضُربْتَ؟ قال: لأني عاشق. قلتُ: ولم سكتَّ؟ قال: لأن معشوقي كان ينظر إليّ.

فإذا كان هذا من ملاحظة جمال صورة مُستقذرة الباطن، فما تقول في ملاحظة عين البصيرة للجمال السَّرمدي الذي لا منتهى لكماله؟! قال الجنيد: سألتُ سريًّا: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ قال: لا.

فأما فضيلة الرضا والراضين:

فأنبأنا محمد بن الحسين الحاجبيّ بإسناده عن أبي العلاء بن الشِّخير رفعه إلى النبي ﷺ قال: « إذا أراد اللّه بعبده خيرًا أرضاه بما قسم له وبارك له فيه. وإذا لم يرد به خيرًا لم يُرضه بما قسم له ولم يبارك له فيه ».

وقد أوحى اللّه تعالى إلى داود ؑ: إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك ولا أحطَّ لوزرك من الرضا بقضائي.

وفي الزبور: يا داود هل تدري من أسرعُ الناس مرًّا على الصراط؟ الذين يرضون بحُكْمي وألسنتهم رطبة من ذكري.

وقال أبو الدرداء: إن اللّه تعالى إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به. وقالت أم الدرداء: إن الراضين بقضاء اللّه لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة [2].

وقال أبو عبد اللّه البراثي [3]: لن يَرِد الآخرة أرفع درجاتٍ من الراضين عن اللّه ﷻ

---

(١) سورة يوسف: ٣١. (٢) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٣) البراثي: نسبة إلى براثا وهو موضع ببغداد متصل بالكرخ، وكان أبو عبد اللّه البراثي صديق بشر بن الحارث اللباب: ١/١٤٦.

على كل حال، ومن وهب له الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات.

ذكر طرف من أخبار الراضين:

- مرَّ نبيٌّ من الأنبياء برجل قد نبذه أهله من البلاء، فقال: يا رب عبدك هذا لو نقلته من حاله؟ فأوحى اللَّه إليه: أنْ سَلْه أيحبُّ أن أنقله؟ فقال له: يا هذا أما تحبُّ أن ينقلك من حالك هذه إلى غيرها؟ فقال الرجل: أتخير على اللَّه؟! ذاك إليه.

- وقال عمر بن الخطاب: ما أبالي على أي حال أصبحت، على ما أكره أو على ما أحبُّ فإني لا أدري الخيرة فيما أُحب أو فيما أكره.

- وقال ابن مسعود: ما أبالي إذا رجعت إلى أهلي على أي حال أراهم أبسرَّاء أم بضرَّاء، وما أصبحتُ على حال فتمنيتُ أني على سواها.

- وقال سيَّار بن سلامة: دخلت على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه فقال: إن أحبَّه إليّ أحبُّه إلى اللَّه ﷻ.

- وقال سفيان: كنا نعود زبيدًا اليامي فنقول: استشف اللَّه ﷻ. فيقول: اللَّهم خِرْ لي.

- ومات لعمر بن عبد العزيز ولدٌ يقال له عبد الملك، وأخ يقال له سهل، ومولى يقال له مُزاحم في أيام متتابعة فقال: والذي قضى عليهم بالموت ما أحبُّ أن شيئًا من ذلك لم يكن، وما كنت على حالة من أحوال الدنيا فيسرني أنّي على غيرها.

- وسئل ابن المبارك ما الرضا؟ فقال: أن لا يتمنَّى خلاف حاله.

- وذكروا عند رَابِعة عابدًا كان في بني إسرائيل ينزل من مُتعبّده فيأتي مَزْبلة الملك فيتقمقم من فضول مائدته، فقال رجل عندها: وما على هذا لو سأل اللَّه تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا؟ فقالت رَابِعة: إن أولياء اللَّه تعالى إذا قضى عليهم قضاءً لم يسْخطوه.

- وقال أبو سليمان الداراني: أرجو أن أكون قد رُزقتُ طرفًا من الرضا، لو أدخلني النار كنت بذلك راضيًا من اللَّه تعالى فيما قضاه عليّ واختاره لي (١).

- أخبرنا ابن حبيب بسنده عن أبي الحسين النقَّاد قال: سمعت أبا الحسين النُّوريّ يقول، وقد سئل عن الرضا فقال: عن وجْدي تسألون أو عن وَجْد الناس؟ فقيل له: عن وجدك. فقال: لو كنت في الدرك الأسفل لكنت أرضى ممن هو في الفردوس (٢).

---

(١) بيَّن القرآن أن المؤمنين يدعون ربهم قائلين: ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠١] فكيف يكون الرضا بدخول النار؟!.

(٢) ينبغي الحذر في فهم هذه الكلمات التي يتضح فيها الغلو والتكلُّف.

- أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي بإسناده عن علي بن سعيد قال: مررت بعبادانَ بمكفوف فإذا الزنبور يقع عليه فيقطع من لحمه فقلت: الحمد للَّه الذي عافاني مما ابتلاه به وفتح من عيني ما أغْلق من عينيه. فبينما أنا أردِّد الحمد إذ صُرع، فبينما هو يتخبط نظرت إليه فإذا هو مُقْعد، فقلت: مكفوف يُصرع مُقعد مجْذوم؟!

فما استتم كلامي [١] حتى صاح: يا مكلَّف ما دخولك فيما بيني وبين ربي تبارك وتعالى؟! دعْه يعمل بي ما شاء! ثم قال: وعزتك وجلالك لو قطَّعتني إرْبًا إرْبًا [٢] وصببتَ عليَّ البلاء صبًّا ما ازددت لك إلا حُبًّا.

- أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن عبد اللَّه بن محمد السعداني قال: سمعتُ أبا عثمان الحيري قال: منذ أربعين سنة ما أقامني اللَّه تعالى في حالٍ فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته.

- وقال أبو عبد الرحمن الجرجاني: ذهبتُ أعزِّي رجلًا قد قتلت التُّرك ابنه فبكى حين رآني فقلت: ما يبكيك وقد قُتل ابنك في سبيل اللَّه تعالى؟ قال: أتظن أني أبكي لقتله؟ إنما أبكي كيف كان رضاه عن اللَّه تعالى حين أخذته السيوف!

فهذه نبذة من أحوال الراضين المرتفعة.

فأما من رضي بجهله بالمصالح وعلمه أن تدبير الحق أصلح له فهي أحوال العوام:

أخبرنا ابن حبيب بسنده عن سعيد بن حرب قال: سمعتُ بعض الناس يقول: سألتُ اللَّه ﷻ الغزو أربعين سنة، فسمعتُ هاتفًا يقول: كُفَّ عن هذا السؤال، فإنك إن غزوت أُسِرت وإن أسرت تنصَّرت.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده عن الأعمش عن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك؛ فالديك يوقظه للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم جَناهم، والكلب يحرسهم، فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا. ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبي من حولهم من جيرانهم وبقوا هم، وإنما أُخذ أولئك لما كان عندهم من الصوت والجلبة ولم يكن عند أولئك شيء يُجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم!.

قال القرشي: وحدَّثني أحمد بن إبراهيم بن كثير بسنده عن سعيد بن المسيب قال:

---

(١) أ: فما استتممت الكلام.
(٢) الإرب بسكون الراء: العضو.

قال لقمان لابنه: يا بني لا ينزلن بك أمرٌ رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير منك أن ذلك خير لك. قال: أمَّا هذه فلا أقدر أن أُعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني فإن اللَّه تعالى قد بعث نبيًّا هلمَّ حتى نأتيه فعنده بيان ما قلتُ لك، قال: اذهب بنا نأته. قال: فخرج هو على حمار وابنه على حمار وتزوَّدا ما يُصلحهما ثم سارا أيامًا وليالي حتى تلقتهما مفازةٌ فدخلاها فسارا ما شاء اللَّه، ثم اشتد الحرُّ ونفذ الماء والزاد واستبطآ حماريهما فنزلا، فجعلا يشتدان على سوقهما، فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر والدخان عمرانٌ وناس، فبينما هما يشتدان إذا وطئ ابن لقمان على عَظْم ناتئ على طريق فدخل في باطن القدم حتى ظهر من أعلاها، فخرَّ ابنُ لقمان مغشيًّا عليه، فحانت من لقمان التفاتة فإذا هو بابنه صريع [1]، فوثب إليه فضمه إلى صدره واستخرج العظم بأسنانه وشقَّ [2] عمامة كانت عليه فلاث بها رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي فقال: يا أبت تبكي [3] وأنت تقول هذا خيرٌ لي، كيف يكون هذا خيرًا لي وقد نفدَ الطعام والماء وبقيت أنا وأنت في هذا المكان، فإن [4] ذهبت وتركتني على حالي ذهبت بهمٍّ وغمٍّ ما بقيت، وإن أقمت معي مُتنا جميعًا، فكيف يكون هذا خيرًا لي؟!

فقال: أما بكائي يا بني فوددتُ أني أفديك بجميع حظي من الدنيا، ولكني والدٌ ومنِّي رقة الوالد. وأما ما قلت: كيف يكون هذا خيرًا لي فلعل ما صُرف عنك يا بني أعظم مما ابتليتَ به، ولعل ما ابتليت به أيْسر مما صُرف عنك.

فبينا [5] هو يحاوره إذ نظر لقمان أمامه فلم يرَ ذلك الدخان والسواد، فقال في نفسه [6]: لقد رأيت، ولعله أن يكون ربي ﷻ قد أحْدث مما رأيت [7] شيئًا، فبينما هو يتفكر في هذا إذ نظر أمامه فإذا وهو شخص قد أقبل على فرس أبْلق عليه ثياب بياض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسْحًا، فلم يزل يؤمُّه حتى كان منه قريبًا فتوارى عنه ثم صاح به، فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: أنت الحكيم؟ قال: كذلك [8] يقال، وبذلك بعثني ربي. قال: ما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: من أنت يا عبد اللَّه أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبريل لا يراني إلا ملك مقرّب أو نبي مُرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفيه؟ فقال لقمان: إن كنت جبريل فأنت أعلم بما قاله

---

(١) كذا بالأصل. والتقدير: وهو صريع. (٢) ش: واشتق. (٣) أ: وأنت تبكي.
(٤) أ: فإذا. (٥) أ: فبينما. (٦) أ: قد.
(٧) أ: بما رأيته. (٨) أ: نعم كذلك.

ابني. قال جبريل: ما لي بشيء من أمركما عِلم إلا أنَّ حفظتكما أتوني وقد أمرني ربي بخسف هذه المدينة وما يليها فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء، فحبسكما بما ابتلي به ابنك، ولولا ما ابتلي به ابنك لخُسف بكما مع من خُسف. قال: ثم مسح جبريل يده على قدم الغلام فاستوى قائمًا ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعامًا، ومسح يده على الذي كان فيه الماء فامتلأ ماء ثم حملهما وحماريهما فإذا هما في الدار التي خرجا منها (١).

فإن قيل: فهل بين الرضا والدعاء تنافٍ؟

قيل: لا؛ لأنَّا قد نُدبنا إلى الدعاء لنتعبَّد به.

وكذلك نقول: ليس بين الرضا وبين كراهية المعاصي ومَقْت أهلها تنافٍ؛ لأنا نرضى بما قضاه اللَّه تعالى، وقد قضى بمقت شيء، فنحن نمقت ذلك لمقْته إيَّاه ونرضى بأصل القضاء.

* * *

الكلام على البسملة

انظر لنفسك زادًا قبل رِحلتها ... فهل رأيت امرأً يبقى على الأبد
وإنما هو عُمْر ينقضي وبه ... سَهْم المنية لا يُبقي على أحد
فالمرء في أملٍ يجري إلى أجَلٍ ... والموت مُستتر منه على الرَّصَدِ

طوبى لمن نظر إلى الدنيا بعين الاعتبار، فباعها واشترى بها دار القرار، إذا انهمك أهلُها في شهواتها صام النهار، وإذا نام الغافلون فله عن النوم نِفَار:

أيقظه الفكرُ (٢) طولَ ليلتهِ ... فبات مستأنسًا بخلوتهِ
وأسكن القلبَ حبَّ سيده ... فأتعب الجسم في محبته
ووكَّل الطَّرف بالسُّهاد فما ... يألف إلا هُمولَ عَبرته (٣)
كأنني في الظلام أرْمقه ... وهو صريعٌ أسير حسرته
كأنه والحنين يُقلقه ... قتيل وَجْدٍ بسيف لوعتهِ
أزعجه (٤) الحزنُ فالفتى أرِقٌ ... تحت شجون الدجى ببغيتهِ

---

(١) هذه أسطورة ضخمة، وما كان أغنى ابن الجوزي عن إيراد مثل هذه الأخبار التي لا صحة لها، والتي تعتمد على خيالات القصاص الكذابين. وكيف اجترأ هذا الوضاع على مقام جبريل عليه السلام؟!.

(٢) أ: الدهر. (٣) الهمول: السيلان، والعَبرة: الدمعة. (٤) أ: أنحله.

حتى إذا ما الصباح أدْركه ... ولاح منه بياضُ غرتهِ
بكى على فوْت ليله وغدا ... ينْدبُ ليلًا مضى بلذتهِ
فذاك ممن تشتاق جنة الخُلْد ... فيحظى فيها برؤيته

يا حُسنه والظلام قد أجنَّه، وقد بث بين يدي مولاه ما أكنَّه، خوفه شديد لكنه يُحسن ظنَّه، وكم له عند ذكر الذنوب من زَفْرة وأنَّة.

أخبرنا محمد بن عبد الملك بسنده عن محمد بن أبي صالح التميمي، قال: قال أبو عبد اللَّه مؤذن مسجد بني جراد: جاورني شاب فكنت إذا أذنت للصلاة وأقمت كأنه في نُقْرة قفايَ، فإذا صليت صلى ثم لبس نعليه ثم دخل منزله، فكنت أتمنى أن يكلمني أو يسألني حاجة، فقال لي ذات يوم: يا أبا عبد اللَّه عندك مصحف تعيرني أقرأ فيه؟ فأخرجت إليه مصحفًا فدفعته إليه فضمَّه إلى صدره ثم قال: ليكونن اليوم لي ولك شأن. ففقدته ذلك اليوم فلم أره يخرج، وأقمت المغرب والعشاء فلم يخرج، فلما صليتُ [1] جئتُ إلى الدار التي هو فيها، فإذا فيها دلو ومطْهرة وإذا به ميتٌ والمصحف في حجره، فأخذته من حجره واستعنت بقوم على حمله [2]، حتى وضعناه على سريره وبقيت ليلتي أفكِّر من أكلِّم حتى يكفنه، فأذنت للفجر بوقت ودخلت المسجد لأركع، فإذا بضوء في القبلة فدنوت منه فإذا كفنٌ ملفوف في القبلة فأخذته وحمدت اللَّه تعالى وأقمت الصلاة، فلما سلمت إذا عن يميني ثابت البناني ومالك بن دينار وحبيب الفارسي وصالح المرِّي فقلت لهم: يا إخوتي ما جاء بكم؟ قالوا لي: مات في جوارك الليلة أحد؟ قلت: مات شاب كان يصلي معي الصلوات الخمس، فقالوا لي: أرناه. فلما دخلوا عليه كشف مالك بن دينار الثوب عن وجهه ثم قبَّل منه موضع سجوده ثم قال: بأبي أنت وأمي يا حجَّاج، كنت إذا عُرفْتَ في مكان تحولت منه إلى غيره حتى لا تُعرف، وأخذوا في غسله، فإذا مع كل واحد منهم كفن، فقال كل واحد منهم أنا أكفنه فقلت لهم: إني فكرت في أمره الليلة فقلت من أكلِّمُ حتى أكفِّنه [3]، فأتيت المسجد فأذَّنت ودخلت لأركع، فإذا كفن ملفوف لا أدري من وضعه، فقالوا: يكفَّن في ذلك الكفن، فكفنَّاه وأخرجناه، فما كدنا نرفع جنازته من كثرة من حضره من الجمع.

سبحان من وفقهم للخيرات، وأيقظهم من سِنة الغفلات، أترجو لحاقهم من غير أعمالهم، هيهات.

---

(١) أ: فلما كان بعد أن صليت. (٢) أ: بقوم حملوه. (٣) أ: حتى يكفنه.

عاملوا مولاهم وانفردوا، وقاموا في الدياجي فركعوا وسجدوا، وساروا وخُلِّفت ففاتك ما وجدوا، وبقيت في أعقابهم فإن لم تَلْحق بَعُدوا:

يا أيها الراقدُ كم ترقد   قم يا حبيبي قد دنَا الموعدُ
وخذ من الليل وساعاته   حظًّا إذا ما هجع الرُّقَّدُ
مَنْ نام حتى ينقضي ليله   لم يبلغ المنزل أو يجهدُ
قل لذوي الألباب أهل التقى   قنطرة العَرْضِ لكم موعدُ

تركوا الدنيا من قبل تركها، وبكوا في أحيان انبساطها وضحكها، وأخرجوا قلوبهم إلى نور اليقين في ظلام شكها، وأمالوا نفوسهم عن هواها إلى نُسُكها.

التقطوا أيام السلامة وتغنَّموا، وتلذَّذوا بتلاوة القرآن وترنَّموا، وأحضروا القلوب عند القراءة وتفهموا، وتصاعدت الأرواح إلى مشرقها فاستدعاها فسلَّموا.

أخبرنا محمد عبد الباقي بإسناده، عن عامر بن سعد عن أبيه قال: رأيت أخي عُمير ابن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول اللّه ﷺ للخروج إلى بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول اللّه ﷺ فيستعرضني فيردَّني وأنا أحب الخروج لعل اللّه يرزقني الشهادة. قال: فعُرض على رسول اللّه ﷺ فاستصغره فقال: ارجع، فبكى عمير فأجازه رسول اللّه ﷺ.

قال سعد: فكنت أعقد له حمائلَ سيفه من صغره، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة قتله عمرو بن ودّ.

يا بعيدًا عن هؤلاء القوم تنبَّه من طول الرقاد والنوم، يا من عمره ينقضي بليلة ويوم، لا في صلاة ولا صوم، متى يُؤثِّر فيك هذا اللوم؟

تقرّب أيها البعيد عنهم بالتقى، واحذر غرور دنياك فإنها [١] عين الشقا:

يا محبَّ الدنيا نجاتك منها   بالتسلِّي عنها وأين التسلِّي
نفسُ يا نفسُ إن عميتِ عن الرشـ   ـد فماذا عليك أن تستدلِّي
نفسُ إن الوقوف منا على اللـ   ـه يقين فأكثري أو أقلِّي
غاية الحيّ أن يموت وإنْ   علَّلَه الدهر بالصِّبا ولعلِّي

* * *

(١) فإنه.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ (١)

هذا قَسَم بالجبل الذي كُلِّم موسى عليه وهو جبل بأرض مدين. قال أبو عبيدة: الطور في كلام العرب الجبل. وقال ابن قتيبة: الطور الجبل بالسُّريانية.

وقال ابن عباس: ما أَنْبت من الجبال فهو طور، وما لم ينبت فليس بطور.

قال تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾:

أي مكتوب **وفيه أربعة أقوال: أحدها**: أنه اللوح المحفوظ. قاله ابن عباس. **الثاني**: كتب أعمال بني آدم. قاله مقاتل. **والثالث**: التوراة. **والرابع**: القرآن. حكاهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ فِي رَقٍّ... ۝ ﴾ الرقُّ: الورق ﴿ مَّنشُورٍ ۝ ﴾ أي: مبسوط.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ ﴾ وهو بيت في السماء. **وفي أي سماء؟ هو فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: في السماء السابعة. رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ. وحديث مالك بن صعْصعة في المعراج المخرَّج في الصحيحين يدل عليه.

والثاني: في السماء الدنيا. رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. قال الربيع بن أنس: كان في مكان الكعبة في زمن آدم، فلما جاء نوح أمرَ الناس بحجه فعصوه، فلما طغى الماء رُفع فجُعل بحذاء البيت في السماء الدنيا.

والثالث: في السماء السادسة. قاله علي عليه السلام. وقال ابن عباس: هو حيال الكعبة يحجُّه كلَّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، واسمه الضُّراح. قال أبو عُبيد: ومعنى المعمور: الكثير الغاشية.

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: أنه السماء. قاله علي بن أبي طالب والجمهور.

والثاني: العرش. قاله الربيع.

قوله تعالى: ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ ﴾:

البحر: اسمٌ للماء الغزير الواسع، سُمِّي (٢) بحرًا لاتساعه. ويقال: فرسٌ بحر (٣) إذا كان واسع الجري، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في فرس: « وإن وجدناه لبحرًا » (٤). والمسجور: المملوء.

---

(١) سورة الطور: ١، ٢.

(٢) أ: وسمي.

(٣) أ: فيه بحر. ولعله تحريف.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب رقم : ٣٨.

وإنما أقسم اللَّه تعالى بهذه الأشياء لينبّه على ما فيها من عظيم قدرته، فأقسم بها على أن تعذيب المشركين حق فقال: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ ﴾.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن جعفر عن زيد قال: خرج عمر يعسُّ (١) المدينة ذات ليلة، فمرَّ بدار رجل من المسلمين فوافقه قائمًا يصلي، فوقف يَسمع قراءته، فقرأ: « والطُّور » حتى بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ ﴾ فقال: قسمٌ ورب الكعبة حق! فنزل عن حماره فاستند إلى حائط فمكث مليًّا ثم رجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.

وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن فانتهينا إليه وعنده رجل يقرأ، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ ﴾ بكى الحسن وبكى أصحابه، وجعل مالك بن دينار يضطرب حتى غُشي عليه.

وقال محمد بن عبد العزيز بن سليمان: قرأ رجل عند أبي بكر: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ حتى انتهى إلى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فبكى القوم حتى ما كنت أسمع قراءة القارئ.

إخواني: مثَّل القوم الوعيد بين أعينهم فسالت، فتمكنت من قلوبهم الأحزان وجالت، والموعودات إذا صوِّرت هالت، غير أن غروركم مدَّ الأيام عليكم فطالت.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده (٢) عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: قلت لزيد بن مرثد: ما لي أرى عينيك لا تجفُّ؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى اللَّه أن ينفعني به. قال: يا أخي إن اللَّه قد توعَّدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، واللَّه لو لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمَّام لكنت حَريًّا أن لا تجفَّ لي عَبرة. قال: قلت: أهكذا أنت في خلواتك؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى اللَّه أن ينفعني (٣) به. قال: واللَّه إنْ كان ليعرض لي حين أسكن إلى أهلي فيحول بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يديَّ فيعرض لي فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكي امرأتي ويبكي صبياننا ما يدرون ما أبكانا، ولربما أضجر ذلك امرأتي فتقول: ما خُصِصْت به من طول الحزن معك في الحياة الدنيا ما تقرُّ لي عين.

ذكر الوعيد أقلق الخائفين، وتصوُّر القيامة أزعج المتقين.

كان طاوس يفرش الفراش ثم يُدرجه ويقوم إلى الصلاة ويقول: ما تركتْ جهنمُ أحدًا ينام. وكان أبو سليمان الداراني يقول: ربما مثِّل لي رأسي بين جبلين منْ نار وأنا

---

(١) يعسُّ يطوف بها بالليل. (٢) أ: بإسناده. (٣) أ: ينفع.

بينهما أعذَّب فكيف يهنأ بالعيش (١) من هذه صفته؟! وقال: وصفت لأختي قنطرة من قناطر جهنم، فمكثت في صيحةٍ يومًا وليلة، مثَّلت نفسها عليها.

ذكر الوعيد عند القوم حقيقة، وكأنكم ترونه في النوم، فازجروا هذه القلوب الغافلة بألسنة العتاب، لعلها تذكر حقَّ الذكر يوم الحساب، فإن حالتكم في السُّكون حالة من قد أمن أو حالة من لم (٢) يؤمن.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾:

يا مُعرضًا عنَّا يا مُقاطع، يا مشغولًا بكل قاطع، يا مُقبلًا على الضار مُدبرًا (٣) عن النافع، بعت ما يبقى بما يَفْنى، فخسر البائع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

ويحك أجهلت الشرائع أم لم تعرف الذرائع، ويحك ذنبٌ بعد ذنب متتابع، خيرك خفيٌّ وشرُّك شائع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

بعت نفسك في سوق الهوان، وضيعت في التواني كلَّ الزمان، ونسيت أنك كما تدين تدان، ودعاك إلى مراضيه الشيطان، فأقبلت تتابع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

العمر يومٌ فبادر الشمس، واستدرك تدرك ما فات أمس، وانتظر ساعة الغمس في الرَّمس، فجعةٌ لا كالفجائع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

لا تغرَّنك عيشةٌ صافية، لا تخدعنك نعمة وافية، كأنك بزعزع تلفُّ سافية (٤)، ويحك إن أيام العافية خوادع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

خذ حذرك فإنك مطلوب، استلب زمنك فإنك مسلوب (٥)، اسمع كلام الرب يا مربوب، تاللَّه لقد ملأ كلَّ القلوب قبل المسامع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

انتبه فقد أسمعك الصوت، استدرك قبل وقوع الفوت، ويحك إن الشيب قبل الموت بريد الطلائع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

تيقَّظْ لنفسك فإلى كم نوم، الحقْ الصالحين فقد سبق القوم، عَاتِب نفسك وبالغ في اللّوم، فبين يديك يوم يذهل فيه الشافع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

يحضر فيه جميع الخلق وتَلقَى فيه ما لم تلقَ، ويقع بين الصالحين الفرق ويتسعُ الخَرْقُ على الراقع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

---

(١) ش: فكيف يهني العيش. (٢) أ: من لا. (٣) ش: معرضًا.

(٤) الزعزع: الريح الشديد. والسافية: التي تذر التراب.

(٥) أ: استدرك زمنك فإنك مسلوب.

أفينفع حينئذ طلب الرضا بعد أن جرى بالعقاب القضا، هيهات إذا فات الأمر انقضى وليس ما جرى براجع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

تجري دموع العصاة على الخدين كالعندم [١]، وتتقشَّع جفون العصاة كلها عن دم، فوأسفا من لك حين تقدم ولم تندم ولم تراجع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

يا صَيْد القبر غدًا في الفخّ، ثم تقوم وصوت الصُّور قد صخّ [٢]، والزلل قد دفع إلى النار وزخ [٣]، ضاع الحديث مع مُليح أو قاطع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ ﴾.

قال ابن عباس: تدور ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ ﴾ قال وهب: إذا سمعت الجبال صوت النار صاحت كما تصيح الحوامل ورجع بعضها يدكُّ بعضًا.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾ بالبعث، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾ أي يخوضون بالتكذيب والاستهزاء ويلهون بذكره، فالويل لهم.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ ﴾ يُدفعون دفعًا. قال ابن عباس: يُدفع في أعناقهم حتى يردوا النار. وقال مقاتل: تُغلُّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمع نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى جهنم على وجوههم حتى إذا دنوا منها قال لهم خزنتها ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ ﴾ في الدنيا. ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ... ۝ ﴾ العذاب الذي ترون، فأنتم زعمتم أن الرسل سَحَرة ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ﴾.

سجع على قوله تعالى: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾:

قل للذين في غفلاتهم يلعبون: أمَا أنتم عن قليل تموتون، ألستم عن الدنيا ترحلون، وتناقَشون في القبور وتسألون، أما ترون الأقران أين يذهبون ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾.

كم أشهدكم عَبرة وأنتم غافلون، كم أيقظكم بموعظة وأنتم راقدون، ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [٤] ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾.

---

(١) العندم: دم الأخوين. كما في القاموس.

(٢) صخ: صدر عنه الصاخة وهي الصيحة.

(٣) زخ: أوقع في وهدة.

(٤) سورة غافر: ٨١.

كم أوقد سراجًا بعد سراج لعلكم تهتدون، لقد حثَّكم على المعالي فرضيتم بدون، لا يغرنكم ما أنتم فيه تتقلَّبون، فكأنكم بكم عن قليل تنقلبون فإنا للَّه وإنا إليه راجعون ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾.

أين الذين كانوا يرتعون في رياض الهوى ويَرْبعون، ويتجبَّرون في ممالكهم ويقهرون، وينصببون سُررًا من السرور وعليها يظهرون، وينهون العباد عما شاءوا ويأمرون، أما عالجوا من الأسقام الفنون، فسالت من الجانبين الجفون؛ إذ فجِّرت من العيون عيون، ثم نزل بهم ريب المنون، فلقوا ما لم يخطر على الظنون [1]، فبدَّل حركاتهم كلها بالسكون، وعلموا حينئذ أن الهوى جنون، فأفاق ولكن قد فاق المجنون ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [2].

ما ردَّت عنهم الحصون، ولا دفع عنهم المال المصون، فأمسوا في طرقاتهم يتعثَّرون، فانقلبوا إلى اللُّحود وما يتقلَّبون، وأخذ العدو مالَهم فما لهم لا يحمدون ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾.

وجاء منكر ونكير فإذا هم محيَّرون، وودُّوا لو أنهم كانوا في القبور يُتركون، هيهات أحاط بهم أذى [3] فما يتقون، فهم في اللحود إلى اليوم الموعود يعذَّبون، فإذا نفخ في الصور أُقيموا يُسألون، فنوقشوا على ما كانوا يفعلون، يا له من يوم يشتغل فيه موسى عن هارون.

اسمع يا هذا نصحي فإني ما أخون، الطبع مَرْكب صعب حرون، وبين يديك عقاب طوال وحُزون، فبالغ في السَّوْق فقد حدا الحادون، ولا ترضَ باسم مقصِّر ولا بلقب مغبون، واستفتِ نفسك ولو أفتاك المفتون.

واللَّه تعالى أعلم [4].

* * *
* *
*

---

(١) ش: في الظنون.

(٢) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٣) ش: ما أوذي.

(٤) ش: والحمد للَّه وصلى اللَّه على سيدنا محمد.

المجلس السابع والعشرون

في فضل المعروف

الحمد للَّه مُستحق الحمد وأهله، وخالق الفَرْع وأصله، منشئ الكائنات بفعله، ومُبين الهدى بإيضاح سُبله، فضَّل نبينا بالقرآن فزاد على الرسل مِنْ قبله، وتحدَّى به المكذبين فخرس كل ذي جهل عن جهله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [(١)].

أحمده على قليل عطائه وجَزْله، وأشكره على صَعْب القدر وسهله، وأقرُّ بوحدانيته متفيئًا في حِمَى الصدق وظلِّه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي ختم به الأنبياء فبتَّ كلَّ حبْلٍ غير حبله، صلى اللَّه عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق مُزْعج المرتدين بسيف عزمه قَبْل سَلِّه، وعلى عُمر الذي كان الشيطان يفْرق من صوت نعْله، وعلى عثمان الصابر على جراحه وقَتْله، وعلى عليٍّ المجاهد في اللَّه ومنْ أجْله، وعلى عمِّه العباس المرتدي في النسب بشَمْلة شَمْله.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد، بإسناده عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « كل معروف صدقة، ومن المعروف أن تَلْقى أخاك بوجهٍ طلْق وأن تُفْرغ مِنْ دَلْوك في إنائه » [(٢)]. (انفرد بإخراجه البخاري).

وفي أفراد مسلم من حديث حذيفة: عن النبي ﷺ أنه قال: « كل معروف صدقة »، وفي أفراده من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تحْقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق » [(٣)].

واعلم أن الخلق كلهم عيال اللَّه ﷻ، فإذا قام إنسان بمصالحهم فكأنه قد ناب عن اللَّه تعالى.

وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: « الخلق عيال اللَّه، فأحبُّهم إلى اللَّه أنفعهم لعياله » [(٤)].

واعلم أن كل راحة تصل من مخلوق إلى مخلوق فهي من باب المعروف.

أخبرنا هبة اللَّه بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مَنْ نفَّسَ عن مُؤمنٍ كُربةً من كُربِ الدنيا نفَّس اللَّه عنه كُربْة من كرب يوم القيامة، ومن سَتر مسلمًا

---

(١) سورة البقرة: ٢٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٣٣. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٥٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٤٤.

(٤) هذا حديث لا يصح كما ذكر ابن الجوزي نفسه في كتابه « العلل المتناهية » : ٢٨/٢.

ستره اللَّه في الدنيا والآخرة، ومَنْ يسّر على مُعسْر يسَّر اللَّه عليه في الدنيا والآخرة، واللَّه في عون العبد ما كان العبْدُ في عونِ أخيه » [١]. (انفرد بإخراجه مسلم).

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته » [٢].

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بإسناده عن بلال ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « كل معروف صدقةٍ، والمعروف يقي سبعين نوعًا من البلاء، ويقي مِيتة السُّوء » [٣].

والمعروف والمنكر خلْقان منصوبان للناس يوم القيامة، فالمعروف لازمٌ لأهله يقودهم إلى الجنة، والمنكر لازم لأهله يقودهم إلى النار.

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: « فِعْل المعروف يقي مصارع السوء، فإن أحبَّ عباد اللَّه إلى اللَّه من حُبِّب إليه المعروف وحُبِّب إليه فِعاله، وإن اللَّه ﷻ جعل للمعروف وجوهًا من خلقه حبَّب إليهم المعروف وحبَّب إليهم فعاله، ووجَّه طُلاب المعروف إليهم ويسَّر عليهم إعطاءه، كما يسّر الغيثَ إلى الأرض الجدبة ليُحييها ويُحْيي بها أهلها، وإن اللَّه ﷻ جعل للمعروف أعداء من خَلْقه، بغَّض إليهم المعروف وبغَّض إليهم فِعاله، وحظر على طُلاب المعروف الطلب إليهم، وحظر عليهم إعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدْبة ليُهلكها ويُهلك بها أهْلها، وما يعفو اللَّه ﷻ أكْثر » [٤].

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للَّه ﷻ قومًا يخُصهم بالنِّعم لمنافع العباد، ويقرّها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها اللَّه منهم فحوَّلها إلى غيرهم » [٥].

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « كُلُّ معروف صنعتَه إلى غنيٍّ أو فقيرٍ فهو صدقة » [٦].

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « منْ كسا مؤمنًا على عُري كساهُ اللَّه ﷻ من استبرق الجنة، ومن سقا مؤمنًا على ظمأ سقاه اللَّه ﷻ من الرحيق المختوم، ومن أطعمه من جوعٍ أطعمه اللَّه ﷻ منْ ثمار الجنة » [٧].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر. وسنن أبي داود، كتاب الأدب، باب رقم : ٦٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب رقم : ٣. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رقم : ٣٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٥٢. ومسند أحمد : ٣٤٤/٣.

(٤) هذا حديث لا يصح عن رسول اللَّه ﷺ كما قال ابن الجوزي نفسه في كتاب العلل المتناهية : ١٩/٢. وبين العلة في إسناده فكيف يرويه هنا؟!.

(٥) وهذا أيضًا لا يصحُّ.

(٦ ، ٧) هذه كلها أحاديث واهية لا تصح.

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من مشى في حاجة أخيه المُسلم حتَّى يُتمُّها له، أظلَّه اللَّه ﷻ بخمسة آلاف ملك يدعون له ويُصلُّون عليه، إنْ كان صباحًا حتى يُمسي وإن كان مساءً حتى يُصبح، ولا يَرْفع قدمًا إلا كتب اللَّه بها حسنة، ولا يضع قدمًا إلا حطَّ عنهُ بها خطيئة » (١).

وكان الحسن يقول: يقول أحدهم: أحجُّ أحج، قد حجْجتَ، صِلْ رحمًا، نفَّس عن مغموم، أحسنْ إلى جار.

وبعث الحسن بقوم من أصحابه في حاجةٍ له وقال: مرُّوا بثابت البُناني فأشْخصوا به معكم. فأتوه فقال: إني مُعْتكفٌ، فرجع أحدهم فأخبر الحسن فقال: قُل له: يا أعمش أما تعلم أن مِشْيتك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجَّةٍ بعد حجَّة؟! فقام معهم وترك الاعتكاف.

وقال الحسن: لأن أقضي لأخٍ لي حاجةً أحَبُّ إليّ من أنْ أعتكف شهرين.

وقيل لمحمد بن المنكدر: أيُّ العمل أحبُّ إليك؟ قال: إدخال السُّرور على المؤمن.

واعلم أن لفعل المعروف آدابًا:

منها: المبادرة قبْل تثبيط الشيطان.

وقال عكرمة: يبعث إبليس أشدَّ أصحابه إلى الذين يصنعون المعروف. وأنشد في ذلك:

إن الحوائج ربما أزرى بها ... عند الذي قضيتْ له تطويلها

فإذا قضيتَ لصاحبٍ لك حاجة ... فاعلم بأن تمامها تعجيلها

ومنها: الابتداء به قبل السؤال، قال سعيد بن العاص لابنه: يا بني أخْزى اللَّه المعروف إذا لم يكن ابتداءً عن غير مسألة، فإذا ما أتاك تكاد ترى دمه في وجهه ومُخاطرًا لا يدري أتُعطيه أم تمنعه؟ فواللَّه لو خَرجتَ له من جميع مالك ما كافأته!

ومنها: كِتمانه وترْك الامتنان به، قال بعضُ السلف: أحْي معْروفك بإماتة ذِكره، وعظِّمه بالتصغير له.

وينبغي للمنعَم عليه أن يحذر البخل بالمعروف فربما كان سببًا لزوال النعم.

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للَّه ﷻ قومًا يختصُّهم بالنِّعم لمنافع العباد، ويقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحوَّلها إلى غيرهم » (٢).

---

(١) هذه كلها أحاديث واهية لا تصح.

(٢) أخرجه الطبراني وأبو نعيم، كشف الخفا : ٢٥١/١.

وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: « ما عظُمتْ نعمةُ اللَّه عز وجل على عبد إلا اشتدت عليه مُؤنة الناس، فمنْ لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرَّض تلك النعمة للزوال » (١).

قال حكِيم بن حزام: ما أصبحتُ قطّ فرأيتُ ببابي طالبَ حاجة قد ضاق بها ذرْعًا فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد اللَّه عليها، ولا أصبحت صباحًا لم أرَ بفنائي صاحب حاجة إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل اللَّه تعالى الأجر عليها.

أخبرنا محمد بن عبد الملك بسنده عن فيض بن إسحاق قال: كنت عند الفُضيل فجاء رجل فسأله حاجة، فألحَّ عليه في السؤال، فقلت: لا تُؤذ الشيخَ. فزجرني الفضيل وصاح عليَّ وقال: يا فَيضُ أما علمْتَ أن حوائج الناس إليكم نعمة من اللَّه عليكم، فاحذروا أن تملُّوا من النعم فتُحوَّل نقمًا، ألا تحْمد ربك أن جعلك موضعًا تُسأل ولا تَسأل؟

لا يلْحقنَّك (٢) ضجرةٌ من سائل ... فلَخير (٣) يومك أن تُرى مسئولا
لا تَجبْهنْ بالردِّ وجْه مؤمِّلٍ ... فبقاء عِزك أن تُرى مأمولا

وأما ثواب المعروف في الآخرة:

فأخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا كان يوم القيامة وجمع اللَّه تعالى أهل الجنة صفوفًا وأهلَ النار صفوفًا قال: فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة فيقول: يا فلان أما تذكر يوم اصطنعْتُ إليك في الدنيا معروفًا؟ فيأخذ بيده فيقول: اللَّهم إن هذا اصطنع لي في الدنيا معروفًا قال: فيقال له خذ بيده فأدخله الجنة » (٤).

ثم إن المأخوذ على من اصطنع إليه معروف أن يكافئ ولو بالشكر.

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تعلموا أنكم (٥) قد كافأتموه » (٦).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يشكر اللَّه من لا يشكر الناس » (٧).

---

(١) قال ابن الجوزي في كتاب العلل المتناهية : ٢٧/٢: هذا حديث لا يصح!.

(٢) أ: لا يدخلنك. (٣) أ: فيحسب يومك.

(٤) قال ابن الجوزي نفسه في كتابه « العلل المتناهية » : ٢٥/٢: هذا حديث لا يصح، تفرد به الأخنسي قال البخاري: منكر الحديث يتكلمون فيه.

(٥) أ: أنه. (٦) مسند أحمد : ٦٨/٢.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب رقم : ١١. والترمذي في سننه، كتاب البر، باب رقم : ٣٥.

أخبرنا علي بن عبيد الله الفقيه بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من قال لأخيه جزاك الله خيرًا فقد أَبْلغ بالثناء »[(١)].

واعلم أن فعل اللطف مع البهائم يحصِّل الثواب فكيف مع الآدمي؟!

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينا رجلٌ يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلبُ من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى به فسقى الكلب فشكر الله ﷻ له فغفر له ». قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: « في كل ذات كبد رطْبة أجر »[(٢)].

أخبرنا عبد الوهاب بسنده عن عيسى الكِندي عن أبيه قال: كان عليّ بن أبي طالب كثيرًا مما إذا خطب يوم الجمعة يقول: يا أيها الناس، عليكُم بالمعروف واذكروا فعل الجنِّي. فقال لي الأشتر يومًا انطلق بنا إلى أمير المؤمنين حتى نسأله عن هذا الجنِّي ما أمْره، فقد أكثر فيه. قال: فأتيته أنا والأشتر فقلنا: سمعناك تقول كذا. قال: وما تدرون ما هو؟ قالوا: لا. قال: فذاك كان فيكم. قالوا: من؟ قال مالك بن خُريم الهمداني خرج حاجًّا في رهط من أصحابه، حتى إذا كانوا في بعض الطريق قال لهم: أسندوا[(٣)] فقد قدرتم على الماء، فأسندوا، فرقدوا فبينما هم كذلك إذ طلع القمر من آخر الليل فانساب عليهم شجاع[(٤)] من الجبل فأطاف بالقوم، وبصُر به فتًى منهم فأدنى منه العصا فلما انتهى إلى الشيخ أهوى الفتى بالعصا، وخشي أن يسبقه إلى الشيخ فيلسعه فضربه فأخْطأه ففزع الشيخ فقال: مَه؟ قال: الشجاع دخل تحتك. قال: فإنه استجار بي فقد أجَرته. فخرج الشجاع حتى رجع من حيث أتى، فقال: ارقدوا فقد رقدتم على الماء. فما استيقظوا إلا بالشمس، فقاموا يطلبون الماء، فإذا هم على ضلال، فلما رأى ذلك الشجاع ناداهم من الجبل:

يا أيها الرَّكْب لا ماءٌ أمامكم ... حتى تسوموا المطايا يومها الدَّأَبا
ثم اسْندوا يُمنة فالماء عن كَثَبٍ ... عينٌ رِوَاء وماءٌ يُذْهب اللَّغبا

قال: فأسندوا فإذا عين راكدة فشربوا واستقوا فلما رجعوا وكانوا بأدْنى الجبل ناداهم الشجاع يقول:

يا مالِ عنِّي جزاك الله صالحةً ... هذا وداع لكُم منِّي وتسليمُ

---

(١) ليس في الكتب الستة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب رقم : ٩. وصحيح مسلم، كتاب السلام، حديث رقم : ١٥٣.

(٣) أسندوا: انزلوا في سند الوادي وهو مرتفعه. (٤) الشجاع: الثعبان.

لا تزْهدنْ في اصطناع العُرف مِنْ أحد | إنَّ الذي يُحرمُ المعروف محرومُ
أنا الشجاع الذي أنجيْتَ منْ زهَق | شكرت ذلك إن الشكر مقْسومُ
من يفعل الخير لا يعْدم مغبّته | ما عاش والشرُّ منه الغثُّ مذْمومُ (١)

* * *

الكلام على البسملة

إلى متى تَرْفُل في حُلَّةٍ | تنتظر الموتَ لها خالعًا
ألمْ يكن فيما مضى عِبرةٌ | تكون في أمر الهوى رادعا
كم شارعٍ غصَّ بأربابه | أمسْى الرّدى في قتلهم شارعا
آهٍ لهم منْ ظُلمات الثَّرى | من بعد نورٍ قدْ زهَا طالعا
يا أسفا إذْ أخربوا (٢) عامرا | وصيَّروا ما حفِظوا ضائعا
وعاد منْ كان لهم واصلا | إذ سكنوا عَفْر الثَّرى قاطعا
ولم يكن ما جمَّعوا مرةً | من بؤسهم في تُرْبهم نافعا
وقد بنوا (٣) حِصنًا مشيد العُلَى | فلم يكن من بؤسهم مانعا

عجبًا لك لقد (٤) أنِسْت بزائل، وعلقت بغير طائل، وركنت إلى رُكْنٍ مائل، ونسيت لِحَاق الأوائل، أقيل لك أنّك لا تزول، أم أُخْبرت أنَّ أحْوالك لا تحُول؟ أيحْسن بالعاقل إهمال ما إليه يؤول، أيحمل بالمسئول أن لا يدري (٥) ما يقول.

عُمرك يفْنى وأنت لاهٍ، وعملُك يُحصى وأنْت ساهٍ، وقد اعتمدْتَ على ركن ضعيفٍ واهٍ، والأمْر جليٌّ وأنت في اشتباه، أأمنت حلول آفاتٍ ودواهٍ؟!.

ودعاك الشيطان إلى زخارف الهوى فتبعتَ، وألاح لك هومات الآمال فخدعت، وتناولْت فوْق ما يكفي من الدنيا وما قَنعت، وتعوَّضْتَّ ما يفنى على ما يبقى فكيف بعْت؟!

بِمَ التعلُّل والأيام ناطقة | من الحوادث في الأمر الذي فيها
تخاف حبك للدنيا فقد (٦) نطقت | بالحادثات بيانًا أمرَ ناهيها (٧)

---

(١) هذه القصة أسطورة والترغيب في فضل المعروف لا يكون بمثل هذه الخرافات.
(٢) أ: خربوا. (٣) أ: وكم بنوا. (٤) أ: قد.
(٥) أ: ما يدري. (٦) أ: فكم. (٧) أ: بانيها.

أيُّها الغافل تأمَّل ما بين يديك، أيُّها المطْمئن هذا الموت قد دنا إليك، ستدركك (١) الحسرة عند الفوات، ويُسْكرك النَّدمُ على الهفوات، تاللَّه لقد نطقت ألسنة الاعتبار في الإنذار تخبرك أنَّكَ لم تُخلق لهذه الدار، ولقد هتف هاتف الرحيل يُعْلمك أنه قد بقي القليل:

وما الأمر إلا واضح لك ظاهرٌ ... فكنْ حذرًا (٢) من حادثٍ سَهمه يُصْمي (٣)
ومن خصمه الأقدار تبغيه غِرَّةً ... تضاءل (٤) في الأحوال بالذلِّ للخصْمِ

كان عمر بن عُتبة يخرج ليلًا فيقف على القبور فيقول: يا أهل القبور قد طويت الصُّحف ورُفعت الأعمال. ثم يبكي ويصُفُّ قدميه حتى يُصبح فيرجع فيشْهد صلاة الصُّبح.

ذكر الرحيل قلْقل المتقين، وتصوُّر الموت أطار نوم الخائفين.

كان منصور بن المعتمر يبكي عامَّة الليل فتقول له أمُّه: لعلك قتلت نفسًا؟ فيقول: أنا أعلم ما صنعتُ بنفسي.

وكانت له جارة لها ابنتان لا تصْعدان إلى السطح إلا بعد ما ينام الناس، فلما مات منصور قالت: إحداهما: يا أماه ما فَعَلتْ القائمة التي كنت أراها في سطْح فلان؟ فقالت: يا بنية لم تكن تلك قائمة، إنما كان منصور يُحيْي الليلَ كلَّه في ركعة.

انفرد القوم بخدمة مؤلاهم، وانقطعوا، وقطعوا القواطع وإليه رجعوا، فحازوا مواهبه، والتقطوا وجمعوا، فإذا ذُكر تقصيرهم خافوا، وإذا ذكروا اللُّطف طمعُوا.

أخبرنا محمد بن أبي القاسم بإسناده عن المُحاربيّ قال: قال لي سفيان عن عمرو ابن قيس: هو الذي أدَّبني، علّمني قراءة القرآن، وعلمني الفرائض، فكنت أطْلبه في سوقه، فإن لم أجده في سوقه وجدته في بيته إما يصلي وإما يقرأ في المصحف، كأنَّه يبادر أمورًا تفوته، فإن لم أجده في بيته وجدْته في بعض المساجد بالكوفة في زاوية من زوايا المسجد كأنه سارق قاعد يبكي، فإن لم أجده وجدته قاعدًا في المقبرة ينوح على نفسه، فلما مات أغلق أهل الكوفة أبوابهم وخرجوا بجنازته، فلما أخرجوه إلى الجبَّان سمعوا صائحًا يصيح: قد جاء المُحسن قد جاء المحسن عمرو بن قيس. وإذا البرية مملوءة منْ طير أبيض لم يُرَ على خلقتها وحُسنها، فجعل الناس يعْجبون من حُسنها وكثرتها فقال أبو حيان: من أي شيء تعجبون؟ هذه ملائكة جاءت تشهد عَمْرًا.

وا أسفًا لفراق هؤلاء السادة، واحسرتا لمعاشرة من يحب الوسادة، خلَت الديار، وفرغتْ المنازل من الصالحين، وما ترى إلا أهل البطالة الغافلين، قِفْ على قبور القوم

(١) أ: ستدرك.
(٢) أ: حاذرا.
(٣) يصمي: يقتل.
(٤) الأصل: تطال.

فسلِّم، ونادِ ثراهم لعلَّ بالإشارة تُكلِّم. « دوبيت » [١]:

مــا بـيـن أراك رامــة والأثْــل — والبان وتلك الرُّبوات والرمل
قـومٌ بـفـراقـهـم أحلُّوا قتلي — منْ لي برجوعهم عليّ منْ لي
ما بين رُبا نجد وبين النَّجف — قـومٌ بـبعَادِهـم تَوالَى كلَفـي
واطُولَ عنائي بعدهم واأسفي — قد ذُبت جوىً وصِرْت في التلف
القلب إلى التعذيب صبٌّ مكروب — والرُّوْح إلى الخيف من الشَّوق تذوبُ
بالعهد تواصَيْنا على رمل زَرُود — والورْق على الأفنان بالعهد شهود
يا ليت ليالينا على البان تعود — يا دهـرُ أما تَسْمع يومًا وتجود
باللَّهِ تحمْلي سلامي يا ريح — فالقلب من الشوق إلى الحب جريح

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [٢]

في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: ما عظّموه حقَّ عظمته. قاله ابن عباس والحسن واختاره الفراء وثعلب والزجّاج.

والثاني: ما وصفوه حق صفته. قاله أبو العالية واختاره الخليل.

والثالث: ما عرفوه حق معرفته. قاله أبو عبيدة.

ثم إن اللَّه سبحانه وتعالى ذكر عظمته بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ... ﴿٦٧﴾ ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « يقبض اللَّه الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض » [٣].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « يطوي اللَّه ﷻ السموات يوم القيامة ثم يأخذهنَّ بيده اليُمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون » [٤].

---

(١) الدوبيت: مكون من كلمة « دو الفارسية. ومعناها: اثنان. وهو من ابتداع شعراء بغداد في القرن السابع.

(٢) سورة الزمر: ٦٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٤٤. وصحيح مسلم، كتاب المنافقين، حديث رقم : ١٩ - ٢١.

(٤) المرجع السابق.

قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾:

هذا تنزيه له من السوء ومعنى (**تَعَالَى**) ارتفع عن شرك المشركين.

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ... ﴿٦٨﴾ ﴾.

وهذه النفخة الأولى، والمراد بهم ماتوا من شدة الصوت وقُوة الفزع. **وفي الذين استثنوا بقوله:** ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ... ﴿٦٨﴾ ﴾ **ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنهم الشهداء. قاله أبو هريرة، وابن عباس وابن جبير.

والثاني: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم إن اللَّه تعالى يُميتهم بعد ذلك. قاله مقاتل.

والثالث: أنهم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، وكذلك من في النار لأنهم خلقوا للبقاء. ذكره أبو إسحاق.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ... ﴿٦٨﴾ ﴾ وهي نفخة البعث، ﴿ فَإِذَا هُم... ﴿٦٨﴾ ﴾ يعني الخلائق ﴿ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾. قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا... ﴿٦٩﴾ ﴾ أي: أضاءت عَرَصاتُ القيامة، ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ... ﴿٦٩﴾ ﴾ يعني كتب الأعمال.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾:

أين أرباب الفهم أين الألباب، أتُرى هذا العقلَ قد غاب، يا مخيِّمين ستُقلعُ الأطْناب [1]، يا راحلين لا بد من مُناخ الرِّكاب، يا راكبي سُفن الهوى سيَصْعد الركَّاب، ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

يا أهل البِلى في التراب، أين ثياب العِتّاب، يا هامدين في الثّرى أين صوتُ الرَّباب، يا مُفردين في اللُّحود أين غاشية الجَناب، ذهبَ الوجودُ بمن فيه فكأنْ لم يكُن به أصحاب، ولم يَبْقَ إلا وجه ذي الجلال والإكرام ربِّ الأرباب، ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

يا عِطاش الراحة أين مياه الأعناب، يا سارحين في الرياض كأنكم بالعقاب، مَنْ لكم إذا قام الناسُ للحساب، وميِّز الخطأ والصواب، وسارت الجبال سَيْر السحاب، ولم يبقَ طفلٌ إلا شَابَ ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

من لكم إذا برزت النار ذات الالتهاب، فاشتد منها الزفير والالتهاب، فاكتسب العاصي ولها سبعة أبواب، فصوَّحت [2] أغصانُ الأبدان الرطاب، وضُرب بين المؤمنين

---

(١) الأطناب: جمع طنب وهو ما تشد به الخيمة. (٢) صوحت: ذوت وجفت.

والمنافقين حِجاب، وتفرّق الأهل والأصحاب، ولم يبْقَ دمعٌ إلا ذاب، فظهر ما لم يكن في الحساب ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

لا تنفع الأحساب، ولا تردُّ الأنساب، والحاكمُ ربُّ الأرباب، وإنما هو ثوابٌ وعقاب، آه من سؤال بلا جواب، آهٍ من سؤال بعد عذاب، يا مُنزلًا إليه الكتاب، يا من عصى وما تاب، أموقنٌ أنتَ أم مُرتاب، تفكّروا يا ذوي الألباب ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ... ﴿٦٩﴾ ﴾

وهم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. **وفيهم أربعة أقوال:**

أحدها: أنهم المرسلون من الأنبياء.

والثاني: أنه محمدٌ يشهد للرسل بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم، والقولان عن ابن عباس.

والثالث: أنهم الحفظة على بني آدم. قاله عطاء..

والرابع: أنهم النبيون والملائكة وأمّة محمد والجوارح قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ... ﴿٦٩﴾ ﴾ أي بالعدل، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ... ﴿٧٠﴾ ﴾ أي جزاء عملها، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي: لا يحتاج إلى كاتب ولا شاهد.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ... ﴿٧١﴾ ﴾

قال أبو عبيدة: الزُّمر جماعات متفرقة بعضها في إثْر بعض، واحدها زُمرة، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ... ﴿٧١﴾ ﴾ أي من أنفسكم، وكلمة العذاب هي قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ ﴾ [1]، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ [2] بمعنى: وجبت، **فإن**

---

(١) سورة الأعراف: ١٨.

(٢) سورة الانشقاق: ٥.

قيل: فأين جواب حتى إذا جاءوها؟ **فالجواب:** أنه محذوف، قاله أبو عبيدة والمبرد والزجاج. وتقدير هذا المحذوف في حق أهل النار (هَلَكوا) وفي حق أهل الجنة (سَعَدوا).

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا... ﴿٧٣﴾ ﴾

في هذه الواو ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها زائدة. قاله الفراء في جماعة.

والثاني: أن الواو زيدت؛ لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة، والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة، فيقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ (١) فلما ذكر سبعَ خصال قال: ﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (٢).

والثالث: أنها واو الحال؛ فالمعنى: جاءوها وقد فتحت أبوابها، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحُذفت الواو من قصة أهل النار لبيان أنها مغلقة قبل مجيئهم.

ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أهل الجنة لما رأوا أبوابها مُفتَّحة استعجلوا السرور، وأهل النار يأتونها والأبواب مُغلقة ليكون أشدّ لحرها.

والثاني: أن الوقوف على الباب المغلق ذلٌّ، فَصِينَ عنه أهلُ الجنة دون أهل النار.

والثالث: أنه لو وجد أهل الجنة بابًا مغلقًا لأثَّر انتظار فتحه في كمال الكرم، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أصحابها؛ لأن الكريم يعجل المثوبة ويُؤخِّر العقوبة.

وأما أبواب النار فقد قال اللَّه تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ (٣).

وأما أبواب الجنة:

فروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمَّى الرَّيَّان لا يدخله إلا الصائمون » (٤).

---

(١) سورة التوبة: ١١٢. (٢) سورة الكهف: ٢٢. (٣) سورة الحجر: ٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ٩.

أخبرنا ابن عبد الواحد بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « من أنفق زوجين من ماله في سبيل اللّه دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرَّيان» فقال أبو بكر: واللّه يا رسول اللّه ما على أحد من ضرورة من أيها دُعي، فهل يُدعى منها كلِّها أحدٌ يا رسول اللّه؟ قال: « نعم وإني لأرجو أن تكون منهم » (١) (أخرجاه في الصحيحين).

وفي حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ أنه قال: « منْ أنفق زوجين من ماله ابتدرتْه حَجَبة الجنة » فقيل: « ما هذان الزوجان »، قال: « إن كانت خيلًا ففرسان، وإن كانت إبلًا فبعيران، حتى عدَّ أصناف المال كله » (٢).

وفي أفراد مسلم من حديث عتبة بن غزوان أنه قال: « واللّه لقد ذُكر لنا أن ما بين مصْراعي الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كظيظ من الزحام » (٣).

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « باب أمتي الذي يدخلون منه عَرْضه مسيرةُ الرّاكب ثلاثًا، ثم إنهم ليضطغطون (٤) عليه حتى تكاد مناكبهم تزول » (٥).

أخبرنا سعيد بن أحمد بن الحسن بإسناده عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ما بين كل مِصْراعين من مصاريع الجنة سبع سنين » (٦).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ... ﴿٧٣﴾ ﴾: **في معناه خمسة أقوال:**

أحدها: أنهم إذا انتهَوْا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من أحدهما فلا يبقى في بطونهم أذىً ولا قذى إلا خرج، ويغتسلون من الأخرى فلا تتغير جلودهم ولا تتشعَّث أشعارهم أبدًا، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة قال لهم خزنتها: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾. رواه عاصم بن ضمرة عن علي عليه السلام.

والثاني: طاب لكم المقام. قاله ابن عباس.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب رقم : ٤. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٨٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ١٥٣/٥ - ١٥٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ١٤.

(٤) أ: ليصطفقون.

(٥) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية : ٤٤٨/٢. وقال: قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٦) في الترغيب والترهيب : ٢٥٣/٤: « أربعون سنة ».

والثالث: طِبتم بطاعة اللَّه تعالى. قاله مجاهد.

والرابع: أنهم طُيبوا قبل دخول الجنة بالمغفرة واقتُصَّ لبعضهم من بعض، فلما هُذِّبوا قالت لهم الخزنة: طِبتم. قاله قتادة.

والخامس: كنتم طيبين في الدنيا. قاله الزجاج.

فلما دخلوها قالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ... ﴿٧٤﴾ ﴾ بالجنة، ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ... ﴿٧٤﴾ ﴾ أي أرض الجنة ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ... ﴿٧٤﴾ ﴾ أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي ثواب المُطيعين في الدنيا، ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ... ﴿٧٥﴾ ﴾ أي: مُحدقين به ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم... ﴿٧٥﴾ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بِٱلْحَقِّ... ﴿٧٥﴾ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ هذا قول أهل الجنة شكرًا للَّه ﷻ على إنعامه. قال العلماء: ابتدأ اللَّه تعالى ذكر خَلْق السموات والأرض بالحمد للَّه فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (١) وختم الأمر بحمده بهذه الآية.

قال أبو سليمان الداراني: منْ سرَّه أن يشهد يوم القيامة فليقرأ آخر الزّمر.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾:

سبحان من يحشر الخلائق أجمعين، ويميِّز بين من يَصْدق ويَمين (٢)، ويعرفهم ذات الشمال وذات اليمين، هؤلاء في حِزْب الشيطان اللعين، وهؤلاء مع الولدان والعِين، ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

لو رأيت أهل النار في خَنين وحنين (٣)، يُقلقهم الألم فيقوى الأنين، لا يُخفف عنهم عذابهم في حين، وأهل الجنة في نعيم يُعجز الواصفين ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

أُوصِدَت جهنم على الكافرين، فما تُفتَّح عنهم أبد الآبدين، أين هُم منها أسفل السافلين، بئست المسَاكن لبئس الساكنين، وأهلُ الجنة في أعلى عليين ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ما نفع العصاةَ تمتُّعهم سنين، ولا ردَّ عن العُتاة كِبْر المتكبرين، ولا ضرّ الفقرُ والجوع المتقين، لقد فُرِّق بين الفريقين والفرق يَبين ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: ١.
(٢) يمين: يكذب.
(٣) الخنين: كالبكاء.

شغل هؤلاء الدنيا، واشتغل هؤلاء بالدِّين، وقسَا هؤلاء وكلٌّ من هؤلاء يلين، ففاز أهلُ الجنة بالسبق إلى المقام الأمين، والويْل كلُّ الويل للمجرمين ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

يا غافلًا عما سيجري، يا من يدْري وكأنه ما يدْري، يا من يَبْري لحتفه وكأنه ما يبري [1]، حصل العصاةُ مع المعذبين، ونجا أهل التقى واليقين ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أفيكم مستدركٌ قبل الفوات، أمنكم مُنتبه يمحو الهفوات، انتقلوا قبل النقْلة بالمَمَات عن مقامات المذنبين ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

لعلَّ عِطْف الرحمة عليكم تعطَّف، لعلَّ قلْب العفو يرقُّ لـمُستعطِف، لعلَّ برْق القبول يخطف، فلا تكن من القانطين، ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

* * *

* *

*

---

(١) ش: يا من يبغي لحتفه ما يبري.

المجلس الثامن والعشرون

في الدعاء

الحمد للَّه الذي ركّب فأحسن التركيب، ورتَّب فأحسن الترتيب، وأدّب فأكمل التأديب، وقلَّب القلوب بين الترغيب والترهيب، جلَّ مِنْ رقيب قريب، يثبِّت من يُنيب، ويُوفر نصيب المصيب، ويكشف كرْب الكئيب، حاضرٌ مع الخلق لا يغيب، يقبل منهم اليسير والمعيب، ويُجيب كل مُقْبلٍ مستجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

أحمدُه عدد ما يحوي رمْل الكثيب، وأقرُّ بوحدانيته إقرار لبيب، وأصلي على رسوله محمد ذي المعجز العجيب الغريب، وعلى صاحبه أبي بكر المحب، وعلى عمر الذي بذكره المجلس يطيب، وعلى عثمان مُتلقي الشهادة بالصَّدر الرحيب، وعلى عليٍّ الذي إذا سقمتْ أفهام العلماء كان الطبيب، وعلى عمِّه العباس أقرب من كلِّ قريب.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ (١)

في سبب نزول هذه الآية خمسة أقوال:

أحدها: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: أقريب ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت. رواه الصَّلت بن حكيم عن أبيه عن جده.

والثاني: أن يهود المدينة قالوا: يا محمد كيف تزعم أن ربنا يسمع دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام؟ فنزلت. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢) قالوا: أي ساعة؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ قاله عطاء.

والرابع: أن قومًا سألوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا له: أين اللَّه؟ فنزلت هذه الآية. قاله الحسن.

والخامس: أنه كان فرْضًا على المسلمين في أوّل الصوم أنَّه من صلى العشاء ونام حُرِّم عليه الطعام والشراب والجِماع، فدنا عمرُ من زوجته ونام قبل أن يأكل فأصبح مجهودًا،

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦. (٢) سورة غافر: ٦٠.

واعترف رجال من المسلمين بما يصنعون، فقالوا: ما توبتنا مما عملنا؟ فنزلت هذه الآية قاله مقاتل.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ **قولان:**

أحدهما: قريب من سماع الدعاء.

والثاني: مجيب قريبٌ من الإجابة.

وفي قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ ﴾ **قولان:**

أحدهما: أنه بمعنى أسْمع. قاله الفراء.

والثاني: أنه من الإجابة المعروفة.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾:

أي: فليجيبوني. قاله أبو عبيدة والزجاج وابن قتيبة وأنشد:

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ

أي لم يُجبه.

فإن قيل: هذه الآية قد تضمَّنت إجابة الدعاء، ونرى كثيرًا من الداعين لا يستجاب لهم؟

فالجواب: أن أبا سعيد روى عن النبي ﷺ أنه قال: « ما مِنْ مسلم دعا دعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم، إلا أعطاه اللَّه تعالى بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يُعجل له دعوته،وإما أن يدّخر له في الآخرة، وإما أن يدْفع عنه من السوء مثلها » [1].

أخبرنا موهوب بن أحمد بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « ما من مُؤمن يَنْصب وجهه إلى اللَّه تعالى يسْأله مسْألة إلا أعطاه اللَّه إياها، إما يعجِّلها له في الدنيا، وإما أن يؤخرها له في الآخرة ما لم يَعْجل » قالوا: يا رسول اللَّه وما عجلته؟ قال: « يقول: دعوتُ اللَّه فلا أراه يستجيب لي » [2].

واعلم أن العبد ربما طلب ما لا مصْلحة له فيه، فتكون المصْلحة صرْف ذلك عنه، ويُعطَى خيرًا مما طلب، وهو لا يعلم، وربما وقعتْ الإجابة مُؤخرة.

واعلم أن الدعاء له تسعةَ عشَر أدبًا:

أحدها: أن يرْصد بها الأوقات الشريفة، كما أخَّر يعقوبُ الاستغفار لبنيه إلى السَّحر. ومنه حديث جابر قال: دعا رسول اللَّه ﷺ في مسْجد الأحزاب يوم الإثنين ويوم

(١) أخرجه البزار والحاكم وقال: صحيح الإسناد، الترغيب والترهيب : ٢٨٧/٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده بإسناد لا بأس به، الترغيب والترهيب : ٢٨٧/٢.

الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستُجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعُرف البِشْر في وجهه، قال جابر: فلم ينْزل بي أمر مُهِمٌّ غائظ إلا توخَّيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة.

والثاني: أن يدعو في الأحوال الشريفة. أخبرنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن أنس ابن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا نودي للصلاة فُتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء » (١).

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدُّعاء » (٢) ،وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « يُستجاب في أرْبعة مواطن: عند الأذان والإقامة إذا صُفُّوا للصلاة، وعند قراءة القرآن، وعند نزول الغيْث، وعند القتال في سبيل اللَّه ﷻ، وعند كل خَتْمة دعوةٌ مستجابة » (٣).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « الصائم لا تُردُّ دعْوتُه » (٤).

والثالث: أن يدعو مستقبل القبلة. وروى جابر عن النبي ﷺ أنه أتى الموقف بعرفة فاستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس (٥).

والرابع: خفض الصوت. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزاة فجعلنا لا نَعْلوا شَرفًا ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، فدَنَا منَّا رسول اللَّه ﷺ فقال: « ارْبَعُوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا قريبًا » (٦).

والخامس: الصلاة على النبي ﷺ . روى الترمذي أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يَصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ﷺ (٧).

والسادس: أن تسبِّح قبل الدعاء عشرًا وتحمد عشرًا وتكبِّر عشرًا.

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن أنس قال: جاءت أم سُليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول اللَّه علِّمني كلمات أدعو بهن. فقال: « تُسبِّحين عشرًا وتحمِّدين عشرًا وتكبِّرين عشرًا ثم سَلِي حاجتك فإنه يقول: قد فعلتُ قد فعلت » (٨).

---

(١) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي، الترغيب والترهيب : ٢٩٢/٢.

(٣) سنن الترمذي : ٣٥٤/١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده : ٤٧٧/٢.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ : ٥١٠/١، ط عيسى الحلبي.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب رقم : ١٣١.

(٧) سنن الترمذي، كتاب الوتر، باب رقم : ٢١.

(٨) مسند أحمد : ١٢٠/٣.

والسابع: أن يكون لفظ الدعاء غير متكلِّف بل عن حُرقة [١] قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً ﴾ [٢] فإن المشغول بتسجيع الألفاظ وتزيينها بعيد من الخشوع، إلا أن يتفق ذلك من غير تكلف كقوله ﷺ: « أعوذ بك مِن قلبٍ لا يخشع، ومِن عين لا تدمع » [٣].

وقد قال ابن عباس لبعض أصحابه: إيَّاك والسجع في الدعاء فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك.

والثامن: أن يكون الدعاء صحيح اللفظ؛ لأنه يتضمَّن مواجهة الحق تعالى بالخطاب، وقد جاء في الحديث: « لا يقبل اللَّه دعاء ملحونًا » [٤].

والتاسع: العزم، ففي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء، ولا يقل اللَّهم إن شئت فأعطني. فإن اللَّه ﷻ لا مُستكره له » [٥].

والعاشر: حضور القلب؛ ففي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ » [٦].

والحادي عشر: أن يسأل ما يصلح سؤاله له فإنه لو سأل مرتبة الأنبياء كان متعديًا، وقد سمع سعد بن أبي وقاص ولدًا له يسأل ما لا يصلح لمثله فزجره عن ذلك.

والثاني عشر: أن يدعو موقنًا بالإجابة فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ادعوا اللَّه وأنتم موقنون بالإجابة » [٧].

والثالث عشر: التضرع والخشوع فقد قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ ﴾ [٨] وقال تعالى: ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً ﴾ [٩].

والرابع عشر: أن يلحَّ في الدعاء فقد أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بإسناده عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه تعالى يحب الملحِّين في الدعاء » [١٠].

وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده إن العبد ليدعو اللَّه ﷻ وهو عليه غضبان فيعرض عنه، ثم يدعوه فيعرض عنه، فيقول اللَّه تعالى للملائكة: أبى عبدي أن يدعو غيري فقد استجبت له » [١١].

---

(١) أ: على حرقة. (٢) سورة الأعراف: ٥٥.

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة : ٣٤/٢. وعن أنس بن مالك : ٢٨٣/٣.

(٤) قال العجلوني في كشف الخفا : ٢٤٧/١: نقل السبكي أنه أثبت وروده.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب رقم : ٢١. وصحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٨.

(٦ ، ٧) سنن الترمذي : ٢٥٣/٤. (٨) سورة الأنبياء: ٩٠. (٩) سورة الأعراف: ٥٥.

(١٠) رواه الطبراني وأبو الشيخ والقضاعي عن عائشة مرفوعًا. كشف الخفا للعجلوني : ٢٤٦/١.

(١١) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

والخامس عشر: أن يأكل الحلال قبل الدعاء، ففي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ « أنه ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء، يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشْربه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك » (١).

قال يوسف بن أسباط: بلغنا أن دعاء العبد يُحبس عن السموات لسوء المطعم. .

والسادس عشر: الخروج من المظالم. وقال مالك بن دينار: أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجًا، فأوحى اللَّه إلى نبيه أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إليّ أُكفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن اشتدَّ غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بُعدًا.

والسابع عشر: دوام الدعاء في السراء قبل نزول الضراء. قال سَلْمَان الفارسي: إن العبد إذا كان يدعو اللَّه تعالى في السرَّاء، فنزلت به الضرَّاء فدعا، قالت الملائكة: صوتٌ معروف من آدمي ضعيف، ويشفعون له، وإذا كان لا يدعو اللَّه في السرَّاء فنزلتْ به الضرَّاء فدعا قالت الملائكة: صوتٌ منكر من آدمي منكر ضعيف فلا يشفعون له.

والثامن عشر: أن يدعو بالأدعية المأثورة فإن تعليم الشرع خير من اختيار العبد.

والتاسع عشر: أن لا يستعجل الإجابة وربما كانت المصلحة في التأخير، وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل » قالوا: يا نبي اللَّه كيف يستعجل؟ قال: « يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي » (٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن اللَّه ﷻ يدعو عبده المؤمن يوم القيامة فيقول: أيْ عبدي، إني أمرتك أن تدعوني وقد وعدتك بأني أستجيب لك، فهل كنت تدعوني؟ فيقول: نعم يا رب. فيقول: وكنت ترى لبعض دعائك إجابة وبعضه لا ترى له إجابة فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما إنك ما دعوتني بدعوة إلا استجبتُ لك في الدنيا، فإما أن عجَّلتها وإما ادَّخرتها لك في الآخرة، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغمٍّ نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول: بلى يا رب. فيقول: إني عجَّلتها لك في الدنيا. ودعوتني يوم كذا وكذا الحاجة فلم ترَ قضاءها؟ فيقول: نعم يا رب. فيقول: إني ادَّخرتُ لك بها في الجنة وكذا وكذا. قال: فيتمنى العبد في ذلك الموقف فيقول: يا ليتني لم يُعجَّل لي من دعائي شيء » (٣).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٦٤.

(٢) صحيح البخاري : ١٥٣/٧. وسنن ابن ماجه : ٢٦٦/٢. والترغيب والترهيب : ٢٩٣/٢.

(٣) رواه الحاكم. الترغيب والترهيب : ٢٨٧/٢، ط عمارة.

وكان بعض السلف يقول: لا تستبطئ الإجابة وقد سَدَدْتَ طُرقها بالمعاصي، فكم من مستغفر ممقوت وكم من سائل محروم (١).

* * *

الكلام على البسملة

يا عامر الدنيا وليستْ وطنَا ... حليف آمالٍ طوال ومُنى
يَعْمرها وليس فيها خالدٌ ... كان ولا يكون فيها (٢) بَعْدَنا
وإنما الدنيا عناءٌ وعلى ... مقدار ما نؤتاه مقدارُ العنا
ما ضرَّ منْ أعْقبه قُنوعه ... عزًّا إذا مارس عيْشًا أخشنا
أفْلح من نادت به الدنيا فلم ... يَلْوِ ولم يُصغْ إليها أُذنا
وأعجب الأشياء أني غافلُ ... أعيب منْ غيري الذي آتي أنا
يا نفسُ صبرًا إن أيام البَقَا ... قلائل وأنتِ رَهْنٌ للْفَنَا
وأين عادٌ وثمود والأولى ... تخيَّروا الأرض وخطُّوا المُدنا
وشقَّقوا أنهارها وغرسوا ... أشجارها وشيَّدوا فيها البِنَا
وأصبحوا ملوكها يطيعهم ... منْ في أقاصي الأرض قسْرًا والدُّنَا
صاح بهم ريْبُ المنون فانثَنوا ... مسلِّمين من هنا ومن هنا
وأصبحت ديارهم موحشةً ... من بعدِ ما كان بها كلُّ المنى
لهفي على معاشر ترحَّلوا ... وخلَّفوا بين الضلوع الشَّجنا
لم يبقَ لي من بعدهم مسرة ... ولا رأى طرفيَ شيئًا حسنًا
وخلَّفوني بعدهم مُولَّها ... أصيح في آثارهم: واحَزَنَا (٣)

* * *

أين أصحاب الأموال الكثيرة والقُوى، أين من شرب بكؤوس الشهوات وارتوى؟ أين من هجر الهُدى وصافَى الهوى، أمَا حالت بينه وبين أمانيه النَّوى؟ أما صار ذكره في الأخبار لمن روى، بيْنا هو قد مال إلى جمع المال وصبا، وصار على محجة اللَّهو والصِّبا، وأصبح في تحصيل أغراضه مُنتصبًا، أقبل الموت بزلازله يحمِّله من أهواله وصَبا، وأجْدب

(١) أ: مرحوم.
(٢) ش: فيه.
(٣) من مقصورة ابن دريد.

ربيعُ رَبْعه وقد كان خِصبا، واستنزلته أيدي الممات عن أرفع المقامات منصبا، وأقبل الندم والأسف فوقفا بين عينيه وانتصبا، وأقام في منزل تسفي عليه الدّبور والصَّبا [١]:

يموت الذي يبني ويبقى بناؤه ... أليس ترى باللّه في ذاك عِبرةً
فيا غافلًا عن نفسه أين من بنى ... مدائنَ أضحت بعده اليوم قَفْرةً
رمت بهمُ الأيام في عَرْصة البِلَا ... كأن لم يكونوا زينة الأرض مرةً
وما زال هذا الموت يغشى ديارهم ... يكرُّ عليهم كرةً ثم كرَّة [٢]
فأجلاهمُ منها جميعًا فأصبحتْ ... منازلهم في الأرض لحدًا وحفرةً

* * *

عباد اللّه: إن اللبيب مَن نظر في مآله، والمصيب من تزوَّد لارتحاله، والسالم من تفكَّر في مصيره، والغانم منْ فَصَم [٣] عُرى تقصيره، المتيقظ الحذر يبكي تقصيره ويعتذر، ومتى ذكر خلافه لما أُمر سالت دموعه كالماء المنهمر، فهو يَنْتحب على كل ذنبٍ كُتب عليه وسُطِّر، وفؤاده يكاد ينفطر، قد خدَّ خدَّه ذِكْر الأخدود إذا ذكر، فهو يخشى أن يستغنى الخلق ويفتقر.

قال رجل لداود الطائي: قد عرفتَ ما بيننا من القرابة فأوصني ». فبكى وقال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناسُ مرْحلةً مرحلة حتى يُنتهى بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدِّم في كل مرحلة زادًا لما بين يديك فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب والأمر أعْجل من ذلك، فتزوَّد لسفرك واقضِ ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنك بالأمر قد بَغَتك، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدًا أشدّ تضييعًا مني لذلك.

وكان داود الطائي قد ورث دراهم، فلما نفدت جعل ينقض سقف داره فيبيعه، حتى باع اللَّبِن والبواري، وبقي في نصف سقف ومات في الدهليز، ولم يكن في بيته إلا مِطْهرة ولَبِنة هي وسادة. وقال له يوسف: ما رأيت أحدًا رضِي من الدنيا بمثل ما رضيت به! فقال: من رضي بالدنيا كلها عوضًا من الآخرة، فذاك الذي رضي بأقل مما رضيت.

وكان إذا جنَّ عليه الليل يقول: همُّك عطَّل على الهموم وحالَف بيني وبينك السُّهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني وحَالَ بيني وبين [٤] اللذات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب!

---

(١) الدبور: ريح تقابل الصبا، والصبا بفتح الصاد المشددة: ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.
(٢) ش: بعد كرة. (٣) أ: قصر. (٤) الأصل: بيني وبينك.

يا مالكي رقَّ المحب قسمًا   عليكمُ بحبه تعطّفوا (١)
ويا حُداة الظَّعن قد أسلمني   إلى الضّنا فراقكم لي فقفوا
لعلَّني أن أشْتفي بنظرةٍ   تبلُّ قلْب المستهام المُدنفِ (٢)
ففي الضلوع جمرةٌ ما تنطفي   وفي الشئون عَبرة ما تُنزَفُ
إلى متى أقرع أبواب المنى   مجتهدًا في وَصْله وأصْدِفُ
أحْبب به إنْ ضَنَّ أو جاد فما   لوجْد قلبي عنْ هواه مصْرِفُ
عَلاقة تقادمتْ عهودها   أكتمها وذو الغرام يُعرفُ
خوّفت من صدوده وهجْره   واحيرتا إن كان ما أخوَّفُ
لهفي على عيشٍ مضى برامةٍ   لو ردّ شيئًا فائتًا تلهُّف

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ... ﴾ (٣)

الواقعة: القيامة، وكل آتٍ متوقَّع يقال إذا كان قد وقع. والمراد به هنا: النفخة في الصُّور لقيام الناس.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾:

تكوَّر الشمس الطالعة، وتقع النجوم خاضعة، وتنحلّ الأفلاك خاشعة وتذلّ الأملاك متواضعة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾.

يا سكران الهوى متى تُفيق، يا من ليس له غير اللَّهو رفيق، أما لك نصيح ولا شفيق يخبرك أن الطريق شاسعة.

ما أكثر آثامك، ما أعظم إجرامك وما تَقْبل ممن لامك، ويحك إن آثامك كلها متتابعة.

أما علمتَ أن العُمر لما ولَّى، عَزَلك من ولَّى، فقل لنفسك أتؤمنين أمْ لا، من أمْلَى على الرقيب ما أملى، يا مجنونة قاطعة.

---

(١) الرواية في ش: يا مالكي رق المحب بحقكم قسمًا عليكم.

(٢) في البيت إقواء وهو اختلاف حركة الروى. ويجوز الرفع على تقدير مبتدأ محذوف تقديره هو.

(٣) سورة الواقعة: ١.

لنا قومٌ إذا أكلتِ صاموا، وإذا فترتِ داموا، وإذا أفسحت لنفسك لاموا، لو رأيتهم وقد قاموا والعيون هاجعة.

هجروا الدنيا هجْر السموم الناقعة، وقامتْ أقدامُهم ساجدة راكعة، الرؤوس مُطرِقة كأنها في جامعة، فإذا سمعوا موعظة خضعوا كأنما وقعت صاعقة.

سلِموا من التكلُّف، وطلَّقوا الدنيا بلا توقُّف، ورضوا بالفقر والتخفُّف، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف في نعمة واسعة.

جفونهم في الدجى دَامِعة، قطراتها متصلة متتابعة، هذا ورُبَّ دمعة شافعة.

أسْكتوا بندبهم الحمائم الساجعة، فيا بُشراهم إذا وقعت الواقعة، إرادة القدر مُعْطية مانعة، فقومٌ لم ينتفعوا بنافعة، ضلُّوا وأدلة الهدى قاطعة، وتاهوا وأنوار الحق لامعة، قضاءٌ أهلك سيرين ونجَّى رابعة [1].

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ ﴾ أي كَذِبٌ قال قتادة: لا رجعة لها ولا ارتداد.

وفي قوله: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ ﴾ **قولان:**

أحدهما: أنها خفضت فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. رواه عطية عن ابن عباس. وهذا يدل على أن المراد بالواقعة صيحة القيامة.

والثاني: أنها خفضت ناسًا ورفعت ناسًا رواه عكرمة عن ابن عباس. قال المفسرون: يخفض أقوامًا إلى أسفل السافلين في النار، وترفع أقوامًا إلى علِّيين في الجنة.

قوله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ ﴾:

أي تحرَّكت حركة شديدة وزلزلتْ، وذلك أنها ترتجُّ حتى ينهدم ما عليها من بناء ويتفتَّت ما عليها من جبل، **وفي ارتجاجها قولان:**

أحدهما: أنه لإماتة من عليها من الأحياء.

والثاني: لإخراج من في بطنها من الموتى.

قوله تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: فُتت فتًّا. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: فتِّتت حتى صارت كالدقيق والسَّويق.

والثاني: لُتَّتْ قاله قتادة. وقال الزجاج: خُلطت ولُتَّتْ.

---

(١) سيرين: مغنية، ورابعة: هي رابعة العدوية العابدة.

قوله تعالى: ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ **في الهباء خمسة أقوال:**

أحدها: أنه ما تراه يتطاير في الشمس التي تدخل من الفتحة مثل الغبار. قاله علي عليه السلام والحسن ومجاهد واللغويون.

والثاني: أنه الماء المُهراق. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: أنه ما تنسفه الرياح وتُذريه من التراب وحطام الشجر. رواه عطاء الخُراساني عن ابن عباس.

والرابع: أنه الشرر الذي يطير من النار إذا أُضْرمت فإذا وقع لم يكن شيئًا. رواه عطية عن ابن عباس.

والخامس: أنه ما يسطع من حوافر الدواب. قاله مقاتل.

وقال مقاتل: الهباء المُنْبَثُّ: ما يسطع من سنابك الخيل وهو من الهَبْوة، والهبوة الغبار. والمعنى كانت ترابًا منتشرًا.

قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ ﴾ أي أصنافًا.

وأصحاب الميمنة فيهم ثمانية أقوال:

أحدها: أنهم الذين كانوا عن يمين آدم حين أُخرجت ذريته من صُلْبه. قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. قاله الضحاك والقُرظي.

والثالث: أنهم الذين كانوا ميامين على أنفسهم أي مباركين. قاله الربيع والحسن.

والرابع: الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيمن. قاله زيد بن أسلم.

والخامس: أنهم الذين منزلتهم عن اليمين. قاله ميمون بن مهران.

والسادس: أنهم أهل الجنة. قاله السُدي.

والسابع: أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة. قاله الزجاج.

والثامن: أنهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة. ذكره الواحدي.

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ ﴾ قال اللغويون: هذا مثل قولك زيد ما زيد؟! أي رجل أيّ رجل هو. تعظِّم شأنه بذلك كقوله تعالى: ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [1] ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [2].

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ... ۝٩ ﴾ وهم أصحاب الشمال والجانب الأيسر يقال له: الأشأم، والعرب تُسمِّي اليد اليسرى الشُؤمَى. وتفسير أصحاب المشأمة على ضد تفسير أصحاب الميمنة.

---

(١) سورة الحاقة: ٢. (٢) سورة القارعة: ٢.

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ ﴾ المعنى: أيُّ قومٍ هم، ماذا أعدّ لهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ ﴾ **فيه خمسة أقوال:**

أحدها: أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة. قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنهم الذي صلّوا إلى القِبلتين قاله ابن سيرين.

والثالث: أنهم القراء. قاله كعب.

والرابع: الأنبياء. قاله محمد بن كعب.

والخامس: السابقون إلى المساجد وإلى الجهاد.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بإسناده عن الأوزاعي قال: سمعت عثمان بن أبي سوْدة يقول في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ قال: أوَّلهم رواحًا إلى المساجد، وأوَّلهم خروجًا في سبيل اللَّه تعالى.

وفي إعادة ذكرهم قولان ذكرهما الزجاج **أحدهما:** أنه للتوكيد **والثاني:** أن المعنى: السابقون إلى طاعة اللَّه هم السابقون إلى رحمة اللَّه تعالى.

أخبرنا محمد بن أبي القاسم بإسناده عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « السُّبَّاق أربعة: أنا سابق العرب، وصُهَيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة »[1].

أما صهيب فكان قد أقبل مهاجرًا فاتبعه نفر من قريش لعنهم اللَّه تعالى، فلما أدركوه وأحسَّ بهم خلْفه التفت إليهم وزجرهم عن اتّباعه وحذَّرهم أن يقْربوه، وهم مع ذلك يأبون إلا اتّباعه والتقرُّب منه، فلما أعياه ذلك نزل عن راحلته ونثَل[2] كنانته ثم قال: يا معشر قريش واللَّه قد علمتم أني مِنْ أرماكم رجلًا، وايم اللَّه لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، وإن شئتم دلَلْتكم على مالي وثيابي بمكة وخلَّيتم سبيلي. قالوا: نعم. فلما قدم على رسول اللَّه ﷺ قال: « ربح البيعَ أبا يحيى ربح البيع أبا يحيى » ونزلت ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وأما سلمان الفارسي فإنه خرج يطلب الدِّين، فأخذه قوم فباعوه ظلمًا فنال أمره إنْ كاتَب، وأعانه رسول اللَّه ﷺ في كتابته، فشهد معه الخندق وما بعدها وصار أميرًا

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ لكن قال العجلوني في كشف الخفا: ٤٥٩/١. وقال النجم: ورواه الديلمي عن علي بلفظ: سيد الناس آدم، وسيد العرب محمد، وسيد الروم صهيب، وسيد الفرس سلمان، وسيد الحبشة بلال.

(٢) نثل كنانته: استخرج نَبْلها فنثرها.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٧. السيرة النبوية لابن كثير - بتحقيقي - : ١٩٦/٢.

بالمدائن على ثلاثين ألفًا، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، فإذا خرج عطاؤه أمضاه وأكل منْ سفِّ الخُوص (١)، ولم يكن له بيت يُكنُّه، وكان يستظل بالفيء حيث ما دار، فقال له رجل: ألا نبْني لك بيتًا؟ فقال: كيف تبنيه؟ قال: إن قمت أصاب رأسك وإن اضطجعت أصاب رجليك. قال: نعم. ولقيه رجل معه حِملٌ من التبْن فلم يعرفه. فقال: احمل هذا معي. فحمله. فلما رآه الناس قالوا: هذا الأمير، فقال: لم أعرفك. فقال سلمان: لا حتى أبْلغ منزلك.

وكان سلمان يقول: ثلاثة تُضحكني: مؤمِّل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحكٌ مِلء فيه لا يدري أساخط عنه رب العالمين أم راضٍ عنه، وثلاثٌ أحْزنَّني حتى أبكينني: فراقُ محمد ﷺ، وهول المُطَّلع، والوقوف بين يدي الله ﷻ لا أدري إلى الجنة أو إلى النار.

وأما بلال فكان أول من أسلم، فعذبوه فهانت نفسه عليه ولم يُطعهم فيما أرادوا من لفظ الشرك، فحملوه فجعلوا في عنقه حبلًا، ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخْشَبَيْ مكة، وكلما عذِّب قال: أَحدٌ أحد. فاشتراه أبو بكر ﷺ فأعتقه، فكان عمر ﷺ يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. يعني بلالًا. وكان خازنَ رسول اللَّه ﷺ ومؤذنه، فلما مات أذَّن قَبْل أن يُقبر، وكان إذا قال: أشهد أن محمدًا رسول اللّه انتحب الناس في المسجد، فلما دفن رسول اللَّه ﷺ قال له أبو بكر: أذِّن. فقال: إن كنتَ أعتقتني لأن أكون معك فلا سبيل إلى ذلك، وإن كنت أعتقتني للَّه تعالى فخلِّني ومن أعتقتني له. فقال: ما أعتقتك إلا للَّه ﷻ. قال: فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول اللَّه ﷺ . قال: فذاك إليك. وخرج مع بعوثٍ إلى الشام فمات هناك.

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن إسماعيل بن مَسْلمة قال: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأنّ مناديًا ينادي: ليقُم السابقون، فقام سفيان الثوري، ثم نادى الثانية: ألا ليقم السابقون. فقام سالم الخوَّاص. فنادى الثالثة: ألا ليقم السابقون. فقام إبراهيم بن أدهم.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾:

أيها المتقاعدون افهموا، أيها الراضون بالدُّون، لما جدَّ في الجد المتقون مدحهم من يقول للشيء كن فيكون ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾.

كانوا إذا جنَّ الليل يشهرون، وتجري من العيون عيون، فإذا جاءت الهواجر فللطعام

(١) سف الخوص: نسجه.

يهْجرون، وما زالوا في الخدمة كالخدم ينتصبون، فحُمد النَّصب بعيني ما يتحملون ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾.

إن أقبل البلاء فهم صابرون، وإن وردت النعماء فهم شاكرون، وإن تزخرفت الدنيا فهم عنها معرضون، حركات عزائمهم ليس فيها سكون، وكذا من أراد الأخرى يكون ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾

أذكارهم في الحياة وهم ميتون، فإذا انجاب التراب عنَ الأنجاب فعلى النجائب يُحملون، وتبشرهم الأملاك ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١).

لا يقفون إلى الحساب بل إلى الجنة يدخلون، يعجب أهل الموقف منهم ثم يسألون: منْ هؤلاء الذين إلى النعيم يُحْضرون، لا عند الميزان وُقفوا ولا للسؤال يحضرون، فإذا الجواب: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (٢).

فلو قيل: ما صفاتهم؟ قيل: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ (٣) فما أعمالهم ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (٤) وأحسن ما به القوم يُمدحون ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾.

والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٣.

(٢) سورة المؤمنون: ١١١.

(٣) سورة التوبة: ١١٢.

(٤) سورة الذاريات: ١٧.

الطبقة الخامسة

تشتمل على ذم المعاصي والمكروهات

(وفيها أحد عشر مجلسًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

في ذم الغيبة ومعاصي اللسان ومدح الصمت

الحمد لله العظيم في قدْره، العزيز في قهْره، العليم بحال العبد في سرِّه وجهره وما يجري عليه في دهره، الجائد على المجاهد بنصره، المنعِم على العاصي بستره، الحليم عن آمنِ مَكْره، فهو يرزق الكافر على كفره، يسمع صريف القلم عند خط سَطْره، ونقيقَ الضفدع في حافة بحْره، وأنين المُدنف (١) عند ضعف صبره ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ (٢).

أحمده على القدر خيره وشرِّه، وأشكره على القضاء حُلْوه ومُرِّه، وأشهد بوحدانيته شهادة من لا يجول التشبيه في فكره، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله داعيًا إلى البرِّ أهلَ بحره وبرِّه، صلى الله عليه وعلى أبي بكر سابق الكل بشيء وقَر في صدره، وعلى عُمر مُعزّ الإسلام بفظاظته وقَهْره، وعلى عثمان ذي النورين الصابر من أمره على أمْره، وعلى عليٍّ أخيه وابن عمِّه وصهره، وعلى عمِّه العبَّاس الذي ببركته جاد السحاب بقطره.

* * *

قال الله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...﴾ (٣)

هذه الآيات نزلت على **ثلاثة أسباب:**

فأولها إلى قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ...﴾ نزلت على سبب وفيه قولان:

أحدهما: أن ثابت بن قيس جاء يوم بدر يريد الدنوّ من رسول الله ﷺ وكان به صَمَم، فقال لرجل بين يديه: افسَحْ. فقال له الرجل: قد أصبتَ مجلسًا. فجلس مُغضبًا ثم قال للرجل: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقال: ثابت: ابن فلانة؟ فذكر أمًّا له كان يعيَّر بها في الجاهلية، فأغضى الرجل ونكَّس رأسه، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن وفد تميم استهزءوا من فُقَراء أصحاب رسول الله ﷺ لِـمَا رأوا من رَثاثة (٤) حالهم، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك ومقاتل.

---

(١) المدنف: المريض الذي يلازمه المرض.
(٢) سورة الروم: ٢٥.
(٣) سورة الحجرات: ١١.
(٤) الرثاثة: سوء الحال.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ... ﴿١١﴾ ﴾ فنزلت على سبب وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن نساء رسول الله ﷺ عيّرن أم سلمة بالقِصر فنزلت هذه الآية. قاله أنس.

والثاني: أن أم سلمة خرجت يومًا وقد استرخى طرفُ جلبابها خلفها ولا تعلم، فسخرت منها امرأتان من أزواج رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية. قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أن صفية أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يعيرنني ويقلن: يا يهودية بنت يهودي. فقال رسول الله ﷺ: « هلا قلتِ: إن أبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمد ». فنزلت هذه الآية. رواه عكرمة عن ابن عباس.

فأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ... ﴿١١﴾ ﴾ فنزلت على سبب وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن رسول الله ﷺ قدم إلى المدينة ولهم ألقاب يُدعون بها، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه فقيل له: يا رسول الله ﷺ إنهم يكرهون هذا. فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ قاله أبو جبير بن الضحّاك.

والثاني: أن أبا ذرٍّ كانت بينه وبين رجل منازعة، فقال: يابن اليهودية، فنزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ قاله الحسن.

والثالث: أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حدْرد الأسلمي كلام فقال له: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي. فنزلت فيهما ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ قاله مقاتل.

* * *

فأما تفسيرها: فقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرْ... ﴾ أي لا يستهزئ غني بفقير ولا مستور عليه ذنبه بمن ليس بمستور، ولا ذو حسب بمن لا حسب له وأشباه ذلك مما ينقّصه به، ولعلَّه عند الله خير منه. والقوم في اللغة: اسم للرجال دون النساء، وكذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ ﴾ بمعنى تعيبوا. والمراد بالأنفس هاهنا الإخوان، والمعنى: لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين؛ لأنهم كأنفسكم.

أخبرنا هبة الله بن محمد بإسناده عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يجتني سِواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ « مم تضحكون؟ » قالوا: مِن دقَّة ساقيه. فقال: « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد » (١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ١/٤٢٠، ٤٢١.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ... ﴾:

والتنابز: تفاعلٌ من النبز وهو مصدر، والنبز: الاسم. **والألقاب**: جمع لقب وهم اسم يُدعى به الإنسان سوى الذين سُمِّي به. والمعنى لا تَدْعوا (١) بالألقاب، والمراد بهذه الألقاب ما يكرهه المنادَى به أو يفيد ذمًّا. فأما الألقاب التي تكون صدقًا وتُكسِب حمْدًا فلا تُكره كما قيل لأبي بكر « عتيق » ولعمر « الفاروق » ولعثمان « ذي النورين » ولعليٍّ « أبو تُراب » ولخالد « سيف اللَّه ».

قوله تعالى: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ... ﴿١١﴾ ﴾ أي أن تسمِّيه (٢) فاسقًا أو كافرًا وقد آمن ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ... ﴿١١﴾ ﴾ من التنابز ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي الضارون لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ... ﴿١٢﴾ ﴾:

قال ابن عباس: نهى اللَّه المؤمن أن يظن بالمؤمن شرًّا. قال الزجاج: هو أن يظن بأهل الخير سوءًا، فأما أهل السوء فلنا أن نظنَّ بهم مثل الذي ظهر منهم.

- **واعلم أن الظن على أربعة أضرب: محظور ومأمور به ومباح ومندوب إليه:**

فأما المحظور: فهو سوء الظن باللَّه ﷻ. والواجب: حسن الظن باللَّه تعالى، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة محظور.

فأما الظن المأمور به: فهو ما لم يُنْصب إليه دليل على العلم به، وقد تُعبِّدْنا بتقييد الحكم فيه والاقتصار على غالب الظن، وإجراء الـحُكم عليه واجب نحو ما تُعبِّدنا به من قبول شهادة العدول وتحرِّي القبلة وتقويم المستهلكات وأُروش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف.

وأما الظن المباح: فكالشَّاك في الصلاة إذا كان إمامًا فقد أمره الشرع بالتحري وبالعمل على ما يغْلب في ظنه، فإن فعل كان مباحًا، وإن عدَل إلى البناء (٣) على اليقين جاز.

وأما قوله: احترسوا من الناس بسوء الظن. فالمراد الاحتراس بحفظ المال مثل أن يقول: إن تركت بابي مفتوحًا خشيت السُّرَّاق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ... ﴿١٢﴾ ﴾ وهو ما تكلم به مما يظنه من السوء بالمسلم. وقال بعض العلماء: يأثم بنفس الظن وإن لم ينطق به.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا۟... ﴿١٢﴾ ﴾:

وقرأ الحسن وابن سيرين وابن يعمر بالحاء. قال أبو عبيد: والمعنى واحد؛ لأنه التبحُّث

---

(١) أ: لا تداعوا. (٢) أ: أي من تسميه. (٣) أ: على البناء.

ومنه الجاسوس وقال يحيى بن أبي كثير: التجسس بالجيم: البحث عن عورات الناس. وبالحاء الاستماع لحديثهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا... ﴿١٢﴾ ﴾:

أي لا يتناول بعضكم بعضًا بظهر الغيب بما يسوؤه، ثم ضرب اللَّه تعالى للغيبة مثلًا فقال: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا... ﴿١٢﴾ ﴾ وبيانه: أن ذِكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك. ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ... ﴿١٢﴾ ﴾ قال الفراء: ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فلا تفعلوه. وقرأ الضحاك. وعاصم الجحدري: ﴿ فكُرِّهتموه ﴾ برفع الكاف وتشديد الراء والمعنى: فقد بُغِّض إليكم.

أخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي بإسناده عن أسامة بن شريك قال: سمعتُ الأعاريب يسألون رسول اللَّه ﷺ: هل علينا جناح في كذا وكذا؟ فقال: « عباد اللَّه وضع اللَّه الحرج إلا امرأ اقترض من عرض أخيه فذاك الذي حَرِج » (١).

أخبرتنا فاطمة بنت الحسين الرازي قالت: أنبأنا أبو الحسن علي بن أحمد المعطي (٢) بإسناده عن البراء. قال: خطبنا النبي ﷺ حتى أسمع العواتق ثم قال: « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبَّع عورة أخيه يتَّبع اللَّه عورته، ومن يتَّبع اللَّه ﷻ عورته يفضحه في جوف بيته » (٣).

وبه عن جابر قال: كنتُ أمشي مع النبي ﷺ فارتفعت ريح خبيثة فقال: « هذه ريح الذي يغتابون المؤمنين » (٤).

وبه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يؤتى بالرجل الذي كان يغتاب الناس في الدنيا فيقال له: كُلْ لحم أخيك ميتًا كما أكلته حيًّا فإنه ليأكله ويضجّ ويكلح » (٥).

وبه عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « الغيبة أشدُّ من الزنا » قالوا: يا رسول اللَّه كيف؟ قال: « إن الرجل يزني فيتوب فيتوب اللَّه عليه، وإن صاحب الغيبة لا يُغفر له

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب رقم : ١.

(٢) أ: الملطي.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب رقم : ١. والترمذي في سننه، كتاب البر، باب رقم : ٨٣. وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب رقم : ٣٥ - ٣٧.

(٤) مسند أحمد : ٣٥١/٣.

(٥) يكلح: يكشر في عبوس. والحديث ذكره ابن حجر الهيتمي في كتاب الزواجر : ١٠/٢ وقال: رواه أبو يعلى والطبراني وأبو الشيخ. قال: ويروى: ويصيح » بدلًا من « ويضج ».

حتى يغفر له صاحبه » (١).

وقد روى البراء عن النبي ﷺ أنه قال: « إن مِن أربى الربا: استطالة الرجل في عِرض أخيه » (٢).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « أكبر الكبائر استطالة الرجل في عِرض أخيه بغير حقٍّ والسَّبتان بالسبّة » (٣).

وروى عنه أنس بن مالك أنه قال: « لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم، قلتُ: من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » (٤).

فإن قال قائل: ما الغيبة؟ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قيل: ما الغيبة يا رسول اللَّه؟ قال: « ذِكرك أخاكَ بما يكره » قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول اللَّه؟ قال: « إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن ما تقول فقد بَهتَّه » (٥) (انفرد بإخراجه مسلم).

- **وقد ثبت أن الغيبة حرام، والإنكار على المغتاب واجب:**

فقد روى جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من امرئ مسلم يخذل امرأً مسلمًا في موضع يُنتقص فيه من عرضه وينتهك فيه مِن حُرمته إلا خذله اللَّه في مَوطن يحب فيه نُصْرته. وما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلمًا في موضع ينتقص فيه مِن عرضه وينتهك فيه مِن حُرمته، إلا نصره اللَّه في موطن يحب فيه نصرته » (٦).

وفي حديث آخر عن النبي ﷺ قال: « مَن أُذلَّ عنده مؤمن وهو يقدر على نصره فلم ينصره أذلَّه اللَّه على رؤوس الخلائق » (٧).

وذكر رجل رجلًا عند معروف الكرْخيّ فجعل يغتابه، فجعل معروف يقول: اذكر القُطن إذا وضعوه في عينك!.

وكان ابن سيرين لا يعجبه أن يُغتاب اليهودي والنصراني، وقال في حقِّ نصرانيين: أحدهما أطيب من الآخر. ثم قال: أراني قد اغتبته!

وكان بين عبادة بن نَسِيّ وبين رجل منازعة فنال منه الرجل، فلقي رجلٌ عبادة فقال:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي. الزواجر : ١١/٢.

(٢) رواه البزار بسند قوي. الزواجر : ٩/٢.

(٣) روى نحوه الطبراني. الزواجر : ٩/٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٢٤/٣.

(٥) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٧٠.

(٦) رواه أبو داود وابن أبي الدنيا. الزواجر : ١٢/٢.

(٧) أخرج نحوه الأصبهاني. الزواجر : ١٢/٢.

بلغني أن فلانًا نال منك. فقال: لولا أن تكون غيبة مني لأخبرتك بالذي كان.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ في خطبته لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكنْ من أدَّى الأمانة وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرجل:

احذر بدينك إن أردتَ سلامةً ... فكأنَّ مغرور الخلائق يمزحُ

والموتُ فادحة تَطُمّ وترْكنا الـ ... إعدادَ للمثوى أطمُّ وأفدحُ

واعلم أن خطر اللسان عظيم ليس كغيره من الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان، والأذن لا تصل لغير الأصوات، واليد لا تصل لغير الأجسام، واللسان يجول في كل شيء وبه يبين الإيمان والكفر « وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم » (١).

ومن أقبح الذنوب الغيبة والنميمة وقد عمَّ ذلك جميع الناس:

الخير معدومٌ وأحسبه ... مع جبريل للسماء عرَجْ

فكأنه ميْتٌ بلا عَقِب ... فإذا سألنا عنه قيل دَرجْ

واعلم أن الصمت نجاة من الآفات، وسبب لجمع الهم وتفرغ الفكر. فنسأل الله نطقًا بالخير وصمتًا عن الشرِّ.

* * *

الكلام على البسملة

يمنعني من عيب غيري الذي ... أعرفه فيّ من العيبِ

عيبي لهم بالظن مني لهم ... ولست من عيبي في رَيْب

إن يك عيبي غاب عنهم فقد ... أحصى عيوبي عالمُ الغيب

قال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء عيبًا أن يستبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه، ويمقت الناس على ما يأتي.

وقيل للربيع بن خثيم: ما نراك تعيب أحدًا ولا تُذُّمه؟ فقال: ما أنا على نفسي براضٍ فأتفرغ من عيبها إلى غيرها، إن الناس خافوا الله على ذنوب العباد وأمنوه على ذنوبهم!.

وقال الحسن: يا بن آدم لا تنال حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وتبدأ بذلك العيب من نفسك فتصلحه، فما تُصلح عيبًا إلا ترى عيبًا آخر، فيكون شُغلك في خاصَّة نفسك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رقم : ١٩.

وقد قال عون بن عبد اللَّه: ما أحسب أحدًا تفرغ منْ عيب الناس إلا من غفل غفلة غَفِلها عن نفسه.

ويحك من يسرُّه ما يضرُّه كيف يُفلِح؟ ومن لا يقبل قول الطبيب كيف [1] يصلح؟ أين بكاؤك على ذنوبك؟ أين حزنك على عيوبك؟ أين أسفك لفوت مطلوبك.

إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبَهم   فلا عيْب إلا دون ما فيك يُذكرُ
فإن عِبتَ قومًا بالذي فيك مثْلُه   فكيف يعيبُ العُورَ [2] من هو أعْورُ
وإن عبت قومًا بالذي ليس فيهمُ   فذلك عند اللَّه والناس أكبرُ
فسالمهمْ بالكفِّ عنهم فإنهم   بعيبك من عينيك أهْدى وأبْصرُ

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد بسنده عن أبان بن خالد الرِّبعي قال: دخلت المسجد فإذا قوم يغتابون رجلًا فقلت: لا تفعلوا. فكفُّوا ثم ذكروا أَمَته فنلتُ معهم منها، فلما بتُّ جاءني رجل ومعه قطعة لحم خنزير وقال: كلْها فأبيت عليه. فقال لي: كُلْها. فأبيت عليه، فقال: كلها. فخِفْته فوضعتها في فيّ فجعلت ألوكها فلا أقدر أن ألفظها مخافةً منه، فكنت هويًّا [3] من الليل وهي في فِيَّ، ثم أصبحت شهرًا أعدُّه وأنا لا آكل طعامًا ولا أشرب شرابًا إلا وجدت طعمه في فيَّ.

وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » [4].

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي هريرة أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن العبد ليتكلَّم بالكلمة يزِلُّ بها في النار أبْعَد ما بين المشرق والمغرب » [5].

قال أحمد: وحدَّثنا أبو معاوية، قال: حدَّثنا محمد بن عمر بن علقمة الليثي، عن أبيه عن جدِّه علقمة، عن بلال بن الحارث قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن الرجل ليتكلَّم بالكلمة من رضوان اللَّه ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب اللَّه تعالى له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سخط اللَّه ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللَّه له بها عليه سخطه إلى يوم القيامة » [6].

واعلم أن السلف لمَّا خافوا شرَّ اللسان استعملوا الصمت وخافوا شر اللسان:

وكان أبو بكر الصديق يمسك لسانه ويقول: هذا أوْردني الموارد.

---

(١) أ: فكيف.
(٢) أ: الناس.
(٣) الهوى – بتشديد الياء –: ساعة من الليل.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده : ١٩٨/٣.
(٥) مسند أحمد : ٣٧٩/٢.
(٦) مسند أحمد : ٤٦٩/٣.

وقال ابن مسعود ﷺ: ما شيء أحوجَ إلى طُولِ سَجْنٍ من لسانٍ (١).

وصَحِبَ رجلٌ الربيعَ بن خُثيم عشرين سنة قال: فما سمعت منه كلمةً تُعاب وقال مجاهد: كانوا يكتفون من الكلام باليسير.

وقال الفضيل: كان بعض أصحابنا يَعُدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

وقال مَخْلَد بن الحسين: ما تكلمتُ بكلمة أريد أن أعتذر منها خمسين سنة.

واعلم أن من آفات اللسان: الكلام فيما لا يعني.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: « مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (٢).

ومن آفاته: فضول الكلام.

وقال ابن مسعود: أنذرتكم فضولَ القول، بحَسْب أحدكم ما أبلغ حاجته، فأما الخوض في الباطل والمراء والجدال في الدين والفُحش والسبّ واللعن والسخرية والاستهزاء والكذب والنميمة فمهلكات. وقد كُره التقعُّر في الكلام وكثرة المزاح والمدح بما لا يصلح. ومما قد عمَّ عوامَّ الناس من الكلام المؤذي وتصاعد إلى العلماء: الغيبة وليست تقتصر على اللسان، فإن كل ما يفهم في مقصود الذم داخل في الغيبة، وقد حكت عائشة رضي الله عنها امرأة فذكرت قِصَرها فقال رسول الله ﷺ: « قد اغتبتها » (٣).

وربما رأيت من العلماء مَنْ إذا ذكر نظيره قال: ما أحسن ما تكلَّم غير أنه اعتراه فتور. فيتلطَّف في ذمه! وربما قال: فيمن دونه: فلان جاهل وفهمه ضعيف. ومقصوده مدْح نفسه. وربما استهزأ به احتقارًا وربما ذكره على سبيل التعجب فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان. ويذكر أمرًا لا يصلح، وربما أخرجه مَخرج الترحُّم، فيقول: غمَّني فلان، كان منه كذا وكذا. وربما أشاع منه مُنكرًا يجب عليه كتمانه عليه.

واعلم أن غيبة القلب: سوء الظن بالمسلمين.

* * *

والنميمة من أقبح القبائح:

وهو أن ينقل كلام شخص إلى شخص فيوجب ذلك حقدًا من المذكور على الذاكر. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا يدخل الجنة قتَّات » (٤)، وفي لفظ

---

(١) ش: إلى لسان.

(٢) أخرجه الترمذي، في كتاب الزهد، باب رقم: ١١.

(٣) الزواجر لابن حجر: ٢/٩. وقال: أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم: ٥٠. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ١٦٩، ١٧٠.

« نمَّام ». وفيهما من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ مرَّ بقبرين فقال: « إنهما ليعذَّبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وأما الآخر فكان يمشي في الناس بالنميمة » (١).

ومن هذا الجنس: ذو الوجهين. روى أبو هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: « تجدون مِن شرِّ عباد اللَّه يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٢):

تعاهد لسانك إن اللسا ... ن سريعٌ إلى المرء في قَتْلهِ
وهذا اللسان بريد الفؤا ... د يدلُّ الرجالَ على عَقلهِ

يا مُطْلقًا لسانه فيما يؤذيه، يا غافلًا عن الكلام وله ما يحصيه، إنْ أردتَ قولًا فانظر قبل النطق فيه، فالسعيد مَنْ وقَف على قدم اليقظة حارسًا على فِيه.

اغتنم ركعتين زلفى إلى اللَّه ... إذا كنت فارغًا مُستريحًا
وإذا ما هَمَمْتَ بالنطق (٣) بالبا ... طل فاجعلْ مكانه تسبيحا
فاغتنام السكوت أفضل من ... خوضٍ وإن كنتَ في الحديث فصيحا

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ... ﴾ (٤)

الإشارة إلى المكذبين بالبعث. والواو بمعنى مع، وذلك أن كل كافر يُحشر مع شيطانه في سلسلة ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾ قال مقاتل: أي في جهنم. وذلك أن حوْل الشيء يجوز أن يكون داخله تقول: جلس القوم حول البيت. إذا جلسوا داخله مطيفين به. وقيل: يَجْثون حولها قبل دخوله. و ﴿ جِثِيًّا ﴾ جمع جاث. قال الحسن: يجْثون على الرُّكب. قال المفسرون: وذلك لضيق المكان عليهم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ... ﴿٦٩﴾ ﴾:

أي لنأخذن من كلِّ فِرقة وأُمَّة وأهل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ قال الزجاج: لننزعن الذي عتا من أجل عتوِّه. أي هؤلاء أشد عتيًّا. والمراد أعظمهم له

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب رقم : ٥٥. وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ١١.
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب رقم : ١. وكتاب الأدب، باب رقم : ٥٢.
(٣) أ: وإذا هممت في النطق.
(٤) سورة مريم: ٦٨.

معصية. والمعنى نبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى، وبالأكابر جرمًا والرؤوس القادة في الشرِّ.

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾:

يقال: صَلِيَ النار: إذا دخلها وقاسى حرَّها.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... ﴿٧١﴾ ﴾:

تقديره: وما منكم أحد إلا وهو واردها. ففي هذا الخطاب **قولان: أحدهما:** أنه عامٌّ في حقِّ المؤمن والكافر. **والثاني:** خطاب للكافر. والجمهور على الأوَّل.

- **وفي معنى الورود ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه الدخول: أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي سمية قال: اختُلف هاهنا بالبصرة في الورود [١] فقالت: طائفة [٢]: لا يدخلها مؤمن. وقال آخرون: يردونها جميعًا [٣]، فأتيت جابر بن عبد اللَّه [٤] فسألته عن ذلك فقال: يردونها جميعًا ثم ينجي اللَّه الذين اتَّقوا ويذر الظالمين. فقلت: إنا اختلفنا فيه بالبصرة. فأهوى بإصبعه إلى أذنيه وقال: صُمَّتا إن لم يكن سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « الورود الدخول لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، إن لجهنم أو للنار ضجيجًا من بردهم، ثم ينجي اللَّه الذين اتَّقوا ويذر الظالمين فيها جثيًّا » [٥].

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد اللَّه في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: يدخلونها ويَلِجُونها ثم يصدرون منها بأعمالهم.

أخبرنا هبة اللَّه بن أحمد الحريري بسنده عن ابن أبي ليلى قال: لما نزلت: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ لزم عبد اللَّه بن رواحة بيته باكيًا، فقالت له امرأته: ما يبكيك؟ قال: أتاني الورود ولم يأتني الصُّدور. فلما نزلت: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا... ﴿٧٢﴾ ﴾ قال: الآن أتاني الصَّدَر وبيَّن اللَّه لي من ينجو.

وقال الحسن البصري: قال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك واردٌ النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك خارجٌ منها؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟

وقال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة قالوا: ألم يَعِدْنا ربُّنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: بلى، ولكن مررتم بها وهي خامدة.

---

(١) في المسند: اختلفنا هاهنا في الورود.
(٢) المسند: فقال بعضنا.
(٣) المسند: يدخلونها.
(٤) المسند: فلقيت جابر بن عبد اللَّه.
(٥) مسند أحمد : ٣/٣٢٩.

القول الثاني: أن الورود الممرُّ عليها. قاله ابن مسعود وقتادة. وقال ابن زيد: هو الممرُّ على الصراط. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يُضْرب جِسْر على جهنَّم فأكون أول من يُجيز » [١].

وفيهما من حديث أبي سعيد الخدري على النبي ﷺ أنه قال: « يؤتى بالجِسْر فيجعل بين ظهري جهنم » [٢].

والثالث: أن ورودها حضورها. قاله عبيد بن عمير.

والرابع: أن ورود المسلمين المرور على الجسر، وورود المشركين دخولها. قاله ابن زيد.

والخامس: أن ورود المؤمن إليها ما يصيبه من الحمَّى. قال مجاهد: الحمى حظٌّ كل مؤمن من النار، ثم قرأ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ يعني الورود ﴿ حَتْمًا ﴾ الحتم: إيجاب القضاء. والمقضيُّ: الذي قضاه اللَّه تعالى، والمعنى: أنه حَتَم ذلك وقضاه على الخلق.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿ ثَم ﴾ بفتح الثاء. والنجاة: تخليص الواقع في الشيء، وهذا يؤكد قول القائلين بالدخول ويوضحه.

قوله تعالى: ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ... ﴿٧٢﴾ ﴾ وإنما يقال « نذر ونترك » لمن قد حصل في مكانه والجثيُّ جمع جاثٍ والمعنى: جثيًّا على رُكَبهم.

* * *

كان بعض السلف يقول: لقد شغل ذكرُ النار قلوب الخائفين عن ذكر الجنة.

إخواني: أفيقوا من سُكْر الجهالة، وانتبهوا من رقدات البطالة، وتخيروا قبل الفوات أحسن حالة، فإنكم حاضرون النار لا محالة:

يا غافلًا يتمادى ... غدًا عليك يُنادَى
هذا الذي لم يقدِّم ... قبل الترحُّل زادا
هذا الذي وعظوه ... وخوّفوه المعادا
فلم يكن لمناديـ ... ـه طائعًا مُنقادا

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم: ٥٢، وكتاب التوحيد، باب رقم: ٢٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٣٠٢ - ٣١٦.

أيها العاصي: كيف رضيت بفساد أمرك حين ضيعت (١) أيام عمرك، وكيف ركبت الضلالَ بعد علمك وخُبْرك، فلم تعمل صالحًا لقبرك، وكيف آمنت بمعادك وحَشْرك، ثم وافقت في ترك العمل له المشرك، ويحك اجتهد في أيام بذرك، وانتبه لإقامة عُذرك، واحذر أن ينادي عليك بغَدْرك، فاندمْ على ما مضى واستدرك، أين علامة الإيمان يا من يدَّعيه؟ أين تأثير الوعظ يا من يسمعه ويعيه؟ أين بِذار العمر وعن قليل تستوفيه؟ أين اعتبارك بمن حوى الدنيا فأصبح اللحدُ يحويه؟ أين عقلك؟ غطَّى عليه زخرف التمويه، يا مسئولًا عما يُسرُّه ويُبديه، يا من نفسه في الحقيقة منْ أكبر أعاديه، يا مُعرضًا عن العبر وهي تراوحه وتُغاديه (٢)، يا من قد أصمَّه الهوى ومنادي الهُدى يناديه، يا من لا يُفيق حتى يحُلَّ الموتُ بواديه، أما أنذرك الشيب وهو أكبر بواديه، ويحك إنْ أسَر المذنبَ العذابُ فمن يفْتديه؟!:

وكيف قرَّت لأهل العلم أعينهم ... أو استلذُّوا لذيذَ النوم أو هجَعُوا
والموتُ ينذرهم جهرًا علانيةً ... لو كان للقوم أسماعٌ لقد سمعوا
والنار ضاحيةً لا بُدَّ موردهم ... وليس يدرون من ينجو ومن يقعُ
قد أمستِ الطير والأنعام آمنة ... والنُّون (٣) في البحر لا يغتالها فزعُ
والآدميُّ بهذا الكسب مُرْتهن ... له رقيبٌ على الأسرار يطلعُ
حتى توافيه يوم الجمع (٤) منفردًا ... وخصمه الجِلْد والأبصار والسمعُ
إذ النبيُّون والأشهادُ قائمة ... والجن والإنس والأملاك قد خشعوا
وطارت الصُّحف في الأيدي منشَّرة ... فيها السرائر والأخبار تُطَّلعُ
فكيف سهْوك والأنباء واقعةٌ ... عما قليل ولا تدري بما تقعُ
أفي الجِنان وفوزٌ لا انقطاع له ... أم الحميمُ فلا تُبقي ولا تدعُ
تهوي بساكنها طوْرًا وترفعهم ... إذا رجوا مَخْرجًا من غمها قُمعوا
طال البكاءُ فلم ينفع تضرُّعهم ... هيهات لا رِقَّة تُغني ولا جزعُ
لينفعَ العلمُ قبل الموت عالمه ... قد سال قومٌ بها الرُّجعى فما رجعوا

---

(١) أ: حتى ضيعت.
(٢) الرواح: آخر النهار، والغدو: أوله.
(٣) النون: الحوت، وفي أ: لم يخبأ لها فزع. ولعله تحريف.
(٤) ش: يوم الحشر.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾:

سبحان من خلق سعيدًا وشقيًّا، وعاصيًا وتقيًّا، وأحضر جهنم متهمًا وبَريًّا ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

جمع عدوًّا ووليًّا وفرَّق بين الفريقين زِيّا، فترى وجه التقى نقِيًّا وبصر الشقي عميًّا، فسلَّم طائعًا وأهلك عصيًّا ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

نشر على الفريقين كتابًا مطْويًّا، وعرض أعمالهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ فأثابهم عيشًا مريرًا وعيشًا هنيًّا، وكأنك بهذا قد كان بَرِّيًا وبحريًّا ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾.

حضروا يوم الحساب فأقام الخلائق كلهم بَريًّا وبحريًّا، فميز الميزان من كان سعيدًا وشقيًّا. فما نجا إلا من كان مُخلصًا تقيًّا، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

خرست ألسنتهم (١) خوفًا لا عجزًا وعيًّا، وبرد اعتذارهم وما زال نَيًّا (٢)، ونكّس رأسه خجلًا من لم يكن حييًّا، وسكت عن الكلام من لم يزل جريًّا، وانعجم اللسان وإن كان عربيًّا.

يستغيث أهل النار بُكرةً وعشيًّا، يعطشون ولا يجدون رِيًّا، لو رأيتهم يضجّون شيخًا وصبيًّا، يستغيثون إلى أن يرجع الصوت خفيًّا، ويلهم من يرحمهم وقد غضب من لم يزل حفيًّا، ما نفع فقيرهم أن كان في الدنيا غنيًّا، ولا ضعيفهم أن كان قويًّا، ولا شجاعهم وكم قد حمل خطيًّا (٣)، ولا ذليلهم وقد كان عليًّا ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

عَمُوا عن الرشاد فأصبح كلٌّ غبيًّا، كم سلكوا سبيلًا خالفوا فيه دليلًا جليًّا، كم آذوا صالحًا وكم آذوا وليًّا، كم حبس الحقوقَ من كان مليًّا، دخلوا سجنًا رأوه بالبلا مليًّا مبنيًّا، وقد أفْردوا في العذاب لا يجدون نجيًّا، يعذَّبون دائمًا سرمديًّا، يأكلون لحم أيديهم فينبت طريًّا، غرسوا أشجار الندامة فتناولوا الأسف جَنِيًّا.

انتبه بهذه الموعظة ولا تنأ (٤) قبل أن تقول: يا ليتني كنت نسيًا منسيًّا.

* * *

(١) أ: أنفسهم. ولعله تحريف.

(٢) كذا في أ. وفي ش: وبرد اعتذار حذارهم. والني: الشحم. ولعل في العبارة تحريفًا.

(٣) الخطي: الرمح.

(٤) ش: ولا تغتر.

المجلس الثاني

في كسر شهوة البطن

الحمد للَّه خالق الخلق كلِّهم مِن تراب، وفارق ما بينهم من المعاني والآداب، رفع عن أبصار بصائر الأولياء الحجاب، وأشْهدهم ما خفي من غيرهم وغاب، فهم على باب الدلالة للخلق على الباب، ﴿ أُوْلَتَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَتَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١).

وشغل الجهلاء الطَّغام (٢) بالطعام والشراب، فهم في جمع الحُطام بين المجيء والذهاب، يعْمِّرون بالهوى أجسامهم والقلوبُ في خراب، وما ابيضَّ لهم عِرْض حتى اسودَّ الكتاب، فإذا عاينوا تفريطهم عند الموت تاب (٣) المرتاب، فينادَي: هيهات أوبقت الخطايا وأوثقت الأكساب (٤)، ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب.

أحمده على ما عرض وناب، وأقرُّ بوحدانيته من غير شك وارتياب، وأُصلِّي على رسوله محمد الذي عُرج به فكان كقاب (٥)، وعلى أبي بكر السابق إلى الفضائل ولا سَبْق العِرَاب (٦)، وعلى العادل عُمر بن الخطاب، وعلى عثمان منفق الأموال على الإسلام من غير حساب، وعلى عليٍّ المعَدِّ لكشف الكُربات الصِّعاب، وعلى عمِّه العباس الذي نسبه أقرب الأنساب.

* * *

اعلموا إخواني أن شهوة البطن من الشهوات المهلكات، فبها أُخرج آدم من الجنة، ومن الشِّبع تحدُث الرعونات، والمؤمن قليل الأكل.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معًى واحد » (٧). (أخرجاه في الصحيحين).

وفيهما من حديث نافع قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه،

---

(١) سورة الزمر: ١٨.
(٢) الطغام: أوغاد الناس.
(٣) أ: بان.
(٤) ش: أوبقتني الخطايا وأوثقتني الأكساب.
(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة النجم: ٩: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.
(٦) العراب: الخيل الأصيلة وفي أ: الغراب محرفة.
(٧) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب رقم : ١٢. وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، الأحاديث من : ١٨٢ - ١٨٦.

فأدخل رجلًا يأكل معه فأكل كثيرًا فقال: يا نافع لا تُدخل عليَّ هذا، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « المؤمن يأكل في معًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء » (١).
وفيهما من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الأربعة » (٢).

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن المِقْدام بن معْدي كرب قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطْن، حسب ابن آدم أكلات يُقمن صُلْبه، فإن كان لا محالة فثُلثٌ طعامٌ وثلث شراب وثلث نفس » (٣).

قال أحمد: حدَّثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شُعبة قال: سمعت أبا إسرائيل قال: سمعت جَعْدة (٤) قال: سمعت النبي ﷺ ورأى رجلًا سمينًا، فجعل النبي ﷺ يؤمئ إلى بطنه بيده ويقول: « لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك » (٥).

وقال رجل لابن عمر: أجعل لك جوارش؟ قال: وأي شيء الجوارش؟ قال: شيء إذا كظّك (٦) الطعام فأصبت منه يسهل عليك. فقال ابن عمر: ما شبعتُ من الطعام منذ أربعة أشهر، وما ذاك أن لا أكون له واجدًا، ولكني عهدتُ قومًا يشبعون مرة ويجوعون مرة.

* * *

واعلم أن المذموم هو الشبع، ومن أكل من الطعام إلى أن لا يشتهيه انبسط المأكول في معدته فتأذّى، وإنما ينبغي أن يرفع يده عن الطعام وهو يشتهيه، حتى إذا انبسط سكن ذلك التقاضي عند رفع اليد. فالشبع يوجب ترهُّل البدن وتكاسله وكثرة النوم وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الرأس حتى يغطِّي موضع الفكر والذكر، والبِطْنة تُذهب الفِطنة وتجلب أمراضًا عسرة. ومقام العدل أن لا يأكل حتى تَصْدق الشهوة، وأن يرفع يده وهو يشتهي، ونهاية مقام الحسن قوله عليه الصلاة والسلام: « ثلث طعام وثلث شراب وثلث نفَس ».

والأكل على مقام العدل يُصحّ البدنَ ويُبعد المرض، ويقلِّل النوم ويخفِّف المُؤنة ويُرقّ القلب ويصفّيه، فتحسن فِكرته ويسهّل الحركات والتعبدات ويحصل الإيثار.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب رقم : ١٢. وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، الأحاديث من : ١٨٢ - ١٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب رقم : ١١. وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، حديث رقم : ١٧٩.

(٣) مسند أحمد : ١٣٢/٤.

(٤) لم يرد هذا الإسناد في أ بل قال: وبه عن جعدة.

(٥) مسند أحمد : ٤٧١/٣.

(٦) كظه الطعام: ملأه حتى يضيق النفس.

قال إبراهيم بن أدهم: من ضبط بطْنه ضبط دِينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان والشبع يميت القلب ومنه يكون الفرح والمرح والضحك:

تجوَّع فإن الجوع يُورث أهْله مصادر وِرْدٍ خيرها الدهرَ دائمُ
ولا تك ذا بطْن رغيبٍ وشهوة فتصبح في الدنيا وقلبك هائمُ

وقد كان رسول الله ﷺ يجوع إلا أنه كان أكثر ذلك من العُدم [١]. ففي أفراد مسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر ما أصاب الناسُ من الدنيا فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دَقلًا [٢] يملأ به بطنه.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بإسناده عن أنس أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال: « ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ » قالت: قرصٌ خبزته فلم تَطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: « أمَا إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » [٣].

وقد كان السلف يكرهون كثرة الألوان؛ لأنها تدعو إلى كثرة الأكل، وما زالوا يذمّون الشِّبع.

قال أبو جُحيفة [٤]: أكلتُ خزيرة [٥] بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ فتجشَّأْتُ [٦]، فقال: « احبس جُشْأك فإن أكثركم شبعًا أطولكم جوعًا يوم القيامة » [٧].

قال الحسن: قيل لسمرة: إن ابنك لم ينم الليلة، قال: أبَشَمًا؟ قيل: بشمًا. قال: لو مات لم أصلِّ عليه. البشم في الطعام، والبغْر في الماء [٨].

وعُيِّر رجلٌ من قريش فقيل له: إن أباك مات بشمًا وماتت أمك بغرًا.

وقد بيّنا المحمود في الأكل. وقد تقلَّل جماعة من المتزهدين فضعفوا عن أداء الفرائض، وذلك من أوامر الشيطان. وإنما قد لا يجد الإنسان الحلال فيصبر في وقت وقد يُؤثر، فأما الدوام على ما يُضعف البدن ويوجب تنشيف الرطوبات ويُبس الدماغ فيخْرج إلى الخيالات الفاسدة فذاك لا يفعله إلا الجهال.

---

(١) العدم: فقدان المال.

(٢) الدقل: الرديء من التمر. والحديث في صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ٣٤ - ٣٦.

(٣) مسند أحمد : ٢١٣/٣.

(٤) في أ: أبو حنيفة. محرفة.

(٥) الخزيرة: الحساء من الدسم.

(٦) التجشؤ: تنفس المعدة.

(٧) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : ٩٢/٣. وقال: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٨) البشم: التخمة من الطعام. والبغر: أن يشرب فلا يرتوي فيصيبه داء من كثرة الشرب.

وأما ترك الشهوات فقد اعتمده خلْقٌ من الصالحين؛ لأنها توجب كثرة الأكل ولا يحتملها كسْب الورع. على أنه لا ينبغي أن يُترك مطلقًا إنما يترك ما يفعله أهل الترف من ألوان الأطعمة، وإلا فقد كان رسول اللَّه ﷺ يحب الحلواء والعسل وأكل الدجاج. وأما أهل الغفلة فيأكلون شَرَهًا ولا ينظرون في حِلّ المطْعم (١)، ويتعدَّى أمرهم إلى شرب المُسْكِر وقد قال عليه الصلاة والسلام: « اجتنبوا [أمَّ] الخبائث » (٢).

وقال عبد اللَّه بن عمرو: يأتي على السّكْران ساعة لا يعرف فيها مَنْ ربُّه. وروت أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ أنه قال: « من شرب الخمر وتاب تاب اللَّه عليه، فإن عاد كان حقًّا على اللَّه أن يسقيه من طينة الخبال » قالت: فقلتُ: يا رسول اللَّه وما طينة الخبال؟ قال: « صديد أهل النار » (٣).

أيها الشاربُ الخمورَ تنبهْ ... لجناياتها فأنت لبيبُ
إنها للسُّتور هَتْك وبالألـ ... ـباب فتكٌ وفي المعاد (٤) ذنوبُ

أخبرنا ابن ناصر بإسناده عن محمد بن هشام النصيبي قال: كان عندنا رجل مُسْرف على نفسه يُكنَّى أبا عمرو، وكان يشرب الخمر، فبينما هو كذلك أتيته ذات ليلة وهو فَزِع فقيل له: ما لك؟ فقال: أتاني آتٍ في منامي هذا وردّد عليّ هذا الكلام حتى حفظته منه وهو:

جدُّ بك الأمر أبا عمرو ... وأنت معكوفٌ على الخمر
تشرب صَهْباء صُراحيةً (٥) ... سال بك السيلُ وما تدري

فلما أذَّن المؤذن مات فجأة.

* * *

الكلام على البسملة

تلُوم لمَّا خلَتْ أُمامة ... قلت لها لا ولا كرامة
كِسْرة خبز وقَعْب ماء ... وسَحْق ثوبٍ مع السلامة (٦)
خير من العيش في نعيم ... يكون من بعده ندامة

---

(١) كذا في ش. وفي أ: الطعام.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

(٣) مثله في صحيح مسلم، كتاب الأشربة، حديث رقم: ٧٢. ومسند أحمد: ٦/٤٧٠.

(٤) أ: وبالمعاد.

(٥) الصهباء: الخمر، والصراحية: الخالصة.

(٦) القعب: القدح الضخم أو الصغير والسحق: الثوب البالي.

دخل عمر بن الخطاب ﷺ على ابنه وعنده لحم فقال: ما هذا؟ قال: قدمنا إلى اللحم فاشترينا منه. فقال: أَوَ كلما اشتهيتَ اللحم اشتريت؟! كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كل ما اشتهى!.

وقال عمر: إيَّاكم والتنعم، يقول أحدكم للخادم: هات وهات:

عندنا خبزٌ وماء ... فعلى الدنيا العفاءُ
غَنِيتْ بالقوت نفسي ... وغِنَى النفس ثراءُ
كلما حُطَّ نعيم ... حُطَّ بُؤس وشقاءُ

أخبرنا ابن عبد الباقي عن عبد اللّه بن زيد عن أبيه قال: كان عمر ﷺ يصوم الدهر وكان زمان الرمادة [١]، إذا أمسى أُتي بخبز قد ثُرد بالزيت، إلى أن نَحر [٢] يومًا من الأيام جَزُورًا فأطعمها الناسَ وغَرفوا له طيِّبها فأُتي به، فإذا قِدْر من سَنامٍ ومن كبد، فقال: أنَّى هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنا اليوم. قال: بخٍ بخٍ! بئس الوالي أنا إنْ أكلت طيبها وأطعمتُ الناس كراديسها [٣] ارفع لنا هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. فأُتي بخبز وزيت فجعل يكْسر بيده ويثْرُد ذلك الخبز ثم قال: ويحك يا يرْفأ [٤] احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهلَ بيتٍ بِثَمْغ [٥] فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مُقْفرين، فضَعْها بين أيديهم.

أخبرنا محمد بن أبي القاسم بإسناده عن مصعب بن سعد قال: قالت حفصة لعمر: يا أمير المؤمنين لو لبست ثوبًا هو ألين من ثوبك وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك، فقد وسّع اللّه من الرزق وأكْثر من الخير، قال: فإني سأخاصمك إلى نفسك! أمَا تذْكرين ما كان رسولُ اللّه ﷺ يلْقى من شدة العيش؟ فما زال يذكِّرها حتى أبكاها. فقال لها: أما واللّه لأشاركنَّهما [٦] في مثل عيشهما الشديد لعلّي أدرك عيشهما الرضيّ.

لو كنتَ باليوم العظيم تُعْنَى ... لكانت الدنيا عليك سِجْنَا
ولم تكن بالعيش مطمئنا ... أما علمت يا ضعيف أنَّا
يوما مُجازون بما قدّمنا ... لو قد بُعثنا ثم قد سُئلنا

---

(١) ش: عام الزيارة. ولعله تحريف. (٢) أ: نحروا.
(٣) الكراديس: جمع كردوس وهو كل عظم عظمت لحمته.
(٤) يرفأ: خادم عمر. (٥) ثمغ: مال لعمر بن الخطاب: وقفه في سبيل اللّه.
(٦) الضمير يرجع إلى النبي ﷺ وأبي بكر.

عن سالف الأعمال ما أُقِلْنا   ليُوزَنَنَّ ما عملنا وزْنا
ما أعظم الهول إذا وُقِفنا

يا من يرحل في كل لحظة ويَسْري، وهو غافل عن نفسه لا يدري، لو تلمحت سفينة العُمر تجري، لرأيت سيوفَ الفنا تفري (١).

تيقظْ فالموت في طلبك قد جَدّ، ولا تَغْفل فإن العاقل قد استعدَّ، واحذر الهوى فكفُّ النَّوى لاختلاسك مُمتد، وخَفْ من الفوت فإن الموت مُلْحقك بالأب والجَدّ، وتأهب للجواب يوم الحساب قبل مقابلة العُذر بالرد، افتحْ بَصر الاعتبار بالذين رحلوا، وتفكر في أمورهم كيف خُلُّوا بما عملوا، وتدبر أين تدبروا وأين نزلوا (٢)، وبادرْ زمنك فستصل إلى ما وصلوا:

أيا مَنْ خَلْفه الأجلُ   ومَنْ قُدّامَه الأملُ
أما واللَّه ما يُنجيـ   ـك إلا الصدقُ والعملُ
سَلِ الأيامَ عن أملا   كنا الماضين ما فعلُوا
أمَا شُغلوا بأنفسهم   فصار لهم بها شُغلُ؟
وصاروا في بطون الأر   ض وارتهنوا بما عملوا
وما دفع المنية عنـ   ـهم عزٌّ ولا خَولُ
وكانوا قَبْل ذاك ذوي الـ   ـمهابة أينما نزلوا
وكانوا يأكلون أطا   يب الدنيا فقد أُكلوا
ذكرت الموت فالتبستْ   عليّ بذِكره السُّبلُ

* * *

كان ابن مسعود إذا وعظ يقول: إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموتُ يأتي بغتة، فمن زرع خيرًا يوشك أن يَحْصد رغبة، ومن زرع شرًّا فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارعٍ ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يُدرك حريص ما لم (٣) يقدّر له، فلا يطُولنَّ عليكُم الأمد، ولا يُلْهينكم الأمل، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والسعيدُ من وُعظ بغيره، كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحْلاس (٤)

---

(١) تفري: تقطع.   (٢) ش: أين تدبروا ونزلوا.   (٣) أ: ما لا.
(٤) الأحلاس: جمع حِلْس. يقال: هو حلس بيته إذا لم يبرح مكانه. والحلس في الأصل: كساء يبسط في البيت.

البيوت سُرج الليل جُدد القلوب، خُلقان الثياب [(١)]، تُعرفون في أهل السماء وتَخْفون على أهل الأرض:

نسيرُ إلى الآجال في كل لحظةٍ ... وأيامنا تُطْوى وهنَّ مراحلُ
ولم أر مثلَ الموت حقًّا كأنه ... إذا ما تخطته الأمانيُّ باطلُ
وما أقبح التفريط في زمن الصِّبا ... فكيف به والشيبُ للرأس شاملُ؟!

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [(٢)]

أصل الربا في اللغة الزيادة، ومنه سميت الرابية والرَّبوة، ويقال: أربى فلانٌ على فلان في كذا: إذا زاد عليه. والمراد: بأكل الربا أخْذه وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود، وإلا فالعامل به كالآكل.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن ابن مسعود قال: لعن رسول اللَّه ﷺ آكل الربا ومُوكله وشاهديه وكاتبه [(٣)].

قال عبد اللَّه بن حنظلة غَسيل الملائكة: قال رسول اللَّه ﷺ: « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشدُّ من ستٍّ وثلاثين زنية » [(٤)].

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بإسناده عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الربا اثنان وسبعون حُوبًا، الدرهم منه أشد من ستة وثلاثين زنية، أدناها كالذي يأتي أمه في الإسلام وهو يعرفها » [(٥)].

وقد توعد اللَّه ﷻ آكل الربا بأنه يُبعث وكأنه مجنون، قال ابن عباس: ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ قال: ذاك حين يُبعث من قبره. وقال قتادة: تلك علامتهم لا يبعثون يوم القيامة إلا وبهم خبلٌ من الشيطان. وقال ابن عباس: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خُذ سلاحك للحرب.

أخبرنا ابن ناصر بإسناده عن وهب بن منبه قال: قُحط سليمان عليه السلام فاشتكى إلى اللَّه ﷻ

---

(١) الخلق: الثوب البالي. (٢) سورة آل عمران: ١٣٠. (٣) مسند أحمد : ٤٥٣/١.
(٤) رواه أحمد بسند صحيح والطبراني. الزواجر : ٢٢٧/١.
(٥) ذكره في الزواجر : ٢٢٧/١. عن البيهقي.

قال: فأمره أن يمضي إلى وادي النمل ليستقرض منهم، فوقف على الوادي وقال: أقرضونا حتى إذا جاء الخِصْب ردَدْنا. فقالوا: إذا كان الغدُ فتعال وخذ بعدُ. فإذا الوادي ملآن حنطة فأخذه، فلما أن أخْصب ردَّ حنطةً ملء الوادي وأضْعف لهم، فأخذوا الحنطة ولم يأخذوا الضعف. فقال: لِمَ لمْ تأخذوها؟ فقالوا: نحن لا نأكل الربا!

* * *

واعلم أن المعدة حوض البدن، فإذا طرح فيها الحلال تحركت الأعضاء بالطاعة، وإذا طُرح فيها الحرام تحركت الأعضاء بالمعصية، وقال سهل بن عبد اللَّه: مَنْ صَفَا مطْعمه دخل عليه الزهد والعبودية منْ غير أن يدعو أحدَهما. وقيل: الجهاد عشرة، تسعة في طلب الحلال.

وكتب يوسف بن أسباط إلى رجل: أما بعد فما وجدت شيئًا أفضل مما ينبت عليه لحمي.

وقال حذيفة المرعشي [١] لرجل: هل لك أن أجمع لك الخير كله في حرفين: مداراة الخبز مِنْ حِلِّه، وإخلاص العمل للَّه حسبك.

وقال لرجل: ثلاثُ خصال إن كنَّ فيك لم ينزل من السماء خير إلا كان لك فيه نصيب: يكون عملك للَّه، وتحب للناس ما تحب لنفسك، وهذه الكِسْرة تحرَّ فيها ما قَدِرْت.

وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يكسب عبدٌ مالًا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار » [٢].

وروى جُندب بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ قال: « من استطاع منكم ألا يجعل في بطنه إلا طيِّبًا فليفعل، فإن أول ما يُنتن من الإنسان بطنه » [٣].

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمنْ حلال أمْ من حرام » [٤] (انفرد بإخراجه البخاري).

* * *

يا آكل الربا أنت بزعمك تأكل ربح المال، أفترى من يأكل رأس المال؟ يا من ألهاه الهوى عن شَرَك الفخ، كيف يحدَّث بالنصائح سكران مُلتخّ [٥]:

---

(١) نسبة إلى مرعش بفتح الميم والعين قرية من قرى الشام.

(٢) مسند أحمد : ٣٨٧/١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب رقم : ٩.

(٤) أ: بحلال أو بحرام، والحديث في صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب رقم : ٧ - ٢٣.

(٥) ملتخ: طافح.

يا عبدُ كم لك من ذنبٍ ومعصيةٍ إن كنت ناسيها فاللّه أحصاها
لا بد يا عبد من يوم تقوم له ووقفةٍ لك يُدمى القلب ذكراها
إذا عرضت على نفسي تذكُّرها وساء ظني قلت: استغفر اللّهَ

لما اجتهد الصالحون في تصفية الحلال صَفَّي القدَر لهم ما لا يدخل تحت الأكساب. منْ حفظ ما عليه، حفظ له الحقُّ ما إليه. هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تطالبني بما تملك ولا أملك.

قال محمد بن سيرين: إني لأرى المرأة في المنام أعرف أنها لا تحل لي فأصرف بصري عنها!

يقظاتُه ومنامُه شِرْعٌ كلٌّ فكل فهو مُشتبه
إنْ همَّ في حُلْم بفاحشةٍ زجَرتْه عِفته فينتبهُ (١)

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بإسناده عن الجُنيد قال: كان الحارث المُحاسبي كثير الضُّر، فاجتاز بي يومًا فرأيت على وجهه زيادة ضرٍّ وجوع، فقلت له: يا عم لو دخلتَ إلينا فنلْتَ شيئًا. وعمدت إلى بيت عمي وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا سريعًا، فجئت بأنواع كثيرة من الطعام فوضعته بين يديه، فمد يده فأخذ لقمة فرفعها إلى فيه فرأيته يلُوكها ولا يَزْدردها، ثم وثب فخرج وما كلّمني، فلما كان الغد لقيته فقلت: يا عم سررْتني ثم نغّصتَ علي؟ فقال: يا بني أما الفاقة فكانت شديدة، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي قدمته إليّ، ولكن بيني وبين اللّه علامة إذا لم يكن الطعام مرضيًّا ارتفع إلى أنفي منه زفْرة فلم تقبله نفسي، فقد رضيت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت.

واعجبًا لجامع المال من غير حِلّه، أما يتعظ بمن كان قبله، أما يعلم تبديده يوم تبديد شمْله وأنه مسئول (٢) عن كسبه كله؟

قال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رُقيته فلا تأخذه، فإنه إنْ لدغك قَتلك سُمُّه قيل: ما رُقيته؟ قال: أخْذه من حلِّه ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان (٣) لم يسمع الخلائق بمثلهما للعبد في ماله عند موته. قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويُسأل عنه كله:

(١) البيتان في ذم الهوى لابن الجوزي، بتحقيقي: ص ٢٤٠. ومعنى شرع: متماثلة. وفي ذم الهوى: كل بكل.
(٢) أ: مشغول.
(٣) أ: معصيتان. ولعله تحريف.

يا جامعًا مانعًا والدهر يرْمقه مقدِّرًا أي بابٍ عنه يُغلقهُ
مفكِّرًا كيف تأتيه منيته أغاديًا أم بها [١] يسري فتطْرقهُ
جمعتَ مالًا فقل لي: هل جمعت له يا جامعَ المال أيَّامًا تفرقهُ
المال عندك مخزونٌ لوارثه ما المالُ مالك إلا يوم تُنفقهُ
أرْفه ببال فتى يغدو على ثقةٍ أن الذي قسم الأرزاق يَرزقهُ
فالعِرض منه مصون ما يدنِّسه والوجهُ منه جديدٌ ليس يُخلقهُ
إن القناعة من يَحْلل بساحتها لم يلق في ظلها همًّا يؤرقه

للّه در أقوام قنعوا باليسير واهتموا بزاد المسير، وخافوا من الحساب العسير، وعلموا أنهم مسئولون عن الفتيل والنقير [٢]، فرضوا باسم مسكين وأحبوا لقبَ فقير.

قال سري السقطي: كل الدنيا فضول إلا خمسة: خُبز يشبعك، وماءٌ يرْويك، وثوب يسترك، وبيت يُكنُّك وعلْم تستعمله. وقال سري: غزونا أرض الروم فمررت بروضة فيها الخُبَّازَي [٣]، وحجر منقور فيه ماء المطر، فقلت في نفسي: إنْ أكلتُ حلالًا فاليوم. فنزلت عن دابتي وجعلت آكل، فإذا بهاتف يهتف بي: يا سريّ فالنفقة التي بلغت بها إلى هنا من أين؟!

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾:

رحل عن الدنيا أربابها بالشَّقا، وما فاز فيها [٤] إلا أهلُ التُّقى، أين من أخذ الخراج وجَبا، وجمع الأموالَ واجتبى، وكنز الكنوزَ واختبى، وجلس على سرير البخل واحتبى، أسرع المرض إليه طلبا، فلقي لـمَّا ناصبه نَصَبا، وكلما فرَّ أدركه فكبا، ثم دبَّ الموت نحوه دبيبَ الدبا [٥] فما نفعه أنْ صاح: وا حَرَبا، فأصبح قصره بعده خرِبا، ولحق في البلاء أمَّا وأبًا، شاء التُّقلةَ أو أبي، أسفًا له كمْ لقي وصَبًا بعد اللَّهو والصِّبا، أسكنه الموت رَبْعًا خَربًا تسفى عليه الدَّبُور والصَّبا، فأصبح بكف البلاء منتهبًا أين الجسد النضير؟ صار كالهبا، طال ما تناول الرِّبا فرَبا، وعلى الجمال على تلك الرُّبى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾.

أين مطاعمه الرائقة؟ أين مشاربه الفائقة، ما كانت تَعُوقه عن أغراضه عائقة حتى حلّت

---

(١) أ: أم به.
(٢) النقير: النكتة في ظهر النواة.
(٣) الخبازي: نبات يؤكل.
(٤) ش: وما فارقها.
(٥) الدبا: لعلها الجدول. قال في أساس البلاغة: وإنه ليدبّ دبيب الجدول.

به من الموت بائقة [١] كانت لهلاكه سببًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾.

خلا في لحده بقُبح [٢] زلته، وما نفعه ما نال من لذته، ولا وجد حينئذ طعْم طُعمته، ولا أخذ إلى حفرته إذ ذهب ذهبا.

إخواني: إياكم والحُطام، إياكم والحرام لا تعمروا به الأجسام، فستبلى هذه العظام، ويبقى بعد للأجرام الإجرام، فالذنب سبا قومَ سبا [٣].

يا مسافرًا بلا زاد، يا من كلما جاء تفريطه زاد، ستُلقى في القبر بغير وساد، وسينساك الأهل والأولاد ويبكي عليك الغربا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾.

ما ينفعك قريب ولا صديق، إذا غصَّك السؤال بالريق وحُصرت من الثرى في مضيق، فهل تطيق هربًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾.

سيخلو منك هذا المكان، ستهدم هذه الأركان، ستدخل في خبر كان، يا مضيع الزمان لهوًا ولعبًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾.

أحاضر قلبك أم قد غاب، أما لهذا القول عندك جواب، لقد دللتك على الصواب، وصدقتك شرح حالك في المآب فلا تسمع كذبًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾.

أفيكم شخص من المتقين، أمنكم مؤمن إيمان يقين، أبينكم أرباب خوف ودين، آهِ ثم آه وقع في الصالحين الوبا.

والله أعلم.

* * *
* *
*

---

(١) البائقة: الداهية.
(٢) ش: في قبح.
(٣) هم قوم سبأ الذين ذُكرت قصتهم في القرآن.

المجلس الثالث

في كسر شهوة الفرج

الحمد للَّه الذي جعل الدنيا معبر اعتبار، يفتقر ملَّاح سفينتها إلى حِذق واصطبار، ولم يرْضها لأوليائه فبنى لهم غير هذه الدار، وبالغ في ذمها ويكفي ما فيها من الأكدار، غير أنه زينها وطفل الهوى ذو اغترار من النساء، والنساء حبائل الشيطان المكَّار، تُخرب إحداهن الدِّين بعد أن تُخْرب الدار، فالعربي يقول من معاشرتهن: ويلي، والأعجمي يصيح زنهار [1]، والبنين وكم صَغار قاسى الأبُ لأجل الصِّغار، فلما ترقّوا عقُّوا والعُقوق من الذنوب الكبار، والقناطير المقنطرة وما اجتمعت إلا بالآثام والأوزار، الخيل المسَّومة يجول بها في حلبة العُجْر [2] المِغوار، بينا هي تجري براكبها عثَرتْ به أيَّ عِثار، والأنعام وهي مُعجبة للمالك والنظَّار، بينا هي في صعود الزيادة إذا صاحبها إلى القبر في انحدار، والحرث مخضرًّا مُصْفرًّا مختلف الألوان والأزهار، تبدَّلت ورقه عن الورْق غربان البين فقامت تندب الآثار، ذلك متاع الحياة الدنيا، وهل المتاع إلا عارية تُعار، أسمعتم عيوب العاجلة أيشتري زنابير الممرّ [3] شار ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [4].

أحمده عدد الرمل في القفار، وأقر بوحدانيته أصحَّ إقرار، وأصلي على رسوله محمد الذي منذ أقبل وقع الكفر في إدبار، وعلى جليسه وأنيسه في الدار والغار، وعلى عمر الذي فتح بهيبته الأقطار، وعلى عثمان قائم الليل والدموعُ غِزَار، وعلى عليٍّ معشوقنا وما على عاشقه من عار، وعلى عمه العباس آخذ البيعة له على الأنصار.

* * *

اعلم أن شهوة الوقاع سلّطت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: أن يريك لذةً تَقِيس عليها لذات الآخرة وما لم يدرك جنسه بالذوق لا يَعْظُم الشوق إليه.

والثانية: بقاء النسل.

---

(١) كلمة فارسية بمعنى: ويلي.

(٢) جمع أعجر وهو الفرس الصُّلب.

(٣) كذا بالأصل والزنابير: الحصى الصغار.

(٤) سورة آل عمران: ١٥.

ومتى لم تردَّ هذه الشهوة إلى حالة الاعتدال جلبت آفاتٍ ومِحَنًا في البدن والدِّين، ولولا هذه الشهوة ما كانت النساء حبائل الشيطان الرجيم اللعين، وقد قال إبليس: سهمي الذي إذا رميتُ به لا أخطئ: النساء.

أخبرنا موهوب بن أحمد بإسناده عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: « ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء » (١)، وقال سعيد بن المسيب: ما يئس الشيطان من ابن آدم قط إلا أتاه من قِبل النساء ثم قال: وهو ابن تسع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعْشو بالأخرى: وما شيءٌ أخوف عندي من النساء.

وقال سفيان الثوري: ائتمنِّي على بيت مملوء مالًا ولا تأمنِّي على جارية سوداء لا تحل لي.

ولهذا المعنى حُرمت الخلوة بالأجنبية، فروى سيدنا عمر ﷺ عن سيد المرسلين ﷺ أنه قال: « لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » (٢).

وقد رُوِّينا أن إبليس عليه اللعنة لقي موسى ﷺ فقال له: يا موسى لا تخلُ بامرأة لا تَحِلُ لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تَحِلُ له إلا كنتُ صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها.

واعلم أن هذه الشهوة لها إفراط يقهر العقل حتى تصرف همة الرجل إليها فيشتغل عن ذكر الآخرة وربما جُرَّ إلى الفواحش.

ومن أعظم الذنوب الزنا:

ففي الصحيحين من حديث عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يا أمة محمد ما أحدٌ أَغْيَرُ من اللَّه من أن يرى عبده يزني أو أمته تزني » (٣).

وروى الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من ذنبٍ بعد الشرك باللَّه أعظم عند اللَّه من نطفة وضعها رجل في رَحِم لا يَحِلُ له » (٤).

وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أُذن بهلاكها. وقال مكحول: يجد أهل النار رائحة فيقولون: ما وجدنا أنتن من هذه؟ فيقال: هذه ريح فروج الزناة.

وقد تنتهي شهوة الجماع بأربابها إلى أمرين قبيحين:

أحدهما: أن يتناولوا ما يقوّي شهواتهم للاستكثار منها، كمثل من يُبتلى بسباع ضارية فنامت عنه في بعض الأوقات فاحتال لإثارتها وتهييجها ثم احتال لمعالجتها،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب رقم : ٧. وصحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٩٧، ٩٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب رقم : ١١١، ١١٢. وصحيح مسلم، كتاب الحج، حديث رقم : ٤٢٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب رقم : ١٠٧. وصحيح مسلم، كتاب التوبة، أحاديث رقم : ٣٢ - ٣٦ .

(٤) ذكره الهيثمي في الزواجر : ١٣٧/٢.

وهؤلاء يحركون أنفسهم لإخراج الحرارة الغريزية، وقلَّ أن يطول بقاؤهم.

والثاني: أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض أربابها إلى العشق، وهي مجاوزة لحد البهائم؛ لأن البهيمة تقضي غرضها كيف اتفق وهذا يُعيِّن محلًّا يزيد في إخراج قوته، وهو شغل قلب فارغ (١)، فينبغي للمبتدي في طريق الخيرات أن يطلب ما يُعفه، وقد يشغله في البداية (٢) حلاوة الطلب للعلم والعمل فيلهيه عن ذكر النكاح. وما تزوج الإمام أحمد حتى بلغ الأربعين وقال ابن مسروق: مررت مع الجُنَيْد في بعض دروب بغداد فإذا قائل يقول:

منازلُ كنتَ تهواها وتألفها ... أيامَ أنت على الأيام منْصورُ

فبكى وقال: ذكرتُ بدايتي وحدّة شغفي.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده عن أبي بكر النيسابوري قال: أعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل ويتقوَّت كلَّ يوم بخمس حبات ويصلي صلاة الغداة على طهارة العشاء، ثم قال: أنا هو، وهذا كله قبل أن أعرف أمَّ عبد الرحمن، أيُّ شيء أقول لمن زوّجني؟ ثم قال: في أثر ذلك: ما أراد إلا الخير.

واعلم أن المبتدئ في طلب العلم والخير قد تأخذه سُعْدَة (٣) الطلب فيستلذ الخلوة وجهاد النفس.

فمن وجد هذا فليُقبل على ما فُتح له في طلب علم أو عمل، فمتى خاف من فتنة، وعلامتها ضَعْفه عن غضِّ البصر وردّ الوَسْوَاس العارض لقلبه فليبادر إلى النكاح، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « زنا العينين النظر » (٤).

وليكن العالم والمتعبد حذرًا من مجالسة الصبيان فإنه قد أغلق باب النظر إلى النساء ولاذ به الأحداث للتعلُّم، فخطره في ذلك أعظم من خطر النساء. وقد قال بعض التابعين: ما أنا بأخوف على الشاب التائب من سبع ضارٍّ من غلام يجلس إليه وكم قد زلَّ في هذه الهُوّة.

ومن عزَم على النكاح فلينظر إلى امرأة تُعفّه.

فالناس يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يقنع بأي امرأة كانت، فإن الإمام أحمد ﷺ خطب امرأة فسمعت أختها وهي عوراء فانكسرت فخطب العوراء، وهذا أمر لا يصبر عليه كل أحد. ومن الناس من لا يُعفه إلا المُستحسَن، فيتعين عليه طلب ما يُعفّه، ولكن

---

(١) وهذا هو رأي ابن الجوزي في العشق الذي ذكره في كتاب ذم الهوى. بتحقيقي.

(٢) أ: في بدايته. (٣) أ: سورة. (٤) مسند أحمد : ٢/٢٧٦.

ينبغي أن يطلب زوجة قد نشأت على الخير في أهل بيت عفاف فتلك الغاية، وقد قال النبي ﷺ: « عليك بذات الدين » (١).

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن أبي وداعة قال: كنت أُجالس سعيد بن المسيب ففقدني أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قال: قلت: تُوفيتْ أهلي فاشتغلت بها. فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثتَ امرأة؟ فقلت: يرحمك اللّه ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا. فقلت: وتفعل؟! قال: نعم ثم تحمّد وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين قال: أو ثلاثة.

قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي، فكنت وحدي صائمًا فقدَّمت عشائي أفطر وكان خبزًا وزيتًا، فإذا الباب يُقْرع، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. قال: فأفكرْتُ في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا في بيته أو في المسجد، فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له (٢)، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إلي فآتيك؟ قال: لا أنت أحق أن تؤتى. قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلًا عزبًا فتزوجت، فكرهتُ أن أبيّتك الليلة وحْدك، وهذه امرأتك. فإذا هي قائمة من خَلْفه في طوله، ثم أخذ بيده فدفعها في الباب وردّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقتُ من الباب ثم تقدمتها إلى القصعة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوَّجني سعيد بن المسيب بنته اليومَ وقد جاء بها على غفلة. فقالوا: سعيد بن المسيب زوّجك؟! فقلت: نعم وهي ذا هي في الدار فنزلوا إليها وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسسْتها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام. قال: فأقمت ثلاثا فدخلت بها فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب اللّه تعالى وأعلمهم بسنة رسول اللّه ﷺ وأعرَفهم بحق الزوج.

قال: فمكثت شهرًا لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قريب الشهر أتيت سعيدًا وهو في حلقته، فسلمت فردّ السلام ولم يكلمني حتى تقوّض أهلُ المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خيرًا يا أبا محمد، على ما يحب الصديق ويكره العدو. قال: إن رابك (٣) شيء فالعصا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب رقم : ١٥.

(٢) أي رجع في تزويجه.

(٣) رابك: من الريب وهو الظنة والتهمة.

فانصرفت إلى منزلي فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم.

قال عبد اللَّه بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيب قد خطبها عبد الملك ابن مَرْوان لابنه الوليد حين ولّاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصبَّ عليه جَرة ماء وألبسه جُبة صوف.

قال عبد اللَّه: وابن أبي وداعة هو كُثَيْر بن المطلب بن وداعة.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك الحافظ، بإسناده عن أبي يوسف البزار قال:تزوج رباح القيسيّ امرأة فبنى بها، فلما أصبح قامت إلى عجينها فقال: لو نظرتِ امرأة تكفيك هذا؟ فقالت: إنما تزوجتُ رباحًا القيسي ولم أرني تزوجتُ جبارًا. فلما كان الليل نام ليختبرها، فقامت رُبْع الليل ثم نادته فقالت: قم يا رباح. فقال: أقوم. ولم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رباح مضى الليلُ وعسْكر المحسنون وأنت نائم! ليت شِعري من غرَّني بك يا رباح! وقامت الربع الباقي.

أنبانا عبد الوهاب الأنماطي بإسناده عن أبي عبد اللَّه محمد بن شجاع الصوفي قال: كنت بمصر فتاقت نفسي إلى النساء، فذكرت ذلك لبعض إخواني فقال: إنَّ هاهنا امرأة صوفية لها ابنة مثلها جميلة قد ناهزت البلوغ، قال: فخطبتها وتزوجتها، فلما دخلت إليها وجدتها مستقبلة القبلة تصلّي، فاستحييت أن تكون صبية في مثل سنّها تصلي وأنا لا أصلي، فاستقبلت القبلة وصليت ما قُدّر لي، ثم غلبتني عيني فنمت في مُصلّاي وقامت في مصلاها، فلما كان اليوم الثاني كان مثل ذلك أيضًا، فلما طال عليَّ قلت: يا هذه أمَا لاجتماعنا معنى؟ فقالت: أنا في خدمة مولاي ومن له حقٌّ فلا أمنعه. قال: فاستحييت من كلامها وتماديْت على أمري نحو الشهر ثم بدا لي في السفر فقلت: يا هذه قالت: لبيك، قلت: إني أريد السفر. قالت: مصاحَبًا بالعافية. فقمت فلما صرت عند الباب قامت فقالت: يا سيدي كان بيننا في الدنيا عهد لم يُقض بتمامه، عسى في الجنة إن شاء اللَّه تعالى. فقلت لها: عسى. فقالت: إني أستودعك اللَّه خير مُسْتودِع. فتودعت منها وخرجتُ، ثم عُدت إلى مصر بعد سنين فسألت عنها فقيل لي: هي على أفضل ما تركتها عليه من العبادة والاجتهاد.

* * *

واعلم أنه إذا وقعت للرجل الصالح امرأة صالحة فتلك الغنيمة فليغفر خطأً منها إن وقع وليستر على عيب إن كان.

ففي أفراد مسلم من حديث عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: « الدنيا متاع

وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[١].

فأما منْ طلب مُستحسَنة فلم ينظر في الدِّين ذهب دينه.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بإسناده عن مالك بن دينار قال: ينطلق أحدكم فيتزوج ديباجة الحي، يعني أجمل الناس، أو ينطلق إلى جارية قد سمّنها أبواها فيتزوجها فتأخذ بقلبه فيقول لها: أي شيء تريدين؟ فتقول: خِمَار خزٍّ، وأي شيء تريدين؟ فتقول: كذا وكذا، قال مالك: فتمرَّط[٢] والله دين ذلك القارئ، ويدع أن يتزوجها يتيمة ضعيفة فيكسوها فيؤجر ويدْهنها فيُؤجر.

* * *

الكلام على البسملة

يا أيها الحي الذي هو ميتٌ ... أفنيتَ عمرك بالتعلل والمُنى
أمَّا المشيبُ فقد كساك رداءه ... وابتزّ عن كفيك أرْدية الصِّبا
ولقد مضى القوم الذين عهدتَهم ... لسبيلهم ولَتَلْحقنَّ بمن مضى
ولقلَّ ما يَبْقى فكن متوقِّعًا ... ولقلَّ ما يصفو سرورك إنْ صفا
هذا السبيل فخُذ لذلك عُدة ... فكأن يومك عن قليل قد أتى
لا يشْغلنّك لو وَليتَ عن الذي ... أصبحت فيه ولا لعلّ ولا عسى
خالفْ هواك إذا دعاك لريبة ... فَلَرُبَّ خيرٍ في مخالفة الهوى
عَلَم المحجّة واضح لمريده ... وأرى القلوبَ عن المحجّة في عَمَى
ولقد عجبتُ لهالكٍ ونجاتُه ... موجودة ولقد عجبت لمن نجا
حتى متى لا ترْعوي يا صاحبي ... حتى متى وإلى متى؟!
والليلُ يَذهب والنهارُ وفيهما ... عِبرٌ تمرُّ وفكرةٌ لأولي النُّهى
حتى متى تبغي عِمارة منزلٍ ... لا تأمن الرّوعاتِ فيه ولا الأذى

يا معاشر الأموات، يا ضيفان نُوَب الأرض كيف وجدتم طعم القِرا؟ أين أرباب الافتخار بمعالي الأنساب؟ اجتمعوا والله فاستووا تحت التراب، وندموا إذْ قَدِموا على قبيح الاكتساب، وحزنوا على خلافهم عين الصواب ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[٣].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، حديث رقم : ٥٩.

(٢) تمرط: سقط.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

فهم في قبورهم أُسَارى وفي جميع أحوالهم حَيَارى، وكأنهم في قوة الندم سُكارى، اتخذوا المنى منزلًا والأمل دارًا، فأخرجهم الموت كرهًا وما دارى:

مـــن ذا يـتـمُّ لــه سـرورُ ... مـا نـحـن فيـه هـو الـغـرورُ
كـم مـن حـبـيـب قـد خـلـتْ ... مـنـه الـمـنـازل والـقـصـورُ
يـا ابـن الـتـراب خُـلـقـت مِـنْـ ... ـه وأنـت مـخـتـال فـخـورُ
يـا نـاسـي الأُخْـرى غـدًا ... تُـبـدي سـرائـرهـا الـسُّـتـورُ
أيـن الـقـرون الـسـالـفـا ... ت أتـت عـلـيـهـن الـدهـورُ
تـنـعـى إلـى مـن عـاش مـن قـد ... مـات أفـنـيـةٌ ودُورُ
كـلٌّ يـعـلِّـل نـفـسـه ... ودوائـر الـدنـيـا تـدورُ
والـحـادثـات لـهـا روا ... حٌ مـزعـج ولـهـا بُـكـورُ
ولـمـن تـفـكـر عـبـرة ... فـيـمـن تـغـيِّـبـه الـقـبـورُ

* * *

نظر الناس إلى ظاهر الدنيا ونظر الصالحون إلى باطنها، رأوها خربة فما عمروها، وقنطرة فعبروها، وسوقًا للتجارة فربحوا فيها.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده عن عمر بن حفص بن غياث عن أبيه قال: كنا ذات يوم عند ابن ذر وهو يتكلم، فذكروا رواجف القيامة وزلازلها، فوثب رجل من بني عِجْل يقال له: ورَّاد، فجعل يبكي ويصرخ ويضطرب، فحمِل من بين القوم صريعًا، فقال ابن ذر: ما الذي قصّر بنا وكلَم قلبه حتى أبكاه؟! واللّه إنْ هذا إلا من صفاء قلبه وتراكم الذنوب على قلوبنا.

قال حفص بن غياث: وكنت أرى ورَّادًا هذا يأتي إلى المسجد فيعتزل فيصلي ولا يكلم أحدًا، فسألت عنه رجلًا من حيِّه فقال: ذاك وراد عاهد اللّه تعالى ألا يضحك حتى ينظر إلى رب العالمين!.

قال عمر: وحدثني مسكين بن مسكين قال: كانت بيننا وبين ورَّاد قرابة، فسألت أختًا له: كيف كان ليله؟ قالت: كان يبكي عامة الليل ويصرخ، قلت: فما كان طُعْمه؟ فقالت: قرصًا من أول الليل وقرصًا عند السحَّر. قلت: فتحفظين من دعائه شيئًا؟ قالت: نعم، كان إذا كان السَّحر أو قريب من الفجر سجد ثم بكى ثم قال: يا مولاي عبدك يحب الاتصال بطاعتك فأعنْه عليها بتوفيقك. مولاي! عبدك يحب اجتناب سَخطك

فأعنه على ذلك بمنِّك. مولاي عبدك عظيم الرجاء لخيرك، فلا تقطع رجاءه يوم يفرح الفائزون بخيرك. قال مسكين: فلما مات ورّاد وحُمل إلى حُفْرته إذا اللحد مفروش بالرَّيْحان فأخذ بعض من نزل القبر شيئًا من ذلك الريحان فمكث سبعين يومًا طريًّا يغدو الناس ويروحون ينظرون إليه فأخذه الأمير فَفُقِد من منزله.

وكان عطاء السُّلمي كثير البكاء فعوتب في ذلك، فقال: الموت في عنقي والقبر بيتي، وفي القيامة موقفي وعلى جسر جهنم طريقي، ولا أدري ما يصنع بي ربي، وإني إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من العذاب مثَّلْت نفسي معهم فكيف لنفسٍ تُغلُّ يدها إلى عنقها وتسحب في النار ألَّا تصيح وتبكي؟!

وخرج في جنازة فغشي عليه أربع مرار حتى صُلِّي عليها، وكان يخرج بالليل فيقف في المقابر فيقول: يا أهل القبور مِتُّم فَوَا موْتاه! عاينتم ما عملتم فواعملاه.

وكانت الفاكهة تمرّ لا يدري بها. وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن أبكي حتى لا أقدر أن أبكي، فأشتهي أن أكون رمادًا لا يجتمع منه شيء.

وكان يقول: ارحم في الدنيا غربتي، وفي القبر وَحْدتي وطول مقامي غدًا بين يديك.

وقال صالح المُرِّي لما مات عطاء السُّلمي: رأيته في منامي فقلت له: إلى ماذا صِرت؟ قال: صرت واللَّه إلى خير كثير ورب غفور شكور. قلت: لقد كنت طويل الحزن في الدنيا؟ فقال: لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحًا دائمًا. قلت: ففي أي الدرجات أنت؟ قال: مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *

يا حُسن تلك القلوب فما أصفاها، وأعز تلك الأعمال فما أوفاها، اتخذوا البكاء على التقصير دَابًا (١) ولازموا من قاع الأرض محرابًا، وأعدّوا للسؤال عن الأعمال جوابًا، ورضُوا بلقاء الحق من الدارين ثوابًا.

ذكْر القوم يزعج قلبي، وشرْح أحوالهم يأخذ لُبِّي، ما يزالون يجولون في فكري، وأنا أُحضرهم لديكم بذكري، فكأني بوصفي لهم أستدعي.

فاتني أن أرى الديار بطَرْفي ... فلعلِّي أرى الديار بسمعي
إذا الريح من نحو الحمى نسمتْ لنا ... وجدتُ لمسراها ومنسمها بَرْدا
على كبد قد كان يُبدي بها الهوى ... نُدُوبًا وبعضُ القوم يَحْسبني جَلْدَا

---

(١) دابا: أصلها دأبًا.

وإنــي يمانيٌّ الهوى مُنجد النَّوى [(١)] سبيلان ألقــى منْ خِلافهما جَهْدا
سقــى اللّه نجدًا من ربيع وصيِّف ومــاذا يـرجّـى من ربيع سقى نجْدا
بـلــى إنـه قـد كـان للـعيش مرة وللسفــر والركبــان منزلة حمْدا

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ... ﴾ [(٢)]

أي جوانبها، والمشار إليها السماء، ورجا كل شيء ناحيته. قال ابن عباس: الملائكة على حافَّات السماء حين تنشق.

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ... ﴿١٧﴾ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: فوق رءوسهم. أي أن العرش على رءوس الحَمَلة.

والثاني: فوق الذين على أرجائها.

والثالث: فوق أهل القيامة.

- **وفي المراد بقوله تعالى:** ﴿ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ **ثلاثة أقوال:**

أحدها: ثمانية أملاك، وجاء في الحديث: أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية.

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن العباس بن عبد المطلب في قوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ قال: ثمانية أملاك على صور الأوْعال [(٣)].

والثانية: ثمانية صفوف. رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: ثمانية أجزاء من الكرُوبيين [(٤)]، لا يعلم عددهم إلا اللّه ﷻ قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ... ﴿١٨﴾ ﴾:

أي تعرضون على اللّه تعالى لحسابكم ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

أخبرنا هبة اللّه بن محمد بإسناده عن أبي موسى قال: قال رسول اللّه ﷺ: « يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرْضات، فأما عرضتان فجدالٌ ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك

---

(١) منجد: نسبة إلى نجد. والنوى: البعد.
(٢) سورة الحاقة: ١٧.
(٣) الأوعال: جمع وعل وهو تيس الجبل.
(٤) الكروبيون: سادة الملائكة.

تطير الصحف في الأيدي فآخذٌ بيمينه وآخذ بشماله » (١).

أخبرنا عبد اللَّه بن علي بإسناده عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾

قال الزجاج: هذا أمر للجماعة بمنزلة « هاكُم » تقول للواحد: ها يا رجل، وللاثنين هاؤما يا رجلان، وللثلاثة: هاؤم يا رجال. قال المفسرون، إنما يقول هذا ثقةً بسلامته وسرورًا بنجاته.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ... ﴿٢٠﴾ ﴾ أي علمت وأيقنت ﴿ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾. **والمعنى:** أني آمنت بالبعث والحساب ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ قال الزجاج: أي يرضاها من يعيش فيها وقال أبو عبيدة: راضية بمعنى مرضية، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي عالية المنازل، ﴿ قُطُوفُهَا... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي ثمارها ﴿ دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي قريبة ممن يتناولها وهي جمع قِطْف، والقطف ما يقطف من الثمار. وقال البراء بن عازب: يتناول الرجل الثمرة وهو نائم.

﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾:

أي بما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الخالية الماضية وهي أيام الدنيا. قال عبد العزيز بن رفيع: هو الصوم.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد قال: أنبأنا الحسن بن علي، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن يزيد ابن كَيْسان، قال: حدثني أبو حازم قال: رأيت أبا هريرة يشير بإصبعه مرارًا: والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبيُّ اللَّه وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا (٢).

وروى أنس قال: ما رأى رسول اللَّه ﷺ رغيفًا مرقَّقًا ولا شاةً سَميطًا، بعينه قط (٣).

وروى أبو هريرة ﷺ قال: خرج رسول اللَّه ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير (٤).

---

(١) مسند أحمد : ٤/٤١٤. (٢ ، ٣) مسند أحمد : ٢/٤٣٤. (٤) المسند : ٣/١٢٨.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاء.

وقال عليٌّ عليه السلام: جُعت مرة بالمدينة جوعًا شديدًا فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا بامرأة قد جمعت مدرًا [١] فظننتها تريد بَلَّه، فأتيتها فقاطعتها كلَّ ذَنُوبٍ [٢] على تمرة، فعدَدْت ستة عشر ذَنُوبًا حتى مَجِلت [٣] يداي، فعدَّتْ لي ستة عشر تمرة، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فأكل معي منها.

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يَخضرَّ ويصفرّ، فيقال له: ارفق بنفسك. فيقول: إن الأمر جِدّ.

وكان صفوان بن مُحْرز يصوم ويفطر على رغيف ويصلِّي حتى يصبح وكان عُتبة الغلام يأكل خبزًا وملحًا ويقول: العُرْس في الدار الأخرى. وكان يُخبز لداود الطائي ستون رغيفًا فيعلِّقها بشريط، يفطر كلَّ ليلة على رغيفين، فجاءته مولاة له بشيء من تمر فأكل، فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يعاتب نفسه ويقول: اشتهيتِ البارحة تمرًا فأطعمتُك، واشتهيتِ الليلة تمرًا؟ لا ذاق داود تمرًا ما دام في الدنيا!

دخلوا على فرقد السَّبخي [٤] فأخرج إليهم كِسَر شعير قد اسودت. فقالوا له: تريد الملح. فقال: قد طرحنا في العجين ملحًا!.

كان مالك بن دينار يأكل كلّ ليلة رغيفين، فإن كانا حارَّين فذلك أُدمهما.

صام يزيد الرَّقاشيّ اثنتين وأربعين سنة وكان يقول: سبقني العابدون وقُطِع بي.

قال الثَّوري: بِتُّ عند الحجاج بن فُرافصة ثنتي عشرة ليلة فما رأيته أكل ولا شرب ولا نام.

وقال بشر الحافي: ما شبعت منذ خمسين سنة. وكان له كل يوم رغيف. قال أحمد ابن أبي الفتح رأيته في المنام بعد موته وهو في بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أباحني الجنة بأسْرها وقال: كُل من جميع ثمارها وتمتَّع بجميع ما فيها كما كنت تَحرِم نفسك الشهوات في دار الدنيا.

كم منع نفسه شهوة فما أنالها، فنالتها لما أَنَي لها، كم ردَّها عن هواها وأَمَالها آمالها فُجزي: كُل يا من لم يأكل آمالها، كم حمل عليها كَلًّا وما رَثى لها، كم همَّت بنَيْل غرض بدا لها فلما خافت من الحساب بدا لها.

---

(١) المدر: قطع الطين اليابس. (٢) الذنوب: الدلو. والمراد: أنه ملأه ماء.

(٣) مجلت: نفطت من العمل.

(٤) فرقد بن يعقوب السبخي العابد من أهل أرمينية، وانتقل إلى البصرة. اللباب: ٥٢٨/٢، ط القدسي.

ما أخذ بشرٌ من الدنيا إلا طفيفًا، ولقد كان زاهدًا عفيفًا فخرج منها طاهرًا نظيفًا، هذا وكم وجد سَعة وريفًا. لو رأيته في ثياب الصبر نحيفًا، يتوغل في طريق التقوى لطيفًا، تاللَّه لقد رأى رأيًا حَصيفًا، وإنما أعانه الرحمن (وخُلق الإنسان ضعيفًا):

بكتْ عينه رحمةً للبدن فعفَّى البكاء مكان الوسَنْ

وألبسه الشوق ثوب السَّقام كأنّ السقام عليه [1] حسنْ

وأُنْس مدامعه بالدمو ع لم يدَع السرَّ حتى علنْ

فيا طُول عصيانه للغرا م ويا طول طاعته للحزَنْ

كان شعيب بن حرب يأكل كل ليلة رغيفًا فيبله في المِطْهَرة ويأكله. واحتُضر إبراهيم ابن هانئ وهو صائم فقيل له: اشرب ماء. فقال: هل غربت الشمس؟ فقيل له: قد رخِّص لك. فقال: أمهلوا. فمات ولم يشرب.

كان إبراهيم النجَّاد يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها ويقول: من نقَّر على مطعمه طال جوعه.

هجم عيدٌ على عبد الصمد وليس عنده شيء، فجاءه رجل بدراهم فردها وقال: يا هذا دعني أتلذذ بفقري كما يتلذذ الأغنياء بغِناهم!

أخبرنا علي بن عمر بإسناده عن أبي بكر القرشي قال: حدثني أبو عبد اللَّه التميمي عن أبيه قال: رأيت حماد بن مَسلَمة في المنام فقلت: ما فعل اللَّه بك؟ فقال لي: خيرًا. قيل لي: طال ما كدَدْت [2] نفسك، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعوبين في الدنيا.

بخٍ بخٍ ماذا أعددت لهم! واشوقاه إلى أولئك القوم، أين أهلُ الشَّرَه من أهل الصوم، إذا حضرت أذكارهم غِبت، إن لم أَلحق بهم غدًا خِبْت:

قلَّب القلبَ على جمر الغضا بارقٌ خبَّر عن رُفْقَتِيَهْ

قاتل اللَّه المطايا إنها جائراتٌ بالنَّوى مُعْتديَهْ

رُميت بالأين [3] في أخفافها ما لها تَصْدع شملي وليَهْ

ولذكري عهد أيام الحِمى وَقْدةٌ تُضْرمُ في أضلُعيهْ

يطلب اللاحي نزوعًا عنهمُ وغرامي جلَّ عن سَلوتِيَهْ

---

(١) ش: عليها. (٢) أ: ماكدرت. (٣) الأين: الإعياء أو الحية.

لـو دري أنِّـي في أسـر الـهـوى | لا أُفـادَي منـه لـم يَـلْحَنِيَهْ
آه مـن قـلـبـي إذا نـاحـت عـلى | نـاضـر الأغـصـان وُرْقٌ [1] شَجِيَهْ
يـذكـر الـقـلـب أُهَـيـلًا شـحطوا | كـثـرت نـحـوهـم حـنِّـيتـه [2]
جيـرةٌ لـي لَـعـب البَـيْن بـهـم | مُـذْ نـأوا ناديـتُ واوحـدتـيَـهْ
قـسمًا بـالـعـيس [3] تجتاب الفلا | بيـن أجـراز النَّـقـا مـرتـميه [4]
تـصـل الـوخْدَ [5] بأهداب السُّرى | لـلـمـصـلَّى ومـنًى مـنـتـحـبـه
إنَّ وجـدي بـهـمُ ذو لـهـب | كـلَّمـا عـنَّـفـني عاذِلَيَـهْ
أودعـوا قـلبـي أسًى ما ينقضي | وأذلُّـوا بـالـنـوى صَعْبـتَـيْـه

السجع على قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾:

لما تلمَّحوا الطِّباع إلى الدنيا صابيه، رفضوها عن عزيمة آبيه، ثنَوْا قلوبهم إلى الدار الثانية، ورأوها بعين اليقين دانية، فآثروها على الحقيرة الفانية، يطلبون العِيشة الهانية، هممهم ليست متوانية، تنهض نهوض السباع الضارية، سارية عن عاداتها منتصبة في عبادتها كالسارية، كانوا يقومون والليالي داجية قيام نفس خائفة راجية، يسهرون طول الليالي الشاتية يستعدون للصيحة [6] الآتية، عيونهم من البكاء غاشية، والقلوب منزعجة خاشية، وأسرار القوم بالدموع فاشية، فلهذا عُدُّوا في الحاشية. ويصبحون والنفوس عطشى صادية، يرضَون بالخُلقان والأجساد بادية، أسماع لما ينفعها واعية، قلوب لما يصلحها راعية، أقدام إلى أرباحها ساعية، السنة طول الزمان داعية، بطون من الطعام خاوية، غصون من الإعدام ذاوية، أبدان من الجوع ضاوية، تبيت الليالي لفقرها طاوية، اقتنعوا من الدنيا بزاوية، وتركوا الهوى خوف الهاوية، فهم في عافية صاروا بالمجاعة كالشِّنان [7] البالية، آهٍ لهممهم إنها عالية، آهٍ لمطلوباتهم إنها غالية، وآهًا لطيبهم زاد على الغالية [8]. لو رأيتهم إذا وصلوا إلى الدار الحالية، وكلٌّ منهم على ساقية جارية عليها ساقية جارية، فلو سمعت منادي الجزاء في الدار الباقية ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾.

---

(١) الورق: جمع ورقاء. (٢) الحن: الإشفاق. (٣) لا يجوز هذا القسم.

(٤) العيس: الإبل. والفلا: جمع فلاة وهي الصحراء. وأجراز النقا: الأرض الجرداء فيها رمال.

(٥) الوخد للبعير: الإسراع. (٦) أ: للصبيحة.

(٧) الشنان: جمع شن وهي القربة - بكسر القاف - الخلقة الصغيرة.

(٨) الغالية: نوع من الطيب.

كم بين خسرانكم وأعمالهم الوافية، أنتم المرضى والقوم في عافية، أنتم في الأكدار وعيشتهم صافية، يا مبارزينا ما تخفى علينا خافية، إلى متى هذه الفهوم بعيدة جافية، ما عليها لو أصبحت لِـمَا ضيَّعت متلافية، كلما استقامت عادت متغيرة هافية، لقد أُعجبت بجيفة منتنة طافية، كم ريح لذَّ نسيمها ثم عادت سافِية، أما يكفي من المواعظ ستُّون وافية، أما تشفي هذه الزواجر إنها كلمات شافية، ولولا كراهية إملالكم لقلت إلى آخر القافية!

* * *
* *
*

المجلس الرابع

في ذم الحسد

الحمد للَّه الذي جلَّ وجَلَا، وعلَّ وعَلَا، وسدَّ الخلل وخلَّى، خلق آدم وحوَّا، فسكنا الجنة وحلَّا، فألبسهما أفخر اللباس وزيَّن وحلَّى، فحسدهما إبليس فأضمر في نفسه غِلَّا، فجرى القدر بمصيبتهما فأخطآ وزلَّا، فاكتسبا بعد أن اكتسبا عزًّا ذلًّا، وعادت دموع أسفهما وابلًا لا طَلًّا [١]، وتَعبِا في تحصيل العيش ونَصِبا وكلَّا، جلَّ الإله عن مثلٍ وشبه حاشا وكلَّا، يراه المؤمنون في الجنة إذا تجلَّى، ويُضرب الكافر بالهجر والقِلَى فيتقلَّى، فيقال له ألَا قبل هذا كان هذا ألَّا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [٢] أحمده حمد من تناول لُقَم نِعَمه حتى تملَّى، وأصلي على رسوله محمد صلاة تدفع عنا تَبْلا [٣] ولا تَبلى، وعلى جميع أصحابه وأبي بكر قبْلَا، وعلى عمر الذي هيبته لم تدع لكسرى عَقْلَا، وعثمان الذي فضْلُه من الشمس أَنْور وأجْلَى، وعلى عليّ الذي ما أَقدَم قطُّ فولَّى، أفيدَّعى الرافضي أنه يحبه ونبغضه؟ كلَّا! وعلى عمه العباس الذي أصبح السحاب ببركته مُسْتهلًّا.

* * *

اعلم أن أول معصية وقعت: حَسَدُ إبليس آدم، ثم حَسَدُ قابيل هابيل. والحسد لا يكون إلا على نعمة، ومتى أنعم اللَّه ﷻ على عبد نعمة فأحب أحد أن يكون له مثلها من غير أن تزول عن المحسود فذلك يسمى غِبْطة، ولا لوم فيه، فإذا أحب زوالها وإن لم تَصلْ إليه فهذا الحاسد وهذا الحسد. **ولهذا جاء الذم:**

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن الزبير بن العوام قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة حالقة الدِّين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمدٍ بيده لا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم » [٤].

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد اللَّه إخوانًا » [٥].

---

(١) الوابل: المطر الشديد. والطل: المطر الضعيف.
(٢) سورة الأعلى: ١٤، ١٥.
(٣) التبل: الإسقام.
(٤) سنن الترمذي، كتاب القيامة، باب رقم : ٥٦.
(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٥٧. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٢٤ - ٢٨.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »[١].

ورأى موسى عليه السلام رجلًا عند العرش فغبطه بمكانه، فسأل عنه فقيل له: نخبرك بعمله: لا يحسد الناس على ما آتاهم اللَّه تعالى من فضله، ولا يمشي بالنميمة، ولا يعقُّ والدَيْه.

وقال عبد الملك بن عمير: استعمل عمرُ أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد فقال خالد: بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[٢].

وقال أبو عبيدة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « خالد بن الوليد سيف من سيوف اللَّه تعالى ونِعم فتى العشيرة »[٣]. وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها!.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾[٤] قال: الحسد.

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحدًا قط على شيء من الدنيا، إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده عليها وهو يصير إلى النار؟!

حدثنا المبارك بن علي الصيرفي بإسناده عن بكر بن عبد اللَّه، أن رجلًا كان يغْشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسنْ إلى المحسن بإحسانه والمسيء يكفيه مساويه. فحسده رجل على ذلك المقام، فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم ويقول ما يقول زعم أن الملك أَبْخر. فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ فقال يدعو به الملك[٥]، فإنه إذا دنا منك وضع يديه على أنفه لئلا يشم ريح البخر[٦]. فقال له: انصرف حتى أنظر.

فخرج من عند الملك فدعا الرجلَ إلى منزله فأطعمه طعامًا فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده فجاء إلى الملك فقام حذاءه فقال: أحسنْ إلى المحسن بإحسانه والمسيء تكفيك إساءته. فقال: ادنُ مني. فدنا منه فوضع يده على فمه مخافة أن يشم الملك منه ريح الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلانًا إلا صدَقني، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا جائزة أو صلةً أو معروفًا، فكتب له كتابًا بخطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك صاحب كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحشِ جلده تبنًا وابعث به إليّ.

فأخذ الكتابَ وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟ قال كتب لي الملك بخطه إلى عامل. قال: هَبْهُ لي، أجزْني به. قال: هو لك فأخذ الكتاب ومضى

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب رقم : ٤٤. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب رقم : ٢٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب رقم : ٥٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب رقم : ٤٤.

(٤) سورة الحشر: ٩.

(٥) أ: تدعو به إليك.

(٦) البخر: تغير رائحة الفم.

إلى العامل قال: أتدري ما في كتابك؟ يأمرني الملك أن أذبحك وأسلخك وأحشو جلدك تبنًا فأبعثُ بك إليه. فقال: إن هذا الكتاب ليس هو لي اللَّهَ اللَّهَ، راجِع المِلِك. قال: ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جِلده تبنًا وبعث به إلى الملك. وجاء الرجل كما كان يجيء فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء تكفيه مساويه [1]. فقال له الملك: ما فعل الذي كتبت لك بخطي؟ قال: لقيني فلان فاستوْهبه مني فوهبته له. قال: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر. قال: ما فعلت. قال: فلم وضعت يدك على أنفك حين دنوتَ مني؟ قال: إنما وضعتها على فمي لأنه أطعمني طعامًا فيه ثوم فكرهت أن يشم الملك ريح الثوم. قال: صدقت فقم ذلك المقام وقل ما كنت تقول!.

ورُوِّينا أن رجلًا انقطع على بعض الكرام فألحقه بحشَمه وكفاه مؤنته فبطر النعمة وسعى بذلك الكريم إلى الأمير، فأرسل إليه الأمير فأخبره بما نُقل عنه فأنكره فقال: فلان يخبر عنك بذلك. فسكت متعجبًا. فقال الأمير: ما لك؟ قال: أخاف أن أكون قصَّرت في الإحسان إليه فحمله ذلك على مساوئ أخلاقه. فقال الأمير: سبحان اللَّه ما أعجب ما بينكما في الطبع، أنت تحنو عليه وهو يسعى في سَفْك دمك! أشهد أنك الكريم وأنه اللئيم.

فإن قال قائل: الحسد أمر باطن فكيف السبيل إلى زواله؟

فالجواب: أن الآدمي قد جُبل على حب الرِّفعة، فلا يحب أن يعلو أحد عليه في نعمة من نعم الدنيا، فإذ علا عليه أحد شقَّ عليه وأحب زوال ما علا به.

ومعالجة ذلك تارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالرضا بالقضاء، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من الآفات. فإذا لم يعمل بمقتضى ما في النفس ولم ينطق لم يضره ما وضع في الطبع.

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن والطِّيرة والحسد، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك: إذا ظننت فلا تُحقق، وإذا تطيرت فأمضه، وإذا حسدت فلا تبغ » [2].

وسُئل الحسن: هل يحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك بني يعقوب؟ نعم ولكن غُمَّه في صدرك ولا يضرك.

وهذا الذي ذكرته من الجواب إنما يتعلق بالأغراض الدنيوية، فأما من حسد نبيًّا على نبوته، أو عالمًا على علمه فأحبَّ أنه لم يرزق ذلك وأن تزول عنه فهذا لا عذر له فيه. ولا تُجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة.

---

(١) ش: فتكفيه إساءته.

(٢) روى نحوه ابن عدي. الزواجر : ١/٥٥.

فإن قيل: فهل للحسد دواء؟

فالجواب: أن الحسد أوَّلًا يضر الحاسد في الدين والدنيا، ولا يستضر بذلك المحسود، فلا تؤذ نفسك. أما ضرره في الدين فإن الحاسد قد سخط قضاء اللَّه تعالى وكره نعمته على عباده، وهذا قذى في بصر الإيمان. ويكفيه أنه شارك إبليس في الحسد وفارق الأنبياء في حبهم الخير للخلق. إن الحسد يحمل على إطلاق اللسان في المحسود بالشتم والتحيُّل على أذاه. وأما ضرره في الدنيا فإن الحاسد يتألم بالحسد ولا يزال في كمد:

دع الحسود وما يلقاه من كمده ... كفاك منه لهيب النار في كبده
إن لُمت ذا حسد نفَّست كُرْبته ... وإنْ سكتَّ فقد عذَّبته بيده

قال الأصمعي: سمعت أعرابيًّا يقول: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحاسد، حزنٌ لازم ونفَس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تنقضي!

لا مات أعداؤك بل خلِّدوا ... حتى يروا منك الذي يُكْمدُ
لا زلتَ محسودًا على نعمة ... فإنما الكامل من يُحسدُ

فإن قيل: فهل للحسود دواء؟

قلنا: قلَّ أن ينجع فيه إذا كان الحاسد من العوام الجهلة. قال:

وكلٌّ أُداويه على قدر دائه ... سِوَى حاسدي فهي التي لا أنالُها
وكيف يداوِي المرء حاسد نعمةٍ ... إذا كان لا يرضيه إلا زوالها؟!

فأما إذا كان الحاسد ذا فهم فدواؤه أن يَقْمع أسباب الحسد من الباطن فإن سببها في الغالب الكِبر وعزة النفس ثم يتكلَّف مدح المحسود والتواضع له والهدية إليه.

أخبرنا أبو منصور القزاز بإسناده عن التَّنوخي قال: كنت في جامع المنصور والخطيب على المنبر، وعلى يساري عليٌّ بن طلحة البصري، فمددت عيني فرأيت عبد الصمد بالقرب مني، فقام ومشى نحوي فقمت إليه فقال لي: اجلس أيها القاضي فليس لك قصدتُ ولا لك أردت بمجيئي، إنما هذا أردت وإليه قصدت. يعني ابن طلحة؛ وذلك أن نفسي تأباه فأردت أن أذلَّها بقصدي إياه وأخالفها، فقام ابن طلحة إليه وقبَّل رأسه.

واعلم أنك ما تحسد أحدًا إلا على الدنيا، وما يُحسد قوَّام الليل ولا صُوَّام النهار، فاعرف قدر الدنيا واعلم أنها هموم وحساب وعذاب، فاعرف عيبها فقد عرفت [1] من حسدت.

* * *

(١) أ: رحمت.

الكلام على البسملة

ألا أيـها الـقـلـب الـكثير علائقه — ألـم تـر أن الدهـر تجـري بـوائقُهْ
تُـسـابق رَيْبَ الدهر في طلب المنى — بـأي جناح خِلْتَ أنك سـابـقـه
وتُرْخي علـى السـوء الستور وإنما — تقـلَّب في علـم الإلـه خـلائـقـه
ألا أيـها البـاكي علـى الميْت قبله — رويدك لا تَعْجـل فإنك لاحقـه
وما تخطب الساعات إلا على الفتى — تُغافصه [1] طورًا وطورًا تُسارقه
فـأيُّ هـوًى أو أيُّ لـهـوٍ أصبتَـه — عـلـى لـذة إلا وأنـت تـفـارقـه
إذا اعتـصـم المخلوق من فتن الهوى — بخالـقـه أنجاه منهـن خـالقـه
ومـن هـانـت الـدنيا عـليه فإنني — ضَمِينٌ لـه ألا تـذمَّ خـلائـقـه
أرى صـاحـب الـدنيا مقيمًا بجهله — على ثقة من صاحب لا يفارقه [2]
هـي الـدار دار يستـذلُّ عـزيزهـا — وإن كـان مَغْشيًّا عظيمًا سُرَادقه

يا هذا! الدنيا لا تُذمُّ لذاتها، إنما يُذمُّ قصدك في شهواتها، قُبْحُ المقصد في جمع المال أثّر عقوبة: ﴿ فخسفنا به ﴾ [3] وحُسْنُ العزم في الإنفاق أوجب مديحه: « ما نفعني مال كمال أبي بكر ».

يا هذا بالقَدح يُشرب [4] الماء وبه تشرب الخمر فما ذنب القدح؟!.

في هذا النهار فاز الصائمون، وفي هذا الليل سعد القائمون، وبهذا المال سعد المنفقون، أين الذين سعَوْا في الأرض قبلكم وانتشروا، وتكبَّروا على أمثالهم، فعتوا وافتخروا، وأعرضوا عن العبر فما فهموا ولا اعتبروا، كانوا أرباب الباب غير أنهم ما أبصروا، فلما رحلوا عن القصور إلى القبور وتدبَّروا، ندموا إذْ قَدِموا ولهفوا وتحسَّروا. فتفكروا في أخبارهم واعلموا أنكم على آثارهم فاحذروا، للَّه درُّ أقوام نظروا في العواقب، فعملوا عمل مراقب، فتوحدوا بالفضائل والمناقب.

مكث أبو بكر بن عيَّاش لم يفرش له فراش خمسين سنة، فلما احتضر بكى ابنه، فقال: ما يبكيك؟ أترى اللَّه يضيع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة؟! وبكت أخته فقال لها: انظري إلى تلك الزاوية ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة!

---

(١) تغافصه: تفاجئه.
(٢) أ: يوافقه.
(٣) سورة القصص: ٨١.
(٤) أ: تشرب.

وكان ابن السماك يقول: من امتطى الصبر قوى على العبادة، ومن أهمته نفسه لم يولِّ مرمَّتها غيرها، ومن أذاقته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرَّعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها، فإن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت وعاين ما بعده فطلب الرجعة فأُسعف بطلبه وأُعطي حاجته فهو متأهب مبادر، فافعل.

وكان ثابت البُناني يصوم الدهر ويختم كلَّ يوم وليلة ويبكي حتى عَمِش، فلما مات كانوا يسمعون قراءة القرآن من قبره.

وكان محمد بن واسع يصوم الدهر ويصلي الليل كله ويبكي، فقالت جارية في داره: لو كان هذا قد قتل أهل الدنيا ما زاد على هذا! وكان يقول: لو كانت للذنوب رائحة ما قدرتم أن تدنوا مني. ورأى ولده يمشي ويخطر بيده فقال له: تعال أتدري من أنت؟ أمك اشتريتها بمائتي درهم وأبوك فلا أكثر اللَّه في المسلمين مثله!

فلما مرض قال: ما يُغني عني ما يقول الناس إذا أخذ بيديّ ورجليَّ فأُلقيت في النار! فلما احتضر قال: يا إخوتاه أتدرون أين يُذهب بي واللَّه الذي لا إله إلا هو إلى النار أو يعفو عني، ياإخواتاه، هَبُوني وإياكم سألنا الرَّجْعة فأعطاكموها ومنعنيها فلا تخسروا أنفسكم.

كان فَرْقد [١] يقول: إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل، ألم تروا إلى العامل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه، فإذا فرغ اغتسل ولبس ثيابًا نظيفة، وأنتم تلبسون ثياب الفراغ قبل العمل.

كان فُضَيْل الرَّقاشي [٢] يقول: لا يُلهينك الناس عن نفسك، فإن الأمر يخلُص إليك دونهم، ولا تقطع النهار بكِيْت وكِيْت، فإنه محفوظ عليك ما قلتَ.

انتبهت امرأة حبيب العجمي ليلة وهو نائم فقالت له: قم يا رجل فقد ذهب الليل وبين يديك طريق بعيد، وقوافل الصالحين قد سارت قُدَّامنا وبقينا.

كانت بُرْدة العابدة تقوم الليل، فإذا سكنت الأصوات نادت بصوت لها محزون: هدأت العيون وغارت النجوم وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك يا محبوبي أفتراك تعذبني وحبك في قلبي يا حبيباه؟!

كانت شَعْوانة تبكي ليلًا ونهارًا فزارها ولد ضيغم العابد فقالت: يا بني إني لمشتاقة إلى أبيك، وما يمنعني من إتيانه إلا أني أخاف أن أشغله عن خدمة مولاه [٣]، وخدمة

(١) هو فرقد بن يعقوب السبخي، أصله من أرمينية، وانتقل إلى البصرة من العباد الزهاد.

(٢) نسبة إلى امرأة يقال لها: رقاش بنت قيس، كثر أولادها فنسبوا إليها. اللباب: ٤٧٢/٢، ط المقدسي.

(٣) أ: سيده.

سيده أولى به من محادثة شعوانة، ومَنْ شَعْوانة؟ سوداء عاصية. ثم أخذت في البكاء وقالت: من استطاع أن يبكي فليبك وإلا فليرحم الباكي!

وكانت عابدة لا تنام الليل إلا اليسير، فعوتبت في ذلك فقالت: كفى بطول الرقدة في القبور رقادًا، وكانت تصوم في الحرِّ فتغير لونها، فقيل لها في ذلك، فقالت: إنما أدور على طول الريّ والشبع. وكانت قد بكت حتى اسودَّ مجرى دموعها، وكان يأتيها محمد بن النَّضر وأصحابه فيتحدثون فتقول: قوموا فالحديث هناك يطيب، في دار لا همَّ فيها ولا موت.

وكانت ريحانة العابدة تقوم من أول الليل فتقول:

قام المحبُّ إلى المؤمَّل قومةً ... كاد الفؤاد من السرور يطير

فإذا ذهب الليل نادت: واحَرْباه واسَلْباه!

ذهب الظلام بأنسه وبإلفه ... ليت الظلام بأنسه يتجددُ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ... ﴾ (١)

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾. أخرجه أبو عبد اللَّه الحاكم في صحيحه.

وللمفسرين في معنى كورت أربعة أقوال:

أحدها: أظلمت رواه الوالبيّ عن ابن عباس. وأخبرنا إسماعيل بن أحمد بإسناده عن قتادة ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال: يذهب ضوؤها وهكذا قال الفراء ومقاتل.

والثاني: ذهبت وعطِّلت. رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد اضمحلَّت.

والثالث: غوِّرت. قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: حكى الأزهري عن سعيد بن جبير ﴿ كُوِّرَتْ ﴾. وهو بالفارسية « كوربور ».

والرابع: أنها تكور مثل الغمامة فتلفُّ وتُمحى. قاله أبو عبيدة.

وقال الزجاج: المعنى: جُمع ضوؤها ولُفَّت كما تُلفُّ العمامة. تقول: كورتُ العمامة على رأسي أكورُها إذا لففتها. قال المفسرون: يجمع بعضها إلى بعض ثم تُلفُّ ويُرمي بها في النار وقيل في البحر.

---

(١) سورة التكوير: ١.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ ﴾ أي تناثرت وتهافتت يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقضَّ.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ ﴾ أي عن وجه الأرض فاستوت مع الأرض.

﴿ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ ﴾. العشار: النوق الحوامل، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، فقيل لها العِشار لذلك، وذلك الوقت عندهم أحسن زمان حملها وهي تضع إذا وضعتْ لتمام سنة فهي أنفس مال العرب عندهم، فلا يعطِّلونها إلا لإتيان ما يشغلهم عنها. وإنما خوطب العرب بأمر العشار لأن أكثر عيشهم ومالهم من الإبل.

ومعنى ﴿ عُطِّلَتۡ ﴾ سُيِّبت وأُهملت لاشتغالهم عنها بأهوال القيامة.

﴿ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ... ۝٥ ﴾ يعني دواب البر ﴿ حُشِرَتۡ ۝٥ ﴾ **وفيه قولان: أحدهما:** ماتت. قاله ابن عباس والضحاك. **والثاني:** جمعت يوم القيامة. قاله السُّدي.

وقد روى أبو ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال: « يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا؟ قلت: لا أدري. قال: « لكن اللَّه يدري وسيقضي بينهما » [١].

قال أبو هريرة ﷺ: يحشر اللَّه الخلق يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء فبلغ مِنْ عَدْله أن يأخذ للجمَّاء من القرناء [٢] ثم يقول: كونوا ترابًا. فيقول الكافر: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ [٣].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: أُوقِدت فاشتعلت نارًا. قاله عليّ وابن عباس ومجاهد.

والثاني: يَبِست. قاله الحسن.

والثالث: ملئت بأن صارت بحرًا واحدًا وكثر ماؤها. قاله ابن السائب والفراء وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: قُرنت بأشكالها. أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن عمر بن الخطاب: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ قال: الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح. وفي رواية عنه: الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار. وهذا قول الحسن وقتادة.

والثاني: رُدَّت الأرواح إلى الأجساد فزوِّجت بها. أخبَرنا عبد الوهاب الحافظ بإسناده عن عامر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ قال زوِّج الروح الجسد.

---

(١) مسند أحمد: ٥/ ١٦٢.

(٢) الجماء: التي لا قرن لها. والقرناء: ذات القرون.

(٣) سورة النبأ: ٤٠.

والثالث: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين. قاله عطاء ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ ﴾:

﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾: البنت تدفن وهي حية، وكان هذا من فعل الجاهلية، يقال: وأدَ ولده أي دفنه حيًّا. قال الفرزدق:

ومنّا الذي منع الوائدات … وأحيا الوليد فلم يوأد (١)

- **وفي معنى « سئلت » قولان**:

أحدهما: أن تكون هي المسئولة على جهة التوبيخ للقتلة. قاله الزجاج. ومعنى سؤالها تبكيت قاتلها يوم القيامة لأن جوابها: قُتلتُ بغير ذَنْب. ومثل هذا التبكيت قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (٢).

والثاني: أن يكون القتلة المسئولين أي سُئلوها بمعنى طُلبت منهم فقيل لهم: أين أولادكم؟ وذلك على وجه التوبيخ أيضًا. ذكره ابن مقسم.

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وابن أبي عبلة وابن يعمر ﴿ سألْت ﴾ بفتح السين والألف بعدها ﴿ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾ بإسكان اللام وضم التاء الأخيرة وسؤالها هذا تبكيت لقاتلها أيضًا.

قال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت فكان أوان وِلَادها حفرت حفيرة فتمخضت على رأس الحفيرة، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفيرة، وإن ولدت غلامًا حبسته.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ ﴾: وهي صحف أعمال بني آدم تُنشر للحساب.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ ﴾: قال الفراء: يعني نُزعت فطويت. وقرأ ابن مسعود: ﴿ قشطت ﴾ بالقاف. وهذا تقوله قيس وتميم وأسد بالقاف. وأما قريش فتقوله بالكاف والمعنى واحد. والعرب تقول الكافور والقافور، والقشط والكشط، وإذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات، كما يقال جَدَث وجَدَف (٣).

قال ابن قتيبة: كُشطت كما يُكْشط الغطاء عن الشيء فطويت. وقال الزجاج: قُلعت كما يقلع السقف.

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ ﴾ أي: أوقدت. وقرأ نافع وابن عامر: سعِّرت بالتشديد والمعنى: أوقدت مرة بعد مرة.

﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ ﴾ أي: قرِّبت من المتقين.

---

(١) ديوانه: ص ٣٥٠. (٢) سورة المائدة: ١١٦. (٣) الجدث والجدف: القبر.

وجواب هذه الأشياء: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ من عمل فأثيبت عليه على قدر عملها.

قال عمر بن الخطاب ﷺ في قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ قال: لهذا جرى الحديث. وقال ابن عباس: من أول السورة إلى هاهنا ثنتا عشرة خصلة، ستة في الدنيا وستة في الآخرة.

أخبرنا الكروخي بإسناده عن أبي بَرْزة الأسلمي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عُمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه » [(١)].

قال الترمذي: وحدثنا علي بن نصر الجَهضميّ بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته شيئًا قال الرب تعالى: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فيكمل به ما انتقص من الفريضة؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك » [(٢)].

يا من قد أهمل أمره فما ينظر، قل لي بأي عمل تَحْضر؟!

ذكر العرض قَلْقل الصالحين، وخوف الحساب أزعج المتقين. جاز أبو بكر الصديق رضي اللَّه تعالى عنه على طائر فقال: طوبى لك يا طائر! تقع على الشجر وتأكل من الثمر ولا حساب عليك ولا عذاب ليتني كنت مثلك!

وقال عمر: ليتني كنت تِبْنة في لَبِنة، ليت أمي لم تلدني.

وكان يزيد الرَّقاشي [(٣)] يقول: ليتني لم أخلق، وإذا خُلقت لم أحاسب، وعاتبه ابنه يومًا في كثرة بكائه فازداد بكاء فقالت أمه: ما أردت إلى هذا؟ فقال: أردت أن أهوِّن عليه وما أردت أن أزيده:

كثرة الشوق أحدثَتْ قلة الصـ ... ـبر [(٤)] وبعد المزار أدنى السُّهادَا
كم عذول، عليكم رام إصـ ... ـلاحي فكان الملام لي إفسادَا
كلما زاد عذله زاد وَجْدي ... فكلانا في أمره قد تمادَى
مَنْ لقلبٍ أصليتموه لظى الجمـ ... ـر وجَنْبٍ أفرشتموه القَتَادا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القيامة، باب رقم : ١.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب رقم : ١٨٨.

(٣) يزيد بن أبان بن عبد اللَّه الرقاشي بصري، يروي عن أنس بن مالك ولم يكن من الثقات في الحديث لاشتغاله بالعبادة. اللباب : ٢/٤٧٢.

(٤) ش: صحة الشوق أحدثت علة الصبر.

[مروا على عابد يبكي فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: روعة النداء بالعرض على الله ﷻ.
وكان الشِّبلي يزعجه الخوف والحياء فيقول: اللَّهم احشرني أعمى فما لي عين تراك] (١).

سجع على قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾:

إذا قامت النفوس من القبور وسَرتْ، غُلَّت بِغُلّها (٢) وأُسرَتْ، وربحت كِفة الميزان أو خسرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

يقوم الناس من قبورهم متحيِّرين في أمورهم باكين على غرورهم، في ذنوب خطرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

آهٍ لنفس ما وفِّقت ولا أريدت، نصب لها القَدر فخَّه فِصيدتْ، من لها إذا جُمعت وأعيدت، وجيء بالنار فقِيدت وزفرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

أُمرتْ فما أطاعت، وخوِّفت فما ارتاعت، وبذلت في طلب الفاني ما استطاعت، بئس ما باعت وما اشترت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

ما تزال إلى ما يؤذيها تَسْري، ما تبرح خيلها في اللَّهو تجري، ما تنفكُّ تَريش سهام قَتْلها وتَبْري، وتعلم أن هذا يضرها وتدري وكأنها ما درتْ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

أتعبتَها بالمعاصي وعنَّيتها، وحمَلت عليها ما لا تطيق وآذيتها، نُشرت صحائفها وأنت أمْليتها، فليتها ما حضرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

عملتْ في الدنيا عمل السَّفيه، وكانت تظهر القبيح ولا تخفيه، فلما شُهرت بين المحافل وعار الغافل يكفيه، جيء بالكتاب وهي تدري ما فيه، فلما انكسرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

إن جاءت بصوم ففيه غِيبة، أو بصلاة فحشوها غَيْبة (٣)، وعيوبها قد ملأت العَيْبة (٤)، أعميتْ عن هذا أم أبصرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

أقامها مَنْ دَفَنها، وأحضر سيئها وحَسنها، وسِرَّها وعلنها، وقبائحها ومحنها ولو أمكنها أنكرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

تُجْمع جميع نظراتها، وتلف سائر خطواتها، وتحاسب على حركاتها، وتسأل عن كلماتها أقلَّت أم أكثرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

تيقظت حينئذ من السِّنة فأخذتها بالعتاب الألسنة، وجيء بعمل اليوم والشهر والسنة

(١) سقطت من ش.
(٢) الغل: القيد.
(٣) غيبة: أي سهو عن معاني الصلاة.
(٤) العيبة: وعاء تجمع فيه الثياب.

وطلبت في صحيفتها حسنة حسنة، فإذا هي قد افتقرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

لما خابت منها الظنون، جرت من العيون عيون، فأخذت تتمنَّى المَنُون، كيف وعليها ديون وقد أعسرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

فانتبه لخلاصها وخلِّ هواها، وهيئ زادها فقد دنا سُرَاها، وسلِّمها بغير توقف إلى من اشتراها.

يا لها من موعظة بليغة وما أراها قد أثَّرت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

أيقظنا اللَّه وإياكم من سِنة الغفلة وذكَّرنا التجهز للرحيل والنُّقلة.

واللَّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

* *

*

المجلس الخامس

في ذم الغضب

الحمد للَّه الذي خلق اليوم وأمْسَه، وقَمَر الكون وشَمْسه، وآدم بيد وما مسَّه، عرفه الموحِّد فنزَّه قُدْسه، وجهله المشبِّه واستفتى حِسَّه، فقاس الخالق بالأشياء المُحسَّة، فتراكم عليه غبار التشبيه وضاعت المَحَسّة. وجحد المعطِّل صفاته فما أخسَّه، ادفع المعطِّل بيديك وألْحق بالمشبه رَفْسه، فالنصر للموحدين في الدين بحفظ اللَّه صاحب الشُّمسة (١)، فكم عثر مبتدع والسُّنة تصيح به: تَعْسة، وسيحضر يوم الحساب ويرى جزاء ما افترى، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٢).

أحمده حق حمده وأنَّى ولَيْت (٣)، وأقر بأنه يخرج الحيَّ من الميْت، ويكثر لساني الصلاةَ على نبيه وأنادي: ما وفَّيت، وعلى صاحبه أبي بكر المقدم وإن أَبيْت، وعلى عمر الذي كسر كسرى وقد رأيت، وعلى عثمان ذي النورين وإن تعاميت، وعلى عليٍّ الذي لا يبغضه إلا خَرِب البيت، وعلى عمه العباس مقدَّم الآل أمَا تذكره إذا صليت.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ...﴾ (٤)

قال بعض العلماء: معناه: لا يغفرون بشفيع، بل يعلمون ثواب العفو فيغفرون.

اعلم أن اللَّه تعالى لمَّا خلق الآدمي معرَّضًا للبلوي **بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه**، أنعم عليه بما يحميه من الفساد إلى وقت الأجل.

أما السبب الداخل: فإنه مركَّب من رطوبة وحرارة وبينهما تضادّ؛ فالحرارة تحلِّل

---

(١) كذا بالأصل، والشُّمُس بضم الشين وسكون الميم وضمها أيضًا: جمع شموس وهو الفرس الذي يمنع ظهره.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

(٣) كذا بالأصل، ولعل المعنى: وأنَّي أستطيع حمده حق حمده، وليت أني أقدر على ذلك؛ لأن حمده سبحانه حق حمده، شيء فوق مقدور البشر.

(٤) سورة الشورى: ٣٧.

الرطوبة وتجفّفها، وقدّر له اتصال مَدَد من الغذاء يجبر المتحلل، وخلق له شهوة تبعثه على التناول للغذاء.

وأما الأسباب الخارجة فكالسيف وغيره من المهلكات، فافتقر إلى حَمِيَّة تثور من باطنه لدفع المهلكات عنه؛ فخلق الغضب من النار وعُجن في الطينة.

فمتى قصد الآدمي في غرض من أغراضه اشتعلت نار الغضب اشتعالًا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن فيحمرّ الوجه. وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من هو دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب ممن فوقه ويئس من الانتقام منه تولَّد من ذلك انقباض الدم على ظاهر الجلد إلى جوف القلب، فصار حزنًا فاصفرّ اللون. فإن كان على نظيرٍ شك في القدرة عليه تردَّد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر ويصفر ويضطرب بقوة الغضب التي محلها القلب [(١)]، ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام.

وإنما تتوجه هذه القوة عند ثَوَرانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها؛ فالانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ولذتها، فلا تَسْكن إلا به.

والناس في هذه القوة في أول الفطرة على ثلاث مراتب:

أحدها: ضعف هذه القوة أو فقدها، وذلك مذموم لأنه صفة منْ لا حَمِيّة له، وذلك دليل على صغر النفس. قال الشافعي ﷺ: من استُغضب فلم يغضب فهو حمار!

- **ومن ثمرات هذه الحالة:** عدم الغيرة على الحُرَم وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، ومن ضعُف غضبه سكن عن إنكار المنكرات، وقد قال اللَّه تعالى لنبيه: ﴿ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [(٢)]، والغلظة من آثار قوة الغضب والحمية. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [(٣)]، ووصف الصحابة فقال: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ [(٤)].

ومن فَقَدَ الغضب عجز عن رياضة نفسه؛ إذ الرياضة إنما تتم بتسليط الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقْد الغضب مذموم.

المرتبة الثانية: الإفراط. فقد تغلب هذه القوة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين، فلا يبقى لصاحب هذه الحالة نظر ولا اختيار، ورُبَّ إنسان هو بالفطرة في صورة غضبان. ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب؛ لأن الغضب من النار.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بإسناده عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: « ألَا إن

---

(١) ش: فقوة الغضب محلها القلب.

(٢) سورة التحريم: ٩.

(٣) سورة النور: ٢.

(٤) سورة الفتح: ٢٩.

الغضب جمرة في قلب ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟! فمن وجد من ذلك شيئًا فليلصق خدَّه بالأرض »(١).

وربما صاحَبَ صاحِبُ هذا المزاج الحار قومًا يتبجَّحون بتشفّي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم: أنا لا أحتمل من أحدٍ شيئًا. ومعنى هذا القول: لا عقل لي ولا حِلم، فيذكر ذلك في معرض الافتخار جهلًا منه، فيرسخ في نفس الجاهل الذي يسمعه حُسن الغضب فيقوى لذلك غضبه. ومتى قويت نار الغضب أعمت بصر البصيرة وأصمَّت عن المواعظ، وربما زاده الواعظ غضبًا وربما تعدى أمره إلى الحسِّ فأظلمت عينه واسودت الدنيا في وجهه، وربما اشتدت نار الغضب فأفنت الرطوبة التي بها حياة القلب فمات صاحبه غيظًا.

- **ومن آثار هذا الغضب في الظاهر:** تغير اللون والارتعاد وخروج الأفعال عن الانتظام، واضطراب الحركة والكلام، حتى تحمرّ العين ويظهر الزَّبد على الأشداق. ولو رأى الغضبانُ صورة نفسه حال غضبه لأنِفَ لنفسه من تلك الحالة.

ومعلوم أن قبح الباطن الذي أثَّر قبحَ الظاهر أقبح. ويؤثِّر هذا الغضب في اللسان فينطلق بالقذف والسب والقبائح التي يستحي منها إذا سكن. ويؤثر في الأعضاء بالتهجم بالضرب والجرح. فإن لم يقدر الغضبان على شفاء غيظه عاد على نفسه، فربما مزَّق ثوبه ولطم خدوده وفعل أفعال المجانين، وربما رَفَسَتْهُ البهيمة فرفسَها مقابلة لها. ويؤثِّر الغضب في القلب فيحقد على المغضوب عليه ويُضْمِر السوء له.

والمرتبة الثالثة: غضبٌ ينتظر(٢) إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحميَّة، وينطفئ حيث يَحْسن الحِلم. والمذموم هو المرتبة الثانية، وإليها أشير بذم الغضب والنهي عنه.

أخبرنا عبد الأول بإسناده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »(٣).

قال البخاري: وحدثني يحيى بن يوسف بسنده عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ فقال: أوصني. قال: « لا تغضب » فردَّد مرارًا قال: « لا تغضب »(٤) انفرد البخاري بإخراج هذا الحديث واتفقا على الذي قبله.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم : ٢٦. ومسند أحمد : ١٩/٣ - ٦١.

(٢) أ: عقل تبطه إشارة العقل. ولعله تحريف.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ١٠٢. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٠٦ - ١٠٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٩٦.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمرو أنه سأل رسول الله ﷺ : ماذا يبعدني [١] من غضب الله ﷻ؟ قال: « لا تغضب » [٢].

وبه عن ابن عمر [٣] عن النبي ﷺ قال: « من كفَّ غضبه ستر الله عورته » [٤]. وقد رواه أنس فقال فيه: « من كفَّ غضبه كفَّ الله عنه عذابه » [٥].

وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه: إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخفّ فؤاد الرجل الحليم.

وقال ابن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وإلى أمانته عند طمعه [٦].

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [٧] قال: السيد الذي لا يغلبه غضبه. وقال الحسن: ابن آدم كلما غضبت وثَبْت، يوشك أن تَثِبَ وثبةً تقع في النار!

وقد رُوِّينا أن إبليس تَبدَّى لموسى عليه السلام فقال: يا موسى إياك والحدّة، فإني ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة.

وقال خيثمة: كانوا يقولون: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طِرْتُ حتى أكون في رأسه؟!

وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حُسْنَ الخُلق في كلمة فقال: ترك الغضب. وقيل لبعض الحكماء: ما أَمْلَك فلانًا لنفسه! فقال: إذًا لا تُذلُّه الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب.

وكان يقول: إياك وعزة الغضب فإنها تؤول بك إلى ذُلِّ الاعتذار.

وإذ قد بينَّا أن أصل الغضب ينشأ من الكبْر وعزة النفس، فينبغي للغضبان أن يقمع كبره بالتواضع، وينظر في فضل كظم الغيظ، ويخوِّف النفس من العقاب، ثم يسكن ويتعوذ ويغير حاله، إن كان قائمًا جلس؛ فقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا غضب أحدكم فليسكت. أعادها ثلاثًا » [٨]. وفي الصحيحين من حديث سليمان ابن صُرَد قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبَّان وأحدهما قد احْمرَّ وجهه

---

(١) أ: ما يبعدني. (٢) مسند أحمد : ١١٥/٢.

(٣) ش: وحدثنا أبو يوسف العلفوسي بسنده عن عبد الله بن عمر.

(٤ ، ٥) رواه الطبراني بلفظ: « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه، ومن حفظ لسانه ستر الله عورته ». الترغيب والترهيب : ٢٧٣/٣.

(٦) ش: عند طعمه. (٧) سورة آل عمران: ٣٩.

(٨) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٣٩/١.

وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (١).

وروى أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » (٢).

وهذا لأن القائم متهيئ للحركة والبطش، والقاعد دونه، والمضطجع ممنوع منهما.

وعن النبي ﷺ أنه قال: « إذا غضب أحدكم فليتوضأ » (٣).

وغضب عمر فدعا بماء فاستنشق فقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب بالغضب.

* * *

ولنذكر فضل الحلم:

فقد روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « ما تجرَّع عبدٌ جَرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يَكْظمها ابتغاء وجه الله » (٤). ومرَّ عليه أفضل الصلاة والسلام على قوم يتجاوَدُون مِهْراسًا (٥) فقال: « أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة أن يمتلئ أحدكم غيظًا ثم يغلبه » (٦)، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: « من اتقى الله لم يشف غيظه ».

وأذنب غلام لامرأة من قريش فأخذت السَّوط وسعت نحوه، فلما قاربَتْه رمت السوط وقالت: ما تركت التقوى أحدًا يشفي غيظه!

شتم رجل ابنَ عباس فقال: يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيا.

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي.

وجاء غلام لأبي ذر قد كَسر رِجْلَ شاة له، فقال أبو ذر: من فعل هذا؟ قال: أنا فعلته عمدًا لأغيظك فتضربني فتأثم. فقال: لأغيظن من حرَّضك على غيظي! فأعتقه.

وشتم رجل عديَّ بن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال له: إن كان بقي عندك

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ١١.

(٢) مسند أحمد : ١٥٢/٥. (٣) مسند أحمد : ١٦٤/٦.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب رقم : ١٥، ومسند أحمد : ١٢٨/٢.

(٥) في أ: يتحادون مهراسًا. ومعنى يتجاودون: ينظرون أيهم أجود في حمله. والمهراس: الهاوون. وحجر منقور يتوضأ منه.

(٦) روى نحوه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : ٢٧٢/٣، ط دار المنار.

شيء فقل قبل أن يأتي شبان الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لشيخهم لم يرضوا.

وزَحمتْ راحلةُ سالم بن عبد اللَّه رجلًا فقال له الرجل: ما أراك إلا رجل سوء. فقال: ما أحسبك أبْعَدْت!

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلًا فعثر بنائم، فرفع رأسه وقال: مجنون أنت؟ فقال عمر: لا. فهمَّ الحرس به، فقال عمر: مه إنما سألني فأجبته. وشتم رجل عليَّ ابن الحسين فقال: ما سُتر عليك من أمرنا أكثر. واستطال عليه رجل فتغافل عنه فقال له: إياك أعني: فقال: وعنك أُغضي! وأغلظ له رجل فقال: يا أخي إن كنت صادقًا فيما قلتَ فغفر اللَّه لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفر اللَّه لك.

واستعجل غلام له بشواء في سَفُّود (١)، فوقع على بُنَيٍّ له فمات، فقال له: أنت حرٌّ لوجه اللَّه تعالى إنك لم تتعمده.

وشتم رجل رجلًا فقال له هيئ صحيفتك فأمْلِ فيها ما شئت. وقال رجْل لرجل: لأشتمنك شتمًا يدخل معك القبر. فقال: معك يدخل لا معي:

تعوَّدْ أيها المسكين صمتًا ... فنعم جواب من آذاك ذاكا
وإن عوفيتَ مما عِبْت فافتح ... بتحميد الذي عافاك فاكا

* * *

الكلام على البسملة

خذْ ما صفا لك فالحياة غرور ... والموت آتٍ واللبيب خبير
لا تعتبنَّ على الزمان فإنه ... فلكٌ على قطب الهلاك يدور
تعفو السطورُ إذا تقادم عهدها ... والخَلْق في رَقِّ الحياة سطور
كلٌّ يفرُّ من الردَى ليفوته ... وله إلى ما فرَّ منه مصير
فانظر لنفسك فالسلامة نُهْزة ... وزمانها ضافي (٢) الجناح يطير
مرآة عيشك بالشباب صقيلة ... وجناح عمرك بالمشيب كسيرُ
بادرْ فإن الوقت سيف قاطع ... والعمر جيش والشبابُ أميرُ

إن الموت لمواعدٌ مُنجز، وما الموعود بمعجز، ويحك إن الزاد لمُعْوز وقد آنَ الرحيل فبرِّز:

---

(١) السفود: حديدة يشوي بها.
(٢) الضافي: السابغ.

يا صاح قد عجبتْ نفسي وكم عجبتْ — من ضاحك والرَّدى منه على الرَّصَدِ
ورُبَّ واردة للبحر قد شَرِقتْ — فأُهلكت وارتوت أخرى على ثمد (١)
والنفس توَّاقةٌ من بعد حاجتها — إلى ازديادٍ وإكثار من العدد
كم راسبٍ في غمار الملك تحسبه — في لذة وهو في همٍّ وفي كمد
وعاقدٍ فوق أموال (٢) يجمِّعها — قد أصبحت بعده محلولة العُقَد
ومُبْرمٌ أمره والدهر ينقضه — هل غالَب الدهرَ يا للَناس مِنْ أحدِ
وآنس ملئت صيدا حبالته (٣) — وطامع رُدَّ محرومًا ولم يَصِدِ

كان مالك بن دينار يقول: إن اللّه تعالى جعل الدنيا دارَ مفرٍّ والأخرى دار مَقرّ، فخذوا لمقركم مِنْ مفركم، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ولا تهتكوا أسراركم عند من يعلم أسراركم، ففي الدنيا حييتم ولغيرها خُلقتم، إنما مثل الدنيا كالسّم، أكله من لا يعرفه واجتنبه من عرفه، ومَثَل الدنيا مثل الحية مسُّها لينٌ وفي جوفها السم القاتل، يَحْذرها ذوو العقول ويهوِى إليها الصبيان بأيديهم.

وكان يقول: لو استطعت أنْ لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقْتهم ينادون في منازل الدنيا: النارَ النار، قالوا له: ألا ندعوا لك قارئًا؟ فقال: إن الثّكلى لا تحتاج إلى نائحة، فقالوا: ألا تستسقي لنا؟ قال: أنتم تطلبون المطر وأنا أستبطئ الحجر!

وكان يقول: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

وكان يزيد الرّقاشي يبكي حتى أحرقت الدموع مجاريها ويقول: لوددت لو بكيت بعد الدموع الدم. وكان يقول: يا يزيد من يصلِّي لك بعدك؟ من يصوم ومن يتضرع لك إلى ربك؟!

يا مطرودًا عن الموصوفين، يا مجهولًا بين المعروفين، كم بين الآمنين والخائفين، كم بين الجاهلين والعارفين؟! ويحك ذهبت اللذات وبقيت التّبعات، والذنب الذي أبعدك عنا عنّي، رحل القوم فهلّا تبعْت، ربحوا في المعاملة وخسرت فما ربحت، اخرجْ في سفر السَّحر لعلك تسمع حادي الرّكب، ابعث رسائل التأسّف إلى جناب: « هل من سائل »:

أحداة الظُّعن قِفُوا لفتًى — تحييه النظرة مِنْ بُعْدِ

---

(١) الثمد: الماء القليل. (٢) ش: فوق آمال. (٣) الحبالة: المصيدة.

أودي بـقـواه غـرام هَـوا ه وحـرُّ جَـوَاه الـمـتَّـقـدِ
هـذا الـبـيـن لـشـتِّ الشَّمـ ـل من الأحـبـاب عـلـى الرَّصد
كـابـدت لـبـعـدهـم حُرَقًا أضـحـتْ كـالـجـمرة في كبدي
ودمـي قـد طُـلَّ فـواعـجـبًا لـقـتـيـل طُـلَّ بـلا قَـوَدِ
أمَّـرت عـلـى كـبـدي شجني فـقـضَى بـالـجَـوْر عـلـى كبدي

قال أبو يزيد: دعوت نفسي إلى اللّه ﷻ فاستعصت، فتركتها ومضيت إليه، فرأيته في المنام [١]، فقلت: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك ثم تعال.

وكان أبو يزيد يعظ نفسه فيصيح عليها، يا مأوى كل سوء! المرأة إذا حاضت تَطْهر بثلاثة أيام أو عشرة، وأنت قاعدة منذ عشرين وثلاثين سنة وما طَهُرْت فمتى تطهرين [٢]؟!.

كان أبو سليمان الداراني يقول: لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

خلت خلواتهم في الدُّجى من رقيب، فانفرد المحب بمناجاة الحبيب، فسمع بسمع يقظته جواب الجوَى، أشاروا بتسليم مجدنا، يا نفس قويت أرواح الآمال بنسائم الوصال، فامتد نَفَس المشتاق فصاح لسان المحبة.

باح مجنون بني عامر بهواه، فبيْنا نسيم الرجاء يبشِّر بجمع الشمل خرجت من الجَناب جَنُوب الخوف فعادت اللذة نُغْصة. هكذا يحب المحب عتابه. مات المجنون من قبل يصيحون، وقد نضجت أفئدتهم من نار الخوف فيزيدها اشتعالًا نَفْخ العَذُول في الغرام.

إلـى متـى تَجْحد البلوى وتَجْمده قد بان ما كـان يـخفيه ويَجحده
حُـمَّ الـفراق فـمـا أجدى تماسكه عـليه شيئًا ولا أغْنَـى تـجـلُّده
فـأضْـرمَ الـبـيـن في أحشائه حُرَقا يـقـيـمـه وَقْـدُهـا طَـوْرًا ويُقْعده
لا الـصـبـر نـاصره إنْ ضامَهَ كَمدٌ يَـوم الـرحـيـل ولا السُّلوان يُنْجده

يا من كان مستقيم القلب فأخذ قلبه في القلب، ابكِ على لذة البداية واندب في الضلال أوقات الهداية، واأسفًا على أيام الإرادة ما أطيب زمنها، وواقلقي لجوارح الكسل ما أقوى زمنها [٣]:

فَوَا لَـهْـفـتـي كـم نـفـوسٌ كـريمة تـموت وفي أكـبـادهـا حـسـراتها

---

(١) لا يمكن قبول مثل هذه الحكايات، فرؤية اللّه تعالى في المنام غير ممكنة والمؤمنون لا يرون ربهم إلا بعد دخول الجنة.

(٢) تشبيه النفس بالمرأة الحائض أمر عجيب فالحائض لا تكون نجسة.

(٣) الزمن: المرض.

يعزّ عليها أن تموت وأنها قضت نَحْبها يوم انقضت زفراتها

* * *

الكلام على قوله تعالى:
﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا... ﴾ (١)

﴿ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾: يوم القضاء بين الخلق ﴿ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴾ لما وعد اللَّه من الثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ أي زُمرًا زمرًا من كل مكان.

السجع على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾:

إن هذا التخويف يُزعج إزعاجًا، وما يرى طبيب التحذير لِعِرْق الخوف اختلاجًا، أأمنتم مكرًا أم ما خفتم استدراجًا، سيثير المرض قبل النُّقلة عجاجًا، فترى المريض قلِقًا عجَّاجًا، أما تراهم يرحلون فرادى وأزواجًا، سينقض الموت قصورًا لكم وأبراجًا، سيطمس التلف شمسًا ويطفئ سراجًا، ستحبس القدم التي كم قطعتْ فِجَاجًا، سيُضْحى الغنيُّ يوم الرحيل محتاجًا سيسلك الموت إلى من قبلكم منهاجًا، لا تعجبوا لدفن العزيز في الأرض فمِنْهاجًا (٢)، وسيخرج من قريب إلى الحساب إخراجًا ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ أي ذات أبواب، وذلك لنزول الملائكة.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ... ﴿٢٠﴾ ﴾ من أماكنها ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ كالسراب لأنها تصير هباء منبثًّا، فيراها الناظر كالسَّراب بعد شدتها وصلابتها.

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن وهب بن مُنبه قال: إذا سيِّرت الجبال فسمعت حسيس النار وتغيُّظها وزفيرها وشهيقها صرخت الجبال كما تصرخ النساء، ثم يرجع أوائلها على أواخرها يدقُّ بعضها بعضًا.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾:

قال المبرد: مرصادًا يُرصدون به، أي هو معدٌّ لهم يَرصد بها خزنتها الكفار. وقال الأزهري، المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو. ثم بيَّن لمن هي مرصاد فقال

---

(١) سورة النبأ: ١٧.

(٢) أصلها: فمنها جاء. فجعلها مقصورة للجناس لكلمة « منهاجًا ».

تعالى: ﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: مرجعًا، ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الأحقاب جمع حِقْب قال ابن قتيبة: الحُقْب الدهر والحِقَب السِّنون واحدتها حِقْبة. ويقال: حُقْب وحُقُب، كما يقال: أُكْل وأُكُل، وأُذْنَ وأُذُن، وعُذْر وعُذُر، وقُفْل وقُفُل. **وبالمراد بالحقب هاهنا ثلاثة أقوال:**

أحدها: الدهر. قاله ابن عباس.

والثاني: ثمانون سنة. قاله عبد الله بن عمر.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بإسناده عن أبي هريرة ﷺ: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ قال: الحُقْب ثمانون سنة [(١)]، اليوم كسائر الدنيا. وقال الفرَّاء: الحقب ثمانون سنة، كلُّ يوم ألف سنة من عدد الدنيا.

والثالث: سبعون ألف سنة.

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد بإسناده عن الحسن ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ قال: لا يعلم ذلك الحُقُب إلا الله تعالى، غير أنه بلغنا أن الحُقْب الواحد سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك السبعين كألف سنة مما تعدون.

والرابع: سبعون سنة. قاله مجاهد.

والخامس: سبع عشر ألف سنة. قاله مقاتل وابن حيان.

والسادس: أنه سنة بلغة قيس. ذكره الفرَّاء.

والسابع: أن الحُقْب عند العرب وقت غير محدود. قاله أبو عُبَيْد.

فإن قال قائل: ما معنى ذكر الأحقاب، وخلودهم لا نفَادَ له؟

فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه لا يدل على غاية؛ لأنه كلما مضى حُقب تبعه حقب. هذا قول ابن قتيبة والجمهور؛ وهذا لأن زمانهم يُتَصَور دخوله تحت العدد وإن لم يكن له غاية. **والثاني:** أن المعنى: أنهم يلبثون فيها أحقابًا ﴿ لَّا يَذُوقُونَ... ﴿٢٤﴾ ﴾ في الأحقاب ﴿ بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾ فأما خلودهم في النار فدائم. هذا قول الزَّجاج. وبيانه: أن الأحقاب حدٌّ لعذابهم بالحميم والغسَّاق [(٢)] فإذا انقضت الأحقاب عُذِبوا بغير ذلك من العذاب.

- **وفي المراد بالبَرْد ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه برد الشراب. روى أبو صالح عن ابن عباس: لا يذوقون فيها برد الشراب ولا الشراب.

---

(١) ش: عامًا.

(٢) الغساق: المنتن.

والثاني: أنه الرَّوْح والراحة. قاله الحسن وعطاء.

والثالث: أنه النوم. قاله مجاهد والسُّدي وأبو عبيدة وابن قتيبة. وأنشدوا:

فإنْ شئت حرَّمت النساء سِوَاكمُ ... وإن شئت لم أطعم نُقاخًا [1] ولا بَرْدَا

قال ابن قتيبة. النُّقاخ: الماء، والبرد: النوم، سمي بذلك لأنه تبرد فيه حرارة العطش.

وقال مقاتل: لا يذوقون فيها بردًا ينفعهم من حرها ولا شرابًا ينفعهم من عطشها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ وقرأ حمزة والكسائي: ﴿غَسَّاقًا﴾ بالتشديد. **والحميم:** الماء الحار. **وفي الغسَّاق أربعة أقوال:**

أحدها: أنه الزمهرير. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ. أخبرنا ابن ناصر بإسناده عن مجاهد قال: الغساق الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده. وبه عن أنس عن أبي العالية قال: الزمهرير.

والثاني: أنه ما يجري من صديد أهل النار. رواه الضحاك عن ابن عباس. وبه قال قتادة وابن زيد. أخبرنا ابن ناصر بإسناده عن ابن إدريس عن أبيه عن عطية ﴿وَغَسَّاقًا﴾ قال: الذي يسيل من جلودهم. قال هنّاد: وحدثنا وكيع عن سفيان عن منصور، عن إبراهيم وابن رزين قالا جميعًا: الغساق الذي يسيل من صديدهم.

والثالث: أن الغسَّاق عين في جهنم يسيل إليها حُمَة كل ذي حُمَة من حيّة أو عقرب أو غيرها فيستنقع فيؤتى بالآدمي فيُغْمس فيها غمسة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويجر لحمه جرَّ الرَّجل ثوبه. قاله كعب.

والرابع: أنه ما يسيل من دموعهم. قاله السُّدي. قال أبو عبيدة: الغساق: ما سال، يقال: غَسقت العينُ والجرح. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن قتيبة قال: لم يكن أبو عبيدة يذهب إلى أن في القرآن شيئًا من غير لغة العرب، وكان يقول: اتفاقٌ يقع بين اللغتين. وكان غيره يزعم أن الغسَّاق البارد المنتن بلغة التُّرك. وقيل: هو من غسق يغسق فعلى هذا يكون عربيًّا.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال بلال بن سعد: لو أن دَلْوًا من الغسّاق وُضِع على الأرض لمات مَنْ عليها.

قال أبو نعيم: وحدثنا سليمان بن أحمد بسنده عن الأوزاعي قال: سمعت بلال بن سعد يقول، وذكر الغسّاق، فقال: لو أن قطرة منه وقعت إلى الأرض لأنتنت بما فيها.

---

(١) النقاخ: الماء البارد العذب الصافي.

قوله تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾:

جزاء وفاقًا لأعمالهم على قدرها، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ **فيه قولان:**

أحدهما: لا يخافون أن يحاسَبوا؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث. قاله الجمهور.

والثاني: لا يرجون جواب حساب؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث. قاله الزَّجاج.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: بما جاء به الأنبياء ﴿ كِذَّابًا ﴾ قال الفراء: الكِذّاب بالتشديد لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذَّبت به كِذَّابًا وخرَّقت القميص خِرَّاقًا وكل « فَعَلْتُ » فمصدره في لغتهم مشدَّد. وقال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني: الحلْقُ أحب إليك أم القِصَّار. وأنشدني بعض بني كلاب:

لقد طال ما ثبَّطتني عن صحابتي وعن حِوَج قِضَّاؤها من شفائيا

وقال أبو عبيدة: الكذاب أشد من الكذب، وهما مصدر المكاذبة قال الأعشى [(١)]:

فصدّقتها وكَذْبتها والمرء يَنْفعه كِذَابُه

قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾:

قال الزَّجاج: المعنى أحصى كل شيء و ﴿ كِتَـٰبًا ﴾ توكيد لأحصيناه؛ لأن معنى أحصيناه وكتبناه فيما يَحْصل ويثبت واحد. والمعنى كتبناه كتابًا. قال المفسرون: وكل شيء من الأعمال أثبتناه في اللوح المحفوظ.

﴿ فَذُوقُوا۟... ﴿٣٠﴾ ﴾ فيقال لهم: ذوقوا جزاء أفعالكم ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ... ﴿٣١﴾ ﴾ الذين لم يشركوا ﴿ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾ قال ابن قتيبة: مفازًا في موضع فوز. قال قتادة: فازوا بأن نجوْا من النار ﴿ حَدَآئِقَ... ﴿٣٢﴾ ﴾ وهي البساتين واحدها حديقة، ﴿ وَكَوَاعِبَ... ﴿٣٣﴾ ﴾ وهنَّ النواهد. قال ابن فارس: يقال: كعبت المرأة كعابة فهي كاعب إذَا نَتَأ ثَدْيها. قال الزجاج: والأتراب اللواتي أسنانهن واحدة وهن في غاية الشباب والحُسْن. وقال مجاهد: أتراب أمثال.

- **قوله تعالى:** ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنها الملأى. رواه أبو صالح عن ابن عباس. وبه قال الحسن وقتادة.

---

(١) ش: قال الشاعر. والبيت لم أجده في ديوان الأعشى، ط صادر، مع أن فيه قصيدة مكانها:

أصرمْتَ حَبْلك من لميس يوم أنْ طال اجتيابه

وهي على القافية نفسها وعلى البحر نفسه.

والثاني: أنها المتتابعة. رواه مجاهد عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جبير. وقال مجاهد: الملاء التباع [١].

والثالث: أنها الصافية قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا... ۝٣٥ ﴾ أي: في الجنة إذا شربوا [٢] ﴿ لَغْوًا... ۝٣٥ ﴾. والمعنى: لا تذهب بعقولهم فَيلْغوا ويَرْفُثوا فيأثموا كما يكون ذلك في خمر الدنيا. ﴿ وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ ﴾ أي: لا يكذب بعضهم بعضًا؛ لأن أهل الدنيا إذا شربوا الخمر تكلموا بالباطل، وأهل الجنة منزهون عن ذلك. قاله الفراء. وقرأ علي ﷺ ﴿ كِذَابًا ﴾ بالتخفيف كأنه والله أعلم لا يتكاذبون فيها.

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ ﴾:

قال الزجاج: المعنى جازاهم بذلك جزاء، وكذلك قال عطاء؛ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد. و ﴿ حِسَابًا ﴾ معناه: ما يكفيهم. تقول: أحْسَبني بالشيء أي: كفاني، ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ... ۝٣٧ ﴾ المعنى: هو رب السموات ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ ﴾ قال ابن السائب: لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ... ۝٣٨ ﴾ **وفيه أربعة أقوال:**

أحدها: أنه ملَك أعظم من جميع المخلوقات، فإذا كان في القيامة قام وحده صفًّا وقامت الملائكة كلهم صفًّا واحدًا. رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أنها أرواح الناس تقوم مع الملائكة فيما بين النفختين، قبل أن تُردَّ إلى الأجساد. رواه عطية عن ابن عباس.

والثالث: أنه جبريل عليه السلام. قاله الشَّعبي وسعيد بن جبير.

والرابع: أنه أشرف الملائكة. قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا... ۝٣٨ ﴾ قال الشَّعبي: هما سِمَاطان؛ سِمَاط من الروح وسماط من الملائكة. وقال ابن قتيبة: يعني قوله صفًّا: صفوفًا.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ... ۝٣٨ ﴾ يعني الخلائق كلهم، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ... ۝٣٨ ﴾ في الكلام، ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ﴾ في الدنيا. قال ابن عباس: والصواب: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد: قال حقًّا في الدنيا وعمل به.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ... ۝٣٩ ﴾ أي: الكائن الواقع بلا شك، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

---

(١) التباع: المتوالية.

(٢) أ: إذا شربوها.

مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: مَرْجِعًا إليه بطاعته.

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا... ﴿٤٠﴾ ﴾ وهو عذاب الآخرة، وكلُّ آتٍ قريب، ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ... ﴿٤٠﴾ ﴾ أي يرى عمله مثبتًا في صحيفته خيرًا كان أو شرًّا، ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾ قال الحسن: إذا جمع اللّٰه الخلائق يوم القيامة، وقضى بين الثَّقلين وأنزلهم منازلهم قال لسائر الخلائق: كونوا ترابًا. فيكونون ترابًا. فحينئذ يقول الكافر: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾. وقال الزَّجاج: يا ليتني لم أُبعث. وذكر بعضهم أن الكافر هاهنا إبليس وكان قد عاب آدم بأن خُلق من تراب، فيتمنى يوم القيامة أنه بمكان آدم فقال: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾.

السجع على قوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾:

إذا لقي الكافر أهوالًا صعابًا، وشاهد النار تَلَهَّبُ التهابًا، وتَلَقَّتهُ سهامٌ ما زِلْن صُيَّابًا قال بلسان الحسرة وقد صار له دابًا ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾.

فَقَد حين حضوره أصحابًا، ورأى ما كان فيه خيالًا سرابًا، واشتد عطشه وقد فقد شرابًا، وسُئِل فما استطاع أن يَرُدَّ جوابًا فينادي وقد أعجزته النَّجاة طِلابًا ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾.

أيها المخالف كم تدَّعى متابا، أما ترى الزمان ينتهب العُمر انتهابًا، كم خرَّب الموت قصرًا ورمى قِبَابًا، كم قد صوَّحت به أغصان كنَّ رِطَابًا، أرايته راقَب لما أتى وصابًا، كم قصم أجسادًا وكم قسَّم أسلابًا، متى تَقْدَم قلوبُ أجسادٍ ما تبرح غُيَّابًا، سنستشهد عليكم غدًا جلدًا وكتابًا، وسيظهر من فضائحكم [1] أمرًا طريفًا عجابًا، ستعلمون [2] من يقرع للحساب والعتاب إذا ناب نابًا، [سيندمون إذا عاينتهم من النار بابًا] [3]. والمحنة العظمى أن صار الغسَّاق شرابًا، وا أسفًا كم وَجْهٍ نَقِيٍّ عاد [4] فيه غرابًا، كم جسم معمور أمسي فيه [5] خرابًا، وكم أذلَّت حين حلَّت فيها رقابًا، ما لي لا أسمع لهذا العتاب جوابًا، ويحك بادِرْ نُصْحًا صحيحًا واترك قبيحًا وعابًا، قبل أن تقول والقلبُ قد ضني والصبر قد فني: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾، [آخر المجلس، اللّٰهم يا من أحصى كل شيء كتابًا، افتحْ لنا من رحمتك أبوابًا، وأنلنا مغفرة منك وثوابًا، واجعل الجنة لنا بابًا، واجعل أحوالنا وأفعالنا صوابًا برحمتك يا أرحم الراحمين] [6]. أيقظنا اللّٰه من الرقدة وأعاننا على ليلة الوحْدة.

* * *

---

(١) أ: أحوالكم. (٢) أ: سيعلمون. (٣) سقطت من أ.
(٤) أ: صار. (٥) ش: فيها. (٦) من ش.

المجلس السادس

في ذم العُجْب والكبر [١] ومدح التواضع

الحمد للَّه الذي يتحيَّر العقل عند أوصافه ويقف، ولا يجوز للعبد حملها على ما أَلِف، المتكلم فمن جملة كلامه أَلِف، ولولا أنه قديم ما وجبت كفارة الحلِف، المعطِّل مجنون والمشبِّه خرف، من شبَّه هلك ومن عطَّل تلف، ما نتعرَّض لتعطيل ولا تشبيه بل مذهبنا خَلَف، ولا نذكر عقيدتكم يا مبتدعة فإنه قد عرف، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [٢].

أحمده على بحار نِعَم منها أغترف، وأُقِرُّ بوحدانيته مخلصًا وأعترف، وأصلي على رسوله محمد ﷺ صلاةَ محب كَلِف، وعلى أبي بكر الذي إذا ذُكر الرافضي ينعرف، وعلى عمر [وقل في فضله فهو فوق ما تصف] [٣] المنصف [المنتصف] [٤]. وعلى عثمان البَرِّ بأهله المنعطف، وعلى عليٍّ الذي لم يلق جمعًا قط إلا كُشف، بحر العلم فلو أخذ الخلق منه ما نُزِف، وعلى عمِّه العباس الذي مهما وصف به فهو فوق ما وصف.

* * *

الكلام على قوله ﷻ:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [٥]

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن عبد اللَّه بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه كان يتعوذ من الشيطان من هَمْزه ونَفْثه ونَفْخه، قال: وهمزه المُوتة، ونفثه الشِّعر ونفخه الكبر [٦].

أخبرنا محمد بن عمر الأرموي بإسناده عن أبي سلمة قال: التقي عبد اللَّه بن عمرو وابن عمر على المروة فنزلا فتحدَّثا، ثم مضَى عبد اللَّه بن عمرو وقعد ابن عمر ﷺ يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا - يعني عبد اللَّه بن عمرو - زعم أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « من كان في قلبه مثقالُ حبةٍ من خردل من كبر كبَّه اللَّه ﷻ في النار على وجهه » [٧].

---

(١) غير ش: في ذكر.

(٢) سورة الذاريات: ٧، ٨.

(٣ ، ٤) سقطت من أ.

(٥) سورة النحل: ٢٣.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده : ٤٠٣/١، والموتة هي الجنون كما في القاموس.

(٧) أخرجه أحمد في المسند : ٢١٥/٢.

وبه عن إياس بن سلمة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لا يزال الرَّجل يذهب بنفسه [١] حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم » [٢].

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة مِنْ كِبْر » [٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « قالت النار: أوثرتُ بالمتكبِّرين والمتجبرين » [٤].

وفيهما من حديث حارثة بن وهب، عن النبي ﷺ أنه قال: « ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ جوَّاظ جَعْظريٍّ مستكبر » [٥].

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يخرج عُنُق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسان ينطق به، فيقول إني وُكلتُ بثلاثة، بكل جبار عنيد، وبكل من ادَّعى مع اللَّه إلهًا آخر، وبالمصورين » [٦].

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يحشر الجبَّارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذرِّ يطأهم الناس لهوانهم على اللَّه ﷻ » [٧].

* * *

واعلم أن الكبر خُلُقٌ باطن تصدر عنه الأعمال، وذلك الخلق هو رؤية النفس فوق المتكبَّر عليه، ويفارقه [٨] العُجْب من جهة أن الكبر لا يُتصوَّر إلا أن يكون هناك من يُتكبَّر عليه، والعُجْب يُتصوَّر ولو لم يكن أحد غير المعجَب، والمتكبر يرى نفسه أعلى من الغير فتحصل له هزة وفرح وركون [٩] إلى ما اعتقده، وذلك نفخ الشيطان، كما ذكرنا أن نفخه الكبرياء، وقد يتكبَّر الإنسان على الخالق فيكفر به ولا يعبده، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ [١٠].

---

(١) أي: يرتفع ويتكبر.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر، باب رقم : ٦١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ١٤٧ - ١٤٩.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب رقم : ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رقم : ٦١. والجواظ: الضخم المختال. والجعظري: الفظ الغليظ.

(٦) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب جهنم، باب رقم : ١. وأحمد في مسنده : ٣٣٦/٢.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القيامة : ٤٧.

(٨) أ: ويقاربه. (٩) أ: ويكون. (١٠) سورة النساء: ١٧٢.

وأما التكبُّر على الخلق [١] **فينقسم إلى قسمين:**

أحدهما: التكبُّر على الرُّسل من جهة ترفُّع النفس عن الانقياد لبشر، وقد يعرف صحَّة قولهم ويمنعه الكبر، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [٢]. وقوله: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [٣].

والقسم الثاني: التكبر على العباد **وهذا عظيم من وجهين:**

- **أحدهما:** أن الكبر والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر، لا بالعبد العاجز؛ فالمتكبر مُنازع للَّه ﷻ صفةً لا تليق إلا بجلاله.

وقد روى مسلم في أفراده من حديث الأغرِّ عن أبي هريرة وأبي سعيد ﵄ أنهما قالا: قال رسول اللَّه ﷺ : « يقول اللَّه ﷻ: العزُّ إزاري، والكبر ردائي، فمن نازعني شيئًا منهما عذَّبته » [٤].

قال الخطابي: المعنى أن الكبرياء والعظمة صفتان للَّه اختُصَّ بهما فلا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق التواضع والذلّ، وضَرب الإزار والرداء مثلًا يقول: كما لا يشرك الإنسان في ردائه وإزاره أحدٌ، فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق.

- **الوجه الثاني:** أن الكبر يدعو إلى مخالفة اللَّه تعالى في أوامره؛ لأن المتكبر يأنف من قبول الحق، وإذا قيل له اتق اللَّه أخذته العزة بالإثم؛ ولهذا قال ﵇: « الكبر بطر الحق وغمط الناس » [٥].

وقد يتكبر العالِم بعلمه فيحتقر الناس ويطلب خدمتهم له، ويرى أنه في الآخرة أعلى منهم، وليس هذا بعالِم حقيقة؛ لأن العلم هو الذي يعرِّف الإنسانَ نفسه ويعلمه حُجَّة اللَّه تعالى عليه فيزيده خوفًا؛ ولهذا قال أبو الدرداء ﵁: من ازداد علمًا ازداد وَجْدًا.

وقد يتكبر العابد بعبادته وربما احتقر الناس. قال الحسن: إن أقوامًا جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعْجَبُ من صاحب المُطْرَف بمطرَفه [٦]، ما لهم تفاقد.

وقد يتكبر صاحب النَّسب، حتى ربما قال لشخص يناديه: من أنت ومن أبوك؟! وينسى أن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم.

وقد يتكبَّر الغني، ولو عرف آفة الغنى وشرف الفقر لم يفعل.

---

(١) ش: الخالق. (٢) سورة النمل: ١٤. (٣) سورة الفرقان: ٢١.

(٤) رواه أحمد في مسنده : ٢/٢٤٨ عن أبي هريرة. (٥) رواه الترمذي في سننه، كتاب البر، باب رقم : ٦٠.

(٦) المطرف: رداء من خز ذو أعلام. والكساء: الثوب.

واعلم أن من أسباب الكبر العُجْب، فإنَّ من أُعجب بشيء تكبر به، وقد يظهر الكبر في شمائل الرجل كصَعر [١] في وجهه وجلوسه متكئًا، ويظهر في مشيته وتبختره كما قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ [٢]، والمطا الظهر فهو يلوي ظهره كبرًا.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « من جرَّ ثوبه خُيلاء لم ينظر اللّه إليه يوم القيامة » [٣]. وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « بينما رجل يمشي في حُلَّة تُعجبه نفسه مُرجَّلٌ رأسُه [٤] خسف اللّه تعالى به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » [٥].

أخبرنا هبة اللّه بن محمد بإسناده عن بسر بن جَحَّاش أن النبي ﷺ بزق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: « يقول اللّه تعالى: يا بن آدم أنَّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوَّيتك وعدَلتك مشيت بين بُردين وللأرض منك وئيد [٦]، فجمعتَ ومنعت، حتى إذا بلغتْ التَّراقي قلت: أتصدق. وأنَّى أوان الصدقة ؟! » [٧].

وقالت عائشة رضي الله عنها: لبستُ مرةً درعًا جديدًا فجعلت أنظر إليه وأتعجب به، فقال أبو بكر: أمَا علمتِ أن العبد إذا داخله العُجب بزينة الدنيا مَقَتهُ ربُّه حتى يفارق تلك الزينة.

قالت: فنزعته فتصدقت به فقال أبو بكر: عسى ذاك أن يكفر عنك.

وكان أحبار بني إسرائيل لا يمشون إلا بالعصا مخافة أن يختال الماشي في مشيته.

أخبرنا أحمد بن أحمد المتوكل بإسناده عن حسين بن جعفر بن سليمان الضبعي قال: سمعت أبي يقول: مرَّ والي البصرة بمالك بن دينار يرفل، فصاح به مالك بن دينار: أقِلَّ من مِشيتك هذه، فهمَّ خَدَمُه به، فقال: دعوه ما أراك تعرفني. فقال له مالك ابن دينار: ومن أعرَف بك مني؟ أما أوَّلك فنطفة مَذِرة [٨]، وأما آخرك فجيفة قذرة، ثم أنت بين ذلك تحمل العَذِرة. فنكَّس الوالي رأسه ثم مضى.

ويظهر كبر المتكبر في حبه قيام الناس له وتعظيمهم إياه، ومن عادته أن لا يمشي إلا ومعه من يمشي خلفه، وقد كان السلف يكرهون هذا، فرأى ابن مسعود ناسًا يتبعونه فقال ارجعوا: فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع، ومن خصاله أنَّه لا يزور أحدًا ويأنف من

---

(١) الصعر: الميل من الكبر. (٢) سورة القيامة: ٣٣.
(٣) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب رقم : ١ - ٥. وصحيح مسلم، كتاب اللباس، حديث رقم : ٤٢، ٤٣.
(٤) أ: جمته. (٥) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم :٥٤.
(٦) الوئيد: الصوت العالي الشديد.
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٤/٢١٠. وابن ماجه في سننه، كتاب الوصايا، باب رقم : ٤.
(٨) المذرة: الفاسدة.

جُلوس فقير إلى جانبه، ولا يتعاطى [١] شغلًا في بيته ولا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته.

ودواء الكبر: أن يعرف نفسه ويعرف ربه، فحينئذ يعرف ذلَّ نفسه وعظمة خالقه، فإنه مخلوق من عَلَقة مُعَرض للجزاء بأعماله، ولا يصلح التعظيم إلا للخالق.

ثم يتكلف التواضع، فقد كان رسول اللَّه ﷺ يأكل على الأرض ويجيب دعوة المملوك، ويرقِّع ثوبه، ويَخْصف نعله.

وقال عليه الصلاة والسلام: « ما تواضع أحد للَّه ﷻ إلا رفعه اللَّه » [٢]، وقال: « ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكَمَة [٣] يمسكانه فإن هو رفع نفسه جبذاها [٤] ثم قالا: اللَّهم ضَعْه، وإن وضع نفسه، قالا: اللَّهم ارفعه ».

وقال الحسن: التواضع أن تخرج من منزلك فلا تلقى أحدًا [٥] إلا رأيت له فضلًا عليك.

وأما العُجْب فقد قال عليه الصلاة والسلام: « ثلاث مهلكات؛ شحٌّ مطاع وهوًى متَّبع وإعجاب المرء بنفسه » [٦]، وقال: « ولو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العُجب » [٧]، وإنما يكون العُجب لاستشعار وَصْف كَمَال، ومن عُجب بعملٍ استعظمه فكأنه يمُنُّ على الخالق بطاعته، وربما ظنَّ أنها قد جعلت له عند اللَّه موضعًا وأنَّه قد استوجب بها، ومن عجب بعمله منعه عُجبه من ازدياد. ولهذا قالوا: عُجب المرء بنفسه أحد حسَّاد [٨] عقله، وما أضر العجب بالمحاسن. وعلة [٩] العجب الجهل المحض، ومن عجب بطاعته مثلًا فما فَهِم أنها بالتوفيق حصلت فهو يجري لها، فإن قال رآني أهلًا لها فوفقني، قيل له: فتلك نعمة من مَنِّه [أيضًا] [١٠]، وإذا كانت الأشياء من فضل اللَّه تعالى فلا وجه للعجب.

* * *

الكلام على البسملة

يا أيها الناظر في عِطْفه ... هل لك أنْ تنظر في القبرِ

(١) أ: ولا يتعاطاه. (٢) أخرجه مسلم والترمذي. الترغيب والترهيب : ٣٢٥/٣.

(٣) الحكمة بفتح الحاء المهملة والكاف: هو ما يجعل في رأس الدابة كاللجام ونحوه والحديث رواه الطبراني والبزار. الترغيب والترهيب : ٣٢٧/٣.

(٤) أ: حدباها. (٥) أ: مسلمًا.

(٦) رواه الطبراني في الأوسط. الترغيب والترهيب : ٢٤٠/٣.

(٧) رواه البزار بإسناد جيد. الترغيب والترهيب : ٣٣٣/٣.

(٨) أ: دليل فساد. (٩) أ: وعلامة. (١٠) من ظ.

حـــتـى تـــراه وتـــرى حـــالـــه ثـــم تـــرى رأيـــك فـــي الكِبْر (١)

مَنْ عرف بداية وجوده لم يتكبَّر، وكيف وعن قليل يموت ويُقبر، ثم يقوم إلى المحشر وقد تبرأ منه المَعْشَر. قال بكر بن عبد اللَّه: إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: سبقني إلى الإيمان والعمل الصالح فهو خيرٌ مني. وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يعظمونك ويصفونك فقل: هذا فضل أخذوا به (٢)، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته.

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن الخالد (٣) بن أيوب قال: كان عابد في (٤) بني إسرائيل في صومعته ستين سنة، وأنَّه أُتي في منامه فقيل له: إن فلانًا الإسكاف خير منك، فلما انتبه قال: رؤيا. ثم سكت، فلما كان من القابلة رأى مثل ذلك في منامه، فلم يزل يرى في منامه مرارًا (٥) حتى تبين له أنه أمر، فنزل من صومعته فأتى الإسكاف فلما رآه الإسكاف قام من عمله وتلقَّاه وجعل يتمسَّح به. فقال له: ما أنزلك من صومعتك ؟ فقال: أنت أنزلتني، أخبرني ما عملك؟ فكأنه كره أن يُخبره، ثم قال: أجعل أعمل النهار فأكتسب فما رزق اللَّه من شيء أتصدَّق بنصفه وآكل مع عيالي النصف الآخر وأصوم النهار. فانطلق من عنده، فلما كان الليل أُتي الراهب أيضًا فقيل له: سله مِمَّ صُفرة وجهه؟ فأتاه فقال: مِمَّ صفرة وجهك؟ فقال: إني رجل لا يكاد يُرفع لي أحدٌ إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار. قال: فإنما فُضِّل عليّ الراهب بازدرائه على نفسه.

ما وجه الكبر (٦) يا مخلوق من أمشاج؟ أما أصلُك ماءٌ منتن رَجراج؟ أما قُلِّبت في أنجاس بين أدراج، أما خرجت إلى الدنيا وأنت إلى القوت محتاج، أما الأقذار حشْو جسمك والدماء في الأوداج، يا مُتناولًا ثمر السلامة وما أدَّى قدر الخَراج، يا منصوحًا وهو على الخلاف واللَّجاج، يا مدعوًّا إلى عذب النجاة وهو يختار من الهلاك الأُجَاج، يا ماشيًا في ظلمة الهوى قد أطفأ السراج، يا من قَرُب رحيلُه انتظر صيحة الإزعاج، ستدخل في فجٍّ من الهمّ لا يشبه الفجاج، وستدرج في ثياب الرَّحيل فيا لَوقْت الإدراج، وستسْكن لحدًا ضيقًا بعد القصور والأبراج، وستحضر يوم الحساب وقد ثار من الغبار عَجاج، وستَعْدم الأعذار يوم السؤال والاحتجاج، يا من لو كانت له أَنفة لثار عزمه في الخير وهاج، ويحك عاتبْ نفسك على تقصيرها، وصوِّر لها حالها في مصيرها، إنها كمُهْر لا بد له من رياضة، على أنه قد أتعب الرَّاضة.

---

(١) أ: تداري بك في الكبرى. (٢) أ: أحدثوه. (٣) أ: الجلد.
(٤) أ: من. (٥) أ: ماذا. (٦) أ: التكبر.

سبحان من قد ركَّب طبعها (١) على حُبِّ الشهوات وسجنها في حبس المُشتبهات، وخلق لها من [رائق] (٢) مقصودها ما يشغلها وجوده عن وجودها فهي تميل إلى مُناها وإن أدَّاها إلى المهالك، لما وضع في طبعها من حُبِّ ذلك، وتنهمك على تحصيل غرضها، وإن أعقبها طول مَرضها، ينسيها عاجل ما يسُرُّ آجلَ ما يضر، ثم إنه لما وضعها على هذه الأحوال وألَّفها، خاطَبها بمخالفة طبعها وكلَّفها، وبيَّن لها طريق الهدى وعرَّفها، ولطف بها في أحوالها وتألَّفها، وذكَّرها من نعمه عليها ما سلَّفها، وحذَّرها من الزلل وخوفها، وضمن لها أنَّها إن جاهدت أسعفها، وإن صبرت على فوات أغراضها أخلفها، وما وعدها شيئًا قط فأخلفها، وأعلمها أنَّ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فلقد (٣) أنصفها، هذا وهي لا تترك هواها ولا تتزود لأخراها، ولا تعتبر بمن سبقها إلى القبور وما كفاها، قد اطمأنت بالإقامة والمُنادِي قد ناداها، ما تأنف من ذنوبها وذُلِّ التَّقصير قد علاها، ولا هي تستعدُّ للرحيل وقد علمت أنه قد بقي القليل، ولا ينذرها سلب الرفيق والخليل، وخطاياها كثيرة، وما تعتذر ولا (٤) تستقيل، تأنس بالإقامة وقد حُدِي بعِيسها، وتعشق التفريط وهو (٥) من كيسها:

وما هـي إلا مِثْـل قـاطـعِ كفِّه ... بكـفٍّ له أخرى وقد صار أجْذَمَا

ويحك لُمْها وقل لها تترك هوًى قد أضلها، وتعتد للسفر فقد أظلها، وتحارب عدوًّا يقصد قتلها، فكم أهلك مثلها قبلها:

يـا نفس مـا لك دون اللَّه مِنْ واقِ ... ومـا عـلـى حدثـان الـدهـر من باقي
يا نفسُ إني وإن أشفقتُ من أجَلي ... لـم يُغْـن من أجَلي حَيْدي وإشفاقِي
إن الـمـنـايا إذا مـا حـان موقـعهـا ... لـم ينـفـعْ الـمرء منـها رُقيةُ الرَّاقي

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ... ﴾ (٦)

لما ذكر هلاك الأمم المكذِّبة؛ كقوم نوح وعاد وثمود وكيف أُخذوا بالعذاب. قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾. فوصفها بالظلم، والمراد أهلها.

---

(١) أ: طبها. (٢) ليست في ظ. (٣) أ: فلهذا.
(٤) أ: وما. (٥) أ: وهي. (٦) سورة هود: ١٠٢.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾:

أين النفوس التي كانت في طلب المعاصي هائمة، أقعدتها محن البلاء بعد أن كانت قائمة، أين عاد وثمود والأمم [١] المتقادمة، بَيْنا هم في خطاياهم إذا بلاياهم قادمة، هجموا على المخالفات فإذا الآفات هاجمة، أُخذُوا على ذنوبهم وأُسروا بعيوبهم المتراكمة، ذهب الفرح وجاء التَّرَح فإذا النفوس واجمة، أصبحت دموعهم إذ تفرقت جموعهم ساجمة، ضاع تدبير آرائهم ولقد كانت حازمة، ما أجود فكرهم لو كانت على الرُّشد عازمة، رُمُوا في اللحود فإذا القبائح والضرائح متلازمة، يا لِأحزانهم، ما أشدَّها ولِغُمومهم المتراكمة ما تَلمَّحوا قط عاقبة، ولا خافوا من خاتمة، انتبهت وقد فات الوقت قلوب نائمة، طلبت زادًا للطريق فأصبحت عادمة، سلَّمهم المالك إلى مالك، فإذا الوجوه ساهمة، ثم احترقت أجسادهم وقد كانت ناعمة، يستغيثون عطشًا وما تسقى حائمة [٢]، مزَّقتهم ألسنُ عِقَاب باتت بالعتاب لائمة، يُسحبون بين الحميم والجحيم كما تُسحب السائمة، إخواني: اغْتنِموا زمان السلامة فما نفس سالمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ ﴾:

اعلم أنَّ أَخَذات الحق ﷻ على ضربين: أخذات [٣] كلية للكليات كالتغريق بالطوفان، وطوفان جزئي كحبس الرطوبات وطغيانها على الأوعية فتورث الورم والاستسقاء فيقتلك في إهابك، وتارة يهيج الرياح الطاغية كريح عاد، والجزئي حبس الرياح في البدن حتى [يقتلك] [٤] بها وعلى هذا ومن [٥] بطشه أن يوقع بعض ما فيك من الأضداد المتنافرة ويُلْقي بين أركانك البأس.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً... ۝١٠٣ ﴾ يعني ما ذكر من عذاب الأمم وأخذهم ﴿ لَءَايَةً ﴾ أي: لعبرة وعظة ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ... ۝١٠٣ ﴾.

إنَّ رفْع الفلك دائرة، وتنوير السماء بالكواكب الزاهرة، فبعضها مقيمة وبعضها سائرة، ومنها مواقيت للسفر [٦] والحاضرة، والقمر يبدو كالجسْرة [٧] الضامرة، ثم يتضاءل للأشعة الباهرة، ثم يَنمْى فيتَّسق دائرة، والشمس تبدو طالعة سافرة، كل ذلك دليل على القدرة القاهرة. ثم إن قَصْر [٨] القياصرة وكَسْر الأكاسرة وتخريب

---

(١) أ: أين.
(٢) الحائمة: العطشى.
(٣) أ: أحداث.
(٤) سقطت من أ.
(٥) أ: وتأمن.
(٦) أ: السفر.
(٧) الجسرة: الناقة العظيمة.
(٨) ظ: إن في قصر.

الديار العامرة دليل على الدار الآخرة، لا بد أن تصبح هذه السماء مائرة، والجبال سائرة، والنجوم متناثرة، وصحائف الأعمال متطايرة، فأهل الجنة في عيشة ناضرة، عيونهم إلى ربهم ناظرة، عليهم سُحب اللذات ماطرة، وديارهم بريح الفوز (١) عاطرة، وأرواحهم بالخلود الدائم متباشرة، وأقداح الوصال جزاء حسن الخصال دائرة. هذا وأقدام العصاة على الصراط عاثرة، والنار عليهم غضبى زافرة، والبلايا عندهم كثيفة متوافرة، فكَمْ بين الفريقين يا أهل القلوب الحاضرة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ... ﴿١٠٣﴾ ﴾

لأن الخلق يحشرون فيه، ويشهده البرُّ والفاجر، وأهل السماء والأرض.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾:

إخواني: بين أيديكم الموت وليس بمردود، والرَّحيل إلى القبور واللَّحود، ثم تُخرجون وحوض النَّدم مورود، وتُبَثّ الخلائق أكثر من رملِ زَرُود (٢)، ويُنصب ميزان العدل ويُردُّ بَهْرج (٣) النقود، فحينئذ يتمنى الموجود عدم الوجود، ويبكي العاصي على فوات المقصود، وتصبح وجوه المذنبين كالليالي السُّود، ويعترف الخاطئ ولا وجه للجحود، فإن جَحد فالجلود عليه شهود، ويتمنى العَوْد وهيهات يَبِس العُود، ويقول: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٤) وباب الرجوع مسدود، وما ينتفع العاصي بقوله: ما أعود، وا أسفًا ما أصعب الهَجْر وما أقتل الصُّدود، البدن مُتعب يوم العرض والجسم مكدود، أسمعتم يا ناقضي العهود، لا تأنسوا بالحلم والعقاب يمشي على رُدود، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾:

أي: لوقت معلوم لا يعلمه إلا اللّه تعالى. ﴿ يَوْمَ يَأْتِ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ ذلك اليوم ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ أي: بإذن اللّه ﷻ؛ فالخلائق ساكتون إلا من أَذِن اللّه تعالى له في الكلام.

---

(١) ظ: النور.

(٢) زرود: جبل رمل، وهو محدد في رسم عالج. معجم ما استعجم: ٦٩٦/١.

(٣) البهرج: الباطل والرديء.

(٤) سورة المؤمنون: ٩٩.

سجع [١] على قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾:

يجمع الخلائق كلهم في صعيد، ويُنادَوْن فيسمع القريب والبعيد، ويَلِين لذلك الهول الصَّلد الشديد، وينطق الكتاب بما جرى لا ينقص ولا يزيد، وترى الأبدان من الهول ترتعد وتَمِيد، ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [٢].

يُحْمل العصاة إلى نار مقامعها حديد، ولهم فيها كل يوم عذاب جديد، كلٌّ منهم محبوس وحده فريد، ممنوع ما يشتهي محجوب عما يريد، يرجون العفو والعفو منهم بعيد، وخَرِس لسان العاصي فلا يُبدي ولا يعيد، هذا وأقوامٌ في راحة وفي عيد، قضوا من فروضنا دَيْنًا فقرَّبناهم إلينا ولدينا مزيد، حكْمٌ نفذ في الخلق حكم به المبدئ المعيد ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الزفير كزفْر الحمار في الصدر وهو أوَّل نهيقه [٣] [والشهيق كشهيق الحمار في الحلق وهو آخر ما يفرغ من نهيقه] [٤]. رواه ابن صالح عن ابن عباس. وبه قال اللغويون.

والثاني: أن الزفير في الحلق والشهيق في الصدر. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال ابن فارس: الشهيق ضدُّ الزَّفير؛ لأن الشهيق ردُّ النَّفَس والزفير إخراج النَّفَس.

والثالث: أن الزفير زفير الحمار، والشهيق شهيق البغال. قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ... ﴿١٠٧﴾ ﴾:

والمراد الدوام: قال ابن الأنباري: للعرب في معنى الدوام [٥] ألفاظ: يقولون لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السموات والأرض، وما اختلفت الدُّرَّة والجِرَّة، وما أطَّت [٦] الإبل. ظنًّا منهم أن هذه الأشياء لا تتغير، فخاطبهم اللَّه تعالى بما يستعملون في كلامهم.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ... ﴿١٠٧﴾ ﴾:

- في الاستثناء المذكور في حقِّ أهل النار سبعة أقوال:

أحدها: أنَّه في حقِّ الموحِّدين الذين يَخرجون بالشفاعة. قاله ابن عباس.

---

(١) ظ: السجع.
(٢) سورة الحج: ٢.
(٣) ظ: أول ما ينهق.
(٤) سقطت من أ.
(٥) ظ: الأبد.
(٦) أطَّت الإبل: أَنَّت تعبًا أو حنينًا.

والثاني: أنه استثناء لا يفعله، تقول: تاللَّه لأضربنك [١] إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك على ضربه. ذكره الفراء. وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس. ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ قال فقد شاء أن يخلدوا فيها. قال الزجاج: وفائدة هذا أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم ولكنَّه أعلمنا أنهم خالدون [فيها] [٢] أبدًا.

والثالث: أنَّ اللَّه تعالى يأمر النار [أن] تأكلهم وتفنيهم، ثم يجدِّد خَلقهم فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال. قاله ابن مسعود.

والرابع: أنَّ إلا بمعنى سِوى، تقول: لو كان معنا رجلٌ إلا زيد. أي سوى زيد، والمعنى: خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة، وهذا اختيار الفراء، قاله ابن قتيبة. ومثله في الكلام أن تقول: لأسكننَّك هذه الدار حولًا إلا ما شئت أي: سوى [ما شئت] [٣] أن أزيدك.

والخامس: أنهم إذا حُشروا وبعثوا فهم في شروط القيامة، فالاستثناء وقع من الخلود بمقدار وقوفهم للحساب؛ فالمعنى [٤]: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا مقدار وقوفهم للمحاسبة. ذكره الزجاج. وقال ابن كيسان: الاستثناء يعود إلى مُكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب. وقال ابن قتيبة: إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك، واستثنى المشيئة من دوام السموات والأرض؛ لأنَّ أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوامهما [٥] في الدنيا لا في الجنة ولا في النار.

والسادس: أن الاستثناء وقع على أنَّ لهم فيها زفيرًا وشهيقًا، تلك المدة إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تذكر، وكذلك أهل الجنة لهم نعيم مما ذُكر ولهم مما لم يذكر ما شاء [٦] ربك. ذكره الزجاج.

والسابع: أن إلا بمعنى كما ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ ﴾ [٧] ذكر الثعالبي [٨].

- وأما الاستثناء في حق أهل الجنة ففيه ستة أقوال:

أحدها: أنه استثناء لا يفعله.

والثاني: أن إلا بمعنى سوى.

والثالث: أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب ولبثهم في القبور.

---

(١) أ: واللَّه لأرضيك. (٢) من ش. (٣) سقطت من أ.
(٤) ظ: والمعنى. (٥) أ، ش: دوامها. (٦) ش: إلا ما شاء.
(٧) سورة النساء: ٢٢. (٨) ش: الثعلبي.

والرابع: أنه بمعنى إلا ما شاء اللَّه أن يزيدهم من النعيم الذي لم يذكر.

والخامس: أن إلا بمعنى كما. وقد سبق شرح هذه الأقوال.

والسادس: أنَّ الاستثناء يرجع إلى لُبْث من لبث (١) في النار من الموحدين ثم أدخل الجنة. قاله ابن عباس والضحاك.

قال ابن قتيبة: فيكون الاستثناء من الخلود مُكث المذنبين في النار، فكأنه قال: إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة.

قوله تعالى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨ ﴾ أي: غير مقطوع.

سَجْع:

يا بعيدًا عن الأحباب، يا مطرودًا عن الجَناب، يا مرميًّا على الباب كالشيء المنبوذ، ويحك تقرَّب (٢) منهم، واعرف من هم (٣)، أترى إنْ أبعدك عنهم فبمن تلوذ؟!

أعماك (٤) هواك، وغرَّتك دنياك، فإن غضب مولاك فبمن تعوذ.

للدنيا وحدها حبك، وفيما يتعلق بها لُبُّك، فإن حضر في الأخرى قلبك ففي الشذوذ.

يا كثير الغفلة والنوم، يا قليل الصلاة والصوم، هيهات سبقك القوم يا منبوذ.

رضي عنهم عالم الغيوب، فأنالهم كلَّ مطلوب، التقى المحبُّ والمحبوب، فتمَّ لهم كل ملذوذ، ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

ما للوعظ فيك أثر، ولا عندك من الزَّجْر خبر، ما أصنع وسهم القدَر بأمر القدر نَفُوذ. واللَّه أعلم.

[الحمد للَّه دائمًا، اللَّهم يا ذا الكرم والجود، اكفنا كلَّ باغٍ وحسود، واجعلنا من الموفين بالعهود، ونوِّر علينا ظلمة اللحود، إنك ذا العطاء الجزيل والمن الجميل، والحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم] (٥).

* * *

---

(١) أ: يلبث.

(٢) أ: أن تقرب.

(٣) أ: عنهم.

(٤) في أ، ظ: قتلك هواك.

(٥) من ش.

المجلس السابع

في ذم الدنيا

الحمد للَّه الذي أعان بفضله الأقدام السَّالكة، وأنقذ برحمته النفوس الهالكة، ذمَّ الدنيا وأعلم [١] أن سيوف غدرها فاتكة [٢]، وأعرض عن أهلها إلا العصبة الناسكة، وكيف نسكن إليها ونوق الرَّحيل باركة، وسيقرع مُحبُّها سِنَّه ندمًا إذا أصبحت سنُّ الزاهد ضاحكة، كم بينك وبينهم يا من نفسه عليها متهالكة، كم بين جواد سابق وكَوْدن في النابِكة [٣]، العمل على تقوى رابعة لا على انبساط بُوران وعاتكة [٤]، سعِد من رأى الدُّنيا فتصبَّر ورضي بوصف أشعث أغبر، وأقبلت عليه بزخرفها فأدبر، ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [٥].

أحمده على الأمور اللذيذة والشائكة، وأقرُّ بوحدانيته إقرار عبد يعرف مالكه، وصلى اللَّه على رسوله محمد صلوات متداركة، وعلى صاحبه أبي بكر الذي تخترص عليه الرافضة الآفكة، وعلى عمر الذي كانت نَفْسُه لِنَفْسِه مالكة، وعلى عثمان منفق الأموال المتداركة، وعلى عليٍّ مجلِّي الكرب المظلمة الحالكة، وعلى عمه العباس الذي نسبه أقرب الأنساب المتشابكة.

قد ورد الشرع بذم الدنيا:

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [٨] الآية وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [٩]، وقال: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [١٠]، وقال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [١١].

---

(١) أ: وأعلمهم.
(٢) ظ: باتكة. والباتكة: القاطعة.
(٣) الكودن: الفرس الهجين. والنابكة: المكان المرتفع.
(٤) بوران وعاتكة من الجواري المغنيات. والعاتكة: المرأة المحمرة من الطيب.
(٥) سورة الأنبياء: ١٠٣.
(٦، ٧) سورة الحديد: ٢٠.
(٨) سورة الكهف: ٤٥.
(٩) سورة آل عمران: ١٤.
(١٠) سورة الزخرف: ٣٥.
(١١) سورة النجم: ٢٩، ٣٠.

فأما الأحاديث والآثار فأخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن المستورِد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليمِّ، فلينظرْ بم ترجع » وأشار بالسبابة [١].

قال أحمد: وحدثنا عفان بإسناده، عن المستورد قال: كنت في ركب مع رسول اللَّه ﷺ؛ إذ مرَّ بسَخْلة ميتة منبوذة، فقال رسول اللَّه ﷺ: « أترون هذه هانت على أهلها؟ » فقالوا: يا رسول اللَّه مِنْ هوانها ألقوها. قال: « فوالذي نفس محمد بيده لَلدُّنيا أهون على اللَّه ﷻ من هذه على أهلها » [٢].

وبه عن محمود بن لبيد أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن اللَّه ﷻ ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما تحمُون مريضكم الطعام والشراب تخافونه [٣] عليه » [٤].

أخبرنا أبو الفتح الكروخي بإسناده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » [٥]، وبه عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لو كانت الدنيا تعدل عند اللَّه جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء » [٦].

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحب دنياه أضرَّ بآخرته ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » [٧].

وروى محمد بن المنكدر عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: « الدنيا ملعونةٌ ملعون ما فيها إلا ما كان له ﷻ منها » [٨].

ووصف علي بن أبي طالب ﷺ الدنيا فقال: دارٌ من صحَّ فيها أمن، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فُتن، في حلالها الحسابُ، وفي حرامها العذاب [٩].

وقال ابن مسعود: الدنيا دار من لا دار له، ولها يَجْمع من لا عقل له. وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ: الدنيا دار ظَعْن ليست بدار إقامة، وإنما أُهْبط إليها آدم عقوبة فاحذرها، فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، تذل من أعزَّها، وتُفْقر من جمعها،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٢٩/٤. ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، حديث رقم : ٥٥. والبخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب رقم : ٢.

(٢) المسند : ٢٢٩/٤.

(٣) أ ، ظ: تخافون.

(٤) المسند : ٤٢٧/٥.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ١. ومسند أحمد : ١٩٧/٣.

(٦) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب رقم : ١٣. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب رقم : ٢.

(٧) مسند أحمد : ٤١٢/٤.

(٨) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب رقم : ١٤.

(٩) ش، ظ: النار.

فكن فيها كالمداوي جراحته يحمي (١) قليلًا مخافة ما يكره طويلًا، فاحذر الدار الغدَّارة التي قد تزينت بخُدَعها، وفتنت (٢) بغرورها فالقلوب عليها والهةٌ، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر.

وكان مالك بن دينار يقول: اتقوا السَّحارة فإنها تسحر قلوب العلماء.

أخبرنا أحمد بن محمد المداري بإسناده عن أبي هريرة قال (٣): « الدنيا مُوْقَفَةٌ (٤) بين السماء والأرض كالشَّن البالي، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يُفنيها: يا رب لم تُبغضُني. لم تُبغضُني، فيقول لها: اسكتي يا لا شيء اسكتي يا لا شيء » (٥).

وبه عن الفضيل قال: تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها ونظرتها فتقول: يا رب اجعلني لأحسَن عبادك دارًا، فيقول: لا أرضاك له أنت لا شيء فكوني هباء منثورًا، فتكون هباء منثورًا.

واعلم أن خلقًا كثيرًا سمعوا ذم الدنيا ولم يفهموا المذموم، وظنُّوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع من المطاعم والمشارب، فأعرضوا عما يصلحهم منها فتخفَّفوا فهلكوا، وقد وضع اللَّه ﷻ في الطِّباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها، ظنًّا منهم أن هذا هو المراد جهلًا بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهِّدين.

واعلم أن الأرض خُلقت مسكنًا وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وقد جعلت المعادن فيها كالخزائن فيها ما يُحتاج إليه، والآدمي محتاج إلى ذلك لصلاح بدنه الذي هو كالناقة للمسافر، فمن تناول ما يصلحه لم يُذَمّ، ومن أخذ فوق الحاجة بكفِّ الشَّرَه وقع الذمُّ لفعله وأضيف إلى الدنيا تجوُّزًا، وليس للشَّره وجه؛ لأنه يخرج إلى الأذى يَشْغل عن طلب الأخرى، فيفوت المقصود ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويبرِّد لها الماء، ويغيِّر عليها ألوان الثياب (٦) وينسى (٧) أن الرُّفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة السباع هو وناقته، ولا وجه للتقصير في تناول الحاجة من الدنيا؛ لأن الناقة لا تقوى على السير (٨) إلا بتناول ما يصلحها. قال علي بن أبي طالب ﷺ: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومَطْلب نُجح لمن سالَم، فيها مساجد اللَّه،

---

(١) ظ: يحصي.
(٢) ش: قتلت.
(٣) في أ، ش: قال رسول اللَّه ﷺ، وما أثبته من ظ.
(٤) ش: موقوفة.
(٥) في ظ: اسكتي يا لا شيء. مرة واحدة.
(٦) كذا في أ، ش. وفي ظ: النبات.
(٧) كذا في ظ، ش. وفي أ: ويتمنى.
(٨) كذا في ش، ظ. وفي أ: المسير.

ومهبط وحيه، ومصلّى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمُّها وقد آذنت ببَيْنها ونعَتْ نفسها وأهلها، ذمَّها قوم غداة الندامة، وحَمِدها (١) آخرون ذكَّرتهم فذكروا ووعظتهم فانتبهوا، فيا أيها الذَّامُّ للدنيا المغترُّ بتغريرها متى استذمَّت إليك؟ بل متى غرتك؟ أبمنازِل آبائك في الثَّرى، أم بمضاجع أمهاتك في البِلى؟ كم رأيت موروثًا، كم علَّلْت بكفَّيك عليلًا، كم مرَّضت بيديك مريضًا تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء، لم تنفعه بشفاعتك ولم تشعفه (٢) بطلبتك، مثلت لك الدنيا غداة مصرعه ومضجعه مَصْرعَك ومَضْجعك.

ثم التفت إلى المقابر وقال: يا أهل الغربة ويا أهل التُّربة، أما الدُّور فقد سُكنت، وأما الأموال فقد اقتُسمتْ، وأما الأزواج فقد نُكحت، فهذا خبر ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم.

ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى.

وإذ (٣) عرفت المذموم من الدنيا فكن قائمًا بالقسط، لا تأخذ فوق ما يُصلحك، ولا تمنع نفسك حظَّها الذي يقيمها. وتلمَّح سير العلماء الفهماء؛ إذ لم يقصِّروا في حق (٤) النفس ولم يعطوها فوق الحق، ولا يُلتفت إلى جهلة المتزهِّدين الذين منعوا النفوس مصالحها، فإنهم إلى الظلم أقرب منهم إلى العدل.

وقد كان سفيان الثوري يَرْفق بنفسه في المطعم، وكان إبراهيم بن أدهم يقول: إذا وجْدنا أكلْنا أكل الرجال، وإذا فقدْنا صبرنا صبر الرجال.

* * *

الكلام على البسملة

سَلِ الأجدَاث عن صُوَر بُلِينا ... وعن خِلَق نعِمْن فصرن طِينَا
وعن ملِك تعزَّز بالأماني ... وكان يظن أن سيعيش حينا
لقد أبت القبور على شفيق ... أتاها أن تفكَّ له رهينا
هي الدنيا تفرِّق كلَّ جمع ... وإن أَلِف القرين بها القرينا

لقد سقت الدنيا أربابها سُمًّا، وأبدلتهم من أفراحهم بها هَمًّا (٥) وأثابتهم من مدحهم لها ذمًّا وقطعت أكبادهم فماتوا عليها غمًّا، فيا مشغولًا بها توقَّع خَطْبًا مُلِمّا، إياك

(١) كذا في ظ، ش. وفي أ: وذمها.
(٢) كذا في أ، وفي ش: تشفه. وفي ظ: تشفعه.
(٣) كذا في أ، ظ. وفي ش: وإذا.
(٤) كذا في أ، وفي ش، ظ: حفظ.
(٥) كذا في أ، ظ. وفي ش: يُتمّا.

والأمل [١]، فإن الأمل إمَّا وإمَّا، بينا هي للمالك مثل الأمَة طمست بصيرته فإذا الكمه [٢]، فبقي في حسرة قد عمَّه العَمه، فبات وأسباب هلاكه محكمة، أغشاه الهوى فما يقرأ من عَبرة ترحمه. قُل لنفسك التي أمست بها مُغرمة: كم نادمت نادمًا ألهته بالمنادمة، حتى سفكت بالمنَى دمه، وهبها [٣] ملأت بالكرَى [٤] عينيه وفمه فَمه؟ لقد أسمعتك بسلب رفيقك الزَّمزمه، إياك وإياها فكم لها ملْحمه، إن البُعد للعاقل عن دار المكر مَكْرُمه:

أبا المنزل الفاني تؤمِّل أن تبقى ... كفاك ما ترجو وتأمله خَرْقَا
رأيت قُوَى الدنيا يزيد انتقاصُها ... ويدعو إلى صَفْو لذاتها [٥] الرَّنْقا
وفي كل يوم مُحْدَث لك فُرْقة ... ترى خطبها خطبًا جليلًا وإن دقَّا
لعمرك ما الدنيا بباقية ولا ... بها أحدٌ يبقى فتطمع أن تبقى

أخبرنا أحمد بن محمد المداري بإسناده عن الحسن قال: بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازةً غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أكثر، نَفِدَ الزاد وخسروا الظَّهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة وأيقنوا بالهلكة، فبيْنا هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حُلَّة يقطر رأسه فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، قال: فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتكم إن هديتكم [٦] إلى ماءٍ رَوَاءٍ [٧] ورياضٍ خُضْر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك أبدًا [٨]، قال: عهودَكم ومواثيقَكم باللَّه. قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم باللَّه لا يعصونه شيئًا. قال: فأوردهم ماءً ورياضًا خضرًا. قال: فمكث [فيهم] [٩] ما شاء اللَّه ثم قال: يا هؤلاء الرحيل. فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرياضكم. قال: فقال: جلُّ القوم وهم أكثرهم: واللَّه ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ قال: وقالت طائفة وهم أقلُّهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم باللَّه لا تعصونه شيئًا؟ وقد صدقكم في أول حديثه، فواللَّه ليصدقنكم في آخره. قال: فراح فيمن [١٠] اتبعه وتخلف بقيتهم، فنذر بهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل [١١].

(١) كذا في ش، ظ. وفي أ: والعمل، محرفة.
(٢) الكمه: العمى.
(٣) ش: هيهات.
(٤) غير « ظ »: بالنهي بالكرى.
(٥) غير ظ: لذاتها، والرنق: الكدر.
(٦) ظ: إن هديتم.
(٧) الماء الرواء: الكثير.
(٨) كذا في أ. وفي ش، ظ: شيئًا.
(٩) ليست في ش، ظ.
(١٠) كذا في أ، ظ. وفي ش: من.
(١١) هذا حديث من مراسيل الحسن البصري، لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة.

أخبرنا عبد الأول بإسناده عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني اللَّه به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العُريان، فالنَّجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مَهْلهم فنجوا، وكذبته طائف منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحق» [1]. (أخرجاه في الصحيحين).

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول في خطبته: أوصيكم بتقوى اللَّه والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تُحبُّون تَرْكها، المبْلية لأجسامكم وإن كنتم تريدون تجديدها، وإنما مثلكم ومثلها كمثل سَفْرٍ سلكوا طريقًا فكأنهم قد قطعوه وأفضَوْا إلى عَلَم [2]، فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية، وكم عسى أن يبقى من له طالب حثيث يطلبه، فلا تجزعوا لبُؤسَها وضرَّائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بنعيمها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه.

أرى الدنيـا لمن هي في يديه وبالًا كلما اكترثْتْ لَديْـهِ
تـهين المكرمين لهـا بصُغْر وتكرم كلَّ من هـانت عليه
إذا استغنيتَ عن شيء فدعْه وخذ ما أنت محتاج إليه

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ...﴾ [3]

المعنى أن الحياة في هذه الدنيا «لعب ولهو» أي: غرور ينقضي عن قليل، وذهب بعض المفسِّرين إلى أن المشار بهذا إلى حال الكافر في دنياه؛ لأن حياته تنقضي على لهو ولعب وتزيّن للدنيا، وتفاخر يُفاخر قرناءه وجيرانه، ويكاثرهم بالأموال والأولاد، فيجمع من غير حلِّه ويتطاول على أولياء اللَّه تعالى بماله وخدمه وولده فينقضي عمره في هذه الأشياء [4].

سجع على قوله تعالى: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾:

عباد اللَّه تدبروا عيوب الدنيا ودعوها، وأيقنوا بقرب فراقها فودِّعوها، وأجمعوا على

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم: ٢٦. (٢) أ، ش: أو أفضوا، والعلم: الجبل.
(٣) سورة الحديد: ٢٠. (٤) كذا في أ، ظ. وفي ش: الدنيا.

تركها فلا تجمعوها، وبالغوا في نقضها فضعْضِعوها، [وضعوها] [١]، فإنها لمكرمها مُهينة ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

أين من جمعها وحَوَاها، أين من خزنها واقتناها، أين من لم يكن له هِمةٌ سواها، طحنَتْهم والله رحاها، وأسلمت وجوههم إلى البلى فمحاها، فعادت النفس اللاهية حزينة ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

كم وعظت فأفصحت، وكم عرَّضت وصرَّحت، وكم أحزنت بعد أن أفرحت، وأضحكت سنًّا ثم أبكت عينًا فأقرحت، فالعجب لاغترار نفسٍ [٢] مسكينة، ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

زخرفها مصقول، مقيمها منقول، محبها مقتول [٣]، ليس للهائم بها معقول، إنها لتقرُّ بالمكر وتقول، ولكن أين العقول الرزينة، ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

[تأمل فعلها بمن شادها، انظر أجرها عند من استفادها، تفكر كيف أفلتت وقتلت صيَّادها، اعلم أنها أمٌّ تأكل أولادها، ألا من أحبَّها وأرادها فليبع أولًا دينه ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾] [٤].

متى سلمتْ لطالب، متى نجتْ براكب، متى خلت من معايب، مرُّها صادق، وحلوها كاذب، جُبلت على الفساد في أصل الطينة، ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

* * *

وقال زيد بن أرقم: استسقى أبو بكر ﷺ يومًا [ماء] [٥]، فأُتي بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه مِنْ فِيه بكى وأبكى من حوله ثم أفاق. فقالوا: ما هاجك على البكاء ؟ فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فجعل يدفع [عنه] [٦] شيئًا ويقول: « إليكِ عنِّي إليكِ عنِّي » ولا أرى معه أحدًا، فقلت: يا رسول الله أراك تدفع عنك شيئًا ولا أرى معك أحدًا. قال: هذه الدنيا تمثلتْ لي بما فيها فقلت لها: إليك عني، فتنحَّت وقالت: أما والله لئن انفلتَّ مني لا ينفلت مني مَنْ بعدك. فخشيت أن تكون قد لحقتني.

عجبٌ أعجبُ من ذي بَصرٍ ... يأمن الدنيا وقد أبْصَرها
إن للمرء قريبًا صَرْعةً ... ينبغي للمرء أن يحذرها [٧]
كم قرون حضرتها قد مضت ... ونسينا بعدها مَحْضرها

---

(١) ليست في ش. (٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: عين.
(٣) كذا في أ، ظ. وفي ش: محقول. (٤) سقطت من أ. (٥) ليست في ظ.
(٦) ش: ولم أر. (٧) ش: أن يذكرها.

صُورٌ كانت أناسًا مثلنا ثم أفناها الذي صوَّرها
إنما الدنيا كفيْء زائلٍ نحمد اللَّه كذا قدَّرها
وهي الدنيا إذا ما أدبرت صيَّرت معروفَها منكَرها

كم قتلت الدنيا أحبابها، كم ختلت بالمكر خُطّابها، غادرت محبها ملقًى صريعًا، وضربته بسوط الفراق ضربًا وجيعًا، وأعدمته ما ملكه جميعًا، عجبًا لمن رأى فعلها بمحبِّها ثم اغترّ، وشاهد غدرها ثم على حبها [١] أصرّ، بينا هو نحو لذاتها يميل، أصبح ملقًى بين أهله كالذليل، يندم على التفريط والدمع يسيل، ويبكي زمنًا مضى بالتسويف والتَّعليل، فاعتبرْ بالراحلين قبل الرحيل واغتنم أيامك فقد بقي القليل:

يا خاطب الدنيا إلى [٢] نفسها إنّ لها في كل يوم خليلْ
تستنكح البَعْلَ وقد وطَّنت في موضعٍ آخر منه بديل
ما أقتَل الدنيا لخطابها تقتلهم قدمًا قتيلًا قتيل
تزودوا للموت زادًا فقد نادى مناديه الرحيلَ الرحيلْ

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن أبي عثمان قال: لما افتتح المسلمون جَوْخَى [٣]، دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال. قال: ورجل يمشي إلى جنب سلمان فقال: يا أبا عبد اللَّه ألا ترى ما فتح اللَّه علينا؟ ألا ترى ما أعطانا اللَّه تعالى؟ فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل حبة حساب [٤].

قال أحمد: وحدثنا مَعْمَر بن سليمان الرَّقي، حدثنا فرات بن سليمان أن أبا الدرداء كان يقول: ويلٌ لكل جمَّاع فاغرٍ فاه كأنه مجنون يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده، لو يستطيع لوصَل الليل بالنهار، ويْله من حساب غليظ وعذاب شديد [٥].

وكان الحسن يقول: لو لم تكن لنا ذنوب نخاف على أنفسنا منها إلا حُبّنا الدنيا لخشينا على أنفسنا [٦]، واللَّه ما أحدٌ من الناس بُسط له دنيا فلم يخف أن يكون قد مُكر به فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها اللَّه ﷻ عن عبد فلم يظن أنه قد خِيرَ له فيها إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه، واللَّه إنْ كان الرجل من أصحاب

---

(١) غير «أ»: على محبتها.
(٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: على.
(٣) جوخى: بلد بالعراق. لم يكن بالعراق عند الفرس كورة تعدل كورة جوخى كان خراجها ثمانين ألف. معجم ما استعجم: ١/٤٠٣.
(٤) كذا في ظ، ش. وفي أ: وعقاب.
(٥) الزهد للإمام أحمد: ص١٤٣.
(٦) الزهد للإمام أحمد بن حنبل: ص ٢٨٣.

محمد ﷺ لَيَيْبَس جلده على عظمه ما بينهما شحم ولا لحم، ويُدعى إلى الدنيا حلالًا فما يقبل منها قليلًا ولا كثيرًا يقول: أخاف أن يفسد عليَّ قلبي، واللَّه لقد أدركْنا أقوامًا وصَحِبْنا طوائف منهم، واللَّه لَهُمْ كانوا أزهد في الحلال منكم في الحرام:

ما لِبَنِي الدنيا … غدَوا أهلَ ضلالٍ وعَمَهْ
بَصِيرهم مِنْ جهله … كأنه حِلْف كَمَهْ [1]
كن عابدًا مجتهدًا … فذاك رأي الحزَمَهْ
أنت مقيمٌ سائر … فلا تقل لِمْ ولِمَهْ
وما يدوم للفتى … شؤونه المنتظمهْ
فلا تكلَّم أبدًا … في غير برٍّ كَلِمَهْ
وكل معطى مهلٍ … أوقاته منصرمهْ
يأتي على الأرض مدى … وما عليها نَسَمهْ
ضاق رحيب العمر عن … حاجاتنا المزدحمهْ

قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ... ﴿٢٠﴾﴾:

وهذه صفة من يطلب الدنيا للدنيا لا للدين ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ ...﴿٢٠﴾﴾ أي: يَيْبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا... ﴿٢٠﴾﴾ بعد خضرته وريِّه، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ... ﴿٢٠﴾﴾ أي: يتحطم ويتكسَّر بعد يُبْسه، فهذه صفة الدنيا. بَيْنا نظيرها يُسرُّ إذْ هَلك، وبينا مالكها قد عزَّ أُخرج مما ملك، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ... ﴿٢٠﴾﴾ لأعداء اللَّه تعالى، ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ... ﴿٢٠﴾﴾ لأوليائه، ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

- الدنيا تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام:

قال يونس بن عُبيد: ما شبَّهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يَكْره وما يحب ثم انتبه:

أرى عِللَ الأشياء شتَّى ولا أرى [2] التـ … ـجمُّع إلا علَّةَ للتفرُّق
فلا تُتبع الماضي سؤالك كم مَضى … وعرِّج على الباقي فسائله [3] كم بَقي [4]

(١) الكَمَهْ: العمى.
(٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: ولن أرى.
(٣) كذا في ظ، ش. وفي أ: وسله.
(٤) كذا في ش. وفي أ: لم بقي.

ولـم أر كـالـدنيا حليلة وامقٍ [١] محبٌّ متـى تَحْسـن بعينيه تَطْلُقِ

أخبرنا أحمد بن محمد المداري بإسناده عن ليث أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كلِّ زينة، فقال لها: كم تزوجتِ؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكُلُّهم مات عنك أو كُلُّهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلتُ. فقال عيسى: بؤسًا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بالماضين؟!

[قال القرشي، وحدثنا محمد بن علي بن شفيق بسنده] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوَّه خَلْقها، فتشرف على الخلائق، فيقال لهم: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ باللَّه من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تناحرْتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم تُقذف في جهنم فتنادِي: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول اللَّه عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها:

وصحبـتَ من دنياك أخبث جارةٍ من الأنام فهل ملكتَ جوارها
ما ترتجي عُربٌ لديها أهلكت قحطانها ومعـدَّها ونِزارها
وقَذَتْ ظُبَاها جُمْلها ولَمِيسها ورَبابها وقَطَامها ونَوارَها [٢]
فإذا أنالَك ذو الجلالـة ناقةً فاحذر بجُهدك أن تكون قَدَارها [٣]
تُب أيها العاصي فتوبة مُخْلصٍ تمحو الذنوب كبارها وصغارها

واعجبًا لمن عرف الدنيا ثم مال إليها، ورأى غدرها بأهلها ثم عوَّل عليها.

استغفر اللَّه الذي لم تزل أفعاله في خلقه معجباتْ
قرنٌ مضى ثم نمى غيره كأنه في كل عام نبات
أقلُّ من في الأرض مستيقظ وإنما أكثرهم في سبات
لا تعتب الأيام في صرفها فليس أيامك بالمعتبات
حول خصيب إثره مجذب فاذخر من المخصب للمجدبات

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾:

لقد وعظتك الدهور [٤] بمرور الأيام والشهور، ورأيت الحُزْن عُقَيْب السرور، وعلمت

---

(١) الوامق: المحب.

(٢) وقذت: أصابت وأهلكت. والظبا: حد السيف. وجُمْل ولَميس وبقية الأسماء: كناية عن النساء.

(٣) قدار بن سالف: عاقر الناقة.

(٤) كذا في أ، ش. وفي ظ: وعظك اللَّه بمر الأيام.

أن الزمان بأهله عَثُور، وتيقَّنت أن آخر الأمر القبور، وستخرج من القصور إلى [١] القبور، فإلام هذا التكاسل والفتور، وقد علمت أن العامل بالتقى مشكور، كم خُسفت في الأرض بدور، وكم خَلَتْ من أهاليها دور، أعَمِيتْ العيون أم هي عُور، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [٢].

احذروا من الدنيا فإنّ حُسْن الدنيا زور، إنها لتودِّع من أول ما تزور، إنما هي قنطرة للعبور ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

[آخر المجلس، والحمد للَّه دائمًا، اللَّهم يا مدبر الأمور، يا عالمًا بذات الصدور، خِرْ لنا في جميع الأمور، واكفنا كل محذور، وأدم لنا في الدنيا والآخرة السرور، إنك أنت الغفور الشكور الرشيد الصبور] [٣].

* * *

* *

*

---

(١) غير أ: على.   (٢) سورة الحج: ٤٦.   (٣) من ظ.

المجلس الثامن

في ذم البخل

الحمد للَّه عالم الأسرار المكنونة، ومُخْرج البذور المدفونة، أمر بالجد وضَمِن المعونة، ونبَّه على عيب الدنيا فافتضحت الخؤونة، وحث على سفر الزهد وخفَّف المؤونة، اختار قومًا لحبه فلا يرضون [١] دونه، كلماته مسموعة في الصحف مصونة، احذر طريق البدع فإنها مَسْبعة [٢] غير مأمونة، هذه أمانة أدَّيتها كانت عندي مخزونة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [٣].

أحمده ما شرب غُصْن وسقى غُصونه، وأقرُّ بوحدانيته إقرار موقن لا يستعمل ظنونه، وأصلي على رسوله محمد أسمع القِمْري لحونه وعلى أبي بكر رفيقه سفرًا وحضرًا والرافضة مجنونة، وعلى عمر الذي أصبحت به الأكاسرة موهونة، وعلى عثمان الذي أخرج للَّه أمواله المخزونة، وعلى عليٍّ الذي محبته بقلوب أهل السنة معجونة، وعلى عمِّه العباس مقدم آله، ألستم في الصلاة تذكرونه؟

* * *

قد ذم اللَّه تعالى البخل فقال ﷻ:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ ﴾ [٤]

روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن، البخل وسوء الخلق، وإنّ أحدكم ليسألني المسألة فأعطيها إياه فيخرج بها متأبطها، وما هي له إلا نار ». فقال عمر ﷺ: يا رسول اللَّه فلم تعطيهم؟ قال: « إنهم يأبون إلا أن يسألوني ويَأْبى اللَّه لي البُخل » [٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يجتمع الشُّح والإيمان في قلب عبد أبدًا » [٦].

وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « اللَّهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل » [٧].

---

(١) ش: فلم ترض.
(٢) المسبعة: الموضع الذي تكثر فيه السباع.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٧.
(٤) سورة آل عمران: ١٨٠.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده : ٣/٤ - ١٦.
(٦) مسند أحمد : ٢/٢٥٦ - ٣٤٠.
(٧) صحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٤٩ - ٥١.

وفي أفراده من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: « اتقوا الشح فإن الشحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا (١) دماءهم واستحلوا (٢) محارمهم » (٣).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللّه ﷺ: « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » (٤).

وروى جابر بن عبد اللّه عن النبي ﷺ أنه قال: « وأيُّ داء أدْوَأ من البخل » (٥).

وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: « السَّخِيُّ الجهول أحبُّ إلى اللّه تعالى من العابد البخيل » (٦).

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: « ما طلعتْ شمسٌ قط إلا بعث اللّه تعالى بجنبيها ملكين يناديان يُسمعان الخلائق كلهم غير الثَّقلين، اللّهم عجِّل لمُنْفقٍ خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا » (٧).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إن اللّه تعالى غرس جنَّة عدن بيده وزخرفها وقال: وعزَّتي وجلالي لا جاورني فيك بخيل » (٨).

يُدمِّث (٩) المرء في الدنيا لمضجعه وفي الحِمام تساوي الحَزْن والدَّمِثُ
يضنُّ بالمال مجبول على بُخل وإنما هو مخزونٌ لمن يَرِثُ

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إذا مات السَّخيُّ قالت الأرض والحفظة: رب تجاوزْ عن عبدك بسخائه في الدنيا. وإذا مات البخيل قالت: اللّهم احْجب هذا العبد عن الجنة كما حجب عبادك عما جَعَلْتَ في يديه من الدنيا.

وقالت أخت عمر بن عبد العزيز أمُّ البنين: إن البخل لو كان قميصًا ما لبسته، أو طريقًا ما سلكته.

وقال أبو حنيفة: لا أرى أن أُعدِّل (١٠) بخيلًا؛ لأن البخل يحمله على الاستقصاء

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: يسفكوا. (٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: يستحلوا.
(٣) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم: ٥٦.
(٤) رواه الطبراني وإسناده محتمل للتحسين ومتنه غريب. الترغيب والترهيب: ٤/٧١.
(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب رقم: ٧١.
(٦) الترغيب والترهيب: ٣/٢٤٠، وقال: رواه الترمذي.
(٧) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم: ٢٧.
(٨) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، الترغيب والترهيب: ٣/٢٤٠.
(٩) يدمث: يلين. والدمث: الليِّن ضد الحَزْن. (١٠) أي يحكم بعدالته وصلاحيته للشهادة.

فيأخذ فوق حقه خيفة أن يُغْبن.

وقال ابن المعتز: أَبْخل الناس بماله أَجْوَدهم بعرضه.

وذمَّ أعرابيٌ قومًا فقال: يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش. .

فإن قيل: فما البخل المذموم؟

فالجواب: أن قومًا حدُّوه بمنع الواجب، وإنما أرادوا البخل الذي تقع عليه العقوبة، ومن أدَّى الواجب سَلِم من العقوبة إلا أنه لا يخرج عن اسم بخيل إذا ضايق في لقمة وتمرة، وإنما يزول اسم البخل (١) باستعمال الواجب في الشَّرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل، وهو ترك الاستقصاء في المحقَّرات، فإذا بذَل ذلك زال عنه اسم البخل، ولكن لا يسمى جوادًا إلا من بذل ما لا يلام (٢) في العادة بمنعه.

ثم للجود درجات بعضها أعلى من بعض، إلا أنها مفتقرة إلى أن تكون بطيب نفس لا على طمع في مكافأة أو شكر. وإنما الجواد الباذل بلا طلب عوض.

فإن قيل: فهل البخل والشُّحُ واحد؟

فالجواب: أنه يُعبر بهذا عن هذا، وقد قال الخطابي: الشُّح أبلغ، فهو بمنزلة الجنس، والبُخل بمنزلة النَّوع، والبخل في أفراد الأمور، والشح عام، وهو كالوصف اللازم من حيث الطبع. قال: وقال بعضهم: البخل أن يبخل بماله، والشح: أن يبخل بماله ومعروفه، ولما كان جمع المال يولد البخل في الأغلب عند الجامع حذِّر منه.

فروى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: « ما ذئبان ضاريان جائعان أُرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » (٣).

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « هم الأخسرون وربِّ الكعبة ».

قلت من هم: قال: « الأكثرون إلا من قال في عباد اللَّه هكذا وهكذا » (٤).

وقد مدح المال في أحاديث فقال عليه الصلاة والسلام: « ونعم المال الصالح للمرء الصالح » (٥).

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال مِنْ حِلِّه يكفُّ به وجهه عن

---

(١) ظ: البخيل. (٢) كذا في أ، ش. وفي ظ: ما يلام.

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب رقم : ٤٣.

(٤) سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب رقم : ١. (٥) مسند أحمد : ١٩٧/٤.

الناس ويَصِل منه رَحِمه ويعطي منه حقَّه.

قال أبو إسحاق السَّبيعي: كانوا يرون السَّعة عونًا على الدين.

وقال سفيان: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وليس بين هذه الأحاديث والتي قبلها تنافٍ، فإن المال سبب لحفظ البدن فلهذا مدح، ولما خيفت فتنته حذَّر منه؛ لأن الطِّباع تميل إلى جمعه وتكره إخراجه، وربما دعا [١] إلى التنعُّم فآثر البطالة وألهي جامعه عن أعمال الآخرة [٢]؛ خصوصًا إن كان حريصًا، فيتجدد في الأغلب من ذلك شر، فمن سَلِم في كسبه ولم يتوقف في أداء الحق منه والتذَّ بالإعطاء فوق ما يلزم، لم يضرَّه جمع المال، وقلَّ أن يصحَّ هذا ويسلم لشخص، ولو صحَّ فلا بد من صرف الفكر إليه، وذلك أمر قد سلم منه الفقير؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: « اللَّهم اجعل رزق آل محمد قوتًا » [٣] وقال: « قد أفلح من أسلم ورُزِق كَفَافًا وقنَّعه اللَّه ﷻ بما آتاه » [٤].

فهذا الطريق السَّليم وغيره خطر، وقد كان خَلْق كثير يتلذذون بإعطاء المال وأفعال الخير والمعروف.

ففي الصحيحين عن رسول اللَّه ﷺ: أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وما سئل شيئًا قط فقال لا [٥].

قال طلحة بن عُبَيْد اللَّه يومًا: عندي مالٌ قد غمَّني. فقسمه وكان أربعمائة ألف درهم.

وأُتيت عائشة رضي الله عنها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم فقسَّمته بين الناس وأفطرت على خبز وزيت، فقالت لها امرأة: أمَا استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكَّرتيني لفعلت.

واشترى عبد اللَّه بن عامر من خالد بن عقبة داره بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال: ما لهؤلاء؟ قال: يبكون على دارهم. قال: يا غلام ائتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا!

وبعث رجل إلى عبد اللَّه بن أبي بكرة يقول: إنه قد وصِف لي لبن البقر فابعث إليَّ بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه سبعمائة [٦] بقرة ورُعاتها وقال: القرية التي كانت ترعى فيها لك.

---

(١) ش: عاد.　(٢) ش: الخير.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ١٧. وصحيح مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم : ١٧، ١٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده : ١٩/٦.　(٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب رقم : ٧.

(٦) ظ: بسبعمائة.

ودخل عليُّ بن الحسين عليه السلام على محمد بن أسامة (١) بن زيد في مرضه فجعل يبكي فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دين. قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، أو بضعه عشر ألف دينار. قال: فهي عليَّ.

وقال عبد اللَّه بن مَسْلمة: سأل رجل في مسجدنا وللمسجد بابان، فقام رجل منا فقال: من خرج من هذا الباب فعليه خمسمائة درهم، ومن خرج من هذا الباب فعليه ثلاثمائة درهم، فازدحم الناس على باب الخمسمائة.

- **وقد كان فيهم من يؤثر بقوته ويبيت طاويًا.**

أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر بإسنادهما عن ابن الأعرابي قال: استُشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأُتوا بماء وهم صَرْعى فتدافعوه ولم يذوقوه، أُتي عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل ينظر إليه فقال: ابدأوا به. فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدأوا بذا. فماتوا كلهم (٢) قبل أن يشربوا، فمرَّ بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم.

وأخبار الكرماء كثيرة، غير أن اللَّه تعالى **خلق البخلاء أضدادًا لهم.**

كان الحُباحب من العرب بخيلًا، لا يوقد نارًا بليل كراهية أن يراها من ينتفع بضوئها!.

ونحن نُنزه وقتنا عن ذكرهم، **والمحمود في هذا الزمان** أن يهتم من يريد الخير بتحصيل المال من حِلِّه ويقدِّر في النفقة، ويحبس لنفسه ما يجمع همَّه، فإنه زمان إذا احتاج فيه المتعبد بذَلَ دينه ولم يُعْطَ له ثمنًا لو تشتَّت (٣) همه.

وقد كان يصل إلى أهل الخير ما يجمع همومهم (٤) من وجوه الخير فسُدَّت، وقد كان سفيان الثَّوري يقلب دنانيره ويقول: لولاك لَتمَنْدلوا بي (٥).

ومثل هذا الجمع لصيانة الدين لا يسمى بُخْلًا واللَّه الموفق.

* * *

الكلام على البسملة

مات الكرام ومرُّوا وانقضوا ومضَوْا ... ومات مِنْ بَعْدهم تلك الكراماتُ

وخلَّفونيَ في قوم ذوي سَفهٍ ... لو أبْصَروا طَيْف ضيف في الكَرَى ماتوا

(١) في «ظ»: محمد بن زيد بن أسامة.

(٢) كذا في ظ، ش. وفي أ: جميعًا.

(٣) كذا في أ، ظ. ومن ش: فيتشتَّت.

(٤) كذا في أ، ظ. وفي ش: همَّهم.

(٥) كذا في أ، ظ. وفي ش: لتمندلوني. وتمندل: تمسَّح.

جاء شاعر إلى مَعْن [١] فلم يصل إليه، فكتب بيتًا على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل إلى بستان معن، فلما رأى الخشبة أخذها وإذا عليها مكتوب:

أيا جُود مَعْن نـاجِ مَعْنًا بحاجتي فمالي إلى مَعْن سِوَاك شفيعُ

فقال: من صاحب هذه؟ فدعي الرجل. فقال: كيف قلت؟ فقال. فأمر له بعشر بِدَر فأخذها، ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت بساطه وقرأ ما عليها ودعا الرجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلما أخذها خرج عن البلد خوفًا أن تُسْتعاد منه، فلما كان في اليوم [٢] الثالث طُلِب فلم يوجد فقال معن: حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار!

يا بخيلًا بماله، ملتفتًا عن تصحيح أعماله، سيؤخذ منك الكُلُّ وتُسأل عن الكلِّ، أُفٍّ لثياب أحرار على عَبيد الأنفس، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر، تالله إن نعمة البخيل كَروْضة في مَزْبلة، إن البخيل خازن الورثة.

جبانٌ عن الإنفاق والمال وافرٌ وربَّ سلاحٍ عند من لا يقاتلُ

عُرضت على نبيِّنا ﷺ بَطْحَاء مكة ذهبًا فأبى، وجيء بمفاتيح خزائن الأرض فردَّها بيد الزهد، لمَّا علم أن الشَّره آذى أباه أباه، وكان يجود بما يجد، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، أطْيب العيش عيش القُنُوع، وألذ المطاعم طعم القُنُوع، وأشقى الخلائق الحريص الجَمُوع، لا يلتذُّ بالخير وهو بالخير مَنُوع:

صحَّة جسم وأمن سِرْب [٣] مُلْكٌ لراضٍ بما يفوت
فاعمل لبيتٍ إليه تُلْقي أشخاص سُكانها التَّبُوت [٤]
ركلْ قليلًا ونم قريرًا فالرزق ما عشت لا يفوت
فجلَّ حظ الملوك مما تملَّكوا مَلْبسٌ وقوتُ
يا عجبًا لابتسام حيٍّ مُسْتيقن أنه يموت

إخواني: قد نطقت الغِيَر بالعِبَر، وقد خَبَر الأمر مَنْ عنده خبر، وإنما [٥] ينفع البصر ذا بصر، فاعجبوا للبخيل وعمره في قصر:

أنِسَ الناسُ بالغِيَر وتعاموا عن العِبَر

---

(١) هو معن بن زائدة بن عبد الله من أجواد العرب. (٢) ظ: فلما كان اليوم.
(٣) السرب: الطريق والبال والنفس. (٤) التبوت: التابوت وهو ما يحمل عليه الميت.
(٥) كذا في أ، ظ. وفي ش: فإنما.

لـيـس بـاق إلا كَـفَـان | فـكـونـوا عـلـى حـذر
يـا ضجيع البِلَـى عـلـى | فُـرش (١) الـصـخـر والـمـدَر
أيـن جَـمْـع (٢) الأمـوال | والـخـتـم والـخَنْق لـلـبِـدَر
ودؤوب تـخـفـى الـبـرا | ذيـن بـالـلـيـل والـبُـكـر
ثـم قـد صـرت أعْـظُـمًا | فـي حـفـيـر من الـحُـفَر
وتـزودتْ مـأثـمًا | وإلـى ربـك الـسَّـفَـر

كان الأوزاعي يقول: بادرْ فقد أُتيتَ من كل جانب، ولا تجعل بقية عُمرك الدنيا (٣) حسبُك ما بلغك منها، فأنت في سفر، الموت يُسْرع بك نائمًا ويقظان (٤)، واذكر سهر أهل النار في النار؟

كان بعض الحكماء يقول: الدنيا أمثال تضر بها الأيام للأنام وبحبِّ الدنيا صُمَّت الأسماع عن المواعظ، وا عجبًا! هذه الدنيا تبغِّض إلينا نفسها ونحن نحبها، فكيف لو تحبَّبَتْ إلينا ما أحثَّ السائق لو شَعَر الخلائق، يا ابن آدم ما فرحت بما يفنى إلا بعد أن نسيت ما يبقى:

لا تـرجـعـنَّ عـلـى الـدنيا بلائمة | فغدرها لك بادٍ فـي مسـاويـهـا
لـم يبـق من عيبها شيء لصاحبها | إلا وقـد بـيـنـتْـه فـي مـعـانـيـهـا
فـمـا يـزيـدهـمُ قـتل الذي قتلتْ | ولا الـعـداوة إلا رغـبـة فـيـهـا

سيقسِّم مالك مَنْ لا يَحمَدُك، وسَنْقدَم على من لا يعذرك، كم ناداك الوعظ (٥)، وما تسمع، كم أعطاك مولاك وما تقنع، لقد استقْرض مالَكَ فمالَكَ تجمع، وضمن لك أن تُنبت الحبة سبعمائة وما تزرع، أيها البخيل بالبعض ستجود عند الموت بالكل، لا تكن كالإبرة تكْسُو غيرها وهي عريانة، ولا كالذُّبالة تضيء للغير وهي تحترق، ولا كالبخور ينفع سواه بما يضرُّ نفسه، يا حريصًا حِرْصُه قد أهلكه، كم جامع مانع تَرَكه تركة، أصبحت فيه أيدي أعاديه مشتركة، أخرجه واللَّه مالكه عمَّا ملَّكه (٦)، فاقنع باليسير فكم هذه الحركة.

ألـم تـر الـبـحـرَ والـصـياد منتصبًا | فـي ليله ونـجـومُ الـليل مشتبكه

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: فراش.
(٢) ش: أين من جمع.
(٣) كذا في أ، ظ. وفي ش: للدنيا.
(٤) كذا في أ، ظ. وفي ش: يقظانًا.
(٥) كذا في أ، ظ. وفي ش: الواعظ.
(٦) كذا في أ، ش. وفي ظ: ملكه عما الموت ملكه.

قد ضم أطرافه والموج يضرب به وعينه بين عينَيْ كَلْكل الشَّبكه
حتى إذا راح مسرورًا بُبْغيته تناول الغيرُ منه كلَّ ما ملَكهْ
فاعجبْ لساعٍ ولما يُغْنه طلبٌ هذا يصيد وهذا يأكل السمكة [١]

إن أُعطِيت بَخِلتَ بالمال وبطرت، وإن نبت ريش رياشك نبت. بك أرض الشُّكر فَطِرَتْ، كيف بك يوم ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ﴾ [٢] من لك حين توبيخ ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾ [٣]:

تـرمِّم المال وبالعِرْض ثُلَمْ لا سَلِم المالُ إذا العرض سَلِمْ
قد كنتُ ناديتُك والأمر أَمَمْ [٤] فلم تُطعني رُبَّ رأيٍ مُتَّهم
سَمعك واعٍ وبعقلك الصَّمم موارد الجهل مصادر الندم

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [٥]

في معنى هذا العهد قولان:

أحدهما: أنه ما عاهدهم عليه حين استخرجهم من ظهر آدم.

والثاني: ما أمرَهم به وفرضَه عليهم.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾:

أظهروا للخلائق الأخلاق، ورضُوا من اللباس بين الناس الأخلاق، قنعوا باليسير من الأرزاق، آثروا الفقر واختاروا الإملاق، وتواضعوا فذلَّت منهم الأعناق، فإذا جنَّ الليل ومُدَّ الرواق [٦] تحزموا للجد وشدُّوا النطاق، وشمَّر حاديهم لصوت مُناديهم وساق، فانبرت تجري جرى الريح تلك النِّياق، فحركهم للاستباق الاشتياق، فتوافقوا [٧] ثم تسابقوا السِّباق، فنسي لسبقهم سبق الخيل العتاق، وإذا أقبل النهار حرَّم الصيام الـذَّواق، وإذا لاحت نظرة غَضُّوا الأحداق، وإن نزل بلاء صابَروا ضيق الخناق،

---

(١) هذه الأبيات مروية بأطول من هذا في كتاب ألف ليلة وليلة.
(٢ ، ٣) سورة التوبة: ٣٥. (٤) الأمم: القريب. (٥) سورة الرعد: ٢٠.
(٦) الرواق: مقدَّم الليل. (٧) كذا في ش. وفي ظ: فترافقوا.

كم حاربوا الهوى بمهندات العَزْم الرِّقاق، عيشهم متنغِّص [١] كلما ذكروا الفراق، كفَّت أكفُّهم وعفت بذكر ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ [٢].

تأَملْ وجوههم فما أحسن ذاك الإشراق، أذكارهم لإخلاصهم قد ملأت الآفاق، ما يقيمون ناموسًا بل يمشون في الأسواق، أخلصوا فتخلَّصوا ما للنِّفاق نَفَاق، هذا وما منهم إلا سكران الحب ما أفاق، يشتاقون إلى الحبيب وهو إليهم بالأشواق، مَنْ هم قل لنا يا واعظ العراق؟.. ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ... ﴿٢١﴾ ﴾

فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الرَّحم والقرابة. قاله قتادة والسُّدي.

والثاني: أنه ما أمر اللَّه تعالى به من الإيمان بالنبيين. قاله ابن عباس.

والثالث: أنه الذي أمر اللَّه به أن يوصل هو رسوله محمد ﷺ وصَلُوه بالإيمان. قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾: **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه المناقشة على الأعمال. قاله ابن عباس. وقال إبراهيم النَّخعي: هو أن يحاسب العبد بذنبه كُلِّه لا يغفر له منه شيء.

والثاني: أنَّه لا يقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة.

والثالث: أنه التوبيخ والتَّقريع عند الحساب.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: على ما أمروا به ﴿ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: طلبًا لرضاه ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ... ﴿٢٢﴾ ﴾ لوقتها ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ... ﴿٢٢﴾ ﴾ من الأموال في طاعة اللَّه تعالى.

قال ابن عباس: يريد بالصلاة الصلوات الخمس، وبالإنفاق الزكاة.

قوله تعالى: ﴿ وَيَدۡرَأُون ﴾ أي: يدفعون، **وفي المراد بالحسنة والسيئة خمسة أقوال:**

أحدها: يدفعون بالعمل الصالح الشرَّ من العمل، قاله ابن عباس.

---

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: مُنغَّصٌ.

(٢) سورة القيامة: ٢٩.

والثاني: يدفعون بالمعروف المنكر. قاله سعيد بن جبير.

والثالث: يدفعون بالعفو الظلم، قاله جويير.

والرابع: بالحلم السَّفه كأنهم [١] إذا سُفه عليهم حلُموا، قاله ابن قتيبة.

والخامس: بالتوبة الذنْبَ. قاله ابن كَيْسان.

* * *

قوله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قال ابن عباس ﷺ. يريد عقباهم الجنة أي: تصير الجنة آخر أمرهم.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: جنات إقامة، ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ... ﴿٢٣﴾ ﴾ وذلك أن اللَّه تعالى يُلْحق بالمؤمن أهْلَه المؤمنين إكرامًا لتقر عينه بهم، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قال ابن عباس ﷺ بالتحية من اللَّه تعالى والتُّحَف والهدايا.

سجع على قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ... ﴿٢٤﴾ ﴾:

صبروا في الدنيا عن كل محبوب، صبروا على كل بلاءٍ مَرْهوب، صبروا على لذَّات توجب العيوب، فنالوا كل مراد وكل مطلوب. عرفتم الدنيا حقَّ العرفان وخَبَرْتم، ونظرتم إلى باطن مكرها وسترتُم، فنهيتُم النفوس عنها وزَبرْتم [٢]، وعرفتم [٣] أنها قنطرة فعَبَرْتُم، ودفنتُم أجسادكم بالعُزلة وقَبَرْتم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾.

أزعجتم الأبدان في الجدّ وآثرتم، وحصل لكم قليلٌ من القُوت فآثَرْتُم، ما أحسن ما رفضتم الهوى [٤] وهجرتم، لقد ربحتُم [٥] واللَّه فيما تَجَرْتُم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾.

علمتم شرفَ الزمان فبادرْتُم، وتحكمْتُم في نفوسكُم فنهيتُم وأمرتُم، وعاهدتُم مولاكم فوحقّه ما غدرتم، وشربتم كؤوس حُبِّه ثم سقيتم وأدرْتُم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾.

لقد سَلِم لكُم كلُّ ما بذَرتُم، ولقد وفيتُم بكُل ما نذرتم، لاح لكم عدوُّ الهوى فنفرتم، ولبستم سلاح الجدِّ وشمرتُم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾.

كلما أنْعم عليكم مؤلاكم شكرْتُم، وكلما سكت الغافلون ذكرْتم، وكُلما غاب

---

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: كانوا. (٢) زبرتم: زجرتم.

(٣) كذا في أ، ظ. وفي ش: وعلمتم. (٤) كذا في أ، ش. وفي ظ: الدنيا. (٥) ش: فلقد.

النائمون في الدُّجى حضرتُم، صابرْتم سني الجدْب فهذا أوان الخصْب قد عصرتُم، نحن نزل منّا هاروتُ وماروت وقد أبصرتُـم، واللّه ثم واللّه ما قصَّرتم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ ﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ... ﴿٢٥﴾ ﴾

النقْضُ: ضد الإبرام، **والعهد** هاهنا الأمرُ والوصية، **وفي** ﴿ مِنۢ ﴾ **قولان: أحدهما**: أنها زائدة. **والثاني**: أنها لابتداء الغاية، كأنه يقول: ابتداء نقض العهد إنما هو بعد ميثاقه. والـميثاق مِفْعالٌ من التوثُّق، وهو إحكام الأمر، **وفي هاء** ﴿ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ **قولان: أحدهما**: أنها تعود إلى اللَّه تعالى فتقديره: من بعْد ميثاق اللَّه. **والثاني**: أنها تعودُ إلى العهد وتقديره من بعد إحكام التوثق فيه ﴿ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ... ﴿٢٥﴾ ﴾ قد ذكرنا أقوال المفسرين فيه آنفًا، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ... ﴿٢٥﴾ ﴾ أي: عليهم ﴿ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي: ما يسوؤهم من الدار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ... ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: يوسِّع على من يشاء ﴿ وَيَقۡدِرُۚ... ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: يضيق ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا... ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: فرحوا بما نالوا منها وطغوا وبغوا ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ... ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: بالقياس إليها ﴿ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: كالشيء الذي يُتمتع به ثم يفنى.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ... ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: مثل آيات الأنبياء كناقة صالح ونحو ذلك، ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ... ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: يرده عن الهدى لأنهم قد رأو ما يكفي في الهداية فخرجوا إلى العَنَت ﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: يرجع إلى الحق. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ﴿٢٨﴾ ﴾ هذا بدلٌ من قوله تعالى: ﴿ مَنۡ أَنَابَ ﴾، والمعنى: يهدي. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ... ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: تسكن إلى ذكره من غير شك فيه ﴿ أَلَا... ﴿٢٨﴾ ﴾ حرف تنبيه وابتداء ﴿ بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ التي هي قلوب المؤمنين.

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

وفيها ثمانية أقوال:

أحدها: أنها شجرة في الجنة. روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » (١).

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده عن أبي سعيد الخدري أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه ما طُوبى؟ قال: « شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرجُ من أكمامها يقول اللَّه ﷻ: تفتَّقي لعبدي عما شاء، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولُجمها، وعن الإبل بأَزِمَّتها، وعما شاء من الكسوة » (٢).

وقال شهر بن حَوْشب: طُوبى شجرةٌ في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وقال مغيث بن سُمَيّ: طُوبى شجرة في الجنة ليس في الجنة أهلُ دارٍ لا يُظلُّهم غصنٌ من أغصانها، فيها من ألوان الثَّمر ويقعُ عليها طيرٌ أمثال البُخت (٣)، فإذا اشتهى الرجل الطير دعاه فيجيء حتى يقومَ على خِوَانه فيأكُل من أحد جانبيه قديدًا ومن الآخر شِواء ثم يعود كما كان فيطير (٤).

والثاني: أن طُوبى اسم الجنة بالحبشية. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وممن ذهبَ إلى أنه اسم الجنة عكرمة ومجاهد.

والثالث: أن معنى طُوبى لهم فرحٌ لهم وقرَّة عين.

والرابع: نعم ما لهم روي القولان عن عكرمة.

والخامس: غِبطة لهم، قاله سعيد بن جبير والضحاك.

والسادس: أن معناه خير لهم. قاله النخعي، قال قتادة: يقول الرجل للرجل طُوبى لك، أي: أصبتَ خيرًا، وهي كلمة عربية.

والسابع: حسنى لهم. قاله الحسن.

والثامن: أن المعنى العيش الطيب لهم.

وطوبى عند النحويين فُعلى من الطِّيب هذا قولُ الزجّاج، وقال ابن الأنباري: تأويلها

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار : ٤/١٣٧، بحاشية السندي.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه. الترغيب والترهيب : ٤/٢٦٩.

(٣) البخت: الإبل الخراسانية.

(٤) ليس لمثل هذه المرويات أصل صحيح.

الحالة المستطابة والخلَّة المستلذَّة، وأصلها « طيبَي » فصارتْ الياء واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارتْ في « موقن » والأصلُ فيه « مُيْقن » لأنه مأخوذٌ من اليقين.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾:

المآب: المرجعُ والمنقلَب.

اسمعوا صفات الأحباب طالما وقفوا على الباب بالباب، يا حُسنهم في الدُّجى يتلون الكتاب، يُنكّسون الرءوس ذُلًّا في المحراب، والدّمعُ قد ذاب لخوف العذاب يُعاتبون النفوس أمضَّ عِتاب، يَثنيهم الخوف كما تُثنى الغصون الرِّطاب، فالليلُ بُستان والوقت قد طاب، إذا استُدعوا للموت لذَّ لهم الذَّهاب، أذْكارهم في السماء وأبدانهم في التُّراب، فإذ نُشِروا أعطاهم ما لم يكنْ في الحساب، وسِيقُوا إلى الجنات وقد فُتِّحتْ [لهم] (١) الأبواب، وتلقاهم الحور يقُلن إنه الإياب (٢)، وغنَّتهم الأماني أطيب من غناء الرّباب، فكلما غنتْ رنَّتْ من القصور القِباب، فهم في النعيم يتقلّبون والملائكة يدخُلون عليهم من كل باب، فسبحان من أصلح بالهم ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ واللَّه سبحانه وتعالى أعلم.

[آخر المجلس. والحمد للَّه دائمًا، اللَّهم يا كريم يا وهاب أَوْرِدْنا موارد كرمك العِذاب، واسْلُكْ بنا فيما اختُلف فيه طريق الصواب، وأعذنا من البخل وأجِرْنا من سوء الحساب، واجعلنا ممن تدخل عليهم الملائكة من كلّ باب، والحمد للَّه رب العالمين] (٣).

* * *
* *
*

---

(١) من ش. (٢) ش: من الإياب. (٣) من ظ.

المجلس التاسع

في ذم الأمل

الحمد للَّه أنشأ الإنسان وخلقه، وأنعم عليه ورزقه، وألهمه الهُدى ووفَّقه، وأخرجه بالتّقى من أسْر الهوى وأعتقه، علم ما في كلّ شجرةٍ من ورقة، وأحْصى عدد طاقات السَّرقة [١]، وسمع تطريب الحمامة المطوّقة، فمنْه الإنعام وبه الثقة، قوَّم أعضاء الآدمي فتناسبتْ متَّسقة، واختطّ الأنْف ونوَّر الحدقة ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [٢].

أحمده وتوفيقه للحمد عليّ صَدَقة، وأقرّ بوحدانيته إقرار مَنْ صدّقه، وأصلي على رسوله محمد ذي الرأفة والشفقة، وعلى أبي بكر الذي صاحَبه في الغار ووافَقه، وعلى عمر الذي كسر كسرى وخنقه، وعلى عثمان الذي أخرج المال وفرَّقه، وعلى عليٍّ الذي بحار علْمه مغدَودقة [٣] وعلى عمه العباس الذي ببركته أقبلت السحُب متدفقة.

* * *

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن أنس أن النبي ﷺ قال: « يهرمُ ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحِرصُ وطولُ الأمل » [٤]، [٥]. (أخرجاه في الصحيحين)، وفي بعض ألفاظه الصحيحة « ويشبُّ معه اثنتان الحرصُ على المال والحرصُ على العمر ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « قلبُ الشيخ شابٌّ على حبٍّ اثنتين: طول الحياة وحُبِّ المال » [٦].

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه خطَّ خطًّا مُربَّعًا، وخطَّ خطًّا وسط الخط المربع، وخطوطًا إلى جنب الخطِّ الذي في وسط الخط المربع، وقال: « هل تدرون ما هذا؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: هذا الإنسان الخط الأوسط، وهذه الخطوط التي إلى جنبه الأعراض تَنهشه من كلِّ مكانٍ، إن أخْطأه هذا أصابه هذا، وإن أخْطأه هذا أصابه هذا، والخطُّ المربّع الأجل المحيط به، والخطُّ الخارجُ الأمل » [٧].

---

(١) كذا بالأصول، والسرقة القطعة من الحرير.
(٢) سورة المؤمنون: ١٣، ١٤.
(٣) في ش: مغدقة وَدِقَة. والمغدودق: كثير القطر.
(٤) غير أ: الحرص والأمل.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ١١٥.
(٦) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ١١٣، ١١٤.
(٧) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٤.

قال أحمد: وحدثنا يزيد بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ جمع أصابعه فوضعها على الأرض فقال: « هذا ابن آدم، ثم رفعها فوضعها خلف ذاك قليلًا وقال: هذا أجله، ثم رمى بيده أمامه قال: وثَمَّ أملُه » (١).

وقد أمر رسول الله ﷺ بتقصير الأمل فقال لابن عمر: « كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور » (٢).

وقال: « صلِّ صلاة مودِّع » (٣). وعابَ من طال أمله.

أخبرنا إسماعيل بن أبي بكر المقري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة ابن زيد بن ثابت وليدة بمائتي دينار إلى شهر، فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفتْ عيناي فظننتُ أنَّ شُفريّ لا يلتقيان حتى أُقبض، ولا رفعْتُ طرفي (٤) فظننتُ أني واضعه حتى أُقبض، ولا لقمتُ لقمةً إلا ظننتُ أنّي لا أُسيغها حتى أُغصَّ بها من الموت ». ثم قال: « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعُدُّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتُم بمعجزين » (٥).

وقال القرشي: وحدثنا مسلمة بن حبيب عن مرْوان، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: « نجا أوّلُ هذه الأمة باليقين والزّهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبُخل والأمل » (٦).

وروى عليٌّ بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن أشدّ ما أتخوّف عليكم خصلتين، اتباع الهوى وطول الأمل » (٧).

وقد كان السّلفُ يضجُّون من طُول الأمل ويتواصون بتقصيره، فقال أبو عثمان النهديُّ، قد بلغت ثلاثين ومائة سنة وما من شيء إلا قد عرفتُ فيه النقصان إلا أملي فإنه كما هو!.

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأملَ إلا أساءَ العمل.

وقال داود الطائي: لو أمَّلت أنْ أعيش شهرًا لرأيتني قد أتيت عظيمًا وكيف أؤمل

---

(١) مسند أحمد : ١٢٣/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب رقم : ٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب رقم : ١٥. وأحمد في مسنده : ٤١٢/٥.

(٤) الترغيب والترهيب: « ولا رفعت قدحًا إلى فيَّ إلا... » .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية. الترغيب والترهيب : ١١٤/٤.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا، الترغيب والترهيب : ١١٣/٤.

(٧) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية : ٣٢٩/٢: هذا حديث لا يصح.

وأرى الفجائع تَغْشى الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟!

وقال الفُضَيْل: إنَّ من الشقاء طول الأمل.

وقال الضحاك: كان أولكم أخوف ما يكونون من الموت أصحَّ ما يكونون، وكانت امرأة متعبدة إذا أمْسَتْ قالت: يا نفسُ الليلة لك لا ليلة لك غيرها فاجتهدي. فإذا أصبحت قالت: يا نفس اليومُ يومُك لا يوم لك غيره فاجتهدي.

وقال محمد بن أبي توبة: أقامَ معروفٌ الصلاةَ ثم قال لي: تقدّم. فقُلت: إني إن صليتُ بكم هذه الصلاة لم أُصلِّ بكم غيرها. فقال معروف: وأنْتَ تحدّث نفسك أن تُصلّي صلاةً أخرى؟! نعوذ باللّه من طولِ الأمل فإنه يمنع خيرَ العمل.

وكان عبد اللّه بن ثعلبة يقول: تضحك ولعلَّ أكفانك قد خرجتْ من عند القصَّار.

وقال سفيان الثوري: رأيتُ شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، لو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء.

واعلم أن طول الأمل ينشأ من أمرين: أحدهما: حُبُّ الدنيا. والثاني: الجهل.

فأما حب الدنيا: فإن الإنسان يأنس بها لأنها أمُّه وعُشه، فيمنعه حبُّه إيّاها أن يتفكر في الرحيل عنها، فإن خطر له ذلك أو حدَّثه فكره بالحاجة إلى التزود سوَّف بالعمل، فلا يزال كذلك حتى يختطفه الموتُ.

قال أبو الجلد: قرأتُ في بعض الكتب أنّ « سوف » جُندٌ من جُند إبليس.

وقيل لرجل من عبد قيس [١] أوصني. فقال: احذر « سَوْف ».

وأما الجهل: فإن الشباب [٢] قد يستبعد الموت لطراوة السنّ وصحة المزاج، وأصلُ كلِّ تفريط طولُ الأمل، فإنه لو تيقن الإنسان أنه يموت منْ يومه لاستقام عملُه في ذلك اليوم، وإنما الأمل هو الذي يُبطئ بفعل الحزم.

وأما علاج حُبّ الدنيا: فبأنْ يتدبر مضارّها؛ لأن حلاَلَها حسابٌ وحرامها عِقاب، وأنها تمنع خيرَ الدار الباقية ثم يُوقن بفراقها، ولا يحسن أن يُؤْلف مفارقٌ.

وأما علاج الجهْل: فأنْ يتفكّر بقلبٍ حاضر، فيعلم أن وجود الموت لا يقفُ على سنٍّ دون سنٍّ، فيأخذ بالحزم ويرفض الغرور.

وقال بعض السلف:

---

(١) كذا في أ، وفي ش، ظ: القيس.

(٢) كذا في ش، أ. وفي ظ: الشاب.

يُعمَّر واحدٌ فيغرّ قومًا ويُنسى [١] من يموتُ من الشبابِ

فمن قاس حياته بزمن بقائه في القبر ووقوفه في القيامة علم أن العمر وإن طال قليلٌ؛ فَبَادَر العملَ اليسير رجاء الخير الكثير، كيف وربما بُغِتَ قبل التوبة وأُخذ على أقبح زَلَّة.

وكان الحسن يقول: إياك والتسْويف فإنك بيومك ولست بِغَدك، فإن يكُ غدٌ لك فكُن في غدٍ كما كنت في اليوم، وإلا يكن لك [٢] غدٌ لم تندم على ما فرّطت في اليوم.

وكان يقول: ابن آدم: السِّكين تُحدُّ والتنُّور يُسْجر [٣] والكبش يُعتلف!

وكان عون بن عبد اللَّه يقول: ما أنزل الموتَ منزلته من عدَّ غدًا من أجَله، كم مُستقبلٍ يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمّلٍ لغدٍ لا يدركه، إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتمُ الأمل وغروره.

وفصْل الخطاب أن نقول: العاقل يأخذ بالحزم ويعمل على الأَحوْط، ومن حَتْفهُ بيد غيره، فبناؤه على الأمل وركونه إلى الظن إزراءٌ بموهبةِ العقل!

فينبغي للمتيقِّظ أن يغتنم الصحة والقدرة على البدار قبل أن يبعث الفاجع، وليس ما مضى براجع.

وقد روى ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابك قبل هرَمَك، وصحتكَ قبل سَقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغلك، وحياتك قبل موتك » [٤].

* * *

الكلام على البسملة

نُودي بصوتٍ أيّما صوتِ ما أقرب الحيَّ من الميْتِ

كأنّ أهلَ الغيّ في غيّهم قد أخذوا أمْنًا من الموت

كم مُصبحٍ يَعْمر بيتًا له لم يُمسِ إلا خَرِبَ البيت!

هذا وكم حيٍّ بكى ميتًا فأصبح الحيُّ مع الميْتِ!

كان حبيب العجمي إذا أصبح بكى وإذا أمسى بكى، فَسُئلت زوجتُه عن ذلك

---

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: فينسى.
(٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: وإن لم يكن.
(٣) يُسجر: يوقد.
(٤) رواه الحاكم وصححه، والبيهقي وأحمد في كتاب الزهد، كشف الخفا : ١٤٨/١.

فقالت: يخاف واللّه إذا أمسى لا يُصْبح وإذا أصْبح لا يمسي. يقول: إن متُ اليوم فأرسلي إلى فلان يُغسلني وافعلي كذا وأصْلحي كذا.

كان يزيد الرَّقاشي يقول: إلى متى تقول: غدًا أفعل كذا وبعد غدٍ أفعل كذا؟ أغْفلتَ سفرك البعيد ونَسِيتَ ملك الموت، أمَا علمت أن دون غدٍ ليلة تُخترم فيها أنفسٌ؟ أما علمت أن ملك الموت غير مُنتظر بك أملك الطويل؟ أما رأيتَ صريعًا بين أحبابه لا يقْدرُ على ردّ (١) جوابهم.

إخواني: أمَا هذا ما لنا بعد قليل؟ أما المُقيمُ على نية الرحيل؟ أما تُنذرنا الموتى بالتحويل؟

كلما مرّ راكب (٢) فوق نَعْشٍ ... كاد يَنْهدُّ يا أميمة عَرْشي

بطش الدهر بالتَّبابع والأقْـ ... ـيال من حِميْرٍ بأعظم بطْش (٣)

وسَطَا بالليوث بالغاب والأو ... عال في النِّيق والصِّلاب الرُّقش (٤)

ستعضُّ النَّسْرين يومًا يدُ الدهـ ... ـر وتَلْقى الرَّدى بُنيات نعْشِ (٥)

كان في تيم اللّه شيخٌ متعبد يجتمع إليه فتيان الحي ونساؤهم ويذكِّرهم، فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال: يا إخوتاه قوموا قيام قومٍ قد يئسوا من المعاودة لمجلسهم خوفًا من خطفات الموكَّل بالنفوس فيَبكي ويُبكِي.

كان شميط [بن عجلان] (٦) يقول: أيها المغتر بصحته أمَا رأيت ميتًا من غير سُقم، أيها المغتر بطول المُهلة أما رأيت مأخوذًا من غير علة؟ طالت آمالكم فجدّدتم منازلكم، كأنكم للدنيا خُلقتم إنما هي ثلاثة أيام فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أملٌ لعلك لا تُدركه، ودون غدٍ يومٌ وليلة تُخترم فيها أنفسٌ كثيرة لعلك المُخْتَرم فيها، لكلِّ يوم همُّه، ثم قد حملت على قلبك الضعيف همَّ السنين والأزمنة، وهمَّ الغلاء والرِّخص، وهمَّ الشتاء قبل أن يجيء، وهمَّ الصيف قبل أن يأتي، فماذا أبقيت من قلبك الضعيف لآخرته ؟! كلَّ يوم يُنقصُ من أجلك وأنت لا تَحْزن، العجب لمن يُصدّق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور:

أمَّا اللبيب فبالأشجان مُصْطبحٌ ... طول الحياة ومنها (٧) بات يَغْتَبِقُ

---

(١) أ: على جوابهم.
(٢) في ش: ركب.
(٣) التبابع: جمع تبع وهو لقب ملوك اليمن. والأقيال: جمع قَيْل وهو دون الملك.
(٤) الأوعال: جمع وَعْل وهو تيس الجبل. والنيق: أعلى مكان في الجبل، والصِّلاب الرقش: الحيات.
(٥) النسران: كوكبان يقال لأحدهما الواقع والآخر الطائر. وبنات نعش الكبرى: سبعة كواكب أربعة منها نعش وثلاث بنات وكذلك الصغرى.
(٦) من « ش ».
(٧) كذا في أ، ظ وفي ش: فيها.

والنُّسُكُ أفضلُ ما قدَّمتَ من ذُخْرٍ إذا أجنَّك منْ هـذا الثَّرى طَبَـقُ
وأحْـزَم الطـيـر أنـآهـا بـأفْـرُخـه عـن البـريَّة والأدنـى لـه زهَـقُ
سِـيـق الأنـامُ بـسوطٍ واحدٍ لمدَى أعمارهم واسْتوت الأملاكُ والسُّوَق [1]
الـوقتُ كالنار والأعمال فيه غضًا [2] فبـادر الـخيـر إنَّ العـمـر يـحترقُ

وجدوا حجرًا منقورًا فيه مكتوب: ابن آدم إنكَ لو رأيت قريب ما بقي [3] من أجلك لَزَهِدتَّ في طويل [4] أملك، ولَرَغِبتَ في الزيادة من عملك، ولقصَّرت من حرْصك وحيلك، وإنما يلْقاك غدًا ندمك لو قدْ زلَّت بك قدمُك، وأسْلمك أهلك وحَشَمك فبان منك الولدُ القريب، ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل [5] الحسرة والندامة.

كان الربيع بن عبد الرحمن يقول: قطعتْنا غفلةُ الآمال عن مبادرة الآجال، فنحن في الدنيا حيارى لا ننتبه من رَقْدة إلا أعقبتنا في أثرها غفلة، فهل رأيتم [6] عاقلًا رضي من حاله بمثل هذا؟!

قـل لـلـمُـؤَمِّـل والـمـنـايـا شُرَّعٌ مـاذا يغـرُّك يـابـن مـن لـم يخلدِ
يـا بْـن الـذيـن تـقـطَّعت أوصالهم تـرجـو البـقـاء وأنـت غـير مُخلَّدِ
وأبوك قبـلـك كـان يأمل ما ترى حـتـى أتـتـه مـنـيـةٌ لـم تُـرْدَدِ

يا ديار الأحباب أقوى [7] جديدها، أين أُسودها لا بلْ أين غِيدُها؟ أين ظباء الهوى مرّت ومَنْ يصيدُها؟ وقعت في سفرةٍ ما يُدرى بعيدها، تماثلتْ في القبور مواليها وعبيدها، أين عساكرها بل أين جنودها، أين جيوشها بل أين من يقودها؟ أين أسيافها التي لم تَحْوِها غُمودها، أين مرَّت زوارها؟ أين ذهبت وُفُودُها؟ تَسَاوَى واللَّه عَدمُها ووجودُها، ونُقضت بعد أن حُفظت طويلًا عهودُها، ورثى لها من حالها عدُوُّها وحسودُها:

عـمـرٌ ينقـضـي وذنـبٌ يـزيـد ورقـيـبٌ مُـحْـصٍ عـلـيَّ شـهـيدُ
واقـتـراب مـن الـحِـمَـام وتـأميلٌ لطـول البـقـاء غُـصْـنٌ جـديـدُ
أنـــا لَاهٍ ولِلْـــمَـنِـيـة حَـتْـمٌ حـيـث يـمّـمـتْ منـهـلٌ موروُدُ

---

(١) السوق: جمع سوقة وهي الرعية.
(٢) الغضا: شجر سريع الاشتعال.
(٣) ش: ما يبقى.
(٤) كذا في أ، ظ. وفي ش: طول.
(٥) كذا في أ، ش. وفي ظ: يوم.
(٦) كذا في أ، ش. وفي ظ: رأيت.
(٧) أقوى: أقفر.

كـل يـوم يـمـوت مِنِّيَ جـزءٌ ... وحـيـاتـي تـنـفُّسٌ مـعـدودُ
كـم أخٍ [قدْ] [(١)] رُزئْتـه فهو إنْ ... أضـحـى قـريـبَ المحل مني بعيدُ
هل لنفسي بواعظات الجديدين ... ازدجارٌ عن منزلٍ سيَبيدُ

يا مشغولًا بجمع أذهابه عن ذهابه، يا مُغترًا قد سرى به لمعُ سرابه، يا لاهيًا عن جراح الموت بشبابه وقد عَلِق الشَّبا به، يا ناسيًا رحيلَه عن جنابه بما جنى به، يا عامرًا قصْره ومحرابه أخْرى به:

عـجـبًا لـمـن يَبْنـي الـمسا ... كـن والـبـنـاء إلـى خـرابِـهْ
مـاذا يـؤمِّـل وَيْـحَـهُ ... والـمـوتُ لا يـدْري متـى بـهْ
إن لـم يـكـن فـي يـومه ومضى ... فـذاك مـن اقـترابـهْ
بل كـيـف يَهْجَعُ والرَّدى يَغْـدو ويـطـرق فـي إيـابـهْ
أيـن الـذي شـاد الـقـصو ... رو مـنْ يـراقـبُ فـتـحَ بـابـهْ
تـخـشـى الـمـلـوك عِقابَ كفِّيـه ... وتـطـمـعُ فـي ثَـوابـهْ
بـيْـنـا عـلـيـه تـاجُ مـمـلـكـة ... ويَـرْفـلُ فـي ثـيـابـه
صـارتْ بـه الـدنـيـا إلـى ... جَـدثٍ يـعـفَّـرُ فـي تُـرابـهْ
وخـلـتْ مـجـالـسُـه لآ ... خَـر دأْبـه فـيـا كـدابـهْ
حـتـى يـذوق بـكـأسـه ... طعـم الـمـنـغِّـص في شـرابهْ
يـا أيـهـا الـلاهـي وسـا ... ئـلـه غـدًا مُـحْـصـي حسابه
إن الـمـنـيـة طـالـبٌ ... لـك لاحـقٌ بـك فـي طِـلابـهْ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [(٢)]

سبب نزولها: أن المشركين اجتمعوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إن كنت صادقًا فَشُقَّ لنا القمر فرقتين فقال لهم رسول الله ﷺ: « إن فعلتُ تؤمنوا » [(٣)]؟ قالوا: نعم، فسأل

(١) سقط من أ.
(٢) سورة القمر: ١.
(٣) كذا في أ، ش. وفي ظ: تؤمنون.

رسول اللَّه ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشقَّ القمر فرقتين، ورسولُ اللَّه ﷺ ينادي: « يا فلان يا فلان، اشهدوا » وذلك بمكة قبلَ الهجرة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن ابن مسعود قال: انشقَّ القمرُ على عهد رسول اللَّه ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه (١) فقال رسول اللَّه ﷺ: « اشهدوا » (٢). (أخرجاه في الصحيحين).

وقد روى انشقاق القمر ابنُ عمر وابن عمرو وحُذيفة وجبير بن مطعم وابن عباس وأنس في آخرين.

ومعنى ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ﴾: دَنَتْ. و ﴿ ٱلسَّاعَةُ ﴾: القيامة. قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير تقديره: انشقَّ القمر واقتربت الساعة. قال مجاهد: انشق القمر فصار فرقتين، فقال لنا: اشهدوا اشهدوا (٣).

وقال ابن زيد: لما انشق القمر كان يُرى نصْفه على قُعيقعان والنصف الآخر على أبي قبيس. قال ابن مسعود: لما انشق القمرُ قالت: قُريش: سحركم ابن أبي كبشة فسلوا السُّفار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾.

﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً... ﴿٢﴾ ﴾ أي: علامة تدلهم على صدق الرسول ﷺ، ﴿ يُعۡرِضُواْ... ﴿٢﴾ ﴾ عن التصديق، ﴿ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ **وفيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: ذاهب من قولهم: مرّ الشيء واستمر إذا ذهب. قاله مجاهد وقتادة والكسائي والفرَّاء. **فعلى هذا في معنى ﴿ مُّسۡتَمِرٌّ ﴾ قولان:**

- **أحدهما:** أنه سحرٌ والسحر يذهبُ ولا يثبت.

- **والثاني:** هذا سحرٌ قد استمر مثله، ما زالت السحرة تفعل مثل هذا.

والقول الثاني: شديد قويٌّ من المِرَّة وهي الفَتْل، وهذا قول أبي العالية والضحاك وابن قُتيبة.

والثالث: دائم. ذَكَره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ... ﴿٣﴾ ﴾ يعني كذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة اللَّه تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ... ﴿٣﴾ ﴾ ما زيّن لهم الشيطان. ﴿ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ ﴾ **فيه ثلاثة أقوال:**

---

(١) كذا في أ. وفي ش، ظ: شقتين حتى نظروا إليه.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب رقم: ٢٧. وصحيح مسلم، كتاب المنافقين، حديث رقم: ٤٣ - ٤٧، ٤٨.

(٣) كذا في أ. وفي ش، ظ: فثبتت فرقة وذهبت فرقةٌ من وراء الجبل.

أحدها: أن كلَّ أمرٍ مستقر بأهله، فالخير مستقر بأهل الخير، والشرُّ يستقرُّ بأهل الشر. قاله قتادة.

والثاني: لكل حديثٍ مُنتهًى وحقيقة. قاله مقاتل.

والثالث: أن قرار تكذيبهم مستقرٌّ وقرار تصْديق المصدقين مستقرٌّ حتى يعلموا حقيقته بالثواب والعقاب. قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ... ﴿٤﴾ ﴾ أي: من أخبار الأمم المكذبة في القُرآن ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾ أي: مُتَّعَظ ومنتهى، ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ... ﴿٥﴾ ﴾ قال الزجاج: إنما رفعت لأنها بدل من « ما » والمعنى: لقد جاءهم حكمة بالغة وإن شئت رفعتها بإضمار هو حكمة بالغة. و « **ما** » في قوله تعالى ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ جائز أن يكون استفهامًا بمعنى التوبيخ، فيكون المعنى: أيُّ شيء تُغني النذر. وجائز أن يكون نفيًا على معنى: فليست تغني النذر إذا لم يؤمنوا.

سجع على قوله تعالى: ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾:

إذا كانت العيون البُصُر تقف مقام الجُهال الغُثْر [١]، والأقدام المستقيمة ترضى بحال العُثر، والممتلئة شِبعًا بالفهوم قد صارت كالضُّمر، والعراب السابقة قد رضيت مقام الحُمر، والنفوس عطشى بعد السحائب المُطُر، وهي تَقْدر على الرّي من بعض السواقي والنُّهر، ثم لا تَمدُّ يدها إلى غدير من الغُدر، هذا والبحار بالمياه كلُّها زُخُر، فليتها اقتنعت من الأمواه ولو بالكُدر، وقد صارت العقول كالخُشب المسندة إلى الجُدر، ولا تستدل على الصانع بالنجوم الزُّهر، ولا بالفلْك الذي لو لم يُدره لم يدُرْ، واستبدلت النفوس بأفعال المتقين أعمالَ الفُجر، وقد عرفتْ ما يُخاف ولا تفعل فعلِ الحُذُر، تضيع زماتها تضييعَ المراقيع البُذر [٢]، وترضى أن تكون لسيف العذاب كالجُزر، وكأنها بالبدَن قد وقع فلم يُثر، أهذا حدُّ عقْله أم جنون وسُعُر، فمن عذَّب بعد هذه الأعذار لم يَحِفْ ولم يجُرْ ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ... ﴿٦﴾ ﴾ قال الزجاج: هذا وقْف التمام و ﴿ يَوْمَ... ﴿٦﴾ ﴾ منصوب بقوله: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ... ﴿٧﴾ ﴾.

* * *

---

(١) الغثر: سفلة الناس.

(٢) الأصل: المرابيع. والمراقيع: الحمقى والبُذر: المبذرون.

قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ... ۝٦ ﴾

وهو إسرافيل يَنْفُخ النفخة الثانية ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ أي: مُنكر مُسْتَعظَم، ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ... ۝٧ ﴾ قال الزجاج: المعنى يخرجون ﴿ خُشَّعًا ﴾ وهو منصوب على الحال، قال المفسرون: المعنى أن أبصارهم ذليلة خاشعة عند رؤية العذاب.

سجع على قوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ... ۝٧ ﴾:

بَعُد عنهم جَمْعُهم وأنصارهم، وثَقُلت على ظهورهم أوزارهم، وقَوِيَ عليهم جزاء إصرارهم، فلو رأيتهم وقد أجْدب مُمتارهم (١) ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾.

امتنع بدخول جهنم قرارهم، وغُلُّوا وما يُخْشَى فرارُهم، وكلما تصاعدت حسراتهم زَفَرتْ نارُهم، يكفيهم بين الخلائق عارُهم وقد حُطَّت أقدارُهم وتوَلَّتْهم أقدارهم، اعتذروا فلم يُسمع اعتذارهم، يجتمعون في النار هم وغُرَّراهم، والريح المنتنة فيها عوارهم، لقد فضحتهم والله أسرارُهم، واشتهر إسرارهم وإعلانهم، وساءت والله أخبارهم، ما أصحَّ ما صارت أفكارهم، ولكن لم ينفع استبصارهم، كلَّا ولا أثَّر اعتبارهم، لقد ذلَّ يومئذ فُجّارهم، ووَدُّوا لو عاد طينًا فَخَّارهم، أين مُدَّاحهم، أين زُوَّارهم، أين نُوقهم، أين عِشَارهم، أين عِرابهم، أين مِهَارهم، أين جناتهم، أين أشجارهم، أين قبابهم، أين أنهارهم، أين درهمهم، أين دينارهم، أين مرجانهم، أين أحجارهم، أين غَضَبهم، أين نِفَارهم، بالمقامع تُضرب أدبارهم، وكلما اشتد رجاؤهم اشتدَّ إدبارهم، قويَ والله وما ينفعهم خُوَارهم، يكفيهم أنَّ إبليس جارُهم.

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ... ۝٧ ﴾:

طالما أفسدهم البِلى وَعَاث، فلم رأيتهم في القبور بعد ثلاث، وأعظم من ذلك الأعمال الخَبِاث، ما اكتفي لهم بطول اللُّباث، حتى أُخرجوا من الأجداث عُراةً بعد الثياب والأثاث، شَقوا بما جمعوا وفاز الوُرّاث، يُسحَبون عِطاشًا والبطون غِراث (٢) يستغيث أحدُهم فلا يُغاث، كيف لا وقد غضب المستغَاث، أفئدتهم من الحسرات كأنها تُماث (٣)، أسبابهم كلها مقطوعة رِثَاث (٤)، يُساقون إلى النار والسُّواق حُثاث،

---

(١) الممتار: من يطلب الميرة وهي الزاد. وأجدب: افتقر.

(٢) غِراث: جائعة. (٣) تماث: تقطع. (٤) رثاث: بالية.

أما تسمعون هذا يا شيوخ يا أحداث، أما تخافون ما سيطرا [١] من الأمور والأحداث، أنائمون أنتم واللَّهِ في أضغاث، واعجبًا لأجسام ذكورٍ وعقول إناث.

قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ ﴾ إنما شبَّههم بالجراد المنتشر؛ لأن الجراد لا جهة له يقصدها فهو أبدًا مختلف بعضُه في بعضٍ، فهم يخرجون فَزِعين ليس لأحد منهم جهة يقصِدُها.

قوله تعالى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ... ۝ ﴾ أي: مُسرعين إليه وهو إسرافيل.

يا مَنْ عُمْرُه كلَّ يوم في قِصَر وسَفرُه طويلٌ والزَّاد مُختَصَر، مَنْ لك إذا اشتد الهولُ وَبَرِق البصر، وهَرَبَ منك من أعانك ونصر، وسُئِلتَ فعدمت الجواب واشتد الحَصَر، ونُشِرت صحيفتُك وهي كثيرة الهذَر، وظهر قبيحك [٢]، وأنت [٣] لَمْ تُبْق ولم تذَر، فيا زارع التفريط سيحصد الزَّارع ما بذر، يا كثير القبائح غدًا تنطق الجوارح، أين الدموع السوافح على تلك القبائح [٤]، ما أعسر مرض الجوانح، هذا الشيب دليل واضح، يُضَعْضِعُ الأركانَ الصحائح، تسدَّ باب اللَّهو والمسارح، وهو في المعنى عَذُول ناصح، جائحة [٥] لا تُشبه الجوائح، والموت من خلاله مُبين لائح، أين زادك أيها الرائح، احسبْ حسابك هل أنت رابح ؟ يا أَسَفَى لهذا النازح، كيف حالُه في الضرائح [٦]، مَنْ له إذا أوْثقه الذابح، وقامت عليه النوائح واستوى عنده العائب والمادح، ولم ينفعه إذا خرج من الصفائح، إلا عملٌ إنْ كان له صالح أتراه يظن أنَّ النصيح مازح، ضاعت المواعظ لأن المْوعُوظَ سكرانٌ طافح.

* * *

يَـأْمَـلُ الـمـرءُ أبْعَـدَ الآمـال ... وهـو رهْـنٌ بـأقـربَ الآجـالِ
لـو رأى المرءُ رأْي عـينيه يـومًا ... كـيـف صـوْلُ الآجـالِ بـالآمـال
لَـتنَـاهـى وقـصَّـر الـخَطْوَ في اللَّهـ ... ـو ولـم يـغْـتـرر بـدار الـزوالِ
نحن نـلْهُو ونحن يُحصَى علينا ... حـركـاتُ الإدبـار والإقـبـالِ
نـحـن أهـل الـيقين بالموت والبعـ ... ـث وعَرْض الأقْوال والأعـمـال
ثـم لا نـرْعـوِي وقـد أَعْـذَر اللَّـهُ ... بـطـول الـبـقـاء والإمـهـالِ

(١) سيطرا: سيطرأ، فسُهلت الهمزة.
(٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: وظهرت قبائحك.
(٣) كذا في ش. وفي غيرها: وإذا.
(٤) كذا في أ، ظ. وفي ش: الفضائح.
(٥) الجائحة: الشدة المحتاجة للمال.
(٦) الضرائح: القبور.

أيَّ شيء تركت يا عارفًا باللّـ ـه للممترين والجهّال؟!
تركب الشيء ليس فيه سوى أنّك تهواه فعلَ أهل الضلال
أنت ضيف وكلُّ ضيف وإن طا لت لياليه مُؤذنٌ بارتحال
يستوي في الحساب والبعث والمَوْ قف أهلُ الإكثار والإقلال
ثم لا يُقسمون للنار والجنـ ـة إلا بسالف الأعمال

سجع على قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾:

لو رأيت الفاجر يومئذٍ قد أُسِر، وغُلَّ بعد الإطلاق وحُبسَ وقُسِر، ولما ربح المتقون خَسِر ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾.

عُرِض على العاصي ما كُتب وسُطر، فذلَّ ذاك المُتجبِّر البطِرْ، وودَّ لو أنّه عادَ كما فُطِر، وأخذ فؤاده الصحيح يَنْفطِر، كمْ من غنيٍّ يومئذٍ مُفتقِر، كم مُتكبرٍ قد ذلَّ وحُقِر، كمْ مُتنعِّمٍ عَيْشُه مُرٌّ مَقِر [(١)]، كم دمع غزير سائل مُنْهَمِر، يبكي لمخالفته ما أُمِر، ليته صار نَسْيًا مَنسيًّا فما ذُكر، آهٍ لطرفٍ كان ينامُ بَطِرًا قدْ سَهِر، ولمستورٍ على ذنوبه قد شُهِر، صحا واللّه يومئذ مَنْ سَكِر، وصحَّ فِكْرُ منْ كان لا يفتكِر، فيا مَنْ بين يديه هذا اليوم انتبِه واعتذِر، والبسْ لباسَ الخائف وزِدْ الحذَر، وشمَّر في طريق التوبة واجتهد وسِرْ، واخضع لمولاك فإنَّه عنْد القلْب المنكسر. واللّه تعالى أعلَم. [آخره والحمد للّه دائمًا، اللّهم يا ذا الجوْد المنهَمِر، والعطاء المستَمِر، أجرنا من عذابك المستعر، وأنلنا من فضلك المستقر، ولا تجعلنا ممن إذا ربح المتقون خسر، برحمتك يا مولانا يا أرحم الراحمين] [(٢)].

* * *
* *
*

(١) المقر: الحامض أو المر.

(٢) من ظ.

المجلس العاشر

في ذكر مكائد الشيطان

الحمد للَّه الذي ألبس المتقين لباسَ التقوى، وتولَّى حفظ مَلْبسهم وآنَسَ العارفين أُنسًا حُلوًّا فاشتغلوا بمؤْنسِهم، وكان مع الصابرين لطيفًا [١]، فيا طِيْب مَجْلسِهم، وابْتعث مُحمدًا ﷺ بالفصاحة فعادَ قُسُهم [٢] كأخْرسهم، فعارضه مُسَيْلمة فكان في المعارضة منْ أبْخسهم، فكادوه وبالغوا فأصْبح أبو جهْلٍ من أنْجسَهم، فرماه كلُّ المعاندين على الدين فعادتْ عليهمْ أسْهُم أقواسهم، فقلَب رءوساءَهم إلى القليب على وجوههم وأرؤسهم، وبقي الباقون حيارى على رغم مَعْطِسهم، ولقد كانوا يعرفون أصْله ونسبه وأنَّه من أنفسهمْ مُذ نشأ فيهم ويكفيهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [٣].

فصلى اللَّه عليه وعلى أبي بكر الذي كان في الانقياد إلى الإسلام من أسْلسهم، وعلى عُمر قاهرِ الأكاسرة على شِدة شَرسِهم، وعلى عثمان الذي كان من أرَقّهم وأكْيَسهم، وعلى عليٍّ محبوب أهل السُّنة ومُقدَّسِهم، وعلى عمه العباس أصل الخلفاء ومَغْرسِهم.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ...﴾ [٤]

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: اسمٌ لكلِّ متمرد. وقال أبو عبيدة: كلُّ متمرد من الجن والإنس والدواب فهو شيطان.

واختلفوا: هل نون الشيطان أصلية أم زائدة على قولين:

أحدهما: أنها أصلية كأنه من شطن أي: بَعُد، يقال: شطنت دارُه وقذفته نوًى شطُون، فكأنه بَعُد عن الخير أو بَعُد غوْره في السَّير.

والثاني: أن النون زائدة فهو منْ شاط يشيط إذا ذهب وهلك، وأنشدوا:

---

(١) ش: لُطفًا.

(٢) يشير إلى قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب في الجاهلية.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٢.

وقد يشيطُ على أرماحنا البطلُ (١)

قال المفسرون: المراد بالشيطان هاهنا إبليس.

﴿ ... لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي: فُرِغَ منه فدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النار النارَ فحينئذٍ يجتمع أهل النار، باللوْم على إبليس فيقوم فيما بينهم خطيبًا ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: وعدكم كوْن هذا اليوم فصدَقكم ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أنه لا يكون ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ... ﴿٢٢﴾ ﴾ الوعد ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: ما أظهرتُ لكم حُجَّة ما ادَّعيتُ ولا أكرهتكم لكن ﴿ دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم... ﴿٢٢﴾ ﴾ حين أجبْتموني من غير بُرهان ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: بمغيثكم ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: بمغيثيَّ (٢) ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ... ﴿٢٢﴾ ﴾ اليوم (٣) بإشراكم إياي في الدنيا مع اللَّه في الطاعة.

إخواني: منْ علم مكائد الشيطان وَجَبَ عليه الاحتراز، فليُظاهر بين الدُّروع (٤)، فإنَّ العدوَّ بصير بالرمي.

وفي الصحيحين من حديث صفية بنت حُيَيّ أن النبي ﷺ قال: « إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم (٥) مَجرى الدَّم » (٦).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعثُ سراياه فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا. فيقول: ما صنعت شيئًا. قال: ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله. قال: فيدنيه منه أو قال: فيلتزمه ويقول: نِعْمَ أنْت » (٧) (انفرد بإخراجه مسلم).

أخبرنا ابن ناصر بإسناده عن ابن مسعود ﷺ قال: إن الشيطان أطاف بأهل مجلس ذِكْرٍ ليفتنهم فلم يستطع أن يفرّق بينهم، فأتى حلْقةً يذكرون الدنيا فأغْرى بينهم حتى اقتتلوا، فقام أهلُ الذكر فحجزوا بينهم فتفرقوا.

قال عبد اللَّه: وحدثني علي بن مسلم بإسناده عن قتادة قال: إنَّ لإبليس شيطانًا يقال

---

(١) شطر بيت للأعشى، كما في أساس البلاغة مادة « شاط ».

(٢) ش: بمغيثين.

(٣) ش: إليكم.

(٤) يظاهر بين الدروع: يجعل بعضها فوق بعض.

(٥) كذا في أ، ش، وفي ظ: الإنسان.

(٦) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ١١.

(٧) صحيح مسلم، كتاب المنافقين، حديث رقم : ٦٦، ٦٧.

له قَبْقب يُجمُّه [١] أربعين سنة، فإذا دخل الغلامُ في هذا الطريق قال له: دونك إنما كنت أُجِمُّك لمثل هذا، أَجْلِبْ عليه وافتنْه.

حدثنا سيارٌ، حدثنا جعفر عن ثابت البُناني قال: بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا فرأى عليه مَعَاليق من كل شيء، فقال يحيى: يا إبليس ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أُصِيبُ بهن ابنَ آدم قال: فهل لي فيها من شيء. قال: ربما شبعت فثقَّلناك عن الصلاة وثقَّلناك عن الذكر. قال: هل غير ذلك. قال: لا. قال: للَّه عليَّ أن لا أملأ بطني من طعام أبدًا. فقال إبليس: وللَّه عليّ أن لا أنصح مسلمًا أبدًا.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد [٢] بإسناده عن وُهَيْب بن الوَرْد، قال: بلغنا أن إبليس تَبدَّى ليحيى بن زكريا فقال: إني أريد أن أنْصحك، قال: كذبتَ لا تنصحني، ولكن أخبرني عن بني آدم. قال: هم عندنا على ثلاثة أصناف، أما صِنْفٌ منهم فهم أشد الأصناف علينا، نُقْبل على أحدهم حتى نفتنه ونَسْتَمْكِن [٣] منه ثم يَفْزَع إلى الاستغفار والتوبة فيُفسد علينا كلَّ شيء أدركنا منه، ثم نعودُ له فيعودُ، فلا نحن نيأسُ [٤] منه ولا نحنُ ندركُ منه حاجتنا، فنحن من ذلك في عناء. وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة [٥] في أيدي صبيانكم، نتلقّفهم [في أيدينا] [٦] كيف شئنا قد كفَوْنا أنفسهم. وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقْدر منهم على شيء. قال يحيى: هل قدِرتَ منّي على شيء؟ قال: لا إلا مرة واحدةً فإنك قدَّمتَ طعامًا تأكله، فلم أزل أشهِّيه إليك حتى أكلتَ منه أكثر مما تريد فنمْتَ تلك الليلة فلم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها.

فقال له يحيى: لا جرم لا شبعتُ من طعام أبدًا. قال له الخبيث: لا جرم لا نصحتُ آدميًّا بعدك.

وقال ابن عمر: لمّا ركب نوحٌ السفينة رأى شخْصًا لا يعرفه، قال: ما أدخلك؟ قال: دخلتُ لأصيب قُلوب أصحابك. قال: اخرج يا عدوَّ اللَّه. قال إبليس: خمسٌ أُهلك بهنّ الناس سأحدثك منهنَّ بثلاثٍ ولا أخبرك بالثِنْتَيْنِ فأوْحى اللَّه تعالى إلى نوح: أنه لا حاجة بك إلى الثلاث مُرْه يحدثُك بالثِنْتَيْنِ، قال: بهما أُهلك الناسَ وهما لا يكذباني: الحسدُ، وبالحسدِ لُعنتُ وجُعلتْ شيطانًا رجيمًا، والحِرْصُ: أُبيح لآدمَ الجنةُ كُلّها فأصبتُ حاجتي منه بالحرص [٧].

(١) يجمه: يريحه. (٢) ش: أحمد بن إسماعيل. (٣) ش: ونتمكن.
(٤) ظ: نأيس. (٥) ش: الأكرة. (٦) من ش.
(٧) مثل هذه الرواية وما بعدها ليس لها سند صحيح. وإنما هي من وضع بعض الزهاد والوعاظ مع أن معانيها صحيحة.

قال: ولقي إبليس عليه اللعنة موسى صلى اللَّه عليه وعلى نبينا وسلم، فقال: إني أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي [١] ﷻ أن يتوب عليّ، فدعا موسى ربه. فقال: قُلْ لإبليس: قد أُمرتَ أن تسجد لقبر آدم [٢] ويُتاب عليك، فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له حيًّا أأسجد له ميتًا؟ ثم قال: يا موسى إن لك عليَّ حقًّا بما شفعتَ لي فاذكرني عند ثلاثٍ: اذكرني حين تغضب فإني أجْري منك مجْرى الدم، وحين تَلْقى الزَّحف فإني آتي ابن آدم حينئذٍ فأذكِّرُه ولده وزوجته وأهلَه حتى يُولِّي، وإياك أن تُجالس امرأةً ليستْ بذات محْرم، فإني رسولها إليك ورسولك إليها.

وقال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم لقي إبليس موسى فقال له موسى عليه السلام: ما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذتَ عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسُه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأُحذرُك ثلاثًا: لا تخلُ بامرأة لا تحلُّ لك فإنه ما خلا رجلٌ بامرأةٍ لا تحلّ له إلا كُنتُ صاحبه دون أصحابي حتى أفْتنه بها، ولا تُعاهد اللَّه عهدًا إلا وفيتَ به، فإنه ما عاهد اللَّه أحدٌ عهدًا إلا كنتُ صاحبه دون أصحابي حتى أحُول بينه وبين الوفاء به، ولا تُخرجنَّ صدقةً إلا أمْضيتها، فإنه ما أخرج رجلٌ صدقةً لم يُمضها إلا كنتُ صاحبه دون أصحابي حتى أحولَ بينه وبين الوفاء بها، ثم ولّى وهو يقول: يا ويله ثلاثًا، علم موسى ما يُحذِّر به بني آدم!

وقال وهب: قال إبليس عليه اللعنة: إذا كان العبدُ حديدًا [٣] قلبناه كما يقلب الصبيان الأكرة [٤].

واعلم أنه من أراد مُحاربة الشيطان فلْيبعد عن الأسباب المقرِّبة إلى المعاصي كالخلوة بالأجْنبية، ومُخالطة من لا يصلُح من الناس، وإطلاق البصر، ولْيجاهدْه في كلِّ شيء.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي بإسناده عن أبي عبد الرحمن المغَازلي قال: مرَّ رجلٌ براهبٍ فناداه فأشْرف عليه فقال: أيُّها الراهب متى يخلو القلب والبدن من حُبِّ الدنيا؟ فصرخ الراهب صرْخةً انحطّ مغشيًّا عليه في صومعته، فلم يزل الرجُلُ يراقبه حتى أحسّ بإفاقته، فناداه: أنا منذُ اليوم أنتظرك أيُّها الرَّاهب. فأشْرف عليه فقال: يا هذا ما الذي تُريد مني؟ واللَّه لا يخلو القلبُ والبدنُ أبدًا من حُبِّ الدنيا والعين تنظُر إلى أهلها والأذن تسمع كلامهم، هو واللَّه ما أقول لك حتى يأوى مُريد اللَّه إلى أكْناف الجبال وبُطون الغِيران ويظلُّ مع الوحوش يردُ مواردها ويأكلُ من أجِنَّة الشجر لا يرى في ذلك أن النّعمة أتمّ على أحدٍ منها عليه، فهذا ولعلَّه أن يكون منها خاليًا، ثم بكى وقال: كيف

---

(١) ش: ربِّك.

(٢) لا يصح ذلك وليس هناك سجود لقبور.

(٣) الحديد: الغَضُوب.

(٤) ظ: الكرة.

وأنّى له [١] بالتخلص من إبليس، ثم سقط مغشيًّا عليه.

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن المؤمن يُنْضِي شيطانه كما يُنْضي أحدكم بعيره في السّفر » [٢].

وقال قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثلُ الجزور، وأنا فيك اليوم مثل العصفور. قلتُ: ولم؟ قال: تُذيبني بكتاب اللّٰه تعالى.

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن عبد العزيز بن رفيع قال: إذا عُرج بروح العبد المؤمن إلى السماء قالت الملائكة: سبحان الذي نجّى هذا العبد من الشيطان! يا وَيْحَه كيف نجا؟!

فاحذروا إخواني من شيطانكم، واستعينوا عليه بديَّانكم [٣] فإنما يسعى في تخْسير ميزانكم، ويدأب دائمًا في حصول هوَانكم، إن ما جرى له مع أبيكم في العِبرة يكفيكم، فتلمَّحوا خُدَعَهُ في سَبْره وسَيْره [٤]؛ فالسعيد من وعظ بغيره.

* * *

الكلام على البسملة

بينما المرء غافلًا إذ أتاه ... مِنْ يد الموت سالبٌ لا يُصَدُّ
فتأهَّبْ لماله كلُّ نفسٍ ... عُرضةُ الأسْر إنما الأمرُ جِدُّ
خاب مَنْ كان همُّه هذه الدنـ ... ـيا فأضْحى منْ نَبْلها يَسْتَمِدُّ
فجَناها إن أسْعدت مُستعارٌ ... ليس مِنْ ردِّه لمن نال بُدُّ
كم أدالتْ من أهلها وأزالتْ ... ذا جلال مِنْ نعمة لا تُحدُّ
بدَّلتْهُ مِنْ طيب مَغْناه فقْرًا ... عادمًا ما حوى ولم يُغن جِدُّ
أين مَنْ كان ناعمَ الوجه أمسى ... ما له في نهاية الحسْن ضدُّ
قد محاه ثراه حين حواه ... ووهى مِعْصمٌ وكفٌّ وزندُ
وجفا أُنْسَه أخٌ كان بَرًّا [٥] ... وصَديقٌ دانٍ وصحبٌ وجُندُ
واستوى [٦] في البلاء رئيس ومَرْ ... ءوسٌ وأعْيَا بالأسْر حرٌّ وعبدُ

ما هذا السكون إلى دار الدوائر؟ ما هذا الانحراف إلى حَرْف جُرفٍ هائر؟ [٧]

---

(١) ش: وقال وأنى له. (٢) مسند أحمد: ٢/٣٨٠. (٣) ش: بزمانكم.
(٤) كذا في أ، ش. وفي ظ: وشره. (٥) ش: وَدًّا (٦) ش: فاستوى.
(٧) هائر: مهدَّم.

أمَا تلمحت أبْصارُ البصائر ما الأمْر إليه صائر؟! كيف آثرتم الرذائل على المفاخر؟! إنّ عين اللبيب ترى الآخِر، يا مستتر الفهم في قشر قِشْر طَبْعه، يا مُعرضًا عن العاذل الباذل نُصحه لردعه، لو فتحتَ أجفان الجفاء عاد ومْضُ الجهالة جُفاء (١)، ولو لزمت الطبيب لوصف لك شِفاهًا شفاء، أما أنت راحلٌ عن قريب، وساكنٌ بيتًا أنت فيه غريب، فخلِّ مُخالَّة (٢) الدنيا وانطلق في طلاقها واخلع خُلْع باطلها واعمل في فراقها، وحصّلْ للفناء كفنًا من العمل، وأمْلِلْ ذكر الموت على مسمع الأمل، واتخذ راحلة تشُدُّ عليها رحْل الرحيل، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وتذكر أخلاَّءها كيف تخلّتْ عنهم، وتلمَّحْ مُوَاصليها كيف انفصلت عنهم، وأعلمْ جوارحكَ بقرْب التفرُّق، وحدّث أعضاءك خبر التمزُّق، وقِفْ في ساحة الفكر بأقْدام التيقُّظ، ونادِ في نادي الأسى بلسان التأسُّف، وابكِ عليك قبل أن يبكي الغير، وليكن جُلَّ أسفك على حرمان الخير:

يـقـولـون قـبـل البَيْن عينُك تدمعُ ... دعـوا مُقلـةً تـدري غـدًا منْ تُودِّعُ
تـرى بالـنَّـوى الأمر الذي لا ترونه ... هـوًى فيـقـولـون الذي ليس يُسمع
ودُونَ انصداع الشَّمل لو تسمعونه ... أنيـنٌ حـصــاةُ القلب منه تَصدَّعُ

كانت رابعة تقول لسفيان: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلُّ.

وكانت رابعةُ تبكي حتى يُسمع وَقْعُ دموعها على البواري (٣)، وكان في بيتها كراخة (٤) بواري ومِشجب (٥) قصبٍ فارسي طُوله من الأرض قدر ذراعين وسِتْر البيت جِلّةٌ (٦) أو باريَّة، وحُبّ (٧) وكوزٌ ولِبْدٌ (٨) هو فراشُها ومُصلَّاها، وكان لها مشْجب عليه أكفانها، وكانت إذا ذكرت الموت انتقضت، وكان موضع سجودها كهيئة الماء المُستنقع من دمُوعها، وكانت تقول: أستغفر اللَّه من قلة صدْقي في قولي: أستغفر اللَّه.

وقيل لها: هل عملت عملًا تَريْن أنه يُقبل منك؟ قالت: إن كان فخوفي أن يُردَّ عليّ.

وكان سفيان يقول: هلمُّوا إلى المأدبة التي لا أجد من أستريحُ إليه إذا فارقتُها، فدخل عليها يومًا فقال: وا حُزناه. فقالت: لا تكذب قُلْ وا قِلّة حُزناه لو كنت محزونًا ما هَناك العيش!

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بإسناده عن عبْدة بنت أبي سوار وكانت من خيار إماء اللَّه

---

(١) الجفاء: المدفوع المرمي به.
(٢) المخالة: المحبة أو المصاحبة.
(٣) البواري: الحصر المنسوجة.
(٤) الكراخة: الشقة من البواري سوادية.
(٥) المشجب: خشبات منصوبة تعلق عليها الثياب.
(٦) الجلة: البُسط والأَكْسية.
(٧) الحب: الجرة التي يوضع فيها الماء.
(٨) اللبد: الصوف المتداخل.

تخدم رابعة قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هَجَعت في مُصلَّاها هجعةً خفيفةً حتى يُسفِر الفجر، فكنتُ أسمعها تقول إذا وثبتْ من مرْقدها ذلك وهي فَزِعةٌ: يا نفسُ كم تنامين؟ وإلى كم تقُومين؟ يوشكُ أن تنامي نوْمةً لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور قالت: فكان هذا دأبها دَهْرَها حتى ماتت، فلما حضرتها الوفاة دعتني فقالت: يا عبدة لا تُؤذني بموتي أحدًا وكفِّنيني في جُبتي هذه، جبةٌ من شعْرٍ كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون. قالت: فكفَّنَّاها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه. قالت عبدة: رأيتها بعد ذلك بسنةٍ أو نحوها في منامي عليها حُلة إستبرق خضراء وخمارٌ من سُندُس أخضر لم أر قطُّ شيئًا أحسن منه، فقلت: يا رابعة: ما فعلت الجبة التي كفنَّاك فيها والخمار؟ قالت: إنه واللَّه نُزع عني وأبدلتُ به هذا الذي ترينه علي، وطُويت أكفاني وخُتم عليها ورفعتْ في عليينٌ ليكمَّل بها (١) ثوابها يوم القيامة، قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرامة اللَّه ﷻ لأوليائه؟ قالت: فقلت: فما فعلت عَبْدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات سبقتنا واللَّه إلى الدرجات العلى. فقلت: وبم؟ وقد كُنت عند الناس أي أكبر منها؟ قالت: إنها لم تكن تُبالي على أي حال أصبحتْ من الدنيا وأمْست. قالت: فقلتُ: فما فعل أبو مالك؟ تعني ضيغمًا قالت: يزور اللَّه ﷻ متى شاء (٢) قالت: قلت: فما فعل بشر ابن منصور؟ قالت: بخٍ بخٍ أُعطي واللَّه فوقَ ما كان يأمل. قلتُ: فمُريني بأمرٍ أتقرب به إلى اللَّه ﷻ. قالت: عليكِ بكثرة ذِكره أوْشك أن تغتبطي بذلك في قبرك:

ذي المعالي فليعلونَّ من تعالَى ... هكذا هكذا وإلا فلا لا

شرفٌ ينطح النجوم بَرْوقَيْـ ... ـه وعزٌّ يُقلقل الأجبالا (٣)

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (٤)

اليُتْم: في اللغة يكون بموت الأب دون الأم. ويسمى يتيمًا فإذا بلغ فلا يُتم بعد حُلُم.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أنا

(١) ش: ليكمل لي.

(٢) هذا من كلام المتصوفة الذي لا يتفق مع ما وصف اللَّه به نفسه وما وصف به رسوله ﷺ.

(٣) الروق: القرن، والأجبال: جمع جبل.

(٤) سورة الفجر: ١٧.

وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » (١) وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّق بينهما قليلًا. (انفرد بإخراجه البخاري).

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « خير بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحسَن إليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُساءُ إليه ، وأنا أوّل من يأتي باب الجنة غير أني أرى امرأة تبادرني، فأقول لها: مَنْ أنت فتقول: أنا امرأة مات زوجي وترك عليّ أولادًا فقعدتُ أربيهم » (٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾:

أخبرنا عبد الأوَّل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل اللّه أو القائم الليل الصائم النهار » (٣) (أخرجاه في الصحيحين).

قوله تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾:

قال ابن قتيبة: ﴿ ٱلتُّرَاثَ ﴾: الميراث، والتاء فيه منقلبة عن واو كما قالوا تجَاه والأصل وِجَاه (٤) وقالوا: تُخمةٌ. والأصل وُخمة ولمًّا أي: شديدًا وهو من قولك لمَّمْتُ الشيء إذا جمعته.

قوله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ... ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: تحبون جمعه ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: كبيرًا ولا ينفقونه في خير، وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا رأى الفتوح بكى وقال: ما حبس اللّه هذا عن نبيه وعن أبي بكر لشرٌ أراده لهما وأعطاه عمرَ إرادة الخير له.

ولما بعث عمر إلى زينب بنت جحش ﷺ سهمًا من بيت المال فرأت مالًا كثيرًا قالت: اللّهم لا يُدركني بعدها عطاء عمر. فماتت.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تُحسن رقيته فلا تأخذه فإنه إن لدغك قتلك سُمُّه. فقيل: ما رُقْيته؟ قال: أخْذه من حِلّه ووضعه في حقه.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾:

يا من أصبح بجمع المال مُنْهمًّا، فإذا فاته شيء بات مُغتمًّا، أما علمت أنك تجمع سُمًّا، فإن حبسته أوجب ذمًّا ولا يُفيدك الكثير إلا همًّا، سيضمه غيرك إذا ضمَّك اللَّحدُ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٢٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب رقم : ٦. ولم يرد فيه هذه الزيادة.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب رقم : ١. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٤٤.

(٤) قال في القاموس: ووجاهك وتجاهك مُثَلَّثَيْنِ: تلقاء وجهك. ومعنى مُثَلَّثَيْنِ أي: بكسر أوله وفتحه وضمه.

ضمًّا، قدِّرْ أنَّك ملأت به طمًّا ورمًّا، أتتخلص من الحساب عن ما يكفي جامعه إذا منعه ذمًّا ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون.

ثم أخبر عن تلهفهم على ما سلف حين لا ينفع فقال: ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ أي: مرةً بعد مرةٍ فتكسَّر كل شيء عليها.

سجع على قوله تعالى: ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾:

قدِّر أنك ملكت ملكًا، وملأت بالمال الكثير مَسْكًا [١]، وحشوت دارك كلها مِسْكًا، واستعْبدت عَربًا وتُركًا، وأمطرت الدنيا عليك وبْلًا وركًّا [٢]، هل بدٌّ من الرحيل؟ لا تسمع إفْكًا، هل بُدٌّ من العتاب وما يجري لا يُحْكى، ستدري عند الحساب على من يُبْكَي، إذا فتك العقابُ بالعاصي فَتْكًا، واسترقَّه العذابُ ولمْ يُطق فَكًّا، وأصبح حبل صبره من الهول مُندكًّا، لتنذر من [آمن] حقًّا يقينًا لا شكًّا، إذا رأيت بكل ما عملت صَكًّا، وسَلك بك التوبيخ مسْلكًا ضَنْكًا، ورأيت قلبك بالهموم والغموم يُنْكى [٣]، تالله ما سلم إلا من حصَّل نُسكًا [٤]، قد أفلح من تزكَّى، ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ... ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: أمره في الخلق ﴿ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: يأتي أهل كلُّ سماء صفًّا على حِدَةٍ فيكونون سبعة صفوف.

كيف تغترون بحياة يكدِّرها التلف؟ كيف تفرحون بذنوبٍ عُقباها الأسَف؟ كأنكم بالقيامة وأهوالها، ومجازاة النفوس على أعمالها، والحسْرةُ عند تصفّح الكتب وما في خلالها، وقلق القلوب عند ظهور العيوب فلا تسأل عن حالها.

ألا ذو نفس يخافُ الإهانة، ألا مُستودَع يحفظ الأمانة، ألا خائن يردُّ الخيانة.

لقد ناديتُ لكن في الأسماع صَمَم، ولقد حرّضتُ ولكن أين الهِمم، ولقد جَلَوْتُ على القلوب عرائس الحكم، وأهديت المواعظ فأبى المُستام [٥] أن يقول بِكَمْ.

* * *

(١) المسك: الجلد.

(٢) الوبل: المطر الشديد، والرك: المطر الخفيف.

(٣) ينكي: يجرح.

(٤) النسك بضم النون وفتحها وكسرها: العبادة.

(٥) المستام: المشتري.

قوله تعالى:

﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ... ﴿٢٣﴾ ﴾

قال مقاتل: يجاء بها فتقامُ عن يسار العرش.

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمامٍ سبعون ألف ملكٍ يجرُّونها »[(١)].

سجع:

لو رأيتها إلى الخلَق تَقْدَم، تساقُ بالأزمّة وتتكلم، لا ترحم من تأوَّه وتألم، لا ينجو منها إلا من سَلّم، إذا رآها العاصي استسلم، حينئذٍ يتمنى أن يُعدَم، يَجْثو الخليل ويتزلزل ابن مريم، ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾.

كم فيها من عربي وأعجم، يا من إذا خطرتْ له معصية صمّم، ما فعلك فعلُ من يريد أن يَسْلم، يا مُعْوَجّ الذهن متى يتقوّم، أتُرى تدري بهذا أو ما تعْلم[(٢)]؟ أتُرى تسمعُ أو ما تفهم؟ ما للفلَاح علامةٌ واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ... ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: يتعظ، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: كيف له بالتوبة وهي في القيامة لا تنفع.

يتمنى العاصي أن يُردَّ وهيهات، بابُ الرجوع سُدّ، ذهب زمان الوصال وجاء الصدّ، نَضَب ماء الإمهال وطال ما مُدّ، كمْ من قلوبٍ حينئذٍ قَلِقَة، وكم من أفئدةٍ يومئذٍ مُحْتَرِقة، لو قيل: ما المُنى؟ قالت: أعود فيقال: هيهات! يَبِس العُود.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾:

لقد عاش ابن آدم في الدنيا دهرًا، وسمع المواعظ سرًّا وجهرًا، وأضاع في تفريطه عُمرًا، وصاحَب في تخليطه زيدًا وعَمْرًا، فرحل عن الدنيا لا يفهم أمرًا، فإذا لاحت النارُ تُبدي لهبًا وجمْرًا، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾.

يا وَيْحَه خرج من الدنيا صِفْرا، وكم خلّف مالًا ووفْرا، وكان حظّه منها حظَّ عُروة مِنْ عفْرا[(٣)]، فسكن من المنازل منزلًا قفْرًا، فإذا قام وقد أثقلت ذنوبه ظهْرًا، ﴿ يَوْمَئِذٍ

---

(١) صحيح مسلم، باب في شدة حر نار جهنم، حديث رقم : ١.

(٢) ش: أو تعلم.

(٣) يشير إلى قصة عُروة بن حزام مع عفراء بنت مالك. انظر ذم الهوى لابن الجوزي بتحقيقي : ص ٤٠٧.

يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

قولوا لمن غدا نحو الخطايا (١) وجرى، أرضيت أن تَحرم نفسك غدًا أجْرا؟! هلا زجرتها عما يضرُّها زجْرَا، هلا منعتها ما يؤذيها حَجْرَا، قبل أن تراها من شراب الخسران سَكْرى، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

غدًا تُزوّد (٢) من الحنُوط (٣) عِطْرَا، غدًا تصير في بطن الأرض سطرَا، ويُقتسمُ مالك شَطْرًا شطْرَا، ويطرأ عليك ما لم يكن يطرَا، وتقوم من قبرك ولا تدري أين المسْرى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

مُدَّ الصراط على متن جهنم جِسْرا، وأَسر العذابُ فأَوْثَق الأَسْرى أسْرَا، وغُلّت اليمين مقرونة باليُسْرى، وافتقروا فلم يجدوا حينئذٍ يُسْرَا، وانقسمت المعاملاتُ ربحًا وخُسْرَا، وأذلُّ الناس وأقواهم كَسرًا كِسْرَى، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

حملوا من الوزر ما أزرى أزْرا، وندموا إذْ أَتَوا على ما أَتَوا من الذكرى، وتيقنوا أن خُدع (٤) الغرور كانت مَكْرا، فاشتغل كلٌّ بنفسه فلا يحيلُ في غيره فكرا، هيهات شغلت الأهوال وائلًا أن يذكر بكْرا (٥)، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

فتصوَّر ما وصفتُه لحسِّك، واستدركْ في يومك باقيَ أَمْسِك، وقدِّم عملًا صالحًا لرَمْسك (٦)، فإن قبلتَ وإلا أنت بنفسك أعرف وأدرى، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾

* * *

قوله تعالى:

﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾

المعنى: قدمتُ العملَ الصالحَ لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها.

سجع على قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾:

لو رأيتَ العاصي يتلهف ويبكي على ما فاتَ ويتأسف، يقول يا ليتني تدبَّرتُ آياتي، يا ليتني عملت بمعلوماتي، ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. يا ليتني حققت صلاتي، يا ليتني

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: المعاصي.
(٢) كذا في أ، ظ. وفي ش: تتزود.
(٣) الحنوط: الطيب الذي يخلط للميت.
(٤) ش: خدوع.
(٥) وائل وبكر من قبائل العرب.
(٦) الرَّمْس: القبر.

أديت زكاتي، يا ليتني حبست كلماتي، يا ليتني قيدتُ نظراتي، ما استعملتُ فيما خُلقت له أدواتي، أهْملتُ مفروضي (١) وواجباتي، أنفقتُ ساعاتي في غير طاعاتي، لقد سَعَيْتُ في هلاكِ ذاتي بلذَّاتي، أفْسدتُ بالمعاصي صفاتي، وآثرتُ ذنوبي وسيئاتي، ونسيتُ في غروري وفاتي، فما خطر على قلبي ذكرُ مماتي، سبحان من حرمني حزْمي وثباتي، وكانت عليَّ لا لي وَثَباتي، فظننتُ أن الزمان يُسْعدُ وَيُواتِي، فما حذرتُ في سلامتي نكباتي، ليتني اعتبرتُ بموت لِدَاتي (٢)، فاليوم ما تنفعني عَبَراتي، صرت أسيرًا حسيرًا لزلَّاتي، جُوزيتُ على حركاتي وسكناتي، وا أسفًا على ضياع أوقاتي، وا حسرتى وا آساتي، ما نفعني أهلي ولا قراباتي، لا تستبعدوا هذا فهذا سياتي، هذا باب التوبة مفتوح فَمَنْ منكم ياتي؟

[آخر المجلس والحمد للَّه دائمًا، اللَّهم تب علينا يا تواب، وسامحنا يوم الحساب، وهب لنا جزيل الثواب، وافتح لنا إلى الخير كله الأبواب، إنك كريم وهَّاب، والحمد للَّه رب العالمين] (٣).

* * *
* *
*

---

(١) ش: مفروضاتي.

(٢) لداتي: أترابي وأقراني.

(٣) من النسخة ظ.

المجلس الحادي عشر

في التحذير من الغرور

الحمد للَّه العالم بالسر وما يُجَنّ، وما يعرضُ في القلب وما يَعِنّ، سامعُ صوت اللَّهيف يبكي ويئن، وهُتاف الحَمَام إلى الإلف يَحِن، قدَّر لكل حيٍّ الأجل والسِّن، وعظَ وزجرَ فأزْعج المطْمئِن، وخوَّف الهجيرَ مَنْ قد ألف لَكِنْ (١)، أنشأ الجبال صُمًّا فإذا جاء الوعيد عُدْن كالعِهْن ولِنّ، وتسبيحات المؤمن يَعْدِلْن الجبال (٢) ويَزِنّ، لا بل أنين المذنب إذا سمعتَه يئن، حكم بالعدل بين الإناث والذكور لئلا يقال في حكمه لكنّ، فمنع الجوْر في الضِّعاف وقوّم المُرْجحنّ (٣)، ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ (٤).

أحمده بمحامد إذا وُزِنّ زِنّ، وأقرُّ بتوحيده إقرار عبد قِنّ، وأصلي على رسوله المبعوث إلى الإنس والجن، وعلى صاحبه أبي بكر ثاني اثنين في الحياة والممات والسن، وعلى عمر الفاروق الذي خضعت له رقاب الملوك ودِنّ، وعلى عثمان المقتول ظلمًا وما أجَنّ، وعلى عليّ ولا أُظهر من حبه عُشر ما أُجِنّ، وعلى عمه العباس الذي لقَّن الألسنة ليلة البيعة فلُقْنّ.

* * *

أخبرنا علي بن عبد اللَّه بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (٥) قيل: فكيف ذاك؟ قال: « يدخل النور في قلبه فيفتح له » قيل: وما علامة ذلك؟ قال: « التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله » (٦).

اعلمِ أن القلبَ إذا استنار بالعلم أبصر طريق الهُدى، وإذا قلّ نوره بُهرج الأمر عليه فاغترَّ بأمرٍ يظنه صوابًا وليس به، فالغرور جهلٌ بالشيء، وقلّ أن يغتر الإنسان إلا بما يميلُ إليه طبعه، فيمنعه الهوى عن تلمُّح الهُدى، فيقف مع شبهةٍ تُوافق هواه فهذا هو الغرور.

والغرور يزيد وينقصُ، وأشد الناس غرورًا الكفار، **وهم على طبقات:**

فمنهم مَنْ غلب الحسُّ عليه فقالوا: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (٧).

---

(١) الْكِن: البيت.

(٢) كذا في أ. وفي ظ: الشم. وفي ش: الشيء.

(٣) المرجحن: المائل.

(٤) سورة النساء: ١٢٧.

(٥) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٦) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٧) سورة الجاثية: ٢٧.

ومنهم من اعتقد وجود الصانع فادَّعى معه شريكًا إنسيًّا، بمبتدعات الآباء وجريًا على عادة الأسلاف من غير بحثٍ عن دليل.

ومنهم من علم صحة دينه قبل النسخ فلم يلتفت إلى الناسخ وادعى استحالته كاليهود. والحاجة تدعو إلى بيان اغترار المسلم ليحذر، فلا نُطيل بذكر الكفار.

فالمسلمون المغترُّون طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة العلماء: وهم قومٌ أحْكموا العلم وتركوا العمل به، ظنًّا منهم أنهم قد حفظوا الشريعة فلهم عند اللَّه قدرٌ، ولو حققوا النظر لعلموا أن العلم لا يُراد إلا للعمل، وكأنهم يزيدون من الحجة عليهم.

أخبرنا أحمد بن أحمد المتوكلي بإسناده عن معروف الكَرْخي قال: قال بكر ابن خُنيْس: إن في جهنم لواديًا تتعوذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم سبع مرات، وأن في ذلك الوادي لـجُبًّا، يتعوذ الوادي وجهنم من ذلك الجبِّ كل يوم سبع مرات، وإن في ذلك الجب لـحّيةً يتعوذُ الجب والوادي وجهنم من تلك الحية كل يوم سبع مرات، يُبدأ بفسقة حملة القرآن، فيقولون: أي رب بدئ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال: ليس من يعلم كمن لا يعلم.

– **ومنهم** قومٌ أحكموا العلم والعمل، إلا أنهم لم يُصلحوا الصفات الباطنة المذمومة من الكبر والحسد والغيبة والرياء، فمنهم من يظن أن استقامة فعله الظاهر تكفي عن هذه، ومنهم من يظن أن هذه الخصال تدخل في غضون الأفعال الظاهرة فيسامح بها ولا يدري أن هذه شُعَل تعملُ في بيت القلب فتحرق مواطن المعرفة، أتراهم ما تلمحوا قوله ﷺ: « إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١).

– **ومنهم** من يتأول لفعله فيقول: مُرادِي إعزازُ الدين، فإني لو جلست في المجلس (٢) الدُّون كان إذلالًا للإسلام. وينسى أن الدين إنما ارتفع بالتقوى لا بالكبر، ويقول: إطلاق لساني في الناس ردٌّ على مُبْطل. وربما كان مقصوده الغِيبة لا نُصح الإسلام فيُبَهْرج على ناقدٍ بصير.

– **ومن العلماء** قومٌ سَلِموا من هذه الآفات لكنهم في خدمة الهوى من حيث لا يعلمون، فهم يُصنفون ويتكلمون ومُرادُهم ذكرهم بذلك ومدحهم وكثرة أتباعهم، وهذه الآفة من خبايا النفوس لا يفطن لها إلا الأكياس.

---

(١) ش: وأفعالكم. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر، حديث رقم : ٣٣.

(٢) ش: مجلس.

الطبقة الثانية: طبقة العُبّاد: فمنهم من حقّق التعبد، إلا أنه يرى نفسه فهو مغرور بذلك.

- **ومنهم** من ترك كثيرًا من الفرائض شُغلًا بالنوافل: فمنهم من يدركه الوَسْواس في الماء الطاهر ولا يدركه الوَسْواس في تناوُل الشُّبهة من المال، ومنهم من يتوسوس في نية الصلاة ثم يترك قلبه في باقيها يسرح في الغفلات، ومنهم من يكثِر التلاوة ولا يعمل بما يتلو، ومنهم من يصوم ولا يتحفَّظ من غِيبة، ومنهم من يخرج إلى الحج ولا يخرج من المظالم ولا ينظر في نفقته، ومنهم من يأمر بالمعروف وينسى نفسه، ومنهم من يجاور بمكة وينسى حفظ الحرمة، ومنهم من يزهد في المال وهو راغب في الرياسة بالزهد.

- **ومنهم** من يتخلق بأخلاق الفقراء في صور ثيابهم ومرقَّعاتهم، ويترك أخلاقهم الباطنة فيشبع من الشُّبهات وينام الليل ولا يعرف واجبات الشرع.

- **ومنهم** من يُتعب نفسه في طلب الحلال ويهمل باقي الخصال، ومنهم قومٌ راضوا أنفسهم مدةً ثم تركوا الأعمال وقالوا: قد حصَل تهذيبنا واللَّه غنيٌ عن تعبنا [١]، ومنهم من يدعي علوم المعرفة فيعمل بواقعةٍ وإن خالف الشريعة.

الطبقة الثالثة: أرباب الأموال: فمنهم قوم يحرصون على بناء المساجد والمدارس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلّد ذكرهم. **واغترارهم من وُجُوه:**

أحدها: أن هذا البناء قلَّ أن يكون من وجهٍ طيب، فردُّ ذلك المال على أربابه أولى.

والثاني: أنه من أراد وجه اللَّه تعالى لم يُبال بذكر الخلق.

والثالث: أن إنفاق المال في زخرفة المساجد منهيٌّ عنه، فرؤيتهم ذلك من الخير اغترار.

والرابع: أن صرف ذلك إلى الفقراء ربما كان أهمّ لبناية مسجدٍ عن مسجدٍ، غير أن للنفس خبيئةً وهي حب المدح.

- **ومنهم** قوم يتصدقون، ولكن في المحافل ويُعطون مَن عادته الشكر وإفشاء المعروف.

- **ومنهم** من يخرج الزكاة إلى من يخدمه أو ينفعه بأمر، ومنهم من يُكثر الحج وربما ترك جيرانه جياعًا.

- **ومنهم** قومٌ يجمعون المال ويبخلون بإخراجه، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقةٍ كالصيام والصلاة، ولا يدرون أن جهاد النفس في البخل المهلِك أولى.

الطبقة الرابعة: العَوامُّ: واغترارهم من وجوه:

- **فمنهم** من يصلي كيف اتفق ولا يسأل عما يصلح الصلاة ويفسدها.

---

(١) كذا في أ، ظ. وفي «ش»: تعذيبنا.

– **ومنهم** من يُواظب على النوافل كالتراويح وصلاة الرَّغائِب ولا تكاد تجده في صلاة الجماعة.

– **ومنهم** من يلازم مجالس الوعظ ولا يعمل بما يسمع ولا ينتهي عن قبيح ما يأتي، كأن المقصود الحضور فقط.

– **ومنهم** من يتنفَّل بالعبادات ويهمل الفرائض.

– **ومنهم** من يتطوع بالخير ويكثر من التسبيح مع معاملته بالربا واستعمال الغش، وربما صاح على والديه وأخذَ أعراض الناس.

وجمهور الناس قد اتَّكلوا [١] على العفو والحلم، فهم مصرُّون على ذنوب وخطايا، فإذا ذكرتْ لهم العقوبة قالوا: هو كريم. وينسون أنه شديد العقاب ولا يتفكرون في الجرأة على استعمال المنهي، أتُراهم ما علموا ما جرى لآدم في لقمة، ولداود في نظرة، أوَ ليس قد جُعل عقاب السارق في ربع دينار قطع يده؟ أفيأمن أن يكون عقابه على الذنوب غدًا هكذا؟!

– **ومنهم** أقوام يستعجلون [٢] المعصية لموافقة الهوى ويُضمرون [٣] أننا سنتوب ويُسوِّفون بالتوبة، وهؤلاء قومٌ قد عزلوا العقل عن المشاورة، أتُراهم ما رأوا من بُغت بالهلاك على ذنوبه ولم يمكنه أن يتوب؟!

– **وفي العصاة** من يغتر بفعل خير يعمله، فربما تصدق أو سبَّح وظنّ أن هذا يقاوم ذنوبه، فإذا زُجر قال: ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [٤]، ولو سأل العلماء عن تفسير هذه الآية لأخبروه أن الذين خلطوا هو اعتذارهم عن الذنب، فجاء الفعلُ الحسن ناسخًا لما تقدمه من السيِّئ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فأما المصرُّ على الخطأ فمستحق للعقوبة على إصراره، فكيف إذا فعل.

– **ومن المغترين** من يغرُّه صلاح آبائه، فربما قال الشريف: أبي يشفع لي. ولا يدري أن أباه إنما فُضل بالتقوى وكان مع التقوى خائفًا، ومن أين له أن يشفع له؟ أو ما سمع قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [٥].

وفي الصحيح [٦] أن رسول الله ﷺ قال: « يا فاطمة لا أغني عنك من الله شيئًا » [٧].

فالعاقل من عمل على الحزم وأخذ بالأحْوط ولم يبدد الماء لرؤية ما يظنه ماء وربما كان سَرابًا، ثم غايةُ الأمر أنه لو نفعه ما ظنه وصح له ما اغتر به، أليس قد فاته السباق

---

(١) كذا في أ، ظ. وفي ش: تكلموا.
(٢) ش: يستعملون.
(٣) كذا في أ، ش. وفي ظ: ويقولون.
(٤) سورة التوبة: ١٠٢.
(٥) سورة الأنبياء: ٢٨.
(٦) ش: الصحيحين.
(٧) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب رقم : ١١.

إلى الفضائل في ميدان السابقين، فمن تأمل العلم وتصفَّحه وشاور العقل دلّه على الحزم فسلم من الاغترار. واللَّه الموفق.

* * *

الكلام على البسملة

نسيتَ لظًى عند ارتكابك للْهوى وأنت تَوقى حر شمس الهواجر

كأنك لم تَدفِن حميمًا ولم تكن له في سياق الموت يومًا بحاضر

أيها العاصي تفكر في عمرك قد مضى كثيره، وفي قدمٍ ما يزول تعثيره، وفي هوى قد هوَى أسيره، وفي قلبٍ مشتَّت قد قلّ نظيره، تفكرْ في صحيفة قد اسودَّت، وفي نفس كلما نُصحت صدَّت، وفي كفِّ المنايا قد تشمّرت وامتدّت، وفي ذنوب ما تُحصى لو عُدّت، يا ذاهبًا في شططه، يا واقفًا مع غلطه، يا معترضًا لعقوبة الإله وسخطه، يا من لا يفرق بين عمله المرضيِّ وسَقَطه، أما له عبرةٌ بفرَطه، أما هناك استدراك مبادرة غلطه، إلى متى على قبيح نَمَطه؟! هلَّا بادرَ عمره في جمع لَغطه، هلَّا عبَّأ متاع الرحيل في سَفطه [١]، ألَّا حذَّر من سيفٍ في يد مُخترطه؟!

كلا لو صحا لاتعظ وأثَّر فيه اللوم وامتعظ [٢]، لكن قلبه في غاية الغِلظ، أفسدته المعاصي فلم يُطهِّره الشثُّ والقَرظ [٣]، لا يلتفت إلى من لام ولا منْ وعظ.

يا من لم يبق من عمره إلا الأقل، وهو للوزر العظيم قد حمَل وأقلّ، يتعرضُ من المعاصي لما دقَّ وجلّ، ويرائي الخلق وينسي حقّ مَنْ عزَّ وجلّ، قد ملأ الصحيفة من قُبح ما أملّ، حُملتْ عليه الأمانة فاختانها وغَلّ، يُدعى إلى الاستقامة وكلما قُومّ زَلّ، لا يعرف الطريق ولا يقبل ممن دل، قد حلّ رحْله بمَحِلةٍ ما حلَّها من حلّ، قد غرّه مكر « سوف » وأوثقه قيدُ « لعل » [٤].

إلام تُمنِّي النفسَ ما لا تناله وتذكر عيشًا لم يعُدْ مُذ نصرّما

وقد قالت السبعون للَّهو والهوى دعا لي أسيري واذهبا حيث شئتما

يا مبارزًا بالقبائح مهِّد عُذرك، يا مواصلًا نقض العهود جانبْ غَدْرك، يا مُدمنًا للزلل

(١) السفط: كالجوالق أو القُفّة.

(٢) امتعظ: أصلها امتعض ومعناها: غضب أو شق عليه فأبدل الضاد ظاء مراعاة للسجع.

(٣) الشث: نبت طيب الرائحة يُدْبغ به. والقرظ، محركة: ورق شجر السلم أو ثمر السَّنْط.

(٤) يشير إلى آفة التسويف وتأخير التوبة.

تدبرْ أمرك، يا لاهيًا في أيام العافية ما تُتْرك، إن آثرت صُحبة المتقين فاشرحْ صدْرك، وإن أحببتَ حلاوة العواقب فاستعمل صبرك.

كان أبو مسلم الخولاني كثير التعبد والصوم، فقيل له: لو أرحت لنفسك قليلًا؟ فقال: قد أبصرتُ الغاية وإن الخيل لا تجري الغايات وهي بُدَّن، وإنما تجري وهي ضُمَّر [١] إن بين أيدينا أيامًا لها نعمل.

كان أبو مسلم الداراني يُحيي الليل ويقول: تعرَّض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف، والتمِسْ الحزن بدوام الفكر، وتزيَّن بالأخلاق للَّه، واحترزْ من إبليس بمخالفة هواك، ومرارة التقوى اليوم حلاوةٌ غدًا، والهالكُ من هلك في آخر سفره وقد قارب المنزل.

وكان عبد العزيز بن عمير يقول: إن الرجل لينقطع إلى بعض ملوك الدنيا فيُرى أثره عليه، فكيف بمن انقطع إلى اللَّه تعالى، كيف لا يُرى أثره عليه.

وقال أبو الجوال المغربي: كنت ببيت المقدس جالسًا، وإذْ قد طلع شابٌّ والصبيان حوله يرمونه بالحجارة ويقولون: مجنون، فدخل المسجد وجعل ينادي: اللَّهم أرحني من هذه الدار. فقلت له: هذا كلامُ حكيم، فقال: ليس بي جنون وولقٌ [٢]، بل قلقٌ وفَرَق، ثم أنشأ يقول:

هجرتُ الورى [٣] في حبِّ منْ جادَ بالنعم ... وعِفْتُ الكَرى شوقًا إليه فلم أنمْ
وموّهتُ دهري بالجنون عن الورى ... لأكتمَ ما بي مِنْ هواه فما انكتم
فلما رأيتُ الشوق والحُبَّ بائحًا ... كشفتُ قناعي ثم قلت نعمْ نعمْ
فإن قيل مجنونٌ فقد جنّني الهوى ... وإن قيل مِشْقامٌ فما بي من سِقَمْ
وحقّ الهوى والحبِّ والعهد بيننا ... وحرمة روح الأنس في حِنْدس [٤] الظُّلَمْ
لقد لامني الواشون فيك جهالةً ... فقلت لطرفي [٥] أفصح العُذر [٦] فاحتشم
فعاتَبهم طَرْفي بغير تكلُّم ... وأخبرهم أن الهوى يورث السَّقَمْ [٧]
فبالحلم يا ذا المنّ لا تُبعدنّني ... وقرِّب مزاري منك يا باري النسم

فقلت له: أحسنت، لقد غلط من سمَّاك مجنونًا، فنظر إليَّ وبكى ثم قال: أَوَ لا تسألني

---

(١) البدن: جمع بادن وهو الممتلئ. والضمر: جمع ضامر. وهو قليل اللحم.
(٢) في القاموس: الولق: الجنون أو شبهه.
(٣) كذا في ظ: وفي غيرها: الكرى.
(٤) الحندس: الليل المظلم، والظلمة.
(٥) كذا في أ، ظ، وفي ش: لنطقي.
(٦) ش: الغدر.
(٧) ش: الصمم.

عن القوم كيف وصلوا واتصلوا؟ فقلت: بلى أخبرني. فقال: طَهَّروا له الأخلاق، ورضُوا منه بيسير الأرزاق، وهاموا في محبته في الآفاق، وائتزروا بالصدق وارتَدوْا بالإشفاق، وباعوا العاجل الفاني بالآجل الباق، وركضُوا في ميادين السِّباق، وشمَّروا تشمير الجهابذة الحذَّاق، حتى اتصلوا بالواحد الخلَّاق، فشرَّدهم في الشواهق وغيَّبهم عن الخلائق، لا تؤويهم دار ولا يُقرهم قرار، فالنظر إليهم اعتبار، ومحبتهم افتخار، وهم صفوة الأبرار، ورُهبان أخيار، مدحهم الجبار، ووصفهم النبي المختار، إن حضروا لم يُعْرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، وإن ماتوا لم يُشهدوا.

ثم أنشأ يقول:

كُنْ من جميعِ الخلْق مستوحشًا ... من الورَى تَسْرِي إلى الحقِّ
واصبرْ فبالصَّبر تنال المُنى ... وارضَ بما يجري من الرزق
واحذر من النُّطق وآفاته ... فآفة المؤمن في النُّطق
وجدَّ في السير وشمِّر كما ... شمَّر أهلُ السَّبْق للسَّبْقِ
أولئك الصَّفوة ممن سما ... وخِيرة اللَّه من الخَلق

قال: فأنسيتُ الدنيا عند حديثه، ثم ولى هاربًا فأنا متأسفٌ عليه.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا... ﴾ (١)

المعنى: اضربْ هذا المثَل لسرعة نفادِها وعجلة ذهابها وتصرف أحوالها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ... ﴿٤٥﴾ ﴾ وهو المطر ﴿ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ... ﴿٤٥﴾ ﴾ أي: التف النباتُ وكثر بالمطر، ﴿ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا... ﴿٤٥﴾ ﴾ قال ابن قتيبة: الهشيم من النبت المُتفتِّت، وأصله من هَشَمت الشيء إذا كسَّرتُه، و ﴿ تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ... ﴿٤٥﴾ ﴾ تنسِفُه.

سجع على قوله تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ ﴾:

الدُّنيا كنبات توجَّه فيه الصلاح، فسأل زرَّاعه له الغيث في المساء والصباح، وهبَّ نسيمُ الجنوب في الأرض القراح (٢)، وأقبل الرعد له اصطخاب وصِياح، ثم نهض البرق كالمحارب يُشْهِر السِّلاح، فجاده فأجاده ونفع ذلك السماح، فتغلغل الماء قلْبَ العَذْق فإذا

(١) سورة الكهف: ٤٥.

(٢) القراح: الأرض لا ماء بها ولا شجر.

العذق رَدَاح [١]، وتَبَسَّم الروضُ تَبَسُّم المحبين عند المزاح، وتغنت الوُرْق على الوَرَق وصفقتْ بالجناح، فلما تمَّ أمره وانتظرت به الأرباح، وأعجبَ حُسنُه كلَّ طَرْفٍ مُنْتَقِدٍ لمَّاح، هبتْ عليه صَرْصرُ الهلاك ودامتْ بإلحاح، وأُوقِدت نارُ تَلَفِه في المساء والصباح، فَخَلعَت الرياضُ حُللَها ولبست الأمساح [٢] ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾.

نهوى الحياة ولو صحتْ عزائمُنا ... لَمَا صَرَفْنا إلى الخدَّاعة الهِمَمَا
والموتُ لو علمتْ [٣] شُمُّ الجبال به ... أزال ذلك منْ آنافها الشَّمما
إن الشُّخوص التي كانت رجاحتها ... توازن الهَضْبَ صارتْ في الثَّرى رِمَما
رَمَتْهم حادثاتٌ غير مُبقيةٍ ... شيئا فلم تُبق أبدانًا ولا قِمَما

* * *

قوله تعالى:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٤٦﴾ ﴾

والمعنى: لم يزل المال والبنون زينة الحياة الدنيا. هذا ردٌّ على المشركين الذين يفتخرون بذلك فأخبرهم أن ذلك مما يُتزين به في الدنيا فما ينفع في الآخرة.

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ... ﴿٤٦﴾ ﴾ **وفيها خمسة أقوال**:.

أحدها: أنها سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر.

روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إنْ عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدو أن تجاهدوه [٤]، فلا تعجزوا عن قول: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر، فقولوها فإنهن الباقيات الصالحات » [٥].

وهذا قول ابن عباس ﷺ في رواية عطاء، وبه قال مجاهد وعكرمة. وسئل عثمان ابن عفان ﷺ عن الباقيات الصالحات فذكر هذه الكلمات وزاد فيها ولا حول ولا قوة إلا باللّه [٦]، وبقول عثمان قال ابن المسيِّب وكعب القُرَظِي.

والثاني: أنها لا إله إلا اللّه واللّه أكبر والحمد للّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه. رواه علي

(١) العذق: النخلة بحملها، والرداح: الثقيلة بحملها.

(٢) المِسْح: الكِساء من شَعَر. المعجم الوسيط مادة (مسح).

(٣) كذا في ش وفي غيرها محرفة.

(٤) ظ: تحاربوه.

(٥) روى نحوه الطبراني والبزار، الترغيب والترهيب : ٢/٢٣٤.

(٦) ش: باللّه العظيم.

ابن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والثالث: أنها الصلوات الخمس. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود ومسروق والنَّخعي.

والرابع: الكلام الطيب، رواه العوفي عن ابن عباس [وبه قال ابن مسعود] [١].

والخامس: أنها جميع أعمال الحسنات. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس وبه قال قتادة وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا... ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: أفضل جزاء ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: خير مما تؤمِّلون؛ لأن آمالكم كواذب، وهذا أملٌ لا يُكذَب.

* * *

قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ... ﴿٤٧﴾ ﴾

قال الزجاج: هو منصوب على ﴿ اذكر ﴾ ويجوز أن يكون على ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ ﴾ يوم نسير الجبال. قال ابن عباس رضي الله عنهما: تسيَّر الجبال على وجه الأرض كما يسيَّر السحاب في الدنيا، ثم تكسر فتكون الأرض كما خرجت منها ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً... ﴿٤٧﴾ ﴾ أي: ظاهرة ليس عليها شيء من جبلٍ أو شجر أو بناء ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ... ﴿٤٧﴾ ﴾ يعني: الخلائق كلهم ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ... ﴿٤٧﴾ ﴾ أي: فلم نخلف ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا... ﴿٤٨﴾ ﴾ **ذكر أبو بكر بن الأنباري في هذه أربعة أقوال:**

أحدها: أنه بمعنى جمعنا كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ [٢].

والثاني: أن المعنى وعُرضوا مصفوفين. هذا مذهب البصريين.

والثالث: عرضوا صفوفًا، فناب الواحد عن الجميع كقوله: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [٣].

والرابع: أن المعنى، لم يغبْ عن اللّه تعالى منهم أحد، فكانوا كالصف الذي يسهل الإحاطة بجملته، وقيل: إن كل أمة وزُمْرة صفٌ.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾:

تاللّه إنهم إذا عرضوا صفًّا لا يَسْلم منهم إلا من صفَا، يا من سقيناه كأس معرفتنا

---

(١) من ش. (٢) سورة طه: ٦٤. (٣) سورة الحج: ٥.

صِرْفًا، وكمْ شفيناه وكان قد أشْفى، كم سترنا عليه حِلمًا وعطفًا، ووهبنا له من رحمتنا لُطفًا، هذا وهو في المعاصي كالمرسلات عُرفًا، قد بقي القليل ويُمْحى أثرك وتتعفّى، فاشتغلْ بالتوبة وسلْ للذنب أن يُعفى، وأنفق مالك قبل أن تنسفه الحادثات نسفًا ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ (١) قبل أن يعرض عليك كتاب لا يغادر حرْفًا، فيعود جفن الجاني على الدمع وَقْفًا، هذا وعلامات الطرد على المطرود لا تَخفى، وربما وقّع في توقيعه: يُطرد ويجفى، ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ... ﴿٤٨﴾ ﴾ حفاة عراة لا مال ولا أهل ولا ولد.

سجع:

يا من ضيَّع في المعاصي عُمره، يا من قد غلبت على قلبه السَّكْرة، يا من لا تصفو عنده في الآخرة فكرة، ويحك تزوَّد للسَّفْرة فقد بقي القليل للحفرة، ثم تقوم منبيًا بالقدرة، وتحضر للحساب في الحضْرة، وتُسأل عن الخُطوة والنظرة، وحيدًا لا جمع ولا كثرة، فقيرًا لا تملك ذَرّة، والعين كالعين في سُرعة العَبرة (٢)، والمعاتبة يوم المعاينة مُرَّة، والفقر شديد ولا ساعة العُسرة ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ المعنى: زعمتم في الدنيا أن لن نجعل لكم موعدًا للبعث والجزاء.

* * *

[قوله تعالى]:

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ... ﴿٤٩﴾ ﴾

وهذا اسم جنس والمراد كُتب الأعمال.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾:

قام الناس ينفضُون التراب، فزال الشك والارتياب، وذلَّت للأهوال الرقاب، وحارت العقول والألباب، وحضر الميزان والحساب، وتميَّز الخطأ من الصواب، وقَوِيَ على العاصين العتاب، فالحاضر منهم بالحزن قد غاب، كيف لا والباب والمآب، والسؤال دقيق

(١) سورة سبأ: ٣٧.
(٢) العبرة: الدمعة.

ولا جواب، والحاكم ربُّ الأرباب ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ... ﴿٤٩﴾ ﴾:

أي: خائفين مما فيه من الأعمال السيئة، ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا... ﴿٤٩﴾ ﴾ وهذا قول كلِّ واقعٍ في هَلكة، والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه جعلته نداءً وتدخل عليه تاء التنبيه، والمراد تنبيه الناس لا تنبيه المنادي، فكأنهم قالوا: يا ويلتنا احضري فهذا زمانك.

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا... ﴿٤٩﴾ ﴾ **والمراد:** صغار الأمور وكبارها، ومعنى ﴿ أَحْصَىٰهَا ﴾: أثبتها وعدَّها.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: « الدواوين عند اللَّه ثلاثة: ديوانٌ لا يعبأ اللَّه به شيئًا، وديوان لا يترك منه شيئًا، وديوان لا يغفره اللَّه تعالى، فأما الديوان الذي لا يغفره اللَّه تعالى فالشِّرك، قال اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (١) وأما الديوان الذي لا يعبأ اللَّه به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه عز وجل مِنْ صومِ يومٍ تركه أو صلاةٍ تركها فإن اللَّه عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء اللَّه. وأما الديوان الذي لا يترك اللَّه منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا، القصاص لا محالة » (٢).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « المفلس من أمتي من أتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقَذَف هذا، وأكل مال هذا، وسَفَك دم هذا، وضرب هذا، فيقضى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فَنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت ثم طُرح في النار. لَتُؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلْحاء من الشاة القرْناء » (٣).

سجع على قوله تعالى: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾:

يا مَنْ جَمَع الأموال وربَّاها، وأقرضها ثم أكل رِباهَا، وعلا من المحرمات على رُباها وافتخر بماله وجمْعه وباهى، كأنك بأشلائك والقبر قد حواها، والتراب قد أكلها وأبلاها، ثم تقوم إلى الحشر والأعمال قد حَواها، كتابٌ عَرْضها بصفاتها ثم جلَّاها،

(١) سورة المائدة: ٧٢. (٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٦/٢٤٠.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم: ٦. والجلحاء: التي لا قرن لها.

كتاب ينطق بما جرى شفاها، تُعرض خائنة الأعين (١) على من قد رآها، وخافية الصدر وصاحبها أخفاها، فيجازَى بالذَّرة من الخير ولا ينساها، سبحان من قدَّر الأمور وأمضاها، أسخط النفوس تقديره وأرضاها (٢)، أحضر زُمَر المتقين ثم نجاها، زرعوا جنات اليقين (٣)، فالتقطوا جناها، فأما زُمر الجُحَّد فالنار مأوها، تستغيث عطشًا ولو رحمها سقاها، الغِسْلين شرابها، والزَّقُّوم مَرْعاها، عرضتْ عليها ذنوبٌ قد وصفها الكتاب (٤) وسمَّاها، فاستغاثت فما أجيبت كما لم تُجب من ناداها، ﴿ يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ ﴾. واللَّه تعالى أعلم.

[آخر المجلس وهو آخر الطبقة الخامسة، والحمد للَّه دائمًا، اللَّهم يا منْ أسْبغ علينا نعمه ووالاها، وركّب في نفوسنا سجاياها، زكِّها يا رب أنت خير من زكَّاها، وألْهِمْها رُشْدها وتقواها أنت وليها ومولاها] (٥).

* * *
* *
*

(١) ظ: العين.
(٢) ظ: أو أرضاها.
(٣) ش: التقوى.
(٤) ش: الكاتب.
(٥) من ظ.

الطبقة السادسة

تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات

(وفيها خمسة مجالس)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المجلس الأول

في ذكر الموت

الحمد للَّه الذي ربَّى بَذْر النُّطفة في مُسْتَقر ، لم يُهنْ ولم يُبَلّ، ثم أخرجه صبيًّا يرمي أغراض الهوى بالنبْل، ثم رقّاه إلى الشباب والقوة وثيقة الحبل، الروح مسرورةٌ بالصحة والجسد عبْل، ثم إلى الكهولة وفي غيومها طَلٌّ من الضعف ووبْل، ثم إلى الشيخوخة وكم فيها قيدٌ عن التصرف وكبْل، وفي الخمسين تقربُ النوقُ وفي الستين يُضرب البوق والطَّبل، وكلما علتْ السنُّ أعلم أنك تبلى التَّبْل ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ (١).

أحمدُه حمدًا يملأ كلَّ سَعة، وأُنزِّهه عن نقصٍ في كماله وضِعة، وأقرّ بأنه مدّ الفراش ووضعه، وأقام السقف ورفعه، وأصلي على رسوله محمد الذي أخرج الماء من بين أصابعه وأنْبعه، وأطْلقه على أسرارٍ وأوْدعه، فجدَّ في طاعته لم يسكن إلى فتور أو دَعَة، وعلى صاحبه أبي بكر الذي نَصَر الإسلام يوم الرِّدة ونفعه، وعلى عمر الذي زلزل كسرى وزعزعه، وعلى عثمان الذي تجلْبب بالصبر وادَّرعه، وعلى عليٍّ الذي بات ليلة الغار موضعه، وعلى عمه العباس الذي كان ليلة العقبة معه.

* * *

حدثنا أبو سعد (٢) أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن بن علي بن أحمد ابن سليمان البغدادي بإسناده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أكثروا ذكر هاذم اللذات » (٣).

أخبرنا محمد بن عبد اللَّه القاضي بإسناده عن أنس ﷺ أن رجلًا ذُكِر عند النبي ﷺ فأحسنوا عليه الثناء، فقال النبي ﷺ: « كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟ قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت. قال: « فإن صاحبكم ليس هنالك » (٤).

اعلموا إخواني أنه جديرٌ بمن بين يديه الموت أن يُكثر ذكره، وأن يعدّ نفسه من الموتى لأن كلَّ آتٍ قريب.

---

(١) سورة غافر: ٦٧.
(٢) ش: أبو سعيد.
(٣) رواه ابن ماجه والترمذي وحسَّنه. الترغيب : ٤/١١٠.
(٤) أخرجه البزار من حديث أنس. الترغيب والترهيب : ٤/١١٢.

واعلم أن الناس في ذكر الموت على ضَربين:

أحدهما: أهل الغفلة فمنهم من لا يذكره، فإن عُرض له ذِكْره صرَف ذلك عن قلبه، ومنهم مَنْ إذا عرض له ذكره حزن لفراق الدنيا ونقص البيِّنة فهذان داخلان في حزب الغافلين الجاهلين.

والثاني: أهل اليقظة، وهم منُقسمون إلى خائف منه إما بالطَّبع، وإما أنه لا يرضى عمله، وإما لأنه باب الجزاء على الأعمال، فإن آدم عليه السلام كره الموت والخليل عليه السلام كره الموت، وموسى عليه السلام لَطَم عينَ مَلَك الموت لكراهية الموت، وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة بكى حتى تنخلع أوْصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين لقد خِفْتُ الموت خوفًا أوقفني خوفي من الموت على الموت.

وكان ابن سيرين إذا ذكر الموتُ مات كلُّ عُضو منه على حِدَته. وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذُكر الموت اضطربت أوصاله وانتفض انتفاض الطير.

- وقد كان في الصالحين من يغلب شوقه إلى ربه على خوفه من الموت فيؤْثِر الموتَ لأنه موعد لقاء الحبيب.

قال حذيفة عند الموت: حبيب جاء على فاقَةٍ، لا أفلح من ندم.

- وكان في القوم من يستجلب ذكر الموت للجدِّ في العمل.

قال الربيع بن أبي راشد: لو فارق ذكرُ الموتُ قلبي ساعةً لفسد.

واعلم أنَّا إنما نأمر بكثرة ذكر الموت للغافلين، فأما المتيقظ فعنده يقظة تكفيه فهو محتاجٌ إلى تعديلها، وكيف ينسى المتيقظ الموت وقد رأى بفِنائه الصبيان والشُّبان لا يدري متى يأتيه، ومتى قَوِيت اليقظة وتفرَّغ القلب من هموم الدنيا صار ذكرُ الموتِ أليفًا له لا يفارق، فإنه من واجه البادِية لم يَهْتم إلا بقطع المَفَازة، فأما المتيقظ بذكر فراق الدنيا فيحزن لانقطاع العمل، كما كان يزيد الرَّقاشي يقول لنفسه: من يُصلِّي عنك من يصوم؟!

- وفيهم من يكره الموت ليصحح العمل.

قال أبو سليمان: أحبُّ أن أبقى لعلي أتوب.

- وفيهم من تخايل شدائد الموت فقَوِيَ حَذَره.

فالشِّدة الأولى: تَقْوى في حق الغافلين وهي مفارقة المال والولد، وهي حقيقة عند المتيقظين لاشتغالهم بما هو أهم.

والشِّدة الثانية: رؤية الأعمال. قال أبو جعفر محمد بن علي: ليس من ميت إلا مُثِّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة، فيَشْخَص إلى حسناته ويُطرق عن سيئاته. وقال

مجاهد: ما من ميتٍ إلا عُرض عليه جلساؤه إن كانوا أهل ذكرٍ وإن كانوا أهل لهوٍ.

والشِّدة الثالثة: حسراتُ الفوت حين لا يمكن الاستدراك، وهذه أشدُّ شَدةٍ على المتيقظين، ويقال: إن الميتَ يقول لملك الموت: أخِّرني يومًا فيقول: ذهبت الأيام. فيقول: أخرني ساعة. فيقول: ذهبت الساعات. قال قتادة: واللَّه ما يتمنى أن يرجع إلى أهلٍ ولا عشيرة، ولكنه يتمنى أن يرجع فيعمل بطاعة اللَّه.

والشِّدة الرابعة: معاينة ملَك الموت، وهي حالة عظيمة، قال مالك بن مِغْوَلٍ لسفيان الثوري: أتشتهي الموت؟ قال: وددت أنه كان الساعة. فصاح مالك: معاينة الرسل معاينة الرسل!

قال ابن عباس: قال إبراهيم الخليل لملك الموت: أرني كيف تقبض أرواح الكفار. قال: لا تطيق ذلك. قال: بلى، قال: فأعرضْ فأعرضْ ثم نظر فإذا هو برجل أسود ينالُ رأسه السماء يخرج من فِيه لهبُ النار، ليس من شعرةٍ في جسده إلا في صورة رجل يخرجُ مِنْ فِيه ومسامعه لهب النار، فغُشي على الخليل ثم أفاق: فقال: لو لم يلق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لكفى، فأرني كيف تقبض أرواح المؤمنين؟قال: أعرضْ. فأعرضَ ثم التفت فإذا برجل شاب أحسن الناس (١) وجهًا وأطيبهم ريحًا في ثيابٍ بِيض.

والشِّدة الخامسة: أَلمُ الموت، والمتصوَّر من معرفتها ينقسم إلى نَقْلٍ وقياس، فأما النقل فأخبرنا ابن ناصر بإسناده عن ابن أبي مُلَيْكة قال: لما تُوفي إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لقي اللَّه ﷻ فقيل له: يا إبراهيم كيف وجدت الموت؟ قال: رب وجدت نفسي تُنزع بالشَّلا (٢)، فقيل: قد هونَّا عليك.

ورُوِّينا أن موسى عليه السلام لما توفي قيل له: كيف وجدت طعم الموت؟ قال: كسَفُّود (٣) أُدخِل في جَزَّة صوف فأُسْلِح (٤). قيل: يا موسى لقد هوّنا عليك.

وفي صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ كان يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: « لا إله إلا اللَّه إن للموتِ سَكرات » (٥).

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول اللَّه وهو يموت وعنده قدَح فيه ماء، فأدخل يده في القدح ثم مسح به وجهة ثم قال: « اللَّهم أعني على سكرات الموت » (٦).

أخبرنا علي بن عبيد اللَّه بإسناده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قُبض رسول اللَّه ﷺ

---

(١) ش: الشباب.

(٢) الشلا: العضو. أي أنه كان يموت عضوًا عضوًا.

(٣) السفود: حديدة يشوى بها اللحم.

(٤) ش: فانسلخ.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٤٢.

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب رقم : ٦٤.

ورأسه بين سَحْري ونحْري فسمعته يقول: « أفٍّ من كرب الموت أُفٍّ من الموت. ورأيته يدخل يده في الركوة وينضح على وجهه الماء فقلت: يا نبي اللَّه تقول كذا وأنت نبيُّ اللَّه فلم يزل يرددها حتى قُبض » (١).

أخبرنا محمد بن عبد اللَّه الحاكم بإسناده عن أبي حسين البرجمي رفعه قال: احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا اللَّه وبشروهم بالجنة فإن الحكيم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع، وإن عدو اللَّه إبليس أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن عند فراق الدنيا وترك الأحبة، ولا تقنطوهم فإن الكرب شديد والأمر عظيم، والذي نفسُ محمدٍ بيده لمعالجة ملك الموت أشدُّ من ألف ضربة بالسيف، وما من ميت يموت إلا وكل عِرق منه يألم على حِدَته (٢).

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: والذي نفسُ ابن أبي طالب بيده لألفُ ضربةٍ بالسيف أهْون من موتٍ على فراش!

وقال شدَّاد بن أَوْس: لو أنَّ الميت نُشر فأخبر أهل الدنيا بألم الموت ما انتفعوا بعيش ولا لَذُّوا (٣) بنوم.

وقال وهب: لو أن ألم عِرْق من عروق الميِّت قسِّم على أهل الأرض لأوسعهم ألمًا.

أخبرنا ابن ناصر بإسناده عن [معاوية بن] (٤) محمد بن عبد اللَّه بن بجير عن أبيه قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاةُ قال له ابنه: يا أبتاه إنك كُنت تقول: يا ليتني ألْقى رجلًا عاقلًا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجدُ، وأنْت ذلك (٥) الرجل فصِفْ لي الموت. قال: يا بني واللَّه لكأن جنبيَّ في تخت، وكأني أتنفس من سَمّ إبرةٍ، وكأنّ غُصن شوك يُجَرُّ به من قدميّ إلى هامتي، ثم قال:

ليتني كنتُ قبلَ ما قد بدا لي ... في قِلَال الجبال أرْعَى الوُعولَا (٦)

ليتني كنت حَيْضًا عركَتْني الإماء بِذَرِير الإذخر (٧).

وسئل الفضيل بن عياض: ما بال الميت تُنزع نفسه وهو ساكن (٨) وابن آدم يضطرب من القَرْصَة؟ فقال: لأن الملائكة تُوثِقُه.

وأما تعرُّفُ شدة الموت من حيث القياس فيصلح اعتباره بالجراح، فإن المؤلم يتفرق في

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) لم أجده في شيء من الكتب.

(٣) ش: التذوا.

(٤) سقطت من أ.

(٥) ش: ذاك.

(٦) بيت منسوب إلى أمية بن أبي الصلت.

(٧) الإذخر: حشيش طيب الرائحة.

(٨) ش: ساكت.

الجراح على اللحم والدم فلا تلقى الروح منه إلا اليسير، فكلما عظمت الجراحة كثر نصيبُ الروح من الألم، والموتُ مؤلم يَحلُّ بنفس الروح، فلا يبقى جُزءٌ من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حلَّ به الموت.

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ (١): من كل شعرة في جسده.

والشِّدة السادسة: رؤية المجرمين مواضعهم من النار، وخوف هذا كان تعليل الصالحين عند النزع فَينْسَوَن كلَّ شِدة في جانبه.

قال علي ﷺ: لا تَخْرُج نفس ابن آدم حتى يعلم أن مصيره إلى جنة أم إلى نار.

وقال جابر بن زيد لأصحابه عند الموت: يا إخوتاه الساعة واللَّه أعلم أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة؟!

وبكى إبراهيم النَّخعي عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر رسل ربي، إما إلى الجنة وإما إلى النار!

ولما احتضر أحمد بن خضروَيْه بكى وقال: باب كنتُ أدقُّه خمسًا وتسعين سنة هو ذا يُفتح لي الساعة ولا أدري أيفتح بالسعادة أو بالشقاوة؟

الشِّدة السابعة: أمُّ الشدائد، وهي سوء الخاتمة، **وقد فسروها بشيئين:**

أحدهما: أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود، فتخرج الروح في حالة غلبة تلك الآفة فيلقى (٢). اللَّه تعالى في حزب الكفار.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، بإسناده عن عبد العزيز بن أبي روَّاد قال: حضرتُ رجلًا في النزع فجعلتُ أقول له: قل لا إله إلا اللَّه. فكان يقول، فلما كان آخر ذلك قلت له: قل لا إله إلا اللَّه فقال: كم تقول؟ إني كافر بما تقول. وقُبض على ذلك فلم أحضره وسألت امرأته عن حاله فقالت: كان مُدمن خمر.

وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي أوقعتْه.

والثاني: أن يغلب على القلب حينئذ حب الدنيا وشهواتها، فيخرج الروح عن حال استغراق تلك الحال، فيعمى بذلك عن تدارك زلةٍ أو تأهُّبٍ للقاء الحق، وذلك حجابٌ يوجبُ الطرد عن التقريب بعد الممات وفي الحشر؛ لأن كل ميت يُحشر على ما مات عليه.

* * *

---

(١) سورة إبراهيم: ١٧.

(٢) ظ: فتلقى.

الكلام على البسملة

الـمـوتُ بـحـرٌ هـائـلٌ مَـوْجُـه   تَـضِـلُّ فـيـه حِـيْـلَـةُ الـسَّـابِـحِ
[يا نفسُ إني قائلٌ فاسمعي   مقالةً من مُشفِقٍ ناصحِ] (١)
لا يَـنْـفَـعُ الإنـسـانَ فـي قـبـره   غـيـرُ التُّقَى والعملِ الـصـالـحِ

يا من يظن أنه بالمُنَى ظافر، وقد علقت به من المنون أظافر، يا من نقضه على الدوام وافر، يا من هو عن مصالحه ناءٍ نافر، أين زادك قُلْ لي يا مسافر، كأنك بوجه الردى في وجهك سافر، ويحك! ابعدْ عن ديار الغفلة وسافر، ويحك اذكر الغاسل ولا تنسَ الحافر، واعجبًا لك أمؤمن أنت أم كافر؟!

كان عامّة السلف ينزعجون عند الموت، فكان عمر ﷺ يقول: لو أن لي طِلَاع (٢) الأرض ذهبًا لافتديتُ به من عذاب اللَّه قبل أن أراه (٣).

وقال معاذٌ عند موته: أعوذ بك من ليلة صباحها النار.

وبكى أبو هريرة ﷺ فقيل: ما يبكيك؟ قال: بُعْد المفازة وقلة الزَّاد، وعَقَبة كؤود المهبطُ منها إلى الجنة أو إلى النار.

وقيل لحذيفة في مرضه: ما تشتهي ؟ قال: الجنة، قيل: فما تشتكي؟ قال: الذنوب، ثم قال: أعوذ بك من النار.

وقد كان من السلف من فُتح له باب اللطف فرفق به، وكان بلال يقول عند الموت، وا طَرَباه، غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزْبه.

وقيل للشبلي عند الموت قل: لا إله إلا اللَّه فقال:

إنَّ بـيـتًا أنـت سـاكـنـه   غـيـرُ مـحـتـاج إلـى الـسُّـرجِ
وجـهُـك الـمـأمـولُ حُـجـتُـنـا   يـوم يـأتـي الـنـاسُ بـالـحُـجَـجِ

وكان فيهم من يبادر الوقت في تلك الساعة. وقال ابن ثابت البُناني: ذهبت أُلقن أبي فقال: خَلِّ عني فإني في وِرْدي السادس أو السابع.

وسلّموا على الجنيد: فقال: هذا وقتٌ يؤخذ منه. اللَّه أكبر.

أتراك فيمن يُعد، يا من ذنوبه لا تُحَدّ، كأنك بأسد الموت قد افترس، وبرَبْع الجسم قد

---

(١) سقطت من أ، ظ.   (٢) طلاع الأرض: ملؤها.
(٣) في القاموس المحيط: مِن هَوْل المطلَع.

اندرس، وبالقدم القائم في الهوى قد جلس، وبالحاصد قد هشّم ما غرس، وبالحافظ قد أهمل ما حرس، وباللطف قد تبدل بالعُنف والشَّرَس، وهذه المحن كلها في نفَس:

يا ساكن الدنيا أتعمرُ منزلًا ... لم يبق فيه من المنيَّة ساكنُ
الموتُ شيء أنت تعلم أنه ... حقٌّ وأنت بذكره مُتهاونُ
إن المنية لا تؤامِر مَنْ أتتْ ... في نفسه يومًا ولا تستأذنُ

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بإسناده عن أبي معاوية الأسود قال: ألا مَنْ كانت الدنيا مِنْ أكبر همه طال في القيامة غدًا همُّه، ومن خاف ما بين يديه ضاق في الدنيا ذَرْعه، ومن خاف الوعيد لَهَا في الدنيا عما يريد، بادرْ ثم بادرْ قبل نزول ما تحاذر، إذا بلغ روحك التراقي، وانقطع عنك من أحببت أن تُلاقي، كأني بها وقد بلغت الحلقوم، وأنت في سكرات الموتِ مغموم. ثم بكى وقال: أوَّه من يوم يتغير فيه لوني، ويتلجلجُ فيه لساني، ويجفُّ فيه ريقي، ويقلُّ فيه زادي.

أخبرنا عبد الوهاب بإسناده عن ميمون بن سياهٍ قال: كنتُ أنا وخالد الربعي ونفر من أصحابنا نذكر الله ﷻ، فوقف علينا رجلٌ أسود فقال: هل ذكرتم الموتَ فيما كنتم فيه؟ فقلنا: إنا لنذكره كثيرًا وما ذكرناه يومنا هذا. فبكى وقال: لقد أغفلتم ما لا يُغْفِلُكم ونَسِيتم ما يُحصِي عليكم الأنفاس لقدومه، ثم مال ليسقط فسانده رجلٌ من القوم فمات:

غفلتُ وليس الموت في غفلةٍ ... عني وما أحدٌ يجني عليَّ كما أجْني
أُشيِّد بُنياني وأعلم أنني ... أزولُ، لمن شيَّدته ولمن أبني؟!
كفاني بالموت المنغِّص واعظًا ... بما أبصرتْ عيني وما سمعتْ أذني
وكم للمنايا من فنون كثيرة ... تميتُ وقد وطَّنتُ نفسي على فنِّي
ولو طرقتْ ما استأذنت من يحبّني ... كما أفقدتني من أحبُّ بلا إذني
فتأخذني (١) منه على رغم أنْفه ... كما أرغَمتْ أنفي بمَنْ أخذت مني
ستحبسني (٢) يا رب في القبر بُرْهةً ... فلا تجعل النيران من بعده سجني
ولي عند ربي سيئاتٌ كثيرة ... ولكنني عبدٌ به حسنُ الظنّ

لقد أزعج [ذكر] (٣) الموت قلوب الخائفين، وأحرج خوف الفَوْت صدور العارفين، وبلْبَل انتظار البِلَى أفئدة العابدين، وأجْرى تخايُل اللُّحود على الخدود دموع التائبين:

---

(١) غير ش: فيأخذني.
(٢) ش: ستسجنني.
(٣) سقطت من أ.

لا تأمنْ الموت في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ ... ولو تمنَّعتَ بالحُجَّابِ والحرسِ
واعلم بأنّ سهام الموتِ نافذةٌ ... في كل مُدّرِعٍ منها ومُتّرس (١)
ما بالُ دينك ترضى أن تُدنسه ... وثوبُ جسمك محفوظ من الدَّنس
ترجو النجاة (٢) ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

لما احتضر أبو الدرداء ﷺ جعل يقول: ألَا رجل يعمل لمثل مَصْرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟!

قال المُزَني: دخلت على الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في مرض موته فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ عن الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وبكأس المنية شاربًا، وعلى اللَّه واردًا، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنِّيها أم إلى النار فأعزِّيها؟!

ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سُلَّما
تَعَاظَمني ذنبي فلما قَرنْته ... بعفوك ربي كان عفوك أَعْظَمَا
[فإن تعفُ تَعْفُ عن ذي جرائم ... ظلوم غَشُوم لا يفارق مَأْثَمَا
وإن تنتقم مني فلستُ بيائس ... ولو دخلتْ نفسي بجرمي جهنما] (٣)
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تَزَلْ ... تجودُ وتعفو مِنّةً وتكرُّمَا

يا غافلًا عن ملمٍّ عن قليل حادث، يا راحلًا وهو يظنُّ أنه مقيم لابث، يا نائمًا قد أزعجته المُقلقات البواعث، يا لاعبًا والليالي في سيره حثائث، يا معجبًا بزخارف في ضمنها الحوادث، يا مخمورًا بالمنَى الخمرُ أمُّ الخبائث، يا مطلوبًا بالجدِّ وفعله فعلُ عابث، يا حريصًا على المال ماله حظُّ وارث، إياك والدنيا إن حَلِفها حَلِف حانث، لا تسمعن قولها والعزم عزمُ ناكث.

أطلْ جَفْوة الدُّنيا وتَهْوينَ شأنها ... فما الغافل المغرور فيها بعاقلِ
يرجِّى خلودًا معشرٌ ضلّ سعيُهم ... ودون الذي يرجون غوْل الغوائلِ
وليس الأماني للبقاء وإن جرتْ ... بها عادةٌ إلا تعاليلَ باطلِ
وما المُفلتون أحبلَ الدهر فيهمُ ... بأكثرَ مما في عِداد الحبائلِ
يُسارُ بنا نحو المنُون وإننا ... لَنُشْغفُ في الدنيا بطيّ المراحل

(١) المدرع: المحتمي بالدروع. والمتّرس: المحتمي بالتروس.
(٢) ظ: الحياة.
(٣) سقطت من أ، ش، وأثبتها من « ظ ».

غفلنا عن الأيام أطْولَ غفلةٍ وما حوْبها [١] المجنيُّ منها بغافلِ

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [٢]

أيها الناس تذكروا ما لا ينساكم، وتفكروا فيما لا بُد أن يلقاكم، واعْمُروا القبور فإنها مأواكم، واحذروا الغرور فكم غرّت دُنياكم، واعتبروا فقد وعظكم مَنْ سوّاكم بِسِوَاكم.

كان الحسن يقول: إن الموت قد فضح الدنيا، فلم يترك لذي لبٍّ فرحًا، وما ألزم عبدٌ قلبه ذكْرَ الموت إلا صغرت الدنيا عنده وهان عليه جميعُ ما فيها.

قال الحسن: عاد رجلٌ أخًا له فوافقه في الموت، فرأى عليه الموت فرجع إلى أهله فجاءوه بغداء، فقال: يا أهْلاه عليكم بغدائكم. فقالوا: يا فلان الضَّيْعةَ قال: يا أهلاه عليكم ضيعتكم، فواللّه العظيم لقد رأيتُ مصرعًا عظيمًا لا أزال أعمل له ما عشتُ حتى أقْدِم عليه إن شاء اللّه تعالى.

قال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو ذكر النار وأمرِ الآخرة وذِكرُ الموت.

وقال أبو مرحوم: دخلنا مع الحسن على مريضٍ نعوده، فلما جلس عنده قال: كيف تَجدُك؟ قال: أجدني أشتهي الطعام ولا أقدرُ أن أُسيغه [٣] وأشتهي الشراب ولا أقدر أن أتجرعه. فبكى الحسنُ ثم قال: على الأسقام والأوجاع أُسِّسَتْ هذه الدار، فهبْك تصحُّ من الأسقام وتبرأ من الأمراض، هل تقدر أن تنجو من الموت؟ فارتجّ البيت بالبكاء.

وقال الربيع بن صبيح: قلنا للحسن: عظْنا. فقال: إنما يتوقع الصحيح منكم داءً يصيبه، والشابُّ منكم هَرَمًا يفنيه، والشيخ منكم موتًا يرديه، أيُّها الملفوف غدًا في كفنه، النازل في حُفرته الذي سينساه أحبته وقد كان سعيه لهم.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء فيتذاكرون الموتَ والقيامة ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة.

وقال شُميط بن عَجلان: من جعل الموت نُصْب عينيه لم يبالِ بضيق الدنيا ولا بسعتها.

وقال عبد الأعلى التيمي: شيئان قَطَعا عنِّي لذاذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي اللّه تعالى.

---

(١) الحوب: الهم.

(٢) سورة الجمعة: ٨.

(٣) ظ: أصيغه محرفة.

شغلتنا الدنيا بهاك وهاتِ ونسينا مصارعَ الأمواتِ
نحن موتى وإنما بين من يمـ ـضِي ويبقى تفاوُتُ الأوقات

قال الضحاك: كان أوّلوكم أخوفَ ما يكونون من الموت أصحَّ ما يكونون. كان سليمان التيمي: إذا مات في الحي ميت لم ينم تلك الليلة.

وكان يحيى بن أبي كثير إذا شهد جنازةً لم يتعشَّ تلك الليلة. .

دخل رجلٌ على رجلٍ غريب وهو في الموت وحوْله قوم يبكون فقال:

بكَوْه وما إيّاه يبكون بل رأوا مواردَ أمرٍ هُمْ إليه قريبُ
وقالوا غريبٌ قد نأى عنه أهله ألا كلُّ مَيْتٍ حيثُ كان غريبُ

كأنك بالموت قد أزعجك وهالَك، ونازلك فأنزلك عن عِزِّك وأذلَّك، وألحقك أُمَّك وأباك لا أبا لك، وقد بقي القليل فاعقلْ حالك، واصْح من سكرتك وأطع عُذَّالك، واعتذر إلى مولاك وقد أقالك، واسمع نصح شفيق يرى لك:

خُذ الوقتَ واعلم بأن اللَّبيـ ـب يأخذ من يومه للغدِ
فما ينفعُ المرء بعد المنُو ن قولُ النوادب لا تَبْعُدِ

يا مبذرًا في زمنه يكفي تقليله، وقد ضُيِّع أكثره فليحفظْ قليله، يا مفرطًا في أمره وقد دنا رحيله، يا ضالًا طريق الهدى وقد وضح سبيله، أما يكفي في موعظته أخوه وخليله، أما حدَّثه بالنُّقلة إلى القبور رحيله:

لَتَتْرُكَنَّ قَصْرك المبنيا وكرْمك المعرّش المسقيا
والحوضَ والبستان والركيًّا والمجلس المنجّد البهِيًّا
والبابَ والوصيد والنديًّا والرابع العتيق والشهريًّا
والتِّبر والأوراق والحُليّا لوارثٍ عهدْتَه عصيًّا
يأكله أكْلًا له هنيًّا ثم تزور جَدَثًا قَصِيّا
في مُلْحَدٍ تُلْقى به مَنسيا قضاءُ ربٍّ لم يزل عليًّا
وكان وعد ربنا مَأْتيًّا

إخواني: أهلُ القبور قد أُسروا، وأكثر القوم في تجاراتهم خسروا، مُرُّوا على القوم واعتبروا، وتفكّروا في أحوالهم وانتظروا، يتمنَّون العوْدَ وهَيْهات، ويسألون البِدَار وقد فات، فيا مُطْلَقًا اذكر قيودهم، ويا متحركًا قد عرفتَ هُمُودَهم.

خلِّص نفسك من أسْر الذنوب، وتأهّب فإنك مطلوب، وتذكر بقلبك يوم تُقلَّبُ القلوب، قبل أن يُمْسَك اللِّسان، ويتحير الإنسان، ويزول العرفان، وتُنشر الأكفان، وتُزار الحُفرة وتطول السَّفرة، ويأتي مُنكر ونكير، ويقوى الشهيقُ والزفير، ويلقى العبد مَسْلفه، وينساه من خلَّفه، ويبقى هناك أسيرًا، إلى أن يقوم عريانًا حسيرًا، فحينئذ تُنثرُ الكواكب، وتُنشر المعايب [١]، وتُسدُّ المذاهب، وتبين العجائب، وتسوَدُّ الوجوه، ويفوتُ العاصي ما يرجوه، وتَثقل على الظهور الأوزار، ويُؤخذ الكتاب باليمين أو باليسار، وليس لأحد هناك قرار، إلا الجنة أو النار.

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا أراد اللَّه بعبدٍ خيرًا استعمله » قالوا: وكيف يستعمله؟ قال: « يوفقه لعمل صالح قبل موته » [٢].

إخواني: اعتبروا بالسابقين، وتفكروا في الراحلين، لعلّ القلْب القاسي يلين، عجبًا لمن رأى فِعْل الموت بصَحْبه، وأيقن لَحاقه بسلفه ونَحْبه، وسكن الإيمان بالآخرة في قلبه، ثم نام غافلًا على جنبه، ونسي جزاءه على جُرْمه وذنبه، وأعرض إلى ربه من الهوى عن رأيه، كأني به قد سُقي كأس حِمام يضجُّ من شُربه وأفرده الموت عن أهله وسِرْبه، ونقله إلى قبرٍ ذلَّ فيه بعد عُجبه، فيا ذا اللُّب جزْ على قبره وعج به:

كم من عزيز الملك نُغص مُلكه ... با لعَزْل كُرهًا أو بموتٍ مُعجَّل
ومُشيِّدٍ دارًا يريد نزولها ... نَزَل القبور فعُطلتْ لم تُنزَلِ
ومبادرٍ يسعى ليدرك حاجةً ... يسعى ولا يدري لحتف مُثكلِ
ومُكرّمٍ في الحي يُرجى نفعُه ... وَافَى الحِمَامَ فصار غيرَ مؤمَّلِ
وجليس قومٍ كان يمرح صحةً ... ألقوهُ مرميًّا بداء مُعضِلِ
وجماعةٍ من حيٍّ صِدْقٍ قد مَضى [٣] ... طَحَن الزمان جميعَهم بالكَلْكلِ
كنا جميعًا ثم فرَّق بيننا ... دهْرٌ سَيلْحقُ حيَّنا بالأوَّل

أيها الغافل عما بين يديه، لا يذكر الموتَ ولا يلتفت إليه، شغله عن العواقب ما لديه، وألهاه ماله عمَّا عليه، بادرْ أيام شبابك قبل فراق أحبابك، واغتنم أحيانَ حياتك قبل مُوافاة وفاتك، فالعمر بالسنين يذْهب، والأجلُ بمرور الأوقات يُنهب، البِدَار البدار قبل الفوات، الحذار الحذار من هُجوم الممات، اخْلُ بنفسك في دار المعاتبة، وأحضرْها

(١) ش: المصائب.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ٣/١٠٦.
(٣) ش: مضوا.

دُستور المحاسبة، وارفع عليها سوطَ المعاقبةَ إن لم تفعل خَسِرْتَ في العاقبة.

دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له: عظني وأوجز، فقال [١]:

إذا أنت لم ترْحل بزادٍ من التقى ... ووافيتَ بعدَ الموت مَنْ قد تزوَّدا

ندمْتَ على أن لا تكون شَرَكْته [٢] ... وأرصدتَ قبل الموت ما كان أرْصَدَا

فبكى عمر حتى سقط مغشيًّا عليه [٣].

إخواني: إنكم تَغْدون وتروحون في آجال قد غُيبتْ عنكم، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوَحَا الوَحَا؛ فالطالب حثيث، تذَّكروا الصَّرعة بين الأهل وهم لا يقدرون على ضُرٍّ ولا نفع، واللَّه ما بات عاقلٌ قط إلا على فراش حَذَر، إنما هو دبيب من سُقم ثم تؤخذون بالكَظْم [٤]، فإن زلَّت القدمُ لم ينفع الندم، لا توبةٌ تنال، ولا عَثْرةٌ تقال، ولا فداء بمال.

يا ضاحكًا بمْلء فيه سرورًا واغتباطًا وقد ارتبطت له المنون خيْل الرحيل ارتباطًا، يا ساعيًا في طِلاب الهوى جدًّا ونشاطًا، أمَا أنذرك الموتُ لما أراك لِمَّا شِمَاطًا [٥]، أمَا بسط الإنذار على باب الدار بساطًا، أمَا الحادي مُجدٌّ فما للعاقل أن يتباطا، أمَا أوْضح الطريق، أمَا سلب الرفيق، أأبقى أخْذُ الخليط اختلاطًا، أمَا ضعفُ القُوى قد أوقع في ظهر القويِّ سياطًا، أمَا نُوبُ الأحوال قد أظهرت في ثوب الآمال انقطاطا [٦]، أيحسن بالشيخ أنْ يتمرَّس باللَّهو أو يتعاطى، أمَا يكفي في العبر صُلبٌ كان صُلبًا فتطاطا [٧]، كأنك بالردى قد غدا غدًا فقطع نِيَاطًا، عجبًا، لمسيغ الطعام مع ذكر الحِمام اشتراطا، ولعالم قُرْبَ الممات كيف لا ينتهب الأوقات لقاطا، ولجسدٍ بالٍ جرَّ بالعجب والرياء رِيَاطا [٨]:

أعالماتٌ ساكناتُ الفلا ... أنهن أمثال البرايا يُبدْن

رَدَدْن عاريَة عصْرٍ مضى ... فليت أيامًا إليك ارتدَدْن

---

(١) ظ: فأنشده.

(٢) ش: شريكه.

(٣) هذان البيتان ليسا لسابق البربري، بل هما في قصيدة الأعشى التي مدح بها النبي ﷺ. انظر ديوانه: ص ٤٦، ط صادر.

(٤) الكظم: الحلق.

(٥) اللمم: جمع لمة وهي مجتمع شعر الرأس، والشماط: التي اختلط سوادها بياضها.

(٦) الانقطاط: القطع.

(٧) الصلب الأولى عظام الظهر، والصلب الثانية: الشديد. وتطاطا: ضعف.

(٨) الرياط: جمع ريطة وهي الثوب اللين.

شــدائـدُ الأوقـات مـوصـولـةٌ فاصبرْ عـلـيـهـن أوانَ اشـتـدَدْن
وكيف يبقى ركن مستضعف وتـلـك أركـان الـقـوي انـهـدَدْن
نـريـد مـا نـهـوى وأقـدار مـوْ لانا تـصـرّفـن عـلـى مـا أردنْ
مـا اتـفـق الـغـيُّ وأتـبـاعـه لـكـن أعـمـال صـواب كـسـدنْ
شـيِّـد بـانـفـاقـك دار الـبـقـا فتلـك أبـقـى مـن ديـار يُـشـدْن
قـلـوبـنـا تـنـشـد أفـراحـهـا ويعجز الـمـنـشـد عـمـا نـشـدْن
وسـاعـةٌ واحـدةٌ فـرَّقـت جُيُوش مَلْك بالعطايا احتَشَدْن

سجع على قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾:

إخواني: لا دافع عنكم من الموت يقيكم، وإنه في هُوّة الهلاك يُلْقيكم، وإنما تندمون إذا غُصّت تَرَاقيكم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾.

يا لها من صَرْعة عجيبة، ومصيبة فوق كل مصيبة، مرّت سهام الموت لكم مصيبة، فهل يردُّها توقِّيكم ﴿ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾.

أقبل التَّلف وجدّ، فردَم باب السلامة وسدَّ، وجاوز الألم الحدَّ، وما رَدَّ راقيكم ﴿ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾.

بلغ الروح التراقي، وبادر بالجد التراقي، ووقع اليأس من التلاقي، فتحيَّر الساقي الذي يسقيكم، سبحان من حكم وقضى بسُكنى الثرى بعد الفضا، فليس لنا إلا الرضا، كما ذهب من مضى، يذهب باقيكم، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾. والله تعالى أعلم.

[آخر المجلس ولله المنة، اللَّهم يا من شَملنا ببرِّه وأفضاله، أعنَّا على الموت وأهواله، واختم لكل منا صالح أعماله، وبلِّغه من كرمك غاية آماله، واحشرنا مع هذا النبي وصحبه وآله، إنك على كل شيء قدير] [(١)].

* * *
* *
*

(١) من « ظ ».

المجلس الثاني

في ذكر القبر

الحمد للَّه المتفرد بالقُدرة، العظيم فلا يقدر أحد قَدْره، أنْعمَ فكم أقال عثرة، ووعظ فكم أسال عَبْرة، خلق الآدمي وأحْصى عُمره، وأراه قبل رحيله عن الدنيا قبره، وأنه سيخلو في بَيْداء قَفْرة، ثم يخرجه فيحضره، ويسأله عن الكلمة والنظرة ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ (١).

أحمده حمدًا دائمًا بلا فترة، وأصلي على رسوله محمد الذي بعثه وضَمِنَ له نصرَه، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق رفيقه في الحفرة، وعلى عمر بن الخطاب ثالثهما في الحُجرة، وعلى عثمان مُجهِّز جيش العسرة، وعلى علي بن أبي طالب الذي اشترى « هل أتى » بِكِسْرة (٢)؟ وعلى عمه العباس الذي قام له ليلة العقبة بالنُّصرة.

* * *

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن البراء بن عازب، ﷺ قال: بينما نحن مع رسول اللَّه ﷺ إذْ بصُر بجماعةٍ فقال: « علام اجتمع هؤلاء » قيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول اللَّه ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلَّ الثَّرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: « أيْ إخواني لمثل هذا اليوم فأعدُّوا » (٣).

قال عبد اللَّه بن أحمد: وحدثني يحيى بن معين، بإسناده عن هانئ مولى عثمان قال: كان عثمان ﷺ إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته، فقيل له: تُذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: « القبر أول منازل الآخرة، فإنْ يُنج منه فما بعده أيسر [منه] (٤) وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه » (٥).

وقال رسول اللَّه ﷺ: « ما رأيتُ منظرًا قط إلا والقبرُ أفظع منه » (٦).

---

(١) سورة مريم: ٣٩.

(٢) يريد ما جاء في سورة الإنسان من قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب رقم : ١٩. وأحمد في مسنده : ٢٩٤/٤.

(٤) ليست في ش.

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب رقم : ٣٢. وأحمد في مسنده : ٦٣/١، ٦٤.

(٦) مسند أحمد : ٦٤/١. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب رقم : ٣٢.

اعلم أن شأن القبر لم يعظم لصورته وإنما عُظِّم لما يناط به، فإنه يقع فيه السؤال والتوبيخ والتحسر على الفوت والنعيم أو العذاب.

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهدُ أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ »(١).

أخبرنا هبة اللّه بن محمد بإسناده عن البراء بن عازب ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولـمَّا يُلحَد، فجلس رسول اللّه ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكتُ به الأرض فرفع رأسه فقال: « استعيذوا باللّه من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثًا ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيضُ الوجوه كأن وجُوههم الشمس، معهم كفن من أكْفان الجنة وحُنوط (٢) من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفسُ الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من اللّه ورضوان. قال: فتخرجُ تسيلُ كما تسيلُ القطرة مِنْ فِي السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرْفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسكٍ وُجدتْ على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح (٣) الطيب؟ فيقولون: فلانٌ بن فلانٍ بأحسن أسْمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه (٤) من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول اللّه تبارك وتعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك. فيقول: ربي اللّه. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجُل الذي بُعث فيكم. فيقول: هو رسول اللّه. فيقولان: وما عِلْمك؟ فيقول: قرأتُ كتاب اللّه فآمنت به وصدّقتُ. فينادي منادٍ [من السماء] (٥): أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه مِنْ رَوْحها وطِيبها ويُفسح له في قبره مدَّ بصره. قال: ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثياب،

(١) سورة إبراهيم: ٢٧. والحديث في صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر : ١/١٩١، ط الخيرية.

(٢) الحنوط: كل طيب يخلط للميت.

(٣) ظ: الريح.

(٤) ش: فيشيعونه.

(٥) ليست في ش.

طيبُ الريح فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كُنتَ توعد. فيقول له: من أنت فوجهك الوجْه الذي يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة، ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسُوح فيجلسون منهُ مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرْجي إلى سخطٍ من اللّه وغضبٍ. قال: فتفرَّق [١] في جسده فينتزعها كما ينتزعُ السفُّود [٢] من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طَرْفة عينٍ حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنْتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرُّون على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا [٣] الروح الخبيث؟ فيقولون: فلانُ ابن فلانٍ. بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [٤]، فيقول اللّه ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السُّفلى. فتُطرح روحه طرْحًا ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [٥]، فتعادُ روحه في جسده ويأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أنْ كَذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها ويُضيق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه قبيحُ الثياب منتنُ الريح فيقول: أبشر بالذي يَسُوؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعدُ. فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ لا تُقم الساعة » [٦].

وروى من حديث عطاء بن يسار قال: قال رسول اللّه ﷺ لعمر بن الخطاب ﵁: « يا عمر كيف أنت إذا أُعدَّ لك من الأرض ثلاثة أذرعٍ وشبرٌ في عرض شبرٍ، ثم قام إليك أهلك فغسلوك وكفنوك وحنَّطوك، ثم حملوك حتى يغيبوك فيه، ثم يُهيلُوا عليك التراب، ثم انصرفوا عنك وأتاك مُسائل القبر مُنكر ونكير، أصواتهما مثل الرعد

---

(١) ش: فتتفرق. (٢) السفود: حديدة يشوي بها اللحم.

(٣) غير ظ: ما هذه. (٤) سورة الأعراف: ٤٠. (٥) سورة الحج: ٣١.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٨٧/٤ - ٢٩٥، ٢٩٦. وأخرجه أبو داود مختصرًا بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح. الترغيب والترهيب : ١٨٢/٤.

العاصف، وأبصارهما مثل البرق الخاطف، قد سَدلا شعورهما فتأمَّلاك وتوهَّلاك وقالا: من ربُّك وما دينك؟ قال: يا نبي اللَّه ويكون معي قلبي الذي هو معي اليوم؟ قال: نعم قال: إذًا أكفيكهما بإذن اللَّه تعالى » (١).

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إن العبد إذا وضع في قبره وتولَّى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قَرْعَ نعالهم، أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ . فأما المؤمنُ فيقول: أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله. فيقال: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك اللَّه ﷻ به مقعدًا في الجنة، فيراهما جميعًا. وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل، فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناسُ. فيقال له: لا درَيْتَ ولا تَلَيْت، ثم يُضربُ بمطْراق من حديد ضربةً بين أُذنيه فيصيح صيحةً فيسمعها من يليه غير الثقلين » (٢).

قال يونس بن حبيب: الصواب: ولا أتليت أي: لا كان لأبيك أولاد تتلوها، يدعى عليه بالفقر، وقال الأصمعي: ولا ائتليت أي: لا استطعتَ. وقال ثعلب: الأصل فيه ولا تلوت أي: لا أحسنت أن تُتبع فردوه إلى الياء ليزدوج الكلام، كما قالوا: إنه ليأتينا بالعشايا والغدايا (٣).

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ كان يتعوذ من عذاب القبر (٤).

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: « لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ اللَّه ﷻ أن يُسْمعكم عذاب القبر » (٥).

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكَروخي بإسناده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: دخل رسولُ اللَّه ﷺ مُصلاه فرأى ناسًا كأنهم يكتشرون (٦)، فقال: « أمَا إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى، فأكثروا ذكر هاذم اللذات فإنه لم يأت على القبر يومٌ إلا تكلم، فيقول: أنا بيتُ الغربة، وأنا بيتُ الوحدة، وأنا بيتُ التراب، وأنا بيتُ الدُّود. فإذا دُفن العبدُ المؤمن قال له القبر: مرحبًا وأهلًا أمَا إنْ كنتَ لأحبّ من يمشي على ظهري إليَّ فإذا

---

(١) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رقم : ٦٧، ٦٨.

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير : ٦٣/١ - ١٩٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب رقم : ٢٧. وصحيح مسلم، كتاب الذكر، حديث رقم : ٧٣.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٦٧، ٦٨.

(٦) يكتشرون: يتخاصمون.

وليتكَ اليوم وصِرْت إليَّ فسترى صنيعي بك، فيتسع مَدَّ بصره، ويُفتح له باب إلى الجنة ».

وإذا دُفن العبدُ الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبًا ولا أهلًا أما إنْ كنتَ لأبغضَ من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إليّ فسترى صنيعي بك. قال: فيلتئم عليه حتى يلتقي وتختلف أضلاعهُ، وقال رسول اللَّه ﷺ: « بأصابعه فأدخل بعضها في جوف بعض. قال: ويقيِّض له سبعون تنِّينًا لو أنَّ واحدًا منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئًا ما بقيت الدنيا فينْهَشنه ويَخْدُشْنه حتى يُفْضى به إلى الحساب ». قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: « إنما القبر روضةٌ من رياض الجنة أو حفْرةٌ من حفر النار » (١).

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنةَ فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه تعالى إليه يوم القيامة » (٢).

وقال يزيد الرَّقاشي: بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله (٣)، ثم أنطقها اللَّه تعالى، فقالت: أيها العبدُ المنفردُ في حُفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون، فلا أنيس لك غيرنا.

وقال محمد بن صُبيح: بلغنا أن الميت إذ عُذب في قبره أو أصابه بعض ما يكره، ناداه جيرانه من الموتى: أيها المُخَلَّفُ في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا مُعتبر أما كان [لك] (٤) في تقدُّمنا إياك فكرةٌ؟ أما رأيتَ انقطاع أعمالنا وأنتَ في المُهلة، فهلا استدركتَ ما فات إخوانك؟ وتناديه بقاعُ الأرض: أيها المغترُّ بظاهر الدنيا، هلَّا اعتبرت بمن غُيِّب من أهلك في بطن الأرض ممّن غرته الدنيا قبلك؟

وقال كعبٌ: إذا وضع العبدُ الصالح في قبره احتوشتهُ أعماله الصالحة فتجيء ملائكةُ العذاب من قِبَل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال القيام للَّه تعالى. فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه للَّه تعالى في دار الدنيا، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحجُّ والجهادُ: إليكم عنه، فقد أنْصَب نفسه وأتعب بدنه وحجَّ وجاهد للَّه تعالى، لا سبيل لكم عليه. فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كُفُّوا عن صاحبي، فكم من صدقةٍ خرجت من هاتين اليدين حتى وقعتْ في يد اللَّه تعالى ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. فيقال له: نم هنيئًا طبتَ حيًّا وطِبْت ميتًا. قال: وتأتيه ملائكةُ الرحمة فيُفرشونه فراشًا من الجنة ودِثارًا من الجنة ويُفسح له في قبره مدَّ بصره، ويُؤتى بقنديلٍ من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه اللَّه تعالى من قبره.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القيامة، باب رقم : ٢٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ٨.

(٣) احتوشته: أحاطت به.

(٤) ليست في ش.

الكلام على البسملة

هل على نفسه امرؤٌ محزونُ ... يوقن غدًا أنه مدْفونُ
وهو للموت مُستعدٌّ مُعدٌّ ... لا يصونُ الحُطام فيما يصونُ
كلنا نُكثر المذمة للدنـ ... ـيا وكلٌّ بحبها مفْتونُ
يا كثير الكنوز إن الذي يكـ ... ـفيك مما أكثرتَ منه الدونُ
أترى من بها جميعًا كان قد ... غَلقَتْ منهم ومنك الرهون
أيُّ خلْقٍ إلا سيصرعه الدهـ ... ـر وإلا ستَشتبيه المنونُ
أين آباؤنا وآباؤهم قبلُ ... وأين القرون أين القرون؟!
لَتَنالنَّك المنايا ولو أنك ... في شاهقٍ عليك الحصون
كم أناسٍ كانوا فأفْنتْـ ... ـهم الأيام كأنهم لم يكونوا
إنَّ رأيًا دعا إلى طاعة اللَّه ... لرأيٌ مباركٌ ميمونُ

لقد وعظ الزمان وما قصَّر، وتكلم الصامتُ وما أقْصر، ولاح الهدى وإنما الشأنُ فيمن أبصر، ونطقت المواعظ بما لا يُحصَى ولا يُحصر، هلكت ثمودُ بصيحة وعادٌ بصرْصَر، وكُسِرَ كسرى وخُذلَ قيصر، تاللَّه ما يبالي ميزان العدل أَرْبح أو أخْسَر، ولا حاكمُ الجزاء أفلس المدين أو أعسر، وهذا أمرٌ مجمل وفي غد يُفسَّر:

قد غدتِ النفسُ إلى سوقها (١) ... ويحْكِ يا نفس لمن تكسبيْنْ
هل لك بالأيام (٢) من خبرةٍ ... كم والدٍ في زمنٍ تَنْسُبيْنْ
أتحسبين الدهر ذا غفلة ... هيهاتَ ما الأمر كما تحسبين (٣)

ويحك أنت مُحاسبٌ على ما صنعت، مسئولٌ عن كلِّ ما جمعت، مناقشٌ على كل عمل رفَعْت، معاقبٌ على ما أوضعتَ في الهوى أو أضعْت (٤)، ألا تتصور بقلبك عتابك على ذنبك، ألا تتمثلُ لِلُبِّك شهادة أعْضائك وكُتبك، من لك إذا جُوزيتَ على كسبك، فقل لي ماذا تقولُ لربك؟ يا نازلين منازل الهالكين، يا مُقيمين في مقام الراحلين، أين منْ كان قبلكم، أين من فعل فعلكم، قِيدوا إلى البلاء فانقادوا، وبادوا في

(١) البيت في اللزوميات لأبي العلاء: (قد غدت النحل إلى نَوْرها) ولا أدري لم غيره ابن الجوزي ؟!.
(٢) ظ: في الأيام. وفي اللزوميات: هل لك بالآباء.
(٣) اللزوميات : ٥٨٧/٢، ط صادر.
(٤) ش: ووضعت.

الثرى [١] وما عادوا، ما رد عنهم ما بنَوا وما شادوا، ولقد فاتهم يومَ الرحيل ما أرادوا.

قال طاوس: إن الموتى يُفتنون في قبورهم سبعًا، وكانوا يستحبون أن يُطْعَم عنهم تلك الأيام.

أخبرنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن شقيق، عن عبد اللّه ﷺ عن النبي ﷺ قال: « إن اللّه ﷻ أمر بعبدٍ من عباده أن يُضربَ في قبره مائة جلدة، فلم يزلْ يسأل ويسأل حتى صارتْ جلدة واحدة، فامتلأ قبره عليه نارًا، فلما سُري عنه وأفاق قال: لم جلدتموني؟ قالوا: إنك صليتَ صلاةً بغير طهور، ومررتَ على مظْلومٍ فلم تنصره » [٢].

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا دفنتموني فأقيموا حوْل قبري قدر ما تُنحر جَزُورٌ ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي:

لـكـل أنـاس مَـقْـبَـر بـفـنـائـهـم فـهـم يَـنْـقـصـون [٣] والقبورُ تزيدُ
فـدارٌ لـحيٍّ أقـفـرتْ بـعـد مـوته [٤] وقبرٍ لـمـيْـت بـالـفـنـاء جـديـدُ
فـهـم جِـيـرةُ الأحـيـاء أمَّا مـحَـلُّـهـم فدانٍ وأما الـمـلـتـقَـى فـبـعـيـدُ

قال إبراهيم بن يزيد العبدي: أتاني رياحٌ القيسي [٥] فقال: انطلق بنا إلى أهل الآخرة نُحدثْ بقربهم عهدًا. فانطلقتُ معه، فجلس إلى بعض القبور، ثم قال: ما ترى هذا متمنيًّا لو مُنِّي؟ قلت: أن يُردَّ إلى الدنيا فيستمتع من طاعة اللّه تعالى ويُصلح. قال: فها نحن. ثم نهض فجدّ واللّه واجتهد، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات.

وروى أبو بكر القرشي أن رجلًا كان يحفر القبور بالبصرة، قال: حفرتُ قبرًا ووضعتُ رأسي قريبًا منه، فأتتني امرأتان في منامي فقالت **إحداهما**: نشدتك اللّه إلا صرفتَ عنا هذه المرأة ولم تجاورْنا بها. فاستيقظتُ فَزِعًا، فإذا جنازةُ امرأةٍ قد جيء بها، فصرفتُهم إلى غير ذلك القبر، فلما كان الليلُ إذا أنا بالمرأتين في منامي تقول لي إحداهما: جزاك اللّه خيرًا صرفت عنَّا شرًّا طويلًا. قلت: ما بالُ صاحبتك لا تكلمني كما تكلمينني أنت؟ قالت: إن هذه ماتت على [٦] غير وصية، وحقٌّ لمن مات على غير وصية أن لا يتكلم إلى يوم القيامة.

تـنـاجـيـك أجْـداثٌ وهـنَّ سـكـوت وسـكَّـانـهـا تـحـتَ الـتـراب خُفوتُ

---

(١) ظ: البلى.
(٢) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.
(٣) ش: في انتقاص.
(٤) كذا في ش، وهو الصواب وفي غيرها: وما إن تزال دار لحيَ قد أقفرت.
(٥) ش: القسي.
(٦) ش: عن.

أيا جامع الدنيا لغير بلاغةٍ　　لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟!

مات ولدٌ لامرأةٍ من العابدين، فرأته في المنام فقالت: يا بني كيف ترى مكانك؟ فقال:

أنا في [1] التُّراب مقيلي [2]　　بالي الأركان جَمْعَا

لو ترى أمي رسومي　　لذَرْيتِ الدم دمعا

فانتبهت فلم تزل والهةً حتى ماتت.

كان ابن السَّماك يقول: لا يغرنكم سُكونُ هذه القبور، فما أكثر المغمومين فيها، ولا استواؤها فما أشدَّ تفاوتهم فيها.

قال الحجاج الأسود: رأيتُ في منامي كأني دخلت المقابر، فإذا أنا بأهل القبور نيام في قبورهم قد تشققت عنهم الأرض؛ فمنهم النائم على التراب، ومنهم النائم على القَباطي [3]، ومنهم النائم على الريحان، ومنهم النائم على السندس والإستبرق، ومنهم النائم على الحرير والديباج، ومنهم كهيئة المتبسِّم في نومه، ومنهم من قد أشرق لونه، ومنهم حائل اللون، فبكيت عندما رأيت، فنادى منادٍ من تلك القبور: يا حَجّاج هذه منازل الأعمال.

وكان الحسن بن صالح إذا نظر إلى القبور يقول: ما أحسن ظاهرك، إنما الدواهي في باطنك!

ألا للَّه ما صنع الحِمَامُ　　وما وارت [4] بساحتها الرجامُ

ثوَوْا متجاورين ولا لقاء　　وناجَوْا واعظِين ولا كلام

خُلقْنا للفناء وإن عُززْنا [5]　　بإيماض من الدنيا يُشامُ [6]

ونُبصر مِلْء أعيننا فعال الرَّ　　دَى وكأننا عنه نيامُ

وما الأحزان والأفراح فيها　　وإن طاوَلْنَنَا إلا منامُ

ولو علم الحَمامُ كما علمنا　　من الدنيا لمَا طرِب الحمامُ

ما أكثر المحن في بواطن اللحود، وما أكثر من يقول فيها: ليتني أعود، فاغتنموا إخواني صحتكم قبل الزَّمن، واشتروا خلاصكم في وقت [7] القدرة على الثمن.

خُلقتُ جسمًا سويًّا ثم زرتُ ثَرًى　　فصرتُ خطًّا وطالت مُدّةٌ فمُحِي

قفْ بالمنازل من عادٍ وغيرهمِ　　فما ترى ثَمَّ من شَخْص ولا شبحِ

كلٌّ يجازى بما أسداه مِنْ حسَنٍ　　وسيئ فاهْجر السَّوْءاتِ وانتزحِ

---

(١) ش: بين.　(٢) ظ: ملقى.

(٣) القباطي: ثياب منسوبة إلى القبط.　(٤) ش: وما ماحت.　(٥) ش: غدونا.

(٦) الإيماض: الإشارة. ويشام: ينظر إليه.　(٧) ش: حال.

الكلام على قوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ... ﴾ (١)

هذا يقوله منْ يسأل الرجعة للملائكة الذين يقبضون الأرواح، والمعنى: ارجعني إلى الدنيا وإنما قال: ﴿ ٱرْجِعُونِ ﴾ كما يخاطَب العظيم الشأن. ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ من العُمر الذي مضى. ﴿ كَلَّآ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ أي: لا يرجع إلى الدنيا.

سجع على قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾:

لو رأيتَ دمْع العاصي مُنْهلًّا وبْلًا، هاطلًا يبكي ويتقَلى ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ... كَلَّآ ﴾.

كم كذَّب وتولَّى، كم جار لما تولَّى، كم طال على مؤمنٍ وتعلَّى، كم تناول كؤوس المعاصي نَهْلًا وعَلًا (٢)، ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ... كَلَّآ ﴾.

كم نام عن صلاةٍ وما صلى، كم شبع من حرام وتملَّى، كم خلا بذنبٍ وتخلى، حتى إذا أحاطتْ به شِباك الموتِ وتدلى أفاق من سكرته ويطلب الرجْعة كلا، هيهات وقع [العصفور] (٣) عند القلَّى ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ... كَلَّآ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا... ﴿١٠٠﴾ ﴾ يعني مسألته الرجعة ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا... ﴿١٠٠﴾ ﴾ أي: هو كلام يقوله لا فائدة فيه ولا نفع، ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم... ﴿١٠٠﴾ ﴾ أي: أمامهم الورى يكون بمعنى القدَّام والخلف، وهو هاهنا بمعنى القُدام، فالمعنى بين أيديهم ﴿ بَرْزَخٌ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ قال الزجاج: البرزخ في اللغة الحاجز، وهو هاهنا ما بين موت الميت وبعْثه، وكان بعضُ السلف يدعو: اللَّهم بارك لي في طول الثُّوى (٤) في البرزخ.

- **وفي القبر تكون المعيشة الضَّنْك:** قال ابن مسعود ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (٥) قال: عذاب القبر.

وقف الحسن على قبرٍ ثم قال: إن أمرًا هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره، وإن أمرًا هذا آخره لحقيقٌ أن يُزهد في أوله.

ستُنقل إلى قفرٍ فقير إلى ما أسلفت، تبكي من الخطايا ما قد عرفت، بين أناس كلهم أسير القلق، وجميعهم على مهاد الفرَق (٦).

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٩.

(٢) النهل: أول الشرب. والعل: الشرب بعد الشرب.

(٣) ليست في ش.

(٤) الثوى: الإقامة، كالثواء.

(٥) سورة طه: ١٢٤.

(٦) الفرق بفتح الراء: الخوف.

مَحلَّة سفْرٍ كان آخرُ زادِهم ... إليه متاعٌ من حنوطٍ (١) ومن خِرقِ
إلى منزلٍ سوَّى الردى بيْن أهله ... فلم تستبنْ فيه الملوك من السُّوقِ (٢)

أخبرنا سعيد بن الحسن بإسناده عن ابن سابطٍ الجمحي أنه خرج من قنَّسرين (٣)، قال: فأشار لي إنسان إلى قبر عبد الملك بن مروان، فوقفت أنظر إليه فمرّ عبَّادي (٤) فقال لي: لم وقفت هاهنا؟ فقلت: أنظر إلى قبر هذا الرجل الذي كان سُلطانًا، ثم عجبت إلى ما صار. فقال: هذا ملك الأرض بعث إليه ملك السماء فأخذ رُوحه، فجاء به أهله فجعلوه هاهنا حتى يأتي اللَّه ﷻ به يوم القيامة مع مساكين أهل دمشق!

نسيانُ ما لا بدّ منه عجيب، أمَا كلُّ آتٍ قريب، يا طويل الأمل، يا قليل العمل، مُستلَب بكف الأجل على عجل، ألا تكون منْ هذا على وَجَل:

وما سالمٌ عما قليلٍ بسالمٍ ... ولو كثُرتْ أحراسه وكتائبهْ
ومنْ يكُ ذا بابٍ شديد وحاجبٍ ... فعمَّا قليل يَهْجر البابَ حاجبُه
وما كان إلا الدفنُ حتى تحوَّلت ... إلى غيره أجناده ومواكبهْ
فأصبح مسرورًا به كلُّ كاشحٍ ... وأسْلمه جيرانُه وأقاربُهْ
فنفسَك فاكسِبْها السعادة جاهدًا ... فكلُّ امرئٍ رهْنٌ بما هو كاسبُهْ

كان صفوان بن سُليم يأتي البقيع فيجلس إلى قبر فيبكي حتى يُرحم قال بعض أصحابه: فظننتُ أنه قبر قريب منه، فجاء يومًا آخر فقعد إلى قبر آخر يبكي، فذكرتُ ذلك لمحمد بن المُنْكدر، وقلت: إنما ظننتُ القبر الأول قبر بعض أهله. فقال: كلُّهم أهلُه، إنما يحرك قلبه بذكر الموتى.

وكانت عابدةٌ تقول: إنّ القلب القاسي إذا جفا لم يُليِّنه إلا رسوم البِلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظرُ إليهم وقدْ خرجوا من بين أطباقها، فيا لهُ من منظرٍ لو أشْربه العبادُ قلوبَهم!

سلامٌ على أهل القبور الدوارسِ ... كأنهمُ لم يجْلسوا في المجالس
ولم يشْربوا من بارد الماء شَرْبةً ... ولم يأكلوا من بين رطْبٍ ويابس

قال جرير بن عبد اللَّه: افتتحنا بفارس مدينة فدُللْنا على مغارةٍ فأصبنا فيها أموالًا، ثم صرنا إلى أزَج (٥) عليه صخرة فرفعناها، فإذا في الأزج سريرٌ من ذهب عليه رجلٌ

(١) الحنوط: ما يخلط من الطيب للميت. (٢) السوق: الرعية، جمع سوقة.
(٣) قنسرين: بتشديد النون المفتوحة، وتكسر: كورة بالشام.
(٤) لعله منسوب إلى عبّادان جزيرة في بحر فارس. (٥) الأزج: البناء.

عليه حُلل قد تخرَّقتْ، وعند رأسه لوح فيه كتاب فقرئ لنا، فإذا هو: أيها العبد المملوك لا تتجبر على خالقك، ولا تَعْد قدرك الذي جعله اللَّه لك، واعلم أن الموت غايتك وإن طال عُمرك، وأن الحساب أمامك وأنك متروك إلى مدةٍ معْلومة ثم تُؤخذُ بغتة أحبَّ ما كانت إليك الدنيا، فقدِّم لنفسك خيرًا، وتزود من متاع الغرور ليوم فاقتك، أيها العبد المملوك اعتبر بي فإن فيّ مُعتبرًا، أنا بَهْرام بن بهرام. ملك فارس، كنتُ من أعْتاهم بطشًا، وأقْساهم قلبًا، وأطولهم أملًا، وأرغبهم في اللذة، وأحرصهم على جمع الدنيا، فدوّخت (١) البلاد النائية، وقتلتُ الملوك الساطية، وهزمْتُ الجيوشَ العظام، وعِشْتُ خمسمائة عام، وجمعتُ ما لم يجمعه أحدٌ قبلي، ولم (٢) أستطع أن أفتدي نفسي من الموت إذْ نزل بي.

إذا أصـحـابُ قـبـري ودَّعـونـي ... وراحـو والأكـفُّ بـهـا غـبـارُ

وغـودر أعـظُـمـي رهـنًا لـقـبـرٍ ... تـهاداه الـجـنائـبُ والـقِـطـار (٣)

مـقـيـمٌ لا يـجـاورنـي صـديـقٌ ... بـأرضٍ لا أزورُ ولا أُزارُ

فذاك الـنأْي لا الـهـجـرانُ شـهـرًا ... وشـهـرًا ثـم تـجـتـمـع الـديـار

وذكر بعض أهلِ العلم أنهم حفروا نهرًا بأرض أصبهان، فرأوا في الحفرة صخرة عظيمة فقلبوها، فإذا ببيت فيه أربعة أسِرّة من ذهب، على السرير الأول شيخ عظيم الهامة عليه حُلَلٌ متعصِّب بعصابةْ مخوّصة بالزبرجد، وعلى السرير الثاني شابٌّ جميلٌ عليه ثلاث حُلل والتاج فوق رأسه، وعلى الثالث غلامٌ حين راهق البلوغ، في أذُنيه قُرْطان، وعلى الرابع جاريةٌ عليها حُلل ودُمْلج (٤)، وسِوَار من زَبَرجَد، وإذا عند رأس كل واحد منهم كتابٌ بالفارسية، فَدَعَوا منْ قرأه، فإذا عند رأس الأول مكتوب: « أنا رَسْتَم ملك هذه البلاد، أُعطيتُ بطش الجبابرة، ونعمتُ نعمةً لم تجتمع لملك قبلي، ودوّختُ الجنود ولم أصب لداء الموت دواءً.

وإذا عند رأس الآخر، أنا سابور ابن الملك، نغّص الموت شبيبتي (٥) وأبلى جِدتي، ولو قَبِل الموت مني فداءً لأغلى بي.

وإذا عند راس الغلام: أنا بهرام ابن الملك، لو خُلِّد بشرٌ لخلِّدْنا.

وإذا عند رأس الجارية: أنا بنت الملك اختُلستُ بغضارتي، فلا تغركم الدنيا.

ووجدوا بالحيرة حجرًا منقورًا فيه، أنا عبد المسيح بن حيان:

حلبْتُ الـدهـر أشْـطُـره حـيـاتـي ... ونِـلْـتُ من الـمـنى فوق الـمـزيـدِ

---

(١) ش: قد فتحتُ. (٢) ش: فلم.

(٣) الجنائب: جمع جنوب وهي ريح تخالف ريح الشمال. والقطار: المطر.

(٤) الدملج: المعضد. أي حُلي يلبس في العضد. (٥) ظ: شيبتي.

وكافحتُ الأمور وكافحتْني ... ولم أخْضع لمعضلةٍ كؤودِ
وكدْتُ أنال في الشَّرف الثريا ... ولكن لا سبيل إلى الخلودِ

قرئ على قبر:

ذهب الأحبةُ بعد طول تودُّد ... ونأى المزارُ فأسْلموك وأقْشعوا
خذلوك أفقرَ ما تكون لغربةٍ ... لم يؤنسوك وكُربةً لم يدفعوا
قُضي القضاء وصِرتَ صاحبَ حفرةٍ ... عنك الأحبةُ أعرضوا وتصدّعوا

وعلى قبرٍ آخر:

يا غافل القلب عن ذِكْر المنيَّاتِ ... عمَّا قليل ستَثْوى بين أمواتِ
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها ... قد حان للموت يا ذا اللبِّ أن ياتي

وعلى قبرٍ آخر:

سيُعرضُ عن ذكري وتُنسى مودتي ... ويحدثُ بعدي للخليل خليلُ
إذا انقطعت يومًا من العيش مُدتي ... فإن غناء الباكيات قليلُ

وعلى قبرٍ آخر:

الموتُ بحرٌ غالبٌ مَوْجه ... تَضِلُّ فيه حيلةُ السابحِ
يا نفسُ إني قائلٌ فاسمعي ... مقالةً من مشفقٍ ناصحِ
ما استصحب الإنسان في قبره ... غيرُ التُّقى والعملِ الصالحِ

وعلى قبرٍ آخر:

الموتُ أخْرجني عن دار مملكتي ... والتُّرب مُضطجعي من بعد تتريف (١)
للّه عبدٌ رأى قبري فأحزنه ... وخاف من دهره رَتْبُ التصاريفِ
هذا مصير بني الدنيا وإن عُمروا ... فيها وغرّهم طولُ التساويف
أستغفر اللّه من عمْدي ومن جَنفي (٢) ... وأسأل اللّه فوزًا يوم توفيقي

وعلى قبرٍ آخر:

قبرٌ عزيزٌ علينا ... لو كان فيه من يُفدَّى
أسْكنتُ قُرَّة عيني ... ومُنيةَ النفس لَحْدا

---

(١) التتريف: الترف.

(٢) الجنف: الميل عن الحق.

مـا جـارَ خـلـقٌ عـلـيـنـا ولا الـقـضـاء تـعـدَّى
والـصّـبـر أحـسـنُ شـيء بـه الـفـتـى يـتـردّى [1]

وعلى قبر آخر:

يا أيها الناس سيروا إنّ قَصْدكم أن تُصبحوا ذاتَ يومٍ لا تسيرونا
حُثُّوا المطايا وأرْخوا من أزمتها قبل الممات وقضُّوا ما تقضونا
كنا أناسًا كما أنتم ومثلكم وعن قليلٍ كما صرْنا تصيرونا

وعلى قبرٍ آخر:

يـا أيـهـا الـواقـفُ بـالـقـبور بـيـن أنـاسٍ غُـيَّـب حـضـورِ
قدْ سكنوا في خَربٍ معمور بين الثرى وجَنْدل الصُّخور
ينتظرون صيحةَ النشور لا تك عنْ حظك في غرور

وعلى قبرٍ آخر:

مقيم إلى أن يبعث اللَّه خَلْقهُ لقاؤك لا يُرجى وأنتَ قريبُ
تزيد بِلًى في كل يوم وليلةٍ وتُنسى كما تبلى وأنت حبيبُ

وعلى قبرٍ آخر:

أنـا فـي الـقـبـر وحـيـدٌ قـد تَـبـرَّا الأهـلُ مـنـي
أسـلَـمـونـي بـذنـوبـي خِـبـتُ إن لـم يُـعْـفَ عـنِّـي

وعلى قبرٍ آخر:

هذي منازلُ أقوامٍ عهدتهمُ في ظلِّ عيشٍ رغيدٍ ما له خطرُ
صاحت بهم نائباتُ الدهر فانقلبُوا إلى القبور فلا عينٌ ولا أثرُ

وعلى قبرٍ آخر:

لا تركنن إلى الدنيا وبهجتها فإنَّ أوطانها ليستْ بأوطانِ
عُمرتُ ستين حَوْلًا ثمّ فاجأني حَتمٌ من الموتِ يأتي كلّ إنسانِ
فما تزودتُ مما كُنتُ أجمعُه وأكدح الدهر فيه غيرَ أكفاني

وعلى قبرٍ آخر:

---

(١) ش: به الكريم تردَّى.

يمرُّ أقاربي جنباتِ قبري ... كأنّ أقاربي لم يعرفوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فيالله ما أسْرعَ ما نسوني

وعلى قبرٍ آخر:

فلو أنا إذا مِتنا تُركنا ... لكان الموتُ راحةَ كلِّ حيٍّ
ولكنَّا إذا متنا بُعثنا ... ونُسأل بعده عن كلِّ شيء

وعلى قبر آخرٍ:

تزودْ قريبا من فعالك إنما ... قرينُ الفتى في القبر ما كان يعملُ
فإن كنت مشغولًا بشيء فلا يكنْ ... بغير الذي يرضى به اللَّه تُشغلُ
فلن يصْحب الإنسان من بعدِ موته ... إلى قبره إلا الذي كان يفعلُ
ألا إنما الإنسان ضيفٌ لأهله ... يقيم قليلًا عندهم ثم يرحلُ

وعلى قبرٍ آخر:

وقفتُ على الأحبة حين صُفَّت ... قبورُهم كأفراس الرِّهانِ
فلما أن بكيتُ وفاض دمعي ... رأت عيناي بينهُم مكاني

أمر الصاحب بن عباد أن يُكتبَ على قبره هذه الأبيات:

أيها المغرور في الدنيا ... بعزٍّ يقتنيهِ
وبأهل وبمالٍ ... وبقصرٍ يبتنيهِ
كم سَحَبْناكمْ عليها ... ذيلَ سلطانٍ وتيهِ
نحسب الأفلاكَ تجري ... بخلودٍ ترتجيه
إذْ طوانا الدهر طيًّا ... فاعتبرْ ما نحن فيهِ

أهل القبور في الحبوس، أكثرهم قد نكَّسوا الرءوس، ينتظرون هدية تُدفع بعد البؤوس، الثرى مهادٌ والترابُ لبوس.

قال ابن عباس ﷺ: مثل الميت في قبره كالغريق المغوّث (١) ينتظر دعوةً من صديق، فإذا ترحَّم الإنسانُ عليه أخذها ملَك فجاء بها إلى قبره وقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هدية من أخٍ عليك شفيق.

كان رجل يختلف إلى المقابر كل يوم فيترحم عليهم، ويدعو لهم قال: فشُغلتُ عن ذلك

---

(١) المغوث: المستغيث الذي يقول: وا غوثاه!.

يومًا فنمت فرأيتُ خلقًا كثيرًا قد جاءوني فقلت: ما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، وكنتَ قد عوَّدتنا منك هدية، وهي الدعوات التي كنت تدعو بها. قلت: فإني أعود كما كنتُ.

ورئيت رابعة في المنام: فقالت للذي رآها: هداياك تأتينا على أطباقٍ من نورٍ مخمَّرة بمناديل من حرير.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بإسناده عن عثمان بن سَوْدة الطُّفاوي، وكانت أمُّه من العابدات يقال لها: راهبة، قال: لما احتُضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت: يا ذُخري وذخيرتي، ومنْ عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذُلني عند الموت، ولا تُوحشني في قبري. قال: فماتت، وكنت آتيها في كل جمعة فأدعو لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها: يا أماه كيف أنت؟ فقالت: يا بني إن للموتِ لكربًا شديدًا، وأنا بحمد اللَّه في برزخ محمود يُفترشُ فيه الريحان ويُتوسد فيه السُّندس والإستبرق إلى يوم النشور. فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشَّر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك يقال لي: يا راهبة هذا ابنك قد أقبل. فأُسَرُّ ويُسرُّ بذلك من حوْلي من الأموات.

سجع على قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴾:

أكثر الموتى يتحسَّرون، تجري من عيونهم عيون، أسفًا لما كانوا يصنعون، كم نُصحوا وهم مُعرضون، كم وُعظوا وما يسمعون، كم ضيعوا حقًّا وهم يعرفون، كمْ أُخذ غيرهم وما يعتبرون، كم تعللوا بكان ويكون، فما انتبهوا [١] حتى مضت سنون، ثم نازلهم ريبُ المنون، فإذا العزيز في الثرى مدْفون، فلقُوا الشدائد والهُون، وإذا الرجاء طَحُون [٢]، ثم أرْدفت أبكارَ البلايا عُون [٣]، وبكى على غَفْلته المفتون، فباتوا على التفريط يتأسَّفون، ويتمنُّون الرُّجوع فلا يقْدرون، فإنهم واللَّه ما يطلبون، فهم في أنواع المحن يتقلَّبون، كم ينادي مُعذبهم ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ... كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾.

[آخر المجلس: والحمد للَّه دائمًا، اللَّهم يا من يقول للشيء كُنْ فيكون، وفقنا في الحركة والسكون، وارحمنا إذا نزل بنا المَنُون، وحقق آمالنا فيك إذا اختلفت فينا الظنون، ونوِّر علينا ظُلَم القبور بنورك المكنون، إنك على كل شيء قدير] [٤].

* * *

(١) ظ: انتهوا. (٢) الطحون: الحرب.

(٣) العون: البقر التي نتجت بعد بطنها البكر، جمع عوان.

(٤) من النسخة ظ.

المجلس الثالث

في ذكر القيامة وما فيها

الحمد للّٰه الذي يرفع ويُجلّ، ويَحْظر ما يشاء ويُحِلّ، ويعزٌّ من يشاء ويُذل، ويهدي من يريد ويُضل، لا مُعترض عليه ولا مُدل، تعبُّد الخلائق عند فضله يقلُّ، يقيم أهلَ القبور فلا ينسى أحدًا ولا يُخلّ، ويُظهرُ الأهوال فينزعج المكلَّم والخِلُّ (١)، ويُنْصَب الصراط فكم منْ قدم يزلّ سلَّم لصفاته فالخوض بالرأي ضل، ويكفي دليلًا على التوحيد من يستدِل، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ (٢)، أحمده ما دخل مُحْرمٌ من الحِل، وأصلي على رسوله محمد ﷺ أفضل من يلبّي ويُهلّ وعلى صاحبه أبي بكر الذي مريضُ بُغضه لا يُبل، سلوا اللّٰه العافية فداء القوم سِلّ (٣)، وعلى عمر القاهر للأكاسرة المستذل، وعلى عثمان قتيل الظالم المستحل، وعلى عليٍّ الفقيه المستدل، كيف يُضمر الغلُّ لهم وقد قال: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ (٤) وعلى عمه العباس القائل في زمزم: حِلّ وبِلّ.

* * *

اعلم أن في القيامة أهوالًا كثيرة، ومزعجاتٌ مثيرة، فأوّل ذلك نفخ الصور:

يُنفخ فيه النفخة الأولى فيموتُ الخلائق وتسير الجبال، وتكوّرُ الشمس والقمر، وتظهر الأهوال، **ثم ينفخ فيه النفخة الثانية** لقيام الخلائق من القبور.

أخبرنا الكروخي بإسناده عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « كيف أَنْعَم وقد التقم صاحبُ القَرنِ القرنَ، وحنَى جبهته وأصْغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ »، فقال المسلمون: وكيف نقول يا رسول اللّٰه؟ قال: قولوا « حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل توكلنا على اللّٰه » (٥).

قال مجاهد: الصور كهيئة البوق.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بإسناده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « ما بين النفختين أربعون » قالوا له: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعين شهرًا؟ قال: أبيت: قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قال: ثم يُنزل اللّٰه تعالى من السماء

---

(١) المكلم: موسى ﷺ. والخل: إبراهيم ﷺ. (٢) سورة الفرقان: ٤٥.

(٣) السل بالكسر والضم: داء الرئة. (٤) سورة الأعراف: ٤٣. (٥) أخرجه أحمد في مسنده: ٧٣/٣.

ماءً فينبتون كما ينبتُ البقل قال: وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عَجْب الذَّنَب فيه يركَّب الخلق يوم القيامة » [١]. (أخرجاه في الصحيحين).

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يُنزل اللّه ﷻ ماءً من تحت العرش يقال له الحيوان، ويُمطر السماءُ أربعين يومًا، حتى يكون الماء فوقكم اثني عشر ذراعًا، فتنبت الأجسادُ كنبات البقل أو كنبات الطراثيث [٢] حتى تكامل أجسادكم، فتكون كما كانتْ، ثم يدعو اللّه تعالى بالأرواح فيُؤتى بها فتخرج كأمثال النَّحْل قد ملأت بين السماء والأرض، فيلقيها في الصور، فأرواح المؤمنين تتوهّج نورًا والأخرى مظلمة، فتدخل الأرواح في الخياشيم فتدبُّ دبيب السُّمّ في اللديغ، يقول اللّه ﷻ: ليحيا حملة العرش فيحيون، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل فيقبض الصور وينفخ فيخرجون حفاة عراة غُرلًا » [٣].

قال قتادة: ينادي الملكُ على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، إن اللّه تعالى يأمُركم أن تجتمعوا لفصل القضاء.

وقال أبو رُزين العقيلي قلت: يا رسول اللّه كيف يحيي اللّه الموتى؟ قال: « أَمَرَرْتَ بأرضٍ من أرضك مُجدبة، ثم مررت بها مُخصبة؟ قلت: نعم، قال: كذلك النشور » [٤].

وفي أفراد مسلم من حديث جابر بن عبد اللّه ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: « يُبعث كلُّ عبد على ما مات عليه » [٥].

وفي الصحيحين من حديث عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: « إنكم تُحشرون يوم القيامة حُفاةً عراةً غُرْلًا ». قالت عائشة ﵂: يا رسول اللّه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعْض قال: « يا عائشة إن الأمر أشدّ من أن يهمَّهم ذلك » [٦].

وفي الصحيحين من حديث أنس ﷺ أن رجلًا قال: يا نبي اللّه كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: « أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرٌ على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » [٧].

وفيهما من حديث سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: « يحشر الناس على أرض

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة رقم : ٣٩، ٣، ٧٨. وصحيح مسلم، كتاب الفتن، حديث رقم : ١٤١ - ١٤٣.

(٢) الطراثيث: جمع طرثوث، وهو نبت يؤكل.

(٣) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٤) مسند أحمد : ٤/١١.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٨٣.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم : ٨.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر.

بيضاء عفراء كقُرْصة نقيٍّ ليس فيها علم لأحد »(١).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن بَهْز بن حكيم قال: حدثني أبي عن جدي قال: قال رسول للَّه ﷺ: « إنكم محشورون رجالًا وركبانًا، وتجرُّون على وجوهكم »(٢).

قال أحمد: وحدثنا يزيد بإسناده عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: « تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفَدام، وإن أول ما يتكلم من الآدمي فخذه »(٣).

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ يقوم أحدهم في رَشْحه إلى أنصاف ساقيه »(٤).

وفيهما من حديث أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « يَعْرق الناسُ يوم القيامة حتى يذْهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ويُلْجمهم حتى يبلغ آذانهم »(٥).

وفي بعض ألفاظ الصحيحين: سبعين باعًا.

أخبرنا ابن الحصين بإسناده عن المقداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إذا كان يومِ القيامة أُدنيت الشمسُ من العباد حتى تكون قَيْد مِيلٍ أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم؛ منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حِقْويه، ومنهم من يلجمه إلجامًا »(٦).

قال أحمد: وحدثنا حَيْوة بن شُريح بإسناده عن عتبة بن عبد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لو أن رجلًا يجرّ على وجهه من يومَ وُلد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة اللَّه لحَقره يوم القيامة »(٧).

ثم يَردُ الناسُ الحوْض.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « أنا فَرَطكم على الحوض مَنْ وَرَد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا »(٨).

وفيهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « أنا فَرَطكم على الحوض وليُختلجنَّ رجالٌ دوني فأقول أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أَحْدثوا بعدك »(٩).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر : ١٣٢/٣. بحاشية السندي.

(٢) مسند أحمد : ٢/٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٤٤٧/٤، والفدام: ما يشد على الفم. ورواية المسند: أول ما يُعرب عن أحدكم فخذه.

(٤ ، ٥) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٤٧.

(٦) مسند أحمد : ١٥٧/٤.

(٧) مسند أحمد : ١٨٥/٤.

(٨) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٥٣. وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم : ٣٩.

(٩) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب رقم : ١. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم : ٢٥، ٢٦.

وفيهما من حديث ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: « حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدًا » (١).

وفي حديث ثَوْبان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « أول الناس ورودًا عليَّ الحوضَ فقراء المهاجرين » فقال: عمر ﷺ من هم يا رسول اللَّه؟ قال: « هم الشُّعثُ رءوسًا الدُّنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعِّمات، ولا تُفتح لهم أبواب السُّدد (٢). ثم يعرض الناس على اللَّه تعالى ».

وفي حديث أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يعرض الناسُ يوم القيامة ثلاث عرضاتٍ؛ فأمَّا عرضتان فجدالٌ ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطيرُ الصُّحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذٌ بشماله » (٣).

* * *

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعودٍ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « أولُ ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » (٤).

وفي الصحيحين من حديث عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من نوقش الحساب يوم القيامة عُذب » (٥).

وروى أبو برْزة عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن عِلْمه فيم فَعَلَ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه » (٦).

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته » (٧).

وفي الصحيحين من حديث عديّ بن حاتم ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربُّه تبارك وتعالى ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن أيمن منه فلا يرى إلا شيئًا قدَّمه، وينظر عن أشأم منه فلا يرى إلا شيئًا قدمه، وينظر أمامه فتستقبله

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض.

(٢) مسند أحمد : ٢٧٥/٥. والشعث: جمع أشعث وهو المتفرق شعر الرأس، والدنس: جمع دنس وهو المتسخ. والسدد: جمع سدة وهي باب الدار.

(٣) مسند أحمد : ٤١٤/٤. وسنن الترمذي، كتاب القيامة، باب رقم : ٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب رقم : ١. صحيح مسلم، كتاب القسامة، حديث رقم : ٢٨.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٤٥. وصحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٧٩، ٨٠.

(٦) سنن الترمذي، كتاب القيامة، باب رقم : ١. (٧) مسند أحمد : ٢٩٠/٢ - ٤٢٥.

النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل » (١).

وفيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره من الناس ويقرِّره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم قال: ثم يعطَى كتابَ حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهادُ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة اللَّه على الظالمين » (٢).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (٣) فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأَمَةٍ بم عمل على ظهرها، أن تقول عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا. ثم يُحضر الميزان » (٤).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « ليأتينَّ الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزِن عند اللَّه جناح بعوضة » (٥).

وفي حديث عبد اللَّه بن عمرٍو عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه عز وجل يستخلصُ رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا كلُّ سجلٍّ مدّ البصر، ثم يقول له: أتنكرُ من هذا شيئًا؟ أظلمتْك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عُذر أو حسنةٌ؟ فيبهتُ الرجلُ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً واحدةً لا ظلم اليوم عليك، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم. فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفةٍ فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » (٦).

ويقع القِصَاص بين الخلق فيشفع النبي ﷺ ويشفع المؤمنون ويخرج من النار أقوامًا..

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الرجل من أمتي ليشفع للفِئام من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته » (٧).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم : ٩. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم : ٦٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب رقم : ٢. ومسند أحمد : ٢/٧٤.

(٣) سورة الزلزلة: ٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القيامة، باب رقم : ٧.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة رقم : ١٨.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب رقم : ١٧. ومسند أحمد : ٢/٢١٣.

(٧) مسند أحمد : ٣/٢٠ - ٦٣، والفئام: الجماعات من الناس.

ويُنصبُ **الصراطُ** على متن جهنم، فنسأل الله ﷻ السلامة عن هذه الأهوال وجَرْيًا على أحْسن الأحوال.

* * *

الكلام على البسملة

مضَى زمان الصِّبا وحُب الحبايب … كفاك زجرًا ووعظًا شيبُ الذوائب [(١)]
أفقْ لنفسك واسمع قول المعاتب [(٢)] … لا تَغْتَررْ بالأماني فرُبّ أملٍ خائب
يا غافلًا فاته أفضل المناقب … أين البكاء لخوف العظيم المطالب
ليت الزمان الذي ضاع في الملاعب … نظرت فيه إلى آخر العواقبْ
كم في القيامة من أدْمع سواكب … على ذنوبٍ حواها كتابُ كاتبْ
من لي إذا قمتُ في موقف المحاسَبْ … وقيل لي ما صنعت في كل واجب
ترجو النجاة وتلهو يا شر لاعب … إذا أتتك الأماني بظن كاذب
الموتُ صعبٌ شديدٌ مرُّ المشاربْ … يَلْقى بشدة بأسٍ صدور الكتائب
فانظر لنفسك واذكر قدوم غائب … يأتي بقهر يرمي بسهمٍ صائبْ
يا آملًا أن يبقى آمنًا للنوائب … بنيت بيتًا ولكن كنسْج [(٣)] العناكبْ
أين الذين علَوْا متونَ الركائب … وأصبحوا خير كهفٍ من كل نائب
دبَّ الهلاكُ إليهم مثلَ العقارب … ضاقت [(٤)] بهم للمنايا كلُّ المذاهب
وأنت بعد قليل حِلْفُ المصائب … فانظر وفكر ودبر قبل العجائب

لو تفكرتْ النفوس فيما بين يديها، أو تذكرت حسابها فيما لها وعليها، لبعث حزنها بريدَ دمعها كلَّ وقت إليها:

ومن عجب [(٥)] الأشياء أنك تعلمُ … بأنك مأخوذٌ بما تتجرَّمُ
وأنت على ما أنت غيرُ مُقْصر … ولا مُقْلعٍ عما عليك يُحرَّمُ
كأنك في يوم القيامة آمنٌ … إذا برزتْ للمجرمين جهنمُ

---

(١) هذا لون من الوزن الشعري مستحدث في عصر المؤلف. يسمَّى الدوبيت. والدو: كلمة فارسية معناها إثنان.

(٢) ظ: العاتب.

(٣) ش: بنسج.

(٤) ظ: صاحت.

(٥) ظ: أعجب.

فلا تغترر بالعمر إنْ طال واعتبر فـإنـك لا تـدري مـتـى يـتـصـرَّمُ
وتسكنُ بيتًا غير بيتك مُظلمًا وما فيه مشروبٌ ولا فيه (١) مطعم
وتترك ما قد كُنتَ فيه محكّمًا وغيرك فيه لو علمت المحكّمُ
وتأتي غدًا من بعد يُسرك معسرًا (٢) ومـا لَـك ديـنـارٌ ولا لـك درهـمُ
فإن كنت قد قدمت من قبلُ صالحًا فإنك من هول القيامة تسلمُ
فكن مُقلعًا وارجع إلى اللَّه واغتنم بقاءك في الدنيا فَمحْيَاك مغنمُ

* * *

أما يحق البكاء لمن قد مضى زمانه، أما يحق البكاء لمن قدْ ذهب أوانه، أما يحق البكاء لمن طال عصْيانه، نهاره في المعاصي فقد زاد خُسرانه، وليلُه في الخطايا فقد خفّ ميزانه، وبين يديه الموتُ الشديدُ لقاؤه وعيانه، والقبرُ المظلمُ المتهدمة أرْكانه، والحشرُ العنيفُ فيه ذُلُّهُ وهوانه، والحساب العسير يُنشَرُ فيه ديوانه، والموقف الطويل فيه غمومه وأحزانه، والجحيم الشديدُ فيه من العذاب ألوانه:

أَنوحُ على نفسي وأبكي خطيئةَ تقود خطايا أثقلت منِّي الظَّهرا
فيا لذةً كانت قليلًا بقاؤها ويا حسرةً دامتْ ولم تُبق لي عُذرَا

* * *

ذكْر العرْض أجرى دموع الخائفين، وخَوْفُ الحساب قلقلَ أفئدة التائبين.

سأل رجل ذا النون، فقال: ما الذي أنصب العُبَّادَ وأضناهم؟ فقال: ذكر المقام وقلةُ الزاد، وخوف الحساب، ولم لا تذوب أبْدانُ العبادِ وتذهل عقولهم والعرضُ على اللَّه أمامهم وقراءة كتبهم بين أيديهم، والملائكةُ وقوفٌ ينتظرون أمرَ الجبار في الأخيار والأشرار، فمثَّل القومُ هذا في نفوسهم وجعلوه نُصْبَ أعينهم.

وقال: كلُّ مُطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالب.

إخواني: قد شملت الغفلةُ الخلائق، حتى سترتْ عنهم وجوه الحقائق، فصار اليقين عندهم كالظنون، فالعاقل يفعل فعل المجنون.

أخبرنا عمر البسطامي بإسناده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يقول اللَّه تعالى يوم القيامة: ابن آدم مرضتُ فلم تعُدني، واستطعمتك فلم تُطعمني،

(١) أ: ولا كافيه. ولعله تحريف.
(٢) ظ: معدمًا.

واستسقيتك فلم تَسقني. قال: فيقول: يا رب كيف وأنت رب العالمين؟! .قال له: أما علمت أن [عبدي] [1] فلانًا مرض فلم تعُده ولو عُدته لوجدتني عنده، أما علمت أن عبدي استطعمك فلم تُطعمه، ولو أطعمته لوجدت ذلك عندي، أما علمت أن عبدي استسقاك فلم تَسقه ولو سقيته لوجدت ذلك عندي » [2]. (انفرد بإخراجه مسلم).

ذكر القيامة أقام أقدامهم، وخوف الحساب حَرس أيامهم، وتصوُّر الجزاء بعَّد آثامهم.

قال بعض السلف: مضيتُ إلى جبل اللُّكام [3]، فما رأيت أعبد من شاب أصفر اللون كان يَصفُّ قدميه، فيصلي ركعتين من أول الليل إلى آخره يختمُ فيهما القرآن، ثم يجلس فيعتذر إلى الصباح.

قال ذو النون: مررت بغارٍ في جبل اللُّكام فإذا فيه رجل يتعبد فسمعته يقول:سبحان من أمْرح قلوب المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه، سبحان من أوصل أكفّهم إلى عقول ذوي البصائر فهي لا تعتمد إلا عليه، سبحان من أورد حياضَ المودة نفوسَ أهل المحبة فهي لا تحنُّ إلا إليه. فقلت: السلام عليك يا حليف الأحزان. فقال: وعليك السلام، من ذا الذي أوصلك إلى من قد أفرده خوفُ المساءلة، واشتغل بمحاسبة نفسه؟ قلت: الرغبة في الاعتبار. فقال لي: أَحِبَّ اللَّهَ شوقًا إلى لقائه، فإن له يومًا يتجلى فيه لأوليائه ثم أنشأ يقول:

قد كان لي دمْعٌ فأفنيته ... وكان لي جفْن فأدميته
وكان لي جسمٌ فأبليته ... وكان لي قلبٌ فأضنيتهُ
وكان لي يا سيدي ناظرٌ ... أرى به الخلقَ فأعميته
عبدك أضحى سيدي مُوثقًا ... لو شئتَ قبل اليوم داويتَهُ

قال بعضُ العبَّاد: رأيتُ رجلًا وحده جالسًا على حجر مُطرقًا إلى الأرض فقلت له: ما تصنع؟ قال: أنظر وأرعى. فقلت: ما أرى بين يديك إلا الحجارة، فما الذي تنظر وترعى؟ فتغير لونه ونظر إليَّ مُغضَبًا وقال: أنظر خواطر قلبي، وأرعى أوامر ربي وبحق الذي أظْهرك عليَّ إلَّا جُزتَ عني. فقلت: كلمني بشيء أنتفع به حتى أمضي. فقال: من لزم الباب أُثبت في الخدم، ومن أكثر ذكر الذنوب أكثر الندم، ومن استغنى باللَّه أمن العدم، ثم تركني ومضى:

ما غيَّرني الملامُ لكنْ ... زادت شغفًا بك اللوائمْ

---

(١) من صحيح مسلم. (٢) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٤٣.

(٣) قال في القاموس: هو جبل يسامت حَماة وينتهي عند أنطاكية.

أشكو كمدي إلى حبيبي … يا من ولهي عليه دائم
قد حرَّقني [1] الصدُّ فقل لي … كم تمنع وِرْدك الحوائم
كم بتّ على فراش حزنٍ … أبكى وتعينني الحمائم [2]

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [3]

النسف: التَّذرية، **والمعنى:** يصيرها رمَالًا تسيلُ سيلًا ثم يصيرها كالصوف المنفوش تُطيرها الرياح فتستأصلها ﴿ فَيَذَرُهَا... ﴿١٠٦﴾ ﴾ أي: يدعُ أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿ قَاعًا... ﴿١٠٦﴾ ﴾ والقاع من الأرض: المستوي الذي يعلوه الماء، والصفصف المستوي أيضًا. يريد أنه لا نبت فيها، ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾، **وفي ذلك قولان:**

أحدهما: أن المراد بالعوج الأودية، وبالأمْت الروابي. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو مذهب الحسن ومجاهد.

والثاني: أن العوج الميل والأمْت الأثر مثل الشِّراك. رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ... ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي يتبعون صوت الداعي للحشر ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ... ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي: لا عوج لهم عن دعائه، والمعنى لا يقدرون أن لا يتبعون ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ **وفيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: وطء الأقدام. رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قولُ الحسن وعكرمة.

والثاني: تحريك الشفاه من غير نطق، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثالث: الكلام الخفي قاله مجاهدٌ وقال أبو عبيدة: الصوتُ الخفي.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾:

يا من قد أخذ الموتُ منه ولدًا وعِرْسًا [4]، وغرس بعضَه في القبور غرسًا، كم رأيتَ مصبحًا في الدنيا ما أمسى، كم عاينت بطَّاشًا كفّ الموت منه خَمْسًا [5]، كأنك باليقين

---

(١) ظ: أحرقني.

(٢) وهذا أيضًا من الأوزان المستحدثة في عصر المؤلف.

(٣) سورة طه: ١٠٥.

(٤) العرس: الزوجة.

(٥) أي: كف أصابعه عن البطش.

قد جاء فرفع شكًّا ولبسًا، وكأنك بمركب العُمر على اللحد قد أرسى، وسكنتَ بعد القصور العالية حُفرةً ورمْسًا [١]، أرأيتَ في الحُبوس مثلَ القبر حبسًا، وعلمت أن جميع مالك لا يساوي فلْسًا، وتُخلع ثيابُك فتكسى في التراب لُبسًا، وينساك من كان خَدينًا ورفيقًا وأنْسًا، تركوا واللَّه ذكرك فوقعت في المَنْسَى، ولو بكوا ما انتفعت ولو ندبتك الخنْسا [٢]، ودرَسك البِلَى بكَلْكَلِه درْسًا، وترى في قبرك مأتمًا أو عُرسًا، ويحك إلى متى تؤثر بخسًا ورجسًا، متى تحصل بالتوبة تطهيرًا وقدسًا، أفٍّ لقلبك ما أصلبه وما أقسى، أتؤثر ما يفنى على ما يبقى، تعْسًا لرأيك تعسًا، ويحك خلِّص نفسك فيا لها نفْسا، أما هذا بين يديك؟ ما أكثر ما تنسى، ثم تقومُ من قبركَ فيستشهد [٣] عليك جلدًا وطرسًا، وقد سكتتْ الألسن هيبةً حتى كأنها خرْسًا، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

* * *

قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ... ﴿١٠٩﴾﴾

أي: لا شفاعة إلا لمن أذن أن يشفع له ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ... ﴿١٠٩﴾﴾ للمشفوع فيه ﴿قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا اللَّه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ... ﴿١١٠﴾﴾ **وفيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: أن الذي بين أيديهم أمر الآخرة والذي خلفهم أمر الدنيا. قاله ابن عباس وقتادة.

والثاني: أن الذي بين أيديهم الدنيا والذي خلفهم الآخرة. قاله مجاهد وابن جريج.

والثالث: أن ما بين أيديهم ما قبل خلقهم، وما خلفهم ما بعد خلقهم. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ **في هائه قولان:**

أحدُهما: أنها ترجع إلى اللَّه تعالى. قاله مقاتل.

والثاني: إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ... ﴿١١١﴾﴾:

قال الزجاج: **عنت:** خضعت يقال: عنا يعنو إذا خضع، ومنه قيل: أُخذت البلادُ عَنْوةً،

---

(١) الرمس: القبر.

(٢) يشير إلى الشاعرة المخضرمة: الخنساء التي اشتهرت برثاء أخيها صخر.

(٣) ش: فيشهد.

إذا أُخذتْ غلبةً بخضوع من أهلها وأكثر المفسرين على أن هذا في القيامة إلا ما روي عن طَلْق بن حبيب أنه قال: هو وضع الجبهة والأنف والكفين والركبتين وأطراف القدمين على الأرض في السجود. قال الخطابي: والحيُّ في صفة اللَّه تعالى هو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موْصوفًا، لم تَحْدث له الحياة ولا يعترضه الموت بعد الحياة.

وفي القيوم ثلاث لُغاتٍ: الأولى: ﴿ ٱلۡقَيُّومِۖ... ﴾ وبها قرأ الجمهور، **والثانية:** ﴿ القيّام ﴾ وبها قرأ عمر وابن مسعود، **والثالثة:** ﴿ الْقَيِّمُ ﴾ وبها قرأ أبو رزين وعلقمة.

قال ابن الأنباري: وأصل القيوم: القيئوم، فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن، جُعلتا ياءً مُشَّددة، وأصلُ القيّامُ: القيْوام. قال الفرَّاء: وأهل الحجاز يصرفون الفعَّال إلى الفيعال يقولون للصواغ صياغ. **وفي معنى هذا الاسم ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه مِنْ قام الشيء إذا ثبت، والقيوم هو الذي لا يزول عن الاستقامة وَصْفُه بالوجود ولا يجوز عليه التغير بوجه من الوجوه، وهذا قول أبي عبيدة. وقال سعيد ابن جبير: القيوم الدائم الوجود.

والثاني: أنه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها. قاله الحسن.

والثالث: أنه القائم بتدبير خلقه. قاله قتادة.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾:

يوم تتكدر فيه النجوم، وتتقلع الجبالُ من أصول التُّخوم، وتصعد القلوب إلى الحلقوم، وكلٌّ فرحانٍ بالهوى فهو مغموم، وكل ذي طربٍ باللذات مهموم، يرتعدُ العاصي كأنه محموم، وينشر الكتاب المطويُّ المختوم، ويظهر من الهول ما لم يكن في الوُهُوم، فتتحيّر العقولُ وتذهلُ الفهوم، ويعُمّ الإزعاجُ الخصوصَ والعموم، ويتمنى الموجود أنه معْدوم، هذا والنار حوْل العصاة تحُوم، فإذا أخذتهم لم يبق شُحوم ولا لُحوم، فلو رأيت قلق الأرواح في تلك الجسوم، تبلى بالعذاب كما تبلى الرسوم، ثم تجدَّد فتعُود النار كالمنهوم، والشراب الحميمُ والمأكول الزقوم، يا بئس المشروب وبئس المطعوم ﴿ لِكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴾ (١).

لو كان هذا أيامًا يسيرة إنما يدوم، تاللَّه إن نسيان هذا جهلٌ ولُوم، ألا ينتبه من رقْدته هذا النَّؤوم، جسده عندنا وقلبه في الرُّوم، لا بالرمَل يطْرب ولا بالمزموم (٢)، متى ترى هذه الأهوال حين ينشق القبر وتقوم ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾.

---

(١) سورة الحجر: ٤٤.

(٢) الرمل: بحر من بحور الشعر. والمزموم: وزن مستحدث في عصر المؤلف.

قوله تعالى:

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾

﴿ خَابَ ﴾ بمعنى خسر. أخبرنا عبد الأول بإسناده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من كان عنده مظْلمة لأخيه من مال أو عِرض فليأته فليستحلَّها منه قبل أن يؤخذ أو تؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأُعطيها هذا، وإلا أُخذ من سيئات هذا فألقيت عليه » (١).

أخبرنا الكروخي بإسناده عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » (٢). (أخرجاه في الصحيحين، وانفرد البخاري بالذي قبله).

وروى جابر عن بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن اللَّه يبعثكم يوم القيامة حفاةً عراة غرلًا ويقول: أنا الديَّان لا ظُلم عندي، وعزتي لا يجاوزني اليومَ ظلم ظالم ولو لطمة بكف، ولا ضربة يدٍ على يدٍ، ولأقتصنّ للجمّاء من القرناء (٣)، ولأسالنّ الحجر لم نكب الحجر، ولأسألنَّ العَوْدَ لم خدش صاحبه » (٤).

وقال أبو الدرداء: إياكم ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام.

قال مكحول: أوحى اللَّه تعالى إلى موسى ﷺ: قل لبني إسرائيل: « تجنبوا الظلم فوعزتي وجلالي إن له عندي مغبةَ سوء. قال موسى ﷺ: يا رب وما مغبته؟ قال: أُثكل فيه الولد وأُبيد فيه العشيرة وأقصِّر فيه الأجل ثم الثُّويّ بعد ذلك النار ».

وقال عبد اللَّه بن سلام: لما خلق اللَّه ﷻ الملائكة رفعت رءوسها إلى السماء فقالت: ربنا مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يُؤدَّى إليه حقُّه.

قال بعض الحكماء: الظلمُ مَسْلبة للنعم، والبغي مَجْلبة للنِّقم، أقرب الأشياء صرعةً: الظلوم، وأَنْفذ السهام دعوةِ المظلوم، ومن تغدَّى بسوء السيرة تعشَّى بزوال القدرة (٥).

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾:

لقد أفات الظالمُ نفسه خيرًا جمًّا، واستجلب لها عقابًا وذمًّا، ضم الأموالَ إليه ضمًّا،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب رقم : ١٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب رقم : ٩. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٢٩.

(٣) الجماء: التي لا قرن لها، والقرناء: ذات القرن.

(٤) روى نحوه أحمد في مسنده : ٣/٤٩٥. والعود: البعير.

(٥) ش: بزوال العشيرة.

وإنما يتناول على الحقيقة سُمًّا، أعقبه ما فرح به غمًّا، وألحقه أسفًا (١) وهمًّا، وكفى أنه بالظالم يسمَّى، ولقد ودَّ أنه نجا وأنه أعمى، قَدِّر أنَّ الظالم ملك طِمًّا ورِمًّا (٢)، أمَا الاستمتاع إلى أجل مسمى؟ كيف به إذا سلك طريقًا مُدلَهِمًّا، ونفَض عن رأسه التراب وقد احتضر الحساب ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

والحمد لله وحده (٣).

* * *

(١) ش، ظ: أسًى.

(٢) الطم والرِّم: قال في القاموس: وجاء بالطم والرم. بكسر الراء المشددة: أي: بالبحر والثرى أو الرطب واليابس يضرب مثلًا لمن اتسع ملكه.

(٣) في ظ زيادة: اللَّهم يا من لا يحيط أحد بذاته علمًا، ولا يدرك حقيقته وهمًا، اقسم لنا من كل خير قسمًا، واجعل لنا إلى طاعتك نهوضًا وعزمًا، واكفنا من جميع خلقك ظلمًا وهضمًا.

المجلس الرابع

في ذكر الجنة

الحمد للَّه مبلِّغ الراجي فوق مأموله، ومعطي اللاجي زيادة على سُوله، المنان على التائب بصفحه وقبوله، خلق الآدمي فأنشأ له دارًا لحلوله، وجعل الدنيا مرحلةً لنزوله، فتوطَّنها مَنْ لم يعرف شرف الدار الأخرى لخموله، أو ما ترى غِرْبان البَيْنْ تنوح على طلوله، ارحلوا عنها فرُبَّ قفر يُخاف من غُوله ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ (١).

أحمده على نيل الغرَض وحُصوله، وأقرُّ بوحدانيته إقرار عارف بالدليل وأصوله، وأصلي على رسوله ما تردد النسيم بين شماله وجنوبه وقَبُوله (٢)، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي يبغضه الرافض بفضوله، وعلى عمر حامي الإسلام بسيف عزمٍ لا يخاف من فُلوله، وعلى عثمان الصابر على البلاء حين نزوله، وعلى عليٍّ الصائل بشجاعته قبل أن يصول بنصوله، وعلى عمه العباس الذي أحْكم بيعة العقبة بمقوله.

* * *

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي بكر بن عبد اللَّه بن قيس، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: « جنات الفردوس أربع: ثنتان من ذهب حِلْيتهما وآنيتهما وما فيهما، وثنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وليس بين القوم وبين أن ينظرو إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن » (٣). (أخرجاه في الصحيحين).

وفيهما من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: « إنَّ في الجنة لَخيمة من دُرّة مجوَّفة، عرضها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن » (٤).

وفيهما من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللَّه ﷻ قال: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » (٥).

وفيهما من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « أولُ زمرة تَلج الجنة

---

(١) سورة الحديد : ٢١.
(٢) القبول: ريح الصَّبا لأنها تقابل الدَّبُور.
(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب رقم : ٣٤. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٢٩٦.
(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ٨. وصحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٢٣ - ٢٥.
(٥) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة : ٩٢/٢، ط الأميرية.

صُورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوَّطون، آنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الأَلُوة [١]، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مُخّ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجلٍ واحد، يسبحون اللَّه بكرة وعشيًّا » [٢].

وفيهما من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: « أدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك » [٣]. (والمراد بالجنابذ القباب).

وفيهما من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « إن أهل الجنة يتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءَوْن الكوكب الدرِّي الغارب [٤] في الأفق من المشرق أو المغرب، لِتفاضُل ما بينهم » قالوا: يا رسول اللَّه تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: « بلى والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا باللَّه وصدَّقوا المرسلين » [٥].

وفيهما من حديث سهل بن سعد وأبي سعيد وأبي هريرة وأنس ﷺ كلهم، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الجنة شجرة يسيرُ الراكبُ في ظلها مائة عام لا يقطعها » [٦].

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الجنة لسوقًا يأتونها كلَّ جمعةٍ، فتهبُّ ريحُ الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسنًا وجمالًا، فيقولُ لهم أهلوهم: واللَّه لقد ازددتم بَعْدنا حسنًا وجمالًا. فيقولون: وأنتم قد ازددتم حسنًا وجمالًا » [٧].

أخبرنا الكَروخي بسنده عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة ﷺ فقال أبو هريرة: أسأل اللَّه أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول اللَّه ﷺ : « أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يُؤْذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فيوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيٌّ،

---

(١) الألوة: عود يتبخر به.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة : ٩٢/٢، ط الأميرية.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم : ٥. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٢٦٣.

(٤) الأصل: الغابر وما أثبته من صحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة. وصحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ١٠، ١١.

(٦) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة : ٩٣/٢، ط الأميرية.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في سوق الجنة : ٥٣٢/٢، ط عيسى الحلبي.

على كُثْبان المسك والكافور ما يرون أنّ أصحاب الكراسي بأفضل مجلسًا » قال أبو هريرة: قلت: يا رسول اللَّه، وهل نرى ربَّنا؟ قال: « نعم، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ » قلنا: لا. قال: « كذلك لا تمارون في رؤية ربكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضَره اللَّه تعالى محاضرةً حتى يقول للرجل منهم يا فلانُ: أتذكر يوم قلت كذا وكذا فيذكِّره بعض غَدَراته [١] في الدنيا، فيقول: يا رب أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه. فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابةٌ من فوقهم فأمْطرتْ عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط. ويقول ربنا: قوموا إلى ما أعددتُ لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم، فنأتي سُوقًا قد حفّتْ به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان ولم يخطُر على القلوب، فيحملُ لنا ما اشتهينا ليس يُباعُ فيه شيءٌ ولا يُشْترى، وفي ذلك السوق يلْقى أهل الجنة بعضهم بعضًا، فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيَلْقى من هو دونه، وما فيهم من دنيّ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتخيل عليه ما هو أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يحزن فيها، ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبًا وأهلًا لقد جئت وإن لك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليومَ ربنا الجبار تبارك وتعالى، ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا » [٢].

أخبرنا أبو القاسم الكاتب بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول اللَّه حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: « لبنة ذهب ولبنة فضة ومِلَاطها المسك الأذفر، وحصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها يَنْعم لا يبأس، ويخْلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يَفنى شبابه » [٣].

أخبرنا هبة اللَّه بن أحمد الحريري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وإن جنة الفردوس أوْسطها أو أعلاها سماء، وعليها يوضع العرش يوم القيامة، ومنها تُفجَّر أنهار الجنة، قال رجل: بأبي وأمي يا رسول اللَّه فيها خيل؟ قال: « نعم » والذي نفسي بيده إن فيها لخيلًا من ياقوتة حمراء تدفُّ بهم من خلال ورق الجنة، يتزاورون عليها ». فجاء رجل فقال: بأبي وأمي يا رسول اللَّه هل فيها إبل؟ قال: « نعم ، والذي نفسي بيده إن فيها لإبلًا من

---

(١) ش: غدارته. والغدرات: جمع غدرة وهي الخيانة أو نقض العهد.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه، كلاهما من رواية عبد الحميد بن حبيب. قال الحافظ المنذري: وعبد الحميد هو كاتب الأوزاعي مختلف فيه، وبقية رواة الإسناد ثقات. الترغيب والترهيب : ٢٧٩/٤.

(٣) مسند أحمد : ٣٠٥/٢.

ياقوتة حمراء رِحَالها الذهبُ والفضة محفِّين نَمَارق الديباج تدفُ بهم بين خلال ورق الجنة يتزاورون عليها ». فجاء رجل فقال: بأبي وأمي هل فيها صوت؟ قال: « نعم والذي نفسي بيده إن اللَّه ﷻ ليوحي إلى شجرة في الجنة أن أسمعي عبادي هؤلاء الذين شغلهم ذكري في الدنيا عن عزق المزاهر والمزامير بالتسبيح والتقدير » (١).

* * *

الكلام على البسملة

وقبل شُخوص المرء يجمع زاده — وتُملأ من قبل الرِّماء الكنائنُ
حصادُك يومًا ما زرعت وإنما — يدانُ امرؤٌ يومًا بما هو دائنُ (٢)

إخواني: مضت الأعمارُ في الذنوب، وامتلأت عُيبُ (٣) القلوب بالعيوب، وما راقبتم عالمَ الغيوب، وأعظم المصائب فقْد الطبيب، وأعظم العظائم غفلةُ المطلوب، فهل فيكم من يغسل دَرَن ذنبه بدمعة؟ هل فيكم معتذرٌ من قبيح صُنعه؟ أين المتذكر حلول الموت بربعه، أين من يزرع التُّقى هذا أوانُ زرعه.

تاللَّه لو حضرت القلوب لطابت، غير أنها غائبة، ولو صدقت التوبةُ لقبلتْ، لكنها كاذبة، فكيف بكم إذا فاز الأبرار وخِبْتم، وحضر المتقون وغبتم، كم ضيعتم الأوقات النفيسة ولعِبْتم، ولو سمعتم وصفكم من غيركم لَعِبْتم.

أمَا الموت عن قليل يأتيكم، أما اللحود بعد أيامٍ مثاويكم، أما داعي الرحيل قد أسمعكم، أما القيامة غدًا تجمعكم، كم بارزتم بذنبٍ وما استحييتم، كم خُوفتم من العقاب وما ارعَويْتم، أعرفتم قدر ما على النفوس جنيتم؟!

أنسيتم أن اللَّه تعالى يعلم ما أخفيتم، لقد نهض المتقون نهضة عازم، ولقد شدَّ الصابرون لطلب الجنة الحيَازم (٤)، شغلهم تحصيل زادهم عن أهلهم وأولادهم، ومال بهم عن المال ذكرُ المآل في معادهم، وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شُغلًا بمرادهم، وتوسدوا أحزانهم بدلًا من وسادهم، واتخذوا الليل مسلكًا إلى جدهم واجتهادهم، وحرسوا جوارحهم بالنهار عن غيِّهم وفسادهم، فيا طالب الهدى جُزْ بناديهم ونادِهم:

---

(١) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

(٢) البيتان لسابق البربري، كما في ديوانه الذي جمعته باحثة بكلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(٣) العيب: جمع عيبة وهي ما تجمع فيها الثياب.

(٤) الحيازم: جمع حيزوم وهو ما استدار بالظهر والبطن.

إذا ذكرتهم أسبلتُ واكفةً من العيون فأسقى تُرْبَهم سُحبا
جهدُ المقل الذي عزَّت مطالبه وهل يردُّ بكاءُ العين ما ذهبا

قال بشر الحافي: لقيت عليًّا الجرجرائي [1] بجبل لبنان على عين ماء، فلما أبصرني قال: بذنبٍ مني لقيتُ اليوم إنسيًّا [2]، فعدوت خلفه وقلت: أوصني. فقال: أمستوصٍ أنت؟ عانِق الفقر، وعاشر الصبر، وعادِ الهوى، وعَفِ الشهوات، واجعل بيتك أخلى من لحدك يوم تُنقل إليه، على هذا طاب المسير إلى اللَّه تعالى [3].

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن ذي النون قال: بينما أنا أسير على جبل لبنان في جوف الليل، إذا أنا بعريش من ورق البلُّوط [4]، وإذا بشاب قد أخرج رأسه من العريش، بوجه أحسن من القمر فقال: شهد لك قلبي في النوازل بمعرفة درجة التفضيل، وكيف لا يشهد لك قلبي بذلك ولا يحسن قلبي أن يألف غيرك، هيهات لقد خاب لديك المقصِّرون عنك. ثم أدخل رأسه في عريشه وفاتني كلامه فلم أزل واقفًا إلى أن طلع الفجر، ثم أخرج رأسه فنظر إلى القمر فقال: أشرقت بنورك السموات وأنارت بنورك الظلمات، وحجبتَ جلالك عن العيون، فوصلتْ به معارف القلوب، فبالتجائي إليك انظر إليَّ نظرة من ناديته فأجاب. فوثبتُ إليه فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام فقلت: رحمك اللَّه أسألك عن مسألة؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: ما خرج رُعْبك [5] من قلبي قلت: حبيبي ما الذي أفزعك مني؟ قال: بطالتك في يوم شُغلك، وتركك الزاد ليوم معادك، ووقوفك على الظنون يا ذا النون، فوقعتُ مغشيًّا عليَّ، فما أفقت إلا بِحَرِ الشمس، ثم رفعت رأسي فلم أره ولا العريش، فقمتُ وفي قلبي منه حسرة.

قال ذو النون: وُصِف لي رجلٌ من أهل المعرفة في جبل اللُّكام [6] فقصدْته، فسألتُ عنه فقيل لي: ذاك مجنون. قلت: وما الذي رأيتم من جنونه ؟ قالوا: نراه في أكثر أوقاته هائمًا ساهيًا يكلَّم فلا يجيب، ويتكلم فلا نفقه ما يقول، وينوح في أكثر أوقاته على نفسه ويبكي. فقلت: ما أحسنَ أوصاف هذا المجنون، ثم قلت: دلوني عليه. فقالوا: إنه يأوي في الوادي الفلاني، فانطلقتُ إلى الوادي فأشرفتُ على وادٍ وعرٍ، فجعلت أنظر

---

(١) الجرجرائي نسبة إلى جرجرايا بلدة قريبة من دجلة بين بغداد وواسط. اللباب : ٣١٢/١. بتحقيقي.

(٢) في ذم الهوى لابن الجوزي: إنسانًا.

(٣) ذكره المؤلف في كتاب ذم الهوى : ص ٣١. بتحقيقي.

(٤) البلوط بتشديد اللام المضمومة: شجر كانوا يعتزون بثمره.

(٥) غير ش: روعك.

(٦) جبل اللكام: في جهة حماة.

يمينًا وشمالًا فإذا أنا بصوتٍ محزون شَجٍ من وجْدِ قلبٍ وهو يقول:

يا ذا الذي أَنِس الفؤاد بذكره ... أنت الذي ما إنْ سواه أريدُ

تفنى الليالي والزمان بأسْره ... وهواك غضٌّ في الفؤاد جديد

قال ذو النون: فاتبعت الصوت فإذا أنا بفتًى حسن الوجه وقد ذهبت تلك المحاسنُ وبقيت رسومها، نحيلٌ قد اصفرّ واحترق وهو شبيهٌ بالوالِه الحيران، فسلمت عليه، فرد عليَّ السلام، وبقي شاخِصًا وهو يقول:

أعميتُ عيني عن الدنيا وزينتها ... فأنتَ والروح مني غير مفترق

إذا ذكرتُك وافى مُقلتي أرقٌ ... من أولِ الليل حتى مطْلع [(١)] الفَلَق

وما تطابقت الأجفانُ عن [(٢)] سِنة ... إلا رأيتك بين الجفْن والحدَقِ

ثم قال: يا ذا النون ما لك وَطَلب المجانين؟ قلت: أَوَ مجنون أنت؟ قال: قد سُمِّيتُ به. فقلت: مسألة. فقال: سل.

قلت: أخبرني ما الذي حبَّب إليك الانفراد وقطعك عن المؤانسين وهيَّمك في الأودية؟ فقال: حبي له هيَّمني، وشوقي إليه هيَّجني ووجدي به أفردني. ثم قال:

يا ليت شِعري يا فتى إلى متى ... تتركني مُقَلْقلًا في محنتِي؟!

فقلت له: أخبرني عن محل الحب منك وأين مسكن الشوق فيك؟ فقال: مسكن الحب سوادُ الفؤاد. قلت: فما الذي تجد في خلوتك؟ قال: الحق سبحانه وتعالى قلت: كيف تجده؟ قال:بحيث لا حيث، ثم قال: يا ذا النون أعجبك كلام المجانين؟ قلت: إي واللَّه وأشجاني. ثم قلت له: ما صدق وجْدانك للحق تعالى فصرخ صرخة ارتجّ لها الجبل؟ ثم قال: يا ذا النون هكذا موت الصادقين ثم سقط إلى الأرض ميتًا. فتحيرتُ في أمره لا أدري ما أصنع به، وإذا به قد غاب عني فلا أدري أين ذهب [(٣)].

أَحبُّوا فرادى ولكنَّهم ... على صحة البَيْن ماتوا جميعا

حموا راحة النوم أجفانهم ... ولفوا على الزفرات الضُّلوعا

* * *

(١) ظ: يطلع. (٢) ظ: من.

(٣) يبدو على تلك القصص علامات الوضع والصنعة. وفي الصدق غناء عن الكذب!.

الكلام على قوله تعالى:
﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ... ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾: أي: صفة الجنة ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ... ﴿١٥﴾ ﴾، قال أبو عبيدة والزجّاج: الآسن المتغير الريح. وقال ابن قتيبة: هو المتغير الريح والطّعم.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن عبد اللَّه قال: إن أنهار الجنة تتفجر من جبل مسك.

وحدثنا وكيع بسنده عن مسروق قال: أنهار الجنة تجري في غير أُخْدود ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ... ﴿١٥﴾ ﴾ وذلك لأن العادة تغير طعم اللبن إذا بقى ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ... ﴿١٥﴾ ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن ﴿ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ... ﴿١٥﴾ ﴾ أي: ذات لذة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: عدد الجِنان سبع، وروى عنه ثمان.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن وهب بن مُنبه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق اللَّه تعالى الجِنان يوم خلقها وفضَّل بعضها على بعض، فهي سبع جنان، دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وهي قصبة الجنة وهي مُشرفة على الجنان كلها، وباب جنة عدن مصْراعان من زمرد وزبرجد، كما بين المشرق والمغرب، وجنةُ المأوى، وجنة الخلد وجنة الفردوس وجنة (٢) النعيم.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرمها ذهبٌ أحمر، وسعفها كسوة أهل الجنة.

ورُوّينا عن سلمان أنه أخذ عويدًا صغيرًا ثم قال لجرير بن عبد اللَّه: إنك لو طلبتَ مثل هذا في الجنة لم تجده. فقال: وأين النخل والشجر قال: أصولها اللؤلؤ والذهبُ وأعلاها الثمر.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريان لا يدخله إلا الصائمون » (٣).

أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنّاء بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يدخل أهل الجنةِ الجنةَ على طول آدم ستين ذراعًا، وعلى حُسْن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد ﷺ » (٤).

قال القرشي: وحدثنا سلمة بن شبيب بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) سورة محمد: ١٥. (٢) ظ: وجنات.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين : ٢٦٥/١، ط الأميرية.

(٤) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة.

« إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعضٍ، فيسير سرير ذا إلى سرير ذا، وسرير ذا إلى سرير ذا حتى يجتمعا، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر اللَّه لنا؟ فيقول: أحدهما لصاحبه: نعم يوم كذا وكذا في موضع كذا وكذا، فدعوناه تعالى فغفر لنا »(١).

قال القرشي: حدثنا عليُّ بن الجعد بسنده عن علي ﷺ قال: يساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا، حتى إذا انتهوا إلى أول باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما كأنما أُمروا بها، فشربوا منها فأذهب ما في بطونهم من قذًى أو أذًى، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها، فجرتْ عليهم نضرةُ النعيم، فلم تتغير أبشارهم أو تُغير بعدها أبدًا، ولن تُشعث أشعارهم كأنما دُهنوا، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة فقالوا: سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ثم تلقاهم الولدانُ يطيفون بهم كما يطيف ولدانُ أهل الدنيا بالحميم يَقْدَم من غيبته، يقولون له: أَبشر بما أعد اللَّه تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان. باسمه الذي كان يُدعى به في الدنيا. فتقول: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته وهو ذا بأثري. فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفَّة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر أي شيء أساس بنيانه فإذا جندلُ اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأصفر وأحمر ومن كل لونٍ، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق، فلولا أن اللَّه تعالى قدَّره له لألمَّ أن يذهب ببصره ثم طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، فقالوا: الحمد للَّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه، ثم ينادي منادٍ: تَحيَوْن ولا تموتون، وتُقيمون ولا تظعنون.

وقال أبو هريرة: إن أدنى أهل الجنة منزلة من يغدو عليه كل يوم ويروح خمسة عشر ألف خادمٍ، ليس منهم خادمٌ إلا ومعه طُرفة ليست مع صاحبه (٢).

وقال ابن عباس ﵄: الخيمة درةٌ مجوفةٌ فرسخٌ في فرسخٍ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (٣).

وقال كعب الأحبار: إن للَّه ﷻ ملكًا منذ يوم خُلق يصوغ حليَّ أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة، ولو أن قلبًا من حلي أهل الجنة أُخرج لذهب بشعاع الشمس!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبزار. الترغيب والترهيب: ٢٨١/٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا موقوفًا. الترغيب والترهيب: ٢٥٩/٤.

(٣) الترغيب والترهيب: ٢٦٤/٤.

وقال الحسنُ: الحليُّ في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة رجلٌ صرف اللَّه ﷻ وجهه عن النار قِبَل الجنة ومثَّل له شجرة ذات ظلٍّ فقال: أي رب قدِّمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها. فقال اللَّه ﷻ: هل عسيتَ إن أفعل أن تسألني غيره؟ قال: لا، وعزتك. فقدمه اللَّه ﷻ إليها ومثّل له شجرة ذات ظلٍّ وثمر، فقال: أي رب قدِّمني إلى هذه الشجرة أكونُ في ظلها وآكل من ثمرها. فقال اللَّه ﷻ: هل عسيتَ إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا، وعزتك. فيقدِّمه اللَّه ﷻ إليها فيتمثل له شجرة ذات ظل وثمر وماء فيقول: أي رب قدمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها وآكل من ثمرها، فيبرز له باب الجنة فيقول: أي رب قدمني إلى باب الجنة فأكون تحت نِجَاف [١] الجنة فأنظر إلى أهلها. فيقدمه اللَّه ﷻ إليها، فيرى أهل الجنة وما فيها، فيقول: أي رب أدخلني الجنة. قال: فيدخله اللَّه ﷻ الجنة، فإذا دخل الجنة قال: هذا لي؟ فيقول اللَّه تبارك وتعالى: تمنَّ، فيتمنى ويذكِّره اللَّه ﷻ: تمنَّ من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني قال اللَّه ﷻ: هو لك وعشرة أمثاله. قال: ثم تدخل عليه زوجتاه من الحور العين فيقولان له: الحمد للَّه الذي اختارك لنا واختارنا لك. قال: فيقول: ما أُعطي أحد مثلَ ما أُعطيت.

قال: وأدنى أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » [٢].

قال أحمد: وحدثنا أبو معاوية بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في مُلكه ألفي سنةٍ يرى أقصاه كما يرى أدناهُ ينظر أزواجَه وخدمه، وإنَّ أفضلهم منزلة لينظر في وجه اللَّه ﷻ كل يومٍ مرتين » [٣].

واعلم أن اللَّه ﷻ ذكر نعيم الجنة مبسوطًا في مواضع من القرآن ثم جمعه في آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [٤]، وقال: ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [٥]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ [٦]. فهذه الآيات الثلاث قد جمعت كل نعيم، ثم زاد على الكل بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [٧].

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية اللَّه ﷻ-:

---

(١) النجاف: أسكفة الباب، وفي الأصل: لحاف محرفة، والتصويب من مسند أحمد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٧/٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ١٣/٢.

(٤) سورة الزخرف: ٧١.

(٥) سورة الكهف: ١٠٨.

(٦) سورة الأنعام: ٨٢.

(٧) سورة السجدة: ١٧.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قيل له: يا رسول الله نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: « هل تضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ » قالوا: لا. قال: « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحابٌ ». قالوا: لا، قال: « فإنكم ترونه كذلك ».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد نحوه (١).

وفيهما من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: « ليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٢).

وفيهما من حديث جرير بن عبد الله [البجلي] قال: كنا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال: « إنكم سترون ربكم ﷻ كما ترون القمر لا تضامُون في رؤيته » (٣).

واعلم أن الجنة التي قد سمعتَ وصفها محفوفة بالمكاره، فمتى أردتها فاصبر على ما تكره لعلك تنالُ ما تحب.

واعلم أن الدنيا والآخرة ضَرّتان متى أرضيت إحداهما أسخطتَ الأخرى، واعلم أن جمهور الخلق هَمُّهُم الجنة ويَنْدُر من الناس من يعمل شوقًا إلى رؤية ربه ﷻ، ومحبة له، أولئك الكاملون الأقلون عددًا، الأعظمون قدرًا.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن عباس بن يوسف قال: قال ميسرة الخادم: غزونا في بعض الغزوات فصاففنا العدو فإذا بفتى إلى جانبي مُقنَّعٌ في الحديد فحمل على الميمنة حتى ثنَاها، ثم حمل على الميسرة حتى ثناها وحمل على القلب حتى ثناه، ثم أنشأ يقول:

أحسنْ بمولاك سعيدٌ ظنًّا ... هذا الذي كنت له تمنَّى

تنحّ يا حور الجِنان عنَّا ... مالك قاتَلْنا ولا قُتِلنا

لكن إلى سيدنا اشتقنا ... قد علم السرَّ وما أعلنَّا

قال: فحمل فقتل منهم عددًا ثم رجع إلى مصافه فتكالب عليه العدو فإذا به قد حمل عليهم وأنشأ يقول:

قد كنتُ أرجو ورجائي لم يخبْ ... ألَّا يضيع اليومُ كدِّي والتعب

يا مَنْ ملا تلك القصور باللعب ... لولاك ما طابت ولا طاب الطَّربْ

---

(١) صحيح البخاري: ١٧٩/٥. وصحيح مسلم: ١١٢/١. ومسند أحمد: ٦/٣. انظر الترغيب والترهيب: ٢٤٢/٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب رقم: ٢٤. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٢٩٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب رقم: ٢٤. وصحيح مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم: ٢١١.

فحمل فقتل منهم عددًا ثم رجع إلى مصافه، فتكالب عليه العدو فحمل الثالثة وأنشأ يقول:

يا لُعبة الخُلْد قِفي ثم اسمعي   مالك قاتلنا فكفِّي وارْبَعِي
ثم ارجعي إلى الجنان واسرِعى   لا تطمعي لا تطمعي لا تطمعي

فحمل فقاتل حتى قُتل.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى... ﴿١٥﴾ ﴾ أي: ليس فيه عكرٌ ولا كَدر كعسل فيه الأكدار [١].

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾:

أهل الدنيا لما صفَّوا عملهم في هذه الدار، صُفِّي جزاؤهم من الأكدار، سبحان من صفَّى لمن صفَّى، طال ما قاموا في الجهاد صفًّا، وحملوا الأثقال على أرواح ضَعْفًا، فأعطاهم من الجزاء ضِعفًا ضعفًا، وتقبل منهم عدلًا وقبل منهم صَرْفًا، وصرف عنهم ما يؤذي صرفًا، وشفى تائبهم بعد أن أشفى، كانوا يندبون نَدْبَ الحمامة فارقت إلفا، ويحتقرون عدد الركعات وربما كانت ألفا، حزينهم من الخوف يكاد يُطْفى، كانت دموعهم على الأجفان وقفًا، تجري وبْلًا وتكفُّ كفًّا، يذكرون كتابًا لا يُغادر حرفًا، فلما قدموا عليه أوسعهم لُطفًا، يسسْ شفاههم بالصيام فسقاهم لما لقوه صِرفًا، وقد ذكر بعض ثوابهم وأضعافُ المذكور أخفى، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾.

آخر المجلس: اللَّهم بلغنا الجنة برحمتك يا ذا الفضل والمنة.

* * *
* *
*

---

(١) ش: كعسل أهل الدنيا.

المجلس الخامس

في ذكر جهنم أعاذنا اللَّه منها

الحمد للَّه الحي القيوم، الباقي وغيره لا يدوم، رفع السماء مزيَّنة بالنجوم، وأمسك الأرض بجبال في التُّخوم، بنى بحكمته هذه الجسوم، ثم أماتها ومحا الرسوم، ثم ينفخ في الصور فإذا الهالك يقوم؛ فالمؤمنُ إلى جنة لذيذة المطعوم والمشروب والمشموم، والكافر إلى نار يلقى منها عذاب السَّموم ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (١).

أحمده حمدًا يبلغ أقصى الـمَرُوم، وأقرُّ بوحدانيته لا كاعتقاد الروم، وأصلي على رسوله محمد ﷺ عدد قطرات الغيوم، وعلى أبي بكر الصديق الذي ذكره للرافضة شَجًى في الحلقوم، وعلى عمر الذي عمّ بعدله الخصوص والعموم، وعلى عثمان الشهيد التَّقي المظلوم، وعلى عليٍّ الذي اصطلح على فضله الخصوم، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الراشدين فما فيهم مَلُوم.

* * *

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ... ﴾ (٢)

أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنَّاء بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: إن أبواب جهنم هكذا بعضها فوق بعضٍ. وأومأ أبو شهاب بأصابعه.

قال أبو بكر بن عبيد: حدثني إبراهيم بن سعد بسنده عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ قال: أولها جهنم، ثم لظى ثم الحُطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، وفيها أبو جهل، ثم الهاوية.

وقال الضحاك: هي **سبعةُ أدراك** بعضها فوق بعض: **فأعلاها** فيه أهلُ التوحيد يعذَّبون على قدر ذنوبهم ثم يخرجون، **والثاني**: فيه النصارى، **والثالث**: فيه اليهود، **والرابع**: فيه الصابئون، **والخامس**: فيه المجوس، **والسادس**: فيه مشركو العرب، والسابع فيه المنافقون.

أخبرنا الكَروخي بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « أُوقِد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أُوقِد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أُوقِد عليها ألف سنة حتى

(١) سورة الحجر: ٤٤.

(٢) سورة الحجر: ٤٣، ٤٤.

اسودَّت، فهي سوداء مُظلمة » [١].

قال الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمامٍ، مع كل زمام سبعون ألف ملكٍ يجرونها » [٢] (انفرد بإخراجه مسلم).

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جُزءٌ واحد من سبعين جزءًا من حرِّ جهنم، قالوا: والله إنْ كانت لكافية يا رسول الله. قال: « فإنها قد فضِّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءًا كلهن مثلُ حرها » [٣].

حدثنا مَعْمَر عن الزهري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « اشتكتْ النار إلى ربها ﷻ فقالت: ربي أكل بعضي بعضًا فنفِّسني، فأذن لها بنفسين في كل عام، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم » [٤].

أخبرنا عبد الأول بسنده عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: « إن أهون أهلِ النار عذابًا يوم القيامة رجلٌ على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَل والقُمْقُم » [٥]. (هذه الأحاديث الثلاثة في الصحيحين).

وروى سَمُرة بن جندب عن النبي ﷺ أنه قال: « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزته [٦]، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته » [٧].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « ضرسُ الكافر يوم القيامة مثل أُحد، وعَرْضُ جلده سبعون ذراعًا وفخذه مثل وَرْقان، ومقعده من النار مثل ما بيني وبين الرَّبَذة » [٨].

وروى ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: « يَعْظم أهل النار في النار حتى إنّ بين شحمة أُذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعًا وإن ضرسه مثل أحد » [٩].

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب جهنم، باب رقم : ٨. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب رقم : ٣٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب في شدة حر نار جهنم : ٥٣٥/٢، ط عيسى الحلبي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار. وأحمد في مسنده : ٤٦٧/٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب رقم : ١٠. ومسند أحمد : ٢٣٨/٢.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٥١. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٣٦٢ - ٣٦٤.

(٦) الحجزة: مَعْقد الإزار.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الجنة، حديث رقم : ٣٢، ٣٣. ومسند أحمد : ١٠/٥ - ١٨.

(٨) صحيح مسلم مختصرًا، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون : ٥٣٨/٢، ط الحلبي. ومسند أحمد بكماله : ٣٢٨/٢، وورقان: جبل معروف بطريق المدينة، والربذة: موضع قرب المدينة.

(٩) سنن الترمذي، كتاب جهنم، باب رقم : ٣. ومسند أحمد : ٢٦/٢.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « لو أن قطرةً من الزقوم قُطرت في الأرض لأمرَّت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعامٌ غيره » (١).

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن كعبٍ قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وأنا عنده: يا كعب خوِّفنا، قلت: يا أمير المؤمنين أَوَ ليس فيكم كتاب الله وحكمةُ رسول الله ﷺ ؟ قال: بلى، ولكنْ خوفنا، فقلت: يا أمير المؤمنين اعمل عملَ رجل لو وافيتَ القيامةَ بعمل سبعين نبيًّا لازدرَيْت عملك مما ترى.

فأطرق عمر رضي الله عنه مليًّا ثم أفاق فقال: زدنا يا كعب. فقلت: يا أمير المؤمنين لو فُتح من جهنم قدر مِنْخر ثورٍ بالمشرق ورجلٌ بالمغرب لغلَى دماغه حتى يسيل من حرها.

فأطرق عمر رضي الله عنه مليًّا ثم أفاق فقال: زدنا يا كعب فقلت: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرةً لا يبقى ملكٌ مقرَّبٌ ولا نبي مُرْسل إلا خرَّ جاثيًا على ركبتيه يقول: رب نفسي نفسي لا أسألك اليومَ إلا نفسي (٢).

قال أحمد: وحدثنا عبد الوهاب بسنده عن قسامة بن زهير قال: خطبنا أبو موسى بالبصرة فقال: أيها الناس ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع، ثم يبكون الدماء حتى لو أرسلتْ فيها السفن لجَرَتْ (٣).

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد بسنده عن أبي الدرداء قال: يُلقى على أهل النار الجوع فيعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بالضَّريع لا يسمن ولا يغني من جوع، ويستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصَّة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيغاثون بالحميم يتناولونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوهم، وإذا دخل في بطونهم قطَّع أمعاءهم، فيطلبون إلى خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب، فيجيبونهم ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ (٤).

فيقولون: سلوا مالِكًا فيقولون: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ (٥).

فيقولون: لا أحد خير لكم من ربكم، فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وروى موقوفًا على ابن عباس. الترغيب والترهيب : ٢٤٢/٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد : ص ١٢١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد : ص ١٩٩.

(٤) سورة غافر: ٥٠. (٥) سورة الزخرف: ٧٧.

ظَالِمُونَ ﴾ (١) فيقول الله ﷻ: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (٢) فعند ذلك ييأسون من كل خير ويأخذون في الشهيق والويل والثبور.

قال كعب: الفلق بيتٌ في النار إذا فُتح صاح منه جميع أهل النار.

وقال شفيٌّ بن مانعٍ (٣): إن في جهنم واديًا فيه حيات وعقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة سمٍّ، والعقرب منهنَّ مثلُ البغلة الموكَفة (٤).

وقال أبو المثنى الأمْلوكي (٥): إن في النار أقوامًا يُرْبطون بِنَواعير من نارٍ تدور بهم تلك النواعير ما لهم فيها راحةٌ ولا فترةٌ.

قال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني: ربما مثَّل لي رأسي بين جبلين من نارٍ، وربما رأيتني أموت بينهما فكيف تهنأُ الدنيا من هذه جيفته. قال: فحدثته أن الحسن قال: ما في جهنم وادٍ ولا مغارٌ ولا غُلٌّ ولا سلسلةٌ إلا واسمُ صاحبها مكتوبٌ عليها. فبكى، وعدتُ إليه في بعض الأيام وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لذلك الغم الذي ليس فيه فرجٌ؛ ولذلك الأمر الذي ليس له انقطاع.

وقال أبو سليمان: وصفتُ لأختي قنطرةٌ من قناطر جهنم فأقامت في صيحةٍ يومًا وليلة، ثم كانت إذا ذكرتها صاحتْ. قال أحمد: فقلت له: لم دام صياحها؟ قال: مثَّلت نفسها عليها.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن محمد بن علي، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب الكبائر من موحِّدي الأمم كلها الذين ماتوا على كبائرهم غير نادمين ولا تائبين، من دخل منهم في الباب الأول من جهنم لا تزرقُّ أعينهم، ولا تسودُّ وجوههم، ولا يُقرنون مع الشياطين، ولا يُغلون بالسلاسل، ولا يجرَّعون الحميم، ولا يلبسون القَطِران، حرّم الله أجسادهم على الخلود من أجل [التوحيد وصورهم على النار] (٦) السجود، منهم من تأخذه النار إلى قدميه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حَقْويه (٧)، ومنهم من تأخذه إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم، فمنهم من يمكث فيها شهرًا ويخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنةً ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثًا كقدرِ الدنيا منذ خُلقتْ إلى يوم تفنى. فإذا أراد الله

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٧.
(٢) سورة المؤمنون: ١٠٨.
(٣) شفي بن مانع: مُحَدِّث.
(٤) الموكَفة: التي وضع عليها الإكاف، وهو كالسرج.
(٥) نسبة إلى أملوك وهو بطن من ردمان، وردمان قبيلة من رعين اللباب: ١/٩١. بتحقيقي.
(٦) من ش.
(٧) الحقو: معقد الإزار.

تعالى أن يرحمهم ويخرجهم منها قالت اليهودُ والنصارى ومنْ في النار من أهل الأديان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتمُ باللَّه وكُتبه ورسله ونحن وأنتم اليوم في النار سواء. قال: فيغضبُ اللَّه غضبًا لم يغضبه لشيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين بين الجنة والنار فينبتون فيها نبات الطَّراثيث أو نبات الحبة في حَميل السيل [١]، فما يلي الشمس منها أخضر وما يلي الظل منها أصفر، ثم يدخلون الجنة ومكتوب في جباههم: الجهنميُّون. فيمكثون في الجنة ما شاء اللَّه أن يمكثوا، ثم يسألون اللَّه تعالى أن يمحو ذلك الاسم عنهم، فيبعث اللَّه ملكًا فيمحوه منهم، ثم يقول اللَّه تعالى لأهل الجنة: اطَّلعوا إلى من بقي في النار. فيطلعون إليهم فيقولون: ما سلككم في سقر بعد خروج الناس منها فيقولون: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [٢] أي: لو كنا منهم لخرجنا معهم، ثم يبعثُ اللَّه تعالى ملائكةً معهم مسامير من نار وأطباق من نار فيُطْبقونها على من بقي فيها، ويسمرونها بتلك المسامير، ثم ينساهم الجبار ﷻ من رحمته ويشتغل عنهم أهل الجنة بنعيمهم ولذاتهم، وذلك قوله تعالى: « ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ » [٣].

وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « أمَّا أهل النار الذين هم أهلُها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناسٌ تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صار فحمًا أُذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثّوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » [٤].

وفي أفراده من حديث جابر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن قومًا يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم حتى يدخلون الجنة » [٥].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبشٌ أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون وينظرون ويقولون نعم

(١) الطراثيث: جمع طرثوث وهو نبت يؤكل وحميل السيل: غثاؤه.

(٢) سورة المدثر: ٤٣.

(٣) سورة الحجر: ٢، والحديث ذكره ابن الجوزي في كتابه « العلل المتناهية » ٤٥٧/٢ وقال عنه: هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل. فالعجب منه لماذا ذكره هنا؟!

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٣٠٥. ومعنى ضبائر: مجموعات، والتضبير: الجمع.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها : ٩٩/١، ط عيسى الحلبي.

هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت » (١).

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن ابن مسعود قال: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مساميرُ من نار فلا يرى أحدٌ منهم أنه يُعذَّبُ في النار أحدٌ غيره، ثم تلا عبدُ اللَّه: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢).

* * *

الكلام على البسملة

هـل تـرى فـيـك مَـطْـمـع ... هـل تـرى الـزجـرَ يـنـفـعُ
يـا عـتـابًا يـضـيـع فـي ... أذن لـيـس تَـشْـمـعُ (٣)

إخواني: الزمان يهدمُ الأعمار، ويكفي انتقال الأقران في الإنذار، هذا الموتُ بالرصَد لا يُبقي على أحد، فاستدركوا عُمْرًا يفوت، ولينتبه الحيُّ قبل أن يموت، أموالكم بعدكم مواريث، وأنتم عن قليل أحاديث، واعجبًا لِفَطنٍ قد غُر، يؤثر على النفع ما يضر، ويشْري بَعْرَ الهوى بثمين الدر، قد صار عبدًا للشهوات وهو حُرّ.

يا غافلًا عن أسباب المصالح أترضى بالشَّين والقبائح، كأنك بك قد قامت النوائح، ونُقلت إلى بطون الصفائح، ثم قمت ولا عمل صالح، فاستُشْهدت عليك الجوارح، وربما عاسَر المسامح.

نبِّه هذه النفس النائمة، أعْلمها ما هي عليه قادمة، قل لها إلى متى يا ظالمة.

من لها إذا شقيت بحملها، وعلمتْ منازل المتقين وليست من أهلها، وغُلّت إذا غَلَّت فاغتيلت بغُلّها، وأُكرم المتقون وأُهينت بذلها.

إلامَ هذه الآمال، والناسُ كلهم على ارتحال، واعجبًا من ينسى المآل وقد شُدت الرحال، إلى كم طمعٌ في مُحال، إلى متى تُوغلُ في الضلال أترضى بهذا الحال؟!

حيث انتهيتَ من الهجران لي فقِفِ ... وخلِّ عنك لجاج الجهل وانعطفِ
يا عابثًا بِعدات الوصل يُخْلفها ... حتى إذا جاء ميعاد الفراق يفي

أما المواعِظ قد صدقت، أمَا الزواجر قد نطقت، أما تعتبر بأممٍ قد سبقت، أما رأيت خسار أكفٍّ بالهوى عَلِقتْ:

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رقم : ٥٠.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٠.
(٣) ش: أذن من لم يسمع. ولعله تحريف.

وكم من عِبرةٍ أصبحت فيها يلين لها الحديدُ وأنت قاسِي
إلى كم والمعاد إلى قريب تذكَّر بالمعاد وأنت ناسي

يا من حيَّات حياته بالآفات لواذع، وأغراضه الملتفت إليها مُنْقلبةٌ زوائغ، وشياطين هواه بينه وبين تقواه نوازغ، وسهام شهوته في دينه بوالغ، وقد حجز حُب الحِجْر فأنساه الحجَر الدامغ، إن وعِظ فساهٍ وإن قُوِّم فزائغ، قلبه ملآن بالهوى ومن التقوى فارغ، كأنك بك وسيفُ الممات في ذم الحياة والغ، نازلك فأنزلك بالثرى (١) عن الأعالي النوابغ، ونقض البناء من بنى وسلب الحليَّ الصائغ، ومرَّ إليك فأمرَّ عليك الشراب السائغ، وطمس شموس عزك النيرات البوازغ، وخرق دروع تحصُّنكَ المنيعات السوابغ.

أمَا بطش الموتُ بأقرانك وفتك، هل أهْمل حيًا في حيٍّ أو تَرك، يا من على الخطايا والبلايا قد انهمك، أغضبت المالك وأتعبتَ الملَك، يا طائرًا لا بُدّ أن يَعْلَقه (٢) الشَّرَك، إلى متى يدور بسلامتك الفلَك، لا بد أن يقال يومًا فلانٌ هلك.

كأنك بمشيد عزِّك قد هُدم، وبباب القبر عليك قد رُدم، وبجيرانك ممن مات قبلك وعُدم، يقولون: لا مرحبًا بمن قَدم.

يا هذا تعمِّر والأيام تخرب عمرك، وتجمع للوارث تدبر أمرك.

القبر حلبةُ سباقٍ والموت الغاية، والشيبُ دليل على الرحيل وآية.

اضمحلَّ العُمْر وما تزودت، وألفْت التفريط وبئس ما تعودت.

يا مفتونًا بحب الهوى، يا من كلما ترقَّى (٣) عن الحضيض هوى، يا من إذا قوِّم بالزجر التوى، يا مريضًا قد يئس منه الدوا: عمرك في أيام حياتك معدود، وجسمك بعد مماتك مع دود.

لقد خاب من باع باقيًا بفانٍ، وخطَر في ثوب غافل متوان، وسها عن أمر قريب دان، وضيع يومًا موجودًا في تأميل ثان.

يُنصَب الصراط على متن جهنم، وتمشي عليه وما تدري هل تَسْلم، ويوضع الميزان وتَقْدَم، أسمعت ما قلنا أو تفهم، إذا مرَّ عليها المؤمن بالله والنبي قالت جُزْ فقد أطفا نورك لهبي، إذا رأتْ من جهر بالخير وما خافتَ خافتْ، وإذا شاهدت نفوسًا طال ما صافت صافت، وإذا عاينتْ أجسادًا تابت عن الحرام وعافتْ عافتْ، المعاصي تذلّ الإنسان، وتُخرسُ اللسان، وتغير الحال المستقيم، وتجعل الاعوجاج مكان التقويم.

---

(١) ش: بالنوى. (٢) ش: يعقله. (٣) ش: رفع.

قال يحيى بن أبي كثير: لما أصاب داود الخطيئة نفرت الوحوش من حوله، فنادى: إلهي ردَّ عليَّ الوحوش أستأنس بها. فردها اللَّه تعالى عليه فأحطن به وأصغين إليه، فرفع صوته بقراءة الزبور فنادته: هيهات هيهات يا داود، ذهبت الخطيئة بحلاوة صوتك!

وقال عبد العزيز بن عمير: لما أصاب داودُ الخطيئة نقص حُسن صوته، فكان يقول بُخَّ صوتي في أصوات الصِّديقين:

وأصبحتُ كالباز المنتَّف ريشُه ... يرى حسراتٍ كلما طار طائرا
يرى طائرات الجو يخرقن في الهوى ... فيذكر ريشًا من جناحيه وافرًا
وقد كان دهْرًا في الرياض منعَّمًا ... على كل ما يهوى من الصَّيد قادرًا
إلى أن أصابته من الدهر نكبةٌ ... فأصبح مقصوصَ الجناحين حَاسرًا
مضى السابقون الأولون لفوزهم ... وقصَّرتُ في أمري فأصبحتُ خاسرًا

من علم عظمة الإله زاد وَجَلُه، ومن خاف مقام ربه حَسُن عمله، الخوف يستخرج داء البَطالة ويشفيه، وهو نعم المؤدِّب للمؤمن ويكفيه؛ فالخوف للنفس سائق، والرجاء قائد، ريحُ الرجاء يسكِّن، وجُوف الخوف [١] وسيفُ الخوف يقطع سيف سَوْف.

قال بعض السلف: رأيتُ في بعض الجبال شابًّا أصفر اللون غائر العينين مرتعش الأعضاء لا يستقر على الأرض كأن به وخْز الأسنَّة، ودموعه تتحادر، فقلتُ: من أنت؟ فقال: آبقٌ هرب من مولاه. قلت: فيعود ويعتذر، قال: العذر يحتاجُ إلى إقامة حجة، فكيف يعتذر المقصر، فقلت: يتعلق بمن يُشفَّع فيه، فقال: كل الشفعاء يخافون منه. قلت: فمن هو ؟ قال: مولاي رباني صغيرًا فعصيته كبيرًا، شَرَط لي فوفَّاني، وضمن لي فأعطاني، فخنْته في ضماني، وعصيته وهو يراني، فوا حيائي من حسن صنعه وقبيح فعلي. فقلت: أين هذا المولى؟ فقال: أين توجهتَ لقيت أعوانه، وأين استقرَّت قدمك ففي داره. فقلت: ارفق بنفسك فقد [٢] أحرقك هذا الخوف. فقال: الحريق بنار خوفه أحقُّ وأوْلى، لعله يرضى. ثم أنشأ يقول:

لم يُبق خوفك لي دمعًا ولا جَلَدا ... لا شك أني بهذا ميِّتٌ كمَدا
عبدٌ كئيبٌ أتى بالعجْز معترفًا ... وناره تُحرقُ الأحشاء والكبدا
ضاقت مساكنه في الأرض من وَجَلٍ ... فهبْ له منك لطفًا إنْ لقيك غدا

فقلت: يا غلام الأمر أسهل مما تظن. فقال: هذا من فتن البطَّالين هبه تجاوزَ وعفا، أين

(١) الوجوف: الاضطراب.
(٢) ش: فربما.

آثارُ الإخلاص والصفا؟! ثم صاح صيحةً فخرّ (١) ميتًا، فخرجتْ عجوزٌ من كهف جبلٍ عليها ثيابٌ رثة. فقالت: من أعان على البائس الحيران؟ فقلت: يا أمة اللّه دعوتُه إلى الرجاء. فقالت: قد دعوته إلى ذلكِ فقال: الرجاء بلا صفاء شِرْك. قلت: من أنتِ منه؟ قالت: والدته. فقلت: أقيم عندك أُعينك عليه. فقالت: خلِّه ذليلًا بين يدي قاتله عساه يراه بغير مُعين فيرحمه. فلم أدر بماذا أعجب؟ من صدْق الغلام في خوفه، أو من قول العجوز وحُسن صدقها.

* * *

الكلام على قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا... ﴾ (٢)

وقاية النفس بامتثال الأمر، واجتناب النهي، ووقاية الأهل بأن يؤمروا بذلك. قال عليٌّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾: علموهم وأدبوهم، قال بَزْرجَمْهر: ما ورَّث الآباء للأبناء شيئًا أفضل من الأدب، فإنها إذا ورَّثتها الآداب اكتسبتْ بها الأموال، وإذا ورَّثتها الأموالَ أذهبتها بالجهل ففقدت الأدب والمال:

لا تَـشْـهُ عـن أدب الـصـغـيـ ـر وإن شـكـا ألـم الـتـعـبْ

ودَعِ الـكـبـيـرَ وشـأنَـه كَـبُـر الـكـبـيـرُ عـن الأدب

قال رجل للفضيل بن عياض: نشأ ولدك خير نشوء، فقال الفضيل: أسلمته للّه تعالى فخرج كما ترى.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن طاهر بن الفضيل بن سعيد قال: سمعت سفيان ابن عيينة يقول: لما بلغتُ خمس عشرة سنة قال لي أبي: يا بني قد انقطعتْ عنك شرائع الصِّبا فاختلطْ بالخير تكن من أهله، ولا تُزايله فتبين منه، ولا يغرنك مَنْ مَدَحَك بما تعلم أنت خِلافه منك، فإنه ما من أحدٍ يقول في أحدٍ من الخير ما لا يعلمه منه إلا قال عند سخطه عليه من الشر على قدر ما مدحه به، واستأنس بالوحدة من جُلساء السوء، ولا تنقل حسن ظنٍّ بك إلى سوء ظن بمن هو دونك، واعلم أنه لن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم، فأطعهم تسعد، واخدمهم تقتبس من علمهم. قال سفيان: فجعلتُ وصية أبي هذه قِبلةً أميل إليها ولا أعدل عنها:

---

(١) ش: سقط.

(٢) سورة التحريم: ٦.

إن الغصون إذا قوَّمْتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشبُ

قد ينفعُ الأدبُ الأحداثَ في مَهَلٍ وليس ينفع في ذي الشيبة الأدبُ

قوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ... ۝٦ ﴾:

الوقود: بفتح الواو الحطَب، وبضمها التوقد، كالوضوء بالضم المصدر، وهو اسم حركات المتوضئ، واعلم أن الناس أُوقدوا في النار على جهة التعذيب، والحجارة أوقدت لبيان قوتها وشدتها؛ إذ هي محرقةٌ للحجارة.

- **وفي هذه الحجارة قولان:**

أحدهما: أنها أصنام المشركين التي عبدوها. قاله الربيع بن أنس.

والثاني: أنها حجارة الكبريت، وهي أشدُّ الأشياء حرًّا إذا أُحميتْ يعذبون بها.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ يومًا فسمعنا وجْبةً [1] فقال النبي ﷺ: « أتدرون ما هذا؟ » قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: « هذا حجرٌ أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن انتهى إلى قعرها » [2] (انفرد بإخراجه مسلم).

قال أبو عمران الجَوْني: بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة أمر اللَّه تعالى بكل جبار عنيدٍ، وبكل شيطانٍ مريد، وبكل من كان يخافُ الناسُ شرَّهُ في الدنيا فأُوثقوا في الحديد، ثم أُمر بهم إلى النار، ثم أُوصدت عليهم، فلا واللَّه لا تستقرُّ أقدامهم على قرار أبدًا، ولا واللَّه لا ينظرون إلى أديم سماءٍ أبدًا، ولا واللَّه لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نومٍ أبدًا، ولا واللَّه لا يذوقون فيها برْدَ الشراب أبدًا، ثم يقالُ لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة فتِّحوا الأبواب ولا تخافوا سلطانًا ولا جبارًا وكلوا اليوم واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية.

وقال موسى بن أبي عائشة: تُشدُّ أيديهم وأرجلهم، وكلما جاء نوعٌ من العذاب اتقوه بوجوههم.

وقال الحسن: تأكلهم النارُ كل يوم سبعين ألف مرة، وكلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

سجع على قوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾:

قل لنفسك الجهولة الأمّارة، أمَا للصلاح عندك أمَارة، كم يمين وحِنثٍ ولا كفارة،

---

(١) الوجبة: صوت السقوط.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب شدة حر نار جهنم : ٥٣٥/٢، ط عيسى الحلبي.

طريق مخوف وما لَك خَفارة (١)، لا تحقِري ذنبًا فقد تُحرق شرارة، احذري الدنيا فإنها مكّارة، لا تثقي بأيمانها فإنها غدارة، لا تغترِّي بها فهي (٢) سحّارة، بينا هي قد عقدت هُدنةً شنتْ غارة (٣)، تنشفُ صافي الكأس وتُبقي الكَدارة، ثم تُنْقَلُ إلى لحدٍ خرابٍ بلا عمارة، ثم تقوم نادمًا وفي الدموع غزارة، ثم تعاين نارًا شديدة الحرارة ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾.

* * *

لقد أزعج ذكرُها قلوبَ الخائفين، وأطار نومَ العيون عن جفون العابدين.

كان عمر بن الخطاب يقرِّب يده من المصباح ويقول: يا عمر ألك صبرٌ على هذا؟!

وكان الأحنف بن قيس يقربُ إصبعه من المصباح ويقول: يا حُنيف ما حملك على ذنب كذا وكذا؟!

وكان شدَّاد بن أوس إذا أوى إلى فراشه يتقلبُ كالحبة على المقْلَى ويقول: اللَّهم إنَّ ذكْر جهنم لا يدعُني أنام.

وقال مِسْمعُ بنُ عاصم: بتُّ أنا وعبد العزيز بن سليمان وكِلَاب بن حرب وسلمان الأعرج على بعض السواحل، فبكى كلابٌ حتى خشيتُ أن يموت، ثم بكى عبد العزيز لبكائه، ثم بكى سلمان لبكائهما، وبكيت أنا والله لبكائهم لا أدري ما أبكاهم، فلما كان بعد ذلك سألت عبد العزيز: ما أبكاك؟ فقال: إني والله نظرتُ إلى أمواج البحر فذكرتُ إطباقَ النيران (٤)، وزفَراتها، فذاك الذي أبكاني. ثم سألت كِلَابًا فقال مثل ذلك، ثم سألت سلمان فقال: ما كان في القوم شرٌّ مني، ما كان بكائي إلا لبكائهم رحمة لهم مما كانوا يصنعون بأنفسهم.

وقال بعض السلف: لم أر مثل قوم رأيتهم، هجمنا مرة على نفر من العبّادِ في بعض السواحل البحر فتفرقوا حين رأونا فبتنا تلك الليلة وارتقينا (٥) في تلك الجزيرة فما كنت أسمعُ عامة الليل إلا الصُّراخ والتعوذ من النار، فلما أصبحنا طلبناهم فلم نر منهم أحدًا.

كان يزيد بن مرثد كثير البكاء، فقيل له في ذلك. فقال:لو أن اللَّه تعالى توعَّدني أن يسجنني في الحمام لكنت حريًّا أنْ لا تجفَّ لي عين، فكيف وقد توعدني بجهنم؟!

يا هذا لو أحببتَ نفسك لـمَا عرَّضتها للعذاب، ولو عرفت مرارة الخجل لحذِرتَ

(١) الخفارة: الحراسة.
(٢) ش: فإنها.
(٣) ش: الغارة.
(٤) ظ: النار.
(٥) ظ: وأغْفينا.

العتاب، لقد حمّلت نفسك ما يثقلها، حسبك ما مضى أتقتلها؟

إنما الدنيا منازل تنزلها، يا طول سَفْرةِ الموتُ أولها، أين جزع النفس أين تَمَلْملها، أما هذا بين يديها، فماذا يشغلها، تتوب وتنقض، إلامَ تَزلْزلها، كأنها [١] بالموت قد أتى، فذلَّلها، وسبقه رائض المرض يستعجلها، الحذر الحذر فقد فَوَّق السهامَ مُرْسلها، البدارَ البدارَ فقد جلا السيوفَ صَيْقلُها.

إخواني: تأهّبوا ليوم الخوف والفزع، واحذروا زخرف الهوى فكم غرَّ وخدع وتهيأوا للموت فكأنْ قد لاح وطلع، ومن أحاطت به أشراك الهلاك لا بد أن يقع، تنبه لنفسك أيها المبتلَى فإن نار العتاب لا تُصْطَلى، وا أسفًا على عهد لم يُحرس بالوفاء، على خُلوة لم تُصاحبْ بالحياء:

يا تائبًا عن ذنبه عائدًا ... إليه كمْ هذا يا مُستتبّ [٢]
سُررت بالأشياء ما مثلها ... شرٌّ وكان الحق أن تَكْتئبْ

قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ... ﴿٦﴾ ﴾:

الإشارة إلى خزنتها. قال ابن عباس ﵄: خزنة جهنم تسعة عشر، ما بين منكبي أحدهم مسيرةُ سنة، وقوته أن يضرب بالـمْقَمَعة فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفًا فيهوون في قعر جهنم [٣].

وروى أبو سعيد ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: « لو أن مِقْمعًا من حديد وضع في الأرض فاجتمع أهل الأرض ما أقلوه من الأرض » [٤].

وروى عمر بن الخطاب ﵁ أن جبريل ﵇ جاء إلى النبي ﷺ فقال له: والذي بعثك بالحق لو أن خازنًا من خزنة جهنم برز إلى الدنيا حتى ينظروا إليه لمات مَنْ في الأرض كلهم جميعًا مِنْ قُبْح وجهه وتشويه خلقه ونَتَنِ ريحه.

وقال مالك بن دينار: بلغنا أن أهل النار إذا أحسُّوا بضرب المقامع انغمسوا [٥] في حياض من الحميم، فيذهبون سِفَالًا سفالًا مقدار أربعين سنة.

سجع على قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾:

يا من أعماله أعمال أهل النار، ألك قوة أم ثَمَّ اصطبار، أما تعقل الوعيد، أما تفهم

---

(١) ش: كأنك.

(٢) مستتب: ساعٍ في هلاك نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [سورة هود: ١٠١].

(٣) هذه مبالغات لا يقوم عليها دليل، ولم يرد ذلك في كتاب ولا سنة.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٢٩.

(٥) ش: انقمعوا، وهذه أيضًا من الرجم بالغيب.

الإنذار، أترضى أن تُسحب إلى جهنم وتُقاد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾.

دارٌ تدحض أهلها بالبعاد، وحُرموا لذة المنى والإسعاد، بُدِّلت وَضَاءَةِ وجوههم بالسَّواد، وضُربوا بمقامع أقوى من الأطواد، ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾.

لو رأيتهم في الحميم يَسْرحون، وعلى الزمهرير يُطْرحون، وحزنهم دائم فما يفرحون، مقامهم محتوم، فما يبرحون أبد الآباد. ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾.

تَعِس كلٌّ منهم فما انتعش، وَشِيَك بالعذاب فما انتقش، وا أسفًا قد قتلهم الحر والعطش، والمصيبة أن القَدَر (١) بهم بطش، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

عذابهم طريفٌ بديع، قد خرس الناطق وصُمّ السميع، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ، والشراب الحميم وهذا الزاد، ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾.

توبيخهم أعظم من العذاب، تأسُّفهم أقوى من المصاب، يبكون على تضييع أوقات الشباب، وكلما (٢) جاء البكاء زاد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾.

يا حسرتهم لغضب الخالق، يا محنتهم لعظم البوائق (٣)، يا فضيحتهم بين الخلائق على رءوس الأشهاد.

أين كسبهم للحُطَام، أين سعيهم في الآثام، كأنه كان أضغاث أحلام، ثم اخترقت تلك الأجسام (٤)، وكلما أُهلكت تعاد.

ويحك انتبه (٥) وأصلح قلبك، ويحك تيقظ افهم عَتْبك، ويحك تُبْ واترك ذنبك، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (٦).

قد بقي القليل وتُنْقل، وعلى دار الجزاء تُحمل، كم أعلِّمك وتجهل، كم أقول لك ولا تقبل، أنا في وادٍ وأنت في وادٍ.

[آخر المجلس: وهو آخر الطبقة السادسة، اللَّهم يا كريم يا جواد، يا لطيفًا بالعباد، وفِّقنا للاستعداد، وآنِسنا في ظُلَم الألحاد، وأجرنا من النار يوم المعاد، وأنِلْنا من فضلك غاية المراد، واهدنا إلى سبيل الرشاد، إنك على كل شيء قدير] (٧).

* * *

(١) ش: القدير.
(٢) ش: فكلما.
(٣) البوائق: الشرور.
(٤) ش: الأجساد.
(٥) ش: ننبِّه.
(٦) سورة الفجر: ١٤.
(٧) من النسخة ظ.

الطبقة السابعة

تشتمل على وعظ أرباب الولايات

(وفيها مجلسان)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

لوعظ السلطان

الحمد للَّه على إنعامه، حمدًا يوجب المزيد من إكرامه، وصلواته على أفضل أنبيائه، محمد وعلى آله وأوليائه، وسلام على أمير المؤمنين زاده اللَّه في علائه، وأمتع الإسلام والمسلمين ببقائه، وألهمه العدل والفضل في جميع قضائه، واستجاب في أيامه من كلِّ صالحٍ صالحَ دعائه.

أما بعد: فإن اللَّه ﷻ اختار السلطان للنيابة عنه، وأمر الخلق بطاعته. **فقال** ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (١)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من أطاعني فقد أطاع اللَّه، ومن عصاني فقد عصى اللَّه، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني » (٢).

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: « من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتته جاهلية » (٣).

وفي أفراد مسلم من حديث ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: « من خلع يدًا من طاعة لقي اللَّه يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » (٤).

وهذا يبين قدر مرتبة السلطان وعلوَّ قدره من حيث النَّقل، **وأما من حيث المعنى** فإن السَّلطنة لـمَّا كانت سببًا لسلامة الخلق في أبدانهم وأديانهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم بان بذلك فضلُ مَنْ وَلِيَها؛ إذ كان سببًا في حراسة المُهَج، وسَوْقِ الأرزاق، ودفع المظالم، وبه يُحفظ العِلم ويتم العمل ويوحَّد الخالق، فكأنه عبد اللَّه تعالى بعبادة كل عابد، ولما كانت هذه النعمة أوْفَى النعم افتقرت إلى أعظم الشكر، كما قال عمرو بن عبيد للمنصور: إن اللَّه تعالى لم يرضَ أن يكون أحد من الناس فوقك، فلا ترض أن يكون أحدٌ أَشْكَر له منك.

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب رقم : ١٠٩. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ٣٢، ٣٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب رقم : ٢. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ٥٣ - ٥٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب، الإمارة، حديث رقم : ٥٨.

ولما كان التذكير مشروعًا لقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وقد طَلب التذكيرَ مَنْ صَدَر عنه، فقال ﷺ لابن مسعود: « اقرأ عليَّ ». فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: « إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، فلما قرأ عليه بكى رسول الله ﷺ ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) فقال: « يا معشر قريش: اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئتِ من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا » (٣).

وكتب الإسكندر إلى أرسطا طاليس: اكتب لي موعظة. فكتب إليه: إذا استولت بك السلامة فجدِّد ذِكْرَ العَطَب، وإذا طابت لك العافية فحدِّث نفسك بالبلاء، وإذا اطمأن بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، وإذا (٤) أحببت نفسك فلا تجعل لها في الإساءة نصيبًا، ومن أَعْمل فِكْره الصافي في قلبه الحاضر علم أنه محارِبٌ في صفٍّ مجاهد، يسعى في مجاز إلى دار مجازاة، ولا يصلح استعمال الراحة في موطن التَّعب، وليس في الأعداء أكبر من الهوى، ومن تفكر في سِيَر الملوك الحازمين علم أنهم ما نالوا في الدنيا الذكر الجميل، وفي الأخرى (٥) الأجر الجزيل إلا بمخالفة الهوى؛ لأن الهوى عدو الفضائل، فإذا خولف اقترن مُلْكُ الدنيا بمُلْكِ الأخرى (٦)، ولا يصح خلاف الهوى إلا بالصبر، وقد علم أن عواقب الصبر أحلى من كل محبوب، وإذا تفكر الوالي في أنه مسئول عما استُرْعِي أوْجَبَ ذلك الفكر تمام الجدِّ وكمال الحذر.

وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لو ضاعت سَخْلة (٧) بشاطئ الفرات لخشيت أن يُسأل عنها عمر!

وكان العُمَري يقول للرشيد: كل واحد من هذا الخلق يُسأل عن خاصة نفسه وأنت مسئول عن الكل.

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: إنما الدنيا سُوق خرج قومٌ منها بما ضرَّهم وقوم بما نفعهم.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك: إياك أن تُدركك الصَّرْعة عند

---

(١) سورة الذاريات: ٥٥. (٢) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة رقم: ٢٦. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٣٥١.

(٤) ظ: وإن. (٥، ٦) ش: الآخرة. (٧) السخلة: ولد الشاة.

الغِرّة، فلا تقال العَثْرة ولا تمكن الرَّجعة ولا يحمدك من خلَّفت ولا يعذرك من تَقْدَم عليه.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد؛ فإن الهول الأعظم ومُفْظعات الأمور أمامك، لم تقطع منها شيئًا بعد ولا بد والله من معاينتها، إما بالسلامة وإما بالعطب، ومن تفكر في العِبَر ونظر في الغِيَر علم أن الآدمي يَفْنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتَى من مأمنه، وما اجتمع لأحد أملُه إلا أسرع في تقريبه أجلُه، ومن تصوَّر رحيله اختار غير اختياره اليوم، ومن بعدت همتُه لم يرض بِدُون، ومن استشعر الحساب تنغَّصت لذته، ومن أصغى إلى هاتف الإنذار سمع صوت المؤذِّن بالرحيل، ومن زار القبور بفكره علم ما ندموا على فعله، وتأسَّفوا على فَوْته وتيقن أنه غدًا عندهم.

قال الأصمعي: بعث إليَّ الرشيد وقد زخرف مجالسه وصنع طعامًا كثيرًا، ثم وجه إلى أبي العتاهية فقال: صف ما نحن فيه. فقال:

عِشْ ما بَدَا لك سالمًا ... في ظِلِّ شاهقة القُصُورِ

قال أحسنت: ثم ماذا؟ فقال:

يُسْعى عليك بما اشتهيـ ... ـتَ لدى الرَّواح وفي البكور

قال أحسنت: ثم ماذا قال:

فإذا النفوس تقعقعتْ ... في ضِيق حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنًا ... ما كنت إلا في غرور

اللَّهم فاحفظ سلطان الخلق بحفظك، وزده توفيقًا بفضلك، إنك جواد كريم.

* * *
* *
*

المجلس الثاني

لوعظ أرباب الولايات مطلقًا

الحمد للّه العظيم الديَّان، الكريم المنان، الرحيم الرحمن، قسَّم الخلائق بين مُسَلْطن وسلطان، وردَّ شوارد القلوب بوعظ القرآن، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (١).

نحمده حمدًا يدوم بدوام الزمان، ونشهد له بالتوحيد شهادة عن إذعان، ونصلي على رسوله محمد أشرف إنسان، وعلى أصحابه وأتباعه إلى يوم نطق الأعضاء وصمت اللسان، اللّهم ألهمنا الإصابة، وارزقنا الإنابة، واشغلنا بالجد عن الدُّعابة، وعجِّل لسؤالنا الإجابة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اعلموا يا أرباب الولايات: أنكم على خطرٍ كبيرٍ، وأنكم مسئولون عن القليل والكثير، قد ارتهنتكم الولاية بحقوقها، وأنتم مطالبون ببرها وعقوقها، فإن عدلتم سعيتم للنفوس في فَكاكها، وإن عَدَّلتم (٢) مِلْتم بها إلى هلاكها ولخطر الولايات قال رسول اللّه ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرة: « لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنْتَ عليها » (٣). (وهذا في الصحيحين).

وفيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عنهم » (٤).

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: « اللّهم من وَلِي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه، ومن وَلِي من أمر أمتي شيئًا فرفَق بهم فارفق به » (٥).

وروى مَعْقل بن يسَار عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يسترعي اللّه تعالى عبدًا رعيةً فيموت يوم يموت وهو لها غاشٌّ إلا حرَّم اللّه عليه الجنة ». وفي لفظ: « فلم يُحِطْها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة »، وفي لفظ: « ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لم يجهد لهم إلا لم يدخل الجنة معهم ».

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) كذا في الأصل، والمراد: عدلتم عن جادة الطريق وتركتم العدل.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب رقم : ٥، ٦. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة ، حديث رقم : ١٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب رقم : ١١. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ٢٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم : ١٩.

وروى أبو مريم الأزْدي عن النبي ﷺ أنه قال: « من ولّاه اللّه من أمر المسلمين شيئًا فاحتجب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرهم، احتجب اللّه ﷻ دون حاجته وخَلته وفقره » (١).

وروى أبو ذر قال: قلت: يا رسول اللّه : ألا تستعملني؟ فضرب يده على مَنْكبي ثم قال: « يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها » (٢).

أخبرنا ابن الحُصَين بسنده عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجلٍ يَلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى اللّه تعالى مغلولًا يوم القيامة، يده إلى عنقه، فكّه بِرّه أو أوثقه إثمه، أوّلُها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة » (٣).

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن أبي وائل أن عمر بن الخطاب ﷺ بعث بشْر ابن عاصم على الصدقات فقال له: يا عمر سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من وَلي للمسلمين سلطانًا وقف يوم القيامة على جسر جهنم يتزلزل به الجسر، فإن كان محسنًا نجا وإن كان مسيئًا أُحرق به الجسر فهوى في قعرها »، فانصرف عنه عمر ﷺ كئيبًا حزينًا فلقيه أبو ذر فقال: يا عمر، ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال: وما يمنعني وقد سمعت بشر بن عاصم يحدِّث بكذا وكذا عن النبي ﷺ. قال أبو ذر: أَوَ مَا سمعتَه من النبي ﷺ؟ قال لا: قال: أشهد لَسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « ما من وَالٍ وَليَ للمسلمين سلطانًا إلا وَقَفَ يوم القيامة على جسر جهنم فيزلزل به الجسر حتى يزول كلُّ مفصلٍ عن حقِّه، فإن كان محسنًا نجا وإن كان مسيئًا انخرق به الجسر فهوى في قعرها سبعين خريفًا، فأيُّ الحديثين أوجع لقلبك يا عمر؟ قال: كلٌّ قد أحزنني » (٤).

فمن يأخذها بما فيها، لا تطاولَ بالكبر والبطش والدولة، واذكر من ساعتك الفناء، واحتشم أن يراك معطيك ما أعطاك تجرُّ إنعامه خُيَلاء، إن مِن أضعف الضِّعاف عند اللّه قويٌّ يستضعف الضعفاء:

والطبيب اللبيب من يُتْبع الداء دواءً يشفيه لا الدَّأداء (٥)

واعلموا أنه إنما صَعُب أمر الولاية لخوف ترك العدل والميل إلى الظلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإمارة، باب رقم : ١٣. وأحمد في مسنده : ٢٣٩/٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة : ١٢٤/٢، ط الحلبي.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٦٧/٥.

(٤) أخرجه الطبراني، الترغيب والترهيب : ١٠٥/٣.

(٥) الدَّأدة: اللّهو واللعب.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « الظلم ظلمات يوم القيامة » (١).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « دعوة المظلوم تُحمل على الغمام وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ عز وجل: لأنصُرنك ولو بعد حين » (٢).

وقال أبو الدَّرداء: تصعد دعوة المظلوم إلى السماء كشرار النار حتى تفتح لها أبواب السماء.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « أتدرون من المُفْلس؟ من يأتي بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنِيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طرح في النار، ولتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تُقاد الشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء » (٣).

أخبرنا الجريري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن الله أمر بعبد من عباده أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسألُ ويسألُ حتى صارت جلدة واحدة، فامتلأ عليه قبره نارًا فلما سُرِّي عنه فأفاق قال: لِمَ جلدتموني؟ قالوا: إنك صلَّيت صلاة بغير طهور، ومررتَ على مظلوم فلم تنصره » (٤).

إذا ظالمٌ استوطأ الظلم مركبًا ... ولجَّ عُتوًّا في وخيم اكتسابهِ
فكِلْه إلى صَرْف الزمان فإنه ... سيتبدَّى له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالمًا متجبِّرا ... يرى النجم كِبْرًا منه تحت رِكَابه
فأوثقَ ما قد كان تيهًا بنفسه ... أناخت صروف النائبات ببابه
كذلك فِعل الله في كلِّ ظالم ... يؤدِّبه عدلًا بسَوْط عذابهِ

واعلموا أن المواعظ هدية من الله تعالى إلى الموعوظ فإن لم يعمل بها فهي حجة عليه.

أخبرنا عبد الرحمن القزاز بإسناده عن محمد بن علي المارداني قال: كنت أجتاز بتربة أحمد بن طولون فأرى شيخًا يقرأ عند قبره ملازمًا للقبر، ثم إني لم أره مرة، ثم رأيته بعد ذلك فقلت له: ألست الذي كنت أراك عند قبر أحمد بن طولون تقرأ عليه؟ قال: بلى،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر، حديث رقم : ٥٦، ٥٧.

(٢) مسند أحمد : ٣٠٥/٢ - ٤٤٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ٦٠. والجلحاء: التي لا قرن لها.

(٤) قال في الترغيب والترهيب : ١٢٢/٣. رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التوبيخ.

قد كان وليًّا في هذه البلدة، وكان له علينا بعض العدل إن لم يكن الكل، فأحببتُ أن أصِله بالقرآن. قلت له: فلمَ انقطعت عنه؟ فقال لي: رأيته في النوم وهو يقول لي: أُحِبُّ أن لا تقْرأ عندي. فكأني أقول له. لأي سبب؟ قال: ما تمرُّ بآية إلّا قُرِّعتُ بها، وقيل لي: أمَا سمعت هذه؟!

كـم مِـنْ ظَـلُـوم تـزول دولـتـه ... ولـيـس مـا سـنَّ مـن أذى زائـلُ
كـحـيـة حـسِّـيـة وقـد قُـتـلـت ... وسُمُّـهـا من بعد موتـهـا قـاتـل

أيقظ اللَّه كِلَانا لنفسه، ووفقه لعمل يَصْلح لِرَمْسه، وهداه لإصلاح يومه واستدراك أمسه، وألهمه اغتنام نهار العمر قبل غروب شمسه، إنَّه قريبٌ مجيب.

* * *
* *
*

الطبقة الثامنة

تنشتمل على التعازي

(وفيها مجلسان)

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

[في التعازي]

الحمد للّٰه الذي جعل الدنيا مَعْبر عِبَر، ووعظ بمن رحل عنها مَنْ غَبَر (١)؛ فالعجب لمن أُخبر أمرها ثم ما عنده خبر، أما يكفي من الزواجر تصرُّف الغِيَر (٢)، أينفع من الموت احتراز أو يردُّ حذر، أما فيكم من حضر لدى محتضَر، أما رأيتم حاله وسمعتم مقاله، أم ليس ثمَّ سمْعٌ ولا بصر، أمَا الأعمار وإن طالت ذوات قِصَر، أما تيقَّنتم أنَّه سيَطْوي البَشَر مَنْ نَشَر، أما مآل ذوي الترف إلى بيوت المدَر، أيبكي فاقد إلْفٍ إلْفَه وينسى نفسه ويَذَر، إن الجزع يضرُّ الجازع وإنما النافع صَبْرُ من صَبَر:

عزاؤك أن كان الدهر ذا فجعاتِ ... وكلُّ جميعٍ صائرٌ لشَتاتِ
ومِنْ عجبٍ أنْ كلّما جدَّ ركْضنا (٣) ... عليه يباعدنا من الطلبات
وأعجب منه حِرْصُنا كلما خَلَت ... سنون (٤) كأنا من بني العشرات
نخلِّف مأمولاتنا وكأننا ... نسير إليها لا إلى الغمراتِ
غدَوْنا وأُنْذرنا بدهر أملَّنا ... غرورًا وإنذارًا بهاك وهات
إذا مجَّ مجَّات من الأرْى أعقبتْ ... بأقصى سهامٍ في أحدِّ هَنات (٥)
وتنفر نفسٌ من حلول مصيبة ... وقد أيقنتْ قِدْمًا بما هو آتِ
أتُوقن بالمقدار قبل وقوعه ... وتنفر نفر الغِرِّ ذي الغفلات
هل المرء في الدنيا الدنيئة ناظر ... سوى فقد حِبٍّ أو لقاء ممات
ألم تر غارات الخطوب مُلحَّةً ... فبين مغادات وبين بَيَاتِ
وما حركات الدهر في كل لحظة ... بلاهيةٍ عن هذه الحركات
سَيُسْقَى بني الدنيا كؤوس حتوفهم ... إلى أن يناموا لا نُؤوم سَبات
وما فوجئتْ نفس ببلوى وقد رأت ... عظاتٍ من الأيام بعد عظات
إذا بعثت أشياء قد كان مثلها ... قديما فلا تُعْتَدْ بها بَغَتاتِ
فأعقبْ من النوم التنبهَ راشدًا ... فلا بد للنُوَّام من يقظات

(١) من غبر: من بقي. (٢) الغِيَر: الأحداث. (٣) ش: ركبنا.
(٤) ش: سنونًا. (٥) الأرى: الشهد. والهنات: الدواهي.

إلام نسيان العواقب وقد رؤيت في الأغيارِ، وحتام مساكنة النفوس وقد تُيقِّن أنها شرٌّ جار، وعلام معاتبة القدَر وما جرى قطُّ فجار، ولِمَ تُؤْثر حمل الآصار [١] لِمَا قد غُوين إلى ما صار، ولقد ضل من استظل بظلٍّ دار من حولها حتف مقارنها قد دار، فالعاقل من نهض بالعزم وثار، وصارع في جِدِّه طالب الثار، وتفكر في أبيه وجدِّه فاعتبر بالآثار، وتذكَّر يوم مردِّه في الدجى فهجر الديار.

إنما الدنيا لمن تدبَّرها واعظة، فهي كل لحظة بالإنذار لاحظة، وفي كل لفظة بالاعتبار لافظة، بينما حُلْوها يحلو حال، وبينما مُرُّها مُرٌّ زال، فلا تثبت لمريد على حال، لقد أبلغ منذرها ولقد قال، بينما المال مستقيمًا في المُلْك مال، وبينما الحرب مسالمٌ للطرب غال، وبينما الإنسان بين الأهل والآل، صار إلى البلى سريعًا وآل، كم سِنٍّ ضحكت من طَرْفٍ سال، وكم ظاهر سلامة في باطنه إتبال [٢]، وكم رأينا حيًّا في الحيِّ قد جال، إذا لاح فاضطرَّه مبيدُ الآجال، هيهات أخرجته الأملاك عن صفايا الأملاك، واعْتاقه أشراك الأهوال [٣] بفنون الإدراك، فسلكت به طريقًا صعبة الطروق، كم في أعراضها [٤] مِنْ عارضٍ يعوق.

إخواني: أين مضَى رفقاؤنا، أين ذهب معارفنا وأصدقاؤنا، رحل أقراننا، وقلَّ واللَّه بقاؤنا، هذه دورهم فيها سواهم، هذا صاحبهم قد نسيهم وقد جفاهم، إن جُزْت بالشُّونيزية [٥] أو بقبر أحمد، فميِّز من أطاع ممن أضاع فمن أحمد، قفْ بالقبور لعله يلين القلب الجَلْمد، واجْلُ مرآة الفكر عسى ترى الوجه الأسود، وابكِ عليك فإن البكاء عليك أجْود:

إنَّ المنازل مِنْ شرقيٍّ بَغْدانَا ... هاجت لقلبك إطْرابًا وأحزانا
وقفتَ ذا غُرْبة فيها تسائلها ... عن أهلها عَرَضًا بالشوق حَيْرانا
واستمطرت عينك الأطلالَ خالية ... ممن تحبُّ فجادتهنَّ تَهتانا [٦]
هبك استفدت بدار بعد فُرْقتها ... دارًا وأبدلت بالأخدان أخدانا
ماذا يسرَّك مِنْ رَبْع بلا سَكَنٍ ... إن أنت لم تبك دارًا فابك سُكَّانا
سَقى الحيا [٧] منزلًا ما زال لي وطنًا ... حتى قطعتُ من الأقران أقرانا
يا للجفون أمَا تنفكُّ واكفةً ... وللفؤاد أمَا ينفكُّ هَيْمانا

---

(١) سقطت من أ، والآصار: جمع إصر. وهو الثقل. (٢) الإتبال: الإسقام.
(٣) سقطت من أ. اعتاقه: اعترضه، والأشراك جمع شرك وهو حبالة الصائد.
(٤) ش: إغرامها. (٥) الشونيزية: مقبرة الصالحين ببغداد.
(٦) التهتان: المطر الضعيف الدائم. (٧) الحيا: المطر.

إخواني: هذا حادي الموت قد غرَّد، وسيف المنون قد تجرد، وقد عاينتم سلب من تمرَّد، أما أُخرج عن الدنيا من بها تفرَّد، أين أصحاب القصور الحصينة، والأنساب العالية الرصينة، والحلوم الوافية الرزينة، والمفتخرون بمفاخر الزينة، قبضت عليهم أيدي المنايا فظفرتْ، وخلَّت أكفَّهم الدنيا فخلَتْ وصَفِرَتْ، ونُقلوا إلى أجداث ما مُهِّدتْ إذ حُفرتْ، ورحلوا بذنوب لا يُدرى هل غُفرت، فالصحيح منهم بالحزن قد سَقِم، والمدعوُّ إلى دار البلاء أسرع ولم يُقم، والكتاب قد سُطِّر بالذنوب ورُقِم، ولذيذ عيشهم بالتنغيص قد خُتم، وفراقهم لأحبابهم وأموالهم قد حُتم، والولد قد ذلَّ بعد أبيه ويتم، تقلبتْ واللَّه تلك النفوس أهوالَ النقل وقهرها، أسرع الممات فحُبس وانتقل، وطلبت أن تقال مما جنَتْ فلم تُقَلْ، وصارت عبرة في الإخبار لمن عقل، فتفكَّر في القوم كيف رحلوا وتذكَّر ديارهم كيف نزلوا، واسأل منازلهم عنهم ماذا فعلوا، وانتبه من رقادك قبل أن تصل إلى ما وصلوا، أما يكفي في الهدى والإرشاد رحيل الآباء والأولاد، أما يشفي في الإيقاظ ونفي الرُّقاد عكس المشتهي وردُّ المراد؟! كيف يتم غرضٌ في دار الكون والفساد، أمَا أنتم غرض لبيوت النائبات الشداد، فابكوا عليكم لا عليهم فهم فُرَّاط [١] وأنتم وُرَّاد:

لنا كل يوم رَنَّةٌ خَلْف ذاهبِ ... ومستهلَك بين النَّوى والنوائبِ
وقُلْعة [٢] إخوان كأنا وراءهم ... نرامق [٣] أعجازَ النجوم الغوارب
نوادع أحداث الليالي على شَفا ... من الحرب لو سالَمْن من لم يحارب
ونأمل مِنْ وعْد المنى غير صادق ... ونأمن من وعد الرَّدى غير كاذب
وما المرء إلا دارع مثل حاسر ... يصاب وإلا داجنٌ مثل شاربِ [٤]
إلى كم نُمنَّى بالغرور ونثني ... بأعناقنا للمطْمِعات الكواذب
وهل ينفع المخطومَ قربٌ إلى النوى [٥] ... يُلوِّم مغرور بإرخاء جاذب
هو القدر المجلوب من حيث لا نرى ... وأعْيَا علينا ردُّ تلك الجوالب
نُراع إذا ما شِيك أخمص [٦] بعضنا ... وأقدامنا ما بين شوك العقارب
ونمشي بآمال طِوال كأننا ... أمنَّا بنات الخطب دون المطالب

---

(١) الفراط: السابقون.
(٢) القلعة: الانقلاع.
(٣) رمقه: لَحَظَه لَحظًا خفيفًا.
(٤) الدارع: لابس الدرع. والحاسر: غير لابسه. والداجن: المقيم.
(٥) ش: للنوى. ويلوم: ينتظر.
(٦) الأخمص: ما لا يلامس الأرض من باطن القدم.

نعم إنها الدنيا سِمام لطاعم [١] وخوفٌ لمطلوب وهمٌّ لطالب
تصدَّى لنا قرب الموامق ذي الهوى وتختلنا كيدَ العدو الموارب
وإنا لنهواها مع الغدر والقِلي ونمدحها مع علمنا بالمعايب
ومن كانت الأيام ظهرًا لرحله فيا قرب ما بين المدى والركائب
تحُلُّ الرزايا بالرجال وتنجلي وربَّ مصاب مُقْلع عن مصائب

أيها الباكي على أقاربه الأموات، ابك على نفسك فالماضي قد فات، وتأهب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكر قول من إذا ذكرك قال: مات.

ابك على نفسك لا على موتاك، وكأنك بما أتاهم قد أتاك، ولقد صاح بك نذيرهم أنت في غد كذاك، وليقتلنك الذي قتل مِنْ قَبْلُ أباك، وليخرسن بسطوته إذا وافاك فاك، وإنما اليوم لهذا وغدًا لِذاك:

أرى الناس رادِين حوضًا من الرَّدى فمِنْ فارطٍ أو بالغِ الوِرْد عن خمْسِ [٢]
ويجري على من مات دمعي وماله بكيت ولكنْ بكيت على نفسي
وكلُّ فتًى باقٍ سيتبع من مضى وكل غد جاءٍ سيلحق بالأمس

أيُّ مطمئن لم يُزعج، أيُّ قاطن لم يُخرج.

إخواني: قد عُرف المنهج، زال الشكُّ بنور أبلج.

إخواني: فرس الرحيل مُسْرج، وإلى بوادي القبور [٣] المخرج، والنَّعْش المركوب بعد الهودج، وكأس الصِّرف [٤] لا يُمزج، كم قتيل للموت مُضْرج، ما هتف بمقيم إلا وأدْلج ولا استدعى نطق فصيح إلا تلجلج.

إخواني: ما جرى على الإخوان أنموذج.

سلوا عن الجيران المنازل، وقولوا لها أين النازل، تاللّه ما يجيب السائل، بلى إن البِلَى يَنطق بالبلابل.

إخواني: الدنيا ظلٌّ زائل، وحالٌ حائل، وركنٌ مائل، وغُولٌ غائل، وسُمٌّ قاتل، ورفيقٌ خاذل، ومسئولٌ باخل، كم تَعِد الدنيا وكم تماطل، كل وعدها غرور وباطل، تاللّه

---

(١) سمام: جمع سم.

(٢) رادين: واردين. والفارط: السابق. وبالغ الورد عن خمس: الخمس من أظماء الإبل وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الماء في الرابع.

(٣) ش: الرحيل.

(٤) الصرف: الخالص الذي لم يخلط.

ما فرح بالدنيا عاقل، غرورها لا للقمان بل لباقل (١)، على نية النقض بُني البُنيان، وعلى شرط الرَّحيل الأرواح في الأبدان، وإنما الدنيا مَعْبَر لدار الحيوان.

سبيلُ الخلْق كلهم الفَناء ... فما أحدٌ يدوم له بقاءُ
يقرِّبنا الصباح إلى المنايا ... ويدنينا إليهن المساء
فلا تركبْ هواك وكن معِدًّا ... فليس مُقدَّر لك ما تشاء
أتأمل أن تعيش وأيُّ غُصن ... على الأيام طال له النَّماء
تراه أخضرَ العِيدان غضًّا ... فيصبح وهو مسودٌّ غُثاءُ
فلا تركنْ إليها مطمئنًا ... فليس بدائم منها الصَّفاء

أين الفهم والنظر، إلام هذا الجهل والبطر، كم منزلٍ دَثَر، كم متاع عثر وأنت في الأثر، إلام هذا الأشَر وقد عُلم مآل البشر، أين العقول والفكر، كم وارد ما صدَر، البلايا مثل المطر، وإنك لعلى خطر، كم حضرت لدى مُحتضر، ودمع الملّقى قد انهمر، لقلّة الزاد وطول السفر:

أودِّع في كل يوم حبيبًا ... وأهدى إلى الأرض شخصًا غريبًا
وأرجع عنه جميلَ العزاء ... أمسِّح عن ناظريَّ الغَروبا (٢)
كأني لم أدر أنَّ السبيل ... سبيلي وأنِّي مُلَاقٍ شعوبا (٣)
وأنَّ ورائي سَوْقًا عنيفًا ... وأن أمامي يومًا عصيبا
ولا أنني بعد طول البقاء ... أُصاب كما أنَّ غيري أُصيبا
أمانيَّ أوضِعُ في غيِّها ... لريح الغُرور بها مستطيبا
قعدتُ بمَدْرجة النائبات ... يَمُرُّ عليَّ الزمانُ الخطوبا
أعلى الهمِّ أنفق شرخ الشباب ... وأُعطِي المنايا حبيبًا حبيبا
بمن أتسلَّى وأيدي المنون ... تُجالس فَرْعي قضيبًا قضيبا
يرُعْن قوادمَ رِيش جناحٍ ... وأثبَتْن في طول كلِّ عُضْوٍ نُدوبا
أقول لركبٍ خِفَاف المزاد ... وقد بُدِّلوا بالوضَاء الشُّحوبا
ألمُّوا بأجواز تلك القبور ... فعقُّوا الجياد وجزُّوا النَّسيبا (٤)

---

(١) باقل: رجل اشتهر بالعِيّ. (٢) الغروب: الدمع الغزير. (٣) شعوب: المنية.
(٤) عقوا الجياد: دعوها لا تكرموها. وجزوا النسيب: اقطعوه. والنسيب هو التغزل في النساء.

قفوا فامطروا كلَّ عين بماءٍ واملأوا كلَّ قلب وجيبا [١]
ولا تَعْقروا غير حَبِّ القلوب إذا اعقر الناس بُزْلًا ونيبا [٢]

وأول ما اعتمده المصاب الصبر.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « ما أُعطي أحدٌ عطاءً أعظم [٣] وأوسع من الصبر » [٤].

وقال عليّ ﷺ للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سلوت كما تسْلو البهائم.

وكتب حكيم إلى حكيم يعزيه: إنه قد ذهب منك ما رُزئت، فلا يذهبن منك ما عُوضت، يعني الأجر.

وأنشد بعض الحكماء يقول:

إذا طالعك الكُرهُ فكنْ بالصبر لوَّاذا
وإلَّا ذهب الأجر فلا هذا ولا هذا

واعلم أن الصبر حبس الجوارح أن تتصرف بما يدلُّ على الجزع.

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » [٥].

وينبغي أن يكون الصبر أولَ المصاب.

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بسنده عن ثابت قال: سمعت أنسًا يقول لامرأة من أهله: أتعرفين فلانة؟ فإن رسول اللَّه ﷺ مرَّ بها وهي تبكي عند قبر فقال لها: « اتقي اللَّه واصبري ». فقالت له: إليك عني فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، قال: ولم تكن عرفته، فقيل لها: إنه رسول اللَّه ﷺ، فأخذها مثل الموت فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بوَّابًا. فقالت: يا رسول اللَّه إني لم أعرفك، فقال: « إن الصبر عند أول صدمة » [٦] (أخرجاه في الصحيحين).

وقال ابن المبارك: العاقل يصنع في أول يوم من المصيبة ما يصنعه الجاهل بعد خمسة أيام.

---

(١) الوجيب: اضطراب القلب.

(٢) البزل: جمع بازل وهي الناقة في عامها التاسع. والنيب: جمع ناب وهي الناقة المسنة.

(٣) ش: خيرًا.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب رقم : ٥٠.

(٥) أخرجه النسائي في كتاب الجنائز، باب رقم : ٢١.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رقم : ٣٣ - ٤٣. وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، حديث رقم : ١٤، ١٥.

– **وإنما يسهِّل الصبرَ شيئان:**

أحدهما: العلم بأن الدنيا دار مِحَن وآفات بنيت على البلاء.

والثاني: العلم بثواب الصبر.

جاء رجل إلى بعض السلف وهو يأكل طعامًا فقال: مات أخوك. فقال: قد علمتُ اجلس فكلْ. فقال: ما سبقني غيري، فمن أعلمك غيري؟ قال: قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (١).

قال وفي هذا المعنى قيل:

يُمثِّل ذو اللب في نفسه ... مصيبته قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتةً لم ترُعْه ... لِمَا كان في نفسه مثَّلا
رأى الهمَّ يفضي إلى آخرِ ... فصيَّر آخره أوَّلا
وذو الجهل يأمن أيامَه ... وينسى مصارع مَنْ قد خَلا
ولو قدَّم الحزم في أمره ... لعلَّمه الصبر حسن البلا

واعلم أن الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسرُ الشامت، وإنه ليقدح في الصبر فينقص من الأجر، فالصبر يناضل الحِدْثان (٢)، والجزع من أعوان الزمان، ومن علم أنه مملوك يُتَصرَّف فيه لم يعترض على المتصرِّف، قال سعيد بن جُبَير: ما أعطيت أمة عند المصيبة ما أعطيت هذه الأمة قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٣)، ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ولم يقل ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (٤).

ويا أيها المعزَّى إذا كنت أنت البقية فالتعزية تهنئة والمصيبة نعمة إذْ كانت لك لا بك، على أن التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصاب.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول اللَّه ﷻ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » (٥).

وفي أفراد مسلم من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر اللَّه تعالى ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اللَّهم أجرْني في مصيبتي

(١) ش: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾، والآية الأولى من سورة الرحمن: ٢٦. والثانية من سورة القصص: ٨٨.
(٢) الحدثان: نوب الدهر وأحداثه.
(٣) سورة البقرة: ١٥٦.
(٤) سورة يوسف: ٨٤.
(٥) صحيح البخاري، كاب الرقاق، باب رقم: ٦.

واخلف لي خيرًا منها إلا أخلف اللَّه له خيرًا منها »[١].

لـو رأيـتُ الـغـرام يـبـلـغ عُـذرًا قلتُ حزنًا ولم أقل لـك صـبـرًا
واسـتـزدنـا ريحَ الـزفـيـر هـبوبًا وسحاب الـدمـوع وَبْـلًا وقَـطْـرًا
ورأيـنـا مُـعـرَّس الـحـزن سـهـلًا في الرزايا وجانـب الصبر وعْرا
لـكـنِ الأمـر مـا عـلـمـتَ وهـل ينـظـر مـن أَخْـذة الـزمـان مَـفَـرًّا
وقـعـا بـالأضـداد أَرْوَى وأظـمَـى وقـضـى واقـتـضـى وسـاء وسـرًّا
كلَّ يوم يَـغْـدو بـقـاطـعـة الآمـا ل غـضـبـانَ قـد تـأبَّـط شَـرًّا
مذنبًا كلما شكا نـال[٢] كيدا وإذا قـيـل قـد أنـاب أصـرًّا
ضيغمٌ يـخـبـط الـشُّـرور طروقًا كـلـمـا مـرَّ بـالـعـقـيـرة[٣] كرَّا
وأرى الـنـاس وافـرًا ومُـلـقًّـى بـالـزوايـا والأرض دارًا وقـبـرا
منزلي قُـلْـعـة[٤] وُلْـبـثٍ فـهـذا ك مـجـازًا لـنـا وهـذا مـقـرًّا
قد أنيخت لنا الركائب فالحا زم عـبَّـأ زادًا ووطَّـأ ظـهـرا
أسْمع الحاديان واستعجل الرَّكْـ ـبِ زمامًا إلى المنون ونقـرا[٥]
كم فقيد لنا طوتْه الليالي ذُقْـنَ مـنـه حُـلْـوًا وذوَّقْـن مُـرًّا
وكـأن الأيـام يُـدركْـن ثـأرًا عـنـد بـاقـيـه أو يُـقـضِّـين نـذرًا
إنما المرء كالقضيب تراه يكتسي الأخضر الرَّطيبَ ليَعْرى
والجليد[٦] الذي إذا الدهر أبكى منه قلبًا جلَّى على الناس ثَغْرا
وقـرتـه روائـع الـدَّهـر حـتـى لـم يُـرَعْ غـيـر مـرَّة واسـتـمـرا
أرمضَتْه هواجر الخَطْب[٧] فانقاد حمو ل الأذى ومـا قـال هُـجـرا
هـاب ضَحْضاحها ومرَّ به الدهـ ـر على سيلها فخاض الغَمْرَا[٨]

---

(١) مسند أحمد : ٦/٣٠٩ - ٣١٣ - ٣٢١.
(٢) غير ش: شاك.
(٣) العقيرة: ما عُقر من صيد أو غيره.
(٤) القلعة: العزل كالقلع. قال في القاموس: ومنزلنا منزل قلعة أي ليس بمستوطن أو معناه: لا نملكه أو لا ندري متى نتحول عنه. والدنيا دار قلعة أي انقلاع.
(٥) النقر: صويت تزعج به الفرس.
(٦) الجليد: الحازم القوي.
(٧) أرمضته: من الرمضاء والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر.
(٨) الضحضاح: الماء اليسير. والغمر: الماء الكثير.

كم حشَوْنا الثَّرى جسامًا طريًّا ... وطويلا لَدْنا وطرفًا أغرَّا

وكأن القبور منهم بذي الجز ... ع عِيَابٌ حمِّلْن درًّا وعِطْرا [1]

قطع الموت بيننا فتَناء يُـ ... ـنا لقاء إلا نزاعًا وذِكْرا

فبعدنا وما اعتمدنا بعادًا ... وهجرنا وما أردنا الهجرا

كلما أبلغ العواذل سمعي ... في التسلِّي عن معشري زاد وَقْرا [2]

أجد القلب بعد لومي أشجى ... وكأنَّ اللاحي بما قال أغْرى

زاد عذلًا فزاد قلبي ولوعًا ... ربَّ واشٍ [3] أراد نفعًا فضرًّا

فسقَى الدمع معشرًا سكنوا القلـ ... ـب وأخلوا باقي المنازل طُرًّا

هدانا اللّٰه وإياكم سبيل الصبر على النوائب، وأثابنا على الرزايا والمصائب، وردَّ إلى اليقظة كلَّ قلب غائب، إنه قريب مجيب.

[آخر المجلس الأول والحمد للّٰه دائمًا] [4].

* * *

---

(١) ذو الجزع: مكان بالوادي لا شجر فيه، والعياب: جمع عيبة وهي ما يجعل فيه الثياب.

(٢) الوَقْر: ثقل في الأذن أو ذهاب السمع.

(٣) ظ: آس.

(٤) من ظ.

المجلس الثاني

في التعازي أيضًا

الحمد للَّه منبِّه الراقدين في غفلاتهم بالزواجر، ومذكِّر المنهمكين في شهواتهم بالمقابر، وكاشف العواقب للعقلاء فاللبيب يرى الآخِر، إن الدنيا قد أفصحتْ بعبَرها في غِيرَها، فالعجب لعينٍ غطى الهوى على نظرها، أيُّ صحيح فيها لم يمرض، وأيُّ بناءٍ شُيِّد فلم يُنقض، يا عجبًا لمصاب فيها بالملمات انزعج، أما يعلم [١] أن من دخل دار غيره خرج.

على ذا قَبْلنا مضت القُرُون ... حَصادٌ يُجْتَنى ورحًى طَحونُ
وأجسادٌ من الأرواح تَعْرَي ... كما عريت من الطير الوكون [٢]
إلامَ يديرنا رفعًا وخفضًا ... بسرعة مرِّه ذا المَنْجَنُون [٣]
يحثُّ بطاءنا بمحرِّكات ... وغايتنا [٤] كمبدأنا سُكون
ولو نظرتْ بصائرُنا لكُنا ... بما قد كان نعلمُ ما يكون

إخواني: تفكروا في الراحلين، واعتبروا بالسالفين، وتأملوا بالبصائر حال الدَّفين، وتأهبوا فأنتم في أثر الماضين، أين الأخلَّاء وأين الإخوان، أين الرفقاء وأين الأقران، رحلوا عنَّا إلى أعجب الأوطان، وبنوا في القلوب بيوت الأحزان، فكم شبيه بقضيب بانٍ [٥] إذا بان بان:

من كان أُنْسِى أَمْسَي وحْشتي وغدا ... من كان يُرْئي أسبابًا لأوجاعي
في كل يوم أكرُّ الطرف ملتفتًا ... وراء نجم من الأقران منصاع
أمانع الدمع عينًا جدَّ دامعةٍ ... وأُلزم الصبر قلبًا جدَّ مُلتاع
هل دمعة حذفتْها العين شافية ... داء حنْوتُ عليه بين أضلاعي
تحدو على العنف أحزانًا لتلحقنا ... عجلان أنزل أولانا بجعجاع [٦]
جرَّ الزمان على قومي سنابكه ... وأوقع الموت فيهم أيَّ إيقاع
واستطعمتني المنايا مَنْ أضنُّ به ... وكان بالرَّغم إطعامي وإشباعي

---

(١) ظ: تعلم.
(٢) الوكون: الأعشاش.
(٣) المنجنون: الدهر.
(٤) ش: وغائبنا.
(٥) قضيب البان: غصن من شجر يضرب به المثل في حسن القوام، وبان الثانية: ظهر، وبان الثالثة بمعنى بعد وفارق، من البين وهو الفراق.
(٦) ش: ليلحفنا. والجعجاع: الموضع الخشن الضيق.

بَيْنا يسير الفتى حتى دعون به ... فردٌ عارضه ليًّا إلى الداعي (١)
يسعى مجدًّا فإن ألْوَى (٢) به قدر ... ضلَّ الدليل وزلَّت أخمص الساعي
أستودع الأرض خِلَّاني لتحفظهم ... لقد سكبْت إلى هوجاء مِضْياع

إخواني: يكفي في المواعظ سلب الإخوان، ويشفي من غِيَر العِبَر من غبر من الخِلَّان، ولقد أنذر بقطع أقران، ختال الأقران؛ فلو أن لا تعاظهم وجهًا من الوجوه بان:

أسعداني عينيَّ بالهمَلَان ... وفِيَا لي إن كنتما تفيانِ
لا تملَّا من البكاء ولو أقـ ... ـرحُ مآقيكما النجيع القاني (٣)
فحقيق أن تَشْرَقا بدم القلـ ... ـب لِفقد الأقران والإخوان
الوسام الوجوه والباسطي الأيـ ... ـمان بالمكرمات والإحسان
قوَّض الدهر طَوْدَ عزِّهم الشَّا ... مخ قَسْرا والدهر ذو حِدْثانِ
ورماهم منه بقاصمة الظَّهـ ... ـر فألقى عليهم بجِرانَ (٤)
واستردَّ الذي أعار وللأيا ... م ظَهْرًا خشونة وليَان
وقديمًا أخنَى على آل غسَّا ... ن وأخلى منازل النعمان
والليالي ما بين نُعْمَى وبُؤْسَى ... بممرِّ الأفراح والأحزان
وإذا صاح صائح الدهر في قو ... م غَدْوا كلٌّ واحد في مكان
وَلَعْهدي بهم على أحسن الحا ... ل إلى أن حالت صروف الزمان
يَتَبارون (٥) بالسَّماح وبالبأ ... س إلى غايَتْي ندًى وطِعَان
وخلال البيوت مَقْربة الخيـ ... ـل عِرَابًا ينقَدْن في الأرسان (٦)
ومُناد على البقاع يُنادي الضَّيـ ... ـف فيها بألْسُن النيران
ووفود الثناء تهوي فلا ... تنزل إلا على أغرِّ هجان (٧)
وكأنَّ الزمان قد نام عنهم ... فهم في صروفه في أمان
ثم يا قُرْب ما مررت على الدا ... ر فلجَّت عيناي في الهَمَلان

---

(١) العارض: صفحة الخد. واللي: ثني العنق عند النظر إلى شيء.

(٢) ألوى به: نزل.

(٣) النجيع: الدم. وسكنت الحاء من أقرح للضرورة.

(٤) الجران: الصدر.

(٥) ش: يتبارزن.

(٦) الأرسان: جمع رسن وهو الزمام.

(٧) الهجان: الخيار من الإبل البيض.

وهي بعد البهاء والعز والسلطا ... ن للذل والجفاء والهُوَّان
أنكرتْ موقفي بلا سكن ... منهم فأنكرتها بلا سُكَّان
وبتلك القِبَاب من فَقْدِ بانيـ ... ـها خشوع باد على البنيان
بدلت رنَّةُ النوادب في الفجـ ... ـر بصوت النابيات والعيدان
لو تطيق الكلام ناحت كما نحـ ... ـتُ إليها بكاءً من الأشجان
فبها من فراقهم مثل ما ... بي أنا والدار بعدهم سِيَّان

من الذي طلبه الموت فما أزعجه، من الذي تحصَّن في قصره (١) فما أبرزه، من الذي سعى في مناه فما أعْوزه، من الذي أمَّل طول الأجل فما حَجزه، أيُّ عيش صفا وما كدَّره، أيُّ قدم سعى وما عثَّره، أيُّ حال حالَ ما أحاله وغيَّره، أيُّ غصن علا على ساقه ما كسره، أما أخذ الآباء والأجداد، أما ملأ القبور والألحاد، أما حال بين المريد والمراد، أما سلب الحبيب وقطع الوداد، أما أرمل النسوانَ وأيتمَ الأولاد، أما تتبع قوم تُبَّع وعادَ على عاد:

يا أيها المغرور من سفر ... أنَّى تقيم بمنزل السَّفر
إن لم ترحْ منه غدوت وإن ... لم تغد كنت مع الذي يَسْري
كم قدْ رأينا من أخي سكَنٍ ... يرجو الثَّواء (٢) به وما يدري
بينا بني قومٌ مساكنه ... إذ شيَّعوه إلى ثرى القبر
فاطلب فِكَاك النفس في مهل ... واذْخر لها من صالح الذُّخر

ما لي أرى القلوب على الدنيا مُكِبَّة، أما رأت فعلها بالنفوس المُحبة؟

يا لهف نفسي للأحبَّة ... ورجاؤهم غوثُ الأطِبَّة
لم يشفهم طبُّ الطبيب ... ولا عنايته المكبَّة
لم تقض حاجتهم ولا ... نفعتهم نفس محبَّة
ما زادهم فرح ولا ... كانت كروبهم مُغِبَّة
تقتادهم نحو الرَّدى ... طُرُقٌ إليه مُستتبة
ناموا على صيْحاتها ... بهم الشَّداد (٣) المستهبَّة
وتهافتوا في شَهْدها ... فتهالكوا مثل الأذبَّة (٤)

---

(١) ش: قصوره.
(٢) ش: البقاء. والثواء: الإقامة.
(٣) ش: مثل السناد.
(٤) الأذبة: النحل.

ما هذا الانزعاج عند موت الأحباب، أَوَ ما على هذا الشرط رُقِمَ الكتاب؟! هل إلى البقاء سبيل للناس؟ هل يصحُّ البناء مع تَضَعْضُع الأساس؟

صدقْ الفَناء (١) وكذّب العمر ... وجلا العظات وبالَغ النُّذرُ
أباد في آمال أنفسنا ... طولٌ وفي أعمارنا قِصَرُ
لنرى بأعيننا مصارعنا ... لو كانت الألباب تعتبر
ممَّا دَهَانا أنَّ حاضِرَنا ... أجفانُنا والغائب الفكر
لو كان للألباب ممتحَن ... ما عُدَّ منها السمع والبصرُ
خَرِستْ لعَمْر اللّه ألسُننا ... لمَّا تكلَّم فوقها القدر
دنيا تُجمِّعنا وأنفسنا ... شَذَرٌ على أحكامها مذَرُ (٢)
تَفنى النجوم الزُّهر طالعةً ... والنَّيِّران الشمسُ والقمرُ
ولئن تبدَّت في مطالعها ... منظومة فلسوف تَنْتثِرُ
ولئن سرى الفلَك المدار بها ... فلسوف يُسْلمها وينفطر
ولكل حَلْبة سابق أمَدٌ ... ولكل غاية واردٍ صدَر
ولقد حَلبْتُ الدهر أشـ ... ـطُرَه فالأعذبان الصاب (٣) والصبر
غَرضٌ تراماني الخطوب فذا ... قوس وذا سهم وذا وتَرُ
فجزعتُ حتى ليس لي جزعٌ ... وحَذِرْتُ حتى ليس لي حذر

يا حزينًا لفراق أترابه، كئيبًا لرحيل أحبابه، تبكي ذهابهم غافلًا عن ذهابه، إن حزنه عليه لا عليهم أَوْلَى به:

عزاءً فما يصنع الجازعُ ... ودمع الأسى أبدًا ضائعُ
بكى الناس من قبلُ أحبابَهم ... فهل منهم أحدٌ راجعُ
عرفنا المصائب قبل الوقوع ... فما زادنا الحادث الواقع
ولكنَّ ما ينظر الناظرون ... ليس كما يَسْمعُ السامع
يُدلِّىَ ابن عشرين في قبره ... وتسعون صاحبها راتِع

---

(١) ش: البقاء.
(٢) شذر مذر: متفرقة.
(٣) ظ: الصفو.

وللمرء لو كان يُنْجِي الفرا ... رُ في الأرض مضطربٌ واسع
ومَنْ حَتْفه بين أضلاعه ... أينفعه أنه دارع؟!
وكل أبيٍّ لِدَاعي الحِمام ... إنْ يَدْعه سامعٌ طائعُ
يسلم مُهْجته سامحًا ... كما مدَّ راحته البائع
دحِي ضيزن الحَضْر (١) عن متنه ... وحسَّان أسلَمه فارعُ
وهبَّت على تُبَّع نفخة ... فلم يبق من رهطه تابع
ولو أنَّ مِنْ حدَثٍ سالمًا ... لمَا خُسِفَ القمرُ الطالع
وكيف يوقَّى الفتى ما يخا ... ف إذا كان حاصده الزارع

يفرح الحزين بعد الأحباب، ويعمل السُّلو فيه كما يعمل التراب.

غاية الحُزْن والسرور انقضاء ... ما لحيٍّ من بعد ميْت وفاء (٢)
لا لبيُدٌ بأرْبَد (٣) مات حُزنًا ... وسَلتْ عن شقيقها الخنساء
مثل ما في التراب يبلي الفتى ... فالحزن يبلى مِنْ بَعْده والبكاء
إنما نحن بين ظفر وناب ... من خطوب أُسودهنَّ ضِرَاء
نتمنى وفي المنَى قِصَر العمر ... فنغدوا بما نُسَرُّ نُسَاءُ
وقليل ما تصحب المهجة الجسـ ... ـم؛ ففيم الأسىَ وفيم العَنَاءُ
من يكن قدَّمته أيدي المنايا ... فإلى السابقين يمضي البِطَاء
إنما الناس قادم إثر ماضٍ ... بدء قوم لآخرين انتهاء

هذا المصير يا معاشر الغافلين، واللحود المنازل بعد الترف واللِّين، والأعمال الأقران فاعملوا ما يزين، والقيامة تجمعكم وتُنْصَب الموازين، والأهوال عِظام، فأين المتفكر الحزين ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٤).

وما هذه الدنيا بدار إقامة ... فيحزن فيها القاطن المترحِّلُ

---

(١) دحى: يعني أزيل، وأصله: دحا الأرض أي: بسطها، والضيزن: الرجل الحافظ الثقة. والحضر: حصن بناه الساطرون الملك في الجاهلية.

(٢) ش: بقاء.

(٣) لبيد: هو لبيد بن ربيعة. وأربد: أخوه وقد رثاه بعد موته.

(٤) سورة الأنعام: ١٣٤.

هــي الــدار إلا أنـهـا كـمـفـازة أناخ بـهـا رَكْـبٌ وركـبٌ تـحمَّلوا
تـجـرِّد نَـصْلًا والـخلائق مِـفْـصـل وتُـنْـبض سـهـمًا والـبـرية تُـقـتـل
وكـلٌّ وإن طـالَّ الـثَّـواء مـصـيـره إلى مورد ما عنه للخلق مَعْدِلُ

رُئي على قبرٍ مكتوب:

سيُعْرضُ عن ذِكْري وتُنْسى مودَّتي ويَـحْـدث بعدي لـلـخـلـيـل خليلُ
إذا انقطعت يومًا من العيش [1] مدتي فـإن عَـنَـاء الـبـاكـيـاتِ قـلـيـل

جعلنا اللَّه وإياكم ممن أفاق لنفسه، وفاق بالتحفُّظ أبناء جنسه، وأعدَّ عُدَّة تصلح لرَمْسه، واستدرك في يومه ما ضيَّع في أمسه، قبل ظهور العجائب، وقدوم الغائب وزمِّ الركائب. إنه قريب مجيب.

* * *

فَصْلٌ

إذا تكلمت بتعزية فانظر، فإن كان الميت أبًا فقل للولد: خلَف اللَّه عليك، وإن كان ولدًا فقل أَخْلف اللَّه عليك.

* * *

فَصْلٌ في ذكر التعزية عن الأم

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن أبي عبيدة قال: ما كانت العرب تعزِّي على امرأة إلا أن تكون أمًّا، وإنما عَظُم فقْد الأم لأنها باب من أبواب الجنة، وثواب برِّها ليس كبرٍّ غيرها.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رجل: يا رسول اللَّه: من أحق مني بحسن الصحْبة؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أبوك» [2].

* * *

فَصْلٌ في التعزية بالأخ

قال أبو بكرَة: موتُ الأخ قَصُّ الجناح. وقال عبيد بن أبي بكرة: موت الأخ قاصم للظهر.

وروى إسماعيل بن عباس عن عبد اللَّه بن دينار أن لقمان قَدِم من سفر فلقي غلامًا

---

(١) ش: الدهر.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رقم : ٢.

له في الطريق فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكتُ أمري. قال: ما فعلت أمي؟ قال ماتت. فقال: ذهب همِّي. فقال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت. قال: جُدِّد فراشي. قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: انقطع ظهري.

وقال وهب بن مُنبِّه: فقد الأخ أعظم على الإنسان من فقد جميع أهله.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: رحم اللَّه زيدًا ما هبَّت الرياح من تلقاء اليمامة إلا أتتني برؤياه [١]، ولا ذكرت قول متمِّم بن نويرة إلا هاج لي شجنًا:

وكنا كنَدْمَاني جُذَيْمة [٢] حِقْبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا

فلما تفرقنا كأني ومالكًا ... لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلة معًا

وقال عمر لقاتل زيد: أنت قتلته؟ قال: نعم. والحمد للَّه الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده. فقال عمر: وارِ وجهك عني فما يحبك قلبي أبدًا. قال: أينقصني بغضك لي عند اللَّه؟ قال: لا. قال: لا أبالي!

وقال عمر لمتمم: ما بلغ من حزنك على أخيك؟ قال: لقد مكثت سنة ما أنام بليل حتى أصبح، ولا رأيت نارًا رُفعت بليل حتى ظننت أن نفسي تخرج، أذكر بها نار أخي، فإنه كان يأمر بالنار فتوقد حتى تصبح لأجل الضيف.

وكانت الخنساء تبكي أخاها وتقول:

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكنْ ... أعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي

وبكى الحسن البصري على أخيه سعيد سنة، فقيل له: يا أبا سعيد أكثرت، فقال: الحمد للَّه الذي لم يجعل بكاء يعقوب على ابنه عارًا، ثم لم يُرَ باكيًا بعد.

* * *

فَصْلٌ في التعزية بالزوجة

قال عبد اللَّه [٣] بن عمرو: أجد في التوراة: ما كنت لآخذ كنَّة عبدي [٤] ثم أجزيه بها إلا الجنة، وهي المرأة.

---

(١) ظ: برياه.

(٢) جذيمة: هو جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم ملك الحيرة. والنديم: المجالس على الشراب.

(٣) ش: عبد العزيز.

(٤) الكَنة بفتح الكاف هي امرأة الابن أو امرأة الأخ، وأراد بها هنا الزوجة، بمعنى: أن الرجل يَكِنُّها أي: يحفظها.

وعُزِّي مكحول بامرأته فقال: إن اللَّه تعالى يقول: « إذا أخذت كريمة عبدي وهو بها ضنين فحمدني عند ذلك لم أرض له ثوابًا إلا الجنة ».

* * *

فَصْلٌ في التعزية بالولد

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي حسان قال: توفي ابنان لي، فقلت لأبي هريرة: سمعتَ من رسول اللَّه ﷺ حديثًا تُحدِّثناه، تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم « صِغارهم دعاميصُ [١] الجنة يلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بناحية ثوبه أو يده كما آخذ بِصَنِفة [٢] ثوبك هذا فلا يفارقه حتى يُدخله اللَّه تعالى وإياه الجنَّة » [٣].

قال أحمد: حدثنا وكيع بسنده عن معاوية بن قُرة عن أبيه أن رجلًا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ « أتحبه؟ » فقال: يا رسول اللَّه أحبك اللَّه كما أحبه. ففقده النبي ﷺ فقال: « ما فعل ابن فلان »، قالوا: يا رسول اللَّه مات. فقال لأبيه: « أمَا تحبُّ أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ » فقال رجل: يا رسول اللَّه له خاصة أو لكُلِّنا؟ قال: « بل لِكُلِّكم » [٤].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: « ما منكنَّ امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجابًا من النار. فقالت امرأة: أو اثنين فإنه مات لي اثنان [٥]، فقال رسول اللَّه ﷺ: واثنين » [٦].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث فتمسَّه النار إلا تحِلَّة القسم » [٧].

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن امرأة أتت النبي ﷺ بصبي لها فقالت: يا نبي اللَّه ادع اللَّه لي فلقد دفنتُ ثلاثة. فقال: « دفنتِ ثلاثة؟ » قالت: نعم. قال: « لقد احتَظْرت بحِظَار شديد من النار » [٨].

---

(١) الدعاميص: جمع دعموص وهو الداخل في الأمور الزوار للملوك، والمراد: سياحون في الجنة.

(٢) الصنفة: حاشية الثوب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر، حديث رقم : ١٥٤. ومسند أحمد : ٢/٤٧٧ - ٥١٠.

(٤) مسند أحمد : ٣/٤٣٦.

(٥) ش: ابنان.

(٦) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب رقم : ٣٦. وصحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٥٢.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رقم : ٦. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم : ٩.

(٨) صحيح مسلم، كتاب البر، حديث رقم : ١٥٥، ١٥٦.

وروى ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « من كان له فَرَطان من أمتي دخل الجنة ». فقالت عائشة: فمن كان له فرط؟ فقال: « ومن كان له فرط يا موفَّقة ». قالت: فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: « فأنا فرط أمتي لا يصابون بمثلي » (١).

أخبرنا هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن أبي سنان قال: دفنت ابنًا لي وإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الجولاني فأخرجني فقال: ألا أُبشِّرُك؟ قلت: بلى. قال: حدَّثني الضحاك بن عبد الرحمن عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا مات ولد العبد قال اللَّه تعالى: يا ملك الموت قبضتَ ولد عبدي، قبضتَ قُرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسْتَرجَع. قال: ابنوا له بيتًا في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد » (٢).

وقال أبو مسلم الخولاني: لأن يولد لي مولود يُحسن اللَّه تعالى نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إليَّ قبضه منِّي أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا وما فيها.

وعزَّى رجلٌ رجلًا عن ولد صغير فقال: الحمد للَّه الذي نجَّاه مما همَّنا من الكدر وخلَّصه مما بين يديه من الخطر.

ولما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دفنه عمر ووَقف على قبره، فقال: رحمك اللَّه يا بني، قد كنت بَرًّا بأبيك، واللَّه ما زلت منذ وهبك اللَّه لي مسرورًا بك، ولا واللَّه ما كنت قط أشدَّ سرورًا ولا أرْجَى لحظِّي من اللَّه تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل رضًا بقضاء اللَّه تعالى وتسليمًا لأمره.

ولما مات ولد الفضيل بن عياض قال: الحمد للَّه رضينا بقضاء اللَّه وسلَّمنا لأمره، والحمد للَّه الذي جعل عليًّا لي ولم يجعلني له.

ومات ولد لعمر بن ذر فوقف على قبره فقال: ليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك، فقد شَغَلنا الحزنُ لك عن الحزن عليك، اللَّهم إني قد وهبت له إساءته إليَّ فهب لي إساءته فإنك أكرم مني.

مات ولد لإبراهيم بن مسلم بن قتيبة فعزَّاه الهادي فقال له: يا إبراهيم سرَّك وهو عدوٌّ وفتنةٌ، [وأحزنك وهو صلاة ورحمة، فقال: يا أمير المؤمنين ما بقي مني جزء كان فيه حزن إلا وقد امتلأ عزاء] (٣).

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب رقم : ٦٤. وأحمد في مسنده : ٣٣٤/١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده : ٤١٥/٤. والنسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب رقم : ٣٦.
(٣) سقطت من أ.

وعزّى رجل رجلًا على طفل فقال: عوضك اللَّه منه ما عوضه منك، يعني الجنة.

وكتب رجل إلى صديق له مات ولده: سمعت خبر غصن ما أورق في الدنيا حتى أثمر في الآخرة:

فإنْ كنت ترجوه طِلَابًا لنفعه ... فقد نال جنات الخلود مسارعا

وإن كنت تبكي أنه فات عَوده ... عليك بنفع فاسْلُ قد صار شافعا

وقيل لرجل: كم لك ولدٌ فقال: تسعة، فقيل له: إنما تعرف لك ولدًا واحدًا. فقال: كان لي عشرة فقدَّمتُ تسعة وبقي لي واحد، فلا أدري أنا له أم هو لي.

ومات ولد لإبراهيم الحربي وكان قد قرأ القرآن وتفقَّه فقال: قد كنت أحبُّ موته، فقيل: ولم؟ قال: رأيت في المنام القيامة قد قامت والناس عطاش وإذا صبيانٌ معهم قِلالُ الماء يتلقون الناس بها فقلت لأحدهم: اسقني. فقال: لستَ أبي.

* * *

لقد غرس الموت في الترب غصنًا ... فأثمر في الحال همًّا وحُزنًا

يجفُّ وأوراقه غَضَّة ... ويفنى وأثماره ليس تفنى

وإنْ أخلف القطرُ أنواءه [1] ... فبالدمع يُسقى وبالذِّكر يُجنى

نأى شخصُه ودنا ذِكْرُه ... فقد غاب عنا وما غاب عنّا

أنستُ به ثم فارقته ... ومن فقد الإلفَ إلا وحنَّا

بمعنى [2] يسودُ الفتى واحدٍ ... فما الظن [3] فيمن حوى كلَّ معنى

ومن أعجب أحوال الصابرين لفقد الأولاد ما أخبرنا به هبة اللَّه بن محمد بإسناده عن أنس ﷺ قال: مات ابنٌ لأبي طلحة من أم سليم فقالت: لأهلها لا تحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء فقال: كيف الغلام؟ قالت: هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، قال: فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، قالت: ثم تصنَّعتْ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأتْ أنه قد شبع وأصاب منها. قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهلَ بيتٍ فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسبْ ابنك. فانطلق حتى أتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره

---

(١) القطر: المطر، وأنواؤه: جمع نوء وهو النجم مال للغروب.

(٢) ظ: بشيء.

(٣) ظ: للظن.

بما كان، فقال رسول اللَّه ﷺ: « بارك اللَّه لكما في ليلتكما. قالت: فحملت وولدتْ فسماه رسول اللَّه ﷺ عبد اللَّه » (١).

قال ثابت البُنَاني: مات عبد اللَّه بن مُطرِّف فخرج مطرفٌ على قومه في ثيابٍ حسنة وقد ادَّهن فغضبوا وقالوا: أيموتُ عبد اللَّه ثم تخرج في ثياب مثلِ هذه مدَّهنًا؟ قال: أفأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك وتعالى عليها ثلاث خصالٍ كلُّ خَصلةٍ منها أحبُّ إلي من الدنيا كلها، قال اللَّه ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ (٢) أفأستكين لها بعد هذا؟

قال ثابت: قال مطرف: ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوزٍ من ماء إلا وددتُّ أنه أُخذ مني في الدنيا.

قال ثابت: وكان صلةُ بن أَشْيَم في مغزًى له ومعه ابن له، فقال: أيْ بُنيّ تقدم، فقاتلْ حتى أحتسبك. فحمل فقاتل حتى قُتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمعت النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت: مرحبًا إن كنتن جئتن لتهنئنني، فمرحبًا بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.

قال أبَان بن تغلب (٣): رأيتُ أعرابيةً تمرّض ابنًا لها، فلما فاض (٤) أغمضته ثم تنحتْ عن موضعها (٥) فجلستْ تجاهه وقالت: يا فلان ما حقٌّ من أُلبس العافية وأُسبغت عليه النعمةُ وأطيلتْ له النظرة أن لا يعجز عن التوثق لنفسه قبل حلّ عقدته والحلول بعقوبته والحيال بينه وبين نفسه، قال: فأجابها أعرابي: إنا لم نزلْ نسمعُ أن الجزع للنساء فلا يجزعن رجلٌ بمصيبةٍ بعدكِ، ولقد كرُم صبرُك وما أشبهتِ النساء. فأقبلت عليه بوجهها ثم قالت: ما ميز رجلٌ بين الصبر والجزع إلا أصابَ بينهما منهجين بعيدي التفاوُت في حاليهما، أما الصبرُ فحسَنُ العلانية محمودُ العاقبة، وأما الجزع فغيرُ معوّض مع مَأْثمه، ولو كانا رجلين في صورة لكان أوْلاهما بالغلبة وحسنِ الصورة مع كرم الطبيعة في عاجلة [من الدين] (٦) وآجلةٍ من الثواب، الصبر، وكفى ما وعد اللَّه فيه لمن ألهمه إياه.

واعلم أن كثيرًا من السلف كانوا يختارون المصائب ويحبون وقوعها إيثارًا لثوابها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب رقم : ٤٢. وكتابَ الأدب، باب رقم : ١١٦.

(٢) سورة البقرة: ١٥٦، ١٥٧.

(٣) ش: تعلب.

(٤) فاض: مات.

(٥) ش: مجلسها.

(٦) سقطت من أ.

قال أبو الأحوص الجشمي: دخلنا على ابن مسعود وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير حسنًا، فجعلنا نعجب من حسنهم فقال لنا: كأنكم تغبطونني بهم؟ قلنا: إي واللَّه لِمثْل هؤلاء يُغبطُ المرء المسلم، فرفع رأسه إلى سقفِ بيتٍ له صغير، وقد عشَّش فيه خُطافٌ (١) وباض، فقال: والذي نفسي بيده لأن أكون نفَضْتُ يدي عن تراب قبورهم أحبُّ إليَّ من أن يسقط عشُّ هذا الخطاف وينكسر بيضه.

وقال أبو الدرداء: ثلاث يكرههن الناس وأُحبُّهن: الفقر والمرض والموت.

وقال أبو جحيفة: إنا لمتوجهون إلى مهران (٢) ومعنا رجل من الأزد، فجعل يبكي، فقلت له: أجزعٌ هذا؟ قال: لا ولكن تركتُ ابني في الرَّحلِ فلودِدت أنه كان معي، فدخلنا الجنة جميعًا.

أخبرنا محمد بن ناصر بإسناده عن ابن يسار يعني مُسْلمًا قال: قَدِمتُ البحرين أو اليمامة في تجارة فإذا أنا بالناس مقبلين ومدبرين نحو منزل فقصدته فإذا أنا بامرأةٍ جالسةٍ في مصلى لها عليها ثياب غليظة، وإذا هي كئيبة محزونة قليلةُ الكلام، وإذا كلُّ ما رأيت ولدها وخولها وعبيدها، والناس إليهم بالبياعات والتجارات، فقضيتُ حاجتي ثم أتيتها فودَّعتُها فقالت: حاجتنا إليك أن تأتينا إن عدت إلينا لحاجةٍ فتنزل بنا حاجتك. قال: فانصرفتُ فلبثتُ حينًا، ثم إني توجهتُ إلى بلدتها في حاجة فلما قدمتها لم أر دون منزلها شيئًا مما كنت رأيت، فأتيت منزلها فلم أر أحدًا، فأتيت الباب فاستفتحتُ فإذا أنا بضحك امرأة وكلامها، ففتح لي فدخلت فإذا أنا بها جالسةً في بيتٍ، وإذا عليها ثياب رقيقةٌ حسنة، وإذا الضحك الذي سمعت ضحكها وكلامها، وإذا امرأة معها في بيتها فقط، فاستنكرتُ وقلت: لقد رأيتك في حالين فيهما عجبٌ، حالك في قَدْمتي الأُولى وحالك هذه. قالت: لا تعجب فإن الذي رأيت من حالتي الأولى أني كنت فيما رأيت من الخير والسعة وكنت لا أصابُ بمصيبةٍ في ولد ولا خَول ولا مال، ولا أوجِّهُ في تجارة إلا سلمتْ، ولا يُبتاع (٣) لي شيء إلا ربح فيه، فتخوفت أن لا يكون لي عند اللَّه تعالى خير، فكنت مكتئبة لذلك وقلت: لو كان لي عند اللَّه خير ابتلاني، فتوالت عليَّ المصائبُ في ولدي الذي رأيت وخَوَلي ومالي، فما بقي لي منه شيء، فرجوتُ أن يكون اللَّه ﷻ قد أراد بي خيرًا فابتلاني وذكرني، ففرحت لذلك وطابت نفسي.

قال: فانصرفت فلقيت عبد اللَّه بن عمر فأخبرته خبرها فقال: أرى واللَّه هذه ما فاتها أيوب النبي ﵇ إلا بقليل لكنني لخوف مِطْرفي هذا أو كلمةً نحوها فأمرتُ به أن يصلح فلم يُعمل على ما كنت أريدُ، فأحزنني ذلك.

---

(١) الخطاف: طائر أسود. (٢) مهران: بلدة بأصفهان. (٣) ش: يباع.

أيقظنا اللَّه وإياكم من رقدات الغفلات، ورزقنا شكر النِّعمة وصبر المصيبات وأجاب دعاءنا فإنه مجيب الدعوات.

آخر الطبقة الثامنة والحمد للَّه.

* * *
* *
*

الطبقة التاسعة

تشتمل على مواعظ مختصرات

(وفيها أربعة مجالس)

لما كان الواعظ قد يُزار ويستدعى منه كلماتٌ
من الوعظ من غير قراءة قارئ ولا صعود منبر،
أُثبت له هاهنا أربعة مجالسٍ فيها مواعظ مختصرة.

المجلس الأول

أخبرنا عبد اللَّه بن علي المقري بإسناده عن الحسن قال: أهل التوحيد في النار لا يقيَّدون، فتقول الخزنةُ بعضهم لبعضٍ: ما بال هؤلاء يقيدون وهؤلاء لا يقيدون؟ فيناديهم منادٍ إن هؤلاء كانوا يمشون في ظُلَم الليل إلى المساجد.

قال عمر بن عبد العزيز: أول ما أيقظني لهذا الشأن مزاحمٌ مولاي، حبسْتُ رجلًا فكلمني في إطلاقه فلم أفعل، فقال يا عمر: إني أُحذرك ليلة تَمْخُضُ بالقيامة، ولقد كدتُّ [١] أنسى اسمك مما أسمع؟ قال الأمير: فواللَّه ما هو إلا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاء، فذكِّروا أنفسكم فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين.

دخل عبد اللَّه بن طاهر على يحيى بن يحيى النيسابوري فقال له: ارفع إلينا حوائجك. فقال: قد وقعت له حاجة الآن، فقال: مقضية مهما كانت، قال: فقد كنتُ أسمعُ بمحاسن وجه الأمير وما عاينْتها إلا في ساعتي هذه، وحاجتي إليك ألا ترتكب ما يُحْرق هذه المحاسن بالنار! فجعل الأمير يبكي إلى أنْ قام وهو يبكي.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بإسناده عن ابن عمر ﵄ قال: دخل رسول اللَّه ﷺ قبر سعدٍ فاحتبس، فلما خرج قيل: يا رسول اللَّه ما حبسك؟ قال: « ضُمَّ سعد في القبر ضمة فدعوت اللَّه أن يكشف عنه » [٢].

مرض إبراهيم النخعي فدخلوا عليه وهو يبكي فقالوا: ما يبكيك؟ قال: أنتظر ملك الموت لا أدري يبشرني بالجنة أم بالنار؟

واللَّه أعلم.

* * *
* *
*

(١) ظ: كنت.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم : ١٤٥.

المجلس الثاني

كتب بعضُ الحكماء إلى أخٍ له: أما بعد فإن الدنيا حُلم والآخرةُ يقظةٌ والمتوسطُ بينهما الموت، ونحن في أضْغاث أحلام والسلام.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: كأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل.

كتب الأوزاعي إلى أخ له: أمَّا بعد؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يُسارُ بك في كل يوم وليلة، فاحذر اللَّه والقيام بين يديه وأن يكون آخر عهدك به، والسلام.

وأنشد بعضهم يقول:

أعينَّي هلَّا تبكيان على عمري ... تناثَر عمري من يديَّ وما أدري

إذا كنتُ قد جاوزتُ خمسين حِجَّة ... ولم أتأهب [1] للمعاد فما عذري

وأنشد آخر يقول:

إحدى وستون لو مرت على حجرٍ ... لكان من حُكمها أن يخْلَق الحَجرُ

تؤملُ النفس آمالًا لتبلغها ... كأنها لا ترى ما يصنعُ القدر

* * *

* *

*

(١) ش: أتزود.

المجلس الثالث

قال مالك بن دينار:

أتيتُ القبورَ فناديتها ... فأين المعظَّم والمحتقرْ
وأين المُدِلُّ بسلطانه ... وأين العزيزُ إذا ما قدرْ
وأين الملبَّى إذا ما دعا ... وأين الغنيُّ إذا ما افتخر

فهتف به هاتفٌ يقول:

تفانوا هناك فلا مُخبِرٌ ... وبادوا جميعًا وباد الخبر
تروحُ وتغدو بناتُ الثَّرى ... فتبلى محاسنُ تلك الصُّورْ
فيا سائلي عن أناسٍ مضوا ... أما لك فيما ترى مُعتبَرْ

قال أحمد بن حرب: لو وصل أهلُ القبور إلى ما وصلنا لم يدخل النار منهم أحدٌ، لو قيل لهم: امحوا من ذنوبكم ما شئتم وزيدوا في حسناتكم ما شئتم لمحوا ذنوبهم وزادوا في حسناتهم أضعافها، وقد أُعطينا نحن ذلك، وما نغتنمه يستطيع الرجلُ أن يهدم خطايا سبعين سنة في ساعة واحدة!

قال علي بن أبي طالب ﷺ: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل، ويقول في الدنيا قولَ الزاهدين، ويعمل فيها عمل الطالبين، يكرهُ الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموتَ له، إن سقم ظلَّ نادمًا، وإن صحّ قام لاهيًا، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، واللَّه أعلم.

* * *
* *
*

المجلس الرابع

أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع، من أحبَّ نفسه اجتنب الآثام، السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه، والشقيُّ من جمع لغيره وبخل على نفسه، أنفاسُ الحي خُطاه إلى أجله، الدهرُ سريعُ الوثبة شنيعُ العثرة، أهلُ الدنيا ركبٌ يُسار بهم وهم نيام، الفرصةُ سريعة الفَوْت بعيدة العَوْد، معاشرة ذوي الألباب عمارةُ القلوب، من عرف تصرُّف الأيام لم يُغفل الاستعداد، المنيةُ تضحك من الأمنية، من لم يتفكر في نفسه وما المراد به ومنه وإلى أين يُذهب به فقد حرم معنى الإنسانية، ومنْ لم ينتهب زمانَ السلامة فما عرف الدهر، أبدانُ أهل الدنيا تعبةٌ في طلبها كلما حصل غرضٌ ملُّوه وطلبوا غيره، فتذهب في الطلب أعمارهم وتُنهكُ فيه أبدانهم وأموالهم، وما وقع لهم غرضٌ يصفو ويبقى، فما يزالون كذلك حتى يستلبهم الموتُ على قبح الخطايا فيستقبلون العذاب.

اللَّهم فهِّمنا الكتاب وأجْرِ نطقنا به في الصواب، برحمتك يا عزيز يا وهاب، برحمتك يا أرحم الراحمين، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

* * *

في آخر نسخة أ:

تم كتاب التبصرة في الوعظ لابن الجوزي رحمه اللَّه تعالى ونفع المسلمين بعلومه آمين، وكان الفراغ من تعليقه يوم الأحد المبارك التاسع من شهر صفر سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف من الهجرة النبوية. تم.

وفي آخر نسخة ظ:

آخر كتاب تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي للحافظ عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي المتوفَّى سنة خمسمائة وسبعة وتسعين كما في طبقات الحنابلة، والحمد للَّه دائمًا، اللَّهم يا كريم يا وهاب أجرنا من الخزي والعذاب، وهبْ لنا جزيل الأجر والثواب، ويسر علينا بين يديك الحساب، واحشرنا مع النبي الكريم والآل والأصحاب، وأدخلنا معهم جنة المآب، إنك على كل شيء قدير يا نعم المولى ونعم النصير. والحمد للَّه رب العالمين.

* * *

فهرس محتويات الجزء الثاني

الطبقة الرابعة
تشتمل على فضائل العلم والمعاملات

* * *

السيرة الذاتية للمحقق

أ. د. مصطفى عبد الواحد.

- تخرج من قسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م).
- نال درجة الماجستير بتقدير ممتاز في الأدب والنقد عام (١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م).
- نال درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى في الأدب والنقد عام (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م).
- عمل رئيسًا للتحرير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ما بين عامي (١٣٨٩ - ١٣٩١هـ / ١٩٦٩ - ١٩٧١م).
- عمل أستاذًا مساعدًا للأدب والنقد بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة عام (١٣٩١ / ١٩٧١م).
- رقي إلى درجة أستاذ مشارك بالجامعة نفسها عام (١٣٩٦هـ).
- عين عضوًا في هيئة التدريس بالجامعة نفسها عام (١٣٩٨هـ).
- رقي إلى درجة أستاذ بجامعة أم القرى عام (١٤٠٦هـ).
- أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه بالجامعة نفسها.
- عين مديرًا لمركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ما بين سنة (١٤٠٧ - ١٤١١هـ) وبعمل مدير مركز اللغة العربية وآدابها.
- شارك في وضع مناهج قسم اللغة العربية ومناهج قسم الدراسات العليا العربية.
- عين عضوًا بمجلس كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز ممثلًا لقسم اللغة العربية عام (١٣٩٢م).
- شارك في مؤتمرات دولية ومحلية.
- عين عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف عام (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م).

* * *
* *
*

رقم الإيداع

١٨٢٠ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 214 - 004 - 6

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « **التبصرة** » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب:**..................

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ e-mail :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة :................ العنوان :........................

- ما رأيك في عملنا في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

هذا الكتاب

أجمعُ كتابٍ في علم الوعظ، كتبه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي؛ ردًّا على ما كان يُذيعه بعض الغلاة من تخويف وترويع وحضٍّ على نبذ الدنيا وترك العمل لها.

وقد رتَّبه المصنف على طبقات، ولكل طبقة فصول وأبواب.. وجمع فيه ما يتصل بعقيدة التوحيد وأركان الإسلام، وأخلاقه، وآدابه، وتنظيمه للعلاقات.. والأهم من ذلك أنه استخرج مادة الكتاب من القرآن والسنة الصحيحة في أغلب الكتاب..

كما ضمَّن هذا الكتاب الحافل روائع من الشعر الإسلامي المعبر عن رؤية الحياة من منظار الإسلام.. ولم يكن هذا الشعر في معظمه ضعيفًا ولا ركيكًا.. ولكنه شعر قويٌّ في صياغته، جميلٌ في صُوَرِه.. وهذا الشعر بحاجة إلى من يفرده بالدراسة النقدية؛ ليكشف عن حقيقة الأدب الإسلامي وجوهره..

إنه كتاب يثقِّف العقول، ويوقظ الهمَّة، ويجدِّد العهد بين المسلم ودينه القويم..

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-214-004-6

9 789772 140046